

إخلاص الإمام بديع الزمان النورسي ودعوة القرآن الكريم

أ. د. عابد توفيق الهاشمي^P

مقدمة:

ما أبرك الوفاء وأكرمه! انه لبّ الحياة ونورها، لقد تسلمت بطاقة معايدة واستضافة للمؤتمر، وإسهام فيه ببحث، من قبل تلميذي الوفي الذي فارقته قرابة نصف قرن - مدير مركز بحوث رسائل النور - الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، منذ عام 1950 أولى سنوات تدريسي! كما تسلمت من أخي الفاضل الأمين العام للمؤتمر. أ.د. فارس قايا، دعوة بإسهامي فيه. فشكر الله لهما هذه الدعوة الكريمة، داعياً أن يكون لبخني المتواضع تعريف بأبرز صفة من صفات إمامنا الصالح (بديع الزمان النورسي) - رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته، وتولّى دعوته وجماعته بحفظه - اللهم آمين.

لقد فتّ بعضدي ندرّة المصادر عن إمامنا، وأنا في اليمن للسنة السابعة بعيداً عن العراق حيث المصادر، فإذا ببركات تلميذنا البار تسعفني بالمكتوبات واللمعات، وببديع الزمان النورسي - فكره ودعوته، فاشتد ساعدي أن أكتب البحث، وعقدت العزم على ذلك، فإذا بي إزاء بحرٍ خضم لا يشقّ غباره، تتلاطم أمواجه الدفافة في عشرات من الموضوعات التي فاضت بما دعوته.

وبعد أن استعرضت المصادر الثلاثة بشغف واستقصاء، وقفت على أفضل مجال في دعوته، وهي (ربطها بالإخلاص في القرآن)، إذ هو الخيمة التي تغطي سائر حياته، وتفيض منها ينابيع الحكمة، لتكون نبراساً للدعاة، المتطلعين إلى الوسائل الرصينة المثمرة في بناء المسلم اليوم - فرداً وجماعات، وأمة.

غير أني حين خضت غمار النقاط الأساس في شعاب إخلاصه، وجدته مقصراً في حق إخلاصه النادر أن أوفيه حقه فيه، فانتقيت بعضها في هذا البحث، وأرجأت الكثير، إلى كتاب اعتزمت إصداره قريباً إن شاء الله، تحت عنوان (إخلاص الإمام الداعية - بديع الزمان النورسي)، لعليّ أوفيه بعض إحسانه في شرح صدور الدعوة إلى الله في نهجه القويم.

الفصل الأول

^P من مواليد سنة 1930م في الموصل - العراق. حصل على الماجستير من أمريكا في التربية وطرق التدريس، والسدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالسودان في العقيدة والأديان. تولى مناصب إدارية عديدة منها عمادة كلية الدراسات الإسلامية ببغداد. وحالياً أستاذ في كلية التربية جامعة صنعاء - اليمن. بلغت كتبه المنشورة (45) كتاباً في المجال الإسلامي والتربوي.

الإسلام إخلاص

توطئة:

لا إسلام بلا إخلاص! ألا فليفهم المسلم هذه الحكمة المستقاة من الخالق الهادي، ذلك أن الله تعالى حصر أوامره لعباده بإخلاصهم في طاعته في كل أمر من أمور الحياة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، حنفاء...¹)، فان وُجد الإخلاص وُجد الإسلام، وان فُقد رحل! والإخلاص هو إتقان كل ما يصدر عن المسلم من نية أو فكر أو إرادة أو سلوك، أو قول أو كتابة أو أي جهد في أي عمل دنيوي... واستشعار رِقابته عز وجل في كل ذلك!

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل:

خلوت، ولكن قل: على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما تُخفى عليه يغيب!

ولو اقتضت الحياة على الدنيا فحسب لهان الأمر، ولكن الحساب ينتظرنا في ذرات الإخلاص وركائزه! (إن إلينا إيمانهم، ثم ان علينا حسابهم)²، (فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)³.

ولو أننا إذا متنا تُركنا

لكان الموت أهونَ كل شيء!

ولكننا إذا متنا بُعثنا

ونسأل بعده عن كل شيء!

وان سرّ نكبة المسلمين نسيانهم الإخلاص في تعاملهم مع ربهم ومع نبيهم ومع إخوانهم والناس أجمعين، ونسيانهم الإخلاص في أعمالهم الدنيوية من زراعة وتجارة وصناعة ومهارات يدوية... نسوا الله في سلوكهم، فساهم رب العالمين: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون)⁴، ومن نساها الله عاش أضل من الدواب! لا دين ولا دنيا له، كما انتهينا!

ودين محمد قد أهملوه

فعاشوا في الخلائق مهملينا!⁵

وما على المسلم في التماس إخلاصه والثبات عليه إلا أن يزيح التراب عن هدي محمد ﷺ ويصغي بأذنيه وقلبه، ويعلن للدنيا قاطبة ان لا أسوة إلا به:

يا هذه الدنيا أصحح وأشهدى

أننا بغير محمد لا نقفدي!

قرآن ربك يا محمد عزنا

ونظامنا الداعي لعيش أرغد⁶

1 سورة البينة- الآية 51.

2 سورة الغاشية- الآية 26.

3 سورة الحجر- الآية 92- 94.

4 سورة الحشر- الآية 19.

5 محمد اقبال.

وعلى المسلم أن يهتف ضميره أبداً برسالة الهادي (عليه أفضل الصلاة والسلام):
في ضميري دائماً صوتُ النبي،
أمراً: جاهداً وكابداً واتعب
صائحاً: غالباً وطالباً وادأب
صارحاً: كن أبداً حُرّاً أبي
كن سواً: ما اختفى وما علين
كن قوياً: بالضمير والبدن
كن عزيزاً: بالعشير والوطن
كن عظيماً: في الشعوب والزمن⁷

المسلم الذي في ضميره هتاف قائده ومربيه 8: (من استوى يومه فهو مغبون)؟! 8! الإخلاص رائده، والوقت حركته، يسابق فيه الريح بسرعته وإنتاجه، إذ في قلبه ساعة دقاقة، تذكره بأجله، وبرسالته، ليجمع مع الإتقان الطاقة الكامنة والسرعة الفائقة، لئلا يفوته الركب:

دقات قلب الماء قاتلة له:
ان الحياة دقائق وثوان
فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها

فالذكر للإنسان عمرٌ ثانٍ

وهو القِيم على البشرية وقائد ركيبها في الدنيا، ومسؤول عن قوامته يوم الحساب: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً)!!
(لأن يهدي الله على يدك امرأ خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) 10.
أولاً: الإخلاص نبع الإسلام.

ليس كالإسلام نظام يقيم الحياة، ويرسيها على بناء محكم رصين، لا تصدّع فيه ولا اضطراب: (وبالحق أنزلناه، وبالحق نزل) 11، ولا وزن لهدى البشر إزاءه مهما كان عطاؤه نوعاً، وكماً (وإن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) 12، ومن الإنسان إزاء خالقه؟! (أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون)؟! 13 لذا كان هديه تعالى هو الوحي الذي يهتدي به المسلم: (قل: إن هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين) 14. والصدّ عن هديه عز وجل هو المنطق الجاهلي: (أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)؟ 15 فإما حكم الله وإما حكم الجاهلية بنوعيهما - القديمة والحديثة! ولا توسط

6 وليد الأعظمي - الشاعر المجاهد العراقي.

7 مصطفى صادق الرفاعي.

8 حديث نبوي - (الدرر - والكشف - والأسرار).

9 سورة البقرة - الآية 143.

10 متفق عليه، وفي رواية: (من الدنيا وما فيها) ورواية أخرى: (من حمر النعم).

11 سورة الإسراء - الآية 105.

12 رواه الترمذي والبيهقي في الشعب.

13 سورة النحل - الآية 17.

14 سورة الأنعام - الآية 71.

15 سورة المائدة - الآية 50.

بينهما. والإسلام نظام شامل للحياتين الدنيا والأخرى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)¹⁶.

أما الإخلاص فهو إتقان كل ما يتناوله المسلم، في واقع حياته، وهو وصية الله تعالى لرسوله الحكيم، بل هو مطلعها: (أوصاني ربي بتسع- أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السرّ والعلانية، والعدل في الرضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً)¹⁷، بل إن الوصايا الثمانية بعد الإخلاص، إذا حللناها وجدناها إخلاصاً محضاً.

والإخلاص إتقان- يتجاوب مع القيم الإسلامية: الصدق، والأمانة، والوفاء، والإيثارة، والتضحية، والحب النقي، والتماسك، والتعاون، والرحمة، والإخاء، والعدل، والكسب الحلال، والإنفاق في الحلال، والاقتصاد والزهد، والورع، والكرم، والشجاعة في الحق، والحين في الباطل، والتواضع... كلها بناء رصين للفرد والمجتمع، بسبب الإخلاص، وجميعها أكد عليها الإمام الورع بديع الزمان، بقلمه ولسانه وواقع حياته.

ونقيضه الغدر والخيانة (المكر والخديعة والخيانة في النار)¹⁸، والكذب والأنانية والهوى والمصلحة والحسد والغيبة والنميمة والظلم والبغض وتمزيق الصف والوشاية والإسراف والبخل والحين في قول الحق، والتهور والكبر كلها هدم وتدمير للفرد والمجتمع بسبب نبذ الإخلاص، وجميعها حذر منها إمامنا الصالح !

لذا فإن المصطفى ع امتدح المخلصين حيث قال: (طوبى للمخلصين أولئك مصاييح الهدى، تنجلي عندهم كل فتنة ظلماء)¹⁹، وحذر ع من نقيض الإخلاص وهو كثير، ومنه الكبر والحرص والحسد والزنى: (وإياكم والكبر، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم.

وإياكم والحرص، فإن آدم حمله الحرص على أن يأكل من الشجرة.

وإياكم والحسد، فإن بني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً.

فهنَّ أصل كل خطيئة.

وإياكم والزنى، فإن فيه أربع خصال: يذهب البهاء عن الوجه، ويقطع الرزق، ويسخط

الرحمن، ويوجب الخلود في النار)²⁰.

ثانياً: مكانة الإخلاص عند الله Y:

1: الإخلاص جوهر العبادة:

حين استقصاها لكلمة (الإخلاص) في كتاب الله الحكيم، نجدتها مرتبطة بالعبادة وهي طاعة الله في

كل أمر، والإعراض عن طاعة ما سواه: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة)²¹.

16 سورة النحل - الآية 89.

17 أخرجه رزين.

18 رواه أبو داوود.

19 أخرجه أبو نعيم.

20 أخرجه الطبراني - عن ابن عباس.

21 سورة البينة - الآية 5.

فالدين القيم هو الإخلاص في عبادة الله، وصدق الالتزام بدينه - بنظامه الحيوي - مع الإعراض عن هدي غيره، وإن هذا الدين القويم هو أمر الله لجميع البشر على لسان الأنبياء، تأكيداً منه عز وجل على أن الدين القيم نبعه الإخلاص وجوهه.

ولقد تكرر ارتباط الإخلاص بطاعة الله لدينه في كثير من نصوص القرآن الكريم²² وربط القرآن الكريم، أعمالنا بالإخلاص له عز وجل: (... ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون)²³. بل إن حياتنا كلها موقوفة على الإخلاص لله: (قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين)²⁴.

مقام المخلصين عند الله تعالى:

إن من ثمار الإخلاص أن لا يزيغ صاحبه عنه، فلن يقدر الشيطان أن يغويه لصلابته في الحق الصادر من الله: (الحق من ربك، فلا تكوننّ من الممترين)²⁵، (فماذا بعد الحق إلا الضلال)²⁶! لذا فإن الرحمن يعصم المخلصين من إغواء الشيطان، بل هو وعد من الشيطان للرحمن ألا يغوي المخلصين: (قال: فبعزتك لأغويهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)²⁷، والمخلصون أعزّ من المخلصين، إذ الله تعالى أخلصهم له: (واذكر في الكتاب موسى، إنه كان مخلصاً، وكان رسولاً نبياً)²⁸. فالإخلاص ضمان لإبعاد صاحبه عن إغواء الشيطان، وعن الإسفاف في السوء: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، وإنه من عبادنا المخلصين)²⁹.

والله عز وجل يُثبّت المخلصين على طاعته، كما يحول دون انحرافهم عنه: (يُثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء)³⁰. والمخلص لله في طاعته، معرض للذنب، إذ هو بشر: (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)³¹، ويشهد القرآن الكريم بأن وساوس الشيطان تصيبه، ولكن لا يستجيب لها: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، فإذا هم مبصرون)³². والإخلاص درع وقائي للعفو والمغفرة من الله عز وجل:

كل الذنوب، فإن الله يغفرها
إن شيع المراء إخلاص وإيمان
وكل كسر فإن الله يجبره

22 ومنها: (ألا الله الدين الخالص) الزمر/3

• (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، فأعبد الله مخلصاً له الدين) الزمر/2

• (قل: إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) الزمر/11

• (قل: الله أعبد مخلصاً له ديني) الزمر/4

• (فادعوا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون) غافر/14.

23 سورة البقرة - الآية 139.

24 سورة الأنعام - الآية 163

25 سورة آل عمران - الآية 60.

26 سورة يونس - الآية 32.

27 سورة ص - الآية 83.

28 سورة مريم - الآية 51.

29 سورة يوسف - الآية 24

30 سورة إبراهيم - الآية 27

31 حديث صحيح.

32 سورة الأعراف - الآية 201

وما لكسر قنائة الدين حيران³³

أما مقام المخلص عند ربه، فيتجاوب مع مكانة ربه عز وجل في قلبه. سئل المصطفى ع: يا رسول الله ما مقامي عند ربي؟ سؤال خطير، يتساءله كل مسلم، ليعرف الجواب. فأجابه ع جواباً أدق من سؤاله، جواباً يشفي الغليل. قال ع: (مقامك عند ربك كمقام ربك في قلبك).

ثالثاً... مكانة الإخلاص في قلب المسلم

باتخاذ الله تعالى غاية في الحياة - غاية لنا في النوايا، فلا ننوي إلا بما يرضيه عز وجل، وغاية لنا في الإرادة والتصميم، فلا نعقد العزيمة إلا بما يرضيه سبحانه وتعالى، وغاية لنا في القول: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)³⁴.
وغاية لنا فيما نكتب:

وما من كاتب إلا يستبقى

كتابتُ به ، وإن فُتيتُ يده

فلا تكتب بكفك غير شمه

يسررك في القيامة أن تراه

وغاية لنا فيما نعمل: (فمن كان يرجو لقاء ربه، فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)³⁵، قالها المصطفى ع لأحدهم حين سأله: يا رسول الله إني أقف الموقف، أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يردّ عليه رسول الله ع حتى نزلت هذه الآية الكريمة.
فلا ينحرف المخلص عن الله غاية في نواياه وسلوكه، إلى الشهرة.. إذ (أن أدنى الرياء شرك)³⁶.

ومن خلال استقصاء عنصر الإخلاص في سلوك المسلم، أنه الملاذ الوحيد من سخط الله سبحانه وتعالى، فإن انحرف المسلم عنه كان أول من يحق عليه انتقام الله وعقابه في الآخرة بأن تسجر به النار: (ان أول من يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرّفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار).

ورجل تعلم العلم وعلمه القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليُقال: عالم وقرأت القرآن ليُقال: قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار.

ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار)³⁷.

33 أبو الفتح البستي.

34 سورة ق - الآية 18.

35 سورة الكهف - الآية 110.

36 متفق عليه.

37 رواه مسلم والترمذي والنسائي.

هذه أربعة أصناف يظنها الناس من الزوايا الظاهرية: شهيداً وعالمًا ومقرئًا، ومنفقا في سائر مجالات الخير، ويتمنون أن يرقوا إلى منزلتهم، غير أن انحرافهم عن الله إلى حب الشهرة لأنفسهم، جعلهم أوائل من يقذفون في النار.

الإخلاص هو التجرد لذات الله وحده: (ففرّوا إلى الله، إني لكم منه نذير مبين).³⁸ سأل أبو بكر الصديق T: ما تقولون في قوله تعالى: (إن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا)³⁹ قالوا: لم يذنبوا. قال T: (لا... استقاموا، فلم يلتفتوا إلى اله غيره)، إذ أن مفهوم الاستقامة عند الصديق الورع المخلص أن يثبت المسلم ببصيرته إلى الله في سلوكه وفي نواياه، لا يزيغ به عنه، فإن زاغ إلى غيره بخطأ فقد أشرك! هذا هو الورع ونقاء الإخلاص لربه، ومن وصايا فقيه المدينة المنورة العالم الورع (أبو حازم) في إخلاص الطاعة لله عز وجل قوله: (شيثان إذا عملت بما أصبت بما خير الدنيا والآخرة: تحمل ما تكره إذا احبه الله، وتكره ما تحب إذا كرهه الله عز وجل). وبهذا النهج من السلوك يكون الله تعالى غاية لنا في كل ما نحب ونكره، بل هو مصداق الإيمان: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما حثّ به).⁴⁰

فلا خيار لنا إزاء ما اختار لنا الله عز وجل من حياة: (وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة).⁴¹

بل علينا الاستسلام الكامل في طاعة الله إذ ان هديه هو الهدى الوحيد الحق: (قل ان هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين)⁴². نسلم تسليماً لا تعقيب عليه ولا اعتراض، وإنما هو الخضوع المطلق، والأطمئنان الكامل إلى نهجه المستقيم: (والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب)⁴³، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً).⁴⁴

والإخلاص هو الشعور بالتقصير إزاء شكر الله: (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم برهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة، أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون)⁴⁵. سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) رسول الله E عن معنى الآية (والذين يؤتون...)، فقالت: (الرجل يسرق ويزني ويخاف الله؟) قال E: (بل الرجل يصلي ويصوم ويتصدق، ثم يخاف ألا يتقبل منه). تلك أربع صفات أصيلة للمؤمن الذي يسارع في الخيرات ويسابق إليها، إذ هو البناء للحياة الكريمة:

أولها: خشية الله، والإشفاق منها، وتلك الدافع السلوكي للمسلم في كل نية وإرادة وعمل وقول والتزام واستقامة ودعوة وجهاد.

38 سورة الذاريات - الآية

39 سورة فصلت - الآية 30.

40 حديث صحيح.

41 سورة القصص - الآية 68.

42 سورة البقرة - الآية 120.

43 سورة الأحزاب - الآية 36.

44 سورة الأحزاب - الآية 36.

45 سورة المؤمنون - الآية 57 والقلوب الوحلة هي الخائفة ألا تقبل أعمالها.

وثانيها: الإيمان بآيات الله - أي التسليم المطلق والطاعة لنظامه الذي شمل الحياة بآفاقها بعد فهمه وإجلاله والالتزام به.

وثالثها: عدم الشرك بالله، إذ هو غاية في سلوك المسلم، لا ينحرف عنها، والأ وقع في الشرك - نعوذ بالله منه.

ورابعها: اتهام النفس بالتقصير في سلوكه، إزاء عظم الثلاثة السابقين - الدافع السلوكي خشية الله، والخضوع لنظام الله في سائر شؤون حياته، والغاية الوحيدة في حياته (الله خالقه وهاديه) لا ينحرف عنه حتى يغرغر!!

فالمسلم مهما يرقى في عمل الخير يجد نفسه مقصراً، فيسابق غيره، كما يسابق نفسه ويسارع إليه، كي يرضى عنه ربه عز وجل: (ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم)⁴⁶.

والإخلاص هو الثقة التامة بالله من غير خوف من غيره إذ هو يكفينا: (أليس الله بكاف عبده)⁴⁷، لذا قال أحدهم: (لو انفضّ الناس جميعاً من حولي، واهتزّت مني شعرة، فقد كفرتُ بالله!) وهذا الشعور يجمل بالمسلم أن يستحوذ عليه تمام الاستحواذ! ليتعلق قلبه بالله صدقاً ويقيناً:

سجدة للإله تنجيّك يا انا

لسانُ من ألف سجدة للعييد!

ومن حق المسلم المخلص أن يضع نصب عيني قلبه الله، فالله عز وجل ملء سمعه وملء بصيرته، ومن سواه لا وزن له إلا بقدر تجاوبه معه تعالى بإخلاص:

ألا كابر شيء - ما خلا الله - باطلاً -

وكل نعيم - لا محالة - زائل⁴⁸

فلا سَهَر إلا له عز وجل، ولا خضوع ولا انقياد إلا له:

سَهَرَ العيون لغير وجهك ضائع

وبكأوهن لغير فخذك باطلاً!

وما الناس، بل ما الوجود كله إزاء رضوان الله والإخلاص له وحده؟!!

الله قاهر، وذو الوجود وما حوى

إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكمل - دون الله - إن حقيقة

عدم، على التفصيل والإجمال

والالتجاء إلى الله بصدق، مع التماس الأسباب - من غير ذلة: (التمسوا الحاجات بالعزة، فإن الأمور مقدرات)⁴⁹، هذا الالتجاء بصدق يمنح المسلم ما يطلبه منه، وعدا من الله عز وجل: (والذين

اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم)⁵⁰، والهداية والتقوى أفضل منحة منه عز وجل، وهو يفيض علينا بكل ما ندعوه: (وقال ربكم ادعوني، استجب لكم)⁵¹.

46 سورة التوبة - الآية 71.

47 سورة الزمر - للآية 36.

48 لبيد، قال فيه المصطفى ع: خير كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، أصاب في صدره وأخطأ في عجزه، إذ أن نعيم الجنة خالد.

49 حديث نبوي

50 سورة محمد - الآية 17

51 سورة غافر - الآية 60

وإذا طلبت من الحوائج حاجة
فإدعُ الإله، واحسن الأعمالا
فليعطيك ما أراد بقدرته
فهو اللطيف لما أراد فعلا
ودع العباد وشأنهم وأمورهم
بيد الإله يقلب الأسباب⁵²
فلا تحمل أيها المسلم بإخلاصك هم الناس، وثق بربك يغنيك عنهم، ويعزك:
(أعز أمر الله يعزك الله)⁵³

وما أسعدك أيها المسلم المخلص لربك، بهذا الصفاء والنقاء في تعاملك مع ربك!
وحق لك أن تتوكل عليه في حلك وترحالك، وفي هدايتك وجولتك، وفي كل حال تكون فيه:
(وما لنا ألا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل
المتوكلون)⁵⁴.

الفصل الثاني

إخلاص بديع الزمان في عهديه

توطئة:

الإخلاص سرّ بين المخلص وربّه، ولا يعلم المخلصين إلا خالقهم، إذ هو عز وجل وحده عالم القلوب! (والله يعلم ما في قلوبكم، وكان الله عليما حلّيما)⁵⁵.
غير أني استقرئ إخلاصه من خلال حياته، وواقعه منذ طفولته حتى وفاته، ولا أذكىه على الله.
عاش في دعوته ثلاثة أرباع القرن - ثلث القرن الأول في شبابه وكهولته، هو سعيد القديم!
والثلث الآخر مع إضافة بضع سنين قبيل وفاته - هو سعيد الجديد!
أما سعيد القديم فهو ذكاء وقاد، وعلم نادر، وخطيب مصق، ومفسر للقرآن، ومؤلف جليل
ومجاهد شجاع، بل قائد المجاهدين، وأسير في جهاده، وداعية على كل أحواله، وسياسي محنك، وليس
في سلوكه غبار على إخلاصه، كما أقومّه، وكما قومه الباحثون، بل هو مثار اعجاب الجميع، ولكنه
رأى أن وسيلته في الدعوة خاطئة، لم تثمر شيئا! ثلث قرن في مجال البناء، وإنما هي جهود ضخمة لا
بناء فيها، وهو يرى إضافة إلى هذا الإفلاس في دعوته الخاطئة أنه تعبّر بحب المظاهر - من تكريم
واعجاب الكثيرين، فاعتبر هذا ذنباً، وجريمة بحق نفسه وبحق الاسلام! ويفسر الحن التي لاقاها عقاباً
ربانياً له.

أما سعيد الجديد، فهو كما كان من صفاته في القديم، باستثناء السياسة التي هجرها، لم يربح منها
في اصلاح الأمة بشيء، وباستثناء الدنيا التي استدرها واتجه بجميع طاقاته للآخرة، يدعو اخوانه إليها

52 أبو الأسود الدؤلي

53 رواه الديلمي

54 سرورة ابراهيم - الآية 12.

55 سورة الاحزاب - الآية 51.

من غير راحة ولا هدأة، فبني جيل الآخرة الذي هو عدته للقاء ربه في الثواب، وعدته ضد أعدائه، بأن غيّر من اتجاه الشعب إلى الإيمان التقى والإخلاص في القول والعمل، ولم يتدخل في شؤون دنيا خصومه، ولا في سياستهم وإنما كان شعاره قوله تعالى: (ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب) ⁵⁶ ولعل دعوته في الإصلاح هي الوحيدة في عمر التاريخ في أنها دعوة رسائل مكتوبة باليد، يخدمها الاحاد، ثم العشرات المخلصون، ثم انتشرت كالنار في الهيشم، ولكن حيل بينه وبين إخوانه المسلمين، في سجون ومناف واقامات جبرية ومراقبات تحصي عليه أنفاسه! ومحاکمات بلغت (2500) محاكمة، خرج منها بريئاً! من قبل السلطة الحاكمة وزبانتها، حتى لقي ربه!

ولقد كان سعيد الجديد - رحمه الله - امتداداً لجيل الصحابة، المتمثلة دعوته بنصيحة أبي الدرداء - رضي الله عنه - إذ يقول: (ثلاث من ملاك أمر ابن آدم: لا تشك مصيبتك، ولا تحدّث بوجعك، ولا ترك نفسك بلسانك) ⁵⁷ وهكذا كان! ونصيحته كذلك: (لا اسلام الا بطاعة، ولا خير الا في جماعة، والنصح لله وللخليفة وللمؤمنين عامة) ⁵⁸، وهكذا كان في دعوته، رحمه الله وأسكنه في عليين: (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا،...) ⁵⁹، (في جنات وممر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر) ⁶⁰

رحم الله امامنا الصالح النورسي، إذ كان يحبّ النور، ويستشعر به محاطاً بمالته! والنور للمؤمن - من نور القرآن وهديه، والظلمة للكافر - باعراضه وصدّه: (وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء والأموات، ان الله يُسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور. ان أنت الا نذير) ⁶¹

يقول الصحابي الجليل (أبي بن كعب) خادم القرآن الكريم: (المؤمن بين أربع: إن ابْتُلِيَ صَبْرًا، وإن أُعْطِيَ شُكْرًا، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فهو يتقلب في خمسة من النور، وهو الذي يقول: (الله نورٌ على نور) - كلامه نور، وعلمه نور، ومدخله في نور، ومخرجه من نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة. والكافر يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة، وعلمه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه في ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة) ⁶².

ان أنواره كانت تشعّ من ظلمات سجونه ومعتقلاته وجهاده وجلاده لأعدائه، ولقد لقي من ابناء وطنه العلمانيين المنافقين العملاء من المتاعب ما لم يلقه من أعدائه الروس في معتقلاتهم!

كَم صَائِنٍ عَن قِبْلَةِ خَدِّهِ

سُئِلَتْ الأَرْضُ عَنِّي خَدِّهِ!

وَحَامِلِ ثِقَلِ الثَّرَى جِيدِهِ

وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مَن عَقْدِهِ! ⁶³

56 سورة هود - الآية 88.

57 حياة الصحابة/ج3/510.

58 حياة الصحابة/ج3/510.

59 سورة النساء- الآية 69.

60 سورة القمر- الآية 55.

61 سورة فاطر- الآية 20 - 24.

62 حياة الصحابة ج3/513.

63 المعري.

ولقد عاش في أنوار إيمانه حياته كلها، في صراع مع المآسي الموصولة ولم يجزع ولم يشك لأحد إلا لخالفه قيوم السماوات والأرض:

فإن أمرض فما مرض اصطباري

وإن أحمم فما حُممَ اعتزامي

وإن أسلم فما أسلم، ولكن

سَلِمْتُ مِنَ الحَمَامِ إِلَى الحَمَامِ⁶⁴

لقد عاش حياته للقرآن - حفظاً وتفسيراً والتزاماً ودعوةً وجهاداً، وصدق فيه حديث المصطفى ع: (مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ وَذَكَرِي عَنْ مَسْأَلِي - أَي دَعَائِي - أُعْطِيَته أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَفَضَلَ كَلَامَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضَلَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ)⁶⁵.

وهو في حلاوة الإيمان، كذلك، إضافة إلى نوره في القلب: (ثلاثة من كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ)⁶⁶. ولقد كان كذلك. ولا أزيه على الله.

لقد عاش امامنا الصالح في دعوة محمد ع جهاداً وأملاً يضيء له الطريق:

سكت الزمان، وظل صوت محمد

كالرعد يقصف في رؤى الأحلام

أملاً يحقق أجمال الأحلام

وتبراً يجيء بأعذب الانغام

سداً يصد مسارب الإحرام

نوراً يضيء على مدى الأيام

(الله أكبر) عند كل صدام.⁶⁷

لقد كانت حياته - رحمه الله - ناراً وحمماً على أعدائه، فكانوا يهابونه، ويحسبون له حساب خمسين ألف إنسان، كما هم يقولون، وكان هو بعزيمته المستمدة من هداية ربه ونصرته التي كفتها: (وكفى بربك هادياً ونصيراً)، يتحدى أعداءه وأوروبا ورائها، وكيف لا يكون بإيمانه كذلك، وهو يرى الرعاة لشعبه ذئاب!

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها

فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

لذا فقد وهب نفسه لله من خلال انقاذه شعبه ووطنه من استبدادهم وغطرستهم:

بَحِثْتُ عَنْ هَيْبَةٍ أَحْبَبْتُكَ يَا وَطَنِي

فلم أجد لك الا قلبي الدامي⁶⁸

والصراع بينه وبين أهل الدنيا - هو اسلامه الذي لا حياة الا به، فان حيل بينه وبينه حل الفناء!

64 المتنبي.

65 رواه الترمذي والبيهقي في الشعب.

66 رواه البخاري.

67 وليد الأعظمي.

68 الامام الشهيد محمد محمود الزبيري.

قالوا: أتى الليث حلاقاً يعلمه

قصّ الأظافر تحميلاً، كما ابتدعوا

يا ليث: قلها لذا الحلاق زججراً:

إن المخالب في كفى هي الشَّبَعُ

والصراع قائم ما دامت الحياة، إذ هو سنتها، ولولاه لماتت الحياة، وحل الجمود فيها، ولما تذوقنا

طعم الايمان والجهاد ولما ربجنا الجنة بصبرنا: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة! أتصبرون؟! وكان ربك بصيراً!)⁶⁹.

الامام بديع الزمان - سعيد بين عهدين

لقد عاش سعيد (القديم) و (الجديد) في حياة تموج بالشدائد والحن، وما تشكّى، ولا تشاء منها،

في حاله، بل كان يرى الحن أنواراً ساطعة تحيط به ما دام في دوامتها! وهو متفائل بها.

وكان ينادي أحاه (ملا حميد): "إني محاط بالأنوار: ان القرية التي وُلدت فيها (نورس)، واسم

والدني (نورية)، وجدّي (نوري)، والجامع الذي أبيت فيه (نورشين)، ثم تبسّم وقال: انظر إلى اللوحة

المعلقة هنا على الحائط: كُتب: (عثمان ذو النورين T)"⁷⁰.

إنها أنوار في ضرائه وسرائه! ولو لم يكن متجرداً لربه، نقياً في إخلاصه، لم يثبت ثبوت الجبال

الشّم في وجه الأعاصير! وصدق فيه حديث المصطفى ع: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير،

وليس ذلك لأحد إلا له، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً

له!)⁷¹.

فإن تكن الأيام منا تبدلت

بُنعمي وبُؤسي، والحوادث تُفعلُ

فما ليّنت منا قنائة صليبة

ولا ذللتنا للتي ليس تحمّل!

يقسّم إمامنا الصالح حياته بين عهدين، مفصول كل منهما عن الآخر بسور، وسأتي عليهما، من

خلال ما قصّ هو عن نفسه، وإنني لا أرى في القديم والجديد إلا إخلاصاً يتفجر من قلبه المضطرم

بالثورة على الواقع، إيجاباً وسلباً، ولكن السبيل تختلف فيهما.

(سعيد القديم):

أما سعيد القديم فاستمر إلى عمر (45) سنة، والجديد بعدها إلى (87) سنة!⁷²

مولده وطفولته: ولد 1293هـ - 1876م وتوفي 1960، فعاش 84 سنة⁷³ في قرية نورس

- في الانضول، نشأ في بيت ورع، هو مضرب الامثال، وعاش في بيئة تصوف نقي. والده كان

مضرب الامثال - الصوفي ميرزا، لم يذق حراماً، لاهو ولا أولاده، حتى كان إذا رجع ببقراته من

69 سورة الفرقان/ الآية 20.

70 بديع الزمان النورسي - فكرة ودعوته/147.

71 رواه مسلم

72 اللغات/347.

73 المكتوبات/ 21 (وبديع الزمان النورسي 0 فكره ودعوته - احسان قاسم الصالح/ 18 وفي (بديع الزمان النورسي - فكره ودعوته)/ 34 عاش 87 سنة - ولعلها، بحساب العام الهجري.

المرعى شدّ أفواهها، لئلا تأكل من مزارع الآخرين⁷⁴، وأمه الصالحة (نورية) لا ترضع أطفالها الا وهي على طهر ووضوء، واخوه الكبير - الملا عبد الله - هو الذي عرفه دينه وتقواه⁷⁵.
أما قرينته الصغيرة، والقرى المحيطة بها، فكان اهلها صالحين، بما فيها من كتابين ومشايخ يتميّزون بالبساطة والصدق والكرم والنبيل، رغم ضيق اليد والجهل والبؤس.
عاش امامنا في صغره في بيت إخلاص، وفي بيته إخلاص حيثما توجه في قرينته وطاف القرى المحاورة، فتمت فطرته، من خلال التربية والقُدوة.

شبابه: كان للتصوف اثره البالغ في إخلاصه طوال عمره، فاعتكف في احدى الزوايا في مدينة (تللو)، متفرغاً لقراءة القرآن الكريم وحفظه، ولدراسة علومه، والحديث الشريف وعلومه، والسيره المطهرة، والفقه وأصوله، وعلوم الاخلاق والكلام، كما تفرّغ إلى دراسة العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ولغة وأدب، وحفظ القاموس المحيط للفيروز آبادي إلى حرف السين، وأجيز من قبل الشيخ محمد جلالى، الاحازة العلمية، وهو ابن اربع عشرة سنة! بعد أن أتقن أكثر هذه العلوم، ثم درس العلوم الكونية - من فلك وفيزياء وكيمياء وأحياء وجيولوجيا، وتاريخ وجغرافيا، ورياضيات، فاستوعب الحضارة الغربية المادية اضافة إلى الغربية الحديثة، وعلوم الاغريق وفلسفتهم.
وكان للقرآن الكريم الأثر البالغ فيه: روحا وعقلا ونفسا وجهادا، وكان استاذة ومرشده.

ذهب (الملا سعيد) إلى ماردين يلقي دروسه في مسجدتها، وهو بعمر 16 سنة، فأخرج منها وسبق إلى بتليس، فأكرمه الوالي، فأقام فيها، وواصل دراسته، وحفظ 80 متناً لثمانين كتاباً، ثم انتقل إلى مدينة (وان) بعمر 18 سنة عام 1894 وكان يسمى في باكورة شبابه بـ(سعيد المشهور)، لذكائه وعلمه الجسم، وقدراته المتميزة⁷⁶، وورعه.

رشده - ولقد حمله ورعه وغيرته على إسلامه أن كان ردّ الفعل لتصريح كلابستون⁷⁷ رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل العشرين أن قدّم امامنا مشروعا إلى السلطان عبد الحميد الثاني لانشاء جامعة إسلامية في شرقي الانضول على بحيرة (وان) باسم (مدرسة الزهراء) على غراء الأزهر، لدراسة العلوم الإسلامية والكونية، ولكن حلمه لم يتحقق، مع جهوده المضنية في سبيله لعدة عقود، بل حتى وفاته، غير انه في عهد السلطان رشاد وضع الحجر الأساس لجامعته (الزهراء)، ثم اعاققت الحرب العالمية الأولى المشروع.

ولقد عارض سعيد النورسي دخول الدولة العثمانية الحرب، غير أنه حين رأى الجيوش الروسية تستبيح الانضول من جهة الشرق عام 1912، وقبيل حرب البلقان، هباً جيشاً من المتطوعين الفدائيين، وعين قائداً له⁷⁸، وخاض حرباً ضروساً دفاعاً عن (بتليس)، وجرح جرحاً بليغاً، ووقع في الاسر سنتين وأربعة أشهر، وأقصى إلى معتقلات الاسر ش. ق. روسيا، قرب سيبيريا، ولم يهدأ وهو أسير عن دعوته إلى الإسلام، كما كان يدعو يوسف الصديق U في سجنه: (يا صاحبي السجن،

74 بديع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/120.

75 المصدر السابق/120.

76 بديع الزمان النورسي - فكرة ودعوته ص34.

77 وكان تصريحه أن أعلن في مجلس العموم البريطاني أن الذي يجيّر في أمر العالم الإسلامي أمور ثلاثة: صلاة الجمعة، ويوم عرفة في الحج، وهذا القرآن، فرعه بيده، وقال: لا راحة للعالم ما دام هذا القرآن! فطفر على يديه شيخ من المجلس صليبي، فانتزع من يده القرآن، ومزقه ورماه على الأرض، وداسه بقدمه! فأجابه غلابستون - اليهودي المنتصر الحاقدا: يا غي! ما قصدت تمزيق أوراق القرآن، وانما قصدت تمزيقه في قلوب المسلمين وعقولهم!!

فبدأ التخطيط المكثف لمحاربة الاسلام بمختلف الوسائل - أهمها المناهج الدراسية ووسائل الثقافة والاعلام.

78 بديع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/148.

أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار⁷⁹؟! وكان معه في الأسر (تسعون ضابطاً)، حتى أن الضابط الروسي سمح له بحرية الصلاة والدعوة في سجنه، ثم هرب من الأسر حين انتصار الشيوعية 1917 وما صاحبها من فوزى في روسيا، ووصل استنبول باعجوبة، واستقبل من قبل الخليفة وشيخ الإسلام والقائد العام ومُنح وسام الحرب، وكلفته الدولة بتسلم وظائف فرفضها الاعضوية (دار الحكمة الإسلامية)، وكانت لكبار العلماء، فنشر فيها أغلب مؤلفاته.

وكان لأسفاره أثرٌ بالغ في ثقافته الاجتماعية، إذ تنقل بين المدن والقرى والنفي والتغريب، والتقى بالعلماء والوجهاء وعامة الناس - ورجال الحكم والادارة - السلطان عبد الحميد الثاني والسلطان رشاد، والوزراء، ومصطفى كمال، كما رحل إلى طرابلس المغرب، وبنغازي، واتصل بالشيخ السنوسي، وتعرّف إلى تنظيماته الروحية والعسكرية وزوايا الصوفية... ورحل إلى الشام بعمر 35 سنة، عام 1911، وألقى خطبة نادرة في الجامع الأموي، التف حوله علماؤها...

وبعد دخول الغزاة الانكليز والفرنسيين استنبول، الف كتابه (الخطوات الست) هاجم فيه الغزاة بشدة، وأزال فيه الشبهات المثارة على الإسلام، وأزال دواعي اليأس عند الكثيرين، وأيد حرب الاستقلال ضد الغزاة، فحكم عليه بالاعدام، ثم تراجعوا عن التنفيذ، خوفاً من ثورة المسلمين عليهم⁸⁰.

ثم انه دُعي إلى انقرة عدة مرات فرفض مغادرة استنبول المستعمرة، للجهاد فيها، ثم توجه إليها عام 1922، فاستقبل بحفاوة بالغة من قبل اركان الدولة، ثم عرض مشروعه في انشاء الجامعة الإسلامية فلقى القبول، ولكن ظروفًا سياسية حالت دون اكماله.

إلى هنا انتهت مرحلة حياة (سعيد القديم)، وعمره (45) سنة، حيث رغبته بالانزواء والاعتزال، فبينا هو على (تل يوشع) المطل على البسفور، إذ بنفحات الآخرة ونسائمها تداعب روحه، وتشوقه إلى الرحيل إليها والخلود فيها.

ذلك (سعيد القديم) الذي لُقّب بـ(بديع الزمان) - ماذا وجدنا في حياته الخمس والأربعين سنة؟!

إنها طفولة ذكية، وتعلق بالقرآن والعلوم الإسلامية والعربية.

وشباب متحرّج ورع عفيف، وعلم دفاق اسلامي وكوبي، وحماسة ملتبهة وغيره إسلامية نادرة فيه، وقائد عسكري جريء، وجهاد صلب ضد الكفر، وسجن وتشريد، وفقر وصبر، وهجر لمنع الدنيا حتى الزواج!

وكهولة ورعة - عالم وقور، وخطيب مصقع، وأسير يدعو إلى الله في سجنه ومنافيه، ومكانة مرموقة لدى جميع من قابلهم من الخلفاء والقادة المخنكين والمجاهدين الكبار، ومؤلف وداعية ومفسّر للقرآن الكريم، وطموح في انشاء الجامعة الإسلامية، وجهاد يتحدى فيه الموت، حتى حكم عليه بالاعدام، وأرادوا اغتياله بالسّم، ولكن الله سلّم.

اضف إلى ذلك عفته ونقاءه، إذ كان في شبابه وكهولته حتى الخامسة والأربعين أعزب، لا زوج له، ولا ولد، كما هو يقول عن نفسه⁸¹، وبقي أعزب حتى وفاته.

79 سورة يوسف - الآية 39.

80 المكتوبات/ 93 - 94...

81 انظر للمعات/ 345 (لم يكن لي ثمة ما يربطني بالدنيا من مال وبنين وما شاههما)، والملمات/ 386 (ليس لي ابن أفكر فيه)، والمكتوبات/ 59 (ليس لي اهل وأولاد أفكر فيهم) وعبد الفتاح أبو غدة في كتابه: العلماء العزاب/ 244.

لا يُعمر (سعيد القديم) بإخلاصه من قبل أي أحد إذ هو متدفق إخلاصاً، بل يتفجر من غير هدأة ولا ملل، إلا أن (سعيداً الجديد) - ينقد نفسه تواضعا وورعاً، كما ينقد أسلوبه الذي اختاره في دعوته في القديم.
(سعيد الجديد):

إن التغير المفاجيء في حياته، كان خلاصة عمله السياسي المضطرب بالنشاط والخصوم لأهل الباطل بذكاء نادر وجهد موصول لا يكمل، ثلاثين سنين حتى خلوته على جبل يوشع... فذهبت جهوده أدراج الرياح، كما يحدث هو عن نفسه بأسف بالغ، بل يعتبرها ذنباً، يدعو الله تعالى أن يكون لسعيد الجديد في دعوته الجديد كفارة لها.

بل يرى (أما صفعات عنيفة استمرت تهوي عليه منذ ثلاثين سنة على رأس سعيد القديم الغافل، ففكر في قضية أن (الموت حق)، ووجد نفسه غارقاً في الأوحال،...

استنجد وبحث عن طريق،... حتى هداه (فتوح القلوب) للشيخ عبد القادر الكيلاني إلى طريقه الجديد⁸²، كما هداه الامام الرباني السرهندي مجدد الالف الثاني، والملقب ببدیع الزمان كذلك، كما لقب المهدائي به في القرن الرابع الهجري، وكان كتاب السرهندي هو (الدرر المكنونات)⁸³.

وكانه أبصر بهذا النهج الجديد الذي اندفع اليه بكامل قواه أنه كان في ظلمة السياسة التي حجبت عنه حقائق الأنوار الایمانية، وكانها غريبة عنه، كما كان يشعر، فتوجه إلى الله تعالى أن يرزقه الإخلاص في النهج الجديد، اللائق للعمل الخالص لربه، وينقذه من الرياء والتذلل لاهل الدنيا⁸⁴. وأين هو من ذلك!! ولكنه التواضع لله، والالتزام للنفس، وهو سبيل الكمال.

انظر معي وتأمل في عروق الإخلاص والتواضع والزهد في اتمام نفسه: (ان شخصيتي المسوخة من سعيد القديم، وهي عروق ظلت في ميزان سعيد القديم، تبدو احياناً رغبة في الرياء وحب الجاه، وتبدو في أخلاقاً وضیعة، مع حسة في الاقتصاد، حيث أنني لست لسليل عائلة ذات جاه ونسب. فيا أيها الاخوة، لن أبوح بكثير من مساوئ هذه الشخصية، ومن أحوالها السيئة، لئلا أنفرکم عني كلياً! فيا اخوتي لست أهلاً لمقام رفيع، ولا أملك استعداداً له، فشخصيتي هذه بعيدة كل البعد عن أخلاق ووظائف الدعوة وآثار مهمة العبودية. فالنفس ادني من الكل، والوظيفة اسمي من الكل، فالف شكر وشكر لله سبحانه، الحمد لله، هذا من فضل ربي⁸⁵.

إنه الإخلاص المحرّد الموزون بمراقبة الله ومحاسبته على دقائق حياته وما فيها من عمل! إنه أدرك أن لا طائل وراء السياسة في ظرفه الذي عاشه منذ مئة سنة إلى سبعين سنة خلّت، واحتسب جميع جهوده الضخمة غفلة، لأنه لم يجن منها شيئاً من خلال السياسة، إنه يقول: (خاطبت نفسي قائلاً: اعلم أيها السعيد العامل، أنه لا يليق بك أن تربط قلبك وتعلقه بما لا يرافقتك بعد فناء هذا العالم، بل يفارقك بخراب الدنيا، فليس من العقل من شيء ربط القلب بأشياء فانية)⁸⁶. تأمل في نقده لنفسه، بميزان الإخلاص، كيف يقومها؟! ثم انه مع طاقته الهائلة في عمق الإيمان يعترف بعجزه عن تحدي الواقع المرير مواجهةً ومجالدة! (إن شخصاً عاجزاً مثلي، لا يمكنه أن يستعمل النور والمرارة

82 المكنونات/458،413.

83 المكنونات/459،458.

84 للمعات/73.

85 المكنونات/412،411.

86 للمعان/174.

معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور بما أملك من قوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة أياً كان نوعها. أما ما يقتضيه الجهاد المادي، فتلك الوظيفة ليست منأطة بنا حالياً. نعم! ان الهراوة هي لوقف تجاوز الكافر، أو المرتد عند حده، ولكن لا تملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مئة من الأيدي، ما كانت تكفي إلا للنور، فلا يد لنا تمسك بهراوة السياسة⁸⁷ إنه روح! بل هو كلام من خبر السياسة وأضاليلها وضرارة وخشية أهلها وجبروتهم وطغيانهم، فأظهر العجز الصريح لتحديدهم من خلال وسائلهم (السياسة) بالخداع والمكر!

كما اعتبر طريقه الجديد (ضرورة واضطراراً)، بسبب عدم قدرته وحده على مجالدة الطغاة، فلو تمكّن يوماً من ناصبة الموقف، فلا بأس من هراوة السياسة، مع استمرار الجهد في تبليغ هدي الله، ولكنه العجز والاضطرار - كما أوضح إمامنا بقلمه، وكان يقول: (فصولجان السياسة لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت)⁸⁸.

فهجر السياسة أمر وقي باجتهاده الصائب، في حين أنه لا يرفضها نظيفة نفية من شوائبها، ولكن بعد حين مناسب لها، من بناء ضخم للجمهور الفقير بإيمانه، وخائر العزائم بنفوسه. وفقهه في الدعوة الجديدة قائم على فقه الموازنات في الفقه الإسلامي، مثل (دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح) و (جلب أعظم المصلحتين واجب شرعاً). فالسياسة في زمانه باجتهاده لا تصلح للوصول إلى الإيمان، ولكن بناء صرح الإيمان ينتهي إلى السياسة.

لذا فقد احتط لنفسه طريقاً آخر من التحدي هادئاً، لا لأعيب للسياسة فيه، وهو طريق البناء، ليهدم بناؤه هذا في الختام بناء الطغاة! ومن له من العزائم ما يبني كيان الشعب ويصير على الشدائد التي تقطع الأكباد كل يوم رغم مسالته لهم! بسبب خلوده إلى البناء الذي سيقبل عروشهم يوماً ما على رؤسهم، وهو ما يحسب له الحساب الدقيق، وإن اعترافه بالعجز في ظروفه التي عاشها هو اعتراف ضمناً بأنه حين تمكنه وقدرته على أن يضرب بيد من حديد حين نضوج البناء، فلا يتراجع عنه، ولكنه يؤثر البناء الروحي والعقدي للشعب المسلم، ويستمر على ذلك، حتى لو كانت له مئة يد! ولولا الإخلاص الذي ينفث في روعه هذا الفهم وهذه العزيمة لما اهتدى إلى هذا الرأي السديد، ولما شق طريق الأحوال في تنفيذه: (والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم)⁸⁹.

نقطة التحول من سعيد القديم إلى الجديد:

ثم إن السياسة وما فيها من دجل وهوى وعصبيات شتى ومصالح ودنيا بما فيها من مغريات، إذا اقتحمها الدعوة غير المؤهلين إسلاماً فإنها تجتذبهم وترمي بهم في أتونها وخضم اسفافها!

حـــــــــــــــــلاوة دنــــــــــــــــياك مــــــــــــــــمومة

فما تأكل الشهد إلا بســــــــــــــــم⁹⁰

وقد ذمها شاعرنا المبارك أقذع الدم حين قال:

دنيا تــــــــــــــــداؤها العباد ذمــــــــــــــــمة

شبيبت بأكره من نقيع الخنظــــــــــــــــل

وبنات دهر لا تــــــــــــــــزال ملــــــــــــــــمة

87 للمعان/158

88 بيدع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/183.

89 سورة محمد - الآية 17.

90 إمام العلماء وأمر الحديث النبوي عبد الله المبارك ت.

فيها فجائع مثار وقم الجنادل

وهذا السبب المباشر الذي حمل إمامنا على النفور منها:
(رأيت ذات يوم رجلاً عليه سيماء العلم، يقدهح بعالم فاضل، بانحياز مغرض، حتى بلغ به الأمر إلى حد تكفيره، وذلك الخلاف بينهما حول أمور السياسة، بينما رأيته قد أثنى في الوقت نفسه، على منافق يوافقه في الرأي السياسي، فأصابتني من هذه الحادثة رعدة شديدة، واستعدت بالله مما آلت إليه السياسة وقلت: (أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!)
ومنذئذ انسجت من ميدان الحياة السياسية⁹¹. إنه الإخلاص الذي نَفَر من مكر السياسة وفسادها.

العهد مع الله: أن ينذر حياته له وحده !

(لا علاقة لي قطعاً بالسياسة الجارية في الدنيا، فلقد نذرت حياتي وحصرت وقتي كله لنشر حقائق الإيمان والقرآن، لذا فليفكر جيداً من يتعرض لي ويتخذ موقف المنافس، إنه في حكم المتعرض للإيمان في سبيل الزندقة والإلحاد)⁹².
وقد ثبت على إخلاص العهد مع ربه حتى غادر الحياة، بما تعجز الجبال الشّم أن تحمله ! غادر حياة ذميمة بأطماعها، عزيزة بإيماها ونذر النفس له عز وجل في بنائها ، وهو يخاطب اخوانه: (يا أخي إذا أحب الله عبداً جعل الدنيا تعرض عنه وتخافيه، ويريه الدنيا قبيحة بغیضة)⁹³.
كان خليفة المسلمين الصديق T يقول: (ان العبد إذا دخله العجب بشيء من زينة الدنيا، مقتته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة).

وإمامنا يهرب من الدنيا هروب الإمام الشافعي (رضي الله عنهما)، إذ يقول:

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ طَعْمَتَهَا
وَسِيْقَ الْيُنْيَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلَمَّ أَرَهَا إِلَّا غُرُوراً وَبَاطِلاً
كَمَا لَاحَ فِي ظَهْرِ الْفَلَاةِ سَرَاهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا جَيْفَةٌ مَسْتَحِيلَةٌ
عَلَيْهَا كَلَابٌ هَمَّهِمْزٌ اجْتِنَا
فَإِنْ تَجْتَنِيهَا كُنْتَ سَلَمًا لِأَهْلِهَا
وَإِنْ تَجْتَنِيهَا نَازَعْتُكَ كَلَابُهَا
فَطُوبَى لِنَفْسٍ أَوْ لَعْنَتٍ قَعَرَ دَارَهَا
مَغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ مُرْحَى حَجَابُهَا

(ولئن تحققت معاني حب الآخرة والتنضحية بالدنيا كلها، وان لا يهدر عمره فيما لا يعنيه، فإن ذلك المسلم سينقاد للأوامر الإلهية انقياد الضيف للمضيف ليفتح باب القبر بأمان،... ويدخل دار السعادة بسلام)⁹⁴، لأن الشيخوخة لا تعني بنظر المخلص في دعوته الضجر منها،... إذ هي علاقة

91 المکتوبات/364.

92 المکتوبات 89.

93 المکتوبات/360.

94 المکتوبات/89.

انتهاء واجب الحياة ووظائفها، وإشارة ارتحال إلى عالم الرحمة للخلود إلى الراحة، فلا بد من الرضا بما أشد الرضا).⁹⁵

كذلك (فإن الموت ليس فراقاً بل هو وصال وتبديل مكان وثمار لثمرة باقية)⁹⁶.
ورحم الله الشاعر المسلم الرمزي، إذ يقول: في الموت:

أنا عصفور، وهذا قفصِي
طُرتُ عنه، وبقِي مرثِنَا
أنا في الصور وهذا جسدي
كان ثوبِي وقميصِي زمنا
وأنا اليوم أناجي مالا
وأرى الله جهاراً علَنَا
لا تظننوا الموت موتاً إنه
ليس، إلا نقلَةً من هاهنا!

سعيد الجديد - تأريخ حياته الجديدة

● حلمه في التحول: بدأ حلمه في العشرين من عمره متطلعاً إلى مستقبل جديد: (سأنزوي في أخريات حياتي في مغارة، مبتعداً عن الحياة الاجتماعية - يقصد السياسة - كما كان يزوي الزهاد في الجبال).⁹⁷

ثم داعبته هذه الأخيلة مجدّ حين كان في الأسر في الحرب العالمية الأولى في مدينة (فوصترما) ش. ق. روسيا، قرب سبيريا، على نهر الفولغا، حين سكناه في مسجد صغير قديم للتتار، مع اقامة جبرية فيه، ثم سمح له أن ينام فيه، ويسكن ويؤمّ المصلين، ويعظهم، وفيهم تسعون ضابطاً، وكان يستمع إلى خطبته ووعظه الضابط الروسي، وكان عمره قريب الأربعين، غير أنه وجد نفسه بسبب الحرب والاسر والسجن كأنه في الثمانين!

انه يحدث عن نفسه فيقول: (ان الأسر والسجن والاقامة الجبرية فيه ألهمني أن سأقضي بقية عمري في الكهوف والمغارات معتزلاً الناس. كفاي تدخلاً في أمورهم، ولما كانت نهاية المطاف دخول القبر منفرداً وحيداً، فعليّ أن أختار الانفراد والعزلة من الآن، لأعود نفسي عليها)!

غير أن الرحمة الالهية حولت احلامي في العزلة في مغاير وكهوف إلى محاكمات ل(2500) دعوة، انتهت جميعها بالبراءة، وسجون ومعتقلات ونفي وتشريد منذ عمر الخمسين إلى وفاته عن عمر 87 سنة⁹⁸، كذلك فان حياته صارت عزلة، ولكنها في البناء والاجابية في الحياة.

هكذا بدأ سعيد القديم يتحول، بسبب المآسي التي انتهى اليها، وبسبب الافلاس من أية ثمرة لم يجنيها من مآسيه ومصائبه، وبسبب سأمه من الحياة الحضارية في استنبول بل نفور قلبه من الحياة البهيجة المادية فيها، وسامه من الغربة ثم تأجل قرار التحول، بسبب اقامته في استنبول ثلاث سنين، وما فيها من حياة بهجة.

95 نظر للمعات/347.

96 للمعات/391

97 للمعات/407.

98 للمعات/407، انظر بيدع الزمان النورسي - فكرة ودعوته/34 - والصواب أن المصائب لسعيد القديم بدأت وعمره (15) سنة، امتدت (30) سنة، وان مصائب سعيد الجديد بدأت بعمر (45) سنة، وامتدت (40) سنة، أي أن حياته العسرة بعهديه امتدت أكثر من (70) سنة، ما عدا بضع سنين متفرقة خلالها تنفس الصعداء!

ولكن الحلم رواده مرة ثانية، بالحاج وضراوة، أن يغيّر من خط سيره حين تأملاته على (تل يشوع) المطلّ على البسفور، فحنّ إلى الآخرة والاعتزال، كما حنّ إلى وطنه، بعد أن سئم حياة المحون والترف التي تحياها استنبول، فقررّ تغيير خط جهاده إلى ماهو أجدى للمسلمين، واوفى لله، وأسعد لمستقبل أيامه في دنياه وأخره، لاسيما بعد قراءته لكتب الشيخ عبد القادر الكيلاني والسرهندي الربانيّين.

واقع التحوّل الجديد:

لقد لاقى من الأهوال في عهده الجديد، ما يشيب لهول الولدان، وما يئن له الثقلان، في أربعين سنة، قضى أكثر من ثلاثين سنة منها ما بين نفي وتشريد وسجن، ولكنها على ثقلها كانت أشهى إلى روحه من نعيم الدنيا برمّتها ومن الماء الكوثر بسبب إخلاصه لربه، واستقامته في دعوته إليه، وبسبب الثمار التي قطفها داخل تركيا، وخارجها في العالم الإسلامي، فكانت المحن منحا، والعذاب برداً وسلاماً بل كان يراها تنبيهاً من الله عزّ وجلّ له على معاصيه وذنوبه! هكذا كان يثق بالله، إذ المحن تمحيص واختبار، وتكفير للذنوب! هكذا يدركها بقلبه امامنا الصالح T، وهو كالشافعي، حين رأى كعب امرأة عند صائغ يغفلة منه، فشرّد ذهنه بعض الوقت عن مجال العلم، فشكا امره إلى استاذة وكيع، وكان أشدّ ورعاً منه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يهدى لعاصي!

فكان شرود ذهنه لفترة محدودة خسارة، ظنها عقاباً من الله له على نظرتة العابرة!! أيّ فقه ورع هذا؟!

ومثله كمثّل ابراهيم U خليل الرحمن، حين كانت النار التي القاه فيها أعداؤه برداً وسلاماً برحمة الله: (ان الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال: أنبي من المسلمين!؟)⁹⁹

وبشارة الملائكة عن الله للمخلص، بالجنة، انما تحيل الدنيا إلى جنة، وصدق الامام الصالح ابن تيمية T إذ يقول: (من لم يذق جنة الدنيا، لم يذق جنة الآخرة)! ومن كان الله وليّه وناصره وحبّبه في الدنيا والآخرة، وقلبه يفيض ثقةً بهذا الوعد الالهي، كيف لا يكون أسعد الناس؟!

لما علمتُ بأن قلبي فارغٌ

ممن سواك، ملأته جُداً

وملأت كلّي منك، حتى لم أدع

ممن كان خالياً لسواك¹⁰⁰

99 سورة فصلت/ الآية 30.

100 الامام الشافعي T.

وصوله إلى بلده:

شدّ الرحال عام 923 إلى بلده (وان) في أقصى شرقي البلاد، وعمره (47 سنة)، فوجدها بعد رحلة الف وثلاثمئة كيلو متر أطلاقاً، وأثراً بعد عين – كما يقول المثل العامّي (الدار قفرة، والمزار بعيد)، بسبب استباحة الأرمن (من أرمينيا لها)، والتي تبعد عن حدودها الحالية اليوم حوالي 300 كم شرقاً. وكان أكثر اخوانه في الدين والجهاد قد ماتوا ابان الحرب... فأنشد:

لولا مفارقة الاحباب، ما وحّدت

لهما المنايا إلى أرواحنا سبلاً¹⁰¹

ثم انه حين وصوله اعتزل الناس في جبل (أرك)، اعتزالاً سياسياً مدة سنتين، للتأمل في الطريق الحديد الذي سيقتحمه من خلال الدعوة الفاعلة إلى كتاب الله عز وجل.

ولكنه ما لبث في أول دعوته مع اخوانه، الأ وعيون العلمانيين الحكام تلاحقه، فنفي إلى (بورديو) في ج.غ الانضول في شتاء 926.

ثم نفي وحده إلى (بارلا) عام 926، وعمره خمسون سنة، وهي قرية نائية في ج.غ الانضول، ولاقي في هذا النفي الاهوال: (وأنتم قد أجبرتموني على الإقامة ظلماً في قرية خمس سنوات، إذ معتموني من المراسلات ومن الاختلاط مع الناس، وجرّدتوني من كل شيء، واسقطتموني من الحقوق المدنية، كاني لست من أفراد هذا الوطن؟! لقد أقفلتم عليّ باب الدنيا، وأنا بدوري طرقت باب الآخرة)¹⁰².

لقد أقفلوا عليه باب الدنيا بغياهب السجون، ولو قدروا أن يمنعوا عنه الهواء، بعد أن منعوا عنه الاتصال بالناس لفعلوا!

طوى دوننا الأخبارَ سجنٌ ممَّنْغُ

له حارسٌ تهدا العيون ولا يهدا¹⁰³

قبرننا، ولم تُدفن فنحن بمعزل

من الناس، لا نُخشى فُنْغَشَى.. ولا نَعَشَى¹⁰⁴

لقد كان يساق من منفي لآخر، ويزج في حجيم السجون والمعتقلات في عديد من ولايات تركيا طوال ربع قرن!، وهو يردد بقلبه قبل لسانه أبدأً: (حسي الله ونعم الوكيل). فانقلب بنعمة الله إلى انفتاح القلوب له، وصارت تلك القرية منار النور، وكان منها الاشعاع إلى سائر مدن وقرى تركيا، كانت تنشر بكتابة اليد سرّاً، ثم باستنساخها بالرونو بعد ذلك. عن ابن عباس ع، قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، قالها إبراهيم D، حين أُلقي في النار، وقالها محمد E، حين قالوا: (ان الناس قد جمعوا لكم، فاحشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)¹⁰⁵

وتوكل على قيوم السموات والارض مجدداً العهد على الصمود في دعوته:

سأمضى،...عنيهدا، فلا انثني

واحييا كريمياً، فلا أنحنى

101 انظر للمعات/361 المتني – واللها جمع لها.

102 المكتوبات/87.

103 صالح عبد القدوس.

104 صالح عبد القدوس.

105 رواه البخاري.

وأرفع نحو السماء جبهتي،
كما ارتفعت جبهة المؤمن
أموت خميصاً! ولا أقبل الفتا
ت ممن القاتل المحسن
أأطعمُ ممن قاتل أمي

أرى السدم في كفه الممتن؟¹⁰⁶

ثم نفي إلى (أسكي شهر) ج.ق. استنبول على بعد 200 كم منها، حيث اقام في سجنها سنة وعمره 59 سنة، الثلاثة الأشهر الأولى في مركز الشرطة، منعزلاً مهاناً، مريضاً.
ثم نفي إلى مدينة (قسطموني) ق. استنبول على بعد 300 كم منها تحت الإقامة الجبرية منذ عام 936 - 943 (سبع سنين)، وعمره ستون، ومكث موقوفاً في مركز الشرطة ثلاثة أشهر، منفرداً، حتى أكره على لبس القبعة والزّي الأوروبي! وأثاروا عليه العلماء المغرورين، والمشايخ الصوفية¹⁰⁷.
غير أن العناية الإلهية أحاطت به، فصادقه الحرس، وبدأ بكتابه رسائل النور.
وساقوه إلى محافظة اسبارطة تسع سنين في الأسر¹⁰⁸، وهو مريض جداً، ووجدوا رسائل النور مخبوءة تحت اكوام الحطب، غير أن الرحمة الإلهية أسعفتها، بأن آمنوا بها، ونالت هذه المحافظة من رسائل النور كثيراً من البركات.

سجن دينزلي:

ثم انتهى به المطاف عام 943 وهو بعمر (67) سنة إلى محكمة الجزاء الكبرى في (ديزلي) على بعد 600 كم ج.ق. قسطنطيني في غرب تركيا، وما أنعم ما قاساه في سجنها وما أعز ما قدم إيماننا في محنته لخير وطنه! انه قلبه المؤمن الدامي:

بجئت عن هبة أجوك يا وطني

فلم أجد لك إلا قلبي الدامي

وهو يحدّث عن نفسه: (زحوني في ردهه كبيرة ذات عفونة ورطوبة شديدين، وبرودة قاسية، غير أن العناية الربانية حولت هذا السجن الرهيب إلى مدرسة نورية وإلى مدرسة يوسفية، فانتشرت رسائل النور بغزارة... مما حدا بوزير التربية أن يشن حرباً شرسة علينا، مما حدا ببعض أن يطالب باعدامنا، وسعوا بذلك. غير أن العناية الإلهية تولتنا بتقارير لجنة رقيقة من رئيس الوزراء الينا، وكأهم يريدون المصالحة معنا، بعد اكتشافهم ان رسائل النور قد غلبتهم وانتصرت عليهم، إذ أخذوا يستشدون بها¹¹⁰. وكانت تظهر هذه الرسائل بالمئات، مكتوبة بأقلام الصالحين نسخاً باليد!¹¹¹ ثم كانت بالآلاف بألة الرونيو. ثم دسّ الاعداء المستترون السّم في طعامي، ونقل بطل النور الشهيد (حافظ علي) على اثرها إلى المستشفى، بدلاً عني، وارتحل إلى عالم السيرخ، عوضاً عني... وأصابني أثر السم إلا أن الرحمة الإلهية تداركتني فشفيت بعد علاج صحي... بل بعد الدعاء الخالص من اخوتي الطيبين¹¹².

106 عالم اليمن وشاعرها الامام الشهيد محمد محمود الزبيري.

107 اللمعات/403.

108 ولعلها المحافظة التي فيها (مدينتنا اسكي شهر وقسطموني).

109 الامام الشهيد محمد الزبيري - عالم اليمن وشاعرها.

110 اللمعات/403،404.

111 انظر اللمعات/394.

112 اللمعات/404.

ومع كل هذه المصائب التي انتهت اليها، لم يتضعض إيمانه بربه، بل ازداد ثباتاً وتحدياً، وهو يقارب السبعين، وشعاره الذي ينبض معناه في عروقه نفخات الشاعر المجاهد العراقي وليد الاعظمي، في تحديّهِ لسجانيه حين مرّ بسجنه ما مرّ به إمامنا ﷺ وغفر له.

وصدعتُ بالحقّ المييين صراحةً

حسبي ولو أفضسى إلى إعدامي
وصرختُ في وجه الطغاة مغاضباً

كفوا عن التعذيب والايلام
والله لو قطعتم لحمي اذى

وطحنتم قبال الممات عظامي
ما زعتُ عن هدي النبي محمد

كلاماً، ولا نافقتُ للحكام
آمنتُ بالقرآن جامع شملنا

وكفرتُ بالزعماء والاصنام!

وكان سجن دنيزلي، اشراقه نور على السجناء معي، والسجانين والمدينة باسرها بل كثير من مدن الانضول، حتى ان اكثر من مئتين من المسجونين معي تابوا واستقاموا، خلال ثلاثة اشهر، حتى ان قاتلاً لاكثر من ثلاثة كان يتحاشى أن يقتل فراشة!

وكان سلوانه في العذاب ما تحمله الامام أبو حنيفة النعمان، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم من كبار الصالحين في سبيل القرآن الكريم.¹¹³

ولقد بلغ بامامنا الجرأة والتحدّي ومحض الإخلاص مدى، ندر من يرقى إليه من الدعاة في عمره المسن: خمس وسبعين سنة، أكثرها لعدة عقود سجن وتشريد ونفي وتوقيف وجهاد ومطاردة من قبل اعدائه وأعداء الإسلام. لقد عزله أعداؤه عن الناس أجمعين، إلاّ أحاداً من الخلص الأبناء، ومنهم تلاميذه في السجون، ومنهم زواره، ومنهم الهداة برسائله، فهو مع افكارهم وقلوبهم وأرواحهم، بعيداً عن اعدائه، فحقق وصية الفاروق من حيث يعلم أولاً يعلم: (اعتزل عدوك، واحذر صديقك إلاّ الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله).

اصغ معي في مرافعته الهائلة اما محكمة دنيزلي أمام القضاة - يسخر منهم ومن الموت! (ان الزنا دقة والمنافقين غروراً بكم، وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساسية، إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية ومن الردة نظاماً، ومن الجهل والسفه مذنبه، ومن الظلم قانوناً، وبذلك خانوا وطنهم، وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها)¹¹⁴.

وقال في أحد دفعه في أخريات أيامه، أمام القضاة: (الا فلتعلموا جيداً: أنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفُصل كل يوم منها واحد عن جسدي، فلن أحي هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية أمام الزندقة¹¹⁵).

113 اللمعات/405.

114 بديع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/ 149 عن سيرة أمام مجدد/57، والشعاعات ص 18، ود. محسن عبد الحميد/31.

115 بديع الزمان والنورسي - فكرته ودعوته/149 عن الشعاعات/294.

أي إخلاص هذا مع ربّ الكون أن يتحمل الامام المصابب المتلاحقة التي لم تفتأ تصاحبه، حتى في شيخوخته، وأي تحدٍ للاعدامات المفترضة أن يتصدّى لها، ولو كانت بقدر شعور رأسه!! لولا الإخلاص لانهار سعيدٌ وهو في باكورة الشباب!! لقد ترجم إسلامه بهذه العزة والتحدى:

ليس في السدين أن نقيم على الضيم
وُثِحْنِي جِباهننا للدينية
ليس في السدين أن نؤله طغيانا
ونعنو للسلطة البربرية
ليس في السدين أن نقصدس جلاّدا
ويمناه من دمانا رويّة
لعن الله كل ظلم وجور
لعنة في كتابه سرمدية
فليمت من يظلم الطاغى،
رداء الجلال والقدسية
وعبيد الأحجار أشرف ممن
يجعل السيف ربّه ونبيّه
ليس في السدين أن نكون بلا رأي
ولا عزة، ولا حريّة
ملاء أعرافنا: ابناءً ومجددًا

وطموحٌ إلى العلى، وحميّة¹¹⁶
لقد تجاوزت شخصية امامنا مع امام اليمن الشهيد محمد الزبيرى رحمه الله. إصغ إليه في شعره،
وقارنه بأقوال امامنا T:

فتأى الحياة، إذا دُنست

يعسف الطغاة، وإرهاها
ونحتقر الحادّثات الكبار
إذا اعترضتنا بألقابها
ستعلم أمتنا أننا
ركبنا الخطوب، حنانا بها
فان نحن فزنا فيا طالما
تذل الصعاب لطلابها
فان نلق حتفا، فيا حينذا
النايا تجىء لخطابها!

ثم ان امامنا الصالح رضي الله عنه يقارن بين معاملة المنافقين من المسلمين، والكفار الروس، وبينهما بعد المشرقين. فكان يمتدحهم، إذ لم يمنعه أن يلقي محاضراته الإسلامية على المسجونين معه، وأذنوا له أن يؤمّ جماعة المصلين، من غير مضايقات، كما سمحوا له بالاختلاط والاتصال والمراسلات، وأن يبني بيت في المسجد،

على نقيض اخوانه في الدين والوطن، حين كان في (بارلا) ست سنين، إذ منعه من الامامة لثلاثة من اخوانه في الآخرة، كما منعه من الاختلاط بأحد أو استقباله. وكذا في جميع السجون والمعتقلات والمنافي لمدة عشرات السنين،...

فكان المنافق أشد من الكافر وأخبت، لذا كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار لأنهم أحقر من الكافرين وأخبت وأشد خطراً، إذ هم على صلة مباشرة بالمسلمين، داخل قلوبهم، في حين أن الكافرين من خارج اسوارها، وجميعهم وقود النار: (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)¹¹⁷، ثم انه رحمه الله كان يؤول محنته في السجون بانها عقاب من الله ضده، إتماماً لنفسه بالتقصير في دعوته، وثقة بالله عزوجل وإخلاصاً له.

وماذا يقدر أن يعمل ازاء ابناء وطنه السجنائين، المنافقين العملاء!! وهم بالملايين في عالمنا العربي والإسلامي اليوم! ليس له الا دعوتهم بقدر ما يقدر، ثم التضرع إلى الله أن ينجيه منهم أو يصلحهم:

يا الله أشكك أنتنيا بمننازل

تحككم في آسادهن كلاب!!¹¹⁸

ومن حقنا أن نشد ما أنشده أحدهم:

عوى الذئب، فاستأنست بالذئب إذ

عوى، وصوت انسان فكذت أطيرو

ونستشهد بشعر الآخر:

وليس الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضاً عياناً!¹¹⁹

ثم نفي الى (أمير داغ) في وسط الانضول منذ 1944-1951 سبع سنين، وعمره 75 سنة، واسكن في غرفة تحت اقامة جبرية، وحيداً فريداً من غير سجن ولكن الرقابة الدقيقة لحركاته وسكناته كانت تتيه ان يُرَجَّع به الى سجن دنيزلي او دخول القبر، خيراً من هذه الحياة، غير ان الرحمة الالهية أحاطت به من جديد، بمحصول تلاميذه على آلة الرونيو التي ظهرت حديثاً، مما سرَّع في نشر أعداد الرسائل بمئات الالوف دفعة واحدة، ثم انتشرت بين المسؤولين اضافة إلى المؤمنين وغيرهم من الشعب وفي خارج تركيا، ولم يجدوا فيها مجالاً للنقد، بل أفروها، وأفاد منها الكثيرون، وجمعت تحت عنوان (الكلمات والمكتوبات، واللمعات، والشعاعات)، وغيرها، ولم تيسر طباعتها الا بعد 1954، وكان رحمه الله يشرف بنفسه على طباعتها.¹²⁰

وانتشر توزيعها اتساعاً، مما حمل المشاغين أن يؤلوبوا الشيوعيين وكثيراً من المسؤولين علينا، فتوقف نشاط طلاب النور، بما حصل عليهم من تضيق وتشديد بحملات عنف ضدهم.

ومن اشاعهم المغرضة ضدي:

أن أشاعوا أن حادم (سعيد) اشترى له الخمر من حانوت، ولم يوقع التقرير الا شخص غريب سكير، وتحت الضغط والتهديد، فكذبوه.

117 سورة النساء/ الآية 140.

118 أبو فراس الحمداني.

119 الامام الشافعي.

120 انظر بيدع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/24،23.

وحين اعتلال صحته أعاره شخص عربية ذات حصان، لزهة ساعة أو ساعتين بها، بأجرة 50 ليرة من كتبه، فتدخل الأمن والشرطة ودائرة العدل، والمحافظ نفسه استفسر عن الأمر بأكثر من خمسين مرة. لمن هذا الحصان، ولمن العربية؟ مما اضطر أحدهم ان يدعي ملكية الحصان، والآخر ملكية العربية، فألقي القبض عليهما، وأودعا في السجن معي، فبكينا ضاحين¹²¹. ولقد بلغ من تقصّد إهاني، في المحكمة، وأنا شيخ هرم بعمر الخامسة والسبعين ومريض وضعيف جالس على كرسي خارج باب المحكمة. أن أتاني الحاكم فجأة، وقال مغضبا مع اهانة وتحقير: لم لا ينتظر هذا واقفا؟!
وحين المحاكمة احتشد الف من الناس في الساعة المقابلة للمحكمة إشفافاً علينا، وعجزت الشرطة عن صدهم!

يا ظالماً فَرِحاً بِالْعَزِّ سَاعِدُهُ

ان كنت في سنة، فالدهر يقظان¹²²

¹²³

وكان ينتقل بين سجون المدن، ومنها سجن أفيون عام 1948
أما محاكماته في حياته فبلغت (2500) محاكمة، جميعها باءت بالثبوت، ولكنها أثقلت كاهله،
ورحم الله الشهيد البنا T إذ يقول: (أثقل شيء على المؤمن الاتهام بالباطل).
وكأن لسان حاله يقول ما قاله الشاعر المجاهد عمر بماء الاميري:

اعتصر ما شئت قلبي يا ألم

وتحكّم لي، فلن أفتح فم

حكّم المقعدور أن يرهنقني

بالعلم، صبراً وطوعاً يا حكّم

وقضى جعلى في مجتمعم

مائج ما بين ظلم وظلم

كيف أشكو بث قلبي للورى؟!
إو يدري ما الاسى قلب اصم؟

حسب قلبي أنه بيت العُلا

حسب ثغري بسمة الجلد الأشم

توفي رحمه الله في 25 رمضان/1379هـ - 23 آذار/ 1960م في (أورفة) عن عمر 84،
وبعض المصادر تشير إلى 87 سنة، وكأن لسان حاله يخاطب روحه الشرود بعد ضمّه في القبر:
أيها الروح، كيف أطفئ غليلك

حرت والله، ما الذي اصطفى لك؟!
يا جموحاً تنكب الأرض يسعمي

في السموات، لا ضللت سبيلك

وظموحاً مناه هدد كياني

أتران محياولاً تذللك؟!
لست أخشى عليك تخليف كون

قد تعجلتُ من دنياه رحيلك!
غيرَ أني مسأئلاً حين تمضي:

مَن لأهل الآلام يبقى بديلك؟!

ولم يُشف غليل العلمانيين القوميين (الطورانيين) العملاء هذا الانتقام الرهيب منه في حياته، ولم يدعوه يرتاح حتى في قبره، إذ قاموا بنقل رفات هذا العالم الجليل بالطائرة إلى جهة مجهولة، بعد أن أعلنوا منع التحوّل في مدينة (أورفة)، وملئوها بالجنود والسلاح.

لقد غادر الحياة وأهل الصلاح يضحون بالدعاء له، وينضحون الدموع دماً عليه، وملائكة السماء تستقبله، وربّ العزة والجلال يستضيفه، إذ هو ضيف الرحمن ما دامت السماوات والأرض! (وعد الله، لا يخلف الله وعده)¹²⁴

ولئن غادر الدنيا إلى الآخرة، بهذا الخوف والرعب لأعدائه منه، حتى لم يبقوا لقبه ولا لرفاته أثراً لزيارته أو التسليم عليه، فإن موته أشدّ رعباً لأعدائه العلمانيين من حياته، كما تنبأ بعمق بصيرته: (واني آمل من رحمة الله سبحانه أن موتي سيخدم الدين أكثر من حياتي، وإن رفاي سينغلق على رؤوسكم انفلاق القبلة، وسنشتت رؤوسكم وتبعثرها! إنما النعمة الإيمانية على النفاق وأهله:

قف دون رأيك في الحياة مناضلاً

ان الحياة عقيـدةٌ وجهـادٌ¹²⁵

بل ان يستعذب الموت، ولا ييأس من الفوز حتى بعد مماته:

يسـتعذبون منايـاهم كـلـاهم

لا ييأسون من الدنيا إذا قُتلوا¹²⁶

وهكذا حدث، والان بعد أربعين سنة من رحيله الى حوار ربه، نجد جماعته (جماعة النور) ملء السمع والبصر - بحفظ الله ورعايته ونصره، داخل تركيا وخارجها. وهذا من كراماته. حفظهم الله من أي سوء، وعصمهم من الانحراف عن نهج القرآن واجتهاده السليم في دعوته. اللهم آمين. ولئن تألنا من حياته المعذبة بجسده ونفسه، وفرحنا بسعادة روحه الشهود الى عليائها، فلندعُ لإمامنا الصالح والدعاة الذين ينهجون نهجه، ولنعزيهم بمصاب المصطفى في جهاده الموصول:

واذا أتتكَ مصيـبةٌ تشـجى بها

فاذكر مصابك بالرسول محمد¹²⁷

(فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين).¹²⁸

124 سورة الروم- الآية 6

125 احمد شوقي.

126 أبو تمام.

127 مروان حديد.

128 سورة الشعراء - الآية 3.

الفصل الثالث ما أفاض الله على إمامنا من ثمار الإخلاص

توطئة:

لقد أفاض الله تعالى على إمامنا الصالح من ثمار إخلاصه، السعادة التي أحالت جحيم العذاب إلى ماء سلسيل، بل إلى حنة الدنيا، يتذوق فيها إشراق حنة الخلد، قبل أن يراها. إنه يعيش للأخرة. بناؤه للدنيا من خلال معاني آخرته، هو البناء الصلب الذي جمع إليه إخوان الآخرة كما كان يناديهم، وكان أهل الدنيا من المسؤولين الطغاة الطورانيين العلمانيين، لا وزن لهم عنده، ولا ضياع من وقت معهم في السياسة الخداعة، إذ لا فائدة في الدعوة لفساة القلوب: (إن الله لا يهدي كيد الخائنين)¹²⁹، (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)¹³⁰، (ويهدي إليه من أناب)¹³¹، ولا جلوس معهم إلا للتذكير: (وإما ينسيتك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)¹³²، ولا طاعة لهم: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً)¹³³.

لقد عاش لإخوانه، من خلال الإخلاص، وكان هو وهم في عمل دوؤب، يصدق فيهم قول عبد الله بن الزبير T: (إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم: من صبر على البلاء، ورضا بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحُكْم القرآن)¹³⁴، وهكذا كانوا. ولم يزالوا على العهد إن شاء الله. وليس له من حطام الدنيا شيء، لا أهل ولا ولد ولا مال، و... فترك كل ما في الدنيا لله عز وجل، فأكرمه الله بان فتح علي يديه قلوب إخوانه، وهم بالملايين اليوم، فصدق فيه قول الصحابي الجليل أبي بن كعب T: (اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ به قاضياً وحكماً)¹³⁵، وقوله: (ما من عبد ترك شيئاً لله عز وجل إلا أبدله الله به ما هو خير منه، من حيث لا يحتسب، وما تمأون به عبد فأخذته من حيث لا يصلح إلا آتاه الله، ما هو اشد عليه منه، من حيث لا يحتسب)¹³⁶.

لقد صاغت عقيدته وإخلاصه شخصية نادرة، لا يأس فيها ولا تردد في الحق، لا يخاف من البشر في وعيدهم وتهديدهم، بل لا يخاف من الأجل، لان الذي يبني أخراه في الدنيا يفرح بترك الخراب إلى العمران وإلى الرحمن، فهو زاهد في الدنيا، بل هو مُعَدَّم، إذ يرنو ببصيرته إلى رحمة ربه، فتتهون الدنيا كلها بقلبه: (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون)¹³⁷. وإنما الذي بنى شخصيته المتميزة تطلعه إلى حبّ الله ورسوله، والفناء في طاعتها، وليس له في الوجود إلا هُما:

ومما زادني شرفاً وتيهياً

وكسدتُ بأخصصي أطماً الثرياً:

دخولي تحت قولك: يا عبادي

129 سورة يوسف - الآية 52.

130 سورة غافر - الآية 35.

131 سورة الرعد - الآية 2.

132 سورة الانعام - الآية 68.

133 سورة الكهف - الآية 28.

134 حياة الصحابة/ج3 / 512-514.

135 حياة الصحابة/ج3 / 512-514.

136 حياة الصحابة/ج3 / 514-521.

137 سورة الشورى - الآية 36.

وان هياتَ احمدَ لي نبيا¹³⁸

وكأني بالصحابي الجليل، سلمان الفارسي يناجي إمامنا النورسي (رضي الله عنهما) بقوله: (أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث): ضحكت من مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل يغفل عنه، وضاحك ملء فيه، لا يدري أمسخط ربه أم مرضيه، وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمد وصحبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين، حين لا ادري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة¹³⁹.

من ثمار إخلاصه.

أولا: فقه الإخلاص في فهم الدنيا والآخرة: لقد فهم بعقله معنى الدنيا والآخرة، واستوعبه، كما خشع لهذا الفهم قلبه، وسرى في نبض عروقه، واخضع سائر سلوكه من نوايا وعزائم، وإرادة وعمل، ولسان وقلم، وجهد وجهاد موصول، ووقت ومال وعلم، كما اخضع حياته وروحه لهذا الفهم! فكان إيمانا صادقا يمشي على الأرض، من خلال ما قرأت، ولا أزيهه على الله! إن الدنيا لا تعيش بقلبه، بما فيها من فتنة وزينة وإغراء، إنما عدو في همة صديق: والعدو لا يغري، وإنما ينقر!

ألا ربّ وجهه في التراب عتيق

ويا ربّ حُسن في التراب رفيق

وما الناس إلا هالكٌ وابن هالك

وذو نسب في المهالكين عريق

فقيل لغريب الدار: انك ضاعن

إلى منزل نائى المحلل سحيق!

إذا امتحن الدنيا ليبب تكشففت

له عن عدو في ثياب صديق!¹⁴⁰

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)¹⁴¹.

فمن اعمر الدنيا ببناء نفسه وبناء غيره، وان كان له طاقة ببناء شعبه، فذلك هو الفائز في الدارين: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن فلنحييناه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)¹⁴²، (فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين)¹⁴³، لذا فان فقه إمامنا مستقى كله من كتاب الله عز وجل، فتراه يقول: (ان من عرف حقيقة الآخرة وكشف عن حقيقة الدنيا، لا يندم أبدا، إذ كان ذا لب، ولا يتشبث بالعودة إلى الدنيا مرة أخرى)¹⁴⁴. (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟!، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)¹⁴⁵!

138 القاضي عياض.

139 حياة الصحابة/ج3/ 505.

140 ابو نواس التائب، وان ابو الغتاهية يصف ابا نواس بسبب هذه الايات بانه اشعر الناس.

141 سورة آل عمران - الآية 185.

142 سورة النحل - الآية 97.

143 سورة ال عمران - الآية 148.

144 المكتوبات/86/85.

145 سورة التوبة - الآية 38.

وكيف يعود إليها، وهي في ذمّ الله لها: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاحتلظ به نبات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا)¹⁴⁶. فالذي لا يندم على دنيا فانية، كيف يعمل على المزيد منها؟!

؛ زيادة المراء في دنياه نقصان

وربحه غير محض، الخير خسران

يا عامرا لخراب السدار مجتهدا

بإلله هل لخراب العمر عمران!¹⁴⁷

وهو يخاطب أهل الدنيا من المسؤولين بتحدّ سافر، وقناعة وثقة بما يقول: (انا لا اعجب بكم- يا مسؤولون- ولا بدنياكم)، وكيف يعجب بهم وبدنياهم، وقد طبع الله على قلوبهم؟! (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وان الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون. لا جرم لهم في الآخرة هم الخاسرون)¹⁴⁸. بل من حقه أن يسخر منهم، ويرثي لحالهم ويعلن مقاطعته لهم: (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا وهوا، وغرّتهم الحياة الدنيا...) ¹⁴⁹. (ولكن لا أتدخل أيضا بها، ولا أخالطكم، لأنني أصبو إلى قصد غير قصدكم، فقد ملأت قلبي أموراً لم تبق موضعا لغيرها، كي أفكر فيه...) ¹⁵⁰.

ثم يستأنف تحديدهم: (إنكم تريدون إدامة النظام، وإرساء الحكم، وحيث اني لا أتدخل بها، فليس لكم ان تقولوا: ليحبنا القلب كذلك. فأنتم لستم أهلا لذلك الحب أصلا)، ¹⁵¹ وصدق رسول الله ع، إذ يقول: (من احب في الله، وابعض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان)¹⁵². ثم يستأنف الحديث الصريح معهم: (وان تدخلتم في أمر القلب فأقول: كما إنني أتمنى مجيء الربيع وسط هذا الشتاء، ولكنني لا أستطيع إثباته، كذلك أتمنى صلاح أحوال العالم، وأدعو لذلك، وأسأل الله ان يصلح أهل الدنيا، ولكن ذلك فوق إرادتي ووسعي! فلا أستطيع، لذا لا أتدخل فعلا، فهي ليست من وظيفتي، ولا ضمن اقتداري وطاقتي)¹⁵³.

وهو يعلنها لخصومه المسؤولين، انه مغاير لقصدهم تمام المغايرة، فليدعوه وشأنه، إذ انه لا يتدخل بدنياهم! (إني متوجه بكل وسعي للآخرة، منقطع عن الاختلاط والمراسلات، وليس معي إلا بضعة أصدقاء!¹⁵⁴ لان جميع حياته تقريبا سجن وحبس انفرادي وتوقيف ونفي ومحاكمات! ومراقبة دقيقة في جلوته وخلوته، وإخوانه في الإيمان بالألوف من خلال رسائله، أما من يلتقي بهم فهم آحاد! والعيون ترقبه فيهم!!، وما زادت السجون والحن إلا زيادة في الإصرار والعناد ضد الطغاة، وانقيادا وذلا لخالقه الرحيم:

خرجنا من السجن شمّ الأنوف

كما خرج الأسد من غابها

146 سورة يونس - الآية 24.

147 ابو الفتح البستي.

148 سورة النحل - الآية 107-109.

149 سورة الانعام - الآية 70

150 المكتوبات/86.

151 المكتوبات/86.

152 اخرج به البخاري.

153 المكتوبات/86.

154 المكتوبات/87.

نمرّ على شـفـرات السـيـوف
ونـأتـي المـنـيـة مـن باهـمـا
ونـأبـي الحـيـاة، إذـا دُتـسـت
بعـسـف الطـغـاة، وإرهابـمـا
انفـنـا الإقـامـة فـي أمـة
تـداسُ بأقـدام أربابـمـا!¹⁵⁵

لذا فان (هذا الإنسان، إذا تدخّل في دنياكم العقيمة والخطرة، ينبغي له أن يكون مجنوناً مضاعفاً).¹⁵⁶

ومن خلال هذا الفقه الخالص بنجده اسعد إنسان- مع بؤسه وعنائه الظاهري، ولكنه برضوان الله يحسّ بسعادة غامرة، دونها سعادة الملوك المخلصين! أما غيرهم فأشقياء رغم المظاهر الزائفة! انه يقول: (اسعد إنسان من لا ينسى الآخرة، لأجل الدنيا، ويفتح باب القبر بأمان)!!¹⁵⁷.

أي إخلاص هذا، وأي قلب!!،
(من كان يريد ثواب الدنيا. فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وكان الله سميعاً بصيراً)¹⁵⁸. ولعلّ
الشاعر المسلم عناه في سعادته، وسعادة المؤمنين المخلصين في أمثاله:

واسـعد مـن تـرى فـي الأـرض طـراً
فـتى يـغـدو، وثـروتـه القـلـوبُ
تـرفـرف حـولـه ما دام حـيـاً
ويـوم يـغـادرُ الـدنيا تـذوبُ!

لذا فان كل ما يلقاه في حياته برد وسلام: (السجن عندي نعمة ورحمة)! ذلك ان رضوان الله اكبر من الدنيا بأسرها واعزّ، بل اعزّ من نعيم الجنة الخالد: (ورضوان من الله آيه اكبر، ذلك هو الفوز العظيم)¹⁵⁹.

فالآخرة هدفه في سلوكه وتعامله مع الناس، صالحين وطالحين. يميزان هدى الله (وان الدار الآخرة هي الحيوان، ولو كانوا يعلمون)¹⁶⁰، ويستحثه المصطفى (ﷺ) في حب الآخرة والعمل الدائب الموصول لها، بل تركيز الجهود لإعمارها: (من أحب دنياه اضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته اضرّ بدنياه، فاثروا ما يبقى على ما يفنى)¹⁶¹، لذا فهو ينادي إخوانه المخلصين في دعوته يناديهم بأحب نداء: (السيد الحافظ خالد) - (يا أبا الآخرة العزيز)، فما بعد الموت عنده يجمع، لان العامل لها يتجرّد، ولا تجرد من غير إخلاص، واخوة الآخرة هم بحق اخوة الدنيا: (الإخلاء يومئذ بعضهم عدوّ لبعض إلا المتقين)¹⁶² والمتحابون في الدنيا، على منابر من نور يوم القيامة، كما اخبر المصطفى (ﷺ)، لذا فان الناس يميزانه صنفان- أهل دنيا وأهل أخرى، وموقفه في كل منهما كموقف عمر الفاروق (رضي الله عنه): (الناس طالبان: فطالب يطلب الدنيا، فارفضوها في نحره، فانه ربما أدرك الذي يطلبه منها فهلك بما

155 الإمام الشهيد/الزبيري شاعر اليمن وعالمها في منتصف هذا القرن.

156 المکتوبات/89.

157 المکتوبات/89.

158 سورة النساء - الآية 134

159 سورة التوبة - الآية 72.

160 سورة العنكبوت - الآية 46.

161 رواه الحاكم عن ابي موسى

162 المکتوبات /89.

أصاب منها، وطالب يطلب الآخرة. فإذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها). فإمامنا لا يجب دنياه بمعانيها الفانية، ولا يجب أهلها المفتونين بها، ولا يطمع بحجة خردل من دنياهم وعطائهم وجاههم وماهم، كما لا يطمع أولئك بالآخرة ونعيمها ورضوان الله وعطائه:

أرى أناساً بأذن الله قد قنعوا
ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك، كما

استغن الملوك بدنياهم عن الدين!¹⁶³

لذا فإن الفاروق T يحذر من مجالس الملوك: (من دخل على الملوك، خرج وهو ساحط على الله!) ومن كانت الآخرة غاية حياته، فلا يشغله عنها ما سواها، إذ هو منهك في العيش برحاب القرآن العزيز، يغرف من بحر عطائه، ويهيه إخوانه، ليثبت الإخلاص النقي من شوائب الدنيا في قلوبهم، فلا خوف في دعوته، ولا انحراف عنها إلى السياسة الخادعة، بل إن عيشه للقران وخدمته أنسته السياسة الماكرة... (إن خدمة القران الكريم هي التي منعتني بشدة عن عالم السياسة، بل أنستني حتى التفكير فيها، وإلا فإن تاريخ حياتي كلها يشهد بالخوف، لم يكبلني، ولا يمنعني عن مواصلة سيري فيما أراه حقاً: (إن الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبن الله، ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)¹⁶⁴.

ثم مم يكون خوفي؟ فليس لي مع الدنيا غير الأجل! إذ ليس لي أهل وأولاد أفكر فيهم، ولا أموال أفكر فيها، ولا أفكر في شرف الأصالة والحسب والنسب، ورحم الله من أعان على القضاء على السمعة الاجتماعية، التي هي الرياء والشهرة الكاذبة، فضلاً عن الحفاظ عليه... فلم يبق إلا أجلي، وذلك بيد الخالق الجليل وحده، ومن يجراً أن يتعرض له قبل أوانه!¹⁶⁵ أي إخلاص ذلك؟ وأية سبيل سلك؟! إنما سبيل أولياء الله الصالحين، الثابتين المرابطين المراقبين لأنفسهم في كل حين:

ليس له أهل ولا أولاد ولا مال، ولا شيء من عرض الحياة، حرصاً منه على التفرغ لخدمة القرآن، وحق له ولأشباؤه أن يغبطه المصطفى E والصالحون على مقامه: (ان أغبط أوليائي عندي لمؤمن حفيف الحاذ - تكاليف العيش -، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه وإطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك، ثم نقر نقرات ثلاث، فقال: عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه)¹⁶⁶.

هكذا كان حفيف الحمل، خاشع القلب، حياته مع ربه إذ هو أنيسه، فقير الحال، صابراً على شظف العيش، محتسباً لربه، منكرًا نفسه، لا يرنو إلا إلى وجه ربه الكريم: (ما زاغ البصر وما طغى)¹⁶⁷:

تسترت من دهري بظل جناحيه

163 إمام العلماء المحدثين عبد الله بن المبارك.

164 سورة آل عمران - 173.

165 المكتوبات/68،67.

166 حديث نبوي.

167 سورة الحج/ الآية 17.

فعيني ترى دهري، وليس يراني

ولو تسأل الأيام: ما اسمي؟ لما درت

وأين مكاني؟ ما عرفن مكاني!¹⁶⁸

ان الذي يخيف الناس هو الموت، غير أنه لا يخيف الصالحين، فالأجل محتوم، لا مفر منه: (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)¹⁶⁹!

فلا خوف له من الموت، لأن يومه إما أن سيموت فيه، بأجله وإما لا أجل فيه، فلم الخوف؟! أي يوم من الموت أفتر:

يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه

ومن المقدر لا ينجي الحذر

نعم لا ينجي الحذر من المكتوب في الأجل، فلم الخوف؟!

لا سابقات، ولا جأواء بأسئلة

تقى المنون لدى استيفاء آجال!

فليس لإمامنا الصالح من صلة بالدنيا إلا الأجل، وهذا هو الذي يربطه بالدنيا، وهو بيد الله الخالق الخليل وحده، فلئن غفل الناس عن هذا الواقع المحتوم الذي يوجه السلوك، فلن يغفل عنه إمامنا رحمه الله:

الناس في غفلاتهم

ورحى الميتة تطحن!

كل حين، عند ميتته

حظته من ماله الكفن!¹⁷⁰

فلا خوف من الموت عنده، وهو مطمئن إلى جوار المصطفى ع، في الآخرة، والموت رحلة كل إنسان إلى آخرته: (إن إلينا إياهم، ثم إن علينا حسابهم)¹⁷¹.

وما الموت إلا رحلة غير أنها

من المنزل الثاني إلى المنزل الباقي¹⁷²

ويقول أبو العتاهية كذلك:

إن لقيت منزل، ما زلت أعمره

على يقين بأني عنه منقول

وليس من موضع يأتيه ذو نفس

إلا وللموت سيف فيه مسلول

لم يشغل الموت عنا منذ أعد لنا

وكلنا عنه باللذات مشغول

168 أبو نواس.

169 سورة يونس - الآية 49.

170 أبو العتاهية.

171 سورة الغاشية - الآية 26.

172 أبو العتاهية.

أما من باع نفسه للرحمن، ووقف حياته على طاعته، فله البشري من ربه الكريم: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه الله حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله! فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم)¹⁷³، ولقد استبشر الصحابة حين نزول هذه الآية بهذه التجارة مع الرب الكريم، وكان ابن عباس ع يقول: (أنفسٌ هو خالقها، وأموال هو رازقها، ثم بمنحنا عليها الجنة، نعمت الصفقة الراجحة، نعمت الصفقة الراجحة)، والمسلمون في هرج ومرج من الفرح، غير أنهم افتقدوا أبا بكر الصديق ع، فوجدوه قد انتحي ناحية يبيكي، فجاءه المصطفى ع ورهط من صحابته الكرام، يسألونه عن السبب، فقال: يا رسول الله، لقد بعنا، والله اشترى، والعقد قد أبرم، وقبضنا الثمن لبضاعتنا التي بعناها لربنا، فكيف بنا إذا تغيرت نفوسنا، وهي أمانة الله بين ضلوعنا، فبأي وجه نلقى الله عز وجل الذي بعنا نفوسنا نقيّة خالصة، من غير غشّ فيها؟!

إنه الإخلاص النقي الذي يزن به الصديق بيعته مع ربه، وحق له أن يرجح إيمانه على إيمان الأمة بتمامها، كما أخبر بذلك المصطفى ع، ولقد نجح إمامنا نجح أبي بكر الصديق ع، إذ كان دائماً متهماً نفسه، مع صدق البيعة، ويخشى ربه من كثرة معاصيه، وهو الذي وقف حياته كلها مع ربه، ولم يلتفت إلى ما سواه من متاع الحياة، وشعاره قول الشاعر الورع:

ولـو خطـرت لي في سـواك إرادة

على خاطري يوماً، حكمت بردي!

ومع هذا الإخلاص، فانه يرشح الاهتمام بالنفس، فإذا خلا بنفسه، يحاسبها بكي، بحسرة: (آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق)!

والمؤمن الصادق أبداً بين مخافتين، لشدة ورعه واتهامه نفسه بالتقصير: (المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى، لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبية قبل الهرم، ومن الحياة قبل الموت)¹⁷⁴.

من أجل كل ما مضى في فهمه لحقيقة الدنيا والآخرة، ترك العمل السياسي، واعتبره جنوناً لا عقل فيه للمخلصين العاملين: (... وهكذا فان ترك السعي لحياة أبدية، وترك العمل لنور الإيمان المقدس، والدخول في ألعيب السياسة الخطرة، وغير الضرورية، في زمن الشيخوخة، إنما هو خلاف العقل، وبجانبه للحكمة - لشخص مثلي، لا صلة له مع أحد، ويعيش منفرداً، ومضطرباً إلى التحري من كفارات لذنوبه السابقة، بل يعد ذلك جنوناً وبلاهة، بل هو جنون مضاعف¹⁷⁵، بل حتى البلهاء يفقهون ذلك! فيا أهل الدنيا - يقصد المسؤولين المتبلى بهم - لم لا تدعوني وشأني؟!

ثانياً: شخصيته المتجردة مستمدة من إخلاصه لربه وكتابه: ما شخصية المسلم؟ ... إنها مستمدة من التجرد لقيوم السماوات والأرض: (ففروا إلى الله، إني لكم منه نذير مبين)¹⁷⁶، إنها (تسخير طاقاته - من فكر ومواهب وعاطفه وإرادة ومال وعلم ووجه ووقت وكل عزيز عنده في

173 سورة التوبة - الآية 111.

174 رواه البيهقي، وفيه انقطاع.

175 المكتوبات/87.

176 سورة الذاريات/الآية 50.

حب الله، والعمل بمهديه، والاستقامة عليه والدعوة له، وبذل كل طاقاته في نصرته والذود عنه، وهو في رقابة الله الدائمة عليه في كل أحواله: (أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)¹⁷⁷.

فهو في صفاء نفس واطمئنانها إلى مكانتها بين يدي خالقها، وإلى استقامة الطريق الذي تسلكه وعظمة الحق في قرآنه: (فورب السماء والأرض إنه لحق، مثلما أنكم تنطقون)¹⁷⁸.

واطمئنانها إلى الخير الذي يشع منها بين الناس، وتتضرع إلى الله بالمزيد: (وقل: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً)¹⁷⁹.

فهو في صفاء النفس واطمئنانها إلى مكانتها بين يدي خالقها، وإلى استقامة الطريق الذي تسلكه وعظمة الحق في قرآنه: (فورب السماء والأرض، انه لحق مثلما أنكم تنطقون)¹⁸⁰.

واطمئنانها إلى كون الله معها، لا يفارقها العمر كله: (أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه)¹⁸¹، فالمسلم في معين لا ينضب من القوة الدفاقة بنصر الله له: (فاعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير)¹⁸²، فهو ذو إرادة وتصميم، لا يلين، وعزة لا تهون، وصدق وشجاعة لا تمأب، وأمل يطوي الدنيا والآخرة، يضيء بنور الله، وشخصية تتحلّى بالأدب الجم والإخلاص والوفاء والتضحية والإيثار، وإنكار الذات،...

إنها شخصية صاغها الله بنظامه المعجز (صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون)¹⁸³، (صنع الله الذي أتقن كل شيء)¹⁸⁴:

1. صدقه في دعوته: ما أوجز تعبيره وأدقه! وأوسع معناه وأشمله، حين قال: (إن حبة واحدة من صدق، تُبيدُ بيدراً من الأكاذيب، وإن حقيقة واحدة تدمم صرحاً من خيال!)¹⁸⁵. وما أحكم الدعوة بصدق! انه طبّ النفوس: (لو وُضِعَ الصدقُ على جرح كَبْرًا)¹⁸⁶. ويوصي الفاروق T: (عليك بالصدق وان قتلك!)

وان الدعوة إلى الله عز وجل بإخلاص وصدق هي المنجية لحساب الله يوم العرض عليه: (قل: إني لن مجير في من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً، إلا بلاغاً من الله ورسالاته)¹⁸⁷.

لقد صدق الله فصدقه فيما فتح عليه من إنارة قلوب الملايين، وهو في ظلمات السجون، وصدق الناس في دعوته، فأحبوه واستسلموا لجميع ما وجههم إليه في مئات الرسائل بل الألوف من غياهب السجون والمنافي، وحقد عليه الكاذبون المخادعون، وتلك سنة الله في خلقه:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي

فما زال غضبانياً عليّ لئامها!

177 رواه أبو نعيم.

178 سورة الذاريات- الآية 23.

179 سورة الكهف- الآية 24.

180 سورة الذاريات/ الآية 23.

181 حديث صحيح، وفي الحديث المتفق عليه: (وانا معه إذا ذكرني،...)

182 سورة الحج- الآية 78.

183 سورة البقرة- الآية 138.

184 سورة النمل- الآية 88.

185 بديع الزمان النورسي - فكرته ودعوته/150.

186 مالك بن دينار.

187 سورة الجن/ الآية 23.

أين أهل الله من أصحاب المصالح والأهواء؟! وان الصراع بينهما، بسبب الإيمان، ليس غير: (أخرجوهم من قريبتكم، إنهم أناسٌ يتطهرون)¹⁸⁸. هذا الصراع، بسبب الإيمان، ليس غير، إذ هو العقبة الكؤود ضدَّ أهواء المستبدين ومصالحهم، والطغاة وجبروتهم: (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)¹⁸⁹.
2. تواضعه في حياته وإنكاره ذاته: والتواضع من شعب الإخلاص للحق، ونقيضه التكبر، إذ هو تمرد عليه.

ويرى إمام العلماء، وأمير الحديث النبوي عبد الله بن المبارك ان (رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا، حتى تُعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في الدنيا، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل!) ويرى إمامنا (أن منبع التكبر هو صغر النفس، ومنع الغرور ضعف القلب)¹⁹⁰، فالضعيف بقلبه ونفسه يظهر التكبر ليغطي ضعفه وتفاهته. ثم ان الذات التي هي أعزّ على كل أحد، ينكرها، ويكفيه أنه عبد لله، أسوة برسوله ﷺ: لذا فهو يخاطب من يعتز بـ(أنا)، فيقول:

(يا من يحمل (أنا) مضاعفة، ويحمل في رأسه غروراً وكبراً، عليك ان تعرف هذا الميزان: ان مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع، أما الناقصون القاصرون، فميزان الصُّغر فيهم هو التكبر)¹⁹¹. ذلك ان الإنسان لو يعرف مقداره لما استعلى على أخيه:

لـو عـرّف الإنسان مقـداره

لم يفتخر المـولى عـلى عبـده

أمس الـذي مرّ عـلى قـربه

يعجز أهـل الأـرض عـن رده¹⁹²!

والعالم أبداً متواضع، لأنه يعرف قدر العلم ومقامه، لذا فهو يتواضع مدعياً الجهل، ونقيضه الجاهل: (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فمتى ظن أنه عالم فقد جهل)¹⁹³. لذا فان الإمام الشافعي T وهو الذي ملأ طباق الأرض علما يقول:

كـلـمـا أدبـني الدـهـ

رأني نقص عـلـي

وإذا مـا ازددت عـلـمـاً

زادني عـلـمـاً بـجـهـلـي!

وهو كذلك يتواضع مع الصالحين، ويميّزهم عليه، ويأمل شفاعتهم!

أحب الصالحين، ولسيتُ منهم

لعلّي أنـال بـهم شـفـاعـة

188 سورة الأعراف/ الآية 82.

189 سورة البروج/ الآية 8.

190 بديع الزمان النورسي - فكرته ودعوته -/156.

191 المكتوبات/80.

192 المعري.

193 حديث نبوي.

وأكرهه مَنْ تجارثه المعاصي
ولو كنا سوءاً في البضاعة!

والتواضع في نظر العقلاء عظيم وبعيد المنال، حين يتّضع يسمو، والمتكبر الذي يستعلي ويصعد
بنفسه على الآخرين يكون حقيراً بنظر المنصفين:

تواضع تكن كالنجم، لاح لناظر
على صفحات الماء، وهو رفيع!
ولاتك كالسدخان، يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو، وهو وضيع!¹⁹⁴
والتواضع يستصغر قدره التافهون قاصرو النظر، ويستعظمه العقلاء المدركون:
والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للطرف، لا للنجم في الصغر

فالتواضع زينة وسمو، والكبر قذارة وانحطاط.

من أجل ذلك نراه في إنكاره نفسه، يضعها في موازين الاتهام التي يضعها فيه خصومه الحكام
والمسؤولون، ويعلل الاحتمالات كلها تعليل مخلص، ميزانه خدمة الله والقرآن والحق والصالحين: اصغ
إليه في قوله: (وجه مدير مسؤول كلمات ملفقة عليّ في غيابي، فيها إهانة وتحقير لي، دون سبب
مبرر.

حين وصلني كلام السوء، تأملت... ثم رفعتني رحمة الله إلى الصفح عنه: (وأن تعفوا أقرب
للتقوى)¹⁹⁵

ثم قلت لنفسي في احتمالات:

● الاحتمال الأول: إن كان تحقيره وما أورده من نقائص تخصّ شخصي ونفسي بالذات،
فليرض الله عنه، إذ أطلعني على عيوب نفسي. فان كان صادقاً فسوف يسوقني اعتراضه إلى تربية
نفسى الأمانة وتأديبها، فهو إذا يعاونني في النجاة من الغرور!!

● الاحتمال الثاني: وان كان كاذباً، فهو عون لي أيضاً للخلاص من الرياء، ومن الشهرة
الكاذبة التي هي أساس الرياء! نعم! إنني لم أصلح نفسي قط، لأنني لم أرتبها. فان نبهني أحد على
وجود عقرب في أي جزء من جسمي، عليّ أن أرضى عنه، لا أمتعض منه، لعل نفسي تصلح من
شأنها بهذا التعذيب فيكون كفارة لذنوبها.

● الاحتمال الثالث: أما أن كانت إهانته تعود لصفة كوني خادماً للإيمان والقرآن، فتلك لا
تعود لي، فأحيل ذلك الشخص إلى صاحب القرآن الذي استخدمني في هذه المهمة، فهو عزيز حكيم.

● الاحتمال الرابع: وان كان كلامه لأجل تحقيري وإهانة شخصي بالذات والخط من شأنني،
فهذا أيضاً لا يخصني، لأنني أسير مكبل وغريب في هذا البلد، فالدفاع عن كرامتي ليس لي فيه نصيب،
بل يخص من يحكم هذه القرية، ثم القضاء، ثم المحافظة التي أنا ضيف لديهم. إذ أن إهانة أسير تعود إلى
مالكه، فهو الذي يدافع عنه.

فاطمأن القلب بهذه الحقيقة، وتلوت: (وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد)¹⁹⁶ وأهملت الحادثة، واعتبرتها لم تقع، ونسيتها!

ولكن تبين بعدئذ - مع الأسف - أن القرآن لم يتجاوز عنه، فعاقبه!!¹⁹⁷.
أي إيمان هذا؟ وأي إخلاص لله العظيم! وأية شخصية وطنت نفسها للخضوع الكامل لنهجه الحكيم؟! (والله يحكم، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب)¹⁹⁸، وإن تواضعاً كهذا هو السمو بعينه إلى أعز منزلة، إلى رضوان الله سبحانه، وإلى شفاعته حبيبه المصطفى ﷺ، وحواره في الآخرة:

● **أما احتمال الأول**، فهو دعاؤه لمن نبهه إلى عيوب نفسه، وكان بذلك مقتدياً بالفاروق T: (رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبي)، بل هو بذلك خاضع لوصية رسول الله ﷺ (المؤمن مرآة المؤمن، إذا رأى فيه عيباً أصلحه)¹⁹⁹.

● **أما الاحتمال الثاني**، فهو تأويل لكذبه عليه في انتقاصه، لعلّ فيه غروراً ورياءً، وحباً للشهرة، فليعاقبها بنقده، ويبعدها عن الكبر والغرور!! ما هذا الورع؟! وأية نفس تتحمل هذا الموقف!! ولعلّ هذا الموقف النادر مستقى من سلوك الفاروق T حين كان يذرّ التراب على رأسه، فيسأله الصحابة الكرام: ما هذا يا أمير المؤمنين؟! فكان يجيبهم: (لقد أعجبني نفسي، فأحببت أن أذلها!) وحين كان يركب الحمار من غير سرج، في طرق المدينة المنورة، وقدماه مع الأرض إذ كان طويلاً - بل عملاقاً - إذا جلس على كرسيّ عُدّ طويلاً بين الواقفين - فيقال له: يا أمير المؤمنين، لو أمرت بفرس! فيجيبهم نفس الجواب السابق!!

وهكذا فإن إمامنا T، كان بموقفه هذا معاقباً نفسه على ذنوبها وعصيانها.
رَأَيْتُ الذَّنُوبَ تَمَيَّتْ الْقُلُوبَ

ويخترم العقول إدمانها
يبسّم الفسى نفساًه في رده
وأسلم للنفس عصيانها²⁰⁰

والجميع ينهلون من الإسلام الذي يفضي إلى نوح مستقيم واحد!
● **أما الاحتمال الثالث**: فانه أروع الجميع، وأشدّه إخلاصاً لله، إذ لا يتدخل في أمر الله عزّ وجل، تجاوباً مع قول المصطفى ﷺ: (ثلاثة أقسم عليهن، وأحدنكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقه، وما ظلم عبد مظلمة فصبر عليها، الا كان الله عزّ وجل هو المنتصر له، وما فتح عبد باب مسألة الا فتح الله عزّ وجل عليه باب فقر)²⁰¹. فما دام الله تعالى هو المنتصر له، فهو ناصره في الدنيا والآخرة، فليدعه قرير العين، مرتاح الضمير، وقد صدق الله وعده، وانتقم ممن أساء إليه واعتدى عليه بالكلام.

● **أما الاحتمال الرابع والأخير**، فهو أسير وضيف السجن والقضاء، فالمالك والقضاء يدافع عنه، ولا رأي له إزاءه، في حين أن الأسير له حقوقه: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً

196 سورة غافر - الآية 44.

197 المكتوبات/ 80.

198 سورة الرعد/ الآية 41.

199 رواه البخاري.

200 إمام العلماء، وأمير الحديث عبد الله بن المبارك.

201 حديث صحيح.

وأسيراً، إنما نُطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً²⁰²، والضيف في الحديث النبوي هو الأمير، يعامل هكذا: (الضيف أمير على أهل الدار)!! هكذا علمنا إسلامنا، ولكن المحرمين لا يعلمون! بل ويستعلون!

وفي جميع هذه الاحتمالات فهو في ضبط لعاطفته، وكبت لجماح نفسه، ومتأدب بأدب الإسلام، هادئ النفس، لا خصام من أجل الدنيا، وما دام لا قدرة له عليهم فليدعهم إلى الله المنتقم الجبار، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين، مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء)²⁰³. لذا فهو في اطمئنان نفس، حتى في الشدائد، وهو كذلك في جوّ خال من عبث الشيطان وانتقام النفس، مما يهيب له جوّ العمل الإيماني باطمئنان لا يكدره حقد حتى على أعدائه الذين ييغون القضاء عليه!

أيّ نبل هذا، وأي سمو!! انه خلق الأنبياء.

واليك مثلاً آخر لشخصية الإمام التي هي نبراس الإخلاص والورع:

انه يصف زائريه فيقول:

ليكن معلوماً لدى الجميع أن الذي يزورنا أحد اثنين:

أما أن يأتي إلينا لأجل أمور تخص الدنيا، فذلك الباب المسدود.

أو يأتي إلينا من حيث الحياة الآخرة، فهو أحد رجلين:

أما أنه يتصور أبي رجل مبارك صاحب مقام عند الله. فهذا الباب أيضا مسدود، " والسذين لهم علاقة بي يعرفوني جيدا: أنني لا أقبل الاحترام لنفسي، بل انفر منه، حتى ان صديقا فاضلا عزيزا عليّ قد نهرته اكثر من خمسين مرة، لشدة احترامه لي"²⁰⁴

إذ لا تعجبني نفسي، ولا تعجبني من يعجب بي، فحمداً لله أجزل حمد، إذ لم يجعلني راضياً عن نفسي، وإني مشغول عن غيري بإصلاح عيوبي:

المـرء ان كان عاقلاً ورعاً

أشغله عن عيوب غيره ورعُه

كما العليل السقيم أشغله

عن وجع الناس كلهم وجعُه²⁰⁵

أ- واما لكوني خادماً للقرآن، ودالاً له، وداعياً إليه، ليس إلا، فمرحبا وأهلاً وسهلاً، وعلى العين والرأس لمن يأتينا من هذا الباب. وهؤلاء أيضا على ثلاثة أنماط: فاما انه صديق، أو أنه أخ، أو أنه طالب.

فالصديق - شرطه مؤيد. تأييداً جاداً لعملنا في نشر الأنوار القرآنية - رسائل النور - ولا يميل إلى الباطل والبدع والضلالة قلباً، وان يسعى ليفيد غيره.

أما خاصية الأخ وشرطه فأن يكون ساعياً حقيقياً وجاداً لنشر رسائل النور، فضلاً عن أدائه الصلوات الخمس واجتنابه الكبائر.

202 سورة الانسان/ الآية 9.

203 سورة إبراهيم/ الآية 43.

204 المكنوبات/ 82.

205 الإمام الشافعي

وخاصية الطالب وشرطه ان يعدّ رسائل النور كأنها من تأليفه هو، وأنها تخصه بالذات، فيدافع عنها، وكأنها ملكه، ويدافع عنها وينشرها.

فهذه الطبقات الثلاث تتعلق بالجوانب الثلاثة لشخصيتي:

فالصديق يرتبط بشخصيتي الذاتية، والأخ يرتبط بشخصيتي العبدية: أي كوني أوّدي مهمة العبودية لله تعالى. أما الطالب فهو يرتبط بي من حيث داعياً للقرآن الحكيم ومرشداً إليه.

ولهذا النوع من اللقاء ثلاث ثمرات:

أ- أخذه لجواهر القرآن درساً مبني أو من رسائل النور - في الدعوة إلى القرآن.

ب- المشاركة في ثوابي الأخروي - في عبادتي لله.

ج- التوجه معاً إلى الرحمة الإلهية قلبياً، متساندين في خدمة القرآن.

وبذا فقد تجاوب إمامنا الصالح مع عبد الله مسعود (رضي الله عنهما) في قوله: (ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله، فمن كانت راحته في لقاء الله فكأن قد) - أي كان قد لقي الله.

من خلال هذا المثال الثاني تتوسع امامنا آفاق شخصيته، في أنها تعيش للأخرة، وليس لدنياه فيها نصيب إلا بالقدر الذي يخدم فيها ربه، ويقوم دنياه ودنيا المؤمنين على نهج الله، وما سواه، لا يلتفت إلى نفسه فيه، لا من قريب ولا من بعيد. ذلك أن يهدف إلى بناء دنيا عزيزة للمؤمنين، وصدق الشهيد الإمام البناء (رحمه الله) حين قال: (ان دنيانا قصيرة، فيجب أن تكون عظيمة، والله إنا لنرجو أن نفارقها يعمل سليم، فان لم نجد فيقلب سليم).

والإمامان رحمهما الله ينهلان في دعوتهما من معين واحد وهو الإسلام! هدي ربّ العالمين: (قل: ان هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لربّ العالمين)²⁰⁶، وما سواه، لا يلتفت إلى نفسه فيه، إنها الأمانة التي يحملها بكل طاقاته، إلى أهل الدنيا أجمع، ابتداءً بإخوانه وتلاميذه وأصدقائه، والمسلمين ومن وراءهم، لإيصال دعوة الله إلى أبعد أفق يقدر عليه. ودعوة الله أشرف أمانة وأثقلها وأغزرها ثواباً عند الله: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها،...)²⁰⁷، وهي مسؤولية كل مسلم، ولكن أين من يستشعرها ويؤتيها حقها؟! إلا المخلصون الأوفياء مع ربهم: (ما منكم من أحد إلا وهو على ثغرة من ثغور الإسلام، فالله الله أن يؤتي الإسلام من قبله!)²⁰⁸

إنها مسؤولية اهتدى إلى عظمتها إمامنا الصالح T، فحصر حياته فيها وكيف لا يكون الداعية المتجرد كذلك، والمصطفى E قائد الدعوة - إمامه يبكي من هول الحساب يوم القيامة على مسؤولية الدعوة، كيف سيلقى الله، وهو سيّد الأصفياء وإمام المتقين الأبرار؟!

قال E لعبد الله بن مسعود T: (اقرأ عليّ القرآن) فقال له: (أقرأ عليك القرآن، وعليك نزل)؟! فقال E: (نعم، فاني أحبّ أن أسمع من غيري)، فقرأ عليه من سورة النساء، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)؟²⁰⁹ قال E: (أكفف)، يقول ابن مسعود، (فنظرت إلى وجه رسول الله E فإذا عيناه تدرفان)!! صلى الله عليك وسلم! يا رسول الله يا نبي الأمانة والإخلاص والدعوة.

206 سورة الأنعام/ الآية 71.

207 سورة النساء/ الآية 58.

208 حديث نبوي.

209 سورة النساء/ الآية 41.

3- **الصبر والثبات والإرادة العزوم:** لولا الإخلاص الصادق مع ربه في دعوته لما ثبت فيها منذ حدوثه حتى غرغر بالموت، وان حياة سبعين سنة في جهاد موصول - باستثناء الاثنتي عشرة الاولى في طفولته، والسنين الخمس المتفرقة في حياته، لحياة صبر وعناء - تنوء بحملها الجبال الشمم، وكواهل الرجال الاشداء، رغم ضعفه ومرضه وهزاله وشيخوخته!

وقيمة الرجال بعزائمهم، هكذا كان إمامنا الصالح، تجاوباً مع الفاروق T: (لا تصغرَنَ هممكم، فإني لم أرَ أقدَ عن المكرمات من صغرَ الهمم).

ولكن عمله لله عزّ وجل يذلّ له الصعاب، ويغريه بالمزيد، إذ (لا خير من الخير الا ثوابه، ولا شرّ من الشرّ الا عقابه)²¹⁰، ثم ليغضب عليه الناس، فلا ضير عليه ما دام الله راضياً عنه: (ما عليك أن تكون مذموماً عند الناس ومحموداً عند الله تعالى)²¹¹.

ومن دلائل صبره العجيب - والشواهد كثيرة - ما يرويه عن نفسه: (أنه حيل بينه وبين أصدقائه ومعارفيه وأقربائه سنين، إذ أبعد أكثر من 1500 كم عن مدينته في وان - إلى قرية في أقصى الغرب لا يلقى فيها واحداً أو اثنين من الأحياب خلال اسبوع إلا مرة أو مرتين، غير أن هذا المنع لا يبعدّ القلوب عن بعضها، بل يزيدُها شوقاً وحناناً وتماسكاً:

وان كانت الاجسام منا تباعدت

فان المدى بين القلوب قريب!

وفي الحديث النبوي الصحيح: (الأرواح جنود مجنّدة: ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)²¹²، أما الضيوف القادمون فلا يسمح لهم اللقاء به إلا دقيقة أو دقيقتين خلال شهر، والمسألة أخروية. مُنعت عن كل الناس، عن كل شيء، وبقيةً وحيداً غريباً - لسنين...!

عناءً ويأس، واشتياقاً وغربةً

وهجر حبيب، انّ ذا العظـم! ²¹³

عمرت مسجداً خرباً، وقمت فيه بالإمامة لأربع سنين - نسأل الله القبول - غير أني لم استطع الذهاب اليه في رمضان، فصليت منفرداً...²¹⁴.

ولئن حُرمت اللقاء بالناس، فإني معهم بالروح، إضافة إلى امتداد روحه من خلال رسائله إليهم:

لئن اصـبحتُ مـرتحلاً بجـسمي

فروحـي عنـدكم أبـداً مـقيـمٌ

ولكن للعيان لطيف معني

لذا سأل المعانيّة الكلـيم! ²¹⁵

ويقول بنفس المعنى ابن حزم رحمه الله:

يقول أخي: شجاك رحيلُ جسم

وروحك مالـه عتـا رحيلُ

210 الإمام الشهيد حسن البناء

211 الصديق (رضي الله عنه).

212 حديث نبوي

213 الشهيد مروان حديد

214 المكنوبات/ 81.

215 الإمام ابن حزم الاندلسي.

فقللت له: المعارين مطمئن

لماذا طلب المعائنة الخليل!

وسأستمر على هذا الصبر والتحمل باذن الله.

وصدق في إمامنا قول الشاعر:

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني

صبرتُ على شئٍ أمرّ من الصبر!²¹⁶

وهو صابر فيما يصيبه شخصياً، ولكنه نائر ضد انتهاكات الإسلام من قبل الطغاة من المسؤولين،

وهو القائل (الرضا بالكفر كفر، والرضا بالظلم ظلم)!

ثم ان الشدائد والحن بعقيدته تقوي العزيمة وتضاعفها، ولا تدعوه إلى اليأس قط، إذ اليأس قرين

الكفر: (.. ولا تياسوا من رُوح الله، انه لا يياس من رُوح الله الا القوم الكافرون)²¹⁷، والياس

ضلال ومتاهة: (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)؟!²¹⁸

لذا فهو بالحق الذي يؤمن قوي، وشعاره (القوة في الحق، وليس الحق في القوة)²¹⁹ فلو جعلتم

الدنيا على رأسي ناراً تتأجج، فان هذا الرأس الذي أضحي به فداء للحقيقة القرآنية، لا يخضع لكم أبداً²²⁰.

وفي هذه القوة - الحق - يتجاوب مع كلمة الإمام الشهيد حسن البناء، إذ يقول: (في أيديكم

أقوى القوى: الإيمان والحق، والحجة والدليل، وفيها الكفاية، والعاقبة للمتقين، والله غالب على أمره).

والذي شعاره (القوة في الحق)، له من قوة شخصيته المستمدة من ثقته بربه، ما يفوق القوة المادية

في البناء للحق والهدم للباطل، وله من الثقة بما ما يمكنه بعون الله من التفوق بحقه الذي يستولي على

مشاعره، ويهديه في ظلمات الحياة! وهو مع صراعه الرهيب إزاء الباطل سعيد ومسرور:

ومن تكن العلياء هممة نفسه

فكل الذي يلقيه فيها محبب!²²¹

وأن ثاره لله ولدعوته في مضايقاته فيها، كان جحيماً على رؤوس أعدائه ليزيدوا من طاقاته في

الدعوة إلى أنوار القرآن، وكان يقول: (ان جميع مضايقاتهم واستبدادهم تصبح كالحطب، لإشعال نار

الهمة والغيرة، لتزيد أنوار القرآن، وان قرية بارالا) رغم انفهم صارت كرسي المدرس. وانتشرت

مدارس النورانيين في كثير من القرى والمدن حولها...²²²

وان نار الهمة الملهبة على رؤوس أعدائه كانت كالأعاصير تعصف بهم:

ان الرياح إذا اشتدت عواصفها

فلا ترمى سوى العالی من الشجر

216 الصبر: هو نبات مرّ علقم يسمى بالصبر كذلك.

217 سورة يوسف/ الآية 87.

218 سورة الحجر/ الآية 56.

219 هذه الفقرة الثانية (الحق يكمن في القوة) هي الفقرة الاولى من بروتوكولات صهيون - ارجع إلى تفصيلها في كتاب (مصادر

العقيدة اليهودية وخطرها على المسلمين والبشرية) - للباحث.

220 المكتوبات/548.

221 والعلياء هنا هو السمو في المنازل عند الله تعالى بالعمل الصالح.

222 المكتوبات.

فقد أعانت دعوته عصمت اينونو أن يتولى السلطة ضد الطورانيين، بسبب ميوله الإسلامية، ثم عصفت به، واعترف بأن النورانيين أسقطوه، حينما لم يستجب لهدي القرآن. وهذا الالتجاء الصادق للدعاة إلى الله في الأزمان هو سبيل القادة المصلحين. وما أحكم مقولة الإمام الشهيد حسن البناء في هذا المجال: (ما زاد أعداؤنا إلا أن ذكرونا برئنا)! ولا غرو فان هذا الإيمان الدفاق والصبر والثبات والإرادة الصلبة مكنت إمامنا سعيد على ضعفه ومرضه وشيخوخته وغريته وانفراده في سجنه واقاماته الجبرية - لعقود متلاحقة من عمره - مكنت له رسوخ دعوته، ذلك أن من يك مع الله يكن الله معه (عبدى كن لي أكن لك)²²³، لذا فان قوته كانت مستمدة من تأييد ربه: (ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوي عزيز)²²⁴. كان يقول عنه سجانوه: (إن لسعيد من القوة ما الخمسين ألف رجل، لذا فلا يمكننا إطلاق سراحه! بل لم يسمحوا له حتى بالوقوف على جبل من الجبال القريبة من (بارلا) التي نفي إليها. ويعلق إمامنا: لقد توهموا: إن رجلاً عاجزاً غريباً في هذه الدنيا ضعيف بميزان الدنيا، أما بفضل الإيمان، وبحكم مهنتي في قوة خمسين مليون شخص، اني بقوة القرآن الكريم أتحدى أوروبا كلها، بما في ذلك ملاحدتك،... وشمعة اوقدها المولى، لا تطفئها الأفواه،... وان كان لأهل الدنيا حكم وسطوة وقوة، ففي خادمه بفيض القرآن: علم لا يلتبس، وكلام لا يسكت، وقلب لا ينخدع، ونور لا ينطفى،...)²²⁵. (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون)²²⁶. ولم يخفت صوته، ويهدأ في زحام دعوته؟ لا مرضه ولا ضعفه يحول دون ذلك، ما دام مع خالقه القوي الجبار:

فإن أمرض فما مَرَضَ اصطباري
وإن أحمم فما حُمَّ اعترامى
وإن أسلم فما أبقى، ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام²²⁷
ومن يك بهذه العزيمة الوقادة النابعة من الإخلاص والصدق والوفاء مع الله، فلا يهاب الدنيا
مجتمعة، لا يهاب الموت، بل يتحداه، ويتمنى الشهادة، وقد يهرب منه، فلا يدركها، مع حرصه عليها:
كضاً إلى الله بغضاً زاد
إلا التقى والعمل المعاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والسير والرشاد!
ولو بقيت الحياة لأحد، لكان الجبناء أحكم الناس!

223 متفق عليه.

224 سورة الحج/ الآية 40.

225 المكتوبات/91،90.

226 سورة الصف/ الآية 7،8.

227 المتنبي.

ولو أن الحياة تبقى لحَيٍّ
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدًّا
فمن العجز أن تكون جباناً²²⁸

وما أكثر ما كان يردد: (إذا متّ فأنا مجاهد، وإن قتلت فأنا شهيد)²²⁹. لذا كان من ثمار إخلاصه في عقيدته: شعوره حين دخول المقابر بالسعادة والاطمئنان.²³⁰

ثالثاً: لماذا يعيش إمامنا؟

والله إن كل أمره لعجيب، وأعجب العجب هذا السؤال! وجوابه أعجب منه!
انه قد حرّم على نفسه راتب الدولة، لما يشوبه من حرمة- باجتهاده وأمانته، وليس له مورد، إلا رسائله، بعد الخمسين من العمر، وما يأخذ منها إلا التزاليير، أما عشرات السنين التي في السجون، فلا بدّ له من طعام المسجونين!!

لقد بقيت نفسه في عزة، وعقله في رزانة، وقلبه في صفاء مع ربه، بسبب عفته عن أي طمع في أموال الناس، وكأنّ شعاره الحكمة المشهورة: (أكثر مصارع العقول تحت بريق الأطماع)!. لقد عاش معدماً، ومن أين للمعدم المال لينفقه؟!

إذا المرء لا يُفتق من المال نفسه

تملكه المال الذي هو مالّكه
ألا إنما مالى الذي أنا منفق
وليس لى المال الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مالٍ فيادر به الذي

بحق، وإلا استهلكته مهالكه!²³¹

انه يسأل سؤالنا: (يسأل أهل الدنيا: كيف يعيش سعيد؟! وهو بغير عمل؟!)
ويجب: إنني أعيش بالاقتصاد والبركة، لا أقبل من غير رزاقى الله منة من أحد، وقررت ألا أقبلها طوال حياتي!!

لا تحملنّ لمن يَمَنّ

من الأنعام عليك منّة
واختبر لنفسك حظها
واصبر، فإن الصبر جنة
منن الرجال على القلوب

أشدّ من وقع الأسنة²³²

228 المتنبى.

229 المكتوبات/321.

230 المصدر السابق/ 321

231 المكتوبات/ 83.

232 الإمام الشافعي.

ثم يبين عيشته وما فيها من صبر وفاقة وتحمل ورضا وأنس!! إنها البركة، ليس غيرها!! (أعيش بمئة بارة - أي قرشين ونصف - بل بأربعين - أي بقرش واحد)²³³.

ثم انه بورعه يتحرّج من ذكر فقره، لئلا يحمله ذلك على الغرور وحبّ الذات!! فيقول: ما كنت أرغب مطلقاً أن أوضح هذه المسألة، خشية الشعور بالغرور والأنانية وشئ من الرياء، فتمحق تلك البركة الربانية، إذ أن إظهار البركة المخفية بافتخار مدعاة لانقطاعها! فاكره أن أبوح بها! وهو يحذر أن يظن القارئ أن هذه البركات دليل صلاحه، وإنما يراها إحساناً إلهياً إلى أصدقائه الضيوف المخلصين القادمين إليه، أو أنها إكرام الهي لخدمة القرآن الكريم، أو أنها منافع مباركة للالتزام بالاقتصاد أو أنها رزق للقطط الأربعة²³⁴ - وسيأتي ذكرها.

ثم يستأنف الجواب: (إني أرفض الزكاة والمرتب الحكومي، إلا لستين فقط حين كنت في دار الحكمة الإسلامية، وبإصرار...).

أعيش بالبركة والإكرام الإلهي، وهذا الشعور من ثمرات الإخلاص المحض. إن نفسي الأمانة، مع أنها تستحق كل إهانة وتحقير، إلا أنني - في الأرزاق - احظي بالبركة التي هي إكرام الهي! يمنح كرامة من كرامات خدمة القرآن الكريم.

ثم يضرب أمثلة على هذه الكرامات، ويصدرها بقوله تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث)²³⁵، نعم إن من يقبل إلى الله تعالى وخدمة كتابه بإخلاص صادق يكرمه: وإذا طلبت من الحوائج حاجة

فإدعُ الله، وأحسن الاعمالاً
فليعطيك ما أراد بقدره
فهو اللطيف لما أراد فعلاً
ودع العباد وشأنهم وأمورهم
يبدد الإله يقلب الأحوال²³⁶

1- طعامه: لقد كفاني من الشهور الستة الماضية (36) رغيفاً خبزاً من كيلة من الحنطة (40) لتراً من الحبوب)²³⁷ ولا زال الخبز باقياً، ولا أعرف متى ينفد، وقد دام سنة كاملة! في شهر رمضان لم يأتي طعام إلا من بيتين اثنين، وقد أمرضاني كلاهما. ففهمت من هذا أنه ممنوع عليّ طعام الآخرين! إنما لطمة رافة، وصفعة رحمة! هكذا يراها إمامنا لإخلاصه وورعه!
رمضان.

ولقد كفتنا أوقية واحدة من الرز، وثلاثة أرغفة من الخبز، بقية أيام شهر رمضان! بل ان الرز قد استمر خمسة عشر يوماً آخر بعد شهر رمضان!²³⁸ لقد كفتنا أنا وضيوفي الكرام أوقية واحدة من الزبد، رغم تناوله يوماً مع الخبز، إذ ليس حولنا أحد حتى مسافة ساعتين، لنبتاع منه. فقال ضيفي: إني أرغب أن أبيت معك ليلة الجمعة المباركة على قمة هذا الجبل، لأتضرع معك إلى الله.

233 أربعون بارة - قرش واحد، وعشرة قروش تعادل ليرة تركية واحدة - المترجم الأستاذ احسان قاسم الصالحى.

234 أبو العتاهية.

235 أبو الاسود الدؤلي.

236 المكنوبات/83.

237 المكنوبات/83.

238 أربعون بارة قرش واحد، وعشرة قروش تعادل اليرة تركية واحدة - المترجم الأستاذ احسان قاسم.

فقلت: توكلنا على الله. اذن أبقَ معي.
 ثم يواصل قصته العجيبة: صعدنا قمة الجبل سيراً، وليس معنا إلا القليل من الماء مع شيء من الشاي والسكر، وبدأ (أخي في الآخرة) يهيج الشاي.
 جلست تحت شجرة قطران أتأمل في مشاهد واد عميق، وليس لدينا إلا كسرة من خبز متعفن، ربما يكفيننا كليتنا هذا المساء، ولكن كيف باليومين التاليين؟...
 وبينما أنا كذلك إذ برأسي كأنه يدار إلى الشجرة، فألثفت وإذا بي أرى رغيفاً كبيراً فوق شجرة القطران ينظر إلينا بين أغصانها: فقلت: أبشر يا سليمان، فقد أنعم الله سبحانه علينا برزق. فأخذنا الرغيف من الشجرة، وفتشنا عن أثر من آثار الحيوانات والطيور عليه. وإذا به سالم من أي تعرض كان من الحيوانات، فضلاً عن أنه لم يصعد هذا الجبل منذ ثلاثين يوماً أحد من الناس. فكفنا ذلك الرغيف يومين - وما أوشك على النفاد إذ بالرجل الصالح (سليمان كروانجي) الذي كان صديقاً صادقاً طوال أربع سنوات يصعد الجبل متوجهاً نحونا، اتيا لنا بالخبز!²³⁹
 كم جميل بإماننا هذا الزهد في الدنيا، وهذا العفاف! وصدق إمام. المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - حين قال: (العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى)!

ولقد كان لقناعته في القليل سرور لا يعدله ملك الدنيا، بسبب عفته واستغناة عن الناس ومثمتهم:
 أمت مطامعي، فأرحت نفسي
 فإن النفس ما طمعت تمون
 واحييت القنوع، وكان ميتاً
 ففسي احيائه عرض مصون
 إذا طمعت بحمل بقلب عبدي
 علتته مهانة، وعلاه هون!²⁴⁰
 وصدق الإمام الشافعي - وهذا إماننا شاهد على صدقه - إذ يقول:
 إذا كنت ذا قلب قنوع
 فأنت ومالك الدنيا سواء!

2-لباسه: ثم ينتقل بعد طعامه الذي لا يقنع به أفقر الفقراء! إلى ملبسه، فيقول:
 إن هذه السترة (الجاكيت)، قد اشتريتها مستعملة قبل سبع سنين، وكفت أربع ليرات ونصف الليرة: لمصاريف خمس سنوات مضت للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الالهية.

نعم هكذا ملبسه! ملابس مستعملة تقيمه لسنين، وهو في هذا المقام أمير على القلوب والعقول.
 وقد استوى هو والإمام الشافعي (رضي الله عنهما) في الملبس والمظهر، إضافة إلى المخبر، أما القلوب فميزانها بيد الله وحده - ولا أزيه على الله:

علي ثياب لو يباع جميعها
 بفلس، لكان الفليس منهن أكثر
 وفيهن نفس، لو تقاس ببعضها
 نفوس الوري، كانت أجل وأكبر

هكذا يكون الزعماء تواضعاً وزهداً وعفة، وإمامنا في ذلك (الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه) المكّيّ بأبي تراب، وكذا السلف الصالح رضوان الله عليهم. وان الشاعر المسلم الزاهد الصوفي محمد اقبال، يفضل انساناً كهذا على سائر الملوك والأقاصرة!
فقيرٌ على طميره نفحة حيدر

أحبّ لنا من ألف كسرى وقيصرا!
سرّ البركات الالهية: ثم يحيلنا إلى أمثلة كثيرة للبركات الالهية، ويشهد أهل قريته على ذلك،.. ثم يستأنف الحديث في ذكر البركات، فيستشهد بالقطط الاربع التي كانت تلازمه، وتموء بجانبه، وهي تناجي ربه - كما يفهمها - فتنادي ربه: يا رحيم، يا رحيم، يا رحيم! فان أرزاقها تأتيها على صورة بركة، وهو يفيد من بركاتها! بأن يأكل هو منه!
ويعلن عن قناعته التامة أن ما كان يعيش به من بركات، انما هو من بركات تلك القطط، وهو يعلن اعلاناً قاطعاً انما ما كانت حملاً ولا عبئاً عليه، ولم تكن تحت مئته، وانما هو تحت مئتها!
ثم يعيد الحديث عن قططه الأربعة بعد مئة وخمسين صفحة، فيستقصي منها العبر، فيقول:
(أيها الانسان! ان حيواناً شبه مفترس، يأتي ضيفاً إلى بيت، يكون محوراً للبركة، فيكف اذا حلّ في البيت من هو أكرم المخلوقات، وهو الانسان؟! ومن هو اكملهم (المؤمن)، ومن هو من العجزة والمعلولين المعمرين، من بين أهل الايمان؟!
وأولى من يستحقها الأقربون، وأولاهم الوالدان! (لو لا عبادٌ رُكعٌ وصبيبةٌ رُضعٌ، وبهائمٌ رُئعٌ، لصبّ عليكم البلاء - العذاب - صباً).²⁴¹
فان كنت تريد رحمة الرحمن، فارحم ودائع ذلك الرحمن، وما استودعك في بيتك من أمانات.²⁴²
ويوصي بالامهات خيراً، ويذكر حديث المصطفى (عليه الصلاة والسلام): (الجنة تحت اقدام الامهات)²⁴³، (الزم رجلها، فتمّ الجنة).²⁴⁴
ثم ينتقل من بركات من في البيت من قطط ومن أناس صالحين إلى أمر أعزب منه في ضيافته!
انه (دجاجته) وفرخها البياض! فيحدّث عنهما الأعاجيب! انه يقول:
كانت لي دجاجة تجلب لي من خزينة الرحمة الالهية بيضة واحدة يومياً، في هذا الشتاء، بانقطاع قليل جداً، وذات يوم وضعت بيضتين معاً، فاحترت منها، واستفسرت عن أحبابي: هل يحدث مثل هذا في هذا الشتاء؟ قالوا: ربما هي أحسان الهي!
كان لهذه الدجاجة فرخٌ في الصيف. بدأ الفرخ بوضع البيض بداية شهر رمضان المبارك، واستمر الوضع طوال أربعين يوماً، فلم تبق لديّ شبيهة ولا لدى اخوتي الذين يقومون بخدمتي من أن هذا الوضع المبارك للبيض في هذا الشتاء، ومن فرخ صغير، في شهر رمضان، انما هو اكرام الهي ليس إلا، ثم ان الفرخ بدأ بالوضع حالما قطعت الأم، فلم يدعي دون بيضة، والحمد لله!!²⁴⁵
وهكذا يروي قصة معيشته بالكفاف، بل دون الكفاف، وهو قانع بما شبه الملك، يتيه بما على الناس، بفضل الله واکرامه:

241 رواه الطيالسي والطبراني وابن عدي، والسيوطي - قال المناوي نقلاً عن الهيثمي: هو ضعيف - كشف الخفاء/163.

242 المكتوبات/337.

243 رواه الحاكم، وهو صحيح الاستاد.

244 رواه ابن ماجه - حديث حسن.

245 المكتوبات/ 82 - 85.

رَأَيْتِ الْقِنَاعَةَ رَأْسَ الْغَنِيِّ
فَصَصَّرْتُ بِأَذْيَالِهَا مَمْتَسِكًا
فَلَا ذَا يِرَانٍ عَلَيَّ بِابِيهِ
وَلَا ذَا يِرَانِي بِهِ مِنْهُمْ
فَصَصَّرْتُ غَنِيًّا بِرَأْسِ دَرَاهِمِهِمْ
أَمْرٌ عَلَيَّ النَّاسِ شَبِيهِ الْمَلِكِ²⁴⁶

كان يتبه على الناس بقوله: (أنا أغني منكم بكثير،... وكان يرفض دائماً، من يعرض عليه زكاته أو هدية من نقد أو طعام،... بل ان الذين عرضوا عليه زكاتهم قد غلبهم الدين بعد سنتين، لعدم اقتصادهم!²⁴⁷)

والذي حمله على القناعة، والرضا بخدمته عزته، إذ أن عزة المسلم من عزة الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون).²⁴⁸

ولعل أحمل من صور العفة والعزة الإمام الشافعي في أبيات غريبة من الشعر:

لَقَلْعُ ضَرْسٍ وَضَرْبُ حَبْسٍ
وَنَزْعُ نَفْسٍ وَرَدُّ أَمْسٍ
وَقَرُّ بَرْدٍ وَقَوْدُ فَرْدٍ
وَدَبْعُ جَلْدٍ بَغْيِيرِ شَمْسٍ
وَأَكْلُ ضَنْبٍ وَصَيْدُ دُبِّ
وَصَرْفُ حَبِّ بَأَرْضِ خُرسٍ
وَنَفْخُ نَارٍ وَحَمَلُ عَارٍ
وَيِيْعُ دَارِ بَرِيْعِ فَلْسٍ
وَيِيْعُ خَفِّ، وَعُذْمُ أَلْفِ
وَضَرْبُ أَلْفٍ بِجَبَلِ قَلْسٍ²⁴⁹
أَهْوَنُ مَنِّ وَقَفْقَةِ الْحَرِّ

يرجى نوالاً ببياب نخس

ثم ان عفته هذه حملته على الاقتصاد (!) أي اقتصاد هذا من آية ثروة! ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً! ولكنها عبرة ونصيحة، يسوقها إلى قرائه، من خلال رسائله النورانية الحكيمة!
3- اقتصاده:

لقد أشرت قبل قليل إلى ما قاله امامنا الصالح، من أن الذين عرضوا عليه زكاتهم، قد غلبهم الدين بعد سنتين، لعدم اقتصادهم، وصدق (عليه الصلاة والسلام) إذ قال: (ما عال من اقتصد) (1) انه يضرب مثلاً نفسياً في الاقتصاد:

246 الإمام الشافعي

247 اللمعات/217.

248 سورة المنافقون/ الآية 8.

249 ضخم.

(1) رواه أحمد عن ابن مسعود (رضي الله عنهما).

وذلك بأن نفترض أماناً لقميتين: لقمة منها من مادة مغذية كالجبين والبيض - يقدر ثمنها بقرش واحد، والثانية حلوى فاخرة يقدر ثمنها بعشرة قروش، فهما متساويتان - بالفائدة الغذائية - قبل دخولهما الفم، من حيث انماء الجسم وتغذيته، بل قد يغذي الجبن أفضل من اللقمة الثانية. غير أن ملاطفة القوة الزائفة في الفم التي لا تستغرق سوى نصف دقيقة... فلنقدر مدى الأسرار في صرف عشرة قروش، بدلا عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة! (2)

ثم انه يضرب مثلا آخر، جميل المعنى في الربط بين العفة وإقتصاد: أقام حاتم الطائي ضيافة عظيمة، وأغدق هدايا ثمينة على ضيوفه، ثم خرج للتجول في الصحراء، فرأى شيخا فقيرا يحمل على ظهره حملا ثقيلا من الحطب والكلأ والشوك، والدم يسيل من بعض جسمه، فقال له:

إيها الشيخ أن حاتم الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة، ويوزع هدايا ثمينة، بادر إلأيه، لعلك تنال منه أموالا أضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل!!
فأجاب الشيخ المقتصد العفيف: سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني، ولا أرضى أن أقف تحت طائل مئة حاتم الطائي!

ولما سئل حاتم الطائي يوما: من من الناس وجدتهم أعز منك وأكرم؟ قال: ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المفازة ذات يوم. (لقد رأيته حقا أعز مني وأكرم!) (3)
أنه نعيم القلب، وهزال الجسد، وعدم المال، غير أن سلامة القلب من الضعف والهزال، وأستلاءه بنور الله ورضاه يعدل الدنيا، ويفيض، إذ هو في نعيم موصول لا ينقطع، ورائده في هذه الحياة حكمة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (ع): (وأيم الله، لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجعلان) (4)

رضي الله عنهما، وعمن نصح فحجمها في العالمين، وأسكنهم النعيم الخالد، ما دامت السماوات والأرض: اللهم آمين: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

(2) اللغات/216.

(3) المعات/217.

(4) حياة الصحابة/ج/3/508، والجعلان: دوية صغيرة، تعيش في أنفاذ دورات، وتدفع النتن بأنفها.

الخاتمة

لقد قلب إمامنا الصالح خطط الملحدّين والعلمانيين والعملاء في تركيا رأساً على عقب، واثمرت دعوة الاخلاص لله جيلاً صلب الارادة لايلين :

واشدد يدك بجبل الله معتصماً

فانه الركن، ان فاتتك اركان

من يتق الله يُحمّده في عواقبه

ويكفية شر من عزوا، ومن هانوا

من استعان بغير الله في طلب

فان ناصره عجز وخذلان²⁵⁰

لقد طلب الآخرة وأحبها، فأكرمه الله بنصر الدنيا وثواب الآخرة: (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وماله في الآخرة من نصيب)²⁵¹.

وقد ابغض الدنيا ومتاعها بخوف الله من التعلّق بها، فهانت بين يديه :

بغض الحياة، وخوف الله اخرجني

ويبيع نفسي بما ليست له ثمننا

اني وزنت الذي ييقى ليعدله

ماليس ييقى، فلا والله ما اتزنا²⁵²

هذه خاتمة بكلمات - سهل كتابتها والحديث بها : العيش للآخرة، وبغض الدنيا، والترفع عنها، ولكن الرجل من يحيلها الى واقع في سلوكه! لايجيد عنها! وان القيم الاسلامية جميعها كامنة في هذه الغاية التي ترضي خالقه فيستشعر معيته على كل حاله:

مع الله في سبّحات الفِكَر

مع الله في لمحات البصر

مع الله في زفّرات الحشا

مع الله في نبضات البهّ

مع الله في رعشات الهوى

مع الله في الخلجات الأخر

250 أبو الفتح البستي.

251 الشورى / ويؤكد القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة، منها: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) - الاسراء 18-22.

252 امام العلماء وامير الحديث عبد الله بن المبارك.

مع الله في مطمئن الكورى
 مع الله عند امتداد السهر
 مع الله حال اتقاد الأسى
 ووقم الأذى، واحتدام الخطر²⁵³
 ومن كان هذا حاله مع أنيسه وحببيه الله، يحق له ان يناجيه بدعاء فيه إخلاص وتجرد، في حفظ
 دعوته، ونشر أنوارها :

(اللهم يامن أحاب نوحا في قومه، ومن نصر إبراهيم على اعدائه، ويا من أرجع يوسف الى
 يعقوب، ويا من كشف الضر عن أيوب، ويا من أحاب دعوة زكريا، ويا من تقبل يونس بن متى:
 نسألك بأسرار أصحاب هذه الدعوات المستجابات ان تحفظني وتحفظ ناشر هذه الرسائل
 ورفقاءهم من شرّ شياطين الانس والجن، وانصرنا على اعدائنا، واكشف كربتنا وكربتهم، واشف
 امراض قلوبنا وقلوبهم آمين آمين آمين²⁵⁴
 وان هذا الدعاء، لدعاء جليل له قدره عند الله، أشبه ما يكون بدعاء الغريق في صدق الالتجاء إليه
 عز وجل :

يقول حذيفه بن اليمان - الصحابي الجليل (رضي الله عنه): (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ
 إِلَّا مَنْ دَعَا بِدَعَاءِ كَدَعَاءِ الْغَرِيقِ)²⁵⁵، ليكون هذا الدعاء مستجابا، وقد نجا - رضي الله عنه - هو
 وجماعته بهذا الدعاء، وهم الآن ملء السمع والبصر، تغمد الله تعالى برحمته ورضوانه.
 ونستغيث بالله تعالى أن يشملنا دعاؤه، كما شمل تلميذنا البار الأستاذ إحسان الصالحى مدير
 مركز بحوث النور، الذي كان يسهم في ترجمتها ونشرها منذ ثلث قرن حسب علمي أو يزيد، هو
 وإخوانه المخلصون، كما ندعوه عز وجل ان يجمعنا به وإخوانه في دار الخلد إذ (المرء مع من أحب
)²⁵⁶.

اللهم آمين
 وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
 وصلى الله على سيدنا محمد ع إمام الدعاة
 وسيّد الثقلين
 وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته
 بإخلاص إلى يوم الدين
 آمين

253 عمر بماء الدين الاميري - من ديوانه (مع الله)
 254 المكتوبات/444.
 255 حياة الصحابة/ ج3/511.
 256 متفق عليه.

أسس مهمة في رسائل النور لفهم الآيات المتشابهات

أ.د. سعاد يلدرم[©]

إن مسألة الآيات المتشابهات تعد من علوم القرآن المهمة. والله تعالى يصنف آيات القرآن في هذه الآية الكريمة إلى قسمين: الآيات المحكمات والآيات المتشابهات :

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب. ربنا لا ترغ قلوبنا بعبد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) (آل عمران / 7-8)

لنقف أولاً على كلمتي (المحكمات ، والمتشابهات) اللتين وردتا في هذه الآية.

الشبه في اللغة هو الشبيه. وتأتي مصادر التشابه والاشتباه من هذا الجذر. ويأتي بمعنى: بسبب تشابه شيء مع آخر يظهر هناك احتمال اختلاط أحدهما بالآخر، أي يحصل هناك تردد. و"المتشابه" هو اسم الفاعل من " التشابه" ويطلق على الكلمة التي تحمل هذه الصفة. لذا فإن (المتشابهات) هنا تأتي بمعنى (المتماثلات والمشكلات). ومقابلها هي (المحكمات). والمحكم يأتي بمعنى : المستين ، الواضح، القطعي¹.

ووردت كلمة (المتشابه) في آية أخرى:

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني) (الزمر / 23)

[©] ولد سنة 1941م في قضاء أركان التابعة لمحافظة ديار بكر. أكمل دراسته الثانوية في ثانوية ضياء كوك آلب في ديار بكر. وتخرج من كلية اللاهيات بجامعة انقره سنة 1964م. واكمال دراسة الدكتوراه في الكلية نفسها سنة 1973م وبعد ان عمل مساعدا مفتي ثم مفتيا في رئاسة الشؤون الدينية (1964 - 1965م) ثم مفتشا (1967 - 1968م) عين معيدا في كلية اللاهيات بجامعة اتانورك في ارضروم سنة 1968م. ثم ترفع الى استاذ مساعد ثم الى استاذ (1987م). وبعدها انتدب الى كلية الدعوة بالمدينة التابعة للجامعة الامام محمد بالرياض. وفي سنة 1993م عين عميدا لكلية اللاهيات بجامعة صقاريا.

وقد نشرت دراساته ومقالاته في مختلف الصحف والمجلات مثل بين دوير (1977 - 1982م). سبزييتي (1979م-1985م) والتين اولوك (1987م - 1989م). وإسلام (1982م - 1989م). ويني اوميد (1988 - 1995م). وزمان (1987 - 1995م). والى جانب كتبه المؤلفة له آثار مترجمة عن العربية والفرنسية، منها: الكتاب المقدس والقرآن والعلم (ترجمه عن مورس بوكايل، 1981م) تفسير نبينا للقرآن (1983م). المدخل الى القرآن الكريم وعلوم القرآن (1983م). النبا العظيم (ترجمه عن دراز 1985م)، النصرانية في ضوء المصادر الموجودة (1988م)، التفسير الكبير (ترجمة مع هيئة عن فخرالدين الرازي (1988م)

¹ ابن منظور : لسان العرب؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط: مادة شبه.

غير أن المفسرين لم يختلفوا في فهم معنى هذه الآية التي تشير إلى أن آيات القرآن حق وصدق، وتحمل كل آية صفة الإعجاز والبلاغة، وكل آية تشبه الآيات الأخرى في هذه الصفات والمزايا، ويصعب القيام بترجيح آية على أخرى.² بينما ظهر الاختلاف في تفسير الآية الواردة في سورة آل عمران. فقد وردت تعاريف مختلفة في كتب علوم القرآن حول هاتين الكلمتين (المتشابهات والمحكمات) وإن كانت هذه التعاريف قريبة بعضها من بعض. فلو أردنا الإيجاز لقلنا بأن (المحكم) هو ما له معنى واحد. أما المتشابه فله أكثر من معنى. أو أن (المحكم) هو ما استغنى في فهمه عن أي دليل آخر. أما (المتشابه) فهو ما كان في حاجة إلى دليل آخر خارجه.³

ومن استعراض آراء العلماء نصل إلى النتيجة الآتية: إن الآية المحكمة هي الآية الواضحة المعنى التي لا لبس فيها ولا غموض، والتي تشير إلى معناها بوضوح ودون إبهام. أما الآية المتشابهة فهي الآية التي لا يوجد لها معنى راجح أو دلالة راجحة. لذا ففي أصول الفقه يدخل النص وما يدعونه "الظاهر" في القسم "المحكم" ذلك لأن النص هو (ما دل على القصد بذاته وبصيغته)، أما "الظاهر" فهو: (مع أنه يدل على القصد بعبارة دون حاجة إلى أي قرينة أخرى إلا أن مفهومه الأساسي ليس هو المقصود). أما المؤول والمشكل فيدخلان في قسم (المتشابه). لأن الجملة يحتاج إلى تفصيل، أما المؤول فلا يتبين غرضه إلا بعد تأويله لكي يتم فهم معناه. أما المشكل ففيه إبهام وغرضه مستور وغير معروف.⁴

إن حرف الواو الموجود في الآية (والراسخون في العلم) هل هو واو العطف أم هو واو الاستئناف؟ هذا شيء مهم لأنه يستتبع اختلافًا في المعنى. فمن قال بأنه واو للعطف يقولون بأن الراسخين في العلم يستطيعون تفسير الآيات المتشابهات. ومن قال بأنه واو للاستئناف يقولون بأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم معاني الآيات المتشابهات، أما الراسخون في العلم فيجتنبون الخوض في معاني هذه الآيات ويقولون: (آمننا به كل من عند ربنا) مفوضين معرفة المعنى الحقيقي لهذه الآيات لله تعالى وحده. وقد يكون من الأفضل التعبير عن هذه النظرة الثانية كالآتي:

الراسخون في العلم يفسرون الآيات المتشابهات ومع ذلك يظهرون تسليمهم قائلين: (آمننا به كل من عند ربنا). وقد نقل هذا الرأي "طائفة يسيرة ممن مجاهد وهو رواية عن ابن عباس".⁵

ويقول مجاهد في: "والراسخون في العلم: يعلمون تأويله ويقولون: (آمننا به)". يقول الضحاك: "الراسخون في العلم يعلمون تأويله، لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ولا حلاله من حرامه ولا محكمه من متشابهه".⁶

وأهم من دافع عن هذا الرأي هو الإمام الأشعري الذي يرى بأن الوقف في الآية السابعة من سورة آل عمران هو بعد (والراسخون في العلم). ويقوم أبو إسحاق الشيرازي (ت 1088/476) بشرح هذا الرأي فيقول: ليس هناك قسم في القرآن خصص الله تعالى علمه بذاته. فالله تعالى أطلع العلماء على القرآن والله تعالى ذكر هذه الجملة لمدح العلماء، ولو لم يعرف هؤلاء لكانوا ضمن العوام.⁷

2 الدكتور صبيحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ص 281 نقلا من النيسابوري

3 انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن. المجلد الأول ص 70

4 أنظر إلى: السيوطي: الإتيان في علوم القرآن 3/2. وإلى: الدكتور صبيحي صالح: مباحث في علوم القرآن ص 282.

5 السيوطي (الإتيان) 3/2؛ الزركشي: (البرهان) 73/1.

6 السيوطي: الإتيان في علوم القرآن 3/2

7 انظر إلى: صبيحي الصالح (مباحث) ص 282

ويرجح النووي أيضا هذا الرأي فيقول في شرح صحيح مسلم :
 "إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق الى معرفته"⁸ وهناك علماء
 كثيرون غير هؤلاء يشتركون في هذا الرأي.

وينقل عن أكثرية السلف أنه لا يمكن معرفة تأويل الآيات المتشابهات، وغايتهم من هذا هو ان
 القول أن المراد الإلهي القطعي من هذه الآيات هو كذا غير صحيح. وإلا فهم لم يمنعوا العلماء من
 محاولة تأويل وفهم هذه الآيات ولم يقولوا بأنه لا يمكننا قطعاً فهم أي شيء من هذه الآيات. ذلك
 لأنه قد نقل منهم تفسيرات لمثل هذه الآيات.

يمكننا تقسيم الآيات المتشابهات إلى قسمين : المتشابهات الحقيقية والمتشابهات الاعتبارية (أو
 النسبية). ومن الصعب جدا بل يستحيل فهم المتشابهات الحقيقية. وتدخل الحروف المقطعة الموجودة
 في أوائل بعض السور في هذا القسم. ومع هذا حاول المفسرون تقديم بعض الإيضاحات حولها.⁹
 وفي اعتقادنا أن الحروف المقطعة هي الآيات المتشابهات الحقيقية الوحيدة في القرآن الكريم، والعالم
 المعاصر الشيخ محمود شلتوت على هذا الرأي.¹⁰

واعتبر بعض العلماء بعض الألفاظ الواردة في القرآن الكريم حول بعض الشؤون الإلهية والسذين
 يطلقون عليها اسم (الصفات المتشابهة) ضمن هذا القسم. ومع أنه يمكن فهم معاني هذه الصفات، إلا
 انه من الصعب أو يستحيل فهم ماهيتها.

أما المتشابهات النسبية فكثيرة، ويقوم العلماء - كل حسب علمه - بتفسير هذه المتشابهات.

وقد اتفق العلماء حول المتشابهات المتعلقة ببعض الشؤون الإلهية في النقاط التالية:

1- المعاني الظاهرية المستحيلة لم تُقصد من قبل الشارع، وهذا مفهوم من الآيات الأخرى لله تعالى
 ومن الأدلة العقلية أيضا.

2- إن كان هناك معنى واحد قريب من العقل ومن المنطق للمتشابه فيجب قبول هذا المعنى.
 فمثلا قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فالمقصود هنا هو علم الله تعالى وقدرته وإرادته وسمعته
 وبصره وليس ذاته.

واختلف العلماء فيما وراءهما :

أ- السلف : نزهاوا الله تعالى عن المعاني المستحيلة للمتشابهات، وفوضوا معرفة المعاني الحقيقية لها
 لله تعالى.

ب- الخلف : اختاروا المعاني اللغوية اللائقة شرعا وعقلا بالله تعالى لألفاظ المتشابهات، ودليلهم
 هو: يجب استعمال الألفاظ الشرعية قدر الإمكان، ولو فعل العكس وأهملت هذه الألفاظ وهجرت
 لأدى إلى الحيرة والغموض وإلى تجريد هذه الألفاظ من كل معنى.

وهذا يكون ضروريا طالما أن هناك إمكانية لإعطاء معنى معقول لكلام الشارع الحكيم، لأنه يجب
 الاستفادة من الكلام الصادر من العليم الحكيم، فهو منزّه عن إيراد كلام لا يحمل دلالات ومعاني.

ج- هناك من سلك طريقا وسطا . ينقل السيوطي عن ابن دقيق العيد :

8 السيوطي: الإيقان في علوم القرآن 3/2

9 انظر في هذا الخصوص إلى : " أصول التفسير " للدكتور إسماعيل جراح اوغلو . أنقرة 1976 ص 134/138

10 انظر: محمود شلتوت " تفسير القرآن الكريم " القاهرة . الطبعة الثانية 1960 صفحة 68-69

(إن كان التأويل قريبا من منطق وطبيعة اللغة العربية فلا بأس به. فإن كان بعيدا توقفنا، وآمنا بالمعنى الذي ينسره الله تعالى. فإن فهم من هذه التأويلات معاني حسب اللغة العربية قبلناها دون تردد أو تمهل. فمثلا؛: "الجنب في قوله تعالى (على ما فرطت في جنب الله) 11 أي في طاعته وحقه " 12.

حكمة وجود الآيات المتشابهات في القرآن

يسرد العلماء الذين ألفوا كتبنا في علوم القرآن الحكم التالية:

1- توسيع دائرة الإرشاد : يقول فخر الدين الرازي :

(إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يُخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تحيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول - وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر - من باب المتشابه، والقسم الثاني وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو الحكم. وهذه الحكمة واضحة وحلية ولا سيما في موضوع الصفات والشؤون الالهية .

2- إرادة تجلي الله للإنسان الضعيف حسب قدرته وطاقته. ذلك لأن الله تعالى لو تجلى على الإنسان بصفاته الحقيقية لهلك الإنسان. والني موسى عليه السلام الذي هومن اولي العزم من الرسل عندما تجلى الله للجبل الذي كان عليه خر صعقا وأندك الجبل (راجع سورة الأعراف / 143)

3- الإشارة إلى أهمية العقل

يحتاج القارئ للقرآن الذي يحتوي على المحكم والمتشابه من الآيات لاستعمال الأدلة العقلية، مما ينقذه من ظلام التقليد. وهذا سمو بالعقل وتنبية لأهمية موقعه . فلو كان كل القرآن محكما لما أحس الإنسان بالحاجة إلى الأدلة العقلية، ولأهمل العقل.¹³

4- الحاجة إلى إيصال الحقائق المطلقة لمحدودي الفهم والعقل.

لقد جعل الله تعالى الآيات المتشابهات وسيلة هداية وإرشاد لنا . واللفظ المتشابه وإن لم يتطابق مع الحقيقة تطابقا تاما إلا أن وجهها من وجوهه المتعددة يقترب منها ويشبهها. مثلا إن قمت بشرح شيء لجماعة لم يروا ذلك الشيء فإنك تقوم بتشبيهه بشيء آخر مألوف لديهم. من الصعب جدا على الإنسان فهم الحقيقة بجميع أوجهها وجوانبها بالألفاظ المتشابهة. والعالم المؤمن يؤمن أن الآيات المتشابهات من عند الله تعالى وأنها تدل على الحقيقة دلالة تامة، وأنها حقائق آتية من قبل الله تعالى لذا يحاول الحصول على علم ومعرفة منها دون القيام بتحصيل الألفاظ فوق ما تحتمل.¹⁴

5- الحث على البحث العلمي

تم تشويق العلماء للبحث عن أسرار القرآن وعن جماله المكنون. وهكذا تظهر مهارات العلماء، وتتخلص الأفكار من حالة الجمود وتظهر درجات أولو الفضل. ولو كان كل القرآن محكما لما كان هناك فرق بين العوام وبين العلماء.

6- تنبيه العباد لمعرفة حدودهم تجاه العلم الإلهي

11 الزمر: 56
12 السيوطي : " إلتقان" 208 . وكذلك: عبد العظيم الزرقاني: " مناهل العرفان في علوم القرآن " القاهرة 1980 المجلد الثاني ص 286- 290
13 انظر : الزرقاني : " المناهل " المجلد الثاني صفحة 284
14 أنظر : عبد الحميد الزندان : " توحيد الخالق" بيروت 1988 ص 411- 412

يريد الله تعالى توجيه الناس نحو التواضع، وتذكيرهم بعجزهم تجاه العلم الإلهي المطلق، وكذلك بعبوديتهم له وبامتاحتهم وتجربتهم وتوجيههم نحو الرضا والتسليم. وليس من الضروري أن يعلم العلماء كل ما في كتاب الله وعلمه، فكم من أشياء لا يعرفها كل عالم على حدة. يقول محمد عبده في هذا الصدد ما يأتي:

(لقد أنزل الله تعالى الآيات المشابهات لكي يمتحن قلوبنا في موضوع الإيمان به. ولو كان كل شيء وارد في الكتاب واضحا ومفهوما لا يتردد حباله الذكي ولا الأحقق لم يبق أي معنى لإطاعة أمر الله والتسليم برسوله)¹⁵

وهذا العجز من العلماء الذين نزل القرآن بلسانهم دليل على أن القرآن نزل من عند الله. ويقول الزرقاني - الذي نقل هذه الحكم من فخر الدين الرازي - في الختام:

(يتحقق قسم من هذه الحكم في قسم معين من المشابهات. ولكن لا يتحقق مجموعه إلا بتحقيق مجموع المشابهات. وهذا يكفي لنفاذ هذه الإيضاحات).¹⁶

نظرة رسائل النور للمتشابهات

يمكن القول بأن موضوع المشابهات كان من أهم العلوم القرآنية التي اهتم بها الأستاذ النورسي (رحمه الله). والمشابهات التي حاول إيضاحها كانت من نوع المشابهات النسبية، ومع أنه لم يستعمل وصف (المشابهات النسبية) إلا أن هذا مفهوم بشكل قطعي من إيضاحاته. فهو يبين أن القرآن الكريم يخاطب جميع الأجيال ومختلف المستويات، وأن العلماء يستطيعون فهم المعاني الجزئية من معاني الآيات الكلية، وأن جميع هذه المعاني مقصودة ومرادة وأنها تمثل المعاني المجازية أو الحقيقية للآيات.¹⁷ سنكتفي هنا بهذا القدر من التلليل، وفي الصفحات القادمة سننقل مقتبسات أخرى كأدلة أخرى في هذا الصدد.

من المحتمل أن الأسباب التي حدثت بالنورسي للاهتمام بتوضيح المشابهات هي:

أ- إن المشابهات لم يتم فهمها كما يجب ليس من قبل الأعداء فقط بل حتى من قبل الكثير من الأصدقاء.

ب - أن العديد من الآيات التي تبين إعجاز القرآن الكريم موجودة ضمن هذه المشابهات

ج- إن الآيات المشابهات توسع دائرة خطاب القرآن، وتحقق إمكانية خطاب الأجيال حتى يوم القيامة ومستوياتها المختلفة.

إن اهتمام الأستاذ النورسي بساحة هذا العلم شيء طبيعي، لأنه أهتم على الدوام بإزالة الشبهات المثارة حول القرآن الذي رأى فيه المرشد الحقيقي لجميع الأجيال، لذا اهتم بتحقيق حاكمية القرآن على الفكر الإنساني. وظهر تناوله للمتشابهات في أشكال شتى.

1- مساهمته في تعريف المشابهات

يقول: "فالأساليب القرآنية في أمثال هذه المنازل المرعي فيها الجمهور تسمى بـ"التنزيلات الإلهية إلى عقول البشر"، فهذا التنزل لتأنيس أذهانهم. فلهذا وضع صور المشابهات منظاراً على نظر

15 أنظر: " تفسير المنار " 170/3

16 أنظر: " المناهل " 285/2

17 أنظر: " المكتوبات " 422

الجمهور. ألا ترى كيف أكثر البلغاء من الاستعارات لتصور المعاني الدقيقة، أو لتصوير المعاني المتفرقة! فما هذه التشابهات الا من أقسام الاستعارات الغامضة، إذ انها صور للحقائق الغامضة"¹⁸. وهذه المساهمة مهمة جدا، ذلك لأنه ليس من السهل مشاهدة ومعرفة هذه الوظائف في التعاريف المشهورة للمتشابهات، بينما القيام بتشبيه التشابهات بالمنظار المقرب وبالنظارات الطبية ذات الأرقام والدرجات المختلفة يساعد على تقريب فهم الحقيقة لأذهان طبقة واسعة من الناس. طبقة واسعة من الجماهير ستدرك أن التشابهات وإن بدت في الوهلة الأولى صعبة الفهم، ولا يسهل الوصول إلى معانيها القطعية بسهولة ولكنها مثل النظارات الطبية. فمن كان نظره سليما قد يجد بعض الغرابة فيها، ولكن من كانوا في مثل هذه الحالة الخاصة لا يفهمون الحقيقة ولا يرونها ولا يستفيدون منها إلا بمثل هذه الآلة. وكما نرى في حياتنا الواقعية فإن الذين هم في حاجة إلى نظارات طبية ليسوا قلة، بل هم كثرة كاثرة. لذا كان إعطاء مثال النظارة مثالا مفيدا.

ثم إن بيانه بأن التشابهات تشكل جزءاً من استعارات دقيقة وان ذلك جزء من عنصر البلاغة في اللغة قام بإغناء تعريفه للمتشابهات. أي أن التشابهات التي تبدو مبهمه لها حظ من عنصر البلاغة وهي في الوقت نفسه صور لحقائق عميقة ودقيقة وتقوم بإظهار هذه الحقائق من خلف أستار شفافة.

2- قيامه بتوسيع دائرة التشابهات

التشابهات عند بديع الزمان النورسي تغطي مساحة أكبر مما يظنه الكثيرون، لأن نطاق ودائرة الذين يقوم القرآن بمخاطبتهم دائرة واسعة، فقد نزل لإرشاد جميع الأجيال حتى يوم القيامة. يرى النورسي أن هناك معاني عديدة وذات طبقات مختلفة وراء المعاني الصريحة للقرآن. و"ان تحت المعنى الصريح للآية الكريمة طبقات متعددة من المعاني، احدى هذه الطبقات هي المعنى الاشاري والرمزي. فهذا المعنى الاشاري ايضاً هو كلي، له جزئيات في كل عصر"¹⁹. وهذه المعاني الجزئية لا تضر موقع القرآن الصادق المصدوق، بل تقوم على العكس من ذلك بخدمة إعجازه وبلاغته. ويقول في موضع آخر:

"ان جمل القرآن الحكيم لاتنحصر في معنى واحد، بل هي في حكم كلي يتضمن معاني لكل طبقة من طبقات البشرية، وذلك لكون القرآن الكريم خطاباً لعموم طبقات البشر. لذا فالمعاني المبينة هي في حكم جزئيات لتلك القاعدة الكلية، فيذكر كل مفسر، وكل عارف بالله جزءاً من ذلك المعنى الكلي ويستند في تفسيره هذا إما الى كشافياته او الى دليله او الى مشربه، فيرجح معنى من المعاني. وقد كشفت طائفة في هذا ايضاً معنى موافقاً لذلك العدد. فمثلاً:

يذكر الاولياء في اورادهم ويكررون باهتمام بالغ قوله تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) (الرحمن: 19-20) ولهذا الآية الكريمة معان جزئية ابتداءً من بحر الربوبية في دائرة الوجود وبحر العبودية في دائرة الامكان، وانتهاءً الى بحري الدنيا والآخرة، والى بحري عالم الشهادة وعالم الغيب، والى البحار المحيطة في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، الى بحر الروم وبحر فارس والبحر الابيض والاسود - والى المضيق بينهما الذي يخرج منه السمك المسمى بالمرجان - والى البحر الابيض والبحر الاحمر وقناة السويس، والى بحار المياه العذبة والمالحة، والى بحار المياه الجوفية العذبة المتفرقة والبحار المالحة التي على ظهر الارض المتصل بعضها ببعض وما يسمى بالبحار الصغيرة العذبة

18 اشارات الإعجاز ص 175
19 الملاحق - قسطنطين ص 179

من الانهار الكبيرة كالنيل ودجلة والفرات، والبحار المالحة التي يختلط معها. كل هذه الجزئيات موجودة ضمن معاني تلك الآية الكريمة، وجميع هذه الجزئيات تصح ان تكون مرادة ومقصودة، فهي معان حقيقية للآية الكريمة ومعان مجازية".²⁰

ولا يعني هذا أن معاني القرآن مبهمة أو أن أي شخص يستطيع جرّها إلى الناحية التي يريدّها. ولكن المقصود هو أن للقرآن معاني متداخلة بعضها مع البعض الآخر مثل الدوائر المتداخلة بعضها ضمن البعض الآخر. فهذه الدوائر لا تتقاطع مع بعضها بل هي دوائر ذات مركز واحد، وهي كمثال الدوائر التي تحدث عند إلقاء حجارة على صفحة ماء راكد ثم تتوسع هذه الدوائر. فالمعنى المركزي هو المعنى الصريح، أما المعاني الأخرى فهي المعاني المتوسعة بعده.

أو ان هذه المعاني تشبه الحلقات المتوسعة في مقطع الشجرة. فكلما زاد قطر الشجرة كلما زادت قيمتها. وعندما نتطلع إلى شجرة نرى جذعها وأغصانها بينما يوجد لها في الأعماق جذور غليظة ثم الالاف من الجذور الشعرية الدقيقة (الشعيرات). كذلك فللايات القرآنية سطحها وعمقها وجذورها وشعيراتها. واسلوب الآيات شاملة للكل. وهذا هو السبب في أن يفهمون هذه الآيات بمستويات مختلفة وحسب مستوياتهم العلمية.²¹

وعندما يتناول طاهر بن عاشور هذا الخصوص بشكل واسع وشامل ينقل عن كتاب (فصل المقال لابن رشد (ت 1198) هذه الأسطر:

(اتفق المسلمون على عدم وجوب حمل جميع الألفاظ الواردة في الدين على معانيها الظاهرة. كما أن تأويل جميع الألفاظ وإبعادها عن معانيها الظاهرة لا يصح أيضاً).

وبعد قيامه باستعراض مواقف علماء أمثال قطب الدين الشيرازي، والغزالي، والرازي وأبي بكر ابن العربي يصل إلى النتيجة الآتية:

(إن معاني كلام الله تعالى المنزّه عن قصور المخلوقات تتطابق مع الحقيقة تمام التطابق، لذا فأى فرع من فروع العلم إن كان صحيحاً ووجدت هناك علاقة بينه وبين أي آية فهذه الحقيقة العلمية صحيحة بنسبة ما وصل إليه الفهم والإدراك الإنساني أو ما سيصل إليه، وإن تلك الحقيقة العلمية من ضمن ما أشارت إليه تلك الآية.

وهذه المعاني تكون معتبرة بشرط عدم خروجها عن المعنى الممكن في اللغة العربية وعدم الابتعاد عن المعنى الظاهر دون الاستناد إلى دليل، وعدم الخروج عن المعنى الأصلي بتأويل متعسف).²²

ويرى بديع الزمان أن هناك وظائف مهمة تقع على عاتق الراسخين في العلم في موضوع الآيات المتشابهات. وبعد قيامه بتفسير الحديث حول قيام النبي موسى عليه السلام بلطم عزرائيل في عينه نراه²³ يقول:

" كما ان في القرآن الكريم آيات متشابهات، ففي الحديث الشريف أيضاً متشابهات، لا يدرك معانيها الدقيقة إلا خواص العلماء".²⁴

20 المكنوبات ص 422

21 أنظر: سعيد رمضان البوطي: " من روائع القرآن "

22 أنظر: تفسير التحرير والتنوير 145/1

23 صحح البخاري / الجنائز 69، والأنبياء 31

24 المكنوبات ص 451

ويقول في موضع آخر: "وحيث ان قسماً من الاحاديث النبوية التي تخبر عن حوادث ستقع في آخر الزمان تحمل معاني عميقة جداً، كـ(المتشابهات)القرآنية؛ فلا تفسر كـ(الحكمات)، ولا يتمكن كل واحد من معرفتها، بل ربما يؤولها العلماء بدلا من تفسيرها. وان تأويلاتها تفهم بعد وقوع الحادثة، ويعرف عندئذ المراد منها، بمضمون الآية الكريمة (وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) (آل عمران: 7) ويبين تلك الحقائق الراسخون في العلم ويقولون: (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا).²⁵

غير أنه يؤكد على أن النصوص القرآنية والآيات المحكمات القرآنية والحقائق الظاهرية للقرآن التي أحرها السلف الصالح هي الأساس. وفي المقتبس الآتي نرى في البداية كيفية تقييمه لموقف الراسخين في العلم، وفي القسم الأخير كيفية تقييمه للذين يركضون وراء الفتنة ويحاولون تحريف الآيات المتشابهات عن مقاصدها الأصلية. فعندما يقول: "كما ان في القرآن الكريم آيات متشابهات تحتاج الى تأويل أو تطلب التسليم المطلق، كذلك في الحديث الشريف مشكلات تحتاج أحيانا إلى تفسير وتعبير دقيقين".²⁶ نراه يقسم المتشابهات إلى قسمين: القسم الأول هو ما يجب على الراسخين في العلم القيام بتأويله، والقسم الثاني هو (الحروف المقطعة) الذي يستلزم تسليما مطلقا.

3- قيامه ببيان أن المتشابهات لا تتناقض مع البلاغة بل هي من مستلزماتها

ادعى البعض بأن استعمال العبارات المتشابهة تتناقض مع مستلزمات البلاغة، وان هذا يعد نقصا في القرآن الذي هو في قمة البلاغة، فهم يحسبون ضرورة وجود طريق واحد وأسلوب واحد في تقديم الحقائق والتعبير عنها. فالحقيقة عند هؤلاء شيء رتيب ومطرد. بينما تستلزم الأحوال والمقامات والأهداف والمقاصد المختلفة أساليب مختلفة وطرقا مختلفة في البيان والشرح. والحقيقة أن البلاغة هي التصرف والتعبير حسب مقتضى الحال. فعندما يتحدث عالم مع طفل عليه أن يتزل إلى مستوى الطفل ويحدثه بأسلوبه لكي يستطيع نقل وإفهام ما يريد قوله إليه. وهذا الأسلوب هو الأسلوب المعقول هنا، بل إن أي تصرف آخر يكون غريبا وغير مقبول.

عندما يقوم القرآن الكريم ببيان بعض الحقائق الدقيقة يقوم البيان الإلهي بالنزول إلى مستوى الإدراك البشري لكي لا تجفل عقول الناس من هذه الحقائق، لذا يستعمل تعبيرات مناسبة لعقول السواد الأعظم من الناس. فمثلا لكي يقوم الحق تعالى ببيان تصريحه لشؤون الكائنات يستعمل تشبيهه سلطان على عرشه. ومن المعلوم أن الله تعالى لم يرد من هذه الآيات المتشابهات تشبيه ذاته العلية بالبشر، لأن هناك العديد من الآيات المحكمات تشير إلى هذه الحقيقة وتؤكد بها بشكل واضح وصريح. والحقيقة هي أن القرآن الكريم يستعمل أسلوب المتشابهات كتلسكوبات أو كمنظارات طبية مختلفة الأرقام لبيان الدقائق العميقة للناس ولنقلهم من الظاهر إلى الحقيقة.²⁷

هذا هو الذي يدعو البلغاء إلى استعمال الاستعارات والتشبيهات عند تصوير الحقائق الدقيقة والمعاني المجردة. والمتشابهات هي صور للحقائق الدقيقة، وهي بعض من استعارات لها طابع الدقة والإشكال.²⁸

25 الشعاات ص 103

26 الكلمات ص 400

27 انظر اشارات الإعجاز ص 176-177

28 المصدر والموضع نفسه

من الخطأ الكبير تصور أن استعمال الاستعارات من الكماليات المنحصرة بالأدباء، لأن أقل الناس حظاً في العلم أو في الأدب، بل حتى القروي البسيط يستعمل في اليوم الواحد ما لا يقل عن خمسين استعارة وتشبيه، فهو يقول لمن يريد تشجيعه (هلم يا أسدي المصور أثبت شجاعتك!)، ويقول في حق المنافق المتزلف بأنه (يهز ذيله)، ويقول في وصف كلام من لا يجبه (استفرغ ما في داخله)، ويقول في حق من دام نسله (إن موفده يشتعل)، ويقول في وصف من أصابه مرض خطير (إنه يصارع الموت). فهو عندما يستعمل مثل هذه العبارات في حياته اليومية يقوم من حيث يدري أو لا يدري باستعمال العديد من التشبيهات والمجاز والاستعارات. ومن الواضح أنه لا يقصد المعنى الحقيقي للألفاظ التي يستعملها. لذا فإن استعمال مثل هذه الأساليب في الخطاب هو البلاغة نفسها. وهذا هو ما قصده النورسي من المقتبسات التي سبق وأن أوردناها.

4- قيامه بإثبات أن هذه التشابهات ليست شبهات بل وسيلة لإثبات إعجاز القرآن:

قام بديع الزمان ببيان واضح وجميل بأن التشابهات التي عُدت وسيلة نقد ليست إلا من أدلة إعجاز القرآن. وهو يقول جواباً للذين عدوا التشابهات في الوهلة الأولى من النقائص:

1- إن القرآن الكريم معلم ومرشد عام، والذين يقعدون في حلقة دروسه يمثلون مختلف مستويات الإنسانية. وأكثر الناس من العوام. والأقلية في نظر المرشد تتبع الأكثرية، ذلك لأن الخواص يفهمون بكل سهولة الخطاب الموجه للعوام (أي الجماهير الواسعة) ويستفيدون منه، ولكن العكس ليس صحيحاً، فالعوام لا تستطيع الاستفادة من الخطاب الموجه إلى الخواص، بل يستطيعون استعمال الصور الموجودة في خيالهم كتلسكوبات (المنظير المقربة) لمشاهدة الحقائق وراء هذه الصور (وبما أن أنظارهم تحاول حصر خيالهم ضمن صور ويمكن أن يؤدي هذا إلى تحيل جسم الله تعالى أو وجوده في مكان وجهة معينة وهي أمور مستحيلة في حق الله تعالى نرى أن الله تعالى يؤكد على ضرورة فهم الآيات المتشابهات فهما صحيحاً)

(2)

أ - ويرد على الشبهة القائلة (إن في القرآن مشكلات) فيقول بأن الإشكال يقع "إما كون العبارة مُشكلاً؛ إما لدقة المعنى وعمقه، وإيجاز الأسلوب وعلويته، فمشكلات القرآن الكريم من هذا القبيل.. وإما لإغلاق اللفظ وتعقيد العبارة المناهية للبلاغة، فالقرآن الكريم مبرأ منه"²⁹.
ب - من الشبهات المقدمة هي: "وهو إهمام القرآن في بحث تشكل الحلقة على ما شرحته الفنون الجديدة:

فاعلم! إن في شجرة العالم ميل الاستكمال، وتشعب منه في الإنسان ميل الترقى، وميل الترقى كالنواة يحصل نشوء ونماء بواسطة التجارب الكثيرة، ويتشكل ويتوسع بواسطة تلاحق نتائج الأفكار؛ فيشمر فنوناً مترتبة بحيث لا ينعقد المتأخر إلا بعد تشكل المتقدم، ولا يكون المتقدم مقدماً للمؤخر إلا بعد صيرورته كالعلوم المتعارفة. فبناء على هذا السر لو أراد أحد تعليم فن أو تفهيم علم - وهو إنما تولد بتجارب كثيرة - ودعا الناس إليه قبل هذا بعشرة أعصر لا يفيد إلا تشويش أذهان الجمهور، ووقوع الناس في السفسطة والمغلطة.

مثلاً: لو قال القرآن الكريم: «إيها الناس انظروا إلى سكون الشمس وحركة الأرض واجتماع مليون حيوان في قطرة، لتصوروا عظمة الصانع» لأوقع الجمهور إما في التكذيب وإما في المغالطة مع

أنفسهم والمكابرة معها بسبب ان حسهم الظاهريّ - أو غلط الحس - يرى سطحية الأرض ودوران الشمس من البديهيات المشاهدة. والحال ان تشويش الاذهان - لا سيما في مقدار عشرة أعصر لتشهّي بعض أهل زماننا - مناف لمنهاج الارشاد وروح البلاغة".³⁰

3- ويقول جوابا على شبهة وجود آيات مناقضة لبعض الكشوف العلمية أو لبعض الأدلة العقلية: إن الغاية الأساسية للقرآن هي إثبات وجود الله والإخبار عن النبوة والآخرة والعدالة والعبادة. لذا فليس الإخبار عن ماهية الكون من مهام ومن مقاصد القرآن"

مهمة القرآن ومقصده الرئيسي هو التعريف بالخالق، وعندما يقوم بهذا فالمهم عنده مخاطبة الناس حسب المستوى العلمي الموجودين فيه ليطلعهم على حقيقة النظام الموجود في الكون، لكي ينتقلوا من النظام إلى الخالق الذي وضع هذا النظام ليصلوا عن هذا الطريق إلى التوحيد. ولا تم هنا الوسائل التي توصل إلى فكرة النظام هذه في عرف الإرشاد القرآني ، فقد تكون هذه الوسيلة أو تلك.³¹ وإنما ذكر الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلهية والنظام البديع على النظام الحقيقي جل جلاله. والحال ان اثر الصنعة والعمد والنظام يتراعى في كل شيء. وكيف كان التشكل فلا علينا؛ اذ لا يتعلق بالمقصد الأصلي.. ثم لأنها من قبيل الكنايات لا يكون معانيها مدار صدق وكذب. ألا ترى ان لفظ «قال» ألفه يفيد خفة سواء كان أصله واوا أو قافا أو كافا".³²

إذن فما دام بحث القرآن عن الكون هو من أجل سوق الأدلة، إذن كان من اللازم معرفة السدليل قبل المدعى. اذ: "لو قال القرآن الكريم في مقام الاستدلال: «أيها الناس! تفكروا في سكون الشمس مع حركتها الصورية، وحركة الأرض اليومية والسنوية مع سكونها ظاهراً، وتأملوا في غرائب الجاذب العمومي بين النجوم، وانظروا الى عجائب الالكتريك والى الامتزازات الغير المتناهية بين العناصر السبعين، والى اجتماع الوف الوف حيوانات في قطرة ماء لتعلموا ان الله على كل شئ قدير!..» لكان الدليل اخفى واغمض واشكل بدرجات من المدعى. وإن هذا الآ مناف لقاعدة الاستدلال. ثم لأنها من قبيل الكنايات لا يكون معانيها مدار صدق وكذب. ألا ترى ان لفظ «قال» ألفه يفيد خفة سواء كان أصله واوا أو قافا أو كافا".³³

4- وبخصوص التعابير المتشابهة يرد على الشبهة الآتية وهي : لقد فهمنا الحكمة من وراء استعمال القرآن مثل هذه التعابير . ولكن أما كان من الواجب أن يشير القرآن إلى الحقائق الموجودة في الكون في سياق محاولته للارشاد إلى حقيقة التوحيد ؟ يجب قائلنا:

"ما دام انه يستحسن وضوح الدليل.. كيف لا يقتضي الارشاد والبلاغة تأنيساً معتقداتهم الحسية، ومماشاة معلوماهم الأدبية بإمالة بعض ظواهر النصوص، اليها، لا ليدل عليها بل من قبيل الكنايات او مستتبعات التراكيب مع وضع قرائن وامارات تشير الى الحقيقة لأهل التحقيق".³⁴ اي "قد أميل ظواهر بعض النصوص لاتضاح الدليل واستئناس الافكار بالمعتقدات الحسية للجمهور، لا ليدل عليها بل قد نصب القرآن في تلافيف آياته امارات وقرائن ليشير الى ما في تلك الاصداف من جواهر والى ما في تلك الظواهر من حقائق لاهل التحقيق".³⁵

30 نفسه ص176

31 أنظر : سعاد يلدرم : " القرآن الكريم والمكتشفات العلمية " ص 20 - 21

32 اشارات الإعجاز ص 177

33 اشارات الإعجاز ص 177

34 نفسه ص 177

35 صيقل الإسلام - محاكمات ص 155

فمثلا مع أنه لم يصرح بشكل واضح على دوران الكرة الأرضية فقد أشار إليها في سورة الزمر (يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ) (الزمر /5) وفي آيات اخرى كذلك حيث نراه يكتفي بالإشارة إلى كون الأرض كرة تدور. ولم يدع القرآن العلماء محرومين في هذا الصدد فقد قدم امارات وقرائن عديدة تشير إلى هذه الحقائق.

5- تناوله لحكم التشابهات

مع أن بديع الزمان لم يتناول هذا الموضوع تحت عنوان مستقل إلا أنه أشار إليه في مواضع عدة. ومع أن معظم الحكم التي أشار إليها هي الحكم نفسها التي أشار العلماء السابقون إلا انه أشار إلى حكمتين لم يتناولهما أحد قبله:

1) - الإرشاد والهداية

" ان الارشاد انما يكون نافعا اذا كان على درجة استعداد أفكار الجمهور الأكثر. والجمهور - باعتبار المعظم - عوام. والعوام لا يقتدرون على رؤية الحقيقة عريانة ولا يستأنسون بها الا بلباس خيالهم المؤلف. فلهذه النكتة صور القرآن الكريم تلك الحقائق بمتشابهات وتشبيهات واستعارات وحفظ الجمهور الذين لم يتكلموا عن الوقوع في ورطة المغلطة. فأبهم وأهمل في المسائل التي يعتقد الجمهور - بالحس الظاهري - خلاف الواقع ضروريا، لكن مع ذلك أومأ الى الحقيقة بنصب امارات".³⁶

2) - شرح معان كثيرة بألفاظ قليلة

لقد تم ايراد شرح مفصل حول إعجاز القرآن في اللمعات الخمسة ضمن السؤال الثاني للكلمة الخامسة والعشرين فهو معجز من حيث لفظه ومعناه وفي مباحثه وعلمه وأسلوبه الجامع.³⁷

3) - خطابه لجميع المستويات ولجميع الأجيال حتى يوم القيامة

" ان جمل القرآن الحكيم لا تنحصر في معنى واحد، بل هي في حكم كلي يتضمن معاني لكل طبقة من طبقات البشرية، وذلك لكون القرآن الكريم خطاباً لعموم طبقات البشر".³⁸

4) - التشابهات تخدم غايته في البلاغة والإعجاز

" ان كنت من المنصفين اذا تأملت في دستور «كلم الناس على قدر عقولهم» ورأيت ان أفكار الجمهور لعدم اعداد الزمان والمحيط لا تتحمل ولا تهضم التكليف. تمثل هذه الأمور - التي انما تتولد بنتائج تلاحق الأفكار - لعرفت ان ما اختاره القرآن الكريم من الالهام والاطلاق من محض البلاغة ومن دلائل اعجازه".³⁹

5) - سوقها العلماء للتواضع وإظهار عجزهم

" كما ان في القرآن الكريم آيات متشابهات تحتاج الى تأويل أو تطلب التسليم المطلق".⁴⁰ في مثل هذه المواضع يقول النورسي بأنه عندما يعجز العلماء في فهم المعنى القطعي لبعض التشابهات يلزمهم إظهار التسليم.

6) - رعاية المدركات الحسية الظاهرية

36 اشارات الإعجاز ص 171
37 راجع الكلمات ص 451-467
38 المكتوبات ص 422
39 اشارات الإعجاز ص 176
40 الكلمات ص 400

"لكن ما نحن فيه لما خرج من درجة الامكان والاحتمال في نظرهم - بحكم غلط الحس - الى درجة البدهاه عندهم فحقه في نظر البلاغة الابهام والاطلاق احتراماً لحسياهم وحفظاً لاذهانهم من التشويش".⁴¹

7- إلهاب شوق البحث لدى الأذكياء من الناس لكون المعاني دقيقة وعميقة

"ان اغلاق الكلام المعقد وإشكاله ينشأ: إما من ركة اللفظ وضعف الاسلوب، فهذا لا يدنو من القرآن المبين.. أو من دقة المعنى، وعمقه، وجودته، وعدم مألوفيته، وندرته، حتى لكأن المعنى يتبدل على الفهم ويهم تجاهه، ليثير الشوق، طالباً للاهتمام والمكافأة، فمشكلات القرآن من هذا القبيل".⁴²

8- قيام المشابهات بحفظ رونق القرآن وطراوته وجدته على الدوام

يقوم القرآن الكريم - بفضل آياته المشابهات في الأكثر - بحفظ طراوته وجدته. فلو قدم كل الأشياء بشكل بسيط جدا ولا يحمل الا تفسيراً ومعنى واحدا ما كان في إمكان القرآن مقاومة الزمن مثله في هذا مثل غيره من الكتب الأخرى، ولتهدأ وأصبح في نظر البعض كتاباً فاته الزمن وأصبح (موضة قديمة) لذا " فما يحافظ شبابه وطراوته وغرابته على هذه الاعصار المديدة يكون البتة من خوارق العادات والعادات الخارقة".⁴³

9- استحالة ترجمة المشابهات وعجز البشر عنها أثبتت استحالة الترجمة الحقيقية للقرآن

هناك مئات من الآيات المشابهات في القرآن التي يصعب جدا ترجمتها بل تستحيل هذه الترجمة . لأن الترجمة تؤدي إلى فقد الكثير من معانيها الأصلية. لنعط بعض الأمثلة على هذا (خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) (الزمر/5)

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (الزمر /67)

(سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) (يس/36)

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) (الأنعام/125)

" لقد اثبتت (الكلمة الخامسة والعشرون)، انه لايمكن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقية، ولايمكن قطعاً ترجمة اسلوبه الرفيع في اعجازه المعنوي. وانه من الصعوبة جداً افهام الذوق، وبيان الحقيقة النابغين من ذلك الاسلوب الرفيع في اعجازه المعنوي".⁴⁴ لأن " الالفاظ القرآنية قد وُضعت وضعتاً بحيث: أن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى لسكون احياناً وجوهاً كثيرة جداً، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من ابواب مختلفة".⁴⁵ وبعد ذلك يورد أمثلة متنوعة من الآيات الكريمة المتشابهة: (النبأ:7 والأنبياء:30 ويس:36) موضحة ماتفيده كل منها من ارشادات متباينة . ثم يجيب عن سؤال مهم يوجهه المخاطب:

"اذا قلت: كيف نفهم ان القرآن قد أراد جميع تلك المعاني التي جاءت في الامثلة السابقة، ويشير

41 نفسه ص 176

42 صيفل الإسلام - المحاكمات ص 59

43 اشارات الإعجاز ص 171

44 المكتوبات ص 503

45 الكلمات ص 451

اليها؟

فالجواب: ما دام القرآن الكريم خطاباً أزلياً، يخاطب به الله سبحانه وتعالى مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور ويرشددهم جميعاً، فلا بد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الافهام، وسيضع إمارات على ارادته هذه.

نعم، ففي كتاب "اشارات الاعجاز" ذكرنا هذه المعاني الموجودة هنا وأمثالها من المعاني المتعددة لكلمات القرآن، واثبتناها وفق قواعد علم الصرف والنحو وحسب دساتير علم البيان وفن المعاني وقوانين فن البلاغة.

والى جانب هذا فان جميع الوجوه والمعاني التي هي صحيحة حسب علوم العربية، وصائبة وفق اصول الدين، ومقبولة في فن المعاني، ولاتقة في علم البيان ومستحسنة في علم البلاغة، هي من معاني القرآن الكريم، باجماع المجتهدين والمفسرين وعلماء اصول الدين واصول الفقه وبشهادة اختلاف وجهات نظرهم. وقد وضع القرآن الكريم امارات على كل من تلك المعاني حسب درجتها وهي؛ إما لفظية أو معنوية، والامارة المعنوية هي: اما السياق نفسه او سباق الكلام أو أمارة من آيات أخر تشير الى ذلك المعنى.

ان مئات الالوف من التفاسير التي قد بلغ بعضها ثمانين مجلداً⁴⁶ وقد ألفها علماء محققون، برهان قاطع باهر على جامعية وخارقية لفظ القرآن".⁴⁷

وقد يبدو في الوهلة أن القول بأن القرآن جاء من أجل هداية الناس لذا وجب أن يكون محتواه واضحاً بيناً لا لبس فيه وجب ان يكون له اسلوب واحد ولا يحتتمل الا معنى واحداً فقط ، أي ما كان له أن يجوي المتشابهات. ولكن بعد إيراد هذه الإيضاحات يتبين مدى ضرورة ووجوب هذه المتشابهات للانسان.

ورد في القرآن الكريم أن الله خلق الانسان وعلمه البيان ، وأن الله تعالى الذي له الصفات الأزلية المطلقة خاطب الإنسان المخلوق والحدود والقاصر بهذا القرآن، لذا كان احتواء القرآن على الآيات المتشابهات ضرورة لا غنى عنها. وقد قام بديع الزمان النورسي - كما رأينا من المقتبسات التي أوردناها من كتبه - بشرح وبيان مفصل وجميل لهذه الحقيقة. وهو لم يكتف باثبات أن المتشابهات لا تخل بهدف القرآن، بل أثبت أيضاً ضرورة وجود هذه المتشابهات وكونها شرطاً لا غنى عنه، أي أن عدم وجوده هو الذي كان سيخلل بهدف ومقصد القرآن.

ونود أن نختتم ورقتنا هذه بمقتبس عن أحد المفسرين المعاصرين وهو الاستاذ محمد حمدي يازر كختام جميل لأراء الأستاذ النورسي :

(ليست المتشابهات - كما ظن البعض - شيئاً لا معنى له وإماماً مطلقاً على العكس من ذلك فهي تحتوي على معاني عديدة لذا يصعب علينا فرز الهدف والغاية الرئيسة منها ، وهذا هو سبب الإبهام عند البعض. ويعود الإبهام في مظهرها أن معانيها تتجاوز طاقة الفكر البشري. والمتشابه في الأصل تعبير يجمع في طياته أنواعاً من البيان، منها المعاني الحقيقية والحجازية والصريح والكنائية، والتمثيل والتحقيق، والظاهر والخفي. لذا سبق وأن وصفناها بأنها (المعلوم - المجهول) وكما هو معلوم يكون

46 حتى أن: الاستفتاء في علم القرآن (تفسير الادنوي) في مائة وعشرين مجلداً، صنفه في اثني عشرة سنة، محمد بن علي بن احمد المقرئ النحوي المتوفي سنة 388 هـ (كشف الظنون 1/441) - المترجم.
47 الكلمات ص 456

402 المؤتمر العالمي الرابع لبيدع الزمان سعيد النورسي

الإمام أحيانا من مظاهر البلاغة . وكما أن كل شخص لا يكون مخاطبا بكل كلام ، كذلك فإن البشرية لا تستطيع فهم وادراك العلم الالهي الكلي) .

ترجمة : اورخان محمد علي

اسلوب الارشاد في القرآن

د. نيازي بكى P

اولا : الارشاد :

خلق الله الانسان مثل ميدان تتصارع فيه قوى متناقضة. فهو يضم في باطنه قوى دافعة الى الشر كالنفس والانانية والهوى والشهوة والغضب، وقوى دافعة الى الخير كالعقل والقلب والشفقة والرحمة والانصاف والعدل . هذه القوى المتناقضة تحقق العدل والتكافؤ في الامتحان ، فيتسنى للانسان الحرّ في ارادته ان يختار الطريق الذي يسلكه. فهو مالك لإرادة حرة واسباب تؤهله إجتياز الامتحان او الفشل فيه. { ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفقتين، وهديناه النجدين }¹ وهما الخير والشر. { إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعناه سميعا بصيرا }²

ان كل مسلم ملزم بتعليم من دونه وارشاده على قدر قوة علمه وجهده واستطاعته في الدين والاخلاق وكل علم انساني. فنشر الخير والفضيلة من واجبات اصحاب الخير والفضل³. والحديث الشريف "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"⁴ يجعل من كل انسان مكلفا بخدمة الانسانية سواء في عالم المعنى او دنيا المادة، وسواء أكان رأس دولة ام رأس عائلة ومواطننا من السواد، ما دام عنده شئ من قوة او مهارة.

أ - معنى الارشاد :

ترد في القرآن مشتقات من فعل رشد هي : الرشد والرشاد والراشد والرشيد والمرشد. والارشاد هو الهدي الى سبيل الحق وافهام ما يضرر وما ينفع في الدنيا والآخرة. وسبيل الخير والنفع للناس افراداً وجماعات هو الرشد. والبدال اليه رشيد

P من مواليد 1953 في قرية كوزر التابعة لولاية بنكول . وحصل على شهادة الماجستير من جامعة مرمرة سنة 1990 والدكتوراه من جامعة صقاريا سنة 1997 . له عدة مقالات منشورة ، مع عدد من الكتب ، وهو أحد اعضاء لجنة ترجمة في ظلال القرآن الى اللغة التركية . وحاليا استاذ مساعد في كلية الألهيات بجامعة صقاريا .

1 - سورة البلد : 8 - 10

2 - سورة الانسان : 2

3 - اولوطاغ ، سليمان ، الارشاد في الاسلام ، استانبول - 1997 .
4 - البخاري ، الجمعة ، 11 ومسلم بالأمارة ، 5 (رقم الحديث:30)

وراشد ومرشد⁵. وتوجد كلمات اخرى تفيد معنى الارشاد، اكثرها تكرار هي النصح والوعظ.

النصح : يعني الكلمة الطيبة والدلالة الى الخير. ويدل على اهمية النصح، الحديث الشريف "الدين النصيحة"⁶ والآية الكريمة: { واذكر ، فان الذكرى تنفع المؤمنين }⁷ الوعظ : تكررت مشتقات "وعظ" في القرآن خمسا وعشرين مرة. وهو بمعنى النصح والارشاد. وقد أرجع الله تعالى الوعظ الى نفسه فقال : { واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به }⁸ وقال تعالى { ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة }⁹ موجها الخطاب الى الرسول p. فما مبلغ السمو في وظيفة ذكرها الله تعالى لنفسه ولرسوله !
وفي معنى الارشاد ايضا، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلمات ومصطلحات اخرى.

ب - مقصود الارشاد :

اساس مقصود الاسلام سعادة البشر في الحياة الدنيا والآخرة. وتلخص ذلك الآية { وما ارسلناك الا رحمة للعالمين }¹⁰ فان جوهر الرحمة هو دفع الضرر عن الانسان وجلب النفع له¹¹.

يقول بيدع الزمان سعيد النورسي في تفسير: "الرحمن الرحيم" في سورة الفاتحة: حكمة ورود هذين الاسمين من الاسماء الحسنی بعد اسم "الرب" هو: "انهما اشارتان الى أساسی التريية، اذ "الرحمن" لكونه بمعنى الرزاق يلائم جلب المنافع ، و "الرحيم" لكونه بمعنى الغفار يناسب دفع المضار وهما الاساسان للتربية"¹². ويرى بيدع الزمان ان حكمة ورود "الرحمن الرحيم" مع لفظ الجلالة "الله" في البسملة، هي الاشارة الى صفتي الجلال والجمال لذات الله سبحانه : "ان لفظ الجلال كما يتجلى منه الجلال بسلسلته، كذلك يتراءى الجمال بسلسلته من الرحمن الرحيم. اذ الجلال والجمال اصلان تسلسل منهما - بتجليهما في كل عالم - فروغ : كالامر والنهي ، والثواب والعذاب، والترغيب والترهيب، والتسبيح والتحميد، والخوف والرجاء الى آخره .."¹³.

فاذا نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية، نقول ب بروز انعاسكات الجلال والجمال في منهج الارشاد في القرآن، لان القرآن هو كتاب الارشاد الذي انزله الله الرحمن الرحيم.

5 - اولوطاغ - مصدر سابق

6 - انظر البخاري - الايمان 42 ، ومسلم ، الايمان، 23 (رقم الحديث 95)

7 - سورة الذاريات : 55

8 - سورة البقرة : 231

9 - سورة النحل : 125

10 - سورة الانبياء : 107

11 - انظر عبد الكريم زيدان - اصول الدعوة /

12 - انظر بيدع الزمان سعيد النورسي - اشارات الاعجاز / 28

13 - المصدر السابق / 25

ان جوهر الارشاد هو حفظ الانسان من المضرات وانتفاعه من المنافع. ولما كان النفع والضرر معنويا وماديا، وديونيا واخرويا، فمقصود الارشاد يعم المادة والمعنى والدنيا والآخرة جميعا.

1 - المقصود المعنوي :

أ - رضاء الله

ان اكثر شئ يحتاج اليه الانسان هو كسب رضاء الله تعالى. وما اجل مرتبة الرضا الذي يذكرها الله تعالى في الثناء على الصحابة الكرام { محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا { (الفتح / 29)

وقد اعتمد بديع الزمان النورسي الاخلاص اساسا في الارشاد وعلم طلابه ذلك : "ينبغي ان يكون رضاء الله في عملك. فاذا حصل رضاؤه ، فلا بأس في سخط الدنيا كلها. واذا قبل هو، فلا ضير ان يرد الناس كلهم. فاذا حصل رضاؤه وقبوله، فسيجعل الخلق يقبلون ويرضون ان شاء واقتضت حكمته، وان لم تطلبوا ذلك. ومن اجل ذلك، ينبغي ان يكون المقصود الاساس المباشر والوحيد من هذه الخدمة هو رضاء الحق تعالى " ¹⁴

ب - طلب الآخرة :

ينبغي ان يجعل الانسان مقصوده الآخرة من اعمال الخير كلها. { وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين } ¹⁵ { قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد } ¹⁶ { وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة } ¹⁷ فخدمة الارشاد يقصد منها سعادة الآخرة للمرشد والمسترشد.

2 - المقصود المادي :

أ - اصلاح الفرد والمجتمع :

لا يصلح المجتمع إلا بصلاح الافراد. فالفرد من المجتمع هو مرآة له. والمجتمع السامي في قيمه الانسانية ، مدين في ذلك لأفراده الممتازين ، لذلك ينبغي ان يبدأ المرشد بوظيفة الارشاد من نفسه وعائلته. وما اجمل ما قيل: ان كل انسان لو نظف باب بيته لتنظفت المدينة. فالفرد والمجتمع مثل حوضي ماء يغذي كل منهما الآخر. وفي حال الرغبة في الخلاص، يلزم بداية التربية من الفرد في دائرة الدور والتسلسل هذه.

وهذه آيات في اهمية اصلاح الفرد: { قل هي يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور } ¹⁸ { أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون } ¹⁹ وآيات مثل {

14 - النورسي - اللغات / 242

15 - سورة آل عمران : 133

16 - سورة الكهف : 110

17 - سورة القصص : 77

18 - سورة الرعد : 16

19 - سورة الزمر : 9

ولا تزر وازرة وزر اخرى }²⁰ تؤكد المسؤولية الفردية عن العمل. اما حديث الرسول p "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"²¹ فتؤكد على مسؤولية الفرد في كل مجتمع ، وبذلك يجعل المسؤولية الفردية شعورا اجتماعيا تكافليا. "وبدع الزمان يرى ان حركات الاصلاح ينبغي ان تبدأ من الافراد، اذ لا يصلح المجتمع إلا بصالح الافراد.

ب - تحقيق السلام الاجتماعي :

الآيات القرآنية التي تحث على السلام الاجتماعي كثيرة، منها: { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون }²² ويقول بيدع الزمان "انني على استعداد لأفدي حياتي الف مرة وكرامتي الف مرة من اجل أمن هذا الشعب، والراحة الدنيوية والسعادة الآخروية للأطفال الابرياء والعجائز الموقرين والمرضى والفقراء المساكين منهم خاصة" ويؤكد انه يسعى لانقاذ الناس من الفوضوية وتأسيس السلام الاجتماعي بكليات رسائل النور: " يلزم بالضرورة خمسة امور لانقاذ الحياة الاجتماعية لهذا الوطن والشعب من الفوضوية في هذا الزمان العجيب. التوقير والرحمة واجتناب الحرام والامان والطاعة بدلا عن التسبب الفردي. إن اثر رسائل النور في الحياة الاجتماعية هو تثبيت هذه الاسس ورسها بقوة وقدسية. اما الدليل على حفظها الحجر الاساس للامن فهو تحويل مائة الف انسان قرأ الرسائل اثناء الخمس والعشرين سنة الماضية الى اعضاء نافعين يجتنبون الإضرار بالوطن والشعب " ²³ ويعبر عن تأسيس السلام الاجتماعي والامان بالايامن بمبادئ الاسلام: " عندي يقين ان سموات آسيا وارضها، في القابل لا بد لها من الاستسلام، لليد البيضاء اعني الاسلام. لانه يمين يمين الايمان، يمنح الامن والامان، للانام " ²⁴ ويوضح بيدع الزمان رأيه ملخصا وجليا في ضرورة تأمين السلام الاجتماعي بتربية جيل مؤمن. " ان صيدليات رسائل النور التي هي من علوم الايمان توفر وتؤسس الامن والامان. نعم، الايمان - وهو منشأ السجايا الجميلة والخصال الحميدة - لا بد ان يؤسس الامن ولا يفسده . وما يخل بالامن هو عدم الايمان بسجاياه الفاسدة". ²⁵ ونبين الاسس الخمسة للسلام الاجتماعي التي ذكرها سعيد النورسي:

1 - التوقير : توقير القيم الانسانية مثل حرية الدين والوجدان والفكر.

ان اشباع هذه المشاعر الفطرية التي تجعل من الانسان انسانا فعلا، سواء في العائلة والدولة والمؤسسات الاجتماعية، ترخي التوتر النفسي عند الافراد الى أدنى الدرجات.

20 - سورة فاطر : 18

21 - البخاري ، الجمعة، 11 مسلم ، الأمانة 5 (30)

22 -سورة آل عمران : 103

23 - النورسي : الملاحق / امير داغ 2 / 239

24 - النورسي : الشعاعات / 406

25 - الكلمات / 837

وخير مثال على حرية الدين والوجدان في الاسلام هو منع المسلم من اكرام زوجته الكتابية على الدخول الى الاسلام بغير ارادتها، وهي معه تحت سقف واحد. ان الاستبداد والقهر في هذا العصر على المستوى الفردي او الاجتماعي هو من اهم اسباب الشخصية المناقفة الازدواجية، والمؤدية الى القلق والاضطراب النفسي. وهذه الحريات تنهي عوامل الازدواجية المسببة للأمراض النفسية بروح التسامح والحوار والتحمل والتوافق، فتشارك في توفير الامان والطمأنينة في المجتمع. ولذلك، ينبغي توفير فكر من يوجه اليه الخطاب اثناء الارشاد او التربية او التعليم، والابتعاد عن اسلوب احتكار الحقيقة واعتماد المرشد والمعلم في مستوى الارشاد العام او النخبوي على الاسلوب المرن.

ويرى بديع الزمان ان الحقيقة ليست واحدة، بل متعددة حسب الوضع، فشرب الماء في علم الطب - مثلا - يفيد حقائق متعددة حسب المريض، فيكون واجبا او مستحبا او مكروها او حراما. فان قيل: الحق واحد، فكيف تكون احكام مختلفة في المذاهب الاربعة وفي اثني عشر مذهباً كلها حقاً؟ الجواب: الماء يتخذ خمسة احكام حسب خمسة مرضى بأمزجة مختلفة. هو حسب مزاج واحد منهم دواء، فهو واجب طبياً. ومضر كالمس للآخر فهو حرام عليه طبياً، وللثالث قليل الضرر فهو مكروه عليه طبياً وللرابع مانع للنفع بلا ضرر فهو سنة له طبياً وللخامس لا نافع ولا ضار فهو مباح طبياً فليشربه هنئاً. الحق ههنا تعدد. والوجه الخمسة كلها حق. فهل يسوغ ان نقول الماء دواء، وحكمه واحد، فهو واجب فقط؟²⁶

2 - الرحمة: التسامح والحب بين الاطراف .

من العوامل المهمة في السلام الاجتماعي، الحفاظ على التسامح والحب والاحترام والرحمة بين الاطراف المتنوعة في الحياة الاجتماعية. وفي هذا المعنى يقول الرسول p: " لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا"²⁷ ويعبر بديع الزمان عن الهمية التي يوليها للموضوع بقوله: " حاصل ما علمت علما قاطعا في عمري كله من الحياة الاجتماعية البشرية، وما اكتسبته من تحقيقاتي وبحثي، هو ان اجدر شئ بالمحبة هي المحبة، واجدر خصلة بالمخاصمة هي المخاصمة. ان خصلة المودة والمحبة التي تطمئن الحياة الاجتماعية البشرية وتدفعها الى السعادة، اجدر شئ بزيادة الود والحب. وخصلة العداوة والبغضاء التي تحطم الحياة الاجتماعية البشرية مضررة وقبيحة واجدر شئ بالكراه والعداء والنفور... لقد ولى زمن الخصام والعداوة، وظهر في الحربين العالميتين عظيم سوء العداوة وتخريبها وظلمها الرهيب، وبرز غياب كل فائدة عنها. الحاصل : ان المحبة والاخوة والمودة مزاج الاسلام ورابطته. ومزاج اهل العداوة كطفل فسد مزاجه، فهو يريد البكاء، ويبحث عن شئ يتعذر به لبيكي. فتكون علة اخف من جناح الذباب وسيلة لبيكائه. وايضا كرجل مشؤوم فاقد الانصاف، فلا يحسن الظن

ما وسعه سوء الظن، ويستتر عشرة حسنات بسيئة واحدة. وهذا ترده سجية الانصاف وحسن الظن الاسلامية.²⁸

3 - اجتناب الحرام :

المقصود من كل حرام في الاسلام هو امان الفرد والمجتمع وراحتهما. فهو يصون قيما انسانية عالية مثل الدين والنفس والمال والعقل. لكن درء المفسد واجتنابها صار عسيرا بجهود منفردة في عالمنا الحاضر المتواصل. وبإفادة بديع الزمان: " هذا الزمان، زمان الجماعة، لا زمان الفرد. ومهما بلغ دهاء الفرد، بل ان جمع دهاء مائة، فسوف يغلب امام الشخص المعنوي لجماعة مخالفة، ما لم يمثل جماعة او ما لم يمثل الشخصية المعنوية لجماعة"²⁹ لا بد من دخول الحس التعاوني الى عالم الارشاد. ينبغي ان ندرك اهمية التعاون في امور الدين والدنيا وفي الوسائل المادية والمعنوية، والأخذ بيد انساننا الى السلام وفاقا للقرآن بهذا النهج، فيحتضن الغني والفقير، والعامل ورب العمل، والأمر والمأمور، والقائد والمقود، والدولة والمواطن. وهو المقصود في الآية الكرية { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان } (سورة المائدة : 2) في الحديث الشريف "خير الناس من ينفع الناس"³⁰

4- درء العصيان المفضي الى الفوضى :

ينبغي ان يكون هدف الارشاد الرئيس، تربية تمنع نشوء براعم من بذور الفرقة والفوضى في المجتمع ونفس الفرد. وفي الآيات الآتية ان الانسان لا يحصل عنده الاطمئنان ولا يعيش في اخوة ووثام إلا باحسان من الله، ولا يتنعم بهذا الاحسان إلا بالاعتصام بدينه. { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا }³¹ { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا }³² { ومن يتق الله يجعل له مخرجاً }³³ وبديع الزمان يشترط لدولة مثالية ومجتمع مثالي منع العصيان المفضي الى الفوضى قبل كل شئ. فلا يمكن فهم ألطاف الاسلام في موضع الفوضى الخارج عن حكم العقل السليم. مع هذا ، يرى بديع الزمان ان نهج القرآن يمنع هضم حق لفرد واحد بمخالفة رضائه حتى بدعوى منفعة العالم كله، فيجاوز برأيه هذا النظام الديمقراطي التعددي الجماعي المقبول كأحسن اشكال النظم في عصرنا، الى اقصى حدود الحرية والحقانية³⁴.

28 - مسلم ، الايمان 93 مسلم ، الايمان 93

29 - مسلم ، الايمان 93

30 - العجلوني ، كشف الخفاء ، 1 / 393 ، طبعة بيروت 1352 هـ وفي رواية: انفعهم للناس ، انظر : الجامع الصغير 13/3

31 - سورة آل عمران : 103

32 - سورة النور : 55

33 - سورة الطلاق : 2

34 - النورسي - الكتوبات /

ان بديع الزمان يقف موقف الردع ضد العصيان المفضي الى الفوضى، كما يقف ضد انواع الطغيان والدكتاتورية التي تعتمد القهر وتخل بحقوق الانسان. عنده ان مثل هؤلاء الجبابرة هم من صنف قطاع الطرق المفسدين حتى ان كان واحدهم في مقام الخلافة³⁵. اقول ان بديع الزمان يدافع بالطاعة ضد الفوضى، لكنه يجسد العصيان المدني بانواعه ضد الطغيان، مسترشداً بقول النبي p: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق." ان بديع الزمان يقف مع رد الفعل الشعبي ضد القهر المخالف للقانون. وهو يمثل للتصرف في اطار حس اجتماعي، بحيوان مفترس جائع لا تكتسب منه رحمة باستصناع العروض المحببة، بل يزيده اشتهاً، ثم يغرز مخالبه وانياه، ويطلب عن ذلك اجرا وزيادة!³⁶

5- تنشيط الكوامن الداخلية للمجتمع :

أ - الاخاء :

المؤمنون يتعاملون في اخاء، وقد وضعوا انفسهم حيث قال الله تعالى { انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلمكم ترحمون }³⁷ وهم في المنشط والمكره، كالجسد الواحد، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ب - صلة الرحم :

القرآن الكريم يدعو الى إقامة الوشائج بين الاقرباء على فضيلة التعاضد والتعاون بعيداً عن الصراع والتنازع بسبب اختلاف المنافع: { ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى }³⁸ { وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل }³⁹

ج - حسن الجوار :

ان حسن الجوار من اسباب السلام في المجتمع، وقد حث عليه القرآن الكريم: { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً }⁴⁰

د - صلة المواطنة :

نلمس في الآية الكريمة الآتية صلة اخوية بين المقيمين في وطن واحد، قد لا ترقى الى درجة اخوة الرحم، لكنها عامل قوي في التوحيد وحرص الصفوف: { والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون }⁴¹

هـ - صلة الانسانية :

35 - النورسي - سيرة ذاتية - صيفل الاسلام / 443

36 - النورسي - اللوامع / 862

37 - سورة الحجرات : 10

38 - سورة النحل : 90

39 - سورة الاسراء : 26

40 - سورة النساء : 36

41 - سورة الحشر : 9

الناس كلهم من اب واحد وام واحدة، فهم ابناء عائلة كبيرة واحدة، لا يتفاضلون بشئ إلا بفضيلة التقوى عند الله: { يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم }⁴² يتعرض بيدع الزمان الى هذه الامور التي لخصناها في خمس نقاط مذكورة آنفا، فيقول: " الجيش يوزع الى فرق، والفرقة الى الوية، واللواء الى افواج، والفوج الى طوابير وحظائر، ليعرف وظائف كل جندي. كذلك، الهيئة الاجتماعية الاسلامية، جيش كبير، توزع الى قبائل وطوائف لكن لهم جهات وحدة بعدد آلاف الاحاد: خالقهم واحد، ورازقهم واحد، ونبينهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد، وواحد وواحد، حتى الالف واحد ثم واحد⁴³ ويقول عن اهمية الوحدة والتآلف المتحقق من الشعور الايماني في المجتمع: " توجد وشائج للوحدة وروابط للاتفاق ومناسبات للاخوة بالنور والشعور الذي يهبه الايمان بعدد الاسماء الالهية التي يريها ويعرفها. مثلا: خالقكما واحد ومالككما واحد ومعبودكما واحد ورازقكما واحد... وواحد وواحد وواحد ثم واحد الى الالف. ثم ان نبيكما واحد، ودينكما واحد وقبلتكما واحدة.. وواحد وواحد الى المائة. ثم قرينتكما واحدة، ودولتكما واحدة، ووطنكم واحد.. واحد وواحد الى العشرة. كل هذا الواحد ثم الواحد يلزم الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق، والمحبة والأخوة. فانت تفهم، اذا لم يمت قلبك ولم ينطفئ عقلك، كم تحتقر روابط الوحدة وتستخف باسباب المحبة جميعا وكم تظلم وتعسف مناسبات الأخوة كلها، مع هذه السلاسل المعنوية التي تربط الكائنات والكرات ببعضها، اذ ترجح امورا طفيفة وزائلة اهون من خيط العنكبوت مثل الشقاق والفرقة والبغض والعداوة، فتعادي مؤمنا عداوة حقيقية وتضمير عليه الحقد"⁴⁴

و - فضل الارشاد :

من المقرر ان الارشاد والتبليغ فرض كفاية⁴⁵، بدلالة الآية الكريمة: { ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون }⁴⁶ وما اشبه الصلاة على الميت التي تسقط عن المسلمين باداء نفر منهم، بوظيفة الارشاد والتبليغ التعاونية التكافلية التي توقظ أناسا وقعوا في تابوت الغفلة وتنتقدهم من جنازة معنوية !. ان قيام نفر من الناس بهذه الوظيفة تسقط المسؤولية عن غيرهم. وبعكسه يؤاخذ المجتمع كله، وربما الانسانية كلها في عصرنا هذا خاصة. ذلك، لان العالم كله صار كمدينة واحدة في يومنا . وكثافة وسائل الاتصال تستتبع زيادة التأثير. ان اضرار انواع الاعمال والتصرفات المناهية للانسانية التي يمنعها الاسلام الساعي الى السمو بالانسان الى مرتبة الانسانية، لم تعد تقتصر على الافراد، بل غدت وقائع جماعية ومصائب اجتماعية. ونجد اشارة الى هذا الشعور التكافلي في

42 - سورة الحجرات : 13

43 - النورسي - المكتوبات / 412 - 413

44 - النورسي - المكتوبات / 341

45 - انظر الغزالي - احياء علوم الدين ج 2 / 303 طبعة القاهرة 1358

46 - سورة آل عمران : 104

الآية الكريمة { كنتم خير امة اخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله }⁴⁷ لقد قرر علماء الاسلام ان تحذير البشرية بتعاليم الاسلام الفاضلة ضد شبكات الفساد الساعية الى التشكيك بالدين وفي حيك الحيل والمؤمرات ضد المسلمين فرض كفاية، لكنها لم تكن في الماضي قد بلغت هذا المبلغ في استخدام الغرائز الشهوانية وهوى النفس ورغباتها. اما اليوم فقد استنفرت المال والقوة والنفوذ والغرائز الشهوية والانحرافات العقائدية والقدرات الدنيوية جميعا لقطع الطريق الموصل الى الله وكسب رضائه، ولذلك صارت الدعوة الى الاسلام في يومنا فرض عين⁴⁸.

لقد قال النبي م لعلي حين أعطاه الراية لفتح خيبر "ادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم... فوالله لان يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"⁴⁹

منهج الارشاد في القرآن :

نبدأ بايضاح عناصر الارشاد الاساسية، وهي المرشد والمسترشد ومنهج الارشاد.

اوصاف المرشد :

المرشد هو من يسعى الى اصلاح الناس ويكون قدوة لهم يقتدى به . ولا يكون لقول المرشد اثر في النفوس إلا ان يكون مرشدا بالقول والعمل وإلا فعمله يكذب قوله ويفقد ثقة الناس به، فينكث غزله بالنقائض ولا يصلح حال قوم يشهدون في المرشد نقض القول بالفعل، بل لا مفر من فسادهم.

ويلزم في المرشد اوصاف حتى لا تتناقض اعماله مع مقصود الارشاد هي :

1 - الايمان :

من العيب ان يعلم الايمان فاقد للايمان، كمعلم الصلاة الذي لا يصلي. مع هذا، الاصل المهم اللازم للارشاد هنا، ان يكون ايمان المرشد. بما يقول إيمانا عميق الغور. فمن لا يؤمن بما يقول إيمانا من باطن قلبه لا يكون لقوله اثر في السامع. ومن يلتفت الى انسان غير مسلم يدعو الى الاسلام؟ وما اشبهه بأب مدمن على الدخان ينصح ولده بترك الدخان او طبيب يعاقر الخمر ثم يعدد اضراره.

2 - العلم :

العلم كصمام أمان يصون جوهر الارشاد. وكم من قليل علم يكسر العظم اذ يسعى الى جبره، كما يقول الله تعالى : { ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتكم بين الناس ان تحكموا بالعدل }⁵⁰. ولا يخفى ان اول أمر نزل به القرآن هو "اقرأ". ومن العلم ألا يقال كل حق في كل مقام وموضع.

3 - التقوى :

47 - سورة آل عمران : 110
48 - انظر محمد سعيد رمضان البوطي - الدعوة في الاسلام (ترجمة تركية) سعيد شمشك ص 9 استانبول سنة 1995
49 - انظر البخاري - الجهاد 102 ومسلم، فضائل الصحابة (34)
50 - سورة النساء : 58

يقال ان "الاصلاح زكاة مفروضة على من يملك نصاب الصلاح"⁵¹. ومغزى هذا الكلام ان تتصح نفسك بشئ اربعين مرة قبل ان تتصح به غيرك. مع هذا، لا معصوم في الاسلام إلا رسول الله p. اذن لا محل للتصور بطهارة المرشد أو المبلغ وتجرده من الذنوب تجردا كاملا. لكن من الطبع ألا يستسيغ المجتمع ان ينهى الواعظ عن سيئة يقترفها بنفسه. وفي الآية الكريمة { **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** }⁵² إشارة الى ترابط التقوى بالارشاد، وضرورة اصرار المرشد على طلب الحق، وتخلق المرشد باخلاق القرآن، وتزوين المرشدين بزينة الخلق القرآني ما داموا يقدمون القرآن مرشدا.

4 - الشخصية المتوازنة :

معنى الشخصية المتوازنة اجراء حياة في خط متوازن بين القوى الفطرية المستقلة عن بعضها. ومعلوم ان الله خلق ثلاث قوى لإدامة حياة الروح المودع في بدن الانسان المتعرض الى عوارض كثيرة والمحتاج الى الحفظ من اضرار كثيرة والانتفاع من منافع جمّة، هي : قوة الاشتهاء لجلب المنافع، وقوة الغضب لدرء الاضرار، وقوة العقل لتمييز الخير عن الشر والنفع عن الضرر. والمطلوب هو الوسط بين حدي الافراط والتفريط في هذه القوى الممنوحة بحرية غير محدودة حتى تتحقق المساواة في الامتحان والاختيار بارادة حرة.

أ - القوة الشهوية :

حد الافراط في هذه القوة هو "الفجور" المتظاهر في الرغبة الماحقة للعرض والشرف والناموس بغير مبالاة بحرام او حلال . وحد التفريط فيها هو "الخمود" بموت اشتهاة حلال او حرام. اما حد الوسط فهو "العفة" بطلب الحلال فقط.

ب - القوة الغضبية :

حد الافراط في قوة الغضب هو "التهور" المؤدي بصاحبه الى الجراة على كل شئ مادي او معنوي. وحد التفريط فيها هو "الجبن" المفضى الى الخوف من او هام لا لزوم لها. اما الوسط فيها فهو "الشجاعة" بإقدام صاحبها وان ادى الى الفداء بنفسه من اجل الحقوق الدينية أو الدنيوية على ألا يختلط بشئ غير مشروع.

ج - القوة العقلية :

حد الافراط في قوة العقل هو "الخلط" والذكاء المضطرب يفضي بصاحبه الى اظهار الحق بمظهر الباطل او اظهار الحق بالسفسطة والديماغوجية. وحد التفريط فيها هو "الغباء" المفضي بصاحبه الى الغفلة عن كل شئ في امور الدنيا والآخرة. وحد الوسط فيها هو "الحكمة" . واهل الحكمة هم الذين يرون الحق حقا فيتبعونه، والباطل باطلا فيجتنبونه.

ان المرشد الاعظم بلا نزاع هو الرسول p الجامع لخصال الفضائل كلها في كل شئ، مثلما في الارشاد.

51 - اولوطاغ - مصدر سابق / 48

52 - سورة البقرة : 2

ويشهد التاريخ بان الرسول م بصفته البشرية كان على "الصرط المستقيم" في حد الوسط رمزا للشجاعة والعفة والحكمة. فقد حاز على اعجاب الدنيا، وهو اهل له، بشجاعته ومنطقه وعفته الوقورة وعقله وذكائه الواسع⁵³.

وقد حذر النبي م المتنطعين الذين يخلون التوازن الشرعي بمخالفة أمره. روى البخاري- بسنده - عن انس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت ازواج النبي م يسألون عن عبادة النبي م، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: اين نحن من النبي م وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال احدهم: اما انا فاصلى الليل ابدأ. وقال الآخر: وانا اصوم الدهر ولا افطر. وقال الآخر: وانا اعتزل النساء فلا اتزوج ابدأ. فجاء رسول الله م اليهم ، فقال: انتم الذين قلتم كذا وكذا؟ اما والله اني لأخشاكم لله واتقاكم له لكني اصوم وافطر، واصلي وارقد، واتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني"⁵⁴ وقد ورد في الترمذي عن أبي ذر عن النبي م نه قال: "الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق مما في يدي الله"⁵⁵ في هذين الحديثين الشريفين تحذير لمن يسلك طريقا غير الذي يقره القرآن الكريم والسنة النبوية اتباعا للهوى والرغبات.

5 - الخلق الحميد :

ينبغي لمن يتصدى للارشاد ان يجمع في نفسه من الفضائل اكثر مما عند الناس مثل الاخلاق الحميدة والعلم والعفة والوقار والصبر والتضحية والشفقة والرحمة والاهتمام باحوال البشر. وينبغي ان يجتنب سوء الظن بقدر استطاعته، وان يقدم حسن الظن. وان يكون طلق الوجه، لين القول، حلما مسالما، ساعيا الى اعلاء الحق، مستحضرا ان غاية وجوده التخلق باخلاق الرسول م. الحاصل، ان يتخذ قوله تعالى في "الصافات" شعرا له { ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين. ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم }⁵⁶ ان رسائل النور وسيرة بديع الزمان النورسي خير شاهد على اكمال هذه المزايا فيه. ولا اجد فائدة في الاستشهاد بنصوص من رسائله للاستدلال على امر مشهور ولا يخلق غير زيادة الصفحات في مسألة اتفق القاصي والداني عليه فهؤلاء طلابه الذين خدموه شهود أحياء لا يشذ واحد منهم في ذلك واتفاق شهادتهم حجة شاخصة لا تدحض.

حال المخاطبين بالارشاد :

1 - المسلمون :

ينبغي تقوية ايمان ضعاف الايمان بالادلة. ان حال ايمان الافراد من الغيوب. لكم إهمال الفرائض والواجبات من الدلائل الدالة على ضعف شعلة الايمان. وفي تكرار الدعوة في القرآن الكريم الى اسس الايمان دليل على حاجة غير المؤمن الى الايمان،

53 - للمقارنة : النورسي - اشارات الاعجاز / 166

54 - انظر البخاري - النكاح ، 1

55 - انظر الترمذي - الزهد ، 29

56 - سورة فصلت : 34 - 35

وكذلك على حاجة المؤمن الى زيادة قوته، كما في قوله تعالى { يا ايها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل من قبله والكتاب الذي انزل من قبل ومن يكفر بالله وملانكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا }⁵⁷ ولا شك في حاجة المؤمنين الدائم الى فضائل الاخلاق مع الايمان، والعمل الصالح لخير دنياهم واخراهم واجتناب المفاسد.

2 - غير المسلمين :

أ - اهل الكتاب :

ان مادة الارشاد تنتوع حسب المخاطبين، كما ينتوع الدواء حسب الداء في الطب. والمرشد كطبيب يراعي حال المريض. وهذا اهم ما تمتاز به رسائل النور. فقد كانت الهمم في القديم تستجمع في قوة صلاح الاعمال لثبات الايمان. اما في عصرنا، فقد تعرضت قواعد الايمان الى هجوم التيارات الفاسدة ووقعت ضعاف الايمان في الشبهات. فالتفت بديع الزمان الى هذا الخطر وصرف جل مساعيه لى تحقيق قواعد الايمان وتحسينها⁵⁸.

يولي القرآن الكريم اهمية خاصة على اهل الكتاب ويأمر بالحبيطة في جدالهم ومحاورتهم . { ولا تجادلوا اهل الكتاب إلا بالتي هي احسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون }⁵⁹.

في تفسير الآية الكريمة : { والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك }⁶⁰. يقول بديع الزمان : ان فيه اشارة الى تشويق اهل الكتاب على الايمان وتأنيسهم، والتسهيل عليهم. كأنه يقول: " لا يشقّ عليكم الدخول في هذا السلك، اذ لا تخرجون عن قشركم بالمرّة بل انما تكملون معتقداتكم، وتبنون على ما هو مؤسس لديكم" اذ القرآن معدّل ومكمل في الاصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة واصول الشرائع السالفة. إلا انه مؤسس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان والمكان، فكما تتحول الادوية والاليسة في الفصول الاربعة، وطرز التربية والتعليم في طبقات عمر الشخص، كذلك تقتضي الحكمة والمصلحة تبديل الاحكام الفرعية في مراتب عمر نوع البشر. فكم من حكم فرعي كان مصلحة في زمان، ودواء في وقت طفولية النوع، لا يبقى مصلحة في آخر، ودواء عند شبابية النوع. ولهذا السر نسخّ القرآن بعض الفروع. أي بيّن انقضاء اوقات تلك الفروع ودخول وقت آخر"⁶¹.

ونجد ان بديع الزمان قد زاد على مصطلح "اهل الكتاب" الوارد في القرآن معنى مجازيا مستحدثا، فوسع الحد المجازي لأهل الكتاب ليشمل جمعا غفيرا من الناس هم

57 - سورة النساء : 136

58 - النورسي - المكتوبات /

59 - سورة العنكبوت : 46

60 - سورة البقرة : 3

61 - النورسي - إشارات الاعجاز / 50

المتعلمون باعتبارهم حملة كتب، وايضا طلبة المدارس، فكان نداء اهل الكتاب يناديهم بالمعنى:

"ان احكام القرآن وقوانينه ثابتة وراسخة الى درجة انها تزداد قوة بمرور العصور. فان هذا العصر الذي فاق غيره في الثقة بنفسه وفي صم اذنيه عن سماع القرآن، ومثله اهل كتاب هذا العصر، بحاجة ماسة الى خطاب القرآن الارشادي: { يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم }⁶² بأعظم ما فيها من شدة وطراوة وفتوة"⁶³

ب - من لا كتاب له:

ان سور القرآن المكية تخاطب بالدرجة الاولى المشركين الذين لا كتاب عندهم. لذلك اكثر ما يرد فيها هو اسس الايمان مثل التوحيد والحشر. فاول ما نزل من القرآن { اقرأ باسم ربك الذي خلق } ينبه الى ربوبية والعناية والنظام باسم الرب، والى حقائق الكائنات المدبر. ومهما يكن من لا كتاب لهم، فهم اشد حاجة الى معلومات أولية لبلوغ الحقائق قياسا بأهل كتاب. ولا ننسى مع هذا، ان تصحيح معلومات مغلوطة اصعب من تعلم امور جديدة على الإنسان. وفي زماننا، تحول العالم كله الى مدينة واحدة متصلة تتأثر الافكار والثقافات بعضها ببعض. وكما تترك الحسنات آثارها، تنتقل السيئات ايضا. فلهذا العصر تشكيل ذاتي يختلف عن غيره من العصور، لحمته شبكة من معلومات مغلوطة يمكن ان نسميها "الجهل المركب" الذي يعكس نظرة مادية بدأت منذ القرن السابع عشر الميلادي وبلغت الذروة في القرن العشرين الميلادي.

لقد سعى بديع الزمان ما وسعه الجهد لتغيير وجهة نظر الانسان الى الموضوعات، من حاله الذي يقول بديع الزمان انه يعاني من اضطراب وديماغوجية تبدي الالماس فحما والفحم الماسا، الى حقائق القرآن. وهنا يكمن سر رسائل النور في فتح العيون للنظر من نافذة العلوم الصرفة الى المسائل الایمانية. وهو اذ يقوم بذلك، لم يعرض معطيات العلوم الصرفة كحقائق راسخة لا تهتز، ولم يجعل التفسير القرآني تبعا لها، بل رأى في كتاب الكائنات، التي هي ساحة العلوم الصرفة، درسا من الدروس التي يعلمها القرآن. الفارق بين الوصفين هو زاوية النظر. العلوم الصرفة تبحث في الكائنات من اجل ان تعرف الكائنات بذاتها. اما القرآن، فهو حين يشرح الكائنات يشرحها دليلا على اصليين من اصول الايمان خاصة هما التوحيد والحشر. ومرتكز الادلة كلها يعتمد على عنصرين مهمين هما: "دليل الاختراع": وخلصته ان كل حادث يخرج من العدم الى الوجود عاجز عن ان يوجد نفسه، لذلك يحتاج كل حادث الى خالق يوجده في أكمل حال باحواله التي فيها.

"ودليل العناية": وخلصته ان كل حادث يشتمل حكما ومنافع اسمى من ذاته واعظم من قدرته.⁶⁴

ج - العوامل المؤثرة في الارشاد :

62 - سورة آل عمران : 64

63 - النورسي - الكلمات / 471

64 - انظر النورسي - المثنوي النوري العربي / 427 - 428

1 - ان يبدأ من نفسه :

جمع الرسول م مكارم الاخلاق الفطرية منذ نعومة اظفاره. وبعد اصطفائه بالوحي الالهي تألقت فيه هذه الاخلاق وشاع نورها بالتربية الربانية والرعاية الالهية كجوهره لا نظير لها. كما قال الله تعالى في كتاب الكريم: { ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين }⁶⁵ { ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم }⁶⁶ ولعل ما روته عائشة رضي الله عنها يلقي ضوءا على تفسير مثل هذه الآيات، عندما سئلت عن خلق رسول الله م فقالت: "فإن خلق النبي م كان القرآن".⁶⁷ وقد قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك اذا فعلت عظيم
واورد الغزالي في الاحياء "أوحى الى عيسى م : عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني"⁶⁸.

اما بيدع الزمان فقد التزم بهذه القاعدة اكمل التزام، وقصد من دروس رسائل النور ان يعلم نفسه قبل غيره. فهو يؤكد انه يرى نفسه محتاجا الى النصح اكثر من غيره ويشير الى حقيقة جوهرية بقوله "من لا يصلح نفسه، لن يصلح غيره"⁶⁹ "انا خاطبت نفسي مباشرة بالحقائق الايمانية التي كتبتها. انا لا اخاطب الناس جميعا. لكن الذين ارواحهم ظامنة وقلوبهم جريحة يبحثون عن تلك الادوية القرآنية فيجدونها"⁷⁰

2 - تقديم الاقربين في التبليغ :

{ وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بري مما تعملون }⁷¹ في هذه الآيات الكريمة يأمر الله تعالى سيد المرشدين محمدا م ان يبدأ بالاقربين اليه.

وفي بدء الرسول م بالتبليغ من نفسه ثم عشيرته الاقربين لفتات لطيفة فان الاكثر معرفة باحواله هو الاقرب اليه، فينبغي ان يبدأ الارشاد بهم. ففيه فوائد منها:

1- الاقربون هم اعرف بامانته وصدقه من غيرهم، واجدر ان يؤمنوا بما ارسل به، زد على ذلك ان الانسان بفطرته يتعصب للقريب وينحاز اليه، فالأولى الانتفاع من هذا الميل في التبليغ. وخير مثال هو عم النبي م ابو طالب الذي لم يؤمن به، لكنه مد اليه يد العون ما دام حيا. كما ان اوائل المسلمين كانوا الاقرب الى النبي م فزوجه خديجة وخادمه زيد واقرب اصدقائه ابو بكر وابن عمه علي الذي هو كولده رضي الله عنهم جميعا كانوا الحلقة الاولى من سلسلة الاجيال الذهبية:

65 - سورة النحل : 125

66 - سورة فصلت : 34 - 35

67 - انظر مسلم : المسافرين، 18 (139) - والترمذي ، البر 69

68 - الغزالي - احياء علوم الدين 2 / 309

69 - النورسي - الكلمات / 297 وايضا الكلمات / 5

70 - النورسي - المكتوبات / 88

71 - سورة الشعراء : 214 - 215

2 - ان البدء من الاقربين بامور تصعب على النفس وإبطال عادات قديمة سارت في شرايين البشر مجرى الدم منذ الجاهلية، عمل يدل على الاخلاص والصدق والجد. كذلك الناس في يومنا، يؤمنون باخلاص المرشدين الذين يبدأون فيما يدعون الى فعله او تركه من الاقربين اليهم ويستمعون الى نصحتهم .

3 - ان ثباته ضد اعداء دعوته الاقربين اليه وتصديه بلا هوادة او كلل لهم، كما حصل مع عمه ابي لهب، يدل على سيره في طريق الحق الذي هو حق لن يتخلى عنه ابدا.

4- كان دعوة الاقربين اليه لازما لرفع عادة جاهلية هي نصرته القريب ظالما او مظلوما، على حق او باطل فلما دعاهم الى الخير، وقرب من استجاب لنداء الدعوة وان كان غير قريب النسب، وابتعد من صد عن الدعوة وان كان قريبا، صار قدوة للداني والقاصي.

ان بديع الزمان سعيد النورسي يرى البدء بما يلزم من النفس ثم الدائرة الصغرى من الاقرب فالاقرب حتى تتسع الدائرة مهما اتسعت بتقدير ما يلزم في كل حلقة. فعمر الانسان قصير والاضرار الناجمة من ترك ما يلزم الى مالا يلزم عظيمة لا تعوض بشئ. اذن، ينبغي ان يبدأ الانسان بذاته أو لا من دائرة النفس والقلب والعقل والبطن، ثم من دائرة البدن والعائلة، ثم دائرة المحلة والحاضرة، ثم من دائرة البلاد والوطن الى دائرة نوع الانسان والارض، بل الى دائرة الاحياء كلهم والعالم كله، في دوائر متداخلة، وترتيب الاولويات في وظيفة الاصلاح حسب اللزوم، الامثل فالامثل. فان الوظائف الكبيرة والكثيرة في الدوائر الصغيرة او الوظائف الصغيرة والقليلة في الحلقات الكبيرة، قلب للموازنين⁷²

3 - الاحتساب عند الله والاخلاص :

الاحتساب عند الله هو القيام بالخدمة لغير غرض او عوض، يعني لغير جلب منفعة. "الاحتساب ليس الاخلاص والصدق. الاخلاص ضده الرياء. والاحتساب ضده المنفعة والعوض"⁷³ مع هذا، لا ينفصل الاحتساب عن الاخلاص. لأن الاخلاص هو طلب رضاء الله في كل عمل، وما يخالف الاحتساب يخالف الاخلاص بالضرورة.

والقرآن يبين ان من خير خصال الانبياء المبلغين لرسالات الله، سعيهم في التبليغ بغير اجر او عوض: { وياقوم لا اسألكم عليه مالا ان اجري إلا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا } { ياقوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجري إلا على الذي فطرني }⁷⁴ والقرآن يأمر باتباع من لا يريد اجرا على خدمة الدين { أتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون }⁷⁵ ونعود الى بديع الزمان النورسي الذي يقول: "لاتخذ الحقائق الايمانية والاساسات القرآنية معاملات دنيوية بصورة رسمية ومقابل اجرا ، بل قد تنال هذه الفيوض والاسرار التي هي هبة الهية بنية خالصة وبالتجرد من الدنيا

72 - الشعاعات / 252

73 - اولوطاغ - مصدر سابق / 205

74 - سورة هود : 29 ، 51

75 - سورة يس : 21

والحظوظ النفسانية"⁷⁶ والذي يلقن درسا من دروس الحقيقة بشأن رفضه قبول الهدايا والصدقات في مواضع عديدة من كتاباته ولطلابه الذين يصرون عليه:

"اذا كان درس الحقيقة في قيمة الالماس من استاذ لا يتدنى للعالم ولا يقع في الطمع والذلة، ولا يأخذ أموال الدنيا بالحقيقة، ولا يضطر الى التصنع، فان درس الحقيقة نفسه يهبط من درجة الالماس الى درجة الزجاج من استاذ اضطر الى أخذ الصدقة او قهر على التصنع لأهل الثروة، او افتدى عزة علمه بذل الطمع، او مال الى الرياء ليتلطف الى مخرجي الصدقة، أو جوز اكل ثمار الآخرة في الدنيا." ⁷⁷ لقد بلغ بيدع الزمان ذروة لا يبلغها الخيال في الاخلاص والاحتساب: "أيظنونني رجلا مغتما بحاله يسعى لانقاذ نفسه؟ اني اقتديت دنياي واقتديت آخرتي ايضا من اجل انقاذ ايمان المجتمع. لم اعرف شيئا يسمى لذة دنيوية في سني حياتي التي بلغت بضعا وثمانين عاما. ثم اني فديت آخرتي ايضا من اجل سلامة ايمان المجتمع. اني لا اجد في نفسي حبا للجنة او خوفا من جهنم. لا ضير ان يفقد الف سعيد، وليس سعيدا واحدا، من اجل المجتمع، لا من اجل المجتمع التركي ذي الملايين الخمس والعشرين فحسب بل ايضا من اجل المجتمع الاسلامي. انا لا اطلب الجنة اذا صار قرآننا بلا جماعة في وجه الارض، بل تغدو الجنة ايضا سجنالي، انا ارضى ان احرق وسط لهيب جهنم، اذا رأيت ايمان شعبنا سالما، لان قلبي يكون في جنات ورود وان كان جسدي في النار" ⁷⁸ نشرت كل من صحيفة بويوك جهاد "الجهاد الاكبر" و "سبيل الرشاد" ما اعلنته، وهو: انني لا اجعل خدمة الايمان والدين ورسائل النور اداة للسياسة الدنيوية، ولا سيما للوصول الى كمالات معنوية ومقامات رفيعة، كذلك لا اجعلها وسيلة لبلوغ ما يهش له الناس من سعادة ابدية ونجاة من النار، بل هي خالصة لوجه الله ولابتغاء مرضاته وحده وتنفيذاً لأمره سبحانه. وما ألجأني الى هذا الامر الا الاخلاص الحقيقي الذي هو القوة الحقيقية للنور. علني احظى بذرة من التضحية السامية التي كان الصديق الاكبر رضي الله عنه يتحلى بها، حيث قال:

اسأله تعالى ان يكبر جسمي ليملاً جهنم حتى لا يبقى مكان لمؤمن، فأعذب عوضاً عنهم. فانا ارضى كذلك بدخول النار لانقاذ بضعة اشخاص منها بالايمان. ومن المعلوم ان العبادة لا تؤدى طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار، بل للأمر الرباني وابتغاء مرضاته سبحانه" ⁷⁹

4 - حال المخاطب بالارشاد :

ان من أهم ما يلزم المرشد الكفاء ان يراعي علم المخاطب بالارشاد وعقله، والتكلم فيمن يحتاجه، واختيار معيار الترغيب والترهيب حسب ورعه وتقواه. ولذلك، على المرشد ان يتحرى انواع المخاطبين واحوالهم وتوجهاتهم.

76 - المكتوبات / 88

77 - النورسي - الملاحق - بالا / 58

78 - النورسي - سيرة ذاتية / 456 - 457

79 - النورسي - الملاحق / اميرداغ / 387

اما اذا لم يكن حال المخاطبين معلوما، فيلزم التوسط في الدروس بين الترغيب والترهيب وايضا التوسط في المستوى العلمي ومراعاة اصناف الناس المتنوعة. وامثلة الارشاد في القرآن الكريم كثيرة، كما في قوله تعالى { قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع إلا ما يوحى الي وما انا إلا نذير مبين }⁸⁰ { ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون }⁸¹ ويحذر بديع الزمان النورسي المرشدين الذين لا يراعون حال المخاطبين :

" ايها الموسوس : هل تعلم ماذا تشبهه؟ انت كسكران بلغ به البله ألا يميز بين الاسد والحصان، او خشبة الاعدام والأرجوحة، او الجرح المتقيح والوردة الحمراء. ولا يرتدع مع سوء ظنه هذا ان يخال نفسه مرشدا أو متصديا للصلاح، فتراه يعلم رجلا حائرا وقع في حال وبيل"⁸² ويقول ايضا: "يامن يدعو المسلمين الى الحياة الدنيوية التي هي لعب في نوم ولهو، ويشوقهم للخروج من دائرة ما احله الله من الطيبات الكافية (كفيهم)⁸³، الى الدخول في دائرة ما حرّمه من الخبيثات المنعصّة التي تجبرهم على ترك بعض شعائر دينهم او ترك دينهم .. ان مثلك معهم كمثلك سكران بسكر لا يميز بين الاسد المفترس، والفرس المؤنس، ولا يفرق بين آلة الصلب، وآلة لعب الصبيان من الحبل المتحرك في الهواء، ولا يعرف الجرح المبرح من الورد المفرح، بل يظن الاسد فرسا، وآلة الصلب حبل للعب، والجرح المقشعر الورد المحمر"⁸⁴.

5 - العمل البناء :

يعلمنا القرآن العمل البناء . { واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فان عصوك فقل اني برئ مما تعملون }⁸⁵ { تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين }⁸⁶ فما على المرشد إلا البلاغ المأمور به، وليس مسؤولا عن النتيجة. ان خلق اثر الارشاد لله خالق كل شئ.

ان العمل البناء - في نظر بديع الزمان - ان يعمل المتصدي لخدمة الدين والايمان والانسانية بدافع الحب لعمله وألا ينشغل بعداء المسالك الأخرى ولا يحقرهم او يتلبهم ولا يعرض بافكارهم وعلومهم. فينبغي ألا يتعرض سالك مسلك للحق لغيره وما عليه إلا ان يعرض ما عنده. وله ان يقول "ان مسلكي حق، او خير من غيره" وليس له ان يقول "ان الحق في مسلكي فقط" او ان الخير هو مشربي فقط" وما يشبه ذلك، ففيه تعريض بطلان المسالك الأخرى او شرها وقبحها"⁸⁷. الخلاصة، اضاءة نور خير من لعن الظلام بلا نفع ولا فائدة.

80 - سورة الاحقاف : 9

81 - سورة الاحقاف : 13

82 - النورسي ، الكلمات / 303

83 - أي لأذواقهم

84 - النورسي ، المثنوي النوري العربي / 218

85 - سورة الشعراء : 215 - 216

86 - سورة القصص : 83

87 - انظر النورسي - للمعات / 229

6 - الاقتداء والتبليغ : الاقتداء هو التخلق باخلاق القرآن واخلاق النبي ﷺ وخير انموذج لعلاقة الاقتداء بالتبليغ هذه الآية الكريمة: { لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا }⁸⁸.

ونستنبط من الآية الآتية ضرورة لزوم الداعية بما يدعو اليه: { وما اريد ان اخالكم الى ما انهاكم عنه. ان اريد الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله }⁸⁹. ويحث القرآن الكريم في الآية الكريمة الآتية على الاستقامة وتماتل القول والفعل. فان تكذيب الفعل للقول يقلب الامر الى هزل ولهو ولعب. { يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون }⁹⁰.

ان الرسول محمد ﷺ قدوة المسلمين في حركاته وسكناته سواء الفردية او الاجتماعية. بل ان الاقتداء والتأسي به من مقتضيات الايمان. ففيه ﷺ تتجسد اوامر الاسلام ونواحيه وهو اول من أنفذاها في الحياة وتمثلت فيه باعظم ما تتمثل. وفي الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسي به في كل احواله ثلاث نكات مهمة :

الاولى: البصر من اقوى عوامل التأثير في التربية والتعليم، ويستتبع ذلك الوسائل والمواد المشاهدة. وقد زاد انتشار التلفزيون على الراديو لهذا السبب. فالانسان بحاجة الى انموذج يراه بعينه. ولا جدال في اقتداء الصبيان والبنات بالفنانيين المحليين والاجانب ومحركاتهم في امور عديدة.

يقول الله تعالى { انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه، فجعلناه سميعا بصيرا }⁹¹ فنعلم من هذه الآية الكريمة حاجة الانسان الى المسموعات والمشاهدات في الامتحان الالهي، وايضا الى المعقول والمنقول.

لذلك يقول النبي محمد ﷺ "ليس الخبر كالمعاينة"⁹² مينا ان المعاينة أمضى أثرا ، كما صبر موسى عليه السلام اذ علم بالوحي بعبادة بني اسرائيل للعجل، فلما رجع الى قومه وعابن عبادتهم العجل، غضب والقى بالوواح التوراة من يده.

ان الانسان الممتحن في كل لحظة من حياته، إن خيرا فخير وان شرا فشر، بحاجة ماسة الى انموذج وقدوة، يقتدي به وهو النبي ﷺ .

الثانية : ان محبة الله المقتضية اطاعة اوامره وطلب رضائه، يلزم التشبه برسول الله ﷺ. فهو اكمل مرشد وهاد الى الله تعالى.

الثالثة : ما دام رسول الله ﷺ اعظم وسيلة للأنعم الالهية اللانهائية التي انعم الله بها بني الانسان، فلا محالة انه جدير ولائق بمحبة لا حدود لها حبا لله. ومن فطرة البشر ان يتشبه بمن يجب ما وسعته طاقته. كذلك، حب النبي ﷺ يقتضي التشبه به. فلا بد اذن ان يقتدي المؤمنون بالرسول ﷺ ويتشبهوا به، بسبب حبهم لله تعالى أو حبهم للرسول⁹³.

88 - سورة الاحزاب : 21

89 - سورة هود : 88

90 - سورة الصف : 2 - 3

91 - سورة الانسان : 2

92 - انظر الامام أحمد 315، 317

93 - للمقارنة ، النورسي - للمعات / 93

يقول الله تعالى { قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم }⁹⁴. وفي شرح سعيد النورسي يقول: ان الآية فيها استدلال منطقي. فالمراد: ان كنتم مؤمنين بالله، فلا بد انكم تحبون الله وما دمتم تحبون الله، فلا بد ان تنصرفوا كما يحب لكم اما التصرف في الدائرة التي يحبها الله تعالى، فلا بد له من الاقتداء بمن احبه الله واثى عليه بقوله {وانك لعلی خلق عظيم}. والاقتداء به يكون باتباعه والتشبه به في كل امر، ما استطاع المؤمن. وثمرة هذا هو نوال حب الله. وفي نفس الامر، ان المقصود من حب المؤمن لله، ان يفوز بحب الله له⁹⁵

{ قل اطيعوا الله والرسول، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين }⁹⁶ { من يطع الرسول فقد اطاع الله }⁹⁷ { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }⁹⁸ { ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله }⁹⁹

د - ثلاث سمات اساسية في الوعظ :

يرى بديع الزمان ان نجاح الواعظ المرشد في واجب الارشاد يتطلب ثلاثة امور في العموم : ان يكون في نفسه باحثا مستطلعا حتى يعين الداء ويجد الدواء الشافي ، وان يكون عارفا بدقائق الحكمة مثل لقمان الحكيم حتى لا يخل بالتوازن القائم بين القيم الاسلامية، وان يكون صاحب فراسة وبلاغة حتى يعرف ما يقول واين وكيف يقول. "لقد استمعت الى الواعظ ولم يؤثر في نصحهم. فتأملت ووجدت العلة في قساوة قلبي واسباب ثلاثة اخرى :

الاول : انهم يقيسون الزمان الحاضر بالزمان السالف ويزينون صورة المدعى المطلوب ويبالغون فيه. ويهملون اثبات المدعى المطلوب واقتناع المتحري عن الحقيقة من اجل ايقاع التأثير وهما ضروريان.

الثاني : بسبب الترغيب بشئ او الترهيب منه، يهوتون ما هو اهم منه، فلا يحافظون على موازنة الشريعة

الثالث : انهم لا يقولون ما يطابق مقتضى البلاغة للحال، يعني ما يوافق إلهاءات الزمان، يعني ما يناسب لتشخيص العلة. فهم يسحبون الناس الى زوايا الزمان الماضي، ثم يتكلمون.

حاصل الكلام : ينبغي ان يكون واعظنا الاجلاء علماء محققين حتى يبرهنوا ويقنعوا وحكام مدققين حتى لا يخلوا بموازنة الشريعة، وبلغاء مقنعين حتى يقولوا كلاما يوافق مقتضى الحال وإلهاءات الزمان ويوزنوا بميزان الشريعة. بل من الضروري ان يكونوا هكذا " ¹⁰⁰ اود ان اوجز القول في القواعد التي ذكرها بديع الزمان أنفا :

94 - سورة آل عمران : 32

95 - النورسي - اللغات / 91

96 - آل عمران : 32

97 - سورة النساء : 80

98 - سورة الحشر : 7

99 - سورة الفتح : 10

100 - النورسي - صيقل الاسلام / 473

1 - عامل الزمان والمكان : يلزم للواعظ القائم بواجب الارشاد ان يراعي علوم الزمان والمكان الذي هو فيه، وعاداته وحاجاته. وبخلافه، يعجز نصحه عن التأثير لتخلفه عن العصر. وسوف نعود الى الموضوع في باب "ضرورات العصر"

2 - الكلام المحسوب والموزون : ان تجنب الافراط والتفريط من متطلبات الحق والحقيقة، وموجبات المحافظة على الاستقامة التي هي اساس متين للاسلام. وليعلم الذين لا يطمئنون الى حقائق للاسلام كالجواهر فيسعون الى جلانها بطلاء التلميع، إنما يلطخونها بسوء ظنهم.

لقد امضى بيدع الزمان عمره منذ الصبا في جلاء جواهر الاسلام من اللطخات التي اصابته الحقائق الاسلامية بسبب الافراط والتفريط. ومن جملة ذلك، يشتد على من ينكر كروية الارض بدعوى الدين ويقول عنه "قد يضر الصديق الجاهل كالعدو". وفي عرض افكاره في هذا الشأن، يلفت النظر الى مسألة مهمة هي : ان انكار الحقائق الواردة في الحديث او القرآن عمل قبيح، بقدر تصوير ما ليس فيهما موجودا ... بل هو اشد قبحا لان الانكار يتحصل من جهل، اما تصوير المعدوم كالموجود، فيتحصل بعلم. وقد يعذر الجاهل بعذر، لكن العالم لا يعذر¹⁰¹

3 - منهج الاقتناع :

الاقتناع يختلف عن النصيحة. ان صاحب الفكر المغلوط او المشتبه في حق، اعظم حاجة الى الاقتناع. ومن لوازم منهج الاقتناع علم واسع وتخصص علمي. والمشاهد فشل غير المؤهل علميا في اقتناع المخاطب، بل كثيرا ما يزيد من شبهات المتردد في حقائق الاسلام. وما اجمل القول "الكلمات لا تدرك بنقص الآلات"¹⁰² ان الاصل في الاقتناع هو للوصول الى نتيجة بناء ايجابية. اما السعي الى الاستعلاء بالمرء العقيم فهو داء وبيل.

كان الرسول م يسلك سبيل الاقتناع كثيرا. وقد وردت روايات كثيرة في ذلك. منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رض) أنه قال : - واللفظ لمسلم - " جاء رجل من بني فزارة الى النبي م فقال: إن امرأتي ولدت غلاما اسود. فقال النبي م هل لك من ابل ؟ قال: نعم . قال: فما ألوانها ؟ قال حمر. قال هل فيها من اورق ؟ قال إن فيها لورقا. قال : فائي أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعه عرق. قال : وهذا عسى أن يكون نزعه عرق "¹⁰³

كذا ما روي عن ابي امامة الباهلي ان فتى من قريش اتى الى النبي م فقال: يارسول الله ائذن لي في الزنا فاقبل القوم عليه وزجروه فقالوا: مه .. مه . فقال: ادنه . فدنا منه قريبا. فقال: اتحبه لامك ؟ قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال أفتحبه لإبنتك؟ قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. ثم ذكر له رسول الله أخته وعمته وخالته وفي كل ذلك يقول الفتى مقالته: لا والله يارسول الله جعلني الله فداك. قال: فوضع يده عليه وقال:

101 - انظر النورسي - صيقل الاسلام - المحاكمات / 66

102 - اولوطاغ / 188

103 - البخاري - الطلاق 26 ومسلم - اللعان 18

اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه وحصن فرجه. قال: فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت الى شيء.¹⁰⁴

وقد اشار القرآن الحكيم الى جدال اهل الكتاب خاصة بالتي هي احسن ان بديع الزمان يتخذ نفسه المخاطب الاول في كل درس من دروسه، ويسعى الى اقناع نفسه في كل فرصة: "انا لا ابرئ نفسي. نفسي ترغب كل سوء. لكن ليس من شغل صاحب العقل ان يخرب حياته الابدية الدائمة وسعادته الابدية من اجل لذة يسيرة، في زمن الشيب، في عمر قصير، في مضيف مؤقت، في دنيا فانية. فلما لم يكن هذا من شغل صاحب العقل او صاحب الشعور، فقد خضعت نفسي الامارة للعقل ان شاءت او ابت" ¹⁰⁵ { قل ارايتم ما تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض؟ ام لهم شرك في السموات؟ ايتوني بكتاب من قبل هذا او اشارة من علم ان كنتم صادقين } ¹⁰⁶ واخير ان ننقل كلاما موجزا "لبديع الزمان بشأن الموضوع". نحن اهل حال ومرشحو المستقبل. تصوير وتزيين المدعى لا يشبع اذهاننا. نحن نطلب البرهان¹⁰⁷

هـ - التدرج في الارشاد : يتطلب الارشاد التدرج في الموضوعات، والتدرج في تصنيف المخاطبين بالارشاد، وقد نصنفه بمسح ميداني للمخاطبين. فاذا اخذنا بنظر الاعتبار شريحة المسلمين وشريحة غير المسلمين، تكون الاولوية حفظ ايمان المؤمنين عملا بالقاعدة الشرعية دفع الضرر اولى من جلب المنفعة ثم ان الاولوية لاصلاح النفس واصلاح العائلة. كذا، الاولوية لاصلاح الوطن واصلاح اهل البلد. ان التوسع من الدائرة الصغرى الى الدائرة الكبرى، يتوافق مع القاعدة الشرعية المذكورة آنفا، وكذلك مع قاعدة التدرج الجاري في الكائنات. ونستدل ايضا بالآية الكريمة "وانذر عشيرتك الاقربين" في التدرج. ويعبر بديع الزمان عن جوهر التدرج بقوله "توجد حلقات، حلقة داخل اخرى، مثل الدوائر المتداخلة، تبدأ من دائرة قلب الانسان وبطنه، فدائرة جسده وبيته، فدائرة حبه ومدينته، فدائرة وطنه وبلاده، فدائرة الكرة الارضية والنوع البشري، حتى دائرة ذوي الحياة والعالم. وقد يكون في كل دائرة نوع من الوظيفة لكل انسان. لكن توجد وظيفة هي اعظم الوظائف واهمها وادومها في اصغر دائرة من الدوائر¹⁰⁸

و - اسلوب الارشاد :

1 - القول اللين :

الاصل في النصيحة هو القول اللين. وعلى المرشد والواعظ :
أ - ان يكون مطبوعا على حلاوة اللسان والقول اللين والاسلوب اللطيف والحديث المؤثر والعاطفي.

104 - مسند احمد بن حنبل 5 / 256 - 257

105 - النورسي - المكتوبات / 86

106 - سورة الكهف : 4

107 - النورسي - صيقل الاسلام - المحاكمات / 50

108 - النورسي - الشعاعات / 252

ب - ان يحافظ على سمة جمال الاسلام وان لا يخذش روح الاخوة الاسلامية وان يضع نفسه موضع السامع. فالمقصود جني الثمار لا إلحاق الأذى بصاحب البستان.
ج - ان يجتنب الدوافع الانانية المعبرة عن الاعجاب بالنفس. وان يحضره دائما ان من ينصحه قد يكون اكرم عند الله منه.

ويروي ان واعظا اشتد في وعظ الخليفة المأمون. فقال له المأمون: هون عليك يا رجل فقد بعث الله من هو خير منك الى من هو شر مني وأمره بالرفق . فقال تعالى { **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** }¹⁰⁹ وجاء في الامثال التركية " حلاوة اللسان تخرج من الجحر الثعبان، ومرارة اللسان تخرج من الدين الانسان"¹¹⁰
2 - الصراط المستقيم :

أشرنا فيما سبق الى ضرورة ان يكون المرشد متوازنا في ذاته ونفسه. ونشير هنا الى عناصر التوازن المتوخاة في منهج الارشاد :

أ - الاعتدال في الخوف والرجاء :

الاعتدال في حس الخوف والرجاء الفطريين من مقاصد الاسلام المهمة. ان الانسان يحس بعوامل الخوف والرجاء في نفسه بقدر قوة ايمانه باللطف والقهر الالهي وبالجنة والنار. وانظر الى الاعتدال في القرآن { **أَمَّنْ هُوَ قَاتِلُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** }¹¹¹ { **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** }¹¹² ويبين الحديث أنه " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد"¹¹³ ان الاعتدال بين الخوف والرجاء من متطلبات الايمان: { **أَفَأَمَّنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** }¹¹⁴

وعلى المرشد ان يعتني بالمحافظة على التوازن والاعتدال في الارشاد. ويتحقق ذلك بلزوم معايير الاسلام وترك الالتفات الى الخرافات التي لا اصل لها والمؤدية الى الافراط او التفريط. المؤمن لا يقع في اليأس، والله يقول: { **أَنَّهُ لَا يِيَّاسٌ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** }¹¹⁵. والمرشد اشد حاجة الى الرجاء في وظيفة الارشاد. ففاقد الشئ لا يعطيه.

ان بيدع الزمان من المرشدين النواذر الذين وضعوا ميزان الرجاء والخوف في احسن اعتدال. فهو يرى ان مرض اليأس افسد اخلاق المسلمين وحصر نظرهم في المنافع الشخصية ويقول:

109 - سورة طه 44 وانظر الغزالي إحياء علوم الدين ح 2 / 329

110 - اولو طاغ / 60

111 - سورة الزمر : 9

112 - سورة النازعات : 40 - 41

113 - مسلم - التوبة : 4 (23)

114 - سورة الاعراف : 99

115 - سورة يوسف : 87

"ان مما املت به علي تجاربي في الحياة وتمخض فكري عنه هو: ان اليأس داء قاتل، وقد دبّ في صميم قلب العالم الاسلامي. فهذا اليأس هو الذي اوقعنا صرعى - كالاموات - حتى تمكنت دولة غربية لا يبلغ تعدادها مليوني نسمة من التحكم في دولة شرقية مسلمة ذات عشرين مليون نسمة فتستعمرها وتسخرها في خدمتها ... وهذا اليأس هو الذي قتل فينا الخصال الحميدة وصرف انظارنا عن النفع العام وحصرها في المنافع الشخصية .. وهذا اليأس هو الذي أمات فينا الروح المعنوية التي بها استطاع المسلمون ان يسيطروا سلطانهم على مشارق الارض ومغاربها بقوة ضئيلة، ولكن ما ان ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس حتى تمكّن الاجانب الظلمة - منذ اربعة قرون - ان يتحكموا في ثلاثمائة مليون مسلم ويكبلوهم بالاغلال.

بل قد اصبح الواحد بسبب هذا اليأس يتخذ من فنور الآخرين وعدم مبالاتهم ذريعة للتملص من المسؤولية، ويخلد الى الكسل قائلاً: "مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي" فيتخلى عن الشهامة اليمانية ويترك العمل الجاد للاسلام.

فما دام هذا الداء قد فتك بنا الى هذا الحد، ويقتلنا على مرأى منا، فنحن عازمون على ان نقتص من قاتلنا، فنضرب رأس ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: { لا تقتطوا من رحمة الله }¹¹⁶ "117

انه لا يخص خطر اليأس في الدين فقط، بل يراه سرطانا يجعل حياة الدنيا ايضا علقماً. ونفهم من ذلك، ان ترك القنوط من الله القادر على كل شئ من اهم العوامل الموفية الى حرية المسلمين في السياسة والاجتماع والثقافة والاقتصاد. ان الرجاء من متطلبات الايمان وغيابه من ضعف الايمان. وبذلك يكون الايمان مصدر كل لطف، ومصدر الاستقلال الحقيقي. ومن ينكر صلابة الايمان عند الابطال الذين رفعوا هامتهم ضد المحتلين؟

ب - الحب والبغض :

الحب في الله والبغض في الله من قواعد الاسلام المهمة. لكن ضياع الميزان فيهما يفتح الباب للغرض الشخصي وهو النفس.

ينبه بديع الزمان الى خطل الخروج عن ميزان العدل الالهي فيقول: "التحسس المفرط من رحمة الله وغضبه خطأ ... الافراط في الشفقة الم، والافراط في الغضب مذموم"¹¹⁸ ويرى ان ميزان "الحب في الله والبغض في الله" قد اختل في التاريخ. وحصل الاختلال ضد كفة "الحب في الله". ان كفة "البغض في الله" تحتل سوء القصد بالغرض الشخصي. اما كفة "الحب في الله"، فتمهد السبيل للتعاون خير تمهيد، وتتوافق مع الوسعة في القواعد الاسلامية والحكمة في اساليب معالجتها حسب حال

116 - سورة الزمر : 33

117 - النورسي - صيقل الاسلام - الخطبة الشامية / 505

118 - انظر النورسي - الكلمات / 866

المرض¹¹⁹ وينسجم بديع الزمان في رؤيته هذه مع الآية الكريمة { **ورحمتي وسعت كل شيء** }¹²⁰ والحديث القدسي الذي يفيد بسبق رحمة الله غضبه¹²¹

ج - الاعتدال بين العقل والعاطفة :

إذا اختل الميزان بين العقل والعاطفة، ظهرت عقلانية جافة وفهما فلسفياً لا يترك إلا أثراً مؤقتاً، أو روحانية سطحية بعيدة عن اثر ثابت ومشبع في انسان هذا العصر الذي يعاني من تقهقر الانصياع والاذعان في نفسه.

ومعلوم ان اسلوب القرآن يقيم هذا التوازن، كما في هاتين الآيتين الكريمتين : { **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احسانا. اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** }¹²² فانظر كيف يخاطب الله العقل ثم يحرك الحس والعاطفة بكلمة "عندك" المتضمنة وحدتهما وحاجتهما، وكلمة "الكبر" المتضمنة العجز والضعف كالطفل الصغير.

وما اجمل بيان القرآن في التحذير من مرض الغيبة المفسدة للحياة الاجتماعية والتنفير منه { **ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا. فكرهتموه** }¹²³ ويقول بديع الزمان في ايضاح له بشأن هذه الآية، ان ست حكم فيها تخاطب كل منها حسا من اللطائف. فالغيبة تتخالف مع العقل والقلب والصفة الانسانية والوجدان وغاية الانسان من خلال بنيته النفسية والاخلاق الاجتماعية¹²⁴ "وحيثما كنت اتقلب في هذه الحيرة الشديدة ... اذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي:

ان بداية هذه الطرق جميعها ... ومنبع هذه الجداول كلها ... وشمس هذه الكواكب السيارة ... انما هو "القرآن الكريم" فتوحيد القبلة الحقيقي اذن لا يكون الا في القرآن الكريم ... فالقرآن هو أسمى مرشد ... وأقدس استاذ على الاطلاق.. ومنذ ذلك اليوم اقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه.. فاستعدادي الناقص قاصر عن ان يرتشف حق الارتشاف فيض ذلك المرشد الحقيقي الذي هو كالتبع السلسبيل الباعث على الحياة، ولكن بفضل ذلك الفيض نفسه يمكننا ان نبين ذلك الفيض وذلك السلسبيل أهل القلوب واصحاب الأحوال، كل حسب درجته. فـ "الكلمات" والانوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) اذن ليست مسائل علمية عقلية حصراً بل ايضا مسائل قلبية، وروحية، وأحوال ايمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية"¹²⁵

حاصل الكلام :

119 - انظر النورسي - الآثار البديعية / 80

120 - سورة الاعراف : 156

121 - البخاري - التوحيد 55

122 - سورة الاسراء : 23 - 24

123 - سورة الحجر : 12

124 - انظر النورسي - المكتوبات / 358

125 - النورسي - المكتوبات / 459

نحن معاشر المسلمين خدام القرآن نتبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلوبنا حقائق الايمان، لسنا كمن ترك التقليد بالبرهان تقليداً للرهبان كما هو دأب اتباع سائر الاديان ! وعلى هذا فان المستقبل الذي لا حكم فيه الا للعقل والعلم ، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه الى العقل والمنطق والبرهان " ¹²⁶

3 - القدوة الحسنة المشاهدة :

{ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا } ¹²⁷ يرى بديع الزمان النورسي ان المسلمين اذا صاروا قدوة لغيرهم في الاخلاق الفاضلة وبشخصيتهم الاسلامية، لتيسر تقبلهم للاسلام: -
"اذا اظهرنا كمالات الاخلاق الاسلامية والحقائق الايمانية بافعالنا، فان اتباع الاديان الأخرى يدخلون الاسلام افواجا، بل قد تلجأ قارات ودول في الكرة الارضية الى الاسلام" ¹²⁸

4 - ضرب الامثال :

التمثيل هو فن من التصوير الادبي يقرب الامور المتصورة الى الازهان. فهو وسيلة لازمة لحياء الامور (التي قد لا تبدو موافقة للمنطق) في الخيال ابتداء ، لفتح السبيل الى قبول المنطق العقلي بها. ان رسائل النور استعانت بوسيلة ضرب الامثال سواء في مواضع شرح التمثيل القرآني او في مواضع اخرى. فيقول مثلاً في تفسير الآية الكريمة: { فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحي الارض بعد موتها ان ذلك لمحبي الموتى. انه على كل شئ قدير }:

" ايها الاخ، ان كنت تريد بياناً سهلاً ولسان العوام وبشكل واضح، فتأمل واسمع معي هذه الاقصوصة التمثيلية" ثم يمثل باثنتي عشرة صورة لاثنتي عشرة حقيقة في اثبات الحشر. فايضاح الامور بالتشبيه والتمثيل على صورة القصص - في رأي النورسي - هي من قبيل الكتابات، التي تدل على حقائق تأتي في اثرها. فهي اذن حقائق صادقة لا حكايات خيالية ¹²⁹ ننقل هنا انموذجاً هو الصورة الاولى والحقيقة الاولى للتعرف على العلاقة بين التمثيل والحقيقة كما ذكرها النورسي:

" الصورة الاولى : محال ان لا تثيب سلطنة، وسلطنة عظيمة مثل هذه خاصة، المطيعين الموفين بخدمات جليلة، او ان لا تعاقب العاصين. هنا، في الحياة الدنيا، هذا (الثواب والعقاب) بحكم العدم. اذن، توجد محكمة كبرى في غير هذه الدنيا" ¹³⁰
الحقيقة الاولى : باب الربوبية والسلطنة، جلوة اسم الرب. هل يمكن لشأن الربوبية وسلطنة الالهية ان يوجد كائنات مثل هذه خاصة، بغايات ومقاصد في غاية العلو والسمو من اجل تشهير كمالاته، ثم ان لا يثيب المؤمنين الذين استقبلوا غايته ومقصوده بالايمان والعبودية، او ان لا يعاقب اهل الضلالة الذين استقبلوا هذا

126 - النورسي - صيقل الاسلام - الخطبة الشامية / 495

127 - سورة الاحزاب : 21

128 - النورسي - صيقل الاسلام - الخطبة الشامية / 494

129 - النورسي - الكلمات / 47

130 - النورسي - الكلمات / 50

المقصود بالرفض والتحقيق¹³¹ كذلك يورد ايضا عن معنى " الصراط المستقيم " في سورة الفاتحة بالتمثيل الآتي: "إذا كان الطريق الواصل بين مكان وآخر، أو الخط الواصل بين نقطة وأخرى، هو الأقصر، فهو الأعظم عدلا واستقامة. كذلك تماما، الأعظم عدلا واستقامة في المعنويات والطرق المعنوية والمسالك القلبية هو الأقصر والأيسر مثلا: الموازنات جميعا وقياسات الأيمان والكفر كلها، الواردة في رسائل النور، تظهر يقينا ان طريق الايمان والتوحيد هو الأقصر والاعدل والايسر، وطرق الكفر والانكار هي الأعظم طولاً ومعضلة وخطراً¹³² يسمى الاستدلال على استحالة التدبير المودج " بالتمانع" . ويستشهد المفسرون وجود دليل التمانع بالآية الكريمة { **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** }¹³³ -¹³⁴ ولما فسر بيدع الزمان النورسي الآية، لجأ الى التمثيل والى نماذج شاخصه: " ان حقيقة الحاكمية المطلقة موجودة. اذن لا تكون حقيقة للشرك البتة. فبالحقيقة القاطعة في الآية { **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** } ، اذا اختلطت أياد مستبدة في شغل، اختلط الامر. فاذا كان في البلاد سلطانان او في الناحية مديران، اختل النظام وآلت الادارة الى الهرج والمرج. والمشهود وجود انتظام بيدع من جناح الذباب الى قناديل السماء، ومن حجيرات البدن الى ابراج السيارات، يمنع تداخل شرك حتى بمثقال ذرة واحدة " ¹³⁵

5 - الابتعاد عن تصوير الباطل :

من المعلوم ان اسلوب القرآن نزيه ولطيف. ففي القرآن الكريم يخاطب الله سبحانه الرسول { ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن }¹³⁶ ملقنا مرشد المرشدين وداعية الدعاة الاسلوب النزيه في الدعوة . القرآن الحكيم يبحث على الابتعاد عن الفردية وتصوير الباطل بغير ضرورة. ان تصوير الباطل بغير لزوم يكدر الازهان الصافية وقد يوقع في ضلالة يتعسر تعديلها .

وقد لفت بيدع الزمان النورسي الانتباه الى هذا الموضوع: "تصوير الامور الباطلة، إضلال للاذهان الصافية وتجريح لها. ما بعد ذلك، قد يعالج بالجرح والرد، وقد لا يفلح العلاج"¹³⁷

مبادئ الدعوة :

أ - الدعوة من العبادات :

ينبغي ان يعلم الداعية ان الدعوة من العبادات. فهذا يكون مقصوده من الدعوة كسب رضاء الله ويستحضر القربة الى الله بهذه الكلفة. ان الداعية في هذه الحال ينال بشري الآية { **ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من**

131 - النورسي - الكلمات / 65

132 - النورسي - الشعاعات /

133 - سورة الانبياء : 22

134 - انظر الصابوني ، محمد علي ، الصفوة ح 2 / 258 طبعة دمشق 1406 هـ 1986 م

135 - النورسي - الشعاعات /

136 - سورة النحل : 125

137 - النورسي - الكلمات - اللوامع / 849

المسلمين {¹³⁸ والداعية الذي يدعو مستحضرا العبادة يتواضع العبودية لله، ويجاهد حتى لا يقع أسير الرغبات النفسانية بالمحاسبة إن كان قد أوفى بحق العبودية حق الإيفاء في كلفة الأشاد التي تحملها.

ب - الدعوة إلى الإسلام عمل طوعي وقلبي :

ان محرك العمل الدعوي الإسلامي هو حس الرحمة والشفقة على عباد الله كلهم. والذي يجهز نفسه ليكون من جند الدعوة إلى دين الله، عليه ان يفتح قلبه للبشر جميعا بلا تمييز بين دين ومذهب ومشرب وميل وان يكون وعاء يستوعبهم بالرحمة¹³⁹.
الداعية يقتبس من { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } { وربك الغني ذو الرحمة }¹⁴⁰ { ورحمتي وسعت كل شيء }¹⁴¹

لما حاصر الرسول م الطائف ازيد من عشرين يوما، طلب بعض اصحاب النبي م ان يدعو على ثقيف. لكن رسول الرحمة رفع يده يدعو الله ان يهدي ثقيفا إلى الإسلام¹⁴² وما اجمل ارشاد الغزالي إلى ان يكون العمل هذا بالشفقة واللفظ بعيدا عن الشدة والغضب، والنظر إلى مقترف الذنوب بعين الرحمة، وان ذنبه بلاء ابتلي به لأن مثل المؤمنين كمثل الجسد الواحد. فمن اعظم المصائب ان يعظم العالم نفسه في هذه الاحوال اغترارا بعلمه وان يحقر غيره لجهله. فاذا اغتر الداعي ووقع في هذا الكبر، فكأنه انقذ أناسا من النار ووقع نفسه فيها. وهو حال السقوط ومن إضلال الشيطان، ولا يليق بمسلم ان يتمسك بحبل الشيطان"¹⁴³

ج - الدعوة إلى الإسلام تكليف شرعا :

الداعية يؤمن ان تحمله إلى الإسلام من جملة التكليف الالهية على المسلمين، ويفصل بين العمل والنتيجة، لان الهداية من الله،¹⁴⁴ وما عليه إلا العمل. اما التوفيق فمن الله. ان غياب هذا السر جعل المسلمين على مر الزمان يتفرقون بسبب المناقسة من غير طائل، فواقعو الضرر بالعباد والبلاد.

يقول بديع الزمان النورسي في هذا الشأن: "ان رضاء الله تعالى يكتسب بالاخلاص، لا بكثرة اتباع وزيادة التوفيقات. فهذه الامور لا تطلب لانها من الشؤون الالهية، بل قد توهب احيانا. فيا ايها الانسان الحريص على الثواب والقليل الفناعة بالاعمال الأخروية! أعلم ان انبياء قد بعثوا لم يتبعهم غير نفر معدودين، لكنهم نالوا الاجر اللانهائي لوظيفة لنبوة القدسية. ليست المهارة اذن في كثرة الاتباع، بل المهارة في كسب رضا الله، فمن تكون حتى تحرص هذا الحرص فتقول "ليستمع الي الناس كلهم" فتنسى عمك وتتدخل في العمل الالهي؟ ان جمع الناس حولك وقبولهم لقولك

138 - سورة فصلت : 33
139 - البوطي - مصدر سابق / 39 - 40
140 - سورة الانعام : 133
141 - سورة الاعراف : 156
142 - انظر الترمذي - المناقب 73
143 - الغزالي - الاحياء ح 2 / 330
144 - للمقارنة : البوطي - مصدر سابق / 52

يرجع الى الله. فقم بعملك، ولا تتدخل في عمل الله" ¹⁴⁵ لقد ذكر العلماء ان الانسان في الارشاد يتأثر بطريقتين: الطريق العقلي والطريق النفسي. والمشاهد عموما ان ما يؤثر في القلب اقوى وقعا مما يؤثر في العقل وفي دراسة بهذا الشأن، وجد ان المؤثرات النفسية في تصرفات الانسان هي بنسبة 60 ./.، اما المؤثرات العقلية فيها فلا تزيد على 40 ./. ¹⁴⁶

د - الابتعاد عن تلقين العلوم العسيرة على الفهم :

تحت هذا العنوان بين بيدع الزمان النورسي ان العالم المرشد الحقيقي يهب للناس علمه في سبيل الله دون انتظار عوض ويصبح كالشاة لا كالطير، فالشاة تُطعم بَهْمَتِهَا لبناً خالصاً والطير تلقم فراخها قَيْئِهَا الملى باللعب. ¹⁴⁷
ان هذه الافادة تحمل في طياتها معنى حقيقيا ومعنى مجازيا. ويشير الى امرين هما :

1 - ان يحيط ويتمثل اهل الارشاد والعلم ما يقدمونه الى الناس من العلوم في انفسهم، وان يعمل المرشد بما يعلم ويقيم ما يقوم العلم به ويتمثله في نفسه بلحمه وعظمه وحتى النخاع. وإلا فأن نقر العلم بصورة سطحية كنقر الطير ثم تقديمه للناس، قد يضر اكثر مما يفيد.

2 - ان يقوم المرشد بالارشاد بشفقة الام الرؤوم، وان يقدمه كلبن النعجة للحمل مغذيا وسهل الهضم وموافقا لبنيته الضعيفة، فيفيد غذاء ولا يؤذي بلعوما.

- العناية بضرورات العصر في الارشاد :

أ - الارشاد فوق السياسات :

لقد صب سعيد النورسي القائل "اعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة" كل جهده لخدمة حقائق القرآن، في هذا العصر الذي ساد فيه داعية الشيطان الى "الحب في السياسة والبغض في السياسة" ¹⁴⁸ بدلا عن الدستور الرحماني الأمر "بالحب في الله والبغض في الله" ¹⁴⁹ اسئل بيدع الزمان النورسي "لماذا لا تهتمون بالسياسة الدنيوية؟ ... أم هو الخوف؟ فاجاب:

"الجواب: لقد منعتني خدمة القرآن الحكيم من دنيا السياسة منعا شديدا، بل أنستني التفكير بها فسيرة حياتي تشهد بأن الخوف لم يمسك بيدي ليمنعني من سلوك ما اراه حقا، بل لن يمنعني. ربما تمنعني خدمة القرآن من الحياة الاجتماعية. فان الحياة الانسانية سفر. ورأيت بنور القرآن أن الطريق الان يودي الى مستنقع آسن، وان القافلة البشرية تغوص وتطفو في سيرها في طين ملوث وعفن وقد وجد نفر منهم وسائل تنقذهم ما وسعهم من الطين والمستنقع. واكثرهم يسير في طين المستنقع العفن القذر وسط الظلمات، وكل عشرين من مائة منهم يمسح بالطين القذر سيماءه ووجهه

145 - النورسي - اللغات / 231

146 - البوطي / 64

147 - النورسي - الكلمات 849

148 - انظر ابو داود - 3

149 - انظر النورسي - الملاحق - قسطنوني / 122 - 123

في سكرهم كأنه مسك و عنبر، يسرون غائصين مرة وطافين مرة الى ان يغرقوا. وبقية الثمانين من كل مائة يفتنون الى حال المستنقع ويحسون العفن والقذارة فيه لكنهم حيارى لا يرون طريق السلامة... وان لهؤلاء دواء ان تستعمل الهراوة (السياسة) ليفيق اولئك العشرين من كل مائة

وثانيهما: ان تضئ انوارا لارشاد الحيارى الى طريق السلامة. وانا اشاهد ثمانين يحملون الهراوات ضد عشرين. ولا اشاهد من يضئ نورا بحق، للثمانين الحيارى الضائعين. فان اضئ لهم نور، تجد العصا في يد والنور في الأخرى، فلا يطمنون اليه. ويضطرب الرجل الحيران: "ربما يستدرجني ليضربني بالهراوة ! ثم اذا انكسر العصا لعارض يذهب النور ايضا او ينطفئ. فالحمد لله، لأنني - بالتجرد من السياسة - لم اهبط بحقائق القرآن التي هي كالجواهر الى درجة قطع الزجاج تحت ظل الاتهام باستخدامها للدعاية السياسية"¹⁵⁰ ان اصلاح عطب القلوب لا يكون إلا بنور القرآن. وحتى اذا تغلب بهراوة السياسة، فإن الكافر يسقط الى درجة المنافق. والنفاق يحيل المجتمع الى جحيم.¹⁵¹

ب - اولوية اركان الايمان :

يرى بديع الزمان ان من اهم واجبات المسلمين في هذا الزمان التجهز ضد الضلالات التي تخدش الايمان، الناشئة من العلم والفسفة، وبذل الجهد من اجل انقاذ ايمان المؤمنين :

"إن الدواوين القديمة للذوات المباركة السالفة وطرفا من رسائل العلماء الأولين تفصل في الايمان ونتائج المعرفة وثمارها وفيوضها. في زمانهم لم يكن هجوم على اساسات الايمان وجذوره ولم تتعرض اركان الايمان الى هزات. اما في الحاضر، فان جذوره واركانه تهجم بقوة وبكتلات (وبجماعات منظمة). تلك الدواوين والرسائل في اكثرها تتوجه الى خواص المؤمنين والافراد. اما رسائل النور، وهي معجزة معنوية للقرآن، فتنفذ اساسات الايمان، ويقرر المتخصص الحصيف لزومها وفائدتها كالخبز أو كالدواء لكل امرئ في هذا الزمان، لأنها لا تتوجه الى جهة الاستفادة من (ثمرات) الايمان القائم، بل تتوجه خدمته الى اثبات الايمان وحقيقته والحفاظ عليه وتحريره من الشبهات"¹⁵²

ج - رعاية التدرج :

ينبغي ان ينسحب التدرج في التشريع الى التبليغ ايضا. ولا شك ان هذه المسألة تتطلب تفحصا عميقا. فليس لانسان ان يعلق العمل بالاحكام الالهية حتى لبرهة قصيرة، بل انى له ان يدعيه؟! لكن إجراء معايير معينة من الدواء حسب المرض ضرورة لازمة في الطب كذلك يلزم تعيين المعايير بمقادير دقيقة في علاج الامراض المعنوية بالتحذير من الآثام او الحث على الحسنات. ويوجز بديع الزمان النورسي هذا

150 - انظر النورسي - المكتوبات / 59 - 60

151 - انظر النورسي - اللغات / 158

152 - النورسي - الملاحق : قسطنوني / 104 - 105

المعنى في جملة وجيزة". ليكن كل ما تقوله حقا. ولكن ليس من حقا ان تقول كل حق. ليكن كل ما تقوله صحيحا. لكن ليس من الصحيح ان تقول كل صحيح. والواقع ان بعض من لا يخلص نيته قد يفهم اجمل حقيقة على ضدها فتنتلم عزته، فتثور حساسيته وتستجلب معارضته¹⁵³ و ثم فارق يفرق بين من وظيفة ارشاد الناس ودعوتهم الى الطريق المستقيم الالهي، ومن وظيفة الافتاء وبيان احكام الحلال والحرام. ان عمل الداعية يهدف الى غاية شاملة عظيمة، تظهر نفسها في أمور مثل ربط العقول بالحق وشد القلوب به. اما الربط بالاحكام الشرعية، فهو جزء من هذه الغاية الكبرى. لذلك، على الداعية الا يحبس نفسه في قوالب معينة للافتاء، وان يسلك سبيلا واسعا عندما يتوجه الى شد الناس الى الاحكام يتضمن الحكمة والمرونة في حل المشكلات وفك المعضلات. وليس المقصود من هذا ان يتلاعب الداعية في الحلال والحرام حسبما يراه مصلحة او ان يتوسع له في تبديل الاحكام مع تقييد المفتي بالتزامه. فلا يتصور لاحد حق التلاعب بالاحكام مطلقا. فغاية الامر ان الداعية يتصور عسر نبذ الضلالات والمفاسد جملة واحدة في آن واحد و يلتزم الحكمة في التوجيه... فينبغي تجنب وضع المشكلات جملة واحدة امام الانسان، وترك تحميله تمام الحمل في آن واحد على ظهره¹⁵⁴ ويمثل البوطي لذلك بمثال اذ جاءته امرأة اسعده انها تسترت بملابس اكثر احتشاما بعد مدة طويلة من الابتعاد عن الحق، تسأل :

هل صحيح ان الله تعالى لا يقبل مني عملا صالحا حتى اتستر تماما؟

فاجابها : ان تؤمن ايمانا قاطعا بان الله تعالى اراد الخير والتوفيق فسهل لها طريق الايمان. ان الله الذي يعينها في خطواتها ما دامت تريد كسب رضائه، سيوفي لها الثواب بغير نقص عن كل عمل من اعمالها. فاذا زادت توجهها الى الله وطاعة لاوامره، سيزيدها الله ثوابا وهداية وسعادة في الدنيا والآخرة. ويرد البوطي انه لم يبدل بقوله هذا شيئا من كلام الله، لكنه لم يتصرف مثل مفت لا يغادر الافتاء بنص الحكم الشرعي قط. بل حثها على الاغتباط بما وفقها الله اكثر من تذكيرها بالعذاب اذا لم تستكمل نواقصها في اقصر وقت. لان ميدان الداعية غير ميدان المفتي¹⁵⁵.

د - رعاية الاسلوب العلمي :

حدد بدیع الزمان النورسي اعظم الاعداء في سطح العالم الاسلامي في القرن العشرين بالجهل والفقر والاختلاف. ونوه الى محاربتها بالعلم والعمل (الفني التخصصي) والاتفاق¹⁵⁶.

وهو يرى ان من اسباب تعثر سيادة الاسلام على الارض قاطبة ظهور بعض المسائل الاسلامية كأنها مخالفة لبعض مبادئ العلوم التجريبية. ولذلك ذهب النورسي

153 - النورسي - المكتوبات / 343

154 - البوطي - / 69 - 70

155 - البوطي - / 71

156 - النورسي - صيقل الاسلام / 443

الى ايضاح كثير من الحقائق الايمانية من وجهة علمية لنفي هذا التناقض الظاهري الذي يظن قائما وهو معدوم في الاصل¹⁵⁷.

ان علماء الاسلام عموما يناجون في توافق مع احساس القلب. لكننا نجد النورسي يفيض بأسلوبه العلمي في رسائل النور على مناجاته ايضا: "يا خالق الارض والسموات، ذا الجلال، أمنت وعلمت بتعليم قرآنك الحكيم وتدرّس الرسول عليه الصلاة والسلام: انه مثلما السموات بنجومها ومشمّلاتها في جو الفضاء تشهد على وجوب وجودك، وعلى وحدانيتك واحديتك، كذلك الارض بمخلوقاتك واحوالها جميعا تشهد على وجودك ووحدانيتك، فتشهد وتشير بعدد موجوداتك"¹⁵⁸

هـ - الابتعاد عن مداراة المتساهلين بالرخص :

الاصل في دنيا الارشاد هو تجنب ما يدعو الى اختلال الميزان بين الرخصة والعزيمة. ولا شك ان من حق الناس الاستفادة من الرخص التي تعبر عن التسامح والمرونة في الدين الاسلامي. ان تعدد آراء المذاهب الاربعة من عوامل حفظ التوازن بين الرخصة والعزيمة كما يقول الامام الشعراي. فالاقوياء يعملون بالعزيمة والضعفاء ياخذون بالرخص¹⁵⁹ وما خير رسول الله p بين امرين إلا اختار ايسرهما¹⁶⁰. ان اختيار الايسر يعني تفهم العجز البشري الذي هو اساس العبودية. لكن لا يدارى بالرخص فاقدو الحس الديني وتاركو العزائم المتساهلون في الاوامر والنواهي. فهؤلاء من جهة العبودية لله كالصبيان الذين نبتت لحاهم ولما اثبتوا رشدا وعقلا، وربما باعوا ما يقرأون من "جزء عم" بالسكر الحلوا!

في هذه المسألة، يقف بديع الزمان النورسي موقف الطبيب الحكيم الذي يداوي كل داء بدواء. فهو لا يناقض نفسه، بل يصف دواء حسب كل داء حينما يقول: "ان من يؤدي الفرائض ويجتنب كبائر الاثام في فتنة آخر الزمان هذه، ينجو ان شاء الله" ثم يقول: "لا يدارى المتساهلون بالرخص"

اللازم هو فتح باب الرجاء الواصل الى رحمة الله الواسعة للموقرين الجادين، وتذكير فاقدي الحساسية الدينية بالعزيمة والجد لزيادة توقيرهم لله. ان الافتاء باجتهادات مزاجية غير موضوعية لمداراة المتساهلين ودغدغة مشاعرهم الموفية الى اضلال سواد الامة وعامتهم، يتناقض مع اصل الارشاد.

وما اروع قول بديع الزمان "بيننا هو من المصلحة اغلاق النوافذ حتى الصغيرة منها من اجل دفع الضرر عن قصر الاسلام في موسم الشتاء المعنوي هذا، في زمان تعصف البدع فيها كالطوفان، فان فتح ابواب جديدة ومستحدثة يلحق اضرار جسيمة بالدين المبين الاسلامي كانه تمهيد الارض لهجوم تيارات اجنبية وشرسة"¹⁶¹.

157 - انظر النورسي - صيقل الاسلام - المحاكمات /

158 - انظر النورسي - الشعاعات / المناجاة

159 - انظر الشعراي - الميزان الكبرى / 5

160 - البخاري - كتاب الادب - 80

161 - انظر النورسي - الكلمات / 562

فالحفاظ، الحفاظ على التوازن بين الترغيب والترهيب والتزام التحذير النبوي الشديد في الحديث الشريف " كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار" ¹⁶².

و - التوازن في معادلة الدنيا والآخرة :

يقول الله سبحانه وتعالى { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك } ¹⁶³ فيرشدنا الى حسن التوازن بين الدنيا والآخرة وان السبيل الى الفوز في حياة السعادة الابدية في الدار الآخرة وحياة الدنيا يمر بالعمل. ثم امران نستنبطهما من قوله تعالى { وان ليس للانسان إلا ما سعى، وان سعيه سوف يرى } ¹⁶⁴ هما ان قدر الانسان على قدر عمله وان الجزاء الحق لكل عمل في الدنيا هو في الآخرة. بذلك، تتعلق سعادة الدنيا والآخرة بالعمل.

ومما يثير العجب تكرار كلمة الدنيا في القرآن 115 مرة، وكلمة الآخرة 115 مرة ايضا. هذا التوافق في العدد دلالة تشير الى اهمية التوازن بين الدنيا والآخرة.

ان ارتباط اثنين من فرائض الاسلام الخمسة بالقدرة المالية يدل على الاهتمام الذي يوليه ديننا الى العمل المشروع والكسب. وحينما يوجهنا النبي م الى ان خير المسلمين من لم يدع آخرته لديناه ولا دنياه لآخرته، ¹⁶⁵ نعلم ايضا ان ترك العمل والانشغال بالناوغل المعروفة حصرا ليس محمودا تماما. ولذلك وبخ امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ترك الاكتساب لاهله وعياله بدعوى "التوكل على الله" ووصفهم بالتواكل وشبههم بالزنابير التي تعتاش على النحل.

ويعزى بيدع الزمان سعيد النورسي الحال المرير والفقر المدقع في العلم الاسلامي الى الارشاد المغلوط المخل بقاعدة التوازن بين الدنيا والآخرة. ان الآية الكريمة { وان ليس للانسان إلا ما سعى } ¹⁶⁶ تحرك كوامن العمل. وتعليم الحديث الشريف بان احب الكسب الى الله الكسب الحلال يلقي الرغبة الى الاكتساب. وفي خضم التاريخ انحسر هذا العزم وانطفأت هذه الرغبة بنتيجة التلقينات غير الصحيحة. ¹⁶⁷ ويتهم النورسي الذين يلتقون هذا التلقين المغلوط بالجهل وغياب العلم بمتطلبات عصرنا خاصة. ولنرتب ما يقوله في نقاط.

أ - هؤلاء لا يعلمون ان اعلاء كلمة الله في هذا العصر مرتبط بالارتقاء المادي.
ب - في الحديث " الدنيا مزرعة الآخرة" ¹⁶⁸. فهؤلاء عاجزون عن تقدير الدنيا حق قدرها من حيث هي مزرعة الآخرة.

ج - هؤلاء لم يدركوا سر الحكمة في نداء الرسول م " أمتي ... أمتي " ¹⁶⁹ الذي يقيم التوازن بين الدنيا والآخرة ويوجه نظر امته الى حياة الدنيا والآخرة معا.

162 - انظر النسائي - كتاب العيدين

163 - سورة القصص : 77

164 - سورة النجم : 39 - 40

165 - العجلوني - ج 1 : 393

166 - سورة النجم : 39 - 40

167 - انظر النورسي - صيقل الاسلام - المناظرات / 402

168 - العجلوني - ج 1 / 412

169 - البخاري : التوحيد 36

د - هؤلاء لم يفهموا حكمة الحديث " خير الناس انفعهم للناس " ¹⁷⁰ الذي يدل على ان العمل من اجل خدمة الانسانية بنية خالصة عبادة ¹⁷¹.
 هـ هؤلاء يخلطون بين التوكل الحق، وهو الرضاء بنتائج الاعمال، والتوكل بمعنى الكسل ورد الاسباب ابتداء، متناسين انها اجزاء من سنة الله في الكائنات.
 و - هؤلاء يخلطون بين القناعة التي ذمها الاسلام بمعنى ترك الهمة والعمل، والقناعة التي اثنى عليها بمعنى تحريك الهمة والرضا بنتائج العمل والحركة. والحال ان القناعة بما في اليد بترك العمل هي زوال الهمة. فالذين يخلطون بين القناعة في التحصيل والقناعة في المحصول من اسباب دوام الفقر في العالم الاسلامي بتلقيهم الفاسد ¹⁷².

ز - العلم بالبناء النفسي للانسان المعاصر :

ثم عنصران مهمان في البناء النفسي فيما يتعلق بالارشاد في رأي سعيد النورسي :
 الاول: من خصائص هذا العصر تكاثر اهل الكتاب، بمعنى اهل المدارس، او بمعنى المتعلمين، وفيهم كثرة كاترة من الدارسين للعلوم الصرفة في اطار فلسفة تجريبية ومن المساقين مع الفكر المادي.

الاصل ان العلم يورث التواضع. لكن في عصرنا الحاضر صار يؤدي الى الغرور بالجهل المركب ويقود الى الاعتزاز بالنفس ويوقع في " التفرعن " بكسر روح الاذعان والتسليم. هنا تمس الحاجة الى قبلة ذرية ضد هذه الامراض تقوض اساسها النخرة لصد اعتداء الكفار أو هدي نفر منهم الا الايمان. وتسعى رسائل النور الى معالجة المرض بفيوض القرآن لظهار ادلة التوحيد بعدد ذرات الكائنات.

الثاني: ان الفكر المهيم على المجتمعات هو ترجيح الدنيا، كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ } ¹⁷³. فلا يرون الآخرة، ويستبدلون مثقالاً من اللذة العاجلة بقنطار من اللذة الآجلة. فالحس الاعمى لهؤلاء الناس وجد في هذا العصر الأخير خاصة بيئة يصرع فيها العقل والفكر، تدع حتى المؤمنين بالله والآخرة حيارى لا يحيون مشاعرهم واحاسيسهم الدينية، وتجعلهم تبعاً لاهل الضلالة: يرجحون الحياة الدنيا الشبيهة بقطع الزجاج، على دار السعادة الابدية الآخرة الشبيهة بالالماس والجوهر. والعلاج الوحيد لأنقاذ البشرية من هذا الخطر العظيم ان ترى عذاب جهنم في هذه الدنيا وان تذوق الحر في لذة الحرام. بمعنى آخر، تجسيد بذرة شجرة الزقوم الجهنمية في هذا الدنيا. وهو مسلك رسائل النور. يقول النورسي في الخطبة الشامية:

" ان ما في عصرنا الحاضر من تعنت الإلحاد، وصدود الضلالات الناجمة من طغيان العلوم الحديثة وغرورها والإعراض الناسئ من اعتياد السفه والغي، قد جعلت نسبة من ينعظ واحداً من مجموع عشرة اشخاص، أو ربما واحداً من عشرين شخصاً،

170 - العجلوني - ح 1 / 393

171 - انظر النورسي ، صيقل الاسلام - المناظرات / 403

172 - نفسه

173 - سورة ابراهيم : 3

بعد أن يعرف له الخالق جل جلاله ويثبت له وجود جهنم ويخوف من عذابها ليتجنب الشرور والسيئات، ثم تراه يقول: "ان الله غفور رحيم .. ان جهنم بعيدة جداً!" ثم قد يستمر في لهوه وعبثه، فينهزم قلبه وتنهار روحه أمام طغيان شهواته"¹⁷⁴.

ح - العمل بالمنهج الشهودي في الارشاد :

من اهم اوجه الارشاد لانسان هذا العصر الذي يرى بعينه ولا يبصر بعقله، سلوك المنهج الشهودي الذي عمل به القرآن. وخلصته العمل على ازاحة مستمرة لستائر الغفلة عن عين الانسان حيثما تقع على الموجودات، وابرار دلائل التوحيد امامها. والزمان - كما يوضح النورسي - مفسر، لا ترد مدوناته. أما المواقف والحوادث والوقائع الحاصلة، فانها عوامل موضحة تعين في فهم الموضوع المعني¹⁷⁵ يقول النورسي في المثنوي النوري العربي الذي يعد بذرة لكليات رسائل النور في هذا المنهج: "اعلم! ان هذه الرسالة نوع تفسير شهودي لبعض الآيات القرآنية. وما فيها من المسائل، ازاهير اقتطفت من جئات الفرقان الحكيم"¹⁷⁶ ان آيات كثيرة تنبه الانسان الى حقائق مشهودة في اشارة الى المنهج الشهودي مثل { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق. اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد }¹⁷⁷ ويعرض سعيد النورسي مشاهد في تفسير مفهوم "الحمد"

" ان مبعث الحمد والشكر في الكون، هو الألاء والنعم التي تغدق قصداً ولا سيما إرسال اللبن الخالص السائغ للشاربين من بين فرث ودم للصغار والاطفال العاجزين، والاحسانات والهدايا الاختيارية، والاکرامات والضيافات الرحيمة التي غطت سطح الارض برمته، بل غمرت الكون كله، وان ما يقدم لها من اثمان و قدر لقيمتها هي قول : "بسم الله" بدءاً ثم "الحمد لله" ختاماً، وبينهما الاحساس بالانعام من خلال النعمة نفسها ثم البلوغ منه الى معرفة الرب الجليل. فانظر الى نفسك بالذات والى معدتك والى حواسك، كم هي محتاجة الى أمور كثيرة ونعم وفيرة! وكم تطلب الارزاق واللذائذ والاذواق بأثمان الحمد والشكر! ابصر هذا وقس على نفسك كل ذي حياة. وهكذا فإن الحمد غير المتناهي المنطلق بالأسنة الاحوال والاقوال، إزاء هذه الألاء الشاملة! يبين كالشمس الساطعة ربوبية عامة وموجودة معبود محمود ومنعم رحيم"¹⁷⁸.

وفي مباحث اسمي الله الحسنيين " الرحمن " و " الرحيم " في رسائل النور، تنبيه الى انعكاسات الاسماء واتباع المنهج الشهودي في البرهان عليها. واكتفي هنا بايراد جمل قصيرة من مبحث طويل : ان وجود حقيقة رحمة لا حد لها في الكائنات، تبدو مثل ضياء الشمس تماماً. فمثلما الشهادة القطعية للضياء على الشمس، تشهد هذه الرحمة الواسعة على رحمن رحيم مستور خلف ستار. نعم. ان شطرا مهما من الرحمة

174 - انظر النورسي - صيقل الاسلام - الخطبة الشامية / 483

175 - النورسي ، المحاكمات / 22 - 23 وايضا للمعات / 78

176 - النورسي ، المثنوي النوري العربي / 34

177 - سورة فصلت : 53

178 - النورسي - الشعاعات / 643

هو الرزق، فسمي الرحمن بمعنى الرزاق. اما الرزق، فهو يرشد الى الرزاق الرحيم بدرجة ظاهرة حتى يضطر من عنده ذرة من الشعور الى التصديق¹⁷⁹.

النتيجة :

يفهم من الحديث الشريف لسيدنا محمد p : " الدين النصيحة "، ان الارشاد موضوع واسع ومتشابه يضم جنبات الحياة الاجتماعية والفردية للانسان. ان الاصل المقصود من آثار بديع الزمان سعيد النورسي البالغة ستة آلاف صفحة وزيادة، هو تبليغ رسالة القرآن العالمية للناس. ومعلوم ان الاحاطة بحقيقة على هذا القدر من السعة والانتشار في زمان ومكان محدود (هذه الصفحات) عسير، بل محال، لذلك، يظل هذا البحث محصورا بالاشارة الى تحليل الارشاد في مسعى لابرار هويته المعنوية.

وما وصلنا اليه هو: ان بديع الزمان النورسي مرشد لم يكتف بمناهج الارشاد المحفوظة، بل كشف طريقا جديدا خاصا بالقرآن وأحاط برغبات وطلبات العقل والقلب في عصرنا الذي انكسر فيه اذعانهما وقدم رسالة القرآن الى مدارك العصر وعقله. لقد اجاد النورسي مخاطبة العقل والقلب والوجدان في حركة الاصلاح التي ادخلها الى عالم الارشاد ووسع طرق الاستدلال المنطقية والشهودية لاشباع حاجاتها الفطرية بالتحرك وفاقا للقرآن حتى كأنها عصا موسى ينبجس منها الماء حيثما يضرب.

وهو بذلك اشبع حب استطلاع الحقائق الفطري في الانسان بالقول اللين المندوب اليه في القرآن وبلغ بقراء رسائله الى استنواق حظوظ غنية عن الوصف. إن الحقيقة الملموسة خلف تكرار الملايين لقراءة رسائل النور بشوق عظيم هو : إن سعيد غائب واهلية سعيد غائبة. المتكلم هو الحقيقة، الحقائق القرآنية .

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

بديع الزمان سعيد النورسي ... انساناً قرانياً

عارف علي نايد^N

كان المتوقع مني ان اتكلم في الندوة عن تلاوة القرآن او قراءته في الكثرة. لكن، وكما يدل عليه هذا العنوان المستغرب، اتحدث عن الكثرة الجنسية او "تعددية الكثرة" عوضاً عن الكثرة، وعن "الانسان القرآني" Homo Qur'anikus عوضاً عن قراءة القرآن او تلاوته.

لقد اخترت هذا العنوان العائم عن قصد. فانا اظن ان الكثرة بالمعنى الحقيقي، (وهذه لا وجود لها فعلاً في أي مكان)، لا تكون فاعلة في الغالب، اذا لم يتشكل مفهوم "تعددية الكثرة" في قلوب الافراد وعقولهم بدرجة عالية. فاذا اردنا ان نهيه الارضية المناسبة "للكثرة" بمعناها الحقيقي، فيجب ان نشجع تعددية الكثرة الاجتماعية. زيادة على هذا، انا اظن ان المسلم يقرأ القرآن قراءة مجردة، تشبه قراءة مثقف غربي متابع لكتاب من الكتب.

المسلم يحفظ القرآن بمعنى يستظهره في العقل. او الاله من ذلك، يحمله في قلبه، ويأذن له ان يغيره الى انسان جديد... الى انسان اسميه "الانسان القرآني"، لاني لا اجد له اسماً افضل من هذا! فاذا اردنا ان نفهم نوعية مقتربات المسلم الى القرآن بحق، فينبغي ان ندع جانباً معنى "القراءة" المجردة.

لنبدأ بايضاح المقصود من "تعددية الكثرة الاجتماعية" (Cosmopolitanism). ان هذه الكلمة لم تعد متداولة كثيراً كما في السابق. كانت الكلمة في الماضي تفيد معاني خاصة في عناوين مصنفات الفلاسفة الكبار، مثل كانط وماينك (Meineke).

^N ولد في ليبيا / بنغازي سنة 1962 وانهى دراسته في هندسة البيولوجيا. حصل على الماجستير والدكتوراه في فلسفة العلوم من جامعة غلوف بكندا. حالياً استاذ في المعهد السياسي للأبحاث العربية والإسلامية في روما. القى محاضرات عن الفلسفة وفلسفة الإسلام والشريعة والتصوف في جامعات ايطاليا وماليزيا وشارك في مؤتمرات للعلاقات الإسلامية - المسيحية. يتقن العربية والانكليزية والاطالية ويلم بالفرنسية والاسبانية والالمانية. متزوج وله ولدان.

وارى ان هذه الكلمة جديرة بالبروز من جديد. فلنلق نظرة على المعجم الانكليزي (COLLIN) في مكتبتني، لنعرف ماذا يكتب امام كلمة (Cosmopolitan):

- 1 - اسم. الذي يعيش في دول كثيرة ويجول في دول كثيرة. الذي ينجرد من المعايير المسبقة عن الوطنية والقومية خاصة.
- 2 - صفة. الاهتمام والتعلق بارجاء ومناطق كثيرة في العالم
- 3 - مثقف او مدني
- 4 - خليط متكون من افراد او عناصر قادمين من ارجاء العالم او مناطق مختلفة فيه

5 - انتشار الحيوانات او النباتات في ارجاء واسعة

اما الاسباب التي دفعتني الى نفض الغبار عن وجه هذه الكلمة فهي:

- 1 - تجردها عن المعايير والاحكام المسبقة عن الوطنية والقومية
 - 2 - قربها من السياحة والاستنفار
 - 3 - قربها من تصفية للروح بمعنى من المعاني
- هذه المتعلقات الثلاثة - كما سنرى عما قليل - تجعل الكلمة مناسبة لإيضاح معنى "الانسان القرآني" الذي نمر عليه سريعاً.
- ونشير أيضاً الى وجود محذورين اثنين من استعمال "تعددية الكثرة الاجتماعية (Cosmopolitanism) هما:
- الاول - ان هذه الكلمة تفيد فضاءً واحداً فقط. اما "الانسان القرآني" فيسيح في اجواء عديدة.

الثاني - ترتبط بالعالم فقط مع الوسعة التي في مدلولها. اما "الانسان القرآني" ، فاهتمامه بالعالم الأخرى أيضاً، بل حتى بالذات الالهية.

لأوضح الآن معنى "الانسان القرآني":

"الانسان القرآني" مؤمن ايماناً يقينياً ان القرآن كلام الله وعازم على الحياة وفاقاً لاوامره. يسعى لحمل القرآن في قلبه كل لحظة من لحظات حياته، ويجد في صياغة شخصيته بمعايير القرآن الى حد التطابق.

"الانسان القرآني" ، يحس بالفارق بين القرآن وسائر الكتب العادية كالفرق بين الذات الالهية والمخلوقات العادية. يوقر ويحترم القرآن كانه يتلقى كلام الله حساً ومعنى. فهو يؤمن به كلام عليم يحيط بعلمه الازل والابد. كلامه اللدني العالم الازلي الابدی. وهو رسالة الله الرحمن الرحيم تناديه في الزمن الحاضر. يصغي الى القرآن من أوله الى آخره خطاباً موجهاً اليه بشخصه من خالقه.

"الانسان القرآني" يرى القرآن هبة وهبه الله له بلا مقابل، إلا الشكر والاستقامة في حياته كلها.

"الانسان القرآني" ، يعلم ان القرآن يؤسس حكماً في وجوده مثله كمثل الانسان الذي يحيل الجدر الصماء الى سكن ومأوى. ويعلم ان قلبه وعقله وكيانه كله خراب وبناء مهجور وجدران تصير انقاضاً لا محالة. يعلم ذلك حقاً، لان الرسول الحبيب p

علمه. ويعلم ذلك حقاً، لانه جرب وتحقق بنفسه ان شبابه يتجدد بإحياء معاني القرآن في ذاته كلما تلاه، ويذوي اذا هجره. انه يدعو القرآن ليشغل قلبه، ويسكن جوانبه. "الانسان القرآني" لا يقرأ القرآن كما يقرأ الكتب العادية التي تحرك عقله، ولا كما يقرأ ديوان شعر. بل يتلوه تلاوة مؤدياً حق التلاوة. والتلاوة كلمة تجمع معاني العبادة والاداء الديني، يتهياً لها في صفاء كما يتهياً للصلاة، ويتوجه فيها قاعداً او قائماً الى الكعبة الشريفة قبله المسلمين. فالتلاوة مثل العبادات الأخرى. نية وتوجه الى القبلة بأدابها.

"الانسان القرآني" يتلو القرآن بقلبه، لا بعقله، لكنه لا يبعد العقل عن فهمه. هو عقل حاصل من فعل قلبي، وليس بذهن رياضي. قلبه مركز لوجوده كله، المادي والروحي. انه يتلو القرآن الذي يبعث الحياة في بدنه وروحه، بقلب ينبض في وجوده كله.

"الانسان القرآني" يتلو القرآن آية آية، وسورة فسورة، كما حفظه حفاظ السلف الاول، وينقله كما نزل الى الخلف، يستسلم قلبه للقرآن كاستسلام لوح الخشب للنجار. فهو يسلم قلبه للقرآن ليصوره ويبدله كيفما يشاء حتى يصير قلبه القرآن.

"الانسان القرآني" يهب قلبه باخلاص للهدى الالهي وسبب النجاة، ولا يستغل القرآن وسيلة لمآربه واطماعه البتة. ويعلم ان الله وهبه عقلاً وسخر له وسائل ليتغلب على مشاكله، ولا يفكر بالقرآن كمستودع يختزن حلولاً سحرية أو رفوفاً نصطف فوقها وصفات جاهزة. مع ذلك، هو يحد شخصيته وانسانيته بحد القرآن حتى يغدو خُلقه القرآن، فيكون حلّه للمعضلات حلاً قرآنياً.

فكل حركات "الانسان القرآني" وسكناته قرآنية.

والمنهج الالهي عند "الانسان القرآني" ليس تلقياً نظرياً، بل سبيلاً لواقع ملموس. وشريعته ليست بناء خارج القرآن، بل مجموعة التصرفات الواقعية التي ارتضاها قلب المؤمن، ويرتضيها، وسيرتضيها، بتعليم القرآن الخالدة.

هكذا تتشكل شخصية "الانسان القرآني" ولنتنقل الآن الى تعدديته الكثرية الاجتماعية".

ينبغي الآن امتزاج "تعددية الكثرة الاجتماعية" بالانسان القرآني" وهي غريبة عليه بمعناها الحقيقي. لان "الانسان القرآني" غريب متمرس ومحترف للغربة. فهو مسافر في درب الحياة يسير على هدي النبي ﷺ. ويعرف ان سبيل الاسلام غريب عن السبل الأخرى. وقد قال الرسول الحبيب ﷺ: "بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ". والانسان القرآني يرى في القرآن اهم مصدر للغربة فهذه الآيات التي هي كلام الله، يتلوها مرة تلو الأخرى، فتعمل في قلبه كمبضع الجراح، فتصده عن كل ما في الدنيا، وتوجه وجهه الى الموجود الواحد الأحد المطلق. وحين يتلو القرآن كل يوم، فيلقن "الانسان القرآني" (إنا لله وإنا اليه راجعون) ... انا اليه راجعون في كل وقت من الزمان، وفي كل لحظة، وفي كل نفس.. لا في يوم من الايام. القرآن يقود الانسان الى ربه دائماً، بل يدفعه اليه تعالى. ولذلك، لا يعد "الانسان القرآني" ارضاً لا يذكر فيه الله وطنا له. ولا يشقائق الى شيء، كما يشقائق الى قرية الى مولاه والنظر الى جماله. وهذا ما يجعله غريباً. لانه مسافر لا يمل المسير بقصد الوصول الى مولاه. ان كل صفحة من القرآن يقود سالك سبيله الذي يتلوه الى الخالق.

والاسلام في القرآن هو "الصرط المستقيم" ، الذي يتبعه المؤمنون فيهدتدون الى سواء السبيل ويحيد عنه الضالون فيتيهون ويقعون في سواء الجحيم. وتعزز قصص الانبياء السائحين في القرآن حال الاستغفار الدائم هذه والسياحة المستمرة. فموسى عليه السلام سائح في قنوته، وكلمه الله تعالى وهو سائح، ورجع الى مصر سائحاً لينذر بني اسرائيل. وابراهيم عليه السلام اعتزل قومه واباه للعبادة بعد ان كذبوه قائلاً (اني ذاهب الى ربي سيهدين). واسماعيل عليه السلام فتح عينيه في الغربة، ثم صارت تلك البلاد الموحشة بعد زمن "مكة".

وتتعرز في القرآن سياحة الانبياء بهجرة النبي p من مكة الى المدينة المنورة. وفي ابتداء تقويم المسلمين بالهجرة عبرة ! ولا شك في توطن النبي p. لكن تدقيق سيرته يدل على انه لم يقعد سنة كاملة في المدينة على وجه الدوام والاستمرار. وحتى حين اقامته، فقد كان سائحاً في الوصل الى الله !

وقارئ القرآن اذ ينتقل في تلاوته من آية الى التالية لها، (بل الاجدر ان يقال : اذ تنفذ معانيها في قلبه آية فآية)، يعيش تماماً في سياحات انبياء الله. ولا يكتفي بالحياة في تلك السياحات، بل يعي الحالة الروحية الغائرة والمستعصية على التعريف في هذه السياحات. ان التجربة الحركية والاستنفار والتحفز الدائم للسفر والسياحة الروحية، عنصر مهم في تكوين "الانسان القرآني". هذه السياحات تجعل "الانسان القرآني" تعددي الكثرة الاجتماعية (Cosmopolitanism) القرآن يسبح به من مكان الى مكان، الى اجواء يتنفس فيها. المهم هنا ان القرآن يهبه الاعتياد على التهيؤ الدائم للسفر.

لكن في سياحات "الانسان القرآني" شئ عجيب ... هو انه لا يدع نفسه لشئ إلا الله تعالى، ولا يرجع إلا الى الله تعالى. فهو يهتدي بالله ويرجع اليه كالسائر في ليلة صيف صافية ينيرها بدر وضاء. يمكنك ان تتجه شرقاً او غرباً، (ولله المشرق والمغرب). (وحيثما تولوا فثم وجه الله). نور الله تعالى يهديه دائماً الى سواء السبيل (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية. يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار). القرآن يقول للانسان : (إن الله له ملك السموات والارض) وله ان يسبح فيها كما يشاء ، على ان يتعلق قلبه بالله دائماً.

"والانسان القرآني" قادر على ان يتعلق قلبياً بالله في كل سياحة خارجية وداخلية، لانه يلحظ في الكثرة والزحام تجليات الله تعالى. وحتى القرآن هو تجل من تجليات الله سبحانه. فهو يعلم بتجلياته التغير والتحول في كل صفحة من صفحاته.

القرآن يعلم "الانسان القرآني" بان الجبال والسموات والدنيا آيات لله سبحانه. ويعلمه كيف يرى آياته في تغير الكائنات وتوسعها. ويعلمه ان الكتب المنزله على انبياء الله آيات لله. القرآن يعلم "الانسان القرآني" قدرة الله في تحول عصا موسى بامر الله تعالى الى ثعبان مابين وحية تسعى وقلق البحر به.

"الانسان القرآني" يرى تصرف الله في كل شئ فيستحضر وجوده (سبحانه) دائماً.

ومثلما يجعل القرآن "الانسان القرآني" يرى آيات الله وتجلياته في العالم الخارجي، فهو يجعله في نقلة متقدمة اخرى - يرى آياته وتجليات في نفسه ودنياه وروحه ووجوده بشغف واستكشاف. فتغدو الدنيا وروحه، وهو يتطلع الى هذه الآيات اللانهائية، "باناروما عظيمة".

"الانسان القرآني" يستشعر بالقرآن النعم الجليلة لهذا التنوع . يعيش فعلاً العناية الالهية التي وهبت له هذه الانواع والالوان المختلفة من النخيل والاعناب والسحاب والجبال... وحتى الانسان. وهو اذ يرى العناية الالهية في الاشياء والانسان ويستشعر الاحسان الالهية في هذا الاختلاف والتنوع، ينظر الى الكائنات باحترام ويحتضنها ويضمها الى صدره.

ثم ان "الانسان القرآني" يتعلم من القرآن ان التنوع الانساني هبة واحسان ايضاً، وإن أدى به الى النزاعات والاضطرابات القائمة. فهذه ارادة الله. ويتعلم ان يتوكل في خضوع لحكمة الله في التنازع والتدافع المحتمل والدائم بيننا - نحن البشر - ويفهم ان الارادة المطلقة لله، ويعتمد على مشيئته وعدله. "الي مرجعكم فاتبؤكم بما كنتم فيه تختلفون .." هذا هو الدرس المتكرر من القرآن.

"الانسان القرآني" ينظم حياته الى غايتها مع القرآن. وتبقى معضلات محتملة لا حل لها في هذه الدنيا قد تواجهه. فيترك الحكم فيها الى الآخرة. فان من الاختلافات والتنازع ما لا حل لها إلا ان يحكم الله تعالى فيها في المحكمة الكبرى. ان اعتماد "الانسان القرآني" على حكمة الله تعالى يريحه في هذه الدنيا. وتلك راحة تجعله واثقاً مطمئناً. وليست الثقة هذه نابعة من الكبر او الاعتماد على النفس، بل من الايمان والتواضع.

فلا يزال "الانسان القرآني" ينضج بالخصال القرآنية حتى يغدو مستقيماً "وتعددي الكثرة الاجتماعية"

هذا هو "الانسان القرآني" الذي ظهر على مدى التاريخ في كل مكان مسلماً مسؤولاً عن ثقافة وتراث عظيم محوره الله تعالى. هؤلاء هم المسلمون الذين منحوا الانسانية الحضارة الاسلامية بشعرها وفنها وأدبها وحكمتها.

"الانسان القرآني" يتمثل في المسلمين الذين احاطوا علماً بالاختلاف بينهم وبين الاديان والمذاهب الأخرى ومحصوا آراءهم بصبر عجيب، لانهم يعلمون بان في كل ذلك آيات لله تعالى. ونجد في علماء السلف الصالح نماذج كثيرة، نفتقدها في عصرنا الحاضر. فواقعنا المعاصر لا يسر الناظرين، ويجعل من ظهور نماذج "الانسان القرآني" ضرورياً.

ان عملية حصر الاسلام بالحدود القومية والجغرافية، جاءت بتأثر كثير من المسلمين بالقوميين الاوربيين او بالنظريات اليسارية. ان الاسلام يصير تحت وطأة هذه المؤثرات ايدولوجية دنيوية وانتماء قومياً. لقد دفع انقطاع المسلمين عن الدنيا في القرون 17 ، 18 ، 19 ، وتفوق العالم الغربي مادياً، والنتائج المرة من التحام هذين السبيين، الى عرض نوع من الاسلام ينعكس في مرآة المدرسة التجريبية الغربية.

ونرى من الضروري ان يتوقف هذا النوع من العرض اذا اردنا ان نعرف حقيقته
واذا اردنا "للانسان القرآني" ان يستمر حياً.

ان انموذج "الانسان القرآني" المزيف، يصد عن تلاوة القرآن كلاماً لله تعالى. فقد
صار المسلمون في هذه المرحلة المؤسفة يقرأون القرآن كمحتويات ومفاهيم متأثرين
كثيراً بالمناهج الغربية. فتخلف من ذلك نوعٌ من الاقتراب الى القرآن بمنظور "يعتمد
على المفاهيم التجريبية"، ويستند على استخدامه وسيلة للمشاريع والرغبات
الانسانية. ونجد اليوم زمرة متخصصة تقوم بمثل هذه المناورات مع القرآن، تراهم
يتكلمون باسم القرآن، فيخدعون البسطاء من المسلمين وغير المسلمين ويقودون
المسلمين الى الهاوية.

ان لإنحسار أنموذج "الانسان القرآني" سبب آخر يتعلق بخصلة ذاتية فيه. فكما
مرّ فيما سبق، يمتلك "الانسان القرآني" صفة غريبة، اعاقته عن محاولات "التمارج"
المطالب به بشدة فيما يسمى "بالمجتمع التعددي".

ان "الانسان القرآني" هو الميل الى طلب حياة وعالم يعودهما القرآن. وهذا ما لا
يتوافق مع مايسمى "بالمجتمع التعددي" في عصر الفضاء. فكثير من مثل هذه
المجتمعات دعت "الانسان القرآني" الى ترك "غربته" وطلبوا منه ألا يفسد عليهم
حياتهم التي ارتضوها. واینما استجاب أنموذج "الانسان القرآني" لهذا الطلب وامتزج
مع تلك المجتمعات، فقد اضاع خصائصه النوعية تماماً، او تعرض الى تشوه شديد
في الاقل. اما الذين رفضوا الاستجابة، فقد هاجروا الى مواضع يجدون فيها عوناً او
الى مواقع اقل عدوانية وهجوماً.

ان "الانسان القرآني" تعددي في جوهره، بمقدوره ان يعيش في كل ارجاء الارض او ان تلقى قبولاً حيثما
وجد. لانه يحمل حياته ودنياه العملية في قلبه. ومع وجود مشاكل كثيرة يتعرض لها "الانسان القرآني"، يبقى
هو الاسبق في المضمار فلا يدانيه ما يسمى "بالمجتمع التعددي" ولا "نماذج" "الانسان القرآني" المزيفة.
يقرر علماء الانسانيات والفلاسفة أن الإنسان نوع عاقل، وقادر على التمييز
والتعلم والادراك والتفكير. اما انا فاقول بوجود نوع آخر هو ما يمكن ان نسميه "
الانسان القرآني". و اردت ان اشكل اطارا لهذا "الانسان القرآني". هذا الاطار ليس
ابتكاراً من عندي، بل شئ ورثناه من موروثاتنا وتقاليدنا العظيمة.

عائشة رضي الله عنها تعرّف الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم فتقول: (كان
خلقه القرآن) فتقيم خلق الرسول صلى الله عليه وسلم على الاخلاق القرآنية. وايضاً
هو من موروثات وأثار المرابين العظام مثل الأجوري والمكي والمحاسبي والغزالي .
القرآن ليس تشريعاً انسانياً وضعياً، بل سبيلاً محسوساً للوجود . والبناء القائم
حسب المدلولات القرآنية ليس قولاً قرآنياً فحسب، بل حركات ملموسة للانسان الذي
تشكل قلبه بالقرآن وحده، ولا يزال يتشكل به، وسيستمر في التشكل كذلك. هكذا هي
العمومية في اخلاق "الانسان القرآني".

والى هنا رسمنا صورة "الانسان القرآني" بخطوط عريضة. ونريد من هنا ان
نخرج الى بديع الزمان الذي يشكل "باراديجما" للانسان القرآني في هذا العصر.

يبين بديع الزمان في مصنفه الموسوم بالمتنوي العربي النوري ان مجدد الالف الثاني الامام الرباني نصحه نصحاً غيبياً في كتابه (المكتوبات):
ان "وحدّ القبلة" و "اتبع استاذاً واحداً"، فالتزم بنصحه، وفهم من ذلك النصح انه يريد ان يجعل من القرآن استاذاً وحيداً له. "لان القرآن هو الاستاذ الحقيقي وتوحيد القبلة يكون بهذا الاستاذ".
ان هذا التمرکز الخاص على ارشادية واستاذية القرآن، هو مفتاح لفهم النورسي انساناً قرآنيّاً.

ومن المهم ايضاً ان نعرف ان مقترب بديع الزمان الى القرآن باعتباره مرشداً، ليس مقترباً عادياً كما الى النصوص الأخرى. فهو يؤكد في مقتربه على القرآن كلاماً لله تعالى خالق الموجودات كلها.

ويذكر في مكان آخر من المتنوي العربي النوري ان قوة النص وعلوه يتعلق بالقائل والمصدر فلا ينبغي الاقتراب من كلام الخالق بصفة الاقتراب من كلام المخلوق. فيكرر كثيراً القول المشهور في تراثنا "الفرق بين القرآن والكتب الأخرى، كالفرق بين الخالق والمخلوق" ولذلك يؤكد الغزالي في فصل آداب تلاوة القرآن في الاحياء على ادراك من يخاطبك عند تلاوة القرآن واستحضار ان المتكلم هو الله تعالى

لقد ادى ادراك سعيد النورسي لكلام الله المعجز والفعال والمؤثر في الحياة، الى حقيقة مفادها: ان الله تعالى نزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مفتاحاً لمغاليق القلوب المؤمنة ومنبعاً لماء الحياة مثل عصا موسى (عليه السلام) الذي يفلق البحر ويفجر الماء من الصخر.

فهذه النعمة المتمثلة في فعالية التغيير القرآنية منبع لا مثيل له لبعث الحياة، على خلاف الجهد غير المجدي للفلسفة الباحثة عبثاً عن نظام وضعي مثالي يقيمه الفكر البشري.

ولا يحصر بديع الزمان ان هذا التأثير الفعال للقرآن الكريم على فتق القلوب المتحجرة فقط، بل يراه متعدداً بصورة عجيبة الى محو الكثافة الزائفة للدنيا الخادعة. فلا يسمح _ كما ذكر في المتنوي العربي النوري _ للدنيا ان تبقى حاجزاً جامداً بيننا وبين الحق سبحانه وتعالى

بل يريد ان يبعثها شذر مذر بقدره القرآن. بمعنى آخر ان بديع الزمان يرى ان القرآن يكسر حاضر الدنيا ويظهر للبشرية الحقيقة التي وراءها حتى يبدو الحق حقاً. فما المنهج و الوسيلة التي وجدها سعيد النورسي للحصول على هذه القوة الفعالة للقرآن الكريم في تحطيم حاجز الدنيا ؟

الجواب في هذا الدعاء الصافي والقصير :
"فيا ربي ويا خالقي ويا مالكي!

حجتي عند ندائي حاجتي.
وعدتي عند دعائي فاقتي.
ووسيلتي انقطاع حيلتي.
وكنزي عجزي.
ورأس مالي آمالي وآلامي.
وشفيعي حبيبك ورحمتك.
فاعف عني واغفر لي وارحمني يا الله، يارحمن، يارحيم".¹

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

البيئة في القرآن الكريم وفي تفسيره المعاصر : رسائل النور

د. داود اي دوز^P

مدخل

تبلور الوعي بمشاكل البيئة (التي صارت تهدد البشرية بعد النصف الثاني من القرن العشرين) بعوامل النهضة الصناعية في الغرب، وان كانت جذورها تمتد الى آمد بعيدة في القدم. ثم ما فتأت تزداد خطراً حتى بلغت مبلغاً عظيماً في الحاضر. ان مشاكل البيئة من المعضلات النادرة التي شغلت جمهوراً كبيراً من الناس ردحاً طويلاً، ولا زالت. فنجد تخصصات دراسية مثل هندسة البيئة ودروساً عن مشاكل البيئة في مناهج التعليم وبرامج في الراديو و التلفزيون وصفحات في المجالات والصحف، واحزاباً وجمعيات و اوقافاً للبيئة تخلف رأياً عاماً قوياً وحركات شعبية، ومصارف وبنوكاً لتمويل حماية البيئة، وقوانين تشرع لهذا المقصود، ومؤتمرات دولية تعقد، ومواثيق ومنظمات دولية تنظم... من اجل حماية البيئة وادامة الحياة الانسانية في بيئة سليمة.

ولا مفر من اهتمام فروع العلوم المتنوعة بموضوع له هذا الثقل في حاضر البشر، وفي المقدمة منها "علم البيئة"، فينشط البحث عن مشاكل البيئة في علم الاحياء والفيزياء والاقتصاد والقانون¹... فهل يمكن ان تتخلف علوم الدين عن دراسة مثل هذه المعضلة المهمة؟

P من مواليد سنة 1962 في محافظة جناق قلعة . حصل على الدكتوراه في التفسير سنة 1992 بجامعة مرمره. وهو استاذ مساعد في جامعة صقاريا . له عدة مؤلفات منشورة بالتركية منها: [1- التسعير في الاقتصاد الإسلامي 2- القرآن: وعي وشفاء 3- الغذاء والشفاء في القرآن الكريم. وله كتب تحت الطبع.

1 7-8 s. Çevre Sorunları, İstanbul 1995, İbrahim Uslu.

ان الفهم السليم لمعضلات البيئة، يستدعي تعريفاً سليماً للبيئة نفسها. ونكتفي هنا بعدد محدود من بين تعريفات كثيرة للبيئة. فيمكن تعريف "البيئة" التي هي في اوسع معانيها "الوسط الذي تعيش فيه الاحياء" من جوانب مختلفة فاذا تطلعنا اليها من الجانب الجغرافي، نقول انها: دراسة الفعاليات الجارية في الوسط الذي يعيش فيه الانسان وقواعد التأثيرات المتبادلة بين الانسان ووسطه.² اما من الجانب الاقتصادي ، فهي مجموع العوامل المتشكلة من الانسان والطبيعة.³ ومن الجانب الاجتماعي هي مجموع العوامل الخارجية التي تؤثر في حياة الفرد او الفئة الاجتماعية او المجتمع من الناحية البيولوجية او الاجتماعية او الثقافية.⁴ اما علماء البيئة فيعرفونها بانها كل شئ حي او غير حي في الكائنات يتعلق بالفرد.⁵ ويشمل هذا التعريف الأخير الوسط الطبيعي والصناعي.⁶ ويفهم بموجبه ان الوسط الطبيعي هو الوسط الذي لم يمسه تغيير بنتيجة التدخل الانساني، والوسط الصناعي هو الوسط المتشكل بالتدخل الانساني عبر الاحقاب الطويلة منذ وجوده.⁷

ومن تعريفات البيئة ايضاً : الوسط الحياتي او البيئة : هي المساحة المكانية التي يرتبط بها حي أو مجموعة، بروابط حياتية، وتؤثر فيها وتتأثر بها.⁸ ويعرف علم البيئة بانه علم يهتم بدراسة ادامة حياة الاحياء في الوسط الحياتي بانسجام وتوافق.⁹ ويجب الانتباه الى ان "علم البيئة" لا يتطابق مع ما نفهمه من كلمة البيئة في اذهاننا تماماً فهو يتارس علاقة الانسان مع الوسط الطبيعي الذي يوجد فيه ويشكل جزءاً منه.¹⁰

لقد استمرت المعادلات متوازنة - عموماً - بين الانسان والبيئة، والاحياء الأخرى والطبيعة، منذ الخلق حتى عصر النهضة الصناعية، ما عدا الحالات الاستثنائية. لكن النهضة الصناعية هيأت للانسان ظروفاً مكنته من التدخل السافر في الطبيعة، فبدأ التخريب في التوازن البيئي وتدمير البيئة، بل تحويلها الى خطر على الحياة نفسها.¹¹ استعرت الرغبة في السيطرة على الطبيعة واستغلالها الجشع بعد القرن السابع عشر، وخلفت في السنوات ما بعد 1800م معضلات كثيرة بنتيجة التطور الصناعي والتكنولوجي إبتداء من اوربا الغربية ثم في ارجاء الارض كلها بعد ذلك. ومن هنا

2 Erol Oğuz, Coğrafya Açısından Çevre, Çevrebilim Sempozyumu, TÜBİTAK Yayını, Ankara, 1982, s. 233.

3 Zeynep Arat, İktisat ve Çevre, Çevrebilim sempozyumu, TÜBİTAK Yayını, Ankara, 1982, s.57.

4 Özer Ozankaya, Toplum Bilim terimler sözlüğü, T.D.K. Yayını, Ankara, 1975.

5 Mine Kışlalı, Fikret Berkes, Ekoloji ve Çevre Bilimleri, TÇSV. Yayını, Ankara, 1985, s. 18.

6 Şevket Özdemir, Türkiye'de Toplumsal Değişme ve Çevre Sorunlarına Duyarlılık, palme yayınları, Ankara, 1988, s. 10.

7 Kemal Görmez, Çevre Sorunları ve Türkiye, Gazi kitabevi, Ankara, 1997, s. 10.

8 Sırm Erinç, Ortam Ekolojisi ve degradasyonel Ekosistem Değişimleri, İ.Ü. denizbilimleri ve Coğrafya Enst. Yay. 1984, s. 3.

9 Ergün Gürpınar, Çevre Sorunları Ders Notları, İstanbul, 1989, s.3.

10 Kadir Cangızbay 'habeas Corpus'tan 'Habeas Qikos'a veya 'Ekolojizmin Zorunlu Güzergahı', Türkiye Günlüğü, sayı, 3, s.39-40.

11 Kemal Görmez, Çevre, Çevre Sorunları ve Çevre Politikaları Üzerine Bazı Mülahazalar Türkiye Günlüğü, Haziran 1989, sayı 3, s.6.

يمكننا القول ان معضلات البيئة (يعني مشاكلها) هي المعضلات الظاهرة بتأثير البيئة التي كونها الانسان (لاحقاً) في البيئة الطبيعية، والظاهرة ايضاً في البيئة الصناعية.¹² هذه المعضلات في حدودها الضيقة هي تلوث الهواء والارض والماء والضجيج والتلوث النووي والحراري،¹³ والمخاطر التي تتعرض لها الحياة في البيئة بسببها. لكن حدودها تتوسع في الوقت الحاضر لتشمل أموراً اخرى عدا مشاكل التلوث.

من الضروري ان تجري دراسة حفظ البيئة - مثلما في فروع العلم الأخرى - من وجهة معنوية، زيادة على الوجهة المادية. هذا التوجه يشارك في نشر الوعي واندفاع الجمهور في الحلول المطروحة، وحين نتطلع الى الموضوع من هذه الزاوية، نجد ان الحفاظ على سلامة البيئة ليس جديداً، وان الاسلام دعى الى ذلك ووضع ضوابط يراعيها المجتمع لحماية البيئة ضمن تشريعاته. فمقصودنا من هذا البحث هو بيان ما جاء به القرآن الكريم بشأن معضلات البيئة التي تتعلق بالاحياء كلها، وما ذكره مصنف رسائل النور الاستاذ سعيد النورسي بشأن البيئة والمواضيع المتعلقة بها وتطبيقاتها في حياته الشخصية.

ونبادر فنقول: ان مفهوم البيئة والدراسات المستقلة عن معضلاتها ظهرت في العصور المتأخرة. لكننا - مع ذلك - نجد آيات قرآنية واحاديث شريفة بشأن المواضيع الداخلة في دائرتها. وان غياب ابواب مستقلة او عناوين ترادف المصطلحات الحديثة في المصنفات التراثية، لايعني اهمال هذه المسألة، بل نلاحظ ان الاسلام الذي يعطي لكل ما يخص الانسان اهمية بقدر ما يقتضيه، يولي عناية كافية لهذا الموضوع في القرآن الكريم. وكذلك نلاحظ ذلك في رسائل النور، وهي تفسير عصري للقرآن الكريم. وما نقوم به هنا، هو جمع الشروحات المتناثرة وتنظيمها في مفردات بمعايير يسهل فهمها اليوم.

اهمية الدين في حل معضلات البيئة

من الضرورة ان لا ننسى الدين والثقافة حين نتحدث عن معضلات البيئة وحلولها لان الانسان يفتح عينيه على هذه الدنيا في جو معين من الثقافة والدين يحدد اطار القيم للفرد وللمجتمع بشأن العالم والطبيعة. وحين نستطلع التاريخ نجد ان برامج التربية والتنمية التي لا تأبه بتاريخ المجتمع وثقافته لا تصل الى اهدافها، ونجد ان المجتمع يقاوم هذه البرامج التي تحمل في طياتها نوعاً من القهر والتسلط عليه. وقد شهدنا كثيراً من انظمة التسلط والاستبداد والقهر التي لم تأبه بالدين والثقافة الاجتماعية تتهاوى امام ابصارنا. لذلك، وعلى ضوء الابحاث الاجتماعية والبشرية والنفسية ايضاً، نصحت منظمة الامم المتحدة بالاستفادة من الدين والثقافة الخاصة لكل شعب من الشعوب في حماية البيئة، اقراراً منها باهمية حماية البيئة والعالم ودور الدين الكبير في ذلك، وبالتالي حماية المستقبل الذي يرتبط بسلامة البيئة. وفي هذا الاطار ايضاً، عقد الصندوق الدولي من اجل البيئة سنة 1986 مؤتمراً جمع ممثلين من

الاديان الكبرى (الاسلام والمسيحية واليهودية والهندوسية والبوذية) لبحث دور الاديان في حل معضلات البيئة واهمية هذا الدور.¹⁴

ومن المؤتمرات المهمة التي تؤكد على دور الدين في حماية البيئة، النداء الذي وجهه رجل الفضاء كارل ساغن مع اثنين وعشرين عالماً مشهوراً في شهر شباط (فبراير) سنة 1990 من موسكو الى كبار ممثلي الاديان للمشاركة في جهودهم لحماية البيئة العالمية. وتقرر ان يكون الاجتماع المشترك في موسكو، على خلاف التوقعات، لان موسكو كانت عاصمة لنظام استبدادي يعادي الدين ويقمع الفعاليات الدينية منذ سبعين عاماً. ان ما يستفاد من نداء هؤلاء العلماء هو الدور المهم والقاطع للاديان في حماية البيئة والحفاظ على جمال الطبيعة. ولعل هذه هي المرة الاولى في تاريخ العلوم الحديثة التي يطلب فيها العلماء العون من الدين وممثلي الاديان في ايجاد الحل لمشكلة. وفي الحقيقة ان مثل هذا النداء قد جاء متأخراً - في رأينا - اذا ما تصورنا ابعاد المخاطر التي تتعرض لها البيئة ومستقبل العالم. وقد اشار المفكر والمؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي الى فعالية الدين في حل معضلات البيئة بقوله: "اظن بوجود حاجة الى تعاون على مستوى العالم بين منتسبي جميع الاديان والفلسفات لحماية الانسان من نتائج التكنولوجيا التي يلهمها الدافع المادي".¹⁵

لقد بات واضحاً اليوم العجز عن حل هذه المعضلات بغياب القيم التقليدية والمعنوية والاخلاقية والدينية، حتى ان فرولوف رئيس تحرير المجلة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي (السابق)، يعترف في معرض بيان افكاره للجنة العالمية للبيئة والنمو، فيقول: علينا ان نطور مناهج فكرية حديثة وايجاد معايير و اخلاقيات جديدة ، اذا ما اردنا التقدم بنجاح في حل المعضلات العالمية، وعلينا بلا شك ان نتقبل انماطاً سلوكية جديدة.

ومن الضروري ان نحقق نضوج القيم الجديدة والتطلعات الانسانية في نفسية الانسان، وعدم الاكتفاء بتطوير جوانبه المادية والعلمية والتقنية وحدها، لان العلم والانسانية معاً هما حقيقتان خالدتان في تكوين العنصر البشري. وهذا يعني الحاجة الى المفاهيم الاجتماعية والاخلاقية والعلمية والتكنولوجية.¹⁶ ان الدين في عصرنا، بدأ يشغل هذا الفراغ الذي اشار اليه فرولوف. وهنا يكمن واحد من اسباب العودة الى الدين ونهوض القيم الدينية الذي نلمسه اليوم. وايضاً، اشار رودولف باهرو ، المعروف في أوساط الخُضر، الى اهمية البعد الديني والمفاهيم الحديثة بشأن الموضوع. هذا الناشط البيئي الالمانى الكبير (باهرو)

İbrahim Özdemir, Münir Yükselmiş, Çevre Sorunları ve İslâm, Ankara 1995, s. 26, "WWF bu 14 tartışmaları bir seri olarak yayınlamış bulunmaktadır. İslam and Ecology, ed., Fazlun Khalid-Joanne O'Brien, New York, 1992. Diğerlerinin adları ise; Buddhism and Ecology, ed. M. Batchelor-K.Brown; Christianity and Ecology, ed. E. Breuilly-M. Palmer; Hinduism and Ecology, R.Prime; Judaism and Ecology; A.Rose." den naklen.

Çevre Sorunlar ve İslam, s. 27, "Arnold Toynbee-Daisaku İkedo. yaşamı Seçin, (trem. Umut Arık), 15 Ankara Üniversitesi masimevi, 1992, s. 46" dan naklen.

16 المصدر السابق، نقلا من الصفحة 67

يرى ان الزمان قد مضى على الاكتفاء بالوسائل التكنولوجية والقانونية لحماية البيئة وانفاذها. فمن اللازم " عملية انقلاب فكري، كما فعل النبي عيسى ، ومحمد، وبوذه." وتعريف جديد لعلاقة الانسان بالطبيعة وجميع الموجودات فيها، ووضع قاعدة اكثر اعتدالاً وافر صحة للوشائج بين الانسان والطبيعة.

من المهم ان نعرف مقتربات الاسلام بشأن الموضوع، بناء على ما ذكرناه، من اجل حفظ البيئة ونقله الى الاجيال القادمة ميراثاً سليماً وصحيحاً وما يستلزم ذلك من تصميم منهج تعليم البيئة في المدارس. وايضاً، ندعو رجال الصناعة والاعمال والقادة الاداريين والمسؤولين وابناء الشعب جميعاً الى مراعاة البيئة بالتأكيد على البعد الديني. فلا ينبغي ان يكون الربح وحده هدفاً في الفعاليات الصناعية والتجارية. ان تحكيم الحساب الوجداني، بجانب روادع القوانين والانظمة، يقلل من الاضرار والتخريبات اللاحقة بمجموع المنظومة الاقتصادية والانسان الى ادنى حد ممكن. وقد نبه البروفيسور الدكتور النرويجي ارن نيس ، وهو من مؤسسي "حركة البيئة من الاعماق" ، الى ضرورة تفسير جديد للمسؤوليات التي يحملها الانجيل والقرآن الكريم على الانسان من زاوية البيئة مؤكداً على دور الدين في حماية البيئة.¹⁷

البيئة في القرآن الكريم ومقترب رسائل النور

يتطرق القرآن الكريم الى الوسط القريب من الانسان والطبيعة ، وبمعنى اشمل الى الكائنات ، اكثر مما تتطرق كتب الملل الاخرى. فهو يوضح للانسان خلق الكائنات وغاية الخلق وانواع الموجودات فيها، ويبين ايضاً نوع الاواصر والوشائج بينها وبين الانسان، ويرشده الى السبيل القويم.

ولاشك من وجهة تاريخ البيئة، ان سبب الظهور المبكر لحركة البيئة في الاسلام، هو الاسلام بذاته، او بعبارة اكثر دقة: هو القرآن الكريم. فقد نزل القرآن الكريم شفاء للقلوب وتطهيراً لها من ظلمات الكفر. كما طهر الابدان ونظم امور الدنيا، فاهتم بروح الانسان كما اهتم بعالمه المادي. وارشدهم - فيما ارشد من الامور كلها - الى صلاح البيئة لذلك شغلت البيئة في المؤمنين بالقرآن الكريم حيزاً مهماً منذ ظهور الاسلام.

سننترق في هذه البحث الى ما ورد في القرآن الكريم بشأن الموضوع ، ثم الى نظرة رسائل النور، التفسير المعاصر للقرآن الكريم، ونظرة مصنفها المحترم بديع الزمان سعيد النورسي .

اولاً : كتاب الكائنات التي هي من اعظم الادلة على وجود الله سبحانه :

لقد خلق الله تعالى الانسان ليؤمن بالله ويعرفه ويعبده. وتوجد دلائل كثيرة تدله على الايمان بالله تعالى، اكثرها جلاء ووضوحاً النظر الى الكائنات - وهو فيها ومنها - والتفكر في الموجودات. وما اكثر ما يرشدنا القرآن الى ذلك . "سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق. اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد" (فصلت:53) فهذه الآية ، وغيرها كثير، ترشدنا الى ان وجود الانسان بذاته ووجود الكائنات كلها ادلة على وجود الله تعالى: "الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً" "ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض

لآيات لقوم يتقون" "ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون" "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون" "افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبثنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا، كذلك الخروج" . "ياايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى اردل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج" ¹⁸.

ونرى بديع الزمان النورسي يفسر آيات كثيرة في هذا الموضوع، ابتداء من اقرب شئ الى الانسان الى الكائنات وما فيها، فيشير الى انتظامها ويستفيد منها للبرهان على وجود الله سبحانه. فعنده ان الله ربنا ثلاث معرفات عظيمة وكلية تعرفنا به، اولها كتاب الكائنات ¹⁹.

يجد بديع الزمان في تلويث البيئة التي نعيش فيها، وهي جزء من الكائنات، وتخريبها وإيقاع الضرر بها هو تخريب لمعرفة كبير وكلي بالله تعالى. مثال 1 : "ان كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، انما يمثل ختم الأحذية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضيعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبها.

فزهرة صفراء - مثلاً - في حديقة ما. هذه الزهرة هي بمثابة ختم يدل بوضوح على مصور الحديقة، فمن كان مالكاً لذلك الختم - الزهرة - فهو مالكٌ لجميع أنواع تلك الزهرة ومثيلاتها الميثوثة على الارض كافة، وبدل ايضاً على ان تلك الحديقة كتابته. اي ان كل شئ يُسند جميع الأشياء الى خالقها ويشير الى تجلٍ باهر عظيم لوحدها سبانه" ²⁰.

مثال 2 : يجيب بديع الزمان عن سؤال بشأن ثمرات المعراج النبوي وفوائده فيقول: " اخرج ذلك النور الكائنات قاطبة مما يتوهم انها تنتردى في اوضاع فانية زائلة مضطربة اليمية.. واطرها على حقيقتها، انها كتابات صمدانية ورسائل ربانية

18 انظر السور: نوح:15، يونس:6، البقرة:164، يس:37، ق:6-11، الحج:5.

19 كليات رسائل النور - بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة التاسعة عشرة . وتراجع الطبعة العربية للرسائل التي نهض بترجمتها كاملة الأستاذ احسان قاسم الصالحي_ جزاه الله خيراً - أينما أحيل اليها في الهوامش.

20 للمعات/543 وانظر (الشعاعات)- الشعاع التاسع، وفيه ان الكائنات كتاب سبحاني مجسم وقرآن رباني جسماني.

قدسية، ومرآيا تعكس جمال الاحدية مما ادخل السرور والفرح في قلوب جميع ذوي الشعور بل ابهج الكائنات كلها...".²¹

مثال 3 : يبين بديع الزمان سعيد النورسي في رسالة (قطرة من بحر التوحيد) من المثنوي العربي النوري؛ ان الكائنات تدل على وجود الله تعالى ووحدانيته بخمسة وخمسين لساناً فيقول:

"الذي دل على وجوده ودل على اوصاف جلاله وجماله وكماله، وشهد على وحدانيته:

العالم، اي هذا الكتاب الكبير بجميع ابوابه وفصوله وصُحفه وسطوره وجمله وحروفه، وهذا الانسان الكبير بجميع اعضائه وجوارحه وحجراته وذراته واوصافه واحواله.. والكائنات كل واحد من مركباتها واجزائها تشهد بخمس وخمسين لساناً بانه واجب الوجود الواحد الاحد...".²²

ثانياً : الكائنات والمعنويات :

نعلم من دلالة كل موجود في الكائنات على وجود الله سبحانه، وتسخيرها لخدمة الانسان، بان الكائنات محملة بشئ معنوي. زد على ذلك، ان الله سبحانه يبين لنا ان الموجودات تسبح له وتعبده مثلها مثل الانسان المؤمن، وانه سبحانه يكلؤها بعين العناية الالهية. هذا ما نلمحه في الآيات الآتية واشباهها كثير: "ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السننكم والوانكم ان في ذلك آيات للعالمين" (الروم:22)

"تسبح له السموات والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم" (الإسراء:44) "والنجم والشجر يسجدان" (الرحمن:6)²³

ان كل موجود في السموات والارض، مهما صغر او عظم، ليس شيئاً من الاشياء في نظر المؤمن المتفكر. بل فيه امر معنوي اضافه الى وجوده المادي حياً كان أو جماداً. فكل موجود دليل يدل على الله سبحانه، ويسبح له في كل لحظة، ويعبده بلا فتور، فهو "مؤمن طبيعي".

فمن هذه الوجهة، الموجودات مباركة بشكل من الاشكال.²⁴ لذلك يمنع الاسلام قتلها ومحوها اعتباراً وعبثاً. ان النظر الى الموجودات من حيث المعنى كمخلوقات مباركة، هو الاساس الفلسفي لنظرية البيئة في الاسلام. وبناء عليه اعتاد المسلمون عموماً على حماية البيئة.²⁵

21 الكلمات/695 وانظر الى المثنوي العربي النوري – الرسالة العاشرة ، وفيها ان الكائنات تؤدي وظيفة مرآة عاكسة باظهارها تجليات الأسماء الحسنى.

22 المثنوي العربي النوري /108 وانظر للأمثلة الأخرى : الحباب، ذيل الحبة ، نقطة من معرفة الله جل جلاله.

23 وانظر الآيات في السور: الحج:18، النور:41، الحديد:1، الرعد:15، الحشر:1، الصف:1، الجمعة:1، التغابن:1

24 سيد حسين نصر ، الإنسان والطبيعة (ترجمة تركية) ، استانبول 1991. ص15

25 Bayraktar, İslâm ve Ekoloji, s. 35-38 .

ولذلك، يبين سعيد النورسي ايضاً، ان كل مخلوق في الكائنات حياً كان او جماداً، ومهما دق او عظم، مبارك يعبد الله سبحانه، وينبغي ألا يقتل او يمحى اعتباراً وعبثاً. فيوقظ في نفس الانسان شعوراً مرهفاً ازاء البيئته. يقول في بيان الآية 18 من سورة الحج :

"(ألم ترَ أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب، ومن يُهن الله فما له من مُكرم إن الله يفعل ما يشاء) (الحج:18)

"سنبين جوهرة واحدة فقط من الخزينة العظمى الواسعة لهذه الآية الكريمة، وذلك: ان القرآن الحكيم يصرح بان كل شئ من العرش الى الفرش، ومن الملك الى السمك، ومن المجرات الى الحشرات، ومن السيارات الى الذرات.. كل منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقده. الا أن عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كل حسب قابلياتها، ومدى نيلها لتجليات الأسماء الحسنى." 26

ويقول ايضاً :

" اذا أمعنا النظر في موجودات الكون نلاحظ أن:

"للكتيات - كما هي للجزئيات - شخصية معنوية، بحيث تظهر لها وظيفة كليّة".
فكما ان الزهرة - مثلاً - باظهارها دقة الصنعة فيها تسبّح بلسان حالها بأسماء فاطرها، فرياض الارض كلها ايضاً هي بحكم تلك الزهرة، لها وظيفة تسيحية كلية في غاية الانتظام.

وكما ان الثمرة تعبّر وتعلن بنظامها البديع المنسق عن تسيحاتها، كذلك الشجرة الباسقة بكلبتها، لها عبادة ووظيفة فطرية في اتم نظام.

وكما أن للشجرة الباسقة تسابيح بحمد ربها بكلمات أوراقها وأزهارها وأثمارها، فان لأفاق السموات الشاسعة تسابيحها للفاطر الحكيم بكلمات شمسها ونجومها وأقمارها، وهي تحمد وتمجّد صانعها جل جلاله." 27

ثالثاً : التوازن البيئي في الكائنات وحماتها :

يرد التوازن البيئي في القرآن كثيراً ويذكر الانسان بان الموجودات خلقت بميزان ونظام وعدل وتوازن. " انا كل شئ خلقناه بقدر " (القمر:49) "وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم" (الحجر:21)

ان القرآن الكريم ينبه الى هذا التوازن الذي لم يتوقف عنده الانسان المعاصر إلا بعد ظهور مشاكل البيئة وعلم البيئة التي نحاول اليوم حمايتها. وان مسؤولية حماية هذا التوازن الالهي، تقع على الانسان الذي خلقه الله تعالى في احسن تقويم وجعله خليفته في الارض. لقد تعرض التوازن في الطبيعة وفي علاقة الانسان بالطبيعة الى خلل كبير في عصرنا الحاضر، ويعترف كثير من بني البشر بوجود هذا الخلل. لكن اكثرهم لا يدرك بان اضطراب التوازن، وخصوصاً بين الانسان والطبيعة، يعود الى

26 الكلمات/403

27 الكلمات/604 وانظر المثنوي العربي النوري -قطرة ، النكتة الخامسة من الكلمة التاسعة والنقطة الأولى من الكلمة الثالثة والعشرين، والخاتمة للمعة الثالثة والعشرين، والكلمة الخامسة من الشعاع الخامس عشر.

اضطراب الانسجام في علاقة الانسان بالله سبحانه وتعالى .²⁸ وبدهي ان المسلم الذي يعيش منسجماً مع علاقته بالله تعالى، او يتحاشى تعريض هذا الانسجام الى الاضطراب ما وسعه، لا يتعرض الى التوازن السائد في الكائنات ولا يقف مكتوف الايدي ازاء تعرضه الى الخلل. لان هذا التوازن الطبيعي هو كمرآة تعكس اسماء الله الحسنى .²⁹

ويؤكد بديع الزمان ايضاً ، على وجود توازن يسود الكائنات من اصغر موجود الى اعظمه. ولولا هذا التوازن لامتلأت البحار بالاخلاق ثم العفن ولتسم الجو بالغازات الضارة ولتحولت الارض الى مزبلة ومذبحة ومستنقع ولاختنقت الدنيا .
"إن نكتة من نكات الآية " **وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** " (الحجر:21) ، وتجل واحد من تجليات اسم العدل الذي هو نور واحد من ستة انوار للاسم الاعظم او هو الاسم الاعظم :

ان هذه الكائنات قصر منيف في مدينة لا يتوقف فيها الهدم والبناء ابدأ ، وفي مملكة تغلي بالحرب والهجرة . وفي هذه المملكة عالم ينقلب ابدأ بين الموت والحياة . والحال ان موازنة وميزاناً ووزناً مثيراً للحيرة، يتحكم في هذا القصر وهذه المدينة والمملكة والعالم، فيبرهن خصوصاً على ان التحولات والواردات والمصارف اللانهائية في هذه الموجودات اللانهائية تجري بميزان الواحد الاحد الذي يزن ويقبس ويرعى ويراقب الكائنات جميعاً في كل آن وحين

(وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (الحجر:21)

" لقد تراءت لي نكتة لطيفة من لطائف هذه الآية الكريمة، ونور من انوار تجليات اسم الله: "العدل" الذي هو اسم الله الاعظم، أو هو نور من أنواره الستة.

تراءى لي ذلك النور من بعيد - كما هو الحال في النكتة الاولى - وانا نزيل سجن "اسكي شهر" ولأجل تقريبه الى الافهام نسلك أيضاً طريق ضرب الامثال فنقول:

هذا الكون قصر بديع يضم مدينة واسعة تتناولها عوامل التخريب والتعمير، وفي تلك المدينة مملكة واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة، وبين جوانح تلك المملكة عالم عظيم يسبح كل حين في خضم الموت والحياة.. ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فان موازنة عامة وميزاناً حساساً، وعملية وزن دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة وتسود في كل ارجاء المملكة واطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنة، بحيث تدل بداهة:

ان ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العد من تحولات، وما يلج فيها وما يخرج منها لا يمكن أن يكون إلا بعملية وزن وكيل، وميزان من يرى انحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجودات جميعها أمام نظر مراقبته في كل حين... ذلكم الواحد الأحد سبحانه.

والأ فلو كانت الاسباب الساعية الى اختلال التوازن، سائبة أو مفوضة الى

28 سيد حسين نصر ، الإنسان والطبيعة (ترجمة تركية) ، استانبول 1991 . ص14
29 Çevre Sorunları ve İslâm, s. 80.

المصادفة العشواء أو القوة العمياء أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكة واحدة التي تزيد على الالوف تخل بتلك الموزانة، بل بذيرات زهرة واحدة - كالخشخاش - التي تزيد على العشرين ألف تخل بها، ناهيك عن تدفق العناصر الجارية كالسيل، والانقلابات الهائلة والتحويلات الضخمة التي تحدث في ارجاء الكون.. كل منها لو كان سائبا لكان قميئا أن يخل بتلك الموزانة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوازن الكامل بين اجزاء الكائنات خلال سنة واحدة، بل خلال يوم واحد. ولكنك ترى العالم وقد حلّ فيه الهرج والمرج وتعرض للاضطرابات والفساد.. فالبهار تمتلئ بالانفاض والجثث، وتتفنن. والهواء يتسمم بالغازات المضرة الخائفة، ويفسد.

والارض تصبح مزبلة ومسلخة، وتغدو مستنقعا أسنا لا تطاق فيه الحياة. فان شئت فأنتم النظر، في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم الى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات الى التناسب والانسجام بين اجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريقها الى موارد المياه الجوفية وصرفياتها، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها الى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم الى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام الى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى ان الكل: يوزن ويُقدّر بميزان خارق الحساسية، وان الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقل الانسان ان يرى اسرافا حقيقيا في مكان وعبثا في جزء.. بل يلمس علم الانسان ويشاهد اكمل نظام وانتقته في كل شئ فيحاول أن يُريه، ويرى اروع توازن وابدعه في كل موجود فيسعى لإبرازه. فما العلوم التي توصل اليها الانسان الا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع...

ثم تأمل في تولدات ووفيات النباتات والحيوانات واعاشتهما وحياتهما على الارض والتي يزيد عدد انواعها على الاربعمائة الف نوع، ترى موازنة رائعة ذات رحمة، تلك دلالة قاطعة على "الخالق العادل الرحيم" جلّ جلاله، كدلالة الضياء على الشمس".³⁰

رابعاً : تخريب الانسان، وهو خليفة الله في الارض، التوازن الطبيعي واطهاره الفساد في البر والبحر:

ان الانسان خليفة الله في الارض، سخرها له قوله تعالى: "اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة" (البقرة:30) لكن قسماً من البشر اساءوا استعمال الخلافة واساءوا فهمها فصاروا يهدمون التوازن البيئي والنظام الطبيعي الذي خلقه الله وجعله آية من آياته، فقلبوا الخلافة الى ازالة النظام والتوازن ونخريبه واضطرابه.

ان الخلافة³¹ في الاصل تتضمن المسؤولية في الارض وحمايتها، وتتطلب ان لا يفرط الانسان بالامانة بتخريب هذا النظام والانسجام³². يصف القرآن اولئك الذين يفرطون بامانة الخلافة. "واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد" (البقرة:205) وظاهر من الآية الكريمة ان المفسد ليس الذي يجلب الضرر على الانسان والمجتمع وحدهما، بل ايضاً الذي يجلب الضرر على البيئة الطبيعية فيتوعد الله تعالى المفسدين وينبه الى الحاقهم الضرر بالبيئة ايضاً. كذا، يضرب الله مثلاً في القرآن الكريم أقواماً أهلكوا بسبب الحاق الضرر بانفسهم وبيئتهم بالكفر والفساد والاسراف وكفران الانعم والعصيان والتخريب وغير ذلك من الامور المنافية للاخلاق³³. وفي الآية الكريمة " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (الروم:41) يخبرنا الله تعالى بظهور الفساد في الارض لتخريب البشر التوازن الطبيعي وان الضرر يلحق بهم لذلك. فانه يأمرنا في هذه الآيات بالحفاظ على التوازن في البيئة ويخبرنا عن الضرر الذي يلحق بنا اذا عرضنا التوازن الى الخلل. فانه تعالى يريد من الحفاظ على البيئة الطبيعية والكائنات وحماية التوازن البيئي والطبيعي ويخبرنا برجوع الضرر الينا في حال المخالفة. كما نرى الحث على الحفاظ على الميزان والتوازن حتى لا نلقى مكروهاً " والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان " (الرحمن:7-9)

ويؤكد سيد حسين نصر ان الانسان المعاصر يستغل الطبيعة بغير شعور بالمسؤولية فيفسدها: " لم يبق لدى الانسان المعاصر شيء من الحرمة ازاء الطبيعة

.....

صارت (شييناً) ينبغي ان يستخدم ويستغل الى اقصى حدود الامكان. الانسان المعاصر لا ينظر الى الطبيعة كزوجة يستمتع بها ويتحمل المسؤولية ازاءها ايضاً، بل كعشيقة لا يحس ازاءها بعبء او مسؤولية... والمشكلة عنده هو ان الطبيعة التي تستعمل كالمومس، صارت لا تقي بمتطلبات اللذة يوماً بعد يوم. في الواقع، ان هذا هو السبب في ظهور القلق بشأن لدى الكثير... " ³⁴

يفسر بديع الزمان النورسي آيات خلافة الانسان في الارض وتسخير السموات والارض له، مثل: " هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً... (البقرة:29) " واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة... (البقرة:30) فيقول: " انه لما كانت هذه الآيات في تعداد النعم العظام، وأشارت الأولى إلى أعظمها - من كون البشر نتيجة للخلاقة وكون جميع ما في الأرض مسخراً له يتصرف فيها على ما يشاء - أشارت هذه الى ان البشر خليفة الأرض وحاكمها. " ³⁵ ويتعرض النورسي الى

31 سيد حسين نصر، الإنسان والطبيعة (ترجمة تركية)، استانبول 1991. ص 91

32 İbrahim Özdemir, Münir Yükselmiş, Çevre Sorunları ve İslâm, s. 89.

33 انظر الى الايات في السور: سبأ:15-16، الشعراء:176،148،146،134

34 سيد حسين نصر، الإنسان والطبيعة (ترجمة تركية)، استانبول 1991. ص 12

35 اشارات الإعجاز / 233

الموضوع في مكان آخر فيقول: " فيهب للانسان مقاماً سامياً ويسخر له الكون الضخم ويجعله مسكناً ومهداً له، ثم ينصبه خليفة في الارض ويحمله الامانة الكبرى التي آبت السموات والارض والجبال ان يحملنها ويفضله على سائر المخلوقات، ويشترقه بكلامه الرباني وخطابه السبحاني وبموالاته اياه، فضلا عن انه قد قطع على نفسه عهداً، ووعد هذا الانسان وعداً - في جميع كتبه المنزلة - انه سيخلده بالسعادة الابدية والبقاء الاخروي.. فلاريب انه سيفتح له ابواب سعادة دائمة، وسيحدث الحشر والقيامة حتماً وهو أهون عليه من الربيع نفسه.

وبهذا يجيبنا اسم الله "المحيي" و"المميت" و"الحي" و"القيوم" و"القدير" و"العليم" عن سؤالنا حول الآخرة".³⁶

ويتهم بدبع الزمان من يسيئ استعمال خلافة الارض ويظهر الفساد في البر والبحر بالاسراف والتبذير والظلم والجور والقدارة والوساخة وسوء الطالع لينبه الى سوء عمله :

" ايها الانسان المسرف الظالم الوسخ!

اعلم، ان الاقتصاد والطهر والعدالة سنن الالهية جارية في الكون، ودرساتير الالهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها لايفلت منها شئ الا انت ايها الشقي، وانت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وانت تستحقها..

فعلام تستند وتثير غضب الموجودات كلها عليك فتقترب الظلم والاسراف ولاتكثرث للموازنة والنظافة؟

نعم، ان الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجل اعظم لاسم "الحكيم" انما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الاسراف، بل تأمر بالاقتصاد.

وان العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الاعظم لاسم "العدل" انما تدير موازنة عموم الاشياء، وتأمر البشرية باقامة العدل.

وان ذكر الميزان اربع مرات في "سورة الرحمن" اشارة الى اربعة انواع من الموازين في اربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمتها العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: (والسمااء رُفَعها وَوَضَعَ المِيزانَ الأَ تَطْعُوا في المِيزانِ وَاقِيمُوا الوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا المِيزانَ) (الرحمن: 7- 9).

نعم، فكما لا اسراف في شئ، فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شئ، ولا بخس في الميزان قط، بل ان التطهير والطهر الصادر من التجلي الاعظم لاسم "القدوس" يعرض الموجودات بأبهى صورتها وابدع زينتها، فلا ترى ثمة قدارة في موجود، ولا تجد قبحاً اصيلاً في شئ ما لم تمسه يد البشر الوسخة.

فاعلم من هذا ان "العدالة والاقتصاد والطهر" التي هي من حقائق القرآن ودرساتير الاسلام، ما أشدها ايغالياً في اعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقية واصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط احكام القرآن بالكون، وكيف انها مدّت جذوراً عميقة

في اغوار الكون فأحاطته بعري وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها ان افساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع افساد نظام الكون والاخلال به وتشويه صورته³⁷.

خامساً : الامر بالاقتصاد والنهي عن الاسراف :

ان الاسراف من الاسباب الرئيسية لتلوث البيئة وتخلخل التوازن الطبيعي . لقد تسلل الاسراف الى اقتصاديات المنزل والاستهلاك والانتاج والصناعة والتكنولوجيا ، وكانه قد احاط بالانسانية من جميع اطرافها . تولد حاجات مصطنعة ، ثم تستهلك الطبيعة من اجل اشياء مصطنعة ، فيعطب التوازن الطبيعي ويتلوث الماء والهواء . اذن، من الضروري ان توقف الاسراف من اجل بيئة صحية. يلزم ان تنقيد الانسانية في الانتاج والاستهلاك بحسب الاحتياجات . وعلى ذلك يحث القرآن الكريم بقوله تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، ان الله لا يحب المرففين " (الأعراف:31) " ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا " (الإسراء:27) ان التعاليم الاسلامية خير بديل لإيقاف التخريب الذي نعيشه اليوم بتحريمها الاسراف وامرها بالقسط في كل شئ ، ورفعها للبلخ وحثها على انفاق ما يفيض عن الحاجة ، وتحرير الانسان من عبودية المادة الى سيادة الكائنات واشرف المخلوقات ، واحترام التوازن في الانسان والحيوان والنبات وجميع الموجودات³⁸.

ان اهمية الاقتصاد والاعتدال في حماية البيئة صار من المعلومات البديهية في يومنا ، فقد اصبحت الموارد الطبيعية المحدودة تواجه خطر النفاد بنتيجة الاستخدام المفرط في كرتنا الارضية التي تتزايد كثافتها السكانية بمرور الاعوام . كذلك ، تهدد المخلفات الملوثة للبيئة الحاصلة من استهلاك السلع الاستهلاكية والطاقة، جميع الاحياء على وجه الارض . ويشكل الاسراف عنصراً مهماً من عناصر هذه المعضلات البيئية ولو تفحصنا سيرة بديع الزمان ، لوجدنا امثلة رائعة للاقتصاد والاعتدال . ويحث في رسائله ايضاً على الاقتصاد والاعتدال . لذلك ، فهو قدوة في الاقتصاد قولاً وعملاً

أ - منعه الاسراف وامره بالاقتصاد بالبحث في اضرار الاسراف عموماً :

لقد صنف سعيد النورسي رسالة مستقلة في لزوم الاقتصاد وفوائده وتحريم الاسراف واضراره. قال انها رسالة عن الاقتصاد والقناعة وعن الاسراف والتبذير، كما قال الله تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " (الأعراف:31) هذه الآية الكريمة تعلمنا درساً حكيماً مهماً بالامر القاطع بالاقتصاد والنهي الصريح عن الاسراف . الخالق الرحيم يريد الشكر على الانعم التي انعم بها البشر . والاسراف ضد الشكر ، واستخفاف خاسر بالنعمة . اما الاقتصاد ، فهو احترام رابح للنعمة . ولا يشقى او يتعب المقتصد كثيراً في طلب العيش لعائلته بسر الحديث (ما عال من اقتصد)³⁹.

37 للمعات /525

38 . Smasti, age., s.49

39 المسند 447/1 والمناوي في فيض القدير 454/5 رقم 7949 والهندي في كنز العمال

49،56،57/36،6/3

فلاحد ولا حصر للادلة القاطعة بان الاقتصاد سبب للبركة ومدار لحسن المعيشة .
واقول في الجملة اني شهدت في نفسي وبشهادة الحضرات الذين خدموني او
صاحبوني : بالاقتصاد شهدت بركة جعلت الواحد عشرة وشهد ذلك اصحابي . حتى
ان نفرا من الرؤساء المعرّبين (المنفيين) معي الى (بوردر) قبل تسع سنوات (قبل
ثلاثين عاماً من يومنا هذا - الكاتب) سعوا بالحاح لتقبلي زكوات اموالهم من اجل ألا
اقع في الذلة والفقر . فقلت لأولئك الرؤساء الاغنياء : - " مالي نزر قليل ، لكنني
مقتصد وألفت القناعة ... فانا اغنى منكم " فرفضت طلبهم مع تكرارهم واصرارهم .
وما يجدر ذكره ان بعضاً من اولئك الذين عرضوا زكاتهم على ، وقعوا في الدين بعد
سنتين ، وكفتني تلك الليرات القليلة سبع سنين بعد ذلك ببركة الاقتصاد ، والله الحمد .
ولم ارق ماء وجهي ، ولم اضطر الى عرض حاجتي على الخلائق ، ولم يهتز
دستوري في الحياة ، وهو مسلك الاستغناء عن الناس

فالمقتصد اقتصاراً على الحاجات الضرورية وانحصاراً بها ، يجد رزقه بقدر
كفاية الحياة من حيث لا يحتسب ، بسر " ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين"
(الذاريات:58) وبصراحة " وما من دابة إلا على الله رزقها " (هود:6)

الحاصل ، ان الاسراف يورث انعدام القناعة، وانعدام القناعة يمحور رغب العمل
ويوقع في الكسل ويفتح باب الشكوى من الحياة ، فيستديم الشكوى . كذلك يضعف
الاخلاص ويفتح باب الرياء . كذلك يضعف العزة ويؤمى الى طريق الاستجداء .
اما الاقتصاد فيورث القناعة . والقناعة تقود الى العزة بسر الحديث (عز من قنع
وذل من طمع).⁴⁰ كذلك ، تحث على السعي والعمل وتزيد الرغب فيه وتدفع الى
الشغل . لان العامل يعمل يوماً - مثلاً- باجر قليل بقوة القناعة ، فيعمل في غده ايضاً .
اما ان كان مسرفاً ، فلا يعمل في غده لضعف القناعة ، او يعلم بغير رغب ان عمل .

ب - اكتفاؤه بقليل الطعام :

لا يتصور ان ينهى بديع الزمان عن الاسراف ثم يسرف على عكس ما ينصح به .
لذلك يخبرنا عن نفسه انه عملاً بالاقتصاد - كان يقنع بالقليل ويشكر الله على ذلك ،
ويبتعد عن الاسراف ، فيضع الله تعالى البركة في طعامه وشرابه ، ويديم حياته . لكنه
اضطر الى الكشف عن اكتفائه بالطعام القليل والاقتصاد فيه ، والبركة والكرم الالهي
في طعامه ، رداً على من قد يكون في نفسه قلق وسوء ظن به وجواباً عن سؤال اهل
الدنيا : بماذا تعيش ؟⁴¹

ج - اكتفاؤه باللباس والحذاء المرقع مع مراعاة النظافة :

عاش سعيد النورسي مقتصداً في طعامه ، ومقتصداً في ملبسه :

40 الترغيب والترهيب للمنذري 586/1
41 لأمثلة متنوعة عن الموضوع : كليات رسائل النور: النكتة الخامسة من اللمعة التاسعة عشرة (رسالة
الاقتصاد)،النقطة الرابعة من المكتوب السادس عشر.

"ان هذه السترة (الجاكيت) قد اشتريتها مستعملة قبل سبع سنوات. وكفت أربع ليرات ونصف الليرة: لمصاريف خمس سنوات مضت للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الإلهية".⁴²

د - اكتفاؤه بالقليل من متاع الدنيا :

عاش سعيد النورسي حياة بسيطة بعيداً عن مظاهرها وبهرجها . فلم يكن معه شيء من الامتعة إلا القليل يقضي بها حاجاته، لا يملك غيرها . فهو يلقن بلسان حاله درساً بليغاً للمسرفين .

يروى زواره الذين زاروه في اماكن وازمان مختلفة ما علموا من ممتلكاته الدنيوية في غرفته اينما وجد :

مثال 1 : كان في غرفة بديع الزمان سعيد النورسي فراشاً ارضياً رقيقاً ولحافاً (غطاء) رقيقاً وساعة جيب وابريق وطقم الشاي . ولم ار شيئاً مهماً آخر " ⁴³

مثال 2 : ... رأيت حصيراً على الارض . كل ما في البيت لا يزيد ثمنه على مائة ليرة من ليرات ذلك الوقت . ورأيت ايضاً مدفأة من الحديد . " ⁴⁴

مثال 3 : بقدر ما علمت ورأيت ، كان لبديع الزمان جبة من خام اسود وحذاء من المطاط بلاخف ، وعلى كتفه سجادة صلاة ، وفي يده ابريق ماء . هذا ما يملكه في الدنيا ويحمله اينما حل ورحل... " ⁴⁵

مثال 4 : ايها الاحباب ، قال استاذنا مرة : انا احمل حمل دنياي بيد واحدة (و اشار الى بقجة من قماش) . ذلك ما كان يملكه الاستاذ في الدنيا " ⁴⁶

سادساً : تفسير اسم "القدوس" ، وعلاقته بالنظافة :

معنى القدوس لغة هو البراءة من كل نقص وعيب ، والاقديس ، والطاهر البرئ من كل نقص وشين . يقول الله تعالى في القرآن الكريم " والله الاسماء الحسنى " (الأعراف:180) . والقدوس من الاسماء الحسنى وينص عليه في سورة الحشر / 23 والجمعة / 1 .

و حين يشرح بديع الزمان سعيد النورسي اسم " القدوس " ، يُشبه هذه الكائنات والارض بمعمل كبير ، او بمضيف وخان واسع . ثم يلفت النظر الى التنظيف الجاري فيها ، فيبين ان السحاب والمطر والذباب والغراب والدود والنحل والحشرات والكريات البيضاء والحمراء في دم الانسان هي من مظاهر تجليات اسم القدوس ، بحركتها ووظيفة التنظيف فيها . كذلك ، التنظيف الذاتي للتلوث في الارض . فكيف الحال مع جثث آلاف الامم من الحيوان وحطام انواع النبات لولا المنظفون من اكلة اللحوم في البحر والنسور والديدان والنمل في البر ؟ انهم يجعلون

42 المکتوبات : النقطة الرابعة من المکتوب السادس عشر.

43 Necmeddin Şahiner, Son Şahitler bediüzzaman Said Nursi'yi Anlatıyor, İstanbul 1993, IV, 104.

44 Şahiner, Son Şahitler, IV, 232 .

45 المصدر السابق ص 232

46 المصدر السابق ص 390

الارض صالحة للحياة بالعمل مثل موظفي الصحة الذين يجمعون الجثث في وقت معلوم . ان الاسرار المتجلية في اسم "القدوس" تستحق بحثاً مستقلاً بذاتها .

يقول سعيد النورسي : " (والارضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ) (الذاريات: 48)

لقد تجلت لي نكتة من نكات هذه الآية الكريمة وتجلت من تجليات اسم الله "القدوس" وهو الاسم الاعظم أو أحد انوراه السنة، وانا نزيل سجن "اسكي شهر" أو اخر شهر شعبان المبارك. فبين لي: الوجود الإلهي بوضوح تام، وكشف لي: الوجدانية الربانية بجلاء، كما يأتي:

لقد تراءى لي هذا الكون وهذه الكرة الارضية كمعمل عظيم دائب الحركة، وشبيهة بفندق واسع، او دار ضيافة ثملاً وتُخلى بلا انقطاع علماً ان دار ضيافة بهذه السعة وبهذه الكثرة الكاثرة من الغادين والرائحين، تمتلئ بالنفائيات والانقاض، ويصيب كل شئ بالتلوث، وتضيق فيها اسباب الحياة. فان لم تعمل يد التنظيف والتنسيق فيها عملاً دائماً أدت تلك الاوساخ الى اختناق الانسان واستحالة عيشه... بيد اننا لا نكاد نرى في معمل الكون العظيم هذا، وفي دار ضيافة الكرة الارضية هذه أثراً للنفائيات، كما انه لا توجد في أية زاوية من زواياهما مادة غير نافعة، أو غير ضرورية، أو ألقيت عبثاً، حتى ان ظهرت مادة كهذه سرعان ما تُرمى في مكائن تحويل بمجرد ظهورها، تُحيلها الى مادة نظيفة... فهذا الامر الدائب يدلنا على: ان الذي يراقب هذا المعمل انما يراقبه بكل عناية واتقان، وان مالكة يأمر بتنظيفه وتنسيقه وتزيينه على الدوام حتى لا يُرى فيه - رغم ضخامته - أثرٌ للفناورات والنفائيات التي تكون متناسبة مع كُبر المعمل وضخامته. فالمرعاة بالتطهير اذن مستمرة، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة مع ضخامة المعمل وسعته، لأن الانسان الفرد إن لم يستحم ولم يقيم بتنظيف غرفته خلال شهر، لضاقت عليه الحياة.. فكيف بنظافة قصر العالم العظيم!؟

اذن فالطهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهد في قصر العالم البديع هذا ليس نابعاً إلا من تنظيف حكيم مستمر، ومن تطهير دقيق دائم.. فلولا هذه المراقبة المستديمة للنظافة، والعناية المستمرة بالطهر، لكانت تختنق على سطح الارض - باجوائها الموبوءة - مئات الآلاف من الاحياء خلال سنة.. ولولا تلك المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة في أرجاء الفضاء الزاخرة بالكواكب والنجوم والتوابع المعرضة للموت والانذار، لكانت انقاضها المتطايرة في الفضاء تحطم رؤوسنا ورؤوس الاحياء الاخرى، بل رأس الدنيا! ولكانت تمطر علينا كتلاً هائلة بحجم الجبال، وثرغماً على الفرار من وطننا الدنيوي! بينما لم تسقط منذ دهور سحيقة من الفضاء الخارجي - نتيجة الانذار - سوى بضعة نيازك، ولم تُصب احداً من الناس، بل كانت عبرةً لمن يعتبر! ولولا التنظيف الدائب والتطهير الدائم في سطح الارض، لكانت الانقاض والاوساخ والاشلاء الناتجة من تعاقب الموت والحياة اللذين يصيبان مئات الالوف من أمم الاحياء، تملأ البر والبحر معاً، ولكانت القذارة تصل الى حد ينفر كل من له شعور ان ينظر الى وجه الارض الدميم، بل كان يسوقه الى الفرار منها الى الموت

والعدم ناهيك عن حبه وعشقه...

اذن فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حظيا بتجلٍ من تجليات اسم الله "القدوس" عليهما، حتى انه عندما تصدر الاوامر الإلهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها أيضاً أنواع الديدان والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الاوامر التنظيفية حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الاجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف اجنحته دائماً..

ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الاوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها أيضاً الرياح الهوج والسحاب الثقيل، فتلك تطهرّ وجه الارض من النفايات، والاخرى ترشّ روضتها بالماء الطاهر فتسكنّ الغبار والتراب، ثم تتسحب بسرعة ونظام حاملة ادواتها ليعود الجمال الساطع الى وجه السماء صافياً متألئاً.

ومثلما تستمع لتلك الاوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف النجوم، والعناصر، والمعادن، والنباتات باشكالها وانواعها، تستمع لها الذرات جميعاً، حتى انها تراعي النقاوة والصفاء في دوامات تحولاتها المحيرة للالباب، فلا تجتمع في زاوية دون فائدة، ولا تزدهم في ركن دون نفع، بل لو تلوّثت تُنظّف فوراً وتُساق سوقاً من لدن قدرة حكيمة الى أخذ أطهر الاوضاع وانظفها وأسطعها واصفاها، وأخذ أجمل الصور وانقاها وألطفها...

نعم، ان هذا التنظيف السامي الشامل المشاهد الذي يجعل قصر العالم طاهراً نقياً نظيفاً لهو تجلٍ من تجليات اسم "القدوس" ومقتضى من مقتضياته.

وكما تتوجه تسيبحات المخلوقات جميعها الى اسم "القدوس" وترنو اليه، كذلك يستدعي اسم "القدوس" نظافة تلك المخلوقات وطهارتها⁴⁷ حتى عدّ الحديث الشريف "النظافة من الايمان" الطهور نوراً من انواره⁴⁸ لارتباطه القدسي هذا، واطهرت الآية الكريمة ان الطهر مدعاة الى المحبة الإلهية ومدار لها، في قوله تعالى: (ان الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين) (البقرة: 222).⁴⁹

سابعاً : اهمية الحيوانات :

ان الحيوانات بانواعها وانماط حياتها المختلفة ، من اهم عناصر التوازن البيئي . ومن المؤسف حقاً ان يتعرض الحيوان بانواعه المختلفة التي تشكل دعامة النظام البيئي ، الى خطر كبير ، وربما الى الانقراض . فالانواع المنقرضة في تزايد يوماً

47 يجب الاننسى: ان الخصال القبيحة، والاعتقادات الباطلة، والذنوب والآثام، والبذع، كلها من الاوساخ المعنوية. - المؤلف.

48 وردت في هذا المعنى احاديث كثيرة : انظر مسلم ، الطهارة : 1 والدارمي، الوضوء: 2 والمسند 342، 344/5 وكشف الخفاء للعجلوني 291
49 اللمعات / اللمعة الثلاثون - النكتة الأولى

بعد يوم. ان نظرة عاجلة على القرآن الكريم يظهر لنا جلياً الأهمية التي يوليها الاسلام للحيوانات كعنصر مهم في النظام البيئي : فنلاحظ ان اسماء سور من القرآن الكريم هي البقرة والنحل والعنكبوت والنمل ويرد فيه ذكر كثير من الحيوانات فيه مثل الضأن والجمال والبقرة والخيل والبغال والحمير والكلب والفرد والخنزير والثعبان والحية والذئب والنحل والنمل والعنكبوت والبعوضة والذباب ... ومن الملفت للنظر ايضاً تسمية الله تعالى في القرآن الكريم الحيوانات "بالامم" ، والامة مصطلح ذو معان جمة في المراجع الاسلامية . " وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون " (الأنعام:38) فالحيوانات اصناف وانواع مثل البشر في هذا المفهوم ، منهم من يمشي على قدميه ومنهم من يزحف على بطنه .. كل نوع امة . الطير امة مثل الانسان الذي نوع من انواع الحياة . " والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تاكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون " (النحل:5-6) " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون " (النحل:7)

ففي مثل هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى انواعاً من الحيوان وفوائدها للانسان من جلودها واوبارها ولحومها والبانها وقوتها في الحمل والانتقال وغيرها من الفوائد المادية . كذلك ، جمالها وزينتها وكونها وسيلة للسرور والسعادة في حياة الانسان والطبيعة والبيئة . وكذلك ، هي من مظاهر قدرة الله سبحانه وخلقته .⁵⁰ ان في تسخير الحيوان للبشر بحكمة الله وقدرته عبر وحكم كثيرة . لقد تأخر الانسان في الوعي بان الحياة الانسانية من غير الحيوانات تكون هزيلة وقبيحة ومضطربة التغذية .⁵¹

فالصنعة الالهية تجلت - فيما تجلت - في الحيوانات حتى ان الله اقسام في القرآن بالحيوان ليدلنا الى اهميتها : "والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحاً فاثرن به نقعاً. فوسطن به جمعاً .." (العاديات:1-5)

ان هذه الاعداد العظيمة من الحيوانات والسنن التي تخضع لها والحكمة من خلقها تحقق الديمومة والجمال في حياة الانسان وتجعل الطبيعة صالحة للحياة ومنبعاً للعبر والحكم وجديرة بالحب. لذلك يحث القرآن الكريم على حماية الجمال في الطبيعة بالاشارة الى بث الدواب وانواع الحياة في الارض لتكون اكثر شئ يلاقيه الانسان "والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع يخلق الله من يشاء ان الله على كل شئ قدير" (النور:45)

وقد اهتم بديع الزمان النورسي ايضاً بالحيوان اهتماماً كبيراً. فقد مر النورسي في الرسائل على حيوانات مثل النحل والعقرب والاسد والفرس والصقر والسمك والحشرات والبلبل والجاموس والغزال والجراد والجمال والنعامة والفيل والكركدن

والحمام والديك والهدهد ودودة الفز والنمر والنمل والصقر والمعزى والقط والكلب والغنم والذئب والعصفور والقرد والثور والعنكبوت والبيغاء والذباب والبعوض والزرزور والدجاج والثعلب والخفاش والثعبان... فلنذكر انماطاً من اهتمام النورسي بالحيوانات :

أ - نمط الحيوانات الموظفة والعاكسة كالمرآة ، والذاكرة لله :

يؤكد بيدع الزمان النورسي على ان الحيوانات مخلوقات موظفة تعكس كالمرآة آيات قدرة الله وتسبح الله. لذلك يحث على ترك قتلها او الاضرار لها بغير ضرورة او الاحساس بالمسؤولية بشأنها في اقل الاحوال. واضن ان جمعيات الرفق بالحيوان يمنحون النورسي لقب "الانسان المحب للحيوان" اذا علموا بمبلغ رحمته وحبه للحيوانات .

ومثال 1 : "ان الكون برمته كتاب صمداني ينطوي على معان عميقة غزيرة، وان الموجودات بأسرها مجموعة مكاتيب سبحانه في منتهى الاعجاز، وان المخلوقات بجميع طوائفها جنود ربانية في غاية الانتظام والهيبة، وان المصنوعات بجميع قبائلها ابتداء من الميكروب والنمل الى الكركدن والنسر والى الكواكب السيارة، موظفات دؤوبات مأمورات جادات تأتمر بأمر السلطان الازلي"⁵².

مثال 2 : "ان كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، انما يمثل ختم الأحذية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لموضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتيين كاتبها"⁵³.

مثال 3 : " ان القرآن الحكيم يصرح بان كل شئ من العرش الى الفرش، ومن الملك الى السمك، ومن المجرات الى الحشرات، ومن السيارات الى الذرات.. كل منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقده. الا أن عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كل حسب قابلياتها، ومدى نيلها لتجليات الأسماء الحسنى"⁵⁴.

مثال 4 : "ان الحيوانات الخادمة في قصر الكون تتمثل الأوامر التكوينية امتثالاً تاماً، وتظهر ما في فطرتها من غايات بأجمل صورتها باسم الله. فتسبيحاتها؛ هي قيامها بوظائف حياتها بأبداع طراز بقوة الله سبحانه، وببذل الجهد في العمل. وعباداتها؛ هي هداياها وتحياتها التي تقدمها الى الفاطر الجليل واهب الحياة"⁵⁵.

مثال 5 : " هذه البركات هي احسان إلهي الى أصدقائي الضيوف المخلصين القادمين الي. أو انها اكرام إلهي لخدمة القرآن الكريم، أو انها منافع مباركة للالتزام بالاقتصاد، أو انها رزق للقطط الأربع التي تلازمني هنا وهي التي تذكر في هريرها: يا رحيم يا رحيم يا رحيم.. فهي أرزاقها تأتيها على صورة بركة، وانا بدوري استفيد منها"⁵⁶.

52 الشعاعات /14

53 للمعة الثلاثون النكته الرابعة الاشارة الثالثة

54 الكلمات /403

55 الكلمات /408

56 المكتوبات /84

نعم! اذا أنصت الى هريرها الحزين تدرك جيداً انها تذكر: يا رحيم يا رحيم يا رحيم.

ب - نمط اكلات اللحم مثل النسور والديدان والنمل من الحيوانات الموظفة بصحة ونظافة البر والبحر:

يرى بديع الزمان في آكلات اللحم المذكورة مأمورات في تنظيف البر والبحر من الدرن والفضلة ، كانهن من موظفي الصحة والنظافة . ولولاهن لتوقفت الحياة في الارض.

" نعم، ان الله سبحانه وتعالى قد خلق قسماً من الحيوانات مفترسة آكلة للحوم، وكأنها موظفات صحيات ومأمورات للتنظيف تؤدي وظيفتها في غاية الاتقان، بتنظيفها وجه البحر وجمعها لجنث ملايين الحيوانات البحرية يومياً، وانقاذ وجه البحر من المناظر القذرة . فان لم توف هذه الحيوانات بوظيفتها الصحية حق الوفاء وعلى اجمل وجه لما تلالأ وجه البحر كالمرأة الساطعة، ولكان البحر يورث الكآبة والحزن.

وكذا فانه سبحانه قد خلق حيوانات مفترسة وطيوراً جارحة بمثابة مأمورات للنظافة والامور الصحية، تقوم بتنظيف وجه الارض يومياً من جنث مليارات من الحيوانات البرية والطيور وانقاذها من التعفن، وانقاذ ذوي الحياة من ذلك المنظر الكئيب الأليم. حيث تستطيع تلك الحيوانات ان تتحسس مواضع تلك الجنث الخفية والبعيدة من مسافة تبلغ حوالي ست ساعات، وذلك بسوق من إلهام رباني، فتنتقل الى تلك المواضع وتزيل الجنث. فلولا هذه الموظفات الصحيات البرية وهي تؤدي وظائفها على افضل وجه لكان وجه الارض في حالة يرثى لها.

نعم، ان الرزق الحلال للحيوانات الوحشية المفترسة هو لحوم الحيوانات الميتة، وحرام عليها لحوم الحيوانات الحية، بل لها جزء إن اكلت منها. فالحديث الشريف (حتى يقتصّ الجمء من القرناء).⁵⁷ يدل على أن الحيوانات التي تبقى ارواحها رغم فناء اجسادها لها جزء وثواب يناسبها في دار البقاء. فعلى هذا يصح القول ان لحوم الحيوانات الحية حرام على المفترسات.

وكذا النمل موظف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم الإلهية وصيانتها من التلف والامتهان لئلا تداس تحت الاقدام، فضلاً عن جمعه جنث الحيوانات الصغيرة وكأنه موظف " 58

ج - آكلات اللحم لا تأكل كل حيوان كما تشاء بالاصطياد :

57 عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال: «لتؤدُن الحقوق الى اهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» رواه مسلم برقم 2582 والترمذي 2535 (تحفة الأحمدي) وقال: في الباب عن ابي ذر و عبدالله بن أنيس. حديث ابي هريرة حديث حسن صحيح (ومعنى الجلحاء: اي التي لا قرن لها). وانظر المسند 235/2
58 للمعات 411/

يرى بيدع الزمان ان آكلات اللحم الموظفة بحفظ الصحة والنظافة لا تأكل كل حيوان، لأنها موكلة برزقها الحلال من الحيوانات الميتة. اما الحيوان الحي فمحرم عليها " 59

د - منعه لازعاج الذباب ، بله قتله :

يعارض بيدع الزمان قتل الحيوانات معارضة شديدة ، حتى الذباب الذي هو من اصغر الحيوانات واشدها ضرراً. ويكفي للدلالة على دفاع بيدع الزمان عن البيئة وحبه للحيوانات واقعة منع طلابه من ازعاج الذباب، بله قتله. فالذباب بالنسبة اليه موظف للتنظيف رغماً عن الحكم عليه بانه ناقل الجراثيم الامراض ومزعج خصوصاً في حر الصيف حتى يتقنن في اساليب قتله بالمواد الكيميائية. فهو يعلم الانسان النظافة، وايضاً ينظف ما في وجهه ويده من جراثيم الامراض والسموم التي لا ترى بالعين، ويمنع كثيراً من الامراض السارية. كذلك البعوض يقوم بوظيفة حجارة طبيعية."

" محاورة لطيفة مع سليمان رشدي⁶⁰ الذي هو رمز الوفاء والاخلاص، المتميز بنقاء السريرة.

عندما يقترب زمن تسريح الذباب من مهمة الحياة وذلك في موسم الخريف، يستعمل بعض من يقصد نفعه بالذات دواءً لمكافحة الذباب ليحولوا دون ان يمسه شئ من الازعاج. فمس ذلك رقة قلبي واثّر في كثيرًا. علمًا ان الذباب قد تكاثر اكثر من قبل على الرغم من استعمال الدواء القاتل. وكان في غرقتي في السجن حبل لنشر الملابس لأجل تنشيفها فكانت تلك الطويرات الصغيرة جداً تتراصف على ذلك الحبل مساءً تراصفاً جميلاً منتظماً. فقلت لرشدي: لا تتعرض لهذه الطويرات الصغيرة، انشر الملابس في مكان آخر. فردّ عليّ بجدّ: اننا بحاجة الى هذا الحبل، فلنجد الذبان لها موضعاً آخر! وعلى كل حال، ولمناسبة المحاورة اللطيفة التي جرت بيننا افتتح باب البحث عن الذباب والنحل وما شابههما من الحشرات الكثيرة، فدار الكلام حولها. فقلت له:

ان مثل هذه الانواع من الحيوانات التي تتكاثر نسخها بكثرة هائلة، لها وظائف مهمة. فالكتاب يطبع طبعات كثيرة نظراً لقيّمته. بمعنى ان جنس الذباب⁶¹ له وظيفة مهمة وقيمة كبيرة حيث يُكثر الفاطر الحكيم من نسخ تلك الرسائل القدرية وكلمات القدرة الإلهية.

نعم! ان هذه الطائفة من الذباب التي تنظّف وجهها وعينيها وجناحيها كل حين، وكأنها تتوضأ، تشكل موضوعاً مهماً للآية الكريمة: (يا ايها الناس ضُربَ مثلاً فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعْفَ الطالبِ والمطلوبِ) (الحج:73).

بمعنى ان الاسباب وما يدعيه اهل الضلالة من ألوهية من دون الله لو اجتمعت

59 للمعات/412

60 من تلاميذ الاستاذ النورسي الأوائل في اسبارطة.- المترجم.
61 الذباب: يطلق على كل حشرة طائرة (ج) أذبة وذبان.- المترجم.

على خلق ذبابة واحدة لعجزت. اي ان خلق الذباب معجزة ربانية وآية تكوينية عظيمة، بحيث لو اجتمعت الاسباب كلها لما خلقت مثل تلك الآية الربانية ولا استطاعت ان تعارضها ولا تقلدها قطعاً. فتلك المعجزة قهرت نمرود، ودافعت عن حكمة خلقها دفاعاً فاق ألف اعتراض، لما شكى موسى عليه السلام من ازعاجاتها قائلاً: يا رب لم أكثرت من نسل هذه المخلوقات المزعجة.. أجيب إلهاماً: لقد اعترضت مرة على الذبان، وهي كثيراً ما تسأل: يا رب ان هذا الانسان الكبير ذا الرأس الضخم لا يذكرك إلا بلسان واحد بل يغفل احياناً عن ذكرك، فلو خلقت من رأسه فحسب مخلوقات من امثالنا لكانت الوف المخلوقات ذاكراً لك.

وفضلاً عن هذا فان الذباب يرفع النظافة ايماً رعاية، اذ ينظف وجهه وعينه باستمرار ويمسح على اجنحته دوماً ويؤدي كل ذلك كمن يتوضأ. اذاً لهذه الطائفة وظائف مهمة وجليلة بلاشك، إلا ان نظر الحكمة البشرية وعلمها قاصر لم يحط بعد بتلك الوظائف...

وكذا الذبان لها وظائف - اهم مما ذكر - فهي مأمورة بتنظيف مالا يراه الانسان من جراثيم مرضية وتطهير المواد السامة. فهي ليست ناقلة للجراثيم، بل العكس تهلك تلك الجراثيم المضرة وتمحيها بمصها لها واكلها، وتحيل تلك المواد السامة الى مواد اخرى. فتحول دون سريان كثير من الامراض، وتوقفها عند حدها.

والدليل على أن الذبان موظفات صحيات، ومأمورات تنظيف وكيمياويات حاذقات، وان لوجودها حكمة الهيئة واسعة.. هو كثرتها المتناهية، اذ المواد النافعة والثرمينة يكثر منها. ايها الانسان الذي يقصد نفع ذاته وحده!

انظر الى فائدة واحدة للذباب تعود اليك فحسب مما سوى فوائده ومنافعه للحياة. وتخل عن عدائك له. فكما انه يورثك الانس والسلوان في الاغتراب والوحدة والانفراد، كذلك يوقظك من نوم الغفلة وغمرات تشتت الفكر، فيذكرك بوظائف انسانية كالحركة والنشاط والنظافة الدائمة بوضوئه وصلاته وتنظيفه وجهه وعينه، كما هو مشاهد.

وكذا النحل - وهي صنف من الذباب - تطعمك العسل الذي هو ألدّ غذاء وألطفه، وهي الملهمة بالوحي الإلهي كما نص عليه القرآن الكريم. فعليك ان توليها حبك. ان العداء للذباب لا معنى له، بل هو ظلم واجحاف بحق تلك الحيوانات التي تعاون الانسان وتسعى لصدافته وتحمل أذاه. وانما يجوز مكافحة المضرة منها فحسب، وذلك دفعا لأضرارها، كدفع ضرر الذباب عن الاغنام.

فيا ترى أليس من المحتمل ان يكون البعوض والبرغوث المسلطين علينا حجّامات فطرية، اي موظفات بمص الدم الفاسد الجاري في الاوردة وقت الحر وزيادة الدم اكثر من حاجة الجسم؟.. " 62

هـ فوائد اخرى للذباب:

يزيد بديع الزمان في ذكر فوائد اخرى للذباب الذي يقتله الناس لضرره، غير التي

ذكرها أنفأً. فبعض طوائف الذباب يأكل أنواعاً من المواد والعفن ويصدر عنه باستمرار قطرات من عصارة بدلاً عن الفاذورات مثلما يحصل عند النحل، فكانه ماكنة تحويل وتصفية صغيرة. وطائفة أخرى من الذباب يستخدم في تلقيح زهور نباتات وأشجار مثل التين (ان فضلات الذباب لا ضرر لها من حيث الطب، بل قد تكون شرباً حلواً (وغذاء لحشرات أخرى) اذ ليس من المستبعد عن الحكمة الإلهية، بل من شأنها ان تجعل من الذباب مكائن تصفية واجهزة استحالة، نظراً لأكلها الوفا الأصناف من مواد هي منشأ الجراثيم والسموم.

نعم ان من طوائف الذباب - مما سوى النحل - طائفة تأكل المواد المتعفنة المختلفة فتقطر دوماً قطرات من مواد حلوة بدلاً من فضلاتها - كنزول المنّ على اوراق الاشجار - فتثبت انها مكائن استحالة.

وهكذا يتبين امام الانظار مدى عظمة امة الذباب الصغير هذا، ومدى عظمة وظائفها. وكأنها تقول بلسان الحال: لا تنظروا الى صغر اجسامنا بل الى عظم وظائفنا. وقولوا: سبحان الله".⁶³

"ان طائفة صغيرة جداً من الذباب تُخلق على هيئة كتلة سوداء، على اغصان اللوز والمشمش، في اواخر الربيع، وتبقى ملتصقة بالغصن، وتسيل منها بدلاً من الفضلات، قطرات شبيهة بالعسل فتتجمع حولها انواع الذباب الاخرى وتمصها. وطائفة اخرى من الذباب تستخدم في تلقيح بعض ازاهير النباتات والاشجار المثمرة، كالتين. وطائفة اخرى للذباب، هي اليراع، المتلمعة ليلاً، وهي اعجوبة تلفت الانظار وتدعو الى التدبر والتأمل، كما ان قسماً منها تتلمع لمعان الذهب. وينبغي الانسى البعوض والزنابير المجندات الحاملات للرماح. فلو لم تكن زمام هذه الذبان بيد الخالق الرحيم، واغارت على الاحياء والانسان لأفنت نوع الانسان كما قتلت نمروء، ولفسرت لنا المعنى الاشاري للآية الكريمة (وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه). ولهذا فان جنس الذباب الذي يضم مائة من الطوائف المألكة للمزايا والخواص المذكورة، لها اهميتها التي أهلتها لتكون موضوع الآية الكريمة (يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له..)".⁶⁴

ر - حكمة خلق العنديل (الببل)

يؤكد بيدع الزمان ان خلق العنديل ، مثلما الحيوانات الأخرى، مبني على حكم كثيرة ومستخدم في وظائف شتى:

(فمثلاً: الببل المعروف بعاشق الورود والأزهار⁶⁵، يستخدم الفاطر الجليل ذلك الحيوان الصغير ويستعلمه في خمس غايات:

اولاها: انه مأمور ومكلف - باسم القبائل الحيوانية - باعلان شدة العلاقة تجاه طوائف النباتات.

63 للمعات/414

64 للمعات/414 الهامش

65 لما كان الببل يغرد تغريداً شاعرياً فان بحثنا هذا قد انساب فيه شئ من روح الشاعرية، الا انه ليس بخيال بل حقيقة. - المؤلف.

ثانيتها: انه موظف باعلان الفرح والسرور، والترحيب بالهدايا المرسله من قبل الرزاق الكريم، حيث انه خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات - ضيوف الرحمن - المحتاجين الى الرزق.

ثالثتها: اظهار حسن الاستقبال على رؤوس النباتات جميعاً، تعبيراً عن ارسال النباتات امداداً لبني جنسه من الطير والحيوان.

رابعتها: بيان شدة حاجة الحيوانات الى النباتات التي تبلغ حدّ العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات واعلانها على رؤوس الأشهاد.

خامستها: تقديم أطف تسييح الى ديوان رحمة مالك الملك ذي الجلال والاکرام في أطف شوق ووجد، وفي أطف وجه، وهو الورد.

وهكذا هناك معان أخرى شبيهة بهذه الغايات الخمس.

فهذه المعاني وهذه الغايات هي الغاية من عمل البلبل الذي يقوم به لأجل الحق سبحانه وتعالى. فالبلبل يغرد بلغته ونحن نفهم هذه المعاني من نغماته الحزينة، مثلما يفهمها ايضاً الملائكة والروحانيات. وان عدم فهم البلبل لمعنى نغماته معرفة كاملة ليس حائلاً امام فهمنا نحن لذلك، ولا يقدر فيه، والمثل: "رُبّ مستمع أوعى من متكلم" مشهور.

ثم ان عدم معرفة البلبل لهذه الغايات بالتفصيل لا يدل على عدم وجودها، فهو في الأقل كالساعة التي تعرفك أوقاتك وهي لا تعلم شيئاً مما تعمل. فجهلها لا يضر بمعرفتك.

اما مرتب ذلك البلبل ومكافأته الجزئية فهي الذوق الذي يحصل عليه من مشاهدة تبسم الأزهار الجميلة، والتلذذ الذي يحصل عليه من محاورتها.

أي ان نغماته الحزينة وأصواته الرقيقة ليست شكاوى نابعة من تألمات حيوانية، بل هي شكر وحمد وثناء تجاه العطايا الرحمانية.

وقس على البلبل؛ بلابل النحل والعنكبوت والنمل والهوام والحيوانات الصغيرة، فلكل منها غايات كثيرة في أعمالها⁶⁶

ز - الاستفادة من الحيوانات:

يوضح بديع الزمان انواعاً من فوائد الحيوانات استنباطاً من قوله تعالى " والطيّر محشورة ، كل له اواب" (ص:19) "وقال ياايها الناس علمنا منطق الطير"

(النمل:16). فيرى امكان استخدام الطير والحيوانات الأخرى في وظائف مهمة اذا علم لسانها ومنطقها مثل استخدام النحل ودودة القز والحمام والبيغاء . فما اعظم الفائدة لو علم منطق طير الزرزور ونظمت حركاته وهو الذي يدفع آفة استيلاء الجراد من غير ان يأكلها ؟

"(والطيّر محشورة) (ص:19) (و علمنا منطق الطير) (النمل:16). هذه الآيات تبين ان الله سبحانه قد علم سيدنا داود وسليمان عليهما السلام منطق انواع الطيور،

ولغة قابلياتها واستعداداتها، أي: أي الاعمال تناسبها؟ وكيف يمكن الاستفادة منها؟

نعم! هذه الحقيقة هي الحقيقة الجلييلة، إذ ما دام سطح الارض مائدة رحمانية اقيمت تكريماً للانسان، فيمكن اذاً ان تكون معظم الحيوانات والطيور التي تنتفع من هذه المائدة مسخرة للانسان، ضمن تصرفه وتحت خدمته. فالانسان الذي استخدم النحل ودودة القز - تلكم الخدمة الصغار - وانتفع مما لديهم من إلهام إلهي، والذي استعمل الحمام الزاجل في بعض شؤونه وأعماله، واستنطق البيغاء وأمثاله من الطيور، فضمَّ الى الحضارة الانسانية محاسن جديدة، هذا الانسان يمكنه ان يستفيد اذاً كثيراً اذا ما علم لسان الاستعداد الفطري للطيور، وقابليات الحيوانات الاخرى، حيث هي انواع وطوائف كثيرة جداً، كما استفاد من الحيوانات الأليفة. فمثلاً: اذا علم الانسان لسان استعداد العصافير (من نوع الزرازير) التي تتغذى على الجراد ولا تدعها تنمو، واذا ما نسق اعمالها فانه يمكن ان يسخرها لمكافحة آفة الجراد. فيكون عندئذٍ قد انتفع منها واستخدمها مجاناً في امور مهمة.

فمثل هذه الانواع من استغلال قابليات الطيور والانتفاع منها، واستنطاق الجمادات من هاتف وحاك، تخط له الآية الكريمة المذكورة المدى الاقصى والغاية القصوى. فيقول الله سبحانه بالمعنى الرمزي لهذه الآيات الكريمة:

يا بني الانسان! لقد سخرتُ لعبد من بني جنسكم، عبد خالص مخلص، سخرتُ له مخلوقات عظيمة في ملكي وانطقتها له، وجعلتها خداماً امناء وجنوداً مطيعين له، كي تعصم نبوته، وتصان عدالته في ملكه ودولته. وقد أتيتُ كلاً منكم استعداداً ومواهب ليصبح خليفة الارض، واودعتُ فيكم أمانة عظيمة، أبيتُ السموات والارض والجبال ان يحملنها، فعليكم اذاً ان تتقادوا وتخضعوا لأوامر من بيده مقاليد هذه المخلوقات وزمامها، لتتقاد اليكم مخلوقاته المبنوثة في ملكه. فالطريق ممهد أمامكم ان استطعتم ان تقبضوا زمام تلك المخلوقات باسم الخالق العظيم، واذا سموتم الى مرتبة تليق باستعداداتكم ومواهبكم".⁶⁷

ح - رحمته بالحيوانات:

تظهر رحمة سعيد النورسي بالحيوان وشفقته عليها باطعام النمل من طعامه :
مثال 1 : "في" تيللو " من نواحي "سعد" كنت منزوياً تحت قبة خالية، فكانوا يأتون لي بالحساء، وكنت أقوم بإعطاء حبات الحساء إلى النمل واكتفي بغمس الخبز في سائل الحساء. سألوني (في محكمة أسكي شهر) عن السبب فقلت: ان أمة النمل وكذلك النحل تعيش في نظام جمهوري، وأنا أعطي الحبات للنمل احتراماً لنظامها الجمهوري".⁶⁸

مثال 2 : يقول بيدع الزمان انه نال البركة بسبب اطعامه الحمام والقطط مما يأكل :

" ليس الشيوخ الاقرباء وحدهم يأتينهم رزقهم رغداً بصورة بركة بل رزق حتى بعض المخلوقات التي وهبت لمصاحبة الانسان وصدافته كأمثال القطط. فان ارزاقها

67 الكلمات 287/

68 سيرة ذاتية /54

ترسل ضمن رزق الانسان، وتأتي بصورة بركة ايضاً. ومما يؤيد هذا، ما شاهدته بنفسي من مثال، هو: كانت لي حصة من الغذاء كل يوم - كما يعلم احبائي القرييون - قبل سنتين او ثلاث وهي نصف رغيف، وكان رغيف تلك القرية صغيراً، وكثيراً ما كان لا يكفيني.. ثم جاءتني أربع قطط ضيوفاً، وقد كفاني ذلك الغذاء وكفاهم. بل غالباً كانت تبقى منه فضلة وزيادة.

هذه الحالة قد تكررت عندي بحيث اعطتني قناعة تامة من أنني انا الذي كنت استفيد من بركات تلك القطط! وأنا اعلن اعلاناً قاطعاً الان ان تلك القطط ما كانت حملاً ولا عبئاً عليّ ولم تكن تبقى تحت منتي، وانما انا الذي كنت ابقى تحت منّتها".⁶⁹ مثال 3 : "كنت منشغلاً بتصحيح مجموعة "عصا موسى" ليلة النصف من شعبان فوقف على الشباك حمام وبدأ ينظر إلي ، قلت : هل أتيت ببشارة ؟. ودخل الغرفة دون أي تخوف وكأننا على صداقة منذ مدة. اعتلى مجموعة "عصا موسى" وجثم عليها طوال ثلاث ساعات، قدّمت له فتات خبز وحبّات رز لم يأكل منها وظل عندي حتى المساء، ثم ذهب وعاد مرة اخرى. وظل عندي ليلة النصف من شعبان حتى الصباح. وعندما تمددت في الفراش اقترب من رأسي وربت على رأسي وكأنه يودعني، ثم غادر المكان . وعندما تأسفت في اليوم التالي قدم مرة اخرى وبات عندي ليلة اخرى . بمعنى ان هذا الطير المبارك اراد تهنئتنا لمجموعة "عصا موسى" ولليلة النصف من شعبان"⁷⁰

ولننقل طرفاً مما ذكره شهود عيان عن رحمته بالحيوان كما ورد في كتاب "نجم الدين شاهين أر" المسمى " آخر الشهود يروون عن بديع الزمان سعيد النورسي .." فيما يأتي من الامثلة :

مثال 4 : .. كان بيت سعيد النورسي من الخشب . وقد يظهر فأر في ثقب من ثقوب البيت، فيقول : انظر .. انه يريد طعاماً ! ثم يضع لقمة مما يأكل في فوهة الثقب فياكله الفأر . كان يطعم الفأر مما يأكل"⁷¹

مثال 5 : " ... كان إذا رأى نملاً ، او اذا رفعنا حجراً فظهر النمل من تحته ، يأمرنا باعادة الحجر الى محله قائلاً : لا تزجوا هذه الحيوانات اللطيفة ."⁷²

مثال 6 : " كان يضع خبزاً للفئران، كذا للطيور والقطط في سقف الدكان المجاور، في اماكن تصل اليها هذه الحيوانات . فتأكل الفئران والقطط رزقها منه ."⁷³

مثال 7 : " كان لبديع الزمان سعيد النورسي قطتان ، يطعمهما حين يحضر وقت الطعام ثم يأكل هو بعدهما . ويضع شيئاً من الاكل في الدولاب للفئران."⁷⁴

ط - منعه لصيد الحيوان :

69 المکتوبات/337

70 ملحق اميرداغ/1

Şahiner, Son Şahitler, II, 150 71

Şahiner, Son şahitler, III, 59 72

Şahiner, Son Şahitler, III, 141 73

Şahiner, Son Şahitler, III, 126 74

لم يكن بديع الزمان يحبذ صيد الحيوان، بل يوصي بالاكْتفاء بالحيوانات الالهية، كما يروي "آخر الشهود..."

مثال 1 : ... عندما يقابل الصيادين في البر يقول لهم : "لاترموا الارانب وطيور القبج" أو ينصح : "لاتؤذوا الحيوانات الأخرى..." بل منع نقرأ من الصيد⁷⁵ .
مثال 2 : يروي زائرا من زواره فيقول : "سألني عن عملي، قلت : انا صياد... يا محترم. سألني : ما الحيوانات التي في نواحيكم؟ قلت : الغزال والارنب والبط البري والقبج. فقال: ما مقدار ما تتفقون في كل خروج للصيد؟ قلت : خمسون ليرة كل مرة . فقال: اليس الافضل ان تشتروا بها حيواناً اهلياً وتأكلوا من لحمه ؟ قلت: بلى يا محترم . من المؤكد انه افضل..."⁷⁶

ثامناً : أهمية الشجر والنبات :

لا نجد في القرآن الكريم امراً صريحاً يأمر بزرع الأشجار، لكنها تشغل حيزاً مهماً فيه بقدر أهميتها في حياة الانسان فيرد في كثير من الآيات ما يشير الى أهمية دور الأشجار في الحياة الاجتماعية بالتنبيه الى الأشجار والثمار والجنات والبساتين . وفي آيات أخرى ترد الأشجار لايضاح مسألة أخرى من باب التشبيه وضرب المثل . والقصد في كل حال هو حفظ مفهوم الشجر حياً في الازهان.

نجد الآيات المتعلقة بالأشجار مبنوثة من اول القرآن الى آخره للتذكير المتكرر، حتى ان القارئ الفاهم للقرآن يحتفظ برمز الشجر طازجاً وحاضراً في ذهنه دائماً . لذلك، يجد المؤمن الذي يستحضر أهمية الشجر في الحياة الاجتماعية والحضارية حافظاً ودافعاً وحاجة الى زراعة الأشجار.

وقد اهتم بديع الزمان ايضاً بالزرع وعاش مع الزرع والشجر والغاية ما في وسعه. لانه يعلم ان النباتات والأشجار لم تخلق عبثاً ، بل هي مخلوقات تسبح لله تعالى. وهل يتصور بان من يرى في النبات والأشجار ذلك، يستطيع ان يقسو عليها ؟ نعم. كان يعلم ان الأشجار مثل بقية المخلوقات تسبح لله بالسنتها الخاصة بها .

لقد مرت اسماء كثير من النباتات والزرورع والثمار في رسائل النور مثل: اللوز والجوز والسرو والهور والفتح والورد والخردل والخشخاش وجوز الهند والتمر وشجرة القطران والبطيخ والرمان والبادنجان والسمرة وشجرة الطوبى والعنب واليقطين والزيتون ... الخ . فلنر طرفاً مما يقول عن الشجر والزرع :

أ - النباتات سكة التوحيد وذاكرات يسبحن لله تعالى :

النباتات في نظر بديع الزمان تسبح لله تعالى بلسانها الخاص كما تسبح سائر المخلوقات في الكائنات.

مثال 1 : "في مراعي بارلا، وأشجار الصنوبر والقطران، والعرعر والحور الأسود.

بينما كنت على قمة جبل في (بارلا) ايام منفاي، أسرح النظر في اشجار الصنوبر والقطران والعرعر، التي تغطي الجهات. وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة اشكالها وصورها. اذ هبّ نسيم رقيق حول ذلك الوضع المهيب الرائع الى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة واهتزازات نشوة شوق وتهليل. واذا بذلك المشهد البهيج السار يتقطر عبراً أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع".⁷⁷ يستلهم كل حي صلاته الخاصة وتسبيحاته المخصوصة من اثار هذه الرحمة الإلهية.

وبعد النزود بالدرس البليغ، تنتصب كل شجرة قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة أيديها متطلعة الى العرش.

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية، ومدّت مئات أيديها ضارعة امام عتبة الحضرة الإلهية، كأنها (شهباز قلندر)⁷⁸ وتهز أغصانها الرقيقة كأنها الضفائر الفاتنة لـ (شهنار الجميلة)⁷⁹ مثيرة في المشاهد أشواقاً لطيفة وأذواقاً سامية.⁸⁰

لكأن هذا الجمال يهزّ طبقات العشق، بل يمسّ أعماق الأوتار وأشدها حساسية. امام هذا المنظر المعير يرد الفكر هذا المعنى:

يذكره بأنين حزين، وبكاء مرير، ينبعثان من أعماق الأعماق. المكوم بألم الزوال الذي يصيب الأحبة المجازية.

انه يُسمع انغام الفراق والالم الشجية على رؤوس اشهاد العاشقين المفارقين عن أحبّتهم، كما فارق السلطان محمود محبوبه.

وكأن هذه الاشجار بنغماتها الرقيقة الحزينة، تؤدي مهمة إسماع اصداء الخلود لأولئك الأموات الذين انقطعوا عن محاورات الدنيا واصدائها.

اما الروح فقد تعلمت من هذه المشاهد:

ان الأشياء تتوجه الى تجليات اسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل فهي أصوات وأصداء تضرعاتها وتوسلاتها.

اما القلب فانه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الاعجاز، سر التوحيد في هذه الاشجار كأنها آيات مجسمات.

أي ان في خلق كل منها من خوارق النظام وابداع الصنعة واعجاز الحكمة، ما لو اتحدت أسباب الكون كلها، وأصبحت فاعلة مختارة، لعجزت عن تقليدها.

اما النفس؛ فكلما شاهدت هذا الوضع للاشجار، رأيت كأن الوجود يتدحرج في دوامات الزوال والفراق. فتحرّرت عن ذوق باق، فتلقت هذا المعنى: "انك ستجدين البقاء بترك عبادة الدنيا".

اما العقل فقد وجد انتظام الخلق، ونقش الحكمة وخزائن أسرار عظيمة في هذه

77 الكلمات/242

78 كان خادماً لدى الشيخ الكيلاني، وتربى على يديه، حتى ترقى في مراتب الولاية. - المؤلف

79 حسناء شهيرة بجمالها وجمال شعرها وظفانها. - المؤلف

80 هذا البيت يشير الى شجرة العرعر في المقبرة.

الأصوات اللطيفة المنبعثة من الأشجار والحيوانات معاً، ومن انداء الشجيرات والنسائم. وسيفهم ان كل شئ يسيح للصانع الجليل بجهات شتى.

اما هوى النفس، فانه يلتذ ويستمتع من حفيف الاشجار وهبوب النسيم ذوقاً لطيفاً ينسبها الأذواق المجازية كلها، حتى انه يريد ان يموت ويفنى في ذلك الذوق الحقيقي، واللذة الحقيقية بتركه الأذواق المجازية، التي هي جوهر حياته.

اما الخيال فانه يرى كأن الملائكة الموكلين بهذه الاشجار قد دخلوا جذوعها ولبسوا أغصانها المالكة لفصيحات الناي بانواع كثيرة. وكأن السلطان السرمدي قد ألبسهم هذه الأجساد في استعراض مهيب مع آلاف انعام الناي، كي تُظهر تلك الاشجار أوضاع الشكر والامتنان له بشعور تام، لا أجساداً مينة فاقدة للشعور.

فتلك النيات مؤثرة الانعام صافيتها، اذ تخرج أصواتاً لطيفة كأنها منبعثة من موسيقى سماوية علوية، فلا يسمع الفكر منها شكاوى آلام الفراق والزوال، كما يسمعها كل العشاق وفي مقدمتهم (مولانا جلال الدين الرومي) بل يسمع أنواع الشكر للمنع الرحمن، وأنواع الحمد تقدم الى الحي القيوم.

وإذ صارت الاشجار أجساداً. فقد صارت الأوراق كذلك ألسنة. كل منها تردد بألاف الالسنه ذكر الله بـ "هو.. هو.. " بمجرد مسّ الهواء لها. وتعلن بتحيات حياته الى صانعه الحي القيوم

لأن جميع الأشياء تقول: "لا إله الا هو" وتعمل ضمن حلقة ذكر الكائنات العظمى).⁸¹ "حتى كأن الشجرة المزهرة.. قصيدة منظومة محررة.. وتُنشد للفاطر المدائح المبهرة".

او فتحت بكثرة عيونها المبصرة.. لتتنظر للصانع العجائب المنشرة".⁸² مثال 2: "تعال لتأمل شجرة.. نحن أمام نشوء الاوراق ونموها في الربيع بانتظام ودقة متناهية، وأمام تفتح الأزهار وخروجها من اكمامها بشكل موزون، وأمام نمو الثمار بحكمة ورحمة..

فها! أمعنت النظر في منظر ملاعبة النسيم للأوراق برقة وبراعة كبراءة الطفولة النقية الرقيقة.

وشاهد من فم الشجرة، كيف تنطق هذه الألسن وتفصح عن حالها؛ لسان الأوراق المخضرة بيد الكرم.. ولسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف.. ولسان الثمار الفرحة بتجلي الرحمة.. كلُّ منها يعبر عن ذلك "الميزان" الدقيق العادل الذي هو ضمن "النظام" البديع المحكم، وفي هذا الميزان الدقيق الذي يدل على "العدل" نقوش صنعة دقيقة بديعة، وزينة فائقة تضم مذاقات متنوعة، وروائح مختلفة طيبة لطيفة، تدل على الرحمة والاحسان، وفي تلك المذاقات اللطيفة بذور ونوى هي بحد ذاتها معجزة من معجزات القدرة الإلهية، ألا يدل ذلك بوضوح، ويظهر بجلاء وجوب وجود خالق

81 الكلمات/243-245

82 الكلمات/718

كريم ورحيم، محسن، منعم، مُجَمِّل، مُفَضِّل، واحد، أحد، ويشهد كذلك على جمال رحمته سبحانه وكمال ربوبيته؟"⁸³

مثال 3 : "ان اول كل شجرة عليية صغيرة وبرنامج.. وأخرها نموذج ولائحة تعريف.. وظاهرها حلّة مزركشة ولباس مزين.. وباطنها مصنع ومعمل.. فهذه الجهات الاربع تلاحظ احداها الاخرى، فتنشأ من هذه الاربعة علامة عظيمة جداً، بل اسم اعظم بحيث لايمكن قطعاً ان يقوم بتلك الاعمال غير الواحد الأحد الذي بيده زمام الكون كله.

فكما ان الشجرة تحمل هذه العلامة للتوحيد. فان اول كل كائن حي وآخره، وظاهره، وباطنه يحمل علامة توحيد وختم وحدانية وتوقيع احدية وطغراء وحدانية ايضاً..

وهكذا على غرار هذه الشجرة المذكورة ضمن الامثلة الثلاثة، الربيع ايضاً شجرة تحمل ازاهير كثيرة. والبيذور والجزور المودعة امانة بيد فصل الخريف تحمل علامة اسم "الاول". والثمرات والحبوب والخضار التي تفرغ الى احضان فصل الصيف وتملاً رداءه المبسوط تحمل ختم اسم "الأخر". والالبسة الفطرية المزينة بمئات الالوف من الزينة والحلل التي يلبسها فصل الربيع كحلل حور العين السندسية، تحمل ختم "الظاهر". والمصانع الصمدانية العاملة في باطن الارض وفي الربيع والقذور الرحمانية التي تغلي غلياناً والمطابخ الربانية التي تهئ المأكولات، تحمل طغراء اسم "الباطن"⁸⁴

ب - النباتات والاشجار تحسن ثمراتها الجميلة وتقدمها للانسان ، وتحتضن انواعاً من الحيوان كالام الرووم :

يرى بديع الزمان ان النباتات تخدم الانسان وانواعاً من الحيوانات ، زيادة على كونها سكة توحيد وتسبيحها :

مثال 1 : "اشارة الى البيذور المتنوعة، فبيذور البطيخ والخوخ وغيرها تنسج اوراقاً اجمل من اجود قماش، وتقدم لنا ثماراً طيبة هي ألد من الحلوى تأتي بها من خزينة الرحمة الالهية".

مثال 2 : "اشارة الى النباتات المثمرة لأنها تحمل مئات المصانع والمعامل الدقيقة في اعضائها الرقيقة فتسج الاوراق اللطيفة والازهار الزاهية وتُنضج الثمار اللبانعة وتقدّمها الينا. ومنها أشجار الصنوبر الشامخة التي نصبت معاملها على الصخور الصماء في الجبال.

مثال 3 : "اشارة الى الحبوب والبيذيرات وبيوض الحشرات، فتضع البعوضة مثلاً بيوضها على أوراق شجرة، فاذا الورقة تكون لها كرحم الأم والمهد اللطيف، وتمتلئ بغذاء لذيذ كالعسل. فكان تلك الشجرة غير المثمرة تثمر كائنات حية"⁸⁵

83 الكلمات/804

84 الشعاعات/41

85 الكلمات/313-314 الهوامش 1،2،1

مثال 4 : "فهذه البُذيرة قد صارت شجرة تين تنتشر نِعم الفاطر الحكيم فوق رؤوسها وتنتثرها عليها وتمدّها الينا بايدي اغصانها. وهاتان البُذيرتان المتشابهتان بها قد صارتا زهرة الشمس وزهرة البنفسج.. وامثالها كثير من الازهار الجميلة التي تنزين لأجلنا وتواجهنا بوجه طليق مبيتسم متوددةً الينا.."⁸⁶

ج - معيشته مع الزرع وجولاته في البراري :

اولى بديع الزمان اهتماماً كبيراً بالنبات وكان من عاداته الخروج البراري والفيافي الربيع والصيف خاصة. وكان يختلي احياناً مدة من الزمان في جبل جام (جبل السرو) . كانت وشيخته مع النبات وكما يشرح طلابه :

مثال 1 : خصص لاقامته بيت صغير من غرفتين يطل على مروج " بارلا " ... قبالة شجرة الدلب العالية ... صنع احد النجارين سطحاً خشبياً مكشوفاً بين اغصانها فكان الاستاذ يقضي فوقها اغلب اوقاته في فصلي الربيع والصيف متعبداً لله ومتأملاً ومتفكراً حتى انبلاج الصباح في معظم الاحيان... كانت عيون السلطة تترصد الاستاذ... فكان يقضي اكثر وقته في البيت او يخرج في فصلي الربيع والصيف الى جبل جام ويختلي هناك بنفسه في قمة الجبل وبين الاشجار متأملاً ومتعبداً..⁸⁷

مثال 2 : يقول فيضي وأمين من طلابه عن ايامه في قسطموني :
" ... صيفا، كنا نذهب مع استاذنا - في الاكثر - الى جبل مكسو بغابة بعيدٍ عن المدينة"⁸⁸

مثال 3 : يقول طلابه في اميرطاغ عن ايامه في تلك المدينة :
" كان بديع الزمان تحت الترصّد والمراقبة الدائمة في اميرطاغ. فكان يخرج الى الهواء الطلق. ومن عاداته التي لا يغادرها الخروج الى البر في موسم الربيع والصيف. يخرج وحيداً، ويبقى ساعات هناك، ثم يعود الى بيته .
لم تكن خدمات بديع الزمان وشغله في اميرطاغ - كما في غيرها - منحصرة بوظيفة واحدة... فمع انشغاله بتصنيف وتصحيح ونشر آثار (مثل اللمعات) هي من انوار الحقائق القرآنية، تجده مشتاقاً الى مطالعة كتاب الكائنات وكشف واستطلاع المصنوعات والموجودات التي هي كلمات القدرة. كان مفتوناً اشد الافتنان بقراءة الآثار المعجزات للرحمة والحكمة وخوارق الصنعة الالهية في الاشجار والنبات والحيوان ولمعات سكة التوحيد في مطالعها وسيماها، المكتوبة على سطح الارض، والتي لا تعرض ولا تشهر إلا في الربيع : بذلك كان ينشر جناحيه بمرتبة حق اليقين سائحاً في الأفاق اللانهائية للحقائق الايمانية ومعرفة الله تعالى "⁸⁹
تاسعاً : اهمية النظافة :

86 اللمعات/209

87 سيرة ذاتية - حياته في بارلا.

88 سيرة ذاتية - حياته في قسطموني.

89 سيرة ذاتية - حياته في اميرداغ

لا تنفرد الوسائل المادية بتلويث البيئة النظيفة، بل تشاركها الاسباب النفسية الفردية والاجتماعية. ويمكن القول ان الوضع المعنوي والاخلاقي من اهم الاسباب التي تؤثر تأثيراً سلبياً على العناصر المادية المؤدية الى تلويث البيئة. ولذلك استعصى حل مشكلة البيئة بحصر المعالجة في الابعاد المادية للمعضلة التي صارت تهدد الاحياء والحضارة وتتعد يوماً بعد آخر. بينما في الواقع، من المحال حل المعضلة بغير معالجة التأثيرات النفسية الاجتماعية الخفية مثل العادات المذمومة والاعتقادات الفاسدة والخطايا والبدع وغيرها من التلوثات المعنوية. واننا نجد في القران الكريم نوعان من النظافة او التطهر هما : النوع المادي والجسماني والنوع المعنوي او الروحي . لنوضح هنا هذه المسألة :

أ - التطهر المادي :

بعد الاسلام النظافة والطهارة من شروط الايمان، فيقيم علاقة مباشرة بين الايمان والنظافة ويعلمنا النبي (ص) بان الطهور شطر الايمان.⁹⁰ ان اشتراط طهارة البدن لبعض العبادات ، وجعلها مدخلاً ومفتاحاً يفتح باب الصلاة،⁹¹ يدلنا على الاهمية التي يوليها الاسلام للنظافة، لأن الصلاة عمود الدين . ويكفي ان الاسلام وضع قواعد للنظافة مثل آداب الطهارة والوضوء للصلاة⁹² والغسل من الجنابة التي تفرض استحماماً دورياً،⁹³ وتقليم الاظافر ، وتنف الابط والعانة، والسواك،⁹⁴ وغسل اليد قبل الاكل وبعده، وغسل اليد بعد النهوض من النوم صباحاً ،⁹⁵ والمضمضة والاستنشاق بعد شرب اللبن⁹⁶ او الاكل المطبوخ او الدسم⁹⁷ وقص الشعر ونظافة اللباس.... الخ .

ب - التطهر الروحي (المعنوي) :

ان حصر الطهارة بالبدن قصر في النظر . فطهارة القلب والنفس وخلص النية مقدم على طهارة الابدان. ومن المطلوبات ايضاً الخلق الحسن . الاسلام دين الاعتدال في كل شئ ، كذلك في العلاقة بين المادة والمعنى. فلا يصح الفصل بين الطهارة المادية والمعنوية في الاسلام. وقد نجد في مواضع كثيرة تركيزاً على طهارة الروح والنفس، لكننا نلاحظ ايضاً تداخلها مع الطهارة المادية. وان بديع الزمان النورسي ايضاً يؤكد على ان خصال السوء والاعتقادات الفاسدة والآثام والبدع هي تلوثات معنوية.⁹⁸

90 انظر مسلم ، الطهارة ، 1 .

91 انظر سنن ابوداود، الصلاة، 73

92 انظر سورة المائدة الآية 6

93 انظر المسند 34/1

94 انظر البخاري، الجمعة 8، مسلم، الطهارة 42

95 Polat Has, El temizliği ve Sağlığımız, Sıntı, IX, 97

96 انظر البخاري ، الوضوء 52

97 انظر البخاري ، الوضوء 51

98 يجب الا ننسى: ان الخصال القبيحة، والاعتقادات الباطلة، والذنوب والآثام، والبدع، كلها من الاوساخ المعنوية. النورسي

الاسلام يأمر بطهارة المظهر والمخبر والظاهر والباطن. ولا يتقبل انساناً نظيف الظاهر ملوث الباطن، كما لا يتقبل نظيف الباطن وملوث الظاهر. ولما كان القلب رمزاً للروح والمعنى في الانسان، فاول ما يخطر على البال اذا ذكرت طهارة الباطن هو سلامة القلب والوجدان وطهارتها. والآثام قذارة تصيب البيئة المعنوية للفرد والمجتمع بالتلوث. لذلك، الفرد الطاهر النظيف والمجتمع الطاهر النظيف يعني التصفية من تلوث الآثام، وبعبارة الاخرى: سيادة مفهوم "محاسبة النفس" "ومقاومة الاثم". البيئة الطاهرة تعني طهارة الوسط المعنوي، وليس الوسط المادي وحده. واول شروط حماية البيئة المعنوية هو نظافة العقل والفكر والقلب. لذلك اقول ان مفهوم "البيئية الاسلامية" ببعده المعنوي يعتمد محورين هما "الله تعالى والانسان".⁹⁹

وقد اكد بديع الزمان ايضاً على النظافة التي تشغل حيزاً مهماً في الاسلام. بل ان اهتمامه بانواع النظافة كلها في حياته الشخصية يجعله قدوة. مثلاً كان يعتني بنظافة ملابسه وانتظامها وتطيبه ونظافة بيته سواء عند استقباله للزوار او خروجه الى الناس. فهو يرى ان النظافة سبب في كسب محبة الله.

"نعم، ان هذا التنظيف السامي الشامل المشاهد الذي يجعل قصر العالم طاهراً نقياً نظيفاً لهو تجلٍ من تجليات اسم "القدوس" ومقتضى من مقتضياته.

وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعها الى اسم "القدوس" وترنو اليه، كذلك يستدعي اسم "القدوس" نظافة تلك المخلوقات وطهارتها حتى عدّ الحديث الشريف "النظافة من الايمان" الطهور نوراً من انواره¹⁰⁰ لارتباطه القدسي هذا، واطهرت الآية الكريمة ان الطهر مدعاة الى المحبة الالهية ومدار لها، في قوله تعالى: (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (البقرة: 222)".¹⁰¹

شهادات على مراعاة بديع الزمان للنظافة :

ترد شهادات على مراعاة بديع الزمان النورسي الشديدة للنظافة في كتاب " آخر الشهود يتحدثون عن بديع الزمان " الذي اعده "نجم الدين شاهين أر" :

مثال 1 : " كان بديع الزمان يعتني بالنظافة اشد العناية... فيلبس جوربين فوق بعضهما على الدوام، وفي "بارلا" خاصة . وحين يقف ليصلي، يخرج الجورب الاول ثم يصلي وفي قدمه الجورب الثاني."¹⁰²

مثال 2 : "ولدي ذكريات طيبة في زيارتي هذه ايضاً. تنفست هواء في اجواء روحية النور في كل مكان. كان مريضاً . ملابسه بيضاء ونقية كالثلج. فراشه على انظف حال مثل ملابسه."¹⁰³

M.Bayraktar, age., 64 99

100 وردت في هذا المعنى احاديث كثيرة منها: «الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان...» رواه مسلم واحمد والترمذي عن ابي مالك الأشعري، (عن كشف الخفاء للعجلوني).

101 اللمعات/522

Şahiner, Son Şahitler, I, 325 102

Şahiner, Son Şahitler, IV, 164 103

مثال 3 : كان يلبس البياض في الغالب، ويعتني بالنظافة كثيراً، حتى يصعب علينا التمييز بين ملابسه المغسولة وملابسه التي ستغسل، فكثيراً ما كنا نقع في الشك في ذلك. يستحم مرة في الاسبوع ويغير ملابسه الداخلية كثيراً¹⁰⁴ .
 مثال 4 : "... واجزم على انه انظف انسان في الارض. فلم ار انساناً انظف منه. انه خير من المسك، هو انظف والطف من المسك..."¹⁰⁵

عاشرا : تلوث الجو وتنقية الرياح :

ان التلوث الجوي حسب معايير منظمة الصحة العالمية هو " ارتفاع كثافة المواد الغريبة في الجو على معدلاتها الطبيعية بشكل يؤثر سلبياً على صحة الاحياء او تسبب في اضرار مادية." الهواء الذي لا تقوم الحياة إلا به، يتعرض الى انواع التلوث المؤثر على كل اشكال الحياة بطرح الفضلات الصناعية المختلفة. لقد لقي التوازن البيئي الجوي اثناء التطور الصناعي اهمالاً شديداً بسبب الجهل ، يعاد هذا التوازن على البيئية عموماً . والحال ان القرآن الكريم يلفت نظر المسلم الى الموضوع قبل اربعة عشر قرناً ويؤكد على مراعاة التوازن البيئي الجوي الطبيعي في التطور الصناعي وفعاليات الحياة كلها. للحفاظ على التوازن البيئي الذي خلقه الله تعالى.

اذا تأملنا في هذا التوازن العجيب، نرى ان البشر والحيوانات يتنفسون الاوكسجين ويطرحون اوكسيد الكربون منذ اول الخلق. ولولا العناية الالهية لتوقفت الحياة لاضمحلال الاوكسجين في زمن ما. فقد اسعفت الحكمة الالهية والقدرة الربانية ذوي الحياة باحسن توازن وتقدير، باستهلاك النباتات الكلورفيلية لاوكسيد الكربون المطروح الى الجو بالتنفس الحيواني والانساني. ومزجه بالماء بواسطة اشعة الشمس لانتاج الكليكويز من اجل ادامة حياتها. هذه العملية تسمى عملية النتج . فالنباتات تستهلك غاز ثاني اوكسيد الكربون الذي تطرحه الحيوانات لادامة حياتها، ثم تطرح الاوكسجين الضروري لتنفس الحيوانات. ان خلاصة التعريف بتلوث الهواء هو العطل الذي يصيب هذا التوازن بشكل يضعف قدرته على تعويض الجو بالاوكسجين المفقود. فعملية الموازنة تتعرض الى العطل بنتيجة ارتفاع الصناعة بزيادة طرح ثاني اوكسيد الكربون الى الجو من جهة، ونقصان المساحة الخضراء التي تحول هذا الغاز الى الاوكسجين من جهة اخرى. ومن ثم ترتفع اصوات الشكوى من تلوث الجو والاضرار اللاحقة من ورائه.¹⁰⁶ سبق ان قلنا ان القرآن الكريم يحثنا على حماية التوازن البيئي فهو يجعل من الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض آيات وعلامات يتفكر فيها ليؤمن من خلاله بالله تعالى وبوحدانيته ويعددها سبباً من اسباب الحياة في هذه الكرة الارضية السائحة في الفضاء.¹⁰⁷

ويوجه بديع الزمان النورسي ايضاً، الى الفوائد المتنوعة للرياح مثل تنقيته للجو الفاسد وتنفس الاحياء وتلقيح النباتات وتسيير السحاب وتكثيف الامطار :

Şahiner, Son şahitler, III, 64 104

. Şahiner, Son Şahitler, III, 157. 105

Çevre Sorunları ve İslâm, s. 95-96 106

107 انظر السور: فصلت:16، القمر:19، الحاقة:6، الروم:48، الفرقان:48، الأعراف:57.

"مثلما يستمتع كل ما ذكرناه لتلك الاوامر القدسية بالتنظيف، تستمتع لها ايضاً الرياح الهوج والسحاب الثقيل، فتلك تطهّر وجه الارض من النفايات، والآخرى ترشّ روضتها بالماء الطاهر فتسكّن الغبار والتراب، ثم تتسحب بسرعة ونظام حاملة ادواتها ليعود الجمال الساطع الى وجه السماء صافياً متألئاً"¹⁰⁸. ويقول في ايضاح الآية الكريمة 164 من سورة البقرة بشأن فوائد الريح والسحاب:

"(ان في خلق السموات والارض واختلاف اليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبتّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) (البقرة: 164) ..

يذكر تجلي الرحمة والحكمة من توظيف الرياح بوظائف جليلة كتفقيح النباتات وتنفسها، وجعلها صالحة في ترديد انفاس الأحياء بتحريكها وادارتها.. كما يذكر تجلي الربوبية في تسخير السحب وجمعها وتفريقها وهي معلقة بين السماء والارض كأنها جنود مناصعون للاوامر يتفرقون للراحة ثم يجتمعون لتلقي الاوامر في عرض عظيم. وهكذا بعد سرد منسوجات الصنعة الإلهية يسوق العقل الى اكتناه حقائقها تفصيلاً فيقول: (لايات لقوم يعقلون) أخذاً بزمam العقل الى التدبير موقظاً اياه الى التفكير"¹⁰⁹. ويقول ايضاً بان الرياح والغيوم تشهد على قدرة الله ورحمته ثم يعدد بعضاً من فوائدها:

"وكذا الرياح المسخّرة بوظائف عدّة: كحمل أكثر الأرزاق ضرورة لمعيشة الأحياء وأسهلها تناولاً وفائدة، ومنح الأنفاس وترويح الأنفس وغيرها كثير، تُشير الى فعالية قدرتك أنت، وتشهد شهادة على وجودك؛ بتبديلها الجو - لحكمة - كأنه "لوح المحو والإثبات" فتكتب مايفيد وتمحو ما أفاد. كما ان "الرحمة" المستدرة برحمتك من السحاب والمرسلة الى الأحياء تشهد هي أيضا على سعة رحمتك، ووسعة رأفتك؛ بكلمات قطراتها العذبة اللطيفة الموزونة المنتظمة"¹¹⁰.

الخلاصة والنتيجة

يرتب اتحاد التربية البيئية في امريكا الشمالية خطوات بلوغ الوعي البيئي ، ويعني التعليم البيئي، بالتسلسل الآتي :

- 1 - الانتباه الى احداث البيئة .
- 2 - جمع المعلومات عن الاحداث البيئية .
- 3 - تشكل معالم الموقف البيئي .
- 4 - المشاركة في الفعاليات البيئية .
- 5 - اكتساب خبرة في فعاليات الحركة البيئية .

108 للمعات/519

109 الكلمات/486

110 الشعاعات/50

وينبغي ان يحس المرء بالمسؤولية من اجل ان يخرط في صفوف انصار البيئة، وان يبتعد عن الاسراف ويتحكم الاعتدال في تصرفاته كلها بعيداً عن الافراط في كل شئ، ويعشق الطبيعة حتى تمتزج بحياته. فاذا صارت نصره الطبيعة حالة اخلاقية عنده، فينبغي ان يسعى الى نشرها فيمن حوله.

اذا وزنا رسائل النور ومصنفها بديع الزمان سعيد النورسي بهذا الميزان، فان رسائل النور - بدءاً من الكلمة الاولى - تلفت النظر الى الطبيعة بالامثلة الواردة فيها. وهذا مؤشر لمدى اهتمام سعيد النورسي بالطبيعة ... مثل حفظ اوراق النبات الرقيقة من اشعة الشمس ، وانتشار جذور النباتات يبسر في الارض الصلدة

ومن المهم ايضاً ، النظرة الكلية الى حماية التوازن البيئي . ويعني ان الموجودات مرتبطة بعضها ببعض كحلقات السلسلة ، فاذا اصاب العطب حلقة منها، تضررت حلقات هذا النظام كلها. رسائل النور تسمى الموجودات باسم "كتاب الكائنات" ، وتجعلها "لساناً كلياً من ثلاثة السنة كلية للتوحيد ، وتقديمها "وحدة كلية تحمل معنى . ثم تتعطف لتبرهن على هذه " الكلية" . ان معلومات عميقة عن الطبيعة مجسدة في النظام والانتظام والنظافة والتعاون والتعاقد... الخ تعبر عن مدى علم النورسي بها وانجذابه اليها.

ان اجتناب سعيد النورسي للاسراف، واطعامه الطعام للنمل وحبه للحيوانات مثل القطط ، وتعلقه بالطيور، ومعايشته للطبيعة ، وخروجه الى البراري والجبال ، يشير الى "الموقف البيئي" لسعيد النورسي وتحول البيئة عنده الى حالة اخلاقية وتعكس حالة فعلية .

الحاصل، ان القرآن الكريم ، وتفسيره المعاصر: كليات رسائل النور، ينقل المتمعن الى حالة الشعور "بالمعنى" في الكائنات ويرى انها "موظفة" ويحذر من الاضرار بها بدافع ايماني . هذه الحالة مطلوبة من كل فرد يملك وعياً بيئياً . اذن، يمكن القول ان القرآن الكريم والاسلام ورسائل النور تعلم الانسان - بشكل ما - دروساً في التعليم البيئي .

ترجمة: عوني لطفي او غلو

التأويل في رسائل النور

أ.د. صدر الدين كوموش^P

بعد توضيح معنى التأويل بشكل مختصر سنسعى لإيضاح ما أجري من التأويل في رسائل النور. التأويل: مصدر على صيغة التفعيل، ومشتق من "أول" بمعنى الرجوع للأصل وتفيد عدة معاني منها: تدوير، قلب، الايصال للمقصود، النتيجة، العاقبة، الجزاء¹ وما إليها من المعاني. والمقصود منه في الكلام سياق وإيصال المعنى لما يراد منه، أي توضيحه.¹

والتأويل اصطلاحاً، يعني "توضيح اللفظ لا حسب معناه الظاهري بل حسب ما يُحتمل من المعنى الموافق للكتاب والسنة". والتفسير لغة يأتي بمعنى "الشرح والاستبانة" واصطلاحاً هو شرح معنى الآية وملاساتها وقصتها وسبب نزولها بلفظ يدل على المعنى بصورة واضحة. فمثلاً توضيح الآية {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} بمعنى "يُخْرِجُ الْفَرْخَ مِنَ الْبَيْضِ" تفسير، وتوضيحها بمعنى "يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْعَالَمَ مِنَ الْجَاهِلِ" تأويل.²

هناك وجهات نظر مختلفة بين رجال العلم في موضوع مفهوم التأويل والتفسير. فقسم منهم يستعملون التأويل والتفسير بنفس المعنى، وقسم منهم قد استعمل التفسير بمعنى "الشرح والتوضيح استناداً على الدليل القاطع" والتأويل بمعنى "ترجيح معنى من بين المعاني المحتملة"³ ولم يكن هناك تضاد بين "التفسير" و"التأويل" في المراحل الأولى للإسلام، حتى ان اصطلاح "التأويل" كثيراً ما كان يستعمل في توضيح وشرح معاني القرآن الكريم، ويرجح على اصطلاح "التفسير" فمثلاً سُمِّيَ المفسر ابن جرير الطبري تفسيره الذي كتبه في أواخر القرن الثالث الهجري (922/310) — (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). فمثلاً استعمل الطبري كلمة "التأويل"

^P من مواليد مدينة أزمروم سنة 1945م حصل على الدكتوراه سنة 1983 وحالياً استاذ في جامعة مرمره باستانبول، له خمسة كتب منشورة.

1- التأويل حسب رأى المفسر حمدي ألمليلي "تحويل الشئ للغاية المقصودة منه فعلاً وعلماً". فمثلاً: مادامت الغاية المقصودة من الماء هي الحياة، فتحويل الماء الى الحياة تأويل، والحياة مآل الماء (أي غاية توصله)، وفقد معنى الحياة من كلمة "الماء" مجازاً، هو تأويل لفظي. وعلم كيفية الحياة التي تنتجها المادة التي يقال لها "الماء"، هو تأويل معنوي. ويقال لكلا هذين الشكلين "تأويل علمي"، وتحويل الماء فعلاً الى الحياة "تأويل فعلي" (تفسير حق ديني قرآن دلي، جلد 1 / المقدمة، 27)

2- انظر كلمة (التأويل) من كتاب التعريفات/ الشريف علي بن محمد الجرجاني. اذ يقول: التأويل في الاصل الترحيح، وفي الشرح: صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يَحتملُه اذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} ان اراد به اخراج الطير من البيضة كان تفسيراً وإن اراد اخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً.

3- يراجع تفسير المنار

كاصطلاحٍ لعملية التوضيح كافة، وقد استعمله للتوضيحات العقلية أيضاً.⁴ وسيراً على خط مواز لعمله هذا، بل وأكثر من ذلك، فقد اتخذ المعتزلة العلم العقلي⁵ قسماً في تأويل الآيات المتشابهة ولا سيما ما يتعلق منها بصفات الله تعالى. ومع اجتناب علماء السلف عن التأويل بهذا المعنى، لم يجتنب علماء الخلف عن مثل هذه التأويلات. وبالأخص قد سعى أهل الاعتزال للاستفادة عن أسلوب اللغة العربية (ولا سيما عن المجاز) بإستعمال أسلوب التأويل في توضيح الآيات المتشابهة للتوصل إلى النتيجة.⁶

ولتأثير هذه الحركة على أهل السنة، فقد سار الأشاعرة والماتريدية اللذين هما بمثابة سواعد أهل السنة، في موضوع تأويل الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى موازياً مع أهل الاعتزال.⁷ وفي أواسط القرن الثالث عشر أصاب الإسلام ضربة كبيرة جراء الإستيلاء المغولي، وقد سعى عالم العلم والفكر في القرن الرابع عشر للقيام بحملات صحوة ونهوض في هذا المجال، إلا أنه لم يستطع الحصول على نشاطه وحيويته السابقة. لذا أصاب عالم العلم والفكر الإسلامي مرحلة جمود لفترة طويلة، بل مرحلة تأخر. غير أننا أصبحنا نرى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حملات صحوة وحيوية جديدة في مجال العلم والفكر ولا سيما في مصر وتركيا وجنوبي قارة الهند. ويعتبر بديع الزمان من ممثلي ورواد هذه الساحة في تركيا. ومع وجود بعض الفوارق في الفكر والأسلوب في هذه المرحلة، كما هو شأن بقية المراحل بين ممثلي الساحة الفكرية والعلمية، إلا أنهم دافعوا عن الإسلام بأنه دين علم وحضارة، غير أن موازينهم تختلف، فبعضهم يتخذ العقل أساساً في تأويل النقل وتفسيره، وبعضهم يتخذ النقل الصحيح أساساً ويجعل العقل تابعاً لهذا الأساس.

ويعتبر بديع الزمان من المجموعة الأولى الذين يتخذون العقل أساساً في تفسير القرآن، فهو يرى أن العقلي يتخذ أساساً عندما يتعارض مع النقل، ويؤول النقل. وذلك أن القصد هو الأساس. وقد أُلّف كتاباً تحت اسم "الحاكمات" بهذا الموضوع، وهو يأسف على تأخر الأمة لعدم فهمها مقاصد القرآن غاية الأسف قائلاً: "وأأسف.. لقد اتخذنا فتركتنا جوهر الإسلام ولبابه، وحصرنا النظر في قشره وظاهره. وأسأنا الفهم، فأسأنا الأدب معه، وعجزنا عن أن نوفيه حقه حق الإيفاء وما يستحقه من الاحترام، حتى رغب عتاً، ونفر منّا، وتستر بسحائب الأوهام والخيالات"⁸ فكما يترأى أن الاستاذ بديع الزمان يتخذ مقصد الإسلام والقرآن أساساً، ويرى أنه من الخطأ التحرك حسب الظاهر دون التمسك بالجوهر. ومقاصد القرآن الأساسية هي أربعة وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدالة. وما في القرآن الكريم من أبحاث خارجة عن هذه المقاصد

4- يراجع نفس المصدر

5- مذهب اعتقادي، له مبادئ خاصة به (خمسة أسس)، اتخذ العقل أساساً. (بكر طوبال أوغلو/ علم الكلام. ص 169).

6- حسب نظرهم هناك آيات محكمة ومتشابهة في القرآن الكريم، إلا أنه لم يُبين أيهما محكمة وأيها متشابهة، ولا يتم التوصل إلى ذلك إلا بالمعرفة العقلية التي هي القسطاس. وحسب هذه النظرة تعتبر ما تتطابق منها مباشرة بالمفاهيم اللغوية، والإصطلاحات العقلية "الحكم الواضح" وما تعارض معها بحيث لا يمكن قبول معانيها اللغوية مباشرة (بالتشابه المبهم) ولا حل إزالة وهم التعارض بين الحكم والمتشابه، فقد توسلوا بعنصر المجاز (أبو زيد، ناصر حامد/ مشكلة تأويل القرآن عبر التاريخ وفي يومنا الحاضر (ترجمة عمر أوزسوي) مجلة الأبحاث الإسلامية، 29/9)

7- بيد أن المعتزلة والخوارج لم تدم وجودها كمدرسة بعد القرن السادس الهجري إلا أن الزمخشري المتوفى سنة 538 الهجرية يعد من ممثلي هذه المدرسة، وقد دوت آراؤهم وأفكارهم في كتب أهل السنة والجماعة. ومع عدم وجود مذهب الاعتزال في يومنا الحاضر، فقد قبل علماء أهل السنة كثيراً من أفكارهم ولا سيما في موضوع تأويل النقل المتعارض مع العقل والتوافق بينهما.

8- صيقل الإسلام/ الحاكمات، ص 22

الأربعة هو بحث استطرادي.⁹

ونفهم من هذا: ان الاستاذ بديع الزمان يرى هذه المقاصد الأربعة اساساً في تفسير القرآن، ويلزم تفسير الآيات على وجهتها. وأية آية تتعارض مع العقل فينبغي تفسيرها على وجهه هذه المقاصد بشكل يوافق العقل، غير ان بديع الزمان يؤكد تأكيداً جازماً على تفسير هذه الآيات موافقاً لبلاغة اللغة العربية وفنونها وقواعدها، وليس تفسيراً اعتباطياً أهوائياً.¹⁰ فالجهاز، والاستعارة والكناية وأمثالها من الطرق التي يدل بها اللفظ على المعنى تأتي في مقدمة فنون البلاغة المستعملة في التأويل. وقد انقسم علماء الإسلام في موضوع استعمال المجاز كوسيلة في تفسير القرآن الكريم الى ثلاثة اقسام:

القسم الأول: المعتزلة الذين يستعملون المجاز كسلاح في موضوع تأويل المتون الدينية التي لا يتلائم مع منهجهم وأفكارهم. فهؤلاء يقيمون اللغة على أنها نتاج فكري بشري وقيمون على أنه اصطلاح بشري، وعليه يرون ان العقل يأتي قبل النقل في موضوع العلم.

القسم الثاني: الظاهريون الذين يرفضون وجود المجاز في القرآن الكريم، كما يرفضونه في اللغة، فهؤلاء يتخذون المعنى الظاهر للقرآن الكريم اساساً، ويحيلون المتون المبهمه منه الى الله تعالى، ويقولون أنه لا يعلم المراد من تلك المتون الا الله. وهؤلاء يعتقدون ان اللغة توقيفي، علمها الله لآدم عليه السلام ومنه انتقلت الى أولاده، وعليه يقولون ان اساس العلم الوحي.

القسم الثالث: فهؤلاء يتبعون طريقاً وسطاً في استعمال المجاز لتوضيح المتون الدينية نظراً للقسمين السابقين المرطين، فهؤلاء يشكلون أكثرية المسلمين من الأشاعرة والماتريدية، وفكرهم هو التأليف والتوفيق بين العقل والنقل.

يحتل بديع الزمان مكانته في استعمال المجاز كأداة للتأويل في القسم الثالث الذي يمتاز بالإعتدال والتأليف والتوفيق¹¹. ولأجل استعمال المجاز استعمالاً صحيحاً يوصي بديع الزمان بانخاذ ما يعلم هذا الفن من علوم البلاغة والمنطق دليلاً. والمجاز في نظره وسيلة يستعمله العلماء المتبحرون وليس الجهلاء، وفي هذا الصدد يقول: "إذا وقع المجاز من يد العلم الى يد الجهل ينقلب الى حقيقة، ويفتح الباب للخرافات اذ المجازات والتشبيهات اذا ما اقتطفتها يسار الجهل المظلم من بيمين العلم المنور، او استمرتا وطال عمرهما، انقلبنا الى "حقيقة" مستفرغة من الطراوة والنداوة، فتصير سراياً خادعاً بعدما كانت سراياً زلالاً، وتصبح عجوزاً شمطاء بعدما كانت فاتنة حسناء.

نعم! ان شعلة الحقيقة انما تتلمع من المجاز بشفافيته. ولكن بتحوله الى حقيقة يصبح كثيفاً قائماً يحجب الحقيقة الاصلية"¹² فمثلاً، "وما استدلت بعض المفسرين بلفظ "من السماء" في آية {وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} على نزول المطر من حرم السماء حتى تخيل "البعض" وجود بحر تحت السماء، فنظر البلاغة لا يرى عليه سكة الحقيقة. بل المعنى: من جهة السماء. والتقييد لما عرفت. وقد قيل السماء ما علاك، فالسحاب كالهواء سماء"¹³

ومع هذا يقيم الاستاذ بديع الزمان استعمال التغير في اللغة أي المجاز، والتشبيه، والاستعارة

9- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 30

10- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 42

11- صيقل الإسلام/ المحاكمات، المقدمة السادسة

12- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

13- اشارات الإعجاز، ص 138

والكناية وأمثالها من الفنون، بأنها قانون فطري لا يمكن الاستغناء عنها. ويأتي بالكلمات المترادفة والمشاركة دليلاً على التجدد والتغير في اللغة قائلاً: "أن كثيراً من الكلمات أو الحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتذوقونها، لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلف، لأنها غدت عجوزاً لا زينة لها. لذا أصبحت سبباً لدفعهم إلى ميل التجدد والرغبة في الابتعاد، والجرأة على التغيير. هذه القاعدة جارية في اللغات مثلما هي جارية في الخيالات والمعاني والحكايات ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره؛ إذ من شأن المحقق:

سير غور الموضوع.. والتجرد من المؤثرات الزمانية.. والغوص في اعماق الماضي.. ووزن الأمور بموازين المنطق.. ووجدان منبع كل شيء ومصدره"¹⁴

ومع هذا يجلب الاستاذ بديع الزمان النظر إلى وجوب التصرف بدقة وحذر في هذا الموضوع، وإلى خطورة استعمال المجاز كيفما يشاء. فللمعنى الحقيقي حسب رأيه علامة، والقسطاس الذي يشخص تلك العلامة، هو الحسن المجرد النابع من توازن مقاصد الشريعة. ويجب أن يكون استعمال المجاز تحت قواعد البلاغة، ويعتبر تقييم المجاز حقيقة والحقيقة مجازاً خارج قواعد البلاغة، مساندة لاستبداد الجهل.¹⁵

فكما يترأى أن الاستاذ بديع الزمان يسند جواز المجاز على بعض الأسس. وهذه الأسس هي:

1- للمعنى الحقيقي علامة، فالكلمة أو الجملة أو الآية أو أي متن آخر، التي تحمل هذه العلامة لا يمكن تقييمها بأنها مجاز، أي لا يمكن تأويلها.

2- ولأجل فهم وإدراك ما تحمله أي عبارة من طابع الحقيقة وتشخيصها، ينبغي مقايضة مقاصد الشريعة ومن ثم تقييم النتيجة. والحسن المجرد الذي يتم الحصول عليها في النتيجة هو ميزان الحقيقة.
3- لا يمكن حمل أية كلمة أو متن على المجاز اعتباراً كيفما يشاء، بل ينبغي اجراءها ضمن إطار قواعد البلاغة، وإلا يعتبر التصرف اهوائياً، مما يكون هذا الأمر سبباً لسوء التقييم بين المجاز والحقيقة، وبالأخير يؤدي إلى مساندة استبداد الجهل.

ولأجل حمل أي معنى على المجاز يقول الاستاذ بديع الزمان بضرورة اتباع قواعد البلاغة، ويقول في هذا الموضوع: "أن الخاصية المميزة للتنزيل، الإعجاز، والإعجاز يتولد من ذروة البلاغة، والبلاغة مؤسسة على مزايا وخصائص، لاسيما الاستعارة والمجاز. فمن لم ينظر بمنظارهما لا يفوز بمزاياهما.. فكم في التنزيل من "تنزلات الهية إلى عقول البشر" تسيل ينابيع العلوم في أساليب العرب تأنيساً للأذهان. والتي تعبر عن مراعاة الأفهام واحترام الحسيات ومماشاة الأذهان.

ولما كان الأمر هكذا.. فلا بد لاهل التفسير أن يقدرُوا القرآن حق قدره، وألا يخسوا قيمته، وأن لا يأولوه بأمر لم تصدقه البلاغة ولم يكن من ميزته. وذلك قد تحقق بوضوح أجلى من كل حقيقة، أن معاني القرآن الكريم حق، كما أن طريقة افادته وتصويره للمعاني بليغة ورفيعة. فمن لا يعزي الجزئيات إلى ذلك المعدن ولا يلحقها بذلك النبع يكن من المبغضين حقه."¹⁶

والآن نذكر بعض الأمثلة التي قدمها بديع الزمان في المجاز:

فقد أول آية {والجبال أوتادا} (سورة النبا: 7) بأربعة أوجه:

14- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

15- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

16- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 85

أ- في الوجه الأول من التأويل: تُشبه الجبال بأوتاد السفينة، والجمال الفضائي بمحيط كبير، وكرة الأرض بغواصة، والجبال التي توازن كرة الأرض في المجال الفضائي بمثابة الأوتاد الحديدية التي توازن حركة السفينة الجارية.

ب- وفي الوجه الثاني من التأويل: تُشبه الجبال بجهاز التنفس: فالهزات والزعزعات القادمة من داخل الأرض تسكن وتهدأ بواسطتها. وذلك أن الجبال بمثابة مسامات سطح الأرض، فعندما يحدث انفجار أو هزة داخلية تتنفس الأرض بواسطة الجبال فتسكن غضبه وتهدأ حدته. إذن إن استقرار الأرض هو بواسطة الجبال.

ج- وفي الوجه الثالث من التفسير: تعتبر الجبال كعنصر للموازنة في حماية حياة الإنسان. فالأرض تعمر من قبل الإنسان، والإنسان بمثابة عماد هذا الأمر، وحياته تتوقف على حماية منبع الحياة من الماء والتراب والهواء بأكمل وجه وأنظفه. وللجبال دور كبير في حماية نظافة هذه المصادر الثلاثة للحياة، وذلك كما أن الجبال هي مخازن المياه، فلها أيضاً خاصية تجذب رطوبة الهواء، لتنقيه بمثابة الأمشاط المنظفة. وكما أن الجبال تعدل بين الحرارة والبرودة، كذلك هي تنظف الهواء من الغازات المضرة، وتحافظ على التراب من تسلط المستنقعات والطين والبحار.

د- وفي الوجه الرابع من التأويل: تشبه الجبال بأوتاد الخيم. وعليها ان قشرة الأرض قد القيئت وفرشت على الأوتاد في المناطق المكتظة بالسلاسل الجبلية كخيم البدو، اما في المناطق ذات الجبال المنفردة، فهي بمثابة خيمة قد أقيئت على وتد واحد فقط.¹⁷

سؤال: {وينزل من السماء من جبال فيها من برد} (سورة النور: 43) يعتبر نزول المطر حسب ظاهر هذه الآية الكريمة من الجبال المشكلة من برد في السماء. كيف توضح هذه الآية؟
الجواب: لو تمسك أي كلام بالمعنى الظاهري ولم ينفصل عنه، من دون أن يكون موافقاً للبلاغة وملائماً للعقل ومطابقاً للمنطق، يعتبر هذا الأمر جموداً وخفوتاً لذلك الكلام. وذلك فالآية الكريمة {قوارير من فضة} (سورة الإنسان: 15) الواردة في وصف اطباق الجنة بأنها بيضاء كالفضة، ووضاءة كالبلور، تتضمن استعارة لطيفة، كالاتي:

بما ان اطباق الجنة ليست من الزجاج، ولا من الفضة، لذا لا يجوز حملها على ظاهر هذه الجملة، وذلك لا يقال لتلك الأطباق "أطباق زجاجية مصنوعة من الفضة". وذلك لا يوجد موافقة بين العنصرين. غير ان المعنى المجازي المراد من قوارير من فضة هو شفافية القوارير وبياض الفضة، أي أن تلك الأطباق شفافة كالزجاج، وبيضاء كالفضة.

"كذلك {من جبال فيها من برد} متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر الى السامع. وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشاهدة والمماثلة بين تمثل العالم العلوي وتشكل العالم السفلي. وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجو في لبس الصور من يد القدرة كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حلال الثلج والبرد في الشتاء، والمتعممة بها في الربيع. ثم تزينت في الصيف بساتينها المتلونة فأظهرت في نظر الحكمة بانقلاباتها معجزة القدرة الإلهية، قابلها جو السماء محاكياً لها مسابقاً معها لإظهار معجزة العظمة الإلهية فبرز مترقعا ومتمصفاً بالسحاب المتقطع جبالا وأطواداً وأودية، والمتلون بألوان مختلفة مصورة لبساتين الأرض، ملوحاً ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلها. فبناء على هذه الرؤية والمشاهدة والتوهم الخيالي استحسّن اسلوب

العرب تشبيه السحاب لا سيما الصيفي بالجبال والسفن والبساتين والأودية وقافلة الإبل كما تسمع من العرب في خطبهم... فإذا قد عرفت ما سمعت من المناسبات فـ {ينزل من السماء} أي من جهة السماء. "من جبال" أي من سحاب كالجبال. "من برد" أي في لونه ورطوبته وبرودته. فإذا هذا! ما أجرك مع وجود هذا التأويل الذي تقبله البلاغة على اعتقاد نزول المطر بدقيقتين من مسافة خمس مائة سنة المخالف لحكمة الله الذي اتقن كل شيء صنعاً¹⁸.

يقول بديع الزمان: حين تُفسر هذه الآية الكريمة بالمعنى الظاهري القطعي فإنه يعني "حجود حق البلاغة، إذ الاستعارة البديعة في الآية الأولى تتوقد بحيث تذيب الجمود المتجمد، وتشق كالبرق ستار سحب الظاهر."¹⁹

والمثال الثاني الوارد في رسائل النور حول استعمال الحجاز هو "مسألة الثور والحوت" المشهورة. يحلل بديع الزمان هذه الرواية كالتالي:

"لا يخفى ان "مسألة الثور والحوت" المشهورة دخيلة في الاسلام وطفيلية عليه، أسلمت مع راويها، فان شئت راجع "المقدمة الثالثة" لترى من أي باب دخلت.

أما نسبتها الى ابن عباس رضي الله عنهما، فانظر الى مرآة "المقدمة الرابعة" ترى سرّ الحاقها به. وبعد هذا فان كون "الارض على الثور والحوت" يروى فيه حديث:

أولاً: لا نسلم انه حديث، لان عليه علامة الإسرائيليات.

ثانياً: ولو سلمنا انه حديث، فانه آحادي، يفيد الظن لضعف الاتصال. فلا يدخل في العقيدة، إذ اليقين شرط فيها.

ثالثاً: حتى لو كان متواتراً وقطعي المتن، فليس يقطع الدلالة.²⁰

وفي حالة قبول صحة هذه الرواية، يؤول بديع الزمان الحديث بثلاثة أوجه:

"الوجه الأول: فكما ان حَمَلَة العرش المسماة بـ: الثور، النسر، الانسان، وغيرهم ملائكة، كذلك هذا الثور والحوت ملكان اثنان حاملان للارض. والأ فان تحميل العرش العظيم على الملائكة، بينما الارض على ثور عاجز - كالارض - مناف لنظام العالم! ويرد في لسان الشريعة: ان لكل نوع ملكاً موكلاً خاصاً به يلائمه، وقد سمي ذلك الملك باسم ذلك النوع، بناء على هذه العلاقة، وربما يتمثل بصورته في عالم الملائكة. وقد روي حديث بهذا المعنى: ان الشمس تغرب في كل مساء تحت العرش وتسجد عنده ثم تستأذن وتعود.

نعم ان الملك الموكل على الشمس اسمه الشمس ومثاله الشمس، وهو الذي يذهب ويؤوب.

ولدى الفلاسفة الالهيين: ان لكل نوع ماهية مجردة حية ناطقة تمد الافراد. ويعبر عنهم الشرع: ملك الجبال وملك البحار وملك الامطار، الا انه لا تأثير لهم تأثيراً حقيقياً اذ لا مؤثر في الكون الا الله. اما الحكمة في وضع الاسباب الظاهرية فهي في اظهار العزة والعظمة لكي لا يرى النظر المتوجه الى دائرة الاسباب مباشرة يد القدرة لأمر خسيصة ظاهرة من دون حجاب. أما في الملكوتية وفي حقيقة الامر وهي دائرة العقيدة، فان مباشرة يد القدرة بدون حجاب لكل شيء، يلائم العزة؛ اذ كل شيء في هذه الجهة سام وعال... ذلك تقدير العزيز العليم.

18- اشارات الإعجاز/ ص 139-140

19- صيقل الإسلام/ محاكمات عقلية/ ص 90

20- صيقل الإسلام/ محاكمات عقلية/ ص 73

الوجه الثاني:

ان الثور هو المثير للحرث وأهم واسطة لزراعة الارض وعمارتهما. أما الحوت (السمك) فهو مصدر عيش اهل السواحل، بل كثير من الناس. فإذا سأل أحد: بِمَ تقوم الدولة؟ فالجواب: على السيف والقلم. او اذا سأل: بِمَ تقوم المدينة؟ فالجواب: على المعرفة والصناعة والتجارة. او اذا سأل: بِمَ تدوم البشرية وتبقى؟ فالجواب: بالعلم والعمل.

كذلك احاب سيد الكونين وفخر العالمين ρ - والله أعلم - بناء على ما سبق ذلك السائل الذي لم يستعد ذهنه لدرك الحقائق - بدلالة المقدمة الثانية - وسأل عن شئ خارج نطاق وظيفته: الارض على أي شئ؟ فاجابه رسولنا الكريم ρ بما يلزمه أصلاً: الارض على الثور. اي ان عمارة الارض لنوع البشر ومنع الحياة لأهل القرى منهم، على الزراعة، والزراعة محمولة على كاهل الثور. وان معظم معيشة القسم الآخر من البشر، ومعظم مصادر تجارة أهل المدينة، في جوف السمك وعلى الحوت. حتى يصدق عليهم المثل السائر: كل الصيد في جوف الفرا! فهذا جواب لطيف حق حتى لو كان مزاحاً فإنه ρ لا يقول إلا حقاً. ولو سلم ان السائل سأل عن كيفية الخلق. فقد [تلقى السامع بغير المترقب] كما هو القاعدة في علم البيان، اذ تلقى الاجابة عن الضروري والمطلوب بأسلوب حكيم.

الوجه الثالث:

ان الثور والحوت برجان مقدّران في مدار الارض السنوي. فتلك البروج وان كانت افتراضية موهومة، إلا ان السنن الالهية الجارية في العالم والتي تنظم وترتبط الاجرام السماوية والمسماة لفظاً واصطلاحاً بالجدبية العامة، قد تركزت في تلك البروج، لذا فالتعبير الفلكي: "الارض على البروج" جائز.

هذا الوجه هو في نظر علم الفلك الحديث، لأن القديم قد افترض البروج في السماء، بينما الحديث افترضها في مدار الارض، لذا يجوز هذا التأويل أهمية في نظر الفلك الحديث.²¹ ورأي الأستاذ النورسي حول التشابهات القرآنية حسب افادته كالاتي:
"أما الجواب عن الريب الأول وهو وجود التشابهات والمشكلات:

فاعلم! ان ارشاد القرآن الكريم لكافة الناس، والجمهور الأكثر منهم عوام، والأقل تابع للأكثر في نظر الارشاد. والخطاب المتوجه نحو العوام يستفيد منه الخواص ويأخذون حصتهم منه.. ولو عكس لبقى العوام محرومين، مع ان جمهور العوام لا يجردون اذهانهم عن المألوفات والمتخيلات، فلا يقتدرون على درك الحقائق المجردة والمعقولات الصرفة إلا بمنظار متخيلاهم وتصويرها بصورة مألوفاتهم. لكن بشرط ان لا يقف نظرهم على نفس الصورة حتى يلزم الخيال والجسمية او الجهة بل بحر نظرهم الى الحقائق.

مثلاً: إن التصرف الالهي في الكائنات يتصور بصورة تصرف السلطان الذي استوى على سرير سلطنته. ولهذا اختير الكناية في {الرحمن العرش استوى} (سورة طه:5) واذا كانت حسيات الجمهور في هذا المركز فالذي يقتضيه منهج البلاغة ويستلزمه طريق الارشاد رعاية افهامهم واحترام حسياتهم، ومماشاة عقولهم ومراعاة أفكارهم. كمن يتكلم مع صبي فهو يتصوى في كلامه ليفهمه

ويستأنس به. فالأساليب القرآنية في أمثال هذه المنازل تسمى بـ "التنزيلات الإلهية الى عقول البشر"، فهذا التنزل لتأنيس اذهانهم. فلهذا وضع صور التشابهات منظراً على نظر العلماء. ألا ترى كيف أكثر البلغاء من الاستعارات لتصور المعاني الدقيقة، أو لتصوير المعاني المتفرقة! فما هذه التشابهات الا من أقسام الاستعارات الغامضة، اذ انما صور للحقائق الغامضة²²

الكنائية

ومن الفنون التي يستعملها بديع الزمان في التأويل الكناية

يقول في هذا الموضوع:

"ومن الأصول المقررة أيضاً:

ان الصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب في الكنايات وأمثالها لا يرجعان الى صورة المعنى، أي الى "المعاني الاولى" كما يعبر عنها في البيان، بل يتوجهان الى المقصد والغرض، أي الى "المعاني الثانوية". فكما اذا قيل: "طويل النجاد" فالحكم صحيح والكلام صدق ان كان الشخص طويل القامة وان لم يكن له سيف. وكما تكون الكلمة الواحدة في كلام، قرينة المجاز للاستعارة، فان طائفة من الآيات الكريمة، كأنها كلمة واحدة لكلام الله، تكون قرائن لحقائق وجواهر سائر أحوالها، وترجمان وأدلاء على ما في ضمائر جاراتها من أسرار.

حاصل الكلام: من لم يضع هذه الحقيقة نصب العين، وعجز عن موازنة الآيات، ولم يتمكن من الحكم بينها حكماً عدلاً، يكون كالبكتاشي الذي قال لتسويغ تركه الصلاة؛ ان القرآن يقول: {لا تقربوا الصلاة}.. أما ما بعده فلست حافظاً للآية! ألا يكون هذا موضع هزة في نظر الحقيقة؟!²³

ويوصي بديع الزمان بالإبتعاد عن الإفراط والتفريط في موضوع التأويل، كسائر الموضوعات، انسجاماً مع الروح الإسلامية. فهو يرى "ان ميل التفريط من شأنه حمل كل شيء على الظاهر.. حتى لينتهي الامر تدريجياً الى نشوء مذهب الظاهرية مع الاسف. وان حب الافراط من شأنه النظر الى كل شيء بنظر المجاز، حتى لينتهي الامر تدريجياً الى نشوء مذهب الباطنية الباطل. فكما ان الاول مضر فالثاني أكثر ضرراً منه بدرجات"²⁴

كما حذر الاستاذ عن هذا الطريق المهلك، فقد قدّم الميزان للوصول الى الصراط المستقيم، وحسب نظره ان هذا الميزان هو "فلسفة الشريعة مع البلاغة، والحكمة مع المنطق".

نعم! أقول: الحكمة (الفلسفة) لها خير كثير مع تضمنها الشر، الا انه شرٌ جزئي. ومن الاصول المسلمة انه يلزم اختيار أهون الشرين.

نعم! ان الحكمة القديمة (الفلسفة القديمة) خيرها قليل، حرافتها كثيرة، حتى نهي السلف - الى حد ما - عنها، حيث الاذهان كانت غير مستعدة، والافكار مقيدة بالتقليد، والجهل مستول على العلوم. بينما الفلسفة الحاضرة فخيرها كثير - من جهة المادة - بالنسبة للقديمة، وكذبها وباطلها قليل. والافكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة مسيطرة على الجميع. وفي الحقيقة، لا بد ان يكون لكل زمان حكمة"²⁵

وخلاصة القول نستطيع أن نقول: ان مؤلف رسائل النور الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

22- اشارات الإعجاز / ، ص 175

23- صيقل الإسلام/ المحاكمات ، ص 31

24- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 41

25- صيقل الإسلام/ المحاكمات/ ص 41

يرى أن التعليم الموجه للظاهر في المدارس الدينية المنتشرة في العالم الإسلامي، ادت الى تأخرها، وخروجها عن مسراها الطبيعي.

لذا فقد اتبع طريقاً وسطياً في تأويل المتون الدينية كآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، مبتعداً عن الإفراط والتفريط، ومتبعاً حلاً وسطاً ملائماً. وعندما يتعارض النقل مع العقل، فهو يتخذ العقل اساساً وعليه يؤول النقل، مستعملاً في هذا المجال قواعد البلاغة، والمنطق، وأمثالها من الفنون كالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، ولم يقبل التأويل غير الموافق للكتاب والسنة، وقواعد البلاغة والمنطق.

ولهذا السبب فكما هو يُعارض الباطنية المفرطة المعارضة للموازين السابقة، كذلك يعارض الظاهرية التي تقيم كل شئ حسب الظاهر، وتبقى في حالة مستهزئ أمام العقل.

ترجمة : جميل شانلي

التفسير في رسائل النور

حسن عبد الرحمن بكير^P

كلمة في منهج التعامل مع القرآن الكريم

تعددت البحوث والدراسات حول القرآن الكريم حتى كادت أن تفوق الحصر، وليس في هذا ما يدعو للاستغراب. لأنه مظهر من مظاهر العناية الإلهية بالكتاب العزيز، وبرهان على عطاء هذه المعجزة الكبرى المتجدد لمن نظر فيها وتدبرها.

ولعل التفسير هو أحد أوسع المجالات التي ارتادها العلماء والدارسون، فاختلقت مناهجهم باختلاف ما استعانوا به من مصادر وما تبعوه من طرق.

هذا الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ما دامت الأسس والقواعد المتفق عليها بين علماء التفسير قد روعيت، فإن في "فهم القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل، والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير، ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط والغرائب التي لا تفهم إلا باستماع فنون كثيرة."¹

أقول: إنه بالإضافة إلى ضرورة مراعاة أسس التفسير وقواعده ينبغي للناظر في القرآن الكريم أن يلتزم بالخطوات التي تنقله إلى رحاب آياته الكريمة، ولعل أولها: أن يبعد عن ذهنه صورة الشيطان ووساوسه ويهيب نفسه للتوجه إلى الله تعالى وترك الانشغال بغير القرآن الكريم، قال تعالى {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم}²

ثانيها: ما يفهم من أمر القرآن الكريم بالترتيل عند قراءته، ذلك أن الترتيل هو التمهّل والتأني³ وتبين الحروف والحركات. "وهذا التمهّل والتأني في القراءة ليس إلا للحياة في النص القرآني وتدبر معانيه والجولان معه في مختلف مناحيه، قال الله تعالى {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكروا أولوا الأبواب}⁴، {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}⁵." ⁶

^P باحث دكتوراه وقد نال الماجستير في فكر النورسي من جامعة الدعوة الإسلامية بطرابلس - ليبيا

1 - الزركشي: البرهان في علوم القرآن 2 / 155

2 - النحل: 98

3- المصباح المنير - مادة: (رتل)

4- ص: 29

لقد كان دأب الرسول ρ ودأب أصحابه الكرام أن يقرأوا القرآن فيتدبروا معانيه وينتقلوا بكل أحاسيسهم إلى رحابه الواسعة، فعن جسر بنت دجاجة قالت: سمعت أباذر يقول: " قام النبي ρ بآية حتى أصبح يردددها، والآية { **إن تعذبهم فأهمهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** }⁷ كما روي عن حذيفة " أن النبي ρ صلى، فكان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب استجار، وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه ⁸ وقد كان من حميد الصفات التي أثنى بها الله تعالى على الذين آمنوا بالقرآن الكريم حق الإيمان وتدبروه أتم التدبر البكاء والخشوع فقال فيهم تعالى : { **إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا** }⁹.

ومما لا شك فيه أن البكاء والخشوع ينبثقان أن قارئ الآيات الكريمة قد ولج إلى رحابها الواسعة، آمن بما قلبه، فاتبع تعاليمها، وترجمها إلى سلوك عملي، ولعله لهذه الحكمة كره أن يقرأ القارئ القرآن الكريم في أقل من ثلاثة أيام، لأن من شأن هذه القراءة ألا تفيده تدبرا ولا تكسب فهما: " فمنهج القرآن تلاوة وفهما وتفسيرا يمس القلب مسا مؤثرا ويخالط الفؤاد مخالطة، ويدفع إلى العمل بما جاء به، ويشير العقل في يسر وفي سماح وفي بساطة تتفق وفطرة الناس مهما تنوعت مراتب ثقافتهم وتغايرت مداركهم، ذلك كله بلغة تخاطب عقول الناس جميعا وقلوبهم¹⁰.

إن القرآن الكريم هو معين العلوم الذي لا ينضب، وزادها الذي لا ينفد، فمن أراد علم الأولين والآخرين، فليس له إلا أن يثور القرآن — كما روي عن ابن مسعود — أي: لينقر عنه ويبحث فيه، ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته¹¹.

رسائل النور ومصادرها:

إن الأعمال العلمية الجليلية تعكس غالبا شخصية أصحابها، كما تعكس صورة العصر كله، ولعل هذا ما ينطبق على رسائل النور تماما، ومؤلفها بديع الزمان سعيد النورسي لا سيما إذا علمنا أنه ألفها على مدى أكثر من عشرين سنة واجه خلالها أحداثا جساما وظروفا قاسية، وحالات نفسية متباينة، كان لها أثر كبير في صبغ هذه المؤلفات بصبغة خاصة.

والدراسة النقدية للمؤلفات بديع الزمان هي في حقيقة الأمر دراسة لفكره ودعوته وسير حياته أيضا، لأن رسائل النور — كما اختار تسميتها — استوعبت أهم الموضوعات العقدية والفكرية والتربوية التي شغلته، كما تضمنت بيانا عن جوانب من شخصيته وتفصيل حياته وبيئته.

ودراسة الرسائل لا تنفصل عن معرفة ظروف مؤلفها، بل إن غياب هذه المعرفة يشوه وجه الحقيقة ويجعل حكمتها على ما نحن بصدد دراسته غير قائم على أساس موضوعي سليم.

ولعل الاهتمام الكبير الذي نالته الرسائل مرجعه — في الأساس — إلى صعوبة الظروف التي ظهرت فيها، وهذا ما يوضحه النورسي نفسه بقوله: " إن سبب الاهتمام الذي نالته رسائل النور نابع من

5- محمد : 24

6- مصطفى الجويني : مناهج في التفسير : 11

7- المائدة : 118

8- سنن ابن ماجه 1 / 429

9- الإسراء / 107

10- مصطفى الجويني : مناهج في التفسير : 20

11- انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن 2 / 154

أهمية الزمان نفسه... ومن شدة الهدم الذي أحدثه هذا العصر في الشريعة المحمدية والشعائر الأحمدية ومن فتنة آخر الزمان الحالية التي استعادت منها الأمة الإسلامية منذ القدم... ومن زاوية إنقاذ إيمان المؤمنين من صولة تلك الفتنة¹²”

لقد اعتمد النورسي — أثناء تأليفه الرسائل — على القرآن الكريم اعتماداً شبه كامل ، فلم يكن لديه ما يرجع إليه من المصادر والمراجع سوى القرآن الكريم.

ولئن كان قد جمع بين قوة الذكاء وسعة الحافظة، فإننا لا نلاحظ إلا إشارات لامحة إلى بعض المصادر الرئيسية في العلوم الإسلامية التي ظلت مسألتها عالقة بذهنه، هذا باستثناء الحديث النبوي الذي تفوق فيه بديع الزمان، فإن له حضوراً ملحوظاً بعد القرآن الكريم.

لكن هذا لا يعني أنه لم يفد من كتب السابقين¹³ ، وحفظ قسماً منها حتى أثرت معرفته وصقلتها، ولا سيما بعد أن أضاف إليها ما استجد من علوم العصر، وهذا ما هياً له القدرة على النظر في القرآن الكريم واستخلاص حقائقه وحكمه المعجزة.

وهذه العلوم — على عمقها وتنوعها — لم تكن وحدها كافية لإظهار الحقائق والحكم. فالرسائل اكتسبت قوة تأثيرها من قوة مصدرها وهو القرآن المعجز¹⁴. ويؤكد النورسي قداسة المصدر في الرسائل ، ورجوعها إليه وحده بقوله: “ إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماً من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا استاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن... ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر حين تأليفها، فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة¹⁵”

طابع التفسير في رسائل النور :

الحديث عن التفسير في مؤلفات النورسي طويل ومتشعب، وذلك لسببين رئيسين : — أولهما: أن علم التفسير نفسه علم واسع، نما وتطور كغيره من العلوم، فأصبح يتضمن ألواناً شتى من التفاسير.

— ثانيهما: أن النورسي لم يؤلف تفسيراً كاملاً مترابطاً يسير وفق منهج محدد، لأنه يعتقد أن إنجاز هذا العمل — على الوجه الذي يستجيب لمتطلبات العصر — مهمة يعجز عنها المفسر الواحد: “ أقول : لما كان القرآن جامعاً لأشتات العلوم، وخطبة لعامة الطبقات في كل الأعصار، لا يتحصل له تفسير لائق من فهم الفرد الذي قلما يخلص من التعصب لمسلكه ومشربه، إذ فهمه يخصه، ليس له دعوة الغير إليه إلا أن يعديه -يجيزه- قبول الجمهور¹⁶”

إن نظرة النورسي إلى التفسير نظرة شمولية تلائم خصائص القرآن الكريم الذي طرح قضايا شاملة، وخاطب الناس كافة في كل عصر من العصور، لذا فهو يرى أن الطريق الأمثل لإخراج تفسير جامع للقرآن الكريم يستجيب لحاجات العصر، هو في اجتماع لجنة من كبار العلماء المتخصصين، كل في مجال تخصصه، ويقوم كل عالم بدراسات مستفيضة في جانب من جوانب القرآن الكريم، فيحصل من

12- النورسي : الملاحق في فقه دعوة النور — ترجمة إحسان قاسم الصالحي / 223

13- تيسر للنورسي دراسة أمهات المصادر في العلوم الإسلامية واللغوية ، ومنها : كتب الشافعي، وحمد ابن حنبل ، والغزالي ، والجرحاني ، والسكاكي ، والتفازاني ، والسيوطي ، وغيرها...

14- النورسي : الكلمات / 173

15- النورسي : الملاحق / 221

16- النورسي : إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز / 20

مجموع تلك الدراسات تفسير جامع للقرآن الكريم، مستجيب لمستجدات العصر: "... كذلك لا بد لكشف معاني القرآن وجمع المحاسن المتفرقة في التفاسير، وتثبيت حقائقه المتجلية بكشف الفن — العلم الحديث — وتمخيض الزمان، من انتهاض هيئة عالية من العلماء المتخصصين، المختلفين في وجوه الاختصاص، ولهم مع دقة نظر وسعة فكر لتفسيره.¹⁷ كما أضاف إلى هذا شرطا مهما، هو ضرورة توافر الحرية الفكرية للمفسر، إذ بدونها يختل جانب مهم في الدراسة العلمية الموضوعية المرجوة.¹⁸ ولتعذر تحقيق هذا الأمر، فقد شرع النورسي في تفسير القرآن الكريم — أثناء الحرب العالمية — مبتدئا ببيان إعجاز القرآن البلاغي،¹⁹ إلا أن ظروف الحرب والأسر لم تيسر له إتمام كتابه: "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، كما أن اشتداد موجة العدا للدين ومحاولة تحطيم أسسه، جعلت بديع الزمان يغير منهجه في الدعوة إلى الإسلام، فمن خلال رسائل النور أصبح يدافع عن العقيدة ويرسخ أركانها. وقد لجأ كثيرا إلى تفسير آيات قرآنية في رسائله حتى عدها كلها تفسيرا لمعاني القرآن: "إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة من لمعات إعجازه المعنوي"²⁰ لكن هذا التفسير لم يسر على نمط واحد، ولم يتبع منهجا محددًا، فالقارئ له يكتشف في بداية قراءته أو نهايتها أن النورسي اتجه إلى الآيات القرآنية اتجاهها روحيا، وتعامل معها تعاملًا ذوقيا، وهو ما يجعل القارئ يصنف هذا التفسير ضمن التفسير الإشاري²¹، الخاضع للقواعد والشروط التي وضعها العلماء لقبولها، بل إن النورسي نفسه يصرح بذلك حين يقول: "فنحن لا نقول في تلك الرسالة: إن المعنى الصريح للآية الكريمة هو هذا، ليقول العلماء: فيه نظر، ولم نقل فيها: إن كلية المعنى الإشاري هي هذه، بل نقول: إن تحت المعنى الصريح للآية الكريمة طبقات متعددة من المعاني، إحدى هذه الطبقات هي المعنى الإشاري أو الرمزي، فهذا المعنى الإشاري أيضا هو كلي، له جزئيات في كل عصر، فرسائل النور فرد في هذا العصر من أفراد كلية طبقة المعنى الإشاري ذلك."²² ..

17- المصدر السابق.

18- انظر: النورسي: إشارات الإعجاز (الطبعة التركيبية) / 7 — 8

19- انظر: المصدر السابق . / 21

20- انظر: النورسي: الملاحق / 220

21- التفسير الإشاري أو الفيضي: هو تأويل القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة. والتفسير الإشاري وإن كان يعد ضمن التفسير الصوفي، فإنه يختلف عن التفسير الصوفي النظري، ووجه الخلاف في أساسين:

أ / التفسير الصوفي النظري يركز على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك. أما الإشاري فلا يركز على مقدمات علمية بل يركز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له دلالات خفية وإشارات من تلك العبارات.

ب / التفسير الصوفي النظري يرى صاحبه أن المراد بالآية هو ما حملها عليه من المعاني فقط، أما الإشاري فلا يرى صاحبه أن المراد من الآية هو ما حملها عليه، وإنما هناك معنى آخر يراد منها أولا وهو المعنى الظاهر.

والتفسير الإشاري ليس بالأمر الجديد في إبراز معاني القرآن الكريم، فأصوله الأولى تعود إلى القرآن الذي دعا إلى تدبر آياته { أفلا يتدبرون }، والسنة التي جاء فيها: { لكل آية ظهير وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع }، كما روي عن الصحابة ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشاري، فعند نزول قوله تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } فرح الصحابة، لأنهم فهموا ظاهر الآية، أما عمر، رضي الله عنه — فقد بكى لأنه أدرك معنى إشاريا، وهو نعي الرسول ﷺ، فقال: " ما بعد الكمال إلا النقص " وقد أقره الرسول ﷺ على فهمه.

لكن بعض المفسرين الذين فهموا هذا النهج في التفسير غالوا فيه حتى إنهم أتوا بشطحات هي أقرب ما تكون إلى أقوال الباطنية المخالفة للشرع، لذلك اشترط لقبوله أن يكون مرتبطا بمدلول اللفظ العربي، وأن يكون له شاهد شرعي صحيح في محل آخر يشهد لصحته. (انظر: محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون — 2 / 381 — 388.

22- النورسي: الملاحق / 179 — 180

إن إشارية النورسي في تفسيره لم تنحرف به عن القواعد والضوابط التي اصطلح عليها العلماء كي يكون التفسير مقبولاً، بل إننا نجد النورسي يؤكد في أكثر من موضع أن شرط مقبولية أي وجه أو معنى يذهب إليه المفسر، يكمن في مراعاة قواعد اللغة ومقاصد الشرع، فما دامت هذه الوجوه والمعاني محكومة بأصول التفسير، فهي — إذن — مقبولة: " .. ان جميع الوجوه والمعاني التي هي صحيحة حسب علوم العربية، وصائبه وفق أصول الدين، ومقبولة في فن المعاني ، ولاتقفة في علم البيان، ومستحسنة في علم البلاغة، هي من معاني القرآن الكريم بإجماع المجتهدين والمفسرين وعلماء أصول الدين وأصول الفقه. ²³...

ولئن كان النورسي قد سلك في تفسيراته مسلكاً إشارياً، فإنه لم يغفل التفسير بالمأثور، بل إنه أكد عليه وأبعد عنه كل شبهة، لأنه نصوص قاطعة وأسس وأركان لا بد من الإيمان بها ²⁴ ... وفي أكثر من موضع يقدم نماذج قيمة تجمع بين التفسير الظاهر والإشاري للآية، مثال ذلك ما تقدمه في حديثه عن أقوال العلماء في قوله تعالى: **{ رب العالمين }** ، والتي مفادها وجود ثمانية عشر ألف عالم، فقبل الشروع في تحديد المعنى من قوله تعالى يمهد ببعض الأصول المتبعة في التفسير، ويذكر بأن جمل القرآن الكريم لا تنحصر في معنى واحد بل تتضمن معاني متعددة: " لأن القرآن يتوجه لكل طبقة من طبقات البشرية، فالمعاني المبينة هي في حكم جزئيات لتلك القاعدة الكلية، وكل مفسر يذكر جزءاً من ذلك المعنى الكلي، وهو في تفسيره يستند إما إلى كشافياته، أو إلى دليله، أو إلى مشربه، فيرجح معنى دون غيره من المعاني. ²⁵...

وبعد التمهيد بهذه القاعدة، يقدم النورسي مثالا تطبيقياً لها على قوله تعالى: **{ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان }** ²⁶ ، فيبين المعاني الجزئية للآية ابتداءً من بحر الربوبية في دائرة الوجود، وبحر العبودية في دائرة الإمكان، وانتهاءً إلى بحري الدنيا والآخرة، وإلى بحري عالم الشهادة وعالم الغيب، وإلى البحار المحيطة في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب وإلى غيرها من أنواع البحار الموجودة ²⁷ ومن هذا المثال يخلص إلى القاعدة التي تحدث عنها، فيؤكد أن جميع هذه الجزئيات هي من معاني الآية، وتصح أن تكون كلها مرادة ومقصودة فهي معان حقيقية للآية ، ومعان مجازية. ²⁸

وبعد التوضيح والبيان للقاعدة والمثال ينتقل إلى تقديم ما فهمه من قوله تعالى: **{ رب العالمين }** : " وأنا أفهم من الآية الكريمة الآتي: إن في السموات ألوفا من العوالم، ويمكن ان يكون كل نجم عالماً بذاته، وفي الأرض أيضاً، كل جنس من المخلوقات عالم بذاته، حتى إن كل إنسان عالم بذاته، فكلمة **{ رب العالمين }** تعني: أن كل عالم يدار وتدبر شؤونه برؤيته سبحانه وتعالى مباشرة. ²⁹"

23- النورسي : الكلمات / 456

24- النورسي : المكتوبات / 501

25- المصدر السابق / 422

26- الرحمن / 19 — 20

27- النورسي : المكتوبات / 423

28- المصدر السابق

29- المصدر السابق

إن النورسي يصرح في كثير من المواضع بسلوكه مسلكا فيضيا في تفسير آيات القرآن الكريم³⁰ ، وهو لا يكتفي بهذا التصريح، بل إنه لا يربط رسائل النور بشخصه وقدراته الفكرية الفاصرة — كما يرى — ، وإنما يربطها بحججها القوية التي قامت عليها³¹...

وأقول: مع كل هذه التصريحات التي يؤكد فيها النورسي على الطابع الفيضي في رسائله، فإنه لم ينجح إلى الغلو في تفسيراته، مثلما فعل بعض الذين سلكوا هذا المنهج في التفسير، فعقل النورسي حاضر في الرسائل من خلال التحليلات الدقيقة والمناقشات المستفيضة لما هو معروض فيها، أضف إلى ذلك أن الآيات القرآنية ذاتها التي تناولها ببيان معانيها الخفية وإشاراتها البليغة، كان أغلبها ذا علاقة وثيقة بواقع الأمة الإسلامية وما تتعرض له من هجوم يستهدف تحطيم عقيدتها، وتفكيك نظمها التشريعية والأخلاقية³².

إن هذه الواقعية في طرح القضايا من خلال رسائل النور هي التي جعلته يتصدى للماديين، يناقشهم ويطلب حججهم، وهي التي دفعته إلى مجادلة أهل الكتاب ليبيان انحرافهم وضلالهم، وحملته على تصحيح التصور العقيدي لدى المسلمين... كل ذلك من أجل تجديد أمر الدين ومحاربة الكفر.

إن تحديد طابع التفسير في رسائل النور أمر قد تكتنفه بعض الصعوبات، وهي صعوبات ناشئة من موسوعية الرسائل، ومن شمولية التفسير فيها، إذ لم يقتصر النورسي على تفسير الآيات القرآنية، فالقرآن — كما يرى بديع الزمان — لا ينحصر في القرآن المتلو وحده، وإنما يتسع ليشمل القرآن المنظور الذي هو الكون كله بسماواته وأراضيه، بنجومه وكواكبه، ويشمل القرآن الناطق المطبق الذي هو رسول الله. p

فهذه الشمولية في نظرة النورسي هي التي تجعل الحكم على تفسيره يحتاج إلى التريث، لكن هذا لا يمنعني من القول: إن التفسير في رسائل النور لم يقتصر على الإشاري المقبول، وإنما ضم إلى جانب ذلك أكثر من طابع من التفسير بحسب الموضوع الذي يتناوله.

من هنا، أستطيع القول: إن تفسيرات النورسي هي من قبيل التفسير الإشاري الموضوعي، أي: الذي يتناول موضوعات معينة فقط، وليس كل الموضوعات التي يمكن أن يعرضها القرآن الكريم، لأن النورسي كان يرمي من وراء تفسيره إلى خدمة قضايا الإسلام والدفاع عنها، إذن فلا غرابة أن نلاحظ التركيز الشديد على قضية الإيمان بالله ورسوله ويوم الحشر... ولعل تفسير "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" يقدم نموذجا واضحا لمنهج النورسي المتميز في التفسير.

قراءة في كتاب "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز":

يرى النورسي أن النظم القرآني هو الوجه الأول والأظهر من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ولإظهاره وبيانه ألف كتابه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز".

وهذا التفسير لا يكاد يفهم ما فيه من المباحث العقلية والمناقشات الفلسفية والمنطقية، والدلائل الأصولية، والإشارات، والنكت البلاغية إلا خاصة بالخاصة، ويبدو أنه لم يكتب إلا لهم وحدهم دون

30- انظر: النورسي: المتنوي العربي النوري / 35

31- انظر: النورسي: الملاحق / 307 — 308

32- انظر مثلا: (رسالة الاقتصاد)، و (رسالة الطبيعة)، و (رسالة الحجاب) وكلها في اللغات / 211 — 265 — 299

العامّة. كما يؤكدها بقوله: “ إن هذا التفسير القيم بين دفتيه نكت بلاغية دقيقة، قد لا يفهمها كثير من القراء ولا يعبرون لها اهتمامهم.”³³

ويكشف النورسي عن هدفه من هذا المصنف بقوله: “ إن مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظم القرآن، لأن الإعجاز يتجلى من نظمه، وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم.”³⁴ وفي سبيل بيان بلاغة القرآن يوضح النورسي التناسب بين الآيات وعلاقة لاحقها بسابقها، وعلاقة كل جملة بأختها، وعلاقة كلمات الجملة الواحدة فيما بينها، وموقع كل كلمة قرآنية، والسر في التعبيرها دون غيرها من الكلمات القرية منها، وهو بذلك يريد أن يؤكد أن “ أدق وجوه إعجاز القرآن الكريم ما في بلاغة نظمه.”³⁵

وهذا ما جعل أحد الباحثين³⁶ يقول: “ وكأني بالأستاذ النورسي درس نظرية النظم³⁷ هذه دراسة متقنة، ثم ظهر له ان المفسرين الذين سبقوه كالزخشري والرازي وأبي السعود لم يحاولوا تطبيقها من حيث هي منظومة متكاملة تشمل ترتيب السور والآيات والألفاظ سورة بعد سورة، وآية بعد آية ولفظاً بعد لفظ بتفاصيلها الكاملة، فأراد أن يقتدي هؤلاء المفسرين العظام فيؤلف تفسيراً يطبق فيه نظرية النظم تطبيقاً تفصيلياً شاملاً من حيث المباني والمعاني، ومن حيث المعارف اللغوية والعقلية والذوقية الكلية منها والجزئية.”³⁸

إن تأثر النورسي بكبار البلاغيين واضح من خلال كتاباته، فهو ينقل عن كتابي عبد القاهر الجرجاني “ دلائل الإعجاز ” و “ أسرار البلاغة ” في المباحث البلاغية، وهو معجب بنظرية في النظم أيما إعجاب³⁹، بل إنه يتبنى آراءه البلاغية ويرجحها على غيرها من الآراء.⁴⁰ ويرى بدیع الزمان أن البلاغة المعجزة للقرآن نبعت من جزالة لفظه ومثانة نظمه ومن بدیع أساليبه وجودتها، ومن براعة بيانه وتفوقه، ومن قوة معانيه وصدقها، ومن فصاحة ألفاظه وسلاستها، وكتاب “ إشارا الإعجاز ” من أوله إلى آخره هو بيان لهذه الجزالة في اللفظ والمثانة في النظم القرآني.⁴¹ وأقدم فيما يلي مثالين من تفسيراته التي تؤكد تمكن النورسي من بيان أسرار النظم ونجاحه في إبراز إعجاز الكلمة الواحدة في القرآن الكريم ضمن سياقها.

المثال الأول: في قوله تعالى: { ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك }

35- النورسي: (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) تحقيق إحسان قاسم / 18

36- المصدر السابق / 23

37- المصدر السابق / 226

38- محسن عبد الحميد في تقديمه لكتاب إشارات الإعجاز . وهو أستاذ للتفسير والفكر الإسلامي في جامعة بغداد. له مقالات وبحوث حول النورسي.

39- ((نظرية النظم)) النظم هو تعليق الكلمة بعضها على بعض وجعل بعضها بسبب من بعض، أي أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها. (انظر: عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز / 42

— 46 — 61 — 64 — 199 — 202

40- النورسي: إشارات الإعجاز / 7

41- انظر النورسي: إشارات الإعجاز / 113 — 118

42- انظر المصدر السابق / 188

43- انظر النورسي: الكلمات/424

44- الانبياء: 46

يقول النورسي : هذه الجملة — يعني قوله تعالى — مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فإن جميع أساليب التعبير التي تفيد التقليل تبدو جلية من خلال الآية، وهو بذلك يشير الى المبالغات الثلاث التي وردت فيها ، وهي :

(1) — ذكر المس وهو أقل شيء، بل هو شيء رقيق جدا، فمابالك إذا انثال عليهم ؟ أي يكفي للدلالة على ذلهم وهوان أمرهم ووهن عزيمتهم أن أقل مس يكفيهم ليدعونا ويعلنوا ذلهم وخضوعهم والإقرار على انفسهم بأن تصاموا وأعرضوا .

(2) — وما في النفحة من مدلول القلة والنزارة، إذ النفح هو الريح اليسير، يقال : نفح له من العطاء نفحة، إذا أعطاه نصيبا .

(3) — بناء النفح، فمصدر المرة يأتي على فعلة، أي نفحة واحدة لا ثاني لها تكفي لتشتيت أمرهم وتوهين كيانهم وتصدع صفوفهم، فكيف إذا عززت بثانية أو ثالثة؟⁴³ ثم يضيف النورسي موضحا أن :

— لفظ "من" هو للتبويض، بمعنى جزء، فيفيد القلة.

— ولفظ "عذاب" هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة الى النكال والعقاب، فيشير الى القلة.

— ولفظ "ريك" ، بدلا من القهار، الجبار، والمنتقم، يوحي بالشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الآية أنه: إذا كان العذاب خفيفا — نفحة — ، ومع ذلك لا يطيقه البشر، فيسارع الى الولوج والاعتراف بالظلم ، فما موقف العصاة إذا نالهم الله بأشد العقاب؟⁴⁴

المثال الثاني: في قوله تعالى: **{وَمَا رزقناهم ينفقون}** ⁴⁵.

وجه النظم: كما ان الصلاة عماد الدين وبها قوامه، كذلك الزكاة قنطرة الإسلام، وبها التعاون بين أهله .

ثم إن من شروط أن تقع الصدقة موقعها اللائق :

— أن لا يسرف المتصدق فيقعد ملوما...

— وأن لا يأخذ من هذا ويعطي لذاك ، بل من مال نفسه .

— وأن لا يخاف الفقر .

— وأن لا يقتصر على المال، بل بالعلم والفكر والفعل أيضا...

— وأن لا يصرف الآخذ في السفاهة، بل في النفقة والحاجة الضرورية .

فإحساس هذه النكت، وإحساس هذه الشروط تصدق القرآن على الأفهام بإيثار **{وَمَا رزقناهم ينفقون}** على "يتصدقون" أو "يزكون" وغيرها ، إذ أشار: بـ "من" للتبويض ، الى رد الإسراف .

وبتقديم "ما" الى كونه من مال نفسه...

و بـ "رزقنا" الى قطع المنة، أي : إن الله هو المعطي وأنت واسطة...

وبالإسناد الى "نا" الى: "لاتخف من ذي العرش إقلالا ."

وبالإطلاق الى تعميم التصدق بالعلم والفكر وبغيرهما...

45- انظر : أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط — تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون 6 / 294، وانظر أيضا : محيي

الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه — 6 / 322

46- انظر : النورسي : الكلمات / 426 — 427

47- البقرة : 3

وبمادة "ينفقون" الى شرط صرف الآخذ في النفقة والحاجات الضرورية. ولا يقف النورسي عند حدود بيان هذه النكت، بل يتجاوز ذلك الى الغوص في فلسفة التشريع الإسلامي الذي يمثل حلاً لمشاكل المجتمع الإنساني، فالزكاة — كما يؤكد بديع الزمان — هي الرابطة لجريان مادة الحياة بين الناس، بل هي أنجع علاج لما يعانیه النظام الاقتصادي، فاستقراء التاريخ البشري يبين أن منبع الأسباب لاختلال هذا النظام هو في كلمتين، الأولى: "إن شبت فلا علي أن يموت غيري من الجوع" والثانية: "اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"، فعلاج الأولى ليس إلا "الزكاة"، كما أن الدواء النافع والمستأصل للكلمة الثانية ليس إلا "حرمة الربا"⁴⁶ ومن هذا النموذج وغيره يتضح أن النورسي لم يكتب ببيان أسرار النظم القرآني، وإنما حاول استثمار هذه الأسرار كي يوظفها لصالح الإسلام وقضاياها الواقعية، لا سيما في عصر التحدي الذي عاشه، وتعرض فيه العالم الإسلامي لهجوم واسع من الماديين استهدف عقيدة الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية وغيرها...

المصادر والمراجع

بديع الزمان = سعيد النورسي

- 1- الجرجاني عبد القادر (ت . 471 هـ) دلائل الإعجاز = تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية / دار قتيبة / ط: 1 (1403 هـ / 1983 م).
- 2- أبو حيان الندلسي، محمد بن يوسف (ت 754 هـ) : تفسير البحر المحيط — تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين / دار الكتب العلمية — بيروت — ط: 1 (1413 هـ / 1993 م)
- 3- خير الدين الزركلي: الأعلام / دار العلم للملايين — بيروت — ط: 6 1984 م
- 4- الرازي، محمد بن أبي بكر: المصباح المنير — مكتبة لبنان . ط (1988 م).
- 5- الزركشي، محمد بن عبد الله (ت 792 هـ) : البرهان في علوم القرآن — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم / المكتبة العصرية — بيروت — ط: 2 — 1972 م.
- 6- سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز — تحقيق إحسان قاسم الصالح / دار سوزلر — استنبول — ط: 1 1414 هـ / 1994.
- 7- سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (الطبعة التركية).
- 8- سعيد النورسي الكلمات: ترجمة: إحسان قاسم / دار سوزلر استنبول ط: 1 (1412 هـ / 1992 م
- 9- سعيد النورسي: اللمعات: ترجمة إحسان قاسم / دار سوزلر استنبول ط: 1 (1413 هـ / 1993 م
- 10- سعيد النورسي — المتنوي العربي النوري — تحقيق إحسان قاسم / دار سوزلر استنبول ط: 2 1414 هـ / 1994 م .
- 11- سعيد النورسي — المكتوبات — ترجمة احسان قاسم / دار سوزلر استنبول ط: 1 1413 هـ / 1992 م
- 12- سعيد النورسي : الملاحق في فقه دعوة النور — ترجمة احسان قاسم / دار سوزلر استنبول ط: 1 (1415 هـ / 1995 م
- 13- محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون / دار القلم — ط: 1 (د . ت.
- 14- محيي الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه / حمص سورية — ط: 4 (1415 هـ / 1994 م).
- 15- مصطفى الجويني : مناهج في التفسير / منشأة المعارف الاسكندرية (د ت)
- 16- ابن ماجه، ابو عبدالله محمد (ت 275 هـ) : سنن بن ماجه — تحقيق ، محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي (1395 هـ / 1975 م).

الحرية الشرعية في القرآن الكريم وفي اثار بديع الزمان

الباحثة : عدراء قاسموفيج^P

اني حينما اخترت هذا الموضوع، اخترته ليس كخبير في الحقوق الشرعية او غيرها من العلوم الاسلامية. وانما كفرد يعيش في مكان قصى من العالم الاسلامي وفي محيط تتواجد فيه الاقليات الاسلامية الذين ارتضوا بالقيم الاسلامية واحتضنوها.

لقد تسنى لنا لأول مرة تعلم ما كان قد تعلمته البيئات الإسلامية الواسعة من مفاهيم وأفكار ، فنحن حديثو العهد بالإطلاع عليها ، إذ بعد ان وضعت الحروب أوزارها في السنين الأخيرة اصبحنا في وضع نستطيع أن نفهم تلك المعاني. أي بعد حوض التجارب القاسية - كما سيتعلمها مسلمو كوسوفا في الأيام القريبة- فنحن لايمكننا ان نقدم لكم شيئاً جديداً ، وياحبذا لو كنا نتكلم بهذا في بوسنة وكوسوفا. فمازلنا نخطو الخطوات الأولى ونحتاج الى بذل جهود عظيمة فضلاً عن عائق اللغة . بينما أنتم قد خطوتم خطوات واسعة وسيرتم البحوث الجلييلة .

لقد تسنى لي قبل بضع سنوات القاء النظر الى كتاب "سوزلر" الكلمات. ولكن لصعوبة الفهم والادراك تخليت عنه. وقبل عام تقريباً حصلت على جميع مؤلفات النورسي. وباصرار من السيد اردوغان نيل ومعاونته استطعت مطالعة هذه الآثار وفهمها بشكل جيد.

ان جاذبية الفكر الاسلامي العالمي التي قد اتخذت شكلا انسانياً في اثار النورسي اكثر من مثيلاتها من

^P من مواليد سنة 1954 أكملت كلية الفلسفة قسم اللغات الشرقية في سرايفو سنة 1976. وعملت في الأكاديمية العسكرية في ليبيا وسرايفو سنة 1977. كانت استاذة اللغة التركية في اعدادية الإمامة والخطابة في سرايفو سنة 1980-1992 وعملت بعدها الى سنة 1992 في قسم الأرشيف في مكتبة غازي خسرو بك التي تضم وثائق عثمانية . و في أثناء الحرب 1992-1996 عملت مع النساء والطالبات في الميئات العاملة لأهداف انسانية. كانت واحدة من مؤسسات هيئة "سمية" النسائية . ومنذ سنة 1980 تحجبت ونظمت نشاطات لتفهم اهمية الحجاب وضرورته ونشرت مقالات عدة في المجلات المحلية. وحاليا تعمل في قسم الأرشيف في المكتبة المذكورة . نشرت كتابا بلغة البوشناق حول حياة الأستاذ النورسي وفكره وألقت كلمات في الإذاعة حوله. واشتركت في تأليف كتاب " التشكيلات العلمية في البوسنة في العهد العثماني.

الكتب، أصبحت مفتاحاً لخزائن العلوم المتناسية في ظلمات الدهور. والافكار المسردة فيها تبعث على المسرة والإنشراح. حيث ان افكار النورسي تشكل الجواب الصائب لإستفهامات العالم الحديث المستحب للحياة الدنيا الفانية والمناعة عن إدراك المعاني السامية للبقاء والحياة الخالدة ، حتى اختفت الحقائق العظيمة لسر الخلق وحقيقة البعث والايجاد في عرامة التفتح العلمي المنفلت في مؤسسات قرون اوروبا المظلمة.. ولهذا فقد أصبحت هذه الآثار كشفاً لنا عن خزائن ثمينة. ولا نتخلى من ان نسأل انفسنا :لماذا بقيت رسائل النور بعيدة عن مسلمي البوسنة والهرسك وقوسوفا وقره داغ منذ عشرات من السنين رغم مسيرتنا التاريخية المترافقة ؟ نعم إنها حقيقة : إنه لم تعد تبق لمفكرينا قوة معنوية لتابعة الافكار والحركات الاسلامية في العالم الإسلامي. ففي العصور الغابرة كانت الارتباطات المعنوية والثقافية رصينة فيما بيننا ويمكن فهمها من الكتب والوثائق الموجودة في مكتباتنا. ولا يخفى فقد قام في القرن السادس عشر بعض اعظم المفكرين والكتاب والصوفيين كالسيد بوشناق علي ده ده، وحسن كافي بورشاك، بكتابة افكارهم وآثارهم مستنداً الى آثار مفكرين اسلاميين¹. كنا آنذاك نمتلك قوة معنوية رصينة. اما الآن فقد ضعفت هذه القوة كل الضعف. لذا يستوجب علينا استعادة جميع هذه القوة وامتلاكها مرة اخرى. ويمكن ذلك أي استعادة هذه القوة وجذب وجدان المسلمين بافهام جمال القوة المعنوية لمؤلفات النورسي . وعندها يمكن اعادة المسلمين الى نبع الايمان من جديد. فإن حصل هذا ورجع المسلمون الى نبع الايمان ، يعثرون حينئذ على طرق ومناهج لمقاومة القوة الماحقة الوحشية الحديثة.

ففي آثار النورسي من المناهج القوية الجذابة ما يساعد المرء على استعادة وتقوية ايمانه وانقاذه. وتعليم هذه المناهج وتدريسها لمسلمي بوسنة وهرسك وقره داغ لتقوية الروح المعنوية لديهم هو من وظيفتنا وواجبنا.

ونحن بوسعنا الآن ان نحقق ما لم نستطع تحقيقه بعد احتلال النمسا وهنكارييا عام 1878 لبلادنا وخاصة بعد تحرر يوغسلافيا عام 1918. فالجميع كانوا يملكون سابقاً عذراً مقبولاً. أما الآن فهم يملكون حرية الإختيار، فكل بمقدرته اختيار ما يبغيه. وهذا ما يزيد مسؤوليتنا تجاه خالقنا. فان ولينا اوجهننا الى الكسب المادي فحسب تاركين الفرائض والواجبات تجاه الله عز وجل ونسينا الحياة الاخرة فلا يتحقق هذا الا بارادتنا. إذ لا يسع لأحد ان يتدخل في امر الإختيار هذا ويجبرنا عليه. فلا مانع لما نتعلمه الآن مهما اشتد الامر. نسأل الله ان يجيب مؤلفات النورسي المقتبس من القرآن الكريم في اقرب الزمان الى اهل ديارنا. فآثار النورسي تقضي على الانسان ان يتقرب الى مفاهيم الاخرة مع الحفاظ المتوازن للموازن المادية والعقلية.

واهم ما فهمه طلبة النور ويسيروا عليه وبمارسونه في حياتهم هو عبارة "ان ضياء الوجدان هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية"². فالمستقبل سيبتهج بهذا الانقلاب الذي وصاه النورسي. ومن جهة

1 A. Ljubovic ve S. Grozdanic: Prozma knjizevnost Bosne i Hercegovine na orijentalnim jezicima, Orijentalni institut u Sarajevu, 1995.

2 B. Necmeddin Şahiner, Bilinmeyen taraflarıyla Bediüzzaman Said Nursi, Istanbul, 1994., s. 93

أخرى تجتذب رسائل النور النفوس إليها. إذ بمقدور كل قارئ لها العثور فيها على كل ما يقوي أفكاره ويحثها على فهم الدنيا كما أمر به القرآن الكريم. حيث الموضوعات تهم المؤمنين وتعلق بأرواحهم من دون نسيان لأي من الاسس القرآنية ومعرفة دورها في الحياة الدنيا والانقياد بما وفق الطريق المستقيم. ومن بين الموضوعات التي تناولها النورسي هي الوحدة الإسلامية، والفكر الإسلامي، والفروق بين الثقافات، والفكر الإسلامي العالمي، والاعتصام بالحقائق الإيمانية، والاجوبة الحقيقية للتاريخ الإسلامي، والتعليم التربوي الإسلامي وما شابهها من المواضيع. فضلاً عن أنها لا تخلو عن الطرق المعنوية الخاصة المشاهدة للمناهج الصوفية. فالحرية الشرعية المعروفة في وجدان كثير من المسلمين والمناسبة فيها فيما بعد قد تم ايضاحها بجلاء في رسائل النور.

البحث عن الحرية العالمية المعاصرة والرغبة في تحقيقها:

ان مسألة الحرية في الثقافة الغربية ومدنيتها كانت تناقش منذ العهد اليوناني القديم كمسألة سياسية لضمان حرية الافراد وحرية الدولة. وهكذا تم نصب اساس اصطلاح الحرية التي تضمنها للافراد في المدن وحرمت عنها الافراد في خارجها. فواصلت مسألة الحرية بهذا المفهوم نحوها حتى عصرنا هذا. فالحرية التي استقبلتها الدول كانت تبني على مبدأ المصالح الجزئية العادلة وليست هي الحرية المبنية على مبدأ المصالح الكلية التي تبناها القرآن الكريم للعباد. ان الحرية المعاصرة مستندة على القوة وهي مغايرة عن مفهوم الحرية في القرآن الكريم التي تصون حقوق الافراد. ففي الحرية المعاصرة لا حرية ولا حقوق للمستضعفين من الافراد والدول، فالحرية تسعّر على ارضها، وتغتصب حقوقها. وتمحى اموال اولئك المستضعفين وتغتصب امتعتهم عن ظهر الارض وتداس وتنتهك أعراضهم. ولا يخفى ان الدول التي تبدو ظاهراً ساكنة بعيدة عن الحروب والاضطرابات تخفي في باطنها اغتصاباً للحرية، وظلماً للمستضعفين والاطفال والنساء. لذا فالحرية قد اختصت ببعض الجماعات والافراد بينما حرم منها الآخرون رغم وجودها في الأقوال والتصريحات.

ومن جهة اخرى نرى ان اعضاء الامة الاسلامية تتنامى في ظل التربية الاسلامية السمحة وضمن اخلاقها السامية. فانطلاقاً من هذه النقطة كما هو معروف في قصة سليمان عليه السلام في امر "الموازنة والاحتياط" التابع من امثال اوامر الله سبحانه وتعالى التي تأخذ في حظيرة الشفقة والرحمة جميع المخلوقات حتى طائفة النمل.

فالحرية المتمثلة في فطرة الانسان منذ خلقته قد برزت منذ القرن الثامن عشر كحقوق الانسان وانقلبت الى امر التصويت العام عليها في القرن التاسع عشر، وانقلبت الى امر اتخاذ القرارات والامور الادارية في القرن العشرين. فالانسان في ضوء هذه المفاهيم لا يملك الحرية وفق فطرته. وانما يستطيع تحقيق مآرب حريته بتشكيل الجماعات ومؤسسات الدولة. بينما الحريات المتحققة بالمؤسسات لا تكون مداراً لضمان الحريات الا للافراد الخواص و يحرم اعضاؤها من هذه الحرية. فالإرهاب الذي يمارسه الأفراد في المؤسسات الخاصة بالحرية - رغم الرغبة في التجنب عنه - هذه الحرية تنقلب الى حرية الاشخاص الأقوياء الذين يسيرون فيها مصالحهم الشخصية فقط ناسين مصالح ومنافع الجماعات او الاعضاء فيها.

نعم، التوق الى الحرية نابع من اعماق فطرة الانسان وجبلته. لذا تم احضار وثائق حقوق الانسان في اوروبا كـ " ماكنا كارتا 1225، و هايبس كوربوس 1679" .. وما شابهها. وبعد الصراعات الدينية الصارمة الجارية في اوروبا، اصبحت فكرة حقوق الانسان امراً لا مناص منها³. فالعالم المتطور تلقى اهمية بالغة لهذه الفكرة في يومنا هذا. كإقامة مؤتمر حقوق الانسان في فينا في عام 1993، وتأسيس المحكمة الجنائية العالمية في ايطاليا في شهر حزيران عام 1998 .

وفي عام 1945 وعدت القوى العظمى العالمية في يالطة بتأمين الحريات للمستضعفين كحرية الكلام، وحرية الوجدان، وحرية الاجتماعات، علاوة على الحريات المقررة كحرية النفس والأمان والمال والسكن. وذلك في المؤتمر العالمي في العقد المبرم بينها في سان فرانسيسكو في 1945/6/26 وقبلت هيئة الأمم المتحدة في 1945/12/10 حقوق الإنسان وشملت على جميع الدول . وعقدت في روما مجلساً حول التباحث في الأمر نفسه في 1950 وكذلك عقدت مباحثات في اوروبا حول حقوق الإنسان حتى أعلن عنها في هلسنكي عام 1975.

ولكن رغم كل هذه العقود والمواثيق فإن حقوق الإنسان وحرية مازالت تنتهك وتُداس مرات ومرات ، لذا بعدت الشقة بين المجتمعات، اذ نشاهد انتهاك الأعراض وسلب راحة الناس وارهابهم في أنحاء شتى من العالم رغم الجهود التي تبذلها الأمم المتحدة .

نعم، مادامت حرية الإنسان وحقوقه لا تجرى باسم الله فان جميع المساعي المبذولة في العالم كله لا يمكن ادامتها بالقوانين الانسانية السارية في يومنا هذا. فلم يتغير شئ يذكر لحد الان بهذه الخطة والبرنامج ، ولا حاجة لمزيد من الكلام. فما عرفت هذه الحرية لحد الان ، ولا سيما في البوسنة والهرسك القائمة في اقصى الدول الاسلامية. ونحن نجد انفسنا مرغمين على مناقشة هذه المواضيع والوقوف عليها لتتمكن من الوصول الى التغيير الحق فيها. إذ لا يمكننا الوقوف مكتوفي الايدي تجاه جميع هذه المظالم الشنيعة المقترفة في العالم الحديث.

فصراخ التوأمتين البالغتين الخامسة عشر من عمرهما، من شدة تعرضهما الى الظلم الشنيع بانتهاك عرضيهما امام اعين ابويهما ، مثال واضح على عدم وجود اي تطور في الحريات ودليل بين على استمرار الاستبداد والوقائع الشنيعة المقترفة تجاه الانسانية . ولا يخفى ان مثل هذه الوقائع لا تصل اخبارها الى اذهان الناس عامة. فاني شاهدت مثل هذه الوقائع عندما كنت اعمل في مكتب النساء للاغاثة في سراييفا . فكانت عشرات من النساء ممن تعرضن على مثل هذه المظالم ولم يستطعن سماع اصواتهن الى المسؤولين⁴.

ولهذا فقد جذبني امر الحريات ولا سيما الحرية الشرعية المذكورة في القرآن الكريم والتي تطرق اليها الاستاذ النورسي في رسائله . ولقد فهمت مفهوم الحرية الموعودة في القران الكريم، وأمنت بان الحرية

3 B. Nafisa Ahmed, The Evolution of the Concept of Human Rigts and the Role of United Nations, "Islamic Concept of Human Right"de, ed. S. M. Haider, Lahore 1978., s. 152

4 4- B. Zenevska konvencija, Ljudska prava, Odabrani medunarodni dokumnti, 2. svezak; Humanitarno pravo Zenevske konvencije i dodatni protokoli, Sarajevo, 1996.

الحقيقية هي الحرية التي نادى بها القرآن الكريم. اما الحرية التي جاء بها الانسان فلا تضمن الراحة والعدالة الا لقلّة قليلة من الناس. اما سواد الناس فيستمر عليهم الظلم والتجريد . ولا يمكن الوصول الى الحرية التامة الا بما وضعه الله تعالى لنا. واكثر ما اثار اعجابي هو معنى الحرية الشرعية التي مس شغاف قلبي . فلو تم تطبيقها لزال جميع المظالم المقترفة تجاه المستضعفين والمظلومين وغدت حقوق الالاف من الناس مصونة

ان تزييد العصيان والمنكرات تجاه الله سبحانه وتعالى يزيد الانسان بعداً عن الله سبحانه وهذا يؤدي الى الابتعاد الكامل عن " العدل" ويهدم اسسه ويقيم الظلم والمظالم في مكانه. ونظرا لعدم الاصرار في اقامة عدالة الله في الارض ادى الى فساد جميع مستويات العدالة فيها. ومنها :

- مستوى الاسرة
 - مستوى العمل وادارتها
 - مستوى مؤسسات الدولة.
 - مستوى العلاقات الدولية.
 - وما شابهها من المستويات الانسانية.
- ان فساد اسس المبادئ التي تستوجب اطاعة الله بلا قيد ولا شرط، تنتج عالما فقيرا جداً في ناحيته المعنوية رغم الغناء الكبير المتحقق في الناحية المادية.
- فكما ذكرنا أعلاه انه يمكننا أن نثبت أن نظام التعليم الحالي في العالم كله لا يضمن حرية الإنسان ولا يحقق الأمان والطمأنينة والوثام بين الناس لأنه أهمل طاعة الله وتناسى امر الله بالعدل. فلاتحقق الحرية الحقّة للإنسان ما لم تؤوب البشرية الى كنف رحمة الله. ترى أمكن التكلم حول حقوق الإنسان وحرية في عالم تقترف فيه المظالم والقتل الجماعي جهاراً نهاراً وعلى ملأ من الناس؟ فالعالم أزاء هذه المظالم لا يملك قوة تذكر . ولانسى قوى تساند حقوق الإنسان في عصرنا الحاضر ايضا.
- ان النظر الى القتل الجماعي فيه طريقتين اثنتين كما يقول بيير فاليرييرس الذي تربي على النظم التعليمية الحديثة :

الأول:مشاهدة من هو متكفيء على كرسيه يتفرج الى الفئران المختبرية للتجارب وهي تذبح أمامه.
والثاني: ان يكون الشخص في جهة الفئران - معذرةً جهة الإنسان - وقيامه بترجمة صراخاتهم الى اللغة الأنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية .⁵

مفهوم الحرية المبنية على اساس الدين الاسلامي (الحياة العزيزة الموافقة للشريعة الاسلامية).

ان الحرية الحقيقية لا يمكن الوصول اليها الا برعاية قوانين الله سبحانه وتعالى . فالحرية الوحيدة هي الحرية الشرعية المذكورة في القرآن الكريم التي تنقذ الانسانية من جميع ما هي عليه الآن من ظلم وقتل

5 B. Pierre Vallieres, Prezivjeti u prisustvu smrti, "Genocid u B<H>da, 1991-1995., Bon, Zbornik radova sa Medunarodnogkongresa za dokumentaciju genocida u B<H>.

وتشريد. فالآية الكريمة: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" تظهر لنا بان الامن الحقيقي والاطمئنان الكامل هما في دائرة الايمان ليس الا. والبغض والعداوة والمظالم كلها في دائرة الضلالة. ولا يمكن الاحتفاظ على المصالح والحقوق الانسانية بالقوانين الموضوعة من قبل الانسان نفسه، بل بالقوانين الالهية الموافقة للفطرة الانسانية المبنية على العدل والإحسان. كما قال تعالى: "ان الله يأمركم بالعدل والاحسان".

نعم فالعدل للجميع والاحسان للضعفاء ، ولكن ليست كصدقة بل كحق الهي . ونظراً ان الناس سواسية مقابل الاحتياجات والحقوق. فهذا يعني الحرية الشرعية التي تحسها الجميع وتدرکها وهو بحاجة اليها كما فسرها بديع الزمان باسلوب شاعري براق. والغزوات والفتوحات والحروب التي اشترك فيها جيوش المسلمين عبر التاريخ معروفة امثالها لدى الجميع. ونظراً ان المسلمين قد تربوا بالاخلاق التي امرها الوحي الالهي لذا كان الجيش الاسلامي ممنوعا كلياً عن المظالم الوحشية والقتل بغير الحق او قتل الابرياء من النساء او الاطفال او انتهاك أعراضهن. بل على العكس كانت تلك الفتوحات عتقا وخلصا للمستضعفين والابرياء.

فالآية الكريمة "... أشداء على الكفار رحماء بينهم" لا يمكن تحقيقها الا بالاعتداء التام للامر والنهي الالهيين. فلا يمكن العثور على نصوص العقوبات القرآنية العادلة في القوانين الانسانية التي تنهي المظالم الانسانية تجاه المستضعفين ، وتجاه المعتصبين للحرية والناشرين للظلم والاستبداد في البلاد. فمثلاً ان الدماء التي سفكت في البوسنة والمهرسك لم يجازى عليها جزاء عادلاً في محكمة "هاك" لذا استمرت نفس الامر في سفك دماء المسلمين والمستضعفين في قوسوفا. ولم يعاقب من اقترف اشنع انواع الظلم، بل مازالت المظالم تتماذى في الاوساط. ولم يقدر المسلمون على الهاء وايقاف هذه الافساد والتشريد وحرف الدماء ، ولم يقم باعداد قوة يستطيع بها ايقاف الفساد والنفاق والظلم. بمعنى أن ليس بمقدورهم صدّ تلك المظالم بعد..

ومع هذا هناك فعاليات وخطوات لا بأس بما قدمت في هذا السبيل. ففي سنة 1990⁶ قورنت حقوق الإنسان وحرية مع الشريعة الإسلامية في اجتماع القاهرة . أي أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساس في تفهيم هذه الحقوق. ففي ضوء تعاليم القرآن الكريم نجد ان الإبتعاد عن طريق الهداية كما امرها الرب الكريم يعني فقدان الحرية وانعدام الحق وتحكم الأقوياء على الضعفاء. بمعنى ظهور الفساد في البر والبحر . ولا يمكن رفع هذا الفساد إلا بالإيمان بـ "لا إله إلا الله" أي بالرضوخ الى أمر الله فهو الكفيل برفع الفساد. وقد أسس بديع الزمان افكاره حول حرية الإنسان وحقوقه في ضوء القرآن الكريم وبيّن انه لا يمكن تحقيق تلك الحرية والحقوق إلا بإنزال العقوبات على مقترفي المظالم. ولكن مع الأسف لا نرى تلك العقوبات في القوانين الحاضرة.

معنى الحرية الشرعية في ضوء القرآن الكريم وفي آثار بديع الزمان سعيد النورسي

6 B. "Conscience and Liberty", International Journal of Religious Freedom, No. 1/5 Sprng 1991., pp. 9095.

إن معنى الحرية الشرعية كان مما يسعى لإحتثائه من القلوب والعقول في الفترة التي عاش فيها بديع الزمان النورسي بجانب الحمية والنظرة الإسلامية للحياة والأخوة الإسلامية ، ولاشك ان هذه الأمور كانت على أسطح ما يكون في عهد الرسالة والصحابة والتابعين ، فهي من الأمور الفطرية التي لا يمكن إزالتها . يقول بديع الزمان : "في نظري أن من جاء - في الحقيقة - من نسل مسلم، لاترك فطرته ووجدانه الاسلام البتة، حتى إن تجرد عقله وفكره عن الاسلام"⁷. ويعد بديع الزمان الحرية الشرعية هدية رحمانية. فيقول:

"القوة الثالثة: الحرية الشرعية التي ترشد البشرية الى سبل التسابق والمنافسة الحقّة نحو المعالي والمقاصد السامية، والتي تمزق انواع الاستبداد وتشتتها، والتي تهيج المشاعر الرفيعة لدى الانسان، تلك المشاعر المجهّزة بانماط من الاحاسيس كالمنافسة والغبطة والتيقظ التام والميل الى التجدد والنزوع الى التحضر. فهذه القوة الثالثة: "الحرية الشرعية" تعني التحلي بأسمى ما يليق بالانسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع اليها"⁸.

ويقول أيضا:

"ان مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية انما هو "الشورى" فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع امورنا، اذ يقول سبحانه: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: 38).
اجل فكما أن تلاحق الافكار بين ابناء الجنس البشري انما هو شورى على مر العصور بوساطة التاريخ، حتى غدا مدار رقي البشرية واساس علومها، فان سبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة انما هو لعدم قيامها بتلك الشورى الحقيقية.

ان مفتاح قارة آسيا وكشاف مستقبلها انما هو الشورى، أي: كما ان الافراد يتشاورون فيما بينهم، كذلك ينبغي ان تسلك الطوائف والاقاليم المسلك نفسه فتشاور فيما بينها. ان فك انواع القيود التي كُتبت ثلاثمائة بل اربعمائة مليون مسلم، ورفع انواع الاستبداد عنهم انما يكون بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الاسلامية والشفقة اليمانية، تلك الحرية الشرعية التي تترين بالاداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنية الغربية.

ان الحرية الشرعية النابعة من الايمان انما تأمر باساسين:

- 1- [ان لا يُذَلَّل المسلم ولا يُتَدَلَّل.. من كان عبداً لله لا يكون عبداً للعباد].
 - 2- [ان لا يجعل بعضكم بعضاً ارباباً من دون الله]. اذ من لا يعرف الله حق معرفته يتوهم نوعاً من الربوبية لكل شيء، في كل حسب نسبه فيسلطه على نفسه.
- [نعم ان الحرية الشرعية عطية الرحمن] وتجلي من تجليات الخالق الرحمن الرحيم، وهي خاصّة من خصائص الايمان"⁹.

الحرية الشرعية هي ضمان عزة الإنسان ووقاره وكرامته

الشريعة الالهية التي تضمن الحرية الحقّة لجميع الناس وتؤدي الى رقيه المادي والمعنوي في آن واحد، اذ تجعل القوة في الحق وتمنع من ان تكون الحق في القوة. وتحافظ على عزة الناس. بينما الحرية الحديثة لا

7 صيقل الإسلام- المناظرات ص.407

8 صيقل الإسلام-الخطبة الشامية ص.500

9 صيقل الإسلام-الخطبة الشامية ص.514

تضمن الحرية الا لاقل القليل من الناس وتجعل الحق في القوة، دون القوة في الحق. فالانسان في الشريعة الالهية تكون مخاطباً فردياً للوحي الالهي وتضمن حقوقه بشكل فردي مهما كانت درجته ومرتبته.

الحرية حقاً هي معيار الرقي الحضاري للانسان

هكذا يفيد بديع الزمان هذا الامر في احدى آثاره فيقول:

" تسعى المدنية الحقيقية لترقية النوع الانساني وتدفعه الى التكامل، وتخرج ماهيته النوعية من القوة الى الفعل، لذا فان طلب المدنية والسعي لها انطلقاً من هذه الزاوية يعدّ سعياً نحو الانسانية.

ثم ان سبب افتتاحي بمحبة معنى المشروطة هو ان المدخل الاول لتقدم آسيا والعالم الاسلامي في المستقبل هو المشروطة المشروعة والحرية التي هي ضمن نطاق الشريعة"¹⁰.

فالحرية الشرعية من جانب تفتح الطريق أمام الإنسان الى الرقي المادي ومن جانب آخر الى الرقي المعنوي وتضمن اطمئنانه الروحي وراحته النفسية . وبهذا تحقق الحرية الشرعية لكل انسان حقوقه من دون النظر الى لونه وشكله ..

معنى ان عدم تطبيق هذه الحرية رجوع بالإنسانية الى الوحشية سواء في حياة الفرد ام في حياة المجتمع. وعند ذاك لاينفع التضخم المادي ولا إمتلاك القوة لأن امثال هؤلاء لايعيرون أهمية تذكر لدموع الأرامل ولا الى زفرات البتامي . والحال ان القران الكريم يذكر الإنسانية بـ:

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون) (يس:31)

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم

إلا مقتناً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) (فاطر:39)

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) (فاطر:26)

ويرفق تذكيره الجليل هذا بان لإقامة الحضارة الحقّة انما يخص اولئك المتحلين بالصفات الكريمة المذكورة في الآية الكريمة:

(وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (النور:55)

وهكذا فان ما يقصده بديع الزمان من الحرية هي الموصوفة اهلها في القران الكريم، ويوجه الأنظار اليها. فيقول :

"فلتعش المشروطة المشروعة. ولتدم الحرية النيرة المسترشدة بتربية حقيقة الشريعة"¹¹

الحرية الشرعية بمفهوم الحرية الحسنة

يقف بديع الزمان طويلاً على مفهوم الحرية . فيرى ان اصحاب القوى يفرطون بحق الحرية حيث لايقفون عند حددهم فيسدون ابواب السعادة امام الإنسان. وعندما سئل :

"لقد فسروا لنا "الحرية" تفسيراً خاطئاً سيئاً، وكأن الانسان مهما فعل - في كنف الحرية - من

10 صيقل الإسلام - المحكمة العسكرية ص246

11 صيقل الإسلام - المحكمة العسكرية ص462

سفاهات وردائل وفضائح لا يؤاخذ عليها مادام لم يضرّ بها الناس... هكذا أفهمونا الحرية، أهي كذلك؟! .
ج: ان الذين فسروها هكذا، ما اعلنوا الا عن سفاهاتهم وردائلهم على رؤوس الاشهاد، فهم يهذرون متذرعين بحجج واهية كالصبيان، لأن الحرية الحسنة ماهي الا تلك المتأدبة بأداب الشريعة والتميزنة بفضائلها، وليست تلك التي في السفاهة والردائل. بل تلك حيوانية وبهيمية وتسلط شيطاني، ووقوع في أسر النفس الأمارة بالسوء.

ان الحرية العامة هي المحصلة الناتجة من حريات الأفراد، ومن شأن الحرية عدم الاضرار سواء بالنفس أو بالآخرين.

[على ان كمال الحرية، ان لا يتفرعن، وان لا يستهزئ بجزية غيره، ان المراد حق لكن المجاهدة ليست في سبيلها] ¹² .

ولكن أيها البدو! ان مالديكم من الحرية هو نصفها، والنصف الآخر هو عدم المساس بجزية الآخرين. ثم ان الحرية المزوجة بالبداءة وبالعيش الكفاف، توجد منها ايضاً في حيوانات الجبال والبراري القريية منكم، وفي الواقع لو كانت هناك لذة وسلوان لهذه الحيوانات فهي في حريتها تلك... ولكن أين أنتم من تلك الحرية الانسانية الساطعة كالشمس وهي معشوقة كل روح، وصنو جوهر الانسانية، وما هي الا التي تربعت على قصر سعادة المدنية وتزينت بحلل المعرفة وحلي الفضيلة والتربية الاسلامية ¹³ .

فهذه العبارات النبوة تحمل في طياتها الحبة الصادقة والأمل المشرق والصميمية الخالصة ، فهي كلمات وافكار جميلة جاذبة لبلوغ جوهر بقائنا ووجودنا.

إرتباطه الوثيق بالحقائق الإيمانية والقوانين الشرعية

ان ارتباط بدع الزمان بالشريعة نابع من انه يراها سبب السعادة والعدالة المحضة والفضيلة. ولطالبته بها بشدة حتى في الفترة التي كانت جارية ورفضة التحكم والاستبداد، سبب في سوقه كثيرا الى المحاكم والاستفسارات والاستجابات... وجوابه في المحكمة ذو مغزى عميق بعد الإستفسار عنه حول الشريعة ، اذ يقول :

"لأن الذي ينتسب الى سلطان الكون برابطة الإيمان ويكون عبداً له تنزّه شفقته الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما تترفع شهامته الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم واكراههم.

نعم. ان خادماً صادقاً مخلصاً للسلطان لا يتذلل لتحكم راع وسيطرتة، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرته على مسكين ضعيف. فبمقدار قوة الايمان اذن تتألأ الحرية وتسطع. فدونكم خير القرون، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام ¹⁴ .

الحرية الشرعية مانعة للنفاق

ان تطبيق الشريعة الإلهية تحقق الحرية الحقة . وهذه الحرية تختلف عن الحرية التي نادى بها الثورة

12 صيقل الإسلام- المناظرات ص.392

13 صيقل الإسلام- المناظرات ص.394

14 صيقل الإسلام- المناظرات ص.395

الفرنسية ولم تنفذها الا للأقوياء وحدهم . فالحرية التي وعدنا رب العزة هي الحرية العامة للجميع . بينما الحرية التي تنادي بها دولة المدن - البوليس - الى المواطنين المدنيين ماهي الا نفاق محض . والقران الكريم يصفهم:

(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) (البقرة : 10)
 (..إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسيهم ولعنهم الله وهم عذاب مقيم) (التوبة : 67-68)
 ولما كانت الحرية بمفهومها الخطأ تسبب النفاق والكذب والرياء والشقاق فقد أُنذر بديع الزمان عن ذلك بقوله:

"فَيَدُوا الحرية باداب الشرع لان عوام الناس والجاهلين يصبحون سفهاء وعصاة وقطاع طرق، فلا يطيعون بعد ان ظلوا احراراً سائيين بلا قيد و شرط"¹⁵.

وفي الوقت نفسه يوضح توضيحاً كافياً معنى الحرية المشروعة:
 "الا ان الحرية هي: ان يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة مصوناً من التعرض له، محفوظ الحقوق ولا يتحكم بعض في بعض، ليتجلى فيه نهي الآية الكريمة: (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران: 64) ولا يتأمر عليه غير قانون العدالة والتأدب، لئلا يُفسد حرية اخوانه"¹⁶.
 ولما كان فكر بديع الزمان حول حرية الإنسان وحقوقه نابعا ومستلهما من القران الكريم ، يمكن ان تكون تلك الأفكار نماذج جيدة للإقتداء بها . نقتطف من أقواله ما يأتي:
 "ايها الحرية الشرعية!"

انك تنادين بصوت هادر، ولكنه رخم يحمل بشارة سارة، توقظين بها كردياً بدوياً مثلي نائماً تحت طبقات الغفلة. ولولاك لظلمت انا والامة جميعاً في سجن الاسر والقيود. اني أبشرك بعمر خالد. فاذا ما اتخذت الشريعة التي هي عين الحياة، منبعاً للحياة ، وترعرعت في تلك الجنة الوارفة البهيجة، فاني ازف بشرى سارة ايضاً بان هذه الامة المظلومة ستترقى الف درجة عما كانت عليه في سابق عهدها"¹⁷.

"يا ابناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من ايديكم ، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في انا آخر ذلك لان الحرية انما تزدهر بمراعاة الاحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالاخلاق الفاضلة"¹⁸.

وحينما خلع السلطان عبد الحميد الثاني من السلطنة واصبح الناس ينادون بالابتعاد عن الأخلاق والثقافة الإسلامية ، نادى بديع الزمام بصوت مرتفع قائلاً:

فلتتشع الشريعة الغراء

" ان الشريعة الغراء باقية الى الابد؛ لانها آتية من الكلام الازلي وان النجاة والخلاص من تحكم النفس الامارة بالسوء بنا هي بالاعتماد على الاسلام والاستناد اليه والتمسك بحبل الله المتين.

15 صيقل الإسلام- المحكمة العسكرية ص443

16 صيقل الإسلام- المناظرات ص.394

17 صيقل الإسلام- المحكمة العسكرية ص465

18 صيقل الإسلام- المحكمة العسكرية ص746

وان جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الايمان؛ ذلك لأن من اراد العبودية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له ان يذل نفسه فيكون عبداً للعبيد. وحيث أن كل انسان راع في ملكه وعالمه فهو مكلف بالجهاد الاكبر في عالمه الأصغر ومأمور بالتخلق باحلاق النبي p واحياء سنته الشريفة".¹⁹

وختاماً نذكر هذه الفقرة لبيدع الزمان التي توضح زاوية النظر للحرية الشرعية من وجهة القرآن الكريم :

"هذا هو السرّ في أن اهل الضلالة بقدرتهم الضعيفة حقاً يغلبون احياناً أهل الحق الأقوياء جداً. ولكن لأهل الحق قلعة منيعة ما ان يتحصنوا بها ويلوذوا بها، فلا يجروا ان يتقرب اليهم اولئك الأعداء المخيفون ولا يمكنهم أن يمسههم بسوء. ولئن اصابهم شئ منهم - مؤقتاً - فالفوز والثواب الأبدى الذي ينتظرهم في بشرى القرآن الكريم (والعاقبة للمتقين) (الأعراف: 128) يُذهب أثر ذلك الضرّ والقرح. وتلك القلعة الشامخة، وذلك الحصن المنيع هي الشريعة الإلهية وسنة النبي p".²⁰

ترجمة: دنجر قورقماز

الحوار القرآني على ضوء رسائل النور

أ.د. احمد عبد الرحيم السايح^P

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار حتى نمضي قدماً على ضوء تحديد المفهوم فنقول:

الحوار: الرجوع عن الشيء، والى الشيء... .

يقال: حار الى الشيء وعنه. حواره ومحاراً ومحاوره: رجع عنه وإليه. وفي الحديث: "من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه " أي رجع اليه ما تسبب إليه.

يقول لبيد الشاعر:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
والمحاوره: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.¹
والمحورة ايضاً: المجادلة.

والحوار بمعنى تراجع الكلام قد ورد في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع.
الموضع الاول: في قصة أصحاب الجنة قال تعالى { فقال لصاحبه وهو يحاوره
أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً } (الكهف: 37)

والموضع الثاني: في نفس قصة أصحاب الجنة قال تعالى { قال له صاحبه وهو
يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً } (الكهف: 34) أي
وهو يراجع ويجاده.²

والموضع الثالث: في قصة المرأة التي حاورت الرسول صلى الله عليه وسلم. قال
تعالى { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع
تحاوركما } (المجادلة: 1)

^P استاذ بقسم العقيدة والفلسفة. بكلية أصول الدين جامعة الأزهر. ومعار حالياً للعمل استاذاً بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة.. وله مؤلفات تزيد على خمسة وثلاثين كتاباً. طبعت في مصر والسعودية وقطر وسوريا ولبنان. وعضو اتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية. وعضو الجمعية الفلسفية المصرية. وعضو مؤسسة الحضارة بالمملكة الأردنية الهاشمية. وكتب بحوثاً ومقالات لأكثر من عشرين مجلة وصحيفة. وله برامج إذاعية وتلفزيونية في دول الخليج. وشارك في عدة مؤتمرات عالمية.
1 - راجع بن منظور - لسان العرب ج 1 ص 750 ط دار لسان العرب - بيروت
2 - انظر سعيد حوى - الأساس في التفسير ج 6 ص 3184 ط دار السلام. القاهرة

ويفهم من المواضيع الثلاثة. أن الحوار مراجعة الكلام، وتداوله بين طرفين³ والتحاوَر أيضاً: التجاوب. لذلك كان لا مندوحة في الحوار من متكلم ومخاطب. ولا بد فيه من مراجعة الكلام، وتبادله، وتداوله. وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرد، والمشخص، والمعقول، والمحسوس سمي جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقياً: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة. وغرض الجدل: إلزام الخصم، وافحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.⁴ والجدل أصلاً هو فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: "الجدلى هو الذي يحسن السؤال والجواب. وغايته الارتقاء من تصور الى تصور، ومن قول إلى قول. للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادئ. واقتبس المحدثون عن أفلاطون هذا التعريف وأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية الى المعاني العقلية. ومن المعاني الشخصية الى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية الى الأمور الكلية.⁵ وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم ولا يدون في الكتب بل يكشف بطريق الحوار.⁶ ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد في النظام الكوني هي حوار الكائنات. وإن جامدة. ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض. كما هي طبيعة الحاجة. فيكون الانسجام، والشد والعقد، والاستمرار. فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة. إذ قد يتجاوز الى الإشارة الموضحة، والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً. وإذا كان قد سبق أن قلنا أن من معاني الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين فإن المجادلة تشترك مع الحوار في كونها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين. إلا أن المجادلة تأخذ طابع القوة والغلبة، والخصومة، وأصل كلمة الجدل في اللغة العربية يفيد الشدة والغلبة. وقد تستعمل في المناظرة، والمخاصمة، لأن المناظرة والمخاصمة يحتاجان الى قوة في الكلام والحج.⁷ **والجدل الاصطلاحي:** دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة. أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة. ويكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال.

3 - راجع: الندوة العالمية للشباب - أصول الحوار ص 9 ط الرياض 1408 هـ

4 - راجع: حسين حمادة - الحوار القرآني م المعارج مجلد رقم 1 ع 8 ص 36 بيروت

5 - المصدر السابق - م 1 ع 37

6 - المصدر السابق

7 - انظر: خالد عبد الله القاسم - الحوار ص 105 ط دار المسلم الرياض

فيظهر من معنى الجدل: القوة، والخصومة، والغلبة. وهذا مالا تجده في الحوار.⁸ والجدل ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة. يهمننا منها الآن ثلاثة جاءت غير مذمومة.

قال تعالى { أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } (النحل: 125)

وقال تعالى { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن } (العنكبوت: 46) وقال تعالى { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله } (المجادلة: 1)

فالجدل لم يؤمر به ولم يمدح في القرآن إلا مقيداً بالحسنى. قال تعالى { وجادلهم بالتي هي أحسن } (النحل: 125)

وقال تعالى { ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي احسن } (العنكبوت: 46) فلفظة الجدل مذمومة إلا إذا قيدت.⁹

إذن الفرق بين الجدل والحوار: أنهما يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين. لكن يفترقان بعد ذلك.

وقد تترادف كلمة الحوار والجدل في أحيان قليلة - كما سبق أن عرفنا. وإذا كان مفهوم الحوار هو التجاوب. فمن البداهة القول بأن الإنسان: كائن عقل واجتماع.. كائن علاقة وحاجة..

ومن البداهة القول: أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها: اللقاءات المتحاورة. لتكون المجتمعات الإنسانية على بينة من أمر علاقاتها، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط سليم...

وقد لا يخفى على أهل العلم.. أن الحوار يولد الأفكار الجديدة في ذهن المتحاورين. كما أن الحوار يعمل على توضيح المعاني، وإغناء المفاهيم بما يفيض إلى تقدم الفكر. وإن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن هذا القرآن الذي أنزله الخالق لإصلاح حال الخلق.. قد عالج قضايا العباد بما تستجيب به النفوس، وتقبله العقول.

- فتارة يعالج الأمر بالقصة.

- وتارة يعالج الأمر بالمثل.

- وتارة يعالج الأمر بالحوار.

- وتارة يعالج الأمر بالمناقشة.

وما جرى مجرى هذا مما يجعل للموضوع وقعاً، وتأثيراً.

والحوار له أثر كبير على تقبل السامع أو المحاور نفسه. حيث أنه وسيله حية استهدفت إنسانية الإنسان. وقد لا يخفى على أهل العلم والنظر. أن الحوار يساعد على تقريب المسائل بين المتحاورين. كما أنه عامل لحل كثير من القضايا والمشاكل...

8 - المصدر السابق

9 - انظر المصدر السابق: ص 109

ونحن ندرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاور وفد نجران. كما أن إبراهيم عليه السلام حاور أباه وقومه. وقد حكى القرآن الكريم صوراً ونماذج كثيرة من هذه الحوارات. مما يعتبر منهجاً أصيلاً من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشري، ومن حيث الاستغراق لأغوار النفس الإنسانية.

وليس هناك من شئ أنفع من تربية البشر، وإصلاح الشعوب، وتقويم النظر من حوار بناء، يعالج شطط الأنسان وجموحه. الأمر الذي يؤدي الى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات.

ومن يطالع كليات "رسائل النور" للإمام بديع الزمان سعيد النورسي يجد أن الحوار بمفاهيمه ومعانيه التي ترقى بالإنسان قد جاءت في مواضيع كثيرة. أهمها:

1 - حوار الإنسان مع نفسه. وهذا يؤدي الى الالتزام بالقيم حينما يسعى الإنسان الى تزكية نفسه والسمو بها.

2 - حوار الإنسان مع الإنسان. وفي ظل هذا الحوار تقوم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب. لأن الإنسان في المجتمع الإسلامي والإنساني جزء من كل. يحمى المجتمع ويحتمى به، ويعطيه ويأخذ منه

وليس هناك انفصال في الإسلام بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع، ومسئولية المجتمع نحو الفرد.

3 - حوار الحضارات. لأن العناصر الخارجية، ضرورة حتمية لا تستغنى عنها حضارة مهما سمت، وارتقت.

ويكاد أن يكون معروفاً: أن "الملاحق في فقه الدعوة"¹⁰ للإمام بديع الزمان سعيد النورسي. عبارة عن مجموعة مكاتيب جرت بين النورسي وطلابه الأوائل.

وطابع "الملاحق" العام طابع توجيهي إرشادي. تدرك في سهولة ويسر أنه يفصح عن أهمية رسائل النور ومنهجها في الدعوة الى الله في هذا العصر.

ونجد في "الملاحق" مكاتيب ودية يبين فيها طلاب رسائل النور مدى استفادتهم الروحية من رسائل النور، واستفادتهم العقلية منها. وكيف أنها حولت مجرى حياتهم، وفتحت أمامهم آفاقاً معرفية واسعة جعلتهم كيف يتحاورون، ويتجاوبون مع الدعوة، وكيف يتفاعلون مع حركة الحياة.

وتتضمن "الملاحق" أيضاً. خواطر وردت على قلب حكيم الزمان بديع الزمان النورسي. يذكرها لطلابه بصدق وإخلاص.

فضلاً عن توجيهات لتقويم السلوك، وكيفية التعامل الحوارى مع الآخرين، والحث على الايمان العميق، والعمل المتواصل، والترابط الوثيق الذي يبنى المجتمع، ويوجد الثقافة الفاعلة البانية.¹¹

وقد يبدو واضحاً أن "الملاحق" تمثل مرحلة متقدمة من الحوار البناء الذي يأخذ بالإنسان الى المسار الصحيح، ويجنيه عقبات كأداء، ويرشده الى أنبل المواقف.

10 - راجع الإمام النورسي - الملاحق في فقه الدعوة ج 7 مجموعة كليات رسائل النور
11 - الأستاذ إحسان قاسم الصالحي - مقدمة الملاحق: ص 5

والملاحق في فقه الدعوة تتضمن ثلاثة كتب مستقلة.
- كتاب "بارلا" وهذا الملحق أو الكتاب يضم المكاتيب الحوارية التي تبدأ منذ نفى النورسي الى ناحية "بارلا" وإقامته الإجبارية هناك الى أن اقتيد مع طلابه الى محكمة الجزاء الكبرى في "اسكي شهر".
- كتاب "قسطموني" وهذا الملحق أو الكتاب. يتضمن المكاتيب التي جرت بين النورسي وطلابه بعد قضائه مدة محكوميته في سجن "أسكي شهر" ونفيه الى قسطموني.

- كتاب "أميرداغ" وهذا الملحق أو الكتاب يقوم على جزئين:
الجزء الأول : عبارة عن مكاتيب النورسي بعد براءته من محكمة "دنيزلي" وإقامته الجبرية في "أميرداغ".¹²
ومما هو جدير بالذكر أن "الملاحق" تمتاز بالطابع الدعوى في مخاطبة المحبين والمناصرين للدين حتى المعارضين له. ويبدو انه لهذا السبب كانت الموضوعات حواراً مع النفس، وحواراً مع الإنسان.
وقد لا يخفى... أن رسائل طلاب النور التي وصلت الى الحكيم النورسي كانت تجاوباً. ولهذا كانت حواراً حياً.
وكانت رسائل النور حواراً يوضح ما ينبغي أن يقوم به المخلصون من كياسة، وعقلانية، وتسامح مستتير.

يقول النورسي تحت عنوان "مهمة رسائل النور" : إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترمم بيناً صغيراً مهدماً. بل تعمر أيضاً تخريبات عامة كلية، وترمم قلعة عظيمة صخورها كالجبال تحتضن الإسلام، وتحيط به.
وهي لا تسعى لإصلاح قلب خاص، ووجدان معين بل تسعى أيضاً - وبيدها إعجاز القرآن - لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الأفكار العامة المكلومة، من الوسائل المسندة التي هيئت لها وركمت منذ ألف سنة.
وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجه نحو الفساد. نتيجة تحطم الأسس الإسلامية، وتياراته، وشعائره. هي المستند العظيم للجميع، ولا سيما عوام المؤمنين.
نعم.. إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان.

وأمام هذه التخريبات الكلية الرهيبة، والشقوق الواسعة، والجروح الغائرة... ينبغي وجود حجج دافعة، واعتدة مجهزة، بدرجة حق اليقين، وبقوة الجبال ورسوخها...

فرسائل النور النابعة من الإعجاز المعنوي للقرآن العظيم. تؤدي هذه المهمة أتم أداء، وتحظى في الوقت نفسه بكونها مدار انكشاف لمراتب غير محدودة للإيمان، ومصدر رقى في مدارجه السامية غير المتناهية".¹³

12 - راجع المصدر السابق: ص 6 بتصرف
13 - راجع النورسي- الملاحق في فقه الدعوة ج 7 ص 118

يعلم الله سبحانه وتعالى أنني وقفت طويلاً أمام هذا النص الذي جادت به قريحة النورسي منطلقاً من القرآن الكريم.
إن هذا النص دل في وضوح على أن حوار الحكيم النورسي كان حواراً ينطلق من القرآن الكريم.

والنص الذي معنا - فيما أوصى من تعاليم ، وفيما جاء به من توجيهات - استهدف إنسانية الإنسان ليصل بالإنسان الى الحياة الإنسانية، ويرتفع بمستواها.
ومما هو مؤكد .. أن الإسلام الحنيف منهج متكامل رفيع ، ورائد في قيادة البشر وهدايتهم، ومنهم غاية السعادة في النفس، والمجتمع، والدين، والدنيا، والآخرة.
وذلك بفضل ما جاء به القرآن من جلال الوسيلة، وكفاية، الفطرة والوفاء بالغاية.
ومن خير صور العطايا التي أهداها الإسلام، ومنحها البشر.. ما جاءهم به من كريم الأخلاق، وباهر السجايا... ما يمكن ان يعتبر منهجاً أصيلاً من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشري، والشمولية لحياة الناس. ومن حيث الاستغراق الكامل لكل أغوار النفس الإنسانية، وأعماقها، وشتى الخواطر الواردة عليها.
وقد لا أكون مجانباً للصواب. إذا قلت: إن الأمام الحكيم بديع الزمان سعيد النورسي أدرك بفكره الثاقب، وحسه القرآني، ووعيه بأتمته الإسلامية ان ترك الإنسان من غير توجيه، ومن غير تدخل يؤدي الى فقدان الإرادة، وفقدان الشخصية، وفقدان المقاومة، والمغالبة، وفقدان التمييز والاختيار. ثم الخصومة، والضياع، والذوبان، والانسلاخ عن ماضى كان مشرقاً ورائعاً...
ومن هنا جاء النص الذي نقلته من "الملاحق" طريقاً يوصل الإنسان الى حوار يجعله ذا قوة واستطاعة، وذا ارتباط بالمجتمع، وذا يقظة واعية بالذات، ومعرفة بالقيم الإنسانية.

وتطالع - أيها القارئ - وأنت تتابع صفحات الملاحق العناوين التالية:

- حوار مع فريق من الشباب.¹⁴

- محاوره مع نفسي.¹⁵

- محاوره مع الذين لهم علاقة برسائل النور.¹⁶

- حوار مع النفس.¹⁷

- يانفسى المغرمة بالفخر

- يانفسى الغوية

- نعم يا نفسي.¹⁸

ولاشك.. أن مطالعة هذه العناوين، والوقوف حولها - أعماقاً وأبعاداً - يدلك على أن الحكيم بديع الزمان سعيد النورسي. كان ينطلق من القرآن الكريم فيحاور النفس.

14 - انظر المصدر السابق: ج 7 ص 174

15 - انظر المصدر السابق: ج 7 ص 230

16 - انظر المصدر السابق: ج 7 ص 233

17 - انظر المصدر السابق: ج 7 ص 291

18 - راجع الإمام النورسي: الكلمات مجلد رقم 1 ص 248 ، 249

ومحاورة النفس ترقى بالإنسان الى مراقى الفلاح. كما أن محاورة الآخرين دليل صحة وعافية. ومحاورة الناس أجمعين تصل بالإنسانية الى التفاهم، والتوادم، والأمن.

وهذه المحاورات التي تنطلق من القرآن الكريم توضح لك أن الإسلام دين استهدف كمال النفس، وجمال الذات، وسمو الوسيلة، وجلال الغاية.

والمنبع الحق الذي يؤتى ثماره - في فكر النورسي - ويعطى نتائجه. لا بد أن تتوافر له عناصر رئيسية لا غنى عنها. من التخطيط، والمرونة، والتدرج. ثم الدعوة إليه، والترغيب فيه والحث عليه. ووجود القدوة التي تطبقه، وتتحدى به، وتضرب أكمل الأمثال في توكيحه، وتعطى أمثل النتائج في اعتناقه، والحرص عليه.

وفي كثير من محاوراته - رضى الله عنه - يقول أعلم.. للإنسان والعالم، والمفكر. وأنت لو قرأت ما جاء في "ذيل القطرة" لوجدت أن جملة "أعلم" تتكرر سبعة عشرة مرة. وفي كل مرة يلفت الى أمر آخر.

وفي الرسالة الخامسة " حباب من عمان القرآن الكريم" تتكرر جملة "أعلم".¹⁹ وفي كل مرة تعمل على ترسيخ مبدأ أو تأصيل قاعدة.

وفي الرسالة السابعة "زهرة من رياض القرآن الكريم" تأتي كلمة "أعلم" لتؤدي حواراً جديداً.

- أعلم أن ما يوصل اليك بحسب الظاهر من الوسائل إما له اختيار أو لا.

- أعلم يامن يستمد من الأسباب.

- أعلم يا قلبى...

- أعلم أن دنياك كمنزل ضيق كالقبر.

- أعلم يا من يريد أن يرى شواهد تجليات اسمه "الحفيظ".

- أعلم أيها السعيد الغافل.

- أعلم أن من سنة الفاطر الحكيم.

- أعلم أن الفضلكات المذكورة في أواخر الآيات.

- أعلم ياقلبي

- أعلم يامن يشوق المسلمين على الدنيا.

- أعلم يامن يدعو المسلمين الى الدنيا.

- أعلم أيها الغافل.

- أعلم أن السموات مصنوعة.²⁰

ومحاورات الشيخ النورسي التي انطلقت من القرآن. اشتملت على هذا المنهج الحق بكل شعبه وعناصره، ومقوماته، ووسائله. وتبدو هذه السمات وضيئة ظاهرة، في كل جانب من جوانب المحاورات التي أدارها. وذلك لأن الإسلام نظام الحياة الإنسانية، الفاضلة، المستقرة، نظام لحياة الفرد والمجتمع معاً.

19 - راجع النورسي: الثنوي العربي النوري ج 6 ص 164 - 195

20 - راجع النورسي: المصدر السابق ج 1 ص 261

وأن الإمام النورسي عمل فيما أجرى من محاورات على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده، ويقوم على تنمية الوعي بالمجتمع، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال.²¹ ولذلك تجد انه في "الشعاع الثالث عشر" يبعث برسائل كثيرة الى طلابه. ترسم لهم المنهج السوي. الذي يصل بالناس الى شاطئ الأمن والإطمئنان. وفي الشعاع الرابع عشر.²² يؤكد لطلاب النور أن رسائله دافع جوانى لمحاورة الناس له بصفة أن النورسي خادم القرآن العظيم.

و"الشعاعات" مدارس تربوية تستهدف التربية القويمية، والخلق الرضى، والسلوك السوي، والأدب الجم، ورياضة النفس ..

إن محاورات الإمام النورسي التي جاءت في "الشعاعات" أكدت أن جانب الوجدان في الإنسان ليس هو العاطفة وحدها، ولكنه التفاعل والتحاور مع النفس، ومع الآخرين في مجتمعه، وفي مجال الحياة الذي يعيش فيه. إنه في الحقيقة إدراك الجمال والتعاطف معه، وإدراك الحسن والعمل على ان يكون محسناً.. وإذا قيل الجمال فهو جمال السلوك، وجمال القوة، وجمال الصنع، وجمال العلاقات مع الغير.

ومما يشد انتباه الباحث في رسائل النور ما جاء في "المذكورة الخامسة من اللغات"²³ حيث يقول: "حينما سار سعيد الجديد في طريق التأمل والتفكير. انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة الى حد ما في أفكار "سعيد القديم" الى أمراض قلبية. نشأت منها مصاعب، ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية...

فما كان من سعيد الجديد " إلا القيام بتحريض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفهية.

فرأى نفسه مضطراً الى إجراء المجاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوروبا.. فهي محاورة مقتضية من ناحية، ومسهبية من ناحية أخرى.

ولئلا يساء الفهم لابد أن ننبه: أن أوروبا اثنتان:

- **احدهما** : هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحققة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية. بما توصلت اليه من صناعات، وعلوم تخدم العدل والإنصاف.

فلا أخاطب في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا... وإنما أخاطب

- **أوروبا الثانية** : تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها، وتوهمت مساوئها فضائل. فسأقت البشرية الى السفاهة، وأوردتها الضلالة والتعاسة.²⁴

ويستمر النورسي في محاورة أوروبا الثانية قائلاً :

21 - راجع النورسي : الشعاعات ج 4 ص 349 ، 350

22 - المصدر السابق : ج 4 ص 533

23 - الإمام النورسي : اللغات ج 3 ص 176

24 - المصدر السابق: ص 177

"يا أوروبا الثانية"
يا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها".
يا أوروبا الثانية الفاسدة " إنك تستندين الى أسس واهية نخرة (27).
فيا أوروبا ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور.
- يا أيها الأوربا. إنك أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة ويسارك المدنية
المضرة السفيهة.
- فيا أوروبا أهديت بدھائك الأعرار لروح البشر هذه الحالة الجهنمية.
- فيا أوروبا تزعم أن كل ذي حياة من أصغر السمك الى أكبر الملك مالك لنفسه
ويعمل لذاته.²⁵
- مخاطبي ليس ضياء باشا بل المفتونون بأوربا.
- والمتكلم ليس قلبي بل تلميذ القرآن.²⁶
" ثم ينتهي من هذا الحوار الهائل الى مقارنة حياة تؤكد أن تعاليم الإسلام التي
شرعها الخالق لإصلاح حال الخلق. جاءت لتنتقل البشرية الى حياة مشرقة بالفضائل.
وما جاء من مقارنة يضع الإنسان الواعي أمام عظمة مبادئ الإسلام الحنيف لأن
هذه المبادئ تسدى المعونة للإنسان كي يدعم فطرته.
ومن المقارنات النافعة التي جاءت في محاورته النورسي لأوربا.
- أن الذي يتلقى الدروس منك - أوربا الفاسدة - ويستترشد بهديك يصبح فرعوناً
طاغية. ولكنه فرعون ذليل، وتلميذك منمرد ولكنه متمرّد مسكين.
- أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم. فهو عبد عزيز وهو لين هين ولكنه
لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه. فهو صاحب همة عليا، وعزيمة
صادقة.
- إن تلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثره لنفسه، ويقيم عليه الدعوى. أما تلميذ القرآن
فانه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض والسماوات إخوانا له، ويشعر من
أعماق روحه بأواصر شوق تشده نحوهم.²⁷
ومما لفت نظري، وشد انتباهي في محاورته ما أشار إليه من أن أوربا اثنتان:
- أوربا النافعة.
- أوربا الفاسدة.
وقد كشف النورسي في وضوح عن مساوي أوربا الفاسدة. ولذلك حرص على أن
يحذر الأمة من تقليدها في هذا الجانب.
وأوربا الفاسدة عملت مافي وسعها لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها،
ومذاهبها، وحضارتها. لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيره. لقد عمل الفساد من الفاسدة
على تضليل المجتمعات الإنسانية وخذاعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه

25 - انظر الإمام النورسي : المثوي العربي النوري ج 6 ص 268 - 269

26 - الإمام النورسي: الكلمات ج 1 ص 228 - 229

27 - الإمام النورسي : للمعات ج 3 ص 177 - 184 / وانظر كذلك النورسي : الكلمات ج 1 ص 144

الحقيقة، وتصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول الى المخاطب من نقطة الضعف والاستغفال لإغرائه، والايقاع به.

ولكم تهاوت أمم، وشعوب، وأجيال - قلدت الفاسدة في فسادها - وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف، والفساد الخلقى، والعقدي، والاجتماعي. بسبب تصورات "الفاصلة" المزخرفة، الخداعة، التي يرقص السذج، والجهال على نغم إيقاعها. ولكم عانى الانسان والمجتمعات والشعوب من أولئك الذين يصنعون والفساد، ويصدرونه في موجات. تقتحم الديار البيوت. لقد قيدت الإنسانية الى هاوية الضلال، والانحراف.

ولقد كانت لصناعة الفساد في كل جيل وفي كل عصر دور تخريبي في حياة الناس.. إلا أن البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها. وضعاً كان فيه للفساد خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسسات كالعصر الذي شهد جزءاً منه الإمام سعيد النورسي. حيث اتخذ الفساد صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ الذي يقتنيه الأتباع.

ولقد بدأ لي واضحا ان الإمام بديع الزمان سعيد النورسي لم يستسلم لهذه التيارات. ولذلك بعد ان كشف عنها في محاوراته. وضع الأساليب المثلى لمن يريد من أبناء الأمة تطهير المجتمعات منها. وتجد أساليبه ومواجهته واضحة فيما يلي:

- نوافذ النور - مفاتيح النور - نور المعراج - كنت أبحث عن النور - لا أشبع من مطالعة الرسائل - الرسائل من العلوم الإيمانية - الرسائل مرشدة - الرسائل قوت وغذاء - العقل والقلب معاً في رسائل النور - مهمة رسائل النور - النساء في طريق النور - الحاجة الى رسائل النور - العلاج الوحيد : رسائل النور - الالتحاق برسائل النور - انتصار رسائل النور - رسائل النور سانحات قلبية - الحقيقة القرآنية في الرسائل - حس مسبق برسائل النور - الرسائل تؤدي المهمة - مكاسب العمل لرسائل النور.²⁸

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذا تأكد لديه ان هذه الرسائل النورانية جاءت لمواجهة تحديات العصر.

ورسائل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - والتي أشرنا الى بعض منها - جاءت لتؤكد للناس وللمجتمعات: أن الأمة الإسلامية أمة المعيارية. ويكاد أن يكون مفهوماً أن الأمة الإسلامية هي أمة المعيار الذي وكل اليها أمر الشهادة على الناس، والقيادة بهم. بما تمتلك من قيم معصومة محفوظة في الكتاب والسنة.

والمعيارية في شخصية الأمة، والتي جاءت كليات رسائل النور تكشف عنها تعنى: أن الأمة الإسلامية في أفرادها ومجموعها تبقى بأمن من التحديات. لأنها عند التزامها بقيمتها تعرف ماذا تأخذ، وماذا تدع.

فالتحديات الفاسدة - من أوربا الفاسدة²⁹ - وغيرها لا تستطيع في ظل تمسك الأمة بمعياريتها أن تذيب ثقافة الأمة ولا ان تلغى هويتها، ولا ان تسيطر على قيمها.

28 - الإمام النورسي: الملاحق ج 4 ص 27 - 287
29 - أوربا الفاسدة : في حوار الإمام بديع الزمان سعيد النورسي. تبقى رمزاً لكل مفسد في الأرض

ويكاد يكون مفهوماً أن التحديات الفاسدة إنما تمتد ابتداءً في داخل المجتمعات الفاقدة للمعيار، ومركز الرؤية. لذلك تتركز وسائل التحديات في محاولة إخراج الأمة عن قيمها المعيارية. لتصبح مهياً لتقبل مايلقى إليها. دون القدرة على اختياره ومعايرته بالشكل المطلوب.

إن إشراقات ولمعات النور التي وضعها النورسي تعتبر من المنبهات الثقافية والمواجهات الضرورية. لإعادة شحذ الفاعلية، واستعادة بناء الذات، وإنهاء حالة الاسترخاء، والكسل.

ويؤكد النورسي فيما ذكره من رسائل المواجهة: أنه لا توجد مدرسة تتناول بالرعاية والعناية النفس الإنسانية كمدرسة الإيمان. لأن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويحول بين النفس وبين دواعي الانحراف بما توفر من قيم فعالة، تعالج ما قد يبئلى به الإنسان.

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذا ما تأكد لديه أن ما تعانیه المجتمعات من هزائم فكرية، واجتماعية، وغيرها هو نتيجة حتمية لانهدام الشخصية أمام المفاسد.

إن الحضارة وصلت إلى أعلى مستوى من الرقي العمراني، والتقدم العلمي الهائل. ولكن قصة البشرية رغم التقدم الحضاري فيها مساوي كثيرة زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم.

فقد أطلقت الحضارة في جانبها الإفسادي حرية الإنسان. وحررت غرائزه من كل ضابط. وتحولت الحريات إلى انحراف في الغريزة، وإلى شذوذ في الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين..

ومن تعاسة الحضارة المادية أنها عكست كرائم النعم. عكساً أسقط الإنسان في وديان الهلاك والدمار. وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات.

لقد راجت العلوم بلا ريب. ولكن هذه الحضارة التي علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات، وكيف يطيطرون في الفضاء، وفي الهواء، وفوق السحاب، وعلى كواكب المجموعة الشمسية. عجزت حتى اليوم عن تعاليم أبنائها وشعوبها كيف يسبحون على الأرض في طريق الخير بغير عوج والتواء...³⁰ ويقيناً جاءت كليات رسائل النور لتحرير الإنسان.

- لأن أول دعامة في منهج النورسي هي :

تحرير العقل والفكر وان شئت فقل: تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر، والنظر، ويطفىئ نور القلوب، ويعمي البصائر، ويميت عناصر القوة والحياة ويفسد على الناس مناهج الاستقامة.

- وثاني دعامة: هي تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي، وسيطرة التبعية العمياء.

- **والدعامة الثالثة:** تحرير الإنسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لمغرياتها. لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان في سلوكه، والتوائه في نظره وتفكيره.

وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء لا يستقيم لهم رأى، ولا تعتدل لديهم موازين، ولا يخضعون لحق ليس في جانبهم.

والمأمل في الخطوات الست التي حاءت في صيقل الإسلام " يجد انه تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمى فيه القدرة على الإبداع بما تفتح له من آفاق التفكير...³¹ وقد كان لا بد أن أعود الى المذكرة الخامسة من اللمعات حيث وجدنا أن النورسي حاور أوروبا الثانية التي تعفنت. ولم يحاور أوروبا النافعة للبشرية.

إذن كانت محاورته لأوروبا الثانية من أجل إنقاذ الإنسان. لأن الإنسان في التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها، وأكرمها. لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزة من صفات.

والباحث بعمق يجد أن تفكير الإمام النورسي التقى مع تفكير الفيلسوف القرطبي ابن رشد حيث قال "إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان. أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم. فما قالوا منها موافقا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه. وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم"³² وإذا كان النورسي لم يحاور أوروبا النافعة.³³ فإن ذلك راجع الى إيمانه العميق بأن الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها فهو أحق بها.³⁴

ويكاد ان يكون معروفاً عند أهل العلم أن التقاء الحضارات - وهو معلم من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية، وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى - هو قدر لا سبيل الى مغالبتة أو تجنبه.

والحضارة الإسلامية هي عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها خلقياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً وفق منهج الله.

وبناء على هذا المفهوم فإن المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر. لأن المجتمع المتحضر هو الذي تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية هي السائدة فيه.³⁵

ولا يفوت الباحث أن يدرك أن الأسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك فإنه يستخدم مآلديها من معطيات وقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً

31 - الإمام النورسي: اللمعات ج 3 ص 177

32 - انظر ابن رشد: فصل المقال ص 17 ط دار الأوقاف الجديدة. بيروت

33 - أوروبا النافعة تبقى رمزاً لكل ما هو مفيد.

34 - جزء من حديث رواه الترمذي وابن ماجة.

35 - انظر الدكتور على أحمد مذكور- الثقافة والحضارة - مجلة الدارة 44 ص 52 الرياض . السعودية

مما لديها. وحين يحتك بمجتمعات متقدمة في ألوان من العلوم والفنون - كاوروبا النافعة التي أشار إليها النورسي - فإنه يأخذ منها ما يتوافق مع قيمه ومبادئه.

وإذا كان هذا هو مفهوم المجتمع المتحضر. فإن التخلف الحقيقي هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى، والعادات غير الخلقية بدلاً من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية...

إن مهمة العلم في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها. بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها.³⁶

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة. فإن هذه الحضارة التي دعا إليها تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية والنفسية والمادية

ويبدو لي أنه لهذا السبب لم يحاور الإمام النورسي "أوربا النافعة" وكأنه أراد بهذا أن يعلم الناس أن الحوار يكون فيما هو بعيد عن المسلمات. لأن المسلمات لا تحتاج إلى حوار. فحوارها هو التفاعل معها واللقاء.

أما أوربا غير النافعة. فلا بد من الحوار معها. لأن الإنسان الواعي، المدرك لرسائله في الحياة. لا بد أن يراعي حدود الروابط الإنسانية. وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنساني الكريم.

ومحاورة أوربا غير النافعة يعنى أن هناك تجاوب إنساني وقائي تستريح إليه النفوس، وترضى عنه، وذلك لأن الإسلام الحنيف دين يهتم بالروح، كما يهتم بالجسد. دين يرنو إلى الغايات، والقيم الفاضلة. ويتوخى في محاوراته: سلوك الحياة المثلى. بعيداً عن المغريات، وشهواتها المردية.

ولا ريب أن هذا النوع من الحوار. يؤدي إلى التطلع الذي يرقى بالإنسانية. وكل ما يرقى بالإنسانية يجد الناس فيه راحتهم وهدوءهم. كما يضع أمام الناس علامات مضيئة. يجدون فيها ثباتهم، وتنشع على سلوك المؤمنين انعكاسات مشرقة من عالم الاستقرار والطمأنينة.

وإذا كان الإمام النورسي لم يحاور أوربا النافعة لأن حوارها أن يتفاعل معها أصحاب الحضارات... فإن الإسلام الحنيف دعا إلى الاستفادة من كل ما هو مفيد.

ومن يتعمق غاية الحوار القرآني الذي انطلق منه النورسي. يجد أن هذا الحوار يهدف إلى غاية تتضمن توضيح المعاني، وإغناء المفاهيم، وتكامل الوعي الإنساني.

ولا شك أن المجتمعات والأمة إذا وضحت أمامها المعالم استطاعت أن تخرج من غربتين:

- غربة الزمان.

- وغربة المكان.

أما غربة الزمان. فهي بعد الأمة عن ماضى حضارى مشرق. لم تعد تربط الأمة به عوامل الثقافة الفاعلة البانية.

وأما غربة المكان. فهي بعد الأمة عن وضع حضارى معاصر تجهل عنه كل شئ. مما ممثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها. ولذلك كان لابد لهذا الأمة في مفهوم الإمام بديع الزمان سعيد النورسي أن تعود الى التفاعل الحضاري، وتخرج من الاغتراب الزماني والمكاني³⁷. وليس هناك من وسيلة في فكر النورسي غير الفهم الصحيح للدين والأخذ بالعلم في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية، وتسامح مستنير. وقد يدرك أهل المعرفة. أن التفاعل الحضاري ضرورة إنسانية لا بد منها لقيام المجتمعات، وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية: الأمن، والاستقرار. وإذا كان الحوار ضرورة حياتية. فإن الإنغلاق قاتل للإنسانية والتبعية الحضارية هي الأخرى قاتلة لكل ابداع. ولعل الباحث يدرك أن الإمام سعيد النورسي لا يريد للأمة ان تنغلق على نفسها. لأن الإنغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء.. وكذلك التبعية الفكرية والحضارية ليست بمفيدة أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية. والعزلة الحضارية والجهل صنوان... كلاهما تخلف... وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء... وكلاهما عقبة كأداء في طريق التقدم والتطور... ويكاد يكون مؤكداً... أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها، مستعينة عن غيرها... وإتما هي نتيجة تطور حضاري دائم، وتفاعل وحوار بين حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها مع غيرها من الحضارات في الزمان والمكان. والنمو الحضاري إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتحاور ازدادت فرص الحياة والنمو، والاكتساب، والتعلم. ومن يتأمل كليات رسائل النور يجد أن الأمة الإسلامية تملك رصيذاً ضخماً من القيم الهادفة، وتوجيهات الإسلام. وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمو لها بأن تنمى فلسفتها الحضارية، والفكرية، والثقافية، وتتسابق ما أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية. والأمة الإسلامية وهي تتطلع الى مستقبل مشرق، لا بد وان تخوض معركة بناء الذات وتجديدها من خلال الحوار الذي دعا إليه الإمام الحكيم النورسي، مسوقة بقيم، وأفكار، وموارث، لها في وعيها فاعليتها القوية البانية.

المصادر والمراجع

- 1 - ابن منظور - ابن منظور الأفرقي : لسان العرب - ط دار لسان العرب بيروت
- 2 - حوى - الأستاذ / سعيد حوى : الأساس في التفسير ط دار السلام - القاهرة
- 3 - السايح - الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح - الحوار الحضاري ضرورة إنسانية مجلة الدارة - السعودية
- 4 - السايح - الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح - الفضيلة والفضائل في الإسلام - ط مركز الكتاب للنشر - القاهرة

696 • المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي

- 5- السايح - الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح - فلسفة الحضارة الإسلامية ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة
- 6- السايح - الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح - أعضاء حول الحضارة الإسلامية : ط دار اللواء . الرياض - السعودية
- 7- السايح - الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح - هذا هو الإسلام : ط دار الثقافة - قطر
- 8- السايح - الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح - مستقبل الحضارة الإسلامية ط الأزهر
- 10- الصالحي- الأستاذ/ إحسان قاسم الصالحي - مقدمة كتاب الملاحق في فقه الدعوة ط استانبول
- 11- القاسم - الأستاذ/ خالد عبد الله القاسم - الحوار : ط دار المسلم - الرياض - السعودية
- 12- الندوة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي - أصول الحوار - ط الندوة - الرياض
- 13- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - الكلمات - ط استانبول
- 14- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - المكتوبات - ط استانبول
- 15- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - اللغات - ط استانبول
- 16- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - الشعاعات - ط استانبول
- 17- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز - ط استانبول
- 18- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - المثنوي العربي النوري ط استانبول
- 19- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - الملاحق في فقه الدعوة ط استانبول
- 20- النورسي - الإمام بديع الزمان سعيد النورسي - صيقل الإسلام ط استانبول
- 21- مذكور - الدكتور/ علي أحمد مذكور - الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي - مجلة الدارة - الرياض - السعودية

الحوار والتعاون بين المسلمين والنصارى في فكر بديع الزمان النورسي

أ.د. توماس ميشل^P

انه لشرف لي ان أدعى الى هنا لتقديم محاضرة في الندوة العالمية المعنونة: (نحو فهم عصري للقرآن الكريم: انموذج رسائل النور).
يجب ان اعترف منذ البداية بانني لا أعد مختصاً في افكار بديع الزمان سعيد النورسي، وانا ادرك بان وجودي في هذه الندوة هو بصفة طالب وليس بصفة "عالم" في الموضوع. وانا اتطلع الى ان اعمق فهمي للقرآن على ضوء تفسير المفكر الاسلامي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي وطريقة فهمه وتناوله واقتراجه منه.
في اثناء قراءتي لمؤلف سعيد النورسي الذي يبلغ عدة مجلدات وجدت كثيراً من وجهات النظر التي رنت في اعماقي. لقد اكتشفت في كتابات هذا المفكر المسلم - الذي نذر نفسه لله كثيراً - من النقاط المتماصة والمتلامسة مع ايماني باله واحد أحد، هذا اضافة الى ساحات عديدة ايضا، حتى انني تمنيت ان اعرف سعيد النورسي شخصياً لكي القي عليه بعض الاسئلة واستفيد من اجاباته.
ليست غايتي من هذه المقدمة القصيرة القيام بمسح شامل للخطوط العريضة لأفكار سعيد النورسي، ولا وضع قائمة للمجالات والساحات العديدة التي قدم فيها وجهات نظر جديدة وقيمة، بل القيام بالقاء نظرة متفحمة على نقطة واحدة وهي "الحوار والتعاون بين المسلمين وبين النصارى في فكر بديع الزمان النورسي" فطوال سنوات

^P ولد سنة 1941 في مدينة سانت لويز الواقعة في ولاية ميسوري في الولايات المتحدة الامريكية. بعد دراسة الفلسفة وعلم اللاهوت تعين عام 1967 كراهب كاثوليكي. درس اللغة العربية والدين الاسلامي في لبنان ومصر. اكمل دراسة الدكتوراه حول كتابات ابن تيمية تحت اشراف البروفسور فضل الرحمن وحصل في شيكاغو عام 1978 على درجة الدكتوراه في الفكر الاسلامي. وكان عنوان رسالته (ابن تيمية "الجواب الصحيح": جواب عالم اسلامي على النصرانية).
قام بالتدريس في جامعة (ساناتا دارما) في مدينة (يوكيا كارتا) في اندونيسيا خلال اعوام 1978 - 1981 وتعين عام 1981 في المجلس البابوي للفتيان للحوار بين الاديان - قسم آسيا وفي عام 1988 اصبح رئيساً في شعبة الدين الاسلامي في القسم نفسه في الفاتيكان. وفي سنوات 1994 - 1996 عمل كسكرتير عام في الدائرة المسكونية وشؤون الاديان لاتحاد المنظمات الاسقفية الاسيوية لاتحاد الكنائس (FABC-OEIA) في بانكوك عاصمة تايلند. وهو الآن امين سر في السكرتارية اليسوعية للحوار بين الاديان في روما في ايطاليا والسكرتير المسكوني لاتحاد المنظمات في الاسقفية الاسيوية لاتحاد الكنائس.

عديدة وحتى في اللحظات التي اشتد فيها التوتر بين النصارى وبين المسلمين (مثلما حدث في اثناء الحرب العالمية الاولى والسنوات التي تلتها) كان سعيد النورسي مفكراً يحاول حل مشكلة الحوار بين المسلمين وبين النصارى. ان نفاذ بصيرته متوافق مع فكرنا، وكثير من وجهات نظره حول الموضوع يحمل الآن ثماره المباركة بين المسلمين وبين جماهير النصارى المؤمنة كما أمل.

اتفاق المسلمين والنصارى حول نقد المدنية :

من ابرز الأهداف والمهمات في كل جماعة من المؤمنين بالله هو مواجهة تحديات العصر . فكل عصر من عصور التاريخ يقدم سلسلة من التحديات الخاصة به، ذلك لان الناس في جميع العهود والادوار التاريخية وكذلك جميع المنتسبين الى أي اطر ثقافية يخضعون على الدوام لاغراء بوضع قيمهم واهوائهم محل القيم التي تجلب رضا الله تعالى.

وقد طبع الايمان النصراني بمجابهة السيد المسيح (عليه السلام) لشروط عهده، وكان اهمها التواطؤ الذي تم بين القوة الحاكمة وبين القيادة الدينية، والعقلية التي اعطت وزناً اكبر للتقيد بالقانون الوضعي ورجحته وفضلته على قيم الرحمة والشفقة والمحبة. وهذه القيادة الدينية كان لها طابع الاحتكار والاقتصار على فئات معينة لها افضلية على الآخرين، بينما أهمل الفقير والغريب والمرأة والافراد غير المتصلعين وغير المدركين لرقعة الدين ولطفه. وشيبه بهذا العرف الاسلامي الذي قام على نضال محمد ضد قيم الكفار في الجزيرة العربية في عهده. واهم قيم الكفر هذه هي عدم الحاجة الى الله وعدم الايمان بحياة خالدة والغطرسة والغرور. كما كانت عبادة الاوثان هي الدين التقليدي للعهد الجاهلي، كما كان هناك ظلم الاقوياء للعبيد وللنساء ولليتامى وللمنبوذين ولابناء السبيل.

وقد انتج عصرنا الحالي تحدياته الخاصة ضد المخلصين من المؤمنين بالله الذين يبتغون رضا الله تعالى في كل شئ. ونستطيع تلخيص هذه التحديات فيما يعرف بـ "المدنية الحديثة". هذه المدنية ليست كلها شرور، فقد جلبت منافع عديدة للبشرية، وليست جميع قيمها ضد الله وضد مشيئته لانها تؤكد وتؤيد كثيراً من السجايا والخصال الانسانية الجيدة. ولكن على أي حال فالمدنية الحديثة تؤيد طريقة في التفكير لا يحتاج فيها الناس أي حاجة لله. ولا يقتصر الأمر على هؤلاء الناس الذي لا يحسون باي حاجة لعبادة الله وحمده وشكره وطلب العون منه، ولكنهم في الاغلب لا ينظرون الى كتاب الله وتعاليمه كمرشد لهم في دروب الحياة، بل يختارون في هذا السبيل افكارهم وتصوراتهم وفلسفاتهم وايدولوجياتهم الشخصية.

اما الذين يرغبون السير في كل شأن من شؤون حياتهم على ضوء رضا الله ومشيئته فلا مناص امامهم من نقد هذه المدنية الحديثة. وقد ادرك سعيد النورسي - الذي يعد مفكراً رائداً في قرننا الحالي - ضرورة قيام المسلمين والنصارى معاً بصياغة نقد لقيم الحداثة والمعاصرة. وقد صرح سنة 1946 أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل بما يأتي:

(في الوقت الحاضر يجب الإتفاق ليس فقط مع الأخوة المسلمين ، بل حتى مع الروحانيين المتدينين من النصارى وعدم الإنتفات الى مسائل الإختلاف وعدم الخوض في المنازعات؛ ذلك لأن الكفر المطلق يشن هجومه)¹
 يرى سعيد النورسي ان الد الخصوم لسعادة الانسانية وللاستقامة الخاقية هو الكفر والزندقة. وهم الناس الذين يقررون تعيين طرقهم في الحياة بانفسهم دون اللجوء الى الارشاد الالهي ودون اعارة أي اهمية لرضا الله ومشيتته، ولا للنظام الحكيم الذي وضعه للانسانية. فهؤلاء لا يريدون التخلي عن رغباتهم واهوائهم وافكارهم الحبيبة الى نفوسهم، ولا اخضاعها لتعاليم الله حول الطبيعة الانسانية ومصيرها. وفي اثناء البحث عن طريق الهي للحياة في العصر الحديث يجد المسلمون ان حلفاءهم الطبيعيين الذين يقفون في هذا الامر الى جانبهم هم النصارى الخاضعين والمتعلقين بتعاليم السيد المسيح (عليه السلام) الذين يرغبون في العيش في ظل الحقيقة.
 وحسب راي سعيد النورسي فانه في مواجهة الاحاد الظالم فان على المسلمين الاتحاد (ليس فقط مع اخوته في الدين، بل ربما حتى مع النصارى المتدينين الحقيقيين ومع الروحانيين منهم)²

لو تحقق مثل هذا الجهد الجماعي واصبح ممكناً عند ذلك سيقوم النصارى والمسلمون بالاحجام عن النقاشات والمجادلات الموجودة بينهما ولو لبعض الوقت. وعندما يقدم النورسي هذا الاقتراح فانه لا يعني انه لا يوجد أي خلافات بين المسلمين وبين النصارى، ولا ان هذه الاختلافات غير مهمة. فالحقيقة ان هناك اختلافات مهمة بين الايمان النصراني وبين الايمان الاسلامي. ولكن وجهة نظره - التي وافقه عليها - تقوم على ان التركيز على هذه الاختلافات والفروق قد تؤدي الى تعمية انظار المسلمين والنصارى عن الهدف الأهم الذي يتقاسمونه بينهما، وهو تقديم نظرة انسانية جديدة للحياة الانسانية وللمجتمع الانساني الى العالم الحديث يكون الله فيها هو المحور، وتكون المشيئة والارادة الالهية هي المعيار والنموذج للقيم المعنوية. يجب الا يخطر على بال أحد بان سعيد النورسي شخص تقليدي وضد المعاصرة والحدثة وانه يحاول ارجاع الزمن الى الماضي، فهو يدرك ان للمدنية الحالية (محاسنها ورفقيها)³ وهذه المحاسن والقيم الايجابية ليست نتاج اوروبا وحدها. بل هي ملك للجميع وظهرت نتيجة : (تلاقح الافكار الانسانية)، أي من تمازج الافكار مع بعضها ومن قوانين وتعليمات الاديان السماوية ومن الحاجات الفطرية ولا سيما من الانقلاب الاسلامي الذي احدثته الشرائع المحمدية). وليس للمتدينين أي مشكلة مع هذه القيم الايجابية للحضارة الحديثة ولا أي خصام، بل يقبلونها ويبتهجون من المنافع التي جلبتها هذه الحضارة للانسانية. بجانب تقييمه الدقيق للحضارة نرى تقييمه الحاذق والماهر لاوروبا كممثل رئيس للحضارة الحديثة (طبعاً لامريكا ايضاً الداعية النشطة

1 - ملحق "اميرداغ" 1 صفحة 202 (190)

2 - "اللمعات" صفحة 146 رسالة الاخلاص والاخوة / اسطنبول 1991 صفحة 13

3 - "الحياب" ضمن (المثنوي النوري) اسطنبول 1980 صفحة 81 نقلاً عن شكران واحدة (بديع الزمان سعيد النورسي) اسطنبول 1992 صفحة 158

لهذه الحضارة). لا يحمل النورسي كرهاً مذهبياً أو نظرياً لأوروبا، ولكنه يلاحظ ان دورها ومساهمتها في الحياة المعاصرة دور غامض ويحتاج ادراكها الى فطنة والى بصيرة. ففي جانب يرى ان أوروبا جلبت خيراً كثيراً للعديد من الناس، ولكنها تسببت من جانب آخر في احداث اضرار كبيرة ومفاسد للحياة الانسانية. فهو يرى أن تيارات فكرية عديدة في التاريخ الغربي ساعدت على ظهور الجوانب السلبية للحضارة المعاصرة، بل مكنتها من السيادة والغلبة على الجوانب الجيدة منها.

كان هناك تطوران بهذا الاتجاه:

الاول: ان الحضارة الغربية - حسب رأي سعيد النورسي - اصبحت بعيدة وغريبة عن النصرانية الحقيقية، وأرست نظرتها للفرد وللمجتمع على المبادئ التي ترى ان الانسان هو محور الكون ومركزه، أي على الفلسفة اليونانية - الرومانية التي ترفع الفرد الانساني الى مركز الكون وتبعد الله عنه وتجعله شيئاً هامشياً.

الثاني: ان الحضارة الغربية ارسدت قواعدها على سياسة وقوانين السوق المنفلتة عن أي رقابة مما أدت الى : (فروق ظالمة وكبيرة في الحياة المعيشية).⁴ لذا ففي نظر المؤمنين بالله هناك وجهان لأوروبا: "أوروبا الحسنة" و"أوروبا السيئة او القبيحة" فكما قال في 1933 - 1934: (ان أوروبا اثنتان:

احداها: هي اوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدمات لحياة الانسان الاجتماعية، بما توصلت اليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والانصاف ، فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من اوروبا. وانما أخاطب اوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها، وتوهّمت مساوئها فضائل. فساقطت البشرية الى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة)⁵

وقد ذكر ان هذا التيار السلبي استهدف تنفير المسلمين والنصارى من مصدر ومنبع القيم الروحية والمعنوية وذلك بخلق العداوة بين المسلمين وبين النصارى. لذا فعلى جميع المؤمنين بالله من الذين يستهدفون وضع الايمان بالله في لب الحياة وفي مركزها ادراك مدى الخطورة الموجودة هنا، فهو يقول:

(من الضروري للروحانيين النصارى (رجال الدين النصارى) وللنصارى الوريين ولطلاب النور ان يكونوا على وعي تام. ذلك لان التيار القادم من الشمال (الشيوعية) سيحاول هدم الاتفاق بين الاسلام وبين المبشرين وذلك دفاعاً عن نفسه ضد هجوم الدين الاسلامي والنصرانية عليه) ولم يكن من الصدفة صدور هذا التصريح من سعيد النورسي في 1945 - 1946 عندما كانت الشيوعية الملحدة قد انتشرت في اوروبا الشرقية.

ان المدنية الحالية في رأي النورسي كنظام للقيم نتاج منابع ومصادر عديدة، وهي على الرغم من ماهيتها الواضحة الجودة في صدام وعداء مع التعاليم الالهية في اكثر

4 - "المحاكمات" اسطنبول 1977 صفحة 37 - 38

5 - "اللمعات" 176

الاحيان. وليس جميع مصادر الحداثة والمعاصرة انسانية، فالظاهر ان جزءاً منها نتيجة ايجاءات شيطانية وهو في تفسيره للآية الكريمة:

{ يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم }

يقول: (ان الافراد والجماعات مع انهم قد عجزوا عن معارضة القرآن إلا أن المدنية الحاضرة التي هي حصيلة افكار بني البشر وربما الجن ايضاً قد اتخذت طوراً مخالفاً له واخذت تعارض اعجازه باساليبها الساحرة)⁶

في هذه الحالة فان القرآن ينصح ويوصي بالوصول والاتفاق على "كلمة سواء" مع اهل الكتاب، وهذا معناه وصول المسلمين والنصارى الى وعي وادراك متبادل ومشارك بان للمجتمعات المؤسسة على الايمان بالله هدف مشترك وهو ان تكون شاهدة على القيم الالهية وسط الحضارة الحديثة، وذلك بعيداً عن زعم "صدام الحضارات" بل عليها مهمة العمل المشترك لادامة الحوار الانتقادي الحاسم مع انصار الحداثة.

التوترات بين النصارى و المسلمين:

ان من الحقائق المؤسفة للتاريخ الانساني ان النصارى والمسلمين على الرغم من طبيعتهم المشتركة كامم تعبد وتطيع الاله الواحد نفسه... على الرغم من هذا فقد تورطوا في خلافات وخصومات، بل حتى في حروب بينهما. ونظر احدهما الى الآخر كعدو يجب ان يقاوم ويتغلب عليه. وهكذا فان طاقة كلا الطرفين التي كان من المفروض استخدامها بشكل تعاوني في انشاء المجتمعات المرتبطة بتعاليم الله... هذه الطاقة تبذرت نتيجة الشكوك المتبادلة وحب الهيمنة والسيطرة في بحر من الدماء، وفي الكتب التي كتبها في اواخر الحرب العالمية الاولى عندما وصل التوتر والمذابح الى ذروتها بين المسلمين والنصارى - قدم سعيد النورسي طريقاً آخر لحل هذه العقدة المستعصية.

استقبل منتسبو العشائر الكردية في شرقي الاناضول فكرة اعطاء الحرية للروم وللارمن بالنفور والكراهية، وسألوا سعيد النورسي عن رأيه في هذا الخصوص. ولم يؤكد جوابه على ان الشريعة الاسلامية تأمر باعطاء حق الحرية لهؤلاء النصارى، بل عكس الموضوع على منتسبي هذه العشائر داعياً اياهم لادراك ان المشكلة الاعمق تكمن في قلب ولب جهلهم وقساوة قلوبهم. قال لهم: (ان حريتهم الا يُظلموا، ولايُخلّ براحتهم، وهذا أمر شرعي. أما مازاد على هذا فهو تعدّ منهم تجاه طيشكم وسوء تصرفكم، أو استغلال لجهلكم.)⁷ وادف النورسي قائلاً بان عدوهم الحقيقي ليس هذه الجماعة من النصارى او تلك، بل هو (الجهل والاختلاف والضرورة أي الفقر) واذا ما نظر الى تحليل له آخر فانه يبين ان وضع الانحطاط الذي سقط فيه

6 - الكلمة الخامسة والعشرون من "الكلمات" صفحة 472
الترجمة الانكليزية (الكلمات the words اسطنبول 1992 صفحة 420
7 - (المنظرات) اسطنبول 1977 صفحة 20 نقلاً عن واحدة شكران صفحة 95

الجميع، قد ترأسته (جمعية تشكلت برئاسة «الجهل» «أغا و» «العناد» «أفندي، و» «الغرض» «بك، و» «الانتقام» «باشا و» «التقليد» «حضر تلى ومسيو» «الثروة»⁸)
 وانا كمسيحي اجد هذا التقييم (الذي يصل الى لب وجوهر المشكلة) مشابهاً لما قرأته في احدى كتابات القديس بولص عندما ذكر: (ان معركتنا ليست موجهة ضد القوى الانسانية، بل هي موجهة للقوى السوداء التي تحكم هذا العالم).
 بعبارة اخرى فان اعلم مستويات نضالنا وكفاحنا في سبيل بناء مجتمعات تحقق مشيئة الله وتتمتع بتناغم وائتلاف وسلام يجب ان يوجه نحو اعدائنا الحقيقيين الذين ليسوا هم الناس الآخرين، بل هي قوى الجهل والفقر والعدوان التي تحجب قوى القدرة على الفهم والادراك عندنا جميعاً، وتمنعنا من التصرف حسبما ينبغي. ولا توجد قوى الظلام هذه خارج انفسنا، بل هي موجودة في قلوبنا. ولذا أكد الاسلام والنصرانية على التوبة (في اليونانية metanoia) كمفتاح للتحويلات الاجتماعية.
 ورسالة سعيد النورسي لا تزال سارية وصحيحة حتى في ايامنا الحالية، مثلما كانت سارية وصحيحة عند كتابته لهذه الكلمات قبل ثمانين عاماً. فلا تكمن جذور التوترات والخصومات بين المسلمين وبين النصارى في الوقت الحاضر في الطبيعة الشريرة للآخرين، بل في الرغبات الانانية للسيطرة وللهيمنة على الآخرين وفي مشاعر الثأر والانتقام. وبهذا المفهوم فان تحرر الآخرين من "قوى الظلام" هذه جزء من تحرر انفسنا او كما قال سعيد النورسي:

(حرية غير المسلمين هي شعبة من حريتنا)⁹

جزاء الشهداء الابرياء:

في كتابته في اثناء اكثر الادوار التاريخية المأسوية للاناضول،¹⁰ لم يكن بمقدور سعيد النورسي تجاهل حقيقة موت العديد من الناس الابرياء. وقد كان له فضل وشرف الارتفاع والسمو فوق المشاعر الطائفية والاخلاص الطائفي عندما اشار الى الضحايا النصارى علاوة على الضحايا المسلمين الذين سقطوا قتلى في تلك الاثناء: (ان هذه المصائب وامثالها ينطوي تحتها نوع من الرحمة والمجازاة - حتى على الكافر - بحيث يهون تلك المصيبة، فتظل هينة بسيطة بالنسبة اليهم. واصبح هذا التنبيه مرهماً شافياً لإشفاقي المؤلم)¹¹

عندما رأى سعيد النورسي المصائب والويلات التي يقاسيها الناس الابرياء أحس بعاطفة قوية من الحنو والشفقة والرحمة على هؤلاء: (لقد مسّ مساً شديداً مشاعري واحاسيسي المفرطة في الرأفة والعطف ما اصاب الضعفاء المساكين من نكبات وويلات ومجاعات ومهالك من جراء هذه الطامة البشرية التي نزلت بهم وفي هذا الشتاء القارس...)

8 - (المناظرات) (عن الطبعة العثمانية) صفحة 433 نقلاً عن واحدة شكران صفحة 95

9 - (المناظرات) صفحة 21

10 - (المسلمون والأقليات: اهالي اناضول العثمانيون ونهاية الامبراطورية) تأليف جوشين مالك آرشي. نيويورك 1983. جاء في صفحة (120 - 121) منه ان عدد الضحايا من المسلمين والناصارى في سنوات الحرب العالمية الاولى كان اكثر بكثير من الضحايا في البلدان الاوروبية الاخرى.

11 - ملحق "قاصطموني" اسطنبول 1960 صفحة 45

ورأى وعدّ ان هؤلاء الابرياء الذين ماتوا في تلك الظروف القاسية (هم نوع من الشهداء مهما كانت عقيدتهم الدينية) و (ان جزاءهم ومكافأتهم ستكون كبيرة وستنقذهم من جهنم)

ويختم كلامه قائلاً: (لأن الدين - ولاسيما الاسلام - يُستر بستار اللامبالاة في آخر الزمان، وان الدين الحقيقي لسيدنا عيسى عليه السلام سيحكم ويتكاتف مع الاسلام. فيمكن القول بلا شك ان ما يكابده المظلومون من النصارى المنتسبين الى سيدنا عيسى عليه السلام والذين يعيشون الآن في ظلمات تشبه ظلمات «الفترة» وما يقاسونه من الويلات تكون بحقهم نوعاً من الشهادة)¹²

ان الذين ظلموا واضطهدوا الآخرين وارتكبوا الجرائم في حق جيرانهم سيعاقبون من قبل الله. وعلى العكس من هذا فان (الذين سارعوا في اغاثة هؤلاء المظلومين الذين عانوا من آلام النكبات وناضلوا وكافحوا في سبيل السعادة البشرية وفي سبيل حفظ الاسس الدينية والمقدسات السماوية والحقوق الانسانية فلا شك انهم سيحصلون على الثمرات المادية والمعنوية الكبيرة جراء تضحياتهم، وستكون تلك المصائب سبباً في اعلاء منزلتهم وجلب السعادة لهم).

ان الرغبة في الفهم وفي المشاركة في مشاعر الآخرين وما يقاسونه، واكتشاف الخير والحسنات لدى الجماعات التي تعتنق ادياناً اخرى علامة واشارة الى انه شخص يسير في هدى التعاليم الالهية. ان معظم الافراد المتدينين يقتصرون عادة على ذكر محن جماعتهم او ذكر مآثرهم ومنجزاتهم، ولا يستطيعون تخطي هذا الأمر. ولكن موقف سعيد النورسي في سياق كلامه هذا حول "الشهداء" النصارى يذكرني بما قاله البابا بولس السادس سنة 1969 عندما أشار الى النصارى الاوغنديين الذين ضحوا بحياتهم في العصر الأخير ولم يرضوا الارتداد عن دينهم وايمانهم، وجلب انتباه مستمعيه الى حقيقة وجود كثير من المسلمين في ذلك القطر ممن فضلوا الموت على خيانة ايمانهم الاسلامي او بقبول أي تسوية مذلة، وقال بان الطرفين كانا مثلاً للشهداء الحقيقيين في سبيل الايمان بالله.

المصالحة والصدقة بين المسلمين والنصارى:

كان سعيد النورسي يدرك بان العلاقات بين المسلمين وبين النصارى لا تقتصر على مجرد تحالف المؤمنين في نقد وفي مواجهة خطر ايدولوجية المعاصرة والحداثة، او حل التناقضات او التعاطف مع الضحايا الابرياء، بل وجوب سير هذه العلاقات باتجاه السلام والمصالحة وحتى الصداقة. فقبل وفاته بخمس سنوات عندما قام بتأييد "حلف بغداد" قال بان فائدة هذا الحلف لا يقتصر في ان الاتراك كسبوا (400) مليوناً من الاخوان ومن الاخوات من بين المسلمين بل ان هذا الاتفاق العالمي أكسب الاتراك المسلمين صداقة (800) مليون مسيحي¹³ وانه خطوة نحو مزيد من السلم الذي نحتاجه ونحو مزيد من المصالحة بين هاتين الجماعتين المؤمنتين. وفي

12 - ملحق "قاصطموني" اسطنبول صفحة 75
13 - ملحق "امير داغ" صفحة 24 - 56 نقل عن واحدة شكران صفحة 354

سنواته الأخيرة بذل سعيد النورسي جهوده الشخصية في انشاء المصالحة والصدقة مع النصارى، فأرسل في سنة 1950 مجموعة من كتبه الى البابا بيوس الثاني عشر في روما وتسلم جوابه في 22 شباط سنة 1951 مع رسالة شكر شخصية. وان الشخص المراقب يلاحظ بانه لم يمر الا عشر سنوات على هذه الرسالة حتى اعلنت الكنيسة الكاثوليكية عند انعقاد المجلس الكنسي الثاني للفاثيكان احترامها وتقديرها للمسلمين وأكدت بان الاسلام كان طريقاً اصيلاً وحقيقياً للخلاص والنجاة.¹⁴ وبالطريقة نفسها وبعد سنوات قليلة قام سعيد النورسي بزيارة البطريق "أثوناكروس" في سنة 1952 في اسطنبول للبحث عن طريق للتعاون بين المسلمين وبين النصارى لمواجهة الاحاد الظالم.

وقبل سنوات عديدة وبالضبط في 1910 - 1911 سئل سعيد النورسي عن اسباب رغبته في اقامة علاقات صداقة مع النصارى. وقد جوبه بالآية {ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء} (5: 51) من قبل بعض المسلمين الذين فسروا هذه الآية ضمن حدود ضيقة وقيل له: كيف تقول اذن بان على المسلمين والنصارى ان يكونوا اصدقاء؟.

ان جوابه يلقي ضوءاً ليس على رغبة سعيد النورسي في تقوية المحبة والصدقة بين المسلمين وبين النصارى، ولكن ايضاً على طريقة فهمه للتفسير القرآني. فهو يرى ان هذا التحريم ليس عاماً بل هو مطلق، لذا يمكن تقييده وحصره، اذ قال: (ان الزمن مفسر كبير، فان اظهر قيده فلا يمكن الاعتراض عليه) أي ان توضحت مسألة خلال الزمن فلا يمكن الاعتراض عليه (ثم ان كان الحكم مشتقاً فان مأخذ الاشتقاق يكون علة الحكم).

عند تطبيق هذا المبدأ على تفسير هذه الآية يرى بان حظر الصداقة مع اليهود والنصارى يكون جارياً عندما يظهرون ويعكسون يهوديتهم او نصرانيتهم فقط، ويختم كلامه بالقول كما ان كل سلوك وتصرفات الفرد المسلم لا تعكس بالضبط تعاليم الاسلام، كذلك فان جميع سجايا اليهود والنصارى لا تعكس الكفر بالضرورة فان وجد المسلمون في يهودي او في مسيحي سجايا متوافقة مع تعاليم الاسلام فعليهم الاشارة بهذه السجايا. وهذه السجايا الحميدة هي التي تؤلف وتؤسس قاعدة الصداقة مع اليهود والنصارى. وهو يُسال: أمن الممكن ان يحب المسلم نصرانياً أو يهودياً؟ ويجب على السؤال بمثال رجل له زوجة من أهل الكتاب: (لا شك انه يحبها)¹⁵ وحجته في هذا هي حقيقة ان سماح القرآن للمسلم بالتزوج من امرأة يهودية او نصرانية يدل على انه يحتم عليه ان يحبها.

رجوع المسيح (عليه السلام) :

لا يوجد هناك تفسير صعب مثل تفسير المقاطع وال فقرات المقدسة التي تتحدث عن المستقبل وعن العهود القادمة. وهذه المقاطع سواءً أكانت آيات قرآنية تتحدث عن

14 - "بيدع الزمان سعيد النورسي" تأليف: شكران واحدة صفحة 344

15 - "المنظرات" صفحة 26 - 27

اقتراب ساعة القيامة او كانت سفر الرؤية (رؤيا نبوية) في الكتاب المقدس للمسيحيين تكون عادة مكسوة برموز صعبة ومعقدة وباشارات وايماءات ضمنية. ويتطلب تفسير هذه المقاطع قواعد محددة وتمسكاً داخلياً وقلبياً بالنص من قبل مفسر ذي ايمان عميق وصلب، والا فان المفسر يمكن ان يضل طريقه بسهولة من قبل افكاره المسبقة ومفاهيمه الشخصية.

نرى سعيد النورسي وهو يستخدم هذه القاعدة بكل عناية عندما يقوم بتفسير ما جاء في سياق بعض احاديث رسول المسلمين محمد المتعلقة برجوع السيد المسيح قبل يوم القيامة آخذاً بنظر الاعتبار بيئة ومحيط هذا القرن وهو يقبل صحة هذه الاحاديث وينتظر رجوع المسيح (عليه السلام) ويقول:

(مادام القدير على كل شيء قد وعد فإنه لا محالة سيأتيه)¹⁶

والمسيح في الوقت الحاضر موجود في السماء بجسده الدنيوي مثله في ذلك مثل ادريس (عليه السلام)¹⁷ ولكنه سينزل في آخر الزمان الى الارض ليقاتل الدجال ويقتله.

يقول النورسي بان معنى هذه الاحاديث يجب ان يدرك في ظل مفهوم الشخصية المعنوية: (أن سيدنا عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان ويحكم بالشرعية المحمدية حكمته هي الآتي:

انه ازاء ما تجريه الفلسفة الطبيعية من تيار الالحاد وانكار الالهية في آخر الزمان، تتصفي العيسوية وتتجرد من الخرافات. وفي أثناء انقلابها الى الاسلام، يجرّد شخص العيسوية المعنوي سيف الوحي السماوي ويقتل شخص الالحاد المعنوي، كما ان عيسى عليه السلام الذي يمثل الشخص المعنوي للعيسوية يقتل الدجال الممثل للالحاد في العالم. بمعنى انه يقتل مفهوم انكار الالهية)¹⁸

يتنبأ سعيد النورسي بان خطرين كبيرين سيهددان الدين، وذلك بشكل تيارين الحاديين يمثل احدهما من قبل السفيناني والآخر من قبل الدجال. التيار الاول الذي يمثل السفيناني سيسعى وسيحاول هدم الشريعة المحمدية، ولكنه سيهزم من قبل المهدي المنتسب الى سلالة الرسول (ص). والتيار الثاني الممثل من قبل الدجال سيعزز ويشجع الفلسفة المادية والطبيعية المؤدية الى انكار الله. وسيعمل كلا التيارين من خلال الجمعيات السرية لهدم وتدمير حكم وسلطة الله من القلوب ولازالة مفهوم القداسة من الحياة الاجتماعية.¹⁹

وستقوم النصرانية الحقيقية والمتطهرة من الشوائب والتي تمثل الشخصية المعنوية للمسيح (عليه السلام) بالتصدي للتيار الثاني. وهذه النصرانية ستنبذ

16 - "المكتوبات" صفحة 53 - 54

17 - "المكتوبات" صفحة 6 (الرسائل سنة 1928 - 1932 صفحة 22)

18 - المصدر السابق. الصفحات نفسها

19 - (المكتوبات) صفحة 424

الخرافات والتحريفات، وستتحد مع التعاليم الإسلامية. وفي الحقيقة فإن النصرانية - كما يذكر سعيد النورسي - (سوف تتقلب الى نوع من الاسلام)²⁰ ويعتقد وليس من الضروري ان يعرف الجميع المسيح (عليه السلام) عندما يرجع. ويعتقد سعيد النورسي بان المؤمنين الحقيقيين والمقربين الى المسيح (عليه السلام) هم الذين سيرفون فقط انه هو المسيح الحقيقي، وليس جميع الناس. والاهم من هذا هو ان الدجال - الذي هو رمز للتيارات الالحادية في المجتمع الانساني - سيكون خصماً هائلاً وقوياً وسيخدع الكثيرين بوعوده بجنة زائفة، وباغراءات اللهو وسائر اغراءات المدنية. ومن المستحيل على من يقرأ الاوصاف التي يسردها سعيد النورسي حول الدجال الا يجد فيها اشارات وايماءات ضمنية للامبراطورية الواسعة للاتحاد السوفيتي السابق والى السيطرة العلمانية للشعوب الاوروبية.

على أي حال فإنه يتطلع بشوق الى اليوم الذي ينبثق ويظهر فيه الدين النصراني الحقيقي وينشر نوره للعديد من الناس لكي يقاتلوا ويجهدوا ضد الجمعيات السرية للسفاني والدجال. ويصف هذه النصرانية المصفاة والمتطهرة بانها ستكون (تحت اسم جماعة عيسوية (نصرانية) متحمسة وذات حمية وتضحية ولانقة لان يطلق عليها اسم "النصارى المسلمون") وستعمل على (توحيد الدين الحقيقي للمسيح (عليه السلام) مع حقيقة الدين الاسلامي) وستقوم تحت لواء عيسى (عليه السلام) بقتل جماعة الدجال وتشتيت شملهم وتنقذ الانسانية من الالحاد وانكار الالهية).

وهكذا فان حركة التصفية والتقية التي يتوقع سعيد النورسي حدوثها في النصرانية ليست قيام النصارى بالتخلي عن دينهم والدخول الى الدين الاسلامي، بل قيامهم بتكملة الجوانب المضيئة والخيرة الموجودة لديهم أصلاً وهو يصرح: (كأنه يقول: «لايشقّ عليكم الدخول في هذا السلك، اذ لاتخرجون عن قشركم بالمرّة بل انما تكملون معتقداتكم، وتبنون على ما هو مؤسس لديكم» اذ القرآن معدّل ومكمل في الاصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة واصول الشرائع السالفة إلا انه مؤسس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان والمكان)²¹

النتيجة:

في كل هذا يقدم سعيد النورسي افكاراً جديدة وأصيلة حول الحوار والتعاون بين المسلمين وبين النصارى. وتقوم دعوته الاساسية والمركزية على ان المسلمين والنصارى يستطيعون معاً بناء حضارة حقيقية حسب الخطة الالهية، حيث تكون العدالة والكرامة الانسانية والصدقة هي الاساس وهي المعيار. وهذا شئ ممكن ان قاموا بالبحث عن ارضية للعلاقات المتبادلة القائمة على المحبة.

في خطبته الشامية المشهورة يصرح بان الكلمة او الاساس الرابع الذي يجب ان تقوم عليه الحضارة هو المحبة: (ان اجدر شئ بالمحبة هو المحبة نفسها. واجدر صفة

20 - (المكتوبات) صفحة 52

21 - (اشارات الاعجاز) اسطنبول 1978 صفحة 55 - 56

بالخصومة هي الخصومة نفسها. أي ان صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع الى تحقق السعادة هي أليق للمحبة،²² و (لقد انتهى عهد الخصومة والعداوة)²³ ان هذه الدعوة للحب حتى وان كانت ضمن حدود جماعة شخص تظل صحيحة حتى الآن. وقد اظهرت الحوادث التي وقعت في العالم بعد القائه لخطبته الشامية سنة 1911 مدى اهمية هذه الدعوة اذ وقعت حربان عالميتان، وحدثت نزاعات بين الهند وبين باكستان، ومذابح في "راونده" و "بروندي"، ووقع الفلسطينيون في ورطة وفي مأزق، والهدم والتخريب الذي حدث في البوسنة سابقاً وفي "قوصوه" حالياً، كما وقعت نزاعات دموية عديدة في سائر انحاء العالم. وكل هذا يذكرنا بان المحبة هي الحل الوحيد للحيلولة دون الهدم والتخريب ودون قتل الانسان لأخيه الانسان. ولا يزال العالم ينظر الى المسلمين والى النصارى كجماعتين مؤمنتين بالله الودود والرحمن الرحيم لكي يشيروا الى طريق المحبة كبديل الهى للكره والحرب

ترجمة: اورخان محمد علي

الخطاب القرآني وكتاب الكون في رؤية النورسي

د . سامي عفيفي حجازي^P

الحمد لله أنعم علينا بالإسلام ، وهدانا للإيمان ، وحفظ لنا أصول الهداية بالعلم والمعرفة في كتابه "المقروء" القرآن الكريم وكتابه المنظور " الكون وما فيه " . والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .
أما بعد ...

فإن الخطاب القرآني كهداية ربانية تجسد الرحمة الإلهية ، وكدين إلهي ينظم الحياة الإنسانية في جميع جوانبها وكافة ميادينها ، ولذا اهتم أول ما اهتم بتحرير العقل البشري والفكر الإنساني من الأساطير والأوهام ، ووجهه توجيهاً يتمشى مع طبيعة الخلق وحقيقة الفطرة على أسس واضحة المعالم، ثابتة على مفاهيم بينة المسالك لأن سلامة العقل هي التي تتوقف عليها دلالة النص وفهم المعنى المراد ، ولأن المخاطب بالخطاب القرآني " الوحي " أولاً وآخرأ هو العاقل أي ذلك الذي يتمتع بالأداء الفعلي لقواه العقلية.

نعم لقد حرر الخطاب القرآني العقول من أغلال الوثنية وحطم كافة الفلسفات الوضعية الجاهزة، ومنح المسلمين حرية التفكير وحرية العقيدة فكان المسلمون الأولون هم قادة أهل الأرض بقدر علمهم وعملهم بتعاليم القرآن الذي هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات . . . والمفتاح لحقائق الشئون المضمرة في سطور الأحداث . . . والقول الشارح والبرهان القاطع . . . والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه⁽¹⁾ كما أنه كتاب الشريعة التي هي بسعة دساتيرها وقوتها تشير إلى أنها نظام الكون ومن وضع خالق الكائنات كما يقول صاحب كلييات رسائل النور : إن ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الأكمل هو ناظم هذا الدين بهذا النظام المعجز⁽²⁾ .

P ولد في مدينة المنوفية سنة 1949 . استاذ بقسم الفلسفة والعقيدة في كلية اصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة. وله مؤلفات عديدة منشورة.

(1) راجع بديع الزمان سعيد النورسي مجموعة كلييات رسائل النور مجلد إشارات الإعجاز ج5 ص22
(2) المرجع السابق . وراجع المكتوبات والملاحق

وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر ، وكما أنه كتاب واحد إلا أن فيه كتباً كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان التي توصله إلى السعادة في الحياة الدنيا والنعيم في الحياة الآخرة .

ولذا كان أثر الخطاب القرآني بارزاً في إيقاظ الوعي الإنساني بأبعاده المتعددة التي تتلخص في :

أولاً : الكتاب المقروء ممثلاً في الكتاب المنزل قال تعالى { **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** }⁽³⁾ .

ثانياً : الكتاب المخلوق وهو الكيان المشهود ممثلاً في الكون كله . قال تعالى { **سنزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم** }⁽⁴⁾ .

ثالثاً : الكيان الناطق ممثلاً في القدوة المعصوم وهو الرسول μ وسنته الشريفة القولية والعملية قال تعالى { **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** }⁽⁵⁾ .
ماهية الخطاب القرآني وأهميته :

قضت مشيئة الله تبارك ، وتعالى خلق بني البشر بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف الألسنة، والألوان ، والمنطلقات والأفكار .

وهذه وتلك تقضى إلى تعدد الاتجاهات والأحكام ، وتختلف باختلاف قائلها ، وإذا كان اختلاف ألسنتنا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله فإن اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله كذلك ، وبرهان من براهين قدرته البالغة

ولذا يقول الإمام بديع الزمان إن الخطاب القرآني يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور وكأنه متوجه توجهاً خاصاً إلى تلك الطبقة بالذات إذا لما كان القرآن يدعو جميع بني آدم بطوائفهم كافة إلى الإيمان الذي هو أسمى القضايا وأدقها وإلى معرفة الله وأنوارها ، وإلى الأحكام الإسلامية التي هي أهم المعارف وأكثرها تنوعاً فمن الأُلزم أن يكون الدرس الذي يوجهه لتلك الطوائف من الناس ، درساً يوائم فهم كل منها⁽⁶⁾ كما يقول : إن الخطاب القرآني يوقفنا على الترجمة الأزلية لهذه الكائنات . نعم إنه يمثل لسان الغيب في عالم الشهادة ثم يقول :
وكما أنه كتاب واحد فإن فيه كتباً كثيرة⁽⁷⁾ .

ولذا يدلل بديع الزمان على تميز الخطاب القرآني وشموله لطوائف بني البشر فيقول : " والحال أن الدرس واحد ، وليس مختلفاً ، فلا بد إذن من وجود طبقات من الفهم في الدرس نفسه ، فكل طائفة من الناس حسب درجتها تأخذ حظها من الدرس ومن مشهد من مشاهد القرآن الكريم⁽⁸⁾ .

(3) سورة الحجر آية (9) .

(4) سورة فصلت آية (53) .

(5) سورة الأنبياء آية (107) .

(6) راجع بديع الزمان كليات رسائل النور .

(7) راجع كليات رسائل النور . مجلد الكلمات 274 ، 424 .

(8) كليات رسائل النور مجلد الكلمات .

كما يفيد أن المحاوره في خطاب القرآن الكريم لم تأت عرضاً وإنما تمثل مغزى وهدفاً أساسياً من أهداف القرآن التي تبعت إلى تحقيق جوانب الإصلاح والخير للأفراد والجماعات . ولذلك تناول البيان القرآني لتدعيم أصوله وفروعه جمله وافرة من الوسائل⁽⁹⁾ التدعيمية ، وما من أساس أو تكليف إلا وقد سبقه معه ما يثبت به ويؤكد ويُلطف منه إن كان خيراً ، وينفر منه إن كان غير ذلك بوسيلة من وسائله المتعددة .

وعلى ضوء ما تقدم فالمستقرى لآيات الخطاب القرآني يقف على صدق ما أشرنا إليه من التنوع وأنه لم يقف عند درجة واحدة أو يقتصر على جانب معين كأمر الحياة الدنيا أو أمور الآخرة بل نجد فيه كل جوانب هذه وتلك .

ولذا عمل بديع الزمان على إيقاظ الخطاب القرآني في كافة الجوانب لتوحيد قبلة الفكر . التي جمعها الخطاب القرآني في تعاليمه وآدابه وتشريعاته .

ومن الواضح أن الخطاب القرآني أسس بنيان الفكر الإنساني وتوجيهات العقل البشري على الوحي الألهي المعصوم ممثلاً في كتاب الله المقروء وكتاب الله المنظور فحمى بذلك العقل من الحيرة والضلال في قضايا لا يقدر على الاستقلال بها، أو الكشف عنها كمسائل الغيب بالتعبير القرآني أو "عالم ما وراء الطبيعة" بالتعبير الفلسفي .

ولذا كان للخطاب القرآني دوره في إرشاد العقل إلى الطريق الأقوم ، ودله على المنهج الأسلم في فقه القضايا التي لا يستطيع العقل الاستقلال بها لأنه يفقد فيما يصل إليه بشأنها من نتائج عنصر "الإلزام" وبالتالي لا يستطيع أن يضعها موضع العمل والتطبيق ، أي أن العقل قد لا يستطيع أن يستقل بموضوعات تتعلق بالتشريعات والسلوكيات :

يرسم مسالكها ويحدد مسارها ، ويبين لها مناهجها ، وينتهي إلى نتائج بشأنها ، لكن هذا العقل المجرد في صورته الفردية أو الجماعية لا يملك عنصر "الإلزام" الذي لا يتصور بدونه قيام تشريع ناجح ملزم ، أو سلوك موجب فعال ، والذي يملكه إنما هو الخطاب الألهي المعصوم ، ويمنحه للفكر المعتصم به⁽¹⁰⁾ .

فالخطاب القرآني عندما يتعامل مع موضوع من الموضوعات التي يتعرض لها يتعامل معه في إطار الوحي ابتداءً أو استناداً أو استمداداً بحيث لا يخرج فيما يصل إليه من نتائج عن الوحي المعصوم .

إن هذا التفرد للخطاب القرآني قد منحه خصوصية جوهرية وهي القدرة على التعامل مع الموضوعات المختلفة في مجال الطبيعة وما وراء الطبيعة في ثوابتهما ومتغيرتهما بدون الوقوع في برائن التناقض ، وهو الأمر الذي عجزت عنه الفلسفات القديمة والحديثة والنظم الوضعية .

(9) ومن هذه الوسائل القصة والقسم والاستدلال والحكم والأمثال والتأكيد والتكرار وتعليل الأحكام وتعدد ألوان الخطاب وغير ذلك من فنون البراهين البالغة في كل حال حد الإعجاز .

(10) دكتور دين محمد ميرا صاحب - مفهوم الفكر الإسلامي .

إن الجمع بين الثبات والتطور في دنيا الإنسان والكون وبين عالم الشهادة وعالم الغيب وبين المادة والروح تحت مظلة العقيدة الإسلامية في صفاتها ونقائنها وتنزهها يعد من خصائص الفكر الإسلامي وأهم مميزاته .

إن العلم الذي يكشف لنا الغاية الإلهية من خلق الكون والهدف النهائي من هذا الخلق هو نفسه مهمة الإنسان ووظيفته وعبادته كذلك .

ولذا يوجه الخطاب القرآني الأنظار والعقول إلى هذه الغايات ويحث الإنسان على الوصول إلى هذه الحقائق عن طريق العلم وعن طريق التقدم ومن هنا لم تكن الصبغة الأساسية في الخطاب القرآني المعرفي هي منهج " الثوابت " الذي يمثله منهج أرسطو أو منهج المتغيرات الذي يمكن أن نراه عند " هيجل " إنما كانت صبغة فريدة تجمع بين الجوانب المتعددة لقوى الإنسان وإدراكاته ، فالمنهج الإسلامي في المعرفة ليس عقلياً خالصاً ، ولا تجريبياً صرفاً أو مثالياً موعلاً أو حسياً منطوقاً

وهذه المناهج كلها التي مثلتها وتمثلها " مدارس فلسفية في الشرق والغرب خارج الفكر الإسلامي تعجز عن التوفيق بين قوى الإنسان المختلفة وملكاته ودوافعه وانفعالاته المتنوعة فضلاً عن عجزها عن التوفيق بين الإنسان والكون الذي يعيش فيه والعوامل والظواهر المحيطة به .

- براهين الارتباط بين الكون المقروء والمنظور :

أولاً : إن الخطاب القرآني كان أول بيان إيماني دعا الإنسان للعلم والتعلم ، وللوصول إلى هذه الغاية تناول كل الوسائل الملائمة لكيثونة الإنسان وتكوينه المادي والروحي وفي مقدمة تلك الوسائل :

- 2- إثارة وتنبيه ما هو كامن في الإنسان من غريزة حب الاستطلاع فيما يرى.. وبدرك.
- 2- إثارة ما هو مجبول عليه من حب التحمل بالعلم ، والتمكن من المعرفة ، وكراهية الجهل.
- 3- إثارة ما جبل عليه من حب لذاته ، والحرص على استمرار نوعه ، والسعى إلى قضاء مآربه وتحقيق مصالحه ... وتعريفه بأن القضايا التي يطالبه القرآن بالنظر فيها وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله ومسخرة لمنفعته ، وأن الغاية المباشرة لها تكمن في توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكماليات .

ومن دلائل البيان الأول :

قول الله تعالى : { ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسمخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير }⁽¹¹⁾ .

وقوله تعالى : { ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب }⁽¹²⁾ .

ومن دلائل البيان الثاني :

قول الله تعالى : { قل هل يستوى الذي يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب }⁽¹³⁾ .

وقوله تعالى : { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير }⁽¹⁴⁾ .

(11) سورة لقمان ، الآية 29 .

(12) سورة الزمر ، الآية 21 .

(13) سورة الزمر ، الآية 9 .

ومن دلائل البيان الثالث :

قول الله تعالى : { فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبثنا فيها حباً وعنبا وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم }⁽¹⁵⁾ .

وقوله تعالى : { وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب . وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون }⁽¹⁶⁾ .

ومن هنا خاطب الإمام بديع الزمان الإنسان قائلاً له : " إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فاطفر بمعرفة الله إذ حقائق الموجودات كلها إنما هي شعاعات اسم الله الحق ومظاهر أسمائه الحسنی وتجليات صفاته الجليلة"⁽¹⁷⁾ .

ولذا انطلقت رسائل النور من البيان الإيماني للخطاب القرآن في تأسيس اليقين، عن طريق الربط بين وسائل الإدراك والشريعة الفطرية من جانب والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر وذلك عن طريق تجلية الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها والدعوة إلى إيقاظ الوعي الإيماني وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرة التكليف الإيمانية والعملية .

وهذا البيان الواضح لرسائل النور يأخذ بيدنا ويبد القارئ إلى النتيجة التالية وهي أننا لكي نفقه قوانين الفطرة فعلينا بمراجعة آيات القرآن الكريم .

وعندما نقرأ كليات رسائل النور نقف على أن الأساس الذي أقيمت عليه هو إيضاح قوانين الفطرة السارية في الكون وفي الإنسان ، ولما كانت هذه الرسائل تفسيراً حقيقياً ومعنوياً للقرآن الكريم، لذا فإن غايتها هي قراءة كتاب الكون وبيان هدف الفطرة ونتيجة الخلق ومصيرها .

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق الكائنات من أجل الإنسان ، وخلق الإنسان لمعرفة ومحبته .

لقد انطلق بديع الزمان في بيانه الإيماني من فيض القرآن إلى أعماق النفس والوجدان من جانب والآفاق المرئية والمدركة من جانب آخر في ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة في جوانب المعرفة الكونية التي تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى : { الله نور السموات والأرض }⁽¹⁸⁾ .

ومن هنا يوقظ بديع الزمان سعيد النورسي في إدراك كل من يأتي ضيفاً إلى مملكة هذه الدنيا ويحل في دار ضيافتها أنه كلما فتح عينيه ونظر وفكر يقف على منافذ فكرية متشعبة الجوانب ، ومفاتيح إيمانية تحمل الكثير من الأفكار والأحاسيس والمشاعر في وحدة معرفية متشابكة الجذور وتوحد ذاتي لا يعرف الانقسام بين جوانب النفس المتعددة ، فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يمجج بعضها في بعض ويندرج بعضها ببعض ويشد بعضها أزر بعض .

وما كل ذلك إلا لأنه قد وهب نفساً توافقة إلى حقائق الحياة والوجود ، كما منح عقلاً مسؤولاً ينبغي أن يدفعه عن الخوض في الضحضاح من المفاهيم والأفكار الجاهزة المجافية للفطرة من جانب

(14) سورة المجادلة ، الآية 11 .

(15) سورة عبس ، الآية 33 .

(16) سورة يس ، الآية 35 .

(17) راجع بديع الزمان النورسي - مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص 56 .

(18) سورة النور ، الآية 35 وراجع بحث المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي بعنوان أضواء على حقيقة التوحيد في فكر النورسي ، الدكتور سامي حجازي ، ص 70 ، ط الأولى 1996 .

وللدين من جانب آخر⁽¹⁹⁾ . كما ينبغي أن يدفعه شغفه بالحقيقة إلى الكشف عنها بنفسه كما هي كتاب الكون المنظور الذي فسر براهينه كتاب الله المقروء (القرآن الكريم) قال تعالى : { ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين }⁽²⁰⁾ وقال تعالى : { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم }⁽²¹⁾ . فكان الإسلام شاملاً للمنهج الإلهي في كتاب الله المنظور كما هو في كتاب الله المقروء " القرآن الكريم " خاتمة هدايات الله للبشر قال تعالى : { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم }⁽²²⁾ .

ومن هنا يتضح شمول رؤية بديع الزمان للربط بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور وأن كليهما مفتاح للآخر ، فمفتاح الكون المنظور هو القرآن الكريم الذي يأمر بالنظر في آياته المتعددة من الليل والنهار والشمس والقمر ومفتاح القرآن الكريم هو نفسه وآفاقه .

لقد كان الإمام بديع الزمان سعيد النورسي يناقش فكرة وقوة حجته قد غطى معظم قضايا هذا الدين وتناولها بالبحث والدراسة والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية في مؤلفاته مجموعة كليات رسائل النور ، التي تشتمل على غرر الفوائد التي هي للدين قواعد ، فكانت الكلمة رائدة في إرساء المعالم والعلامات المضبوطة التي تتمحور حول بيان ماهية الإيمان كما هي في السؤال التالي :

كيف يمكن للمسلم أن يعرف بإيمان ؟ أو أن يؤمن بمعرفة ؟
وبصيغة أكثر وضوحاً .

كيف يستطيع أن يجعل من الإيمان طريقاً إلى المعرفة ؟
ومن المعرفة طريقاً إلى الإيمان ؟

وفي البيان لهذا السؤال تتلخص المعرفة الإيمانية التي خط بديع الزمان ملامحها ، وأقام أركانها انطلاقاً من قوله الله تعالى :

{ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق }⁽²³⁾ حيث يرى في ضوء هذه الآية أنه ما من معرفة مما تتبادها العقول فيما بينها إلا وترجع في أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاثة التالية :

- 1- معرفة كونية تشمل علوم ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .
 - 2- معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فرداً ونوعاً ظاهراً وباطناً .
- معرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته وشئونه في خلقه .
- هذه المعارف الثلاثة متلازمة يلازم بعضها بعضاً ، ويؤيد بعضها بعضاً ويدل بعضها على بعض وهي في ارتباط دائم لا ينقطع ، فكوني مؤمناً يلزمي أن أعرف ، لأن المعرفة تقوين وتعلمني ، لماذا يجب أن أكون مؤمناً ؟

(19) راجع الأستاذ ، أديب إبراهيم الدباغ ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي ص 7 ط الأولى 1997م .

(20) سورة البقرة ، الآية 2 .

(21) سورة الإسراء ، جزء من الآية 9 .

(22) سورة المائدة ، الآية 16 .

(23) سورة فصلت ، الآية 53 .

وكوني أعرف بصدق وحق ، فإن معرفتي تغدو درجات في سلم ارتقائي إلى معرفة أسمي هي معرفة الله تعالى وكوني إنسانياً مهتماً بشئون الإنسان وبكينونته ووجوده ومصيره ، ومتعرفاً على سر ما ينطوى عليه باطنه من عوالم وأكوان رغم صغر حجمه ستفضي بي هذه المعرفة حتماً إلى معرفة خالق الإنسان وموجده .

وهذه المعارف الثلاث :

- المعرفة الكونية .
- المعرفة الإنسانية .
- المعرفة الإلهية .

يرتبط بعضها ببعض كالمقدمات بالنسبة للنتائج .

أى إما أن تكون معرفة الكون والإنسان طريقنا إلى الإيمان ، أو يكون الإيمان طريقنا إلى معرفة الكون والإنسان .

فمن أى واحدة منهما يبدأ عقلنا رحلته المعرفية فإنه سينتهى لا محالة إلى المعرفتين الآخرين ، فكأن هذه المعارف معرفة واحدة⁽²⁴⁾ .

ومن هنا فالكتاب المقروء والكتاب المنظور صورتان لحقيقة واحدة ، وكلاهما من عند الله تبارك وتعالى .

وكأن الإمام بديع الزمان يريد أن يوجه نظر الإنسان في كل زمان ومكان إلى استقراء الدليل الكوني بمنهج قرآني يجمع فيه بين الأدلة كلها متعاضدة ومتساندة وتمثل نظرة جامعة إلى الوجود كله وأنه صنعه الواحد الأحد .

وللوصول إلى هذه الغاية تناول الإمام بديع الزمان سعيد النورسي الحديث عن الكون والكائنات في أماكن متعددة من دائرة معارفه - رسائل النور - ويوقفنا على أن كتاب الله عندما يأخذ في عرض آياته الكونية لا يعرضها منفصلة ، بل يعرضها مصحوبة إما بتبنيه سابق أو بتعقيب لاحق ويقدمها للإنسان ببيان معجز لا يكاد يقارنه بيان مهما كان .

ولذا يبينه على أن البيان القرآني ورد بسور متعددة تغطي كافة العقول والمدارك للوقوف على الطريق المستقيم وأنه :

- إما أن يأتي مسبقاً بصيغة الأمر بالنظر .

- انظروا - أو بما يفيد مجرد الحض على النظر " أفلا ينظرون " " أولم ينظروا " .

وإما أن يأتي متبوعاً بالنتائج التي تترتب على النظر من تفكير وتذكر وتدبر واعتبار قال تعالى :
{ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموتى وهو على كل شئ قدير }⁽²⁵⁾

وفي هذا المقام يشير بديع الزمان إلى نور من أنوار نجوم القرآن الكريم فيقول : (إن كتاب الكون المشهود بآياته الشفوية تفسر تلك الآيات القرآنية وتقربها إلى فهمك بإرارة كثير من نظائرها المشهودة لعينك ، في تلافيف اختلاف الليل والنهار ، وفي معاطف تحول الفصول والأعصار)⁽²⁶⁾ .

وإما أن يأتي مسبقاً بالوسيلة التي هي النظر ، ومتبوعاً بالغاية المتوخاه من النظر في آن واحد .

(24) راجع مجلد الكلمات للإمام بديع الزمان وراجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ ، نظرية المعرفة عند بديع الزمان النورسي .

(25) سورة الروم ، الآية 50 .

(26) بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور ، جـ 6 ، ص 447 .

ولا شك أن هذه النداءات المعجزة والبيانات المتعددة كلها تلتقى حول محور واحد يستلخص في الكشف عن خصائص الطبيعة الكونية والتعرف على أثارها ومنافعها ، واستخلاص العبرة منها ، وذلك بمعنى أن النظر إلى الكون المترامي الأطراف من حيث تنظيماته المتلاحقة ، وأنظمتها المتناظرة ، وموازاناته المتساندة ، أو تجاوب أطرافه المتخالفة وارتباط أجزائه المتناسبة ، ونسب التكوين في الذرات وشمول تصرف القدرة في الأنواع المتعددة ، وعدم تناهى خوارق صنعة الكائنات واتفاقها ، والحكمة العامة المتضمنة للقصود والإرادة والاختيار ، وتجسيد العناية التامة بالكائنات وتسيط الرحمة الشاملة بالمخلوقات ، وظهور إعجاز الحياة وما يرى على الكائنات من الرعاية والعناية ... وإطراد قانون الميلاد والوفاة المتجلى في كل ذرة من ذرات الوجود وتسيحات الكائنات المرئية وغير المرئية ومشاهدة الإمكان والكثرة والانتقال المستلزمة بالبدهة لمراتب الوجود ... كل ذلك وغيره من الكثير والكثير هو دليل كوني استقرائي متكامل ومتساند على وجوب وجود الخالق المبدع والفاعل المختار والعليم الحكيم المتصف بالأسماء الحسن المتجلية على آيات الأنفس والآفاق في الوجود كله⁽²⁷⁾.

ولذا نسوق بعض النماذج التي توقفنا على كل منها :

أولاً : من شواهد الأمر بالنظر قول الله تعالى في سورة يونس : { قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون }⁽²⁸⁾.

- ومثال الحض على النظر قوله تعالى : { أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون }⁽²⁹⁾.

ثانياً : ومن شواهد التنبيه إلى نتائج النظر ما ورد في سورة النحل في آيات متوالية لكثير من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان وعن طريق إنزال الماء من السماء وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من النعم الكونية التي لا تحصى ثم يتبع ذلك بقوله تعالى : { إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون }⁽³⁰⁾.

{ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون إن في ذلك لآية لقوم يتذكرون }⁽³¹⁾.

ثالثاً : ومن شواهد الجمع بين الوسيلة والغاية بالنظر أولاً والاعتبار ثانياً قول الله تعالى : { أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب }⁽³²⁾.

فهذا البيان يسيل كالماء الرقاق ويسطع كالنجوم الزاهرة ، وهو يطعم القلب ويغذيه بغذاء حلو طيب كالرطب فيكون غداء ويكون لذة في الوقت نفسه⁽³³⁾.

كما يقول بديع الزمان اعلم أن القرآن الكريم كما يفسر بعضه بعضاً ، كذلك فإن كتاب العالم يفسر بعض آياته بعضها .

(27) راجع كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي ، مجلد المنوى العرى ، ج 6 ، ص 431 ، وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسي متكلم مصر ، ص 117 وما بعدها .

(28) سورة يونس ، الآية 101 .

(29) سورة الأعراف ، الآية 185 ، وقوله تعالى في سورة سبأ { أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض } جزء من الآية 9 .

(30) سورة النحل الآيات من 11 : 13 .

(31) سورة النحل الآيات من 11-13 .

(32) سورة ق الآيات من 6 : 11 ، وراجع قوله تعالى : { ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بأمره } سورة لقمان الآية 31 .

(33) بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور ، ج 1 ، ص 441 .

فكما أن العالم المادى يحتاج احتياجاً حقيقياً إلى شمس تفيض منها عليّة أنوار نعمته تعالى ، كذلك العالم المعنوى يحتاج أيضاً إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى . فنبوة أحمد عليه الصلاة والسلام في الظهور والوضوح والقطعية بدرجة الشمس في وسط النهار ، وهل يحتاج النهار إلى دليل⁽³⁴⁾ ، كما يقول في موطن آخر وانظر إلى كمال النعمة في كمال الحكمة ، وكمال الحكمة في كمال النظام ، وكمال النظام في كمال الميزان في صنعه الحواس الخمس الإنسانية ، إذ فطرها فاطرها بوضعية وجهازها صانعها بجهازات ، يحس الإنسان بها ويدوق صاحبها خصوصيات جميع أنواع الثمرات والأزهار والأصوات والروائح ...

ومن هذا السر بلغت جامعية فطرة الإنسان إلى درجة صيرت هذا الإنسان مظهراً لما لا يجد من أنواع التجليات لأسماء فطره جل شأنه وذائقاً لما لا يعد من ألوان نعمه⁽³⁵⁾ .

وهنا يستخدم بديع الزمان الإيضاح القائم على الحكمة وأنه بالمثال يتضح المقال فيقول : إذا ما دخلت بستاناً فلا أجنح إلا أجود الثمرات ، حتى إذا ما تعبت في قطفها أجد المتعة واللذة . ولو وقع نظري على الفاسدة منها أصرفه عنها ، آخذاً بالقاعدة " خذ ما صفا ودع ما كدر " ... هكذا أنا ، فأرجو أن يكون قرائي أيضاً مثلي .

يقال : إن كلامك لا يفهم بوضوح .

- نعم ما حيلتي ... هكذا ترد السانحات إلى القلب فيبينما أجدني كأنني أتكلم فوق منارة عالية إذا بي - في أحيان أخرى - أنادى من قعر بئر عميق فيا قارئ العزيز ! أرجو أن تلاحظ في هذه الرسالة أن المتكلم : هو قلبي العاجز .

- أما المخاطب : فهو نفسى العاصية .

- بينما المستمع هو ذلك الإنسان الذى يتحرى الحقيقة⁽³⁶⁾ .

إن النظام الدقيق الموجود في الكون في عالم الجماد وعالم الحيوان وعالم الإنسان من الذرة إلى المجرة للدليل قاطع على أنه مخلوق لإله خالق عظيم متصف بأسماء وصفات تتجلى فيه تجلياً رائعاً⁽³⁷⁾ .

وليست هذه دعوى بدون دليل فالقارئ لرسالة " الآية الكبرى " . وهو يتجول فيها للبحث عن الحق في أسرار الكون حينما يردفها ويتبعها بقراءة رسالة " الطبيعة " يتجلى أمامه جمال وجلال الحقيقة الكونية تجلياً مشرقاً .

إن النتيجة القاطعة لتجليات الأسماء الحسنين في الكون هي انتظام الكون المادى ، بشمولية قوانينه وحركته المستمرة وتجدده الدائم ، وترابط أجزائه وكونه موضوعاً للتأمل الشامل والاستنباط الدقيق والانتفاع الأبدى⁽³⁸⁾ .

ومن هنا فقد بات واضحاً كما يقول بديع الزمان النورسى " إن موجودات الكون ، بأنواعها المتعددة والمختلفة ، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً ويسعى كل جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل مجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه التى يشاهد فيها هذا التعاون بوضوح .

(34) راجع بديع الزمان ، كليات رسائل النور ، جـ6 ، ص 245 .

(35) المرجع السابق ، ص 287 .

(36) المرجع السابق ، جـ6 ، ص 420 .

(37) راجع بديع الزمان سعيد النورسى ، كليات رسائل النور ، جـ1 ، ص 750 .

(38) المرجع السابق ، جـ1 ، ص 278 ، وراجع دكتور محسن عبد الحميد النورسى ، متكلم العصر ، ص 175 .

فهذا التساند ، وهذا التعاون بين الأجزاء ، وهذه الاستجابة في إسعاف كل منها لطلب الآخر ، وإمداد كل جزء للجزء الآخر ، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء ، يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك . يشبه في هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذى لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر⁽³⁹⁾ .

وبعد أن يقيم الإمام بديع الزمان النورسى هذا البيان بالمعطيات المتعددة يوقظ في كل نفس الإدراك بأن الذى بمسك زمام عنصر واحد في الوجود ، إن لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً .

وعلى هذا فـ " التعاون " و " التساند " و " التجاوب " و " التعانق " الواضح على وجه الكون، إنما هو أختام كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد⁽⁴⁰⁾ .

ولما كان البيان الإيماني للإنسان بالتكليف كما تبين فيما تقدم كان العقل الإنسانى هو القوة المنبه لقبول الهداية كما يقول العلامة عباس محمود العقاد : " إن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى إمتلأ بخطاب العقل بل ملكة من ملاكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعلمين قبل أن يصبح العقل درساً يتقصاه الدارسون كنهياً وعملاً وأثراً في داخله وفيما خرج منه ، وفيما يصدر منه وما يؤول إليه " (41) .

وما كل ذلك إلا لأن العقل الإنسانى يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف ، كما قيل لكل شئ دعامة ، ودعامة الإنسان عقله .

إن هذا العقل لكل عمل من أعماله يناط به التكليف ، حجة على المكلفين فيما يعنيه من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء وما فيهما .

ولذا فالإشارة إلى العقل لم تأت في القرآن الكريم عارضة ، ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتى في كل موضع مؤكدة باللفظ والدلالة كما في كافة الآيات التى تدعو إلى إعمال العقل بالتفكير والنظر في السموات والأرض وما خلق الله فيهما . . . من الآيات والبراهين التى تستنهض أصحاب العقول السليمة والأفكار المستقيمة ، كما وجه الأفهام وأيقظ الحواس ونبه المشاعر إلى ما في هذا الكون المشاهد المنظور من آيات وبراهين .

الأمر الذى كان من أجله العقل حكماً في قضية الألوهية الكبرى حتى يكون الإيمان عن قناعة واستيقان لا تقليداً وميراثاً للأباء والأجداد ، أو مجاراة للتبعية العمياء . . . وكما يقول أئمة الإسلام : دلائل الإيمان والتوحيد محصورة في قسمين : دلائل الأفاق ودلائل الأنفس⁽⁴²⁾ .

(39) راجع بديع الزمان سعيد النورسى ، كليات رسائل النور ، ج3 ، ص 540 .

(40) المرجع السابق .

(41) دكتور أحمد السايح فلسفة الحضارة ص 103 ط 89 .

(42) راجع تفسير الفخر الرازى ج9 ص110 وراجع دائرة معارف النور للنورسى .

وفي الحكم : املأ عينيك من تدبير هذه الكواكب واجلها في جملة هذه العجائب متفكراً في قدرة مقدرها ، متدبراً في حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر (43) .

ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال الله تعالى { لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس } وذلك لأن دلالتها أعجب وشواهدا أعظم (44) .

ومن هنا طلب من الإنسان أن يصل حواسه بمظاهر الخلق الإلهي في الكون المنظور وما أودع فيه من قوانين وسنن ثابتة قال تعالى : { إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون } (45) .

والتأمل في هذه الآية الكريمة يقف على أنها اتجهت في تثبيت عقيدة وحدانية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه لحواس والمدارك والمشاعر إلى ما في هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل ، وبذلك أثار القرآن الكريم في الإنسان وعياً كونياً ، وهذا البيان الإيماني لتنبيه الحواس والمدارك جدير بأن يفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون تلك العجائب التي أصبحت عند كثير من الناس شيئاً مألوفاً بسبب عدم تدبرهم لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول : { وكأى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون } (46) .

ولذا يقول الإمام الرازي : " واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ، ونعم دينية " وهذه البراهين المتعددة التي حملتها الآيات في خلق السموات والأرض ، نعم دنيوية في حياة الإنسان ، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل بها على معرفة الصانع ، صارت نعماً دينية ، لكن الانتفاع بها من حيث أنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس ، وصدق التوجه . . وأيضاً الانتفاع بها من حيث أنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول والمدارك المتعددة في ذات الإنسان ، ولذلك ختمت الآيات الإلهية بقوله تعالى : { لقوم يعقلون } (47) كما ختمت في موطن آخر { بأولى الأبواب } قال تعالى : { والله ملك السموات والأرض والله على كل شئ قدير إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب } (48) .

وبذلك أقام القرآن الكريم بياناً إيمانياً لهداية العقل الإنساني كأساس من أسس الحضارة الإسلامية ومعلم من معالمها ليحرره من كافة الأوهام والأباطيل الناتجة عن عدم التفكير والتدبر . ولم كان القرآن الكريم أيقظ في كل نفس إنسانية – وعياً كونياً –

(43) راجع تفسير الكشاف جـ 1 ص 348 نقلاً عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم لفضيلة الدكتور محمد السيد طنطاوى مجلد 2 ص 487 طـ الثالثة 1990 م .

(44) المرجع السابق للفخر الرازي .

(45) سورة البقرة : الآية 164 .

(46) سورة يوسف : الآية 105 .

(47) راجع تفسير الفخر الرازي جـ 4 ص 229 نقلاً عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم المرجع السابق بتصريف يسير جـ 1 ص 435 طـ 1989 م .

(48) سورة آل عمران : الآية 120 .

فإنه أيضاً أيقظ في كل نفس – وعياً ذاتياً – فلفته إلى التفكير والتدبر في أقرب شئ إليه وهي نفسه التي بين جنبيه ، وذلك لأن كل نفس بالمعاشرة كون فريد قال تعالى : **{ وفي أنفسكم أفلا تبصرون }** (49) أي في حالة ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر . وبدائع الخلق ، وما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ، وما ركز فيها من العقول ، وخصب من أصناف المعان ، وبالأسن والنطق ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الدالة على حكمة المدبر ، فتبارك الله أحسن الخالقين (50)

وهذا اللفت بالنظر في النفس وإن كان يقصد إثارة ما هو كامن في كل إنسان على حدى تذكر إبصار واعتبار لهو أيضاً برهاناً على دقة خلقه وتدييره توصلنا إلى الإيمان اليقين (51)

وهذا البيان الإيماني يورث كل نفس إنسانية الشعور بذاتها وكيانها في مقابلة الكون وما فيه ، فيرى أنه قد سما في تقويم خلقه على كل مخلوق سواه الأمر الذي يدفعه إلى التحلى بدرجاتي التكريم والخلافة في الأرض في مواجهة الحياة والأحياء ، وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس كافة وإلى الخلق أجمعين ، فلم يخاطب طائفة من البشر دون طائفة أخرى ولم يعنى بفريق على حساب فريق – وإنما عنى بالجميع – فبث الوعي الذاتي في كل نفس وبصورة تناسب جميع أفراد البشر للإرتقاء بالحياة والأحياء .

وإذا كان إيقاف الوعي الكوني والوعي الذاتي مردهما إلى لفت القرآن الكريم للعقل ، فإن ثمة وعياً وجدانياً أيضاً أيقظه القرآن الكريم في الإنسان حتى يستوعب بقلبه وعاطفته ما في الكون من مظاهر الجمال والكمال للخلق الإلهي قال تعالى : **{ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم }** (52) أي وزينا السماء الدنيا – أي القريبة منكم بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظاً عظيماً من الاختلال والاضطراب والسقوط – ذلك الذي ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض وخلق ما فيهما (53)

وقال تعالى : **{ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين }** (54)

وهذه الآية الكريمة صدرت بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها . والمعنى وبالله لقد زينا وجعلنا السماء القريبة منكم بكواكب مضيئة كإضاءة السراج وجعلنا بقدرتنا من هذه الكواكب ما يبرجم الشياطين ويحرقها ، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع ، ولذا

(49) سورة الذاريات : الآية 21 .

(50) راجع تفسير الكشاف جـ 4 ص 399 .

(51) راجع بدیع الزمان كليات رسائل النور صيقل الإسلام

(52) سورة فصلت : الآية 12 .

(53) راجع الدكتور محمد سيد طنطاوى المرجع السابق جـ 12 ص 436 ط الثالثة 1989 م .

(54) سورة الملك : الآية 5 .

خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء . ورجوماً للشياطين . وعلامات يهتدى بها (55) .

ولذا وجه القرآن الكريم كافة الخلق إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم قال تعالى { قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون } (56)

فهذه الآية الكريمة منهج حياه متكامل أباحت للإنسان أن يتمتع بالطيبات التي خلقها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المخالفين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله تعالى عليهم .

فالاستفهام هنا لإنكار ما كانوا عليه من سلوك مخالف للفطرة والدين ، ولذا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : { قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة } أي قل أيها الرسول لأمتك هذه الزينة والطيبات من الرزق شئ ثابت للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضاً أما في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين ولا يشاركون فيها أحد ممن أشركوا مع الله آلهة أخرى (57) .

كما أن مظاهر الجمال في الخلق الإلهي ظاهرة حتى في الحيوان غير الناطق قال تعالى : { ولکم فیها جمال حین تریحون وحین تسرحون } (58) . وفي هذا البيان الإلهي جانب من مظاهر نعم الله تعالى على كافة البشر ، ولنوع من أنواع منافع الحيوان للإنسان .

وقال سبحانه : { تریحون وتسرحون } بالفعل المضارع لإفادة التجدد والتكرار ، وفي ذلك ما يزيد السرور بها ويحمل على شكر الله تعالى على وافر نعمه . وفي كل ما تقدم ما يوقفنا على أن القرآن الكريم أقام طريقاً فطرياً للإيمان بالله تعالى تتجلى فيه الأسس والمقومات والخصائص العقلية والوجدانية للإنسان الذي يملك الوعي الذاتي ووسائل الوعي الكوني ، ليس هذا فحسب بل والوعي الوجداني ، ولعظم أثر هذه العقيدة في حياة الإنسانية لم يقبل الخالق من المخلوق فيها هواده أو مساومة قال تعالى : { إن الله لا یغفر أن یشرك به ویغفر ما دون ذلك لمن یشاء ، ومن یشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً } (59) .

ومن هنا يتضح تأكيد القرآن الكريم للقيمة الإيمانية للإنسان وتحريره من العبودية المخالفة للفطرة وأنها لا تكون إلا لله الواحد الأحد .

نعم إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور تجلى للأنظار معجزات نيرات ... تضم كتباً بعدد طوائف المخلوقات غاية في الكمال والإتقان من دون خطأ ، كتابة متداخلة ، جنباً إلى

(55) المرجع السابق جـ 15 ص 15 .

(56) سورة الأعراف : الآية 32 .

(57) المرجع السابق لفضيلة الدكتور محمد طنطاوى

(58) سورة النحل الآية 6 .

(59) سورة النساء الآية 48 .

جنب ، في آن واحد ، وهذا يقف بنا على أن كل شئ في الوجود إنما هو من إبداع الواحد الأحد ذى الجلال والإكرام⁽⁶⁰⁾ .

وفي كل ما تقدم ما يوقفنا على الحقائق والبراهين الإيمانية للخطاب القرآني في جانب العلم وجانب الكون بوصفهما جزءاً لا يتجزأ من معجزة القرآن الباقية أبد الدهر والمتجددة بما يناسب العصر في كل عصر كما وقفنا على ما يحمله هذا الخطاب القرآني في ثناياه من أسس لقوى الذاتية وما يزرع به من طاقات حية تجعله قادراً في كل زمان ومكان على العطاء والتوجيه في كافة الميادين المتمثلة في الكون المقروء والكون المنظور .

والله الموفق ..

(60) راجع الإمام بديع الزمان ، كليات رسائل النور ، مجلد اللغات ، ج3 ، ص 540 ، 546 .

الخلفية البراديجمائية لأزمة البيئة والتوجه العلمي الكوني عند سعيد النورسي

قادر جان اتان^P

1 - مدخل :

تجري بحوث متعددة الجوانب منذ اواخر الستينات عن التغيرات البيئية ونتائجها. وقد ربطت المسألة في البداية بالظاهرة المادية لواقع التحديث مثل التصنيع والتوطين في المدن. اما اليوم، فتجري مناقشتها باضافة خلفية اخرى هي البعد التاريخي والحدث اليومي الساخن. ومن هنا، يتناولها المفكرون المسلمون المعاصرون، وكذلك المفكرون المستمدون من التقاليد المقدسة من غير المسلمين، في اطار "التغير البراديجمائي"¹ فهم يرون ان العالم الغربي تعرض الى تغيير في متلقيات الكون والانسان والاله من خلال المرور بسباق الحداثة. فالتغير البراديجمائي كامن في اصل الازمات العالمية المتعددة الوجوه.

اريد هنا ان ابدأ بانموذج تجريبي يوضح التغيرات البيئية، قبل الدخول الى قصة "التغير البراديجمائي" الممتدة الى "عصر التنوير" واسعى بذلك لأیصال المقترحات التي تختزل التغيرات البيئية في سبب أحادي الى محصلة نظرية. ثم اتناول بعد ذلك، التغير البراديجمائي المعاش في الغرب وانقسام وشأجه - بموازاة هذا التغير - عن النظرة الكونية التقليدية على محور العلاقة بين الانسان والطبيعة والاله، لارتباطها بالبعد الثقافي لهذا الانموذج. لقد سرت آثار هذا التغير الذي تعرض له الغرب الى الدول المجاورة في فترة قصيرة. لذلك، يجب التوقف في تأثيرات الفكر الغربي على المثقفين العثمانيين، قبل تمحيص مفهوم الكون والطبيعة عند سعيد النورسي.

P من مواليد سنة 1960 في نوشهر. أكمل دراسته العليا في الأكاديمية الإجتماعية في روتردام سنة 1989 وحصل على شهادة الماجستير من جامعة فرجي في أمستردام سنة 1993 وهو الآن باحث دكتوراه في جامعة أرسيموس في روتردام. له ستة مؤلفات منشورة هي : البحث عن الهوية عند المهاجرين / 1990 ، العالم الثالث والبيئة (ترجمة) / 1990 ، سياسة التمازج / 1993 ، الاقليات المسلمة في اوربا / 1995 ، العصرية ، سياقاً تغيرياً / 1995 ، الدين والعلمانية / 1998

1 - براديجما: مجموعة التصورات الحاصلة من مشكلة معينة والحلول والبدائل المتنوعة (المترجم).

بهذا الأسلوب اريد الدخول الى الموضوع الاساس، يعني مفهوم الكون عند سعيد النورسي. واطن ان التوجهات العلمية الكونية لديه يتوضح بهذا الأسلوب اكثر من غيره. كذلك، اريد ان اناقش بالارتكاز على هذه النقطة، نوع الاضافات التي يقدمها سعيد النورسي للتوجهات البراديغماتية المعاصرة من خلال شروحاته المضافة الى الفكر الاسلامي الحديث. وابدأ بالقول - كنتيجة - انه اقترح حلاً منطلقاً من مبادئ واسعة وعميقة لأزمة البيئة في عالمنا الحالي مستنداً الى نظرة كونية خاصة .

2 - ايضاح ازمة البيئة : مقترح نموذج

الإنسان وجود مرتبط بوشائج مع بيئته الاجتماعية المادية، ومؤثر في بيئته بنتيجة هذه الوشائج. وقد تعرضت وشائجنا مع محيطنا وبيئتنا الى تغييرات كثيرة في سياق التاريخ، وظهرت معضلات متنوعة في وشائج الانسان والبيئة حتى في المجتمعات التقليدية. لكننا نلاحظ في ازمة المرحلة التاريخية الحالية - قياساً بالمراحل التاريخية السابقة - صفتين جديدتين هما: اكتساب المعضلة بعداً عالمياً وظهور تهديد جدي لا يعرض الحياة الانسانية وحدها الى الخطر، بل الحياة الحيوانية والنباتية ايضاً، ومن ثم مقدرات البيئة الكونية.²

يمكن البحث في ثلاثة مظاهر مهمة من مظاهر ازمة البيئة. الاول : هو تلوث الفضاء الى جانب تلوث الطبيعة والتراب والماء، بسرعة فائقة. ومهما امتلكت الطبيعة " قوة تطهير " خاصة بها، فقد بلغت الطبيعة غاية جهدها في تجديد نفسها بامكاناتها الذاتية ازاء تسارع وتيرة التلوث.

الثاني : استنفاد المصادر غير القابلة للتجديد في الطبيعة، بنتيجة الاستهلاك المسرف والوحشي.

الثالث : استنفاد تكامل النظام البيئي والذي نشعر بمؤثراته على المدى البعيد.³ ان كل الدلائل تدل على تدميرنا للكرة التي نعيش عليها، ونشير هنا الى بعضها فقط لابرار الآثار الواضحة الملموسة على الحياة.

تأمل التهديد الوخيم للحياة بسبب تداخل الموازنة البيئية والتلوث البيئي، في ضوء استهلاك انواع النبات والحيوان بزيادة عشرة اضعاف على معدل نموها الطبيعي، وفي ضوء الخطر الذي يتعرض اليه 42% من 15 نوعاً من انواع الثدييات، و 18% من 400 نوعاً من الطيور و 30% من 43 نوعاً من البرمائيات و 45% من 102 نوعاً من الزواحف و 53% من 200 نوعاً من الاسماك و 22% من 11000 نوعاً من النبات، وذلك في اوربا، مركز الحضارة الحديثة.

ولا يمكن الادعاء ان بروز ازمة البيئة وظهور قلق حقيقي وحساسية ملموسة بشأن آثارها على المستوى العلمي، يقابله وضوح كامل بشأن اسباب الازمة او الحلول المقترحة لها. لقد استحدثت ازمة البيئة ايدولوجيات للمعضلة . والسمة العامة لهذه الايدولوجيات هي التفسير الاحادي للتغير البيئي. فان زمرة من انصارها يركزون

2 - علي بولاج ، الدين والعصرنة ، ص 20 ، نشرات الاندلس ، استانبول 1990 (بالتركية)

Hans Opschoor Na ons geen onduid Sh..... - 3

على العوامل البيئية مثل زيادة النفوس والتقدم التكنولوجي والنمو الاقتصادي وأشكال التنظيم الاجتماعي، ويؤكد غيرهم على العوامل الثقافية مثل شكل الحياة للمجتمعات ونظرتها الى العالم ومستوى الوعي البيئي.

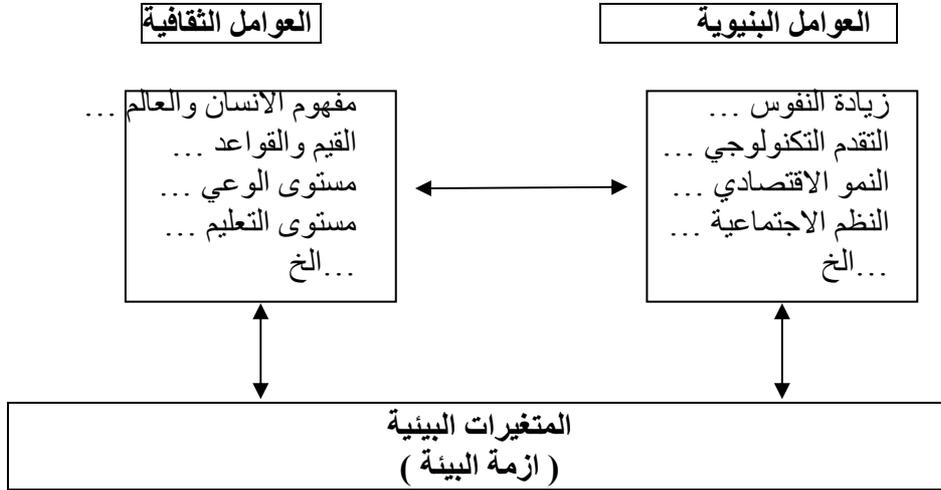
أن من اقدم النظريات التي يحصل التأكيد عليها في نطاق العوامل البيئية هي دالة النفوس كسبب رئيس للخلل البيئي. هذه النظرية التي ترجع الى " مالثوس " لا زالت تحافظ على حيويتها ولا زالت مؤسسات وشخصيات متخصصة تعتقد ان تحديد النسل هو الحل الأمثل لمشاكل البيئة، كما لمشاكل النمو الاقتصادي. والواقع ان المشكلة الحقيقية في عالمنا اليوم ليست في نقص الانتاج الغذائي ازاء احتياجات النفوس، بل في سوء التوزيع رغماً عن كفاية الانتاج.

ان افكاراً بديلة اخرى ترى ان وسيلتي الخلاص من الفقر والبؤس (أي النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي)، هما بحد ذاتهما من العوامل البيئية لتدخل الموازنة البيئية، ويقترح مفكرون (مثل schumacher) تكنولوجيا صغيرة الحجم بديلاً عن التكنولوجيا العملاقة، بينما يتطرف بعضهم الى حد رفض التكنولوجيا باعتبارها ام الخطايا.

والعجيب في هذا النقاش، ان بعضهم يعلن التكنولوجيا الحديثة ام الخطايا، وفي الوقت نفسه يدعو آخرون من المتفائلين الى حل مشاكل البيئة بتكنولوجيا أرقى واحسن نوعية. وفي الحقيقة ان النمو الاقتصادي والتكنولوجيا يؤديان الى التلوث الناتج من الرفاه وزيادة الاستهلاك في الدول المتقدمة، وبالعكس في الدول النامية التي تعاني من التلوث بسبب الفقر والتناقضات الدائمة في مستويات متعددة.

لقد دفع انحصار فعاليات حركة البيئة في قطاع خبوي في البداية، الى محاولة اشراك الجمهور في فعاليات أنصار البيئة لإشاعة الوعي. وبمرور الزمن، انزاحت الآراء المطروحة بهذا الصدد الى نقطة نبه عليها المهتمون بالاجتماعيات هي : العلاقة بين التلوث البيئي والنمط الثقافي والاجتماعي. ولعل هذه النقطة هي التي تشغل قطاعاً واسعاً في وقتنا الحاضر.

ولما كان الاقتصاد والتكنولوجيا والنظام الاجتماعي والكثافة السكانية محصلة من محصلات الفعاليات والتصرفات الانسانية، فلا يتصور استقلال هذه العوامل عن المحيط الاجتماعي - الثقافي المتطور من تلك الفعاليات. ان كل ثقافة تقدم مفهوماً بشأن علاقة الانسان والبيئة ودور ومعنى الانسان في العالم. ولا يمكن طرح مسألة البيئة بجميع ابعادها من غير تدقيق هذه المفاهيم وتغيرها. وفي هذا الاتجاه يلزم ان نفكر في العوامل البيئية والثقافية معاً، وتأثيراتها المتبادلة، اذا اردنا ان نصل الى ابصاح للتغير البيئي. وكما يظهر في الشكل الآتي، لا تتوقف تأثيرات العوامل البيئية والبيئية ببعضهما، بل تتأثر بالمتغيرات البيئية المتولدة منها ايضاً فتكون سبباً لوسط جديد وظاهرة جديدة. وحتى ازمة البيئة التي هي متغير غير مستقل بذاته، تكون سبباً لتغيير في قناعاتنا ويشارك براديجماتياً في ازمة البيئة.



ان مشكلة البيئة في عصرنا لم تعد واقعة تتقبل ايضاحاً يعتمد على عوامل احادية، بل صارت معركة براديغمائية ضمن مشاريع الثقافة والحضارة. والذين يتقبلون اختلال التوازن بين الانسان والبيئة كثيرون جداً. لكن الذين يرجعون سبب ذلك الى اختلال العلاقة المطمئنة بين الانسان والله (تعالي) قليلون.⁴ والواقع ان تخلخل التوازن بدأ عمودياً اولاً، يعني بين الانسان والله (تعالي)، ثم انعكس افقياً. ان الاهتزازات المشاهدة في التوازنات في عصرنا الحاضر يرجع الى التغيرات الجذرية التي شهدتها المجتمعات الغربية في البراديغمات (مجموعة التصورات) الكونية اثناء عبورها الى العصور الحديثة. ويمكننا ان نسمي هذا الحال " تغير البراديغما" ، لتحقق مثل هذه التغيرات بصورة نادرة في تاريخ المجتمعات. لقد تغيرت نوعية الحياة وشكل العلاقات التقليدية. ويرجع الأسس الشاخصة لهذا التغير الى عصر التنوير في القرن الثامن عشر الميلادي.

3 - تغير البراديغما : العالم الحديث الذي انشأه التنوير :

ان " التغير البراديغمائي" الذي بدأ مع عصر التنوير، هو في الواقع قصة تحول علم الكون (الكوزمولوجي) الى علم تصور الكون (الكوزموجرافي). ينشغل علم الكون بجميع مستويات الحقائق الشكلية، والمستوى المادي هو واحد من ابعاد مستويات الحقائق هذه. إن العالم المادي والكائنات في علم الكون التقليدي هو مظهر وشكل . اما عالم الغموض، فهو ظاهرة او انعكاس لعالم آخر، عالم ما وراء الطبيعة (ميتافيزيك) لكن التفكير العميق يمكن ان يتصور ذلك العالم الغامض المشحون بالاسرار خلف المظهر والشكل انطلاقاً من عالم المادة. ان علم الكون الاسلامي خاصة، يفسر العالم المنظور (البعد الظاهر) والعالم غير المنظور (البعد الباطن) بنوع من العلاقة المترابطة المتبادلة. لقد سلبت الرؤية المعاصرة للعالم (بحصرها الوجود في الصور الظاهرية) المعنى والغاية منه، وجعلته مغلقاً.

4 - السيد حسين نصر ، الانسان والطبيعة ، ص 18، نشریات Yeryuzu ، استانبول 1982، (ترجمة تركية)

لقد تلقت البشرية منذ فجر التاريخ العالم بنظرة مخزونة بالمقدسات. ولما بلغنا العصور الحديثة تلقيناه " عالماً مجرداً عن السحر " كما يقول ويبر (weber)⁵. وارى ان هذا البعد هو السمة الاساسية لعلم الكون المعاصر، وبتعبير ادق، لعلم تصور الكون (كوزموغرافي). كانت الطبيعة في تاريخ البشرية المديد حديقة مصممة في ظل التقديس وغير المعتاد. ولذلك تشكلت العلاقة بين الانسان والطبيعة على قاعدة الاحترام والرعاية المتبادلة. ومع تجريد العالم من السحر، ترك " العالم المقدس والمبارك " مكانه لعالم من اكوام المادة وركام الكتل المستغلة والمغيرة والمستهلكة. والسمة الثانية المهمة لعلم الكون الحديث، هو التصميم الميكانيكي له، والذي ارسى قواعده نيوتن. لقد كان الكون في الماضي مثل جسد حي يرتبط كل شئ فيه ارتباطاً عضوياً. اما في العصور الحديثة، فقد صار مثل ماكنة عملاقة تعمل بقوانين ثابتة. وحتى العلاقة بين هذه الماكنة وخالقها (الله تعالى) اكتسبت صفة جديدة لا تعرفها العصور السابقة التقليدية، يترتب عليه تصور فاسد يقوم على ان الخالق خلق تلك الماكنة العملاقة وتركها تعمل لحالها، كما يصنع الصانع ساعة ثم يشغلها ولا يتدخل في شغلها.⁶ لقد دخل بذلك الى علم الالهيات (theoloji) مفهوم لأله مجرد لا يتدخل في امور الكون.

لم يكتف علم الكون المعاصر بتصميم ميكانيكي ومجرد عن السحر للعالم والطبيعة، بل فصل بين الانسان والطبيعة ايضاً وتخيل صراعاً وعداء بينهما. في نظرية الصراع المتخيلة بين الانسان والطبيعة، تتغير وظيفة العلم ايضاً. وبعد باكون (Bacon) صار مفهوم العلم وسيلة لقهر الطبيعة والسيطرة عليها.⁷ فهل يمكننا بعد ذلك ألا نؤيد الفكر البديل الذي يقول بان العلم الحديث والتكنولوجيا المعاصرة ضد البيئة وضد الحياة من الاصول ؟

ان " باكون " الذي يدعو الى استخدام القوة والقسوة ضد الطبيعة بصراحة، هو في الوقت نفسه من منظري فلسفة العلم المعاصر. والافكار التي عبر عنها بشأن الطبيعة مفزعة. فهي حسب رؤية " مضطرة للخدمة " و"الفريسة التي يطاردها الصيادون " و " العبد " و "مستحق للتعذيب من اجل ان يبيح باسرااره " " لمقاومته رجال العلم " ⁸. فلا بد لسياسة علمية وتكنولوجية تحمل هذه المفاهيم عن الطبيعة، ان تكون عدوة للبيئة، لا صديقة لها.

ان علم الكون المعاصر قد غير وضع الانسان في الكون والدنيا بصورة جذرية. فتحول - مع عصر التنوير - مفهوم للكون ذو محور الهي (ثيوسنتريك) الى مفهوم ذو محور إنساني (انثروبوسنتريك). واذا كان الانسان يوضع في التعاليم التقليدية في قمة سلم المخلوقات، فان التصميم التجريدي الرتيب المغلق لعلم الكون يجعله انموذجاً

5 - رايمون آرون - مراحل الفكر الاجتماعي ص 523 ، نشریات بين ايش ، انقرة 1986 (ترجمة تركية)

6 - H.Van der Loo & W.Van Reijen, Paradoxen van modernising Sh. 125, Dich Coutinho, Muiderberg1990

7 - ف. كابرأ ، نقطة التحول في الفكر الغربي ، ص 54 ، نشریات انسان ، استانبول 1989 (ترجمة تركية)

8 - المصدر السابق ص 55

مؤلهاً جديداً ، فيصير هذا الانموذج سوبرماناً مرة، و " وجوداً خلاقاً " مرة ، و " انساناً " مرة اخرى. وبدهي ان يتوجه الانسان بارادته واختياره الى تشكيل الطبيعة مجدداً، في دنيا مغلقة ورتبية تماماً، وعالم لا تتدخل فيه القدرة الالهية! وحاصل ذلك في النهاية ان بدأت المرحلة المعروفة في علاقة الانسان بالطبيعة ووضعت الطبيعة تحت سطوته.⁹

في الدنيا المغلقة والرتبية، تحطم الطبيعة من اجل جني اعلى حد من المنفعة. لقد تزعزت العلاقة المفعمة بالمعاني بين الانسان والطبيعة. والمؤسف ان علم الكون المعاصر قد انتقل في خلال السياق الحضاري الى المجتمعات الأخرى وطغى على ثقافتها واسدل ستار النسيان على علم الكون التقليدي.

4 - انعكاسات التنوير في مجتمعنا : المادية والتحقيقية (التجريبية) في العهد

العثماني:

بدأت تأثيرات فكر التنوير عن الطبيعة والانسان والله تنعكس على المثقفين العثمانيين منذ اواخر القرن التاسع عشر الميلادي. لقد وجدت الافكار التجريبية والمادية، التي حاربها سعید النورسي خاصة طوال حياته، من يمثلها في اوساط المنورين (المثقفين) العثمانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونجح هؤلاء في الدخول الى المدارس العليا. كانت "المادية" تطرح في جو فكري منكدر وهلامي الى بدايات عهد حركة المشروطة الثانية. ثم بدأت تتبلور وتتحدث بمفاهيمها الخاصة بعد ذلك.

مصادر "المادية" في العهد العثماني متعددة المراكز. ومن اهم مراكز التأثير (الى جانب الماديين ومؤلفي الموسوعات الفرنسيين) تجريبية كومت (Auguste Comte) والتيار الفيزيولوجي لبرنارد (Claude Bernard) ونظرية التطور لدارون (Charles Darwin) والمادية البيولوجية لبوهرنر (Udwing Buchner).¹⁰ استمد هؤلاء المثقفين (المنورين) العثمانيين من مؤلفي الموسوعات العلمية والماديين الفرنسيين رأيهم عن الطبيعة بعيداً عن الدين والتقاليد، بانها متشكلة من المادة المكتفية بذاتها عقلاً وحركة كماكنة تعمل لذاتها. وفيما بعد، غدي هذا الرأي بتجريبية كومت (Comte) التي تقول بأن الحقيقة الشينية لا تفهم إلا بتكرار المشاهدة والتجريب وتحكيم العقل.

وقد بدل التيار الفيزيولوجي لبرنارد، مؤسس الطب التجريبي، زاوية النظر عند المثقفين العثمانيين. فتفسير الوجود الانساني بالوظائف البدنية حسب هذا التيار، اضعف العنصر المعنوي الذي تشحنه النظرة الدينية. كذلك، شاركت نظرية دارون في نشوء الانسان عبر سلسلة التطور في قطع الصلة بالمنابع الالهية. زد على ذلك، بلوغ المادية نهاية المطاف باطروحات بوهرنر حول ابدية المادة ونشوتها بنفسها بقوانين طبيعية.

9 - نصر ، المصدر السابق ، ص 14 - 15

10 - اكرم ايشن ، المادية في العهد العثماني ، انسكلوبيديا تركيا من التنظيمات الى الجمهورية ، ص 363 ، نشریات ايلتيشم ، استانبول . (بالتركية)

ان المؤسسات التعليمية العصرية التي بدأت بالتعليم واحدة بعد الأخرى في القرن التاسع عشر، تعد القواعد الحقيقية للتفكير المادي في العهد العثماني. لقد نشأ الماديون العثمانيون باغلبتهم الساحقة في هذه المؤسسات، وفي مقدمتها "المدرسة الطبية" (كلية الطب). وكان لافكار الطلاب الموفدين للدراسة في اوربا التي حملوها الى الدولة العثمانية، والتراجم التي قاموا بنشرها، دور في هذا الاتجاه ايضاً.

هذه التطورات الفكرية والهيكلية وجدت ارضية لها في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، وانفتحت على المجتمع بحركة "المشروطة الثانية". ونذكر من بين اهم رموز التيار المادي في العهد العثماني بشير فؤاد و احمد شعيب وبهاء توفيق وصبحي ادهم وعبدالله جودت. وهذا الأخير من خريجي "المدرسة الطبية" ومن مؤسسي "جمعية الاتحاد والترقي". ويمكننا ان نصور الخطوط العريضة لتفكير هؤلاء الماديين بان العلم هو القيمة العليا والعظمى وان سبيل معرفة الطبيعة والانسان هو المناهج العلمية وان الدين والتقاليد عثرات في طريق الشعوب الساعية الى التقدم وان التناقض بين الشرائع الالهية والقوانين الطبيعية هو في الاصل تناقض بين الدين والعلم وان الغرب أرسى اساس الحضارة المعاصرة بالصراع مع الدين والتقاليد.

بعد استعراضنا لهذه التوجهات، يتوضح جلياً سبب الاصرار عند سعيد النورسي في رسائله على الوشائج بين الطبيعة والانسان والله، يعنى على علم الكون. بل افرد رسالة خاصة بعنوان "رسالة الطبيعة" لتحدي التيار المادي. هذه الرسالة اطروحة تتضمن خلاصة مكثفة ومؤثرة في صفحات قليلة، لا يكتفي فيها بالرد على منهج الطبيعة المغلقة الرتبية، يعنى برفض قطع الوشائج بين الله والكائنات والطبيعة، بل يزيد على ذلك بالتفكير في علم معنوي للكون.

5 - اطروحة علم الكون لسعيد النورسي ازاء المذهب الطبيعي (Naturalism)

وتأليه الطبيعة (Pantheism)

من الناحية التاريخية والاجتماعية، تمتاز رسالة الطبيعة بمزيتين هما:
الاولى : انها ليست جهداً فلسفياً ونظرياً على وجه الحصر. بل تتضمن ايضاً اجوبة ساخنة عن اسئلة اثارها التيارات المادية في العقول تلك الايام. فنلاحظ ان التساؤلات التي اجاب عنها تعود الى المقولات المستحدثة للمذهب الطبيعي والمادية المؤهلة للطبيعة فالرسالة من هذه الوجهة، تسد حاجة ملموسة وساخنة في ذلك الزمن، كما هو مفهوم من مدخلها الذي يقول فيه النورسي: " ذهبت الى انقرة سنة الف وثلاثمائة وثمان وثلاثين. فرأيت افكار زندقية مخيفة جداً، تعمل بالدسائس للولوج الى افكار اهل الايمان القوية المنتشبة ببشرى انتصار جيش الاسلام على اليونان، وتخريبها، وتسميمها."¹¹ ثم يقول انه صنف رسالة باللسان العربي لتبديد افكار الزندقية هذه، لكن لم يكن لها الاثر المرجو لقلّة العارفين بالعربية، فاتسع الفكر اللاديني. لذلك صنف النورسي باللسان التركي هذه الرسالة المكثفة الغنية الوجيزة.

11 - سعيد النورسي ، رسالة الطبيعة ص 5 ، نشرات سوزلر ، استانبول 1975 (بالتركية - ورسائل النور كلها مترجمة الى العربية جزئياً مترجمها الأستاذ احسان قاسم الصالحي عن المسلمين خبير الجزاء على خدمته الجليلية - المترجم)

الثانية : انها تقوض الادعاءات المخالفة واحدة فواحدة، باسلوب الاقتناع العقلي والفلسفي. يعني يرد على مخالفه بنفس اسلوبهم. ان هاتين النقطتين تجعلان من سعید النورسي عالم دين متميزاً عن العلماء التقليديين وفي الوقت نفسه تبرزان محور التمايز للفكر الاسلامي المعاصر. ففي رأي الباحث " تورك اونه "، ان ما يميز الفكر الاسلامي المعاصر عن الاسلام التراثي او التقليدي هو تغير شكل اثبات الدين لذاته وشرعيته بنتيجة سراية السياق الثقافي من الغرب. فلا يبرهن على الاسلام في هذا الاسلوب بالرجوع الى المصادر المسلم بصحتها إسلامياً، بل الى التحقيق العقلاني البحت. وايضاً، لا يتخذ الفكر الاسلامي المعاصر. (متميزاً عن الاسلام التراثي) الاديان التقليدية منافساً له، باعتبار ان التهديد الايديولوجي نابع من الايديولوجيات الحديثة وليس من الاديان. ولهذا السبب يجد الفكر الاسلامي نفسه في تنافس شديد مع الايديولوجيات المعاصرة وتياراتها.¹² وبتعبير آخر، تغير الخطاب الاسلامي التقليدي الى خطاب عصري حديث تحت تأثير العوامل الخارجية. وهذا الخطاب الجديد واضح جداً عند سعید النورسي ايضاً. وسنرجع الى هذه النقطة مرة اخرى.

يسلك سعید النورسي سبيلاً وسطاً بين الافراط والتفريط في آرائه عن علم الكون. وقبل كل شيء، هو يعادي عداً شديداً المذهب الطبيعي الذي يدعي بان الكون يعمل ذاتياً مثل الماكنة مستقلاً عن ما وراء الطبيعة والكون. وهو يفند الدعاوى الثلاثة الرئيسية للطبيعيين، فيضع المسألة بالشكل الآتي: " لما كانت الموجودات قائمة ومحال انكار وجودها ... فهذا الوجود ... اما ان تقول ان اسباب العالم يوجد، ويعني ان ظهور هذا الوجود هو باجتماع الاسباب ... او انه يوجد نفسه بنفسه ... او انه يوجد بتأثير الطبيعة بمقتضى طبع الطبيعة ... او انه يوجد بقدره القادر ذي الجلال. ولما كان طريق آخر غير هذه الطرق الاربعة معدوماً، فان الاثبات القاطع باستحالة الطرق الثلاثة الاولى وبطلانها وامتناعها وعدم امكانها، يثبت بلاشك ولا شبهة طريق الوجدانية الرابع بالضرورة والبداهة"¹³

والملاحظ هنا، تناول سعید النورسي الموضوع اعتماداً على العقل (يعني الفلسفة). فهو يعدد الاحتمالات اولاً، ثم يفند وينقض الاحتمالات الثلاثة الاولى، ويبرهن على صحة الاحتمال الرابع الأخير. ان هذا الاسلوب بعيد عن خطاب العلماء التقليديين الوعظي مثل . ايها المسلمون، الله خالق الموجودات، والقول خلاف ذلك باطل فاحذروه!

واريد هنا ان اوضح شيئاً ذكره الاستاذ شريف ماردين بشأن وقوع سعید النورسي تحت تأثير نظرية نيوتن.¹⁴ مدعماً رأيه بتحليل اسلوب الرسائل اللفظي، مثل استعمال النورسي كلمة " الماكنة " او "مصنع الكائنات"، فعدها من اشارات التأثير.

12 - ممتاز تورك اونه ، ولادة الحركة الاسلامية كأيولوجية سياسية ، ص 24 - 32 ، نشریات ايلتيشم ، استانبول 1994 (بالتركية)

13 - سعید النورسي ، المصدر السابق ، ص 7 - 8

14 - شريف ماردين ، واقعة بدیع الزمان سعید النورسي ص 337 - 341 ، نشریات ايلتيشم ، استانبول 1992

النورسي كلمة " الماكنة " او "مصنع الكائنات"، فعددها من اشارات التأثير. وارى ان اصطياد مثل هذه الكلمات والانطلاق منها للدعاء بانه صاحب فكرة ميكانيكية عن العالم هو تبسيط لفكر النورسي الغائر في الاعماق. ان استعمال لسان عصري على المستوى اللفظي، لا يعني بالضرورة فكراً عصرياً. ولا أزيد هنا إلا ان تحليل الفاظ مفكر لأسكتشاف عالمه، لا يعدو ان يكون اسلوباً سطحياً وقاصراً. وسأوضح بعد قليل رفض سعيد النورسي لفكرة " الإله الذي لا يتدخل في الامور " رفضاً قاطعاً.

ان سعيد النورسي ينفذ وينقض طروحات الماديين والطبيين واحدة فواحدة، ثم يذكر رأيه فيشرح نظريته الى الطبيعة في هذا الاطار. لنقف قليلاً عند رأي سعيد النورسي بشأن "تأليه الطبيعة" ، قبل ايضاح نظريته الى الطبيعة.

يقرر سعيد النورسي ان القول بتداخل ماهية الكون مع الله، او حلول الله في الكون او إنكار كل حقيقة غير "واجب الوجود" (يعني وحدة الوجود)، قول مخالف للإسلام، ومضر. فهو لا يجد في هذا المشرب سوى حقيقة مهمة هي: "بقوة الايمان وبانكشاف بدرجة حق اليقين لولاية عالية، تنحط وتهوي وجود "الممكنات" ازاء وجود "واجب الوجود"، الى درجة سفلى حتى لا تجد مقاماً غير الخيال والعدم في ذلك النظر، فكأنه ينكر الكائنات لحساب واجب الوجود"¹⁵

ويحذر سعيد النورسي من إمكانات تحول "وحدة الوجود" الى "الطبيعية"، مع تثبيته للتناقض الاساسي بينهما: "ساد فكر المادية في هذا العصر حتى يظنون المادة مرجعاً لكل شئ. فاذا أظهر في مثل هذا العصر مشرب "وحدة الوجود" بسبب انتفاص خواص اهل الايمان لأهمية المادة الى درجة اعدامه، فقد يستحوذ عليه الماديون قائلين:

"نحن ايضاً نقول بذلك ! والحال ان ابعد المشارب في الدنيا عن مسلك الماديين وعباد الطبيعة هو مشرب "وحدة الوجود". لأن اهل "وحدة الوجود" يعظمون بقوة الايمان اهتمامهم بالوجود الالهي الى غايته حتى انكار الكائنات والموجودات. اما الماديون، فهم يعظمون اهتمامهم بالموجودات حتى إنكار الله على حساب الكائنات. فشتان ما بينهما !"¹⁶ وبعد ان يقارن سعيد النورسي بين مسلك الماديين والطبيين ومشرب "وحدة الوجود" على هذا الوجه، يذكر ثلاثة محاذير بشأن "وحدة الوجود":

الاول : الكائنات والمادة من صنع الله ولها حقيقة. وما له حقيقة في الخارج، ليس وهماً او ظلاً كما يدعي اصحاب وحدة الوجود. وقد يوصل إنكار مصنوعات الله، الى إنكار واجب الوجود الذي عرف نفسه بواسطة هذه المصنوعات.
الثاني : هذا الفكر الفلسفي العالي عند الخواص، قد يمهد السبيل الى عبادة الطبيعة اذا انتقلت الى العوام. فقد يقال جهلاً : لما كان لا وجود لشيء إلا الله، فما نراه من اشياء جزء من وجوده. فيقعون في نوع من عبادة الطبيعة.

15 - سعيد النورسي ، كليات رسائل النور - المكتوبات ص 564 ، نشریات بني آسيا ، استانبول 1994
16 - سعيد النورسي ، المصدر السابق ، ص 565

الثالث : هذا المعتقد يستجلب معان مغلوطة بشأن الله والعالم.¹⁷
 نستخلص من هذا، إن كوناً بلا خالق محال عند سعيد النورسي، بقدر استحالة ان يكون الخالق هو المخلوق ! فما الطبيعة والكائنات في نظره اذن ؟ وما موقع الانسان فيها؟ وما نوع الوشائج بين عالم الوجود والله ؟ الجواب عن هذه الاسئلة يعطينا مؤشرات الى رؤية النورسي الكونية.

اينما تطلع في رسائل النور، تجد موضوعاً عن "الطبيعة" بالمعنى المحدد، أو "الكائنات" بالمعنى الواسع. هاتان الكلمتان هما مركز فكر النورسي. وما يجعل الطبيعة او الكائنات في مركز فكره هو الالهية التي يوليها اياها في معرفة الله. فلا يرى النورسي الكائنات امراً عادياً قائماً بذاته، او اشياء من مواد بلا ارواح.

1 - الطبيعة عند النورسي كتاب، فهو يقرؤها كما يقرأ كتاباً. واسلوب قراءة كتاب الطبيعة عنده يوصل الى معرفة الله، كما ان قراءة الكتاب المنزل - القرآن - يوصل الى الله. فهو يصف الكائنات بالكتاب الكبير الذي يفسره القرآن.¹⁸

2 - كتاب الطبيعة الذي صنعته القدرة الالهية، ليس كتاباً معتاداً، بل اثراً خارقاً ومعجزاً. فهو يقول "ما يسمونه الطبيعة لا يعدو ان يكون صنعة، ولا يمكن ان يكون صانعاً، ونقشاً، ولا يمكن ان يكون نقاشاً"¹⁹. فاذا اطلعنا على هذا الاثر الرائع، نعرف خالقه وصانعه.

3 - وفي عبارة اخرى له، يصور الطبيعة كمرآة يعكس كل شئ فيها اسماء الله الحسنى. "... الكائنات مرآة. كذا كنه كل موجود من الموجودات مرآة. الابدان الالهية بالقدرة الازلية معروض. فكل موجود هو بجهة منه مرآة لاسم من الشمس الازلية تعكس نقشاً له.²⁰ فهذه الطبيعة التي هي مرآة تعكس انوار القدرة الالهية، لا بد ان تضم معان سامية وقدسية. لكن هذه المسألة تتبع النظر. فالطبيعة لبعضهم ستار يخفي سر الحقيقة عنهم. خصوصاً لأولئك الذين لا تغادر اعينهم نشأة الكون ولا يرون في التكوين إلا ماكنة. ان تجاوز هذا التكوين وهذه المرئيات الى ما وراءها، وابصار القدرة الالهية الخالقة، يقتضي نظراً حكيماً".

4 - تحيط العناية بكل شئ في الكائنات. فكل شئ يسوده نظام تحفظه سنن إلهية. هذا النظام الذي يسود الكائنات من الذرة الى الشمس، تشهد - بنظامها - على وجود الله

21

5 - الانسان يشغل ذروة المواقع في الكائنات. الانسان هو الثمرة الأخيرة لشجرة الخليقة. وكل شئ هو لأنضاج وتكامل هذه الثمرة. لذلك، هو قلب الكائنات ومركزها. فيفضل الانسان صارت الارض تعدل السموات وهي - قياساً بها - الثمرة الصغيرة في شجرة كبيرة.²² والانسان مرآة تعكس الصانع الجليل ببديع بنائه وبما وهب له من

17 - سعيد النورسي - المصدر السابق - اللغات ص 739 - 740 ، المكتوبات ص 384 - 385

18 - سعيد النورسي - المصدر السابق - اللغات ص 759

19 - سعيد النورسي - رسالة الطبيعة ص 27 ، نشرات سوزلر استانبول 1975

20 - سعيد النورسي ، الكليات - المصدر السابق - اللغات ص 598

21 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - اللغات ص 648 - 649

22 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - الكلمات ص 96 - 70

صفات جزئية مثل العلم والقدرة والبصر. وهو وجود في غاية العجز والضعف، لكنه يبحث عن معين قوي .²³

6 - الأنسان بطبعه وجبلته ميسر للسمو وللهبوط. ففيه خصال الملائكة، كما فيه صفات الحيوان. وقصة الانسان في الارض هي قصة التذبذب بين هذين القطبين. فالنفس تهبط به الى اسفل، والمعرفة والعبودية ترتقيان به الى السمو.²⁴

7 - العالم الكبير (الكائنات) والعالم الصغير (الانسان) خاضعان لمشيئة الله. ان الله الذي لا يرى بالعين، حاضر في كل مكان، وكل شئ خاضع لارادته لا شريك له في ملكه. "من البدهي ألا يكون صانع الكائنات من نوع الكائنات. ماهيته لا تشبه ماهية شئ من الاشياء اطلاقاً. فلا تمنعه اذن الموانع والقيود الموجودة في دائرة الكائنات، ولا تقيد اجراءاته. فهو قادر على التصرف في الكائنات كلها والاحاطة بها. ولو احييت التصرفات والافعال المشاهدة في الكائنات الى الكائنات نفسها، لتسببت في مشكلات واختلاطات تزيل كل انتظام ولا تبقى شيئاً في الوجود، بل لا يظهر شئ الى الوجود"²⁵

ونسأل هنا : كيف هو تصرف الله في الكائنات ؟

8 - يقول سعيد النورسي بخفاء العلاقة بين العالم الظاهر والعالم الباطن، ونوع التصرف في هذا السياق. لكن بصيرة حادة وذكاء فائقاً يسبر الاغوار من الظاهر الى الباطن، يمكن ان يكتشف ذلك. ان الاسباب ووظيفتها في العالم الظاهر هي ستائر في الحقيقة. فاذا رفعت هذه الستائر، يتوصل فيما وراءها الى وجود القوة الخالقة. سعيد النورسي يبنه الى الفعاليات والحركات العظيمة في الكائنات : "تعال وانظر الى كل مكان، وانعم النظر في كل شئ. ان يداً خفية تعمل في هذه الافعال كلها... اذن، هذه لا تعمل بذاتها. يوجد صاحب قدرة خفي يجعلها تعمل".²⁶

فكما يحس آدم سميث بيد خفية تعمل في الحياة الاقتصادية، كذلك النورسي يرى يداً خفية تدبر الكائنات كلها، ويوضح لنا هذه العلاقة المغلفة بالاسرار بمثال الشمس التي ترسل انوارها الى دنيانا : " كما ان تمثال الشمس غير المحدودة نوعاً ما باعتبار النورانية، تتمثل في كل شئ صقيل ولامع... فهكذا هذه الكائنات، يتجلى فيها الصانع ذو الجلال تجلياً يكون حاضراً وناظراً في كل مكان مع استحالة حصر وجوده في مكان، بصفاته كلها - التي هي نور - وباسمائه النورانية كلها وبسر توجه الاحدية. محال ان يكون انقسام في توجهه. يفعل كل شئ في الوقت عينه، وفي كل مكان، بلا كلفة ولا مزاحمة."²⁷

كذلك، يضرب مثلاً للقدرة الالهية بسلطان مقتدر يقوم باعمال عظيمة في ارجاء سلطنته بواسطة الوكلاء.²⁸

23 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 315 - 316

24 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 156 - 157

25 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - المکتوبات ص 463

26 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - الكلمات ص 115

27 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - المکتوبات ص 462

28 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - الكلمات ص 70

الخلاصة ، ان التفكير الكوني عند سعيد النورسي هو ان الكائنات تعمل بارادة الله وان الانسان والمجتمع يعيشان باحاطة علمه. وان العالم الظاهر والباطن، والارض والسماء، وكل عالم يؤثر في عالم آخر ويتأثر به. ولم يترك الله الانسان بغير مسؤولية او ارادة او عناية. الانسان يخوض في هذه الدنيا امتحاناً يقوده الى نتيجة. انه مسؤول امام خالقه، وايضاً ازاء نوعه، بل ازاء الاحياء الأخرى والطبيعة. علاقاته لا تخضع للاهواء. وقد سعى سعيد النورسي في رسائله الى الارتقاء بالانسان الى هذا الوعي.

6 - المضامين البيئية لعلم الكون المعنوي :

يمكننا الآن ان نقيم الرابطة بين علم الكون وعلم البيئة. ان المصدر الذي ينظم القواعد والقيم بين الانسان والطبيعة والاحياء هو نظرتي الى الكون واسلوب حياتي. فرؤيتنا الكونية اذن ، ليست فرضيات مجردة ومثالية، بل مشحونة بمضامين مؤثرة على الطبيعة والبيئة. ان المعاني التي تنتشع بها عن الله ودور الانسان في الارض، مؤثر على نوع تصرفاتنا .

مثال ذلك : يعتقد الهنود الحمر ان التراب والماء والحجر وكل شئ عوارض "للارض الام". آلهتم "الارض الام". وهي جزء حال في الطبيعة وليست خارجها، تعمل في كل عمل في كل لحظة، في تكاثر الاحياء، ونمو النبات، وجريان المياه... في كل عمل . وفي الحقيقة ، في كل فعل من فعاليات الخالق. ان الانطلاق من مثل هذه الفرضيات مثلاً، يخرج الطبيعة من اطار المتراكمات المادية التي لا تحمل معنى، الى اطار طبيعة مقدسة تستحق الاحترام والحب. فيتغير تبعاً لذلك، نوع العلاقة مع عالم الموجودات من علاقة انتاج واستهلاك الى الكون المقدس الذي يؤوي الانسان ويرببه في بيت دافئ ويحبه كقوة خالقة.

وقد ذكرنا فيما سبق، ان البراديجما المعاصرة جردت العالم من القدسية. ان سعيد النورسي عارض اغلاق الماديين للكون، ورأى في الكون " مرآة " تعكس اسماء الله الحسنی، و" كتاباً " مقدساً ينبغي قراءته، " وصنعة " و " اثرأ " بديعاً لله يلزم الاطلاع عليه. اراد ان يسبل هالة من القدسية عليه على خلاف الجهود الرامية إلى نزع القدسية عنه. وقد عرف بالانسان مخلوقاً في امتحان مستمر على هذه الأرض، مضطراً الى تحمل المسؤولية. ورآه عالماً داخل عالم، وخالصة صغيرة لعالم كبير. فهما عالمان متداخلان يقومان ببعضهما.

فاذا اردنا استنباط رؤية بيئية من نظرة سعيد النورسي الكونية، نقول بأن مصدر تخلخل العلاقة افقياً بين الانسان والطبيعة هو في الاصل بسبب تخلخل العلاقة عمودياً بين الانسان والله. فهو يشدد على " ان من يترك العبادة ، لا يرى عبادة الموجودات ، بل لا يمكن ان يرى عبادتها ، وربما ينكرها. وهنا، يهين الموجودات التي هي في مقام عال من جهة العبادة والتسبيح، والتي كل منها مكتوب صمداني ومرآة الاسماء الربانية، وينكر كمالاتها ويعتدي عليها، بتنزيلها من مقاماتها العالية وبتلقيه اياها كحال بانس وجامد وبلا وظيفة ولا اهمية " ²⁹

ان سعيد النورسي يؤكد - بتحليل عميق المعاني وذكي - ان تخلخل العلاقة بين الانسان والله، ينعكس على علاقة الانسان بالطبيعة، وان الانسان المقطوع صلته بالله، يهبط بعالم الموجودات الى درجة العادية ثم يؤدي به الى التجاوز عليها . فهو يحدد هنا توجهات ثابتة واكيدة، ويرى أن ملامح العلاقة بين الانسان والطبيعة تتعين بنظرته الى الكائنات بقدر حالته النفسية: " كل امرئ يرى الكائنات من خلال مرآته. لقد خلق الله تعالى الانسان كمقياس وميزان للكائنات... مثلاً: الانسان البائس والحزين الباكي، يرى الكائنات بائسة وباكية. اما الانسان المسرور الفرح والمتفائل الضاحك في كمال نشوته، فيراها ضاحكة. كذلك ، الرجل المتفكر الجاد في العبادة والتسبيح، يرى ويكتشف - بدرجة ما - وجود الموجودات حقيقة ، وعبادتها وتسبيحاتها المحققة".³⁰ فالانسان الطائع لله، يرى الموجودات طائعة له ويصطف معها في صف واحد متألف ومتحاب امام الله .

وفي وضع مناقض للاول : "... الرجل التارك للعبادة في غفلة او انكار، يتوهم الموجودات في غلط، ضد كمالات حقيقتها وخلافها تماماً، ويتجاوز على حقوقها بالمعنى." ³¹ لكن آثار هذا التجاوز لا تتوقف، بل ترتد على الانسان، فيظلم نفسه بنفسه.³² ان البشرية في يومنا - كما توقع النورسي - خربت التوازن البيئي بتأثير النظرة المغلقة والمجردة عن المباركة للطبيعة والكائنات ، وهي تجني الثمار المرة لهذا التخريب.

فما الحل اذن ؟

مفتاح الحل في رأي سعيد النورسي، هو بالعبادة التي أشبهها بنغم كوني ينسجم فيه الانسان والطبيعة امام الله. وان العبادة في مفهومه - كما هو في المفهوم الاسلامي - لا تنحصر بالتكاليف المعينة التي يؤديها الانسان امام الله مثل الصلاة والصيام. العبادة بالمفهوم الاسلامي هو التصرف في التعايش بوعي عميق ينطلق من العالم، بظهور الانسان والبشرية والكون من نفس المصدر ويرجوعه الى المصدر نفسه. العبادة ، في ايجاز ، " تفكر " و " نوع حياة " من طراز متميز. هي فلسفة التفكير والعيش بالعلم والحس للبراهين الكونية والطبيعية الدالة على وجود الله ، هذا المفهوم هو الحل الوحيد لاصلاح العلاقة المتخلخلة بين الانسان والطبيعة ، وتأسيس علاقة تألف مجدداً.

7 - عالم جديد وبراديغمانية جديدة : لا صراع، بل ترابط وتعاون متقابلان :

تطرح تصورات عديدة عن وضع العالم اليوم، منها اطروحة " العولمة " الشائعة الى حد التداول في الاسواق والشوارع، والتي تصور العالم قرية صغيرة. الترابط المتبادل حقيقة قاطعة بسبب سرعة السريان في سياق المعاصرة. فاذا مددنا هذه الرؤية الى مشكلة البيئة، ينبغي ان نرفض النظم البيئية المختلفة والمنفصلة عن بعضها. عالمنا اليوم يسوده نظام بيئي متكامل تتداخل فيه نظم بيئية مختلفة تؤثر

30 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 37

31 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 37

32 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 37

بعضها في بعض . ان مشاكل البيئة لم تعد واقعة ترجع حصراً الى تقدم الدول الغنية السريع. فللدول النامية ايضاً مشاكل للبيئة ترجع الى فقرها. فمشاكل البيئة في الشمال وفي الجنوب هي وجهان لعملة واحدة.

ان عالماً بلغ هذا المبلغ من التداخل والترابط المتبادل، لا يكفيه التعاون المتبادل لحل المشاكل العالمية، بل يتطلب تغييراً جذرياً في كنه نظرتنا الى الطبيعة والعلاقات الجديدة معها. وفي الغرب، لا زال البحث مستمراً عن البدائل منذ بدء مناقشات ازمة البيئة في الستينات . وتقدم حركة العصر الجديد (هولزم او التقديسية) املاً وبديلاً جديداً في عالم مزقته التناقضات والازمات الحادة .

يرى مفكرو حركة العصر الجديد ان الاصرار على منهج العصرية الحالية لا يخلف إلا كوارث ونكبات جديدة. لان الخصوصية المميزة للثقافة المعاصرة في التصور الازدواجي المتضاد في كل المسائل جعل فجوات شاسعة بين العلم والدين ، والرجل والمرأة ، والماضي والمستقبل ، والانسان والبيئة ، والفرد والمجتمع ، والروح والبدن ، وتسبب في تمزق وتصارع عالمي . هذا التمزق والتصارع يمكن تجاوزه بالمنظور التقديسي الجديد (هولزم) .³³

ان المنظور المعاصر للعالم يفترض صراعاً بين الانسان والطبيعة ويحدد دور الانسان فيه باطلاق يده لقهر الطبيعة. وقد نجح الانسان المعاصر في " تأهيل " الطبيعة الى حد كبير ، لكن هذا السياق بدأ يرتد عكسياً ويهدد الإنسان بالخطر. لذلك ، لم يعد الاصرار على برنامج العصرية الجديدة والاحلام السعيدة إلا خداعاً يخدر الانسان المفكر في المستقبل .

ومن المفيد هنا ان نعلم ان حركة العصر الجديد (او التقديسية) تستمد استمداداً قوياً من الروحية الشرقية والاديان التقليدية ، لان الاديان التقليدية - على خلاف منظور العصرية الجديدة - لا ترى تناقضاً وصراعاً بين الانسان والطبيعة ، بل تعاوناً وتأثراً متبادلاً بينهما. ومن الضروري هنا ان نشير الى آراء سعيد النورسي في هذا الشأن.

ينبغي ان نفكر في جذور المسائل التي خلفتها العصرية الجديدة ، وان نعترف ان سعيد النورسي سبقنا منذ اوائل القرن العشرين في مقاومة المدنية الغربية والتحديد القاطع للفوارق والاختلاف بينها وبين الاسلام . ولا زالت آراؤه محافظة على اصالتها وحيوتها .

ففي جواب سعيد النورسي عن سبب اختلاف الاسلام والمدنية الغربية ، يشير الى خمسة اسس سلبية لتلك المدنية . فهو يرى ان المدنية الغربية :

- 1 - محور استنادها هو القوة ، وشأنها التجاوز
- 2 - وغاية قصدها هي المنفعة ، وشأنها التزاحم
- 3 - ودستورها في الحياة هو الجدل (الصراع) ، وشأنه التنازع

4 - وربطتها ما بين الجماعات البشرية هي العنصرية والقومية السلبية القائمة على ابتلاع الآخرين ، وشأنها هذا التصادم الرهيب (المشهود)
5 - وخدمتها الجذابة هي تشجيع الهوى واشباع رغباته وتسهيل مطالبه . وشأن هذا الهوى تنزيل الانسانية من درجة الملائكية الى درك الكلبية " .³⁴
وما دامت هذه اسس المدنية المعاصرة ، فلن يقوم تعاون وسلام وحوار على المستوى العالمي . وكما يقول Hanginton في اطروحته التي ظهرت حديثاً : " العلاقة بين الحضارات علاقة حرب . فمن الطبيعي ان تتنافس الحضارات مع بعضها " .
اما سعيد النورسي : فيقترح مدنية تقوم على المبادئ الاسلامية العالمية مغايرة للمدنية الغربية ، وتستند على الاسس الايجابية عوضاً عن الاسس السلبية المذكورة :
" محور استنادها هو الحق لا القوة ، وشأن الحق العدالة والتوازن .
وقصدها الفضيلة لا المنفعة ، وشأن الفضيلة المحبة والتجاذب .
وجهة وحدتها رابطة الدين والوطن والمهنة لا العنصرية والقومية ، وشأنها الاخوة المخلصة والمسالمة والدفاع ازاء العدوان الخارجي .
ودستورها في الحياة دستور التعاون لا الجدل والصراع ، وشأنه الاتحاد والتساند

وخدمتها لله لا الهوى ، وشأنها الرقي انسانية والتكامل روحاً " .³⁵
بعد ان يبين سعيد النورسي الفرق بين المدنية الحديثة والاسلام ، يؤكد ان المستقبل سوف يشهد تحولات كبيرة ، قائلاً .
" كونوا متفائلين ... سيكون صوت الاسلام هو الاعلى والاقوى في انقلاب المستقبل هذا " .³⁶

ترجمة : عوني لطفى اوغلو

34 - سعيد النورسي ، سيرة ذاتية - نشریات انوار ص 131 - 132 (بالتركية)
35 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 133
36 - سعيد النورسي ، المصدر السابق - ص 133

الغربة والاعتراب عند بديع الزمان سعيد النورسي

P احمد بمجت

الغربة قدر العظماء والافداد من المجاهدين والصوفية..

صحيح ان احساسهم بما يختلف حسب استقبال القلوب.. هناك من يراها عناء لا يحتمل، وهناك من يراها ابتلاء لا بد من احتماله، وهناك من يعدها نعمة لا نقمة.. ولعل صاحب الاشارات الالهية ابو حيان التوحيدي هو اول من جعل من الغربة بناء فلسفيا متسق الجوانب..

وسوف نقارن بين غربة التوحيدي (وهو اديب صوفي عاش في القرن الهجري الرابع) وغربة بديع الزمان سعيد النورسي وهو مجاهد صوفي عاش في القرن العشرين، بهدف ان تلقى هذه المقارنة مزيدا من الضوء على شخصية النورسي.... في البداية نحب ان نوضح الفارق بين التركيبة الشخصية لابي حياة التوحيدي وتركيبته النورسي...

كان ابو حيان التوحيدي اديبا بائسا، لقي الاهوال من الاحياء، وعرف الشقاء الذي لا يستحقه، لقد وجد التافهين يرتفعون الى اعلى مراتب الشرف والرياسة في الدنيا، وقد سعى التوحيدي ما استطاع لطلب الارتفاع والجاه عند الناس فحرم هذا كله.. وزاد من شعوره بالألم انه طلب المجد عند اناس يحترفون الادب، ولكنهم بلغوا منازل الوزارة، فلم ينل منهم الاعتراف ولم يلق منهم سوى البؤس والحرمان...

ولقد بدأت رحلة التوحيدي نحو الغربة بهذا النكد الذي قدمته الدنيا اليه، حتى صار منحوسا فيها.. وهو يعبر عن موقفه فيها بقوله (ما ظننت ان الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغته منى، إن قصدت دجلة لأغسل منها نضب ماؤها، وان خرجت الى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس) ورغم هذا النحس الذي اصابه فقد حاول التوحيدي ان يربأ بنفسه عن هذا كله قائلا "معاناة الضر والبؤس اولى من مقاساة الجهال والتبؤس".. كان هذا الموقف هو بداية رحلة التوحيدي نحو الغربة، ان اقارنه لم يعترفوا بموهبته، ولم يقدره حق قدره، ووجدوا عبقريته، ولعل الذين يحترفون مهنة الادب منهم قد رأوا فيه منافسا خطيرا فزادوا في اهماله وامعنوا في تجاهله...

P واحد من نجوم الصحافة المصرية والعربية ، يعمل نائبا لرئيس تحرير جريدة الأهرام القاهرية . وله فيها عمود يومي : " صندوق الدنيا " . كتب أكثر من 35 كتابا منها ماهو إسلامي ومنها ماهو نقد إجتماعي ومنها ما هو أدبي ساخر . وقد ترجمت له 4 كتب الى اللغات الإنكليزية والفرنسية والهندية والصربو الكرواتية.

وهكذا وصل التوحيدى الى نقطة الصفر، واحس انه غريب في كل شئ.. غريب في وطنه، غريب عن احبائه، غريب عن كل ما في الوجود من اشياء واحياء كما يقول د. عبدالرحمن بدوى شيخ الفلاسفة في دراسته عن التوحيدى.. انه يرى ان موضوع الغريب هذا من ابلغ ما سطره قلمه، وفيه ملامح وجودية لا يخطئها النظر من اول وهلة.

يقول التوحيدى ان الغريب الحق ليس ذلك الذي نأى عن وطن بين الماء والطين، وابتعد عن اصحاب له واحباء، وانما هو ذلك الذي طالت غربته في وطنه، وقل حظه من حبيبه وسكنه.. فهو في وطنه غريب، وتلك هي الغربة الوجودية ذات المعنى العميق كما يرى د. عبدالرحمن بدوى، لانها احساس بالوحدة الذاتية المطلقة التي يحملها الانسان داخل نفسه اينما حل وحيشما سار، وفي أي وسط كان، فالوطن المادى لا معنى له اذا قيس بالوطن الروحى الذي تقطنه تلك النفوس الشاردة.

يقول ابو الفتح البستي عن عالمية النزعة:

وان نبت بك اوطان نشأت بها فارحل.. فكل بلاد الله اوطان

ولكن التوحيدى لا يقتنع بهذا المعنى المبثذل في عهده، وانما يرفعه الى المعنى الاعمق، فيقول "قد قيل الغريب من جفاه الحبيب، وانا اقول بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من نودى من قريب (ثم يرتفع بهذه النبرة الى درجة عالية فيصيح): "بل الغريب من هو في غربته غريب".. يفسر د. البدوى هذه العبارة الاخيرة بان هذا الغريب، قد صارت الغربة نفسها غريبة عنه، لانه ارتفع فوق معنى الغربة عن الوطن، الى معنى الغربة عن الغربة، بعد ان صارت الغربة نفسها وطناً له.. وهذا يعنى انه في حركة متطورة وديناميكية مستمرة....

يقول التوحيدى "اين انت من غريب لا سبيل له الى الاوطان، ولا طاقة به على الاستيطان" يريد ان يقول ان الغريب الحق هو الدائم الغربة ابداً، وهو الذي ان راي غربة قد بدأت تستحيل الى وطن فعليه ان يرحل عنها حتى يظل في الغربة على الدوام.. هذه غربة التوحيدى، وهى غربة فنية في المقام الاول اذا جاز هذا التعبير...

اما بديع الزمان سعيد النورسي فكانت غربته من لون آخر تماماً.. صحيح انها بدأت بما تبدأ به الغربة عادة.. قال على بن ابي طالب "فقد الاحية غربة".. وقال سعيد النورسي: "اننى احمد الله تعالى حمدا لا احصيه، اذ حول انواع الظلم والمكاره التي جابهني بما اهل الدنيا الى انواع من الفضل والرحمة". بعد هذا البيان العام تحدث النورسي عن الغربة.. قال: "ان ربي الرحيم شاء ان ييقينى في هذه الغربة ليستخدمنى في خدمة القرآن اكثر، وليجعلنى اكتب هذه الانوار القرآنية التي سميتها الكلمات" فابقان في هذه الغربة بلا ضجة ولا ضوضاء، وصولاً الى رحمة سابعة".....

لو القينا نظرة على الواقع الذي اصاب النورسي فسوف تتضح لنا الصورة بشكل افضل... يوم 1 مارس سنة 1927 تم نفي سعيد النورسي الى منفى بارلا، واستمر هذا النفي 8 سنوات.. في هذه السنوات، مر النورسي بتجربة الغربة، وبدأ في كتابة "رسائل النور".. لو القينا نظرة على الاحداث الواقعية في تركيا يومئذ فسوف نعرف كيف كانت المؤامرة تسحب الارض من تحت اقدام المسلمين او بعبارة اكثر تحديداً.. كان الوطن — الذي هو الاسلام — يتغير بصورة سريعة تجعل المسلمين فيه يحسون بالغربة المطلقة.. ان السلطة الحاكمة يومئذ كانت تغير كل ما يمت للاسلام بصلة

سنة 1922 الغيت السلطنة العثمانية

سنة 1923 اعلنت الجمهورية وانتخب مصطفى كمال اتاتورك اول رئيس لها

سنة 1924 الغى تدريس الدين. والحقت المدارس بوزارة المعارف، واغلقت مدارس القرآن والدين. ايضا الغيت الخلافة وتم اخراج جميع افراد العائلة العثمانية الحاكمة الى خارج البلاد، ايضا الغيت وزارة الاوقاف والشؤون الدينية والمحاكم الشرعية، واعيد النظر في دستور الدولة.

سنة 1925 اندلعت ثورة الشيخ سعيد بيران، واعلنت الاحكام العرفية في الولايات الشرقية، وصدر قانون لاقرار النظام في البلاد، واغلقت عشرة صحف في استانبول واعدم الشيخ سعيد بيران و 47 من اعوانه واغلقت جميع الزوايا والتكايا في شرق الاناضول. وقبل ان تنتهى سنة 1925 تم الغاء التقويم الرومى المستعمل، واستخدم التقويم الجريجورى الاوربي، كما صدر قانون القيافة، وهو يلزم الرجال بلبس القبعة، وارتداء النساء للزى الاوربي أيضا تم اجبار موظفى المساجد على ارتداء الزى الاوربي، اما الموظفون فارغموا على ارتداء القبعات.. وايضا الغيت الالقاب كالشيخ والخليفة والمريد.

سنة 1926 صدر قانون الزواج المدنى وبموجبه حرم تعدد الزوجات، والغى المهر المفروض على الزوج، ومنع الازواج من حق الطلاق، واصبحت البنت حرة في اختيار زوج من أي دين، وتمت التسوية بين الذكر والانثى في الميراث، والغى قانون الميراث كما ورد في القرآن، وتم اقرار القانون المدنى الاوربي بدلا من قانون الشريعة..

سنة 1928 اخرجت كلمة الله من القسم الذى يؤديه رجال الدولة والغيت عبارة ان دين الدولة الرسمى هو الاسلام، وتم اقرار الحروف اللاتينية والكتابة بما بدلا من الحروف العربية.

سنة 1932 اصبحت خطبة الجمعة تقال بالتركية في جامع السلیمانية باستانبول وفرض الاذان والاقامة بالتركية وفي بداية سنة 1933 اصبح الاذان بالتركية في جميع المساجد.

سنة 1935 صار يوم الاحد عطلة الاسبوع الرسمية بدلا من يوم الجمعة

سنة 1940 بدأ تدريس الاحاد رسميا في معاهد القرى.

كان واضحا مما يجرى ان هناك محاولة منظمة لاقتلاع الاسلام من جذوره واطفاء جذوة الايمان في قلب الامة التى رفعت راية الاسلام طوال 6 قرون من الزمان...

تذكر الاحصائيات الرسمية ان الذين اعدموا بسبب رفضهم لارتداء القبعة بلغ 965 شخصا..

علما بان الرقم الحقيقى يبلغ ثلاثة الاف شخص، وفضل علماء اجلاء وادباء كبار ترك البلاد والمهجرة منها على لبس القبعة والخضوع لقانون القبعة.. كان الجو السائد في تركيا يومئذ هو مزيج من الذعر والارهاب، وصار القابض على دينه كالقبض على الجمر..

اين كان سعيد النورسي من هذه الاحداث كلها

كان الرجل منفيا في "بارلا" .. وفي هذه المدينة النائية كانت الاخبار المؤسفة لما يجرى تبلغه، وكانت هذه الاخبار تدفعه في قلب الغربة.. وتوقظ في داخله في ذات الوقت رغبة في انقاذ الايمان لدى شعب أصبح في حكم الاسير المقيد الذي توجه اليه السهام من كل مكان..

كان الموقف العام يدعو الى اليأس.. وكان موقفه الخاص يدعو الى القنوط.. منها هو الرجل المجاهد يجد نفسه معزولا ظلما وعدوانا، محروما من زيارة اقاربه له، محروما من زيارة اهل بلده له، ووسط هذه العزلة كانت المشاعر والاحاسيس تتعاقب عليه، يقول سعيد النورسي تحت عنوان "وجاء الايمان بالله لنجدتى": .. كنت في المنفى في ذلك الاسر الاليم.. في البداية بقيت وحدى منفردا منعزلا عن الناس على قمة جبل "جام" المطل على مراعى بارلا، كنت اجث عن نور في تلك العزلة..

وذات ليلة.. في تلك الغرفة الصغيرة غير المسقوفة المنصوبة على شجرة صنوبر عالية على قمة ذلك المرتفع، اذا بشيخوحتى تشعرن بالوان وانواع من الغربة المتداخلة.. ففي سكون تلك الليلة حيث لا اثر ولا صوت سوى ذلك الصدى الحزين لحفيف

الاشجار وهممتهما، احسست بان ذلك الصدى الاليم قد اصاب مشاعري في الصميم..ومس اعماق شيخوختي وغربتي، فهمست الشيخوخة في اذن منذرة : ان النهار قد تبدل الى هذا القبر الحالك، وليست الدنيا كفننها الاسود، ولسوف يتبدل نهار عمرك الى ليل، وسوف يتحول نهار الدنيا الى ليل البرزخ وسوف يتحول نهار صيف الحياة الى ليل شتاء الموت.. اجابتها نفسى على مضض:

اننى غريبة هنا عن بلدتي، ونائية عن موطني، لقد فارقت احباء كثيرين خلال عمري الذي ناهز الخمسين، ولم اعد املك سوى ذرف الدموع وراءهم..

نعم.. هي غريبة تفوق غربتي عن موطني [لاحظوا هذه العبارة]

اننى اشعر في هذه الليلة بغربة اكثر حزنا واشد الما من غربتي على هذا الجبل الذي توشح بالغربة والحزن. [لاحظوا هذه العبارة التي تتحدث عن اغتراب الكائنات ذاتها]

ان شيخوختي تنذرني باقترابي من فراقى النهائى عن الدنيا بالموت، وفي هذه الغربة المدثرة بالحزن، ومن خلال هذا الحزن الذى يمازجه الحزن، بدأت أبحث عن نور.. عن قيس من الامل.. عن باب للرجاء.. وسرعان ما جاء الايمان بالله لنجدتى وشد أزرى، ومنحتنى انسا عظيما يستطيع ان يواجه الاحزان والهواجس والالام والمخاوف.. فيما بعد.. سيكتب فى "اللمعات" نداء قويا يقول فيه: ايها الشيوخ.. اينها العجائز.. ما دام لنا خالق رحيم فلا غربة هناك ابدا، ما دام سبحانه موجودا فكل شئ موجود، وما دام هو موجود وملائكته موجودة، فهذه الدنيا اذن ليست خالية من الانيس، وهذه الجبال التي تبدو خاوية، وهذه الصحارى التي تبدو مقفرة، انما هي عامرة مأهولة بعباد الله المكرمين.. بالملائكة الكرام..

نعم، ان نور الايمان بالله سبحانه، والنظر الى كونه المأنوس العامر، يجعل الاشجار والاحجار تستطيع ان تتكلم معنا بلسان الحال بما يسلينا ويروح عنا..

هذه الذروة التي وصل اليها بديع الزمان سعيد النورسي، واستطاع حين بلغها ان يتجاوز غربته واحزانه، هذه الذروة لم يقفز اليها من فراغ، ولم يبلغها في ليلة..

انما وقع في صراع مع الغربة وطال الحوار بينه وبين نفسه، حتى جاء الوقت وتجاوز هذا كله..

لقد عرف النورسي الوانا من الاغتراب حدثنا عنها في رسائله فيما بعد واعترف لنا في رسائله انه مرّ بخمسة الوان من الغربة.

يقول بديع الزمان: "بقيت منذ شهرين او ثلاثة وحيدا فريدا، وربما يأتيين ضيف في كل عشرين يوما او ما يقرب من ذلك، فاظل وحيدا في سائر الاوقات.. ومنذ ما يقرب من عشرين يوما، ليس حولى احد من اهل الجبل.. لقد تفرقوا جميعا.. في هذه الجبال التي توحى بالغربة، وعندما يرخى الليل ستائر فلا صوت ولا صدى الا حفيف الاشجار الحزين.. رايتنى وقد غمرتنى خمسة الوان من الغربة.. اولاً: ان بقيت وحيدا معتربا عن جميع اقربائى واحبابي واقاربي، واحذت الشيخوخة منى نصيبها فشعرت بغربة حزينة لمن سبقنى بالرحيل الى عالم البرزخ..ومن هذه الغربة انفتحت دائرة غربة اخرى، وهى شعورى بالغربة المشوبة بألم الفراق حيث تركتني اكثر الموجودات التي اتعلق بها.. ومن خلال هذه الغربة، انفتحت دائرة غربة اخرى، وهى الغربة عن موطني واقاربي فشعرت بغربة مفعمة بالم الفراق..ومن خلال هذه الغربة ألقى عليّ اوضاع الليل البهيم والجبال الشاخصة أمامي بغربة فيها من الحزن المشوب بالعطف ما اشعرني ان ميدان غربة اخرى قد انفتحت امام روحى المشرفة على الرحيل عن هذا المضيف الفانى (الدنيا) متوجهة نحو ابد الآباد (الأخرة)

وهكذا تحرك النورسي في هذه الدوائر الخمسة من الغربية.. ووسط حيرته واحزانه استغاث قلبه بالله. قال: يارب.. انا غريب وحيد.. ضعيف غير قادر.. عليل عاجز.. شيخ لا خيار لي ولا قوة.. يارب.. اسألك للغوث والعفو والقوة.. كان دعاء النورسي حارا.. وكان صادقا في دعائه.. وانفتحت له ابواب السماء ووصله المدد الالهي

يقول الصوفية: نحن لا نحمل همّ الاجابة، انما نحمل همّ الدعاء، فاذا ألهمنا الدعاء جاءت الاجابة معه. يقول سعيد النورسي: "اذا بنور الايمان وفيض القرآن ولطف الرحمن يمدني بقوة نجحت في تحويل هذه الانواع الخمسة من الغربية المظلمة الى خمس دوائر نورانية من دوائر الانس والسرور.. وبدأ لسان يردد [حسبنا الله ونعم الوكيل]، وتلا قلبى الآية الكريمة [فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم]..

ووقع الحوار بين عقله الهادئ ونفسه الفلقة المضطربة..
قال عقله: دع الصراخ يامسكين، وتوكل على الله في بلواك
انما الشكوى بلاء

اذا وجدت من ابتلاك عاد البلاء عطاء في عطاء، وصفاء في صفاء..
دع الشكوى واغنم الشكر كالبلابل.. فالازهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل..
بغير عون من الله، دنياك عذاب والم.. وفناء وزوال.. وهباء في بلاء..
تعال.. توكل على الله في بلواك..

مالك تصرخ من بلية صغيرة وانت مثقل ببلايا تسع الدنيا..
تبسم بالتوكل في وجه البلاء، ليبتسم البلاء في وجهك..
فكلما تبسم البلاء صغر وتضاءل حتى يزول

هذه سطور من المكتوبات.. وهى تصور لنا كيف واجه النورسي غربته وكيف ارتفع عليها وتقدم عنها وتركها وراء ظهره.. كان مفتاحه في ذلك آيات الكتاب الحكيم: [فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم].. وايضا قوله تعالى [كل شئ هالك الا وجهه]
يقول بديع الزمان سعيد النورسي:

ان الذى نجاني من تلك الحالة المحزنة المؤلمة (يقصد الغربية بكل آلامها واحزانها) هو تكرارى هذا النداء: يا باقى انت الباقي.. والذى هو معنى الآية [كل شئ هالك الا وجهه]...
وعليه ان نلخص الفرق بين غربة التوحيدى وغربة النورسي بقولنا: ان غربة التوحيدى اثمرت فناً من فنون المناجاة، لا يعيبه من الناحية الشكلية سوى طغيان المحسنات اللفظية - البديعية خصوصاً - عليه، الامر الذى دفع التوحيدى الى اتخاذ اسلوب عليه مسحة من التكلف الظاهر، الامر الذى اشاع بعضاً من البرود في مرارة النيرة العالية التى هى الاساس الاصيل فيما كتب.. وتلك آفة التوحيدى كما يقول د. عبد الرحمن بدوى.. أيضاً نحب ان نلاحظ ان التوحيدى، كان ادبياً بمتنه حرفة الكتابة، وبالتالي فقط كان الاسلوب يعنى لديه الشئ الكثير.

اما غربة النورسي فقد اثمرت رسائل النور، وهى رسائل كان الباعث عليها هو خدمة القرآن وحراسة الاسلام ومقاومة هذه المحنة التى تعرض لها شعب خططوا له ان يرتدى القبعة وان يرمى اسلامة جانباً.

لم تكن رسائل النور مجرد ابتهالات يغلب عليها طابع الادب او الصنعة انما كانت حراسة مرابطة على ثغور الاسلام الى يوم القيامة.

الفهم القرآني لقضايا إنسانية من خلال رسائل النور

د. مهدية أمnoch^P

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على دارس الآثار العلمية للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مدى الصلة الوثيقة بينها وبين القرآن الكريم من حيث الاهتمام، الاستمداد والاقْتباس. فرسائل النور في أصلها هي اهتمام و عكوف على القرآن الكريم درسا و شرحا و تقريبا للأذهان بشتى الطرق و الوسائل، و ذلك من خلال التوسل بالطاقات الروحية المتدفقة و المستمدة من هذا النص المقدس بالرجوع إلى استشهادات من سوره و آياته المعجزة.

وهكذا و بما أن سبل هداية الإنسان و طرق صد غوايته هي محور القرآن، فإن رسائل النور تبعا لذلك و جدت مركزها في الاهتمام بالإنسان هي الأخرى. كيف لا و هي ظل القرآن و لغة من لغاته. القرآن الذي نزل لكي يجيب عن أسئلة عديدة حيرت البشرية منذ آدم إلى غاية مجيئ محمد، فانبرى في سوره المتنوعة و المتجانسة معالجا قضايا الإنسان في بعده النفسي (الفردى) و في بعده الاجتماعى (الحضارى) و في بعده الزمنى (التارىخى).

كما أن العلوم الإنسانية المترجمة لاجتهادات الغربيين في العصر الحديث استحضررت (بدورها) هذه القضايا و جعلت منها أبوابا أساسية في تحليلاتها و قراءاتها.

إذن فالبحث عن ماهية الإنسان في أصله و طبيعته و نفسه و علاقاته بغيره هو قاسم مشترك بين القرآن و علوم الإنسان. لكن الفارق المميز بينهما يظهر في أشياء

* من مواليد مدينة تطوان – المغرب. خريجة كلية اصول الدين التابعة لجامعة القرويين بفاس، و كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط. حصلت على شهادة الدراسات العليا سنة 1989. عينت سنة 1996 استاذة في كلية الآداب و العلوم الإنسانية في جامعة عبد الملك السعدي بتطوان. وهي عضو مؤسس لمجموعة البحث في الفكر و الحضارة و عضو في وحدة التكوين و البحث في الأدب و الحضارات الشرقية. و عضو منظم لعدد من الندوات و المؤتمرات.

عديدة وأبرزها كما يرى الأستاذ سعيد النورسي في الغاية التي يهتم من أجلها بالإنسان. فالغاية في القرآن ليست هي الغاية في علوم الإنسان. وكذا المنطلق. إن محاولة دراسة الإنسان ، أو محاولة معرفته عن طريق المنهج البشري ليست جديدة، بل يمكن أن نجد بدايتها الأولى في الفكر الديني القديم (الهندي، الإغريقي). وقد أدى اهتمام المفكرين بدراسة الإنسان - عبر تاريخ طويل - إلى وضع علوم إنسانية تروم التشبه بالعلوم الطبيعية، على نحو انتهى بها إلى الصورة المعاصرة التي تتبدى عليها الآن.

و طالما أن العلوم الإنسانية تتعلق بالإنسان أو هي التي يكون محورها الإنسان ، فإن البحث في فلسفتها يظل على درجة كبيرة من الصعوبة. ففي الوقت الذي نجد فيه القرآن ينطلق من قاعدة ثابتة للجواب على أسئلة الإنسان و إيجاد حلول لمشكلاته نجد علوم الإنسان ما هي سوى محاولات مختلفة (متناقضة في بعض الأحيان) و غير قارة تعرف تحولا مستمرا و لا تعرف ثباتا في الضبط و التحديد¹.

أمام هذه العلاقة المعبر عنها من خلال عنصرين غير متكافئين نجد للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي (في رسائل النور) تعليقات متعددة بشكل دقيق و متمعن يشرح من خلالها الأبعاد الثلاثة للإنسان معتمدا في ذلك الأسس القرآنية للتفهيم و التصوير.

و أهم ما يتعلق بالإنسان و يرد عند الأستاذ النورسي بشكل مكثف هو الجزء المختص بالنفس. إذ تكاد جل المقالات و التفسيرات تنصب في هذا الجانب سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. فهي الموضوع المحوري الذي يستلزم درسا و رعاية كبيرين من طرف الإنسان ذاته ، و في ذلك يوجه الأستاذ سعيد النورسي نداء لمن يتدبر قائلا: "فيا من يعد نفسه إنسانا حقا ، اقرأ نفسك بنفسك ، و إن لم تفعل تلبد حسك و تجمد عقلك و هبطت من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة أدنى² "

الأمر موجه هنا بالقراءة و التمعن و فتح البصيرة، و مستنده قوله تعالى : [وفي الأرض آيات للموقنين. و في أنفسكم أفلا تبصرون]³ وذلك قصد معرفة حقيقته. وكم هو صعب أن يدرك الإنسان ذاته بشكل دقيق و صحيح دون أن يكون مغلوبا على أمره فيغيب عنه ميزان التفرقة بين نفسه كذات باحثة عارفة و بين نفسه كموضوع بحث ينبغي أن ينظر إليه عن بعد و استقلال ما أمكن حتى لا يسقط في اندماج تام، فيعسر عليه من ثم أن يتخلص من دفاعه عن نفسه و مدحه لها لينزها

1- وقد يكون ذلك راجعا إلى عدة أسباب منها إخضاع الإنسان لتجارب تطبيقية او قياس سلوكه و أوجه نشاطه المختلف قياسا عدديا دقيقا

2- سعيد النورسي - النوافذ ص 162

3- سورة الذاريات - الآية 21

عن كل عيب أو قصور⁴ فيقربها إلى التقديس بل يبلغ به الأمر أن يكون مصداق الآية الكريمة : [من اتخذ إلهه هواه] و قوله تعالى : [إن النفس لأمارة بالسوء]⁵ و إذا ما أحب الإنسان نفسه الأمارة بالسوء ضل .
و لكن هذا لا يعني عند الأستاذ النورسي نهاية العالم و استحالة تقويم الاعوجاج. بل إن القرآن قد أوجد وسائل خارقة لتحقيق مسألة التوازن في النفس الإنسانية ومنها صوم رمضان حيث يقول سبحانه وتعالى : [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون]⁶ [و أن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون]⁷

و يرى الأستاذ النورسي أثر هذا الفرض الديني في كونه " يُشعر أشد الناس غفلة و أعتاهم تمردا بضعفهم و عجزهم و فقرهم. فبواسطة الجوع ، يفكر كل منهم في نفسه وفي معدته الخاوية و يدرك الحاجة التي في معدته ، فيتذكر مدى ضعفه و مدى هزالته، و مدى حاجته إلى الرحمة الإلهية و رافتها ، فيشعر في أعماقه توقا إلى طرق باب المغفرة الربانية بعجز كامل و فقر ظاهر متخلياً عن فرعة النفس متهيئاً بذلك لطرق باب الرحمة الإلهية.⁸ " و يقول في موضع آخر "إن النفس بطبيعتها ترغب الانفلات عن عقابها حرة طليقة، و تتلقى ذاتها هكذا، حتى أنها تطلب لنفسها ربوبية موهومة، و حركة طليقة كيفما تشاء... و لكن تبدأ نفس كل شخص بالنقطن في ذاتها في رمضان المبارك ، ابتداء من أغنى غني إلى أفقر فقير ، فتدرك أنها ليست مالكة بل مملوكة، و ليست حرة بل هي عبدة مأمورة... و بهذا ينكسر غرور ربوبيتها الموهومة"⁹ .

إلى جانب هذه الوجهة السلبية للنفس الإنسانية يرى الأستاذ النورسي أن هناك وجهة أخرى إيجابية تستلهم من فيض نور القرآن الكريم و هي أن: الإنسان نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق سبحانه و تعالى بجميع أسمائه الحسنی المتجلية¹⁰ من وجوه عدة منها:
أن الظلام سبب لرؤية النور، أي أن ظلام الليل و شدته يبين النور و يظهره بشكل أكثر وضوحاً... فالإنسان أيضا يعرف بضعفه و عجزه و بفقره و حاجاته و بنقصه و قصوره قدرة التقدير ذي الجلال و قوته العظيمة، و غناه المطلق و رحمته الواسعة.

فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجلية. بل حتى إن ما يحمله من ضعف شديد يجعله يتحرك مستندا ، يقيم أمره و يدعمه - وهو عاثر عليه بدون شك - إذا ما تركت نفسه و فطرتها.

4- سعيد النورسي - الإخلاص و الاخوة ص 53

5- سورة يوسف - الآية 53

6- سورة البقرة - الآية 182

7- سورة البقرة - الآية 183

8- سعيد النورسي - الشكر ثمرة الحياة و غاية الكائنات ص 13

9- نفسه ص 12

10- سعيد النورسي - النوافذ ص 160

في مثل هذه المواقف يستحضر الأستاذ النورسي حكمة القرآن في ذكر آيات الأنفس.

و يلي قضية النفس الإنسانية موضوع آخر لا يقل أهمية عن الأول و لا ينفك عنه، إذ انه لصيق به، و دال عليه في صورة جمع لمفرد و هو "الاجتماع الإنساني" أو المجتمع، والذي جعل منه الأستاذ النورسي ميدانا لنشر نور رسائله القرآنية. فما فائدة الاجتماع البشري عنده إن لم يكن تعاونا و حقا لأجل الإعمار في الارض و السعادة في الدار الآخرة؟

"إن شأن (الحق) هو (الاتفاق) و شأن (الفضيلة) هو (التساند) و شأن دستور (التعاون) هو (إغاثة كل للآخر) و شأن (الدين) هو (الأخوة و التكاتف) ... و شأن (إلجام النفس) و كبح جماحها و إطلاق الروح و حثها نحو الكمال هو (سعادة الدارين)¹¹

و لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المثل العليا لتكون شبكة العلاقات الاجتماعية خالية من الآفات المخلة بمتانتها و سلامتها ؟

هنا نجد للأستاذ النورسي جوابا دالا ورد في فقرات شتى من رسائله نختزله في مسألة أساسية و هي عقيدة الآخرة¹² التي يعتبرها أس الأساس لحياة اجتماعية سعيدة . و القرآن الكريم - ذو البيان المعجز - يشهد بجميع معجزاته و حججه و حقائقه التي تثبت أحقيته ، على حدوث الحشر، و بيبته ، حيث أن ثلث القرآن، و أوائل اغلب السور الفصار آيات جلية على الحشر... من مثل [إذا الشمس كورت] ، [ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم] ، [إذا زلزلت الأرض زلزالها] ، [إذا السماء انفطرت] ، [إذا السماء انشقت]

و هكذا فإن نتيجة واحدة للإيمان بالحشر من بين مئات النتائج تفيد في بناء مجتمع إنساني فاعل، غير متفكك ، يؤمن بحياة أخرى أهم و أرفع. و يضرب لنا الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله أمثلة من العينات الاجتماعية المتنوعة.¹³ الشيوخ و الشباب و الاطفال... فكل هؤلاء لا موجه لهم و لا مقوم لاعوجاجهم و لا هادي لهم إلا الله وذلك من خلال الإيمان بآياهم إليه الذي يفتق في وسطهم قانونا اجتماعيا ساميا لا يحتاج فيه لقوة و لا سلاح و لا قهر و لا كبت حتى يتحقق المجتمع الأنموذجي و تغيب فيه عبادة الأشخاص و الأشياء ، لأنه متى ما ترسخ مبدأ الإيمان بالحشر و تيقن الإنسان حق اليقين بأن هذه الدنيا إلى زوال و بأن حياة أخرى ستستقبله بجد و حزم ليراجع فيما كان عليه سلوكه في الأولى .

متى ما استنتب ذلك في مجتمع ما فإن سلوكات أفراده ستستقيم لا محالة. و من هنا نجد الأستاذ النورسي يركز بإلحاح على ضرورة تغيير المجتمع بالنهج السلوكي التربوي الهادئ و المتدرج الذي يولد الحياة من الموت وليس العكس.

11- سعيد النورسي - الكلمات ص145-146

12- نفسه ص104

13- نفسه ص 104 - 105

و بذلك تكون نظريته في التغيير الاجتماعي ذات ملامح خاصة جدا تتميز بالتفرد من حيث الصبر و المجاهدة و الثقة بالنفس النابعة من الايمان القوي بقضية الإسلام المنتصرة حتما.

من الواضح أن البنية الفكرية السالفة الذكر، قادرة على تأسيس كيان إنساني متين في بعده السلوكي و الاجتماعي. كيان له فهم خاص للزمن و التاريخ الذي تتحقق إبانة أفعاله الحضارية و غيرها ... ف" الزمن شريط يعلق عليه الخالق ذو الجلال - في كل سنة - عالما آخر يبرزه للوجود مجددا فيه صورا منتظمة في ثلاثمائة ألف نوع من أنواع مخلوقاته.."¹⁴ و أفضلها الإنسان، و قد عبر النورسي رحمه الله عن ماهية الحياة بـ "مخزن مفاتيح كنوز الأسماء الإلهية... وخريطة مصغرة لنقوشها البديعة ... وفهرس تجلياتها..." وهي "رسالة ربانية تستقرئ نفسها لأخوتي المخلوقات من ذوات الشعور، وهي موضع مطالعة يعرف الخالق الكريم، و هي لوحة إعلان تعلن كمالات خالقي... وأن من حقوقها التزين بشعور تام بما أنعم عليها خالق الحياة - بالحياة - من هدايا قيمة و خلعا نفيسة لعرضها أمام نظر السلطان الجليل في العرض اليومي المكرر عرضا مكللا بالايمان و الشعور و الشكر و الامتنان.¹⁵"

كل ذلك بحس مدرك لأطراف الزمن الثلاثة : الماضي و الحاضر و المستقبل. و ذلك باعتماد التنوير القرآني في ضبط الحقائق و الأحداث و تمحيصها إن اضطرب أمرها عند من عرفوها عن طريق غير طريق القرآن الكريم . و يصور لنا الأستاذ النورسي أنموذجا من ذلك بـ " التاريخ الذي دونه الإنسان يضبط الحوادث إلى حد ما قبل ثلاثة آلاف عام، لذا فإن نظر هذا التاريخ الناقص القاصر لا يستطيع أن يحكم بصواب على حوادث ما قبل زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإما يذكرها مشوبة بالخرافات أو ينكرها أو يوردها باختصار شديد"¹⁶ " أما التاريخ الصحيح و الحقيقي فذاك الذي يستشف مما ورد في القرآن الكريم الذي يعد بمثابة أصح و ثيقة تاريخية عرفها الإنسان منذ أن وجد.

و إزاء الماضي و أحداثه ، نجد للأستاذ النورسي ميزانا دقيقا للقياس حيث إن مراجعته لمقولات القدامى ظهرت من خلال منهج محصص و ناقد و مصحح سواء تعلق الأمر بالتاريخ القديم جدا أو الأقل قدما ، فمن أمثلة الأول تفسيره للآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر "ذي القرنين" وهو من باب تفسير التاريخ بالقرآن. ومن أمثلة الثاني، ما تعلق بأحداث جرت بعيد وفاة الرسول ﷺ لها صلة بحياة الأمة الإسلامية في مجالها السياسي . فموقفه من قضية الخلاف حول الخلافة جاء مدروسا وفق نهج موضوعي للغاية ؛ اعتمد الخبر الموثق و التحليل الموضوعي الرزين دون السقوط في متاهة الجدل العقيم أو الانتماء الأعمى غير المدعم بالحجة و الدليل .

14- سعيد النورسي - الكلمات ص 61

15- سعيد النورسي - الشعاعات ص 82

16- سعيد النورسي - اللعاعات ص 164

ومن ثم نجد بأنّ التعبير عن الزمن في رسائل النور مسألة مدركة بحس مرهف وبشكل جلي سواء تعلق الأمر بالماضي كما سبقت الإشارة إلى ذلك أو بالحاضر كما تبين هذه الكلمات :

"إن كل وقت من هذه الأوقات إشارات لانقلاب زمني عظيم و أمارات لإجراءات جسيمة و علامات لإنعامات إلهية كلية. لذا فإن تخصيص صلاة الفرض التي هي دين الفطرة في تلك الأوقات هو منتهى الحكمة.¹⁷ " بحيث لا يفوت الأستاذ النورسي أن يعرف بقيمة كل لحظة يعيشها المرء في رحاب نور القرآن . فتخصيص أوقات معينة لحضور الصلاة ليست مسألة اعتباطية تمت بتلقائية أو بارتجال و إنما هي لحظات موزونة بمقياس دقيق تعبر عن حركة الزمن التي هي من فعل خالق الوجود و الدالة على آياته الكبرى المشعرة للإنسان بحقيقة أمر هذا الوجود.

ومن الحاضر ننتقل إلى المستقبل فنجد أن رسائل النور تستوعب هذا الأفق الرحب (الذي لا يستطيع أحد رسم حدوده) بإيمان و بثبات مستعينة في ذلك بأدوات منهجية مسعفة ألا و هي التوجيهات القرآنية المشروحة أحيانا بأمثلة حياتية بسيطة ، فترى تفسيرها لقضايا مستقبلية كالتالي:

"إن ما ورد في القرآن الكريم مرارا [إن كانت إلا صيحة واحدة]¹⁸ [وما أمر الساعة إلا كلمح البصر]¹⁹ يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود في آن واحد بلا زمان.

و لكن العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة لكي تقبل و تدعن لهذا الحدث الخارق جدا... فمثلا يمكن إنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة ، من مركز واحد في لحظة واحدة كأنها بلا زمان . كذلك يمكن إنارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء و بعثها²⁰...

و للمتأمل في رسائل النور و خاصة في الشعاعات و في مسائل الشعاع الخامس بشكل خاص شق منهجي آخر يتعامل من خلاله مع أحداث "المستقبل" المقررة في الأحاديث النبوية. كمسألة "السفياني" التي سنل بصدها الأستاذ النورسي رحمه الله حيث ورد عليه " أن شخصا رهيبا - من أشخاص آخر الزمان - يصبح و إذا على جبينه مكتوب : هذا كافر " فيجيب:

"إن تأويل هذه العلامة و الله أعلم بالصواب هو:

إن ذلك السفياني سيلبس قبعة الإفرنج ، و يكره الناس على لبسها، و لكن لأنه يعمم لبسها بالإكراه و القانون ، و تلك القبعة ستتهدي بإذن الله حيث تهوي إلى السجود - لذا لا يكون كافرا من لبسها مكرها عليها غير راغب فيها²¹"

17- سعيد النورسي - الكلمات ص46

18- سورة يس - الآية 28

19- سورة النحل - الآية 77

20- سعيد النورسي - الكلمات ص121

21- سعيد النورسي - الشعاعات ص110-111

لعل الأستاذ النورسي وهو يقرأ المنقولات من أحداث المستقبل قد كان تحت تأثير الأيام السياسية الطارئة التي كانت تعصف بأمته حيث استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وفرض اللباس الإفرنجي عوض اللباس الأصيل للأمة واستحداث بدع كثيرة فيما يتعلق بحياة المجتمع التركي. فما استطاع أن يغفل الفرق بين واقعه وبين ما وصله من مغيبات المستقبل. وكأننا به يجد حاضر أمته في مستقبل العالم ونهاية الدنيا حيث ظهور السفيناني...

وبعد

فهذه لمحة خاطفة جدا عن هيكل "النظرية الإنسانية" في رسائل النور والتي تضمنت أبرز القضايا الإنسانية وهي النفس والاجتماع والتاريخ التي ألبسها الأستاذ بيدع الزمان سعيد النورسي حلة إنسانية جديدة مستقاة من الدروس القرآنية في الموضوع، وهو ما يتجلى (كما ألمحنا إلى ذلك في المقدمة) في المنطلق حيث يجد الإنسان نفسه شخصا ومجتعا وتاريخا في ما قدمه له الحق من أصول منهجية واضحة و مسطرة بلغة ليس في الوجود أوضح منها. كما أن الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه الفهم القرآني للقضايا الإنسانية ليس هو دراسة ظواهر سلوكية معينة وإخضاعها للتجربة ما أمكن. أو التوصل إلى قوانين عامة في ذلك - كما هو الشأن عند الدارسين في الغرب - بل هو أكبر من ذلك بكثير. فالمقصود هو بناء إنسان جديد متجدد في كل لحظة وإلحاق تلك المعاني القرآنية بكيانه حتى تؤتي ثمارها في حياته الفعلية سلوكيا وحضاريا...

فهرس المصادر

- القرآن الكريم
- بيدع الزمان سعيد النورسي :- الإخلاص و الاخوة ترجمة إحسان قاسم الصالحي استنبول

1985

- الشكر ثمرة الحياة و غاية الكائنات ترجمة إحسان قاسم الصالحي استنبول 1985
- النوافذ ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 الموصل 1985
- الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1985
- الشعاعات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1993
- اللمعات ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط1 استنبول 1993

القرآن الكريم والكتب السماوية

أ.د. علي لاغا^P

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ورحم الله تعالى أئمة المسلمين وعلماءهم وجعل علمهم وجهدهم نبراساً يُستضاء به، ورضي الله تعالى عن عالمنا الجليل بديع الزمان سعيد النورسي وأسكنه فسيح جناته وبعد:

إن ما كان يشغل بال العلامة بديع الزمان سعيد النورسي هو الخوف على ضياع كتاب الله عز وجل وبالتالي ضياع الإسلام الذي نتيجته ضياع الأمة.. لذلك فإنه من هذا المنطلق يمكن النظر إلى كل الأمور التي تشملها جهده العلمي المبارك.. ومنها البحث في صدره "القرآن الكريم والكتب السماوية" ومعنى أدق فإننا إزاء "رجل يفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطر فؤاده بفجر اليقين، ويلتهب رأسه بأفكار العقيدة... وقد أوتي فضيلة النطق بكل حليل وجميل من الأفكار. وإن شهاباً ثاقباً من سماء روحه كفيل بإشعال هشيم نفوسنا، وجعلها تلهب شوقاً إلى الله، وتحترق محبة فيه". وأنه بعد تجارب ومخاض لم يشهد له التاريخ المعاصر مثيلاً، اندفع مستنفراً شجاعته "واستجمع كل قوى وجوده لتسعه في الانسلاخ عنها، والتنكر لها، ولم يتردد لحظة في نحرها بسكين همته وموارثها التراب والتكبير عليها أربعا..".

"ولقد رأى الرجل بقلبه البصير الصادق، وبصيرته المتوقدة الحادة، إن سبب ما يعانیه المسلمون من عوالب الخطوب، وكالحات الحزن، يرجع بالأساس إلى غياب الوعي الإيماني العميق، وانطفاء العقل المسلم القادر على صنع الأفكار المستنيرة، وتسطح الفهوم والمدارك، وخدر المسلمون بأفيون الدنيا، وفقدانهم للحس. بمخاطر ما يحيط بحياتهم".¹

P: ولد في السفيرة-قضاء طرابلس-لبنان 1947 نال رتبة أستاذ (بروفيسور) عام 1995 من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان. يشغل حالياً منصب أستاذ مادة الفكر الإسلامي المعاصر (مرحلة الماجستير) في المعهد العالي للدراسات الإسلامية التابع لجمعية المقاصد بيروت. له مساهمات كثيرة في ميدان الثقافة والعلوم والنشر والتأليف. له سبعة أولاد.
1- الاقتباس من: ادب الدباغ، هوامش على فكر بديع الزمان النورسي وسيرته الذاتية، بحث مقدم في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي باستانبول عام 1992 م - منشورات سوزلر للنشر ص/12-13

إن الباحث يتعامل مع عالم مجاهد عز نظيره في التاريخ، وإن كلماته أمام القائد العسكري الروسي (خال القيصر) هي الإيجاز بذاته وكم كان رحمه الله تعالى يحب الإيجاز والبلاغة، وجميل ومفيد أن ننقل الحوار الذي حدث عندما رفض الوقوف لخال القيصر "القائد العسكري نيقولا نيقولافيج" ولما سأله نيقولا.. "الظاهر أنك لم تعرفني!

أجاب بديع الزمان (الأسير)²: "لقد عرفتك.. إنك.. والقائد العام في جبهة القفقاس.

- إذن فلم تستهين بي؟!

- كلا إني لم أستهين بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وماذا تأمرك عقيدتك؟

- إني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيماناً فالذي يحمل في قلبه إيماناً هو أفضل من الذي لا إيمان له، ولو أنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإني لم أقم لك".
وبعدها تمت محاكمته وصدر الحكم عليه بالإعدام لأنه رفض الاعتذار أمام المحكمة وقال لبعض زملائه من الضباط الأسرى الذين حضوه على الاعتذار: "إني أرغب في الرحيل إلى الآخرة والمثول بين يدي رسول الله... p

لذلك فإني بحاجة فقط لجواز سفر للآخرة وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني".

وعندما هموا بتنفيذ الحكم طلب إليهم السماح بأن يصلي ركعتين لله تعالى، وبعد فراغه تقدم منه القائد العسكري نفسه وقال له: "أرجو منك المذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصداً إهانتني، ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك، لذا فقد ألغيت قرار المحكمة، وإني أهنتك على صلابتك في عقيدتك... وأرجو المذرة مرة أخرى"³.

إنه الآن بعد تصدير البحث بملامح شخصية وفكر ومنهج واهتمام بديع الزمان سعيد النورسي، يمكن إبراز آرائه في القرآن الكريم والكتب السماوية.

القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو الذي يشكل عقلية بديع الزمان سعيد النورسي ويرسم مواقفه، وفيه يرى إمكانية تحقيق كل بغية، وهو حديثه الدائم في كل زاوية وبين ثنايا كل سطر ومن أوصافه له: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية ومفسر كتاب العالم... وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة... وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه... وكذا هو للإنسان.. كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية". ثم يقول رحمه الله تعالى: "اعلم أن القرآن مؤسس لهذا الدين العظيم المتين، وأساسات لهذا العالم الإسلامي، ومقلب لاجتماعيات البشر ومحوها ومبدلها. وجواب لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة للبشرية بألسنة الأقوال والأحوال"⁴.

وفي هذا ما يجمع بين الدنيا والآخرة معاً، إنه المهيم على القلوب والعقول، كما هو مؤسس للدين ومتحكم في التحولات الاجتماعية للبشر " اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو

2 - لقد تم أسره وهو جريح في أرض المعركة ولم يستطع رفاقه سحبه، وعندما أوشك على الهلاك بعد أن بقي 36 ساعة في المساء المجد، ذهب أحد طلابه وأخير الروس عنه بغية معالجته وهذا لا يحصل بدون أسره.

3 - أورخان محمد علي، سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة، استانبول، ط1 سنة 1416هـ-1995م ص: 68-69

4- بديع الزمان سعيد النورسي كليات رسائل النور (1)، الكلمات (19) ص: 264-265

القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها، فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة".⁵

والمسألة بالنسبة للعالم الجليل رحمه الله تعالى محسومة ومركزة، يقول: "إن النجاة من الإعدام الأبدى، والخلاص من السجن الانفرادي، وتحويل الموت إلى سعادة أبدية، إنما تكون بالإيمان بالله وطاعته ليس إلا".⁶

إنه يقتحم الحياة بما يلفها من أعاصير هوجاء، وما فيها من أمواج متلاطمة، وبالرغم من كل الصراعات، متسلحاً بهذا القرآن الكريم غير آبه بما يواجهه من عداء الكفار، فالخلاص بالإيمان بالله تعالى وطاعته، وغير ذلك هو أمر متوقع وليس فيه مفاجأة: "إن عداء الكفار للمسلمين هو من موجبات الكفر، وهذا العداء يرجع إلى عهد ما قبل التاريخ، لذا فليس في الإمكان إرضاء الكفار، أما الاستفادة منهم فمن رابع المستحيلات".⁷

أما تعريفه للقرآن في أبعادها الأخرى لجهة علاقته بالكتب السماوية فإنه، فرعها إلى محاور:

المحور الأول:

القرآن الكريم مصدق للكتب السماوية ومحتوي لها:

يقول في الذيل الأول من الكلمة الخامسة والعشرين (النقطة الخامسة): "إن القرآن الكريم قد بسط أحد جناحيه نحو الماضي والآخر نحو المستقبل، فالحقيقة التي اتفق عليها الأنبياء السابقون هي جذر القرآن وأحد جناحيه، فهو يصدقهم ويؤيدهم، وهم بدورهم يؤيدونه ويصدقونه بلسان حال التوافق".⁸

ففي مجال التصديق للكتب السماوية يقول تعالى محمداً صنف المؤمنين: [والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون].⁹

وقد وردت آيات كثيرة تفيد تصديق القرآن الكريم لغيره من الكتب السماوية، قال تعالى: [يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون (40) وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به... (41)] من سورة البقرة.

وقال تعالى: [وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصداقاً لما معهم...] سورة البقرة: 91

وقال تعالى: [ألم (1) الله لا إله إلا هو الحي القيوم (2) نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (3)] من سورة آل عمران.

الكتب السماوية متضمنة في القرآن الكريم:

وفي شرحه للآية الرابعة من سورة البقرة [والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك] يقول النورسي: "إن القرآن معدل ومكمل في الأصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة وأصول الشرائع السالفة" وعن مرونة أحكام القرآن يقول أيضاً: "...إلا أنه مؤسس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان والمكان، فكما تتحول الأدوية والألبسة في الفصول الأربعة، وطرز التربية

5 - المرجع نفسه ص: 265

6 - المرجع نفسه ص: 157

7 - المرجع نفسه، العربي النوري، مجلد 6 ص: "ن"

8 - المرجع نفسه، الكلمات، مجلد 1 ص: 520

9 - سورة البقرة آية: 4

والتعليم في طبقات عمر الشخص، كذلك تقضي الحكمة والمصلحة تبدل الأحكام الفرعية في مراتب عمر نوع البشر.

فكم من حكم فرعي كان مصلحة في زمانه، ودواء في وقت طفولية النوع، لا يبقى مصلحة في آخر، ودواء عند شبابه النوع ولهذا السر نسخ القرآن بعض الفروع، أي بين انقضاء أوقات تلك الفروع ودخول وقت آخر¹⁰ فالقرآن الكريم كتاب جعله الله تعالى إلى قيام الساعة، فالشريعة الإسلامية "ناسخة بالانتهاه وجامعة بالإغناء"¹¹

ويستشهد بما قاله الفيلسوف الإنكليزي توماس كارلايل (1795-1881) الذي قال بعدما أمعن النظر في حقائق القرآن الكريم "عجباً، أيمكن تكمل العالم المدني في دائرة الإسلامية؟ فأجاب بنفسه: نعم! بل المحققون الآن مستفيدون بجهة من تلك الدائرة، ثم قال: "لما طلع حقائق القرآن الكريم صارت كالنار الجواله وابتلعت سائر الأديان فحق له؛ إذ لا يحصل شيء من سفسطيات النصراري وخرافات اليهود"¹²

القرآن الكريم وعرضه لمعجزات الأنبياء السابقين:

يربط العالم الجليل بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى بين المعجزات وبين التدريب على الصناعة والإنتاج، وهذا دأبه دائماً يريد الدنيا بيد والآخرة بيد أخرى: لا بل فإن جواز السفر الذي يريده للآخرة إنما هو السيطرة على نواميس الكون وأخذ المبادرة في تفعيل كل المواد التي خلقها الله سبحانه وتعالى كي تأخذ دورها الذي خلقت له، فيتحقق عند ذلك تسخير الكون بكل ما حوى للإنسان المكلف بحمل الأمانة قال عز وجل: [إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً] سورة الأحزاب: 72

من اجل ذلك بعث الله تعالى الأنبياء والرسل إلى المجتمعات الإنسانية "ليكونوا لهم أئمة الهدى يقتدى بهم في رقيهم المعنوي، ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، ونصيبهم رواداً للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضاً. أي انه يأمر بالإقتداء بهم واتباعهم اتباعاً كاملاً في الأمور المادية والمعنوية، إذ كما يحض القرآن الكريم الإنسان على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بهم الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضاً يوصي إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم... إن المعجزة هي التي أهدت إلى البشرية الكمال المادي وخوارقه لأول مرة، مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي"¹³.

ثم بعد ذلك يأخذ بالتفصيل، فمثلاً [ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر] سورة سبأ: 12

إن هذه الآية تشير إلى إمكانية الاستفادة من الهواء، فالطريق مفتوح ولا يحتاج إلا لمن يولج سننه، يقول رحمه الله تعالى "إن عبداً من عبادي ترك هوى نفسه، فحملته فوق متون الهواء، وأنت أيها

10 - بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور(5) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص: 59

11- المرجع نفسه ص: 60

12- المرجع نفسه ص: 173

13 - كليات رسائل النور (1) ص: 279

الإنسان! إن نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سننّي الجارية في الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطي صهوة الهواء".

ومثلاً [فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا] سورة البقرة: 60
 إن معجزة موسى عليه السلام "تشير إلى أنه يمكن الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الأرض بآلات بسيطة، بل يمكن تفجير الماء،... من أرض صلدة ميتة".¹⁴
 ومعجزة عيسى عليه السلام: [وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله..] سورة آل عمران: 49، فإن هذه الآية تشير إلى "أنه يمكن أن يعثر على دواء يشفي أشد الأمراض المزمنة والعلل المستعصية، فلا تيأس أيها الإنسان، ولا تقنط أيها المبتلى المصاب، فكل داء مهما كان له دواء، وعلاجه ممكن، فابحث عنه، وجدته، واكتشفه، بل حتى يمكن معالجة الموت نفسه بلون من ألوان الحياة المؤقتة"... وهكذا ترى كيف ترسم هذه الآية الكريمة أقصى المدى وأبعد الأهداف التي يصبو إليها الطب البشري من تقدم، فالآية تشير إلى ذلك الهدف وتحث الإنسان على الوصول إليه".¹⁵
 ومعجزة نبي الله داود عليه السلام: [وألنا له الحديد] سورة سبأ: 10 [وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب] سورة ص: 20

ومعجزة سليمان عليه السلام: [وأسلنا له عين القطر] سورة سبأ: 12
 إن هذه الآيات تشير إلى تليين الحديد وإذابة النحاس، وإيجاد المعادن وكشفها هو أصل جميع الصناعات البشرية وأساسها"، وكذا معجزة الإتيان بعرش بلقيس تشير إلى إمكانية استحضار الصور والأصوات من مسافات بعيدة...
 بشارات الكتب المقدسة بمحمد p:

في معرض حديثه عن كمالات النبي محمد p ودلائل نبوته، جاء دليله الأول مبيناً "أن الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والزيبور تضم بشارات بنوّة الرسول الكريم p وإشارات إليه، رغم تعرضها إلى تحريفات طوال العصور، وقد استنبط في عصرنا هذا العالم المحقق حسين الجسر مائة وعشر بشارات منها، وأثبتها في كتابه الموسوم "الرسالة الحميدية"¹⁶
 وعند تفسيره [وما انزل من قبلك] آية 4 من سورة البقرة رأى من لطائفها:
 - عطف المدلول على الدليل أي "يا أيها الناس إذا آمنتم بالقرآن فأمنوا بالكتب السابقة أيضاً، إذ القرآن مصدق لها وشاهد عليها".

- عطف الدليل على المدلول "أي يا أهل الكتاب إذا آمنتم بالأنبياء السابقين والكتب السالفة لزم عليكم أن تؤمنوا بالقرآن، وبمحمد عليه السلام، لأنهم قد بشروا به".¹⁷
 والمسألة واضحة في كتاب الله عز وجل، يقول تعالى: [وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد..]
 سورة الصف آية: 6

جاء في تفسير القرطبي "..وأحمد: اسم نبينا p، وهو اسم منقول من صفة لام الفعل، فتلك الصفة أفعال التي يراد بها التفضيل. فمعنى "أحمد" أي أحمد الحامدين لربه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم

14- المرجع نفسه ص: 280

15- المرجع نفسه ص: 281

16- كليات رسائل النور (1) م.س.، ص: 689

17- كليات رسائل النور (5) م.س.، ص: 58

حامدون لله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. وأما محمد فمُنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة... فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه وتعالى سماه قبل أن يسمى به نفسه. فهذا علم من أعلام نبوته.."، "وروي أن النبي p قال: "اسمي في التوراة أحمد لأني أحمد أمي عن النار واسمي في الزبور الماحي محمداً بي عبدة الأوثان واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأني محمود في السماء والأرض"¹⁸

إن إيمان كثير من علماء إسرائيل بنبوّة محمد p دليل على معرفته المسبقة بصفاته وأحواله، وكان يحدث له ذلك بمجرد النظر إلى طلعتة البهية، أمثال عبد الله بن سلام الذي قال: "فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كاذب"¹⁹

وفي إشارات الإعجاز يرى النورسي رحمه الله تعالى عند شرحه وجه انعكاس المقصد الأول في تلك الكلمة "من قبلك"، فهو: "أن من قبلك" إنما يقال إذا اتحد المسلك وكان الطريق واحداً، فكأن هذه الكلمة تترشح: بأن الحجج على نبوة من قبله وصدق كتبهم، حجة مجموعها بتنقيح المناط وتحقيق المناط بالقياس الأولى على نبوة محمد عليه السلام ونزول كتابه. فكان جميع معجزاته معجزة فذة على صدق محمد عليه السلام"²⁰

ومن قصة "الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي هو مجمع الأنبياء، وبعد إجراء اللقاء معهم وإظهاره بأنه الوارث المطلق لوصول أديان جميع الأنبياء، سيره في جولة ضمن ملكه وسياحة ضمن ملكوته، حتى أبلغه سدرة المنتهى فكان قاب قوسين أو أدنى"²¹

تظهر وراثته محمد p لكل الأنبياء، دراسة مطلقة، وبذلك يكون الإسلام هو دين الأمم أجمع. وكان العالم الجليل رحمه الله تعالى أراد أن يذكر بالآية الكريمة: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً... [سورة المائدة: 3]

وأن المسألة محسومة كما قال تعالى: [ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين] سورة آل عمران: 85

إن الحكمة البالغة عند العالم الرباني بديع الزمان النورسي تجعله يكتفي بالتلميح والإيحاء دون إحداث صدمة لدى الآخرين تدفعهم إلى ردة فعل ليست مطلوبة ولا مصلحة فيها، إنه هكذا دائماً يرسخ الإيمان العميق بالقرآن الكريم ونبوة محمد p، وبالمنهج الإسلامي دون النيل من الغير.. لذلك تراه يعرض بضاعته.. ويترك للآخر حرية الاختيار...

إنه عند ما يريد حشد أهل الكتاب وتذكيرهم بالحقيقة المطلقة تجده يوسع دائرة الخطاب، ويتناول كل الإنجازات البشرية التي يستخدمها غير المسلمين لمعارضة الإعجاز القرآني، فيستدرج أهل المدينة الحاضرة وفلاسفتها إلى حلبة أخرى يدعهم فيها مسلوبو القوة والفعل، فيقول لهم: "أما حكمة القرآن فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من "القوة" وتجعل "رضى الله ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف بدلاً من "المنفعة" وتتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة بدلاً من دستور "الصراع" وتلتزم رابطة "الدين" والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من "العنصرية والقومية"

18- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، منشورات وزارة الثقافة في مصر، القاهرة، 1387هـ-1967م، ج 18، ص: 83-84

19- كليات رسائل النور، المكتوبات (2)، ص: 115

20- كتاب رسائل النور، إشارات الإعجاز (5)، م.س. ص: 59

21- كليات رسائل النور، الكلمات (1)، ص: 497

السلبية.. وتجعل غايتها "الحد من تجاوز النفس الأمانة ودفع الروح إلى معالي الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنساناً حقاً"²² هذا جزء مما أدرجه رحمه الله تعالى تحت الآية الكريمة: [يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم..] سورة آل عمران:64.

ثم بعد تلك الجولة الطويلة والممتعة يشد النصارى إلى قول الله تعالى [قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد]. سورة الإخلاص، كي يذكرهم بنفي "ألوهية عيسى عليه السلام والملائكة، وكل ما من شأنه التولد".." "إن الله أزلي، أبدي، أول وآخر، لا نظير له ولا كفو ولا شبيه، ولا مثل ولا مثال في أية جهة كانت، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله"²³ إنه يورد كل ذلك وسط حقل من الورود جمع فيها نعم الله تعالى من كل زوج بهيج، في كلمات عذبة وعقل نير وخيال ساحر جذاب...
مقتبسات من بشارات الكتب المقدسة²⁴:

يتساءل علامة الزمان، بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى عما إذا كانت الكتب "التي لا تهمل حوادث جزئية ألا تذكر أعظم حادثة في تاريخ البشرية تلك هي حادثة البعثة المحمدية" وهذه الكتب إما ستكون ما سيحدث كي تحمي أتباعها من الانحراف وتحمي نفسها من النسخ والتخريب أو ستصدقها، أي تصدق ذلك النبي الحق كي تحافظ على دينها وكتابتها من تسرب الخرافات وتسلسل التحريفات. وبما أنه لم يذكر تكذيب، وقد اجمع الأعداء والأصدقاء على ذلك "فهناك إذن أمارات التصديق"²⁵

الحجة الأولى:

إن الرسول الأعظم p تحداهم بلسان القرآن الكريم:

[قل فاتوا بالتوراة تنلوها إن كنتم صادقين] سورة آل عمران:93

[فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين] سورة آل عمران:61

ونتيجة التحدي فإنه لم يتقدم أحد من علماء اليهود والنصارى من إظهار غير تلك الحقيقة.

الحجة الثانية:

"لقد خالطت آيات التوراة والإنجيل والزبور كلمات غريبة عنها، لتوالي ترجماتها، والتباس كلام المفسرين وتأويلاتهم الخاطئة مع آياتها، حيث أن آياتها ليس فيها الإعجاز الذي في آيات القرآن الكريم"، هذا عدا عن التحريف والتغيير، ومع كل ذلك فقد أقرت ثلة كبيرة من علماء اليهود والنصارى بوجود أوصاف محمد p في كتبهم:

لقد اعترف هرقل ملك الروم أن عيسى عليه السلام بشر بمحمد p وكذلك اعترف صاحب مصر (المقوقس)، وابن سوريا، وابن أخطب وأخوه كعب بن أسد والزيبر بن باطيا وغيرهم من علماء اليهود ورؤسائهم قائلين: "نعم، إن أوصافه موجودة في كتبنا ومذكورة فيها".

22- كليات رسائل النور، الكلمات (1) ص:471-473

23- المرجع نفسه، ص:479

24- إنها محاولة من الباحث لإثبات بعض البشارات التي ما زالت في الكتب المقدسة رغم ما اعترافها من تحريف، وذلك من أجل تكامل البحث.

25- كليات رسائل النور (2) المكتوبات، ص:219

ومن أسلم من علماء النصارى بحيراء الراهب الذي عرف محمد p وعمره لم يكن يتجاوز اثنتا عشرة سنة وقال لعمه أبي طالب: "عد به إلى مكة، فاليهود حساد يكيدون له، فإننا نجد أوصافه في التوراة".

وقد آمن كل من نسطور الحبشة ومليكة النجاشي لما رأيا أوصاف النبي p في كتابهم. وأعلن العالم النصراني المشهور ضغاطر أوصافه p بين الروم فاستشهد.. وكذا كوكبة من علماء النصارى ومنهم سلمان الفارسي، ونصارى الحبشة وأساقفة نجران، فهؤلاء كلهم يخبرون بالاتفاق: أننا آمننا لما رأينا أوصافه p في كتبنا.²⁶

الحجة الثالثة:

ذكر آيات من التوراة والإنجيل والزبور:

إن العلامة بديع الزمان رحمه الله تعالى اعتمد على كتاب رحمة الله الهندي "إظهار الحق" والباحث يرى من الفائدة الاستعانة بمصادر أخرى لمزيد من التوثيق للآيات المستشهد بها.

يروى سفر التكوين قصة هاجر عندما ارتحل بها إبراهيم عليه السلام مع ولدهما إسماعيل، وأنه عندما نضب منها الماء وخافت على ولدها من الموت وجلست مقابله وبكت ورفعت صوتها، عندها "ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملني الغلام وشدي يدك لأني سأجعله أمة عظيمة" سفر التكوين (14:21-21)، عندها أبصرت هاجر بئر ماء فأسرعت وملأت القربة منه وسقت ولدها.

والوعد نفسه ذكره سفر التكوين ليعقوب عليه السلام عندما كان مرتحلاً من أرض كنعان إلى مصر للقاء ابنه يوسف عليه السلام: "فكلم الله إسرائيل في رؤى الليل وقال يعقوب يعقوب. فقال هاأنذا، فقال: أنا الله أله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر، لأني أجعلك أمة عظيمة". سفر التكوين: (46؛2-4).

ويذكر سفر التثنية أنه: "يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلي له تسمعون"، ثم يذكر السفر على لسان موسى عليه السلام: "قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيموا لهم نبياً من وسط اخوتكم مثلك واجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به" سفر التثنية: (15-19)18.

إن الآيات المثبتة تبين:

أولاً - إنه الوعد نفسه الذي أُخبرت به هاجر عن ابنها إسماعيل هو الوعد الذي أعطي ليعقوب. ثانياً - إن الرب أخبر موسى عليه السلام أنه سيبعث نبياً من بني اخوتهم بينما استعمل في الآية التي قبلها بأن الرب يقيم "نبياً من وسطك من اخوتك".

وفي الثانية "من وسط اخوتهم"، أي من أبناء إسماعيل عليه السلام. يقول البروفيسور عبد الأحد داود: "فإذا كانت هذه الكلمات لا تنطبق على "محمد" فإنها تبقى غير متحققة ولا نافذة، فالمسيح نفسه لم يدع أبداً أنه النبي المشار إليه، حتى أن "حواريه" كانوا على نفس الرأي. وأهم يتطلعون إلى عودة المسيح مرة ثانية لكي تتحقق النبوة وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوص بأن "الظهور الأول للمسيح" لم يكن ليبدل على ما جاء في الجملة "أقيم لهم نبياً مثلك" وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية، لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات... وإن المسيح، كما تؤمن به

كنيستته، سوف يظهر كقاض وليس كمقدم للتشريع، بينما "الموعود" هو الذي يجيء حاملاً "الشريعة النارية المشعة بيده اليميني".

إن سفر التكوين يخبر بأن إسماعيل سكن في بركة فاران "سفر التكوين 21:21" وفاران هي مكة بدليل حسي مشاهد هو أن إسماعيل سكن مكة، وجاء في نبوءة وردت في إصحاح إشعيا 21؛13-17 "وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، تبيتين يا قوافل الدّانين، ويا سكان أرض تيماء، وأوفوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، ومن أمام القوس المشدود ومن أمام شدة الحرب، فإنه هكذا قال لي السيد، في مدة سنة كسنة الأجير، يفنى كل مجد قيदार، وبقيّة عدد الأقوام من أبطال بني قيदार تضحل".

إن إسماعيل سكن في فاران، "حيث ولد له قيदार (عدنان)، وهو الجد والسلف الأعلى للعرب، وإذا كان قد كتب على أولاد قيदार (عدنان) أن يأتيهم الوحي من الله... فهل هناك من يعنيه هذا الكلام غير شخص واحد من "فاران" هو "محمد"؟ وجاء في سفر حيقوق (3:3): "والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه".

والإصحاح (33) من سفر التثنية جملة رقم (2) جاء فيها: "وجاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير، وتلألاً قدماً من جبل فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليميني برزت نار شريعة له".²⁷

إن هذا النص تمت مقابلته مع نسخ أخرى فتبين ما يلي:

إن الكتاب المقدس منشورات دار النشر بيروت 1989م جاء فيه "... وسطع من جبل فاران وأتى من ربوات قادش..". بينما نسخة دار الكتاب المقدس في العالم العربي جاء فيها "... وأتى من ربوات القدس" ونسخة العهد القديم الذي نشرته الجمعية الإنكليزية في لندن 1857م جاء فيها: "... وأتى مع ربوات من القديسين ومن يمينه نار ناموس لهم".

وهذا ما يؤكد التلاعب الذي أشار إليه العالم الجليل بديع الزمان النورسي في المكتوبات: المعجزات الأحمديّة الإشارة 16 "لقد خالطت آيات التوراة والإنجيل والزبور كلمات غريبة عنها، لتوالي ترجماتها والتباس كلام المفسرين وتأويلاتهم الخاطئة مع آياتها"²⁸

لقد وردت "عشرة آلاف قديس" وفي النسخة التي نقل عنها عبد الأحد داود وفي الثانية "واتى من ربوات قادش..". أما في الثالثة: "وأتى من ربوات القدس" وفي الرابعة: "... مع ربوات من القديسين" وهذا النص المكتوب سنة 1857م يتقارب مع النص الذي أثبتته عبد الأحد داود. وسنلاحظ هذه التحريفات عند الحديث عن بشارة الإنجيل بمحمد p فيما بعد.

وجاء في سفر حجى: 2؛7-9: "ولسوف أزل كل الأمم، وسوف يأتي حمداً لكل الأمم وسوف أملأ هذا البيت بالجد، كذلك قال رب الجنود."²⁹

وفي نسخة دار الكتاب المقدس في العالم العربي "... ويأتي مُشْتَهَى كل الأمم".

وفي نسخة المرسلين اليسوعيين، بيروت 1931م "مُتَمْنَى كل الأمم" وفي النسخة الإنكليزية 1857م "وتأتي مشتتهيات جميع الأمم".

27- إن هذا النص أورده عبد الأحد داود في كتابه محمد في الكتاب المقدس ط2 قطر 1405هـ-1985م ص:32

28- المكتوبات (2) م. س، ص:220

29- نقلا عن عبد الأحد داود، م. س. ص:50

يقول البروفيسور عبد الأحد داود³⁰: "إن ما جاء في سفر التثنية (33؛2-3): الله أشرق نوره من فاران وجاء مع النور عشرة آلاف قديس".

إن هذا لا يعني إلا مكة التي فتحها رسول الله p على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه³¹.
وأما ما جاء في سفر حجي (2؛7-9)، لا يعني سوى ما جاء في الآية السادسة من سورة الصف
".. ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.."، وهذا ما تغيرت ترجمته في مختلف النسخ: مشتهى
الأمم، متمنى الأمم.³² ولمن أراد المزيد من الحديث عن "فاران" مكة: ليقرأ سفر إشعيا: (60؛1-7)،
عندها سيعلم أنها مكة وأنه محمد p.

البشرى من الإنجيل:

لقد أورد بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى نصاً من الإنجيل "قال المسيح إني ذاهب إلى
أبي وأبيكم ليعث فيكم الفارقليطاً" و "وإني اطلب من ربي فيعطيك فارقليطاً يكون معكم إلى الأبد"
يوحنا الإصحاح 14.

ويقول رحمه الله تعالى: والفارقليط: الفارق بين الحق والباطل، وهو اسم النبي p في تلك
الكتب³³.

والاقتباس الذي نقله النورسي رحمه الله تعالى هو الصحيح وأن كل عمليات التحريف بالترجمة لم
تستطع تغييره.

جاء في تفسير الكتاب المقدس تأليف جماعة من اللاهوتيين برئاسة د. فرنسيس دافدسن منشورات
مركز المطبوعات بيروت رقم: 1954/5 في الصفحة 285: "يوحنا (14؛16-31): "سيرسل لهم
أيضاً معزياً آخر(16) اللفظة اليونانية "باركليطوس" مستعملة أربع مرات في الإنجيل ومرة واحدة في
رسالة يوحنا الأولى. المعنى الحرفي هو (واحد يدعى إلى جانب الشخص) "واحد يدعى ليساعد في
التحقيق أمام المحكمة"ا.هـ.

ولقد وردت ترجمتها في نسخة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط: "يوحنا (14؛16): "وأنا
أطلب من الأب فيعطيك معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد"، وفي (14؛26): "وأما المعزي الروح
القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم". وفي النسخة
الإنكليزية (بالعربية 1857م): "ولكن المعزي روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل
شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم، السلام استودعكم سلامي أعطيكم ولست أعطيكم كما يعطي
العالم فلا يقلق قبلكم ولا يجزع..." يوحنا 14(26-28).

يقول عبد الاحد داود: إن كلمة برقليطوس تعني من الناحية اللغوية البحتة "الأحمد والأشهر
والمستحق للمديح"³⁴.

وكلمة بارقليط لا تعني إطلاقاً المعزي (معناها بالعبرية: مناحيم وهي مترجمة إلى باراكالون من
الفعل باراكالو parakaloo)، وبارقليطوس هي في الأرمنية "محامدا" أو "حميد" وذلك لتناسب مع
كلمة "محمد" العربية أو "أحمد" والبرقليط اليونانية³⁵.

30- عبد الأحد داود (المسلم) هو القس ديفيد بنجامين كلداني من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (سابقاً).

31- راجع، عبد الأحد داود م.س. ص: 34

32- للوقوف على ترجمة كلمة "أحمد" راجع المرجع نفسه ص: 51

33- المكتوبات (2) م.س. ص: 222 يقول المترجم "ولكن يبدو أن المترجمين قد تركوا لفظ فارقليط في تراجمهم للإنجيل لشهرته لدى المسلمين في النبي محمد p".

34- راجع، عبد الأحد داود، م.س. ص: 207-229

آيات حذفها اليهود والنصارى كانت تبشر بمحمد p:

يورد بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى آيات من التوراة والزبور كانت تبشر بمحمد p تلميحا وبعضها صراحة، لكن تم حذفها من قبل محرري تلك الكتب³⁶.

ونقتبس من الإصحاح الثاني والاربعين من سفر أشعيا: (9-13): "أعطي آخر مجدي والمسبوكات حمدي، ها هي الأمور السالفة قد مضت فأنا أخبر بالمستحدثات أنبئكم بما قبل حدوثها، سبحوا للرب تسيحا جديدا حمداً له من أقصى الأرض أيها الهابطون إلى البحر وجميع ما فيه والجزائر وسكانها، فلترفع البرية ومدنها والقرى التي يسكنها قيثارا وليسبح قطان الصخر وليهتفوا من رؤوس الجبال.."37، إن النبوءة تتحدث عن أمر سيحدث في برية فنار، الأرض التي يسكنها قيثار (عدنان)...

وكذا ما اقتبس بديع الزمان سعيد النورسي من الزبور (72:8-18) "إنه يملك من البحر إلى البحر، ومن الأنهار إلى أقاصي الأرض، وترده الهدايا من اليمن إلى الجزائر، وتسجد له الملوك وتنقاد إليه، ويصلي عليه كل وقت ويدعى له بالبركة كل يوم. وتشع أنواره من المدينة، وسيدوم ذكره أبد الآباد، وأن اسمه موجود قبل أن تخلق الشمس وسيبقى اسمه ما بقيت الشمس"38 إنها بشارة بالنبي محمد p وإلا من غيره "تشع أنواره من المدينة"؟.. يقول النورسي رحمه الله تعالى: "فهذه الآية صريحة في وصف النبي p فهل جاء بعد نبي الله داود عليه السلام نبي غير محمد p، الذي أعلن الدين شرقاً وغرباً، وجعل الملوك يعطون له الجزية صاغرين، وانقاد له الملوك والسلاطين انقياد خضوع ومحبة، وتوهب له الصلوات والأدعية يومياً من خمس البشرية وبزغت أنواره من المدينة"؟.. فهل هناك غيره"39.

وأخيراً يقول النورسي رحمه الله تعالى:

"وهكذا نرى كيف أن التوراة والإنجيل والزبور وسائر صحف الأنبياء قد اعتنت بنبي آخر الزمان وتضم آيات كثيرة نعوته، كما بينا نماذج منها. فهو مذكور بأسماء ونعوت مختلفة في تلك الكتب.

ترى من يكون نبي آخر الزمان الذي ذكرته جميع كتب الأنبياء ذكراً جاداً إلى هذا الحد، وفي آيات مكررة منها، غير محمد p!"40

تفسير القرآن الكريم والإسرائيليات:

يحذر بديع الزمان سعيد النورسي من تفسير القرآن الكريم بنصوص من التوراة والزبور والإنجيل، ذلك أن مجموعة من الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل وهب وكعب وجدت الاحترام عند العرب، ومثل ذلك حصل لبقية الأقسام الأخرى، وكان هؤلاء يحملون معهم من كتبهم السابقة حكايات ملفقة كأنها مقبولة ومسلم بما فلم ترد، لذا فإنها وجدت آذاناً صاغية وتسلفت إلى خزائن خيال العرب، ومع أنها في البداية كانت حكايات لا أهمية لها "ولكن للأسف، قبلت تلك الحكايات بعد فترة

35- راجع عبد الأحد داود م.س. ص: 222-223

36- راجع: المكتوبات، (2) م.س. ص: 223-224

37- سفر أشعيا 42: (9-13)، نسخة الجمعية الإنكليزية 1857م

38- المكتوبات (2) م.س.، نقلاً عن ص: 225.

ولدى مقابلة النص الذي ذكر المترجم أن بديع الزمان سعيد النورسي اقتبس غيره من كتب مقدسة باللغة التركية، تمت مقابلتهم مع النص في الكتاب المقدس، منشورات 1857م الجمعية الإنكليزية، وجدت أهم الاختلافات في الترجمة: اليمن تقابلها ترسييس ووردت كلمة وملوك شبا وسبا (أي اليمن) والنص بالإجمال متطابق بالمعنى..

39- المكتوبات (2) م.س. ص: 225

40- المكتوبات (2) م.س. ص: 227

وينبت رحمه الله تعالى نصاً نقل عن الإنجيل وجده الرجال التركي المشهور "أوليا جلي" في مقبرة شمعون الصفا مكتوب على جلد الغزال يذكر فيه أن مولوداً من نسل إبراهيم يصبح نبياً كذاباً يولد في مكة يأتي بالصلاح والرشاد، اسمه المبارك أحمد (محمد) وهو سيد العالم، أنظر حاشية الصفحة نفسها.

من الزمن كأما حقائق وأصبحت سبباً لكثير من الشبهات والشكوك". إذ أن هذه الإسرائيليات قد تكون مرجعاً لبعض إيماءات الكتاب والسنة، ومصدراً لبعض مفاهيمها ويقول رحمه الله تعالى "وإلا لا يفسر القرآن بالإنجيل والتوراة المنسوخة أحكامهما والحرفة قصصهما"، ثم يحذر من تسلل الفلسفة الإغريقية إلى تفسير القرآن الكريم أيضاً لأنه قد ". طبق عدد من الظاهرين منقوله على بعض الإسرائيليات، ووقفوا بين قسم من معقوله والفلسفة المذكورة، لما رأوا من ثموله على المنقول والمعقول، وكذا الحديث النبوي، فبدلاً من أن يستخرج المقاصد من عين الكتاب والسنة استنبط طائفة مطابقة وعلاقة بين بعض نقليهما الصادقة وبعض الإسرائيليات الخرفة، وبين عقليتهما الحقيقية وهذه الفلسفة الموهومة الموهمة، ظناً منهم أن هذه المطابقة والمشاهدة تفسير لمعاني الكتاب والسنة وبيان لمقاصدهما!"

ويقول رحمه الله تعالى للمفتونين بالحكايات والروايات الخرفة والملفقة "نعم! يجب البحث عن الثريا في السماء لا في الأرض، فالبحت عن معاني القرآن في أصدافه، لا في جيبك الحاوي على أحلاط، فإنك لن تجد شيئاً، وحتى لو وجدت فالقرآن يرفضه، إذ لا يحمل طغراء البلاغة"، ويقترح إنشاء مجلس خاص من علماء المسلمين لتفسير القرآن الكريم بحيث يكون كل واحد منهم متخصص في علم، ويكون الأمر شورى بينهم "تحت رياسة الزمان الذي هو مفسر عظيم" ويقصد هو العصر، الحال... وكذلك فإن عليهم إن يفيدوا من كل الجهود السابقة فيجمعوا المحاسن في التفاسير، ويهدبوا ويذهبوا⁴¹.

خاتمة:

إن القرآن العظيم هو منبع الحياة النظيفة الطاهرة، هكذا كان وهكذا سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه هو الذي صقل القلوب وطهرها من أمثال القساوة المتجسمة في وأد البنات (في جزيرة العرب)، وجعل تلك القلوب ترق وتترحم حتى على النملة الصغيرة... إن حامل رسالة الإسلام محمداً p كان إنساناً وحيداً لا خيرة سابقة له في "أمر الأنظمة والمجتمع، ولم تعنه أحوال زمانه وبيئته إلا أنه أسس نظاماً، وأرسى عدالة، تلك هي الشريعة، التي هي كخلاصة جميع قوانين العلوم وكأما حصيلة تجارب كثيرة، بل لا يبلغ إدراكها الذكاء مهما توسع، تلك الشريعة متوجهة إلى الأزل، معلنة أنها آتية من الكلام الأزلي، ومحقة سعادة الدارين"⁴². تلك هي هموم بديع الزمان سعيد النورسي، وذلكم هو هدفه وغايته. رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه وأفادنا من علمه وجهده وحكمته.. إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

وكتبه خادم العلم
علي محمد لاغا

القرآن الكريم ونظرية المعرفة من خلال مؤلفات بديع الزمان سعيد النورسي

حسين عاشور^P

{ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت
كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم { لقمان 27
{ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً { البقرة 269
{ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... { الحشر

21

استطاع الشيخ سعيد النورسي – رحمه الله – ومن خلال ما حباه به ربه – برحمته
التي وسعت كل شئ – من إخلاص وتجرد، وعلم وبحث وتأمل طويل ، أن يصل الى
المعاني الجلية والعظيمة ، ومنها ذلك الإدراك الفذ للفرق بين كلمات القرآن الكريم، أي
كلام الله ، وكلام الفلسفة والفلاسفة.

ويضرب الشيخ سعيد النورسي مثلاً لتوضيح ذلك الفرق بين كلام القرآن الكريم،
والحقائق والعلوم والمعرفة المترتبة على التأمل فيه ، وبين كلام الفلسفة، أو أي كلام غير
القرآن الكريم بالتمثيل برجل يمسك مرآة تجاه الشمس فالمرآة تلتقط – حسب سعتها –
نوراً وضياء ويحمل الألوان السبعة في الشمس ، فيكون الرجل ذا علاقة بالشمس بنسبة
تلك المرآة ، ويمكنه أن يستفيد منها إذا وجهها الى غرفته المظلمة أو الى مسكنه الخاص
الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء ، تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما
تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظم الشمس بينما رجل آخر يجابه الشمس
مباشرة ، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها ثم يصعد على جبل عال جدا وينظر الى شعشة
سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن

^P المشرف العام على مؤسسة المختار الإسلامي للصحافة والنشر ، التي تصدر ثلاثة مجلات شهريا : " المختار
الإسلامي " وهي المجلة الأم و " هاجر " لنساء المسلمين و " زمزم " لأطفال المسلمين. وقد أصدرت المؤسسة أكثر
من 700 عنواناً وتناولت في أكثر من دراسة حياة العلامة سعيد النورسي ومدرسته الفذة وأثره على الأمة
الإسلامية.

مشثله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس ، واجداً سبلا إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجرى حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية.

ويرى الشيخ سعيد النورسي أن الفلسفة تبحث عن الشكل الخارجى للأشياء ولا تصل الى كنهها وحقيقتها وسرها وحكمتها ، فهي أشبه بمن يبحث عن نقوش الحروف وجمالها وعلاقة بعضها ببعض وأوضاع كل منها وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب ، أما المعرفة القرآنية فتبحث عما تحت تلك النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة وأسرار نيرة بديعة فالقرآن الكريم يرشد الإنسان والجن إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور ، وهو الذي ينظر إلى الموجودات ، التي كل منها حرف ذو مغزى .

يقول الشيخ سعيد النورسي " إن الفلسفة قد غرقت في تزيينات حروف الموجودات ، وظلت مبهومة أمام علاقات بعضها ببعض حتى ضلت عن الحقيقة ، فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظرت إليها بالمعنى الإسمي أي أن الموجودات قائمة بذاتها ، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول ما أجمل هذا بدلا من ما أجمل خلق هذا ، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشئ ، فأهانت بإسنادها الجمال الى الشئ نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة "

ويرى الشيخ سعيد النورسي أن الباحث عن الحق من خلال الفلسفة يصل إلى أن يصبح فاقداً للغاية العظمى واللذة الكبرى ، فهو يبحث عن المصلحة والنهائية في شكلهما المباشر والذليل .

أما الباحث عن الحقيقة - خلال كلام القرآن الكريم- فهو عبد ، ولكنه عبد عزيز لا يستدل لشئ حتى لأعظم مخلوق وهو غير مغورو بل لين هين لا يتذلل بإرادته لغير فطره الجليل ، وهو فقير وضعيف ولكنه مستغن عن كل شئ بما ادخره له مالكة الكريم من خزائن لا تنفذ في الآخرة ، وهو قوي لاستناده الى قوة سيده المطلقة ثم إنه لا يعمل إلا لوجه الله ، بل لا يسعى إلا ضمن رضاه بلوغاً إلى الفضائل ونشرها .

وهكذا فالوصول إلى الفضائل من خلال كلمات القرآن أمر ميسور وطريق صحيح ، أما الفلسفة فهي تقدم نفعاً محدوداً وربما تؤدي إلى إرساء أساس غير أخلاقي للعلاقات بين البشر وربما تنتشر الرذائل وتعدى الفضائل .

وفي إطار التفرقة بين الآثار المترتبة على التربية من خلال كلمات القرآن الكريم والفلسفة ، يرى الشيخ سعيد النورسي ، أن الفلسفة ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية وتهدف (المنفعة) في كل شئ، وتتخذ (الصراع) دستوراً للحياة ، وتلتزم العنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء ، والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى ، ومن المعروف أن شأن القوة هو الاعتداء ، وشأن المنفعة هو التزاحم وشأن الصراع هو النزاع والجدال ، وشأن العنصرية هو الاعتداء ، ومن هنا نلمس لم سلبت سعادة البشرية من جراء اللهات وراء أفكار وكلمات الفلسفة .

أما حكمة القرآن الكريم ، فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة ، وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلا من المنفعة ، وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة ، بدلا من دستور الصراع ، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمانة بالسوء ودفع الروح إلى معالى الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية .

إن شأن الحق هو الإتفاق وشأن الفضيلة هو التساند وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل للآخر ، وشأن لجام النفس وكبح جماحها وإخلاق الروح وحثها نحو الكمال هو السعادة ، { ونزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين } الإسراء 82 .

ويرى الشيخ سعيد النورسي أن القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة ، إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة ، والتي لا تذكر إلا أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرة بديعة ومعجزات عظيمة ، فيكشف القرآن بتمزيقة ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوى الشعور ، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة ، فاتحا كنزا لا يفنى أمام العقول .

أما كلمة الفلسفة فهي تخفى جميع معجزات القدرة الإلهية وتستترها تحت غطاء الألفة والعادة ، فتتجاوزها دون اكتراث ، بل تتجاهلها دون مبالاة بها ، فلا تعرض أمام أنظار ذوى الشعور إلا أفرادا نادرة شذت عن تناسق الخلقة وتردت عن كمال الفطرة السليمة مدعية أنها نماذج حكمة ذات عبرة .

{ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا }

على أنه لا ينبغي أن يفهم من كلام الشيخ سعيد النورسي ، رفضه العلم والاقتصاد على فهم حقائق الكون وخاصة الجزئية منها على القرآن الكريم ، بل لابد من طلب العلم الطبيعي ، الذي يعرفنا الله من خلال دقائق هذا الكون وبه نفهم القرآن الكريم ، وبه أيضاً نتقدم وسائلنا وراحتنا في الحياة ، وهذا من صميم الطلب القرآني { قل سيروا في الأرض فانظروا } ، وكذلك يجب أن نفرق بين العلوم الطبيعية وبين الفلسفة ، ولاسيما بين الفلسفة الأوروبية الصراعية ، والفلسفة المستمدة من الحضارة الإسلامية.

القرآن والبيئة من خلال رسائل النور

د.ة. فردوس أبو المعاطي المرسي^P

مقدمة

لقد أقام الله تعالى هذا الكون على نظام دقيق يمتاز بالجمال والنقاء والصفاء في كل عنصر من عناصره ، وفي كل مظهر من مظاهره.

ولقد أهتم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالبيئة في جميع عناصرها وهذا ما حاول سعيد النورسي أن يوضحه في رسائل النور ، وهو ما قمت بجمعه من هذه الرسائل لما لموضوع البيئة من أهمية فهو موضع اهتمام العالم كله هذه الأيام بعد ما لحق البيئة من تلوث نتيجة التكنولوجيا والتطورات الهائلة التي أحدثتها الإنسان وكان لها التأثير السيئ والسلبى على البيئة.

وفي بحثي هذا (القرآن والبيئة) وجدت أن بديع الزمان سعيد النورسي قد تحدث عن البيئة بلغة القرآن الكريم فصورها أحسن تصوير من خلال (رسائل النور)

قسمت بحثي إلى مقدمة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي وعدة فصول تناولت فيها.

أولاً : تصوير النورسي لمظاهر الجمال في الكون متمثلة في السماء وما فيها من جمال ودقة ونظام والآيات الدالة على ذلك من القرآن الكريم ، الشمس ، البحار ، والمحيطات والأهجار ، السحاب والرياح ، ووظيفة كل عنصر من العناصر السابقة وكيفية حمايتها للبيئة وذلك من خلال تجليات أسماء الله الحسنى

ثانياً : الأرض بما فيها من جبال ونباتات وحيوانات وطيور.

ثالثاً : الإنسان من خلال بيئة البيولوجية وكيفية التوازن فيها من خلال تجلى أسماء الله الحسنى.

ثم بيئته الاجتماعية متحدثاً عن المبادئ الخمسة لرسائل النور وهي :

أ- الاحترام المتبادل.

ب- الشفقة والرحمة.

^P من مواليد القاهرة سنة 1957 حصلت على شهادة الماجستير في الفلسفة سنة 1950م والدكتوراه سنة 1993من جامعة القاهرة. تعمل الآن عضو هيئة تدريس في كلية البنات - جامعة عين شمس وعضو في لجنة شؤون البيئة فيها . وهي عضو بالجمعية الفلسفة المصرية ايضاً.

ج- الابتعاد عن الحرام.

د- الحفاظ على الأمن.

و- نبذ الفوضى والغوغائية والدخول في الطاعة.

وكل ما سبق في البيئة الاجتماعية وأيضاً البيئة الفكرية متمثلة في كل ما يرتكبه من ذنوب تؤدي إلى فساد القلوب والعقول قد تم معالجته من خلال رسائل النور التي هي مكلفة بخدمة القرآن الكريم والوقوف بصرامة وحزم في وجهه الكفر المطلق وذلك حتى نعيش في بيئة نقية من كل تلوث في ظل (القرآن الكريم)

ثم ختمت بحثي بخاتمه موضحة فيها كيف تناول النورسي البيئة الكونية من سماء وأرض وما فيها والبيئة الإنسانية من خلال تجليات أسماء الله الحسنى في رسائل النور. راجيه من الله العلي القدير أن يوفقني في إخراج هذا البحث في أهي صورة.

أضواء على شخصية النورسي

ولادته :

ولد (الملا سعيد ميرزا) الملقب ببديع الزمان في قرية (نورس) التي تُسب إليها في تسميته من قضاء (خيزان) التابع لولاية (تبليس) شرقي الأناضول سنة 1293 هـ الموافق لسنة 1876م¹

أسرته :

وهو من أسرة كردية صالحة تقية تعمل بالفلاحة والزراعة ، فقد كان أبوه (الصوفي ميرزا) رجلاً ورعاً عابداً فقد كان يكتم دوابه أثناء سيرها في الطريق حتى لا تأكل حراماً من مال الغير، وكانت أمه (نوريه) امرأة صالحة لا ترضع أطفالها إلا وهي على طهر ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وكان أخوه الكبير الملا (عبدالله) عالماً يقوم بمهمة التدريس لطلاب العلم².

طلبه للعلم :

بدأ سعيد النورسي في وقت مبكر من طفولته بطلب العلم لما كان يتمتع به من ذكاء حارق ونباهه فائقة فأخذ يتعلم في كتاتيب قرية (تاغ) على يد أستاذه (محمد أفندي) سنة 1882 وعمره تسع سنوات وتلقى دروساً في علم النحو والصرف.

على يد أخيه الكبير (الملا عبدالله) في عطلة الأسبوع ، ثم واصل الدراسة في قرية (بيرمس) إلى أن بلغ من العمر خمس عشرة سنة بدأ يتنقل في القرى والمدن بين العلماء والفقهاء يتلقى على أيديهم علوم الشريعة الإسلامية وعلوم العربية .

وفي سنة 1888 ذهب إلى (تبليس) والتحق بمدرسة الشيخ (أمين أفندي) ومنها إلى (مكس) حيث مدرسة (أمير حسن ولي) ثم إلى مدرسة في واسطان (كواش) ثم إلى مدرسة في قضاء (بايزيد) وفي هذه المدرسة قضى سعيد ثلاثة أشهر مع شيخه (محمد جلال) في دراسة مكثفة للمتون والشرح وحواش وهوامش حتى أخذ إجازته العلمية منه وفي سنة 1889 عاد سعيد النورسي

1 - بديع الزمان سعيد النورسي : إحسان قاسم الصالحى : دار سوزلر للنشر سنة 1987 ، ص 19 وأيضاً النورسي أنوار لاتغيب : محمد النهامى ، مطبعة المدق سنة 1998،ص 13.

2 - إعجاز القرآن اللغوى في فكر النورسي : د. عبد الرازق عبد الرحمن السعدى بحث مقدم في المؤتمر الثالث الذى يتناول المفكر الإسلامى المعاصر بديع الزمان سعيد النورسي ص 413 ، ص 414

إلى (بتليس) فحضر بعض دروس الشيخ محمد أمين ثم إلى مدينة (شيروان) حيث كان أخوه (الملا عبدالله) ومنها إلى (سعرد) حيث مدرسة العالم المعروف (فتح الله أفندي) الذي قام باختبار (الملا سعيد) حتى رأى منه العجب في قوة علمه وذكائه وسرعة حفظه وبديهته وقرأ سعيد عليه جمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه في أسبوع واحد ثم عاد إلى (بتليس) ومنها إلى مدينة (تللو) حيث أعتكف مدة يعبد الله فحفظ (القاموس المحيط) للفيروزآبادي حتى وصل إلى باب السين.

ثم بدأ يلقي الدروس ويجيب عن أسئلة السائلين، ففي سنة 1892 سافر (الملا سعيد) إلى (ماردين)³ وزاول نشاطه العلمي في جامع المدينة حتى اخرج من المدينة بفعل وشاية إلى (نادر بك) وإلى المدينة ورجع إلى (بتليس) وكان واليها آنذاك (عمر باشا) الذي تعرف على (الملا سعيد) الشاب فأحبه وأصر على أن يقيم معه في منزله فخصص له غرفة سكنها سعيد بعد إلحاح شديد من الوالي فوجدها فرصة لمطالعة الكتب وحفظها فراجع كثيراً من كتب علم الكلام والمنطق والنحو والتفسير والحديث والفقه مما جعله يحفظ عن ظهر قلب أكثر من ثمانين كتاباً من أمهات هذه العلوم ، وفي هذه المدينة أخذ عن العالم الفاضل الشيخ (محمد الكفروي) .

وفي سنة 1894 توجه سعيد النورسي إلى مدينة (وان) بدعوة من واليها (حسن باشا) فانكب فيها يعمق على دراسة العلوم الحديثة كالرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافيا حتى وصل إلى درجة يفهم بها الأساتذة المتخصصين فسمى لأول مرة (بديع الزمان)وهو لقب أشتهر به بعد أن أطلق عليه إعترافاً بفضله وعلمه⁴ .

وفي سنة 1907 شد الرحال إلى إستانبول ليقيم مشروعاً لإنشاء جامعة إسلامية حديثة في شرقي الأناضول بأسم (مدرسة الزهراء) تقوم على نشر حقائق الإسلام وذلك على أثر ما سمع مما نشرته الصحف من ان وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) قد صرح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وييده نسخة من القرآن الكريم قائلاً : (مادام هذا القرآن بيدي المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو تقطع صلة المسلمين به)⁵ . سمع النورسي هذا الخبر وهو في مدينة (وان) فزلزل الخبر أركانته ونذر أن يكرس حياته لخدمة القرآن الكريم حيث قال (لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يجبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها).

ظل النورسي في إستانبول يحاول فتح هذه الجامعة الإسلامية قرابة سنة ونصف السنة لإقناع المسئولين بفكرته . وكان قد ذاع صيته وشاع خبره وعرفه الناس بفضله وعلمه فتجمع حوله الطلبة والعلماء يسألون ويجيب ويدرسون على يديه أنواع العلوم⁶ .

وفي هذه الأثناء قدم سعيد النورسي طلباً إلى السلطان عبدالحميد الثاني يطلب فيه فتح مدرسة تعلم العلوم الحديثة بجانب العلوم الإسلامية وانتقد الاستبداد الموجود في قصر (يلدز) وهو القصر الذي يسكنه السلطان مما أثار غضب حاشية السلطان فأحالوه إلى محكمة عسكرية وهي بدورها أحالته إلى أحد الأطباء لفحص قواه العقلية لما رأوا جرأته وصراحته حتى قال الطبيب الفاحص له:

3 - بديع الزمان سعيد النورسي : إحسان قاسم الصالحي : دار النشر سوزلر ، سنة 1987، ص 20-24

4 - الأسم الأعظم : سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، سوزلر للنشر سنة 1997 ، ص 6،7

5 - إعجاز القرآن اللغوي في فكر النورسي : د. عبد الرازق عبد الرحمن السعدي بحث مقدم في المؤتمر الثالث الذي يتناول المفكر الإسلامي المعاصر بديع الزمان سعيد النورسي ، ص 415-416

6 - النورسي متكلم العصر الحديث : د. محسن عبدالحميد ، سوزلر للنشر، ص 46 - 47.

(لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد)⁷.

ثم ذهب النورسي إلى مدينة (سلانيك) وتعرف فيها على كبار شخصيات الاتحاد والترقي وحاولوا التأثير عليه وجره إلى مبادئهم لكنه قارعهم وصارحهم بأخطائهم قائلاً لهم (لقد اعتديتم على الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة).

وفي سنة 1911 م زار بلاد الشام وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي سميت فيما بعد (الخطبة الشامية) ومن دمشق ذهب إلى بيروت ثم رجع منها إلى استنبول حيث عاود مرة أخرى محاولة فتح جامعة إسلامية فقابل السلطان (محمد رشاد) وأخذ وعداً منه ومن جمعية الاتحاد والترقي بفتح دار للفنون الإسلامية إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى قضت على هذا المشروع.

عين قائداً للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرقي الأناضول وذلك سنة 1912 قبل نشوب حرب (البلقان) وعاد إلى (وان) ليشكل من طلابه ومن المتطوعين فرقاً للجهاد ضد الجيش الروسي الذي دخل إلى مدينة (أرضروم) سنة 1916 و عندما دخل الروس مدينة (بتليس) قاتل فيها النورسي وجماعته قتالاً شديداً إلا أن القوة الروسية كانت متفوقة مما سبب جرح النورسي ووقوعه أسيراً عند الروس ومكث في الأسر سنتين وأربعة أشهر وأربعة أيام واستطاع الهروب على أثر الثورة البلشفية وما تبعها من اضطرابات وفوضى فوصل إلى ألمانيا ومنها توجه إلى استانبول.

وفي سنة 1918 عين النورسي في استانبول عضواً في (دار الحكمة الإسلامية) تقديراً له وكانت عضوية الدار لا تمنح إلا إلى كبار العلماء⁸.

وفي سنة 1922 توجه إلى أنقرة بدعوة من (مصطفى كمال) وسرعان ما اختلف معه وأراد إبعاده إلى شرقي الأناضول عن طريق تعيينه واعظاً هناك فرفض النورسي وظل في أنقرة يكتب ويؤلف وبعد ثمانية أشهر من إقامته في أنقرة قرر التوجه إلى مدينة (وان).

وفي سنة 1923 قضى وقته على جبل (أرك) متعبداً متأملاً ومع ذلك فقد لاحقته الحكومة واعتقلته ونقلته إلى استانبول ومنها إلى قرية نائية إلى (بارلا) بعد أن قضى سبعة أشهر قبلها في مدينة (بوردر) ثم في (أسبارطة) بضعة شهور ثم في (بارلا) على متن زورق سنة 1927 فظن أعداء الإيمان أن سيقضى عليه هنا في (بارلا) ويحمد ذكره ويطويه النسيان، ولكن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده فرعاه بفضلله وكرمه، حتى أصبحت (بارلا) مصدر إشعاع عظيم لنور القرآن، فقد بدأ بكتابة الرسائل وهو في منفاه في (بارلا) سنة 1927 وأستمر في المنفى حتى سنة 1935 حيث اقتيد هو وتلاميذه إلى محكمة (أسكي شهر) ثم حددت إقامته إجبارياً في (قسطموني) وسبق منها إلى محكمة (دينزلي) فبرأته المحكمة ولكن حددت إقامته إجبارياً في (إميرداغ) حتى أواخر سنة 1947.

ومن هنا يتضح أن الرسائل فرضت نفسها كوسيلة واحدة متاحة لداعية صاحب رسالة مهمته تبليغها للناس كما أن المعاناة في كتابتها ونسخها وتوزيعها أوجدت جواً من الفدائية والتضحية.

ولقد كتب النورسي هذه الرسائل كلها من الإلهام والذاكرة فلم يعرف عنه أنه كان يرجع إلى مراجع سوى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فكان يستغرق في النص القرآني ويستلهم الله ويملي

7 - بديع الزمان سعيد النورسي : إحسان قاسم الصالحى ص 28 - 29.
8 - إعجاز القرآن اللغوى في فكر النورسي : د. عبد الرازق عبد الرحمن السعدى ص 316

تلاميذه ويكتب وهو في السجن ، ويملى وهو في شعاب الجبال وكانت الرسائل تستنسخ في كل مكان وفي أى وقت وعلى ضوء القمر والشموع وتوزع سراً ويقول الثقة المتابعون أنه أستنسخ من الرسائل أكثر من ستمائة وخمسين ألف نسخة.⁹ ولقد أهتم بديع الزمان اهتماماً تاماً في سلسلة رسائل النور بالإيمان وأسسها كما يقول هو بأنه (كثف جميع مساعيه للإيمان) إن رسائل النور هدفها إيضاح وتفصيل وإثبات لحقائق الإيمان ومن هنا بدأ بديع الزمان يهتم بالإيمان وتقويته عندما رأى أمراض عصره والعصور التي تليه ورأى أن حقيقة المرض هي ضعف الإيمان في عصره وذلك عندما بدأ التغيير يدب في الحياة البشرية وأصبح زمنه زمن الضلالة البشرية القادمة من ثقافة الغرب وعلى الخصوص حينما انتشرت هذه السفاهة بوسائل الحضارة والمدنية المعاصرة فصار المرض أخطر وإن الضلالة الفكرية كانت تضر بالمسلمين ضرراً ظاهراً والحقيقة أن الضلالة الناشئة من فكرة المادة والطبيعة صارت كميكروب يورث الأمراض المختلفة بسهولة في الحياة البشرية.

وقد أصبح الجهاد المعنوي ضرورياً بسبب غفلة بعض الناس وقبولهم لهذه الأفكار الباطلة. وقد بدأ بديع الزمان بهذا الجهاد المعنوي يدافع عن الإسلام والأيمان ضد العواصف الفكرية الضالة بعد ما علم بحادثة وزير المستعمرات البريطانية فصمم على تكريس كل حياته لإظهار القرآن للعالم.¹⁰

وقد أظهر النورسي من خلال رسائل النور أن لله كتابين كتاب الله الذي تتجلى فيه صفة الإرادة ، ثم القرآن الكريم الذي تجلت فيه صفة كلامه ، ولذا فلا يوجد تناقض بين العلم الكوني والعلم القرآني وهو يقول (العلوم الدينية هي ضياء الوجدان والعلوم المدنية هي نور العقل، ومن امتزاجهما تتجلى الحقيقة)¹¹.

وقد أكد النورسي مفهوم وحدة العلوم ، وبين أن القرآن هو المصدر الأساسي للعلم والمعرفة وأن العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية تنبثق من مشكاة القرآن الكريم وترتكز على وجه التحديد على أسماء الله الحسنى.

لقد تأثر النورسي بهذه النظرة بالإمام الغزالي رحمه الله ، لكنه طور نظرة الغزالي هذه بمحاولته الجادة لإنشاء جامعة الزهراء التي أراد لها أن تكون معماً ومحتبراً لأسلمة العلوم وتأصيلها وفق المنظر القرآني للكون والحياة والإنسان.

لم يفرض النورسي خطة ولم يضع منهجاً لعملية الأسلمة ولكنه فرض رقابة قرآنية على العلوم الوافدة من الغرب وإكتفى برسم الإطار العام والضوابط الأساسية التي تحكم هذه العملية. كان له موقف تجاه المدينة الغربية، فكل شئ في الغرب ليس خيراً خالصاً ولا شراً خالصاً، فالمدينة الغربية تحتوى على بعض القيم المشتركة مع المسلمين فكما أستفاد الغرب من المدينة اليونانية والرومانية فإنه استفاد أيضاً من المدينة الإسلامية إذن يجب أخذ الحسن لان الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها كما يجب ترك كل ما لا يتلاءم مع القرآن .

9 - النورسي أنوار لاتغيب ، الشاعر محمد التهامي ، سوزلر للنشر ، سنة 1997 ص 22 - 23
10 - سعيد النورسي : د. سمير رجب محمد ، سوزلر للنشر ، سنة 1995 ص 184 - 185
11 - بديع الزمان سعيد النورسي : حياته وآثاره إحسان قاسم الصالحى ص 162 - 163

يقول النورسي (لو قمنا بشرح الإسلام الصحيح ووضعنا امام الأنظار الإستقامة اللاتفة بالإسلام لدخل الأجانب إلى الإسلام أفواجا أفواجا)¹².

تقول الباحثة الألمانية المسلمة جاحليا مريم ديمير : (وقد حلل بديع الزمان القرآن لنا من أجل هذا القرآن ووضح لنا برسائل النور الطريق الذي رسمه القرآن للمستقبل)¹³ ويلاحظ أن رسائل النور تحفة فنية رائعة بما فيها من صياغة جميلة ومن أسلوب رفيع ومن إثارة للروح وتوجيه للفكر وحرص على المنطق.¹⁴

وفي عام 1948 داهمت الشرطة بيت الأستاذ النورسي وسبق إلى سجن مدينة (أفيون) وصدر حكم عليه بالسجن لمدة عشرين شهراً.

وفي عام 1949 خرج من سجن (أفيون) ليبدأ مرحلة جديدة من حياته فقد هجر الحياة السياسية من قبل حيث أنصرف إلى التدريس والدعوة والنصح والإرشاد والتأليف حيث بقي مدة شهرين في أحد بيوت (أفيون) وقد راجت رسائل النور رواجاً كبيراً ونفعت نفعاً كبيراً ، ثم توجه إلى (أمير داغ) مع جماعة من طلابه قضى فيها سنتين، وفي سنة 1950 توجه إلى مدينة (أسكي شهر) ومكث فيها شهراً ونصف شهراً ثم توجه إلى مدينة (أسبارطه) وبقي فيها أكثر من شهرين حيث قام (الحزب الديمقراطي) في تركيا وتولى رئاسة الجمهورية (جلال بايار).

وفي عام 1952 أحيل النورسي إلى محكمة في استانبول على أثر طبع كتابه (مرشد الشباب) وعلى الرغم من بلوغ النورسي سن الثمانين من عمره ومرضه فقد مثل أمام المحكمة حتى صدر الحكم ببراءته وأقام باستانبول ثلاثة أشهر ثم عاد يزور المدن التي مر بها في حياته حتى عاد إلى بلده (بار لا) منطلق حركة النور بعد غياب عنها دام عشرين عاماً.

بدأ النورسي في أواخر أيامه بسلسلة رحلات إلى أنقرة وغيرها وكأنه يودع طلابه وأتباعه حتى أبلغته الحكومة أن يستقر في (أميرداغ) وذلك عام 1960 فتوجه إليها واستقر بينها وبين اسبارطه ثم قرر السفر إلى (أورفه) مع ثلاثة من طلابه ونزلوا في أحد فنادقها وصدر أمر من وزير الداخلية بعودته إلى اسبارطه ولكن شدة المرض منعه من ذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الأربعاء 25/رمضان/1379 هـ المصادف 23 مارت سنة 1960 في الفندق نفسه ودفن في (أورفه) ثم في تموز عام 1960 نقل رفاته الى جهة غير معلومة حقدا على النورسي المجاهد.¹⁵

السماء

يتحدث النورسي عن السماء الدنيا بكواكبها السيارة ونجومها وافلاكها وعن حركتها المرسومة بعناية وعن تزيين وجهها الجميل وعن القدرة الإلهية التي تعطي الشمس نظاماً خاصاً شبيهاً بعمل منضبط في السماء يتدفق سطوعاً باهراً وتللاً مهيباً.¹⁶

يقول عز وجل في محكم آية " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين " (5/الملك).

12 - بديع الزمان النورسي فكره ودعوته ، أ.د. سعاد بيلد يرم ، بحث مقدم في المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ص 35 - 39

13 - المرجع نفسه ص 107

14 - النورسي أنوار لانغيب : الشاعر محمد التهامي ص 67

15 اعجاز القرآن اللغوي في فكر النورس ، أ.د. عبد الرزاق عبد الرحمن السعدى بحث مقدم في المؤتمر الثالث باستانبول. 1996، ص 316 ، 317.

(16) الموضوع الجمال الطبيعة والعالم ، والكون ، بحث مقدم في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي لبديع الزمان سعيد النورسي ، حسين عاشور ، 1992 ، ص 155.

وهذه السماء الدنيا أو السماء الأولى، والتي يقرر القرآن الكريم أنها سماء الكواكب والنجوم يقول العلم أن النجوم التي بها تبلغ ملايين الملايين والمسافات التي بينها أبعد مما يتخيله العقل أما عمقها فيقاس بالسنة الضوئية ، وهي ضاربة في العمق إلى أبعد ما يتصور الإنسان، فكيف يا ترى السماء الثانية ثم الثالثة فالرابعة حتى السماء السابعة¹⁷.

يشرح النورسي الآية السابقة فيقول أن جواسيس الجن والشياطين يسترقون السمع إلى أخبار السموات ويجلبون منها الأخبار الغيبية إلى الكهان والماديين الذين يعملون في تحضير الأرواح ، فحبل بين هذه الأخبار وبين التجسس الدائم لأولئك الجواسيس ورُجموا بالشهاب¹⁸ والشهب التي ترسل لرحم الشياطين لها وظائف ثلاثة أولاً هي رمز وعلامة على جريان قانون المبارزة في أوسع دائرة من دوائر الوجود بين الشياطين والنجوم كما أن هناك حراساً يقظين مطيعين فهذه الشهب إشارة و إعلان عن امتعاض جنود الله من اختلاط الأرضيين الشريرين بهم واستراق السمع إليهم.¹⁹

إن هذه الشهب وكأنها مجانيق وقذائف تنوير هي لإرهاب جواسيس الشياطين الذين يسترقون السمع والذين يمثلون المساوي الأرضية أسوأ تمثيل ، وطردهم من أبواب السموات وذلك لئلا يلوثوا السماء الطاهرة التي هي سكنى الطاهرين وليحولوا بينهم وبين القيام بالتجسس لحساب النفوس الخبيثة.⁽²⁰⁾

ويحدثنا النورسي عن طبيعة السموات والأرض من خلال قوله تعالى " أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما " (30/ الأنبياء).

إن الصانع الحكيم خلق السموات والأرض من كتلتين لا شكل لهما من عجتين طريتين لا نفع لها فبسطهما الفاطر الحكيم بسطاً جميلاً و صنع منهما صوراً ناعمة وزينة فاخرة وكثرة من المخلوقات. وعن تسيح وتهليل جميع المخلوقات لله عز وجل من خلال القرآن الكريم قال تعالى " يسبح لله ما في السموات وما في الأرض " (آية 1/ الجمعة).

وقوله تعالى " الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم " (32/ إبراهيم).

ثم يعرض لنا النورسي الآيات الدالة على التوحيد بقوله تعالى " تبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما " (85/ الزخرف).

وعن حماية القرآن الكريم للأرض من خلال السماء يقول الله تعالى " وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون " (32/ الأنبياء) فلا يمكن للإنسان أن يخرق هذا السقف المحفوظ ، ويتغلب على هذه العوائق المدمرة فيخرج بغزو الفضاء ، فمزال الانسان في مجموعة الأرض أو في (21) مجموعته الشمسية فهو لم يغادرها إلى الفضاء خارج الأرض ومجموعتها يقول النورسي في الشعاع السابع ان الحق سبحانه يتجلى في رفعه لمئات الألوف من الأجرام السماوية بلا عمد ولا سند منها ما هو أكبر من أرضنا ألف مرة ، وما هو أسرع انطلاقاً من القديفة بسبعين مرة وذلك لقوله تعالى " أفلم

(17) غزو الفضاء بين أهل الأرض وأهل السماء ، عبد الرزاق نوفل ، كتاب اليوم سنة 1979 ، ص 72.

(18) اللغات اللعنة الثامنة والعشرون ، ص 450 ، 451.

(19) المرجع السابق 451.

(20) الكلمات : الكلمة الخامسة عشر ، ص 209.

(21) غزو الفضاء بين أهل الأرض وأهل السماء : عبد الرزاق نوفل ، ص 56/55.

ينظروا إلى السماء فوفهم كيف بنيناها وزيناها " (آية 6/ق)، وأيضاً قوله تعالى " الله الذى رفع السماء بغير عمد ترونها " (2/ الرعد).

ويتحدث عن تسيير الأجرام بسرعة فائقة بلا مزاحمة ولا مصادمة ، وفى إفادها تلك القناديل المتدلية التي لا تعد بلا زيت ولا انطفاء ، وفى إدارتها تلك الكتل الهائلة التي لا حد لا ، وبلا ضوضاء ولا صخب ولا اختلال وأيضاً فى تسخيرها لتلك المخلوقات العظيمة فى مهام معينة كاستسلام الشمس والقمر لأداء وظائفهما دون احجام وأيضاً دون أن تصاب بأذى نقص أو خلل ، وأيضاً فى اخضاعها تلك السيارات الضخمة التي تملك قوى هائلة ومتجاوزه أو تتحرف ، وفى جعلها وجه السماء صافياً نقياً يُنظف طاهراً مما تلوثه أنقاض تلك الأجرام المزدحمة دون أن يُرى عليها أذى (22) لقوله تعالى { ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعتين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم { (11-12/فصلت).

ثم يتحدث النورسي عن اسم الله الأعظم (القدوس) ويشرحه من خلال قوله عز وجل { إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون } (164/ البقرة).

أن هذه الآية الكريمة هى فى الحقيقة نافذة عظيمة جداً تطل على الأسم الأعظم من الأسماء الحسنى وهو (القدوس).

ويبين لنا النورسي تجلّى اسم (القدوس) على هذا الكون الواسع وذلك: "لولا المراقبة المستديرة للنظافة ، والعناية المستمرة بالطهر فى أرجاء الفضاء الزاخر بالكواكب والنجوم والتوابع المعرضة للموت والاندثار لكانت انقاضها المتطايرة فى الفضاء تحطم رؤوسنا ورؤوس الأحياء الأخرى، ولكانت السماء تظمر علينا كتلاً هائلة بحجم الجبال وترغماً على الفرار من هذا الكون الواسع (23).

ويدعونا النورسي إلى التأمل فى الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الأثنتى عشرة التي كل منها مختلفة عن الأخرى باسم (العدل القدير) الذي حفظ هذا الكون الرحب من الاندثار وذلك بسبب السرعة المذهلة فلو زيد شئ قليل فى سرعتها أو نقص منها لكانت تقذف بقاطنها إلى الفضاء، ولو أخلت فى جريانها لحل المرح والمرج فى النجوم كلها ولأدى لا محالة إلى حدوث القيامة ، هكذا يذهب إلى ذلك النورسي حتى الدوائر العظيمة المسماة بمجرة درب التبانة(24).

لقد أوضحت رسائل النورسي فى أجزاءها الكثيرة براهين متعددة تجلّى الأعظم لأسم (العدل) فيقول: "أن العدالة العامة الجارية فى الكون النابعة من تجلّى الأعظم لأسم (العدل) إنما تدير موازنة عموم الأشياء وتأمّر البشرية بإقامة العدل (25) وقد قال الله تعالى فى سورة الرحمن " والسماء رفعها

(22) الشعاعات ، الشعاع السابع ، ص 120-142؟

(23) الأسم الأعظم سعيد النورس : ترجمة احسان قاسم الصالحى ، ص 216 ، 24.

(24) مجرة درب التبانة هو شريط عريض من الأضواء الخافتة الذى يمتد فى وسط السماء ، وأن هذه الأضواء الكثيرة تبدو كالنبتين المنشور لذلك سماها القدماء درب التبانة إلى طريق التبن وهذه المجرّة حلزونية تخرج منها أربع أذرع خطافية تدور مع المجرّة من الغرب إلى الشرق مع حركة عقارب الساعة ، كما تعمل السحب الكثيفة الموجودة داخل مجرة التبانة على الحفاظ على توازن المجرّة ، وفى مركز مجرة درب التبانة ثقب سوداء يتلعب مئات النجوم يومياً كما الهالة التي تحيط بمجرة درب التبانة من تباثر نجوم المجرّة وأقلاكها إلى الفضاء (موسوعة العلم والإيمان ، المكتب العربي للمعارف ، الجزء الأول ، الكون والمجرات والنجوم ، ص 73 ، 85) .

(25) الكلمات ، سعيد النورس ، ترجمة احسان قاسم الصالحى ، ص 808.

ووضع الميزان " (7/الرحمن). من هنا ندرك مدى ارتباط أحكام القرآن الكريم بالكون وكيف أنها مدت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعري وثيقة لا انفصام لها ، ثم ان فساد تلك الحقائق ممنوع كاستناع افساد نظام الكون والاخلال به وتشويه صورته.

الشمس :

الشمس هي سراج هذه الكائنات (26) فهي نجم غازي تحتوي على 72% من الهيدروجين ، 27% من الهيليوم وهي نافذة مضيئة ساطعة تتطلع منها المخلوقات إلى وجود خالق الكون ووحدانيته أي أنها آية كبرى دالة على وجود الخالق لو تأملها الإنسان وتعمق في معرفتها حق المعرفة .

"فالسبارات الأثنا عشرة - مع كرتنا الأرضية والتي يطلق عليها اسم " المنظومة الشمسية " (27) تجرى بنظام متقن ، وفق حكمه تامة ، وحسب ميزان دقيق رغم الاختلافات الشديدة فيما بينها من حيث كتلتها وجرمها ومن حيث صغرها وكبرها ورغم التفاوت فيما بينها من حيث قربها وبعدها من الشمس ورغم التنوع الهائل في حركاتها وسرعاتها : إلا أن هذه السيارات تجرى في أفلاكها سابعة مشدودة الوثاق بالشمس مرتبطة معها بقانون إلهي هو الذي يطلق عليه علماء الفلك اسم " الجاذبية " وهي التي استطاعت بواسطتها الشمس ان تحافظ على التوازن بين الضغط إلى الخارج الناتج عن الانفجارات الهائلة ، والجاذبية إلى الداخل وهكذا استطاعت ان تحافظ على حجمها الحالي (28) فهي تجرى بنظام دقيق دون خطأ ، وتنقاد انقيادا تاماً ، وبطاعة مطلقة وذلك لقوله تعالى " وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى " (آية 29/لقمان) وايضاً لقوله تعالى " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله " (آية 61/العنكبوت).

يقول النورسي " إن النظام الإلهي الدقيق المحكم موجود في أجمل صورة حيث جعل الأجرام الحامدة ، التي لا شعور لها تجرى في منتهى النظام وكمال الميزان وعلى صورة متباينة وضمن مسافات مختلفة وبحركات متنوعة ومن بعد ذلك تسخيرها جميعاً وفق نظام بديع رائع". فلو حدث خلل في جريان هذه الأجرام الهائلة وخرجت عن محورها لحدثت اصطدامات لا حد لها بين أجرام لا يحصرها العد.

إن الشمس مأمورة وموظفة بنشر غلالات الضوء في الأسفار ولقها في المساء ، وهكذا يتناوب الليل والنهار على هامة الأرض التي تدور حول نفسها أمام الشمس مما ينتج عنه تعاقب الليل والنهار ، وحتى تجمع متاعها وتطوى دفاتر أعمالها ويأتي اليوم التي تقضى فيه من مهامها وتفصل من وظيفتها وذلك لقوله تعالى " والشمس تجري لمستقر لها " (38/يس).

إن الشمس تنظم حركة مجموعتها بحركة محورية حول نفسها فقد ربط الصانع الحكيم السيارات بالشمس عن طريق الجاذبية التي تنتج عن جريان الشمس حول مركزها ، أي أن الشمس تجرى في مستقر لها لإستقرار مجموعتها وذلك لأن الحركة تولد الحرارة ، والحرارة تولد القوة ، والقوة تولد الجاذبية الظاهرية وذلك قانون رباني وسنة إلهية (29)

(26) موسوعة العلم والإيمان ، الجزء الثاني الشمس وتوابعها ، مكتب العربي للمعارف ، ص 140.
(27) تتكون المجموعة الشمسية من تسعة كواكب معروفة يدور حولها 62 قمراً ولكن لا توجد أي حياة على جميع الكواكب المجموعة الشمسية سوى كوكب الأرض ، كما تحتوي المجموعة الشمسية على مائة الف مليون نجم مثل الشمس المرجع نفسه ص 134.
(28) المرجع السابق ، ص 143.
(29) الكلمات : الكلمة الخامسة والعشرون ، ص 454 ، 455.

وقال تعالى " إذا الشمس كورت " ومعنى كورت هنا أي لفت وجمعت .معنى أن الله سبحانه وتعالى قد أسدل عليها ستائر العدم والأثير والسماء عن النجم الشمسي الذي يضيئ الدنيا كمصباح يخرجها من جزئية رحمته ويظهرها إلى الدنيا وبذلك تموت الشمس عن طريق احتراق كل الهيليوم بداخلها ويتحول إلى كربون فتتوقف الانفجارات النووية وبالتالي ينخفض الضغط والحرارة ، وتبدأ مادة الشمس في الانكماش نحو الداخل بفضل الجاذبية مرة أخرى ولكن نظراً لأن حجم الشمس أصلاً ليس كبيراً فإن الانكماش الثاني لا يكفي لتوليد الحرارة التي تكفي لاحتراق الكربون وذلك لأن الكربون يحتاج إلى درجة حرارة عالية لكي يبدأ في الاحتراق ، وهكذا تتحول الشمس إلى قزم (أحمر) درجة حرارته ثلاثة آلاف درجة مئوية ، ثم تنكمش مرة أخرى وتصل درجة حرارتها إلى 1500 درجة مئوية فقط ثم تتحول إلى (قزم أبيض) وربما تتحول إلى قزم (بنى منضغط) أو (قزم أسود) منسحق فاقد الحياة وهكذا تكون الشمس قد ماتت تماماً وقد يذكر لنا الفلكيون أنهم يشاهدون على وجه الشمس بقعتين صغيرتين ثم يتوسعان ويتضخمان رويداً رويداً تسترجع الشمس بهذا التوسع وبأمر الهى ما لفته ونشرته على رأس الأرض من الضوء ، فتلف به نفسها ، ويقول رب العزة إلى هنا انتهت مهمتك مع الأرض ، فهيا إلى جهنم لتحرقي الذين عبدوك وأهانوا موظفاً مسخراً مثلك وحقوقه متهمة اياها بالخيانة وعدم الوفاء ، بهذا تقرأ الشمس الأمر الرباني { إذا الشمس كورت } على وجهها المبعق(30)

البحار والمحيطات والأنهار :

يحدثنا النورسي عن البحار فيقول (ان البحار التي تتماوج بحبوية وتتلاطم بشدة دوماً ، والتي من شأنها التشتت والانسكاب والاغراق ، قد احاطت بكرة الأرض فهما يسيران معا في منتهى السرعة ويجريان في سنة واحدة ضمن دائرة مقدارها خمس وعشرون الف سنة ، وعلى الرغم من كل هذا فهي لا تتفرق أبداً ولا تنسكب مطلقاً ولا تستولى على جارها اليابسة ، فلا بد من أنها تسكن وتسير وتحفظ بأمر من له القدرة المطلقة) (31)

ويشهد علماء الفلك على قول النورسي في عدم انسكاب البحار والمحيطات والأنهار على اليابس وذلك عن طريق عملية المد والجزر التي تسببها جاذبية القمر فتسبب في انحسار المياه عن الشواطئ فتتكشف مساحة كبيرة كانت مغطاه بالماء، ولأن الأرض تدور حول نفسها مرة كل 24 ساعة فان المد والجزر يحدث مرتين (32)

وعن تكوين البحار والمحيطات تتحدث موسوعة العلم والإيمان في أنه عندما تمر مياه الأمطار على الصخور التي بها أملاح كثيرة تذوب تلك الأملاح من خلالها وتأخذها معها إلى البحر والمحيط وبذلك يصبح ماؤها مالح⁽³³⁾ ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن يجعل ماء البحار والمحيطات مالح وذلك لحفظ المياه من العفن والفساد . (34)

ولكن هذه المياه المالحة لا تصلح للشرب ولا للرى ولذا فقد فصل رب العزة سبحانه الماء العذب عن الماء المالح عن طريق التيارات البحرية التي هي عبارة عن انهار ضخمة من المياه الدافئة أو الباردة

(30) موسوعة العلم والإيمان ، المكتب العربي للمعارف ، الجزء الثان الشمس وتوابعها ، ص 146 ، 147 .

(31) الآية الكبرى : بدیع الزمان سعید النورس : ترجمة احسان قاسم الصالحى .ص 67

(32) موسوعة العلم والإيمان ، الجزء الرابع (تكوين الأرض) ص 451 ، 452 .

(33) المرجع نفسه ، ص 444 .

(34) آيات في آيات : عبد الرزاق نوفل ، كتاب اليوم ، ص 73 .

تتحرك داخل المحيط ، وتحديث التيارات بسبب دوران الأرض حول محورها، كما أن عملية تبخير مياه البحر تؤدي إلى عذوبة مياه الأنهار وذلك لقوله تعالى { **مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان** } (19-20/ الرحمن) لهذه الآية الكريمة معان جزئية ابتداءً من بحر الربوبية في دائرة الوجود وبحر العبودية في دائرة الإمكان ، وانتهاءً إلى بحري الدنيا والآخرة ، وإلى البحار المحيطة في الشرق والغرب ، وإلى بحار المياه العذبة والمالحة ، وإلى بحار المياه الجوفية العذبة المتفرقة والبحار المالحة التي على ظهر الأرض (35).

عندما ما تسقط أشعة الشمس على المحيطات والبحار فيتبخر ماؤها متحولاً إلى بخار ماء ويصعد إلى أعلى فعندما يتقابل سطح بارد يتكثف على ذرات الغبار العالقة في الجو مكوناً قطرات ماء وتتجمع على شكل سحابة وإذا وقعت السحابة بين كتلتين من الهواء الساخن والبارد يسقط المطر والثلج (36) وهذا تأكيداً لقوله تعالى { **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** } (48/ الروم).

"ثم يأتي الغيث محملاً بمنافع عديدة ، ويحمل تجليات رحمانية في خزينة الغيث وهو بتزوله وانصبابه على الأرض يفسر عملياً بوضوح الآية الكريمة { **وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته** } (28/ الشورى).

"ويتجلى اسم (الحى) في نزول المطر الذي هو سر الحياة ورحمة مهدها منه سبحانه عزوجل فلا يحكمه قانون مطرد يحدد وقت نزوله وذلك لثلاث تحريم أكف الضراعة أمام باب الرحمة و الرجاء من الرجاء والاسترحام وقت الحاجة إذ لو كان المطر يتزل حسب قانون مطرد. يمثل شروق الشمس وغروبها لما كان الخلق يتوسلون ويستغيثون كل حين استتراً لنعمه الحياة" (37).

ولكن بسبب تدخل الانسان غير المحسوب في التوازن الرباني للكون ظهر الفساد وذلك لقوله تعالى { **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** } (41/الروم).

فانتشر الفساد في البحر وأصبحت مياه البحر ملوث وذلك لعوامل كيميائية وأخرى بيولوجية. ان التلوث الكيماوى للبحار والمحيطات يعتبر أكثر أهمية من التلوث البكتيرى وذلك بسبب المطهرات والمنظفات والمبيدات ومخلفات المصانع والسفن التي تحملها إليها مياه الأنهار فتحدث آثاراً ضارة على الأحياء المائية والطيور والكائنات النباتية وحيوانات المناطق الساحلية (38).

أن البترول الذي يتسرب إلى البحار يجعل عملية تشيع الماء بالأوكسجين صعبة وفي الوقت نفسه يمتص الأوكسجين الذي يحتاج إليه الماء ويؤدي ذلك إلى اختناق عدد كبير من الأحياء المائية (39) ولكن عناية الله الدائمة لهذا الكون بكل ما فيه من بر وبحر وجو نجد أن رب العزة قد خلق حيوانات بحرية تقوم بوظيفة صحية بأمر من الله عز وجل وهى تنظيف وجه البحر من كل الأحياء المائية الميتة ومن كل القاذورات حتى يرجع وجه البحر كالمرأة الساطعة.

(35) موسوعة العلم والإيمان ، الجزء الرابع ، ص 456.

(36) المرجع نفسه ، ص 455.

(37) اللمعات ، اللمعة الفلاون ، ص 562.

(38) التلوث : روبرت لافون ، ترجمة نادية القباني "مراجعة جورج عزيز ، سنة 1977 ص 55-62

(39) المرجع نفسه ، ص 70.

ثم يتحدث النورسي عن تكوين الأهمار فيقول أنها (عبارة عن سحب يتحول إلى مطر الذي هو تلك القطرات اللطيفة البراقة العذبة" (40) وذلك لقوله تعالى {ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتنبغوا من فضله} (46/الروم).

وعندما تتكون الأهمار فإن المصارف أو المصببات التي تصب فيها الأهمار التي تنتجها وما ترده من موارد محسوب بحكمة واسعة وبرحمة عظيمة بحيث ان جميع الجداول والترع والينابيع والسيول تنبع وتجرى من خزينة الرحمن ذى الجلال والإكرام.

وعلى حد تعبير النورسي "إن جريان هذه الأهمار هي فوق حسابات الأسباب الظاهرية بكثير لهذا فهي لا تجرى إلا من خزينة حنة معنوية لا تنضب ومن فيض منبع غيبي لا ينقذ" (41)

ويضرب لنا النورسي مثلاً للأهمار فيتحدث عن **نهر النيل** ويقول "هذا نهر النيل الذي حول صحراء مصر الفاحلة إلى حنة الدنيا ، يجرى كبحر صغير دون نفاذ ، وينبع من جبل واقع في الجنوب يدعى جبل القمر ، فلو جمعت صرفياته لستة أشهر وجمدت لحصل ما هو اعظم من ذلك الجبل والحال أن ما خصص له من مكان للخزن لا يبلغ سدس ذلك الجبل، أما وارداته فقليلة ضئيلة حيث أن شحة الأمطار و شدة حرارة المنطقة و تعطش الأرض للمحافظة على ميزان وارداته وصرفياته ، لذا قد روى أنه يجرى من (جنه) غيبية هي فوق القوانين الأرضية المعتادة" (42)

وذلك لقوله تعالى { **ونادى فرعون قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأهمار تجري من تحتي أفلا تبصرون** } (51/الزخرف) وتشهد أيضاً السنة النبوية الشريفة على أن نهر النيل يروى من جنه غيبية ، عن أبي هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أهمار الجنة" (43)

وهذا يعنى أن كلا من تلك الأهمار الثلاثة تقطر عليها كل وقت قطرات من الجنة لهذا أصبحت مباركة ، وفي رواية أخرى أن منابع هذه الأهمار الثلاثة من الجنة وحقيقة هذه الرواية هي ما رواه الخطيب البغدادي. (44)

ويتحدث النورسي في رسائل النور عن عناية الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته وحفظ البيئة من كل أنواع القاذورات والخلل فيقول " أن الله سبحانه وتعالى قد خلق قسماً من الحيوانات مفترسة أكلت اللحوم وكأنها موظفات صحيات ومأمورات للتنظيف تؤدي وظيفتها في غاية الإتقان بتنظيفها وجه البحر وجمعها لجثث ملايين الحيوانات البحرية يومياً ، وإنقاذ وجه البحر من المناظر القذرة" (45)

ثم يتحدث النورسي عن الحياة في باطن البحر وكيف يتم التوازن فيه فيقول (إن سمكة واحدة تضع ألوفاً من البويضات فتخرج منها ألوفاً من الصغار وأحياناً تخرج من مبيضها مليوناً من البويضات فتكون مواليد الأسماك متناسبة مع وفياتها ، كى يمكن أن تحافظ على التوازن في البحر ، ومن أطراف تجليات الرحمن الإلهية تفاوت أجسام الوالدات تفاوتاً كبير مع اجسام صغارها فلا تستطيع أن تقود

(40) اللمعات : للمعة الفائمة والعشرون ، ص 412.

(41) الشعاعات : الشعاع السابع ص 150 ،

(42) اللمعات : للمعة الثلاثون ص 562، رواه مسلم : كتاب الجنة ص 26.

(43) رواه مسلم في كتاب الجنة- ص 26

(44) الخطيب البغدادي" وليس من الجنة في الأرض شيء إلا ثلاثة أشياء : غرس العجوة والحجر وأوراق تنسزل في الفرات كل يوم بركة من الجنة " انظر فيض القدير ص 5 ، ص 381.

(45) اللمعات ، للمعة الفائمة والعشرون ، ص 411، 412.

صغارها أينما ذهبت حيث لا يمكنها الدخول في أماكن تدخلها الصغار ، فيولد الحكيم الرحيم سبحانه قائداً صغيراً من بين الصغيرات ويسخرها في وظيفة الوداد (46) ومن كل ما سبق نجد أن الحيوانات البحرية إن لم توف بوظيفتها الصحية حق الوفاء وعلى أجمّل وجه لما تألأ وجه البحر كالمرأة الساطعة وكان البحر يورث الكتابة والحزن .

السحاب:

" يتحدث النورسي عن موضع السحاب في السماء فيقول "أنه عالق بين السماء والأرض يسقي روضة الأرض سقياً يتفجر حكمة ورحمة ويمد سكانها بالماء الباعث للحياة ملطفاً به شدة الحرارة" (47) وهذا السحاب ثقيل وضخم ويقوم بوظائف كثيرة وفق أمر صادر من على قدير مطلق القدرة ورحيم ، فيركب السحاب متون الرياح بأمر الله حاملاً خزائن أمطار واسعة من حاكم مدبر ذى احسان وإكرام وعناية مسعفاً بها مواضع من الأرض محتاجة إليها ، وكأنه يرق لحالها فيكسى عليها بدموعه ويطلقها ضاحكة بالأزاهير والرياحين ويخفف من شدة لفحة الشمس ويسقى بساتين الأرض ومروجها ويغسل وجهها ويطهرها من الأقدار لتشرق بالصفاء (48).

وكل هذه الظواهر السابقة ما هي إلا شرح بأسلوب أدبي رصين لقوله تعالى { **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء** } (آية 48/ الروم).

ويتجلى أسم (القدوس) وذلك عندما تستمع الرياح الهوج والسحاب الثقال ، فتلك تطهر وجه الأرض من النفايات ، والأخرى ترش روضتها بالماء الطاهر فتسكن الغبار والتراب ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملة أدواتها ليعود الجمال الساطع على وجه السماء صافياً متألئاً (49) ثم أن السحب الثقال تجد أن صوت أهازيج الأمطار المنسكية منها وجلجلة رعود السماء ليس عبثاً قط ، إذا أن أحداث تلك الأصوات العجيبة في فضاء واسع وإنزال قطرات باعثة على الحياة وعصرها من السحب الثقال وإغاثة المتلهفين عليها وذلك مصداقاً لقوله تعالى { **وتصريف الرياح والسحاب والمستخر بين السماء والأرض** } (آية 164/ البقرة) وأيضاً قوله تعالى { **هو الذي يرسم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال** } (الآية 12/ الرعد). فإن البرق والرعد يخبران عن قدوم الغيث فيبشران الملهوفين (50)

أن كل هذه الظواهر السابقة تفسرهما الآيتان الجليلتين هما قوله تعالى " وهو الذي يتزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته " (28/ الشورى) وقوله تعالى " يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار " (آية 43/النور).

الرياح :

هي حركة الهواء فنسمه الهواء اللطيفة ، وتيارات الهواء والعواصف والأعاصير كلها رياح (51) وهو يستخدم في وظائف كثيرة في منتهى الحكمة والكرم استخداماً كأن كل ذرة من ذرات الهواء الجامد الذي لا حياه لها ولا شعور ولا ثبات لها ولا هدف ، تسمع وتعي ما يلقي إليها من الأوامر الصادرة

(46) المرجع نفسه ، ص 412.

(47) الشعاعات ، الشعاع السابع ، ص 144 ، 145.

(48) المرجع نفسه ، ص 145.

(49) اللمعات : اللمعة الثلاثون ، ص 519 ،

(50) الشعاعات : الشعاع السابع ، ص 144 ، 145.

(51) الكلمات : الكلمة الثلاثون ص 653.

من سلطان هذا الكون فتؤدى خدماتها بقوة ذلك الأمر وهيبته وتنفذها بكل انتظام ودقة دون أن تتوانى في شئ منها (52).

أن كل ذرة من ذرات الهواء تستطيع أن تدخل في جسم كل كائن حي وفي ثمرة كل زهرة ، وفي بناء كل ورقة علماً بأن بناء كل منها يخالف الآخر وهكذا فهذه الذرات الهوائية تدخل في كل منها ، وتعمل بمهارة فائقة وحكمة تامة وتتخذ فيها أوضاعاً معينة وحالماً تنتهي وظيفتها وتركها ماضية وشأماً (53).

من وظائف الهواء أن يدخل إلى مداخل النباتات والحيوانات بالتنفس مؤدياً هناك مهماته الحياتية بإتقان (54) ويقوم بنقل حبوب اللقاح وذلك لقوله تعالى {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بحازنين} (22/الحجر).

ولقد فسرت هذه الآية الشريفة على أن الرياح لواقح للنباتات وهذا حق وواقع وصل اليه العلم في دراساته عن النبات ، إذ ثبت أن هناك نباتات كثيرة الأنواع والأصناف لا يتم تلقيحها إلا بالهواء (55). أن ذرات الهواء مركبة من مواد بسيطة كالأزوت ومواد الحموضة الأوكسجين ومع ثمائل بعضها لبعض فلا أراها إلا أنها تستخدم بيد حكيمة وبانتظام كامل (56).

وحينما تحدث العواصف القوية وتدوى أهازيج الرعد ، ويتلمع الفضاء بسنا البرق يتحول الهواء إلى أمواج ضخمة متلاطمه (57) فهي تصريف وتسخير من لدن الخالق الحكيم ، وما يشاهد من عصفها وشدة هبوبها فلاسرعتها في تنفيذ الأوامر الربانية وامتثالها لحكمها (58).

كما تتجلى الوجدانية في الهواء وذلك من خلال أدائه للوظائف العديدة ومنها نقل الأصوات بصورة واضحة وذلك بنقل المواد اللطيفة مثل الكهرباء والجاذبية والضوء في غاية الانتظام دون احتلاط أو تشابك فهو يحمل بمقياس مصغر مراكز بث واستقبال لجميع ما في العالم من أصوات ومكالمات في التلغراف والتليفون والراديو مع ما لا يحد من أنواع الأصوات للكلام والمحدثات وأن يكون له القدرة على القيام بتلك الوظائف جميعها في وقت واحد ، فلا يلتبس عليها شئ ويحمل أثقالاً هائلة جداً من دون أن يبدي ضعفاً أو تكاسلاً ، فلا تراه قاصرة عن أداء وظائفها المتنوعة واحتفاظها بالنظام ، مثلما دخلت دون احتلاط أو امتزاج فكأن تلك الذرات تملك أذنًا صاغية صغيرة ، وألسنة دقيقة تناسها فتدخل تلك الكلمات تلك الأذان وتخرج من ألسنتها الصغيرة تلك ، فمع كل هذه الأمور العجيبة فإن كل ذرة وكل جزء من الهواء تتجول بحرية تامة ذاكرة خالقها بلسان الحال وفي نشوة الجذب والوجد قائلة " لا إله إلا الله " وقل هو الله أحد " (59).

ولكن بسبب سلوكيات بعض الناس في التعامل الخاطئ مع المخلفات التي تضر بالهواء وتلوثه وتفسد التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات خلال اللحظة الواحدة فهناك نصوص دينية كثيرة تبين هذا

(52) موسوعة العلم والإيمان ، الجزء الثاني ، ص 283.

(53) الشعاعات : الشعاع السابع ، ص 144.

(54) الأسم الأعظم : سعید النورسي . ترجمة احسان قاسم الصالحى ، ص 224 ، 25.

(55) دنيا الزراعة والنبات وما فيها من آيات : عبد الرازق نوفل : كتاب اليوم ص 58.

(56) الآية الكبرى : بدیع الزمان سعید النورسي ، ترجمة احسان قاسم الصالحى ، سوزلر للنشر ص 57.

(57) الملاحق : ملحق أمير داغ ، ص 406.

(58) الكلمات : الكلمة الثالثة والثلاثون ، ص 806.

(59) الملاحق : ملحق أمير داغ ، ص 406.

المعني ومنها قوله تعالى { والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وأثماً مبيناً } (58/الأحزاب).

في هذه الآية اشارته واضحة إلى الحث على عدم إيذاء الناس بالقول أو بالفعل ومن ذلك إفساد البيئة من حولهم ومن يفعل ذلك فإنه يرتكب ذنباً قبيحاً ، ونحن منذ العصر الصناعي وفي بدايات القرن التاسع عشر ، وجدنا تزايد اتجاه الإنسان إلى النشاط العلمي والتقني ومع تزايد هذا الاتجاه تزايدت معدلات التلوث فأصبحنا اليوم نجد كميات هائلة من الطاقة الحرارية التي تنطلق إلى الجو مباشرة من المصانع ومحطات توليد الكهرباء التقليدية والنوية ووسائل النقل وحرائق الغاز الطبيعي في مناطق البترول بالإضافة إلى كميات المواد الكيماوية الضارة التي ينتج عنها تزايد ثقب الأوزون وارتفاع درجات الحرارة عن معدلاتها وما يترتب عليها من ازدياد حدة الجفاف والرطوبة في بعض المناطق ويصدق على هذه الآثار قوله { أن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون } (44/يونس) فهذا هو الفساد الذي ظهر في البر.

ويظهر لنا النورسي عناية الله الدائمة بنا وذلك عندما يتسمم الهواء نجد أن الأشجار المنتشرة في أقطار الأرض كأنها جيش منظم يستلم الأمر نفسه في آن واحد فبمجرد هبوب نسيم رقيق تستلم الأمر من تلك الذرات ويكون الهواء قد قام كخادم أمين نشط فعال على سطح الأرض بخدمة ضيوف الرحمن الذين يسكنونه (60) وذلك بما ينتج من النباتات والأشجار أو كسجين ينقى الهواء من التلوث.

ثم يقوم الهواء بوظيفة أخرى وهي تهوية الأنفاس واسترواح النفوس البشرية وذلك بعد تنقية الدم الباعث على الحياة ، واشعال الحرارة الغريزية التي هي وقود الحياة ثم يخرج إلى الهواء من الفم حاملاً جميع الأدعية والصلوات فيصبح الهواء لساناً ذاكراً بعدد ذراته (61) التي لا تعد ولا تحصى جميع تلك الكلمات وتقدمها إلى خالقها العظيم ، لذا قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (الصلوات لله) باسم جميع تلك الذرات معبراً عن ذلك المعنى الكلي وقدمها إلى الحق سبحانه وتعالى.

وبناء على خاصية الهواء هذه فإن الحروف التي هي موجودات هوائية كلما اكتسبت قداسة ، أي اتخذت أوضاع البث والالتقاط يصبح لها حظ وافر من تلك الخاصية لذا بقراءة حروف القرآن وبكتابتها يتم الشفاء وهو كالدواء المادي(62)

ثم يتحلى الهواء بقانون (الرحمة) وذلك لأن الخالق سبحانه وتعالى لا يسرف في شيء قط ولا يعمل عبثاً مطلقاً إذ يستعمل حتى الأنقاض المادية للمخلوقات الميتة التي انتهت مهماتها في الخريف في بناء مخلوقات جديدة في الربيع لذا فمن مقتضى الحكمة الإلهية ، إدراج هذه الذرات الأرضية الجامدة وغير الشاعرة والتي انجزت وظائف جليلية في الأرض في قسم من أبنية الأخرة التي هي حية وذات شعور بكل ما فيها بأحجارها وأشجارها بدلالة الآية الكريمة { يوم تبدل الأرض غير الأرض } (48/ابراهيم) وبإشارة الآية الكريمة { وان الدار الآخرة هي الحيوان } (64/العنكبوت) (63)

الجبال :

أن الجبال التي على سطح البحر ، والتي تجمدت بعد أن كانت في حالة مائية و سائلة وأصبحت كتلاً ضخمة من الصخور الصلدة ، تنفتت وتتصدع بتجليات جلالية تتجلى على صورة زلازل

(60) مقالة بجريدة الأهرام للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا وكيل كلية العلوم جامعة القاهرة ، بتاريخ (17/4/1998 - الجمعة)
 (61) الملاحق : ملحق أمير داغ ص 406.
 (62) للمعات : اللمعة الثامنة والعشرون.
 (63) الكلمات : الكلمة الثلاثون ، ص 662.

وانقلابات أرضية وذلك مثلما حدث للجبل الذي أصبح دكاً عندما تجلى عليه الرب سبحانه وتعالى في طلب موسى عليه السلام رؤية الله جل جلاله (64).

فتلك الصخور تمبسط من ذرى تلك الجبال خشبية ظهور تجليات جلالية ورهبتها، فتنتشر أجزاءها ، قسم منها ينقلب تراباً تنشأ منه النباتات وذلك عندما يؤدي التراب وظيفة الأمومة بالقدرة الربانية ، وقسم آخر يبقى على هيئة صخور تندرجح إلى الوديان وتكسح السهول فيستخدمها أهل الأرض في كثير الأمور النافعة كبناء المساكن مثلاً (65).

وهناك صخور ضخمة وصلبة ولكنها تلين ليونه الشمع تجاه الأوامر التكوينية ولا تبدى أية مقاومة وذلك لقوله تعالى { وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء } (74/القمر) وذلك تحقق في الصخرة التي انشقت بكمال الشوق تحت ضرب عصا موسى فخرج منها اثنتا عشر عيناً، وذلك لقوله تعالى { و إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار و إن منها لما يشقق فيخرج منه الماء و ان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون } (74/البقرة).

وأمام هذه المعجزة الربانية في انشقاق الصخرة وخروج عيون المياه منها نجد بني إسرائيل قلوبهم قاسية جامدة وغلظت لا تلين أبداً مثلما لانت الصخرة وذرفت الدموع كالسيل من خشيتها أو من سرورها (66).

أي أن من الأحجار ما تسيل منها الأنهار ، وتنبع المياه ، أن ما يحدث في الحجر أو ما يعترى الصخر حتى تنفجر منه الأنهار أو تسيل منه المياه ، فإن هذا من حكمه الستار ، وأمر الخالق القهار فهذا سيدنا موسى عليه السلام يحتاج قومه إلى الماء فيأمر الله جل شأنه ، وعظمت حكمته أن يضرب بعصاه الحجر ، فينفجر منه الماء ، وتخرج منه اثنتا عشرة عيناً تجرى منها الماء بعدد فرق قومه (67) وذلك بنص الآية { وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل اناس مشربهم } (160/الأعراف).

وبجدتنا النورسي عن وظائف الصخور كما جاء في القرآن الكريم فيقول أن للصخور وظائف ثلاث.

1- الوظيفة الأولى هي مربية للتراب في حجرها بالقدرة الإلهية ، والتراب يؤدي بدوره وظيفة الأمومة للنبات بالقدرة الربانية.

2- الوظيفة الثانية العمل على جريان المياه جرياناً منتظماً في جسم الأرض ، والذي يشبه جريان الدم ودورانه في جسم الانسان.

3- الوظيفة الثالثة : وظيفة الخزان للأنهار والعيون ، والينابيع سواءً في ظهورها أو استمرارها على وفق ميزان دقيق منتظم.

أن الصخور بكامل قوتها وبملاء فمها بما تسكب من أفواهاها من ماء باعث على الحياة تنشر دلالة الوحدانية على الأرض (68).

(64) الكلمات: الكلمة العشرون ص 274.

(65) المرجع نفسه ، ص 237.

(66) صنع الله : عبد الرازق نوفل ، ص 109، 110.

(67) الكلمات: الكلمة العشرون ، ص 274.

(68) الكلمات: الكلمة العشرون ص 272.

وأيضاً من الجبال التي دكت في قوله تعالى { وإن منها لما يهبط من خشية الله } (74/القمر) وذلك عندما دكا الجبل في طور سيناء أثناء مناجاه سيدنا موسى عليه السلام حتى تناثر وتفتت في الأرجاء من خشيته سبحانه وتعالى.

ونأخذ موعظة من كل ما سبق في إرشاد قوم موسى (عليه السلام) فكيف لا يتقون الله ولا يخشونه قوم بني إسرائيل والجبال الشاهقة التي هي صخور صلدة تتصدع من خشيته وتبعثر⁽⁶⁹⁾ إن الكرة الأرضية الشبيهة بالسفينة والغواصة العائمة في بحر الفضاء الواسع قد حافظت على توازنها ووقايتها من التزعزع والغرق بالأعمدة والأوتاد. بمعنى أن الجبال في حكم الأعمدة والسارية لتلك السفينة⁽⁷⁰⁾

وذلك لقوله تعالى { والجبال أوتادا } (7/النبا) { وألقينا فيها رواسي } (19/الحجر) " والجبال أرساها " (32/النازعات).

إن الاهتزازات الناجمة من انقلابات الأرض الداخلية تهدأ وتسكن بالجبال ، إذ هي كالمسامات للأرض فمتى ما حصل فوران وغضب في الجوف تنتفس الأرض بمنافذ جبالها فتسكن غضبها وتهدأ حدتها أي أن استقرار الأرض وهدوءها بجبالها⁽⁷¹⁾

أن عمود عمارة الأرض هو الجبال التي تحقق به المحافظة على منابعها من ماء وتراب وهواء مع ضمان الاستفادة منها وتضمنها لمخازن المياه وتصفيتهما الهواء ، وتلطيفها الحرارة والبرودة ، وهى سبب في تنقية الهواء ومنبع تراكم الغازات المضرة الداخلة فيه، وهى حامية للتراب فتحفظه من التوحد والتعفن وتقيه من استيلاء البحر⁽⁷²⁾

ويذهب النورسي إلى أن الجبال الراسيات وما في أجوافها من معادن ، وما لكل منها من خواص وما ادخر فيها غايات شتى والمعدة لمصالح عدة كل منها على حدة بمجموعها معاً تدل دلالة أقوى من الشم (أى الجبال) الرواسي على وحدانية الصانع وكمال ربوبيته.

الأرض:

قال تعالى { والأرض فرشناها فنعم الماهدون } (48/الذاريات) يقول النورسي في شرح هذه الآية (أن سطح الأرض مزرعة ، تزرع فيها أنواع النباتات كلها فهناك أذن ملك موكل للأشراف على تلك النباتات كلها، باسم الله سبحانه وقوته ، وهناك ملك أوطاً مرتبة يشرف على كل طائفة من طوائف النباتات)⁽⁷³⁾

يحدثنا النورسي عن وحدانية النباتات للصانع الحكيم فيقول (وكذا الحال في النباتات المزروعة المنتظمة التي تفرش الأرض والبساتين والزرورع ، كل منها يدل على ذلك الصانع الحكيم ويشير إلى وحدانيته بما تحمل من ازاهير جميلة ، وما تنتجه هذه الأزاهير من ثمار موزونة ، وما على هذه الثمار من نقوش رائعة)⁽⁷⁴⁾

وتظهر تجليات أسماء الله الحسنى الأربعة (الأول ، الآخر ، والظاهر ، والباطن) في البذرة التي هو أصل الشجرة تبين عظمة الحفيظية بتعرضها لأنوار اسم الله (الأول) والثمرة تشهد شهادة

(69) الكلمات: الكلمة العشرون ، ص 2/75 الآية الكبرى سعيد النورس ، ص 41.

(70) صقيل الإسلام ، سعيد النورس ، احسان قاسم الصالحى ، ص 85.

(71) صقيل الاسلام : سعيد النورس ، احسان قاسم الصالحى، ص 85.

(72) الكلمات : الكلمة الثالثة والثلاثون ص 787.

(73) الكلمات الكلمة الرابعة والعشرون ، ص 405.

(74) المرجع نفسه ، ص 787.

صادقة على تلك الحفيظية بتعرضها لأنوار اسم الله (الأخر) أما ظاهر الشجرة المجسم فإنه يظهر عظم القدرة وكمال الحكمة وجمال الرحمة ويبرزها مشهودة بتعرضها لأنوار اسم الله (الظاهر) أما الأجهزة الداخلية لتلك الشجرة التي أصبحت كأنها مرآة تعكس أنوار اسم الله (الباطن) فهي تثبت بأنها مصنع خارق كامل النظام ومستودع إعاشة و أرزاق لا يدع غصنا ولا ثمراً لأورقاً⁽⁷⁵⁾ وعن الأرزاق يحدثنا النورسي من خلال قوله تعالى { وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم } (60/العنكبوت).

أن تسارع أرزاق الأشجار إليها وهي المحتاجة للرزق دون أن يكون لها اقتدار ولا اختيار ولا إرادة وهي ساكنة في أماكنها متوكلة على الله⁽⁷⁶⁾ وذلك لأن الرزق الحلال لا يحصل عليه المخلوق ولا يجده بقوة الاقتدار والاختيار، وإنما يعطى له من لدن مرحمة قد قبلت كده وسعيه⁽⁷⁷⁾ وهناك من الزرع نوعان ، نوع أقسم به الله تعالى في قوله تعالى { والتين والزيتون } يوضح هذه الآية النورسي فيقول (أن الله سبحانه وتعالى يذكر بالقسم التين والزيتون من بين النعم الأخرى وذلك لأن هاتين الفاكتين نافعتان مباركتان وأن في خلقهما ما فيهما من نعم عظيمة يبعث على الملاحظة لأن الزيتون يشكل أساساً مهماً في الحياة الاجتماعية والتجارية وفي تغذية الإنسان ، كما أن في خلق التين ما يبين معجزة خارجه من معجزات القدرة الإلهية ، كدرج أجهزة شجرة التين العظيمة وضمها في بذيرة متناهية في الصغر ، كما يذكر بالقسم به ، بالنعم الإلهية في طعمه ومنافعه خلاف أكثر الثمار)⁽⁷⁸⁾

ويتحدث عن النوع الثاني النورسي من خلال قوله تعالى { ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون } (67-النحل).

تلفت هذه الآية الكريمة النظر والانتباه إلى النخيل والأعناب فهما ثمرتان تعتبران غذاء وقوتاً ، وثمره وفاكهة في الوقت نفسه وهما منشأ كثير من المواد الغذائية اللذيذة ، رغم أن شجرة كل منها تنمو في تراب جامد ، وترعرع في أرض قاحلة ، فكل منهما معجزة من معجزات القدرة الإلهية وخارقة من خوارق الحكمة الربانية وكل منهما مصانع سكر وحلويات ، ومعمل شراب معسل ، وصنائع ذات ميزان دقيق حساس وانتظام كامل ، مهارة حكيمة واتقان تام⁽⁷⁹⁾ أن النباتات والأشجار تمثل أوامر فاطرها الجليل بما يشعر أن فيه شوقاً ولذة حتى أنها تمحو نفسها وتملكها لأجل تلك اللذة وعلى سبيل المثال شجرة جوز الهند ، وشجرة التين كيف تطعم ثمراً لبننا خالصاً تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها وتتسلمه منها وتظل هي لاتطعم نفسها غير الطين وشجرة الرمان تسقى ثمراً شراباً صافياً وهبها لها ربها⁽⁸⁰⁾

ويتكلم النورسي عن فوائد الأشجار من خلال الآية الكريمة { الذي خلق لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا انتم منه توقدون } (80/يس)

(75) الشعاعات : الشعاع الحادي عشر ، ص 270.

(76) الآية الكبرى : سعيد النورسي : ترجمة احسان قاسم الصالحى ، ص 228.

(77) المرج نفسه ، ص 230.

(78) المكتوبات ، المكتوب التاسع والعشرين ، ص 502.

(79) الشعاعات : الشعاع السابع ، ص 200 ، 201.

(80) اللمعات : اللمعة السابعة عشرة ، ص 190.

لاشك أن المصدر الوحيد للخشب هو الشجر والأية الكريمة أما تشير إلى صناعة الأخشاب التي يشرفها القرآن الكريم ، بأن جعلها من عمل نبي الله ورسوله سيدنا نوح صلى الله عليه وعلى من سبقه ومن لحق به وسلم⁽⁸¹⁾

ويوضح لنا سعيد النورسي قدرة الله تعالى من خلال قوله تعالى { فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لخي الموتى وهو على كل شيء قدير } (50/الروم).

قد حشر الله تعالى أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من النباتات على وجه الأرض في فصل الربيع والصيف بتمييز وتشخيص بالغين وبانتظام وتفريق كاملين رغم اختلاط الأنواع اختلاطاً كاملاً فأظهر لنا آية واسعة ساطعة للتوحيد⁽⁸²⁾

إن الكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن الله الحكيم بتنظيف وتنسيق وترين الكون وذلك حتى لا تصاب هذه الدار الواسعة بالتلوث وحتى لا تمتلأ بالنفايات والأنقاض ، فالمرعاة بالتطهر إذن مستمرة ، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة ، فلولا هذه المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة النابعة من حكيم عليم لاخترت الحياة على الأرض⁽⁸³⁾

الطيور والحيوانات والحشرات :

يتحدث النورسي عند وظيفة الطيور في الكون ولغتهم وكيف هم مسخرين لخدمة الإنسان من خلاله قوله تعالى { فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون } (17-18/ الروم) وأيضاً قوله تعالى { وعلمنا منطق الطير } (16/النمل).

هذه الآيات تبين أن الله سبحانه قد علم سيدنا داود وسليمان عليهما السلام منطق أنواع الطيور ، ولغة قابليتها واستعداداتها لأعمال تناسبها وما يمكن أن نستفاد منه ، فكما استفاد الانسان من النحل والحمام الزاجل في بعض أعماله واستنطق البيغاء وامثاله من الطيور ، ويمكنه أن يعلم استعداد العصافير (من نوع الزرايزير) التي تتغذى على الجراد ولا تدعها تنمو بدون أن ينسق أعماله مع هذا النوع من العصافير فيمكنه الاستفادة منه مجاناً في القضاء على آفة الجراد⁽⁸⁴⁾

فتغريد الطيور هو ترنيم بذكر الله ، وزقزقة العصافير هي تسييح لله وهديل الحمام ذكر لله ، وصيحة الغراب ، ونداء الصقر هو دعاء الله والطيور إذا جاعت تناجى ربها وتقول (يرزق بغير حساب) وإذا شبعت وهدأت واستقرت شكرت ربها⁽⁸⁵⁾

وقد أحسن الله كل شيء خلقه فقد ألبس رب العزة الطيور لباسها الريش الناعم اللطيف وذلك لحكمة قد خلقها الله لها ، وأيضاً الجمال عندما تنظف الطيور ريشها هذا في سهولة ويسر .

وقديماً استخدم الأنبياء الطيور مثل هدهد سليمان وذلك في قوله تعالى { يخرج الخبء في السموات والأرض } [25/ النمل]

ويتحدث النورسي عن هدهد سليمان الذي يمثل عريف الطيور والحيوانات كالدوى العارف الذي يكشف بالفراسه الشبيهة بالكرامة مواضع الماء الخفيه في صحراء جزيرة العرب الشحيحة بالماء ،

(81) دنيا الزراعة والنبات وما فيها من آيات : عبد الرزاق نوفل ، ص68.

(82) الكلمات : الكلمات الثانية والعشرين ، ص 336.

(83) اللغات : اللغات الثلاثون ، ص 548.

(84) الكلمات : الكلمة العشرين ، المعام الثاني ، ص 287.

(85) صنع الله : عبد الرزاق نوفل ، كتاب اليوم ، سنة 1987 ، ص 128.

فهو طير ميمون مأمور بإيجاد الماء ويعمل عمل المهندس لدى سيدنا سليمان عليه السلام بأخراجه سبحانه ما خبيئ في السموات والأرض فيعرف أثباته هنا بصنعه الدقيقة⁽⁸⁶⁾ ويحدثنا النورسي عن الحيوانات بإعتبارها موظفات لأعلان السرور وذلك بمدايا أرازقها ولأظهارها حسن الأستقبال للنباتات المرسله لإمداد أبناء جنسه ، ومن هذه الحيوانات البلبل فقد وكل بوظائف من لدن حكيم عظيم هي .

أنه مأمور مكلف باسم القبائل الحيوانية بإعلان شدة العلاقة تجاه طوائف النباتات ، أنه خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات ضيوف الرحمن المحتاجين إلى الرزق ، بيان شدة حاجة الحيوانات إلى النباتات التي تبلغ حد العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات وأعلائها على رؤوس الأشهاد ثم تقدم أطف تسبيح إلى ديوان رحمه مالك الملك ذي الجلال والاكرام في ألطف شوق ووجد⁽⁸⁷⁾ كل هذه الاعمال السابقة التي يقوم بها البلبل هي غاية لأجل الحق سبحانه وتعالى ويجزيه الله عن ذلك بمشاهدة تبسم الازهار الجميله والتلذذ الذي يحصل عليه من محاورتها فنغمات البلبل هي شكر وحمد وثناء تجاه العطايا الرحمانية .

وفي هذا العالم الفسيح نرى أن جميع الطيور والحيوانات بأنواعها وطوائفها وأمها كافة تذكر متفقه "لا إله إلا الله" وكأن حواس تلك الطيور والحيوانات ومشاعرها وأعضاءها وآلاتها وأجهزتها وقواها كلمات موزونه منظومة وكلام بليغ⁽⁸⁸⁾ وذلك لقوله تعالى {والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه} [41/النور]

وعن الحيوانات يبين لنا النورسي أن هناك حيوانات مباركات مثل البقر والجاموس والأبل فهى حيوانات مسخرة وذليلة مطبوعة ومنقاده حتى لصبي صغير ، إذ تسلم قيادتها له وتطيعه وهذا ينطبق على قوله تعالى { وأنزل لكم من الأنعام } [6/ الزمر] يقول بعض المفسرين أن هذه الحيوانات قد سميت [بالأنعام] لان مبادئ هذه الحيوانات قد أتت من السماء ومرادهم في ذلك أن بقاء هذه الحيوانات إنما هو بالرزق وأن أرازقها هي الأعشاب والنباتات ، ورزق الاعشاب آت من المطر ، والمطر باعث على الحياة ورحمة نازلة من السماء ، فالرزق أت من السماء⁽⁸⁹⁾ والاية الكريمة { وفي السماء رزقكم } [22 / الذاريات] .

ويحدثنا النورسي عن سبب كون هذه الحيوانات مباركات وإنها أنعام من خلال قوله تعالى { وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين } [66 / النحل]

يشرح النورسي الآية ويقول " إن هذا الأمر الإلهي ليتقطر عبراً ودروساً . نعم إن إسقاء اللبن الأبيض الخالص ، التنظيف الصافي المغذى اللذيذ من مصانع الحليب المفروزه في اثناء الوالادات وفي مقدمتها البقرة والناقة والمعزة والنعجة ، الذي يتدفق بسخاء بين فرث ودم دون أن يختلط بها أو يتعكر وأن غرس ما هو ألد من اللبن وأحلى منه وأثمن في أفئدة تلك الوالادات وهو الحنان والشفقة التي تصل حد الفداء والإيثار كل ذلك يثبت وحدانية الله الخالق "⁽⁹⁰⁾ .

(86) اللمعات: اللمعة الثامنة والعشرون ص 424 .

(87) الكلمات : الكلمة الرابعة والعشرون ، ص 406 ، 407 .

(88) اللمعات : اللمعة الثامنة والعشرون ، ص 424 .

(89) الكلمات : المرجع نفسه ، ص 427 .

(90) الآية الكبرى : سعيد النورس : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ص 186 .

ويقول النورسي عن الحيوانات المباركة "أما ليست حيوانات ذبوية تستوحش منها وتلحق بنا الضرر كالعوض والحية والعقرب والذئب والسبع وما شابهها من الضواري المفترسة ، بل كأنها حيوانات آتية من جنة معنوية ، لها منافع جليلة ولا يأتي منه ضرر ، بل كأنها تنزل من الأعلى ، أى من خزينة الرحمة".⁽⁹¹⁾

ثم يعرفنا النورسي أن هناك عشرة حيوانات سوف تدخل الجنة مع المؤمنين وهم ناقصة صالح ، وعجل ابراهيم ، وكبش إسماعيل ، وبقرة موسى ، وحوت يونس ، وحمار عزيز ، وثلثة سليمان ، وهدهد بلقيس و كلب أصحاب الكهف، وناقدة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكلهم يصيرون على صورة كبش ويدخلون الجنة⁽⁹²⁾

وكما أن هناك حيوانات مباركات مفيدة خلقها الله للإنسان يأكل لحمها ويشرب من لبنها هناك أيضا حيوانات مفترسة خلقها الله أيضا لخدمة الإنسان يقول النورسي في وظيفة الحيوانات المفترسة على الأرض " أن الله سبحانه وتعالى قد خلق حيوانات مفترسة وطيور جارحة بمثابة مأمورات للنظافة والأمور الصحية تقوم بتنظيف وجه الأرض يوميا من جثث مليارات من الحيوانات البرية والطيور وانقاذها من التعفن وانقاذ ذوى الحياة من ذلك المنظر الكئيب الأليم، حيث تستطيع تلك الحيوانات ان تتحسس مواضع تلك الجثث الخفية والبعيدة من مسافة تبلغ حوالى ست ساعات وذلك بإلهام ربانى فتنتقل هذه الحيوانات إلى تلك المواضع وتزيل الجثث"⁽⁹³⁾

وعن أرزاق الحيوانات يحدثنا النورسي عنه موضحا (ان الرزق الحلال للحيوانات الوحشية المفترسة من لحوم الحيوانات الميتة وحرم عليها لحوم الحيوانات الحية ، بل لها جزاء إن أكلت منها مستنداً في قوله هذا إلى الحديث الشريف (حتى يقتص الجماء من القرناء)⁽⁹⁴⁾ يدل ذلك على ان الحيوانات التي تبقى ارواحها رغم فناء أجسادها لها جزاء وثواب يناسبها في دار البقاء فعلى هذا يصح القول أن لحوم الحيوانات الحية حرام على المفترسات)⁽⁹⁵⁾.

ويقول النورسي (أن الدليل القاطع على ان الرزق الحلال يعطى حسب الافتقار ولا يؤخذ بقوة الكائن وقدرته: هو سعة معيشة الصغار الذين لا طاقة لهم ولا حول ، وضيق معيشة الحيوانات المفترسة وهزال الثعالب والقرودة ذوى الخيل والذكاء ، فالرزق يأتي متناسبا عكسياً مع الاختيار والقدرة ، فكلما اعتمد الكائن على ارادته وقدرته دون الاعتماد على الله ابتلى بضيق المعيشة وتكاليفها ابتلاء أكثر)⁽⁹⁶⁾.

وعن الحشرات يحدثنا النورسي عن طائفة الذباب تلك التي تنظف وجهها وعينيها وجناحها كل حين وكأنها تتوضأ وعن أهميتها يتحدث القرآن الكريم بقوله تعالى { يَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبًا مِثْلَ فَاسْتَمَعُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } (73/الحج).

(91) اللغات : اللمعة الثامنة والعشرون ص 427

(92) الشعاعات : الشعاع الثالث : ص 62 .

(93) اللغات : اللمعة الثامنة والعشرون ص 412.

(94) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاه الجلعاء من الشاه القرناء" رواه مسلم برقم 2582 الترمذى 2535 (تحفة الاحوذى) .

(95) اللغات : اللمعة الثامنة والعشرون ص — 412.

(96) رسالة الحشر ، سعيد النورس ، ترجمة احسان قاسم الصالحى ص 64.

ويشرح النورسي ويقول (أنه لو اجتمعت كل أهل الضلالة على خلق ذبابة واحدة لعجزت ، أى أن خلق الذباب معجزة ربانية وآية كونية عظيمة فتلك المعجزة قهرت نمrod ، ودافعت عن حكمة خالقها دفاعاً فاق ألف اعتراض وذلك لما شكى موسى عليه السلام من ازعاجها قائلاً : يارب لم أكثرت من نسل هذه المخلوقات المزعجة أجيب إلهاماً : لقد اعترضت مرة على الذبان ، وهى كثيراً ما تسأل : يارب ان هذا الانسان الكبير ذا الرأس الضخم لا يذكرك إلا بلسان واحد بل يغفل أحياناً عن ذكرك ، فلو خلقت من رأسه فحسب مخلوقات من أمثالنا لكنت الوف المخلوقات ذاكرة لك⁽⁹⁷⁾ .

ومن وظائف الذبان يقول لنا النورسي " فهى مأمورة بتنظيف ما لا يراه الانسان من جراثيم مرضية وتطهير المواد السامة ، فهى ليست ناقلة للجراثيم بل العكس فهلك تلك الجراثيم المضرة وتمحيتها بمصها لها وأكلها وتحليل تلك المواد السامة إلى مواد أخرى ، فتحول دون سريان كثير من الأمراض وتوقفها عند حدها " ⁽⁹⁸⁾ .

ومن وظائفه أيضاً أنه يوقظك من نوم الغفلة وغمرات تشتت الفكر فيذكرك بوظائف انسانية كالحركة والنشاط والنظافة الدائمة بوضوئه وصلاته وتنظيفه وجهه وعينه كما هو مشاهد . والسدليل على ان الذبان موظفات صحيات ، ومأمورات تنظيف وكيماويات هو كثرتها المتناهية ، اذ المواد النافعة والثمينة تكثر منها ⁽⁹⁹⁾ .

إذا لهذه الطائفة من الذبان وظائف مهمة وجليه بلا شك ، الا ان نظر الحكمة البشرية وعلمها قاصر لم يحيط بعد تلك الوظائف ولذا يحدنا القرآن الكريم من العداء للذباب لأنه ظلم فقد ثبت طبيياً ان فضلات الذباب لا ضرر منها بل قد تكون شرباً حلواً وغذاءً لحشرات أخرى اذ ليس من المستبعد عن الحكمة الالهية ان تجعل من الذباب مكائن تصفية واجهزة استحالة نظراً لأكلها الوف الاصناف من مواد هى منشأ الجراثيم والسموم ⁽¹⁰⁰⁾ .

وعن طائفة أخرى من عائلة الذبان كان لها شأن عظيم فى علاج الانسان من جميع الامراض وكان لها نصيب فى القرآن الكريم وهى النحلة .

قال تعالى { وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً } (68/النحل).

ان النحلة معجزة ربانية ، فلقد سميت باسمها سورة جليلة فى القرآن الكريم ، ذلك لأن تسجيل المناهج الكاملة لوظيفتها الجسيمة فى رأس صغيرة جداً لماكنة صغيرة للعسل ، ومن ثم وضع أطيب الأطعمة وألذها فى جوفها الصغير ، ومن ثم اختيار المكان المناسب لوضع سم قاتل مهدم لاعضاء حية فى رميحه دون ان يؤثر فى الاعضاء الاخرى للجسم وكل ذلك يتم بمنتهى الدقة والموازنة والانتظام ⁽¹⁰¹⁾ .

وعن النمل يقول النورسي انه مكلف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم الالهية وصيانتها من التلف والامتهان لئلا تداس تحت الاقدام فضلاً عن جمعه جثث الحيوانات الصغيرة وكأنه موظف صحى ⁽¹⁰²⁾ .

(97) اللغات : اللعة الثامنة والعشرون ، ص 411.

(98) المرجع نفسه ص 413.

(99) المرجع نفسه : ص 413.

(100) المرجع نفسه : ص 413.

(101) اللغات : اللعة الثامنة والعشرون من ص 412.

(102) المرجع نفسه : ص 412.

وعن حشرات أخرى يقول النورسي من المحتمل ان تكون البعوض والبرغوث المسلطين علينا حمامات فطرية، اى موظفات. بمص الدم الفاسد الجارى فى الاوردة وقت الحر وزيادة الدم أكثر من حاجة الجسم⁽¹⁰³⁾.

ويتجلى اسم (القدوس) بوضوح تام عندما تصدر الاوامر الالهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف فهناك أنواع الديدان والنمل التى تجمع الجنائز وتقوم بمهمه موظفى الصحة العامة والذباب يقوم بتنظيف اجنحته فنظافة تلك المخلوقات وطهارتها حثنا عليه الحديث الشريف (النظافه من الايمان) (والظهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان)¹⁰⁴

ان دعوة الاسلام إلى حماية البيئة والمحافظة عليها لا تقتصر فقط على الحفاظ على الحياة البرية وما بها من حيوانات وطيور واشجار طبيعية ، بل إن هناك نصوص تفر لأول مرة فى تاريخ البشرية، اعتبار مناطق معينة محميات طبيعية وهى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقرآن الكريم أول كتاب سماوى يضع التشريع الملائم للحفاظ على الحياة البرية فى هذه المنطقة المقدسة حيث يقول { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِهَذَا عَدْلٌ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } (الآية 95/المائدة).

وهناك احاديث نبوية توضح هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عليه وسلم قال (يوم فتح مكة) ان هذا البلد الحرام لا يعضد (لا يقطع) شوكه ولا يختلى خلاه (أى لا يقطع الرطب من النبات) ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته الا لمعرفة " قال ابن عباس : الا الأذخر "نبت طيب الرائحة) فإنه لا بد لهم منه للقبون⁽¹⁰⁵⁾ والبيوت ، فقال الرسول الا الأذخر) ومن المعروف أنه يحرم على اى انسان محرم أو غير محرم صيد الحرم وتنفيذه وقطع شجرة الطبيعى.

ان دعوة الاسلام إلى حماية البيئة والمحافظة على الحياة البرية لا يقتصر على مكة والمدينة وإنما هو اتجاه عام حرص المسلمون الاوائل على تنفيذه حتى فى وقت الحرب ، فقد أوصى ابو بكر الصديق رضى الله عنه - جيش أسامه بن زيد بقوله " أيها الناس قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عني " ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقصروا (تقطعوا) نخيلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبجوا شاه ولا بقرة ولا بعير الا للمأكلة).

بناء على ما سبق نجد أنه إذا قتل محرم فى مكة صيداً أو قطع شجرة طبيعية (لم يزرعها الانسان) فإنه يرتكب اثماً يجب عليه الاستغفار ، كذلك تجب عليه الغرامة وهى دفع قيمة ما قطع أو قتل هدياً (وهو ما يهدى إلى الحرم من الانعام كالابل أو البقر) ويتعرض المخالف ايضا لعقوبة ثالثة وهى مصادرة الصيد والشجر المقطوع ، وايضا إذا قتل المحرم ظيباً أو نحو ذلك فعليه ان يذبح شاه بمكة يتصدق بلحمها ، فإن لم يجد فإنه يطعم ستة مساكين، وإن لم يجد يصوم ثلاثة أيام⁽¹⁰⁶⁾.

(103) المرجع نفسه : ص 413.

104 رواه مسلم فى باب الظهور ص 257

(105) القيون : جمع قين : وهو الحداد.

(106) مقاله حماية البيئة من التلوث شعبة من الايمان ، أ.د. احمد فواد باشا وكيل كلية علوم القاهرة فى جردية الاهرام بتاريخ 1998/4/17.

ثالثاً: الانسان

يعرفنا النورسي بيئة الانسان البيولوجية من خلال تجلّي اسم الله الأعظم (الفرد) فيقول (ان الصانع الحكيم قد خلق جسم الانسان على هيئة مدينة منسقة ومنظمة جداً ، فقسم من العروق يقوم بمهمة التلغراف والتليفون وقسم منها بمثابة الانابيب التي تأتي بالماء من الينابيع فيسير فيها الدم ذلك السائل الباعث على الحياة ، والدم نفسه قد خلق فيه قسمان من الكريات ، يطلق على احدهما الكريات الحمراء التي تقوم بتوزيع الارزاق إلى حجيرات البدن، فتوصل اليها ارزاقها بقانون الهى مثلما يقوم موظفوا الارزاق وتجارها بالتوزيع والقسم الآخر هو الكريات البيضاء التي هي أقل عدداً من الاولى ، وتقوم بالدفاع عن الجسم تجاه الأمراض متخذة وضع سريع وعجيب بنوعين من الدوران، والحركة ، فللدم وظيفتان هما:

الاولى: تعمير الحجيرات المهدمة في الجسم وترميمها.

والثانية: تنظيف الجسم بجمع النفايات وأنقاض الخلايا وهناك قسمان من العروق ايضا يطلق على احدهما الشرايين التي تقوم بنقل الدم الصافي وتوزيعه فهي بحكم مجارى الدم النقى الصافي ، والآخر هو مجارى الدم الفاسد الذى يجمع النفايات الضارة ، والانقاض ويأتى بها إلى الرئة التي هي مركز التنفس.

ويقول النورسي ايضا (ان الصانع الحكيم قد خلق عنصرين فى الهواء احدهما (الأزوت) : والآخر : مولد الحموضة الاكسجين فهذا الأخير ما ان يلامس الدم أثناء التنفس حتى يجذب إليه الكربون الكثيف الذى لوث الدم محولاً اياه إلى مادة سامة يطلق عليها (حامض الكربون البخارى) (ثانى أكسيد الكربون) وبهذا يقوم بتنقية الدم وتصفيته: فضلاً عن أنه يضمن الحرارة الغريزية للجسم ، ذلك لأن الصانع الحكيم قد وهب لمولد الحموضة والكربون علاقة شديدة تلك التي يطلق عليها (الألفة الكيماوية) بحيث ما ان يقتربا بقانون الهى ، فتولد الحرارة من هذا الامتزاج كما هو ثابت علماً ، اذ الامتزاج نوع من الاحتراق وحكمه هذا السر هو ما يأتى:

ان لذرات كل عنصر من العناصر حركة مختلفة فأثناء الامتزاج ، تمتزج الحركتان معاً ، وتتحرك الذرتان حركة واحدة ، وتظل حركة واحدة معلقة سائبة، فتنتقل بقانون الصانع الحكيم على صورة حرارة ومعلوم ان الحركة تولد الحرارة كما هو ثابت.

وبناء على هذا السر ، فكما تتحقق حرارة الجسم الغريزية بهذا الامتزاج الكيماوى يتصفى الدم ايضا عندما سلب منه الكربون هكذا ينقى الشهيق ماء حياة الجسم ويشعل نار الحياة ، اما الزفير فإنه يشمر الكلمات المنطوقة من الفم التي هي معجزات القدرة الالهية⁽¹⁰⁷⁾.

ثم يكمل النورسي الحديث عن سر اسم الله الاعظم وهو (الفرد) ويتحدث عن اعضاء الانسان الخارجية متمثلة فى الوجه فيقول (ان لكل انسان علامة فارقة فى وجهه تميزه عن غيره من ابناء البشر بحيث انه مع التشابه الظاهر بين الاعضاء والاساس كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء لا تتشابه تشابهاً تاماً بسبب علامات فارقة فى كل منها.

وكما ان تشابه الاعضاء من عيون وأنوف فى وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوععة على كل وجه - لصيانة حقوق كل فرد

في المجتمع ولمنع الالتباس وللتمييز ولحكيم أخرى كثيرة هي الأخرى دليل واضح على الإرادة المطلقة والمشية الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى⁽¹⁰⁸⁾.

ويحدثنا النورسي عن وظيفة أعضاء جسم الإنسان الخارجية وكيف تجلت في هذه الأعضاء أسماء الله الحسنى فيقول "فلكل عضو - من تلك الأعضاء الكثيرة - ولكل جهاز وآله منها وظائفها المتنوعة وعبادتها المتباينة كما أن لذاتها مختلفة وآلامها متغايرة وثوابها متميز"⁽¹⁰⁹⁾

فمثلاً : العين تشاهد الجمال في الصور وترى معجزات القدرة الإلهية الجميلة في عالم الشهود فتؤدى وظيفتها بتقدم الشكر لله من خلال نظرتها ذات العبرة.

والأذن : تشعر بلطائف الرحمة الإلهية السارية في عالم المسموعات بسماعها أنواع الأصوات ونغماتها اللطيفة المختلفة فلها عبارة خاصة بها ، ولغة تخصها وثواب يعود إليها .

وحساسة الشم التي تشغى بلطائف الرحمة الإلهية الفواحة من شذى أنواع العطور والروائح فإن لها لذتها الخاصة به ضمن أدائها شكرها الخاص ، ولا شك أن لها ثواباً خاصاً بها .

حاسة الذوق التي في الفم فهي تؤدى وظيفتها وتقدم بشكرها المعنوي بأتماط شتى من خلال أدراكها مذاقات أنواع الأطعمة ولذاتها .

وهكذا فلكل جهاز من أجهزة الإنسان ولكل حاسة وجارحه ، ولكل لطيفة من لطائف المهمة ، كالقلب والروح والعقل وغيرها ، فمما لا ريب فيه أن الخالق الحكيم الذي سخر هذه الأجهزة لتلك الوظائف وسيجري كلا منها بما يلائمها ويستحقها من جزاء⁽¹¹⁰⁾.

ويتحدث النورسي عن الرزق عند الإنسان فيقول بإثبات الآية الكريمة " وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم " 60/ العنكبوت .

[أن الرزق يتناسب تناسباً عكسياً مع الأقدار والاختيار فمثلاً أن الطفل قبل أن يولد ، وليس له من الاختيار والافتقار شيء ، ساكن في رحم الأم يسيل إليه رزقه دون أن يحتاج حتى إلى حركة شفثيه ، وحينما يفتح عينيه للدينا ، ولا يملك أقداراً ولا اختياراً الا شيئ من القابليات ، وحس كامن فيه ، فإنه لا يحتاج إلى حركة إصااق فمه بالثدى فحسب ، وإذا بمنابع الثدي تندفق برزق هو أكمل غذاء واسهله هضماً وبألطف صورة وأعجب فطره ثم كلما نما لديه الأقدار والاختيار أحتجب عنه ذلك الرزق الميسور الجميل شيئاً فشيئاً ، حتى ينقطع النبع ، فيرسل إليه رزقه من أماكن أخرى ، ولكن لأن اقتداره واختياره ليس على استعداد بعد لتتبع الرزق فأن الرزق الكريم يجعل شفقه والديه ورحمتها ممددة لأختياره ومسعفه لاقداره ، ثم لما يتكامل الاقتدار والاختيار ، فلا يعدو الرزق نحوه ، ولا يساق إليه. فالرزق إذا يتناسب عكسياً مع الأقدار والاختيار]⁽¹¹¹⁾

أن التعهد الرباني بالرزق وتكفله له بنفسه حقيقة ثابتة ، فلا أحد يموت من عدم الرزق ، لان الرزق الذي يرسله الحكيم ذو الجلال إلى جسم الكائن الحي يدخر قسم منه أحتياطياً على هيئة شحوم ودهون داخلية ، بل يدخر قسم من الرزق المرسل في زوايا حجيرات الجسم كى يصرف منه في واجبات الجسم عند عدم مجئ الرزق من الخارج⁽¹¹²⁾.

(108) الاسم الاعظم : سعيد النورس : ترجمة احسان قاسم الصالحى ص 51-52.

(109) مرشد الشباب للنجاحة في يوم الحساب : سعيد النورسي : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ، ص 180،179

(110) مرشد الشباب للنجاحة في يوم الحساب : سعيد النورسي : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ، ص 180،179

(111) اللمعات : اللمعة الثانية عشرة ص 99

(112) المرجع نفسه ص 98 .

إن الرزق الفطري المدخر بصورة شحوم في جسم الكائن الحي ، إنما يدوم ويستمر بمعدل أربعين يوماً كاملاً ، ولهذا فالذين يموتون جوعاً قبل الأربعين يوماً لا يموتون بسبب عدم الرزق قطعاً بل من عادة ناشئة من سوء الاختيار ومن مرضى ناشئ من ترك العادة ، إذ : " ترك العادات من المهلكات " . أن تجلى اسم الرزاق ظاهر على مد البسيطة بجلاء ، وأن الرزق يتدفق من حيث لا يحتسب من الأنداء ويخرج من الاكمام فلا بد أن ذلك الأسم يمد الكائن ويسعفه ويجول بينه وبين الموت جوعاً قبل انتهاء الرزق الفطري ، ما لم يتدخل البشر المتلبس بالشر بسوء عمله⁽¹¹³⁾ يدعوننا النورسي من خلال رسائل النور إلى تطبيق خمس أسس ثابتة حتى يمكن انقاذ البلاد وأنقاذ الحياة الاجتماعية أولهما : الشفقة والرحمة .

ذلك من خلال بيئة الانسان الاجتماعي متمثلة في الاسره فيقول [أن سعادة العائلة في الحياة وأستمرارها إنما هي بالثقة المتبادلة بين الزوجين والاحترام اللائق والود الصادق بينهما]⁽¹¹⁴⁾ أن العلاقة الوثيقة بالحلب العميق بين الرجل والمرأة ليسا ناشئين عما تتطلبه الحياة الدنيا من الحاجات فحسب ، فالمرأة ليست صاحبة زوجها في حياة دينوية وحدها بل هي رفيقة أيضاً في حياة أبدية خالدة .

فما دامت هي صاحبه في حياة باقية فينبغي لها ألا تلتفت نظير غير رفيقها الأبدى وصديقها الخالد إلى مفاتها وألا ترعجه ولا تحمله على الغضب والغيره .

وحيث أن زوجها المؤمن بحكم إيمانه لا يحرص محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حسننها ، وإنما يكن لها جاً وإحتراماً خالصين دائمين لا يقتصران على وقت شبابها وجمالها بل يدومان إلى وقت شيخوختها وزوال حسننها ، لأنها رفيقته في حياة أبدية خالده ، فإزاء هذا لا بد للمرأة أيضاً أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتها وتقصر محبتها به ، كما هو مقتضى الأنسانية ، وإلا ستفقد الكثير ولا تكسب الا القليل⁽¹¹⁵⁾ هناك حقوق لكل من الزوج والزوجة هي بمثابة وظائف يجب على الطرفين القيام بها على أكمل وجه حتى ينال رضا الله في الدنيا والآخرة .

ويحدثنا النورسي عن وظيفة الزوجة فيقول " والمرأة من حيث كونها مديرة لشؤون البيت الداخلية، ومأمورة بالحفاظ على أولاد زوجها وأمواله وكل ما يخصه فإن أعظم خصالها هي : الوفاء والثقة " .⁽¹¹⁶⁾

ثم يوضح لنا سعيد النورسي عصيان الزوجه من تبرج وتكشف سوف يفسد هذا الوفاء ويزعزع ثقة الزوج بها ، فتكون النتيجة عذاب معنوي للزوج .

وعن وظيفة الزوج يقول النورسي " أن وظيفة الزوج غير قاصرة على الأتئمان على أموالها وعلى الارتباط بها بل تشمل حمايتها والرحمة بها والاحترام لها".⁽¹¹⁷⁾

ويحدثنا عن النتيجة الاخروية لمحبة الزوجة المؤسسة على حسن سيرتها وجميل خصلتها ولطيف شفقتها ، والتي تصونها عن النشوز وتجنّبها الخطايا والذنوب يقول: " جعل تلك الزوجة الصالحة في

(113) اللمعات : اللمعة الرابعة والعشرون ص 303

(114) مرشد الشباب للنجاحة في يوم الحساب : سعيد النورسي : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ، ص 180-179

(115) مرشد الشباب للنجاحة في يوم الحساب : سعيد النورسي : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ، ص 180-179

(116) اللمعات : اللمعة الرابعة والعشرون ص 304

(117) المرجع نفسه ، ص 304

الجنة جمالها أبهى من الحور العين ، زينتها أزهى من زينتهن حسنهما يفوق حسنهن ، تتجاذب مع زوجها أطراف الحديث يستذكران أحداث أيام خلقت ، هكذا وعد الرحيم الكريم " (118) ومن الأسس الخمسة لوسائل النور هي الاحترام المتبادل يقول النورسى " أن أعظم ركيزة في الحياة الاجتماعية : توفير الصغير للكبير ، ورحمة الكبير على الصغير ، إلا أننا نرى أن هذا الأساس قد تصدع كثيراً حتى أننا نسمع أخباراً مؤلمة جداً ، وحوادث مفرجة جداً تجاه الأباء والأمهات تقع من جراء خراب هذا الأساس الراسخ .
ولكن بفضل الله فإن الرسائل القرآنية إنما حلت قاومت الدمار ، وحالت دون تهمد هذا الأساس الاجتماعى المتين بل حاولت تعميمه " (119)

بيئة الإنسان الفكرية :

ويشرح لنا النورسى المبدأ الثالث وهو نبذ الفوضى والغوغائية ، والدخول في طاعة الله . يتحدث النورسى عن البيئة الفكرية من خلال آيات الذكر الحكيم بقوله تعالى " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون " [4-6 سورة التين]
أن الإنسان يسمو بنور الأيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة بينما يتردى بظلمه الكفر أسفل السافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم.
فالإيمان إنما هو أنتساب لذا يكتسب الإنسان بالأيمان قيمة سامية من حيث تجلى الصنعة الإلهية وظهور آيات نقوش الأسماء الحسنى على وجوده ، أما إذا تسلل الكفر الذى هو قطع الأنتساب إلى الله فى الإنسان فعندئذ تسقط جميع معاني نقوش الأسماء الحسنى الإلهية (120)
أن الإيمان يجعل الإنسان أنساناً حقاً بل يجعله سلطاناً ، لذا كانت وظيفته الاساسية الإيمان بالله والدعاء إليه ، بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً مفترساً (121)
ويقول النورسى: " إن الرحمة والعدالة والحكمة تتطلب وجود جنهم لان الكافر بكفره ينكر حقوق الأسماء الإلهية الحسنى ، أى يتعدى على تلك الحقوق ويتكذبه لشهادة الموجودات الشاهدة على تلك الأسماء يتعدى على حقوقها أيضاً ، لذا فالكفر جناية عظيمة وظلم شنيع يتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة ، فيحق عليه إذا تمديد الاية الكريمة " إن الله لا يغفر أن يشرك به [48 النساء] بل أن عدم القاء مثل هذا الشخص فى جهنم رحمة به هو أمر يناقى الرحمة منافاه كلية " (122)
ويشرح لنا النورسى المبدأ الرابع من مبادئ رسائل النور وهو الابتعاد عن الحرام متمثلاً فى [الربا] المدنية الحاضرة تؤمن بأن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي (القوة) وهي تستهدف (المنفعة) فى كل شئ ، وتتخذ الصراع دستوراً للحياة ، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات وغايتها هي (لغو عابث) (123)

(118) مرشد الشباب للنجاة فى يوم الحساب : سعيد النورسى : ترجمة أحسان قاسم الصالحى ، ص 183

(119) المرجع نفسه ص 139

(120) الكلمات : الكلمة الثالثة والعشرون ص 348

(121) الكلمات : الكلمة الثالثة والعشرون ص 354

(122) الشعاعات : الشعاع الحادى عشر ص 327 ، 328 .

(123) الكلمات : الكلمة الخامسة والعشرون ص 472

و يقول النورسي " إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الأنساني إنما هو كلمة واحدة ، كما أن منبع جميع الاخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا " إن شبتت ، فلا على أن يموت غيرى من الجوع " (124)

إنه لا يمكن العيش بسلام ووثام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام ، أى بين الاغنياء والفقراء .

وأساس هذا التوازن هو رحمه الخواص وشفقتهم على العوام ، واطاعة العوام وأحترامهم للخواص. (125)

أن الآيات القرآنية وقفت على باب العالم قائله للربا : الدحول ممنوع وتأمير البشرية بأجمعها أن يوصدوا أبواب الربا لتتسد أمامهم أبواب الحروب ، وذلك لان بالربا ساق الخواص الظلم والفساد بالعوام ، ودفعت العوام الى الحقد والحسد والصراع ، فسلبت البشرية الراحة والامان حيث ظهرت حوادث أوروبا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال

لقد أستطاع القرآن الكريم أن يقلع الربا من جذورها ويداويها بوجوب الزكاة وأيضاً السنة النبوية الشريفة دعت إلى ذلك في الحديث الشريف " الزكاة قنطرة الإسلام " ¹²⁶

أى الزكاة حسر يغيث المسلم أخاه المسلم بالعبور عليها إذ هي الوسطة للتعاون المأمورة ، بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر ، ففى وجوب الزكاة ، وتحريم الربا حكمة عظيمة ، ومصالحة عالية ورحمة واسعة ، وذلك حتى يسود الأمان والحب والطاعة .

وعن المبدأ الخامس يشرحه النورسي ويوضحه في الحفاظ على الأمن عن طريق (مخاربة السرقة) حيث يقول [أنه لا سعادة لامة الاسلام إلا بتحقيق حقائق الاسلام وإلا فلا يمكن أن تذوق الامة السعادة في الدنيا أو تعيش حياة إجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعة الاسلامية ، وإلا فلا عدالة قطعاً ولا أمان مطلقاً ، إذ تتغلب عندئذ الاخلاق الفاسدة والصفات الذميمة ، ولذا فأن (الحد) أو (العقاب) عندما يقام أمتثالاً للأمر الألهى فأن روح الانسان تتأثر وترتبط به ، وهنا عندما يسرق السارق ويخطر بباله أجراء الحد الشرعى عليه يشعر بحقيقة الكلام الازلى الذى يقول "والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما " [38 / المائدة]

فيهيج عنده ما يحمله من إيمان وعقيدة ، وتثار مشاعره النبيلة ، فتحصل له حالة روحية اشبه ما يكون بهجوم بشن من أطراف الوجدان وأعماقه على ميل السرقة ، فيتشتت ذلك الميل الناشئ من النفس الأمارة بالسوء والهوى ، وينسحب وينكمش ، وبالتالي يزول ذلك الميل إلى السرقة ، وأيضاً إذا قمنا على هذه المسألة الجزئية في السرقة سائر الاحكام الألهية .

ندرك أن السعادة البشرية في الدنيا مرتهنه باجراء العدالة ولا تنفذ العدالة إلا كما بينها القرآن الكريم . ¹²⁷

(124) المرجع نفسه ص 474 .

(125) الكلمات : الكلمة الخامسة والعشرون ص 474

(126) صقيل الإسلام : الخطبة الشامية ص 522 ، ص 523 .

(127) الكلمات : الكلمة الثالثة والعشرون ص 348

الخاتمة

من خلال سباحة عقليه وروحيه شاملة للتعرف على أسرار الكون ودقائق الحياة وتذوق جمال الوجود ، بدأ النورسي رحلته الكونية من عجائب الآفاق العلوية واصفا اتساقها واتزانها بدءاً من السماء .

السماء

لقد امرنا القرآن الكريم في أكثر من آية على أن ننظر في السموات وذلك في قوله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (101/يونس) فالقرآن الكريم أمرنا بدراسة ملكوت السموات والأرض أي ملك الله العظيم الذي في السموات ، والذي في الأرض ، وذلك لأن ما بين السموات والأرض إنما هو لتحقيق النظام الأكمل والمهدف الأمثل فإن الله سبحانه وتعالى يقول (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين) (16/الأنبياء) هكذا قرر القرآن الكريم أن السماء إنما خلقت لأهداف وأن الخلق منها مقصود فهي ليست خلاء وأيضا الأرض ، تم أورد القرآن الكريم حقيقة علميه سبق بها العلم ولا يزال في خلق السموات والأرض وهي أن السموات سبع في قوله تعالى (والله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما) (12/الطلاق)

فقد قرر العلم ان السموات ذات اهتزازات سبع على درجات متغايرة ، وبذلك فلا يمكن للانسان وهو في حياته الدنيا ان يعلم إلا السماء الدنيا الذي أشار القرآن الكريم إلى أنها هي التي فيها الكواكب بقوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) (6/الصفات) وأيضا هي التي بها النجوم لقوله تعالى (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) (12/فصلت)

وعن وظيفة النجوم أوضح لنا النورسي أنها خلقت بهدف وهو رجم الشياطين وإرهابهم لأنهم يسترقون السمع فيفسدون بيئة الأرض ولذا فيجب رجمهم حتى تنظف البيئة السفلية من شرورهم وعن الدقة والنظام في السماء يشير إليها النورسي مبينا أن الأجرام تسير بسرعة فائقة بلا مصا دمه ولا ضوضاء ولا اختلال وذلك كله من خلال اسم الله الأعظم (القدوس) الذي عن طريقه تقوم الكواكب والنجوم بالمراقبة الدائمة للنظافة والعناية المستمرة بالطهارة

في أرجاء الفضاء ، ومن خلال اسم (العدل) يحدثنا النورس عن الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة التي تحفظ الفضاء الخارجي من الاندثار وبذلك يكون العدل قد تحقق في السماء لقوله تعالى (والسما رفعها ووضع الميزان) (7/الرحمن)

وعن الشمس حدثنا النورسي على أنها آية كبرى داله على وجود الخالق حيث تمام الدقة والنظام في سيران السيارات ألا ثنا عشرة مع الكره ألا رضيه فهذه السيارات تجرى في أفلاكها ساحة مشدودة الوثاق بالشمس عن طريق قانون ألهي يسمونه علماء الفلك بقانون (الجازيه) فعن طريقه استطاعت الشمس أن تحافظ على حجمها الحالي وذلك من خلال محافظتها على التوازن بين الضغط إلى الخارج الناتج عن الانفجارات الهائلة ، والجازيه إلى الداخل ، وأيضا تموت الشمس بانكماشها إلى الداخل بفعل قانون الجاذبية وعن وظيفتها يقول النورسي أن الشمس مكلفة بنشر الضوء في الأسفار ولفها في المساء حتى تقوم بمهمتها وهو تعاقب الليل والنهار اللذان يمثلان قمة التوازن في الكون .

وعن البحار والمحيطات والأهوار يحدثنا النورسي عن جاذبية القمر ويقول أن بالمد والجزر لقد انحسرت المياه عن الشواطئ فتكشفت مساحة كبيرة منها كانت مغطاة بالمياه فظهرت الأرض ، وعن طريق جاذبية القمر ظهرت الأرض وحمتها من انسكاب مياه البحار والمحيطات والأهوار عليها ، وعن تحلية المياه وفصل الماء المالح عن الماء العذب كانت للشمس دورها الهام فتبخر ماء البحر ويتحول إلى بخار ماء يصعد إلى أعلى فعندما يتقابل سطح بارد يتكثف على ذرات الغبار العالقة في الجو هنا يتكون الماء العذب عن طريق قطرات الماء التي تتجمع على شكل سحب تلك التي إذا وقعت بين كتلتين من الهواء الساخن والبارد يسقط عليها المطر والثلج .

وعن الفساد في البحر يقول النورسي أن تدخل الإنسان غير المحسوب في التوازن الرياني للكون انتشر بسببه الفساد فقال تعالى (**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**) (41/الروم)
فيسبب التلوث الكيماوي الذي هو خلاصه المطهرات والمنظفات والمبيدات ومخلفات المصانع والسفن قتلت الأحياء المائية والكائنات النباتية وحيوانات المناطق الساحلية فكل من يقوم بالإفساد على الأرض فهو بذلك يقتل غيره ونفسه والإسلام ينهى عن الإفساد ويقوله تعالى (**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**) (56/الأعراف)

وعن الأهوار وتكوينها ومصادر مياهها يقدم لنا سعيد النورسي الدليل الثقلي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على أن نهر النيل الذي حول مصر القاحلة إلى جنة خضراء انه يروى من جنه غيبه هي فوق القوانين الأرضية المعتادة وذلك لقوله تعالى (**ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأهوار تجري من تحتي أفلا تبصرون**) (51/الزخرف) وتشهد السنة النبوية الشريفة على ذلك عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
(سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أهار الجنة) ¹²⁸

فمهما كان فساد الإنسان إلا أن عناية الله ورحمته غلبت كل شيء فلقد خلق الله سبحانه وتعالى نوع من الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم بوظيفة صحية وهي تنظيف وجه البحر وجمعها لجثث ملايين حيوانات البحر يومياً وانقاذ وجه البحر من المناظر القذرة وحتى يتألاً كالمراة الساطعة كما خلقه الله .

وعن السحاب يقول النورسي انه عالق بين السماء والأرض يسقي روضة الأرض سقيا يتفجر حكمه ورحمه وعن اسم الله الأعظم (القدوس) يقول النورسي أن الرياح الهوج تطهر وجه الأرض من النفايات ، والسحاب الثقيل ترش روضتها بالماء الطاهر فيسكن الغبار والتراب ثم تنسحب بسرعة ونظام حامله أدواتها ليعود الجمال الساطع على وجه السماء صافيا متألئاً.

وعن الرياح يحدثنا النورسي عن وظائفها الأخرى فيقول أنها هي حركة الهواء المليء بالذرات الحامدة التي لا شعور لها ولا حياة وبالرغم من كل ما سبق عن الذرات إلا أنها تسمع وتعي ما يلقي إليها من الأوامر الصادرة من سلطان الكون العظيم .

فتدخل كل ذره من ذرات الهواء بأمر من الله في الثمرة فتكون زهره وفي جسم كل كائن حي فتؤدي وظيفة التنفس لجميع الكائنات الحية ، وتقوم بمهمة اللقاح للنباتات وذلك لقوله تعالى (**وأرسلنا الرياح لواقح**) (22/الحجر)

وتتجلى الوجدانية في الهواء وذلك في نقله الأصوات بصوره واضحة فالهواء مركز بث واستقبال لجميع ما في العالم من أصوات ومكالمات في التلغراف والتلفزيون والراديو مع ما لا يحصى من أنواع الأصوات للكلام والمخادئات وان يكون له القدرة على القيام بكل هذه الوظائف دون تكاسل ولا ضعف فتخرج ألوف الذرات من الكلمات المختلفة في أنماط مختلفة وأصوات مختلفة بلغات مختلفة وتخرج منها أيضا غاية في النظام مثلما دخلت دون اختلاط أو امتزاج فكأن تلك الذرات تملك أذانا صاغية صغيرة ، وألسنه دقيقه تناسبها فتدخل تلك الكلمات تلك الأذان وتخرج من ألسنتها الصغيرة حروف قد اكتسبت قداسة البث والالتقاط ثم يخرج الهواء من الفم حاملا جميع ألا دعيه والصلوات فيصبح الهواء لسانا ذا كرا بعدد ذراته .

وعن الجبال يقول النورسي أن هذه الجبال الصلده تفتت وتتصدع بتجليات جلا ليه على صوره زلازل وانقلاب أرضى وذلك لحشيتها من تجلى رب العزه والجلالة لها عندما طلب موسى عليه السلام رؤية ربه ، وأيضاً يتفجر منها العيون والآبار عندما ضرب سيدنا موسى عليه السلام الصخرة بعصاه ليستسقى قومه ، فخرج اثنا عشر عينا لأثنتا عشره قبيلة لقوله تعالى (وأوحينا إلى موسى إذ استسفاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فأبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشرئهم) (160/الأعراف)

وعن وظيفة الصخور التي تهبط من الجبال يقول أنها تتناثر فجزء منها ينقلب تراب تتشأ منه النباتات وبذلك يكون التراب هو رحم النبات بقدره ربانية ، وقسم آخر يبقى على هيئة صخور تندرج إلى الوديان وتكتسح السهول فيستخدمها البشر في البنيان كبناء المساكن لهم ، ومن وظيفتها أيضا العمل على جريان المياه بانتظام في جسم الأرض ، واعتبارها أي الصخور خزانات للأهوار والعيون والآبار .

وعن الهدف من خلق الجبال يقول النورسي هي تسكين غضب الأرض والحد من ثورتها وتثبيتها عندما تحدث الاهتزاز الناجم عن الانقلابات الداخلية للأرض ، وعن طريق الجبال تتم المحافظة على منابع الأرض من ماء و تراب وهواء مع ضمان الاستفادة منها باعتبارها مخازن للمياه ، وتصفيها للهواء ، وتلطيفها للحرارة والبرودة ، فهي السبب في تنقية الهواء من تراكم الغازات المضرة الداخلة فيه ، وهي حاميه للتراب فتحفظه من التوحد والتعفن .

أما عن خلق الأرض وتكوينها فأن العلم يقرر انه بانفصال الأرض عن الشمس كانت على هيئة غاز مشتعل وعلى درجة لا يمكن تقديرها من الحرارة الشديدة ، فأنه بدوران هذه الكتلة الغازية حول نفسها أخذت الشكل الكروي ، وبابتعادها عن الشمس أخذت تبرد شيئا فشيئا مكونه السطح الخارجي الذي اخذ يتجمد رويدا رويدا ولأن الغازات التي تتكون منها الأرض الأكسجين والأيدروجين هما عنصري الماء ، فلقد اتحدوا وكونوا الماء وذلك لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) (32/30/النازعات)

وطالما وجد الماء في الأرض يلزم عنه بالضرورة وجود النبات وقد حشر الله تعالى أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من النباتات على وجه الأرض في فصل الربيع .

أن الكره ألا رضيه مأموره وموظفه من لدن الله الحكيم بتنظيف وتنسيق وترين الكون ، وذلك حتى لاتصاب بالتلوث والنفايات والأنقاض فالمرعاة بالتطهر إذن مستمرة والعناية بالتنظيف دائمة

ومتناسبة فلولا هذه المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة النابعة من حكيمة مستمر لاخترت الحياة على الأرض.

وعن **الحيوانات** يقول النورس أن هناك حيوانات مباركات مثل البقر والجاموس والإبل وقد سميت بالأنعام ولأن أصل هذه الحيوانات قد أتى من السماء ورزقها هو الأعشاب أتى من المطر ، والمطر باعث على الحياة ورحمه نازله من السماء فالرزق آت من السماء لقوله تعالى (**وفي السماء رزقكم**) (22/الذاريات)

وأيضاً قوله تعالى (**وانزل لكم من الأنعام**) (6/الزمر) .

وعن **الحيوانات** المفترسة يقول النورسي إنها خلقت لخدمة الإنسان فهي بمثابة مأمورات للنظافة والأمور الصحية تقوم بتنظيف وجه الأرض يومياً من حثت مليارات من الحيوانات البريه والطيور وأنفاذاها من التعفن من مسافات بعيدة تبلغ حوالي ست ساعات وذلك بإلهام رباني .

وعن **الطيور** يحدثنا أيضاً ويقول أهم مسخرين لخدمة الإنسان من خلال قوله تعالى (**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون**) (17/الروم)

وأيضاً قوله تعالى (**علمنا منطق الطير**) (16/النمل)

هذه الآيات تبين أن الله سبحانه وتعالى قد علم سيدنا داود وسليمان عليهما السلام منطق أنواع الطيور حتى يمكن الاستفادة منهم وعلى سبيل المثال الهدد وأيضاً البلبل فهو خطيب رباني يسأل بتغريده أرزاق الحيوانات ضيوف الرحمن المحتاجين إلى الرزق ، وبيان شدة حاجه الحيوانات إلى النباتات التي تبلغ حد العشق تجاه الوجوه المليحة للنباتات فنغمات البلبل هي شكر وحمد وثناء تجاه العطايا الرحمانية .

وعن **الحشرات** حدثنا عن الذباب والنحل والنمل والبرغوث فعن الذباب قال النورسي أنها تنظف وجهها وعينها وجناحيها كل حين كأنها تتوضأ وعن أهميتها قال فيها عز وجل (**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**) (73/الحج)

وعن انه آيه كونه ومعجزه ربانية ذلك عندما قهرت الذبابة نمود ودافعت عن حكمة خالقها وذلك عندما اشتكى موسى عليه السلام من إزعاجها لله رب العالمين .

وعن وظيفتها فهي مأمورة بتنظيف مالا يراه الإنسان من جراثيم مرضيه وتطهير المواد السامة ، فهي ليست ناقلة للجراثيم بل هي هالكة لتلك الجراثيم بمصها وأكلها وتحويل هذه المواد السامة إلى شراب حلو وغذاء لحشرات أخرى .

وعن **النحل** وهو من عائله الذباب كان لها شأن عظيم حيث أصبحت النحلة معجزه ربانية وذلك عندما سميت سورة جليله في القرآن الكريم بأسمها فمن عسلها اتخذ دواء لعلاج الإنسان من جميع الأمراض .

وعن **النمل** يقول انه مكلف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم ألا لهيه وحماتها من التلف حتى لا تداس تحت الأقدام فضلاً عن جمعه لثث الحيوانات الصغيرة فهو موظف صحي .

وعن **البرغوث** فهو أيضاً موظف صحي وذلك لأنه مكلف بمص الدم الفاسد الجاري في الأورده وقت الحر وزيادة الدم أكثر من حاجة الجسم .

وبعد كل ما سبق نظير إلى الأراضي المحرمة حيث أن دعوته الإسلام إلى حمايتها والمحافظة عليها لا تقل شأنًا عن المحافظة على الحياة البرية وما بها من حيوانات وطيور وحشرات وأشجار طبيعية فهناك نصوص من القرآن الكريم تقرر للبشرية جميعها أن هناك مناطق طبيعية هي محميات مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما لذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فنتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام) (95/المائدة)

ولذا فإذا قتل محرم في مكة صيد أو قطع شجره طبيعية لم يزرعها إنسان فإنه يرتكب أثما يجب عليه الاستغفار ، وكذلك تجب عليه الغرامة وهي دفع قيمة ما قطع أو قتل هديا (وهو ما يهدى إلى الحرم من الأنعام كالإبل والبقر) ثم نرجع إلى الإنسان وبيئته الداخلية وكيف نسقها العلي القدير وجعلها على هيئة مدينة منتظمة منسقة كل شيء فيها يسير بقدره أهليه ثم يبين لنا النورسي أنه عندما يتدخل الإنسان بطريقه عشوائية خاطئة فإنه يفسد تلك البيئة الداخلية ويخرّبها وذلك عندما يرتد عن دين الإسلام وينكر نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو بذلك يكون قد خرب روحه ووجدانه وعاش في وحشه اليتيم واليأس ، وذلك لأن المرتد محروم من الحياة الدنيوية والأخروية ، ولذا يجب قتله لأنه أفسد على نفسه بيئته الداخلية وأيضا البيئة الخارجية المحيطة به وهذا هو أكبر أنواع التلوث الذي يحدثه الإنسان المرتد .

إذن الإنسان بالكفر يقطع الصلة والنسبة ويحتفي (التحلي) وتظهر المادة فيه وتسقط قيمته إلى أن يتمنى الكافر العدم أو ينقلب ترابا .

أما الإيمان فإنه ينسب الإنسان إلى مالكة وتزداد الصلة بينه وبين خالقه أيضا تزيد قيمة الإنسان إلى أن تصير الجنة ثمنه وتكون الخلافة رتبته ويطبق حمل الأمانة إن الإنسان إذا حافظ على بيئته الداخلية والخارجية من التلوث فسوف يعيش سعيدا كريما .

وعن بيئة الإنسان الاجتماعية والفكرية قدم لنا النورسي خمس أسس ثابتة حتى يمكن إنقاذ هذه الحياة الاجتماعية .

أولهما : **الشفقة والرحمة** ، أن محبتك للوالدين واحترامهما على حد تعبير النورسي إنما يعودان إلى محبتك لله سبحانه ، إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما رعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة ، وعلامة كونهما محبة لوجه الله تعالى ، هي المبالغة في محبتهم واحترامهم عندما يبلغان الكبر ولا يبقى لك فيهما من مطمع فتكثرت من الشفقة عليهما والرحمة لهما رغم ما يشغلانك بالمشاكل ويتقلان كاهلك بالمشقة فالآية الكريمة " اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " (23-24 / الإسراء) .

(الأساس الثاني الاحترام المتبادل) .

ويدعونا النورسي إلى ركيزة عظيمة في الحياة الاجتماعية وهي توفير الصغير للكبير ، ورحمة الكبير على الصغير ، إلا أننا نرى أن هذا الأساس قد تصدع كثيرا حتى إننا نسمع أخبارا مؤلمة جدا وحوادث مفعجة تجاه الأباء والأمهات تقع من جراء خراب هذا الأساس الراسخ ، ولكن بفضل الله فإن الرسائل

القرآنية أينما حلت وقاومت الدمار ، وحاولت دون تهدم هذا الأساس الاجتماعي المتين بل حاولت تعميره .

المبدأ الثالث وهو الابتعاد عن الحرام متمثلاً في (الربا) يقول النورسي أن اليهود هم الذين زلزلوا الحياة الاجتماعية الإنسانية و أوقدوا الحرب بين الفقراء والأغنياء بتحريض العاملين على أصحاب راس المال، وكانوا السبب في تأسيس البنوك يجعلهم الربا أضعافاً مضاعفة . ولذا فهي منبع جميع الأخلاق الرذيلة ولذلك قال تعالى " واحل الله البيع وحرم الربا " (275 / البقرة) . ولكي يجل السلام في المجتمع يجب أن نحافظ على التوازن بين الخواص والعوام أي بين الأغنياء والفقراء ، وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام ، وطاعة العوام واحترامهم للخواص .

ولقد استطاع القرآن الكريم أن يقلع الربا من جذورها ويداويها بوجود الزكاة وأيضاً السنة النبوية الشريفة دعت إلى ذلك في الحديث الشريف " الزكاة قنطرة الإسلام " أي الزكاة حسر يغيث المسلم أحياه المسلم بالعبور عليها فهي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر ، ففي وجوب الزكاة وتحريم الربا حكمة عظيمة ومصلحة عالية ورحمة واسعة ذلك حتى يسود الأمان والحب والطاعة .

وعن المبدأ الخامس يشرحه النورسي ويوضحه وهو الحفاظ على الأمن عن طريق (محاربة السرقة) لا يمكن أن تذوق الأمة الإسلامية السعادة في الدنيا ، أو تعيش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية فان (الحد) أو (العقاب) عندما يقام امتثالاً للأمر الإلهي فان روح الإنسان تتأثر وترتبط به ومن هنا فان تنفيذ العدالة كما بينها القرآن الكريم تؤدي إلى إسعاد البشرية .

النورسي والبعد الجمالي في اسلوبيات القرآن الكريم

أ.د. عماد الدين خليل^٥

تمهيد

الاعجاز البلاغي أو البياني أو اللغوي أو الفني في القرآن الكريم ينطوي - كما هو معلوم - على جمالياته الخاصة. وقد كتب في ذلك الكثير، منذ فجر الدراسات القرآنية وحتى اللحظات الراهنة. وهو - مع ذلك - يتطلب المزيد بالنسبة لكتاب ليس كالكاتب وظاهرة جمالية فريدة لا تنقضي عجائبها.

النورسي أدلى بدلوه هو الآخر، وكان هذا منطقي تماما بالنسبة لرجل تدفقت رسائله المائة والثلاثون من نبع كتاب الله المترع عذوبة وسخاء، ونسجت كلماتها على هديه. وهو منطقي - مرة أخرى - لأن خلفيات الفكر النورسي تنبض بعشق الجمال، وتراه انعكاسا مدهشنا للإبداع الالهي في الكون.

وهو - أي النورسي - في وقفته إزاء كتابي الكون المنظور والمقروء كان يولي اهتماما ملحوظا ومؤكدا لمتابعة الملامح والتشكيلات والقيم والمفردات الفنية والجمالية هنا وهناك. انه مهندس معماري من طراز اول وان المرء ليلمس وهو يجتاز رسائله كافة كيف ان رؤيته للعالم والاشياء والكلمات هو رؤية مهندس يلمح ببصيرة ثاقبة وخبرة عميقة عناصر التوازن والتناظر في معمار الكون الكبير والكلمة المعبرة.

وإذا كنا في بحوث أخرى قد تابعنا مرثيات النورسي الجمالية وهو يتعامل مع الكلمات، والكون والعالم،^١ فأننا سنحاول هنا ان نؤشر على بعض ما اراد الرجل ان يقوله بخصوص كتاب الله. ابتداء، نلاحظ كيف ان النورسي تحرك وهو يتعامل مع النص القرآني ومعطياته الجمالية على خطين متوازيين، او طبقتين تقوم احدهما على الاخرى. فأما في اولاهما فقد عرض لجملة من الاستنتاجات "التنظيرية" - اذا صح التعبير - بخصوص ما سماه قداماؤنا "البلاغة القرآنية"، وما يسميه المعاصرون

٥ من مواليد الموصل - العراق عام 1939م. حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس بالقاهرة عام 1968م. حاليا أستاذ في جامعة الموصل وقد تولى عددا من المناصب في ادارة المكتبات والتراث. شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية في بلدان العالم. أجز أكثر من أربعين كتابا وترجمت بعض مؤلفاته الى الإنكليزية والفرنسية والتركية وغيرها من اللغات. كتب عن أعماله العديد من رسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه.

1 - انظر: عماد الدين خليل: الكلمات: روية جمالية، بحث مقدم الى الندوة العالمية الثانية حول فكر العلامة النورسي التي عقدها مؤسسة الثقافة والعلوم في استانبول في الفترة بين 26-27/9/1994م. ونشر في المجلد الخاص ببحوث الندوة.

القيم الفنية او الجمالية.

وأما في الثانية فقد نفذ محاولة تطبيقية من خلال تفسيره لعدد من صور القرآن او مقاطعه او آياته. ومعقدور المرء ان يتابع السياق الثاني في كتابات النورسي كلها، وفي كتابي "اشارات الاعجاز في مظان الايجاز"² و "المتنوي العربي النوري"³ بوجه الخصوص. والذي يهمننا هنا هو ما أسميناه بالنتظيرات، والتي تنتشر هو الاخرى في رسائله كافة ولكنها تتمركز بالدرجة الاولى في "الكلمات"⁴ حيث يخصص 120 صفحة لتقدم مرثياته عن الموضوع. عالج النورسي جل المسائل والقيم الفنية والجمالية التي عني بها القدماء والمحدثون في دراساتهم البلاغية والأدبية والفنية واللغوية لكتاب الله، بدءاً من الجاحظ والزمخشري والسكاكي والجرجاني وصولاً الى الخولي وسيد قطب وبنو الشاطئ وعشرات بل مئات غير هؤلاء وهؤلاء.. وهو لم يكف يترك واحدة من هذه القيم الفنية دون ان يقف عندها متأملاً، مدققاً، مستدعياً الشاهد الذي يؤكدها. ومتابعة للموضوع يمكن ان يضع المرء يديه على المسائل التالية التي عالجهما النورسي مستعينا بحساسيته المرفهة التي كانت تعينه على وضع يده على مظان الجمال في كتاب الله:

- 1- القيم او المعطيات البلاغية.
- 2- ظاهرة التكرار.
- 3- عناصر الخطاب القرآني وطبقات المخاطبين.

(1) القيم او المعطيات البلاغية

ينطلق النورسي في تعامله مع "البلاغة" القرآنية، وإعجازها، من الخصائص التي أكدها القدماء والمحدثون: جزالة النظم وحسن متانته، وبداعة الأسلوب وغرابته وجودته، وبراعة البيان وتفوقه وصفوته، وقوة المعاني وصدقها، وفصاحة الألفاظ وسلاستها.⁵ مؤكداً ان "البيئة" التي تنزل فيها القرآن كانت في أشد حالات فصاحتها الفطرية وبلاغتها المطبوعة تألقاً وتمكناً. لقد عوض العرب بغياب التدوين ذاكرة حادة، وسلامة في الاداء الشفاهي جعلتها يتعاملون مع "الكلمة" في سويتها التي لا يشوبها دخل. ولقد عبر شعرهم، ومعلقاتهم السبع التي وضعت على جدار الكعبة، عن المستوى "البلاغي" العالي الذي بلغوه. فلما تحداهم القرآن "لن يأتيوا بمثله"، او بعشر سور من مثله، او بسورة واحدة، وعجزوا عن الاستجابة، كان هذا يجد ذاته تأكيداً لمعجزة القرآن⁶. كان هناك - كما يقول النورسي - دافعان في غاية القوة لمعارضة القرآن والاتيان بمثله. اولهما حرص الاعداء على معارضة كهذه، وثانيهما شغف الاصدقاء بتقليده. والنتيجة: لا شيء. وأصبحت محاولة كمحاولة مسيلمة الكذاب، رغم انه من اصحاب البلاغة، مثلاً يتندر به المتندرون وصورة من صور الهذيان الذي لا يستحق الالتفات.

بعدها يبدأ النورسي بتحليل عناصر الاعجاز البلاغي الخمسة فيبدأ بالنظم هذا الذي وقف عنده طويلاً في كتابه المعروف "اشارات الاعجاز في مظان الايجاز". ويضرب لذلك مثلاً: عقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات والتي يكمل كل منها نظام الآخر "كذلك النظم في هيئات كل جملة

2- تحقيق احسان قاسم الصالحى، استانبول، دار سوزلر للنشر-1994م.

3- تحقيق احسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، استانبول، دار سوزلر للنشر -1994م.

4- ترجمة احسان قاسم الصالحى، استانبول، دار سوزلر للنشر -1992م.

5- الكلمات ص 424.

6- انظر بالتفصيل: الكلمات ص 434-435، 426-518، 519.

من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته والانتظام الذي في مناسبة الجمال كل تجاه الآخر”⁷. إن النورسي يوظف هنا بعض معطيات ما يسميه المحدثون بنظرية النظم التي بلغت على يد عبدالقاهر الجرجاني أقصى حالات اكتمالها في كتابيه المعروفين “أسرار البلاغة” و “دلائل الاعجاز”. .. متابعة الارتباط او العالقات الداخلية - إذا صح التعبير - في نسيج النص القرآني بين الكلمات والجمل والتعابير والانساق، فيما عده البعض جهدا بنويا بشكل من الاشكال. وفي تفسيره لسورة البقرة في “اشارات الاعجاز” نفذ النورسي محاولة تطبيقية لنظرية النظم هذه في بعض جوانبها، ولكنه في “الكلمات”⁸ يكتفي بشواهد محددة فحسب حيث لا يتسع المجال للإستفاضة. ومن هذه الشواهد تفسيره لقوله تعالى: {ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك} ⁹. حيث يقول: “هذه الجملة مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن باظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فان جميع هيئات الجملة التي تفيد التقليل تنظر الى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول: لفظ “لئن” هو للتشكيك، والشك يوحي القلة. ولفظ “مس” هو اصابة قليلة يفيد القلة أيضا. ولفظ “نفحة” مادته رائحة قليلة، يفيد القلة، كما ان صيغته تدل على واحدة، اي واحدة صغيرة، كما في التعبير الصربي - مصدر المرة- فيفيد القلة. وتووين التنكير في “نفحة” هي لتقليلها، بمعنى ألها شئ صغير الى حد لا يعلم فينكر. ولفظ “من” هو للتبويض، بمعنى جزء، فيفيد القلة. ولفظ “عذاب” هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة الى النكال والعقاب، فيشير الى القلة. ولفظ “ربك” بدلا من: القهار، الجبار، المنتقم، فيفيد القلة ايضا وذلك بحساسه الشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الجملة انه: اذا كان العذاب شديدا ومؤثرا مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الألهي؟ فتأمل في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيعين كل الآخر، فكل بمد المقصد لجهته الخاصة”¹⁰.

ولا ينسى النورسي ان يشير الى الأسباب التي قد تخل في الحالات الاعتيادية بقدرة الخطاب على الاحتفاظ بسلامة “نظمه” من الخلل والاضطراب. اما في كتاب الله فان الاعجاز القرآني يعرف كيف يتمثلها ويطوبها.

فهناك ما يقارب تسعة أسباب “إذ ان القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقطعا، مع انه يظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة. وأيضا انه نزل في ثلاث وعشرين سنة لاسباب نزول مختلفة متباينة، مع انه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد. وأيضا انه جاء جوابا لاسئلة مكررة متفاوتة، مع انه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد. وأيضا انه جاء بيانا لاحكام حوادث متعددة متغايرة، مع انه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. وأيضا انه نزل متضمنا لتنزيلات كلامية الهية في اساليب تناسب افهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع انه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل كان الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسيل، وأيضا انه جاء مكلما متوجها الى اصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع انه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الافهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف انه المخاطب وحده بالاصالة. وأيضا انه نزل هاديا وموصلا الى غايات ارشادية متدرجة متفاوتة، مع انه يبين من الاستقامة

7- نفسه ص 426.

8- وهو المجلد الذي سيعتمد في كتابة هذا البحث.

9- سورة الانبياء 46.

10- الكلمات ص 426-427.

الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كان المقصد واحد. فهذه الاسباب مع انها اسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى الا انه استخدمت في اظهار اعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه..”¹¹. المعنى هو العنصر الآخر في الاعجاز البلاغي للقرآن..

تصور نفسك - يقول النورسي- “قبل مجيء نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، فبينما تجد كل شئ قد أسدل عليه ستار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة، اذا بك تشاهد بصدى قوله تعالى: {سبح لله ما في السموات والارض}¹² او {سبح له السموات السبع والارض ومن فيهن}¹³ قد دبت الحياة في تلك الموجودات الهامدة او الميتة بصدى “سبح” و “تسبح” في أذهان السامعين فتنهض مسبحة ذاكرة لله. وان وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة، والارض التي تدب فيها مخلوقات عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصدى “تسبح” وبنوره الى فم ذاك لله، كل نجم يشع نور الحقيقة ويث حكمة حكيمة بالغة. ويتحول وجه الارض بذلك الصدى السماوي ونوره الى رأس عظيم، والبر والبحر لسانين يلهجان بالتسبيح والتفديس وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبحة حتى لكأن الارض كلها تنبض بالحياة”¹⁴.

ان معاني القرآن كلها، بفضاءاتها الفسيحة، يقدمها الخطاب القرآني للناس في كل زمان ومكان بأسلوبياته المتميزة التي هي وحدها كفاء لمضامين هذا الخطاب.

وهذا ينقلنا الى العنصر الثالث في الاعجاز البلاغي لكتاب الله: الاسلوب.. إنه غريب وبديع، كما هو عجيب ومقنع “لم يقلد احدا قط ولا يستطيع احد ان يقلده. ولقد حافظ وما يزال يحافظ على طراوته وشبابيته وغرابته مثلما نزل اول مرة”¹⁵.

وكعادته يضرب النورسي على ذلك الأمثال: “إن سورة النبأ: “عم يتساءلون..” اذا أنعم النظر فيها فانه تصف وتثبت احوال الارادة والحشر والجنة وجهنم بأسلوب بديع يطمئن القلب ويقنعه، حيث تبين ان ما في هذه الدنيا من أفعال آلهية وآثار ربانية متوجهة الى كل من تلك الاحوال الأخروية. ولما كان ايضاح اسلوب السورة كلها يطول علينا، فسنشير الى نقطة او نقطتين منه:

“تقول السورة في مستهلها إثباتا ليوم القيامة: لقد جعلنا الأرض لكم مهذا قد بسط بسطا جميلا زاهيا، والجبال اعمدة واوتادا مليئة بالخزائن لمساكنكم وحياتكم، وخلقناكم ازواجا تتحابون فيما بينكم ويأنس بعضكم ببعض. وجعلنا الليل ساترا لكم لتخلدوا الى الراحة، والنهار ميدانا لمعيشتكم، والشمس مصباحا مضيئا ومدفئا لكم. وانزلنا من السحب لكم ماء باعثا على الحياة يجري مجرى العيون. وننشئ بسهولة من ماء بسيط اشياء شتى من مزهر ومثمر يحمل ارزاقكم. فاذا يوم الفصل - وهو يوم القيامة- ينتظركم. وان اتيانه ليس بعسير علينا.

“وبعد ذلك يشير اشارة خفية الى اثبات ما يحدث في يوم القيامة من سير الجبال وتناثرها، وتشقق السماوات وهبؤ جهنم، ومنح الجنة اهلها الرياض الجميلة. وكأنه يقول: ان الذي يفعل هذه الافعال في الجبال والارض بمراى منكم سيفعل مثلها في الآخرة. اي ان ما في بداية السورة من جبال تشير الى

11- نفسه ص 481-482

12- سورة الحديد 1.

13- سورة الاسراء 44.

14- الكلمات ص 429-430.

15- نفسه ص 431.

احوال الجبال يوم القيامة وان الحدائق التي في صدر السورة تشير الى رياض الجنة في الآخرة. فقس سائر النقاط على هذا لتشهد علو الأسلوب ومدى لطافته”¹⁶.

وفي مكان آخر يقف النورسي طويلاً عند احدى الخصائص الأسلوبية للقرآن، تلك هي “جامعيته” المثيرة للدهشة “حتى ان سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه وان آية واحدة تضم خزينة تلك السورة. وان اكثر الآيات - كل منها- كسورة صغيرة، واكثر السور - كل منها - كقرآن صغير. فمن هذا الایجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للأرشاد وتسهيل واسع جميل. لان كل انسان على الرغم من حاجته الى تلاوة القرآن كل وقت فانه قد لا يتاح له تلاوته.. فلنكي لا يحرم احد من القرآن فان كل سورة في حكم قرآن صغير. بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى ان اهل الكشف متفقون ان القرآن في الفاتحة والفاحة في البسمة. اما البرهان على هذا فهو اجماع اهل التحقيق العلماء”¹⁷.

أما العنصر الرابع فهو “اللفظ”: “نعم، ان القرآن كما هو بليغ خارق من حيث اسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه، والدليل القاطع على فصاحته هو عدم ايرائه السأم والملل، كما ان شهادة علماء البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته”.

ويعضى النورسي الى القول بأنه “لو كرر اللفظ المرات فانه لا يورث سأمًا ولا مللاً. بل يزيد لذة وحلاوة. ثم انه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منه اذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأدنى كلام بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب”¹⁸.

ويبحث النورسي عن الاسباب وراء تألق اللفظ القرآني ويقول: “ان القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوة وغذاء للعقول، وماء وضيء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يمل.. انه حق وحقيقة وصدق وهدى”¹⁹. ويضرب على ذلك مثلاً آية واحد من سورة آل عمران: {ثم انزل عليكم من بعد الغم امانة ناعساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهتمهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شيء؟ قل ان الامر كله لله، يخفون في انفسهم ما لا يبodon لك يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا. قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور}.²⁰

“لقد جمعت هذه الآية جميع حروف الهجاء واحناس الحروف الثقيلة، ومع ذلك لم يفقدها هذا الجمع سلاستها بل زادها بهاء الى جمالها، ومزج نغمة من الفصاحة نعت من اوتار متناسبة متنوعة”.

“فانعم النظر في هذه اللمعة ذات الاعجاز وهي: ان الألف والياء لانهما اخف حروف الهجاء، وتنقلب احدهما بالآخرى كأنهما اختان تكرر كل منهما احدى وعشرين مرة، وان الميم والنون- والتنوين ايضا نون- لانهما اختان، ويمكن ان تحل احدهما محل الاخرى، فقد ذكر كل منهما ثلاثاً وثلاثين مرة. وان الصاد والسين والشين، متأخية حسب المخرج والصفة والصوت فذكر كل واحد منها ثلاث مرات. وان العين والغين متأخيتان فذكر العين ست مرات لخفتها بينما الغين لثقلها ذكرت ثلاث مرات اي نصفه. وان الطاء والظاء والذال والزاي متأخية حسب المخرج والصفة والصوت،

16- نفسه ص 432-433.

17- نفسه ص 459-460.

18- نفسه ص 436.

19- نفسه ص 437.

20- آل عمران 154.

فذكر كل واحد منها مرتين. وان اللام والألف متحدتان في صورة “لا” وان حصة الألف نصف في صورة “لا” فذكرت اللام اثنتين واربعين مرة و ذكرت الالف - نصفه - احدى وعشرين مرة... وهكذا فان هذه الحروف بهذا الوضع المنتظم الخارق ، مع تلك المناسبات الخفية، والانتظام الجميل، والنظام الدقيق، والانسجام اللطيف، تثبت بيقين حازم كحاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي اربعا: انه ليس من شأن البشر ولا يمكن ان يفعله. اما المصادفة فمحال ان تلعب به..”²¹.

وما دام النورسي يتعامل ها هنا مع “الألفاظ” فانه يجد نفسه ملزما بالرجوع كرة اخرى الى “النظم” القرآني الفريد: “نعم، ان الالفاظ القرآنية قد وضعت وضعا بحيث ان لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكون احيانا وجوها كثيرة جدا، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من ابواب مختلفة. فمثلا: {والجبال اوتادا}²². فحظ عامي من هذا الكلام انه: يرى الجبال كالإوتاد المغرزة في الأرض كما هو ظاهر امام عينه، فيتأمل ما فيها من نعم وفوائد ويشكر خالقها. وحصه شاعر من هذا الكلام انه: يتخيل ان الأرض سهل منبس، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزينت الخيمة بمصاييح، وان الجبال تتراعى وهي تملأ دائرة الأفق، تمس قممها اذيال السماء، وكأنها اوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتعمره الحيرة والاعجاب ويقدم الصانع الجليل.

“اما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام انه: يتصور سطح الارض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخم كثيرة بأنواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى ان طبقة التراب عبارة عن غطاء القي على تلك الاوتاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لانواع شتى من المخلوقات. وكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة واعجاب يجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الارض.

“اما الجغرافي الاديب فحصته من هذا الكلام ان: كرة الارض عبارة عن سفينة تخر عباب بحر المحيط الهوائي او الأثيري. وان الجبال اوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. هكذا يفكر الجغرافي ويقول امام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الارضية الضخمة سفينة منتظمة واركبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: “سبحانك ما أعظم شأنك”.

“اما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصته من هذا الكلام انه: يفهم الارض عبارة عن مسكن، وان عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وان عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب التي هي شرائط الحياة. وان عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لان الجبل مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاة- اذ ترسب الغازات المضرة- وحامية التراب - اذ تحمي من استيلاء البحر والتوحد - وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الانسان. هكذا يفهم فيحمد ويقدم ذلكم الصانع ذا الجلال والاکرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة اوتادا ومخازن معايشنا على الارض التي هي مسكن حياتنا.

“وحصة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام: انه يدرك ان الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الارض تجدد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سببا لهدوء الارض واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي وكأن الارض تتنفس بمنافذ الجبال فيخفف غضبها وتسكن حدها. هكذا يفهم ويطمئن ويلج في الايمان قائلا: الحكمة لله”²³.

اما العنصر الخامس وهو البيان فيقف عندها طويلا باعتباره جماع العناصر كافة.

21- الكلمات ص 437-438.

22- سورة النبا 7.

23- الكلمات ص 452-453.

إنه أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب واقسام الكلام: كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والاثبات والارشاد، والافهام والافحام²⁴.

وهو يضرب لكل غرض من هذه الاغراض مثلا او اثنين لتأكيد تفرد البيان القرآني: "فمن بين آلاف امثلة مقام "الترغيب والتشويق" سورة "الانسان" إذ بيان القرآن في هذه السورة سلس ينساب كلسلسيل، ولذيذ كثمار الجنة، وجميل كحلل الحور العين. ومن بين الامثلة التي لا تحدد لمقام "الترهيب والتهديد" مقدمة سورة "الغاشية" إذ بيان القرآن في هذه السورة يؤثر تأثير غليان الرصاص في صماخ الضالين، ولهب النار في عقولهم، وكالزقوم في حلقوهم، وكلفح جهنم في وجوههم، وكالضريع الشائك في بطونهم. نعم، إن كانت مأمورة العذاب جهنم {تكاد تميز من الغيظ}²⁵ فكيف يكون تهديد وترهيب أمرها بالعذاب؟

"ومن بين آلاف امثلة مقام "المدح" السور الخمس المستهلة بـ "الحمد لله" إذ بيان القرآن في هذه السورة ساطع كالشمس، مزين كالنجوم، مهيب كالسماوات والارض، محبوب مانوس كالملائكة، لطيف رؤوف كالرحمة على الصغار في الدنيا، وجميل بهيمة كالجنة اللطيفة في الآخرة. "ومن بين آلاف امثلة مقام "الذم والزجر" الآية الكريمة: {أوجب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه}²⁶.

"تنتهي هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مرات وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث ان خطاب الآية موجه الى المغتابين فيكون المعنى كالاتي: ان الهزمة الموجودة في البداية، للاستفهام الانكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء الى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكما. ففي الكلمة الاولى تخاطب الآية الكريمة بالهزمة: اليس لكم عقل - وهو محل السؤال والجواب - ليعي هذا الامر القبيح؟ وفي الكلمة الثانية: "أوجب" تخاطب الآية بالهزمة. هل فسد قلبكم - وهو محل الحب والبغض - حتى اصبح يجب اكره الاشياء واشدها تنفيرا. وفي الكلمة الثالثة: "أحدكم" تخاطب بالهزمة: ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية - التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة - وما بال مدنيتكم وحضارتكم حتى اصبحت ترضى بما يسمى حياتكم ويعكر صفوكم. وفي الكلمة الرابعة: "ان يأكل لحم" تخاطب بالهزمة: ماذا اصاب انسانيتم؟ حتى اصبحتم تفترون صديقكم الحميم. وفي الكلمة الخامسة: "أخيه" تخاطب بالهزمة: اليس بكم رافة ببني جنسكم، اليس لكم صلة رحم تربطكم معهم، حتى اصبحتم تفتكون بمن هو اخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم فمشا قاسيا، لئملك عقلا من يعض عضوا من جسمه؟ أو ليس هو بمجنون؟ وفي الكلمة السادسة: "ميتا" تخاطب بالهزمة: اين وجدانكم؟ افسدت فطرتكم حتى اصبحتم تجتروحون ابغض الاشياء وافسدها - وهو اكل لحم اخيكم - في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير²⁷.

ثم يخلص النورسي الى القول بأن هذه الآية يفهم منها "وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها، ان الغيبة مذمومة عقلا وقلبا وانسانية ووجدانا وفطرة وملة. فتدبر هذه الآية الكريمة، وانظر كيف اتها تزر عن جريمة الغيبة باعجاز بالغ وبإيجاز شديد²⁸.

24- نفسه ص 439.

25- سورة الملك.

26- سورة الحجرات 12.

27- الكلمات ص 439-440.

28- نفسه ص 440-441.

(2) التكرار

ليس القرآن الكريم عملاً "مجتبياً" يسعى للتعامل مع مشكلة ما أو قضية محددة، فيحاول استقصاء مفرداتها ودراساتها وتحليلها والوصول الى النتائج باكبر قدر من التركيز والاقتصاد في اللغة، كما هو شأن الدراسات المعروفة في دائرة ما يصطلح عليه بالعلوم الانسانية، ولكنه خطاب عقدي وتشريعي ودعوي ينطوي على التأسيسات العقدية، والمعطيات التشريعية، واساليب النشاط الدعوي. وهو من اجل تأكيد مطالبه واضاعتها يتعامل مع المنظور الكوني او الطبيعي حيناً، ومع الخبرة التاريخية حيناً آخر، ومع المؤثرات العقلية او الحسية او الوجدانية حيناً ثالثاً. ويتجاوز هذا كله في حالات اخرى الى ما وراء الزمن والمكان والمنظور باتجاه يوم الحساب، بمتغيراته واهواله، بنعيمه وعذابه، وبجنته وناره... ومن ثم يغدو التكرار ليس "زيادات" في التعبير، وتبديراً في اللغة لا مبرر لها، وحاشا لكتاب الله، وانما ضرورة منهجية واسلوبية في الوقت نفسه.. ويعاد عرض "اللقطة" او "الحالة" او "الخبرة" او "التجربة" مرة ومرتين وثلاثاً لتحقيق غرض مقصود هو تأكيد القيمة المطلوبة، بكسر جدران الغفلة والنسيان، وحواجز الالفه والاعتیاد واكداس الرين والصدأ.

إنها - اذا جاز التشبيه- اشبه بعملية غسل عقلي وروحي ووجداني وحسي، حيث يسكب الماء المطهر مرتين وثلاثاً من اجل اعادة الخبرة البشرية الى نبضها وألقها ودهشتها وانفعالها قبالة العالم والوجود والطبيعة والكون والتاريخ والابدية.

هذا الى ان التكرار القرآني، وفق المنطوق الفني الصرف، ليس في حقيقته تكراراً نمطياً يعيد المفردات والوقائع والمرئيات نفسها المرة تلو المرة، ولكنه تحويل لزاوية الرؤية من مكان الى مكان، وتقديم معطيات جديدة - او في الأقل - إتاحة الفرصة لمشاهدة جوانب مضافة من "الحالة" التي تتعامل معها كلمات الله.

إنها - إذا جازت التسمية - نوع من السيناريو ذي اللقطات المتنوعة التي يمكن ترتيبها وفق منظور زمني، او موضوعي، او مكاني، ان تعطي القارئ عرضاً متكاملًا مترعاً بالتفاصيل والمتغيرات. فاذا انتقلنا الى الدائرة الثالثة، وهي الدائرة الادبية او البلاغية الصرفة، وجدنا التكرار صيغة جمالية او اسلوبيا بلاغيا يتفق النقاد على ضرورته في الخطاب الادبي لتحقيق جملة مقاصد تستهدف خدمة هذا الخطاب.

ولقد كتب في ظاهرة التكرار القرآني هذه، الكثير، وكان النورسي احد الذين ادلوا بدلوهم في الموضوع على طريقته المتميزة.

إنه يلحظ - ابتداءً - كيف ان الخطاب القرآني يتوجه الى طبقات شتى من المخاطبين، وبما انه كتاب دعوة وعقيدة، فان التكرار يغدو ضرورياً لتحقيق مقاصده وتأكيدها، ليس هذا فحسب، بل إنه يصير جزءاً من النسيج البلاغي للقرآن، لكونه الاسلوب الملائم للخطاب.

إن القرآن الكريم، يقول النورسي: "يظهر نوعاً من إعجازه البديع في تكراره البليغ لجملة واحدة، او لقصة واحدة، وذلك عند ارشاده طبقات متباينة من المخاطبين الى معان عدة وعبر كثيرة في تلك الآية او القصة، فاقترض التكرار حيث انه كتاب دعاء ودعوة، كما انه كتاب ذكر وتوحيد. وكل من هذا يقتضي التكرار. فكل ما كرر في القرآن الكريم - إذا - من آية او قصة انما يشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة".²⁹

ثم ان تكرار الحاجة يستلزم التكرار “هذه قاعدة ثابتة - كما يؤكد النورسي - لذا فقد احباب القرآن الكريم عن اسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة فارشد باجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين. فهو يكرر جملا تملك الوف النتائج، ويكرر إرشادات هي نتيجة لادلة لا حد لها، وذلك عند ترسيخه في الاذهان وتقديره في القلوب ما سيحده من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الاجزاء، وما سيعقبه من بناء الاخرة الخالدة بدلا من هذا العالم الفاني”³⁰.

وقد تقتضي بعض المعاني والقيم والحقائق تكرارا لكشفها وتأكيدا من مثل حاكمية الله سبحانه وتخرجه الظلم، فهو “يكرر الجمل والايات - مثلا- عند إثباته ان جميع الجزئيات والكيليات ابتداء من الذرات الى النجوم انما هي في قبضة واحد احد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه” وهو يكررها “عند بيان الغضب الالهي والسخط الرباني على الانسان المرتكب للمظالم عند حرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والارض والسماء والعناصر وتوجج غضبها على مقترفيها”³¹.

هنالك - أيضا- حقائق وظواهر لا تقل خطورة تقتضي الكشف بالتأكيد والتكرار، وتظل تتطلب المزيد. ومن هذه الحقائق الانقلاب الكوني العظيم الذي تطوي به صفحة الحياة الدنيا: “فلو قام القرآن الكريم بتوجيه الانظار الى الانقلابات المدهشة في ذلك اليوم، وحمل الآخرين على تصديق تلك المسألة العظيمة .. الآف المرات فكرر تلك المسائل ملايين المرات، لا يعد ذلك منه إسرافا في البلاغة قط، كما انه لا يولد سأمًا ولا مللا البتة، بل لا تنقطع الحاجة الى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم حيث ليس هناك اهم ولا اعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخره”³².

إنه سعي موصول لاقناع المخاطبين بهذه الحقائق الكبرى وذلك باقامة الحجج الدامغة، الامر الذي يعمق في الاذهان والقلوب تلك التحولات العظيمة والتبدلات الضخمة في الكون، ويجعلها امامهم سهلة واضحة كتبدل المنزل وتغير شكله. فلا بد ان لفت الانظار الى هذه المسائل - صراحة وضمنا واسارة - بالوف المرات ضروري جدا كضرورة الانسان الى نعمة الخبز والهواء والضيء التي تتكرر حاجته اليها دائما”³³.

لذا، مرة اخرى، كان “تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان امثال هذه الامور العظيمة الهائلة، لا يعد نقصا في البلاغة قط، بل هو اعجاز في غاية الروعة والابداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة، وجزالة، بل فصاحة مطابقة تطابقا تاما لمقتضى الحال”³⁴.

وهو يضرب على ذلك جملة امثلة كشواهد فحسب مما يحفل به النص القرآني: “إن جملة “بسم الله الرحمن الرحيم” هي آية واحدة تتكرر مائة واربع عشر مرة في القرآن الكريم ذلك لانها حقيقة كبرى تملأ الكون نورا وضياء ونشد الفرش بالعرش برباط وثيق.. فما من احد الا هو بحاجة مسيسة الى هذه الحقيقة في كل حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمي ملايين المرات، فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي. إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي ايضا كالهواء والضيء الذي يضطر اليه ويشتاق كل دقيقة.

“وإن الآية الكرمة {وان ربك هو العزيز الرحيم} تتكرر ثمان مرات في سورة “الشعراء” فتكرار

30- نفسه ص 528-529.

31- نفسه ص 529.

32- نفسه ص 533-534.

33- نفسه ص 534.

34- نفسه ص 529-530.

هذه الآية العظيمة التي تنطوي على الوفاء للحقائق في سورة تذكّر نجاة الانبياء عليهم السلام وعذاب اقوامهم، انما هو لبيان: ان مظالم اقوامهم تمس الغاية من الخلق، وتتعرض الى عظمة الربوبية المطلقة، فتفضي العزة الربانية عذاب تلك الاقوام الظالمة مثلما تقتضي الرحمة الالهية بنجاة الانبياء عليهم السلام. فلو تكررت هذه الآية الوفاء المرات لما انتقضت الحاجة والشوق اليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات اعجاز وابعاز.

“وكذلك الآية الكريمة {فبأي آلاء ربكما تكذبان} المكررة في سورة “الرحمن” والاية الكريمة {ويل يوذ للمكذبين} المكررة في سورة المرسلات، تصرخ كل منهما في وجه العصور قاطبة وتعلن إعلانا صريحا في اقطار السماوات والارض ان كفر الجن والانس وجحودهم بالنعم الالهية، ومظالمهم الشنيعة، يثير غضب الكائنات ويجعل الارض والسماوات في حنق وغيط عليهم.. ويخل بحكمه خلق العالم والقصد منه، ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها، ويستخف بعظمة الالهية وينكرها، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بالوفاء من امثال هذه الحقائق، ولهما من الاهمية ما لالوف المسائل وقوتها، لو تكررتا الوفاء المرات في خطاب عام موجه الى الجن والانس لكانت الضرورة قائمة بعدد، والحاجة اليها ما زالت موجودة باقية، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة ومعجزة جميلة”³⁵.

ويخلص النورسي الى القول “بأننا نرى امثال هذه الاسس فيما تشتمل عليه انواع التكرار في القرآن الكريم، حتى نرى انه يعبر اكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة او ضمنا- في صحيفة واحدة من المصحف، وذلك حسب اقتضاء المقام ولزوم الحاجة الى الافهام، وبلاغة البيان، فيهيحج بالتكرار الشوق الى تكرار التلاوة ويمد به البلاغة قوة وسمو، من دون ان يورث سأمًا او مللا”³⁶.

وليس المعطى القرآني طبقة واحدة وانما هو طبقات يعلو بعضها بعضا، ويخفي بعضها بعضا. والمعنى الواحد فيه ينطوي على منظومة من القيم والمعاني.. ان دلالاته المركزة لا تمنح معانيها- احيانا- للوهلة الاولى، ولكن بتكرار القول فيها، هذا التكرار الذي لا يجي تأكيداً فحسب، ولكن إضاءة وكشفًا في الوقت نفسه: “ان كل وقت وكل يوم انما هو عالم يمضي وباب يفتح لعالم جديد، لذا فان تكرار “لا اله الا الله” بشوق الحاجة اليها الوفاء المرات لاجل إضاءة تلك العوالم السيارة كلها وانارتها بنور الايمان، يجعل تلك الجملة التوحيدية كأنها سراج منير في سماء تلك العوالم والايام. فكما ان الامر هكذا في “لا اله الا الله” كذلك تلاوة القرآن الكريم فهي تبعد الظلام المخيم على تلك الكثرة الكاثرة من المشاهد السارية، وعلي تلك العوالم السيارة المتجددة، وتزيل التشوه والقبح عن صورها المنعكسة في مرآة الحياة، وتجعل تلك الاوضاع المقبلة شهوداً له يوم القيامة لا شهوداً عليه، وترقيه الى مرتبة معرفة عظم جزاء الجنائيات، وتجعله يدرك قيمة النذر المخيفة لسلطان الازل والابد التي تشتت عناد الظالمين الطغاة، وتشوقه الى الخلاص من طغيان النفس الامارة بالسوء.. فلأجل هذه الحكم كلها يكرر القرآن الكريم ما يكرر في غاية الحكمة، مظهرا ان النذر القرآنية الكثيرة الى هذا القدر، وبهذه القوة والشدة والتكرار حقيقة عظيمة، ينهزم الشيطان من توهمها باطلا ويهرب من تحليلها عبثا. نعم ان عذاب جهنم لو عين العدالة لاولئك الكفار الذين لا يعيرون للنذر سمعاً”³⁷.

ولا ينسى النورسي ان يقف عند قصص الانبياء (عليهم السلام) وما تتضمنه من التكرار فيرى ان

35- نفسه ص 530.

36- نفسه ص 530.

37- نفسه ص 535.

الحكمة - مثلا في "تكرار قصة موسى التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الانبياء انما هي لاثبات الرسالة الاحمدية وذلك باظهار نبوة الانبياء جميعهم حجة على حقيقة الرسالة الاحمدية وصدقها، حيث لا يمكن ان ينكرها الا من ينكر نبوتهم جميعا. فذكرها اذن دليل على الرسالة. ثم ان كثيرا من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقون الى تلاوة القرآن الكريم كله، بل يكتفون بما تيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر، ومن ثم تكرار القصص فيها. يمثل تكرار اركان الايمان الضرورية. اي ان تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة وليس فيه اسراف قط. زد على ذلك فان فيه تعليما بان حادثة ظهور محمد ρ اعظم حادثة للبشرية، واجل مسالة من مسائل الكون".³⁸

خلاصة القول في المنظور النورسي للتكرار في كتاب الله سبحانه، انه - فضلا عن ضرورته في التعامل مع المضامين القرآنية- فانه يحمل في الوقت نفسه قيمة جمالية او بلاغية تجيء متممة لجماليات السياقات المختلفة. ويكفي تدليلا على دوره المزدوج هذا ان تكرار تلاوة النص القرآني، على ما في مقاطع النص نفسه من تكرار، لم يورث القارئ يوما، على مدار الاماكن والازمان، سأمًا او مللا، وحاشا لكتاب الله!

انما خيرة شخصية نعرفها جميعها، ومذاقا عذبا ارتويانا منه عبر رحلة الليل والنهار.. فما كانت تلاوتنا لكتاب الله، وتعاملنا مع تكراره المدهس، لتزيدنا الا عطشا وتوقا لتلاوته مرات ومرات اخرى. ويكفي - كما يقول النورسي - "اننا نرى كيف ان مئات الملايين من الناس منذ الف ومئات من السنين يتلون القرآن الكريم بلفهه وشوق، وبجاجة ماسة اليه دون ملل او سأم".³⁹ وهو يؤكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله: "ان القرآن الكريم قد اظهر عذوبة وحلاوة ذات اصالة وحقيقة بحيث ان التكرار الكثير - المسبب للسأمه حتى من اطيب الاشياء - لا يورث الملل عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته. وهذا امر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الامثال".⁴⁰

(3) عناصر الخطاب القرآني وطبقات المخاطبين

يتميز الخطاب القرآني بانه ذو مستويات شتى سواء بالنسبة لوضع المتلقى الذهني او النفسي او الوجداني، او ثقافته، او العصر الذي يضطرب فيه.

ويستطيع المرء - ايضا- ان يلحظ - بشكل عام - خطين متوازيين في هذا الخطاب: احدهما بيني مرحلي، والاخر شمولي مستقبلي. وتلك واحدة من اشد معطيات القرآن اثاره للدهشة والاعجاب، لانها في جوهرها، واحدة من اكثر حلقاته الاعجازية فريدة وتألقا!

إن اسباب النزول - مثلا- كانت تتعامل مع العديد من الايات والمقاطع والصور القرآنية في ضوء الوضع التاريخي الراهن الذي تنزلت فيه والبيئة التي غدت مطالبها ومتغيراتها.

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد، ذلك ان كلمات الله، وهي تتعامل مع التاريخ والجغرافيا، تملك في الوقت نفسه قدرة معجزة على التحرر من اتقاهما والمضي للتعامل مع العالم كله، والمستقبل البشري حتى حافات القصى المطل على يوم الحساب.

إنه علم الله الذي لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء، وهو يعرف كيف يتعامل مع الآني

38- نفسه ص 535-536

39- نفسه ص 535.

40- نفسه ص 520.

والابدي.. مع المحدود والمطلق.. عبر الكلمات والمفردات نفسها التي تشكل خطاباً مزدوجاً يتجاوز احاديته لكي يصير عاملاً مؤثراً في كل زمن او مكان، وعبر كل مرحلة تاريخية او بيئة جغرافية على الاطلاق.

وعلى سبيل المثال، فانه على المستوى المعرفي قدم القرآن الكريم معطيات وكشوفاً كان العقل العربي يومها قديرا على استيعابها، لكن هذه المعطيات كانت تنطوي في الوقت نفسه، على جملة كشوف وطبقات، تركت رهن تنامي الخبرة البشرية وتزايد النشاط المعرفي عبر تعامله مع الظواهر والنواميس والموجودات والاشياء.

ويكفي ان نرجع الى محاولة واحدة من بين عشرات المحاولات ومئاتها، تلك المحاولة التي نفذها العالم الفرنسي "موريس بوكاي" بخصوص المقارنة بين المعطيات المعرفية للتوراة والانجيل والقرآن، وبين المعرفة الحديثة، على مدى ما يزيد عن العشرين عاماً لكي يخلص الى القول بأنه اذا كانت التوراة والانجيل تعكس بأمانة الكثير من الحرفات التي كانت منتشرة زمن تدوين هذين النصين، فانه "لا مكان مطلقاً في نص القرآن لاي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن".⁴¹

ويشير بوكاي الى منهج العمل "في البداية لم يكن لي اي ايمان بالاسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص - ويعني الكتب الدينية الثلاثة - بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة"⁴².. والنتيجة؟ ان الحواجب العلمية التي يختص بها القرآن "اثارت دهشة العميقة. فلم اكن اعتقد قط بامكان اكتشاف عدد كبير الى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً"⁴³ والحق - كما يستنتج الرجل - "ان مفسري القرآن" بما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الاسلامية العظيم "قد اخطأوا حتما وطيلة قرون في تفسير بعض الايات التي لم يكن باستطاعتهم ان يفطنوا الى معناها الدقيق. ان ترجمة هذه الايات وتفسيرها بشكل صحيح لم يكن ممكناً الا بعد ذلك العصر بكثير، أي في عصر قريب منا. ذلك يتضمن ان المعارف اللغوية المتبحرة لا تكفي وحدها لفهم هذه الايات القرآنية، بل يجب بالاضافة اليها امتلاك معارف علمية شديدة التنوع. ان دراسة كهذه هي دراسة انسكلوبيديية تقع على عاتق تخصصات عدة. وسندرك كلما تقدمنا في عرض المسائل المثارة تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم معنى بعض آيات القرآن."⁴⁴

من اجل ذلك يقول القرآن الكريم مؤكداً هذه الثنائية المدهشة في الخطاب القرآني: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله}⁴⁵ ويقول متحدثاً عن المستقبل: {سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق، او لم يكف بربك انه على كل شئ شهيد}⁴⁶.

والنورسي وهو يتعامل مع جماليات القرآن ويتحدث عن خطابه، ويحلل عناصر هذا الخطاب ومستوياته، يقول اشياء كثيرة تؤكد هذا الاستنتاج وتضيئه في الوقت نفسه.

بالنسبة لعناصر الخطاب، او اطرافه، يؤكد النورسي على ان القرآن الكريم لا يمكن ان يقاس باي كلام آخر، اذ ان منابع علو طبقة الكلام، وقوته، وحسنه، وجماله، اربعة: الاول: المتكلم، الثاني:

41- القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، القاهرة، دار المعارف -1978م، ص 213.

42- نفسه ص 144.

43- نفسه ص 144.

44- نفسه ص 146.

45- سورة يونس 39.

46- سورة فصلت 53.

المخاطب، الثالث: المقصد، الرابع: المقام. وليس المقام وحده كما ضل فيه الادباء. فلا بد من ان تنظر في الكلام الى : من قال؟ ولمن قال؟ ولم قال؟ وفيه قال؟ ولا تقف عند الكلام وحده وتنظر اليه. ولما كان الكلام يستمد قوته وجماله من هذه المنابع الاربعة، فبانعام النظر في منابع القرآن تدرك

درجة بلاغته وحسنها وسموها وعلوها.⁴⁷

ان النورسي يتحرك ها هنا باتجاه مضاد للنبوية التي تتمركز عند النص، وتسعى الى فك الارتباط بينه وبين طرفيه الاخرين: المبدع والمتلقي. ويقدر ما قدمت النبوية من خدمة للجهد النقدي في مقارنة النص والحكم عليه من خلال بنيته الداخلية، بقدر ما ضيعت على نفسها فرصة التقويم الاكثر موضوعية ودقة من خلال متابعة الاطراف الاخرى للمعطي الادبي.

ومن يدري، فعل هذا، فضلا عن عوامل كثيرة اخرى، تتعلق بالدور التقني الصرف للنبوية، او بخلفياتها الاستمولوجية، ما جعل بعض روادها انفسهم "من مثل رولان بارت وتودوروف" ينفضون ايديهم منها ويتحولون الى مسارات جديدة.

مهما يكن من امر فان النورسي، وهو يتعامل مع النص القرآني، يردنا الى الحق، ويقف بعض الوقت عند الحد الاساسي للمعادلة الابداعية كلها: المنشئ، او المبدع، او المتكلم. ويرى ان الكلام "يستمد القوة من المتكلم، فاذا كان الكلام أمراً ونهياً يتضمن ارادة المتكلم وقدرته حسب درجته، وعند ذاك يكون الكلام مؤثراً نافذا يسري سريان الكهرباء من دون اعاقه ومقاومة، وتتضاعف قوة الكلام وعلوه حسب تلك النسبة.

ويضرب لنا - كعادته - جملة من الاستشهادات، فمثلا: **{يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي}**⁴⁸ و **{فقال لها وللارض اثتيا طوعاً او كرها قالتا اتينا طائعين}**⁴⁹ فانظر الى قوة وعلو هذه الاوامر الحقيقية النافذة التي تتضمن القوة والارادة. ثم انظر الى كلام انسان وامره الجمادات الشبيهة بمذيان المحموم: اسكني يا ارضي وانشقي يا سماء وقومي ايتها القيامة فهل يمكن مقايسة هذا الكلام مع الامرين النافذين السابقين؟ ثم اين الاوامر الناشئة من فضول الانسان والتابعة من رغبته والمتولدة من امانيه، واين الاوامر الصادرة ممن هو متصف بالأمرية الحقبة يأمر وهو مهيم على عمله؟ "نعم! اين امر امير عظيم مطاع نافذ الكلام يأمر جنوده بـ : تقدم. واين هذا الامر اذا صدر من جندي بسيط لا يبالي به؟ فهذان الامران وان كانا صورة واحدة الا ان بينهما معنى بونا شاسعا، كما بين القائد العام والجندي"⁵⁰.

ومثلا: **{انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له: كن فيكون}**⁵¹ و **{واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم}**⁵² انظر الى قوة وعلو الامرين في هاتين الآيتين. ثم انظر الى كلام البشر من قبيل الأمر. ألا تكون النسبة بينهما كضوء البراع امام نور الشمس الساطعة؟ نعم! اين تصوير عامل يمارس عمله، وبيان صانع وهو يصنع، وكلام محسن في آن إحسانه، كل يصور افاعليه، ويطبق فعل قوله، اي يقول: انظروا فقد فعلت كذا وكذا، افعل هذا لذلك، وهذا يكون كذا وذاك كذا.. وهكذا يبين فعله للعين والاذن معاً.

47- الكلمات ص 500

48- سورة هود 44.

49- سورة فصلت 11.

50- الكلمات ص 501.

51- سورة يس 82.

52- سورة البقرة 34.

“فمثلاً: {أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فانبثنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج}”⁵³. اين هذا التصوير الذي يتلأأ كالنجم في برج هذه السورة في سماء القرآن كأنه ثمار الجنة؟ وقد ذكر كثيرا من الدلائل ضمن هذه الفعّال مع انتظام البلاغة واثبت الحشر الذي هو نتيجتها بتعبير “كذلك الخروج” ليلزم به الذين ينكرون الحشر في مستهل السورة. فاين هذا واين كلام الناس على وجه الفضول عن افعال لا تمسهم الا قليلاً؟ أفلا تكون نسبته اليه الا كنسبة صورة الزهرة الى الزهرة الحقيقية التي تنبض بالحياة..”⁵⁴

وهكذا، وكما يؤكد النورسي في مكان آخر، اكتسب الخطاب القرآني “الصفة الكلية والسعة المطلقة والرفعة السامية والاحاطة الشاملة للمتكلم الازلي سبحانه”⁵⁵.

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد، فهناك اطراف اخرى في الظاهرة القرآنية، يقف في قمتها، بعد المتكلم الازلي الذي هو الله سبحانه، النبي الكريم ρ الذي انزل عليه هذا الكتاب، والممثل للنوع البشري والمخاطب باسم الانسانية قاطبة، بل باسم الكائنات جميعا. اما المخاطب فهو ذو فضاء “او مقام كما يسميه النورسي” واسع فسيح يمضي الى طبقات البشرية كافة والى سائر العصور. هذا الى ما ينطوي عليه الخطاب القرآني من بيان شاف لقوانين الله سبحانه المتعلقة بالدنيا والآخرة، بالارض والسماء، بالازل والابد، وهي تشمل امور المخلوقات كافة”⁵⁶. “ان الازمنة الغابرة والعصور المندثرة التي هي في نظر الغافلين الضالين واد من عدم سحيق موحش رهيب، ومقبرة مندرسة اليمّة كئيبة، يعرضها صحيفة حية تطفح عبرا ودروسا، وعالما عجيبا ينبض بالحياة ويتدفق بالحويوية من اقصاه الى اقصاه، ومملكة ربانية ترتبط معنا بوشائج واواصر، فيبينها- باعجازه البديع- واضحة جلييلة كأها مشهودة تعرض امامنا على شاشة، فتارة يأتي بتلك العصور ماثلة شاخصة امامنا، وتارة يأخذنا الى تلك العصور. ويبين الاعجاز نفسه “الكون” الذي يراه الغافلون فضاء موحشا بلا نهاية، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والالام، يبينه القرآن: كتابا بليغا كتبه الاحد الصمد، ومدنية منسقة عمرها الرحمن الرحيم، ومعرضا بديعا اقامه الرب الكريم لاشهاد مصنوعاته. فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لامداد الاخر، وكل جزء يغيث الاخر ويعينه، كأنه يحاوره محاوره ودية صميمة، فكل شئ مسخر وكل شيء انبط به وظيفه وواجب. وهكذا يلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنور الى الانس والجن والملائكة كافة. فلا ريب ان هذا القرآن العظيم- الذي له هذا الاعجاز في البيان قمين بان يجوز خواص راقية عالية وميزات مقدسة سامية.⁵⁷

وهذا ينقلنا الى مستويات الخطاب القرآني التي وقف النورسي عندها طويلاً: “فما دام القرآن الكريم خطابا ازليا يخاطب به الله سبحانه مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور، ويرشدهم جميعا، فلا بد انه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الافهام”⁵⁸ انه “يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور، وكأنه متوجه توجها خاصا الى تلك الطبقة بالذات. اذ لما كان القرآن يدعو

53- سورة ق 6-11.

54- الكلمات ص 501-502.

55- نفسه ص 526.

56- نفسه ص 526.

57- نفسه ص 527.

58- نفسه ص 456.

جميع بني آدم بطوائفهم كافة الى الايمان الذي هو اسمى العلوم وادقها، والى معرفة الله التي هي اوسع العلوم وانورها، والى الاحكام الاسلامية التي هي اهم المعارف واكثرها تنوعا، فمن الالزم اذن ان يكون الدرس الذي يليه على تلك الطوائف من الناس، درسا يوائم فهم كل منها. والحال ان الدرس واحد، وليس مختلفا، فلا بد اذن من وجود طبقات من الفهم في الدرس نفسه، فكل طائفة من الناس - حسب درجتها- تأخذ حظها من الدرس من مشهد من مشاهد القرآن⁵⁹.

وهو يضرب لذلك عددا من الامثلة نكتفي بالحالة اليها⁶⁰. ولا ينس ان يشير الى "الالفاظ" التي صاغت الخطاب القرآني ذا الطبقات والادوار: "لقد وضعت وضعا بحيث ان لكل كلام، بل لكل كلمة، بل لكل حرف، بل حتى لسكون احيانا، وجوها كثيرة جدا، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من ابواب مختلفة.. فللكل اية ظهر وبطن وحد ومطلع، ولكل شجون وغصون وفنون"⁶¹. ويضرب لذلك عددا من الامثلة نكتفي بالاحالة اليها⁶².

ولكن الخطاب القرآني ازايا يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور خطابا مباشرا فانه "حافظ على شبائته وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نصرا فتيا.. ان اثار البشر وقوانينه تشييب وتهرم مثله، وتتغير وتتبدل، الا ان احكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها اكثر كلما مرت العصور"⁶³.

صحيح ان الحديث ينصب هنا على "الموضوع" القرآني، ولكن هذا ما كان بمقدوره ان يتجاوز تحديات الزمان والمكان، ويتعامل مع متغيرات البيئات والجماعات والثقافات، ولا تساند "الاسلوب" معه، وتمكينه من اداء مهمته المدهشة هذه: "لقد اظهر القرآن الكريم من الطراوة والفتوة والنضارة والجدة بحيث يحتفظ بها وكأنه قد نزل الآن، رغم مرور اربعة عشر قرنا من الزمان عليه، ورغم تيسر الحصول عليه للجميع. فكل عصر قد تلقاه شابا نضرا وكانه يخاطبه. وكل طائفة علمية مع انهم يجدونه في متناول ايديهم وينهلون منه كل حين ويقتفون اثر اسلوب بيانه، يرونه محافظا دائما على الجدة نفسها في اسلوبه، والفتوة عينها في طرز بيانه"⁶⁴.

وما دنا بصدد مستويات او طبقات الخطاب القرآني، فلا بد من الاشارة الى تعلييل النورسي لاختلاف السور المكية عن المدنية من حيث البلاغة، فهو يرى "ان الصف الاول من المخاطبين والمعارضين في مكة كانوا مشركي قريش وهم اميون لا كتاب لهم، فاقترضت البلاغة اسلوبا عاليا قويا، واجمالا معجزا مقنعا، وتكرارا يستلزمه التثبيت في الافهام، لذا بحثت اغلب السور المكية اركان الايمان ومراتب التوحيد باسلوب في غاية القوة والعلو ويأجج في غاية الاعجاز، وكررت الايمان بالله والمبدأ والمعاد والاخرة كثيرا، بل قد عبرت عن تلك الاركان الايمانية في كل صحيفة او اية، او في جملة واحدة، او كلمة واحدة، بل ربما عبرت عنها في حرف واحد، في تقديم وتأخير، في تعريف وتنكير، في حذف وذكر هنا فاثبتت اركان الايمان في امثال تلك الحالات والهيئات البلاغية اثباتا جعل علماء البلاغة واثمتها يقفون حيارى مبهوتين امام هذا الاسلوب المعجز.

"اما الآيات المدنية وسورها فالصف الاول من مخاطبيها ومعارضيتها كانوا من اليهود والنصارى

59- نفسه ص 478.

60- انظر المرجع نفسه ص 478-457.

61- نفسه ص 451

62- انظر المرجع نفسه ص 452-457

63- نفسه ص 471

64- نفسه ص 520.

وهم اهل كتاب مؤمنون بالله، فاقتضت قواعد البلاغة واساليب الارشاد واسس التبليغ ان يكون الخطاب الموجه لاهل الكتاب مطابقا لواقع حالهم، فجاء بأسلوب سهل واضح سلس، مع بيان وتوضيح في الجزئيات - دون الاصول والاركان الایمانية - لان تلك الجزئيات هي منشأ الاحكام الفرعية والقوانين الكلية ومدار الاختلافات في الشرائع والاحكام. لذا فغالبا ما نجد الايات المدنية واضحة سلسلة بأسلوب بياني معجز خاص بالقرآن الكريم.. وهكذا ترى ان هناك نمطاً من جزالة معجزة ساطعة في الايات المدنية هو غير بلاغة الآيات المكية، حسب اختلاف المقام وتنوع مقاصد الارشاد والتبليغ”⁶⁵.

ولا ينسى النورسي ان يشير الى ان قدرة الخطاب القرآني على التوجه الى افهام العوام البسيطة، وهم معظم المخاطبين، تنطوي في القوت نفسه على “حصة وافرة لأعلى المستويات الفكرية ولأرقي الطبقات العقلية، فلا يهب لمخاطبيه شيئا من ارشاداته وحدها، ولا يخصهم بعبرة من حكاية تاريخية فقط، بل يخاطب مع ذلك طبقة في كل عصر- لكونها فردا من افراد دستور كلي - خطابا نديا طريا جديدا كأنه الان ينزل عليه”⁶⁶.

كما لا ينسى ان يشير الى ان اعجاز القرآن الجميل يظهر ايضا “في اسلوب ارشاده البليغ، حيث راعى احسن الرعاية أمية مبلّغه الكريم p باحتفاظه التام على سلاسته الفطرية، فهو اجل من أن يدنو منه تكلف او تصنع او رياء مهما كان نوعه- فجاء اسلوبه مستساغا لدى العوام الذين هم أكثرية المخاطبين ملاطفا بساطة اذهانهم بتنزلاته الكلامية القريبة من افهامهم، بأسطا امامهم صحائف ظاهرة ظهوراً بديهياً كالسماوات والارض، موجهاً الانظار الى معجزات القدرة الالهية وسطور حكمته البالغة المضمرتين تحت العاديات من الامور والاشياء”⁶⁷.

ويخلص الى القول بان “في كل حرف منه عشر حسنات، بل الف حسنة احيانا، بل السوف الحسنات في احيان اخرى، وعجز الجن والانس علن الاتيان بتمثله ولو اجتمعوا له، ومخاطبته بني آدم جميعهم، بل الكائنات برمتها مخاطبة بليغة حكيمة، وحرص الملايين من الناس في كل عصر على حفظه عن ظهر قلب بشوق ومتعة، وعدم السأم من تلاوته الكثيرة رغم تكراراته، واستقراره التام في اذهان الصغار اللطيفة البسيطة مع كثرة ما فيه من جمل ومواضع تلتبس عليهم، وتلذذ المرضى والمحتضرين - الذين يتألمون حتى من ادنى كلام- بسماعه وجريانه في اسماعهم عذبا طيبا، وغيرها من الخواص السامية والمزايا المقدسة التي يجوزها القرآن الكريم، فيمنح قراءه وتلاميذه انواعاً من سعادة الدارين”⁶⁸.

حقاً ان الخطاب القرآني هو واحد من اكثر وجوه هذا الكتاب فريدة واعجازا فنحن نرى قبالة اعيننا كيف يحقق هذا الخطاب كسبه للزنجي البسيط في اعماق افريقيا وللغربي المتفوق في ساحات اوربا وامريكا.

يكفي ان نتذكر عقولا “كروجه كارودي” و”مراد هوفمان” انتمت الى هذا الدين، وتذكر معهما حشود للزنج الافارقة الذين يتدفقون على الاسلام ويعلمون انتماءهم اليه، يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة.. لكي نعرف قدرة هذا الخطاب، رغم حاجز اللغة احيانا، على التأثير في الآخر ومنحه القناعة بأحقية هذا الدين وجدوى الانتماء اليه.

65- نفسه ص 530-532.

66- نفسه ص 526.

67- نفسه ص 528.

68- نفسه ص 527-528.

يكفي ايضاً ان نتذكر كيف انه في عالم الادب، هنالك قصص وروايات للصغار واخرى للكبار، ولن يكون بمقدور احدهما ان تحقق المتعة والانسجام والفائدة للفتنيتين معاً. لكن هذا الكتاب المعجز يخاطبهما معاً فيمنحهما الكثير.

قد يقال ان التوراة والانجيل، او اي كتاب ديني، يقرأه - ايضاً - الصغار والكبار اسوة بكتاب الله..

الا ان الفارق يظل كبيراً يصعب عبوره.. ان الكتب المذكورة اصبحت بعد تحريفها وحقنها بالخرافات والاضاليل، منظومة من الاكاذيب، وجسداً بغير روح.. وقراءتها ايام الاحاد او غيرها لا تعدو ان تكون مجرد تقليد ميت لا حياة فيه، ولا يمنح عقول قارئيه او ارواحهم شيئاً ذا غناء.

اما الخطاب القرآني المعجز فانه يدفع العقل الى اقصى حدود الاحتمال وهو يضع قبائلته معرفة ليست كالمعارف، ويسبح به في آفاق الحياة والوجود والعالم والطبيعة والكون والمصير..

اما في دائرة الروح والوجدان فانه يفعل الافاعيل التي تعجز الكلمات عن التعبير عنها.. وفوق هذا وذاك فانه يستجيب لطموحات الاميين والبسطاء والصغار فيقرأونه بشغف، كل بما يسره الله له من قدرة على التدقيق والفهم والتصور والادراك.

وتجئ الاسلوبيات القرآنية المدهشة فتمنح هذا كله القدرة على التحقق وتقديم للناس كافة، على اختلاف الاجيال والاذواق والمدارك والبيئات والاعمار، رحيقاً من عسل مصفى كان وسيظل البوابة الكبرى التي يجتازها الداخلون الى حمى هذا الدين.

خاتمة

ان النورسي وهو يتحدث عن البعد الجمالي في اسلوبيات القرآن الكريم ويحاول ان يجزئ المعطى الجمالي بالاحالة على مصطلحات البلاغيين كالنظم والمعنى والاسلوب واللفظ والبيان والتكرار.. الى آخره.. لم يقصد البتة ان يحصر هذه المعطيات في دوائر تلك الحلقات المحددة في الدراسات البلاغية، ولا ان يخصص للموضوع عدداً من المقاطع والمباحث والرسائل والكلمات، ثم يمضي لمعالجة الموضوعات الاخرى بعيداً عن اطرها او نبضها الجمالي.

ذلك ان الاحساس بالجمال، ورؤيته، والتفاعل معه، وتلقيه، وتحليل ابعاده وعناصره، سواء في كتاب الكون المنظور، او الكتاب المقروء، يهيمن على كلمات النورسي ورسائله من بدئها حتى منتهاها⁶⁹. ومن ثم فان ما يقوله النورسي ها هنا عن جماليات الاسلوب القرآني، قد ينتشر بالكلمة القرآنية نفسها، جنباً الى جنب مع الابداع الالهي في الكون والعالم، عبر الرسائل المائة والثلاثين جميعاً.

ولكنها ضرورات الدراسة - كما يقولون - تقتضي - احياناً - من الطرفين: المفكر ودارسيه، بتجسيم القيم والمعاني من اجل السيطرة عليها.

ويبقى كتاب الله، قبل هذا وبعده، ينطوي على ما هو اعلى واعلى واكثر اثاراً للدهشة والاحلال والتقدير: انه الجلال الالهي الذي تعجز الكلمات عن تقريب ابعاده للمتلقي، لانه كلام الله حل في علاه والذي يمكن للمرء ان يلمسه ويحسه وينفعل معه وهو يقرأ في كتاب الله منذ اول كلمة فيه حتى اخر حرف، لكنه لن يكون بمقدوره ان يصفه، او يحدده، او يكتب عنه بما يوازي تماماً حجمه او تأثيره

69- سبق وان انجز الباحث دراسة بعنوان "الكلمات: رؤية جمالية" تناولت الاسلوب والتقنيات، والموضوع الجمالي في الطبيعة والعالم والكون وقد نشرت في المجلد الخاص ببحوث الندوة العالمية الثانية حول فكر النورسي، استانبول، دار سوزلر - 1993م. وسوف تتم معالجة رؤية النورسي الجمالية لدنيا الاحياء، والانسان، وعالم الغيب، من اجل ان تكتمل الصورة ان شاء الله.

الحقيقي.

هذ الجلال القرآني الذي ينبض بالجمال.. بالتناظر والتناسب، والتوزيع المذهل للابعاد والمساحات.. هذا التدفق الموصول الذي لا يكف عن الخفقان لحظة واحدة ولا عن الايماض لحظة واحدة ولا عن الوعد بالعجيب المدهش لحظة واحدة..
أليس هو قبل هذا، ومعه وبعده، من عطاء الله الجميل الذي يحب الجمال والذي لا تنفذ كلماته، والذي اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون؟!.

النورسي... وخلود الإنسان!

أديب إبراهيم الدباغ^P

(1)

في دواخلنا - نحن البشر - شئٌ ما لا نعرف ما هو، ولا نعلم كنهه، أو نقدر على سبر غوره، إلاّ أنه يشيع فينا إحساساً حاداً بالوجود الذي يتلبسنا، وبالحياة التي تسكننا، وينزع بنا نزوعاً قوياً الى الخلود ومقاومة الموت، ويدفعنا الى تعشق الأبدية. ويتسرّعنا بالرغبة في الامتداد عبر الزمن الى ما لا نهاية.. ويجنح بخيالنا فوق محدوديات الزمان والمكان.

وهذا الذي يندّ عن فهمنا، وتتقاصر عن إدراك كنهه عقولنا، هو الفطرة التي فطرت عليها النفوس البشرية. والتي أشار اليها الرسول الأعظم ρ وقال عنها: إن كل مولود يولد بها، ويفطر عليها. وبين هذه الفطرة النقية الطاهرة وبين الخلود الأخرى ارتباط كما هو الارتباط بين الاسباب والنتائج، فلكون الفطرة تريد هذا الخلود وتسعى اليه، وتتضرع الى الله تعالى طالبةً إياه بلسان حالها، أوجد الله تعالى الآخرة. وأوجد الخلود فيها.. والعكس صحيح كذلك. أي لأن الخلود الأخرى موجود ابتداءً. فُطر الإنسان على الرغبة به. والشوق اليه، لأن الإنسان - حذساً وعقلاً - لا يرغب بغير موجود، ولا يشنق الى عدم معدوم.

و النورسي رحمه الله تعالى ، يتناول هذه المسألة المهمة والخطيرة من زوايا مختلفة، وجوانب متعددة، فتارة يرى ان الفطرة لا تكذب، ولكونها تريد الخلود فالخلود إذن موجود، وتارة أخرى يرى ان ما تريده الفطرة لم يكن لتريده لو لم يغرس الله سبحانه وتعالى فيها هذه الإرادة، فهي إذن تريد ما يريده الله لها من الخلود والأبد.

ومن أجل هذا سعى النورسي في معظم رسائله الى تنقية "الفطرة" من أكار هذا الزمن الجحود، والعمل على إزاحة ما فوقها من ركامات كفرانه، والتهافت بصوتها النقي الموقد لكي يرن من جديد في مسامع الإنسان وفي أرجاء النفس والوجدان.

^P من مواليد 1931 م الموصل - العراق، عمل في التعليم تسعة وعشرين عاماً . وحاليا أستاذ الأدب العربي في جامعة داغستان الخاصة. مارس الكتابة في الصحف والمجلات منذ الخمسينات. اهتم بالنورسي سنة 1980م وكتب في فكره وسيرته الكتب والمقالات والأبحاث. له ستة كتب منشورة.

-2-

إن قضية "الموت" وما وراء "الموت" أي: الى أين يذهب الإنسان بعد الموت؟ وكيف؟ ولماذا؟ هي من أهم القضايا التي شغلت أذهان البشر، وقد اختلفوا فيها بين مؤمن وملحد، ملحد مطمسو الفطرة يرى الموت هو النهاية الطبيعية لحياته ووجوده، ومؤمن يرى "الموت" معبراً الى وجود جديد. وحياة جديدة، ملحد يرى صيرورته في خاتمة المطاف الى التراب ولا شئ غير التراب. ومؤمن يهتف بدافع من إيمان فطرته:

ليأخذ جسدي مَنْ يشاء وما يشاء.. ليأكله التراب... ولتغذَّ عليه الأرض فإنه ليس "أنا" .. فـ
 "أنا" وجود خالد لا يموت، أعطانيه واجب الوجود. ومنحني إياه مانح الحياة، والكريم المعطاء إذا أعطى لا يستردَّ عطاءه، وإذا وهب فلا يستردَّ ما وهب. و النورسي يشير الى هذا قائلاً:
 "فبالجسد القطعي بل بالمشاهدة، نرى انَّ الجسد قائم بالروح، اي ليست الروح قائمة بالجسد، وإنما الروح قائمة ومسيطرة بنفسها. ومن ثمَّ فتفرقُ الجسد وتبعثرهُ بأي شكل من الأشكال وتجمعه لا يضُرُّ باستقلالية الروح، ولا يخلُّ بها أصلاً، فالجسد عَشُّ الروح ومسكنها وليس بردائها، وإنما رداء الروح غلاف لطيف وبدن مثالي ثابت الى حد ما، ومنتاسب بلطفاته معها، لذا لا تتعري الروح تماماً في حالة الموت بل تخرج من عَشِّها لابسَةً بدنها المثالي، وأرديتها الخاصة بها"¹.
 ويقول كذلك: "ويأتي وجوده - سبحانه وتعالى - أن يستردَّ ما أعطى من نفحة الوجود الى روح الإنسان اللاتمة والمشتاقه الى ذلك الوجود"².

وما بين الإيمان والإلحاد. هذه المسافة الشاسعة جموع بشرية هائلة هي السواد الأعظم من البشر. يتأرجحون بعقيدتهم وسلوكهم بينهما، فيقتربون ثارةً من هذا، وثارةً من ذلك. لا لون يميزهم بين الألوان، ولا عقل يستقلون به بين العقول.

-3-

إن شيئاً ما ينحد إلينا من منابع الأبدية عندما نروح في استبحار فكري وروحي في الأمداء المهولة البعد من محيطات النفس والوجدان، وهذا يعني ان "الخلود" مجوهر في مناجم الروح. وأن بذرة "الأبدية" منطوية في وجدان كل إنسان، ولكن كثيراً ما يُبلسُ علينا ونحن نزرع تحت ثقل مظاهر الفناء التي تحيط بنا من كل جانب. حيث نرى أجمل الأشياء وأحبها الى نفوسنا تغادر ويطويها الموت، وتغيب عتاً وراء ستار الغيب دون ان نستطيع الإمساك بها والحيلولة بينها وبين الذهاب الى غير رجعة، فمظاهر الموت والفناء المكرورة تجعلنا ننخدع فنحسب أن الفناء والزوال هو القانون الساري والمهيمن على كل شئ في هذا العالم، الا ان الحقيقة غير ذلك، فما نظنه زوالاً وفناءً ما هو إلا ذهاب من حال الى حال، وانتقال من صورة الى أخرى. بينما بذرة الوجود قائمة في الموجود لا تحول ولا تزول في كل أحواله وصوره وانتقالاته. تنتظر الوقت المناسب لكي تتسبل وتتشجر من جديد.

و"النورسي" يرصد هذه الظاهرة ويقدم لنا عنها التفسير الآتي:
 "إن هذه الأشياء لم تخلق للفناء بل للبقاء، بل إن فناءها الظاهري ليس إلا إطلاقاً لسراحتها بعدما أنهت مهامها، وكما أن الشئ يفنى من جهة الا انه يبقى من جهات كثيرة:
 تأمل هذه الزهرة - وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية - إنها تنظر الينا مبتسمة لفترة قصيرة ثم

1- الكلمات 611

2- الكلمات 611

تحتفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي تنفوه بها والتي تودع آفاقاً من مثيلاتها في الأذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد ان أدت وظيفتها وهي إفادة المعنى. فالزهرة أيضاً ترحل بعد ان تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورها وزينتها ومحل إدامة بقائها. فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة. يُعاملُ مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالإنسان الذي هو في أعلى طبقات الحياة. والذي يملك روحاً باقية، الا يكون مرتبطاً بالبقاء والخلود؟! ولئن كانت صورة النبات المزهرة المثمر، وقانون تركيبه - الشبيه جزئياً بالروح - باقية ومحفوظة في بذيراتها بكل انتظام في خضم التقلبات الكثيرة، أفلا يفهم من هذا كم تكون روح الإنسان باقية. وكم تكون مشدودة مع الخلود، علماً أنها قانون أمري، وذات شعور نوراني، تملك ماهية راقية وذات حياة، وذات خصائص جامعة شاملة، وقد ألبست وجوداً خارجياً...؟!³

ويقول كذلك: “إن الموت والأندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة ليس فناءً وإعداماً أبدياً، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد اكتمالها وإتقانها، وتسريح منها⁴”

ويقول: “إن الصانع السرمدى لهذا العالم الفاني له عالم غير هذا العالم، وهو عالم باقٍ خالد، ويشوق عباده إليه، ويسوقهم نحوه”⁵

- 4 -

والرغبة بالخلود والدوام هي حافز أعظم الأعمال الفكرية والوجدانية. فآمال الإنسان واشواقه وأخلاصه وخياله وفكره وآدابه وفلسفاته، وما قاله من حكم، وتغنّى به من شعر. إنما هو تعبير عن هاجس الخلود الذي فطر عليه. وما أقام من هياكل. وشيد من صروح، وبنى من معابد، إنما هو تعبير عن نفس الهاجس. ولو لم يتوهم لحظة من لمحات الخلود في أعماله الفكرية والأبداعية وبناء الحضارية لما كلف نفسه عناء التفكير ومشقة الإبداع، ولو لم يتوهم بعضاً من علامات الخلود والدوام فيما يجب وهدى لما أحبّ ولما هويّ، ولما التذّب بعمل أو سرّ بشيء من أعماله، كما يشير الى ذلك “النورسي”.

فالزمان الدنيوي المحدود عاجز عن المضي مع الإنسان الى آخر الشوط في خياله الذي لا حدود له، ومع أشواقه التي لا نهاية لها، فلا بد من زمن أخروي لا حدود له تصبّ فيه الأزمنة كلها بخيرها وشرّها، وتصبّ فيه آمال الإنسان وأحلامه واشواقه، بخيرها وشرّها وتطويها دفاتر الأبد وسجلاته. ولو أصغينا الى الإنسان جيداً لسمعناه يقول بلسان توفقه:

أعطين الدنيا كلّها.. ضع زمامها بين يدي .. ملكني ناصيتها.. ضعها على طبق وقدمها على مائدة روعي.. إعتصرها في كأس واجعلني انحسارها حتى الشماله! فهي لا تطفئ ظمأ روعي.. ولا حرقه أشواقني.. ولا تملأ خيالي.. ولا تغذو لطائف نفسي.. تندّ عنها مشاعر القلب.. وهيام الخيال.. ووكسه الروح.. ووحد الفؤاد.. والشغف بالحرية من رقب الأكوان... ومن قيود الزمان... وأثقال الأرض...: وإليك الآن ما يقوله النورسي حول هذا المعنى: “لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان. وهي إحدى وسائل العقل وأحد مصوريه، ستمنح لك سلطنة الدنيا وزينتها مع عمر مديد يزيد على مليون سنة. ولكن مصيرك الى الفناء والعدم حتما، نراها تتأوه وتنحسر.. أي إن أعظم فان - وهو الدنيا وما فيها- لا يمكنه أن يشع أصغر آلة في الإنسان وهي الخيال.

3- الكلمات 80

4- الكلمات 80

5- الكلمات 81

يظهر من هذا جلياً أن هذا الإنسان الذي له الاستعداد الفطري والذي له آمال تمتد الى الأبد، وأفكار تحيط بالكون، ورغبات تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية... هذا الإنسان إنما خُلِقَ للأبد وسيرحل إليه حتماً، فليست هذه الدنيا الا مستضافاً مؤقتاً، وصالة انتظار الآخرة⁶ ويقول: “نعم إن الذي يصغي الى وجدانه اليقظ فإنه يسمع حتماً صوت: الأبد... الأبد... حتى إذا ما أعطى كل ما في الكائنات لذلك الوجدان فإنه لا يسد حاجته الى الأبد، وإن هذا الجذب والانجذاب الوجداني لا يكون الا بجذب من غاية حقيقية وبجاذب حقيقي”⁷.

-5-

وحبُّ الجمال والإنشاء بمشاهدته والإقتراب منه ومحاولة امتلاكه والإستحواذ عليه بالفكر والحسِّ والخيال، هو قضية معروفة ومشاهدة في الإنسان، حيث يمتطي خياله. ويظلُّ ساجحاً في ملكوت الجمال، يجوس خلاله، ويطوف بين أمدائه وهو يلاحق مغيبات الحسن في خبايا الكون والحياة والإنسان، مدفوعاً الى ذلك بنزاع فطري وبجافز روحي يودُّ لو يشرب جمال العالم كله، ويطويه في حشاشته.

غير أن هذا الخيال وهو يبحث عن لمحات الجمال ويلاحقها في كل مكان يقودنا الى تيهه يباب ويقف بنا في منتصف الطريق منتبين هالكين لأنه يبحث عن جمال مجازي. ويلاحق حسناً فانياً زائلاً، بينما هو مرصود لكي يتلمس لمعات الحسن الحقيقي، ويبحث عن أنوار جمال سرمدى لا يفنى ولا يزول، لذلك فسيظل جاعاً لا يشبع، وظامئاً لا يروى، لأن كل جمال يلتقيه إنما هو جمال نسبي محدود فان، وفوقه جمال أبدي مطلق لا يفنى ولا يزول، هو الجمال الإلهي الأقدس، الذي كل جمال دونه إنما هو تجلٍ من تجليات نوره، كتجلي نور الشمس - ولا مشاحة في المثال - على المرايا وقطرات الماء وحباب البحر. هو ليس الشمس ولا بعضاً منها، ولكنه بسرّ النورانية والشفافية يدخل كل شئ من غير ان يكتويه شئ، ويقرب من كل شئ بينما هو بعيد عن كل شئ كما يشير الى ذلك النورسي رحمه الله⁸.

ومعلوم بدهة ان الجمال - أي جمال - يجب ان يشهد نفسه في مراياه ومرايا الآخرين. ويودُّ أن يكون موضع اعجاب واستحسان غيره. ولما كان الجمال الإلهي سرمداً وخالداً وأبدياً. فهو يقتضي خلود أولئك المشتاقين ودهومتهم، فمنح الخلود للمؤمنين المشتاقين للجمال الإلهي هو من مقتضيات أبدية هذا الجمال وسرمديته كما يقول النورسي: “ولما كان الجمال والحسن خالدين سرمديين فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين ودهومتهم، لأن الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل”⁹.

لأي شئ يحتفظ الإنسان بروحه إذن إن لم يجعلها سلماً للعروج الى تلك الأكوان الغيبية. والسמות النائية التي منها تنحدر أجمل الإلهامات والخواطر والأفكار...؟! وأي هدف للقلب ارقى وأجمل من أن يغدو سفينَ صاحبه الى يَمِّ الأبدية الجذلى التي تموج في دخيلة أنفسنا وعمق أعماقنا...؟!!

ولماذا نحن مسكونون ببصيرة لمأحة، وحس رهيف، إذا لم نكن قادرين على رصد بعض آيات هذه الأزليات المطلات علينا من وراء الغيب...؟! وماذا نصنع بهذا الحنين الفطري الى الخلود إذا كُنّا نأى بأنفسنا عن معاناة البحث عنه والتواصل

6- الكلمات 95

7- الكلمات 617

8- أنظر “الكلمات” 189

9- الكلمات 72

معه غير سبيل الإيمان وأسباب اليقين...!؟

إن عظمة الإيمان ترفعنا لكي نلمس ضفاف الأبدية، وحافات بحارها اللامائية، فالإيمان جوهر الإنسان. ومن غيره يقذف بنا نحر الزمن نحو خلاء روحى مميت، فنجد أنفسنا على شفا الهلاك في الفانيات يصرخ ملئاً: "لا أحب الآفلين"¹⁰ عندما تظاهر له الكون باغراءاته... فلما أحسن بطابع الفناء على وجوه الأشياء التي عرضت له ولى مدبراً. وهتف مبتعداً: "لا أحب الآفلين" أى لا أحب الفانيين. ولا أريد ان اربط أسبابي بأسبابهم. لأنّ التعلق بالفناء فناء، والتعلق بالبقاء بقاء. كما يقول النورسي.

فالتوق الى الأبد يعني وجود هذا الأبد، والشوق الى الخلود يعني وجود هذا الخلود. لأنّ الإنسان فطرة - لا يتوق الى عدم، ولا يشنق الى غير موجود، والى هذا المعنى يشير النورسي قائلاً:
"فالفطرة لا تكذب أبداً، والتي فيها ما فيها من ميل شديد قطعي لا يتزحزح الى السعادة الأخروية الخالدة تعطي للوجدان حدساً قطعياً على تحقق الحياة الأخرى والسعادة الأبدية"¹¹.

-7-

والإنسان نفسه - ظاهراً وباطناً - غيب مهول، وعالم مجهول، ينطوي على عوالم كثيرة لم يُكشَفْ رغم كل محاولات العلوم الحديثة - إلا عن النزر القليل منها، فروحه وعقله ووجدانه كون غيبي آخر يقف قابله غيوب ما وراء الكون. وبعض مغيباته إنما هي رمز وإشارات الى ما في عالم الغيب من مغيبات، ودليل عليه، وحين تتسع المساحات المكتشفة من غيوب الإنسان، في المستقبل القريب او البعيد، فإننا سنحظى - بلا شك - بالمزيد من الرموز التي ترمز الى شؤون أخروية. وصدق الشاعر حين يقول:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

والنورسي يرى في بعض أجهزة الإنسان دليلاً على بعض حقائق العالم الآخر. فيقول: "فالحجة القاطعة على وجود اللوح المحفوظ وعالم المثال، ونموذجهما المصغر، هو ما في رأس الإنسان من قوة حافظة. وما يملك من قوة خيال، فمع أنهما لا تشغلان حجم حبة خردل، إلا أنهما تقومان بوظائفهما على أتم وجه بلا اختلاط ولا إلتباس، وفي انتظام كامل، وإتقان تام، حتى كأنهما يحتفظان بمكتبة فخمة جداً من المعلومات والوثائق، مما يثبت لنا ان تينك القوتين نموذجان "للسوح المحفوظ" و "عالم المثال"¹².

- 8 -

والإنسان رهين الخلود، محكوم به عليه، مذهب به إليه. وسواء استسلم لقضاء الله فيه، أم تمرد عليه، وسواء آمن واتقى أم جحد وكفر... فكما جاء الى الدنيا بغير إرادته. فإنه مفارقها كذلك الى الآخرة بغير إرادته، فلا فكك له عنها، ولا مصرف له إلا إليها، لأنها موصولة به بحبال منسوجة من حيوط روحه، فهو مشدود إليها. وهي مشدودة إليه. ولا خلاص لأحدهما من الآخر.
وربّ سائل يسأل: لماذا أُسكن الإنسان الأرض...؟ ورُشِحَ للخلافة فيها...؟ ولماذا جعل إفتتانه بالخير والشر...؟ وكيف منح الإختيار بين الكفر والإيمان...؟ والصلاح والفساد...؟ ولماذا لم تحسم قضيته قبل ان يجرب العناء ويحتمل العنت...!؟

10- الأنعام 76

11- الكلمات 616

12- الكلمات 183

وللجواب على هذا السؤال نقول:

بين الإنسان والبذرة تشابه كبير. فكما ان "البذرة" تطوي أحشاءها على استعدادات شجرة كاملة، إلا أن هذه الشجرة لا تنبعث الى الوجود ما لم تدفن بذرتها تحت التراب... فالإنسان كذلك ينطوي على استعدادات هائلة لم تكن لتظهر ما لم يُسكن الأرض، ويجرب خيرها وشرها. ويقاسي الإمتحان بين أصداد الحياة ونقائضها، وعندما تنشق بذرة الإنسان المستتبنة فوق أديم الأرض عن شجرة قوية مكيئة ناضجة. فإنها تعلق في الفناء وتمتد أغصانها الى كل مكان وكل جهة. وكأنها تريد ان تشد إليها العالم برمتها، مما يجعل الأرض بمحدوديتها - عاجزة عن استيعابها ومدتها بماء الحياة اللازم لردوام بقائها، فتبحث فيما وراء الأكوان عن ينابيع الخلود والبقاء المتفجرة من عيون الإيمان الصافية، ولكي يبقى الإنسان كما يريد خالقه مخلوقاً المعيا سامياً وضاء، لا بد أن يبذل جهداً جريئاً متواصلاً، ويمارس جهاداً عنيفاً داخل النفس، كي يبقى سالماً من كل ما يشينه ويدنس طهره.

والى هذا المعنى يشير النورسي قائلاً: "نعم!! إن دار الدنيا الضيقة هذه لا تكفي - كما أنها ليست ظرفاً - لأظهار ما لا يجد من الإستعدادات المندمجة في روح الإنسان وثمارها، فلا بد ان يرسل هذا الإنسان الى عالم آخر... نعم! إن جوهر الإنسان عظيم لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها، وإن ماهيته عالية وراقية لذا صارت جنائته عظيمة، فلا يشبه الكائنات الأخرى. وإن نظامه دقيق ورائع، فلن تكون نهايته دون نظام. ولن يهمل ويذهب عبثاً. ولن يحكم عليه بالفناء المطلق، ويهرب الى العدم، وإنما تغفر جهنم فاهها في انتظاره، والجنة تسط ذراعها لإحتضانه..."¹³.

-9-

وأى إنسان لا يهوي في لجج اليأس منحطاً منزع الروح مسحوق النفس، إذا ما حيل بينه وبين الأمل في الخلود والبقاء... وأى امرئ يستطيع أن يهتف "ها أنذا" وهو يرى هويته الإنسانية تهشم تحت مطارق الفناء والبلى... وأى قلب لا يحترق حتى الرماد حين يرى أحلامه وأشواقه هباءً في هباء... وأى قيمة للحياة التي نحياها إذا كان مآلها الزوال والفناء... ولماذا نظل نحيا مقهورين إزاء كوالح الأيام وعذاب السنين من غير أمل بالخلص في خاتمة المطاف... وأى جاحد لا تتحول دنياه الى جهنم يتصاعد منها دخان العذاب قبل يوم الحساب...

وكيف لا يصير - بهذا الجحود - مثابة للوحشة المتأبدة والكآبة الكابية...؟!

فلماذا إذن هذا الهروب من وجه الله...؟! ولماذا هذا النكوص عن معرفته...؟! ولماذا هذا الصم عن الأصغاء الى صوته والإصاحاة الى نداءه...؟! ولماذا هذا العمى عن رؤية آياته في الأنفس والآفاق...؟! أليس غريباً غاية في الغرابة ان تكون تجليات القدرة الألهية في الإنسان واحدة من أسباب غروره وجحوده...؟!

أليس عجباً أن يكون عمل الربوبية في بناء كيان الإنسان وإقامة صرح وجوده سبباً في تألهه وكفرانه...؟!

أليس مرعباً أن تكون دقة المصنوع وعظمة بنائه سبباً لتمرده على صانعه...؟!

أليس محيراً أن تختال الصورة على مصورها، وتمتّع اللوحة على رسامها...؟!

أليس محزناً أن ينكر المخلوق خالقه؟ والكائن مكوّنه...؟!

أليس من الغباء توهم المرأة ما ينعكس على وجهها من صور الأشياء أنها مالكة هذه الأشياء

وصاحبته...؟

فالإنسان مصنوع الله تعالى خلق في أحسن تقويم، وصور في أحسن تصوير، وزود بالخيال، ومُنح الإرادة، وأُتِرِع بالحس والشعور، ورُكِب في رأسه عقل يعقل به الأشياء، ويستولد به الأفكار، وجُعِل سمياً بصيراً لسمع الأصوات، ويصير المرئيات، وأُعطيَ الحافظة ليحفظ فيها ما يعلم، والذاكرة ليذكر ما هو في حاجة إلى تذكرك، فهو مصنوع متقن الصنع، ومعجزة من معجزات القدرة الإلهية... غير أنه يغفل أحياناً عن هذا كله، فيتوهم أنه قدير بما عنده من قدرة نسبية، ومريد بما عنده من إرادة نسبية، وعليم بما عنده من علم نسبي، وسميع بسمعه النسبي، ويصير بصره النسبي، فيتوهم وكأن مطلق الصفات الإلهية قد حلت به، وأدت إليه، ومن هذا الوهم تنشأ جميع الربوبيات البشرية، ومنه انطلق فرعون قائلاً: "أنا ربكم الأعلى" والنمرود "أنا أحي وأميت" وبين هذين النموذجين من الربوبيات البشرية، ربوبيات دون ذلك، يمارسها الناس بدرجات متفاوتة، وعلى قدر ما يستحوذ عليهم من مراتب الوهم والظن.

-10-

و النورسي يرتقي بالإنسان، ويعلو به علواً لا نجد عند غيره من المعنيين بشؤونه. فيرى أنه - أي الإنسان - بروحه وجسمه إنما هو خلاصة ما في عالمي الغيب والشهادة ويتجلى فيه من أمورهما ما يتجلى فيهما.¹⁴

وبمضي قائلاً: "إن الإنسان قيمة عالية، بدليل أن السموات والأرض مسخرة لاستفادته. وكذا إن له أهمية عظيمة بدليل أن الله تعالى لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق للإنسان. وإن له عند خالقه لموقعاً بدليل أن الله تعالى لم يوجد العالم لذاته، بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته. فأنشأ أن الإنسان مستثنى وممتاز لا كالحوانات. فيليق أن يكون مظهراً لجوهرة: "ثم إليه ترجعون"¹⁵ ويرد قائلاً: "إن من هبأ جميع ما في الأرض لاستفادته وسخرت له الأنواع له أهمية عظيمة تشير إلى أنه النتيجة للخلقة"¹⁶

والسؤال الذي يرد على الخاطر هو: كيف يكون للإنسان هذه القيمة العالية مع كثرة شروره وآثامه؟! وهو السؤال نفسه الذي سألته الملائكة حين قالوا: "أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...؟" فيقول النورسي في تفسير قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك...؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون" إن تلك الشرور والمفاسد تغتفر في جنب السرّ المدع فيه، وإن الله تعالى غني عن عبادته. إذ له تعالى من الملائكة المسبحين والمقدسين ما لا يحصر، بل - أي نزوله إلى الأرض - لحكمة في علم علام الغيوب كانت خافية على الملائكة"¹⁷.

لا بل بمضي إلى أبعد من هذا حين يقول: "إن البشر كالروح المنفوخ في جسد الأرض، فمتى خرج البشر خربت الأرض وماتت"¹⁸

والنورسي يشير إلى أن "الموت" الذي يخافه الإنسان كثيراً، ويهرب منه، ويدفعه عنه، ليس فيه ما

14- اشارات الاعجاز 27

15- اشارات الاعجاز 222

16- اشارات الاعجاز 227

17- اشارات الاعجاز 233

18- اشارات الاعجاز 235

يوجب هذا الخوف، بل هو كالحياة من معجزات القدرة الإلهية فيقول: "إعلم أن آية "خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ" تدل على أن الموت ليس إعداماً وعندما صرفاً. بل تصرف وتبديل موضع. واطلاق للروح من المحبس... إلى أن يقول: فحينئذ يكون الموت معجزة القدرة كالحياة، لا أنه عدم علته عدم شرائط الحياة"¹⁹ كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة.

- 11 -

إن "وجود الإنسان" موجود في علم الله تعالى قبل أن يمنحه إياه، ويُتوجّه بالروح والحياة، ولأن علم الله تعالى أزلي وأبدي فمن البديهي أن يكتب هذا الوجود ظلاً من ظلال الدوام والبقاء، وهو بهذا الإنتساب الإلهي لا يمكن أن يتفكك أو يمضي لأي سبب من الأسباب في طريق "التلاشي" والوصول إلى نقطة "اللاوجود" والانحدار نحو العدم.

فـ "وجود الإنسان" ابتداءً إنما هو خروج من دائرة "العلم" إلى دائرة "القدرة" .. ووجوده انتهاءً هو خروج من دائرة "القدرة" إلى دائرة "العلم"، ثم العودة مرة أخرى إلى دائرة "القدرة" للحساب والثواب والعقاب، وهو في هذه الحالات جميعها موجود غير معدوم. ولعل إلى هذا الذي خلصنا إليه تشير الآية الكريمة: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: "هل أتى على الإنسان" معناه: قد أتى، و "هل" تكون أيضاً بمعنى "ما" أي: ما أتى. (مختار الصحاح). أي لم يأت، فهو - أي الإنسان - إما أن يكون موجوداً في "علم الله" أو موجوداً في "قدرة الله، ولا في شيء غيرهما والله تعالى أعلم بمراده.

وفي تفسيره لقوله تعالى: (كل شيء هالك إلا وجهه) يقول "النورسي:

"ثم إن العدم المطلق لا وجود له أصلاً، لوجود "العلم المحيط"، علماً أنه لا شيء خارج عن دائرة العلم الإلهي كشيء إليه شيء ما. والعدم الموجود ضمن دائرة "العلم" هو عدم خارجي، وهو عنوان صار ستارا على الوجود العلمي، حتى حدا هذا ببعض العلماء المحققين التعبير عن هذه الموجودات العلمية بأنها "أعيان ثابتة" لذا فالذهاب إلى الفناء إنما هو نزغ الأشياء لألبستها الخارجية مؤقتاً، ودخولها في وجود معنوي وعلمي أي أن "الهالكات والفانيات" تترك الوجود الخارجي وتلبس ماهياتها وجوداً معنوياً، وتخرج من دائرة "القدرة" ... وتدخل في دائرة "العلم"²⁰

والكافر - كما يحكي عنه القرآن - حين يرى العذاب المنصب عليه في نار جهنم يهتف صارخاً: "يا ليتني كنت تراباً" (النبا: 40). متوهماً أن التراب موات لا يحسّ بالعذاب. بينما المخلوقات الأرضية ومنها التراب هي عروش قدرته تعالى ورحمته وإحسانه، كما في قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء" (هود: 7). أي عرش رحمانيته الذي جعل منه "كل شيء حي" (الأنبياء: 30). وعرش خلقيته، وكذلك التراب فهو عرش حفيظيته، وموضع تجليات أسمائه الحسنى، فحفنة من تراب يمكن أن يُسْتَنْبَتَ فيها كل أزهار العالم وأشجاره على اختلاف أنواعها وألوانها وطعومها، كما يقول النورسي.. فالتراب حياة وإحياء، ومن هنا كان المؤمن أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد كما جاء في الحديث الشريف، لأنه أقرب ما يكون إلى التراب الذي تتجلى فيه أسماءه الحسنى، حتى كره بعض الفقهاء السجود على ما يحجب جبهة الساجد عن الأرض. فالتراب فيه خاصية إحياء كالماء لذا فهو يقوم مقامه في الوضوء والطهارة حين يعزّ الماء أو يكتفي. فالتراب الذي يتمنى الكافر أن يكونه ليس

عدماً ينجيه من العذاب كما توهم، فلا خلاص له مهما صار اليه من أشياء، أو تحول اليه من أحوال. لأنه مسجون الوجود، ولا عدم يمكن ان يتلاشى فيه، أو يذوب في قعره ليخرج من شبيثته الإنسانية. ويتخلص من مسؤولية فكره وعقيدته، فالله تعالى من حيث ربوبيته “قد جعل سبحانه المخلوقات الأرضية عروشاً له، إذ جعل الهواء نوعاً من عرش لأمره وإرادته، وعنصر النور عرشاً آخر لعلمه وحكمته، والماء عرشاً آخر لإحسانه ورحمته، والتراب نوعاً من عرش لحفظه وإحيائه”²¹.

- 12 -

في هدوات الروح الصاحية، وفي سكينه صفاء الوجدان، يستطيع المرء - برهافة سمعه - أن يصغي الى صريف “قلم الخلود” وهو يرسم على صفحة روحه صور الأبد. وينقش لوحات البقاء. والذين انحنت أصلاب أرواحهم تحت ثقل ما يعانون من الأم، وما يُصَبُّ فوقهم من عذاب، قادرون كذلك حين تتمرد أرواحهم وتعلو شوق الآلام والعذاب أن يتنسّموا نسائم الرجاء الهابّة من عمق أعمال أرواحهم ووجدانهم وهي تبشر بعالم قدسي آت مترع بالعدل والحب والرحمة. ففينا وفي دواخلنا نحسم كل قضايانا المعلقة، وفينا وفي دواخلنا حلول كل المعضلات الوجودية. والجواب على السؤال الخالد: لماذا؟! وكيف؟! وإلى أين؟! فينا وفي دواخلنا يكمن سرّ الوجود ومفتاح العالم، وطلسم الخلق والإيجاد. فنحن الوجود إذا أردنا، ونحن العدم إذا شئنا، ونحن البقاء إذا رغبتنا، والفناء إذا شئنا، ونحن الجنة إذا آمننا، والنار إذا جحدنا، ونحن العذاب إذا كفرنا والنعيم إذا أسلمنا، نحن كل هذا، ومنا وفينا شجرة الآخرة، إن سقينها بماء الإيمان، ورويناها من ينبوع اليقين أثمرت لنا الجنة. وإلا أثمرت النار. والعياذ بالله. يقول النورسي رحمه الله:

“وإنما نظرت مباشرة الى قلبي، وتحسستُ روحي! فرأيت أنه يسيطر عليّ عشق في منتهى القوة للبقاء، وهيمن عليّ محبة شديدة للوجود، ويتحكم في شوق عظيم للحياة، مع ما يكمن في من عجز لا حدّ له، وفقر لا نهاية له”²²

ثم إن النورسي يربط وجود كل شيء بوجوده سبحانه وتعالى. فلكونه موجوداً فإنه يسبغ نعمة الوجود على كل موجود. ولأننا موجودون فالله إذن موجود، لأننا لا نملك ان نُوجَدَ بأنفسنا، فلا بد من وجد غيرنا وإلا فقدنا نعمة الوجود.

فيقول: “وحيث أنك موجود فكل شيء موجود إذا”²³ لأن “الوجود” لا عدم معه، ولا عدم قبله، ولا عدم بعده، إلا عدماً اعتبارياً، لا يثبت أمام قوة الوجود وسعته وهيمته. وهو تعالى قيوم على كل وجود، وبهذه القيوية ثبت وجود كل موجود، ولو لا هذه القيوية لتلاشى كل شيء وسقط في دائرة “اللاوجود” الاعتباري.

والإنسان رغم قواه العقلية الحارقة ورغم انطوائه على طاقات هائلة. تفجر بعضها ولا يزال بعضها ينتظر التفجير. ورغم قدراته العظيمة في بناء الأفكار والحضارات وانشاء المدنيات، إلا أن احساسه بالضعف والعجز والافتقار شيء معلوم منه. ومشاهد فيه. ففي الإنسان تلتقي الأضداد. فهو قوي ضعيف، وغني فقير. وقادر عاجز. وعالم جاهل. يصرعه الميكروب. ويخيفه المرض. ويرعبه الموت.. يغرق في هم، ويزوب في وهم ويتيه في أمل، ويهيم في حلم، يسحقه اليأس، ويحطمه الألم، ويقضي عليه الحزن، إذا جاع صارت كسرة خبز أعظم همه، وإذا عطش فقطرة ماء اجل مراده. فكله دعاء

21- المكتوبات 297

22- اللغات 387

23- اللغات 22

وتضرع وتطلع الى ما يجبر كسره، ويكمل نقصه، ويفني فقره، وينهضُ عجزه ، سواء بلسان الحال او المقال. فهو في عبادة دائمة سواء قصدها او لم يقصدها، لأن الدعاء مخ العبادة كما ورد في الحديث الشريف. وإن أعظم ما يتضرع به الى مولاه هو طلب الخلود والبقاء، حتى "إن سبباً من أسباب وجود عالم البقاء والجنة الخالدة هو الرغبة الملحة للبقاء المغروزة في فطرة الإنسان. والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود" ²⁴ وهو يرى - أي النورسي- "إن ردّ هذا الدعاء للخلود محال قطعاً، لأن عدم استحبابه حلّ وعلا ينافي حكمته الخالدة وعدالته الكاملة ورحمته الواسعة وقدرته المطلقة" ²⁵ ويقول كذلك: "إن الإيمان يعلمني بأنني مرشح لدنيا اخرى أبدية، واني مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة" ²⁶

- 13 -

وليس هذا فحسب ما يمكن ان يفعله "الإيمان" لصاحبه، بل هو - أي الإيمان- يطلق "الإنسان" من أسر الزمان والمكان، ويضع عنه قيود الدنيا وأغلالها. وبمنحه سعة يسع بها الكائنات. ويعطيه امداداً نحو الأزال والآباد. فيغدو عمره عمر العالم، وحاضره مجرا تصبّ فيه أنهار الأزمنة، ماضيها ومستقبلها. فيصبح بذلك إنساناً كونياً، داره الكون كله، وحديقته العالم جميعه، وموضع نظره البشرية بأسرها، يريد لها ما يريد لنفسه من هذا السمّو الذي سما اليه، وهذا الارتقاء الذي ارتقى نحوه، فهذه هي رسالة "الإيمان" ورسالة المؤمنين، يسعون للأخذ بيد الإنسان الى حقيقة إنسانيته، وجوهر بشريته، وسرّ وجوده المرشح للبقاء، والمرصود للخلود. و"النورسي" يحدّثنا عن هذه المعاني فيقول:

"حتى كأن -الإنسان- المؤمن له عمر معنوي يمتد من اول الدنيا الى آخرها، يستمد ذلك العمر عن نور حياة ممتدة من الأزل الى الأبد، وحتى ان الإنسان بسرّ تنوير الإيمان لجهاته، يخرج عن ضيق الزمان الحاضرّ والمكان الضيق، الى ساحة وسعة العالم، ويصير العالم كبيتته، والماضي والمستقبل زماناً حاضراً لروحه وقلبه" ²⁷.

وإشكالية "الإيجاد" التي حار في تفسيرها العلماء والفلاسفة الماديون محلولة عند "النورسي"، فهو يرى ان الموجودات لا تأتي من "العدم المطلق" الذي لا وجود له اصلاً ولا يملك شيئاً من عناصر الوجود وخاماته الاولى. فالموجودات لها وجود في علم الله تعالى. فإيجادها هو انتقالها من الوجود العلمي الى الوجود الخارجي. وبسرّ هذا الاسناد الى علم الله الواحد الاحد. لا يشكل امر الإيجاد - علما انه لا شئ يشكل على الله تعالى - ويصبح مفهوماً لا يحتاج فهمه الى كثير عناء. وقد عبّر النورسي عن هذا بقوله:

"وسرّ أنّ في إسناد كلّ الأشياء الى الواحد الأحد لا يكون الإيجاد من العدم المطلق بل يكون الإيجاد عين نقل الموجود العلمي الى الوجود الخارجي. كنقل الصورة المتمثلة في المرآة الى الصحيفة الفوتوغرافية لتثبيت وجود خارجي لها بكمال السهولة، او إظهار الخط المكتوب بمداد لا يرى بواسطة مادة مظهرّة للكتابة المستورة" ²⁸.

24- اللغات 23

25- اللغات 23

26- اللغات 389

27- اللغات 467

28- اللغات 474-475

-14-

إنما نحن البشر أصداف مقفلة على ماهية نورانية متجوهرة من سنى أنوار الأسماء الإلهية الحسنى المنعكسة على مرآة ذواتنا، فحبّ الذات الى حدّ العشق، والانطواء عليها. واحتضانها. والحنو عليها ومدافعة الضوء عنها. والخوف عليها من العطب، هذا الأمر المشهود عند كل إنسان. إنما هو عشق لهذه الماهية النفيسة لا لذاتها. بل لما تتضامّ عليه من جوهره الوجود الغالية التي لا تقدر بثمن. تماماً -ولا مشاحة في المثال- كما يتعلق الجواهري بالصندوق الذي يحتفظ فيه بمجوهراته. وربما هلك دون من يريد المساس به او استلابه منه.

ومن هذا السرّ صار حبّ الذات مشروعاً الى حدّ ما، بشرط ألاّ يتقلب هذا الحبّ الى ما يشبه العبادة. وبشرط المعرفة مسبقاً بدواعي هذا الحبّ وأسبابه، وكونه نوعاً من الشكر لله على إنعامه عليه بنعمة هذه الماهية النفيسة التي هي موضع سرّ الله. وموضع تجلياته سبحانه، والآن لنترك النورسي يخوض غمار هذا المعنى الجليل الذي لا أشك انه فتح رباني لم يسبق اليه - حسب علمي - احد قبله: "وما في شخصي من صفة إلا وهي من شعاع اسم من اسمائه الباقية. فزوال تلك الصفة وفناؤها، ليس إعداماً لها. لأنها موجودة في دائرة العلم، وباقية ومشهودة لخالقها.

وكذا حسبي من البقاء ولذته علمي وإذعائي وشعوري وإيماني بأنه الهي الباقي المتمثل شعاع اسمه "الباقي" في مرآة ماهيتي. وما حقيقة ماهيتي الا ظلّ لذلك الاسم، فبسرّ تمثله في مرآة حقيقتي صارت نفس حقيقتي محبوبة، لا لذاتها بل بسرّ ما فيها وبقائه ما تمثل فيها أنواع بقاء لها"²⁹ ثم بمضي قاتلاً: "وكذا حسبي من جعلني مظهرًا جامعًا لتجليات أسمائه، وأنعم عليّ بنعمة لا تسعها الكائنات بسرّ حديث "لا يسعني أرضي ولا سمائي. ويسعني قلب عبدي المؤمن" يعني ان الماهية الإنسانية مظهر جامع لجميع تجليات الأسماء المتجلية في جميع الكائنات"³⁰.

والحياة قيمة الوجود وروحه وخلاصته، مهما كانت درجة هذه الحياة ومرتبته من مراتب دائرة الحياة الكبرى التي يتوسط الإنسان نقطة المركز فيها. وكل حياة إنما هي ظل من ظلال اسمه تعالى "الحي" ونور من انوار تجليه على الموجودات.

وحياة الإنسان هي أعمق حياة وأوسعها وأعظمها عنفواناً. وأشدّها تماسكاً وقوةً بين الحيوانات الأخرى على هذه الأرض. ومع ذلك فإنها في حنين دائم وشوق مستمر الى حياة فوق حياتها، ووجود أرسخ من وجودها. وهي تنبئ عن إحساس مُمض من أنها لم تبلغ منتهى ما في مكننتها ان تبلغه من مراقبي الحياة. ولم ترق الى أعلا ما في قدرتها ان تصله من قمم الوجود. وهي تشعر بأنها مهياةً للانقلاب نحو حياة اخرى هي أعمق وأوسع وارقي مما هي عليه في هذه الدنيا.

وهذه الحياة التي يطمح اليها الإنسان، ويتطلع للتحقق بها. ويجد في نفسه إندفاعاً إليها، وإيماءً نحوها، هي الحياة الحقيقية التي دونها كل حياة، وهي حياة الآخرة التي تزيد ولا تنقص، وتتسع ولا تضيق، وتقوى ولا تضعف، وترقى ولا تنزل، وتعلو ولا تسفل، وتعرف ولا تجهل، وتحب ولا تكره، وهي في شوق دائم لله باري الحياة، وكلما ازداد شوقها إزدادت معرفتها، وكلما إزدادت معرفتها إزدادت إرتقاؤها، وكلما إزداد إرتقاؤها إزداد استشرفها، وكلما ازداد استشرفها إزدادت سعته، وكلما إزدادت سعته إزدادت فهمها، وعمقت إدراكها، وشفت بصيرتها، ورهفت حساً، وعلت ذوقاً،

وشرُفَتْ معدناً، وصارت أكثر أهلية للأبدية، وأعلا استعداداً للخلود، الذي وعدّه به المؤمنون. وحين تخفت "الحياة" وتذوب في بودقة "الموت"، فإنها تذوب لتصاغ من جديد كما يصاغ المعدن المذاب في الشكل المراد، لأن صورة "الوجود" قائمة في روح الإنسان لا تبرحه أبداً، كما أن حبّ الحياة منقوش على الماهية الإنسانية، فلا يستطيع سلطان الموت أن يمحوه أو يطمس عليه، فإزاع الحياة في جوهر الإنسان له الغلبة على نوازع الموت، ومحبة البقاء العميقة الغور فيه غالبية لا مجال على عوامل الزوال والفناء، وعند "الحياة" وإباؤها واستعصاؤها على عوامل الموت، تشتعل من جديد عندما يوضع الإنسان في قبره لكي يعي سؤال الملكين ويحسن الإجابة عليه.

وهكذا فما تكاد شعلة الحياة تخفت هنا حتى تشتعل هناك. ولا يكاد الموت يقدم حتى تأتي الحياة على إثره، ومتى نفنا من جهة أتنا الوجود من جهات أخرى. وحين نُنسى ولم يعد يذكرنا احد في عالم الشهادة فإننا نظلّ مذكورين على لسان الغيب.

يقول "النورسي": "نعم! فما دامت "الحياة" هي حكمة خلق الكائنات، وأهم نتيجتها وثمرتها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل إن غاية شجرة الحياة ونتيجتها وثمرتها، ما هي إلا الحياة الأبدية والآخرة. والحياة الحية بحجرها وتراجها وشجرها في دار السعادة الخالدة"³¹.

ما يكاد الرسّام الحاذق ينتهي من آخر لمسة فرشاة في صورته حتى يحسّ تجاهها بمزيج من الحب والإعجاب والإنجذاب، ويتأبه شعور القادر على الخلق من "العدم" والإيجاد من "اللاوجود"، رغم ان الصورة كانت موجودة في خياله ووجدانه قبل اول ضربة فرشاة. وإنه ليهبه جمال خلقه، وآيات صنعه، ويشعر وكأنها - أي الصورة- جزء لا يتجزأ من نفسه ووجدانه، وأنها مُدَابُّ روحه، وعصارة حسّه وشعوره، ويودُّ لو تبعث فيها الحياة ليناغياها ويبادها الأحاديث، ويثبها ما يجد في نفسه من المحبة لها، والإعجاب بها. ولو أوتيت الصورة نفسها حساً وشعوراً لمُرّت إلى رسامها رُتو الوامق المحب، ولنظرت إليه نظر الشاكر الممتنّ، ولو أوتيت لساناً لظلت تُسبِّح بحمده ما وسعها التسبيح والتحميد، لأنه موجدتها وخلقها، فهي مدينة له بهذا الخلق والإيجاد.

فبين الرسّام ولوحته، وبين أي صانع وصنعه علاقة حبّ متبادلة، وإعجاب وامتنان متبادلين، فكل رسّام يجب ما يرسم، وكل صانع يجب ما يصنع.

فالخلق إذن في جوهره حبّ مفاض، والوجود في حقيقته عشق مصور، وحين مجسم، وحيّه تعالى لخلقها وموجوداته ملاً العالم بالكائنات والموجودات، وبالإنسان الذي هو قمة هذه الكائنات والموجودات، فكيف يفني الخالق خلقه الذي أحبه، ويذهب بالوجود إلى العدم الذي أخرج منه، وكيف تنقلب محبته بغضاً ورحمته عذاباً، وكيف يُتصوّر عقلاً أنه - جلّ شأنه- يهدم ما بناه بيديه، ويفكك وجود ما أوجده بقدرته، ويلقي بالإنسان الذي صنعه إلى يَمّ الفناء...؟! هذا لا يُتصوّر أبداً، لأنه تعالى لا يرضى للإنسان الذي اصطفاه لمعرفة ومحبته ان يزول وينعدم بينما سبب الإنعام عليه بالوجود - وهو المحبة والمعرفة- ما زال قائماً لا يزول ولا يحول. فكيف يتصور انعدام المعلول - وهو الإنسان - مع وجود العلة- أي دواعي المحبة والمعرفة - التي لا يمكن ان تنتهي عند حدّ. بل تمضي في الإرتقاء والسّموّ طوراً بعد طور إلى ما لا نهاية، لأن محبة الله الأبدية، ومعرفة سرمدية، فلا بدّ للإنسان من الخلود والدوام لكي يظلّ دائرةً في فلك هذه المحبة والمعرفة اللتين تندّان عن محدوديات

الزمان والمكان. وتظان دائمتين بدوام المحبوب والمعروف، و”النورسي” يشير الى هذا قائلاً: “وهل يقبل العقل - بوجه من الأوجه - ان التقدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة، وذا المحبة الفائقة، وذا الرأفة الشاملة، والذي يحب صنعته كثيراً، ويحبُّ نفسه بما الى مخلوقاته، وهو اشدَّ حباً لمن يحبونه... فهل يعقل ان يفني حياة من هو أكثر حباً له، وهو المحبوب وأهل للمحبة والذي يعبد خالقه فطرة...؟! ويفني كذلك لبَّ الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدى، وبسبب جفوة بينه وبين محبته ومحبيه، ويؤلمه اشدَّ الإيلام، فيجعل سرَّ رحمته ونور محبته معرضاً للإنكار...؟! حاش لله ألف مرة حاش لله³² فالإنسان بمعناه الرفيع المخلوق في أحسن تقويم، مخلوق ليكون مرآة الجمال الألهي الأقدس. ومرآة رحمته ولطفه، وموضع تجليات أنوار أعظم أسمائه: ”الخالق. البارئ. المصور”. فهل يُقبل عقلاً ان الجمال يمكن ان يكسر المرآة التي يبصر بها جماله، او يمحو من الوجود من جعله مثال تجليات أسمائه الحسنى، او يحطم بحسب رحمته، او ينهال بمعاول الإعدام على تماثل إبداعه، او يمضي عابثاً - حاشاه - بأنامل قدرته ليمزق بددا الصورة التي امعن في إبداعها، واتقن في صنعها...؟! هذا ما لا يمكن ان يقول به عاقل، وإن كان الله تعالى لا يُعزَّمُ عليه فهو يفعل ما يشاء حلَّ شأنه. ولكن عادته وسنته جرت بعدم إعدام من جعله موضع نظره. وآية قدرته. ومعجزة خلقه، والذي خلق له الكون وسخره لخدمته، وجعله نظره في الدلالة عليه والإشارة اليه.

فلا تتوهم - أيها الإنسان - “أنك ماضٍ الى الفناء والعدم. والعبث والظلمات، والنسيان والتفسيخ والتحطم والإهشام، والفرق في الكثرة والإندام، بل أنت ذاهب الى البقاء الى الفناء. وأنت مسوق الى الوجود الدائم لا الى العدم، وأنت ماضٍ الى عالم النور لا الى الظلمات، وأنت سائر نحو مولوك ومالكك الحق، وأنت عائد الى مقر سلطان الكون... سلطان الوجود. سترتاح وتنشرح في ميدان التوحيد دون الفرق في الكثرة ابداً. فأنت متوجه الى اللقاء والوصول دون البعاد والفراق³³ .

-17-

لقد اختار الخلود الإنسان مسكناً له رضي بذلك ام لا يرض، واختارت الأبدية روجه مستقراً لها عرف ذلك او لم يعرف، وما في فطرته من حنين الى “اللا محدود” في الزمان والمكان إنما هو من فيض ذلك الروح المسكون بالأبدية. وكلما التأمّت النفس واستجمعت ما تشتت منها في عالم الكثرة. واتحدت وتوحدت صارت قادرة على رؤية التماعات من هذه الحقيقة في آفاق ماهيتها الإنسانية. وصارت اقدر على الإدراك العالي، والفهم الواعي لما تقوله الفطرة. ويوحى به الغيب.

وهكذا يستطيع الإنسان ان يعي معنى كونه جزء من نظام الهي يندرج فيه الإنسان والكون وما وراء الكون في وحدة واحدة هي إشارة الى واحدية الأحد الفرد الصمد الذي خلق الإنسان لمعرفته ومحبته ولن يرضى له غير الوجود حالاً ومآلاً.

ففي مخزون الإنسان نوازع مقاومة لكل ما يمت بصلة الى الفناء والزوال، وعوامل تشبث ملح بالحياة والبقاء مهما كانت هذه الحياة. ومهما كان شكل هذا البقاء! حتى لينقلب أحياناً الى نوع من الحرص المقرز المشين كما يشير القرآن الكريم في وصفه لليهود بأنهم احرص الناس على “حياة” هكذا بالتنكير! وحين تحداهم بأن يتمنوا الموت إن كان صادقين في دعواهم بأنهم أحباب الله وخلصاؤه لم يفعلوا ولن يفعلوا، لأن شجاعة الإيمان كان قد احتفتت من ارواحهم منذ زمن سحيق بتمردهم

وعصيانهم وقتلهم للأنبياء عليهم السلام... وعلى العكس من ذلك مخاطبة خالد بن الوليد رضي الله عنه لجنده: "اطلبوا الموت ترهب لكم الحياة" الدنيوية والأخروية معاً. والإنسان الذي شُرّف وارتقى بالخطاب الإلهي: "كن" لا يمكن ان يكون مثابة للعدم. فهو محصن ضده — "كن" الإلهية التي بعثته الى الحياة، وقلدته الوجود.

فالوجود - للجاحد- ولو في جهنم خير له واكثر رحمة من ان يُذهَبَ به الى العدم، فالوجود رحمة أينما كان وفي اي ظرف من الظروف، بينما العدم اشدّ عذاباً من كل عذاب، فلا مناص للإنسان - مؤمناً او جاحداً - من "كن" الوجود أينما ذهب وحطّ رحاله.

فتمني الكافر "الأ يكون" للخلاص من العذاب هو سقوط في عذاب اكبر واشدّ، ورجيته بالإنسلاخ من موجوديته رغبة مخنوقة لا سبيل لها للتحقق. ولا مناص له من تحمل مسؤوليته عن أخطائه وخطاياها بأنكاره للحياة الآخرة التي هي جوهر كل إيمان على هذه الأرض... وكأنّ النورسي يريد ان يعزي هذا الإنسان ويقول له: إن وجودك في جهنم خير من عدم وجودك مطلقاً، فيخاطبه قائلاً:

"فيا غارقاً في الضلالة - وليس بمستطيع الخروج منها - إن وجود جهنم هو أفضل لك من العدم الأبدى. إذ في وجودها نوع من الرحمة حتى للكفار انفسهم .. نعم إن جهنم دار وجود تؤدي مهمة السحن بحكمة الحكيم الجليل وعدالته، وهي موضع مرعب ومهيب ضمن دائرة الوجود الذي هو الخير المحض"³⁴.

-18-

فالإنسان مصبّ الفعالية الإلهية، والفعالية الإلهية بل "إن كل نوع من انواع الفعالية - جزئياً كان او كلياً - يورث لذة، بل إن في كل فعالية لذة، بل الفعالية نفسها هي عين اللذة بل الفعالية هي تظاهر الوجود الذي هو عين اللذة، وهو انتفاضة بالتباعد عن العدم الذي هو عين الألم"³⁵.

فالعدم ألم اكبر من كل ألم، وبمفهوم المخالفة فإن الوجود فرح. والإيجاد بالضرورة فرح كذلك و"حيث ان صاحب كل قابلية يرقب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما. وإن تظاهر كل استعداد بفعالية إنما هو ناشئ من لذة مثلما يولد لذة. وإن صاحب كل كمال أيضاً يتابع بلهفة ولذة تظاهر كمالاته بالفعالية. فإذا كان في كل فعالية لذة كامنة مطلوبة كهذه، وكمال محبوب كهذا، والفعالية نفسها كمال. وتشاهد في عالم الأحياء تحليات أزلية لرحمة واسعة ومحبة لا نهاية لها نابعة من حياة سرمدية... فلا شك أن تلك التحليات تدل:

إن الذي يحب نفسه الى مخلوقاته، ويحبهم ويرحمهم باسباغ نعمه وألطافه عليهم على هذه الصورة المطلقة، تقتضي حياته السرمدية عشقاً مطلقاً لاهوتياً إذا جاز التعبير ومحبة مقدسة مطلقة. ولذة منزهة سامية... وأمثالها من الشؤون الإلهية المقدسة اللائقة بقديسيته والمناسبة لوجوب وجوده. فتلك الشؤون الإلهية تمثل هذه الفعالية التي لا حدّ لها. وتمثل هذه الخلافة التي لا نهاية لها، تجدد العالم وتبدله وتحضه خضاً"³⁶، فجميع آيات الشكر والحمد والرضى المنطلقة من جميع المخلوقات قاطبة والمنبعثة من سرورهم وفرحهم وابتهاجهم بالنعم والآلاء العميمة عليهم والمتوجهة كلها الى الحي القيوم تولد من الشؤون الإلهية المقدسة التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة والخلاقية المستمرة. تلك الشؤون التي

34- الشعاعات 287

35- اللمعات 585

36- اللمعات 585

يعجز القلم عن التعبير عنها ولم يؤذن لنا بالإفصاح عنها، بل ربما يشار إليها باسماء: “الرضى المقدس” و “الإفتخار المقدس” و “اللذة المقدسة” وما شابهها من الأسماء التي نعبّر بها - نحن البشر - عن معاني الربوبية المنزهة³⁷، ثم إن الإنسان الذي يملك مشاعر دقيقة جداً وكثيرة جداً - وقد لا تنكشف ضمن حياته الا عندما يحفز او يثار - فتظهر تلك المشاعر بأشكال متنوعة وانفعالات مختلفة فإنه بوساطة هذه المشاعر الدقيقة والمعاني العميقة يؤدي مهمة عرض الشؤون الذاتية “للحي القيوم” فمثلاً: الحب والإفتخار والرضى والانشراح والسرور وما شابهها من المعاني التي تتفجر لدى الإنسان في ظروف خاصة. يؤدي الإنسان بما مهمة الإشارة الى هذه الأنواع من الشؤون الإلهية بما يناسب قدسية الذات الأزلية وغناه المطلق وبما يليق به سبحانه وتعالى³⁸.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده الأبق، وإنابته اليه. والرجوع الى طاعته، كما ورد في الحديث الشريف. فإنه لا شك قد فرح بخلقه وصنعه وجعله مرآة لشؤونه الإلهية فرحاً ليس كمثله فرح مما يعرفه البشر، بل فرحاً يليق بذاته الأقدس، فكيف يتصور الأمر كذلك ان الله تعالى يعدم من فرح بصنعه وباهى به ملائكته وأسجدهم له، ورضده لتجليات اسمائه الحسن، “فالفناء والزوال والعدم” مسائل تعبر عن عناوين لأنواع مختلفة من الوجود، وتثمر كثيراً من أطمائه، وإن الشيء الآيل للزوال يترك وراءه اضراباً كثيرة من الوجود، وإن موت ذي حياة وزواله يثمر وجودات كثيرات، ويتركها وراءه ثم يذهب، نعم.. إن الشيء الفاني يظل باقياً من جهات متعددة، فالحبة تموت بالبلى والتعفن، ولكنها تترك مكانها سنبله جامعة لمائة حبة، وهكذا وبناء على هذا السر فإن الخوف من الموت والعدم والتأسف على الزوال ليس امراً في موضعه³⁹ إذا ما عرفت حقيقته.

-19-

لقد عالج النورسي مسألة “خلود الإنسان” كما لم نطلع على احد عالجها مثله، فالذين فرأنا لهم من كتاب هذا العصر، مروا بالمسألة مروراً سريعاً كمن يخاف الخوض فيها، وشغلوا عقولهم بمعالجة قضايا هي بالتأكيد أقل أهمية منها. علماً ان أية قضية دونها لا تصح إلا إذا صحت مقدمتها وأساسها الذي تقوم عليه الا وهو “خلود الإنسان”.

فخلود الإنسان في الآخرة هو أس الأساس في الإيمان. وما لم يتحول هذا الإيمان الى إيمان تصديقي مُبرهن عليه يظل ناقصاً ومعرضاً للتشكك من قبل ضعاف الإيمان فضلاً عن غير المؤمنين أصلاً. وإذا كانت قضايا العصور وإشكالاتها تنتظر رجلها المميز الذي ينجم فيها ليحل عقدها، ويزيل إشكالاتها. فقد اختار هذا العصر الدنيوي الجحود النورسي لكبرى قضاياها وهي قضية الإنسان وخلوده التي كادت تختفي في زخم ما يخوض فيه من إشكالات الدنيا ومتاعها وتعقيداتها فقد شمر عن ساعد الجد وكرس جهده ليشق طريق الآخرة المندرسه ويمهدا ويزينها للراغبين بالسير عليها، واستطاع برسائله ان يدير وجه الإنسان الى آخرته. بعد ان كان بريق الدنيا قد اخذ ببصره. وعلمه كيف يلتفت الى آخرته التي اليها معاده وصريرته عاجلاً أم آجلاً. ولا يشك احد في ان الرجل قد ملأ فراغاً كبيراً كانت تشكو منه المكتبة الإسلامية الفتية حين جعل من “خلود الإنسان” منطلقاً لكل معالجاته الإيمانية والإسلامية.

37- اللغات 587

38- اللغات 596

39- اللغات 504 - الهامش الأول.

أهل الكتاب والقرآن

قراءة في ضوء رسائل النور

أ.د. عبد العزيز شهير^P

1876 — 1960 هذه هي الفترة الزمنية التي عاش فيها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله. وهي فترة حبلى بالأحداث الكبيرة. وخلاها برز اسم بديع الزمان أستاذا مجددا ومرشدا ومعلما كثر طلابه وعظم تأثيره .

وفي حمأة محاولات الإطاحة بدولة الخلافة العثمانية وما تمثله تلك الإطاحة من ضربة للعالم الإسلامي وللخلص من المسلمين¹، وفي خضم اشتداد شوكة دول المنظومة الفكرية المسيحية، وازدهار أطروحات الاستعمار واستفحال دعاوى الانتصار للفكر القومي والدولة الوطنية القومية، وتنامي المد الشيوعي وانتشار الصهيونية²، وتأسس الأحلاف وانتظامها في معسكر شرقي ماركسي وآخر غربي أطلسي رأسمالي ليبرالي . . . في خضم كل ذلك، أبي الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي إلا أن يبيي فكرا إسلاميا تجديديا³ يقارع كل تلك الدعاوى انطلاقا من معجزة القرآن الكريم ومعانيه الخالدة.

إن علم الأستاذ النورسي خلاصة تأمل عميق في آي كتاب الله المبين، وعصارة تدبر وتفكر في أسرار الذكر الحكيم. تدبر وتأمل ارتبط فيهما الإيمان بالعقل، فكان أن تمثل كل ذلك في أسلوب من

P من مواليد مدينة العرائس - المغرب. أكمل دراسته بجامعة غرناطة قسم الدراسات السامية ودرس بجامعة الكومبلوتنسي قسم الدراسات العبرانية والآرامية وتاريخ الأديان في إسبانيا وحصل على الدكتوراه سنة 1991 شغل منصب رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بنطوان واعتمد خبيرا في أكاديمية المملكة المغربية في الدراسات الموريسكية وهو رئيس وحدة البحث في تاريخ الأديان والحضارات الشرقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان - المغرب. نشر أبحاثا بالعربية والإسبانية والفرنسية وترجم عن العبرانية والإسبانية القديمة والبرتغالية القديمة واللاتينية.

1 - لقد كان إحساس الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي بهذه الطعنات عميقا يقول : " لقد كنت أحس بأن هذه الضربات السني وجهت إلى العالم الإسلامي كأنها وجهت إلى أعماق قلبي " انظر مؤلف رسائل النور ومؤسس جماعة النور بديع الزمان سعيد النورسي نظرة عامة عن حياته وآثاره. إحسان قاسم الصالحى. ص 49، ط 2، دار سوزلر، استنبول 1987.

وانظر أعمال المؤتمر العالمي لبديع الزمان النورسي : تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين ط 1 استنبول 1996 .

2 - انظر قصة الأستاذ مع الصهيوني عمانوئيل كراصو في المرجع السابق ص 30

3 - انظر مؤلف النورسي متكلم العصر الحديث ، د محسن عبد الحميد ، دار سوزلر للنشر، القاهرة 1995.

التأليف عجيب وفي طرائق من التفسير غير مسبوقه، وكانت (رسائل النور) آية «أجملت أعنى المعاندين الملحدين وأفحمتهم وأثبتت ما كان يظن بعيدا عن العقل كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني للمعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حضيرة الإيمان ، فرسائل هذا شأنها لا بد أن العالم — وما حوله — بأجمعه سيكون ذا علاقة بها ...»⁴.

لقد اجتهد الأستاذ النورسي رحمه الله عبر رسائل النور وآثار أخرى، واستطاع أن يبين للعالم ثبات حقائق القرآن الكريم وانفتاح أسلوبه على كل العصور وكل الثقافات حتى الثقافة الحديثة. واستطاع أن يؤسس نسقا فكريا واجه الطروحات المعاصرة وبين أن الفكر الإسلامي فكر يقبل التجدد والتطوير دون أن يبتعد عن الأسس القرآنية الثابتة . وقد استوقفتني أثناء قراءتي لآثار النورسي السياقات التي تحدث فيها رحمه الله عن أهل الكتاب وعن النصرانية واليهودية. لقد تشكل موقفه عنهم من خلال ما استخلصه من الآيات القرآنية المتعلقة بهم.

ميز الأستاذ النورسي في رسائله بين فصائل متعددة:

أهل التثليث ، أهل الضلالة، أهل الغفلة، أهل الكتاب، أهل الهداية، أهل الحقيقة، أهل الإيمان، أهل القرآن وضمن كل خانة من هذه الخانات تدرج جماعة من الناس اختارت لنفسها نهجا وطريقا، ورسمت لها نسقا فكريا خاصا، وتميزت بموقف من الوحي الإلهي وفهم خاص له. وعلى اختلاف فهمها وموقفها انقسمت أقساما ثلاثة:

قسم فهم مقاصد الوحي ووعى حقائق التنزيل فلم يبدل ولم يغير.

وقسم طال عليه الأمد فاتبع هواه وبدل وغير كلام الله عن مواضعه، وبقي جزء من هذا القسم يبحث عن طريق الله وسيدرك لا محالة القسم الأول ويتحالف معه لمحاربة أهل الزندقة .

وقسم ثالث رأى الضلالة نهجا ومسلكا ومآله الخسران.

وضمن القسم الثاني يدرج الأستاذ النورسي قسما من أهل الكتاب يرى أنهم أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الكريم. يتعلق الأمر هنا بذلك القسم الذي اقترب من التوحيد؛ يقول : «سنجد النصرانية أمامها الانطفاء أو الاصطفاء . وسوف تلقي السلاح وتستسلم للإسلام. لقد تمزقت عدة مرات، حتى آلت إلى "البروتستانتية" ولم تسعفها كذلك، وتمزق الستار مرة أخرى، فوقع في ضلالة مطلقة. إلا أن قسما منها اقترب من التوحيد، وسيجد فيه الفلاح. وهي الآن على وشك التمزق، إن لم تنطفئ فإنها تنطفئ وتكون ملك الإسلام (إذ تجد نفسها أمام الحقائق الإسلامية الجامعة لأسس النصرانية الحقيقية) هذا سر عظيم أشار إليه الرسول الكريم بنزول عيسى عليه السلام، وأنه سيكون من أمته ويعمل بشريعته»⁵.

إن هذه الحقيقة القرآنية تحكم كل السياقات التي يرد فيها ذكر أهل الكتاب وديانات أهل الكتاب. ومادام الدين عند الله الإسلام من آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، ومادام سياق النبوة واحدا، ومادام المصدر واحدا، فإن على أهل الكتاب تصحيح عقيدتهم بالعودة إلى التوحيد الخالص، وليس هناك حسب الأستاذ النورسي معين يمكنهم النهل منه أثناء عملية التصحيح والاندراج في سلك سياق النبوة أوفى من القرآن الكريم. إن النصرانية الحقيقية ليست حسب الأستاذ النورسي إلا تلك التي وردت معالمها في القرآن الكريم ويوم يتدبر أهل الكتاب آيات القرآن

4 - دليل الخدمة لتلاميذ القرآن ص 24 نقلا عن كتاب أستاذنا إحسان قاسم السالف الذكر.

5 - اللوامع، ملحق بـ "كليات رسائل النور" 1. الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحى ، ص 845 ، ط 1 . دار سوزلر استنبول 1992 .

الكریم سیلاحظون حقائق كتبهم تتكامل فيه، وسیدركون عندئذ أن لا اكتمال لعقائدهم إلا به. يقول الأستاذ: " إن أهل هذا العصر الذي اغتر بنفسه وأصم أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى وأهل الكتاب منهم خاصة أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ" يا أهل الكتاب يا أهل الكتاب " حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إذ لفظ أهل الكتاب يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضا، فالقرآن يطلق نداءه في أجواء الآفاق ويملاً الأرض والسبع الطبايق بكل شدة وقوة و بكل نضارة و شباب فيقول: { يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم }⁶."

إن لقاء أهل القرآن و أهل الكتاب أمر قرره القرآن الكريم و حدد عناصره و حدوده: 1 - ألا نعبد إلا الله، 2 - ولا نشرك به شيئا، 3 - ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. وأي لقاء غاب فيه عنصر من تلك العناصر الثلاثة ملغى و نتيجته محددة في قوله تعالى: {فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}⁷

يرى الأستاذ النورسي أن عبارة أهل الكتاب تشمل أهل الثقافة الحديثة بكل مكوناتها و توجهاتها. وما دامت هذه الثقافة الحديثة و معها المدنية الحديثة قد استفادت في بنائها من محاسن الأديان السابقة فإنها مدعوة إلى التدبر في القرآن الكريم. و إذا ما كان لها ذلك فسوف تدرك أنها تبقى دون حكمة القرآن، هذه الحكمة التي تقبل (الحق) نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من (القوة)، و تجعل رضى الله و نيل الفضائل غاية و هدفا عوض (المنفعة) و تتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، و تلتزم رابطة الدين بدلا من العنصرية و القومية السلبية...⁸

إن القرآن وحده استطاع توضيح ذلك الخيط الرابط بين جميع الرسل و الأنبياء السابقين و بين الكتب المنزلة { قولوا آمنا بالله و ما أنزل علينا و ما أنزل على إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط و ما أوتى موسى و عيسى و النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون }⁹، انه إذن كتاب جامع لحقائق الكتب السابقة في أصح صيغة و أعجز أسلوب. و ما دام الأمر كذلك فلأهل الكتاب يهودا كانوا و نصارى سواء كانوا من الفريق المتمسك بنصوص الكتب المقدسة في صيغتها المحرفة و المبدلة، أو كانوا من أهل الثقافة الحديثة ممن انطلقوا من محاسن الأديان و بنوا فلسفات و شرائع ارتضوها منها، مدعوون إلى الوقوف على حقائق القرآن الخالدة و علي دين الإسلام الذي تندرج اليهودية و النصرانية في سياقه { إن الدين عند الله الإسلام }¹⁰ و { ما كان إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين }¹¹، و الآية الأخيرة إذا كانت وفرت في السابق ردا قاطعا على من ادعى نصرانية إبراهيم عليه السلام أو يهوديته، فإنها جواب على دعاة الدعوة الإبراهيمية في العصر الحديث. يرى الأستاذ النورسي أن ما ورد من أسس الكتب السابقة في القرآن الكريم دليل على المصدرية الألفية لهذا القرآن و دليل على نبوة محمد عليه الصلاة و السلام، و هو أمر يمكن لأهل الكتاب الوقوف عليه من خلال قراءة ناقدة لكتبهم و من خلال قراءة القرآن الكريم. إن الكتب السماوية

6 - الكلمات ترجمة، إحسان قاسم الصالحى، ص 471 - 472 .

7 - سورة آل عمران الآية 63.

8 - الكلمات، ص 472 - 473.

9 - سورة آل عمران الآية 83.

10 - سورة آل عمران الآية 19

11 - سورة آل عمران الآية 66.

حسب الأستاذ النورسي رحمه الله ، و على ما اعترافها من تبديل و تغيير ظلت تحتفظ ببصمات دالة على أصالتها و مصدريتها ، و من شأن تلك البصمات أن تكون دافعا لأهل الكتاب من أجل التصحيح. يرى الأستاذ أن ورود بشارات متعلقة بمحمد صلى الله عليه و سلم في الكتب السماوية السابقة أمر ضروري و قطعي ، إذ لا يمكن لتلك الكتب أن تهمل ذكر حادثة البعثة المحمدية أعظم حادثة في تاريخ البشرية و تذكر حوادث جزئية. يقول الأستاذ النورسي في شأن الآية الكريمة : **{والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هو يوقنون}**، ان فيها " عطف الدليل على المدلول، أي: " يا أهل الكتاب إذا آمنتم بالأنبياء السابقين والكتب السالفة لزم عليكم أن تؤمنوا بالقرآن و بمحمد عليه السلام، لأنهم بشروا به، ولأن مدار صدقهم، ونزولها و مناط نبوتهم يوجد بحقيقته و بروحه في القرآن بوجه أكمل و في محمد عليه السلام ... " ¹² وقد وقف الأستاذ النورسي عند كثير من جمل الإنجيل و التوراة بشرت بهذا النبي الذي ستألفه معه الشريعة الإلهية بعد أن جاءت من سيناء و أشرفت في سَيَعَر ¹³. إن دليل وجود تلك البشارات في الكتب السالفة أمر أقره القرآن الكريم، و تجلّى ذلك بشكل واضح في الآية الكريمة على لسان عيسى عليه السلام: **{وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة. و مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد}** ¹⁴، وقد أورد الأستاذ خبر كثير من أهل الكتاب ممن : " نبذوا الخصومة و العناد و آمنوا بالإسلام بعدما رأوا أوصاف النبي صلى الله عليه و سلم في كتبهم، و بينوا لغيرهم من العلماء فالزموهم الحجة " ¹⁵.

إن تقبل أهل الكتاب لحقائق القرآن و نبوة محمد عليه الصلاة و السلام أمر لا يخرجهم عن قشرهم فكثيرهم لازالت تنطق ببشارات متعلقة بهذا الرسول الكريم، و هم إن صدقوا بتلك البشارات أذعنوا لحقائق القرآن الكريم و آمنوا بمصدريته الإلهية . و إن في الآية الرابعة من سورة البقرة مثلا : " إشارة إلى تشويق أهل الكتاب على الإيمان و تأنيسهم، و التسهيل عليهم. كأنه يقول: " لا يشقن عليكم الدخول في هذا السلك، إذ لا تخرجون عن قشركم بالمرّة إنما تكملون معتقداتكم، و تبنون على ما هو مؤسس لديكم " إذ القرآن معدل و مكمل في الأصول و العقائد، و جامع لجميع محاسن الكتب السابقة و أصول الشرائع السالفة. إلا أنه مؤسس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان و المكان؛ فكما تتحول الأدوية و الألبسة في الفصول الأربعة، و طرز التربية و التعليم في طبقات عمر الشخص؛ كذلك تقتضي الحكمة و المصلحة تبدل الأحكام الفرعية في مراتب عمر نوع البشر ... ¹⁶

إن ما بين القرآن الكريم و بعض ما ورد في الكتب السماوية من اتفاق سيدف المسلمون و فريق من أهل الكتاب إلى التقارب و الاتفاق من أجل دفع عدو مشترك واحد هو الملحد المعتدي يقول: " لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستنديين إلى أهل القرآن للوقوف معا تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فأهل الإيمان و الحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين

12 - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي ص 58 - 59. ط 1 دار سوزلر استنبول 1994.

13 - كليات رسائل النور، 2 المكتوبات تأليف بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص 219 - 234، ط 1، دار سوزلر، استنبول 1992.

14 - سورة الصف آية 6.

15 - المكتوبات ص 221.

16 - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص 59.

المتدينين الحقيقيين من النصارى، فتركوا مؤقنا كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعا لعدوهم المشترك الملحد المعتدي " 17 .

والأستاذ بهذا يضع استراتيجية في اللقاء بأهل الكتاب تقوم على حقيقة ثابتة هي تقارب أهل القرآن مع المتدينين الحقيقيين من النصارى من أجل محاربة الإلحاد مع تجميد لكل المناقشات والخلافات.

أما الجولة الأخيرة من هذا التقارب واللقاء فحين تسلم النصرانية أمرها للإسلام ويتحقق ما أشار إليه الرسول الكريم بنزول عيسى عليه السلام وأنه سيكون من أمته ويعمل بشريعته¹⁸. إن الفرق بين الإسلام وسائر الأديان ومنها النصرانية حسب بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله هو التوحيد الخالص وهو أمر يبعد المسلمين حكاما ومحكومين من الغرور والتكبر ويلغي الوساطات بين المسلم وخالفه. ومادام هذا التوحيد أصلا، فسوف يدعن لحقيقته أهل الكتاب في آخر المطاف.

خلاصة القول أن الأستاذ النورسي في حديثه عن أهل الكتاب ظل منسجما مع ما ورد في شأنهم في القرآن الكريم، وظل موجهها بما تفره حقائق القرآن الكريم إنه على يقين ثابت من انسجام أهل الكتاب مع الإسلام في آخر الزمان ومن انتصار حكمة القرآن الكريم.

{ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين }¹⁹.

و بخصوص إقامة أهل الكتاب في الدولة المسلمة نجد الأستاذ النورسي يؤمن بضرورة تحقيق مساواة بينهم وبين رعايا هذه الدولة من المسلمين مساواة ينبغي أن توصل من القرآن الكريم وتسترشد بما هو حي من تاريخ الدولة في الإسلام . و بمقابل ذلك اهتم الأستاذ بديع الزمان النورسي بالجالية المسلمة المقيمة في الدول الأوروبية المسيحية .

مصادر ومراجع

- 1 - القرآن الكريم
 - 2 - كليات رسائل النور تأليف بديع الزمان سعيد النورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي:
 - الكلمات ط 1 - استنبول 1992. المكتوبات ط 1 - استنبول 1992.
 - اللمعات ط 1 - استنبول 1993. الشعاعات ط 1 - استنبول 1993.
 - إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز (تحقيق) ط 1 - استنبول 1994.
 - 3 - بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي. ترجمة أورخان محمد علي. ط 1 استنبول 1997.
 - 4 - بديع الزمان سعيد النورسي - نظرة عامة عن حياته وآثاره ، إحسان قاسم الصالحي. ط 1 استنبول 1987.
 - 5 - المؤتمر العالمي الثالث لبدیع الزمان سعید النورسي تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين ط 1. استنبول 1996.
 - 6 - بديع الزمان النورسي فكره ودعوته. المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الأردن) مركز بحوث رسائل النور ط 1 . 1997.
 - 7 - بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي ، ط 1 . دار سوزلر القاهرة 1993.
 - 8 - النورسي متكلم العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد . القاهرة 1995.
-
- 17 - اللمعات وانظر مقال الحوار بين المسيحية والإسلام أورسولا سيولر، ضمن بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، ص 37 ، ط 1 ، استنبول 1997.
- 18 - اللوامع، ملحق بالكلمات، ص 845.
- 19 سورة آل عمران الآيات 63 - 67.

أهمية معرفة الانسان

أ.د. عبدالله اوزبك^P

مدخل :

توجهت الرسالة الالهية الى الانس والجن من بين المخلوقات. ومقصود خلقهما كلاهما العبودية لله.¹

وقد وهب الانسان العقل ليستقيم له تحصيل هذه الغاية.² ومن خصوصيات العقل الاساسية" البحث عن السبب، وتفسير الشئ او الحادث بربطه بشئ او حادث آخر. ويلجأ سعيد النورسي الى هذه الخصوصية عموماً حينما يتطرق الى اثبات وجود الله وصفاته. وتمثيله التقليدي هو ان "لا حرف بغير كاتب، ولا قانون بغير حاكم".³ ويمثل لاثبات حكمة الله الظاهرة في افعاله كلها، بحسن تقويم الانسان والسمو في اعضائه وتناسقها وفوائدها.⁴ إن هذه الامثلة نماذج في غاية الحسن من اجل "تربية العقل"⁵

"لم يُقرّ ان العقل وحده كاف للانسان. فقد اسند بارسال النبي والكتاب" "من جهة اخرى، الانسان مصعّر للعالم الكبير" ⁶ مع ذلك، سخرت الكائنات لخدمته. ان الانسان وجود اصيل ومنتشعب. والقرآن والحديث يعرفان الانسان بأوجهه المتنوعة. كذلك النظم العلمية المتطورة تعين على معرفة الانسان وفهمه. ان المعرفة والعلم بالمادة الاولية ضرورية لتحويلها الى مادة مصنوعة. كذلك معرفة الانسان ضرورية للارتقاء الى مقام "العبودية" السابق. والرسائل⁷ تصرف النظر الى فطرة الانسان في كثير من المواضيع، وتقدم معلومات منهجية بشأن كيفية توجيهها. بل تأخذ الخصوصيات المتنوعة للفطرة بنظر

P من مواليد سنة 1950 في اوردو. أكمل دراساته العليا في قونية وانتدبته الدولة الى العراق سنة 1980 وحصل على الدكتوراه سنة 1985 واصبح أستاذاً سنة 1995 وكان مساعد العميد لكلية الإلهيات في جامعة سلجوق سنة 1995-1996 وحالياً رئيس قسم التعليم الديني فيها. له أبحاث كثيرة وستة مؤلفات منشورة .

1 - الذاريات / 56

2 - العقل جهاز في خدمة الانسان، فاذا استخدمه لخدمة نفسانيته اورثه الخسار. انظر سعيد النورسي، الكلمات (ص 28)

3 - النورسي، سوزلر (الكلمات) ص 61

4 - النورسي، سوزلر (الكلمات) 68

5 - النورسي، سوزلر 61 - 69

6 - النورسي - سوزلر 43 - 68

7 - اينما وردت كلمة "الرسائل" فالمقصود رسائل النور.

الاعتبار حتى في اثبات الخالق وضرورة العبادات.⁸ وارى ان سر "تربوية الرسائل" يكمن ههنا. " والبحث عن السبب، وتفسير الشئ او الحادث بربطه بشئ او حادث آخر" من اهم خصوصيات العقل، كما ذكرنا آنفاً.

في مواضع كثيرة من الرسائل، يورد سعيد النورسي انتقادات الى المتصوفة والمتكلمين في فهمهم لعالم الوجود وبالتالي تعريفهم للانسان. فهو يرد رداً قاطعاً رفض المتصوفة للوجود بقصد إجلال الله، يعني "لا موجود إلا هو" او "لا مشهود إلا هو" ، واغفالهم الكائنات باسدال ستار النسيان عليها.⁹ فيؤكد على أن "لا معبود إلا هو" وعلى أن "لا مقصود إلا هو" ، ف "الاصل هو ادراك ان كل خصوصية ظاهرة في الاشياء هي فعل لفاعل. هذا نهج القرآن.¹⁰

ان هذه المفاهيم موضوع مهم للتدبر في ميدان علم التوحيد. ومعرفتنا للانسان ينفعنا في معرفة ما ينبغي ان يكون ايضاً. وارى ان تدقيق الرسائل من هذه الزاوية، يمهد الطريق للفهم ويحقق فائدة كثيرة.

الخصوصيات الفطرية في الرسائل :

أ - الانسان مخلوق متشعب ومتنوع التوجهات:

اهم فارق يميز الانسان عن غيره من الاحياء، أنه يجئ الى الدنيا بغير علم. اما الاحياء الأخرى، فتاتي مبرمجة، ثم لا تتطور في حياتها الى الامام. ان الانسان يحل في الدنيا حاملاً معه مجموعة من المواهب والنويات الحياتية - النفسية ومن الضروري ان تتطور هذه المواهب والنويات. يعني ان الانسان وجود ذو ملكات (قابليات) وليس من الحكمة ترك هذه الملكات على حالها ، بل المطلوب تطويرها وتحسينها بالتربية والتعليم، كما قال كانط: "الانسان لا يكون انساناً إلا بالتعليم"¹¹ بينت الرسائل هذه الحقيقة في مواضع كثيرة باوجهها المتعددة، واولها احتواء الانسان على الآلاف من الاحاسيس وضرورة التنبيه اليها :-

" فأظن ان سبباً من اسباب غياب التأثير لنصح الناصحين في زماننا هو : قولهم لاناس فاقدى الاخلاق :- لا تحسد! لا تحرص! لا تعادي! لا تعاند! لا تحب الدنيا! فهم يحملونهم بعشرات التكاليف مما لا تطاق ظاهراً فكأنهم يقولون: استبدل فطرتك ولو انهم قالوا: "وجهوا وجهة هذه الامور الى الخير، وبدلوا مجراها" لحصل تأثير للنصح ولوقع امر التكليف في دائرة اختيارهم."¹²

"مراتب الارتقاء والهبوط في الانسان لا تحصر ولا تحصى. لذلك صار الانسان هدفاً للشيطان. فلا يتسلط الشيطان على الملائكة ولا على الحيوانات لثبوت مراتبهم.

8 - النورسي ، سوزلر - 23

9 - النورسي، مکتوبات، 338 - 339

10 - النورسي، المکتوبات، 341 - 342

11 - انظر Takiyettin Mengusoglu, Felsefi Antropologinin Isiginda Egitim, Sh13-15.T.T. Kurumu ANK. 1977

12 - النورسي - المکتوبات 33 - 34

اما الانسان، ففيه بعد طويل للارتقاء، بدءاً من "النمارة" و "الفراغنة" الى الصديقين الاولياء والانبياء"¹³.

ويفسر سعيد النورسي الطرد من الجنة بهذا المنظار فيقول. " ... لولا طرد آدم عليه السلام من الجنة، لما انكشفت الاستعدادات البشرية."¹⁴ وقد سئل سعيد النورسي عن وجه التوفيق بين الأيتين الكريمتين " ولقد كرمنا بني آدم ... "¹⁵ و " ... انه كان ظلوماً جهولاً " ¹⁶ فاجاب:

ان الحق سبحانه وتعالى يخلق بكمال قدرته اشياء كثيرة من شئ واحد، ويجعله قائماً بوظائف كثيرة ويكتب الف كتاب وكتاب في صحيفة واحدة. فهكذا خلق الانسان نوعاً جامعاً لكثير من الانواع. يعني اراد انفاذ وظائف بقدر الدرجات المتنوعة لأنواع الحيوانات كافة بنوع الانسان الوحيد. فلم يضع حداً لقوى البشر واحاسيسه بالفطرة. يعنى لم يقيدھا بالفطرة، بل تركھا حرة. اما قوى سائر الحيوانات واحاسيسها فهي محدودة، ومقيدة بقيد الفطرة. والحال ان قوى الانسان كلها تجول في ابعاد بغير حدود تقرب من اللانهاية. لقد منحت قواه استعداداً لا نهاية له، لان الانسان مرآة لتجليات لا نهاية لها لاسماء خالق الكائنات.

فمثلاً: لو اعطي الانسان الدنيا برمتها، لقال بحرصه: هل من مزيد؟¹⁷ وهو يرضى بالحق الضرر بالوف من الناس في سبيل انانيته ومنفعته الذاتية.

وهكذا قد ينكشف الانسان في الاخلاق السيئة بدرجات لا حد لها تصل به الى دركات النمارة والفراغنة فيكون "ظلوماً" بصيغة المبالغة، وقد تفتتح امامه درجات الرقي بلا نهاية في الاخلاق الحسنة حتى يرتقي الى مرتبة الانبياء والصديقين.

ثم ان الانسان - بخلاف الحيوان جاهل بكل ما يخص الحياة ويلزمها ومضطر الى تعلم كل شئ.¹⁸ فهو "جهول" بصيغة المبالغة لانه محتاج الى ما لا يحد من الاشياء.

اما الحيوان، فهو اذ يفتح عينه على الحياة لا يحتاج إلا الى اشياء يسيرة. فضلاً عن انه يتعلم شروط حياته في شهر او شهرين او في يوم او يومين، وربما في ساعة او ساعتين. فكأنه اكتمل في عالم آخر ثم جاء. اما الانسان، فلا يقدر على الوقوف منتصباً بالاعتماد على نفسه إلا بعد سنة أو سنتين، ولا يعرف نفعه من ضره إلا بعد خمس عشرة سنة.

والمبالغة في (جهولاً) تشير الى هذا ايضاً¹⁹

ان اسباب تنوع التوجهات وتشعبها في الانسان هي:

1 - اراد الله ان يذيق الانسان انواع الانعم كلها.

2 - ليكون طالباً وراعياً لكل نوع من انواع النعم.

13 - المصدر السابق 43 - 44

14 - المصدر السابق 42 - 43

15 - الاسراء / 70

16 - الاحزاب / 72

17 - ورد هذا التعبير في القرآن الكريم في جهنم: "يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد؟" (ق -

30) فكأنه يشبه الحرص على المال في النفس الانسانية بحرص جهنم على العصاة.

18 - فالانسان من هذه الجهة مخلوق للتعلم.

19 - المصدر السابق ص 340

3 - ليعرض الانسان التجليات اللانهائية لاسمائه الحسنی في الحسیات والمشاعر.²⁰

ب - الانسان مخلوق طالب :

يبين سعيد النورسي شعور الانسان بالطلب في ايضاحه للآيتين الكريمتين "ادعوني استجب لكم..."²¹ و " قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم"²² فيقول: "لولا ارادته بالعطاء لما جعل الطلب"²³ يعني الاحساس بالطلب.

ج - الانسان ميت لا محالة :

حقيقة الموت، من أعظم ما يشغل الفكر البشري. من زاوية اخرى للنظر: حقيقة الموت يشكل فلسفة الحياة. فلا مرأ في اختلاف نمط الحياة اختلافاً واسعاً عند من يرى الموت عدماً أو يفهمه عبوراً الى حياة جديدة اخرى.
" كل نفس ذائقة الموت"²⁴ هذا حق صريح، لا مفر من الاقرار به، إنما المسألة في الايمان بالأخرة أو إنكارها. فعلم النفس المعاصر والعلوم الاخرى المهتمة بالانسان تقرر بداية حياة الانسان بالاحصاب ونهايتها بالموت. وهو المفزع والمهول. ونعرف بالقرآن الكريم ان المادة الاساسية في الخلق الاول للانسان هي التراب، ثم قانون الاحصاب بعد ذلك... وان الموت مرحلة عبور.²⁵
وقد ورد في الرسائل :

" ان الموت في حقيقته تسريح وانهاء لوظيفة الحياة الدنيا. وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة الى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها. اذ كما ان مجئ الحياة الى الدنيا هو بخلق وبتقدير الهي، كذلك ذهابها من الدنيا ايضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير الهي، لان موت ابسط الاحياء - وهو النبات - يظهر لنا نظاماً دقيقاً وابداعاً للخلق هو اعظم من الحياة نفسها وانظم منها. فموت الاثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحلاً هو في الحقيقة عجن لتفاعلات كيميائية متسلسلة في غاية الانتظام وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان.

وتركيب وتشكل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، حتى ان هذا الموت الذي لا يرى بنظامه الحكيم ودقته الرائعة، هو الذي يظهر في حياة السنبل. موت البذرة اذن هو مبدأ حياة السنبل. بل هو بمثابة عين حياتها. لذلك، الموت ايضاً مخلوق ومنتظم بقدر الحياة.

وان ما يحدث في معدة الانسان من موت لثمرات حية او غذاء حيواني هو في حقيقته بداية ومنشا للحياة الانسانية، فهذا الموت مخلوق ومنتظم ارقى من حياتها. فلئن كان موت النبات - وهو في ادنى طبقات الحياة - مخلوقاً ومنتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الانسان وهو في ارقى طبقات الحياة؟ فلا شك ان موته

20 - لمعلومات اكثر تفصيلاً انظر: النورسي - شعائر (الشعاعات) ، 57 - 58

21 - غافر / 60

22 - الفرقان / 77

23 - المصدر السابق ص 310

24 - آل عمران / 185

25 - انظر: المؤمنون / 16 - والحج / 5

هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة فوق الارض.
اما كيف يكون الموت نعمة؟

فالجواب: سنذكر اربعة وجوه فقط من اوجه النعمة والامتنان الكثيرة للموت.
اولها : الموت انقاذ للانسان من اعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الاحبة الاعزاء في عالم البرزخ فهو اذن نعمة عظيمة.

ثانيها : انه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب ودخول الى رحمة المحبوب الباقي في حياة سرور وفسحة وراحة وبقاء.

ثالثها : ان الهرم وامثاله من الاسباب الداعية لجعل الحياة عسيرة ومرهقة، تظهر ان الموت اعظم انعاماً من الحياة. فلو تخيلت اجدادك مع احوالهم المؤلمة قابعون امامك الآن مع والديك وقد بلغا ارنذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة والموت نعمة. بل يمكن ادراك سعة الرحمة في الموت وشدة العسر في ادامة الحياة بالتأمل في الحشرات الجميلة العاشقة للزهور اللطيفة عند اشتداد البرد القارس عليها شتاء.

رابعاً : كما ان النوم راحة للانسان ورحمة، لا سيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت - وهو اخو النوم - رحمة ونعمة عظيمة للمبتلين ببلايا عظيمة قد تدفع الى الانتحار.

اما اهل الضلال، فالموت لهم كالحياة نقمة عظيمة وعذاب في عذاب كما اثبتنا ذلك في "كلمات" متعددة اثباتاً قاطعاً، وذلك خارج بحثنا هذا.²⁶

د - الانسان مخلوق يمتلك حس الخلود :

الانسان يمتلك حب الخلود بالفطرة بآماله وآلامه اللانهائية.²⁷ والحقيقة انه خلق للخلود،²⁸ لان الدنيا بخصائصها لا توفي باحتياجاته.²⁹ ولو انه لم يخلق للخلود، لما جعله الله بهذا الحال.³⁰ ونجد الميل الى الخلود في قصة خروجه من الجنة ايضاً. فقد كان لأدم وحواء أن يأكلا من اشجار الجنة كلها ما عدا شجرة واحدة، وكان الشيطان المعترض على خلقهما من البداية يريد ان يجد سبيلاً الى عصيانهما بالاكل من تلك الشجرة ورفع حس الحياء منهما، والبرهان من هنا بانه خير منهما.³¹ فتوسل بوسيلتين للوصول الى غايته :-

1 - "فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما وري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين"

2 - اظهار النصح والخير "وقاسمهما اني لكما من الناصحين"

26 - المصدر السابق ص 7 - 8
27 - النورسي - الشعاعات - 85
28 - النورسي - سوزلر - 92
29 - النورسي - سوزلر - 69
30 - النورسي - سوزلر - 91
31 - البقرة/ 34 - 35 والاعراف/ 20

ان الميل الى حياة الملائكة والى الخلود من الاحاسيس السامية، فدخل الشيطان على الانسان بالسوسة من هذا الباب ليقوده الى المعصية.³² ويعني ذلك ان الشيطان يحرك خوامد النيران في نفس الانسان.

هـ الانسان مخلوق عاجز وضعيف : "وخلق الانسان ضعيفا"³³

ويشير بديع الزمان النورسي الى ضعف الانسان في مباحث كثيرة من رسائل النور، في مقدمتها مباحث اثبات وجود الله سبحانه. يقول في "الشعاعات".
"ان حياتي بعجزها وضعفها، وبفقرها واحتياجاتها، مرآة تعكس قدرة خالق الحياة وقوته، وغناه ورحمته. فكما تعرف درجات لذة الطعام بدرجة الجوع، ومراتب الظلام بمراتب النور وبمقياس البرودة ميزان الحرارة، كذلك علمت بقدرة خالقي اللانهائية ورحمته غير المحدودة بالعجز والفقر غير المحدود لحياتي مع ازالة احتياجاتي اللامحدودة ودفع اعدائي غير المعدودين. ففهمت واخذت وظيفة السؤال والدعاء واللجوء والتذلل والعبودية."³⁴

و - مخلوق ذو وجدان وضمير :

الوجدان هو مايسرنا اذا قمنا بعمل مفيد ويحزننا اذا قمنا بعمل مضر.³⁵ وهو بمعنى آخر الحس السليم او العقلانية. الوجدان او الضمير صوت يدعونا الى الخير وينهانا عن الشر. ويقوم تصرفاتنا الاخلاقية.

الوجدان محكمة كامنة داخل الانسان، بها يحس عذاباً في اغواره اذا فعل شراً.³⁶ ولا شك ان الوجدان لا يصل الى الحقيقة لوحده، بل يحتاج الى توجيه وتربية لبلوغ الخير. وبعبارة اخرى فقد يفقد الانسان الصراع الداخلي في نفسه ولا يحس بعذاب الضمير ازاء الشر. ويمكن تشبيه الوجدان ببرنامج الكمبيوتر، بمعنى انه يعمل حسب الهدف الذي يبرمج له. ويقول سعيد النورسي : "... لكن وجدانا سقط في اسفل السافلين، يبيع دينه بالدنيا عن علم ... "³⁷

ز - مخلوق ذو نفس :

كلمة النفس في القرآن تعني قوة حيادية هي ذات الانسان.³⁸
وقد تستعمل كلمة "انا" للأفادة عن النفس.³⁹

32 -انظر الاعراف / 19 - 20 في عصرنا الحاضر، تستغل المشاعر والقيم السامية في اضلال الناس، لان الاضلال بهذه الاغوية ايسر واخفى. وفي الحقيقة ان كيد الشيطان ضعيف (انظر النساء الآية 76) غير ان انفلات ارادة الانسان لبرهة قصيرة ، يوقعه في مثل هذه الشباك الضعيفة.

33 - النساء / 28

34 - الشعاعات / 61 - 62

35 - الوجدان من خصوصيات النفس. وهو يلوم الانسان او يقرعه اذا ارتكب اثماً او خطأ، او نوى على فعله. ويسمى " النفس اللوامة " ايضاً. لمعلومات مفصلة انظر المودودي، تفهيم القرآن (الترجمة التركيبية جزء 6 ص 486 - 487 طبعة 1987 دار نشر انسان)

36 - محمود مهدي الاستانبولي، كيف نربي اطفالنا، الطبعة الثانية بيروت 1985 ص 54 .

37 - النورسي - المكتوبات - 372

38 -انظر الانعام / 164

39 - النورسي - الشعاعات - 57

وتفيد "النفس" معان أخرى مثل الروح والاحاسيس السفلى والسجايا السيئة للعبد وصفاته القبيحة.⁴⁰

ان للنفس اهواء ورغبات كثيرة. ويحذر القرآن من اتخاذها آلهة.⁴¹ وهو التسليم المطلق لمطلوبات النفس.⁴²

وأفضل الايمان في الاسلام بعد الايمان هو الجهاد⁴³ كما ورد في مواضع كثيرة في القرآن والحديث⁴⁴. وأفضل الجهاد - كما بين النبي p - هو جهاد النفس.⁴⁵ وبدهي انه اشق انواع الجهاد. وفي بيان المراد من الآية: "فلا تزكوا انفسكم.." ⁴⁶ يقول سعيد النورسي :

" ذلك لان الانسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته، محب لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة. ويضحى بكل شئ من اجل نفسه، ويمدحها مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه ذاته ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل نقصاً في نفسه اصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما اودعه الله فيه من اجهزة لحمه سبحانه وتقديسه الى نفسه، فيصيبه وصف الآية {أفرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن

40 - نورد تعاريف متعلقة بالنفس متسلسلة: 1 - النفس الجمادية : النفس المادية، وهي القوة الجامعة للمادة المانعة لانفراطها. 2 - النفس النباتية: وهي قوة التكاثر والنمو والتغذي في النبات. 3 - النفس الحيوانية: وهي قوة الحركة بالحس والارادة. 4 - النفس الانسانية: وهي قوة الاحاطة بالكليات في الانسان واعمال العقل فيها. 5 - النفس الناطقة: روح الانسان، وهي جوهر يعين مقام الانسان بين ذوي الارواح. 6 - النفس القدسية: وهي النفس ذات الملكة للحصول على كل شئ ممكن للنوع يعني حياة العالم أو روح الكائنات. فالعالم (مثله كمثّل الانسان) فيه حياة. 7 - النفس الكلية: كناية عن العرش الاعلى. (انظر Suleyman Ulug Tasavvuf Terimleri Sozlugu, S 368-369 Ist. 1991 اما مقامات النفس فهي بالتسلسل :

1 - النفس الامارة : وهي الامارة بالسوء، تحرضه على عمل السوء. وتتستر بستائر غليظة وكثيفة
2 - النفس اللوامة : تلوم وتقرع عند النية على عمل السوء او عليه.
3 - النفس المطمئنة : وهي المذكورة في الفجر / 27 . تطمئن بالثبات على الصراط المستقيم واتقاء سبل الضلال، الموصولة بالله بقبول الله سبحانه رباً باطمئنان القلب مع الاقرار بان انبياء الله ايضاً بلغوا بالدين الحق، وبان كل عقيدة وعمل جاء به الرسول p هو الحق. فالانسان في هذه المرتبة لا يتجنب عن نواهي الله كرها وجبرا ، بل حبا وعشقا فقلبه مطمئن بكل ما في الاسلام. (انظر التفاسير - الآية 27 من سورة الفجر)
4 - النفس الراضية المرضية وهي المذكورة في الفجر / 28 . يقال ساعة الموت (يا ايها النفس المطمئنة، ارجعي الى ربك راضية مرضية). فاذا بعث وحشر الى الميدان يوم القيامة يوهب الاطمئنان في كل مرحلة من مراحل الحساب، لانه قريب من رحمة الله.

زيادة على هذه المراتب، تبحث بعض كتب التصوف عن النفس الملهمة والنفس الكاملة، لكنها تضي عليها معان باطنية في الاكثر.

41 - انظر الفرقان / 43 والجاثية / 23

42 - انظر المودودي ، المصدر السابق الجزء 5 ص 308 - 309

43 - معنى الجهاد في العربية واسع يشمل الجهد والعمل والقتال والحرب . والجهاد في سبيل الله هو صد ما نعي الهدى طلباً لرضائه وفي سبيله. واول الجهاد هو جهاد النفس لاختضاعه. فلا يستطيع امرؤ ان يجاهد حق الجهاد، مالم يجاهد قناتح نفسه ومالم يخضع رغباته وميوله لطاعة الله.

44 - البقرة / 218 وآل عمران / 142 والانفال / 74 والتوبة / 16 - 19 والحج / 78 . وانظر ايضاً البخاري / الحج - 4 الجهاد - 1 ، الادب - 1 ، ومسلم / الايمان - 80

45 - اكد الرسول p على هذا النوع من الجهاد. انظر الترمذي / فضائل الجهاد - 2 ، مسند احمد بن حنبل و 6 ص 20 - 22 وفي الموضوع ينبغي الانتباه الى شئ مهم هو : ان الاسلام يحث على جهاد النفس ، يعني تربيتهها ، ولا محل لقتل النفس او قمعها او كبتها.

46 - النجم / 32

يهديه من بعد الله أفلا تذكرون؟⁴⁷ فيعجب بنفسه ويعتد بها. فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها هو ترك تزكيتها ثم تربيتها.⁴⁸ ويقول في بيان الآية الكريمة {وما ابريء نفسي أن النفس لأماراة بالسوء إلا من رحم ربي}⁴⁹

"نعم ، ان من يعجب بنفسه ويعتد بها شقي، بينما الذي يرى عيب نفسه محظوظ سعيد. لذا فانت سعيد ياخي. ولكن قد يحدث احياناً ان تتقلب النفس الامارة الى نفس لومة او مطمئنة إلا انها تسلم اسلحتها واعتدتها الى الاعصاب والعروق فتؤدي الاعصاب والعروق هذه الوظيفة الى نهاية العمر. ورغم موت النفس الامارة منذ مدة طويلة فان آثارهما تظهر ايضاً. فتجد كثيراً من الاولياء والاصفياء العظام قد شكوا من النفس الامارة رغم ان نفوسهم مطمئنة، واستغاثوا بالله من امراض القلب رغم ان قلوبهم سليمة ومنورة جدا. فهؤلاء الافاضل لا يشكون من النفس الامارة، بل من وظيفتها التي اودعت الى الاعصاب. اما المرض فليس قلبيا، بل مرض خيالي"⁵⁰

ح - مخلوق مجبول على حب المال :

الانسان مجبول على حب المال، ولو ان له وادياً من ذهب لسعى الى وادٍ ثان. وحب المال من اهم اسباب التنافس والصراع في الدنيا. ولذلك ايضاً تجده شحيحاً في الانفاق في سبيل الله. ويدلنا سعيد النورسي الى وسيلة للتغلب على هذه المعضلة. " العطاء في سبيل الله، يقتضي الأخذ باسم الله. والحال في الاكثر ان المعطي غافل يعطي باسمه فيضم في عطائه مناً، او ان الأخذ غافل فيخطئ بتوجيه الشكر والثناء الخاص بالمنعم الحق الى الاسباب الظاهرة"⁵¹

ط - مخلوق مسخر للرزق :

يشكل الرزق مركز عالم الانسان والحيوان. وقد جبل الانسان والحيوان على عشق الرزق، وعلى خدمة الرزق وتسخيره من اجله. يعني ان الرزق يتحكم فيهم. ان في الرزق خزينة عظيمة الغنى والسعة. وهو جامع لانعم لا تحصى فانظر كيف وضعت موازين معنوية دقيقة بعدد المطعومات لحاسة الذوق في اللسان من اجل تذوق نعمة واحدة من نعم الرزق. فميدان الرزق واسع لا يحده. ونجد بعد انعام النظر ان في الرزق أعجب حقائق الكائنات واغناها واغريها واحلالها واجمعها وابدعها. " ان اشد الاحياء حاجة الى الرزق والى انواعه هو الانسان. فالحق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الانسان مرآة جامعة لجميع اسمائه الحسنی ، وأبدعه معجزة دالة على قدرته المطلقة. فهو يملك اجهزة يتمكن بها تبيين وتقدير جميع مدخرات خزائن رحمته الواسعة ومعرفتها... وخلقها على صورة خليفة الارض الذي يملك من الاجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس ادق دقائق تجليات الاسماء الحسنی . فلأجل كل هذا

47 - الجاثية / 23

48 - النورسي ، المكتوبات 474

49 - يوسف / 53 وهو قول يوسف عليه السلام بعد محن كثيرة

50 - النورسي ، المكتوبات ، 337

51 - النورسي ، المكتوبات ، 14

اودع سبحانه في الانسان فاقدة لا حد لها، وجعله محتاجاً الى انواع لا تحد من الرزق المادي والمعنوي. وما الوسيلة التي تمكن الانسان من العروج الى اسمى مقام (وهو مقام " احسن تقويم" بما يملكه من الجامعية) إلا الشكر. فاذا فقد الشكر تردى الى " اسفل سافلين" وارتكب ظلماً عظيماً⁵²

لقد منح الانسان نعماً كثيرة تدل على عظمة الواهب وجلاله، وكذلك على خصائص الانسان المستفيد من تلك النعم.⁵³ العجز والفقر يشدان الانسان الى القدرة والرحمة المطلقتين. وايضاً هما وسيلتان الى شفاعة مقبولة في باب القادر الرحيم.⁵⁴

ي - نماذج من الشخصيات التي جسدها في الامثال :

يجسد سعيد النورسي شخصيات انسانية متنوعة حين التمثيل في مباحث عديدة، منها شخصيات متعارضة . فنذكر نماذج من هذه الشخصيات :

- 1 - نموذج الانسان الاناني الشقي.
- 2 - نموذج الانسان السعيد المهتدي.⁵⁵
- 3 - نموذج الانسان العاصي التابع للهوى.⁵⁶
- 4 - نموذج الانسان المحتاج.⁵⁷
- 5 - نموذج الانسان المشؤوم السئ الطالع.⁵⁸
- 6 - نموذج الانسان النهم الاكول.⁵⁹
- 7 - نموذج الانسان المتكبر المتفرعن.⁶⁰
- 8 - نموذج الانسان السكير المدمن.⁶¹

النتيجة :

لقد دقت آثار سعيد النورسي من جوانب عديدة، وكتبت عنها بحوث كثيرة. وفي رأينا ان اهم خصائصها الاستلها من القرآن، واحاطتها علماً بعصرها ومعضلاته ومتابعتها واسناد مسائلها الى حقيقة الانسان . واطن ان الضرورة سوف تلجئ الى زيادة مثل هذه البحوث مستقبلاً. وقد حصرنا جهدنا في هذا البحث المتواضع في الاشارة الى اهمية التفكير بهذا الموضوع.

52 - النورسي ، المكتوبات ، 375 - 377 . ويرى سعيد النورسي " ان الشكر هو اعظم اساس من الاسس الاربعة التي يستند اليها سالك اسمى طريق واعلاه، ألا وهو طريق العبودية والحب لله تعالى والمحبوبة. وقد عبر عن تلك الاسس الاربعة بالبيت :

در طريق عجز مندى لازم آمدجار جيز عجز مطلق، فقر مطلق، شوق مطلق، شكر مطلق أي عزيز وهو بالفارسية والمعنى : "ايها العزيز ، في طريق عجزك يلزم اربعة اشياء : العجز المطلق والفقر المطلق والشوق المطلق والشكر المطلق.

53 - النورسي ، سوزلر ، 69

54 - النورسي ، سوزلر ، 6

55 - النورسي ، سوزلر ، 16

56 - النورسي ، سوزلر ، 19

57 - النورسي ، سوزلر ، 19 ، 24 ، 25

58 - النورسي ، سوزلر ، 21

59 - النورسي ، سوزلر ، 23

60 - النورسي ، سوزلر ، 27

61 - النورسي ، سوزلر ، 27

أ.د. عبد الله اوزبك 75

ونوصي الذين يتوجهون الى البحث في الموضوع ان يضعوا نصب اعينهم اثناء تدقيق رسائل النور معطيات النظم العلمية الاخرى المعرفة بالانسان.
ان الهدف الصريح لتوجيهات رسائل النور هو تعريف الانسان للانسان. وما اجمل وصيتها الجامعة المانعة:
" ايها الانسان الذي يعد ذاته انساناً اقرأ ذاتك .. وإلا قد تكون انساناً في حكم الحيوان او الجماد" ⁶²

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

62 - هذه العبارة تذكرنا برياعية للشاعر الصوفي التركي بونس امره ، و تعريبها هو : العلم ان تعرف العلم ، العلم ان تعرف نفسك . عيث ما تقرأ ، ان لم تعرف نفسك . ملاحظة : ما ورد من اشارات الى الرسائل في الهوامش ، فهي احالة الى النسخة التركية من كليات رسائل النور ، طبعة استانبول

بديع الزمان النورسي والتصوف أو من توحيد الولي إلى توحيد الصفيّ

أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمي^Y

ان دراسة الفكر الاسلامي المعاصر، يستلزم ضمن ما يستلزم، العناية بالمفكرين المسلمين الذين لم يكتبوا بالعربية، أو كتبوا بما قليلا، فلم يشتهروا. ويستلزم كذلك، العناية بعناصر هذا الفكر، ومذاهبه ومشاربه، ورصد التحولات الطارئة عليه، وتفسيرها بقدر الامكان.

في دائرة هذا التوجه، نرغب في ان نسائل الاستاذ بديع الزمان النورسي، رحمه الله، من حيث هو مفكر اسلامي معاصر، عن طبيعة اتجاهه الفكري، وطبيعة موقفه من التصوف الاسلامي، وموقفه من المذاهب الصوفية، ولا سيما مذهب وحدة الوجود، وهو اخطر مذهب صوفي هزّ العلماء والمفكرين المسلمين، وعن موقفه من الطرق الصوفية، وموقفه من خصوم التصوف كذلك.

وبما ان هذا الموضوع لا يسعه هذا المقام، بل يحتاج الى مؤلف حافل، فسوف نقتصر على موقفه من وحدة الوجود الصوفية. وعسى ان يكون هذا البحث منطلقا لاجتاه اخرى عن علاقة رسائل النور بالتصوف، ونقط التقائها في خدمة القرآن به، ونقط افتراقها عنه، واسباب ذلك، مع السعي الى عدم تحميل كلام الاستاذ بديع الزمان، رحمه الله، مالا يحتمل من وجوه المعاني، ما امكنا ذلك.

ان السؤال الاول الذي يجب علينا ان نطرحه على انفسنا هو هذا:

لماذا ناقش الاستاذ بديع الزمان ابن عربي؟ وكيف ناقشه، وماذا كان موقفه من مذهبه؟

لنقرر في البدء ان مناقشة الاستاذ بديع الزمان لابن عربي لم تكن غايتها تسفيه كلام ابن عربي (- 638 هـ) واثبات كذبه وضلاله، بل مروقه من الدين، كما صنع المتعصبون عليه، ولا مماثلته ومشايعته، كما صنع المتعصبون له، ولكن كانت رد فعل على الضغط الفكري الذي واجهه الاستاذ، لتبيين موقفه من ابن عربي. تجلّى هذا الضغط في كثرة الاسئلة المرفوعة اليه من تلاميذه وغيرهم، في خصوص مذهب ابن عربي. ولنتبّه الى ان النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري، الذي كان يكتب فيه الاستاذ، وحتى ما بعده، كان عصر تسلل الفلسفة المادية الغربية الى دار الاسلام، في تركة ومصر والشام والهند، كما كان عصر الحركات الاسلامية الاصلاحية والمهدوية، وانبعثت السلفية والوهابية في نجد ومصر. وقد كان هذا العصر قد ورث من الماضي طرقا صوفية كثيرة، كانت مسيطرة

^Y استاذ في جامعة عبدالملك السعودي - كلية الآداب - تطوان / المغرب. له العديد من المؤلفات المنشورة.

على العقول والقلوب. فضلا عن ان الطباعة التي كانت قد نشطت وقتئذ قد طرحت على المثقفين والعلماء اشكالات كثيرة، بما ظهر من الكتب التي كانت نادرة. إن تبليد الافكار وتصارعها بفعل نشاط الفكر الفلسفي المادي الغربي، والفكر الاصلاحى والسلفى الوهابى، والفكر الصوفي، كان لا بد له من ان ينعكس على الاستاذ بديع الزمان، وان يجعل مناقشته لهذه التيارات والمذاهب والمشارب، جزءا من مشروعه الكبير لخدمة القرآن والايمان، لانقاذ الاسلام من الضياع، في وقت اعرض فيه كثير من الناس عن الايمان والاسلام، ورأوا ان المخرج من ازمة المسلمين، كامن بالضبط في التملص من الاسلام والايمان، وهيمنة القرآن على المسلمين.

ولنقرر في البدء ان مبدأ خدمة الايمان، الذي هو عينه عند الاستاذ خدمة القرآن، هو الذي حفزه على التكلم في ابن عربي، لما تطرحه وحدة الوجود على المفكرين والمؤمنين من اشكالات دقيقة، كثيرا ما تؤدي الى انكار الشريعة، وما بنيت عليه من وحي منزل وسنة، او انكار الموجودات، او انكار الخالق.

ولنقرر في البدء ايضا ان مناقشة الاستاذ لابن عربي، وان خدمة الايمان والقرآن بمناقشته، ليستا بالامر السهل اطلاقا، بالنظر الى دقة الاشكالات الوجودية والايمانية عند ابن عربي، ولنقرر كذلك ان الاستاذ كان أولى من يناقش، بالنظر الى طول باعه في الفلسفة القديمة وعلوم التصوف وعلوم الشريعة، والى طول تدبره للقرآن الكريم.

إن اهم ما يستعري نظر الباحث، وهو يتأمل رسائل النور، هو ان الاستاذ لا يسمي وحدة الوجود فلسفة، ولا يسميها مذهباً، ولا يسميها نظرية، بل يسميها مشرباً ولعله سماها بهذا الاسم وهو يستحضر قوله تعالى: { **قد علم كل اناس مشربهم** } (البقرة: 60) ولهذا الامر دلالاته الكبيرة. ذلك ان الفلسفة نسق فكري عقلائي، وان المذهب نسق فكري او شرعي، داخل نسق اعم، بينما "وحدة الوجود" ليست عنده من الفلسفة في شيء، ولا من المذهب في شيء. بل هي عنده مشرب، أي تجربة ذاتية روحانية، وهذا ما افاض القول فيه؛¹ لا ترقى الى مرتبة الفلسفة او المذهب. ان دلالة التسمية اشارة على الموقف من وحدة الوجود.

يلخص الاستاذ القول بوحدة الوجود، فيما ذهبوا اليه في مبحث الوجود من ترك اثبات وجودين منفصلين متميزين، احدهما مطلق وآخر نسبي، واولهما مؤثر في الثاني، هما الله والعالم، الى القول بوجود واحد، غير متجزئ ولا منفصل، احترازا من الوقوع في الاثنينية، هو الوجود الالهي، مع انكار العالم. يقول:

" لذلك رأوا أنفسهم مضطرين أمام القول : كل شيء هو تعالى، أو لا شيء موجود، أو أن الموجود خيال ، أو من التظاهر أو من الجلوات "²

يستعمل الاستاذ في مناقشة اهل وحدة الوجود ثنائية فلسفية قديمة، من الفلسفة الاسلامية، هي ثنائية الوجود الممكن والواجب، أي الله والعالم، كما يستعمل ثنائية النسبي والمطلق ايضا. يقول مفككا لنمط تصور الوجود عند اهل الوحدة :

" يعتبر "وحدة الوجود" التي تضم "وحدة الشهود" من المشارب الصوفية المهمة وهي تعني: حصر النظر في وجود "واجب الوجود"، اي ان الموجود الحق هو: "واجب الوجود" سبحانه

1- اللغات : 61 مثلا

2- اللغات : 61

فحسب، وان سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لاتستحق اطلاق صفة الوجود عليها حيال "واجب الوجود" لذا فان اهل هذا المشرب يذهبون الى اعتبار الموجودات خيالا ووهما، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، اي: "ترك ما سوى الله تعالى" حتى انهم يتطرفون ويذهبون الى حد اعتبار الموجودات مرآيا خيالية لتجليات الاسماء الحسنی³.

ولا يعترض الاستاذ على القول بوجود الله، ولكن على انكار وجود العالم، من حيث هو ذات او هوية مستقلة. وهنا مربط الفرس عنده، لان العالم عند الاستاذ ليس هو الله، ولا هو خيال، ولا تجلٍ لله. بل للعالم وجود تام وحقيقي، ولو أنه منفعل وممكن لا واجب. إن القول بوحدة الوجود في نظر الاستاذ محاولة للتخلص بالرياضة الروحانية من تدبر المفارقات الدقيقة المشككة الكائنة في العلاقة بين وجودي الله والعالم. يقول: "لذا يجدون ملجأهم في مسألة وحدة الوجود لأجل التخلص من فراقات رهيبة"⁴

ان مشربية وحدة الوجود، قائمة في نظر الاستاذ على العاطفة والرياضة، لا على العقل ولا على الشرع. واصحابها لا علماء ولا فلاسفة، بل عشاق مستغرقون: "ولأنهم يتصورون بسُكر العشق وبمقتضى شوق البقاء واللقاء والوصول، ان في وحدة الوجود مشرباً حالياً في منتهى الذوق، لذا يجدون ملجأهم في مسألة وحدة الوجود لأجل التخلص من فراقات رهيبة"⁵. ويسمي اهلها "اهل السكر والاستغراق، واصحاب الشوق والعشق".

ويمثل تمثيلاً جيداً - على عادته دائماً - في ضرب المثال لتقريب المفاهيم وتصويرها في كتاباته، للعلاقة بين الله والعالم، بالعلاقة بين "الكاتب" وبين "المكتوب". يقول:

"فالذي يظن الرسالة كاتبها أو يتخيل الكاتب في الرسالة نفسها، أو يتوهم الرسالة خيالا لاشك انه قد ستر عقله بستر العشق ولم يبصر الصورة الحقيقية للحقيقة"⁶. انه مهما يكن جمال المكتوب، ومهما يكن اتقان الكاتب، فبين الهويتين فرق، وبين الطبيعتين فرق، وبين الوجودين فرق. لكن علاقة المحبة والاستغراق في العشق، أي هذه العلاقة العاطفية التي تربط بين الصوفي وربه، تخيل اليه وهو يسلك الطريق، ان لا شئ الا الحبيب، وان العالم كله تجل له. فينكر العالم، وينسى نفسه.

ان العلاقة بين الله وبين العالم علاقة اثر ومؤثر، وقدم وحدوث. لها علاقة "متية"، تأثيرية، لا علاقة هوية، علاقة فصل مع تأثير، لا علاقة وصل مع مماهة. يقول:

"فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الاشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

اذن فليس صحيحاً قولهم "همه اوست" اي "لا موجود الا هو" وانما الصحيح "همه از اوست" اي "لا موجود الا منه" ذلك لأن الحادثات لا يمكن ان تكون القديم نفسه، أي ازيلية"⁷.

ويرد الاستاذ ظهور القول بالوحدة الى شيعتين اثنتين: احدهما عقلي، والاخر قلبي رياضي. يقول: "ان منشأ السبب الاول: هو عدم بلوغ العقل قسماً من حقائق الايمان الواسعة للغاية والسامية جداً، وعدم استطاعته الاحاطة بها، مع عدم انكشاف العقل انكشافاً تاماً من حيث الايمان.

3- المكتوبات: 579

4- اللغات: 62

5- اللغات: 61

6- اللغات: 64

7- المكتوبات: 106

أما منشأ السبب الثاني: فهو انكشاف القلب انكشافاً فوق المعتاد، بتأثير العشق وانبساطه انبساطاً حارقاً للعادة".⁸

بيد ان هذا السبب القلبي الذي هو الاستغراق في العشق، ليس عشقاً خالصاً دائماً لله، بل هو مشوب بشيء من حظ النفس البشرية، أي مشوب بعشق الدنيا، وان كان صاحبه لا يفتن اليه. يقول: "ان أهم جهة من انواع العشق التي تسبب الانسلاخ الى مشرب وحدة الوجود هي عشق الدنيا، اذ حينما يتحول عشق الدنيا الذي هو عشق مجازي الى عشق حقيقي ينقلب الى وحدة الوجود. .. فان كان ذا ايمان رفيع راسخ يكون له هذا المشرب مرتبة ذات قيمة نورانية مقبولة كما هي لدى ابن عربي وأمثاله، وإلا فلربما يسقط في ورطات وينغمس في الماديات ويغرق في الاسباب. أما وحدة الشهود فلا ضرر فيها، وهي مشرب عال لأهل الصحو".⁹

ولقد أُلح الاستاذ بديع الزمان على ذاتية التجربة الصوفية عند اهل وحدة الوجود، وعدم امكان تحويل المعرفة الحدسية القلبية، التي تحصل بالاستغراق في العشق الى معرفة شرعية، يلزم كل الناس الاعتقاد بها، والايمان بها، والخوض فيها. وهو ما قد يعطل الشريعة، التي تقتضي اركان الايمان فيها وجود العالم، ممكن الوجود، وحقيقية العالم، لا وهميته.

"فالاركان الإيمانية تستدعي وجود الممكنات اي ان هذه الاركان المحكّمة لا يمكن ان تقوم على اساس خيالي. فعلى صاحب هذا المشرب ألا يصحب معه هذا المشرب، وألا يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة. ثم ان عليه ألا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي الى اساس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقلية والقوانين العلمية، واصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين لا يمكنها ان تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه. لذا فلا يرى هذا المشرب في اهل الصحوه الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والائمة المجتهدين، والعلماء العاملين من اجيال السلف الصالح من هذه الامة، اذن فليس هذا المشرب في اعلى المراتب واسماها، بل قد يكون ذا علو إلا انه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق. ولظاهر حلاوته، ولجمال اجائته لا يرغب الداخولون فيه في الخروج منه؛ ويتوهمون - باستشرافات نفوسهم - انه اعلى المراتب واسماها".¹⁰

تقييم وحدة الوجود وترتيب درجة المعرفة:

قرر الاستاذ بديع الزمان، رحمه الله، في غير موضع من رسائل النور، ان المعرفة الصوفية القائمة على القول بوحدة الوجود، ناقصة، لانها "حال" و "مشرب" ذلك ان الاولوية دائماً هي للمعرفة الشرعية القرآنية يقول:

"أما وحدة الوجود فهي مشرب ونزعة وحال وهي مرتبة ناقصة، ولكن لكونها مشربة بلذة وجدانية ونشوة روحية فان معظم الذين يحملونها أو يدخلون اليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمى فوقها مرتبة ولا يطالها أفق".¹¹

لذلك يفضّل هو المعرفة القرآنية الإيمانية يقول:

"ان المعرفة الناتجة عن طريق التصوف ايضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها امام المعرفة التي استقاهها

8- اللغات: 62

9- اللغات: 64

10- المكتوبات: 579

11- المكتوبات: 105

ورثة الانبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن ابن عربي يقول "لا موجود إلا هو" لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر الى انكار وجود الكائنات. أما الآخرون فلاجل الحصول على الحضور القلبي ايضاً قالوا: "لا مشهود إلا هو" وألقوا ستر النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيماً¹².

ولقد عدّ الاستاذ بديع الزمان كتاباته طريقاً الى المعرفة القرآنية، ومدخلا اليها، بعدما لاحظ الخلل عند المتكلمين والصوفية. يقول جواباً عن سؤال عن اشكال المعرفة الكلامية العقلية، والمعرفة الصوفية الباطنية، مصوراً في صورة كلام دار بين فخرالدين الرازي، المتكلم السنّي، ومحيي الدين بن عربي، شيخ الصوفية:

"ان الذي دعا محي الدين بن عربي الى أن يقول هذا الكلام لفخر الدين الرازي وهو امام من ائمة الكلام هو: ان ما بينه أئمة اصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد ووجود الله سبحانه وتوحيده غير كاف في نظر ابن عربي.

حقاً! ان معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين ان تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب. نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من اجزاء رسائل النور بمثابة مصباح يضيئ السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم"¹³.

إن المعرفة التي يدعو إليها الأستاذ ليست هي المعرفة الصوفية الباطنية، ولا هي المعرفة الكلامية العقلية. بل هي المعرفة الناتجة عن التدبر الدائم في القرآن الكريم . يقول:

" المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الابهام والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الالهية وتفتح في كل شيء نافذة الى المعرفة الإلهية"¹⁴.

المعرفة الصوفية من الرؤية الى الرؤيا : لمن حقُّ التأويل والتعبير والتشريع ؟

لاشك في أن المعرفة الإنسانية أنماط وأشكال؛ فمنها الديني، ومنها الباطني الصوفي، ومنها الفلسفي، ومنها العلمي. ولكل منها حدود ودوائر . وقد تتداخل أحياناً ، فيقع الإلتلاف بينها ، وقد يقع التصادم والتناقض بينها. إن هذا التداخل بين الحدود والدوائر ، مثلما قد لاحظنا أنه حاصل بين المعرفة الشرعية ، القائمة على الكتاب والسنة ، واجتهادات العلماء، وبين المعرفة الصوفية الباطنية ، القائمة على الإستغراق في العشق والرياضة ، قد حصل كذلك بين المعرفة الباطنية والأسطورية ، التي يقدمها ابن عربي وبين المعرفة العلمية . يصوّر هذا التداخل السؤال الذي سئل إياه الأستاذ النورسي عن مشاهدات ابن عربي والجيلي الصوفية الأسطورية، ونصه:

"ان أولياء مشهورين امثال الشيخ محي الدين بن عربي صاحب كتاب "الفتوحات المكية" والشيخ عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب "الانسان الكامل" يبحثون في طبقات الارض السبع، وفي الارض البيضاء خلف جبل قاف، وفي امور عجيبة كالمشمشية - كما في الفتوحات - ويقولون: لقد رأينا! فهل ما يقولونه صدق وصواب؟ فإن كان هكذا فليس في ارضنا مثل ما يقولون! والجغرافية والعلوم

12- المكتوبات : 424

13- نفسه

14- نفسه

الحاضرة تنكر ما يقولونه! وان لم تكن اقوالهم صواباً فكيف اصبحوا اولياء صالحين، اذ كيف يكون من ينطق بمثل هذه الاقوال المخالفة للواقع المشاهد والمحسوس والمنافية للحقيقة، من اهل الحق والحقيقة!"¹⁵ إن هذا السؤال العلمي الطابع ، لم يشأ الأستاذ النورسي أن يذهب هدرًا. بل أجاب عنه، محاولاً أن يجعل التوازن قائماً أبداً بين المعرفة الصوفية وبين المعرفة العلمية ، وألاً تطغى إحداها على الأخرى . لقد كان من السهل على الأستاذ أن يسفّه كتابات الجيلي وابن عربي، وأن يضرب بها عرض الحائط، ويقول بتخريفيتها، لبني دولة العلم على أنقاض دولة الباطن. لقد اعترف لهم الأستاذ بصحة ما رأوا حالة استغراقهم وسكرهم ، أي ذهولهم عن العالم ، ولم ينكره، وأثبت لهم الولاية وصحتها لهم ، ولم يجعل التناقض الظاهر بين كلامهم وبين الحصائل العلمية سبباً في الطعن فيهم ، وفي حقيقة المعرفة الصوفية . لكنه أنكر عليهم حق تأويل رؤيتهم وتجربتهم الروحانية . يقول:

"انهم من اهل الحق والحقيقة، وهم ايضاً اهل ولاية وشهود، فما شاهدوه فقد رأوه حقاً، ولكن يقع الخطأ في قسم من احكامهم، في مشاهداتهم في حالة الشهود التي لا ضوابط لها ولا حدود، وفي تعبير رؤيتهم الشبيهة بالرؤى التي لا حق لهم في التعبير عنها.

اذ كما لا يحق لصاحب الرؤيا التعبير عن رؤياه بنفسه، فذلك القسم من اهل الشهود والكشف ليس لهم الحق ان يعبروا عن مشاهداتهم في تلك الحالة، حالة الشهود. فالذي يحق له التعبير عن تلك المشاهدات انما هم ورثة الانبياء من العلماء المحققين المعروفين بالاصفياء. ولا ريب أن اهل الشهود هؤلاء عندما يرقون الى مقام الاصفياء سيدركون خطأهم بأنفسهم بارشاد الكتاب والسنة ويصححونها. وقد صححها فعلاً قسم منهم"¹⁶.

إن التجربة الصوفية عند الأستاذ يصححها القرآن والسنة، وليس للصوفي إلا أن يعبر عن تجربته. لكن ليس له أن يؤولها، ولا أن يحولها الى معرفة شرعية أو علمية . إن المعرفة الصوفية عنده الى الرؤيا أقرب منها الى الرؤية . لذلك يجب أن توزن دائماً بميزان القرآن والسنة ، أو ميزان الشرع . يقول:

"فما يروونه صدق وحقيقة، ولكن لأن عالم المثال شبيه صورة بالعالم المادي، فهم يرونها - أي العالمين كليهما - ممزوجين معاً. فيعبرون عما يشاهدون كما هو. ولكن لأن مشهوداتهم غير موزونة بموازين الكتاب والسنة ، ويسجلونها كما هي في كتبهم عندما يعودون الى عالم الصحو ، فإن الناس يتلقونها بخلاف الحقيقة"¹⁷.

إن الميزان عنده هو الكتاب والسنة. وهذان إنما يزن بهما " الأصفياء " أي العلماء المحققون الكبار. إن مرتبة المعرفة الصوفية هي إذن دائماً دون المعرفة الشرعية . وإن الأولوية هي دائماً للصفى على الولي. يقول:

" يُفهم من هذه المسألة: ان درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الايمان بالغيب. أي ان الكشفيات التي لا ضوابط لها تقسم من الاولياء المستندين الى شهودهم فقط، لا تبلغ أحكام الاصفياء والمحققين من ورثة الانبياء الذين لا يستندون الى الشهود بل الى القرآن والوحي، فيصدرون احكامهم حول الحقائق الايمانية السديدة. فهي حقائق غيبية الا انها صافية لا شائبة فيها. وهي محددة بضوابط، وموزونة بموازين.

اذن فميزان جميع الاحوال الروحية والكشفيات والاذواق والمشاهدات انما هو: دساتير الكتاب

15- المكتوبات: 101

16- المكتوبات: 102

17- المكتوبات : 104

والسنة السامية، وقوانين الاصفياء والمحققين الحدسية".¹⁸

بل إن الولاية الكبرى هي الولاية التي تصدر عن المعرفة الشرعية ، لا عن المعرفة الباطنية . إنها ولاية الأصفياء، أي علماء الصحابة والتابعين وآل البيت والمجتهدين من أهل السنة والجماعة، أي السلف الصالح. يقول:

"اذن فالصراط المستقيم، بل صراط الولاية الكبرى إن هو إلا طريق الصحابة والأصفياء والتابعين وائمة اهل البيت والائمة المجتهدين وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأول للقرآن الكريم".¹⁹

وقد قرر أهم أفضل من أهل وحدة الوجود المتأخرين. ولقد سُمّي عقيدة هؤلاء: الجادة الكبرى : وهي البديل عنده لمشرب الوحدة. يقول عن توحيد السلف:

"نعم! إن الصراط المستقيم هو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن "حقائق الاشياء ثابتة" وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: {ليس كمثله شيء} (الشورى: 11) أي انه منزّه عن الشبيه والتحييز والتجزؤ. وان علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات.

إن توحيد هؤلاء هو ما يسميه بالمرتبة العظمى. يقول:

" أما مرتبة التوحيد العظمى التي يراها بصراحة القرآن ، الأولياء العظام ، أعني الأصفياء الذين هم أهل الصحو وأهل وراثة النبوة ، فإنها مرتبة رفيعة عالية جداً ، إذ تفيد المرتبة العظمى للربوبية والخلافة الإلهية، وتبين أن جميع الأسماء الحسنى هي أسماء حقيقية ، وهي تحافظ على الأسس من دون إحلال بموازنة أحكام الربوبية".²⁰

لقد كان بحثنا هذا مقتصرًا على تحليل كلام الأستاذ بديع الزمان في خصوص مذهب ابن عربي الأندلسي ومن لفّ لفّه من أهل وحدة الوجود، مع تجنب ما قاله الناس في ابن عربي ، حتى يكون عملنا منهجيا لا إسقاطيا . وحاولنا قدر الإمكان ألا نحمله ما لا يحتمل ، وان نتفهم طبيعة موقف الأستاذ من "مشرب" الوحدة . فعسى ألا نكون قد أسأنا الفهم والتحليل والإستنتاج ، فنكون قد ظلمنا الأستاذ ومشرب وحدة الوجود . والله الموفق.

18- المكتوبات : 105

19- المكتوبات: 108

20- اللغات : 62

بلاغة التكرار في القرآن الكريم من خلال رسائل النور

أ. د. حسن الامراي^P

مقدمات:

المقدمة الاولى : التكرار لغة واصطلاحاً

الكاف والراء اصل صحيح يدل على جمع وترديد من ذلك كررت، وذلك رجوعك اليه بعد المرة الاولى، فهو التردد الذي ذكرناه.¹

والكر: مصدر كرّ عليه يكر كرّاً. الحبل الذي يصعد به النخلة. والكرّ ايضاً وجمعه كرور: حبال الشراع²

والكر: الرجوع. كرّر الشئ وكرّره: أعاده مرة بعد اخرى. والكرة : المرة، والجمع الكرات ويقال: كررت عليه الحديث وكرّرتّه : إذا رددته عليه.

الجوهري: كررت الشئ تكريراً وتكراراً، قال أبو سعيد الضير: قلب لأبي عمرو: ما بين تفعّال وتفعّال؟ فقال: تفعّال اسم، وتفعّال بالفتح، مصدر.³

وفي مفردات الراغب: الكرّ العطف على الشئ بالذات او بالفعل، ويقال للحبل المفتول كر، وهو في الاصل مصدر وصار اسماً وجمعه وكرور . قال: [ثم رددنا لكم الكرة عليهم] [فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين] [وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة] [لو ان لي كرة]⁴

وقد وردت هذه المادة في مواطن اخرى من القرآن الكريم، كقوله تعالى: [قالوا تلك اذن كرة خاسرة] (النازعات: 12) [ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير] (الملك:4)

وبالنظر الى ما ذكرته المعاجم يتبين ان المادة تؤول الى الجمع والترديد، والرجيع والعطف على شئ،

P ولد في وجدة / المغرب سنة 1949 حصل على الماجستير سنة 1981 وعلى الدكتوراه سنة 1988 وهو حالياً رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب التابعة لجامعة محمد الاول في وجدة /المغرب وفي الوقت نفسه عضو في رابطة الأدب الاسلامي ورئيس تحرير مجلة "المشكاة" المغربية، له مؤلفات ودواوين شعر.

1- معجم مقاييس اللغة : كر

2- اصلاح المنطق : كر

3- لسان العرب: كر

4- معجم مفردات ألفاظ القرآن : كر

فكذلك الكلام المكرور كأنه يردد ويجمع به الى تقوية المراد كما يتوصل بالحبل الى أعلى النخلة.

المقدمة الثانية: التكرار ظاهرة جمالية وبلاغية:

على الرغم من أهمية اسلوب التكرار وشيوعه في الكلام منذ الجاهلية، حيث استعمله الشعراء العرب وأكثروا منه، إلا ان علماء البلاغة والاصطلاح لم يفصلوا في معناه، وكأنهم سكتوا عنه، وواجهوا لوضوح دلالاته، وإن كانوا ذكروا أهميته، وفصلوا بعض التفصيل في أنواعه، كالذي فعله ابن رشيق في (العمدة)، فقد ذكر ان "للتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع في الالفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الالفاظ اقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه" ⁵.

وقد ضرب ابن رشيق امثلة من القرآن الكريم ومن شعر العرب. فمن الشعر ذكر أمثلة لتكرار المعاني، من شعر امرئ القيس ⁶، وامثلة لتكرار الابيات، ومن شعر أبي كبير الهذلي ⁷ وأمثلة للتكرار المعيب من شعر أبي تمام ⁸، ما ذكر بعض ما يدخل في التكرار، مثل المذهب الكلامي ⁹، وهو لون أشار اليه ابن المعتز في كتابه (البيديع)، وردده الى أبي عثمان الجاحظ، وذكر انه معزى الى التكلف فلذلك لا نجد منه شيئاً في كتاب الله تعالى.

المقدمة الثالثة: التكرار في الشعر

حفلت أشعار العرب منذ جاهليتهم بأسلوب التكرار، فهو إذن اسلوب عربي معروف، وقد تعددت صورته، واختلفت اسبابه. وقد وجدنا استاذنا عبد الله الطيب من أكثر من عني - من المحدثين - بالوقوف على ظاهرة التكرار في الشعر العربي، رابطاً اياه بالايقاع من جهة، والدلالة من جهة اخرى، مبيناً انه "لما كان الانسجام كله، مداره على التنوع والتكرار، فمظاهر التكرار الاربعة لا تتعدى التكرار المحض والجناس، ومظاهر التنوع لا تتعدى الطباق والتقسيم، فهذه هي الاصناف الاربعة التي يقوم عليها رنين البيت بعد الوزن والقافية" ¹⁰.

وأما دلالية فـ "الغرض الرئيسي من التكرار هو الخطابة، ونعني بالخطابة: ان يعمد الشاعر الى تقوية ناحية الانشاء... من طريق التكرار" ¹¹.

وأما انواع التكرار - عنده - فيمكننا "ان نحصر التكرار الذي يحدثه الشعراء في ألفاظ شعرهم في الانواع التالية:

- 1- التكرار المراد به تقوية النغم
 - 2- التكرار المراد به تقوية المعاني الصورية.
 - 3- التكرار المراد به تقوية المعاني التفصيلية ¹²
- ومما اشتهر من ألوان التكرار في الجاهلية، تكرر العبارة التي تبسط على شطر بكامله، ومن ذلك تكرر الحارث بن حلزة، في عدد من ابيات القصيدة، قوله:

5- العمدة: 683

6- نفسه: 690

7- نفسه: 686

8- نفسه: 693

9- نفسه: 691 وما بعدها.

10- المرشد الى فهم أشعار العرب: 494

11- نفسه: 495

12- نفسه

(قرباً مربوط النعامه مني)

وقول المهلهل يرد عليه:

(قرباً مربوط المشهر مني)

وقد أكثر المهلهل من هذا القري ، من ذلك تكراره قوله:

(يا بجز الخيرات لا صلح حتى).

وقوله في رائيته المشهورة: (على ان ليس عدلاً من كليب).

وجعل الدكتور عبد الله الطيب هذا من التكرار النغمي، وألحق به - من الشعر المعاصر - ذلك التكرار الذي يعاد فيه بيت كامل او بيتان، للفصل بين أقسام القصيدة الواحدة. "ويبدو ان اللغة العربية قد عرفت هذا النوع من الاعادة في دهرها الاول.. والذي يدلنا على ان العربية قد عرفت هذا النوع من التكرار امران: اولهما: اننا نجد نحواً منه في القرآن، في بعض السور المكية، مثل: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} في سورة الرحمن، ومثل {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} في سورة القمر. ولا احسب ان القرآن قد فاجأ العرب بضرب جديد من التأليف، إذ التزم هذا التكرار في هذه السور، ونحواً منه في غيرها... والأمر الثاني.. هو ما نجد من رواسب هذا الاسلوب وآسانه في بعض الاشعار التي بين ايدينا من تراث الجاهليين، وحتى في بعض الاشعار الاسلامية"¹³

وقد تجددت ظاهرة التكرار في الشعر المعاصر، مما لفت نظر الاستاذة نازك الملائكة، فبحثت هذه الظاهرة في كتابها (فضايا الشعر المعاصر) ذاهبة الى "ان التكرار بالصفة الواسعة التي يملكها اليوم في شعرنا، موضوع لم تتناوله كتب البلاغة القديمة التي ما زلنا نستند اليها في تقييم اساليب اللغة"¹⁴. وهو امر صحيح اجمالاً، اذ لا يحتل التكرار، باعتباره اسلوباً بلاغياً، إلا حيزاً ضئيلاً في كتب البلاغة، قياساً الى غيره من صور البيان والبديع. وقد عدت نازك من الوان التكرار:

1- تكرار كلمة واحدة في اول كل بيت.

2- تكرار العبارة.

3- تكرار بيت كامل.

4- تكرار المقطع كاملاً.

5- تكرار الحرف.

كما عنيت بدلالة التكرار في صورته المتعددة¹⁵

المقدمة الرابعة: التكرار عند علماء الاعجاز

لما كان التكرار اسلوباً بلاغياً، ورد في القرآن الكريم، في صور عديدة، كان علماء الاعجاز - البياني منه خاصة - مؤهلين اكثر من سواهم لمعالجة هذا الموضوع وتفصيل الحديث فيه، بيد ان الناظر في كتب الاعجاز لا يظفر بما يروي غلته، فمنهم من مرّ على الظاهرة مروراً عابراً، ومنهم من لم يلتفت اليها، وأما الذين وهبوا قدراً من العناية فقليل ما هم.

ولو اننا رجعنا، مثلاً، الى ما قاله الباقلاني في كتابه (اعجاز القرآن) عن التكرار، لوجدناه يمر به مرّاً سريعاً، هذا على شدة عنايته بتلمس مظاهر الاعجاز البلاغي. يقول ابو بكر الباقلاني: (ومن البديع عندهم: "التكرار"، كقول الشاعر:

13- نفسه: 496

14- فضايا الشعر المعاصر : 241

15- للتوسع، يرجع الى المرجع السابق، الفصل الثاني والثالث من القسم الثاني من الكتاب.

هلا سألت جموع كـ_____ مدة يوم ولوا أين أيننا؟
 وكقول الآخر:
 وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى فزارا
 ونظيره من القرآن كثير، كقوله تعالى: {فإن مع العسر يسراً، ان مع العسر يسراً}
 وكالتكرار في قوله: {قل يا أيها الكافرون}، وهذا فيه معنى زائد على التكرار، لانه يفيد الاختيار
 بالغيب)¹⁶
 وفي هذا - كما لا يخفى - إشارات ذكية، إلا انه اوجز ايجازاً بترك بالقارئ ظمناً الى مزيد.

بديع الزمان وبلاغة التكرار في القرآن الكريم

بلاغة التكرار معجزة:

بالنظر الى ما كتب بديع الزمان سعيد النورسي حول التكرار في القرآن الكريم، وقياساً الى ما رأينا
 عند علماء الإعجاز، نستطيع ان نطمئن الى ان تميز بديع الزمان كان من وجوه :
 منها انه انتبه الى ان التكرار في القرآن الكريم معجز
 ومنها انه عني بالتكرار بنوع من التفصيل لم يسبق اليه
 ومنها انه رصد بلاغة التكرار، فحدد انواعها، والتمس اسبابها، وذكر صورها، واستنبط الحكمة
 منها

ومنها انه قرر ان (لا تكرر الا في الصورة) في القرآن الكريم
 وهذه كلها وجوه متميزة، لم يسبق اليها، فيما اعلم.
 لقد أشار بديع الزمان الى اربعين وجهاً من وجوه الاعجاز التي لا تحد للقرآن الكريم الذي هو
 منبع المعجزات والمعجزة الكبرى للرسول p، فكان التكرار احد تلك الوجوه.
 يقول بديع الزمان: " ثم ان القرآن الكريم يظهر نوعاً من اعجازه البديع ايضاً في "تكراره البليغ"
 لجملة واحدة، او لقصة واحدة، وذلك عند ارشاده طبقات متباينة من المتخاطبين الى معان عدة"¹⁷.
 ويؤكد النورسي ان التكرار " هو اعجاز في غاية الروعة والابداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة"¹⁸
 فما مظاهر ذلك الاعجاز وتحليلاته؟

نوعا التكرار:

التكرار في القرآن الكريم نوعان:

1- تكرار الجملة

2- تكرار القصة

فالنوع الاول: يدخل فيما سماه ابن رشيق التكرار اللفظي، معتبراً ان "اكثر ما يقع التكرار في
 الالفاظ دون المعاني"¹⁹، "ومن المعجز من هذا النوع قول الله تعالى في سورة الرحمن: {فبأي آلاء

16- اعجاز القرآن: 106

17- الكلمات: 528

18- نفسه: 529

19- العمدة: 683

ربكما تكذبان} كلما عدد مئة أو ذكر بنعمة كرر هذا²⁰. وهذا التكرار اللفظي، أو تكرار الجملة، كما يقول بديع الزمان، شديد الصلة بالمعنى، بحيث “يرز اعجازاً رائعاً واحاطة شاملة”²¹. فتكرار الجملة يكسب الخطاب تجدداً بتجدد الطبقات وتجدد العصور، إذ هو لا يتوجه إلى أولئك الذين عاصروا الرسول p فحسب، “بل يخاطب مع ذلك طبقة في كل عصر - لكونها فرداً من أفراد دستور كلي - خطاباً ندياً طرياً جديداً كأنه الآن ينزل عليهم”²² وهكذا شأن التعقيبات التي على رؤوس كثير من الآي “ولا سيما كثرة تكراره (الظالمين... الظالمين...) وزجره العنيف لهم وإنذاره الرهيب من نزول مصائب سماوية وأرضية بذنوبهم ومظالمهم، فيلفت الانتظار - بهذا التكرار - إلى مظالم لا نظير لها في هذا العصر، بعرضه أنواعاً من العذاب والمصائب النازلة على قوم عاد وثمود وفرعون، وفي الوقت نفسه يبعث السلوان والمطأينة إلى قلوب المؤمنين المظلومين، بذكره نجاة رسل كرام أمثال إبراهيم وموسى عليهما السلام”²³ وهكذا يؤدي التكرار، في هذا السياق، وظيفة مزدوجة، فتكرار (الظالمين... الظالمين) تقرير للكفار من جهة، وهو المنطوق، وتطمين للمؤمنين من جهة أخرى وهو المفهوم.

وهذا التكرار المعجز هو الذي يعجز عن إدراكه غير المسلم وغير العربي بوجه اخص. لقد عقد توماس كارلايل في كتابه (الابطال) فصلاً شائقاً سماه (البطل في صورة رسول) عرض فيه محمد p، ونسب إليه من الفضائل ما شاء، ورد كثيراً من ترهات الغرب وأبطلها، ولكنه حين جاء إلى القرآن الكريم نفسه، لم يجد بداً من أن يفرق بين أثر القرآن الكريم في العرب الفصحاء، وأثره في الغربيين، ولمح إلى ظاهرة “التكرار” في القرآن الكريم فقال: “أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة، هذا وإن الترجمة تذهب باكثر جمال الصناعة وحسن الصياغة، ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء، فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلم، لكي يعثر من خلال ذلك على كلمة مفيدة، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة، ولأن الترجمة ذهبت بحسنه ورونقه، فلذلك رآه العرب من المعجزات، واعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لانجليهم”²⁴

إن كارلايل إذن يعترف أن الغربيين يرون ظاهرة التكرار في القرآن سبباً في العناء وفي جعل القول مملاً متعباً. ولكنه يكشف أن سبب ذلك هو أن الترجمة تذهب بالحسن والرونق، ومن هنا فترجمة القرآن على الحقيقة ليست قرآناً، ولن يدرك بلاغة القرآن واعجازه البياني، ومنه التكرار، إلا من أوتي من فهم العربية حظاً عظيماً.

وهنا أمران، مما ذكرهما كارلايل، تنبه اليهما بديع الزمان وشرحهما وافاض فيهما القول.

فأما الأمر الأول فيتعلق بالملل الذي قد ينبع من التكرار.

إن كل كلام إذا ما تكرر كثيراً مدعاة للملل والسامة والضجر، إلا ما كان من كلام الله تعالى، فإنه (لا يخلق على كثرة الرد) كما جاء في الحديث الشريف، بل لا يزيده التكرار إلا بهاء وتجديداً

20- نفسه: 685

21- الكلمات : 526

22- نفسه

23- نفسه: 526-527

24- كتاب الأبطال: 91-92

وجلالاً، فيكون ذلك من صور الاعجاز فيه، يقول بدیع الزمان: "ان القرآن الكريم قد اظهر عذوبة وحلاوة ذات اصالة وحقيقة بحيث ان التكرار الكثير - المسبب للسامة حتى من اطيب الاشياء - لا يورث الملل عند من لم يفسد قلبه ويولد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا امر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الامثال"²⁵

وفي هذا النص لفتة من لفتات الاسلوب البديعي - نسبة الى بدیع الزمان - وهو الجمع بين العمق والبساطة، فهو لكي يؤكد الفكرة ويجليها يضرب لك الامثال القرية، فلذلك يكون هذا الجمع بين المعنوي والحسي في السياق، ذلك بانه كان في معرض شرح لذة عقلية مصدرها تكرار القرآن، فاذا به يشير الى السامة النابعة من (أطيب الاشياء) إذا تكررت، فكأن (اطيب الاشياء) تنصرف الى الحسي من الاشياء ايضاً، وإذا بنا نتذكر كيف ان من (أطيب الاشياء) المن والسلوى الذي جعله الله تعالى طعاماً لبني اسرائيل، فاذا بهم لكفرهم يشعرون بالسامة والملل ويخاطبون موسى عليه السلام { **لن نصبر على طعام واحد** }.²⁶

واما الامر الثاني فهو استحالة ترجمة القرآن الكريم، وهو امر قرره بدیع الزمان في اكثر من رسالة من رسائله، وفي عدة مواضع، وقد كشف النورسي حيث بعض من اراد ترجمة القرآن الكريم لسرى الناس تكراراته غير الضرورية²⁷ ورد عليه رداً حاسماً فقال:

"لا يمكن قطعاً ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقة.. وإن اية لغة غير اللغة العربية الفصحى عاجزة عن الحفاظ على مزايا القرآن الكريم ونكته البلاغية اللطيفة.. وان الترجمات العادية الجزئية التي يقوم بها البشر لن تحل - بأي حال - محل التعابير الجامعة المعجزة للكلمات القرآنية التي في كل حرف من حروفها حسنات تتصاعد من العشرة الى الالف، لذا لا يمكن مطلقاً تلاوة الترجمة بدلاً منه"²⁸ ومن المعلوم ان الكلام يتكون من اللفاظ والمعاني، وان اي ترجمة انما هي محاولة لنقل المعنى، اما اللفظ والجاؤه وإشراقه فذلك امر لا يترجم، وقد نبه الجاحظ الى ان الشعر لا يترجم اذ "لو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع انهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم"²⁹ وكذلك الشأن في كتبت الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون "فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين واحبار عن الله - عز وجل - بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه"³⁰

تكرار التلاوة:

على ان النورسي يضيف امراً بالغ الاهمية، وما رأيت احداً سبقه اليه، وهو ان الترجمة حين تتعلق بالقرآن الكريم لا تبقى محصورة في الالفاظ والمعاني، بل في امر آخر لطيف وهو يتعلق بالتكرار ايضاً، ولكنه تكرار من نوع جديد: انه تكرار التلاوة، هذا التكرار الذي يعطي صاحبه دفقاً شعورياً إيمانياً لا تحققه اي ترجمة، ذلك بان التلاوة حينئذ تتناول كلام الله عز وجل، فننشأ عن تلك التلاوة فيوض من

25- الشعاعات : 177

26- {واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثانها وفومها وعدسها وبصلها } (البقرة : 61)

27- قال النورسي في (الكلمات) : (طرق سمعي قبل اثني عشرة سنة أن زنديقا عنيدا قد فضح سوء طويته وحبث قصده بإقدامه على ترجمة القرآن الكريم، فحاك خطة رهيبه للبهويين من شأنه بمحاولة ترجمته، وصرح قائلاً: ليترجم القرآن لتظهر قيمته؟ أي لسرى الناس تكراراته غير الضرورية ولتلي ترجمته بدلاً منه.. الى آخره من الأفكار السامة. إلا أن رسائل النور بفضل الله قد شلت تلك الفكرة وعمقت تلك الخطة بحججها الدامغة وبتنشاؤها الواسع في كل مكان) 538

28- الكلمات : 538

29- الحيوان : 75/1

30- نفسه : 77/1

البركات، أن لجزء منها ان يتحقق خارج تلاوته كما انزل، بلسان عربي مبين؟ ان تلك التلاوة تتجاوز اللفظ، الذي هو صورة للمعنى، وتتجاوز المعنى، الى شئ آخر لا تتحقق منه الا لطائف الروح، وذلك كله يزداد تحققا بالتكرار، ويحدثنا النورسي عن تجربته الخاصة فيقول: “عندما كنت اقرأ يوم عرفه سورة الاخلاص مائة مرة مكررا اياها باستمرار لاحظت: ان قسما من حواسي الروحية اللطيفة، بعدما أخذت غذاءها بالتكرار قد ملت وتوقفت، وان قوة التفكير فيّ قد توجهت الى المعنى، فاخذت حظها، ثم توقفت وملت. وان القلب الذي يتذوق المعاني الروحية ويدركها، هو ايضا قد سكت، بعدما اخذ نصيبه من التكرار.

بينما بالمواظبة والتكرار المستمر على القراءة رأيت ان قسما من اللطائف في الكيان الانساني لا يعمل بسرعة، فلا تضره الغفلة التي تضرب قوة التفكير، بل انه يستمر ويداوم في اخذ حظه بحيث لا يدع حاجة الى التدقيق والتفكير في المعنى، إذ يكفيه المعنى العربي الذي هو اسم وعلم، ويكفيه اللفظ والمعنى الإجمالي لتلك الألفاظ الغنية المشبعة، بل ربما يورث سأمه ومللا حينما يبدأ التفكير يتوجه الى المعنى، ذلك لان تلك اللطائف لا تحتاج الى تعلم وتفهم بقدر ما هي بحاجة الى التذكر والتوجيه والحث. لذا فان اللفظ الذي هو اشبه بالجلد يكفي لتلك اللطائف في اداء وظيفة المعنى، وخاصة ان تلك الالفاظ العربية هي مبعث فيض دائم، اذ تذكر بالكلام الالهي والتكلم الرباني.

فهذه الحالة التي حربت بها بنفسى تبين لنا:

ان التعبير بأي لغة كانت غير اللغة العربية، عن حقائق الاذان وتسيحات الصلاة وسورة الاخلاص والفاصلة التي تتكرر دائما، ضار جدا، ذلك لان اللطائف الدائمة تبقى محرومة من نصيبها الدائم بعدما ان تفقد المنايع الحقيقية الدائمة التي هي الالفاظ الالهية والنبوية، فضلا عن ان يضع في الاقل عشر حسنات لكل حرف، ولعدم دوام الطمأنينة والحضور القلبي لكل واحد في الصلاة، تبعث التعابير البشرية المترجمة عن الغفلة ظلمتها في الروح.. وامثالها من الاضرار الاخرى”³¹

لقد آثرت نقل هذا النص على طوله لاهميته القصوى.

ففيه بيان لفضل تكرار تلاوة القرآن، وما يحدثه ذلك من فيوضات رحمانية وفيه تحديد لدرجات الادراك، من الحس الى العقل الى القلب، الى ما فوق ذلك جميعا من تلك اللطائف الخفية، فحين يتوقف الحس بعد امتلائه، ويعمل العقل بعد اخذ حظه من المعنى ويسكت القلب بعد اخذ نصيبه من التكرار. تظل تلك اللطيفة الخفية حية متجددة، ولا يزيداها التكرار الا تألقا وما ذلك الا لانها تتلقى كلام الله تعالى بلفظة كما تنزل على نبيه الكريم.

وعلى هذا، فان كل ترجمة “هي معنى مبتور بل وناقص وقاصر”³²

والنوع الثاني من التكرار تكرار القصة³³، والقرآن الكريم يعتمد القصص اسلوباً بلاغياً في الدعوة. قال تعالى {لننقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين}³⁴ وإن اكثر القصص دورانا في القرآن الكريم قصص الانبياء، لانهم جوهر الدعوة ومناطها، ولعل قصة موسى عليه السلام اكثرها تردداً وتكراراً، لتصوير ما كان عليه بنو اسرائيل من عناد وجحود وكفران.

31- المكتوبات : 437-438

32- نفسه : 439 . وقال أيضا : (إنه لا يمكن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حقيقية ، و لا يمكن قطعاً ترجمة اسلوبه الرفيع في إعجازه اللغوي . وإن من الصعوبة جدا إفهام الذوق وبيان الحقيقة النابعين من ذلك الأسلوب الرفيع في إعجازه المعنوي) نفسه: 503

33- الكلمات: 528:

34- سورة يوسف : 3:

وقد ورد ذكر موسى عليه السلام في اربع وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم، وتأني قصته احياناً موجزة واحياناً مفصلة، واكثر ما وردت مفصلة في (طه) و (القصص) و(البقرة) و (الاعراف) و (الشعراء)، والمتأمل يصل الى ما قرره بيدع الزمان من انه "لا تكرر الا في الصورة"، والا فان كل سورة تقدم لنا جوانب جديدة من القصة، ومشاهد غير معهودة، وكل مرة يقع التركيز على جانب من الجوانب، فمرة على حياة موسى عليه السلام، ميلاداً ونشأة الى ان استوى وأوتي النبوة، ومرة تقع العناية بتصوير عناد الكافرين ومآلم، وحيناً يظهر مشهد متميز، كمشهد (مؤمن آل فرعون) في سورة (غافر)، او مشهد (السامري) وعجل بني إسرائيل في سورة (طه)، وهكذا دواليك..

ففي كل مرة تتكرر فيها القصة يتحدد معنى من المعاني، وفي كل مشهد تتولد عبرة من العبر، وفي كل كرة يقع التركيز على دلالة من الدلالات، فقصة موسى مثلاً تتكرر مراراً كما رأينا، ويكون الغرض حيناً ترسيخ التوحيد وصفاء العقيدة، وحيناً اثبات القدرة الالهية، وحيناً تصوير الصراع بين الحق والباطل، وإبراز مآل المؤمنين ومصير الكافرين، وحيناً عناية الله بالمتقين، وحيناً تأكيد وحدة الدين وتعدد الرسالات، وحيناً ابراز وحدة المنهج في الدعوة الى الله تعالى، وهكذا...

اسرار التكرار:

قد يتساءل الانسان عن سر التكرار في القرآن الكريم، وكيف حدث انه لا يورث السأم والملل، كغيره من الاساليب البشرية، وبتبعية لرسائل النور نتبين ان وراء التكرار اسراراً واسباباً ودوافع، ويمكن اجمالها فيما يلي:

ان النظريات الادبية الحديثة، حين تتناول النص الادبي، لا تتناوله بمعزل عن عناصره المكونة التي هي: الخطاب، والمخاطب، والمخاطب، اي المتلقي وعملية التلقي نفسها، وعندما نحلل عناصر بلاغة التكرار، كما بينها النورسي، نجد انها تعني عناية فائقة، بهذه العناصر، واليها يؤول الاعجاز في بلاغة التكرار.

1- مصدر الخطاب: إن لمصدر الخطاب، أي المخاطب، أهمية قصوى في طبيعة الخطاب نفسه، فالخطاب يمتلك قوته اولا من مصدر الخطاب، وحين يكون المخاطب هو الله تعالى فلا بد ان يكون للخطاب قوته الباهرة، وفعله النافذ. والتكرار حين ينبع من هذا المصدر، الذي هو الله تعالى، يكون له الوقع الكبير الذي لا يكون له ان صدر عن سواه.

ان هذا الامر طالما عني به النورسي وفصل الحديث فيه، وهو يتحدث عن الخطاب القرآني خاصة، وبين "ان منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله اربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط... كما ضل فيه الادياء. فانظر الى من قال؟ ولمن قال؟ وفيما قال؟"³⁵.

ولذلك فانه "لا يقاس القرآن على سائر الكلام"³⁶ لانه "الاثر الحقيقي النفاذ المتضمن للقدرة والارادة"³⁷.

2- طبيعة الخطاب: ويلحق بمصدر الخطاب، طبيعة الخطاب، وكما ان مصدر الخطاب هو الله تعالى، فكذلك طبيعة الخطاب انه الهى، وهو لذلك شامل ومتنوع، وقد جاء التكرار، مستجيباً لذلك الشيوخ والتنوع، اذا القرآن الكريم: "كتاب دعاء ودعوة، كما انه كتاب ذكر وتوحيد، وكل من

35- المتنوي العربي النوري : 78

36- نفسه .

37- نفسه .

هذا يقتضي التكرار”³⁸.

3- تجديد الخطاب: لقد كان المكذوبون بيوم الدين يواجهون الرسول p بانماط من التكذيب، على شكل اسئلة متكررة، او شبه متماثلة، فكان لا بد من رد تلك الشبه الباطلة، والاجابة عن تلك الاسئلة المتكررة في صورتها، متجددة في حقيقتها. ومن اكثر الشبه التي أثارها المعاندون قضية البعث بعد الموت، ونحن اذا تتبعنا هذا الامر وجدنا القرآن الكريم يبدي فيه ويعيد، ويدحض مزاعم الضالين، بصور هي اقرب الى الافهام، كقوله تعالى: { وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم } (يس: 78 - 79).

وقوله تعالى: { وان تعجب فعجب قولهم أءذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد } (الرعد: 5)

وقوله تعالى: { وقالوا أءذا ضللنا في الارض أننا لفي خلق جديد } (السجدة: 10)

وقوله تعالى: { أفبعيننا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد } (ق: 15).

وقوله تعالى: { وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبئكم اذا مزقتم انكم لفي خلق جديد } (سبأ: 7)

وقوله تعالى: { وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا } (الاسراء: 49 و 78).

يقول بديع الزمان: “ان تكرر الحاجة يستلزم التكرار. هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد اجاب القرآن الكريم عن اسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة”³⁹

4- تجديد المخاطب (المتلقي): يتجدد الخطاب بتجدد الاسئلة، كما انه يتجدد بتجدد المخاطب ايضا. ان القرآن الكريم كتاب هداية للناس جميعاً، في كل العصور، وفي كل عصر ايضا يتجدد المعاندون الذين يلحدون في آيات الله، فكان التكرار في القرآن الكريم متجدد ايضا ليخاطب تلك الفئات البعيدة، المتباينة في المكان وفي الزمان ايضا، وهكذا نجد القرآن الكريم قد “ارشد باجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المتخاطبين”⁴⁰

5- تجدد المعاني والعبير: إن القرآن الكريم في تكراره البليغ لجملة واحدة او لقصة واحدة، انما يجدد المعاني والعبير. “فكل ما كرر في القرآن الكريم اذن من آية او قصة انما يشتمل على معنى جديد وعبارة جديدة”⁴¹

6- تجدد التلقي: قد يبدو ان بعض ما يتعرض له القرآن الكريم من احداث امر جزئي، متعلق بزمان بعينه، او بشخص بعينه، الا ان النظر العميق يبرز ان من مظاهر الاعجاز في القرآن الكريم “انه عند تناوله (حوادث جزئية) وقعت في حياة الصحابة الكرام اثناء نزوله وارسائه بناء الاسلام وقواعد الشريعة، فتراه يأخذ تلك الحوادث بنظر الاهتمام البالغ، مبيناً بها ان ادق الامور لاصغر الحوادث جزئية انما هي تحت نظر رحمته سبحانه، وضمن دائرة تديره وإرادته، فضلاً عن انه يظهر بها سنناً إلهية جارية في الكون ودساتير كلية شاملة. زد على ذلك ان تلك الحوادث - التي هي بمثابة النويات عند تأسيس الاسلام والشريعة - ستثمر فيما يأتي من الازمان ثماراً يانعاً من الاحكام والفوائد”⁴² وهكذا يتجدد التلقي بتجدد الاحوال وتجدد الازمنة وتجدد الناس.

38- الكلمات : 528

39- الكلمات : 528

40- نفسه .

41- نفسه .

42- نفسه .

صور التكرار:

يأتي التكرار في القرآن الكريم في صور كأنها تمثل مراحل أو درجات في الخطاب، وهذه الصور هي:

1- الاثبات: وكأن هذا الخطاب موجه الى المنكرين المعاندين، فيأتي التكرار على شكل تقرير يراد من ورائه اثبات ما ينكرون. وتقرير ما به يكذبون، واهم ما يتوجه اليه الاثبات ألوهيته سبحانه وتعالى ووحدانيته وقدرته واحاطته، فالقرآن الكريم “يكرر تلك الجمل والآيات ايضاً عند اثباته ان جميع الجزئيات والكليات ابتداء من الذرات الى النجوم انما هي في قبضة واحد احد سبحانه وضمن تصرفه حل شأنه”⁴³.

2- الترسخ: وكأن هذا الخطاب موجه الى المؤمنين ليرسخ المعاني في نفوسهم فيزيدهم إيماناً، فالقرآن الكريم يكرر إرشاداته للناس “وذلك عند ترسيخه في الاذهان وتقديره في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الاجزاء، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلاً من هذا العالم الفاني”⁴⁴.

3- البيان: اذا كان التكرار في الكلام البشري يحسن في موضع ويقبح في موضع، كما قال ابن رشيقي، فإن التكرار في القرآن الكريم، بصوره المختلفة، يمثل أسمى صور البلاغة، ولذلك فإن القرآن الكريم يكرر تلك الجمل والآيات ايضاً “عند بيانه الغضب الالهي والسخط الرباني على الانسان المرتكب للمظالم عند حرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والارض والسماء والعناصر، وتؤجج غضبها على مقترفيها”⁴⁵. فتكون النتيجة بذلك “ان تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الامور العظيمة الهائلة لا يعد نقصاً في البلاغة قط، بل هو إعجاز في غاية الروعة والابداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة وجزالة - بل فصاحة - مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال”⁴⁶.

حكمة التكرار:

اذ تبين لنا ان التكرار في القرآن الكريم كله بلاغة، وان لا تكرار الا في الصورة، وانه لا يبعث الملل والسأم، فلنا ان نساءل عن الحكمة من هذه الظاهرة البلاغية، وهنا نجد اجوبة مفصلة مبثوثة في مواضع من رسائل النور، فمن وراء تكرار الجمل والآيات حكمة، ومن وراء تكرار القصص حكمة، ومن وراء سوق القرآن ألوف الدلائل لاثبات امور والاخرة وتلقين التوحيد واثابة البشر حكمة، وهكذا. فالقرآن الكريم يعبر اكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة او ضمناً - في صحيفة واحدة من المصحف، وذلك حسب اقتضاء المقام، ولزوم الحاجة الى الافهام، وبلاغة البيان، والحكمة من وراء ذلك انه يهيج بالتكرار الشوق الى تكرار التلاوة، ويمد به البلاغة قوة وسمواً من دون ان يحدث سأم او مللاً⁴⁷.

ثم “ان اغلب السور المطولة والمتوسطة - التي كل منها كأنها قرآن على حدة - لا تكتفي بمقصدين او ثلاثة من مقاصد القرآن الاربعة وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدل مع العبودية بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلها، والمقاصد الاربعة منها”⁴⁸. والحكمة من وراء ذلك “ان القرآن

43- نفسه : 529

44- نفسه .

45- نفسه .

46- نفسه .

47- نفسه : 530

48- نفسه : 533

يذكر ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه بوضوح، فيرسخ في اعمال المؤمن احاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والنفس⁴⁹ والقرآن الكريم يكرر: **{والذين كفروا لهم نار جهنم}** (فاطر: 36) **{ان الظالمين لهم عذاب أليم}** (ابراهيم: 22) وأمثالها من آيات الانذار والتهديد. والحكمة من وراء هذا التكرار “ان كفر الانسان انما هو تجاوز - اي تجاوز - على حقوق الكائنات واغلب مخلوقات، مما يثير غضب السماوات والارض، وبملاً صدور العناصر حقاً وغيظاً على الكافرين، حتى تقوم تلك العناصر بصفع اولئك الظالمين بالطوفان وغيره⁵⁰” اما تكرار القصص، ولا سيما قصص الانبياء عليهم السلام، فقد بين بديع الزمان ان “الحكمة في تكرار قصة موسى عليه السلام - مثلاً - التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الانبياء انما هي لاثبات الرسالة الاحمدية، وذلك باظهار نبوة الانبياء جميعهم حجة على احقية الرسالة الاحمدية وصدقها، حيث لا يمكن ان ينكرها الا من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها اذن دليل على الرسالة⁵¹”.

هذه اولى.

ثم ان كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوقفون الى تلاوة القرآن الكريم كله - بل يكتفون بما يتيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر ومن ثم تكرار القصص فيها يمثل تكرار أركان الايمان الضرورية. اي ان تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة وليس فيه اسراف قط. زد على ذلك فان فيه تعليماً بان حادثة ظهور محمد p اعظم حادثة للبشرية واجل مسألة من مسائل الكون⁵² هكذا اذن ننهي الى ان اهم خصائص التكرار في القران الكريم، كما استنبطها بديع الزمان سعيد النورسي هي :

- 1- تكرار لا يمل، بل هو على العكس من ذلك، كلما كررته زادك حدة وجمالاً.
 - 2- لا تكرار على الحقيقة الا في الصورة، والا فهو تجدد مستمر.
 - 3- ان التكرار في القران الكريم كله معجز، وهو مظهر من مظاهر البيان المعجز.
- ولعل خير ما يحتتم به هذا البحث ما ختم به بديع الزمان نفسه حيث قال: “وهكذا فلأن حقائق القرآن المكررة تملك هذه القيمة الراقية، وفيها من الحكم ما فيها، فالفطرة السليمة تشهد ان تكراره معجزة معنوية قوية وواسعة، الا من مرض قلبه وسقم وجدانه بطاعون المادية، فتشمله القاعدة المشهورة:

قد ينكر المرء ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم⁵³
والحمد لله رب العالمين.

49- نفسه .

50- نفسه : 534

51- نفسه : 535

52- نفسه : 535-536

53- نفسه : 537

بين النورسي وأهل الكتاب

د. مصطفى ابوصوي^P

مقدمة:

لقد قمت في هذا البحث بجمع المواقف المتفرقة لبديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، من بطون الكتب المختلفة التي جمعت أقواله ورسائله والتي ترجمها إلى العربية الأستاذ إحسان قاسم الصالح، والتي تتعلق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ومن ثم فهذا البحث يشكل محاولة لبناء هذه الأفكار وعرضها بشكل يقترب ما أمكن من الدراسة المنهجية.

ويمكن القول ان مواقف النورسي لها خصوصيتها من ناحية الشكل الذي يتناسب مع كون الموقف "لمعة" على سبيل المثال لا الحصر، وهذا له أثره الخاص في السامع لأن "اللمعة" تكون بسيطة في مبناها مباشرة ولا تتطلب جهدا كبيرا للفهم وهذا من البلاغة. ولكن جمع هذه المواقف في دراسة واحدة حول موضوع واحد يعتبر على الأقل أمرا يسهل على الدارسين ويوفر الوقت والجهد. وكما أن مثل هذه الدراسة يندرج فيها بصورة ضمنية مقارنة المواقف المختلفة والتي تحمل نفس الفكرة ولكن بثوب جديد.

وعلى أي حال فان هذا الثوب الجديد يبدو جليا في طرح المواقف من خلال سياق العصر الذي عاش فيه النورسي، مع وضع تصور مستقبلي للعلاقة مع أهل الكتاب بناء على شواهد من القرآن والسنة، مع التنزيل على ارض الواقع مستقرا التاريخ.

يخاطب القرآن الكريم أهل الكتاب بـ "يا أهل الكتاب... يا أهل الكتاب" وكما قال النورسي، فأهل الكتاب أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بهذه الصيغة و "حتى كأن ذلك

^P استاذ مساعد في كلية الآداب بجامعة القدس. حصل على الدكتوراه من كلية بوسطن (امريكا) في التطور الفكري عند الغزالي. وعمل في الهيئة التعليمية في قسم الفلسفة ثم في قسم اللغات الشرقية في بوسطن (1989-93) وفي قسم الفلسفة في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (1993-95) كاستاذ مساعد. له ابحاث في مجال اختصاصه وقدم بحثا حول النورسي والسببية في الحلقة الدراسية بعمان (1997). من كتبه المنشورة:

1. Studies in Islamic Epistemology: the Case of al-Ghazzali, Kuala Lumpur, 1995
2. فتوى الغزالي 1996
3. al-Ghazzali's Spiritual Crisis Reconsidered, al-Shajarah (ISTAC) 1997.
4. The Development of al-Ghazzali's Epistemology, Intellectual Discourse, Vol 2, 1994

الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات إذ إن لفظ " أهل الكتاب " يتضمن معنى : أهل الثقافة الحديثة أيضا.

فالقرآن يطلق نداءه يدوي في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباقي بكل شدة وقوة وبكل نضارة وشباب فيقول¹:

{ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم } (آل عمران: 64)

ومن خلال نظرة تحليلية لربط النورسي بين أهل الكتاب وأهل الثقافة الحديثة بأشكالها أهل الكتاب، نجد أن هذه الثقافة الحديثة وهي غريبة في أسسها وتمثل فضاء اجتماعيا غريبا، تصطدم بنظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة، والإطار التوحيدي الذي تنطلق منه، ولهذا كانت الدعوة إلى الكلمة السواء وهي عبادة الله وحده.

وكون الثقافة الحديثة متلبسة بأشكالها أهل الكتاب يعني إنها ابعد ما تكون عن التوحيد الخالص ومما يعني بالضرورة ارتباط الحداثة بأبعاد شركية مما يفسر الصراع الذي لا يزال مستعرا بين ثلة من المثقفين الذين يقفون على أرض الوافد ينادون بالحداثة في جهة، وبقية المجتمع الإسلامي الذي لا زال معظمه في موقف الممانعة والمدافعة لاقتناعه بعدم تناسب المفاهيم الوافدة مع ثقافته التوحيدية. والمشكلة تكمن في ارتباط تلك الثلة المغترية بمراكز صنع القرار في كثير من دول عالمنا الإسلامي مما يضيف صبغة "شرعية" على فكر الحداثة!

ولعلنا ننظر في أقوال النورسي حول بعض هذه المفاهيم الشركية وأثرها على مجريات الأمور ماضيا ومستقبلا. فقد ذكر النورسي في "المكتوبات" أن النصراني قد افترطوا في حب عيسى عليه السلام حتى "تجاوزوا الحد المشروع... وقالوا: إنه ابن الله - حاش لله -"، ثم ذكر تفريط اليهود "في العدواة له فأنكروا نبوته ومنزلته الرفيعة"².

وفي موضع آخر، قال النورسي أن الخلل في عقيدة النصراني سيكون السبب في هزيمتهم. فيبعد أن ذكر آية: **{ جاء الحق وزهق الباطل }** أو أوضح هزيمة من يتحرى التوحيد في التثليث³، أي أن الغلبة ستكون للإسلام كما سنوضح في كلامه لاحقا في هذا البحث.

ومن الخلل في عقيدة النصراني أن "النصرانية الحاضرة ارتضت عقيدة البنوة (أي لله)، لذا تعطى للوسائط والأسباب تأثيرا حقيقيا أي مستقلا عن الله عز وجل"⁴.

ولشرح قول النورسي أن النصرانية تعطى الوسائط والأسباب تأثيرا حقيقيا اضرب المثال التالي:

ففي القرآن الكريم يقوم المسيح (عليه السلام) بإشفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله:

{ ورسولا إلى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم في الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وابرىء الأكمه والأبصر وأحيى الموتى بإذن الله .. } آل عمران: 49

وهذا اعتراف من المسيح (عليه السلام) بأنه لا حول ولا قوة له إلا بالله وأن ما جرى على يديه يتعلق بمشيئة الله، ولكن النصرانية، كما هي عليه كاثوليكية اليوم، تقول بان المسيح قد قام بهذه الأفعال اعتمادا على قواه الذاتية.⁵

1 - المكتوبات ص 602

2 - نفس المصدر: ص 569

3 - المطران بولص ماركو ترو - مؤتمر "الروح القدس" - دير الارمن / القدس في 1-5-1998

4 - ملحق امير داغ - 1: ص 303

وموقف النصارى هذا ينسجم تماما مع تصورهم لحقيقة المسيح (عليه السلام) فهو عندهم إله حقيقي كما ورد في متن عقيدتهم التي اقرها مجمع نيقية في عام 325 للميلاد. ولكن النصرانية لن تظل في دائرة الكفر، أي ستعود إلى التوحيد الخالص الذي بدأت منه. فقد ذكر النورسي ان هناك امارات بدخول مبشرين نصارى من الروحانيين الحقيقيين في دائرة رسائل النور⁶. وكذلك فقد قال بأن النصرانية سوف تلقي السلاح وتستسلم للإسلام سواء بالإنطفاء او الإصطفاء، فلقد تمزقت النصرانية عدة مرات حتى انتهت الى البروتستانتية. وتمزقت البروتستانتية فاقتربت من التوحيد، وهي تنهياً للتمزق مرة اخرى. فإما أن تنطفئ وينتهي أمرها، وإما ان تجد اتجاهها الحقائق الإسلامية الجامعة لأسس النصرانية الحققة ومبادئها فتستسلم. وقد أشار الرسول ρ الى ان عيسى (عليه السلام) سينزل وسيكون من أمته ويعمل بشريعته⁷.

وأما مستقبلا، وبالتحديد في الزمان "المسياني" - اي زمن الحياء الثاني للمسيح - فستظهر جماعة سماها النورسي "النصرانيون المسلمون"، وهي جماعة نصرانية غير فدائية تسعى للجمع والتوفيق بين الدين الحقيقي لسيدنا عيسى (عليه السلام) وحقائق الاسلام.

وتحت رئاسة سيدنا عيسى (عليه السلام) تقوم هذه الجماعة بتقويض نظام الدجال وقتل قيادته، تلك القيادة التي تدمر المدنية والمقدسات البشرية وتجعلها هباء منثورا بنية انكار الالهية في عالم الانسانية. وبهذا تنجي تلك الجماعة بقيادة سيدنا عيسى (عليه السلام) البشرية من ويلات انكار الالهية⁸.

ومن الملاحظ ان النورسي لم يذكر ابدا انه سيكون هنالك جماعة من "اليهود المسلمون" او ان اليهود سيستسلمون انطفاء او اصطفاء كما هي الحال بالنسبة للنصارى على الرغم من انه يسوي بين الجهتين في بعض المسائل مثل ايمان كثير من علماء اليهود والنصارى وإقرارهم بنبوة محمد ρ وأنه لم يقم حبر ولا قس بإظهار خلاف ما يقوله ρ⁹. ومن الواضح ان النورسي ينظر الى عالم النصرانية كشريك المستقبل، هذا بعد ان تقوم النصرانية بتصحيح ما هي عليه. فعنده ان الإسلام والنصرانية لا يستطيعان منفردين، اي كل على حده، على صد تيار الإلحاد، ولكن بفضل الإتحاد وبإمامة الإسلام وتجرد النصرانية من الخرافات والتحريفات يقويان على تدمير تيار الإلحاد تدميرا كاملا¹⁰.

وكما نجد "النصارى المسلمون" يقفون الى جانب المسيح (عليه السلام) فإن اليهود، عند النورسي، هم القوة العظمى للدجال ويتبعونه طوعا¹¹. إن تعبير النورسي هذا يؤيده الحديث الذي رواه مسلم عن انس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبي ρ قال:

"يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون الفا عليهم الطيالس" وقد أثبت الاستاذ إحسان قاسم الصالحى هذا الحديث في هوامش كتاب الشعاعات وكذلك أحاديث اخرى منها حديث ابن صياد،

5 - الكلمات: ص 471

6 - المكتوبات: ص 138

7 - صيقل الاسلام: ص 52

8 - المكتوبات: ص 563

9 - صيقل الاسلام ص 221-222

10 - المكتوبات ص 71-72

11 - الشعاعات ص 116

المتفق عليه، للدلالة على ان الدجال سيولد بين اليهود، كما ذكر النورسي ومن جهة اخرى قال ان الدجال يحصل على معاونة المنظمات السرية اليهودية الحاقدة على الإسلام والنصارى.¹² وفي النهاية فسيقوم عيسى (عليه السلام) بقتل الدجال الأكبر بعد ان يقيم الدجال كيانا إلهاديا هائلا يبيده الروحانيون النصارى - يعني بقوة نابعة من مزجهم حقيقة النصرانية مع حقائق الإسلام. وأن ما ورد بأن عيسى (عليه السلام) سينزل ويقتدي بالمهدي في الصلاة، يشير الى هذا الإنفاق، وإلى ريادة الحقيقة القرآنية وهيمتها.¹³ ومن المعلوم ان النصرانية ارتبطت بالغرب بشكل أو بآخر، ولهذا جاءت كلمات النورسي معبره عن تفاؤل منبعه التصور الاسلامي لحوادث المستقبل حيث يقول: "إن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام وستلدان يوما ما دولة إسلامية كما حبلت الدولة العثمانية بأوروبا وولدت دولة أوروبية - يعني تركيا-".¹⁴

وعلى الرغم من هذا التفاؤل، الا أن قراءة النورسي لواقع أوروبا ورجالها تشكل قراءة واقعية. فهو يرى أن أوروبا هي "كنيسة النصرانية عامة ومنع حياها"¹⁵، وأن الخواص فيها، مثل الزعماء السياسيين، متعصبون للنصرانية. وضرب مثلا على ذلك وهو لويد جورج، رئيس الوزراء البريطاني وبين ان هذا في خواص النصارى عامة في الغرب حيث ذكر رئيس امريكا "ولسن" ووصفهم بأنهم "أصبحوا متدينين كأى قس متعصب لدينه". وهذا على عكس خواص المسلمين الذين يتهاونون بدينهم.¹⁶

وبشكل عام فإنه يوضح تميز بلاد الافرنج بقوة النصرانية وفي نفس السياق يطلق على بلاد الاجانب تسمية "دار الحرب" مذكرا ان هذه التسمية من الشريعة.¹⁷ وأما عن علاقة المدينة بالدين في أوروبا وأثر ذلك على العالم الاسلامي، فقد تناول النورسي هذا الموضوع مرات عديدة، فأوروبا عنده اثنتان: واحدة مستمدة من النصرانية الحقه وهي نافعة، والثانية مستمدة من الفلسفة الطبيعية المادية وهي مضره.¹⁸ ومن الواضح ان الدين في اوروا قد ابتعد عن النصرانية الحقه، ودخل فيه التحريف ولما حصلت محاولات الاصلاح التي ادت الى ظهور البروتستانتية، والتي يراها النورسي خطوة باتجاه الاسلام، ادى ذلك الى تعصب ديني والى نزاع داخلي دام مئات السنين في اوروا بين الكاثوليك والبروتستانت.¹⁹ وقد بقيت بعض هذه النزاعات عنيفة الى ايامنا كمثل الذي لا زال يجري بين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا الشمالية، وقد قمت بزيارتها في مطلع هذه السنة (1998) لأشارك في مؤتمر حول "الدين والمجتمع وقضايا الصراع"، وخلال أيام المؤتمر حصلت ثلاثة انفجارات هائلة في اماكن مختلفة وتدل شدتها على شدة الصراع في تلك البقعة من العالم، فهناك احياء سكنية منفصلة لكل من الكاثوليك والبروتستانت وكذا المدارس وتفاصيل اخرى لا يتسع المكان لسردها.

12 - نفس المصدر: ص 124-125

13 - الشفاعات: ص 115-116

14 صيقل الإسلام ص 499

15 - نفس المصدر ص 367

16 - المكتوبات ص 563

17 - نفسه ص 558

18 - اللغات ص 176

19 - المكتوبات ص 417

وقد ربط النورسي بين محاولات الاصلاح البروتستانتية وعمل اهل البدع والأهواء في تركيا الذين قاموا بسبب التطرف القومي بتغيير لغة الاذان والفاتحة نفورا من العربية. وخلفية المقارنة التي اجراها النورسي بين اهل البدعة، الذين يغيرون الشعائر الاسلامية، وبين البروتستانت تبدأ عنده بالثورة الفرنسية، إذ حصل انقلاب في الديانة الكاثوليكية وهدم بعضها ، واعلنت البروتستانتية وقبلت فيما بعد كجزء من النصرانية. وظن أهل البدع في تركيا انه يمكن ان يحصل انقلاب كهذا ثم يقبل اصحاب الانقلاب على الاسلام كمسلمين . وهذا الظن راجع الى ان اهل البدع يرون ان الافرنج قد ترقوا كثيرا بعد الثورة على الدين.²⁰

ومن الواضح ان هنالك فرق زمني بين ظهور البروتستانتية في بداية القرن السادس عشر والثورة الفرنسية التي تمت في نهاية القرن الثامن عشر وهذا الفرق يقارب القرنين من الزمن. ومع ذلك، فإن الثورة الفرنسية قامت فعلا بإقصاء الكنيسة الكاثوليكية عن مركز الحكم ودوائر صنع القرار. بل كان من نتيجة الثورة الفرنسية بيع الكثير من ممتلكات الكنيسة التي تم تأميمها.

إلا انه يمكن اعتبار ان الثورة الفرنسية كانت في منطلقها ضد الدين، فكتابات مفكري الثورة الفرنسية امثال روسو وفولتير ومونتسكيو تدل على هذا، ومن هنا فقد مهدت الكنيسة الكاثوليكية لمثل هذا الموقف من خلال تاريخها الحافل بمعاداة العلم والعلماء، وبيع صكوك الغفران، ومحاكم التفتيش، والارتباط بنظام الاقطاع ومساندة الحكومات المستبدة. فلا عجب اذا ان ترى معاداة الكنيسة تصل الى ذروتها في الثورة الفرنسية التي اقصت الكنيسة عن مراكز النفوذ في الحياة العامة ومزقتها ورسخت دعائم النظام اللاديني المعروف "بالعلمانية"، والذي أفرز مدارس عديدة منذ ذلك الوقت كلها تعارض الدين بصورة او باخرى. وعلى الرغم من كل هذا فإن فرنسا لا تزال تعتبر دولة كاثوليكية وقد ادى هذا الى استمرار الصراع بينها وبين الدول البروتستانتية الاوروبية على كافة الاصعدة لفترات طويلة.

وأما عن علاقة الثورة الفرنسية بالبروتستانت، فإني لم اقع في قراءاتي على دور محدد لعبه البروتستانت بل لم يرد ذكرهم في تلك النصوص التي تعالج تفاصيل تلك الثورة. وعلى الرغم مما سبق عن علاقة الثورة الفرنسية بالدين بشكل عام، يظل السؤال حول طبيعة العلاقة بين البروتستانت والثورة الفرنسية بحاجة الى إجابة شافية تعتمد على البحث.

ومن الاشكالات الناجمة عن الثورة الفرنسية بصورة غير مباشرة ربط الثورة الصناعية او التقدم المدني بها، وبالتالي فإن الذين رغبوا بإصلاح الشرق وارادوا دفعه في طريق التقدم كانت نظرهم سطحية في البحث في سبب تقدم اوروبا في العصر الحديث.

إن الاختراعات الكبيرة التي مهدت الطريق للثورة الصناعية سبقت الثورة الفرنسية، الا ان التغيير على نطاق واسع بحيث اصبح ثورة في وسائل الانتاج في فرنسا بالذات كان حوالي عام 1830م. ومن هنا حصل الخلط عند اصحاب النظرة السطحية . فقد رأى البعض ارتباطا سببيا بين الثورة الفرنسية والثورة الصناعية، بل على وجه التحديد بين افكار روسو ومونتسكيو وفولتير من جهة والتقدم المدني من جهة اخرى. وهكذا وصلوا الى نتيجة خاطئة مفادها انه لا بد لتقدم العالم الاسلامي مدنيا من معاداة الدين وتقزيمه وتحجيم دوره .

وقد تم بالفعل تطبيق الشق الثاني الا وهو معاداة الدين الاسلامي واختزال موقعه في حياة الامة، والذي يستدعى من ذاكرة الامة في هذا السياق هو هدم الخلافة في الربع الاول في القرن العشرين. ولكن الذي لم يحصل حتى الان هو وصول الامة، وهي مبعثرة مفرقة، الى التقدم المدني المنشود وظلت الفجوة المدنية بين الشرق والغرب قائمة.

إن التقدم المدني يرتبط بالأخذ بالأسباب ووجود ظروف موضوعية تسمح لهذا التقدم بالوجود. وقد وضحت قصة ذي القرنين في نهاية سورة الكهف القضايا الاساسية المتعلقة بالموضوع. فالله عز وجل هو الذي امد الانسان بالاسباب، وعلمه أن يأخذ بها وسخر له ما يلزمه وبدون الدخول في تفاصيل كثيرة فقد اجتمع في قصة ذي القرنين الاسباب الاولية والثانوية والمواد الخام والحاجة والإرادة والعلم والإدارة وعدد كاف من الناس للقيام بمشروع السد، والذي يرمز الى التقدم المدني المنشود.

وبلغة أخرى فإن الثقافة قد تكون حيادية في هذه الدائرة فعلى سبيل المثال، استطاعت ثقافات مختلفة ان تصل الى القنبلة النووية، وإن كان لا يسرنا هذا التسابق وليس في صالح البشرية ابدا. ولكني اضرب مثلا معروفا عند اهل الارض قاطبة فالاتحاد السوفيتي الشيوعي وامريكا الشمالية والهند الهندوسية وباكستان الإسلامية واسرائيل اليهودية. كلها وصلت الى التقنية النووية، فلا علاقة على سبيل المثال، بين العدد الضخم لآلهة الهندوس وتبريد المفاعل النووي.

ليس المطلوب هو رفض كل ما يأتي من الغرب وان نبدأ من الصفر، بل ان هذا مستحيل. فلدينا تراث نحن بحاجة لمراجعته كي نستطيع وضع نسق يحقق التقدم المدني المنشود ولكن بناء على جذور من القرآن والسنة والتي تحقق في العصر الذهبي الاسلامي، والذي بدوره اوصل المنهجية العلمية الى الغرب وانقذه من الظلمات والجهالات الى حيث اصبح اليوم، فإن أخذنا شيئا، عن طريق الدراسة في مختبراتهم حتى يصبح لدينا مختبرات فإنما هذه بضاعتنا ردت إلينا.

ولكن في الدائرة التي فيها وحي فالباب موصد في وجه تيار التغريب الذي يريد ان يسلم الامة عن كل تراثها. اننا لا نضفي القداسة على كل ما فيه، ولا نريد العيش في الماضي كما لا نريد ان ننسلك عنه تماما ولكن الامم بتجارها وبأصالتها إننا بحاجة الى بلورة التصور الاسلامي للانسان والكون والحياة بلغة العصر وتحديد كيفية تنزيله على ارض الواقع. وقد أشكل فهم هذا على كثير من المفكرين الذين ظلوا يتحدثون الى الآن عن اشكالية الحداثة، في حين أن مفكري الغرب ينطلقون من نسق "ما بعد الحداثة" والذي نقد ونقض وفكك كثيرا من أفكار نسق الحداثة السابقة لما هم فيه. وهنا اطرح السؤال على مفكرينا: لماذا الإصرار على إدخال افكار إلى فضاءنا الاجتماعي بعدما هجرها اصحابها الاصيلون واعتبروها غير صالحة؟

ولماذا محاولات إكراه الناس على هذه الافكار فيتسبب ذلك بإضاعة جهد ووقت الحكومات والشعوب عندنا: الاولى تفرض وتلاحق والثانية تمنع وتتهرب؟

لقد وضع النورسي معادلة صحيحة بالنسبة لعلاقة التقدم بالدين، فالغرب يتقدم اذا ابتعد عن الدين، واما بالنسبة للمسلمين فتقدمهم يرتبط بقرهم من الدين، وتمسكهم به. إن رفض المسلم للمدينة يعوق التقدم فيبدو الإسلام ضعيفا في الظاهر.²¹ ولهذا يجب عدم الخلط بين الأشياء المادية التي يمكن الانتفاع بها وبين الافكار التي قد تكون وبالاً على امتنا.

إن اقوال النورسي حول احدى هذه الافكار التي انبثقت عن الحداثة، الا وهي القومية، تدل على وعي عميق بخطورتها وإيحاءاتها السياسية: إن "القومية ودعوى العنصرية خطر عظيم" وان رابطة الدين الاسلامي افضل للمسلمين، وفائدتها تصل الى النصارى وأبناء الديانات الاخرى المحتاجين الى إقرار السلام.²²

وخلاصة القول في دائرة التمدن هو، كما قال النورسي، "لا يقاس الدين الاسلامي بالنصرانية".²³ فالندين الاسلامي يتناسب طرديا مع التحضر، والتدين المسيحي يتناسب عكسيا معه، فاحتاجوا هم الى ترك الدين، واحتجنا نحن للعودة إليه. وعلى أي حال فإن النورسي يرى انه لا بد للإسلام ان يتحد مع النصرانية "الحقه" لمحاربة الإلحاد والذي بدا للبعض انه شرط للتمدن.

وعودة الى موقف النورسي من اليهود بشيء من التفاصيل التي تخصهم. فكما يظهر من اقواله الكثيرة انه ينزلهم منزلة أدنى من النصارى، فلا "يهود مسلمون" على غرار "النصارى المسلمون" كما ذكرنا آنفا، ولا يهودية حقه مثل النصرانية الحقه، ولا اشتراك مستقبلي بعد تنقية اليهودية من التحريفات... الخ. فابتداء بتفسير {غير المغضوب} في سورة الفاتحة، نرى ان النورسي يعرف المراد من هاتين الكلمتين "بالذين تجاوزوا بتجاوز القوة الغضبية فظلموا وفسقوا بترك الاحكام كتمرد اليهود".²⁴

ووصولاً الى رسم الشخصية اليهودية من خلال تفسير آيات تتعلق بهم، مثل {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه ابدا} البقرة 94-95 فقد قال في تفسيرها ان الاية تبين بعنوان حادثة جزئية وقعت في مجلس صغير في الحضرة النبوية الكريمة من ان اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة، واخوفهم من الموت، لن يتمنوا الموت ولن يتخلوا عن الحرص على الحياة حتى قيام الساعة. ثم في تفسير {ضربت عليهم الذلة والمسكنة} البقرة: 61، قال أن الاية الكريمة تبين بهذا العنوان مقدرات اليهود في المستقبل بصورة عامة، وحيث ان الحرص والفساد قد تغلغل في سجايهم وتمكن من طبعهم فالقران الكريم يغلظ عليهم في الكلام ويصفعهم صفعات زجر عنيفة للتأديب.²⁵ وبشكل عام يرى النورسي ان اليهود يرتبطون بالفساد والحرص على الحياة كما ذكرنا سابقا ولكن هنالك آيات اخرى تؤكد على نفس المعاني مع توسع في التفاصيل. فبعد أن ذكر الأيتين التاليتين:

{ولتجدنهم أحرص الناس على حياة} البقرة: 96

{ولا تعثوا في الأرض مفسدين} البقرة: 60

قال النورسي:

"هذان الحكمان القاضيان في حق اليهود - الحرص والفساد - يتضمنان هذين الدستورين العامين المهمين، اللذين يدبرهما اولئك القوم في حياة المجتمع الانساني بالمكر والحيل والخديعة، فالآية(البقرة: 60) تبين انهم هم الذين زلزلوا الحياه الاجتماعية الانسانية وأوقدوا الحرب بين الفقراء والاعنياء، وبتحريض العاملين على اصحاب راس المال. وكانوا السبب في تأسيس البنوك يجعلهم الربا اضعافا

22 الملاحق - اميرداغ ص 2

23 - المكتوبات ص 417

24 - اشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص 45

25 - الكلمات ص 465-468

مضاعفة، وجمعوا أموالا طائلة بكل وسيلة دنيئة بالمكر والحيل، هؤلاء القوم هم انفسهم ايضا انخرطوا في كل انواع المنظمات الفاسدة، ومدوا ايديهم الى كل انواع الثورات، اخذا لثأرهم من الشعوب الغالبة ومن الحكومات التي ذاقوا منها الحرمان وسامتهم انواع العذاب".²⁶

وهكذا نرى ان النورسي يحمل اليهود مسؤولية النظام الشيوعي والرأسمالي والثورات والقلاقل والمنظمات الفاسدة، وان السبب في هذا هو الثأر لما تعرضوا له من ظلم. ولقد ضرب النورسي أمثلة على ما سبق من تاريخ اليهود المعاصر فقال ان تجمع اليهود في المانيا كان لأجل "أن ينتقموا من الدول والشعوب" التي ظلمتهم فكانت لـ "تروتسكي" اليهودي اليد الطولى في تأسيس منظمة الشيوعية حتى أوصلوه الى القيادة العامة، ومن بعد ذلك جعلوه في رئاسة الحكومة في روسيا فدمروا روسيا دمارا رهيبا، "وأظهروا - أي اليهود - أنهم منظمة من منظمات الدجال الكبير" وزعزعوا كيان سائر الحكومات ايضا.²⁷

ولما كانت أوروبا تعاني من "المسألة اليهودية" والتي شعر بها المفكرون اليهود وبضمنهم ماركس الذي كتب عنها، حاول كل منهم ان يأتي بحل لها. فمن المعروف ان اليهود لم يستطيعوا ان يذوبوا في المجتمعات التي عاشوا فيها لأسباب عديدة منها السكنى في أحياء خاصة مغلقة "الجيتو". ومنها ايضا ما وصل اليه عبد الوهاب المسيري ان اليهود كانوا يؤدون دور الجماعة الوظيفية في أوروبا مثل قضية الاقراض الربوي. وقد أدى هذا الى وجود قوة طرد في المجتمعات الأوروبية ومن ثم كانت الصهيونية ترى ان الحل للمشكلة اليهودية يكمن في ان يصبح اليهود "شعبا مثل كل الشعوب" يعيشون في دولة مستقلة. ولكن يبدو ان المانيا لم تصير وقد اصبحت الروح النازية المبنية على سمو وفضلية الجنس الآري، مسيطرة على مجريات الاحداث. إن افكار الداروينية هذه دفعت المانيا الى التطهير العرقي فكانت "الهولوكوست" اي "المحرقة"، ولم تكن النازية تبعد اليهود فقط فمن الثابت انهم أبادوا اعدادا ضخمة من البولنديين وهم من السلاف من ناحية عرقية. وكان هنالك ترتيب لجميع الاعراق وبالطبع دون الجنس الآري!

وقبل ان اصل الى موقف النورسي من هذه المذابح، أود أن انوه الى ان "الأوروبي" هو الذي اقترف شتى انواع المذابح والمجازر التي عرفها التاريخ. فمن ذبح الصليبيين للمسلمين في المسجد الأقصى الى ذبح الهنود الحمر (سكان امريكا الاصليين) الى ذبح اليهود في المانيا الى ذبح المسلمين في البوسنة والهرسك وها هو يفعلها في كوسفو. إن اللاتحة أطول مما ذكر وللأسف ستطول إلا إذا غير الأوروبي عقلته. والأدهى والامر من كل هذا أن الأوروبي جعل من نفسه وصيا على حقوق الاقليات في عالمنا الاسلامي!

أما النورسي فقد ربط بين المذابح القديمة التي تعرض لها اليهود والمذابح المعاصرة. فبعدها ذكر الاية التالية:

{يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم} (البقرة: 49).

قال: "إنه مجاذة ذبح بني اسرائيل واستحياء نساءهم وبناتهم في عهد فرعون، بين الإبادة الجماعية التي يتعرض لها اليهود في أكثر البلدان وفي كل عصر والدور المهم الذي تؤديه نساؤهم وبناتهم في حياة السفاهة البشرية وتحلل اخلاقها."²⁸

26 - نفسه ص 468

27 - الشعاعات ص 116

28 - الكلمات ص 464

وكان النورسي في هذا السياق يربط بين إفساد اليهود وبين المذابح التي يتعرضون لها. وفي سياق آخر يقول النورسي ان الحرص ادى الى اصابة اليهود بالذل والمسكنة وأن اليهود احرص الناس على حياة، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، وضربت عليهم الذلة والمهانة، والحقت بهم حملات القتل بيد الامم الاخرى. كل ذلك مقابل حصولهم بعد عناء طويل على ثروة ربوية محرمة خبيثة، لا ينفقون منها الا النذر اليسير.²⁹

وعلى اي حال، فإن للنورسي موقف مميز بالنسبة لمصير الأبرياء من الكفار في البلايا مثل الحروب التي ينشؤها الظالمون، إن كانوا صغاراً والى الخامسة عشرة من العمر، فهم في حكم الشهداء من أي دين كانوا. أما الذين تجاوزوا الخامسة عشرة من العمر، فإن كانوا ابرياء مظلومين، فلهم جزاء عظيم ربما ينجيهم من جهنم.³⁰

ويستمر النورسي في الحديث وان كان في سياق يذكر فيه النصرى ويتعلق بالحروب العالمية ولكن المعنى يعم غيرهم، فقد ذكر ان ما يكابده المظلومون وما يقاسونه من الويلات تكون بحقهم نوع من الشهادة على اساس انهم يعيشون الان في ظلمات تشبه ظلمات "الفترة". ولا سيما الكهول وأهل النوائب والفقراء والضعفاء والمساكين الذين يقاسون النكبات والويلات تحت قهر المستبدين والطغاة الظالمين. ويضيف النورسي قائلاً: "وقد بلغتني في الحقيقة: أن تلك النكبات والويلات كفارة بحقهم من الذنوب المتأتية من سفاهات المدنيه وكفرانها بالنعم ومن ضلالات الفلسفة وكفرها".³¹

ومن المعروف ان هنالك الكثير من حاخامات اليهود الذين يعتبرون العذاب الذي يجل بهم ناتجاً عن سلوكهم، ولكن ظهر موقف لاهوتي جديد تطور بعد ما يسمى "بالحرقة" (الهولو كوست) وهو مصطلح كان يعبر عن قربان الذي يحرق قربة الى الله كما في اللاهوت والتاريخ اليهودي، ثم أصبح يعبر عن الذين أحرقوا في معسكرات النازية، والصاق هذا المصطلح بما حصل لليهود لا يحمل على ظاهرة فهو يمثل عملية نقد مباشرة وساخرة من قيم مقترف هذه الجرائم.

إن هذا اللاهوت الجديد ويسمى "لاهوت ما بعد الهولو كوست" ينص على ان الله، تعالى عما يقولون علواً كبيراً، كامل في دائرة المطلق، ناقص في دائرة المحدود. وهذه الدائرة الاخيرة هي التي حصلت فيها المحرقة حيث سمح الله للنازيين بذبح اليهود ووقف عاجزاً عن نصرته شعبه المختار! وعلى كل حال فإن ما حدث لليهود على يد النازية لا زال يقض مضاجع اليهود ولا زالوا يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة.

ولعل أهم قضية تتعلق بالعلاقة بين المسلمين واليهود على أرض الواقع هي قضية فلسطين. وأود أن أنبه الى أن المشروع الصهيوني وقراره الاستيطان في فلسطين قد سبق فعل النازية باليهود بحوالي (50) عاماً. فال مؤتمر الصهيوني الأول عقد في مدينة بازل في سويسرا عام 1897؟ أما بالنسبة لرؤية النورسي لهذا الموضوع فقد ذكر أولاً الاية التالية:

{وضربت عليهم الذلة والمسكنة} البقرة: 61

ثم قال: إن اليهود لما أفرطوا في حب الحياة والتكالب على الدنيا استحقوا ان يتلقوا صفة الذل والمسكنة في كل عصر وكل مكان. إلا ان الامر بالنسبة لقضية فلسطين هذه يختلف بعض الشيء. فقد حل محل حب الحياة والتكالب على الدنيا الذي هو جلبة اليهود وديدهم على مر العصور شعور قومي

29 - المكتوبات ص 351

30 - الملاحق ص 147

31 - نفسه ص 147

وديني، حيث بدأوا يحسون ان فلسطين هي مقبرة بني اسرائيل وان الأنبياء السابقين كانوا من قومهم. وبالنظر الى شعورهم القومي والديني هذا فإنهم لم يتلقوا صفة تأديب بسرعة هذه المرة. وإلا فكيف يكون باستطاعة قلة قليلة من الناس ان تعيش وسط ذلك الجمع الهائل من العرب الذين يطوقونها في كل صوب دون ان يتلقوا صفة سريعة وتضرب عليهم الذلة والمسكنة.³²

ونظرة تحليلية لما سبق نجد ان النورسي كباقي علماء المسلمين، يعتقد ان هنالك عقاب رباني لإفسادهم في الارض وأن مواقفهم العملية بالنسبة لفلسطين، والتي ارتبطت بالايديولوجية الصهيونية، هو من حسن ذلك الافساد وانه كان الناس يتوقعون عقابا سريعا لليهود، الا انه لحكمة ربانية لم يمن موعد العقاب بعد. وقد حوت كلماته عن العرب الذين يحيطون باليهود نقدا مبطنا حيث اورد حقيقة ضخامة العرب البشرية مقارنة باليهود ويتبع ذلك الامكانات ايضا وكأني به يشير الى الغنائية التي نبه اليها محمد ρ كصفة لأعداد المسلمين الضخمة ولضعف حيلتهم، حينما تحدث عن مستقبل هذه الامة وهكذا حصل .

لقد كان النورسي واعيا للدوار السلبية لليهود مجتمعين ولذلك نجده يقتبس الايات الكريمة التي تتعلق بهم وفي اطار حديثه عنهم ومنها:

{وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} المائدة:62

{ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين} المائدة 64

{وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين} الاسراء: 4

ومع كل هذا فإن الباب يظل مفتوحا لمن يريد ان يعيش ذميا بين ظهراي المسلمين وقل شرط على الذمي ان يتوقف عن الافساد في الارض، وله بعد ذلك المعاملة بالاحسان. وقد نبه النورسي الى النهي عن اذاهم ولو في الخطاب.³³

إن علاقة القرآن الكريم بغيره من الكتب - التوراة والانجيل - هي علاقة هيمنة. فالقرآن يذكر اخبار الانبياء السابقين وأحوالهم والاحداث المهمة "فيوافق ما اتفقت عليه تلك الكتب السابقة ويصحح حقيقة الواقعة ويفصل في تلك المباحث التي اختلفت فيها."³⁴

ولعلي اضرب مثلا على قول النورسي ان القرآن يصحح حقيقة الواقعة. ففي سفر التكوين وفي السطر الاول من الاصحاح الثامن عشر يظهر الرب لإبراهيم عليه السلام ومعه ملكان، (وهم في طريقهم الى قوم لوط)، ويقدم ابراهيم لهم الطعام:

(ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم واذا كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا) تكوين 18:8

فقصة سفر التكوين فيها تحريف من عدة وجوه احداها ان الله عز وجل ظهر بشكل رجل، وانه والملكين يأكلون الطعام كالبشر.

وفي التصور الاسلامي التوحيدى المبلغ لجميع الرسل والانبياء لا يمكن ان يظهر الله عز وجل بمثل هذا المظهر او غيره من تحريفات "التوراة" وكذلك فالقرآن ينكر ان الملائكة تاكل وقد ورد ذلك صراحة في أكثر من رواية لهذه القصة: {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام

32 - الشعاعات ص 21

33 - صيقل الإسلام ص 400

34 - الكلمات ص 468

فما لبث ان جاء بعجل حنيذ فلما رءا ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط {هود: 69-70}.

واختتم هذا البحث ببعض اقوال النورسي ذات الدلالة المستقبلية بالنسبة لعلاقة الاسلام بالاديان الاخرى.

فبعد ان ذكر الاية التالية: {هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} قال:

"هذه تخبر اخبارا قاطعا: ان الدين الذي جاء به الرسول الكريم ρ سيظهر على الاديان كلها"، فقد كانت بعض هذه الاديان مثل النصرانية والمجوسية، اديانا رسمية لبعض الدول مثل الامبراطورية الرومانية ودولة الفرس وهذا يعني الظهور على تلك الدول ايضا، ولم يكن محمد ρ قد ظهر على قبيلته هو بعد!

"وقد صدق المستقبل هذا الخبر الغيبي بامتداد سيف الاسلام من بحر المحيط الشرقي الى المحيط الغربي" ³⁵

والاية الكريمة تتحدث عن ظهور هذا الدين على جميع الاديان ويدخل في ذلك الايجاءات السياسية التي تدل على نوع غلبة سياسية. إن رابطة الدين الاسلامي افضل للمسلمين من الروابط الاخرى - مثل القومية - وفائدتها تصل الى النصارى وابناء الاديان الاخرى المحتاجين الى اقرار السلام. ³⁶ وأخيرا أختتم بقول النورسي أن الاسلام سيقود البشرية الى السعادتين الدنيوية والاخروية. ³⁷

حركة التجديد والاصلاح في اواسط القرن العشرين

جون اوبرت وول^P

أثرت التغيرات والتقلبات الكبيرة التي حفل بها منتصف القرن العشرين في مختلف أوجه حياة الإنسان . كما أثرت تجارب الحداثة والعصرنة في العشرين الأخيرين على العقائد الدينية وعلى تقاليدنا ، كما لعب الدين دورا مهما في تشكيل تجارب الحداثة للمجتمعات، ولا يزال يلعب هذا الدور. ويعد أواسط القرن العشرين من أكثر الادوار الحرجة التي تجلب الاهتمام في موضوع التأثير المتبادل بين الدين وبين الحداثة.

ويمكن النظر الى أعوام الخمسينات من هذا العصر كأعوام بلغ التأثير فيها ذروته ، كما بدت فيها اولى إشارات (العالم ما بعد الحداثة Post Modern). ولم يكن في الامكان حل بعض المناقشات الرئيسة للحداثة إلا عند عدم قلبها الى توترات ومشاكل جديدة. ومع ذلك فإن الوعي و اليقظة التي تمت في الخمسينات لا تشبه اليقظة الكبرى التي ظهرت لدى المسيحيين في المستعمرات الانكليزية في أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر بقيادة (جوناثان ادوارد)، ولا اليقظة التي شهدتها الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ايضا بالحركة التي تعود عليها المسلمون و التي بدأها (محمد بن عبد الوهاب) بينهم،

^P أستاذ التاريخ الاسلامي - ومدير مركز التفاهم بين المسلمين والنصارى - جامعة جورج تاون بواشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1969 حول (تاريخ الطريقة الختمية في السودان) . وهو عضو في : الجمعية الأمريكية للمجتمعات المتفقة. الجمعية الأمريكية لدراسة المجتمعات الإسلامية. الجمعية الأمريكية للتاريخ. هيئة المؤلفين لسدائرة معارف العالم الإسلامي المعاصر. هيئة المؤلفين للمجلة العالمية لدراسات الشرق الاوسط. رئيس هيئة المؤلفين لجمعية دراسات الشرق الاوسط. مجموعة المستشارين لبرنامج ثقافة الأمن القومي. ورئيس: جمعية نيو انكلاند للتاريخ و هيئة المديرين لمجلس نيوهامشاير للشؤون العالمية 1978 - حتى الآن . وهيئة المديرين لمجلس نيوهامشاير للشؤون الإنسانية 1991 - 95. وهيئة المديرين لجمعية دراسات السودان . وله اجات ودراسات كثيرة نذكر من مؤلفاته المنشورة:

- Islam: Continuity and Change in the Modern World
- Historical Dictionary of the Sudan
- Sudan: State and Society in Crisis,
- Islam and Democracy, with John L. Esposito
- The Contemporary Islamic Revival, with Yvonne Haddad and John L. Esposito
- The Sudan: Unity and Diversity in a Multicultural State, with Sarah P. Voll).
- Eighteenth Century Renewal and Reform in Islam, with Nehemia Levtzion, editors

وان كان هناك بعض أوجه التشابه فيما بينها، فهذه الحركة لم تكن حركة (إحياء) . ولم تأخذ حركة اليقظة التي تحققت في أواسط القرن العشرين شكل حركة (برانج ديفيديان) في الولايات المتحدة الأمريكية ولا شكل بعض الحركات الجهادية التي ظهرت في العالم الإسلامي في الربع الأخير من القرن العشرين المتسمة بطابع الشدة أو بالطابع الديني.

على العكس من هذا فان اليقظة التي ظهرت في أواسط القرن العشرين كانت حركة أفرزتها حركة تجارب الحداثة فيما يتعلق بمسائل النظم الاجتماعية والدينية. فحركة الانبعاث الجديد - التي حدثت في الخمسينات - هيأت مثلاً القواعد والاسس الثقافية واللاهوتية في العالم المسيحي وفي المجمع الكنسي الثاني للكنيسة الكاثوليكية - الذي عقد في الفاتيكان في بداية الستينات - للتحرر اللاهوتي. وكان الصعود الفجائي المترام للحركات الشيوعية المتطرفة وللحركات القومية عامل حجب لما يحدث من إرساء لحركة ذات طابع ثقافي ونظامي في مجال الأعراف والتعاليم والتقاليد في الاسلام والهندوسية والبوذية لتجاوز وتخطي المناقشات والتوترات التي أحدثتها المعاصرة . وقد قاوم الكثيرون تعبير (ما بعد الحداثة) بسبب بعض مماثلة مع مدرسة أدبية معينة في النقد والفلسفة. ومع ذلك فمن المحتمل أنه أفضل تعبير ممكن في ملاحظة ووصف التغيرات في النظرة السائدة في المجتمعات الصناعية القائمة على (خط الإنتاج)، وفي النظرة السائدة في العلم حول الكون والقائمة على فيزياء (نيوتن). وتملك معظم ميول (ما بعد الحداثة) جذورا قوية في التغيرات التي حدثت في الخمسينات. وقد يكون من المفيد القول بأن الحركات الدينية لهذا العقد عبارة عن تركيب ومزيج من (الحداثة) ومن (ما بعد الحداثة) في الأمور التي واجهتها هذه الحركات وفي الحلول التي قدمتها.

شهدت أعوام الخمسينات تغيرات مهمة جدا في العالم الإسلامي ، فقد اكتسبت البلدان الإسلامية استقلالها السياسي بسرعة كبيرة. وكان نمط الكفاح لاحتراز الاستقلال يحدد الى درجة كبيرة طبيعة التنامي والتوسع في الساحة الدينية. وكان هناك تشابه نسبي بين النشاط الديني وبين القومية. ومع ذلك فقد كانت هناك بعض البلدان الإسلامية المهمة كتركيا وإيران ومصر مستقلة منذ مدة طويلة ، وكان التطور الديني في هذه البلدان ينحو منحى مختلفا، فقد كانت عناصر الحداثة وما بعد الحداثة ظاهرة في هذه البلدان أكثر من غيرها، وكاننا أهم نقاط النقاش، وكان مزيج عناصر الحداثة و(ما بعد الحداثة) ظاهرة في هذه البلدان أكثر من غيرها، وكانت مواضيع النقاشات الجارية فيها تتضمن العلاقات الموجودة بين المؤسسات السياسية والثقافية الحديثة وبين الأجوبة الإسلامية لقواعد الحداثة المؤسسة الراسخة. ويظهر هذا خاصة في مصر بعد القيام بقمع حركة الاخوان المسلمين المتسمة بالحداثة ثم بداية ظهور حركة الإخوان المسلمين المتسمة بالطابع الثوري بعد وضوح قيام عبد الناصر بتأسيس حركة القومية العربية الاشتراكية المتطرفة. أما في إيران فقد كانت التطورات متعلقة ببرامج التحديث الغربية التي قامت بها السلطات الحاكمة فيها، وارتباط هذه السلطات الحاكمة بالولايات المتحدة الأمريكية كقوة أجنبية متدخلة في شؤون البلد. وبدأت المؤسسة العصرية تواجه تحديا متزايدا من قبل المعارضة ذات الطابع الإسلامي ولا سيما بعد فشل وسقوط القومية العلمانية التي قادها مصدق.

أما تركيا فقد بدت في الخمسينات كبلد يحاول تجربة بعض أنواع من الانبعاث الديني¹. وقد نوقشت معظم هذه الفعاليات في مواجهة التطورات السياسية آنذاك. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية دخلت تركيا إلى عهد جمهورية ذات برلمان مكون من أحزاب متعددة، وكان من الطبيعي أن تأخذ المواضيع الدينية قسماً أكبر من ذي قبل في المناظرات والمناقشات بين الجماهير وأفراد الشعب. وكان الفوز الذي حققه (الحزب الديمقراطي) في إنتخابات عام 1950 قد فتح الطريق أمام التغيير في السياسة المتعلقة فيما يخص الدين، فمثلاً سمح للاذان الشرعي السابق وترك الأذان باللغة التركية، كما سمح بحرية أوسع للتدريس والتعليم الديني. على أي حال كانت هناك أيضاً ميول ثقافية وفكرية أوسع لا تتعلق بالسياسة الحزبية آنذاك. وكانت هناك مجموعة من المفكرين والقادة الروحيين الاثراك قد نذروا أنفسهم لبيان وتوضيح المبادئ الاسلامية تجاه ظروف العصر الحديث وتجاه (ما بعد الحدائثة) التي بدأت معالمها بالظهور. وعلى الرغم أن (بديع الزمان سعيد النورسي) غير معروف كثيراً خارج تركيا إلا أنه يُعد من أهم الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في هذه التطورات² وكانت اعوام 1 الخمسينات هي العقد الاخير من حياته.

غطت حياة بديع الزمان سعيد النورسي قسماً كبيراً من تاريخ تركيا الحديثة، فقد ولد في شرقي تركيا عام 1876 أي في الحقبة الاخيرة من عهد الدولة العثمانية وخدم في الجيش العثماني، وكتب مقالات وطنية في أثناء حرب الاستقلال التي أعقبت الحرب العالمية الاولى مما نال بها تقدير حكومة (انقرة) الوطنية. ولكنه فقد هذا التقدير عندما ذكر لرجال البرلمان في انقرة بأن نجاحهم هذا لا يرجع ببساطة الى جهودهم الشخصية بل الى القدر الالهي.³ ثم جلب كونه مرشداً دينياً يتمتع بشعبية كبيرة شكوك الحكومة التجديدية لمصطفى كمال اتاتورك مما أدى الى أن يقضي النورسي بقية حياته في السجون أو في النفي في أرجاء نائية من تركيا.⁴

يقوم النورسي بتقسيم حياته الى ثلاث مراحل، ففي المرحلة الاولى منها هو (سعيد القديم)، حيث نراه الى جانب إهتمامه النشط بالقضايا الاسلامية ذات الطابع المحافظ عسكرياً فعالاً في الجيش العثماني. وقد وصف النورسي فيما بعد وضعه الفكري والثقافي في تلك المرحلة فقال:
(ان سعيداً القديم) والمفكرين، قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية، أي يقبلون شيئاً منها، ويبارزونهم بأسلحتهم، ويعتدون قسماً من دساتيرها كأهم العلوم الحديثة فيسلمون بها. ولهذا لا يتمكنون من اعطاء الصورة الحقيقية للاسلام على تلك الصورة من العمل.⁵)

1 من أكثر المقالات فائدة والمكتوبة آنذاك في هذا الخصوص انظر إلى: (Islamic Revival) لبنارد لويس. (International Affairs 28 /1952) صفحة 38-48 .

والى: ((Recent Development in Turkish Islam)) ل(لويس ف. توماس (Lewiis V.Thomas) المنشور في (Middle East Journal) بتاريخ 1952/6 صفحة 22-40 .

والى مقالة (Howard A.Reed) بعنوان: (Revival of Islam in Secular Turkey) المنشورة في (Middle East Journal) بتاريخ 1954/8 صفحة 227 - 282

2 هناك كتاب تحليل مفيد للاشخاص خارج تركيا كتبه (شريف ماردين) حول حياة وأهمية النورسي تحت عنوان (Religion and social change in modern Turkey) من منشورات (Albany: State University Press of New York, 1989)

3 انظر الى: (شريف ماردين) (The Nakshibendi Order of Turkey) وإلى (Fundamentalism and the State) من منشورات (Martin E.Marty and R.Scott Appleby) (Chicago: University of Chicago Press, 1993) صفحة 218

4 لمعرفة تفاصيل حياة النورسي انظر إلى: Bediuzzaman Said Nursi بقلم (شكران واحدة) اسطنبول: سوزلر 1992
5 المصدر السابق صفحة 164-165 والمكتوبات/ 569

بدأت مرحلة (سعيد الجديد) في السنوات التي أعقبت رجوعه من الأسر في روسيا الى اسطنبول بعد إنتهاء الحرب العالمية الاولى. في هذه المرحلة ضعفت عنده جانب الفلسفة الإنسانية وظهرت لديه الحاجة الى التغلب على الغرور الشخصي والحاجة الى إتخاذ القرآن المرشد الوحيد له⁶ أي دخل في تجربة يقظة معنوية وروحية. وكانت النتيجة أنه سحب نفسه من العمل السياسي والاجتماعي الفعال ونذر بقية حياته لكتابة (رسائل النور). وهذه الرسائل كتاب عمره وتتألف من مجلدات عديدة أدرج فيها تعليماته الموجهة الى طلابه الذين تزايدوا على مر السنوات.

في أعوام الخمسينات دخل سعيد النورسي الى مرحلة (سعيد الثالث)، وقد أمّن العهد السياسي الجديد الذي دخلت فيه تركيا إمكانية إنتشار رسائل النور وسهّل الانسجام بين طلاب رسائل النور وبين قرائها. أما التغير الرئيسي الملاحظ على سعيد النورسي في هذه المرحلة فهو إهتمامه بالحياة السياسية والاجتماعية أكثر من ذي قبل. ولا يعني هذا أن النورسي قام بتشكيل حزب سياسي أو تنظيم طريقة صوفية غمطية. بدلا من هذا فمن الافضل النظر إلى حركته (كحركة إيمانية)⁸ تتضمن منظمات نشر وجماعات من المسترشدين برسائل النور .

كان لسعيد الثالث دورا كبيرا في النهضة الدينية التي شهدتها أعوام الخمسينات. كانت أفكاره تجذب الناس من مختلف المشارب وتؤثر فيهم، وتعاملت هذه الافكار مع مواضيع لم تقتصر على الشؤون التركية فقط.

إن تناول كتابات النورسي ودورها في مواجهة الحداثة التي تحققت في الخمسينات يحتاج الى دراسة طويلة وشاملة. ومع ذلك فيمكن تناول بعض كتاباته في (اللغات) كخطوة اولى في تحليل أفكاره.⁹

الحداثة - المعرفة - العقل

لقد واجه معظم المفكرين العالميين في مجال التعاليم الدينية تحديات ومهمات كبيرة في خصوص تقديم حقائق تعاليمهم بطريقة قوية ومؤثرة ومقنعة في العصر الحديث. وفي أواخر القرن التاسع عشر بدت بوضوح أن التغلب على مشكلات الحداثة والكفاح معها بنجاح يشكل أهم أشكال النضال والجدال. ومن المحتمل فإن أكثر المواضيع إثارة للجدل في هذا الخصوص كان تعيين العلاقة بين الايمان الديني وبين العقل الديني. فقد أعتبر في الغالب أن هناك نزاعا وخصاما بين العقل وبين العقيدة الدينية ولا سيما في التعاليم الفلسفية التي ظهرت كنتيجة لعهد التنوير في أوروبا. فقد إعتبر الكثيرون من الذين حاولوا تقديم تعريف لمنظور (الحداثة) بأن الايمان الديني ليس إلا نتاج من صنع الإنسان في العهود السابقة للعهد الحديث. فقد تم اعتبار القرون الوسطى (عهد إيمان) بينما تم إعتبار العهد الحديث القائم على النظرة الفلسفية للقرن الثامن عشر بأنه (عهد العقل).

كان النزاع بين العقل وبين الوحي قسما مهما من وعي وإدراك العقلية الحديثة في الخمسينات. وقد قُدّم هذا بوضوح في كتاب ألفه (كرين برينتن) طُبِع في عام 1950 تحت عنوان (تشكيل العقلية الحديثة)¹⁰ وكان له تأثير كبير . يقول المؤلف في هذا الكتاب :

6 المصدر السابق صفحة 167

7 المصدر السابق صفحة 330

8 انظر إلى : شريف ماردين : (Nurculuk) The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World

الناشر : 3:256 (John L.Esposito (New York: Oxford University Press, 1995)

9 استفدت في كتابة هذه المحاضرة من ترجمة شكران واحدة التالية ل (اللغات) اسطنبول : سوزلر 1995 وأسشير فيما بعد إلى هذا المصدر بكلمة (اللغات)

10 Crane Brinton, *The Shaping of the Modern Mind* (New York: Mentor Books, 1950

(إن ما اعتقده الكثير من الرجال والنساء منذ القرن الثامن عشر وما تلاه من قرون لا يتماشى مع قسم مهم من التعاليم المسيحية التقليدية) . وكان هذا يتضمن علم كونييات (كوزمولوجي) جديد والذي كان يرى أن (الاعتقاد بان البشرية تستطيع الآن بلوغ المرتبة الكاملة على هذه الارض في الفكر الغربي شيء ممكن فقط بالنسبة للمسيحيين كنعمة الهية ، ثم لهم فقط بعد الموت)¹¹ كان الفكر الرئيسي لعلم الكونييات الجديد إجراء تركيب بين العقلانية وبين العلم الحديث. وكان على الشخص العقلاني في هذا السياق القيام (ليس بطرد وإبعاد أي قوة خارقة وفوق الطبيعة من الكون ، بل القيام أيضا بإحلال الإنسان نفسه ضمن إطار عمل الطبيعة ، أو عمل الكون المادي). والعقلانية تدين بقسم كبير من سمعتها التي صعقت وتنامت بشكل تدريجي إلى النجاحات التي حققها العلم الطبيعي. وأخيرا عندما إستطاع هذا العلم بفضل قوانين نيوتن الحصول على صورة كاملة ورائعة لنظام الكون بحيث أصبح في الإمكان تجربته رياضيا وإجراء التنبؤات الناجحة كانت المرحلة بالنسبة للنظرة العقلانية الجديدة قد وصلت الى نهايتها)¹².

وعند منتصف القرن العشرين كانت هذه هي (العقلية الحديثة) التي سيطرت على معظم أنحاء العالم ، وكانت هذه هي (العقلانية العلمية) التي واجهها جميع المفكرين الدينيين. وكانت أهم النقاشات الدائرة في أوساط الحداثة الدينية هي عما إذا كان على أي شخص يؤمن بدين قائم على الوحي الإيمان بالعقلانية الحديثة وبالعلم النيوتني وقبولهما أم لا. وقد حدث تطوران رئيسان في هذا المجال: فقد اتفق العقلانيون الملحدون مع الاصوليين الحرفيين على عدم وجود أي انسجام أو توافق بين العقل وبين الدين ، ولا بين العلم الحديث وبين (الدين الحقيقي). بينما طورت جميع الاديان الرئيسة في العالم مدارس حديثة في الفكر لإظهار أن الاديان يمكن فهمها بالمصطلحات الحديثة. وقد تبني المتقبلون للحداثة وضعاً اعتذاريا في قبول شرعية الحداثة وعملوا على إظهار كيف أن أديانهم تتماشى معها. وفي العالم الاسلامي تقوت التقاليد الحديثة بأعمال بعض المثقفين في أواخر القرن التاسع عشر من أمثال محمد عبده.

وفي الخمسينات بدأت المواضيع الرئيسة ضمن نقاش (الدين ضد العلم) بالتغير نتيجة للتغيرات المهمة التي حدثت في ساحة العلم والتي بدأت بالنفوذ والترشح إلى أذهان الشعب وعلى نقاشات الطبقة المثقفة، فقد جاء في كتاب كُتب في الخمسينات من قبل (وارنر هايزنبرك) وهو من أشهر علماء الفيزياء في القرن العشرين شرح وبيان للتطور الذي حدث في النقاش بين العلم وبين الدين فقد كتب يقول :

(لقد انكشف في القرن التاسع عشر إطار ضيق جدا للعلوم الطبيعية . ولم يحدد هذا الإطار نظرة العلماء فقط ، بل نظرة جماهير عريضة من الشعب وقد كان هذا الإطار من الضيق والمحدودية بحيث كان من الصعب أن نجد فيه مكانا لكثير من المفاهيم الموجودة في لغتنا والتي ترجع إلى جوهرها ولبها مثل مفاهيم العقل أو الروح الانساني أو حول الحياة ... لقد تطور عداء واضح وصریح للعلم ضد الدين ... لقد حلت الثقة في الطرق العلمية وفي التفكير العقلاني محل جميع وسائل الوفاية والحماية للعقل الإنساني)¹³ . وقد لاحظ هايزنبرغ :

11 المصدر السابق صفحة 107 و 113

12 المصدر السابق صفحة 110-111

13 Werner Heisenberg , *Physics and Philosophy : The Revolution in Modern Science* (New York:Harper and Row,1958) 198 -197 صفحة

(لقد تم قبول اللغة العلمية للميكانيكية النيوتينية بشكل خاطيء وكأها النقطة النهائية للعلم).
ولكن الإطار الضيق القديم بدأ ينحل ويتهاوى في القرن العشرين نتيجة تأثير النظرية النسبية وميكانيكا الكم¹⁴. ولم تكن الاحكام التي وصل إليها هايزنبرغ تقوده إلى إنشاء إطار جديد وضيق ، بل نراه يصرح بأنه بينما يحتمل قيام العلم الحديث بدور تمزيقي للأشكال الثقافية للمدنيات الموجودة في العالم فإنه يستطيع المشاركة في مهمة جديدة هي : (إن وضوح الفيزياء الحديثة قد يساعد بدرجة ما على إتهاء الخلاف بين التعاليم والتقاليد القديمة وبين النهج الجديد للتفكير)¹⁵. ومع ان إنتشار التكنولوجيا الحديثة قد يضر بالتقاليد الثقافية القديمة (بما أن كل هذه التطورات حدثت خلال شريط طويل من الزمن خارج سيطرة أي قوة إنسانية ، علينا قبولها كملامح رئيسة لزماننا ويجب علينا محاولة ربطها قدر الإمكان بالقيم الإنسانية التي سعت إليها الثقافات والقيم الدينية)¹⁶.

هذا المسعى الذي بينه هايزنبرغ كما يمثل النعمة الجديدة للنقاش في أعوام الخمسينات فإنه يقدم بعدا جديدا لفهم تأثير سعيد النورسي. كان النقاش في (الحداثة) في الماضي يدور حول عما اذا كان العلم يؤيد الدين أم ينقضه، بينما تمحور النقاش في اوائل (ما بعد الحداثة) على بذل الجهود لرؤية العلاقات والروابط بين العلم وبين الدين ، والنظر الى كل من (العلم) و (الدين) كأجزاء من لغتنا الطبيعية. ويقدم مؤلف كتاب عن حياة النورسي الحادثة الآتية التي تعكس الاتجاه المختلف للنقاش ، ففي أواسط الخمسينات جاء أحد المستشرقين الانجليز إلى اسطنبول وألقى محاضرة ذكر فيها أن الايات القرآنية التي تتكلم عن (السماوات السبع) ترينا بأن القرآن يخالف العلم، لأن علم الفلك الحديث يرينا عدم وجود سبع سماوات في الفضاء. ذهب طالبان من طلاب النورسي من مستمعي المحاضرة إلى استاذهم وسألوا رأيهم في الموضوع فكتب النورسي رسالة مستندة إلى مختارات من رسائل النور وقام طلابه باستنساخ الرسالة وطبعها ووزعها في اليوم التالي في قاعة المحاضرة، وحسب كاتب حياة النورسي فقد ترجموا فحوى الرسالة للمستشرق الذي اختصر محاضراته في ذلك اليوم والغى محاضراته الاخرى.¹⁷

هذه الحادثة مثيرة للاهتمام من ناحية طبيعة النقاش. فمن الواضح ان المستشرق الانجليزي كان يستعمل اسلوب المناظرة العائد إلى (الحداثة) مستعملا العلم الحديث لتفنيد نصوص مقدسة مستندة إلى الوحي. إن كلا من العالم المزعوم والاصولي من الطراز القديم يتفقان على وجوب تقديم تفسير حربي للنص المقدس. ولم يكن جواب بديع الزمان بالصيغة القديمة. ومن المحتمل أن مواد الرسالة التي سلمها النورسي لطلابيه موجودة في كتابه (اللمعات) في القسم الذي يشرح فيه كيف يجب فهم معنى السماوات السبع. يبدأ بديع الزمان جوابه بذكر ما يأتي :

14 المصدر السابق صفحة 198 - 199

15 المصدر السابق صفحة 202

16 المصدر السابق صفحة 202 - 203 (أضيفت الإقتباسات)

17 شكران واحدة صفحة 346

(لما عجز اصحاب علوم الجغرافيا والفلك بقوانينها القاصرة ووسايرها الضيقة وموازينها الصغيرة ان يرقوا الى سموات القرآن وان يكشفوا عن الطبقات السبع لمعاني نجوم آياته الجليلية، بدأوا يحاولون الاعتراض على الآية الكريمة وانكارها بحماقة وبلاهة).¹⁸ : ان معنى الآية شئ، وأفراد ذلك المعنى ومايشتمل عليه من تلك المعاني من الجزئيات شئ آخر. فان لم يوجد فرد من افراد كثيرة لذلك المعنى الكلي فلا يُنكر ذلك المعنى الكلي.¹⁹

ويقدم بديع الزمان شرحاً إضافياً في هذا الصدد مستخدماً ما تعود على استخدامه على الدوام وهو سلوك (الطريق الوسط) فيقول:

(ان الحكمة القديمة قد تصورت السموات انها تسعُ سموات، فزادت على السموات السبع، العرش والكرسي الواردين في الشرع، فكان تصويراً عجيباً لها. ولقد استولت على البشرية طوال عصور مديدة تلك التعابير الرنانة لفلاسفة الحكمة القديمة وحكمائها حتى ان مفسرين كثيرين اضطروا الى امالة ظواهر الايات الى مذهبهم مما ادى الى اسدال ستار على اعجاز القرآن، الى حد ما.

أما الحكمة الجديدة المسماة الفلسفة الحديثة فتقول بما يفيد انكار السموات ازاء ما كانت تدعيه الفلسفة القديمة من ان السموات غير قابلة للاختراق والالتئام. فقد فرط هؤلاء كما أفرط اولئك. وعجز الاثنان عن بيان الحقيقة بيانا شافياً.

أما حكمة القرآن الكريم المقدسة فالها تدع ذلك الافراط والتفريط متخذة الحد الوسط، فهي تقول: ان الصانع جل جلاله خلق سبع سموات طباقاً)²⁰

ويستمر بديع الزمان في سرد هذا الاسلوب من التعبير ذاكراً أن أناساً مختلفين يفهمون معنى الايات بطريقة تكون ملائمة لمستوى عقليتهم وقابليتهم على الفهم فيقول :

(نعم! ان سعة خطاب القرآن وشمول معانيه و اشاراته ومراعاته درجات افهام الطبقات عامة ومداركهم من ادنى العوام الى أخص الخواص تبين: ان كل آية لها وجه متوجه الى كل طبقة من الناس. ولأجل هذا فقد فهمت سبع طبقات بشرية سبع طبقات مختلفة من المعاني ضمن المعنى الكلي للآية الكريمة: (سبع سموات).²¹

ثم يتناول النورسي الطرق المختلفة التي يمكن بها فهم معنى (السماوات السبع)، ثم يصل إلى إستنتاج بأن:

(معنى واحداً لهذه الآية من بين تلك المعاني الكثيرة إن كان صدقاً فان المعنى الكلي يكون صدقاً وصواباً، حتى لو ان فرداً واحداً من تلك المعاني، لا وجود له في الواقع إلا في ألسنة الناس، يصح أن يكون داخلاً ضمن ذلك المعنى الكلي، رعاية لأفكار العامة. فكيف ونحن نرى كثيراً جداً من افراده صدقاً وحقيقة).²²

18 Flashes صفحة 97 واللمعات/100

19 نفسه 97 واللمعات/101

20 نفسه صفحة 99 (أضيفت الاقتباسات) واللمعات/104

21 نفسه صفحة 101 (أضيفت الاقتباسات) واللمعات/106

22 نفسه صفحة 102 واللمعات/107

إن هذا المثال يقدم لنا صورة عن الجهد الاساسي الذي بذله النورسي لتقدم (جامع الدعوى) (synthesis) للعلم والدين. وخلال الخمسينات كتب النورسي مجموعة من الرسائل التي كانت الرسائل الاخيرة التي أضيفت إلى رسائل النور. وهذه الرسائل - كما يقول كاتب حياته- (تقوم بتصوير وجه من أهم أوجه رسائل النور وهو شرح العلاقة بين العلم وبين حقائق الايمان وأنها -بدلا من كونها في حالة خصام وتناقض - إن تم تناولهما في ضوء القرآن فإن العلم سيقوم بتعزيز الايمان وتقويته).²³ وعلى أي حال فإن نقاش الايات حول (السموات السبع) لم يجر بالاسلوب المعهود في (الحدائث) بين عقلايين يناقش اصوليا. بدلا من هذا فقد تحدث بديع الزمان عن (وسعة الخطاب القرآني) وعن (لغة الشريعة) علاوة على ذكره اختلاف المفاهيم حسب الزمان والمكان وحسب الموقع الاجتماعي. بينما لم يتم تقديم هذا النقاش بأسلوب التحليل التفسيري والتأويلي. ولا شك أنه مثال واضح على أسلوب قوي من (ما بعد الحدائث) ظهر وبرز في الخمسينات بدلا من كونه تكرارا للأسلوب القديم في النقاش المحصور ضمن إطار (الحدائث) في معالجة موضوع المعركة بين العلم وبين الدين.

الحدائث والطريق الوسط

في أواسط القرن العشرين كان هناك الكثير من المظاهر الاجتماعية المهمة ومن الشؤون الدولية قد دخلت ضمن أقطاب متنافسة، وكان هناك قطبان واضحان في الصراع على النطاق الدولي كان هناك قطبان في الحرب الباردة الجارية بين الولايات المتحدة الامريكية وبين الاتحاد السوفيتي.... الغرب في مواجهة الشرق، والرأسمالية في مواجهة الشيوعية. وهذه الحرب الباردة رسمت إطارا لكثير من العلاقات لأبعاد الحياة. وقد شهد عقد الخمسينات ظهور حروب رئيسة بارزة في حركات تحرر الامم وصراعات اجتماعية. في ذلك العهد كتب (هارولد لاسويل) - وكان من الخبراء المعروفين في السياسة- ما يأتي:

(لم يعد أحد يشك أو يختلف بأن عهدنا هو عهد التغيرات الثورية على المستوى العالمي، ما نختلف فيه هو حول طبيعة هذه التغيرات الثورية)²⁴. وإذا كان عليّ أن أستعمل تعبيرا من كتاب كان واسع الانتشار آنذاك قلت أنه عهد: (المؤمنون الراسخون) وهو اسم الكتاب الذي كتبه (أريك هوفر) عام 1951 قال فيه:

23 شكران واحدة صفحة 336

24 Harold D.Lasswell, "The World Revolution of Our Time

من *World Revolutionary Elits: Studies in Coercive Ideological Movments* نشر لأول مرة عام 1951 ضمن Stanford University Press قبل

الناشر Harold D.Lasswell and Daniel Lerner (Cambridge : The M.I.T. Press) صفحة 29

(من الضروري على معظمنا في هذه الأيام أن نكون على بصيرة من حوافز وبواعث وأجوبة المؤمنين الراسخين. لأنه مع أن عصرنا عصر إلهاد إلا أنه ضد الزندقة أو عداء الدين. إن المؤمنين الراسخين في كل مكان وقد بدأوا مسيرتهم، وكل فريق يريد تشكيل عالماً حسب الصورة الموجودة في ذهنه).²⁵ والمقصود من تعبير (المؤمنون الراسخون) الوارد في هذا التحليل هم المتعصبون الذين يرون هذا الإيمان ضرورياً لتحريك كتل الجماهير. ويتابع: (إن من يقوم بتغيير أمة أو بتغيير العالم لا يستطيع عمل ذلك بإظهار معقولة هذا التغيير المطلوب أو بإكراه وإجبار الجماهير والناس على أسلوب آخر للحياة. عليهم أن يعرفوا كيفية إثارة الآمال العريضة المبالغة بها وتهيئتها).²⁶

لقد أكدت الثورات الكبيرة على أهمية المجموعات المختلفة والمتنافسة فيما بينها وعلى أهمية الجماهير. وعندما اسندت الثورات الرئيسة نفسها إلى قاعدة أيديولوجيات المجموعات الدولية كما هو الملاحظ في الثورة الماركسية كانت الأيديولوجيات مستندة إلى (الدور العالمي الفريد لطبقة البروليتاريا) وقد لوحظ أن (جميع الثورات التي نجحت في القرن العشرين نجحت بإنشائها حكومة دولة قومية موجودة في العالم ضمن دول قومية أخرى)²⁷. وقد عُدَّت - من أوجه عديدة - الحروب التي نشبت في أواسط القرن العشرين والناجئة من خصومات ونزاعات الحركات الثورية للقرن العشرين... عُدَّت ذروة وأوج الحداثة. كانت الدولة القومية ولا زالت الوجه السياسي للحداثة وظاهرها. وفي أواسط القرن العشرين كانت عملية التحديث مقترنة في الغالب من ناحية المفاهيم مع (بناء القومية). وبينما كانت الدول القومية تستطيع العمل معاً كان القوميون والثوريون من (المؤمنين الراسخين) جزءاً مهماً في الدول والمجتمعات في العالم أجمع. لقد كان عقد الخمسينات عهداً لتطرف كبير.

كانت القومية والثورة والحظر والصراع الحديث ولا يزال ظواهر لعملية التقدم للحداثة العالمية في القرن العشرين. وكانت هناك في الوقت نفسه حركات مهمة ومشاهدة أيضاً التي ذهبت أبعد من هذا. وكما قام أنشتاين وهايزنبرغ في حقل العلوم الطبيعية بتجاوز وتخطي فيزياء نيوتن، كانت هناك تغيرات مهمة مشابهة في ساحة السياسة والدين. وقد صرح ف. س. ج نورثروب آنذاك:

(أُفتتح القرن العشرين بقيام أنشتاين وبلانك بإعادة تركيب مذهب ومفاجيء لنظرة الإنسان إلى الطبيعة، ووصل القرن إلى منتصفه بتغيير مماثل في ساحة السياسة الداخلية والدولية. أما التغيير الذي كان مماثلاً في الأهمية فقد وقع في ساحة الدين على الرغم من إنه لم يجلب الكثير من الانظار ومن الإلتباه).²⁸ ويقول بخصوص التطور الديني:

(لقد ولد علم مقارنة الأديان في جو من الاحترام الناضج بين أديان العالم، من الانسجام وحو التفاهم في الداخل، وليس من وسط الحماسة التبشيرية من الخارج، وأصبح هذا هو الجوهر في الأمر. ولذا فليس من الصدفة في شيء أن تكون الصفات المميزة لجميع الأديان المهمة في العالم هي ذهنيته وعقليتها العالمية).²⁹

25 انظر إلى : Eric Hoffer *The True Believer : Thoughts on the Mass Movments* (Perennial Library Edition, 1951) : Harper and Brothers , New York , 1966 ، صفحة 10

26 المصدر السابق صفحة 18

27 انظر إلى : John Dunn *Modern Revolutions* الطبعة الثانية (Cambridge University Press, 1989) : Cambridge ، صفحة xii

28 انظر إلى : F.S.C. Northrop, " The World's Religions at Mid - century: An Introductory Essay, " Guy S. Metraux and Francois Crouzet (New Religions and the Promise of the Twentieth Century الناشر : New York : New American Library , 1965) ، صفحة xiv

29 المصدر السابق صفحة xv

كان هذا المنظر يعد من نواح عديدة إبتعاداً عن الروح القتالية للاصولية الحرفية، وذلك بجانب ولصالح الاعتدال وسلوك طريق وسط جامعا في ثناياه محولة الإقناع والمرونة والمسامحة. وهذا يعكس بدايات وعي (ما بعد الحداثة) لأهمية قبول التعددية ورفض روح المنع والحصر والخصام .

في مثل هذا العالم لم يكن بديع الزمان - حسب تعريف هوفر- من (المؤمنين المتزمتين) أي المتعصبين ، بل كان شخصا مؤمنا بالإسلام بإعتباره (طريقا وسطا). وكانت نظرة بديع الزمان تقوم على جمع الدين والعلم معا وليس النظر إليهما باعتبارهما ندين متنافسين، وكانت هذه هي الصفة المميزة لنظراته الواسعة لمواضيع الايمان والحياة العملية في سياقها الحديث. ونجد في كتاباته وارشاداته تكرارا في هذا الصدد من أن الاسلام هو طريق وسط ومسلك معتدل وغير متطرف. وهذا يمثل تعبيرا مهما عن الموضوع الذي طرحه نورثروب وهو الاتجاهات الموجودة في أديان العالم في منتصف القرن العشرين.

كثيرا ما يتناول النورسي وضعين متعاكسين ومتضادين ، ثم يشرح بأن الطريق الاسلامي الصحيح هو الطريق الوسط بين هذين الوضعين. وهو يعمل هذا حتى في المواضيع المثيرة للتراع كموضوع اختلاف السنة والشيعية في تعاليم الاسلام. وهو عند مناقشته في اختلاف السنة والشيعية يصل إلى القرار التالي:

(انه لاخير في الافراط والتفريط في كل شيء. وان الاستقامة هي الحد الوسط الذي اختاره اهل السنة والجماعة، .. فيا اهل الحق الذين هم اهل السنة والجماعة! ويا ايها الشيعة الذين اتخذتم محبة اهل البيت مسلكتكم! ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لامعني له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه... فيلزمكم نبد المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لانكم اهل التوحيد بينكم ميثاق الروابط المقدسة الداعية الى الأخوة والاتحاد).³⁰

وبشكل مماثل فإن بديع الزمان لا ينطبق عليه القالب أو التعريف الذي قدمه (هوفر) أو (لاويل) للزعيم الثوري - حسب مفهوم (الحداثة) - الذي يقود الجماهير. لقد أكد على معقولية رسالة الاسلام، وتكلم في سياقات عديدة عن الاعتدال كهدف وأمل كبير للاسلام. وفي تقديمه للرسول محمد كقدوة وأسوة حسنة نراه يقول :

(لما كان الرسول(ص) قد خلق في افضل وضع وأعدله وفي اكمل صورة واتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته متجنباً الافراط والتفريط... وهكذا فانه(ص) قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع احواله الفطرية وفي جميع احكامه الشرعية، وتجنب كليا الظلم والظلمات اي الافراط والتفريط، والاسراف والتبذير، حتى انه قد اتخذ الاقتصاد له دليلا متجنبنا الاسراف تمائيا، في كلامه وفي اكله وفي شربه).³¹

إن طريقة بديع الزمان في تناول المواضيع يعكس ظهور وبزوغ الميول العالمية ل(ما بعد الحداثة) ... هذه الميول التي شرحها (نورثروب) وقال إن من مظاهرها الانفتاح للتنوع ولشكل من أشكال التعددية. لم يكن النورسي في وضع يمكنه من القيام بإتصالات عديدة مع غير المسلمين لمناقشة المواضيع الإيمانية معهم، ولم يكن هذا جزءا واضحا من مهمته ورسالته، ومع هذا فإنه كان على وعي بأهمية

تطوير العلاقات مع العالم المسيحي فزار البطريرق اليوناني الارذوذكسي في اسطنبول عام 1953. وبتعبير أوسع (مع ان بديع الزمان أيد على الدوام ودعم الصراع من أجل إستقلال العالم الإسلامي ضد الغرب، وأيد سلامة ووحدة ثقافته ، فإنه تنبأ وتوقع التعاون بين الاسلام وبين المسيحيين المخلصين في وجه الإلحاد المعتدي والظالم)³². وفي هذا السياق كتب رسالة تناول فيها مسألة سياسية مهمة أيد فيها بقوة دخول تركيا إلى حلف بغداد ، هذا الحلف الذي جعل تركيا وأقطارا إسلامية أخرى حليفة مع دول مسيحية كبرى ضد الكتلة الشيوعية.³³

إن مفهوم التحالف مع المسيحيين لمحاربة الإلحاد يعد إمتدادا لموقف قديم، ولا يعد إعلانا مهما لقبول التعددية على أي حال فأن بديع الزمان كان - بشكل نسبي - من أنصار التعددية من ناحية المنهج والطريقة ومن ناحية التفسير.

ومع أن (ما بعد الحداثة) يُتهم على الدوام بأنه يدافع عن النسبية وعن عدم وجود أي حقيقة. ولكن هذا صحيح بالنسبة لبعض مفكري ما بعد الحداثة، لأن قبول الحداثة وصحة وشرعية التعددية والتنوع في وجهات النظر والآراء لا يُعد نسبية. إن القناعة الحديثة حول إمكانية إكتشاف البرهنة على حقيقة علمية مطلقة يناقض تماما النسبية المفرطة لما بعد الحداثة. على أي حال هناك (طرق وسطى) بين هذين القطبين من الإفراط. ويقدم بديع الزمان نموذجا لإحدى هذه الطرق.

وفي مجال تفسير القرآن يصرح سعيد النورسي بأن الايات القرآنية تعكس الرسالة الالهية الشاملة والواسعة ومعانيها العميقة:

(ان القرآن الكريم مثلما يبين الحقائق بمفاهيمه ومعناه الصريح يفيد كذلك معاني اشارية كثيرة باساليبه وهياته. فلكل آية طبقات كثيرة من المعاني؛ ولان القرآن الكريم قد نزل من العلم المحيط، فيمكن ان تكون جميع معانيه مرادة، اذ معاني القرآن لاتنحصر في واحد او اثنين من المعاني كما ينحصر كلام الانسان الحاصل بإرادته الشخصية وبفكره الجزئي المحدود.

فبناء على هذا السر فقد بين المفسرون ما لا يحد من الحقائق لآيات القرآن. وهناك حقائق كثيرة جدا لم يبينها المفسرون بعد. ولاسيما حروف القرآن واشاراته ففيها علومٌ مهمة سوى معانيه الصريحة.³⁴

هذا الإنفتاح على معاني ذات مستويات مختلفة يعكس تعددية ولا يعكس وضعاً نسبياً، لأنه يؤكد فقط على أهمية دور التفسير الشخصي والفردي. ويقدم النورسي عند حديثه في موضوع (الإخلاص) هذا التوازن الدقيق للتعددية في فهم الحقيقة بكل وضوح فيقول :

(واذا ما كان ثمة غرور وانانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والحمية، وعندها يفوته الاخلاص ويحبط عمله ويكون اثره بعد عين. والعلاج الوحيد لهذه الحالة والحيلولة دون رؤية نتيجتها الوخيمة هو في تسعة امور آتية:..

32 شكران واحدة صفحة 344

33 المصدر السابق صفحة 353-354

34 نفسه صفحة 51 والملفات/47

3- واتخاذ دستور الانصاف دليلاً ومرشداً، وهو ان صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: "ان مسلكي حق وهو افضل واجمل" من دون ان يتدخل في امر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له ان يقول: "الحق هو مسلكي فحسب" او «ان الحسن والجمال في مسلكي وحده" الذي يقضي على بطلان المسالك الاخرى وفسادها).³⁵

وهو عندما يشير إلى الطرق المتعددة التي يستطيع بها الناس القيام بتفسير الحقيقة يتخذ طريقاً وسطاً فلا يقدم وضعاً نسبياً ولا وضعاً مطلقاً. فهو يرى بأن الوحي الالهي يقدم الحقيقة إلى كل الناس . ولكن بما أن الناس يختلفون في قابلياتهم ومداركهم وأزمانهم وأوضاعهم فإنهم يفهمون هذه الحقيقة بطرق مختلفة. و (كما ان للقرآن الكريم متشابهات، يرشد المسائل الدقيقة العميقة للعوام بالتشبيه والتمثيل، كذلك للحديث الشريف متشابهات يعبر عن الحقائق الواسعة بتشبيهات مأنوسة لدى العوام).³⁶ ولكن (ان التشبيهات والتمثيلات كلما انتقلت من الخواص الى العوام، اي كلما سرت من يد العلم الى يد الجهل عُدَّت حقائق ملموسة. بمرور الزمن، اي كأها حقائق واقعة وليست تشبيهات).³⁷

وقدم بديع الزمان مثالا حول عقيدة شعبية قديمة بأن الارض موجودة فوق قربي ثور واقف على حوت ، بينما يقول علم الفلك الحديث بأن الارض تسبح في فراغ. إن حقيقة الثور والحوت مجاز ورمز ضمن استعارة كبيرة ، ويجب ألا يُفهم كوجود حقيقي ولا يبدو وكأنه خطأ في الحديث. ولكنه مجرد تأكيد على أن الحقيقة يمكن التعبير عنها بطرق مختلفة³⁸

يمثل هذا التناول للمواضيع يمكن أن يُنظر إلى بديع الزمان كمثل مبكر لاسلوب (ما بعد الحداثة) في الإحابة على معارضي الميتافيزيقية المحدثين في الفكر والثقافة، ولكن بصيغة هي أقرب إلى ما يدعونه باسلوب (ما بعد الحداثة المجازي metaphoric post modern) منها إلى صيغة (ما بعد الحداثة التحليلي analytic post modern) .³⁹

ومثل معظم المفكرين الدينيين الآخرين للخمسينات الذين كانوا قد بدأوا بتجاوز الفكر الحديث ذي الطابع القهري والاجباري ، لم يكن بديع الزمان من مفكري (ما بعد الحداثة) أو من أنصار المدرسة التعددية (pluralist) بشكل كلي، فقد كانت نظريته للعالم من خلال المنظور الاسلامي بشكل واضح. وهو يشبه في هذا طراز النظرة الدينية التعددية لعالم الدين الكاثوليكي (كارل رينر Karl Rahner) من خلال الاطار المفاهيمي الذي وضعه ل (المسيحية غير المسماة anonymous Christianity).

على أي حال فقد كانت كلتا الحالتين خطوة مهمة لتجاوز مقولات الحصر والمنع الموجودة في نظرة الاصوليين المحدثين وكذلك في النظرة التبشيرية . وقدم هذه الخطوة بشكل صارم بلغة العصر وبلغة الاسلام كطريق وسط.

35 نفسه صفحة 203 واللمعات/228

36 نفسه صفحة 129 واللمعات/139

37 نفسه صفحة 128 واللمعات/138

38 تم تناول نقاش هذا الموضوع بالتفصيل في (Flashes) صفحة 127-132

39 انظر إلى :

" Carl Raschke " Fire and roses, or the problem of postmodrn religious thinking " الذي نشر ضمن : Shadow of Spirit: Postmodernism and Religion الناشر : Philippa Berry and Andrew Wernick (London: Routledge, 1992) صفحة 101-102

البيئة التركية في الخمسينات

كانت تركيا - مثل غيرها من العديد من بلدان العالم الاخرى - تجرب تحولات مهمة في الخمسينات. وهذا الامر ملاحظ في الساحة السياسية بعد النجاح السياسي لتعدد الاحزاب في إنتخابات عام 1950 وفي الساحة الاقتصادية، وفي الشؤون الدولية. وقد لاحظ المراقبون أن الساحة الدينية كانت مسرحا لتغيرات وتحولات مهمة. وكان العقد من 1950 حتى 1960 من الناحية السياسية هو عهد حكم الحزب الديمقراطي. وعند تقييم هذا العهد نرى أن المواضيع الدينية كان لها دور حاسم في تاريخ تلك الفترة. فمثلا تؤكد دراسة جرت في الستينات حول الانقلاب الذي حدث عام 1960 وأتمى حكم الحزب الديمقراطي أن :

(ستجري النقاشات في تركيا لسنوات عديدة حول عما اذا كان عهد الحزب الديمقراطي عهد خيانة للعلمانية أم عهد إستغلال للدين أم عهد تأمين الحرية للعبادة أم بداية لعهد جديد لعصرنة الاسلام⁴⁰) .

في نهاية الخمسينات كتب (ولفرد كانتويل سمث Wilfred Cantwell Smith) دراسة مهمة حول التجربة الاسلامية في العهد الجديد فأوضح بأن التجربة التركية كانت أنجح التجارب في العالم الاسلامي من ناحية التكيف مع الحداثة فقال :

(الاتراك هم الشعب المسلم الوحيد الذي عرف ماذا يريد. وهم الامة الوحيدة التي طورت في الاغلب أسسها الثقافية والاجتماعية بشكل ملائم مع جوهر الحداثة⁴¹)

وقد رأى (سمث) وغيره في هذه التجربة التركية جهودا متباينة ومتناقضة في (النهضة) و (التجديد) ولكن مكملة بعضها للبعض الآخر. ويكمن التناقض بين (إحياء حقيقة قديمة إضمحلت "أي حركة لإحياء ") وبين (إصلاح وتعديل الخاطيء من الموجود فعلا "أي حركة التجديد " ⁴² . وكثيرا ما تكلم المراقبون آنذاك حول (التجديد) التركي في الخمسينات المتضمن كلا من التأكيد على العلمانية الليبرالية ، ومن إعادة التأكيد على الهوية الاسلامية. وكان السؤال الوارد في أذهان العديدين حول هذا الموضوع هو : هل ستكون هذه التطورات الدينية بإتجاه زيادة الجهود لبعث أرثوذكسية قديمة ، أم بإتجاه حركة تجديدية للاسلام تتضمن وجها جديدا لتحديث الاسلام خاصا بالأتراك ؟ ⁴³ . وكان السياق العام الذي لاحظته معظم الناس هو أنه مرحلة في عمليات التحديث وإجابة على التحديث.

40 انظر الى : (Washington : The Brookings Institution, 1963) Walter F. Weiker " The Turkish Revolution, 1960-1961 " صفحة 9

41 انظر الى :

(Princeton : Princeton University Press, 1957) Wilfred Cantwell Smith " Islam in Modern History " صفحة 170

42 المصدر السابق صفحة 170

43 المصدر السابق صفحة 189-190

كانت هناك على أي حال مؤشرات بأن تحولات أكثر أهمية بدأت تأخذ مكانها، إذ يمكن بكل وضوح مشاهدة التناقضات التي كانت موجودة في الخمسينات بين الحكومة وبين المجددين من جماعات المسلمين في صدد تحديث القديم، وردود الفعل الواردة من الجهات ذات الصبغة القديمة والتقليدية. إذ كان هذا هو الوضع فيما يتعلق بالحوادث التي ارتبطت بالطرق النيجانية⁴⁴. وكان من الممكن على أي حال مشاهدة التطورات التي تجاوزت التوترات بين الحداثة وبين الرجعية. فالشيوخ من الزعماء المسلمين في القرى والارياف كانوا يموتون ويحل محلهم خريجو مدارس الأئمة والخطباء الذين أصبح لهم تأثير قوي في الحياة الدينية المحلية، وهذا أدى إلى ضعف واضح في قوة الرجعية عند المسلمين.

قام "ريتشارد روبنسون" - الذي كان ذا اطلاع جيد آنذاك على أحوال تركيا - بشرح وتعريف الطابع الديني الذي بدأ بالظهور بالمقارنة مع طابع المجددين المسلمين القدماء فقال:

(على الرغم من وجود قوة سياسية يعتد بها للمتدينين المحافظين في عام 1960 فإنها لم تعد خطراً على الجمهورية العلمانية، بل إن الإسلام نفسه كان قد اجتاز مرحلة دقيقة من التحول حتى في مستوى القرية، فلم تعد الرفاهية المادية أو الحوافز الاقتصادية أو الإبداع أو المكائن والتجارة تحديات للدين. فقد رأيت قرية تفتخر ببناء جامع بكلفة (100) الف ليرة تركية تفتخر أيضاً بمدرسها العلمانية النظيفة والمنظمة. ولم يكن الجامع الجديد - في مجتمع هذه القرية في الأقل - يمثل رجعية دينية، لأن القرويين كانوا يتكلمون على الدوام عن زيادة مستوى رفاهيتهم المادية حالياً وما ينتظرونه في المستقبل. وقد يقوم أي مراقب سطحي برؤية الجامع الجديد فقط لكي يعطي حكماً بتجدد الميل إلى الإسلام الشعبي التقليدي. ولكن هذا يكون خطأً منه، لأن التوفيق بين الإسلام التقليدي وبين الحياة العصرية كان قد بدأ فعلاً).⁴⁵

كان بيدع الزمان بشكل بارز و متميز جزءاً من مجتمعه، ولم يكن من المقاتلين في الصفوف الخلفية ضد الحداثة والحياة العصرية. كما لم يكن من (الاصلاحيين التجديدين Reformists) ضمن الطبقة المثقفة التي عرفها ووصفها (و.ك. سمث) بأنهم من (الليبراليين العصريين Liberal modernists) مثل القرويين الذين وصفهم "روبنسون"، ولم يكن من "المناضلين الثوريين الاحيائيين Revivalist (renascence) حسب تعبير "سمث". ولا من أنصار "التجديد العصري Modernist reformation". بل كان رائداً لطريق وسط جديد وضعه هو (الطريق الاوسط Middle way) الذي لم يهتم بالتزاع بين مؤيدي ومعارضى التحديث (Modernization) أو بدعاويهم وأدلتهم عند البناء على الاسس الموجودة سابقاً. بل تجاوز هؤلاء لتأسيس ما يؤدي في المستقبل إلى ملامح وإلى طريق ما بعد الحداثة (Post - Modern). إن كلا من حركة الإحياء (Renascence) وحركة التجديد (Reformation) تعكسان الحركات التي تأخذ أماكنها ضمن إطار عام من "الحداثة". بينما شهدت أعوام الخمسينات بداية لحركات تحطت وتجاوزت الحداثة. ونستطيع ملاحظة ومشاهدة في الكثير مما كتبه بيدع الزمان حول الإسلام وحول العقيدة الإسلامية طريقاً وسطاً مما يُعد تعبيراً وبياناً أولياً عن (ما بعد الحداثة).

وعلى مستوى النطاق العالمي يمكن النظر إلى بيدع الزمان كحلقة من سلسلة طويلة من التحولات التي ظهرت في منتصف القرن العشرين. وتتضمن هذه التحولات التحرك من (الحداثة) نحو (ما بعد

44 انظر مثلاً إلى النقاش في مقالة "Lewis Thomas" : "Recent Developments" صفحة 22-23

45 انظر إلى :

Richard D. Robinson *The First Turkish Republic : A case Study in National Development* (Cambridge : Harvard University Press, 1963) صفحة 205

الحدائثة)، هذا على الرغم من كون (ما بعد الحدائثة) مرحلة لم تتوضح بعد ملامحها بشكل كاف حتى ونحن نخطو نحو نهاية القرن العشرين. وحول هذا الخصوص قد يكون من المفيد إيراد التمييز الذي وضعه أحد العلماء المسيحيين بين الاصول (Paradigm) وبين الدين (Religion) فالاصول هي: " مجموعة متألفة من صيغ السلوك والقيم المعنوية والقناعات الشعورية والاشعورية ". بينما يقول عن الدين: " ليس الدين مجرد نموذج أساسي شعوري أو لاشعوري حول العالم والمجتمع والعقيدة والكنيسة. بل هو نظرة شعورية للحياة تتضمن جميع أمثال هذه النماذج " ⁴⁶.

ومن خلال التواريخ الطويلة للتقاليد والاعراف الدينية الرئيسة ولتواريخ المدنيات والحضارات يمكن تعريف النماذج الرئيسة (Major paradigms) للعهود من خلال هذه النظرة فإن منتصف القرن العشرين كان عهدا للتحويل من مرحلة النموذج الذي تطور من نموذج (التنوير الحديث Modern Enlightenment) إلى بداية ظهور نموذج (ما بعد الحدائثة) الذي تميز بتعددية أكثر ويكونه يقترب من المسائل اللاهوتية (Theology) بصيغة تفسيرية وتأويلية. ونحن نرى في (الطريق الوسط) الذي اختطه بديع الزمان طريقا مهما يعكس هذا التحويل .

وهذا الطريق الوسط ليس جزء من النقاش الدائر بين نموذج التنوير الحديث (Modrn Enlightenment) السابق الجاري بين العلمانيين وبين الرجعيين التقليديين ، بل هو بداية لتعريف وتوضيح النموذج الاسلامي ل(ما بعد الحدائثة) الجديد.

ترجمة: اورخان محمد علي

46 انظر إلى :

Peter Heinegg (New York : Doubleday, 1988) : ترجمة Hans Kung, *Theology for the Third Millennium* صفحة 211-212

حضارة القرآن

أ.د. يلماز أوزاقينار^P

أدى تطور العلوم في القرون الأخيرة إلى اقتناع العالم بمفهوم غريب للحضارة فعدت الحضارة أو المدنية العلم، والقدرة على العمل به أو تنفيذه، وصار التحضر يعني التعلم بالطرق العلمية والعمل بالتكنولوجيا التي هي امتداد للتعلم. تطورت الحضارة بإطراد، وتختلف غير المتحضرين بإطراد. وأعجب شيء هو تبني غير المتحضرين حسب هذا المنطق، المفهوم نفسه عن الحضارة. وفي إطار المفهوم هذا، لم يعد المتعلمون والقادرون على تنفيذ علومهم هم المتحضرين فقط، بل حصلت قناعة بأنهم بشر من صنف عال. صار المتحضرين يعدون أنفسهم عنصراً سامياً، وصار غير المتحضرين يرون أنفسهم عنصراً واطناً. لقد تشكل نظام الدنيا الجديدة على هذا الوجه! المتحضرين والمتفوقين يمتلكون القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وهم جهة إصدار المقررات وعلى الجميع أن ينفذوا. هذا هو معنى القوة.

هذا النظام الجديد الذي زاد يؤس المتخلفين، لم ينفع المتفوقين تماماً! فالخواء الروحي والأضطراب الاجتماعي خرب جيل الشباب. إن تعامل المتحضرين مع المجتمعات الواقعة خارج دائرة الحضارة بالقهر والاستغلال والظلم والتمييز العنصري والقسوة لآذرائهم لهم، حدد مصير تلك المجتمعات، لكنها في الوقت عينه حدد مصيرهم أيضاً. لأن أولئك المتحضرين والبشر المتفوقين بدأوا يحملون في أرواحهم ترسبات القهر والظلم والتمييز العنصري الذي يوقعونه بالبشر الآخرين، واضطروا إلى أن يحيوا حياتهم الحضارية بالعيش تحت ثقل هذه الترسبات. هؤلاء الذين اعتبروا حب النجاح ودافع الغلبة وطلب المنفعة وحظوظ الغرائز حوافزاً ثمانية، واستغلوا وامتصوا بهذه الحوافز المجتمعات البدائية والمتخلفة بالرحمة، وجهوا سير حياتهم العائلية وعلاقتهم الاجتماعية أيضاً بالقسوة نفسها. إن الإنسان يبني نفسيته وشخصيته من خلال التعامل مع الآخرين، ولا بد أن تنعكس هذه النفسية والشخصية على علاقاته. نفسية الإنسان وشخصيته ثابتة، ولا تتجدد عنه في علاقة معينة أو تبدلان من علاقة إلى أخرى، بل تنعكسان على علاقاته جميعاً بلا استثناء، وتبقيان في الجوهر ثابتتان وإن بدتا متغيرتان

^P من مواليد سنة 1934 تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب لجامعة استانبول سنة 1957 وفي سنة 1960 من جامعة كامبرج وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة استانبول سنة 1964 ، وأصبح استاذاً سنة 1978 . وعمل في أبحاث التفكير والذهن _ مجال إختصاصه _ في جامعات ألمانيا. وأصبح عميداً لكلية التربية في جامعة سلجوق. له مؤلفات ضمن إختصاصه وحالياً استاذ في كلية الآداب في جامعة استانبول.

ظاهراً في عدد من العلاقات. فيكون المتعامل بالقسوة ضحية لقسوته. القاسي لا يتعامل بالرحمة مع المتوسل به حتى لو كان المتوسل فلذة كبده، بل ينتابه الغضب. لان التوسل به يزيد اللهب في شعور القسوة، ويقوده ذلك الى بغض نفسه. وفي هذه الحال يحيل الانسان مشاعر الكراهية لنفسه الى الغضب على الاخرين في محاولة للقضاء على الاضطراب الناشئ من الشعور بانه مكروه وبغضب. ويظن بذلك انه قمع حسه بالمكروهية، لكنه في هذا الاثناء يكون قد خرب علاقاته ووقع روحه في الاضطراب والتوتر. ومن اجل قمع القلق الروحي الناجم من دمار العلاقات، أي من اجل ان ينسى نفسه، يلجأ الى الخمر والمخدرات ولذات الغريزة غير المشروعة. وقد يلجأ الى تحقيق نجاح اكبر من اجل الاطمئنان الى انه وجود له قيمة. وفي سبيل التغلب على العوائق عن تحقيق نجاح اكبر، يضطر الى ان يكون اشد قسوة. وهنا يسقط في دوامة لا نجاة منها، ويصل الى نتائج تسحق حياته.

ان الانسان في عصرنا في حاجة ماسة الى الخلاص، سواء في ذلك البائس المتخلف! او من يظن نفسه متحضراً ومتفوقاً. امان المجتمعات والعالم كله يتحقق بسلامة نفسية الفرد أولاً. الانسانية ككل متكامل. ولا يمكن لنظام لا يحتضن الانسانية جمعاء بقيمه المشاعة بين الجميع، ان يحقق السلام والامان للعالم. لان الامان والسلام لا يقوم على قدميه إلا باقتسامه واشاعته بين الجميع. فاذا تعرض طرف الى القسوة او الاستغلال او الظلم، فهذا يعني انعدام الراحة والامان في الطرف الآخر. واذا كان طرف اكثر غنى واشد قوة واعظم علماً واوفر رفاهية، فهذا يعني غياب الطمأنينة والراحة في جميع الاطراف. ان الانسان يعيش في علاقات متشابكة مع الآخرين، ولا يمكن ان تستقل سعاداته ويستقطع امانه عن مجمل نوعية العلاقات هذه. والنوعية التي تولد الامان والراحة هي سيادة الرضا والقناعة بين الاطراف المنضوية في تلك العلاقات.

فما النظام الذي ينبغي ان ينظم به الناس حياتهم حتى يتحقق الرضا والقناعة في الافراد المنضوين الى تلك العلاقات والشائج؟ ان النظم التي وضعها الانسان، وبضمنها الموضوعة وفق القواعد الديمقراطية، وضعت دائماً تحت ثقل الارادة لقسم من البشر. نعم، ان القانون ينفذ، لكن الامان لن يتحقق بغير تحقيقه للرضا والقناعة. ان الله يأمر بني آدم بالاحسان والعدل والانصاف والرحمة والتعاون. فمن متطلبات الانسان المؤمن، ان ينظم القوانين المنظمة لحياته حسب القيم التي امر بها. وان القبول بالافراد او الفئات وحدات مطلقة، وانتظار احسن النتائج لعموم المجتمع من اضطراع أنانياتهم، ثم تسمية هذا الانتظار بالديمقراطية، ليس إلا وضع الديمقراطية على ارضية غير منطقية. فلا يمكن تحقيق الامان والراحة في الحياة العائلية والعلاقات الاجتماعية والنظم الدولية إلا بسيادة القيم التي ذكرناها آنفاً. كما لا يمكن ان تمتد جذور تلك القيم في الانفس والارواح وانعكاسها على التصرفات إلا بالإيمان بالله تعالى.

نقر هنا ان الإيمان ليس ضامناً مئائياً، وقد تتعرقل انسيابية تلك القيم الى التصرفات بسبب الضعف الانساني. لكن ينبغي ألا يكون هذا الاحتمال ذريعة لاي مجتمع تحول دون اعداد ابنائه اعداداً يجعلهم يعيشون مؤمنين ووفق القيم التي امرنا الله بها. فيجب تقوية منهج التربية الذي يصب التصرفات في قوالب تلك القيم اللطيفة لبناء العلاقات الاجتماعية بانواعها كلها. لان القانون لا يحل محل التربية، بل يبين الزواجر التي تنفذ في حال مخالفته. والقانون الذي لا يسند بالتربية، يفقد فاعليته الاجتماعية. ان غياب التربية والقيم التي تدعو الى الاستمسك النفسي بها، يضعف شعور الالتزام بالقانون لدى الافراد الذين لا يحول دونهم رادع عن الانانيات والمنافع الذاتية والميول الغريزية. فمن السهل ان يخضع العقل

غير المؤمن للانانية والمنافع الذاتية والدوافع الغريزية، وبالتالي يحل رغبة الالتفاف على القانون بستلافي زواجره، محل رغبة الانقياد اليه. ففي غياب مفهوم الحلال والحرام النابع من الإيمان بالله، يكون القانون مانعاً للكسب بغير حق بالجزاء المترتب على اختراقه. فاذا أمن انسان لا يراعي حلالاً او حراماً من الوقوع تحت طائلة العقاب القانوني، ينحرف الى الكسب غير المشروع. لذلك، تشارك التربية الاسلامية الواعية والراكرة في النفوس بيمان عميق، في جني الفوائد الاجتماعية المأمولة من القوانين، وان لم تحل محلها. ولا شك ان هذه التربية تكون قاعدة تحتاج اليها الانسانية في تحقيق الامان والراحة إذا سادت العالم كله.

وقد يقول قائل: ان هذا مجرد تصورات. لكن ينبغي ان يتصور الانسان ما يؤمن به، وان يسعى الى تحقيق التصور هذا في عالم الواقع. وهذا ما فعله سعيد النورسي. لم يكن النورسي رجل علم ولا فيلسوفاً ولا استاذاً في كلية الشريعة! بل مريباً. مريباً اعتمد القرآن في قواعد التربية التي وضحها. وبهذه التربية، تنال سعادة الدنيا اثناء السعي لبناء سلامة الآخرة. فيها أن كل شئ مصيره الى الله، لكنه يؤول الى الله عبوراً من الدنيا. هنالك الحكم الأخير النافذ الى الابد، لكنه يصدر حسب مرتبة الإيمان ودرجة العمل الصالح هنا في الدنيا. بهذا القسطاس ينال السلامة عباد الله الذين يرضى الله عنهم ويلقى العذاب من سخط عليهم. ان ما يهم المؤمن ان ينال رضاء الله وهو في الدنيا، وسعادته ان يرجو رضاه. وما يناله الانسان من خير في حياته او ما تصيبه من نوازل وبلايا فيعلم الله. والمؤمن يؤمن بالقدر وان الله قدر الاقدار بحكمته. لذلك لا يضع شروطاً لازمة للحياة، بل يؤمن بالله ويعتمد عليه في كل حال من احوال حياته، ويلتزم بالعمل على كسب رضائه في كل وضع وحال. ان هذا العمل بذاته هو لفائدة المؤمن، ولفائدة الآخرين ايضاً. هذه المعادلة نافذة في كل عمل فيه رضاء الله.

من المسلم به كواقعة اجتماعية، ان العالم كله انساق الى تأثير الحضارة الغربية. وتسود فناعة بان المدنية الغربية ورثت مخلفات الحضارات السابقة وتقدمت في خطى سريعة بلا منافس. ويوجد ادعاء ان هذه المدنية الغربية المتسارعة في التقدم والشديدة في قوة التأثير اكتسبت العالمية، استناداً الى انسياق البشرية كلها الى أتمودج الحياة المدنية الغربية. ان سعيد النورسي يبرز التربية القرآنية ازاء هذا الادعاء، بملاحظته ان مفاصد الحضارة الغربية تغلب محاسنها، ولذلك ليست امل الانسانية المنشود، وان نور الامل هو في نظام الحياة المستند الى تربية القرآن. من اجل تقويم رأي بديع الزمان هذا بالمنهج العلمي، اود ان افصل في مفهوم المدنية او الحضارة.

لكل تجمع انساني ثقافة. ان منظومة رد الفعل والغريزة الفطرية التي يمتلكها الانسان بالموروث الجيني، غير كافية لدوام الحياة الانسانية. ففي الانسان قدرة التفكير الرمزي. فهو يفكر في تجاربه ويصدر احكاماً بشأنها ويقرر افعاله في حدود الممكنات وينفذها. وينتج شواهد وآثاراً، ان ثقافة المجتمع هي كيفية اداء الافراد لفعالهم والاثار المنتجة. اذن، لكل مجتمع ثقافة، بمعنى طراز حياة أو كيفية حياة. وان حياة المجتمع يعتمد على القواعد المحققة لاستقرار العلاقات. ويعني ذلك ان الافعال والاثار المنتجة اختيارات ارادية في حدود الممكنات، لكن الاختيار ليس اعتباطياً، بل قائماً على مجموعة قواعد. والقواعد هي التي تمنح الثقافة التكامل والاستقرار. اما مصدر القواعد، فهو دائماً منظومة عقائد واحلاق.

اذا كان الإيمان قد تشكل من تصرفات العاطفة والتوجس ازاء الطبيعة فقط ولاشئ غير ذلك، فان هذا يقول الافعال ويحددها. ويلاحظ ذلك في مايسمى "الثقافات البدائية" التي تحدد ادق تفاصيل

الافعال وفق اعتقاد معين. فيجري الخضوع لها بمخاضها، ويشيع اعتقاد بتعطل مجريات الاحداث اذا لم تكرر الافعال بنفس القوالب. وبالتالي، لايجراً احد على الخروج عن تلك القوالب خوفاً من تخلخل المعادلة المنصوبة على الافعال بين الطبيعة وما وراء الطبيعة. وفي العادة توضع روادع شديدة على تغيير الثقافة. في هذا الحال: الثقافة متجمدة لاتتحرك.

ان احتواء الإيمان (ومن طبيعته، ان يحتضن انعكاس العواطف والخفقات) على منهجية عقلية تحوله الى " مفهوم"، يجعله ذا مردودات ومحصلات في مستوى المناظرات أي المحاكمات العقلية. فالافعال تنتخب وتقوم وتبدل وفق معيار وحسب الظروف، بدلاً عن التجميد. المهم هنا المحافظة على تلك العلاقة (المتولدة من المناظرة) بين الفعل والإيمان، وعدم التناقض بينهما. ففي هذه الحال، يعتمد تنوع الافعال وآثارها الناتجة، وتطورها، على وجود اسس عقلية للعقائد الإيمانية كمفهوم. فان اعتقاداً من هذا النوع يقود الانسان الى المحاكمة العقلية ونتائج جديدة. ونلاحظ وجود إيمان من هذا النوع ونظام اخلاقي مرتبط به في كل مدنية غابرة او قائمة في ايماننا هذه. إن بحثنا النظري هذا، يميز بين إيمان في مستوى ثقافة بدائية يقوّل ويحدد افعال التصرف النابع من العواطف والخفقات والهواجس، والإيمان الذي يؤسس حضارات كمفهوم قائم على قواعد عقلية.

ان كل تجمع انساني يعتمد على منظومة عقائدية واخلاقية. وهي التي تحقق الاستقرار والنظام. لكن المدينيات بالمعنى المشروح آنفاً لاتظهر إلا في التجمعات التي تكتشف وجود مصدر قدرة وممكنات في الذهن الانساني. ويمكن التحدث عن الحضارة في المجتمعات التي تقوم بافعال وتولد آثاراً منتجة عن علم وتقدير وفق منظومة عقائدية واخلاقية كمفهوم يعتمد العقلانية. في بحثنا النظري هذا، تؤكد على عنصرين اساسيين، الاول: هو ان حياة المجتمع لا يستقيم إلا بنظام عقائدي واخلاقي يستجلي الغموض ويحقق الاستقرار بتوجيه الافعال ووضع القواعد. ويعتمد وحدة ثقافة المجتمع وتكاملها على ذلك. الثاني: هو ان الذهن الانساني يختار ويقرر افعاله وآثاره الناتجة عن علم واردة، متفتحة عن نتائج جديدة بالمناظرة والمحاكمة العقلية، اذا اعتمدت المنظومة العقائدية والاخلاقية (كمفهوم) على الاسس العقلية، فيطور بذلك الثقافة وينوعها. وان النظام الإيماني الاخلاقي الذي يؤسس الحضارات يجوز على هذا العنصر ايضاً. ان الثقافات النابعة من الحضارات مفتوحة الابواب امام التغيير. وليست مثل هذه الثقافات بحاجة الى معادلة مثقلة بالعواطف والخلجات والهواجس المقولية والثابتة من أجل أن لا تتخلخل، بل الى مقومات مفهوم واسس عقلانية لنظام إيماني واخلاقي يوطر الافعال والآثار الناتجة. لذلك نشاهد تكرار الثقافة البدائية لنفسها بلا تغيير او تبديل، واستيعاب الثقافة النابعة من المدنية كل تغيير ينسجم مع إيمانها ونظامها الاخلاقي، فتتطور وتثري.

ان الإيمان الذي يؤسس حضارة، يتجاوز حدود التصرف المشحون بالعواطف والهواجس والخلجات والمرتبطة بالاحتياجات البيولوجية، فيتحول الى مفهوم عقلي. ان وظيفة إيمان على هذا المستوى لا يسند جهوده في اشباع الاحتياجات البيولوجية باسباب غير عقلية مثل السحر، بل على العكس تماماً، الإيمان العقلي هو قيمة بحد ذاته ومصدر الهام للانتاجات والمأثورات الثقافية. الإيمان العقلي المؤسس للمدينيات مصدر لتقدم الثقافة واثرائها وتوسيعها وتعميقها لانه مشروع مستقل قائم على نتائج نابعة من المناظرة العقلية. ولاشك ان نوع النواتج والآثار في اطار مدنية معينة وطرزها واسلوبها، تتأثر بجغرافية حياة المجتمع، وامكانياته الاقتصادية وخصوصياته التاريخية الموروثة. لكن معيار المدنية النهائي المطبق مهما كانت الاحوال، هو انسجام النواتج والآثار الثقافية مع اسس النظام الإيماني

والاخلاقي، حيث لا مفر من التمسك به. ان جوهر المدنية هو المنظومة العقائدية والاخلاقية، حسب نظرية الحضارة المطروحة هنا. المدنية هي مصدر لتهيئة الوسط الاجتماعي المولّد للنواتج والآثار الثقافية، وتوفير التوجه الروحي والطاقة اللازم لتصميم تلك النواتج والآثار. بذلك، تميز النظرية بين الحضارة والثقافة كمفهومين مستقلين، وفي الوقت نفسه، تبرز الروابط بينهما.

في ضوء النظرية، يمكن ملاحظة النظام في الحوادث المتعلقة بالثقافة والمدنية. فيمكن تفسير بعض المظاهر المستغربة بتسليط الضوء على الظروف التي اخرجتها الى الوجود. اذن، كيف تفسر النظرية ادعاء المدنية الغربية بانها مدنية عالية؟ قبل كل شيء، تجد النظرية ان من الخطأ الظن بان المدنية الغربية تقوم على العلم والتكنولوجيا. فاذا كانت المدنية نظاماً إيمانياً و اخلاقياً، لا يمكن القول، بان اساس المدنية الغربية هو العلم والتكنولوجيا. لان العلم والتكنولوجيا لا يغادران موقعهما من عناصر الثقافة، مهما بلغت اهميتهما في الحضارة الغربية. وحتى نفهم اساس الحضارة الغربية، يجب ان نشخص نظام الإيمان والاخلاق الذي اوجدها ونوعها واثراها، باعتبار الحضارة نظاماً للإيمان والاخلاق تولد الثقافة. ان العلم يراقب الاحداث الطبيعية ويمحصها، ويصمم المراحل التي تولدها. واهم ما يميز العلم هو تحقيق ما توصل اليه من تصاميم موضحة ومفسرة في ذاتها بالتمحيص بالمناظرات والمشاهدات مجدداً. يعنى ذلك، ان العلم هو معلومات تحقيقية عن احداث يمكن مراقبتها. ومن ضرورات منطق المنهج العلمي ان العملية التحقيقية لا تمنح علماً قطعياً في أي مرحلة من مراحلها. لان العلم يضع المبادئ العامة والمجردة المتعلقة بالمراحل المولدة للاحداث الطبيعية حسب الادلة المستحصلة من المحاكمات والتمحيصات القائمة على المراقبات المشخصة. ولما كانت المراقبات في الطبيعة لانهائية، فالعلم اذن يعطي معلومات افتراضية. ان المعلومات الافتراضية التي تسمى في العلم بالنظريات تعتمد مادامت مؤيدة بادلة المراقبة. ولكن العلم يقبل تلك المعلومات في حالة افتراضات لعدم التمكن منطقياً من الغاء ظهور الخطأ فيها بنتيجة مراقبات مستقبلية. بسبب هذا الوضع للعلم، يحصل تدقيق مستمر للمعطيات العلمية وتحقق بالتجارب حسب محاكمات ومناظرات جديدة. فلا يتوقف العلم بذلك في محله، بل يتقدم ويتطور. بعبارة اخرى، ان العلم يتقدم باتمام نواقص المعلومات الافتراضية وتصحيح اخطائها. ان تقدم العلم على هذا المنوال بذاته، يظهر عدم القطعية في المعلومات التي يقدمها العلم. فتقدم العلم واستمرارية البحث العلمي لا يكون إلا بقبول الصحة في المعلومات العلمية في درجة الاحتمال الذي لا يتجاوز الافتراضات مطلقاً.

لما كان العلم مجموعة معلومات من هذا النوع، فكيف يقوم نظام المجتمعات الغربية واستقرارها على علم احتمالي وافتراضي ومتعرض الى التغيير دائماً؟ وهل يستوعب المنطق الاجتماعي ان يكون الحجر الاساس لنظام العلاقات الذي يشيّد بناء المجتمع، معلومات مجردة لنفر معدودين من المتخصصين لا يفهم كنهها السواء الاعظم من هذا المجتمع؟ فمن الواضح اذن ان العلم لا يمكن ان يشكل اساس المدنية الغربية. ان الامتدادات التكنولوجية الباهرة للعلم تظهر بادية للعيان بصورة ملموسة وتعد مقياساً للتقدم البشري، لان الحضارة لم تصمم على اساس مفهوم اجتماعي لايمان المجتمع ونظامه الاخلاقي. التقدم التكنولوجي واقعة مشخصة منذ العصر الحجري. لكن لم يظهر من رجال العلم من يدعي التمايز على اساس خصوصية المستوى التكنولوجي لكل مدينة من المدن الهندية والصينية والتركية والمصرية والافريقية والرومانية ومدنية بلاد الرافدين. هذه المدن اعتمدت على نظام الإيمان

والاخلاق وعلى نظرتها الى الكون. فيجب تشخيص اعتماد المدينة الغربية ايضاً على نظام للإيمان والاخلاق، اذا كان تجسيد النظام الإيماني والاخلاقي للمدينة يجوز اهمية على مستوى النظرية. إن الحضارة الغربية نبتت من الإيمان المسيحي كأصلاح لظلم الحضارة الرومانية وللسقوط الاخلاقي في عصر تدهورها. ولاشك في التوجه الانساني لفكر النهضة الذي ظهر كرد فعل على تسلط ألف عام للكنيسة المتحولة الى منظومة سلطة هرمية. لقد رفض المذهب الانساني الدين المعتمد على الوحي واعتمد العقل الانساني مصدراً وحيداً للعلم، ولم يعترف بالامر والنهي الإلهي، بل تقبل الارادة الانسانية جهة وحيدة للقرار. ان الكنيسة نفسها شهدت بمرور الزمان تمرداً ضد منظومة السلطة الهرمية. ومع استمداد حركات الاصلاح المؤدية الى ظهور البروتستانتية من افكار " المذهب الانساني"، فقد تفرقت بهما السبل ببروز ثقل التمايل الى رفض الارادة الالهية والوحي في "المذهب الانساني". لكن "المذهب الانساني" ظل مؤثراً كتيار اجتماعي وفكري وسيطرت "الفردية" — كامتداد طبيعي للمذهب الانساني — على النفوس. وارتفعت "الحرية الفردية" الى اعلى درجات القيم بنتيجة الإيمان بالسلطة المطلقة لعقل الانسان وبان الفرد خير من يقرر ما يصلح له. لقد سرت جملة من التوجهات والمعتقدات من المدينة الرومانية الى المدينة المسيحية اثناء التأثير في التشكيلات الادارية وسلطة الدولة والحقوق. ان التمييز وعدم المساواة والميل الى استعمال القوة الراسخ في روح المدينة الغربية، يستمد جذوره من الحضارة الرومانية. النهضة، شددت العرى بآثار المدينة الاغريقية والرومانية مجدداً، ووجهت الاهتمام من الحياة الآخروية الى الحياة الدنيوية من جهة، وفي الوقت نفسه، جعلت من عبادة القوة والانشداد الى النجاح حالاً كحال الإيمان من جهة اخرى. ترشحت عبارة القوة والحرص على النجاح من الحضارة الرومانية، وتوحدتا مع "المذهب الانساني" الداعي الى اتخاذ عقل الانسان وارادته مصدراً وحيداً لتنظيم حياته وامتداده الطبيعي: الفردية. وانسحبت "المسيحية" من الحياة الاجتماعية الى خلف الاحداث منحصرة في اطار الضمائر والوجدان بعد الف سنة من السيطرة على الارواح وتنظيم المجتمع، وصراع اجتماعي وفكري وديني وسياسي استمر مئات السنين. لكنه استمر في اشغال حيز مهم من الناحية العاطفية في مشاعر جماهير الشعب الواسعة. الحاصل، ان الإيمان بعقل الانسان وقدسية الحرية الفردية، وعبادة الانشداد الى النجاح والقوة، صارت القوة الروحية التي تشكل الحياة الاجتماعية. وهكذا تمياً الإيمان المؤسس للمدينة الغربية مزجاً استمد من مصادر متنوعة عبر مرحلة من الصراع التاريخي. فلم تعد مدينة مسيحية، لكنها ليست متجردة عن المسيحية ايضاً. وقد يحصل تساؤل عن الدور الذي يلعبه عنصر المسيحية في هذا المزيج في الحياة الروحية للافراد. لكن مهما كان دور هذا العنصر، فالمؤكد ان العناصر المتحركة في التصرفات المشاهدة وتنظيم العلاقات الاجتماعية هي عامل الانشداد الى النجاح وعبادة القوة، وعامل إيمان "المذهب الانساني" بتقديس العقل والحرية الفردية، المستمدان من الحضارة الرومانية والاعريقية. هذا هو "المزيج الإيماني" الذي يشكل الثقافة في دول اوربا وامتدادها الولايات المتحدة الامريكية. وهذا النظام الإيماني والاخلاقي هو اساس المدينة الغربية.

ان المتطلع من خلال نظام اخلاقي ثابت وواضح المعالم نابع من وحي الهي مثل الاسلام، الى كثير من التصرفات واسس العلاقات في اطار النظام الاخلاقي للثقافات الغربية، يجد صعوبة في ادخالها الى مفهوم "الاخلاق". لكن الاخلاق في علم الاجتماع هو مجموعة القواعد المنظمة للعلاقات والمحقة للاستقرار في الحياة الاجتماعية. فاذا تبين افراد مجتمع، قواعد معينة بصورة مشتركة، فهذا المجتمع يعد

"اخلاقيا" حتى ان كان في نظر مجتمعات اخرى "غير اخلاقي". فالاخلاق كمفهوم من الناحية النظرية، قواعد تصرفات تحقق النظام والاستقرار، بغير التفات الى محتواها، بل ينظر الى ادائه للوظيفة الاجتماعية. وفي النظام الاخلاقي للمدينة الغربية ان يتصرف الفرد كما يشاء وان يفكر كما يريد بشرط عدم الاضرار بالآخرين. فالقاعدة الاخلاقية السائدة في حال تبني المجتمع المعتقد الفردي، ليست قوالب التصرفات المحددة، بل تصرف الفرد حسب رغبته بشرط عدم الاخلال بحقوق الغير، وتلقى الآخرين لتصرفاته بالمسامحة ولقبول. يعني ان تصرفات كل انسان مسألة تخصه بذاته في اطار فهم واسع جداً. وفي بيئة تتحد معالمها وفق ثقافة نابعة من هذا المعتقد، تعد النصيحة من غير طلب من فرد، تدخلاً في حياته الشخصية. ولا يعامل الناصح حسب حسن نيته، بل باعتبارها متجاوزاً لحدود الحياة الشخصية للمخاطب. ولعل ما يعد انحرافاً وعدم حياء في ثقافات معينة، يجد قبولاً في الثقافات الغربية كتعبير عن الحرية الفردية. كذلك، قد تصرح بافكار لا ترد على الاذهان في المجتمعات البعيدة عن الفردية، وتظهر فلسفات ومعتقدات متنوعة واديان من بنات افكار الانسان، وتؤسس جمعيات لغايات مهمة او غير مهمة، وحتى لاشباع عقد معينة. هذا النظام الإيماني والاخلاقي للمدينة الغربية الذي فسح المجال لعوامل الثقافة هذه، جعل العلم والتكنولوجيا ايضا من العوامل المهمة للثقافة. لان العلم وتطبيق العلم يعني القوة والنجاح. والقوة والنجاح من عناصر الإيمان المقدسة الى حد العباداة! كذلك، يهيئ التغيير المستمر الحاصل من العلم والتكنولوجيا وسطاً صالحاً للتعبير عن الحريات الفردية في جميع الاتجاهات. ان عنصر تقديس القوة والنجاح وعنصر احلال العقل الانساني والارادة الفردية يشكل إيمانا يتولد منه طاقة نفسية تدفع الى احترام العلم والبحث عن الامكانيات التكنولوجية المتاحة به.

فلنترك برهة هذه الايضاحات عن نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الغربية، ولنلق نظرة على رأي النورسي بشأنها. يطلق سعيد النورسي على المدينة الغربية اسماء متعددة مثل "المدينة الاوروبية" و "المدينة الحاضرة" أو "المدينة" مجردة، وايضاً "المدينة الوحشية" و "مدينة بلا ميم" ويعني "دنية" بحذف الميم من الكلمة. يلاحظ موقف ثنائي للنورسي ازاء المدينة الغربية فيجد فيها ايجابيات من حيث غزارة الفعاليات العلمية والصناعية والفنية وزيادة انتاج السلع والخدمات وتسريع خطى الحياة وتسهيلها بالمؤسسات المؤثرة والفاعلة، ويجد فيها سلبيات مثل السفه في الحياة والاهواء النفسانية والحرص على الاشتهار والانانية والحياة بتخطي حدود الله ووسائل الله والوسائط الفارغة التي يسميها "فانتازيات المدينة". الاجبايات تطور ملكات الانسان ومواهبه الروحية العليا، والسلبيات تهمش الاصاله والسمو في فطرة الانسان فيقومه الى السبات والخمول. لذلك، يفكر سعيد النورسي بوجودين اثنين لاوروبا. الاولى: اوربا التي تتبع الفنون والعلوم فتخدم العدالة والحياة الاجتماعية بالصنعة وذلك استلهاما من المسيحية. والثانية: اوربا المشجعة للفلسفة الضالة والحياة السفهية.

ان الحضارة حالة متكاملة بالنظام الإيماني والاخلاقي وظهور اوربا مزدوجة او ثنائية في ثنايا ثقافات الامم الاوربية المتبعة لهذا النظام الإيماني والاخلاقي — كما اشار سعيد النورسي — حالة تصورها نظرية الحضارة المذكورة هنا. و لكن اذا حدد مصدر واحد ومعين تنبع منه اوربتان، فالنتائج المستحصلة من وجود "اوربتين اثنتين" قد تؤدي الى اخطاء. في الحقيقة، توجد مدينة واحدة تغذي صورتين لأوروبا ذات محتوين مختلفين في ثقافات الامم الاوربية. المحتويان المتشكلان من العوامل الثقافية هما انعكاسات لنوعية الحياة التي يتيحها نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الغربية. ان المسيحية

التي تقف خلف الارواح كديكور مسرح أو في اللاشعور ككابوس، وتحفز الروح لكنها لا تملك تأثيراً في توجيه افعال الحياة الواقعية، الى جانب عبادة القوة والنجاح والحرية الفردية غير المعترفة بالحدود الالهية، تشكلا نظام الإيمان والاخلاق. وهذا النظام هو مصدر العلم والتكنولوجيا والفن والفلسفة، كما هو مصدر تجاهل الحياة والاثم والانسحاق الى اللذات الجسدية وسفه الملذات والقمار والخمر والمخدرات والرفاهية والبذخ عن المألوف واهتزاز الحياة العائلية. فهكذا يرى سعيد النورسي اوربا ثانية الى جانب اوربا الاولى تظهران وتتطوران بسبب اختلاف قابليات الافراد وامزجتهم ونشأهم في ظل نظام إيماني واخلاقي يسمح بالانطلاق في كل اتجاه على محور الحرية الفردية. في الواقع، لا يرى الاوربيون "اوربا ثنائية"! فهم يرون ثقافتهم وحدة متكاملة، من طبعها احتواء التنوع والفروق وحتى التناقضات كضرورة لنظامهم الإيماني والاخلاقي.

ويرى النورسي ان مثالب الحضارة الغربية تزيد على محاسنها. ونغض الطرف عن تأييد الاوربيين او معارضتهم لهذا الرأي كموضوع بحد ذاته، فنقول إنهم لا يجدون مثلبة في قسم من عناصر الثقافة يراها النورسي سيئات ومثالب. وفي الوقت ذاته، لا يرغبون في منع تشكل عناصر الثقافة التي يجدها سيئة فعلاً، بتحديد حرية الافراد، بل يرون الاجدر بهم كضرورة من ضرورات نظام الإيمان والاخلاق للحضارة الغربية، ان يتركوا "المساوي" لمسؤولية الاشخاص وادراكهم والبحث عن الوسائل المخففة لتأثيراتها ومضاعفاتها وهيئة وسط ثقافي يرشح الافراد لاختيار الافعال بشكل عقلائي.

ان الجوانب الحسنة والجوانب السيئة في الثقافات الاوربية تنبع من النظام الإيماني والاخلاقي نفسه. وكذلك كل فلسفة اوربية تتولد من ذلك النظام الإيماني والاخلاقي الذي لا يريد ان يحد حدوداً للفكر او يلزمه باتجاه معين. ومن ضمنها فلسفات دينية مخلصنة ونظم فكرية صادقة في السعي الى قيادة الانسانية نحو الخير. وبهذا المعيار، لا يعكس النورسي الواقع الحقيقي للثقافات الاوربية حين يضعها جميعاً في سلة واحدة، فيطلق عليها "زندقة الفلسفة" وقد اشار زميلي المحترم سليمان خيرى بولاي الى هذه النقطة في المؤتمر العالمي الثالث لفكر بيدع الزمان. مع هذا، يمكن تفهم رأي سعيد النورسي عن اولئك الفلاسفة من زاوية عدم إيمان الفلاسفة الاوربيين بصدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم عدم اتباعهم لعلم الله واراوته في القرآن الكريم. المهم من حيث النظرية التي نطرحها هنا، هو انبثاق عناصر الثقافة كلها بجوانبها الحسنة والسيئة، بضمنها الفلسفات المختلفة، في انسجام مع روحية نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الغربية وفي حدود الامكانيات التي تسمح بها تلك الروحانية. وان تعطيل المفاصل او اعاققتها بالضغط او التدخل لا ينسجم مع روحية النظام الإيماني والاخلاقي للحضارة الغربية. وسلوك هذا النهج لا يرغب فيه الاوربيون باعتباره مخالفاً لذلك النظام. هذا، وان كثيراً من مقومات الثقافة التي يعدها سعيد النورسي مساوي، هي في نظر الاوربي حرية الافراد في العيش او التفكير او الاعتقاد حسيماً يشاؤون. ان الحضارة الغربية نظام اعتقادي واخلاقي ولد في خضم تاريخ طويل. وما يمنح الثقافات الاوربية تكاملها، بضمنها السلبيات او التناقضات في كل منها، هي روحية المدينة الغربية. وما فيها من مساوي ومفاصل لاتستأصل من الحياة الاجتماعية كاستئصال الورم من الجسد بعملية جراحية. فمحاولة القضاء عليها بهذا الاسلوب يستوجب تقييد حرية الفرد وتحديد نمط حياته من الخارج واضعاف ميول عبادة القوة والحرص على النجاح فيه. وهذا الحال يناقض نظام المعتقدات والاخلاق وبمزق روحية الحضارة الغربية: في الوقت الذي ليست الحضارة الغربية المتشكلة من هذا النظام مجموعة من تلك المقومات الثقافية الفاسدة فقط، بل هي ايضاً مهد للمقومات الثقافية

الحسنة التي ترفع من قيمتها وتؤدي بالتالي الى التقدم في العلم والتكنولوجيا. لم يأخذ سعيد النورسي بنظر الاعتبار ان نظاماً للمعتقدات والاخلاق بعينه يولد المدنية الغربية بجوانبها كلها، حين قرر وجود اوربتين باعتبار ما عدها مساوئ في ثقافتها وما عدها محاسن. مع ذلك، نجد يقف عند مسائل نظام المعتقدات والاخلاق في مقارنة حضارة الاسلام وحضارة اوربا من حيث الاسس التي تقومون عليها. فهو يرى ان المدنية الغربية تستند الى "القوة" وتستهدف "المنفعة" وتتخذ "الصراع" قاعدة للحياة وتعتمد على العنصرية العرقية والقومية السلبية رابطة تشد المجتمعات بعروة واحدة، وان غاية هذه المدنية اشباع الاهواء النفسانية وزيادة الحاجات. وان سبيل القوة يؤدي الى العدوان وسبيل المنفعة الى الصراع لتصورها عن اشباع الرغبات وسبيل قاعدة الصراع الى التصادم، وسبيل العنصرية العرقية والقومية السلبية النامية بابتلاع الآخرين الى العداوة. اما حكمة القرآن، فهي تغير موقع الاستناد من القوة الى "الحق" ومن المنفعة الى "الفضيلة" و"طلب رضا الله" ومن الصراع الى "التعاون" ومن رابطة العنصرية العرقية والقومية السلبية الى رابطة "الدين والوطن". اما الغاية في حكمة القرآن فهي اقامة حاجز امام عدوان الاهواء النفسانية غير المشروعة وحث الافراد نحو المطالب العالية والأخذ بيد الانسان الى الكمال. وسبيل الحق يؤدي الى الوحدة وسبيل الفضيلة الى التكامل وسبيل التعاون الى اسعاف الحاجات، وسبيل الدين الى الاخاء، وسبيل امساك زمام النفس والسعي بالروح في مدارج الكمال يؤدي الى سعادة الدنيا والآخرة.

ان سعيد النورسي يذكر الحضارة الغربية في كثير من المواضع باسم "المدنية" مجردة او "المدنية الحاضرة". وقد يتبادر الى الذهن لأول وهلة انه مقتنع بان المدنية الغربية هي الوحيدة التي تخطر على البال حين تذكر الحضارات او انها تمثل حضارة العصر باعتبارها الاكثر تقدماً او ان المدنيات الأخرى بخسة القيمة ازاها. لكن هذا التصور يتهافت حين نراه يقارن بين "المدنية الحاضرة" وحكمة القرآن. فالظاهر انه يجاري القناعة السائدة باطلاق الكلمة مجردة، لكنه يعلن حين اقتضاء الحاجة زيف "المدنية الحاضرة" وكونه مدنية وحشية في الحقيقة، فيؤكد الخطأ في تلك القناعة السائدة ومخالفته لها.

نأتي الى طبيعة العلاقة المرجوة بين الحضارة الغربية والعالم الاسلامي وبضمنها تركيا. ونقرر ابتداء بان سعيد النورسي اشار ضمناً الى تطور الثقافة استناداً الى منظومة معتقدات و اخلاق، ويلاحظ ان ما حصل حتى الآن ورود الجوانب السيئة من الثقافات الغربية، مع الحاجة الى علوم الغرب وفنونها. ويرى شيوع الظن بامكان اقتباس العلوم والفنون بتضحية المقدسات او التخلي عن جزء من الدين بسبب الشك في قيمة نظام الإيمان والاخلاق الخاص بنا. لكن الواقع هو اقتباس ثقافتنا لفانتازيات المدنية الناكثة للنسيج الاجتماعي، وعدم اقتباسها العلوم والفنون بحق. ولاغبار على ما ذكره سعيد النورسي بهذا الصدد. لان دخول الفانتازيات المدنية امر يسير بتبسيط نظام الإيمان والاخلاق للمجتمع. وفي المقابل توجد حاجة ماسة الى الروحية والطاقة التي يمنحها نظام الإيمان والاخلاق لادامة الفعاليات الجادة من قبيل العلوم والفنون المقتضية لبذل المساعي العظيمة ونذر الحياة للفكر والابحاث. لقد تساهلت تركيا ازاء اهتزاز نظامها الإيماني والاخلاقي، بل قامت باجراءات تزيد من شدة الاهتزاز. من جهة اخرى، تركيا بعيدة عن فهم نظام الإيمان والاخلاق الاوربي. اضافة الى ذلك، لن نهضم هذا النظام حتى ان فهمته فهماً صحيحاً، لانه واقع ظهر الى الوجود بنتيجة مراحل تأريخية من الصراع المرير ومصادمات اجتماعية واقتصادية وفلسفية ودينية وتحت تأثير مصادر متنوعة. لذلك، لا يمكن استيعاب نظام الإيمان والاخلاق الاوربي بقرارات فوقية فاولاً: يجب ان يهضم الانسان في روحه النظام

الإيمان والاخلاقي وان كان في نظرنا متضمناً لمساوئ الى جانب المحاسن. وثانياً: يجب ظهور وسط اجتماعي يلائم تشكل الافعال بصورة طبيعية وفق هذا النظام. وبغير هذا الروح والوسط الاجتماعي تبقى الرغبة في اقتباس العلوم والفنون باعتبارها مهمة، مجرد فعاليات لا تتجاوز التقليد السطحي او النقل الجاهز للعلوم او المنتجات.

لم يحلل سعيد النورسي العلاقة بين الثقافة والحضارة وفق نظرية علمية، لكنه استشعر هذه العلاقة وكتب عنها. فهو ينصح بالاعتصام من جديد بمدنية القرآن وترك اللهات خلف مدنية الغرب التي يسميها "مدنية من غير ميم" (يعني دنية)، حتى تنجو تركيا من حال الجهل والسفاهة والعجز. فهو يعلن ان مصدر الفيوضات في روح هذه الامة هو نظام الإيمان والاخلاق للاسلام. فاذا لم ينعكس هذا المصدر (المغذي لعزم القيام باعمال عظيمة) من أغوار الارواح الى العقول، تضيع طاقة الامة هدرًا باعمال مبتورة. ألا يكفي تجارب مائتي سنة لاثبات ان اهمال هذا المصدر والنزوع الى المدنية الغربية لا يورث إلا اقتباس مثالب ثقافتها؟ فيما انك لست اوربي الروح، أغن روحك اذن، وافهم حكمة الاسلام، واعبد لتحقق العبودية لله. لكن لاكتنف بالعبادة وحدها، بل شغل عقلك الذي وهبه الله لك في رضاء الله والبحث عن الحقيقة، واستخدام الحقائق التي تصل اليها في نفع البشر كذلك، اقم العدل باحسن وجه كما امر الله، ويسر امور الخلق، ومهد سبل الرزق للفقراء والمساكين، وشد اواصر التعاون الاجتماعي، وابن صرح مجتمع الامان العاملين بعزم وهمة لنوال نعم الدنيا وسعادة الآخرة، وعامل البشر كلهم بالاحسان والعدل وكن قدوة لهم، واعرض بذلك مدنية الاسلام على البشرية جمعاء ببعدها العالمي مطلوباً سامياً. هذا جوهر ما يدعو إليه سعيد النورسي.

بناء على ذلك، من المحال النجاح في فعاليات راسخة من قبيل العلوم والفنون بغير حافز روحي نابع من نظام المعتقدات والاخلاق لمدينة معينة. وان روح المدنية الغربية تفتح الابواب بالدرجة عينها للعلوم والفنون كما لسقوط الاخلاق، وللحاسب السامية كما للسفه. لكن تقدم شعوب تلك المدنية في العلم والفن والحياة والمؤسسات الاقتصادية والسياسة وقوة السلاح يغطي عيوبها المزرية في حياتها الاجتماعية والروحية، ويحقق نجاحها في مداومة السير ضمن حدود حضارتها. فحتى متى؟ الجواب ليس سهلاً. ان تعيين الأجال للحضارات ليس من اعمال العلم والعقلانية، بل الكهانة. المطلوب لحياتنا الحاضرة الاعتراف بوجود هذه المدنية ومعرفة خصائصها وتعيين علاقاتنا بها.

وما من مانع يمنع من مد علاقات سياسية او اقتصادية مع الغرب، او علاقات تبادل ثقافي، بشرط ان نتطلع من خلال نافذة مدنيتنا لتقوم هذه العلاقات على اسس صحيحة. فلا بد من نشأة الاجيال وفق النظام الإيماني والاخلاقي للاسلام بأسلوب تربوي مؤثر، اذا اردنا ان نتلافى المساوئ ونحث على الحسنات في الثقافة التي تعد حياة الامة. وان غاية مقصود سعيد النورسي، تحريك الجهد التربوي لاشباع الارواح بمدنية القرآن في مجتمع تزلزلت مدنيته. واسمى درجات المدنية من حيث روح الفرد هي بلوغ الإيمان كما يلقيه القرآن، ومن حيث المجتمع هي بلوغ الاخلاق كما يعلمه القرآن. ان المدنية الحقيقية هي المدنية الاسلامية التي تؤسس المعادلات المتوازنة بين الفرد والمجتمع، والدنيا والآخرة، والروح والمادة، والإيمان والعقل، والعبودية والحرية، والاحتياجات الحياتية ومطالب السمو. هذه المدنية هي نمط حياة واقعية انعم الله بها على البشر. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقعبتها بسيرته المباركة، وهو كما قال الله تعالى: " قل انما انا بشر مثلكم ". المدنية الاسلامية هي الروحية التي تجسدت في تلك السيرة المباركة. ومهما بلغ الانسان في قوة العقل، فالحياة زاخرة

مجاهيل يعجز عن حلها بعقله. لذلك، ارشده الله تعالى بالقرآن الى الوجهة الصحيحة حتى لا يضيع في خضم هذه الجاهيل. فما اسعد المؤمنين بسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التي هي قدوة ومحجة بيضاء ترشد الى كيفية ممارسة النصائح والعظات القرآنية في الحياة.

ان سبب التدهور فيما بعد هو الانحراف عن الصراط المستقيم الذي ارشد اليه القرآن وسيرة رسول الرحمة الى العالمين محمد صلى الله عليه وسلم. وان الانتقاص من شأن المدينة الاسلامية بناء على واقع العالم الاسلامي الحالي يستند الى منطق سقيم. فليس حاضر العالم الاسلامي إلا دليلاً على مدى ابتعاد المسلمين في افكارهم ومشاعرهم وفعالهم عن نظام الإيمان والاخلاق للمدينة الاسلامية. ان قضية احياء المدينة الاسلامية، هي قضية وعي المسلمين بنظام الإيمان والاخلاق لهذه المدينة وتقويم انفسهم. هذه المدينة بنظامها الإيماني والاخلاقي حية وفتية، وهي المدينة المتأززة الحقيقية الاولى والوحيدة، وذلك النظام القائم على الوحي الالهي هو للبشرية جمعاء. الاسلام ليس ديناً محتكراً لأمة دون امة. بل هو دين انزله الله للبشرية قاطبة. وقد تكفل بحفظه الى يوم القيامة. وهو معين رحمة وحكمة لكل محتاج يريد اصلاح نفسه ونوال سعادة الدنيا والآخرة. ان الله تعالى هو صاحب هذا الدين، فمحال اذن ان يفتقر الى اصلاح. بل المطلوب ان يصلح المسلمون نفوسهم وارواحهم وحياتهم بموجب نظام الإيمان والاخلاق الذي يشكل جوهر المدينة الاسلامية واساسها.

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

حكمة التكرار في القرآن الكريم من خلال رسائل النور

أ.د. غانم قدوري الحمد^P

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وبعد :
فلإن التكرار أسلوب شائع في التعبير القرآني، وظن بعض من لا معرفة له
بأساليب الكلام ان التكرار يخل بفصاحة الكلام ولا ضرورة له في بيان المعاني.
وكان ذلك الظن المخطوء سبباً لاعتناء المفسرين ودارسي علوم القرآن ببيان حكمة
التكرار في التعبير القرآني، وإظهار أن التكرار أسلوب شائع في العربية يلجأ إليه
المتكلم لتأكيد الكلام وتقرير المعاني، وأنه مظهر من مظاهر الفصاحة، وصورة من
صور البلاغة.

وكان الاستاذ سعيد النورسي - رحمه الله تعالى - شديد العناية بإظهار إعجاز
القرآن من وجوهه المختلفة، وكان أحد تلك الوجوه ما سماه بمعجزة التكرار في
القرآن الكريم ، فقد تحدث عن هذه القضية في مواضع متعددة من مؤلفاته ورسائله،
حديثاً يتميز بالنظرة العميقة الشاملة التي تجعل القارئ يشارك المؤلف رأيه بأن:
القرآن الكريم يظهر نوعاً من إعجازه البديع في التكرار البليغ.
وتناولت في هذا البحث ظاهرة التكرار في القرآن الكريم بالدراسة والتحليل، وجاء
في مبحثين:

المبحث الأول : ظاهرة التكرار في القرآن الكريم وموقف المفسرين والدارسين
منها.

المبحث الثاني : ظاهرة التكرار في القرآن الكريم والحكمة منها من خلال رسائل
النور.

وقد جعلت المبحث الاول بمثابة التمهيد لدراسة الظاهرة من خلال رسائل النور،
عسى أن يسهم ذلك في إبراز جانب من فكر النورسي في فهم هذه الظاهرة في التعبير

^P من مواليد سنة 1950م في مدينة تكريت - العراق. نال شهادة الماجستير من جامعة القاهرة سنة 1976م
والدكتوراه من جامعة بغداد سنة 1985م . عمل استاذاً في جامعة بغداد وحالياً في جامعة تكريت. ألف خمسة
كتب وحقق أربعة عشر كتاباً وكتب أكثر من خمسة عشر بحثاً .

القرآني بما يزيل ما يكون قد علق ببعض الأذهان من شبهات حولها. والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب.

المبحث الأول

ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ، وموقف المفسرين والدارسين منها
التكرار¹ في اللغة معناه إعادة الشيء مرة بعد أخرى ، ويقال: كررت الشيء تكريراً وتكراراً²
أما في الاصطلاح فقد عرفه بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ) بقوله : “وحيثه إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى”³
ويمكن أن نقسم التكرار في القرآن من خلال الآيات التي ورد فيها على الأقسام الآتية:

(1) **التكرار اللفظي** ، وهو أن يعاد اللفظ الواحد بنصه ، وكذا العبارة أو الآية. ويمكن أن نقسم التكرار اللفظي على قسمين أيضاً، هما:
(أ) التكرار اللفظي المتصل، وهو ما كرر فيه اللفظ أو العبارة من غير فاصل بين الأول والثاني.
(ب) التكرار اللفظي المنفصل، وهو ما كررت فيه العبارة مفصولة عن الموضع الأول الذي وردت فيه بفاصل قد يطول وقد يقصر.
(2) **التكرار المعنوي** ، وهو تكرار المعنى الواحد، أو القصة الواحدة بألفاظ مترادفة أو عبارات متباينة.

وسوف أعرض ما ورد في القرآن الكريم من التكرار أولاً ، ثم أتبع ذلك بذكر جهود المفسرين والدارسين في دراسة تلك الظاهرة، وتلخيص ما قالوه في تفسيرها.

أولاً: صور التكرار في القرآن الكريم

(1) التكرار اللفظي المتصل : وهو يشمل تكرار كلمة ، وتكرار جملة أو آية⁴.
فما وقع في القرآن الكريم من تكرار الكلمة قوله تعالى :
1 - (هَيِّاتَ هَيِّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ) (المؤمنون 36).
2 - (كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ) (الإنسان 15 - 16).
3 - (إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) (الفجر 21 - 22).

ومما وقع في القرآن الكريم من تكرار الجملة قوله تعالى:

1 - قياس مصدر الفعل كرر هو التكرير ، أما التكرار - بفتح التاء - فقيل هو محوّل عن التكرير ، وقيل هو مأخوذ من كرر للمبالغة والتكثير (ينظر: سيبويه : الكتاب 4 / 79 ، والرضي: شرح الشافعية 1 / 167).
2 - ينظر : ابن منظور : لسان العرب 6 / 450 مادة كرر.
3 - البرهان 3 / 10 .
4 - ينظر : الزركشي : البرهان 3 / 9 ، والسيوطي: الاتمّان 3 / 197 .

- 1 - (فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرَ * ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَرَ) (المدثر 19 - 20).
- 2 - (أُولَى لَكَ فَأُولَى * ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى) (القيامة 34 - 35).
- 3 - (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) (النبأ 4 - 5).
- 4 - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ) (الانفطار 17 - 18).

- 5 - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح 5 - 6).
 - 6 - (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) (التكاثر 3 - 4).
- (2) التكرار اللفظي المنفصل: وهو يشمل تكرار جملة أو آية أو عدة آيات. ومما وقع في القرآن الكريم منه قوله تعالى:

- 1 - (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء 8 - 9). تكررت هاتان الآيتان سبع مرات بعد هذا الموضع في السورة ذاتها⁵.

- 2 - (ءِآلَةٌ مَعَ اللَّهِ) (النمل 60) تكررت هذه الجملة في سورة النمل أربع مرات بعد هذا الموضع (الآيات 61 - 65).

- 3 - (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (القمر 17) تكررت هذه الآية ثلاث مرات بعد هذا الموضع (الآيات 22 ، 32 ، 40).

- 4 - (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ) تكررت أربع مرات (القمر 16 ، 18 ، 30 ، 21).
- 5 - (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن 13) تكررت هذه الآية في سورة

- الرحمن بعد هذا الموضع ثلاثين مرة.
- 6 - (وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات 15) تكررت هذه الآية سبع مرات بعد هذا الموضع في السورة ذاتها.

- 7 - (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) (الكافرون 3 ، 5).
- (3) التكرار المعنوي

ورد في القرآن الكريم الحديث عن عدد من الموضوعات في سور متعددة، مثل قصص عدد من الأنبياء - عليهم السلام - كآدم ونوح وإبراهيم وموسى، ومثل الحديث عن مشاهد القيامة والجنة والنار، والحديث عن الظواهر الكونية ودلائل التوحيد. وحديث القرآن عن هذه الموضوعات لم يتكرر بصورة متطابقة في كل المواضع، فهناك تنوع في العبارات، وهناك تنوع في المعاني، مما يخرج هذه الموضوعات عن ظاهرة التكرار اللفظي المحض. والذي جعلني أضع عنوان (التكرار المعنوي) هو حديث علماء السلف عن تكرار القصص في القرآن الكريم، واعتناء الأستاذ النورسي بهذا الموضوع ومعالجته المتكررة له في عدد من رسائله ومؤلفاته. وأمثلة هذا النوع من التكرار يضيق المقام عن استيعابها، وسوف نشير إلى أمثلة منها في أثناء الحديث عن الحكمة منها، في هذا البحث، إن شاء الله.

5 - وهي الآيات 67 - 68 ، 103 - 104 ، 121 - 122 ، 139 - 140 ، 158 - 159 ، 174 - 175 ، 190 - 191 من سورة الشعراء

ثانياً: جهود علماء السلف في دراسة ظاهرة التكرار في القرآن الكريم

لفتت ظاهرة التكرار في القرآن الكريم نظر عدد كبير من علماء السلف، فتناولها المفسرون والباحثون في اعجاز القرآن وعلماء البلاغة والبيان، ويبدو أن ما أثاره بعض الملاحدة من تساؤل حول تلك الظاهرة قد حملهم على الاعتناء بها، والبحث عن تعليل لها، والسعي لإظهار حكمتها.

أشار ابن قتيبة (ت 276 هـ) إلى أن بعض الطاعنين في القرآن من الملاحدة تعلقوا بظاهرة التكرار في الكلام مثل قوله: (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) وتكرار القصص والأنبياء⁶ وذكر الخطابي (ت 388 هـ) أنهم قالوا: " قد يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه ... ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه في سورة الرحمن: (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**)، وفي سورة المرسلات (**ويل يومئذ للمكذبين**)، وليس واحد من المذهبيين بالمحمود عند أهل اللسان"⁷ وقال السكاكي (ت 626 هـ) وهو يتحدث عن مطاعن الضالين والرد عليهم: " ومنهم أنهم يقولون: لا شبهة في أن التكرار شيء معيب خال عن الفائدة، وفي القرآن من التكرار ما شئت، ويعدون قصة فرعون ونظائرهما ونحو (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) و (**ويل يومئذ للمكذبين**) وغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك"⁸.

كانت تلك الشبهات قد زادت من عناية المفسرين ببيان حكمة ما تكرر من آيات القرآن، كما أنها نبهت غيرهم إلى الاعتناء بهذا الموضوع، فصار الدارس يجد جماعات من علماء السلف ممن درس هذه الظاهرة واعتنى ببيان أسرارها ودلالاتها في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، ومن أهم تلك الجماعات.

(2) **المفسرون**: كان مفسرو القرآن الكريم أكثر عناية من غيرهم بتفسير الآيات المكررة وإبراز حكمة التكرار فيها. ويبدو أن ذلك ظهر عندهم في وقت مبكر، فكان الفراء (ت 207 هـ) قد وقف عند عدد من الآيات المكررة في تفسيره المسمى (معاني القرآن)⁹ ويتفاوت المفسرون في مقدار عنايتهم بهذا الموضوع، وكان البغوي (ت 516 هـ) والقرطبي (ت 671 هـ) من أكثرهم عناية به في تفسيرهما (معالم التنزيل) و (الجامع لأحكام القرآن).

(3) **المؤمنون في المتشابه**: لكلمة المتشابه دلالتان في الدراسات القرآنية، الأولى: بمعنى المشكل في معناه، والثانية: المتناظر في مبناه. وقد اعتنى المؤلفون في المعنيين جميعاً بظاهرة التكرار، وأشهر تلك المؤلفات (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت 276 هـ)، و (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الاسكافي (ت 420 هـ)، و (البرهان في متشابه القرآن) المطبوع باسم (أسرار التكرار في القرآن)

6 - تأويل مشكل القرآن ص 32 .

7 - بيان إعجاز القرآن ص 39 - 40

8 - مفتاح العلوم ص 592

9 - معاني القرآن 3 / 287 - 288 ..

لمحمود بن حمزة الكرمانى (ت 505 هـ) ، و (ملاك التأويل) لأحمد بن إبراهيم الزبيرى (ت 708 هـ).

(4) المؤلفون في البلاغة العربية : فقد صارت ظاهرة التكرار لوناً من ألوان أسلوب الاطناب، يتناوله المؤلفون في البلاغة العربية ويعرضون أمثلة من آيات القرآن الكريم، على نحو ما نجد عند أبي هلال العسكري (ت 395 هـ) في كتابة (الصناعتين) ¹⁰ وعند جلال الدين القزوينى (ت 739 هـ) في كتابة (الإيضاح في علوم البلاغة) ¹¹.

(5) المؤلفون في إعجاز القرآن : تعرض بعض المؤلفين في موضوع إعجاز القرآن لظاهرة التكرار بوصفها صورة من صور البلاغة ولوناً من ألوان البديع، لكن ذلك كان على نحو موجز، كما نجد عند الخطابى (ت 388 هـ) في كتابة (بيان إعجاز القرآن) ¹²، وعند الباقلانى (ت 403 هـ) في كتابه (إعجاز القرآن) ¹³

(6) المؤلفون في خصائص العربية من اللغويين : أشار عدد منهم الى ظاهرة التكرار في الكلام العربى وأوردوا لها أمثلة من أشعار العرب وآيات القرآن الكريم، على نحو ما نجد عند ابن فارس (ت 395 هـ) في كتابه (الصاحبى في فقه اللغة) ¹⁴ والثعالبى (ت 430 هـ) في كتابه (فقه اللغة وسر العربية) ¹⁵

(7) المؤلفون في علوم القرآن : ظهر مصطلح (علوم القرآن) منذ وقت مبكر من تاريخ التأليف في موضوعات القرآن الكريم للدلالة على جملة تلك الموضوعات، على نحو ما نجد عند ابن النديم في كتابه الفهرست الذى الفه سنة 377 هـ. وقد اتخذت المؤلفات في علوم القرآن شكلها المتميز بعد أن ألف بدرالدين الزركشى (ت 794 هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن)، وألف السيوطى (ت 911 هـ) كتابه (الاتقان في علوم القرآن). وجمع هذان العالمان في كتابيهما أكثر ما كتب عن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ونقلوا نصوصاً وأقوالاً من مؤلفات لم يبق لها ذكر في زماننا حول تلك الظاهرة ¹⁶ تلك هي أهم ما وقفت عليه من جهود علماء السلف الذين درسوا ظاهرة التكرار قبل الاستاذ سعيد النورسى، من خلال ما تيسر لي من المصادر، ولا استبعد أن يكون قد فاتني ذكر جهود أخرى لم أقف عليها. لكن مما تجب الإشارة إليه هو أن تلك الجهود قد تعمقت وتنوعت حتى أثمرت مؤلفات مستقلة حفظ لنا التاريخ من أسماؤها كتاب (المقتنص في فوائد تكرار القصص) لبدرالدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت 733 هـ) ¹⁷ وكتاب (نخبة الأذهان فيما وقع من التكرار في القرآن) لمحمد عبدالعظيم المعروف بابن عتيق (ت 1088 هـ) ¹⁸

10 - الصناعتين ص 199

11 - الإيضاح 198

12 - بيان إعجاز القرآن ص 52

13 - إعجاز القرآن ص 106

14 - الصاحبى ص 341 ، وينظر : السيوطى : المزهري 1 / 332

15 - فقه اللغة ص 350

16 - البرهان 3 / 8 - 34 ، والاتقان 3 / 193 - 206

17 - ينظر : السيوطى : الاتقان 3 / 204 ، والبغدادى : هدية العارفين 2 / 148

18 - ينظر : الزركشى : الأعلام 6 / 210 ، ومحمد الحسنائى : الفاصلة في القرآن ص 263

ثالثاً : موقف علماء السلف من تفسير ظاهرة التكرار في القرآن الكريم .

تناول علماء السلف - رحمهم الله تعالى - كل آية فيها تكرار بالتفسير والتحليل، وعرض كل ما قالوه في ذلك أمر لا يتسع له هذا البحث، كما ان الغرض من الحديث عن موقفهم من ظاهرة التكرار هو التمهيد للحديث عن حكمة التكرار لدى الأستاذ النورسي، ومن ثم سوف أكتفي بعرض الاتجاهات الرئيسية في تفسير الظاهرة ملخصاً ما قالوه في ما سميناه بالتكرار اللفظي المتصل، والمنفصل، والتكرار المعنوي .

(1) التكرار اللفظي المتصل :

إن دلالة التكرار العامة هي التوكيد، وقد صرح الفراء (يحيى بن زياد ت 207 هـ) بذلك في أثناء حديثه عن الآيات التي فيها هذا النوع من التكرار في كتابة معني القرآن، فقال، وهو يتحدث عن قوله تعالى: (**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**) (التكاثر 3 - 4) : (والكلمة قد تكرر ها العرب على التخليط والتخويف ، فهذا من ذلك)¹⁹

وجعل منه أيضاً قوله تعالى: (**فَبِأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**)، ثم قال: “ ومن التخليط قوله في سورة: (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**) مكرراً ، كُرِّرَ فيها، وهو معنى واحد “²⁰ وكان لأبي العباس ثعلب (أحمد بن يحيى ت 291 هـ) رأي آخر في تفسير هذا النوع من التكرار، فهو يحمله على تعدد معاني العبارات، وإن اتحدت ألفاظها، فيروى أنه قال وهو يتحدث عن قوله تعالى: (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**) : “ إنما حسنَ التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى “²¹ وحمل ابن قتيبة (ت 276 هـ) التكرار اللفظي المتصل على التوكيد، فقال: “ وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يُجزئ عن بعض كتكراره في (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**) ... فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان قوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام... قال الله عز وجل : (**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**) وقال : (**فَبِأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) وقال: (**أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ * ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ**) وقال : (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ**)، كذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كرر به اللفظ “²² وكان المؤلفون في تأويل ما تشابه من القرآن الكريم أكثر ميلاً الى الأخذ برأي ثعلب في تفسير هذا النوع من التكرار، فقال الخطيب الإسكافي (ت 420 هـ) عن قوله تعالى : (**فَبِأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) : “ وإذا لم يكن ذلك لم يكن تكراراً “²³ وقال الكرمانى (ت نحو 505 هـ) عن الآية ذاتها : “ ليس بتكرار ... ”²⁴ وقال الخطيب الإسكافي في تفسير التكرار في سورة (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**) : “ إن سأل سائل عن التكرار في هذه السورة ؟ فالجواب أن يقال: إنا قد أجبنا في جامع التفسير عن ذلك

19 - معاني القرآن 3 / 287

20 - معاني القرآن 3 / 288

21 - نقلاً عن : أمالي المرتضى 1 / 83

22 - تأويل مشكل القرآن ص 235 ، 236

23 - درة التنزيل ص 533

24 - أسرار التكرار ص 221

بأجوبة كثيرة، فنذكر منها واحدا في هذا الموضوع ... فلم يقع (تكراراً) على هذا الوجه، ولا على (الوجه الأخرى) التي ذكرنا في جامع التفسير²⁵ وقال أبو جعفر الزبيري (ت 708 هـ) عنها أيضاً: “للسائل أن يسأل عن تكرير ما ورد فيها؟ والجواب أنها لم تتكرر فيها آية واحدة إذا اعتبرت أن كل آية منها تفيد من المعنى وتحرر مالا تفيده الأخرى بذلك التحرير، فكأنها متباينة الالفاظ لتباين معانيها مع جليل التشاكل وعلي التلاؤم والتناسب... فعبر عن هذه الأربعة بأربع آيات، فلا تكرار”²⁶ أما المفسرون المتأخرون فإنهم صاروا يجمعون أقوال من سبقهم في تفسير الآيات المذكورة، فتعددت الآراء وتشعبت المناقشات وصار على القارئ أن يطيل النظر ليصل إلى الرأي الراجح من خلال ما يورده أولئك المفسرون من أقوال واحتجاجات. وسوف أقف عند تفسيرهم للتكرار في سورة (الكافرون) وسورة الشرح، وأنقل ما قالوه باختصار شديد لا لتوضيح الآراء ولكن لإظهار المنهج.

قال الخازن (ت 725 هـ): “(لا أعبد ما تعبدون) في معنى الآية قولان:

أحدهما: أنه لا تكرار فيها ...

القول الثاني: حصول التكرار في الآية...²⁷ وقال أبو حيان: “وللمفسرين في هذه الجمل أقوال:

أحدهما: أنها للتوكيد ...

والثاني: أنه ليس للتوكيد، واختلفوا: فقال الأخفش: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، فزال التوكيد، إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير.

وقال أبو مسلم: (ما) في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، وفي الأخرين مصدرية، أي لا أعبد عبادتكم ...

وقال ابن عطية: ...

وقال الزمخشري: ...

والذي أختاره في هذه الجمل...²⁸ وقال البغوي (ت 516 هـ) في تفسير قوله تعالى: (فإن مع العسر يسراً): “... فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ النكرة فكان يسرين، كأنه قال: فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً آخر.

وقال أبو علي الحسين بن يحيى بن نصر الجرجاني، صاحب النظم: تكلم الناس في قوله: إن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة واليسر نكرة فوجب أن يكون عسر واحد ويسران، وهذا قول مدخول، إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحد (كذا) والسيف اثنان (كذا)،... فقال: إن مع العسر يسراً، فجازاه لا يحزنك ما يقولون فإن

25 - درة التنزيل ص 536

26 - ملك التأويل ص 1150 - 1151

27 - لباب التأويل 7 / 254

28 - البحر المحيط 8 / 521

مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً ... ثم ابتداءً فضلاً آخر من أمر الآخرة فقال : إن مع العسر يسراً ...²⁹ وقال الزمخشري (ت 538 هـ) : “...يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى... وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لا محالة ، والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر ، فهما يسران على تقدير الاستئناف”³⁰ وقال أبو حيان (ت 745 هـ) في تفسير الآية ذاتها : “والظاهر أن التكرار للتوكيد ، كما قلنا .

وقيل : تكرر اليسر باعتبار المحل ، فيسر في الدنيا ، ويسر في الآخرة .
وقيل : مع كل عسر يسران ، من حيث إن العسر معرّف بالعهد واليسر منكر ، فالأول غير الثاني ، وفي الحديث : لن تغلب عسر يسرين”³¹

التكرار اللفظي المنفصل

كان الاتجاه البارز لدى العلماء في تفسير هذا النوع من التكرار ، الى جانب ما يؤديه من معنى التوكيد والتقريب ، هو أن السياق استدعى تكرار الآية المكررة ، وأنها تتعلق بغير ما تعلقت به الآية الأولى ، فهو تكرار في الظاهر فقط ، أما في الحقيقة فإنه تأسيس لمعنى جديد .

قال ابن قتيبة (ت 276 هـ) : “ وأما تكرار (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإنه عدد في هذه السورة نعماءه ، وذكر آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها ... ومثل ذلك تكرار (فهل من مدكر) في سورة اقتربت الساعة ، أي هل من معتبر ومتعظ ؟ ”³²

وقال الخطيب الإسكافي (ت 420 هـ) : “ وإذا كان قوله : (ويل يومئذ للمكذبين) ردف كلام يدل على ما يجب تصديقه وترك التكذيب به ، وكانت المعاني مختلفة ، سلم من التكرار ”³³

وقال النسفي (ت 710 هـ) حول قوله تعالى : (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) : “ وقد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وأخرها ما كرر تقريراً لمعانيها في الصدور ، ليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت جديدة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبيتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ”³⁴ وقال القاضي البيضاوي (ت 791 هـ) وهو يفسر قوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ، “ كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب ، واستماع للدكار والاعتاظ ، واستئنافاً للتنبيه والاعتاظ لنلا يغلبهم السهو والغفلة ، وهكذا تكرير قوله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) و (ويل يومئذ

29 - معالم التنزيل 7 / 219 - 220

30 - الكشاف 4 / 267

31 - البحر المحيط 8 / 488

32 - تأويل مشكل القرآن ص 239

33 - درة التنزيل ص 513 ، وينظر : الكرمانى : أسرار التكرار ص 213

34 - مدارك التنزيل 3 / 195

للمكذبين) ونحوهما³⁵ وحاول عدد من العلماء تعليل الأعداد التي تكررت فيها آيات معينة ، مثل تكرر (فبأي آلاء ربكما تكذبان) إحدى وثلاثين مرة³⁶ لكن الفخر الرازي (ت 604 هـ) لم يجد في تلك التعليقات ما يقوم دليلاً على صحتها، ومن ثم قال : “ وأما هذا العدد الخاص بالأعداد توفيقية ، لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس ، والأولى ألا يبالغ الإنسان في استخراج الأمور البعيدة في كلام الله تعالى ”³⁷

(3) التكرار المعنوي

وهو ذكر القصة الواحدة أو الموضوع الواحد في أماكن متعددة بألفاظ مختلفة، فكأن القصة أو الموضوع يعاد ذكرهما المرة بعد الأخرى، فيكون في الظاهر نوعاً من التكرار، وكان علماء السلف قد تعرضوا له بالتفسير والتعليل ضمن معالجتهم لظاهرة التكرار في القرآن الكريم.

قال ابن قتيبة (ت 276 هـ) : “ وأما تكرار الأنبياء والقصص فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ... وكانت وفود العرب ترد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للإسلام ، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناً ومُكرّرةً لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويُلقبها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير ”³⁸

وقال ابن فارس (ت 395 هـ) : (فأما تكرير الأنبياء والقصص في كتاب الله - جل ثناؤه - فقد قيلت فيه وجوه. وأصح ما يقال فيه : إن الله - جل ثناؤه - جعل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله آيةً لصحة نبوة محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم - ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرّر ذكر قصة في مواضع، إعلماً أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاء، وبأي عبارة عبّر عنه، فهذا أولى ما قيل في هذا الباب)³⁹ وتحدث كل من الزركشي (ت 797 هـ) في كتابه (البرهان) والسيوطي (ت 911 هـ) في كتابه (الاتقان) عن تكرار قصص الأنبياء في القرآن، وقد ذكر الزركشي فوائد عدة لذلك، وأعاد السيوطي ذكر معظمها لكنه صرّح أنه اقتبسها من كتاب (المقتنص في فوائد تكرار القصص) لبدر الدين بن جماعة (ت 733 هـ) المذكور سابقاً.

ويمكن تلخيص ما ذكره بالنقاط الآتية⁴⁰

35 - أنوار التنزيل 2 / 449
 36 - ينظر : الخطيب الاسكافي : درة التنزيل ص 463 ، والكرماني : أسرار التكرار ص 198 ، والنسفي : مدارك التنزيل 4 / 214
 37 - التفسير الكبير 29 / 97
 38 - تأويل مشكل القرآن ص 232 - 234
 39 - الصاحبى ص 343
 40 - ينظر : البرهان 3 / 25 ، والاتقان 3 / 204

1 - إن في كل موضع تكررت فيه القصة زيادة شئ لم يذكر في الذي قبله، فكان القصة تتكرر والحقيقة أنها لا تتكرر، ولكن يرد في كل موضع جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق.

2 - مراعاة أحوال الصحابة في تباعد منازلهم، وعدم تمكن كثير منهم من متابعة تعلم سور القرآن كلها، فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم آخرين، وكذا سائر القصص، فأراد الله اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة لقوم وزيادة تأكيد لآخرين.

3 - ما سبق أن ذكره ابن فارس من أن الله تعالى جعل القرآن آية لصحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنه كرر ذكر القصة الواحدة بأساليب مختلفة، وأن القوم عجزوا عن الإتيان بمثله مع تنوع أساليبه، فكان ذلك اظهر لعجزهم. وفي نهاية هذا المبحث يمكن أن نلخص أهم ملامح معالجة علماء السلف لظاهرة التكرار في القرآن الكريم بما يأتي :

1 - أنهم تناولوا بالمبحث ثلاث صور من التكرار، وهي ما سميناه التكرار اللفظي المتصل، والمنفصل، والتكرار المعنوي.

2 - تعدد التفسيرات التي أعطوها للظاهرة الواحدة، لاسيما المتأخرين منهم، مما يدع القارئ في موقف يصعب عليه فيه ترجيح تفسير واحد منها.

3 - انقسموا في تعليل التكرار المتصل بين القول بدلالته على التوكيد والقول بأنه يدل على معنى جديد غير ما يدل عليه الأول. وكان الغالب عليهم في تعليل المنفصل أنه يدل على معنى جديد، فهو تكرار في الظاهر فقط. أما التكرار المعنوي فمنهم من علله بمراعاة حال الصحابة وأنه تكرار على الحقيقة، ومنهم من علله بتضمن كل موضع زيادة ليس في الموضوع الآخر، فيخرج بذلك عن كونه تكراراً.

4 - لم تفصل آراءهم في تعليل ظاهرة التكرار لأن ذلك لا يتسع له المجال في هذا البحث، واكتفت بإبراز الاتجاهات العامة لدراساتهم لهذه الظاهرة، حتى يكون ذلك تمهيداً لبحثها في كتابات الاستاذ النورسي .

المبحث الثاني

ظاهرة التكرار في القرآن الكريم من خلال رسائل النور

أولاً : استناد كتابات النورسي إلى القرآن الكريم

تجدر الإشارة أولاً إلى أن النورسي قد اتخذ من القرآن مصدراً للإلهام وموضوعاً للدراسة والبحث في الوقت نفسه، ففي مرحلة مبكرة من حياته الفكرية وجد نفسه في حيرة شديدة أمام تعدد الطرق التي يمكن أن يسلكها حتى اهتدى إلى طريق القرآن، يقول في كتابه (مكتوبات) : "وحيثما كنت اتقلب في هذا الحيرة الشديدة، إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي: إن بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلها، وشمس هذه الكواكب السيارة، إنما هو (القرآن

الكريم)، فالقرآن هو أسمى مرشد، وأقدس أستاذ على الإطلاق، ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن، واعتصمت به، واستمدت منه⁴¹ وصار النورسي يصرح : “ إن الأستاذ الحقيقي إنما هو القرآن ليس إلا ”⁴² ويقول : “ اعلم: أني أقول ما دمت حياً، كما قال مولانا جلال الدين الرومي، فُدس سره : (ما دمت حياً فأنا خادم القرآن ، وأنا تراب سبيل محمد المختار، صلى الله عليه وسلم) لأنني أرى القرآن منبع كل الفيوض، وما في آثاري من محاسن الحقائق ما هو إلا من فيض القرآن، فلهذا لا يرضى قلبي أن يخلو أثر من آثاري من ذكر نبذ من مزايا إعجاز القرآن ”⁴³

وقد أدت أستاذية القرآن للنورسي الى أن يعلن أن رسائل النور ما هي إلا تفسير قيم للآيات القرآنية⁴⁴ وأن كل ما في تلك الرسائل من محاسن ما هو إلا من فيض القرآن⁴⁵

وكان من مظاهر عناية النورسي بالقرآن حرصه الشديد على إظهار إعجاز القرآن وإثباته من وجوهه المتعددة التي بلغت عنده أربعين وجهاً⁴⁶، أفرد لها كتاب (المعجزات القرآنية) الذي فصل فيه خمساً من تلك الوجوه⁴⁷ ومن هنا جاء حديث النورسي عن التكرار في القرآن الكريم، فإنه عدّه معجزة من معجزات القرآن، الذي هو (بحر المعجزات)⁴⁸ ومما يصور لك مقدار شمولية القرآن لدى النورسي وجامعيته التي تستغرق عالمي الغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والإنس والجن، تعريفه للقرآن، الذي حرص على إيرادها في كل كتاب تحدث فيه عن القرآن ووجوه إعجازه، كما أنه أوردته حين تحدث عن معجزة التكرار في القرآن ، ولولا ضيق المجال لأوردته بنصه⁴⁹

ثانياً : أسس دراسة التكرار عند النورسي

يبدو أن النورسي واجه من دعاة الانسلاخ من الدين ومن الثقافة الإسلامية من يشكك في بلاغة أساليب القرآن، ويثير الشبهات حول تكرار الآيات في القرآن، فكان ذلك سبباً لعنايته بإظهار حكمة التكرار، كما كانت شبهات قدماء الملاحدة سبباً لعناية علماء السلف بهذا الموضوع.

وكان من أسس منهج النورسي في كتاباته أنه لا يطيل في إبراز الشبهات التي تثار بقدر حرصه على رد تلك الشبهات، يقول في كتابه (إشارات الإعجاز) : “ ومن المعلوم أن نهج رسائل النور هو أنه لا يترك أثراً سيئاً، في ذهن القارئ، إذ تجيب

41 - نقلا عن مقدمة المثنوي ص 25

42 - المثنوي ص 43

43 - المثنوي ص 156

44 - المعجزات القرآنية ص 166

45 - المثنوي ص 206

46 - ينظر : المعجزات الأحمديّة ص 25 و 155 و 186 و 201 و المثنوي ص 77 و 156 و 230 و 374 .

47 - المعجزات القرآنية ص 7

48 - المعجزات الأحمديّة ص 186

49 - ينظر : المعجزات القرآنية ص 8 ، و المثنوي ص 374 ، وإشارات الإعجاز ص 28 ، والمعجزات الأحمديّة ص 186

أجوبة قاطعة على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من دون أن تذكر الشبهة نفسها - بخلاف سائر العلماء - فتسد بهذا دخول أية شبهة كانت في ذهن القارئ⁵⁰. وقال في كتابه (المعجزات القرآنية) : " أما الشبهات فقد أجيب عنها أجوبة قاطعة من دون ذكر الشبهة نفسها، وذلك لئلا تتكرر الأذهان"⁵¹ ومن ثمَّ نجد النورسي حين تحدث عن التكرار في القرآن لم يطل الوقوف عندما أثير حول هذا الموضوع من شبهات، فقال في كتابه (المعجزات الأحمديّة) : "فانظر إلى بيان لمعة الإعجاز في تكرارات القرآن التي يتوهمها القاصرون نقصاً في البلاغة"⁵² وقال حين تحدث عن الموضوع في كتاب (الثمرّة) في المسألة العاشرة في الهامش : "فهني تزيل بإذن الله ما ينفثه أهل الضلالة من سموم الأوهام العفنة حول ظاهرة التكرار في القرآن"⁵³ ولا بد من الإشارة هنا إلى أن حديثنا عن الموضوع يعتمد على ما اطلعت عليه من مؤلفات النورسي العربية أو ما ترجم منها إلى العربية ، وعلى الرغم من أن ما اطلعت عليه لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من كتاباته التي تبلغ آلاف الصفحات إلا أنني أحسب أن المادة التي وقفت عليها حول ظاهرة التكرار توضح الملامح الرئيسية للموضوع عنده.

إن حديث النورسي عن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم جاء في عدة كتب من مؤلفاته التي وقفت عليها، منها :

(1) ما كتبه في (المتنوي النوري العربي)، وهو خلاصة مركزة في تفسير ظاهرة التكرار جاءت في ست نقاط⁵⁴. وأورد هذه النقاط أيضاً في كتابه (المعجزات الأحمديّة)⁵⁵

(2) ما كتبه في المسألة العاشرة من كتابه (الثمرة من شجرة الإيمان) ، تحت عنوان : (زهرة أمير داغ) ، وكتب تحت العنوان : "معجزة التكرار في القرآن الكريم : ردُّ شافٍ ومقنع على اعتراضات ترد حول التكرار في القرآن الكريم"⁵⁶. وقد جعل هذه المسألة الذيل الثاني لكتاب (المعجزات القرآنية)⁵⁷ ما ورد من إشارات موجزة أخرى متناثرة في المتنوي (النوري العربي) و (المعجزات الأحمديّة) و (إشارات الإعجاز) و (المعجزات القرآنية)⁵⁸

وتتسم معالجة الأستاذ النورسي للموضوع بالتركيز والاجمال على نحو ما يتضح في النقاط الست ، وعلى نحو ما صرح به هو نفسه في (زهرة أمير داغ) حيث قال : " كنت أعاني من حالة مضطربة بانسة حينما تناولت هذه المسألة بالكتابة، لذا اكتنفتها

50 - إشارات الإعجاز ص 23

51 - المعجزات القرآنية ص 5

52 - المعجزات الأحمديّة ص 87

53 - الثمرة ث 81 ، وينظر : المعجزات القرآنية ص 180 هامش (1) .

54 - المتنوي ص 375

55 - المعجزات الأحمديّة ص 187

56 - الثمرة ص 81 - 98

57 - المعجزات القرآنية ص 179 - 204

58 - ورد في المتنوي (ص 230 و 231) إشارة إلى أن النورسي بحث موضوع إعجاز القرآن وأشار إلى حكمة التكرار في كتابه (لمعات) لكنني لم أتمكن من الاطلاع عليه .

شئ من الغموض لكونها بقيت كما جاءت عفو الخاطر... ولقد اضطررت الى كتابتها في غاية الاجمال والاقتضاب، لما كنت من سوء التغذية وأوجاع الأمراض“⁵⁹ ويبدو أن عرض الموضوع من خلال التقسيمات التي مرت في المبحث الأول المتمثلة بتقسيم التكرار إلى لفظي ومعنوي، واللفظي إلى متصل ومنفصل - أمر غير متيسر ، لأن الأستاذ النورسي كان مشغولاً بالتفسير الشامل للظاهرة عن معالجة الأمثلة الجزئية، إلا ما وردت الأشارة إليه عَرَضاً من الآيات القرآنية المكررة ، فعلماء السلف أُتيح لهم استقصاء دراسة الآيات المكررة من خلال تفاسيرهم الشاملة للقرآن التي لا تدع آية من غير الوقوف عليها وبحث ما يتعلق بها، ولم يتح مثل هذا الأمر للنورسي الذي كتب تفسيراً لسورة الفاتحة وثلاثين آية من سورة البقرة فقط في تفسيره (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز)، ومن ثم فإننا سوف نواكب النورسي في عرضه للموضوع من خلال تحليل ما ورد في النقاط الست، وربط ذلك بما جاء في (زهرة أمير داغ) وغيرها من كتاباته .

ثالثاً : الفكرة الأساسية لتفسير ظاهرة التكرار لدى النورسي

يمكن للدارس أن يستخلص الفكرة الأساسية التي استند إليها النورسي في إظهار حكمة التكرار في القرآن الكريم من خلال كتاباته المتعددة ، وتقوم هذه الفكرة على تحديد وظيفة التكرار في الكلام بشكل عام . وهو يحصرها في وظيفتين: التوكيد والتأسيس ، أي أن اللفظ الثاني المكرر إما أن يؤكد معنى اللفظ الأول، وإما أن يؤسس معنى جديداً.

يتضح ذلك من حديث الاستاذ النورسي عن الكلمات التي تتكرر بعد الصلوات ثلاثاً وثلاثين مرة ، وهي : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، يقول : “ هذه الكلمات المباركة التي تتكرر بعد الصلوات شاهدت أنها ليست تكراراً ، بل تأسيس ، كما أشير إليه في الأبواب ، أو تأكيد في تأسيس معانيها متساندة لا متحدة “⁶⁰، فالذاكر حين يردد : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، يردد الألفاظ ذاتها ، لكن دلالتها في نظر النورسي تتجدد ، فمعانيها في نفس الذاكر ليست متحدة ، وقد عبر عن هذه الفكرة بعبارة أخرى هي أنها “ تأكيد في المعنى، تأسيس في المقاصد والثمرات “⁶¹ ولعل مما يوضح فكرة النورسي هذه التأمل في قول من ينادي رجلاً اسمه (زيد) مثلاً ، فيقول : زيد ، زيد ، زيد . فاللفظ الثاني والثالث لا يفيدان معنى جديداً، وإنما يدلان على ذات المعنى الذي يدل عليه اللفظ الأول، والنطق بهما يقصد به توكيد دلالة اللفظ الأول، لا تأسيس معنى جديد ، ومثل ذلك من يطرق الباب ثلاث طرقات ، فالطرقتان الثانية والثالثة هما مثل الطريقة الأولى شكلاً وغاية ، فهذا تكرار يفيد التوكيد.

أما التكرار الذي يفيد التأسيس فمثل الرجل يضرب الأرض بالمعول، فالضربة الثانية والثالثة وما بعدهما تشبه الضربة الأولى في الشكل ، لكنها تحقق شيئاً جديداً

59 - الثمرة ص 81 ، والمعجزات القرآنية ص 179 - 180

60 - المثنوي ص 141

61 - المثنوي ص 142

غير ما حققته الضربة الأولى. ومثل ذلك من يأكل الطعام بالملقعة، فهو حين يرفعها الى فيه يرفعها على نحو متماثل لكن ما يحققه من الرفعة الثانية والثالثة وما بعدهما هو غير ما يحققه في الرفعة الأولى. واستناداً الى هذه الفكرة صرح الاستاذ النورسي أنه “ لا تكرر إلا في الصورة”

62

وقال : “ فكل ما كُرِّرَ في القرآن الكريم إذن من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة ”⁶³ هذا هو الاتجاه العام لتفسير ظاهرة التكرار في رسائل النور، لكن المتأمل يمكن أن يلمح المعنى الثاني للتكرار وهو التوكيد في تفسير بعض صور التكرار في القرآن الكريم ، على نحو ما قال النورسي : “ ومن هذا الترداد للتثبيت ، والتكرير للتقرير في القرآن الحكيم ”⁶⁴ ولعل إشارة النورسي هذه تستند إلى بعض أمثلة التكرار في القرآن التي قصد بها التوكيد ، أو الى معنى التوكيد الذي يوحيه التكرار في نفس السامع الى جانب دلالاته الأخرى التي تحدث عنها .

رابعاً : حكمة التكرار في رسائل النور

أحسب أن في عرض النقاط الست التي ذكرها النورسي في تفسير ظاهرة التكرار وتحليل مضامينها في ضوء ما أورده في (زهرة أمير داغ) وغيرها ما يؤكد ما ذكرناه عن الفكرة الأساسية لتفسير الظاهرة، ويكشف عن بُعد نظر النورسي في ربط الأمثلة الجزئية للظاهرة بالتصور الكلي الشامل لأسرارها وحكمتها، على نحو يزيل ما قد علق في بعض الأذهان من شبهات حولها ، ويظهر ما في التكرار القرآني من حكمة وبلاغة وإعجاز .

(النقطة الأولى) : قال الأستاذ سعيد النورسي : “ اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذكر ، وكتاب دعاء ، وكتاب دعوة ، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، وليس كما ظنه القاصرون ، إذ الذكر يُكرَّرُ ، والدعاء يُرَدَّدُ ، والدعوة تُؤَكَّدُ .
إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد”⁶⁵
هذه النقطة تشير الى أن طبيعة موضوع القرآن تقتضي تكرار مضامينه، فلا عجب إذا ما جاءت بعض آياته أو جملة مكررة .

وكانت هذه الفكرة التي تضمنتها النقطة الأولى حاضرة في ذهن النورسي يذكرها كلما سنحت له فرصة ، فقال في المثنوي “ اعلم أن ما اقتضى تكرار بعض أجزاء القرآن ما اقتضى تكرار الأذكار والأدعية، إذ القرآن كما أنه كتاب حقيقة وشرعية ، وكتاب معرفة وحكمة ، كذلك هو كتاب ذكر ودعاء ودعوة، والذكر يُرَدَّدُ ، والدعاء يُكرَّرُ ، والدعوة تُؤَكَّدُ ”⁶⁶ وقال في (زهرة أمير داغ) : “ ان القرآن الكريم يُظهر نوعاً من إعجازه البديع في تكراره البليغ لجملة واحدة أو لقصة واحدة ، وذلك عند

62 - المعجزات الأحمديّة ص 188 ، والمثنوي ص 376

63 - المعجزات القرآنية ص 185

64 - المثنوي ص 316

65 - المعجزات الأحمديّة ص 187 ، والمثنوي ص 375

66 - المثنوي ص 414

إرشاده طبقات متباينة من المخاطبين الى معان عدة ، وعبر كثيرة في تلك الآية أو القصة ، فاقترضى التكرار حيث إنه كتاب دعاء ودعوة، كما انه كتاب ذكر وتوحيد ، وكل من هذا يقتضي التكرار .

فكل ما كرّر في القرآن الكريم إذن من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة " ⁶⁷

(النقطة الثانية) : " اعلم أن القرآن خطاب ودواء لكل طبقات البشر من أدنى الأذكياء الى اغبى الأغبياء ، ومن أتقى الأتقياء الى أشقى الأشقياء ، ومن الموفقين المجدين الفارغين من الدنيا التاركين للهوها الى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا. فإن لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت. فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سور ، لاسيما الطويلة منها ، حتى صارت كل سورة قرآناً صغيراً فسهل السبيل لكل أحد، وينادي مشوقاً : **(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُذكر)** دون أن يحرم أحداً ، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام " ⁶⁸

حكمة التكرار في هذه النقطة ترتبط بمراعاة حال المخاطبين ، وهي تشير الى ما سميناه بالتكرار المعنوي ، وجاءت هذه النقطة موضحة في مواضع أخرى من رسائل النور، فقد قال الأستاذ النورسي في (المثنوي) : " اعلم أن تضمين كل سورة سورة من القرآن مجمل ما في كل القرآن وسائر السور من المقاصد وأهم القصص، لأجل أن لا يحرم من يقرأ سورة فقط عما أنزل له التنزيل ، إذ في الملفين الأميّ والإبيّ ، ومن لا يتيسر له إلا قراءة سورة قصيرة فقط ، فمن هذه اللعة الإعجازية تصير السورة قرآناً تاماً لمن قرأها " ⁶⁹

وعاد النورسي الى هذه النقطة في (زهرة أمير داغ) موضحاً لها بقوله : " ثم إن كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقوه الى تلاوة القرآن كله ، بل يكتفون بما يتيسر لهم منه ، ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر ، ومن ثم تكرار القصص فيها بمثل تكرار أركان الإيمان الضرورية ، أي أن تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة وليس فيه إسراف قط . زد على ذلك فإن فيه تعليماً بأن حادثة ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم حادثة للبشرية وأجل مسألة من مسائل الكون " ⁷⁰

(النقطة الثالثة) : " اعلم أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفة في الأوقات، فالى بعض في كل أن كالهواء ، والى قسم في كل وقت حرارة المعدة كالماء، والى صنف في كل يوم كالغذاء، والى نوع في كل أسبوع كالضيء ، والى طائفة في كل شهر ، والى بعض في كل سنة كالدواء ، كلها في الأغلب ، وقس عليها. كذلك إن الحاجات المعنوية الإنسانية أيضاً مختلفة الأوقات، فالى قسم في كل أن ك (هو الله)،

67 - المعجزات القرآنية ص 184

68 - المعجزات الأحمديّة ص 187 ، والمثنوي ص 375

69 - المثنوي ص 208

70 - التمرة ص 93 ، والمعجزات القرآنية ص 197

والى قسم في كل وقت كـ (بسم الله) ، والى قسم في كل ساعة كـ (لا إله إلا الله) وهكذا فقس.

فتكرار الآيات والكلمات للدلالة على تكرر الاحتياج ، وللإشارة الى شدة الاحتياج إليها ، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه ، وللتشويق على الاحتياج ، ولتحريك اشتهاه الاحتياج الى تلك الأغذية المعنوية “⁷¹ إن حكمة التكرار التي تشير إليها هذه النقطة هو حاجة المقام إلى التكرار ، فالتكرار هو ما تقتضيه البلاغة وما يتطلبه حال المخاطبين . وقد زاد النورسي هذه النقطة إيضاحاً في مواضع أخرى من رسائل النور . فقال في المثنوي بألفاظ مقاربة لما في هذه النقطة ، لكني أنقل قوله لما فيه من زيادة إيضاح لمعنى بعض العبارات : “ وكما ان الإنسان في حياته المادية يحتاج في كل أن الى الهواء ، وفي كل وقت الى الماء ، وفي كل يوم الى الغذاء ، وفي كل أسبوع الى الضياء ، في الأكثر فتتكرر هذه الأمور لتكرر الحاجات ، فلا تكون تكراراً ، كذلك إن الإنسان بجهة حياته الروحانية ايضاً ، يحتاج الى أنواع ما في القرآن : فإلى بعض في كل دقيقة في أن سيال كـ : (هو الله) فيه يتنفس الروح ، والى بعض في كل ساعة كـ (بسم الله) ، والى بعض في كل وقت ، والى بعض في كل زمان مندرجاً بدرجات الاحتياج ، فيكرر القرآن على ما تقتضيه حياة القلب تكراره “⁷²

وقال في (زهرة أمير داغ) ، وهو يُبين هذه الحكمة ويوضحها بإيراد عدد من الآيات القرآنية المكررة ، ونحن مضطرون لإيراد هذا النص بطوله ، حتى نتضح للقارئ وجهة نظر الاستاذ النورسي في تفسير ظاهرة التكرار من كلامه مباشرة ، من غير أن يلقي عليها نظر الباحث ظللاً إضافية ، وذلك لما في كلامه من دقة وما في تعبيره من إجمال ، قال : “ إن تكرر الحاجة يستلزم التكرار ، هذه قاعدة ثابتة ، لذا فقد اجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة ، فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين ، فهو يكرر جملاً تملك ألفة النتائج ، ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حد لها ، وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقديره في القلوب ما سيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم ، وما سيصيبه من دمار وتفتت الأجزاء ، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلاً من هذا العالم الفاني .

ثم إنه يكرر تلك الجمل والآيات أيضاً عند إثباته أن جميع الجزئيات والكيليات ابتداء من الذرات الى النجوم إنما هي في قبضة واحد أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه .

ويكررها أيضاً عند بيانه الغضب الإلهي والسخط الرباني على الإنسان المرتكب للمظالم عند خرقه الغاية من الخلق ، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر ، وتؤجج غضبها على مقترفيها .

لذا فان تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لا يعد نقصاً في البلاغة قط ، بل هو إعجاز في غاية الروعة والإبداع ، وبلاغة في غاية العلو والرفعة ، وجزالة - بل فصاحة - مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال ، فعلى سبيل المثال :

إن جملة (بسم الله الرحمن الرحيم) هي آية واحدة تتكرر مئة وأربع عشرة مرة في القرآن الكريم ، ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نورا وضياء ، وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق ، فما من أحد إلا وهو بحاجة مسيسة الى هذه الحقيقة في كل حين ، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا ترتوي إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز ، بل هي أيضا كالهواء والضياء الذي يضطر إليه ويشتاق كل دقيقة .

وإن الآية الكريمة (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تتكرر ثماني مرات في سورة الشعراء ، فتكرر هذه الآية العظيمة التي تنطوي على الوفاء الحقائق في سورة تذكر نجات الأنبياء ، عليهم السلام ، وعذاب أقوامهم ، إنما هو لبيان أن مظالم أقوامهم تمس الغاية من الخلق ، وتعرض الى عظمة الربوبية المطلقة ، فتقتضي العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة ، مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجات الأنبياء ، عليهم السلام. فلو تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات اعجاز وإيجاز .

وكذلك الآية الكريمة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) المكررة في سورة الرحمن، والآية الكريمة (ويل يومئذ للمكذبين) المكررة في سورة المرسلات ، تصرخ كل منها في وجه العصور قاطبة وتعلن إعلاناً صريحا في أقطار السماوات والأرض أن كفر الجن والإنس وجحودهم بالنعم الإلهية ، ومظالمهم الشنيعة ، يثير غضب الكائنات ، ويجعل الأرض والسماوات في حنق وغيظ عليهم ، ويخل بحكمة خلق العالم والقصد منه ، ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها ، ويستخف بعظمة الألوهية وينكرها ، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من أمثال هذه الحقائق، ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها ، لو تكررتا ألوف المرات في خطاب عام موجه الى الجن والإنس لكانت الضرورة قائمة بعد ، والحاجة إليها ما زالت موجودة باقية ، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جلييلة ومعجزة جميلة ...

وهكذا نرى أمثال هذه الأسس فيما تشتمل عليه أنواع التكرار في القرآن الكريم ، حتى نرى أنه يعبر أكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة أو ضمناً - في صحيفة واحدة من المصحف وذلك حسب اقتضاء المقام ، ولزوم الحاجة الى الإفهام ، وبلاغة البيان ، فيهيح بالتكرار الشوق الى تكرار التلاوة ، ويمد به البلاغة قوة وسمواً من دون أن يورث سأمًا أو مللاً⁷³ .

(النقطة الرابعة) : " اعلم أن القرآن مؤسسٌ لهذا الدين العظيم المتين ولأساساته ، وأساسات لهذا العالم الاسلامي ، ومقلب لاجتماعيات البشر ومحولها ومبدلها . ولا بد للمؤسس من التكرير للتثبيت ، ومن التردد للتأكيد ، ومن التكرار⁷⁴ للتقرير والتأييد . وكذا إن القرآن فيه أجوبة لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة البشرية بألسنة الأقوال والأحوال "

(النقطة الخامسة) : (اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب الى الايمان بها ، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول الى معرفتها . فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة " ⁷⁵ إن بين النقطتين الرابعة والخامسة نوع من الترابط في المقصد والتكامل في المعنى، فهما تفسران التكرار من خلال بيان دور القرآن الكريم وموقعه في تثبيت حقائق الدين ، ومن خلال طبيعة المسائل العظيمة التي يسعى الى تثبيتها في قلوب الناس وترسيخها في عقولهم .

وأحسب أن إجابة النورسي عن تساؤل ورد في (زهرة أمير داغ) توضح مراده مما ورد في النقطتين السابقتين ، وهو قوله : " ما حكمة سوق القرآن ألوف الدلائل لإثبات أمور الآخرة وتلقين التوحيد وإثابة البشر ؟ وما السر في لفته الأنظار الى تلك الأمور صراحة وضمناً وإشارة في كل سورة ، بل في كل صحيفة من المصحف ، وفي كل مقام ؟

الجواب : لأن القرآن الكريم ينبه الإنسان الى أعظم إنقلاب يحدث ضمن المخلوقات ودائرة الممكنات في تأريخ العالم ، وهو الآخرة . ويرشده الى أعظم مسألة تخصه، وهو الحامل للأمانة الكبرى وخلافة الارض ، تلك هي : مسألة التوحيد الذي تدور عليه سعاداته وشقاوته الأبديتان . وفي الوقت نفسه يزيل القرآن سبل الشبهات الواردة دون انقطاع ، ويحطم أشد أنواع الجحود والإنكار المقيت .

لذا لو قام القرآن بتوجيه الأنظار الى الإيمان بتلك الانقلابات المدهشة وحمل الآخرين على تصديق تلك المسألة العظيمة الضرورية للبشر، نعم لو قام به آلاف المرات وكرر تلك المسائل ملايين المرات لا يعد ذلك منه إسرافاً في البلاغة قط ، كما أنه لا يولد سأمًا ولا مللاً البتة ، بل لا تنقطع الحاجة الى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم حيث ليس هناك أهم ولا اعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخرة.

فمثلاً : إن حقيقة الآية الكريمة : **(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير)** (البروج 11) هي بشرى السعادة الخالدة ترفها هذه الآية الكريمة الى الإنسان المسكين الذي يلاقي حقيقة الموت كل حين ، فتنفذه هذه البشرى من تصور الموت إعداماً أبدياً ، وتتجيه وعالمه وجميع أحبته من قبضة الفناء ، بل تمنحه سلطنة أبدية ، وتكسبه سعادة دائم، فلو تكررت هذه الآية الكريمة ملياراً من المرات لا يعد تكرارها من الإسراف قط، ولا يمس بلاغته شئ !

74 - المعجزات الأحمديّة ص 188 ، والمثنوي ص 376
75 - المعجزات الأحمديّة ص 188 ، والمثنوي ص 376

وهكذا ترى أن القرآن الكريم الذي يعالج أمثال هذه المسائل القيمة ويسعى لإقناع المخاطبين بها بإقامة الحجج الدامغة يعمق في الأذهان والقلوب تلك التحولات العظيمة والتبدلات الضخمة في الكون ، ويجعلها أمامهم سهلة واضحة كتبدل المنزل وتغير شكله . فلا بد أن لفت الأنظار إلى أمثال هذه المسائل، صراحة وضمناً وإشارة ، بألوف المرات ضروري جداً بل هو كضرورة الإنسان الى نعمة الخبز والهواء والضيء التي تتكرر حاجته إليها دائماً .

ومثلاً : ان حكمة تكرار القرآن الكريم (**والذين كفروا لهم نار جهنم**) (فاطر 36) ، (**إن الظالمين لهم عذاب أليم**) بأسلوب في غاية الشدة والعنف ، هي - مثلما أثبتناها في رسائل النور إثباتاً قاطعاً : إن كفر الإنسان إنما هو تجاوز - أيّ تجاوز - على حقوق الكائنات وأغلب المخلوقات ، مما يثير غضب السماوات والأرض ، ويملاً صدور العناصر حنقاً وغيظاً على الكافرين ، حتى تقوم تلك العناصر بصفع أولئك الظالمين بالطوفان وغيره ، بل حتى الجحيم تغضب عليهم غضباً تكاد تتفجر من شدته كما هو صريح الآية الكريمة: (**إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ**) (الملك 7 - 8) . فلو يكرر سلطان الكون في أوامره تلك الجناية العظمى (الكفر) وعقوبتها بأسلوب في غاية الزجر والشدة ألوف المرات ، بل ملايين المرات ، بل مليارات المرات لما عدّ ذلك إسرافاً مطلقاً ولا نقصاً في البلاغة . نظراً لضخامة تلك الجناية العامة وتجاوز الحقوق غير المحددة ، وبناء على حكمة إظهار أهمية حقوق رعيته سبحانه وأبراز القبح غير المتناهي في كفر المنكرين وظلمهم الشنيع . إذ لا يكرر ذلك لضلالة الإنسان وحقارته ، بل لهول تجاوز الكافر وعظم ظلمه ... فلأجل هذه الحكم كلها يكرر القرآن الكريم ما يكرر في غاية الحكمة ، مظهراً أن النذر القرآنية الكثيرة الى هذا القدر ، وبهذه القوة والشدة والتكرار حقيقة عظمية ، ينهزم الشيطان من توهمها باطلاً ، ويهرب من تخيلها عبثاً . نعم إن عذاب جهنم لهو عين العدالة لأولئك الكفار الذين لا يعيرون للنذر سمعاً⁷⁶ .

(**النقطة السادسة**) : " اعلم أن لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً ، ولكل قصة وجوهاً وأحكاماً وفوائد ومقاصد ، فتذكر في موضع لوجه ، وفي آخر لأخرى ، وفي سورة لمقصد وفي أخرى لآخر ، وهكذا . فعلى هذا لا تكرر إلا في الصورة⁷⁷ . إن حكمة التكرار التي تشير إليها هذه النقطة تتعلق بما سميناها بالتكرار المعنوي ، وهو يشمل قصص الأنبياء خاصة ، وكان الاستاذ سعيد النورسي قد أشار الى حكمة تكرار قصص الأنبياء في مواضع أخرى من كتاباته ، فقال في تفسيره : " فيجوز أن تكون قصة موسى مثلاً مذكورة في كل مقام لوجه مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها ، فإن قصة موسى ... أخذها القرآن بيده البيضاء فضة فصاغها ذهباً ، فخرّت سحرة البيان ساجدين لبلاغته " ⁷⁸

76 - الثمرة ص 90 - 94 ، والمعجزات القرآنية ص 193 - 196
77 - المعجزات الأحمديّة ص 188 ، والمثنوي ص 376
78 - إشارات الإعجاز ص 50

وقال في (زهرة أمير داغ) : “ومن المكررات القرآنية (قصص الأنبياء) عليهم السلام ، فالحكمة في تكرار قصة موسى عليه السلام - مثلاً - التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى ، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء ، إنما هي لإثبات الرسالة الأحمدية ، وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الأحمدية وصدقها ، حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من ينكر نبوتهم جميعاً ، فذكرها إذن دليل على الرسالة”⁷⁹

ويلمح الدارس ، فضلاً عما ورد في النقاط الست وما تعلق بها حول التكرار في القرآن ، عناية الأستاذ سعيد النورسي بتكرار التلاوة ، وملاحظته أن من مظاهر الإعجاز في القرآن الاشتياق إلى تلاوته وعدم السأم من تكرارها ، يقول : “بل إن العامي الجاهل الذي لا يفهم شيئاً من معاني القرآن الكريم يشعر بإعجاز القرآن من عدم سأمه في التلاوة ، فيحاور ذلك العامي الجاهل : إن الاستمرار على تلاوة القرآن لا يولد السأم قط ، بل تزيد كثرة تلاوته حلاوته”⁸⁰. وذكر أن من خواص القرآن : “حرص الملايين من الناس في كل عصر على حفظه عن ظهر قلب بشوق ومتعة ، وعدم السأم من تلاوته الكثيرة رغم تكراراته”⁸¹.

فالقرآن الكريم “كلما شاب الزمان شب ، وكلما تكرر حلاً”⁸². و “كلما تكرر تلاً وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه”⁸³

خاتمة البحث ونتائجه

(1) دَرَسَ علماء السلف - رحمهم الله تعالى - ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ، لبيان حكمة التكرار ، وإظهار أن التكرار أسلوب شائع في العربية ومظهر من مظاهر الفصاحة فيها ، والرد من خلال ذلك على الشبهات التي أثارها الملاحدة حول تلك الظاهرة .

(2) وتناولوا بالتفسير والتعليل التكرار اللفظي بنوعيه المتصل والمنفصل والتكرار المعنوي ، وعللوا التكرار اللفظي المتصل بدلالته على التوكيد أو الدلالة على معنى جديد يحدده السياق ، وعللوا التكرار المنفصل بتعدد المتعلق ، والتكرار المعنوي بالدلالة على معنى جديد لم يرد في سياق الموضوع الأول .

(3) تناول الأستاذ سعيد النورسي - رحمه الله تعالى - ظاهرة التكرار بالدراسة والبحث ، رغم ما كانت تزدهم به حياته من مشكلات ، وما كان يعانيه من متاعب في جهاده الطويل في تثبيت حقائق الإيمان في النفوس ، وقد جاءت معالجته للموضوع تتسم بالتركيز والإجمال بشكل عام .

79 - الثمرة ص 93 ، والمعجزات القرآنية ص 196

80 - المعجزات الأحمدية ص 157

81 - الثمرة ص 84 ، والمعجزات القرآنية ص 183 - 184

82 - إشارات الإعجاز ص 277

83 - إشارات الإعجاز ص 49

- (4) وضع الاستاذ سعید النورسي تفسيراً عاماً لظاهرة التكرار في القرآن الكريم وفي ألفاظ العبادة والذكر ، يقوم على أن كل تكرار إنما يؤسس معنى جديداً ، وأن كل ما كرر في القرآن الكريم من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة .
- (5) بيّن الاستاذ النورسي أن طبيعة موضوع القرآن وغايته والمقاصد الأساسية التي يسعى الى ترسيخها في القلوب وتثبيتها في النفوس تستوجب إعادة ذكرها وتكرارها مرات ومرات ، فلو تكررت الوف المرات ، بل ملايين المرات ، بل مليارات المرات لما عدّ ذلك إسرافاً مطلقاً ولا نقصاً في البلاغة !
- (6) أشار الأستاذ النورسي إلى أن حال المخاطبين ، وتنوع استعداداتهم، يستدعي تضمين سور القرآن مقاصده الأساسية من التوحيد والنبوة والأخرة ، حتى يحظى كل منهم بنصيب منها إذا لم تتح له ظروفه لإقراء بعض سور القرآن .
- (7) إن من داوعي التكرار الأساسية في القرآن الكريم لدى الأستاذ النورسي تجدد حاجات الإنسان الروحية فكما أن له حاجات مادية تتطلبها حياته في أوقات متكررة ، فكذلك له حاجات معنوية تتطلبها حياته الروحية، قد استجاب القرآن لها فهو يكررها للدلالة على شدة الاحتياج إليها.
- (8) فسّر الاستاذ النورسي تكرر قصص الأنبياء في القرآن الكريم بتنوع المعاني التي تدل عليها القصة الواحدة في كل موضع ترد فيه ، فتذكر في موضع لوجه، وفي آخر لوجه أخرى ، وفي سورة لمقصد وفي سورة لآخر ، وهكذا .
- (9) لقد أوضحت أجزاء رسائل النور حكمة التكرار في القرآن الكريم، وبيّنت حججها وأثبتت مدى ملائمة التكرار وانسجامه مع البلاغة، ومدى حسنه وجماله الرائع... وهكذا فلأن حقائق القرآن المكررة تملك هذه القيمة الراقية وفيها من الحكم ما فيها ، فالفطرة السليمة تشهد أن في تكراره معجزة معنوية قوية وواسعة ، إلا من مرض قلبه وسقم وجدانه بطاعون المادية ، فتشمله القاعدة المشهورة :
- قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدي وينكر الفم طعم الماء من سقم (*)⁸⁴
- (10) وأخيراً فإن طريقة النورسي في معالجة ظاهرة التكرار في القرآن تتجاوز بالإنسان عتبة التردد والحيرة في تفهم حكمة التكرار ، وتضعه أمام تصور شامل للتكرار في القرآن الكريم وفي ألفاظ الأدعية والأذكار أيضاً ، وتجعله يردد معه : لو تكررت هذه الآية أو تلك العبارة أوف المرات ما كان ذلك نقصاً في البلاغة ولا مخلأً بالفصاحة . كما أن الاستمرار على تلاوة القرآن لا يولد السأم ولا يبعث على الملل . فكلما تكرر القرآن تلاً وحلاً ، وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه ، لأنه (إن هو إلا وحي يوحى)
- وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

مصادر البحث

- * الباقلائي (أبو بكر محمد بن الطيب) : إجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة 1981 م
- * البغدادي (إسماعيل باشا) : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين ، تصحيح محمد شرف الدين يالتقيا ورفعت بيلكه الكليسي استانبول 1945 ، 1947 م
- * البيغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء) : معالم التنزيل ، بهامش تفسير الخازن ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1381 هـ
- * البيضاوي (أبو سعيد عبدالله بن عمر) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المسمى تفسير البيضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1408 هـ = 1988 م
- * الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) : فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية 1373 هـ = 1954 م
- * أبو حيان (محمد بن يوسف) : البحر المحيط ، دار الفكر ، الطبعة الثانية 1398 هـ = 1978 م
- * الخازن (علي بن محمد البغدادي) : لباب التأويل في معاني التنزيل ، المسمى تفسير الخازن ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1381 هـ
- * الخطابي (حمد بن محمد) : بيان إجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغول سلام ، ضمن (ثلاث رسائل في إجاز القرآن) دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية 1387 هـ = 1968 م
- * الخطيب الإسكافي (محمد بن عبدالله) : درة التنزيل وغرة التأويل ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط 1 1393 هـ = 1973 م
- * الرضي (محمد بن الحسن الاسترأبادي) : شرح شافية ابن الحاجب ، تحقيق محمد الزفزاف وآخرين ، مطبعة مجازي بالقاهرة .
- * الزبيري (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم) : ملك التأويل القاطع بذوي الاحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل ، تحقيق سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1403 هـ = 1983 م
- * الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله) : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1972 م
- * الزركلي (خير الدين) : الأعلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة ، بيروت 1980 م
- * الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر .
- * السكاكي (أبو يعقوب بن محمد) : مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1403 هـ = 1983 م
- * سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) : الكتاب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة .
- * السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، الطبعة الأولى ، القاهرة 1967 م
- * السيوطي (السابق) : المزهري في علوم اللغة ، تحقيق محمد احمد جاد المولى وآخرين ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
- * ابن فارس (احمد بن فارس) : الصحاح في فقه العربية وسنن العرب في كلامها ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1977 م
- * الفخر الرازي (محمد بن عمر) : التفسير الكبير المشتهر بمفاتيح الغيب ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة 1405 هـ = 1985 م .
- * الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) : معاني القرآن ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، القاهرة .
- * ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم) : تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ط 3 ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة 1980 م

600 • المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي

- * القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن) : الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، ط 1405 هـ = 1985 م
- * الكرمانى تاج القراء (محمود بن حمزة) : أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق عبدالقادر احمد عطا، دار بو سلامة ، تونس 1983 م
- * محمد الحسنائى : الفاصلة في القرآن ، المكتب الاسلامي ، بيروت 1983 م
- * المرتضى (الشريف علي بن الحسين) : أمالي المرتضى ، تحقيق أحمد الشنقيطي ، مطبعة السعادة بمصر 1325 هـ = 1907 م
- * ابن منظور (محمد بن مكرم) : لسان العرب ، طبعة بولاق .
- * النسفي (عبدالله بن أحمد) : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المسمى تفسير النسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- * النورسي (الاستاذ سعيد ، بديع الزمان) : أشارات الاعجاز في مظان الايجاز ، تحقيق أحسان قاسم الصالحي دار الأنبار ، الطبعة الاولى ، بغداد 1409 هـ = 1989 م
- * النورسي : المثنوي العربي النوري ، تحقيق أحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، مطبعة الزهراء ، الموصل 1409 هـ 1988 م
- * النورسي : المعجزات الأحمدية ، على صاحبها افضل الصلاة وأتم التسليم ، ترجمة أحسان الصالحي ، ط 2 1411 هـ 1990 م
- * النورسي : المعجزات القرآنية ، ترجمة أحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى 1410 هـ = 1990 م
- * ابو هلال العسكري (الحسن بن عبدالله) : كتاب الصناعتين ، تحقيق على بن محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1971 م .

حكمة التكرار في القرآن الكريم من خلال رسائل النور

د. أحمد خالد شكري^P

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

فما لا شك فيه أن الإمام المصلح المجدد بديع الزمان سعيد النورسي، صاحب يد طولى وعطاء مميز في خدمة هذا الدين العظيم، ولا يملك من يقرأ سيرة حياته إلا أن يشهد له بأنه الرجل الفذ في تلك المرحلة العصيبة، وأنه سراج النور في فترة طغت فيها الظلمات، وأريد لتركيا أن تتسلخ عن دينها وتراثها، وكان لمواقفه العظيمة البطولية، وكلماته المخلصة أثناء محاكماته الظالمة أثر كبير على كل من يسمع خطابه أو يصل إليه¹، وتذكرنا مواقفه هذه بأمثاله من الدعاة الشامخين الذين وقفوا في وجه الظلم، وكانت كلماتهم نورا للمهتدين ونارا على الظالمين.

وبوفاة النورسي لم تمت دعوته بل ازدادت اتساعا، وكثر أتباعه داخل تركيا وخارجها، وتيسرت السبل أمام انتشار أفكاره، ونشر رسائله بلغات مختلفة، وتم إصدار (كليات رسائل النور) باللغة العربية في حلة قشبية وسلسلة أنيقة، رائعة في مظهرها كما هو مخبرها، كما كتب حول النورسي ورسائله وفكره ومنهجه ودعوته بحوث كثيرة، ورسائل علمية متعددة، ومقالات صحفية، ومؤتمرات متخصصة، كل هذا يشهد للنورسي بالمكانة المرموقة والمنزلة المميزة.

وقد سعدت بالقراءة في رسائل النور، وكتابة أكثر من بحث حول النورسي، ولما دعيت إلى المشاركة في مؤتمر: نحو فهم عصري للقرآن أنموذج رسائل النور،

^P لد في عمان سنة 1960 وأكمل حفظ القرآن الكريم سنة 1977 ونال شهادة في التجويد . تخرج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة 1983 وحصل على شهادة الماجستير سنة 1987 والدكتوراه سنة 1990 من الجامعة نفسها . له مؤلفات في الفصص والمسرحيات كما نشرت له مقالات علمية كثيرة . في سنة 1994 أصبح مستشارا في جمعية القرآن الكريم. انتدب الى امريكا للدعوة

¹ انظر مثلا: الشعاعات/426، وصيقل الإسلام/439-474 (جميع رسائل النور التي رجعت إليها في هذا البحث من إصدار: دار سوزلر في استانبول، ترجمة وتحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط الأولى، 1995).

بتنظيم مؤسسة الثقافة والعلوم، ومؤسسة النور للتربية والعلوم في استانبول، تأملت في محاور البحث المطلوبة، ووجدت في نفسي الرغبة لتسطير أوراقي في محور: (حكمة التكرار في القرآن) فكان هذا البحث الذي أرجو أن ينال القبول، وأن يحظى بالرضى، والله موفق لما يحب ويرضى، وله الحمد في الأولى والأخرى.

تمهيد

" إن رسائل النور تفسير للقرآن الكريم، تفسير نابع من القرآن مدعم بالبراهين، لذا فإن تكرارات ضرورية مساقاة لحكمة ومصلحة كالتكرارات القرآنية اللطيفة، الحكيمة، الضرورية، والتي لا تسئم القارئ أبداً.

وكذا لأن رسائل النور هي دلائل كلمة التوحيد التي تكرر باستمرار على الألسنة في ذوق وشوق دون سأم، فإن تكراراتها الضرورية لا تعدّ نقصاً فيها، ولا تضجر القارئ ولا ينبغي لها أن تضجر"².

نحنا الإمام النورسي في رسائله منحى مميزاً في التأليف، وقد أكثر من التأكيد على أن هذه الرسائل تفسير للقرآن، ومن يتأمل فيها يجد التفسير ماثلاً في ثناياها، متداخلاً مع كثير من الأفكار والآراء، وقلما تخلو صفحة من صفحات هذه الرسائل من آية أو آيات³.

وكثيراً ما جعل النورسي مفتاح حديثه في إحدى الرسائل آية من كتاب الله تعالى، وقد تكون محورا لهذه الرسالة، وقد يكون موضوع الرسالة مقتبساً منها، وقد تكون لمجرد التبرك بها والاستفتاح⁴.

ففي رسائل النور كمّ من التفسير والتعليق على الآيات، وبحث في جملة من علوم القرآن⁵، ومن بين الموضوعات التي اعتنى بها النورسي وتكلم عنها في أكثر من موضع: التكرار في القرآن الكريم، وقد قمت في بحثي هذا بتتبع كلام النورسي عن التكرار في القرآن، فوجدته ينحصر في أمرين هما:

- الحديث عن الحكمة من وجود التكرار في القرآن الكريم.

- تناول ألفاظ قرآنية مكررة في مواضع متعددة بالتوضيح والتبيين.

وقد وجدت لزاماً عليّ قبل الشروع في توضيح هذين الأمرين أن أبين معنى التكرار، وأن أعرض آراء عدد من العلماء فيه، وهل في القرآن تكرار أم لا؟

المبحث الأول

معنى التكرار

هذا اللفظ من أكثر الألفاظ استعمالاً وتكراراً في حياتنا اليومية، وظاهرة التكرار بمعناه الواسع تكاد توجد في كل شيء حولنا، ففي كثير من كلماتنا وجملنا تتكرر الحروف، كما يكثر استعمال ألفاظ معينة فيتكرر ورودها على الألسنة، وتتكرر

2 الشعاعات/95.

3 انظر مثلاً: الكلمات/832، والمكتوبات/463 و476، والملاحق/220 و221، والشعاعات/180 و214 و225 و470 و503 و684 والمثنوي/156.

4 انظر مثلاً: الكلمات/195، واللمعات/211 و299، والمكتوبات/339، والمثنوي/362.

5 انظر بحثي: علوم القرآن والتفسير في رسائل النور، ضمن كتاب: بديع الزمان النورسي فكره ودعوته، 71-97، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي- مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور- تركيا.

مشاهد معينة على كل امرئ منا، وحين نرجع إلى علمائنا لنبحث في معنى هذا اللفظ نجد: "كرر الشيء أعاده مرة بعد أخرى"⁶، أو: "الإتيان بالشيء مرة بعد أخرى"⁷، أو: "كرر: ردد أو أعاد الشيء مرة بعد أخرى أو مرارا كثيرة"⁸، ومنهم من زاد: "إعادة الشيء لفائدة"⁹.

والمصدر القياسي للفعل ككرر: التكرير، والتكرار مصدر سماعي، أو بناء على وزن تفعال يراد به التكاثر والمبالغة من الفعل ككرر¹⁰، وقد فرّق عدد من العلماء بين اللفظين، ومال عدد آخر إلى عدم التفريق بينهما – وهو الذي سأسير عليه في هذا البحث – قال التهانوي: "التكرير هو ذكر الشيء مرة فصاعدا بعد أخرى، وكذا التكرار"¹¹.

ويجد من يطالع في كلام أهل العلم تباينا في توسيع مدلول التكرار أو حصره، ويمكن القول إن الاتجاه الأكثر يميل إلى توسيع مدلول التكرار ليدخل فيه تكرار اللفظ أو معناه، لفائدة أو لغير فائدة، ويدخل فيه تكرار اللفظ والجملة والنص، وهذا ابن رشيقي يقسم التكرير إلى ثلاثة أنواع:

- ما تكرر لفظه ومعناه متحد.
 - ما تكرر لفظه ومعناه مختلف.
 - ما تكرر معناه دون لفظه¹². وتبعه في هذا التقسيم عدد من العلماء¹³.
- وذهب عدد من العلماء إلى أن التكرار ستة أنواع هي:
- 1 – تكرار مفيد يوجد في اللفظ والمعنى، يدل على معنى واحد، والمقصود به غرضان مختلفان.
 - 2 – تكرار مفيد يوجد في اللفظ والمعنى، يدل على معنى واحد، والمقصود به غرض واحد.
 - 3 – تكرار مفيد يوجد في المعنى دون اللفظ، يدل على معنيين مختلفين.
 - 4 – تكرار مفيد يوجد في المعنى دون اللفظ، يدل على معنى واحد فقط.
 - 5 – تكرار غير مفيد، يوجد في اللفظ والمعنى.
 - 6 – تكرار غير مفيد، يوجد في المعنى دون اللفظ¹⁴.

6 ابن منظور، لسان العرب، مادة: ككرر.
 7 الجرجاني، الشريفة علي بن محمد، التعريفات، 41.
 8 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة: ككرر.
 9 الطيبي، حسين بن محمد، التبيين في علم المعاني والبديع والبيان، 360.
 10 خلف الجرادات، ظاهرة التكرير في التراكيب النحوية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 21.
 11 التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 1237/3.
 12 ابن رشيقي الفيرواني، العمدة في صناعة الشعر، 72/2.
 13 ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 344/2 و345.
 ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، 111 و112.
 الزركشي، البرهان في علوم القرآن 10/3.
 مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 193.
 14 العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 177/2-190، مطبعة المقتطف بمصر، 1914.
 ابن الأثير، المثل السائر، 3/3-40.
 ابن عابدين، التقرير في التكرير، 26-28 و36.

ويمكن القول إن هذا هو المعنى الواسع أو العام للتكرار، ويشمل: الترادف، والتماثل، والتشابه، والإطناب، والتوكيد، وعليه فلا يعد التكرار معيباً إلا إذا كان لغير فائدة، وذكر الذاهبون إلى هذا الرأي فوائد التكرار وأسبابه والدوافع إليه، وأهميته لتحسين الكلام وتوضيح المقصود¹⁵.

أما الاتجاه الآخر فيميل إلى تضيق معنى التكرار وحصره في إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، فإذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو أعيد اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص، فلا يكون ذلك تكراراً¹⁶، وعليه يكون التكرار في الكلام معيباً غير مقبول، ولا يدخل فيه التوكيد ولا تشابه الألفاظ وتماثلها، وإن أعيد اللفظ في سياق آخر فليس من التكرار في شيء، وقد قال بهذا الرأي أو مال إليه عدد من العلماء، فهذا الطبري ينفي التكرار في الآيات المتقاربة أو المتتابعة بقوله: "وغير موجود في شيء من كتاب الله آيتان متجاورتان مكررتان بلفظ واحد ومعنى واحد، لا فصل بينهما من كلام يخالف معناه معناهما، وإنما يأتي بتكرير آية بكمالها في السورة الواحدة، مع فصول تفصل بين ذلك، وكلام يعترض به بغير معنى الآيات المكررات، أو غير ألفاظها"¹⁷، وأكّد سيد قطب نفي التكرار في القرآن بقوله: "ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في سورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد توديه، ينفي حقيقة التكرار"¹⁸. وتابعه محمد قطب - شقيقه - فقال: "إن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وإنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير والتربية والتوجيه، بهذا القدر المعجز من التنويع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن كله، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع"¹⁹. وبعد عرض هذين الرأيين أنتقل إلى النظر في عبارات النورسي حول التكرار، حيث يظهر أن النورسي كان يرحح القول الأول، فهو يتحدث عن التكرار في القرآن على أنه أحد وجوه إعجازه²⁰، وأنه موجود في آيات العقيدة، والترغيب والترهيب، والقصص، كما تعرض لبيان الحكمة من وجوده في القرآن²¹، وإن كان قد علق أكثر

د. محمود السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، 9 و10، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.
د. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، 338/2 و339، المجمع العلمي العراقي، 1986.

15 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 33-11/3.

د. محمود السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، 21-30.

د. عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، 117-197، عالم الكتب، ط 2، 1986.

16 د. فضل حسن عباس، قضية التكرار في كتاب الله وصلتها بالإعجاز، 5، منشور في مجلة كلية الشريعة، جامعة الكويت، العدد 7، 1987، وانظر: خلف الجرادات، ظاهرة التكرير في التراكيب النحوية، 71.

17 الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، 64/1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط 3، 1968.

18 سيد قطب، في ظلال القرآن، 64/1، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط 7، 1971.

19 محمد قطب، دراسات قرآنية، 261، دار الشروق، ط 2، 1980.

20 الكلمات/528، والشعاعات/305.

21 للمعات/114 و119 و420، والمكتوبات/267 و268، وغيرها.

من مرة بعد حديثه عن التكرار بقوله: " فعلى هذا لا تكرر إلا في الصورة"²²، وقوله: " هذا بناء على تسليم التكرار "²³، ويظهر هذا التذييل ميل النورسي إلى القول بالرأي الثاني أحياناً، إلا أن غالب كلامه يصب في تأكيد اقتناعه بالقول الأول، وأنه يرى وجود التكرار في القرآن، وقد بيّن في أكثر من موضع في رسائله الحكمة من التكرار في القرآن، وهو ما سيتم بيانه في المبحث التالي بإذن الله.

المبحث الثاني

حكمة التكرار في القرآن

ذكر النورسي رأيه في الحكمة من وجود التكرار في القرآن الكريم، وكان أحياناً يذكر عدة نقاط متتالية، ويذكر بعضها أحياناً أخرى، وقد يتداخل كلامه في بعض المواضع، وفي هذا المبحث عرض لرأيه في الحكمة من التكرار في القرآن، وقد رأيت أن أتبع كل نقطة منها بالتوضيح والتعليق والتأكيد مباشرة، مع المحافظة على تسميته لها بالنقاط²⁴، واجتهادي في اختيار عناوينها.

النقطة الأولى: التقرير والتوكيد

يرى النورسي أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي يحتوي على الذكر والدعاء والدعوة، وتحتاج هذه الأمور إلى أن تكرر لتؤكد وتقرر، قال: " اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذكر وكتاب دعاء وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، وليس كما ظنه القاصرون، إذ الذكر يكرر، والدعاء يردد، والدعوة تؤكد، إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد"²⁵. وقال: " إن التكرير للمسائل الإيمانية بأساليب شتى له حكم كثيرة كالتقرير والإقناع والتحقيق"²⁶.

وقال: " وقد جاء مكرراً ليقرر، ومردداً ليحقق قصصاً وأحكاماً، مع أنه لا يمل تكراره، ولا يزيل عودته ذوقه، ولا يُسام ترداده، كلما كرر حقق وقرر، بل ما كررته تحلو وتفوح أنفاس الرحمن منه – إن المسك ما كررته يتضوع – وكلما استعدته استلذته، إن كان لك ذوق سليم بقلب غير سقيم، والسر فيه أنه قوت و غذاء للقلوب، وقوة وشفاء للأرواح، والقوت لا يمل تكراره، فمألوفه أنس وألذ، خلاف التفكه الذي لذته في تجده، وسأتمه في تكرره"²⁷.

وقال: " ومن هذا السر أيضاً التردد للتثبيت، والتكرير للتقرير في القرآن الحكيم"²⁸.

هذه العبارات المتعددة تبين أن النورسي يرى أن التقرير والتأكيد هي الحكمة الأولى من حكم التكرار في القرآن الكريم، وقد ذهب إلى ذلك كثيرون، قال ابن

22 الكلمات/268، والمثنوي/71.

23 إشارات الإعجاز/39.

24 المثنوي/70.

25 الكلمات/265، والمكتوبات/267، والمثنوي/70.

26 للمعات/42.

27 المثنوي/230.

28 المثنوي/322.

عابدين: "واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له وتشبيها من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك"²⁹، وقال: "وقد قلنا إن التكرير إنما يأتي لما أهم من الأمر الذي بصرف العناية إليه يثبت ويتقرر"³⁰. وقال الزركشي: "القسم الرابع عشر: التكرار على وجه التأكيد... وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها، ولا سيما إذا تعلق بعبه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتهما إذ أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيدا"³¹. وعبارات العلماء في هذا كثيرة³²، وفي كتب التفسير نجد عبارات مشابهة، ففي تفسير قوله تعالى: {لن يضروا الله شيئا} قال القرطبي: "كرر للتأكيد"³³، وقال في تفسير: {وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} "وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيدا وإشباعا للمعنى"³⁴، وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} "والشرعة والمنهاج لفظان لمعنى واحد أي طريقا، وكرر للتوكيد كما قال الشاعر: وهند أتى من دونها النأي والبعد"³⁵. فهذه النقطة الأولى تكاد تكون موضع إجماع، ولذا قدمها النورسي، والواقع وكلام السادة العلماء يشهد لهذا.

النقطة الثانية: التيسير على قارئ القرآن

"واعلم أنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت، فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر السور، لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآنا صغيرا، فسهل السبيل لكل أحد دون أن يحرم أحدا، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام"³⁶. وقال: "لأن كثيرين لا يستطيعون قراءة كل القرآن، فيكون في بعض ما يقرأون ما يغني عن الباقي لتكراره"³⁷. وقد أشار إلى هذه الحكمة عدد من العلماء، منهم ابن قتيبة إذ قال: "كانت وفود العرب ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن، فيكون ذلك كافيا لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب..."³⁸.

29 ابن عابدين، محمد أبو الخير، التقرير في التكرير، 27 و28.

30 ابن عابدين، التقرير في التكرير، 33.

31 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 8/3 و9.

32 أورد كثيرا منها: خلف الجرادات في: ظاهرة التكرير في التراكيب النحوية، 63-88.

33 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 286/4، والجملة المفسرة من الآية 177/أل عمران.

34 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 177/2، والجملة المفسرة من الآية 157/البقرة.

35 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 502/3، والجملة المفسرة من الآية 48/المائدة.

36 الكلمات/265، والمكتوبات/268، وفي المثنوي/70 حتى "سهل السبيل لكل أحد"

37 الكلمات/536، والشعاعات/313.

38 ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، بتحقيق السيد أحمد صقر، 181.

ومع أن ما كرر من آيات القرآن الكريم وموضوعاته لم يكن بالألفاظ نفسها، وفي كل مرة إضافة جديدة أو تبيين لقضية – وسيأتي كلام النورسي في هذا – إلا أن عامة قارئ القرآن لا تعنيهم هذه النكات والدقائق كثيرا، فحسبهم الإمام بأصل المسألة وتكوين فكرة يسيرة عن الموضوع، ولذا كان لهم في دراسة بعض سور القرآن الكريم ما يفهمهم ويسد حاجتهم، فلم يجرموا من فهم مقاصد القرآن العامة، وموضوعاته الرئيسية.

أما تعبير النورسي بـ " قرآنا صغيرا " فقد يعترض عليه بما روي عن بعض السلف من كراهة وصف السورة بأنها صغيرة، فعن أبي العالية أنه قال لرجل سمعه يصف سورة بأنها صغيرة: " أنت أصغر منها، وأما القرآن فكله عظيم"³⁹، وقد ورد عن بعضهم وصف السورة بأنها صغيرة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: " ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة"⁴⁰، ولا يخفى أن مقصود النورسي بهذا التعبير تقريب الصورة للقارئ، وتمثيل سور القرآن الكريم الطوال بأن كل واحدة تقوم مقام القرآن كله لاحتوائها غالبا على أكثر مقاصده.

النقطة الثالثة: مراعاة تكرر الحاجات

" اعلم أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفة في الأوقات، كذلك الحاجات المعنوية الإنسانية أيضا مختلفة الأوقات، فإلى قسم في كل أن ك (هو، الله) للروح- كحاجة الجسم إلى الهواء- وإلى قسم في كل ساعة ك (بسم الله) وهكذا فقس. فتكرار الآيات والكلمات إذن للدلالة على تكرر الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها، ولتنبه عرق الاحتياج وإيقاظه وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك اشتهاه الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية"⁴¹.

أجاد النورسي في الدخول إلى هذه النقطة حين بدأ بقياس حاجات الإنسان المعنوية في تنوعها على تنوع حاجاته الجسمانية، فالروح تحتاج إلى الغذاء، وغذاؤها في ذكر الله، وحاجتها إليه قوية جدا، وكلما زاد مقدار الغذاء للروح بذكر الله ارتقى الإنسان وانتفع، ولذا وجد في القرآن الكريم تكرر ذكر اسم الله تعالى وصفاته. ويستلزم تكرر حاجات الناس إلى تبيين أمورهم والإجابة على أسئلتهم، تكرر الإرشاد والتوضيح، كما يقتضي نسيان الإنسان للأساسيات والمهمات أن يذكر بها دائما وأن يلفت نظره إليها، ولذا كان تكرير التصوير لما سيحدث للكون من دمار، وتبيين مظاهر عظمة الله وسيطرته على هذا الكون، وعظيم غضبه على الكافرين والظالمين⁴²، ومع هذا التذكير والتكرار ينسى كثير من الناس أمر الآخرة، ويركنون

39 القرطبي، التذكار في أفضل الأذكار، تحقيق: ثروت محمد نافع، 121، دار التوحيد، والقرطبي ينقله عن مكي.

40 رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب من رأى التخفيف فيها، رقم الحديث 814، و رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر، رقم الحديث 13359، 365/12، تحقيق: حمدي السلفي.

41 المكتوبات/268، والكلمات/265، وانظر المثني/71 و230.
42 ينظر: الكلمات/529 و534 و535، والشعاعات/306 و312.

إلى الدنيا، فالحاجة إلى التذكير قائمة: **﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾**⁴³.

النقطة الرابعة: تثبيت الأسس

" اعلم أن القرآن مؤسس لهذا الدين العظيم المتين، وأساسات لهذا العالم الإسلامي، ومقلب لاجتماعيات البشر ومحولها ومبدلها، وجواب لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة للبشرية بالسنة الأقوال والأحوال... ولا بد للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترييد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد"⁴⁴.

يمكن جعل هذه النقطة فرعا عن النقطة الأولى، فإن تثبيت الأسس يندرج ضمن التقرير والتأكيد، إلا أن النورسي رغب في إفراده بنقطة خاصة للتأكيد على أهمية الأسس والاعتناء بها وحاجتها إلى أن تكرر لتثبت في النفوس، وبين في هذه النقطة أن القرآن الكريم هو أساس هذا الدين، ويعني هذا أنه أساس للعالم الإسلامي، الذي يستمد عقيدته ومنهجه من القرآن، ولولاه لما كان، كما أن القرآن الكريم منذ أنزل هو مقلب لاجتماعيات البشر، وكم تغيرت من قلوب فأمنت بعد سماعها آيات من كلام الله، وكم انقلبت مجتمعات كانت غارقة في ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والهداية بسبب تأثير آيات هذا الكتاب العظيم فيها، ولأن القرآن أساس هذا الدين فيه الإجابة على جميع أسئلة البشر الحائرين التائهين الذين يتساءلون: لماذا خلقنا؟ ومن خلقنا؟ وما مهمتنا؟ وماذا بعد الموت؟ هذه الأسئلة وكثير غيرها تولى القرآن الإجابة عنها بتفصيل وإبانة في غاية الوضوح، ولذا فلا جرم أن تكرر المعاني العظيمة التي فيه، والأسس التي احتوى عليها.

النقطة الخامسة: تنوع الأساليب

"اعلم أن القرآن يبحث في مسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها، فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة"⁴⁵.

ذكر العلماء من فوائد التكرار أموراً كثيرة يمكن أن تندرج ضمن هذه النقطة مثل: التعظيم والتهويل، والوعيد والتهديد، والتنويه والإشادة، والتشويق والتأنيس، والتوبيخ والتعجب، والتهكم والازدراء، والتفخيم والتعظيم، والمبالغة والتحريض⁴⁶، وكلها أساليب متنوعة ترمي إلى تحسين الكلام، كما يتميز أسلوب القرآن الكريم بالتنوع في العرض، ويمكن أن يمثل لهذا بالقصص القرآني، والآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر وإثباته، وهي من الأمور التي يدعو القرآن إلى تقريرها وتثبيتها في القلوب، ولذا كان عرضها بأساليب متعددة وصور متنوعة، ليكون لهذا التنوع أثره العظيم في النفوس.

43 الكهف/54.

44 المكنوبات/268، والكلمات/265، والمثنوي/71.

45 الكلمات/265، والمكنوبات/268، والمثنوي/71.

46 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 17/3 و18.

د. محمود السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، 21-31.

د. عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، 121-132.

النقطة السادسة : تعدد مقاصد القرآن وفوائده

" اعلم أن لكل آية ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا⁴⁷، ولكل قصة وجوها و أحكاما وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه، وفي آخر لأخرى، وفي سورة لمقصد، وفي أخرى لآخر، وهكذا، فعلى هذا لا تكرر إلا في الصورة"⁴⁸.

هذه الجملة القيمة من كلام النورسي توضح أن ما ورد في القرآن الكريم من موضوعات وقصص في أكثر المواضع إنما هي بسياق قريب من سياق الموضوع الآخر، ولا يمكن أن يتشابه الموضوعان تشابها تاما، ويمكن أن يمثل لهذا بكثير من الأمثلة، منها الآيات التي تبين أحداث اليوم الآخر، فإنها مع اتحاد ما تتحدث عنه، تعرضه كل مرة بأسلوب مغاير وألفاظ مختلفة، فالآيات التي تبين ما سيحصل للجبال في ذلك اليوم تقول: {وتكون الجبال كالعهن}، {يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا}، {وإذا الجبال نسفت}، {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا}، {ويوم نسير الجبال}، {وتسير الجبال سيرا}، {وبست الجبال بسا}، {وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة}، {وسيرت الجبال فكانت سرابا}، {وإذا الجبال سيرت}، {وتكون الجبال كالعهن المنفوش}، {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب}⁴⁹، فهذه الآيات ذات الموضوع الواحد تتحدث عنه من أكثر من زاوية، وتبين كل واحدة منها جزءا من أحداث ذلك اليوم، وتتكامل الصورة بالجمع بينها، فليست أي منها تكرر عن غيرها، قال الرازي:

" اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله، وهو أن أول أحوالها الاندكاك ... والحالة الثانية لها أن تصير كالعهن المنفوش ... والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن... والحالة الرابعة أن تنسف لأنها في الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتتسبف بإرسال الرياح عليها... والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعا في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاتفها أجساما جامدة وهي في الحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها صيرها منكدة متفتتة، وهي قوله: {تمر مر السحاب}، ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال: {ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة} الحالة السادسة أن تصير سرايا بمعنى لا شيء،

47 ورد في هامش الكلمات/451، والملاحق/60: ان هذه العبارة جزء من حديث: " أنزل القرآن على سبعة أحرف " في رواية عند الطبراني بنص: " لكل حرف منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع" باختصار عن كشف الخفاء/1/209 هـ.

قلت: في المعجم الكبير للطبراني: "ولكل آية منها ظهر وبطن" حديث رقم 10107، 130/10، وفي المعجم الأوسط مثله، رقم الحديث/777، 433/1، وضعف المحدث أحمد محمد شاكر رواية الطبري لهذا الحديث (تفسير الطبري، جامع البيان 22/1).

48 الكلمات/265 و266، والمكتوبات/268، والمثنوي/71.
49 مواضع الآيات الكريمة على التوالي: المعارج/9، المزمّل/14، المرسلات/10، طه/105، الكهف/47، الطور/10، الواقعة/5، الحاقة/14، النبا/20، التكويز/3، القارعة/5، النمل/88.

فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضوع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً⁵⁰.
ومما يندرج في هذه النقطة آية: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} فإنها وإن تعددت، فكل واحد منها متعلق بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الجن والإنس، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواع مختلفة وصور شتى⁵¹، ومنها آيات القصص، وسيأتي تفصيل الحديث عنهما في المبحث التالي بإذن الله.
ويلاحظ ما في عبارة النورسي: " فتذكر في موضع لوجه، وفي آخر لأخرى، وفي سورة لمقصد، وفي أخرى لآخر " من بلاغة في الإيجاز بالقصر.

المبحث الثالث

المواضع التي بين النورسي حكمة التكرار فيها

بعد أن تحدث النورسي عن حكم التكرار في القرآن الكريم من خلال نقاط متعددة، وكلام عام لم يتعرض فيه للجزئيات مكتفياً بإرساء القاعدة، خاصة أن طبيعة رسائله لا تقتضي منه استقصاء الآيات والجمل التي تكررت في كتاب الله، ولذا فإن المواضع التي بين النورسي فيها حكمة التكرار قليلة، محصورة في حديثه عن الحكمة من تكرار البسملة، وآية {فبأي آلاء ربكما تكذبان}، وآية {ويل يومئذ للمكذبين}، وآية {وإن ربك لهُم العزيز الرحيم} وقصص الأنبياء، وقبل أن أنتقل إلى تفصيل الحديث عنها رأيت أن أثبت هنا عبارة لطيفة للنورسي حول التكرار في هذه الآيات وفي القصص، قال:

" إن قلت إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكراراً كثيراً في الظاهر كالبسملة، و {فبأي آلاء} الخ، و {ويل يومئذ} الخ، وقصة موسى، مع أن التكرار يملّ وينافي البلاغة،

قيل لك :- ما كل ما يتلألاً يحرق - فإن التكرار قد يمل لا مطلقاً، بل قد يُستحسن ولا يُسأم، فكما أن في غذاء الإنسان ما هو قوت كلما تكرر حلاً وكان أنس، وما هو تفكه إن تكرر ملّ، وإن تجدد استلذ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوة للأفكار وغذاء للأرواح كلما أعيد استُحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس، وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكه، لذته في تجدد صورته وتلون لباسه.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما أن القرآن بمجموعه قوت وقوة للقلوب لا يملّ على التكرار بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلاً، وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ما هو أسس الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسد سرمدى ك (بسم الله الرحمن الرحيم) فإيا هذا شاوور مذاقك إن كنت ذا مذاق.

50 الفخر الرازي، التفسير الكبير، 11/31 و12.
51 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 18/3.

هذا بناء على تسليم التكرار، وإلا فيجوز أن تكون قصة موسى مثلاً مذكورة في كل مقام لوجه مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها، فإن قصة موسى أجدى من تفاريق العصا⁵²، أخذها القرآن بيده البيضاء فضه فصاغتها ذهباً، فخرت سحرة البيان ساجدين لبلاغته⁵³.

وفيما يلي تفصيل كلامه عن التكرار في هذه الآيات:

1 – البسمة : سبق في النقطة الثالثة تمثيل النورسي بالبسمة أثناء حديثه عن تكرر الحاجات المستلزم لتكرار الآيات، وفي الجملة السابقة عبارة تتعلق بالبسمة تبين أن تكرارها يرجع إلى كونها تمثل "أس الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسد سرمدى"، وبعد هذه العبارة بأسطر قليلة توضيح لها في قوله: "وكذا في البسمة جهات من الاستعانة والتبرك والموضوعية بل الغائية والفهرستية للنقطة الأساسية في القرآن... وأيضاً فيها مقامات: كمقام التوحيد، ومقام التنزيه، ومقام الثناء، ومقام الجلال والجمال، ومقام الإحسان، وغيرها... وأيضاً فيها أحكام ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل، أعني المقاصد الأربعة المشهورة، مع أن في أكثر السور يكون المقصود بالذات واحداً منها والباقي استطرادياً، فلم لا يجوز أن يكون لجهة أو حكم أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة، وتكون موضوعاً للمقام بل فهرسة إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات⁵⁴.

وفي موضع آخر قال عن البسمة: "إن جملة (بسم الله الرحمن الرحيم) هي آية واحدة تتكرر مئة وأربع عشر مرة في القرآن الكريم، وذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نورا وضياء وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق – كما بينها في اللمعة الرابعة عشرة – فما من أحد إلا وهو بحاجة مسببة إلى هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات فالحاجة ما زالت قائمة باقية لا تترتوي، إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي أيضاً كالهواء والضياء الذي يضطر إليه ويشتاق كل دقيقة⁵⁵.

يظهر من هذه العبارات أن النورسي يرى البسمة جملة عظيمة المحتوى، غزيرة المعاني، يمكن للمتأمل فيها استنباط مقامات وأحكام ومقاصد كثيرة، فالحاجة إليها ماسة وقائمة مهما تكررت، كما يمكن أن يقال: إن للبسمة في بداية كل سورة معنى يخص هذه السورة وموضوعها، وهذا الكلام اللطيف الذي قاله النورسي قام كل من البقاعي وطنطاوي جوهرى بتطبيقه، فإنهما قبل الشروع في تفسير السورة يفسران البسمة بما يلائم تلك السورة، ففي أول سورة الدخان قال البقاعي: "مقصودها الإنذار من الهلكة لمن لم يقبل ما في الذكر الكريم الحكيم من الخير والبركة، رحمة جعلها بين عامة خلقه مشتركة وعلى ذلك دل اسمها الدخان إذا توملت آياته، وإفصاح ما فيها وإشاراته، (بسم الله) الملك الجبار الواحد القهار (الرحمن) الذي عمّ بنعمة النذارة

52 إنك خير / أبقى / أكثر من تفاريق العصا، مثل يضرب فيمن نفعه أعم من نفع غيره (الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، 61/1، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل ببيروت).

53 إشارات الإعجاز/39.

54 إشارات الإعجاز/39 و40.

55 الكلمات/529.

(الرحيم) الذي خص أهل وداده برحمة البشارة⁵⁶، وقال في أول سورة طه: " (بسم) الواسع الحلم التام القدرة (الله) الملك الأعظم (الرحمن) الذي استوى في أصل نعمته جميع خلقه (الرحيم) الذي أتم النعمة على أهل توفيقه ولطفه"⁵⁷، ويفسر طنطاوي جوهرى البسمة في كل سورة بما يناسب موضوعها وقد يطيل في ذلك صفحات⁵⁸، وبهذا يظهر التلاؤم والانسجام بين كلام النورسي العام هنا، وتطبيقاته على سور القرآن الكريم المتعددة عند البقاعي وطنطاوي جوهرى، ولعل غيرهما سلك هذا المسلك أيضا.

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا أن البسمة في أوائل السور سوى الفاتحة ليست آية منها على الراجح، وإثباتها للفصل بين السور، أما سورة الفاتحة فالبسمة هي الآية الأولى منها حسب العدد الكوفي والمكي، وليست آية منها - كما في سائر السور - عند بقية علماء العدد⁵⁹، ولا خلاف في أنها بعض الآية 30 في سورة النمل، فوجود البسمة في أوائل السور له أهمية كبرى للإعلام بابتداء السور، والحديث عن تكرارها باعتبار وجودها في المصحف.

2 - قوله تعالى: {وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم}⁶⁰

" وإن الآية الكريمة {وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم} تتكرر ثماني مرات في سورة الشعراء، فتكرار هذه الآية العظيمة التي تنطوي على ألوف الحقائق في سورة تذكر نجات الأنبياء عليهم السلام وعذاب أقوامهم، إنما هو لبيان: أن مظالم أقوامهم تمس الغاية من الخلق، وتعرض إلى عظمة الربوبية المطلقة، فتقتضي العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة، مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجات الأنبياء عليهم السلام، فلو تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات أعجاز وإيجاز"⁶¹.

يلاحظ أن النورسي اقتصر في حديثه على هذه الآية مع أن الآية التي قبلها {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} تكررت معها في مواضعها الثمانية، ويؤكد النورسي على أهمية إعادة هذه الجملة تعقيبا على كل قصة من قصص الأنبياء المذكورة في السورة، لشناعة فعل التكذيب من أقوامهم، ولعل في سورة الشعراء إشارة أخرى إلى شناعة ما فعله أولئك الأقوام حين نسب الله تعالى إلى كل قوم منهم تكذيب المرسلين⁶² مع أنهم إنما كذبوا رسولهم، ولكنها الفعلة الشنيعة العظيمة التي استحقوا معها أن ينسب إليهم تكذيب جميع المرسلين.

56 البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 62/7، دار الكتب العلمية، بيروت.

57 البقاعي، نظم الدرر، 4/5.

58 طنطاوي جوهرى، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، 9-4/17، 150-144/18، 6-3/25، المكتبة الإسلامية بمصر.

59 أبو عمرو الداني، البيان في عدّ أي القرآن، تحقيق د. غانم قدوري الحمد، 57-50 و139، مركز المخطوطات والوثائق بالكويت، ط 1، 1994.

60 الشعراء/9 و68 و104 و122 و140 و159 و175 و191.

61 الكلمات/529، والشعاعات/307.

62 كما في قوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} الآية 105، وتتنظر الآيات 123، و141، و160، و176.

وقد أشار إلى أهمية هذا التذييل لقصص سورة الشعراء عدد من المفسرين كالزمخشري إذ قال: " كل قصة منها كتزويل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور ... ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذننا أو يفتق ذهننا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا"63، وقال ابن عاشور: " ختم كل استدلال جئ به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله: {إن في ذلك لآية..} تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحداية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق، ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون، وأن الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب، وأنه رحيم يرسله فناصرهم على أعدائهم"64.

3- قوله تعالى: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}65.

4- قوله تعالى: {ويل يومئذ للمكذبين}66.

تحدث النورسي عن هاتين الآيتين معاً، فقال:

" وكذلك الآية الكريمة: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} المكررة في سورة الرحمن، والآية الكريمة: {ويل يومئذ للمكذبين} المكررة في سورة المرسلات تصرخ كل منهما في وجه العصور قاطبة وتعلن إعلاناً صريحاً في أقطار السماوات والأرض أن كفر الجن والإنس وجحودهم بالنعم الإلهية، ومظالمهم الشنيعة، يثير غضب الكائنات، ويجعل الأرض والسماوات في حنق وغيظ عليهم ... ويخل بحكمة خلق العالم والقصد منه، ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها.. ويستخف بعظمة الألوهية وينكرها، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من أمثال هذه الحقائق، ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها، لو تكررتا ألوف المرات في خطاب عام موجه إلى الجن والإنس لكانت الضرورة قائمة بعد، والحاجة إليها ما زالت موجودة باقية، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة، ومعجزة جميلة"67.

وتحدث عن الآية الأولى منهما في موضع آخر فقال: " اعلم أن تكرار آية: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} في مقاطع الآيات التنزيلية المشيرة إلى الآيات التكوينية المختلفة في سورة الرحمن يدل على أن أكثر عصيان الجن والإنس وأشد طغيانها وأعظم كفرانها يتولد من عدم رؤية الإنعام في النعمة، والغفلة عن المنعم، وإسناد النعم إلى الأسباب والتصادفات، حتى يصيرها مكذبين بآلاء الله، فلا بد للمؤمن من أن يبسم الله

63 الزمخشري، الكشاف، 126/3.

64 ابن عاشور، التحرير والتنوير، 90/19.

65 وردت هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة.

66 وردت هذه الآية في سورة المرسلات 10 مرات.

67 الكلمات/529 و530، والشعاعات/307.

كل نعمة قاصدا أنها منه أنا أخذها باسمه وبحسابه، لا بحساب الوسائط، فله الشكر والمنة⁶⁸.

تتميز سورة الرحمن بورود قوله تعالى: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} بعد كل آية من آياتها بدءا من الآية 13، أو بعد آيتين لاتصال معناهما، وهي الآيات: (14 و15)، و(19 و20)، و(26 و27)، و(43 و44)، و ورود هذه الآية بعد آيات النعم ظاهر، وكلام النورسي في تعليقه واضح، كما بين النورسي الحكمة من ورودها بعد آيات العذاب أو التهديد، ولعدد من المفسرين عبارات أخرى، فهذا البقاعي يقول: "وكرر هذه الآية في هذه السورة من هنا بعد كل آية إلى آخرها لما تقدم في القمر من أن المنكر إذا تكرر إنكاره جدا بحيث أحرق الأكباد في المجاهرة بالعناد، حسن سرد ما أنكره عليه، وكلما ذكر بفرد منه قيل له: لم تنكره؟ سواء أقر به حال التقرير، أو استمر على العناد، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بأن إنكاره تجاوز الحد، ولتغاير النعم وتعددتها واختلافها حسن تكرير التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهها على جلالتها، فإن كانت نعمة فالأمر فيها واضح، وإن كانت نعمة فالنعمة دفعها أو تأخير الإيقاع بها⁶⁹".

وقال القاسمي: "فإن قيل كيف يكون قوله: {سنفرغ لكم أيها الثقلان} نعمة؟ وقوله: {يعرف المجرمون بسيماهم} نعمة؟ وكذلك قوله: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون} وقوله: {يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران} وقوله: {يطوفون بينها وبين حميم آن}؟ قلنا: هذه كلها نعم جسام لأن الله هدّد العباد بها استصلاحا لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان، إلى حيز الطاعة والإيمان والانقياد والإذعان، فإن من حذر من طرق الردى، وبيّن ما فيها من الأذى، وحث على طرق السلامة الموصلة إلى المثوبة والكرامة، كان منعما عليه غاية الإنعام، ومحسنا غاية الإحسان"⁷¹.

وذهب الألوسي إلى تفسير كل آية منها بما يناسب ما قبلها، فبعد: {رب المشرقين ورب المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان} قال: "مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول، وحدث ما يناسب كل فصل في وقته"، وبعد: {سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأي آلاء ربكما تكذبان} قال: "التي من جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة للتحذير عما سيؤدي إلى سوء الحساب"، وبعد: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأي آلاء ربكما تكذبان} قال: "فإن الإخبار بنحو ما ذكر مما يزجر عن الشر فهو لطف أي لطف، ونعمة أي نعمة"⁷³.

وحول الحكمة من عدد مرات ورود هذه الآية، قال الكرمانلي: "كرر الآية إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع

68 المثنوي/189.

69 البقاعي، نظم الدرر، 378/7.

70 أرقام الآيات في سورة الرحمن على الترتيب: 31، 41، 43، 35، 44.

71 القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، 160/1.

72 الآيات من سورة الرحمن وأرقامها على الترتيب 17 و18 و31 و32 و37 و38.

73 الألوسي، روح المعاني، 105/27 و112 و114.

صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الألاء عقيبها لأن في صرفها ودفعها نعمًا توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء، وذلك يعد أكبر النعماء، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنات اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة، والله تعالى أعلم⁷⁴.

أما قوله تعالى: {ويل يومئذ للمكذبين} في سورة المرسلات فقد كان يأتي كل مرة عقب قصة، فكانه سبحانه قال: ويل للمكذبين بهذه القصة، وكل قصة مخالفة لصاحبها، فأثبت الويل لمن كذب بها⁷⁵.

ولتعليق ورود هذه الآية بعد ذكر جزاء المتقين، قال الفخر الرازي: "اعلم أن هذا هو النوع الثامن من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم، وذلك لأن الخصومة الشديدة، والنفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين، فصارت تلك النفرة بحيث أن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة، فلما بين الله تعالى في السورة اجتماع أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار، بين في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن، حتى إن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والخزي والخسران، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقية، تتضاعف حسرته وتزيد غمومه وهمومه، وهذا أيضا من جنس العذاب الروحاني، فلماذا قال في هذه الآية: {ويل يومئذ للمكذبين}"⁷⁶.

وبهذا يظهر ما في عبارات النورسي من روعة ودقة، وفهم عميق دقيق لهذه الآيات الكريمة، فإن تكرار هاتين الآيتين الكریمتين يعلن ما في الكفر والتكذيب بنعم الله من ظلم عظيم، وجحود بالغ، ومع هذا التذكير والتبيين يعرض معظم الخلق عن الحق، ولا يتذكرون نعم الله عليهم، فما أحراهم بالتوعد على هذا بالويل مرة بعد مرة .

5 - قصص الأنبياء: تحدث النورسي عن الحكمة من تكرار قصص الأنبياء بايجاز حيث قال:

" ومن المكررات القرآنية - قصص الأنبياء - عليهم السلام، فالحكمة في تكرار قصة موسى عليه السلام - مثلا - التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء إنما هي لإثبات الرسالة الأحمديّة، وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الأحمديّة وصدقها، حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من ينكر نبوتهم جميعا، فذكرها إذن دليل على الرسالة.

ثم إن كثيرا من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوقفون إلى تلاوة القرآن الكريم كله، بل يكتفون بما تيسر لهم منه، ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة

74 الكرمانى، محمود بن حمزة، أسرار التكرار في القرآن، وطبع باسم البرهان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، 198، دار الاعتصام، وفي تفسير النسفي 214/4 قريب منه، وذكر غيرهما وجوها أخرى انظر البرهان للزركشي 19/3، ودرة التنزيل للخطيب الاسكافي.
75 الزركشي، البرهان، 19/3، والسيوطي، الإتقان، 226/3.
76 الفخر الرازي، التفسير الكبير، 248/30.

مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر، ومن ثم تكرار القصص فيها بمثل تكرار أركان الإيمان الضرورية، أي إن تكرار هذه القصص هو مقتضى البلاغة، وليس فيه إسراف قط، زد على ذلك فإن فيه تعليماً بأن حادثة ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أعظم حادثة للبشرية، وأجل مسألة من مسائل الكون⁷⁷.

ذكر النورسي هنا حكمتين لتكرير قصص الأنبياء:

الأولى: إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه يلزم من إثبات نبوتهم إثبات نبوته، وفيه رد على اليهود والنصارى الذين يثبتون نبوة أنبيائهم وينفون نبوة رسولنا، كما يلزم من نفي نبوة نبينا نفي نبوة إخوانه السابقين، وهو رد آخر على أهل الكتاب، والتلازم بين نبوة الأنبياء جميعاً ظاهر، فهم أصحاب دعوة واحدة، ولتأكيد هذا المعنى كان تكرار قصصهم في القرآن.

الثانية: إن كثيراً من الناس لا يمكنهم قراءة القرآن كله، فمن اطلع على بعضه وجد في هذا البعض شيئاً من قصص الأنبياء، وقد سبق ذكر هذه النقطة ضمن حديث النورسي عن الحكمة من التكرار، كما سبق إثبات كلام ابن قتيبة وهو قريب مما قاله النورسي هنا.

هذا وقد ذكر العلماء حكماً أخرى لتكرار القصص في القرآن منها:

1 - إن القصة حين تذكر في أكثر من موضع، يذكر فيها شيء لم يذكر في المرة الأولى، ففي كل مرة فائدة، وفي كل موضع زيادة، وهذا ظاهر جداً، ويمكن لمن يتأمل في قصص الأنبياء أن يرى الاختلاف واضحاً بين مواضع القصة الواحدة، فهذه قصة آدم عليه السلام ذكرت في سور متعددة⁷⁸، وليس بين هذه المواضع كلها أي تكرار بل تكامل وتشابه، ويمكن كذلك المقارنة بين قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح، والعنكبوت، والقمر، والصفافات ليظهر بوضوح الفرق بينها، أما قصة موسى عليه السلام - وهي أكثر قصص الأنبياء وروداً في القرآن الكريم - فلا يوجد بين أي موضعين من مواضع ذكرها أي تكرار إنما هو التنويع في طريقة عرضها بما يناسب جو السورة التي تذكر فيها⁷⁹.

2 - تسليية النبي صلى الله عليه وسلم.

3 - إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة فيه ما لا يخفى من الفصاحة.

4- إن الدواعي لا تتوافر على نقل القصص كتوفرها على نقل الأحكام، فلذا كررت القصص دون الأحكام.

77 الكلمات/535 و536، والشعاعات/313.

78 هي: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص .

79 انظر في القصص القرآني والتنويع فيه:

ابن عابدين، التقرير في التكرير، 44.

محمد قطب، دراسات قرآنية، 248-256، دار الشروق، ط2، 1980.

د. القسبي محمود زلط، قضايا التكرار في القصص القرآني، الكتاب كله، دار الأنصار بمصر، ط1، 1978.

د. فضل حسن عباس، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، 22-27، دار الفرقان بالأردن، ط1، 1987.

- 5 – الإعلام بعجز المتحدّين عن الإتيان بمثل القرآن، بأي نظم جاؤوا، وبأي عبارة عبروا، فقد عجزوا عن الإتيان بمثله مبتدأ ومكرراً.
- 6 – ليجتمع في القرآن ما يوافق الكتب السابقة من سرد القصة كلها في موضع واحد، -وذلك في قصة يوسف- وما يخالفها من تفريق القصة في مواضع متعددة.
- 7- لدفع ما قد يقوله من قيل لهم {فأتوا بسورة مثله}⁸⁰ أن يقولوا: انتوا أنتم بسورة مثله، فكان تعداد وتكرار القصص دفعا لحجتهم من كل وجه⁸¹.

الخاتمة

أجدني في نهاية بحثي هذا مقرا بالفائدة العظيمة التي جنيتها من خلال المطالعة في رسائل النور، وفي عدد من كتب التفسير والبلاغة وغيرها، وأرجو أن يكون قارئ البحث كذلك قد أفاد مما جمعه له فيه من نقول وآراء، وأجدني مقرا كذلك بالفضل الكبير للإمام النورسي في حديثه عن التكرار في القرآن الكريم، فقد كانت عباراته الجزلة وآراؤه السديدة - ومنها ما لم يسبق إليه - واضحة الدلالة على المقصود، وهو تبيين الحكمة من التكرار في القرآن الكريم، وتأكيد أنه الكتاب العظيم المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والحمد لله في البدء والختم، والصلاة والسلام على خير الأنام، محمد وآله وصحبه الأئمة الأعلام، ومن سار على نهجهم إلى يوم القيام.

80 يونس/38.

81 انظر: الزركشي، البرهان، 28-25/3.

السيوطي، الإتقان، 230/3 و231.

د. محمود السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، 75-78.

حكمة التكرار في القرآن في ضوء كتب الإمام بدیع الزمان سعید النورسي

مطیع الرحمن عبدالحلیم محمد خالد^P

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابتها السماوي كما اعتنت به هذه الأمة المحمدية ولا عجب أن ينال كل ذلك لأن هذا الكتاب يفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله على هم أجمعين من هداية وإصلاح وتربية وسمو وتشريع. وقد شرف الله هذه الأمة المحمدية بمعجزة نبههم الكرم الخالدة - القرآن الكريم - وبيعت علماء كبار قاموا بتفسير وتوضيح كل ما تتعلق به وإزالة كل ما قيل حوله، ومن هؤلاء شيخنا وأستاذنا الإمام سعید النورسي الذي خدم هذا الكتاب في وقت يشيع فيه الشك والشبهة حول الدين. وسوف نتصدي فيما يلي من السطور إلى موضوع هام، ألا وهو: "حكمة التكرار في القرآن الكريم" وذلك في ضوء كتابات الإمام النورسي الذي تعرض له وبمحت عن شتي جوانبه في أسلوب عصري يفهمه ويقنع به إنسان هذا العصر، وليس معني ذلك أنه أول من تعرض له بل هو واحد من العلماء الذين قاموا بهذا العمل الجليل. علما أن "حكمة التكرار في القرآن الكريم" موضوع وبمحت كبير، إلا أننا سوف نتصدي لبعض الجوانب فقط، والله مسؤول أن يلهمنا الرشد والصواب. الإمام النورسي عالم بلاغي كبير قد فاق بعض علماء البلاغة الكبار، يولي اهتماما كبيرا بتوضيح الجوانب البلاغية في القرآن الكريم، وهو معجب به شديد الإعجاب، والإمام يعد هذا الجانب من أعظم النقاط التي تبين عظمة القرآن الكريم، وإلى ذلك يشير في النقطة الثالثة من نقاط عظمة القرآن الكريم في رسائله:

"إن القرآن الكريم قد أظهر بلاغة - أي بلاغة - منذ ذلك العصر إلى زماننا هذا، حتى إنه حظ من

* من مواليد عام 1973 عضو الهيئة التدريسية في جامعة الحقانية بإسلام آباد، و باحث اكاديمي فيها ومن مسؤولي العمل الطلابي في باكستان.

قيمة المعلقات السبع المشهورة، وهي قصائد أبلغ الشعراء، وكتبت بالذهب وعلقت على جدران الكعبة، حتى أن ابنة "لبيد" أنزلت قصيدة أبيها من على جدار الكعبة قائلة: "أما وقد جاءت الآيات فليس لمثلك هنا مقام".

وكذا عندما سمع أعرابي الآية الكريمة (فاصدع بما تؤمر) خرّ ساجدا فقيل له: أأسلمت؟ قال: لا، بل سجدت لبلاغة هذه الآية.

وكذا فإن آلاف من أئمة البلاغة وفحول الأدب أمثال عبد القاهر الجرجاني والسكاكي والزنجشري قد أقرروا بالإجماع والاتفاق "أن بلاغة القرآن فوق طاقة البشر ولا يمكن أن يدرك" وكذا فإن القرآن الكريم - منذ نزوله - كان وما زال كذلك، يتحدى كل مغرور ومتعنت من الأدباء والبلغاء وينال من عتوهم وتعالى مهم تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله... وكذا ففي تناول الأيدي ملايين الكتب العربية... كل ما كتب ويكتب مع التقدم والرقي في الأسلوب الناشئ من تلاحق الأفكار - ومنذ ذلك الوقت إلى الآن - لا يمكن أن يضاهي أو يداني أي منها أسلوب القرآن".¹

ويقول في نفس الكلمة الخامسة والعشرين مبينا بلاغة القرآن الكريم:

"وكذا فإن عدم معارضة أدباء العرب الذين هم في المقدمة في الأدب ولاسيما الذين لم يدخلوا الإسلام مع رغبتهم الملحة في المعارضة، وعجزهم عجزا تاما أمام وجه واحد - وهو الوجه البلاغي من بين وجوه الإعجاز السبعة الكبرى للقرآن، وعجزهم عن الإتيان بسورة واحدة فقط من سور القرآن الكريم وصدودهم عن ذلك... هو حجة قاطعة على أن القرآن الكريم معجزة فوق طاقة البشر، نعم! إن قيمة الكلام وعلوه تتوضح في بيان من قاله؟ ولمن قاله؟ ولم قاله؟"²

سبب تعرض النورسي لبيان حكم التكرار:

ونظرا لاهتمامه الكبير بالجوانب البلاغية، ولكونه عالما شجاعا يدافع عن الإسلام وكتابه فإنه يتصدى لكل ما يورده مثيرو الشكوك والشبهات من الملاحدة والزنادقة حول الدين والقرآن الكريم، ولم يكن هؤلاء قليلي العدد في زمن الإمام بل كانوا على قمة من القوة والشوكة، ويجب الإمام عن اعتراضاتهم، وتعرضه لبيان حكم التكرار وأنه لا يخالف القواعد البلاغية يرجع إلى نفس السبب، ونراه يبين ذلك:

"طرق سمعي قبل اثنتي عشرة سنة أن زنديقا عنيدا قد فضح سوء طويته وخبث قصده بإقدامه على ترجمة القرآن الكريم، فحاك خطة رهيبه للتهوين من شأنه بمحاولة ترجمته، وصرح قائلا: ليترجم القرآن لتظهر قيمته؟ أي ليري الناس تكراراته غير الضرورية ولتتلي ترجمته بدلاً منه إلى آخره من الأفكار السامة".³

ويقول مبينا سبب تعرضه لبيان حكم التكرار في القرآن الكريم:

"كنت أتلو هذه الآيات الكريمة يوما فورد الإلهام من فيض نور القرآن الكريم في نكات ثلاث ليصد إلقاء إبليس، وصورة الشبهة الواردة هي: قال: إنكم تقولون: إن القرآن معجز وفي ذروة البلاغة وإنه هدي للعالمين في كل وقت وآن ولكن ماذا يعني ذكر حوادث جزئية وسردها سردا تاريخيا والتأكيد علىها وتكرارها".⁴

1- الكلمات للإمام بدیع الزمان سعید النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحی: 518-519

2- الكلمات: 522

3- الشعاعات لبديع الزمان سعید النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحی: 315

4- الكلمات: 669

إن قلت: إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكرر كثيرا في الظاهر كالبسمة (وبأي آلاء) و(ويل يومئذ) وقصة موسى وأمثالها مع أن التكرار يمل وينافي بالبلاغة.⁵

أقسام التكرار في القرآن الكريم:

قبل بيان أقسام التكرار فإنه ينبغي أن نعرف أن الآيات تنقسم الى قسمين:

- (1) آيات الأحكام.
- (2) آيات غير الأحكام التي فيها بيان آلاء الله، وتذكير بأيام الله وتخويف من عذاب الله وذكر الحشر والتوحيد.

إن التكرار الوارد في القرآن الكريم عند تعمقنا فيه نجد أن أكثر مباحث الأحكام لم يحصل تكرر، بل التكرار حصل في بيان آلاء الله والتذكير بأيام الله والتخويف من الموت وما بعده، وذلك لأن المقصود من بيان الأحكام هو مجرد تعليم ما لا يعلمه الإنسان فالمخاطب لم يكن عالما بالحكم قبل سماعه وقد علم ذلك المجهول باستماع الكلام وصار المجهول معلوما في حقه وانتهت المسألة، فالتكرار غير مطلوب في مباحث الأحكام لأن المقصود قد حصل بيانه مرة.⁶ والتكرار الحاصل في القرآن الكريم يتعدى الى عدة أساليب، فقد يكون التكرار من قبيل إعادة نفس الكلمات أو من قبيل إعادة المعاني.

الأول- إعادة نفس الكلمات: ينقسم الى أقسام:

(1) تكرر الحروف: فإننا نعلم أن كلمات القرآن مكونة من الحروف الهجائية البالغ عددها تسعة وعشرين حرفا، مع أن الله سبحانه وتعالى كان قادرا على إيجاد حروف أخرى بعدد الحروف الواردة في القرآن الكريم، والقدرة الإلهية شاملة للممكنات كلها، إن الله على كل شيء قدير⁷ ولكنه لم يفعل ذلك تسهيلا على الإنسان حفظ كتابه وفهم معانيه وقراءته.

(2) قد يكون المكرر كلمة: (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا)⁸ (أولم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشد منهم قوة).⁹ تكررت "ثم" و"كانوا" في الآيتين.

(3) قد تكرر آية بجمليتها مثلا: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وفي الشعراء (فاتقوا الله وأطيعون) وفي المرسلات (ويل يومئذ للمكذبين) (إن الله بما تعملون بصير) وغير هذه الأمثلة.

(4) وقد يكرر ذكر القصة في مواضع متعددة: وتلك سمة عامة في القصص القرآنية ولم يستثن منها سوي قصة يوسف على ه السلام.

(5) قد تكرر الآية مع الاختلاف في الكلمات بين الآيات المكررة (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم) (نحن نرزقهم وإياكم).¹⁰

الثاني- إعادة المعاني: ولها عدة أساليب:

(1) تكرير المعنى بالأمر به أولا ثم النهي عن ضده، قال تعالى: (إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن

5- إشارات الإعجاز للإمام النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحى: 39

6- بالاختصار عن الفوز الكبير للإمام الشاه ولي الله الدهلوي، (م 1176هـ) ص 68، طبع قديمي كتب خانة- كراتشي.

7- البقرة: 20

8- سورة النحل: 110

9- سورة المؤمن: 21

10- سورة الإسراء: 31

فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) ثم قال بعده: (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا)¹¹ فقد أمر بالإمساك ثم كرر المعنى بالنهي عن ضده.

(2) عرض المعنى في صورتين تؤديان الى نفس النتيجة: قال تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر)¹² ثم يأتي بعد ذلك قوله تعالى: (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون... قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق).¹³

فلاستفهام في الآية الأولى للتقرير بأن الله هو القادر على ذلك، ومن ثم فهو المستحق للعبادة والمراد في الآيتين المتعاقبتين الإقرار بنفي صفات الألوهية عن الشركاء، ومن ثم فتكون النتيجة هي الإقرار باستحقاق الله للعبادة وانفراده بالألوهية.

(3) الإلحاح على المعنى بالتعبير عنه في صور مختلفة متتالية كل منها تؤكد الأخرى وتعتبر كالتكرير لها، قال تعالى - حاكيا قصة إبراهيم علىه السلام - : (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الظالمين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) كرر مراده "البراءة عن الشرك" ثلاث مرات في هذه الآيات، ثم بين العقيدة التي ارتضاها بقوله (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض) ثم يكرر المعنى بقوله (حينفا) أي مائلا عن الأديان كلها، ثم يكرر براءته عن الشرك (وما أنا من المشركين)¹⁴

وكذلك قال تعالى: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم. ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)¹⁵ فإن كل هذه الآية تؤكد معني انتداب دوام ذكر الله.

والإمام النورسي يشير الى هذه الأقسام في كتاباته والتي يمكن استنتاجها عن أقواله التالية: "ثم إن القرآن الكريم يظهر نوعا من إعجازه البديع أيضا في "تكراره البليغ" "جملة واحدة" أو "لقصة واحدة"... وهو يكرر جملا تملك ألوف النتائج، ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حد لها... وهكذا نرى أمثال هذه الأسس فيما تشتمل علىه أنواع التكرار في القرآن الكريم حتى أنه يعبر أكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد، صراحة أو ضمنا في صحيفة واحدة من المصحف.¹⁶

أقسام التكرار:

تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم وهو ما كان مستغني عنه غير مستفاد به زيادة معني لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا، وليس في القرآن شيء من هذا النوع، والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، ويشير الإمام النورسي الى هذين الضربين بكلمة وجيزة بليغة بعد ما يورد اعتراضا على التكرار في القرآن الكريم:

"ما كل ما يتألا يجرق" فإن التكرار قد يمل لا مطلقا، بل قد يستحسن وقد يسأم.¹⁷

ومن المجمع علىه أنه لا يوجد في القرآن ما يمل، لأن القرآن الكريم كتاب بليغ قد اعترف له بذلك

11- سورة البقرة: 229

12- سورة يونس: 31

13- سورة يونس: 33-34

14- سورة الأنعام: 75-88

15- سورة آل عمران: 191.

16- الكلمات: 528

17- إشارات الإعجاز للإمام النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحى، ص 70

حتى أعداؤه.

والقرآن الكريم الذي يتميز بجانبه البلاغي وبراعته في ذلك تحدي جميع بلغاء العرب (وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)¹⁸ ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك مع رغبتهم الملحة (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ولما فشلوا في إجابة التحدي اختاروا لهم سبيلا آخر لمقاومة هذا الحق وهو سبيل إثارة الشكوك والشبهات -ومنها أن القرآن مليء بالتكرار- الذي يلجأ اليه المعتنون الذين لا يرون سبيلا واقعا لمقاومة شيء.

ويعبر الإمام النورسي عن قلق هؤلاء المعتنين، ويعد اختيارهم لهذا السبيل -سبيل التشكيك- دليلا على إعجاز القرآن الكريم:

“وبينما يعلن القرآن تحديه هذا إذا بلغاء ذلك العصر العتيدين قد تركوا السبيل القصيرة وهي المضاهاة والمعارضة والإتيان بسورة مثله، سالكين السبيل الطويلة التي تأتي بالويل والدمار على الأرواح والأموال مما يثبت اختيارهم هذا أنه لا يمكن المسير في تلك السبيل القصيرة”¹⁹

ولو أن هذه الفرية ثبت عدم واقعيتها بدلائل علمية كثيرة، وتوضح علميا أن هذه التكرارات لها موقعها من البلاغة وهي لدلالة عظيمة على إعجاز القرآن الكريم، إلا أننا سوف نتصدى لبعض وجوه وحكم التكرار وموقف اللغة من هذه التكرارات لأن الفتنة بدأت تطل برأسها على أيدي المدرين على دس الإلحاد في ثنانيا الإيمان في الحاضر من المستشرقين والملحدين والزنادقة وأذناهم من أذعياء الإسلام، وهذا كان السبب الذي حمل الإمام النورسي وغيره من العلماء الأفاضل لمواجهة هذا الباطل.

التكرار بلاغة ولغة:

إن التكرار أسلوب من أساليب الفصاحة في اللغة العربية المستعملة في كلام البلغاء والفصحاء، وقد استعمل في القرآن جريا على عادة العرب في كلامهم، فكيف يخالف قواعد الفصاحة والبلاغة، وسوف نسوق أمثلة من مصادر اللغة العربية على ذلك.

يقول الإمام النورسي مشيرا الى أن التكرار من أساليب الفصاحة بل يمد به البلاغة:

“فإن تكرار تلك الجمل والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لا يعد نقصا في البلاغة قط، بل هو إعجاز في غاية الروعة والإبداع، وبلاغة في غاية العلو والرفعة، وجزالة -بل فصاحة- مطابقة تطابقا تاما لمقتضى الحال”²⁰

يقول الإمام الزركشي في كتابه “البرهان في علوم القرآن”:

“وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة منه، وليس كذلك بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق ببعضه بعض”²¹

وقد عد بعض العلماء هذا التكرار من دلائل الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ومنهم الإمام النورسي حيث يقول:

“ثم إن القرآن الكريم يظهر نوعا من إعجازه البديع في تكراره البليغ الجملة واحدة أو لقصة واحدة”²²

18- البقرة: 23

19- الكلمات: 519

20- الكلمات: 528

21- البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 3/9، دار إحياء الكتب العربية، ط 1957

22- الكلمات: 528

كما أنه يعد بيان البلاغة في القرآن الكريم من الفوائد والدواعي الكامنة وراء التكرار.²³
يقول الأستاذ مناع القطان عند بيان حكم التكرار في القرآن الكريم:
“ومنها بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى، ومنها قوة الإعجاز في إيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي”²⁴

وكما سبق أن التكرار من أساليب اللغة، ويرى ذلك بوضوح في الشعر الجاهلي وكلام العرب قديماً وحديثاً، يقول المهلهل بن ربيعة حال امرئ القيس:

على أن ليس عدلاً من كليب إذا رجع العضة من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد إلى تيم عن الجوزور
ويردد “على أن ليس عدلاً من كليب” في كل شعر من القصيدة التي أنشدتها بمناسبة حرب البسوس.²⁵

ومن ذلك قصيدة الحارث بن عباد بمناسبة حرب البسوس:²⁶
قرباً مربوط النعامه مني لفتح حرب وائل عن حياض
قرباً مربوط النعامه مني ليس قولي يراد لكن فعالي²⁷
وقال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم كم كم كم²⁸
وهذه الأقوال والأمثلة كلها توضح أن دعوي كون التكرار في القرآن الكريم مخرلاً ببلاغته وإعجازه ادعاء لا حقيقة له.

التكرار والقرآن:

بالإضافة إلى ما هو ثابت من كون التكرار من أساليب العرب وقواعد البلاغة فإنه يمكننا أن نستأنس بما أشار إليه خالق هذه اللغات في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أشار إليه الزمخشري في تفسيره، فقد قال عند شرحه لقوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) [الزمر: 23]
قوله تعالى: (مثاني) بيان لقوله (متشابهاً) لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة، والمثاني جمع مثني: بمعنى مردود مكرر لما ثني من قصصه وأبناؤه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعدته ووعدته ومواعظه.²⁹

حكم التكرار في القرآن الكريم:

من المعلوم أن كلام الحكماء لا يخلو عن الحكمة وكلام البلغاء لا يتكرر عبثاً، وإنما ينطوي على

23- الشعاعات: 308

24- مباحث في علوم القرآن: 380 مؤسسة الرسالة، مصر 1990م

25- أيام العرب الجاهلية، ص 142 جمعية البحوث الإسلامية، العدد 23، ص 339

26- حرب البسوس: وقعت بين بكر وتغلب بن وائل، وقد مكثت أربعين سنة. (أيام العرب في الجاهلية، ص 142)

27- أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد الجالي، المولي والبجاوي وأبو الفضل، 161-162.

28- تأويل مشكل القرآن، ص 336 شرح ونشر السعيد أحمد صفر، دار التراث، القاهرة، 1973م.

29- الكشاف: 3/295، لأبي القاسم جار الله الزمخشري، مصطفى الباي الحلبي، 1973م

فوائد ومعان جديدة، فإذا كان هذا حال كلام الإنسان فما بالك بكلام الخالق فإنه أولى بذلك، فلا يمكن أن تكرر كلمة في القرآن أو تعاد آية إلا للحكمة وفائدة.

1) التقرير والتأكيد:

إن القرآن يريد أن يثبت ما يريد في الإنسان، لأن القرآن كتاب عقيدة وذكر والعقيدة لا تترسخ إلا بالتكرار. لأن الشيء إذا تكرر تقرر وتأكد، ويؤكد النورسي على هذا المعنى كثيرا ويردده مرارا فيقول:

“إن القرآن لأنه كتاب ذكر وكتاب دعاء وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، إذ الذكر يكرر والدعاء يردد والدعوة تكرر، إذ في تكرير الذكر تنوير وفي ترديد الدعاء تقرير وفي تكرار الدعوة تأكيد”³⁰

ولقد صرح ذلك في القرآن، حيث يقول الله تبارك وتعالى عند ذكره السبب الذي لأجله كرر الأفاضل والأخبار: (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يذكرون).³¹

وقال تعالى: (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا)³²

يقول الدكتور أحمد بدوي:

“والقرآن الكريم استخدم التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه وإقراره في أفئدتهم، وقد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها علما منه بما لذلك من أثر في النفس”³³ والتأكيد على الشيء يقرر المعنى في النفس، ولما أن الإيمان بالله ويقدرته والتذكر لآلائه والخوف من القيام عنده يوم لا ينفع مال ولا بنون وإثبات الرسالة مفاهيم يجب أن تتركز عند الإنسان المسلم، ولذا تكرر كثيرا لأن التكرار يفيد ذلك ويوصل إلى المقصود.

يقول الدكتور عبد الغني محمد سعيد بركة:

“ولا شك في أن التوكيد والتكرار لهما أثر كبير في النفوس، وهذا شيء هديت إلى فطرة الإنسان فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع وتكرار ما يريد نقله إلى ما رأي من أثر ذلك في تثبيت المعاني والأفكار لديه”³⁴

ويذكر الدكتور عبد الغني قول جوستاف ليبون من كتابه روح الجماعات:

“التوكيد من أهم الوسائل في تثبيت المعنى في القلوب وبثه في النفوس، وحملها على التصديق والإيمان به ولا يكون التوكيد ذا نفوذ حقيقي إلا إذا دام تكراره بعبارة واحدة ما أمكن، والأمر إذا ما أكد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفس على أنه حقيقة ثابتة، والأمر إذا كرر لم يلبث أن يستقر في مناطق اللاشعور العميقة”³⁵

ويقول الزمخشري في تفسيره الكشاف بعد ذكر جواب اعتراض يرد على تكرار آية إن ربك لهو العزيز الرحيم:

“ولأن في التكرار تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور... والتكرار لعل ذلك يفتح أذنا

30- المثوي العربي النوري: 70، 410 المكتوبات: 267 الشعاعات: 308

31- سورة القصص: 51

32- سورة طه: 113

33- من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي: 143-144

34- أسلوب الدعوة القرآنية، بلاغة ومنهاجا، ص 35، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية عابدين

35- نفس المصدر، ص 35

أو يصقل عقلا طال عهده بالعقل أو يجلو مهما قد غطي علىه تراكم الصداء³⁶ ونري المفسرين كثيرا ما يحملون المكررات على هذا المعني، وهو الشائع المشهور في التفسير فعلي سبيل المثال قال تعالى: (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) وقال تعالى: (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم)³⁷ يقول أبو السعود العمادي في توجيه هذا التكرار: “تكرير لتأكيد الأحكام المحتممة به وتفخيمها³⁸ قال الألوسي: “تكرير لمزيد التأكيد³⁹ وقال البيضاوي: “كرره ثالثا لمزيد التأكيد⁴⁰ وكذلك في قوله تعالى: (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقننا) وقوله (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا)⁴¹

يقول أبو السعود العمادي: “والتكرار لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهالكين القبيحين بطريق الاستقلال والإصالة⁴²”

وسبق أن أشير الى أقوال الإمام النورسي في الباب ولكنه يوضح أكثر فيقول: “اعلم أن القرآن مؤسس لهذا الدين العظيم المتين... ولا بد للمؤسس من التكرير للتقرير ومن الترديد للتأكيد ومن التكرار للتقرير والتأييد⁴³ مواطن تقرير المعني وتوكيده:

- 1) آيات الوعيد والتهديد كقوله تعالى: (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) [سورة النبأ]. وكقوله تعالى: (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين)
- 2) في مقام التعظيم والتهويل والتعجب كقوله تعالى: (القارعة ما القارعة) وكقوله تعالى: (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة)
- 3) في مقام الاعتاض كقوله تعالى: (فكيف كان عذابي ونذر) [سورة القمر] (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)
- 4) في الآيات المسوقة في مقام إنعام الله على عباده وبيان قدرته كقوله تعالى: (أفرأيتم ما تمنون) وقوله تعالى: (أفرأيتم ما تحرثون... أفرأيتم الماء الذي تشربون).⁴⁴

2) إفادة معني جديد:

كما سبق أن ذكر أن التكرار لا يخلو من الحكمة، وغالبا ما يكون ذلك في أن التكرار يفيد معني جديدة وعبرة ثانية في المتكرر، وإن القرآن قد اختار للتكرار أسلوبا بليغا وبديعا لا يخلو من فوائد جديدة وحكم بديعة، ونظرا لهذا الجانب قيل: “لا تكرر في القرآن الكريم” يقول النورسي مشيرا الى

36- الكشاف للزمخشري: 334/3

37- سورة النور: 58-59

38- تفسير أبي السعود: 75/4

39- روح المعاني للألوسي: 222/18

40- البيضاوي: 89/2

41- سورة فاطر: 39

42- تفسير أبي السعود: 246/4

43- المكتوبات: 268، المثوي العربي النوري: 71

44- مجلة البحوث الإسلامية، 241، العدد، 33 الإعجاز البياني للقرآن الكريم- أركانه ومظاهره، د/حسين مطاوع الترتوري

هذا الوجه:

“... ثم إن القرآن الكريم يظهر نوعاً من الإعجاز في تكراره البليغ لجملة واحدة أو لقصة واحدة وذلك عند إرشاده طبقات متباينة من المخاطبين إلى معان عدة وعبر كثيرة في تلك الآية والقصة، فافتضى التكرار حيث أنه كتاب دعاء ودعوة كما أنه كتاب ذكر وتوحيد، وكل من هذا يقتضي التكرار، فكل ما كرر في القرآن الكريم إذا من آية أو قصة تشتمل على معني جديد وعبرة جديدة”⁴⁵ ويؤكد هذا المعنى فيقول:

“إن لكل آية ظهراً وحداً ومطلعا ولكل قصة وجوهاً وأحكاماً وفوائد ومقاصد فتذكر في موضع لوجه وفي آخر لأخري، فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار فعلى هذا لا تكرر إلا في الصورة”⁴⁶

ومن المعلوم أن الغرض من تكرار القصص إنما هو تذكير واستدلال، وللتذكير والاستدلال مجريات مختلفة إذ يمكن الاستدلال من قصة واحدة على أمور مختلفة ويمكن الحصول على منافع متنوعة فلقد أعيدت قصة واحدة لأغراض شتى وأتى بياها عدة مرات.. ولكن المتأمل في هذا التكرار يطلع على أن كل قصة ذكرت في مكان لفائدة جديدة، ومن أجل هذا نرى أن قصة واحدة جاءت في سور مختلفة ولكنها ذكرت في كل موضع بأسلوب جديد وعبارة مختلفة.

وعند إمعان النظر في مباحث القرآن المكررة يتبين ذلك بغاية الوضوح وأحسن مثال على ذلك مبحث التوحيد والرسالة الذي كرر مرارا ولكن عند التعمق فيه يتضح أن الأسلوب متفرد في كل موضع، ففي موضع يأتي القرآن بذكر التوحيد حيث إن الاعتقاد به أصل الطبيعة الإنسانية وقد دعا إلى جميع الأنبياء السابقين وفي موضع آخر يذكر التوحيد لأن الاعتقاد به من مقتضيات نعم الله تعالى التي لا يأتي علىها الحصر في موضع ثالث كان السبب في ذلك أن نظام الكائنات والموجودات وانسجام بعضها مع بعض وتوافق بعضها ببعض دعوة ظاهرة إلى توحيد الربوبية.⁴⁷

وكذلك الآيات المكررة تكرارا كثيرا مثل (فبأي آلاء ربكما تكذبان) المكررة إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن، و (ويل يومئذ للمكذبين) المكررة عشر مرات في سورة المرسلات، وكذلك قوله تعالى: (إن ربك هو العزيز الرحيم) وغير هذه الآيات، وعند الإمعان نجدها تفيد معني جديدة كل ما تتكرر، وذلك لأن متعلق كل واحد يتغير عن الآخر، والآيات كلها تتشارك لفظاً لا حقيقة. يقول تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمان (م 505) في كتابه الذي لم يسبقه في موضوعه أحد:

“قوله تعالى: (ويل يومئذ للمكذبين) مكرر عشرة مرات لأن كل واحد منها ذكرت عقيب آية غير الأولى، فلا يكون تكراراً مستهجنًا، ولو لم يكرر كان متوعداً على بعض دون بعض”⁴⁸ ويقول في قوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان):

“كرر الآية إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعدد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم... وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، ثمانية أخري

45- الشعاعات: 225

46- المكتوبات: 268، المتنوي العربي النوري: 71

47- البعث الإسلامي، العدد 3، ذو القعدة 1415هـ، ص 24، الشيخ أبو الليث الندوي، راجع العدد نفسه، للتفصيل

48- أسرار التكرار في القرآن، 213، دار الاعتصام.

بعدها للجنيتين اللتين دولهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق الثمانيتين، ووقاه السبعة السابقة⁴⁹

ومشي على نفس الأسلوب أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (319هـ-388هـ) في كتابه "بيان إعجاز القرآن":

"وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقيلين من الإنس والجن وعدد على هم أنواع نعمه التي خلقها لهم فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر، وهي أنواع مختلفة وفنون شتى وكذلك هو في سورة الرسائل ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ في القرآن وأؤكد لإقامة الحجّة والإعذار"⁵⁰

يقول الإمام الرازي في قوله تعالى: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [سورة إبراهيم، آية 11] وقوله تعالى: (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [آية رقم 12]

"الأمر الأول لاستحداث التوكل والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلهذا كرره"⁵¹

ونفس المعنى اختاره الزمخشري في تفسير الكشاف (544/2)

3) بيان إعجاز القرآن وبلاغته للعرب:

فإن القرآن يؤكد تحديه للكفار بإتيان سورة أو آية مثله بهذه التكرارات حيث يوضح لهم بالتكرار أن هذه الآية أو المعنى يمكن أن يعبر هكذا، فما داموا لم يتمكنوا وعجزوا عن الإتيان بالمعنى بصورة واحدة فيهم عاجزون من باب أولي عن الإتيان بالمعنى الواحد بصور مختلفة.

والتكرار - كما علم - من أساليب البلاغة المستعملة لدى العرب، وقد عد الإمام النورسي الإشارة إلى بلاغة البيان في القرآن الكريم من أسباب التكرار في القرآن، وأوضح أن التكرار يرفع من بلاغة القرآن وفصاحته:

"وهكذا نرى أمثال هذه الأسس فيما تشتمل على أنواع التكرار في القرآن الكريم، حتى نرى أنه يعبر أكثر من عشرين مرة عن حقيقة التوحيد - صراحة وضمنا - في صحيفة واحدة من المصحف وذلك حسب اقتضاء المقام ولزوم الحاجة إلى الأفهام وبلاغة البيان، فيهيح بالتكرار الشوق إلى تكرار التلاوة ويمد به البلاغة قوة وسموا من دون أن يورث سآما أو مللا"⁵²

ويقول عن تكرار (فبأي آلاء ربكما تكذبان) و (ويل يومئذ للمكذبين):

"فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من أمثال هذه الحقائق، ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها لو تكررتا ألوف المرات في خطاب عام موجه إلى الجن والإنس لكانت الضرورة قائمة بعد، والحاجة إلىها مازالت موجودة باقية، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة ومعجزة جميلة"⁵³

"إن القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات أصالة وحقيقة بحيث إن التكرار الكثير - المسبب للسامة حتى من أطيب الأشياء - لا يورث الملل عنه عند من لم يفسد قلبه ويولد ذوقه بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا أمر مسلم به عند الجميع حتى غدا يضرب به الأمثال"⁵⁴

49- أسرار التكرار في القرآن: 198

50- بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، ص 53

51- مسائل الرازي، 159

52- الكلمات: 530

53- نفس المصدر

54- الشعاعات: 177

يقول الشيخ مناع القطان موضحا فوائد التكرار: “ومن فوائدها قوة الإعجاز، فيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي”⁵⁵

4) كون التكرار لبيان شيء عظيم:

إن القرآن الكريم لما أنه كتاب عقيدة فإنه يكرر دلائل التوحيد وإثبات أمور الآخرة، وإثابة البشر ودلائل إثبات الرسالة والرد على الفرق الضالة وبيان ما يرضي الله وما يسخطه وجزاء كل منهما، لأن هذه أشياء عظيمة تشير الى انقلابات كبيرة في الحياة الإنسانية.. فالآخرة أعظم انقلاب يحدث ضمن المخلوقات ودائرة الممكنات في تاريخ العالم، والتوحيد أعظم مسألة تخص الإنسان وتدور حوله سعادته وشقاوته الأبدية، وإثابة الإنسان بالجنة بشري تنقذه من تصور الموت إعداما أبديا وتمنحه سلطنة أبدية وتكسبه سعادة دائمة. وكفر الإنسان شقاوة وتجاوز يثير غضب السماوات والأرض.

ويوضح الإمام النورسي هذا الجانب أكثر فيقول مؤكدا:

“إنه لو قام به القرآن آلاف المرات بل ملايين المرات بل مليارات المرات لما عد ذلك إسرافا في البلاغة”⁵⁶

وقال في المتنوي العربي النوري:

“اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب الى الإيمان بها وعن حقائق دقيقة ويدعو القلوب الى معرفتها فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صورة مختلفة وأساليب متنوعة”⁵⁷

5) إثبات الرسالة وتسلية المؤمنين من أهم فوائد تكرار القصص:

إن الله سبحانه وتعالى يثبت رسالة نبيه على السلام بهذه القصص وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الأحمديّة وصدقها، حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من ينكر نبوتهم جميعا. كما أنه يسلي المؤمنين بذكر قصص الأنبياء بنجاح رسلكرام وخذلان أعداء طغاة وإن الله سينتقم من أعداءهم كما انتقم من عاد وثمود.⁵⁸

6) إتاحة فرصة لمن لا يقدر على قراءة جميع القرآن:

إن التكرار يفيد الشخص الذي لا يقدر أن يقرأ جميع القرآن الكريم، حيث يطلع على جميع مفاهيم المهمة، وهذا الوجه يتضح أكثر عند ما نعرف أن النبي (صلى الله عليه) كان يرسل الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنبياء متكررة لوقع شيء الى قوم وشيء الى قوم آخر، ومن ثم فقد لا يقدر الإنسان على قراءة جميع القرآن فيغنيه التكرار عن قراءة جميع القرآن لأنه يحصل له علم بمفاهيم القرآن كلها. يشير النورسي الى هذا الوجه ببلاغة فائقة:

“إن القرآن خطاب ودواء لجميع طبقات البشر من أذكي الأذكيا الى أغبي الأغبياء ومن أتقى الأتقياء الى أشقى الأشقياء، ومن الموفقين المجددين الفارغين من الدنيا الى المخدولين المتهاونين المشغولين بالدنيا، فإذا لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء لكل أحد في كل وقته فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سور، لاسيما الطويلة حتى صار كل سورة

55- مباحث في علوم القرآن، 308

56- بالاختصار عن الكلمات: 533-535

57- المتنوي العربي النوري: 71

58- الشعاعات: 304

قرآنا صغيرا فسهل السبيل لكل أحد وينادي مشوقا (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)..⁵⁹

فسهل السبيل لكل أحد دون أن يحرم أحد، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى على السلام.⁶⁰ وغير ذلك من المفاهيم اللازمة.

وأوضح هذا المعنى في كتابه الكلمات قائلًا:

“إن لأسلوب القرآن جامعية عجيبة حتى أن سورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه وإن آية واحدة تضم حزينة تلك السورة وإن أكثر الآيات - كل منها - كسورة صغيرة وأكثر السور كل منها كقرآن صغير، فمن هذا الإيجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للإرشاد وتسهيل واسع جميل، لأن كل إنسان على الرغم من حاجته إلى تلاوة القرآن كل وقت فإنه قد لا يتاح له تلاوته إما لغبائه وقصور فهمه أو لأسباب أخرى فلنكي لا يحرم أحد من القرآن فإن كل سورة في حكم قرآن صغير بل كل آية طويلة في مقام سورة قصيرة، حتى أن أهل الكشف متفقون أن القرآن في الفاتحة والفتحة في البسملة، أما البرهان على هذا فهو إجماع أهل التحقيق من العلماء.”⁶¹

ولو أن هذا الوجه ضعفه بعض العلماء حيث أن هذا الوجه - الكثير منه - يخص زمنا دون زمن ولكن يؤكد ما ورد في الإتقان في علوم القرآن:

“قال الشعبي: توفي أبو بكر وعمر وعلى رحمهم الله ولم يجمعوا القرآن، وقال لم يختمه أحد من الخلفاء غير عثمان”⁶²

7) إلهام العامة:

إن القرآن الكريم يخاطب العامة والخاصة من الناس، فلذا هو يراعي إلهام العامة وذلك لأنه مرشد، ومن شأن الإرشاد مماشاة نظر العوام ومراعاة حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور، وهذا كذلك من الوجوه التي يكرر الله تعالى لأجله.

يقول النورسي رحمه الله:

“انظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة وشفقته العظيمة على جمهور العوام ومراعاته لبساطة أفكارهم ونظرهم غير الثاقب إلى أمور دقيقة، انظر كيف يكرر ويكثر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السماوات والأرض فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تقرأ بكمال السهولة كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلا نادرا كيلا يصعب على هم الأمر”⁶³.

فهذا الخطاب الجليل الذي اكتسب من السعة والسمو والإحاطة والشمول ما اكتسب يبرز إعجازا رائعا وإحاطة شاملة بحيث إن مراتبه الفطرية والظاهرية التي تلاطف أفهام العوام البسيطة - وهم معظم المخاطبين - تمنح في الوقت نفسه حصة وافرة لأعلى المستويات الفكرية ولأرقى الطبقات العقلية.⁶⁴

ويشير تاج القراء الكرمانى إلى نفس هذا الوجه فيقول في كتابه عند توجيه قوله تعالى المكرر (ويل يومئذ للمكذبين):

59- المتنوي العربي النوري: 70

60- المكتوبات: 2/268

61- الكلمات: 535 1،/460

62- الإتقان في علوم القرآن: 125-122

63- اللغات: 196

64- الكلمات: 526

“ولأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعي إلى إدراك البغية من الإيجاز”⁶⁵

الخاصة:

قد تقدم أن التكرار في القرآن الكريم لا يخلو عن الحكمة، وقد تعرضنا لشيء من مباحث التكرار، وإنه مما ينبغي ذكره أن الإمام النورسي يتميز بين غيره من مبيني حكم التكرار، إن الإمام لا يقتصر بحثه على القصص أو المكررات اللفظية بل يحتوي على حكم جميع أقسام التكرار، ويظهر سعة علم الإمام النورسي ومطالعه من أنه كتب أكثر مباحث التكرار في السجن الذي لا تتوفر فيه الكتب ولكن كتاباته مع كل ذلك موافقة للجمهور. ونسأل الله رب العالمين أن يوفقنا جميعاً للاستقاء من هذه العين العظيمة والانتفاع بكتبه القيمة.

شكر:

وإن كما أتقدم بجزيل الشكر لمنظمي المؤتمر فكذلك أرى أن هذه الجهود ثمار دعوات الإمام

المستجابة:

“ولعل الله يبعث هيئة سعيدة من المنورين تجعل من هذا الجزء من “الكلمات” و”المكتوبات” الست والستين بل المائة والثلاثين من أجزاء رسائل النور مصدراً وتكتب في ضوئته تفسيراً من هذا القبيل”⁶⁶

ونحنم هذا البحث بأخر النتائج التي ذكرها الإمام النورسي حول المعترضين على تكرارات القرآن والقاصدين من وراء ذلك التشكيك في إعجاز القرآن الكريم، وذلك بعدما أوضحت رسائله حكم التكرار وبينت حججها وأثبتت مدى ملاءمة التكرار وانسجامه مع البلاغة ومدى حسنه وجماله الرائع، يقول الإمام النورسي:

“فلأن حقائق القرآن المكررة تملك هذه القيمة الراقية وفيها من الحكم ما فيها، فالفطرة السليمة تشهد أن في تكراره معجزة قوية وواسعة إلا من مرض قلبه وسقم وجدانه بطاعون المادية فتشمله القاعدة المشهورة:

قد ينكر المرء ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم”⁶⁷

65- أسرار التكرار في القرآن: 213

66- إشارات الإعجاز: 18

67- الشعاعات: 311، الكلمات: 537

حلول قرآنية لمشكلات إنسانية

الباحثة خديجة النبراوي^N

مقدمة

جولة داخل النفس

ماهية النفس البشرية "تعريف أنا":

قبل معرفة مشكلات الإنسان النفسية، وكيف وضع القرآن الحلول الحكيمة لعلاجها، لابد أولاً من معرفة "ماهية أنا" في الإنسان، وهو السؤال الذي يحير البشرية منذ الأزل، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. وقد بذل الإمام النورسي جهداً عظيماً في تعريف "أنا" وذلك في مواطن عدة من رسائل النور، هادفاً إلى الأخذ بيد الإنسان لمعرفة الله، انطلاقاً من قول الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم): (من عرف نفسه فقد عرف ربه). ويلجأ الإمام النورسي إلى تعريف "أنا" من وحى أسرار الآية الكريمة: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (الأحزاب: 72). فيقول رحمه الله⁽¹⁾: من الخزينة العظيمة لهذه الآية الجليلة، سنشير إلى جوهرية واحدة من جواهرها وهي: أن الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، لها معان عدة، ولها وجوه كثيرة. فمعنى من تلك المعاني، ووجه من تلك الوجوه، هو: "أنا". نعم! إن "أنا" بذرة، نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان أغصانها، وتنتشران فروعهما، في أرجاء عالم الإنسان، من لدن آدم عليه السلام إلى وقتنا الحاضر.

^N عضو بإتحاد الكتاب المصرية وباحثة متفرغة في مجال الفكر الإسلامي، حصلت على دراسات عليا في الإقتصاد سنة 1974 بتقدير امتياز. وحقت في مسابقات ثقافية لأجلت اسلامية الفوز بالمراكز الأولى. لها كتب وبحاث منشورة كثيرة. (1) ص 635 من الكلمات (الكلمة الثلاثون).

إن "أنا" مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون، فهو بحد ذاته طلسم عجيب ومعنى غريب.. ولكن بمعرفة ماهية "أنا" ينحل ذلك الطلسم العجيب، وينكشف ذلك المعنى الغريب "أنا" وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجوب.

فاعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان وفي نفسه. فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً، إلا أنها منغلقة حقيقة.. فالحق أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً، يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلق الكون.. والمفتاح هو ما فيك من "أنا". إلا أن "أنا" أيضاً معنى مغلق، وطلسم منغلق. فإذا فتحت "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة، وسر خلقته، انفتح لك طلسم الكائنات كالاتى:

إن الله وضع بيد الإنسان أمانة هي: "أنا" الذى ينطوى على إشارات ونماذج، يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجلية، وشئونها المقدسة. أى يكون "أنا" وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشئون الألوهية.

ومن المعلوم أنه: لا يلزم أن يكون للوحدة القياسية وجود حقيقى، بل يمكن أن تتركب وحدة قياسية بالفرض والخيال، كالخطوط الافتراضية فى علم الهندسة. أى لا يلزم لـ "أنا" أن يكون له وجود حقيقى بالعلم والتحقيق.. وهنا يثور ذلك التساؤل الحيوى:

◆ سؤال: لم ارتبطت معرفة صفات الله ψ وأسمائه الحسنى بـ "أنا" الإنسان؟

◆ الجواب: إن الشئ المطلق والمحيط، لا يكون له حدود ولا نهاية، فلا يعطى له شكل، ولا يحكم عليه بحكم، وذلك لعدم وجود وجه تعين وصورة له، لذا لا تفهم حقيقة ماهيته.

فمثلاً: الضياء الدائم الذى لا يتخلله ظلام، لا يشعر به ولا يعرف وجوده، إلا إذا حدد بظلمة حقيقية أو موهومة.

وهكذا: فإن صفات الله I: كالعلم والقدرة - وأسمائه الحسنى: كالحكيم والرحيم.. لأنها مطلقة لا حدود لها، ومحيطه بكل شئ، لا شريك لها ولا ند، لا يمكن الإحاطة بها، أو تقيدها بشئ، فلا تعرف ماهيتها، ولا يشعر بها.. لذا لا بد من وضع حد فرضى وخيالى، لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها، حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها.. وهذا ما تفعله "أنا" فى الإنسان. إذ يتصور فى نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلما. فيحدد حدوداً معينة، ويضع بها حداً موهوماً، لصفات محيطية وأسماء مطلقة. فيقول مثلاً: من هنا إلى هناك لى، ومن بعده يعود إلى تلك الصفات. أى يضع نوعاً من تقسيم الأمور، ويستعد بهذا إلى فهم ماهية تلك الصفات غير المحدودة، شيئاً فشيئاً، وذلك بما لديه من موازين صغيرة، ومقاييس بسيطة.

فمثلاً: يفهم بربوبيته الموهومة التى يتصورها فى دائرة ملكه، ربوبية خالقه المطلقة I فى دائرة الممكنات.. ويدرك بمالكيته الظاهرية، مالكية خالقه الحقيقية، فيقول: كما أننى مالك لهذا البيت، فالخالق سبحانه كذلك مالك لهذا الكون.. ويعلم بعلمه الجزئى، علم الله المطلق.. ويعرف بمهارته المكتسبة الجزئية، بدائع الصانع الجليل،

فيقول مثلاً: كما أنني شيدت هذه الدار ونظمتها، كذلك لا بد من منسئ لدار الدنيا ومنظم لها.

وهكذا: فقد اندرجت في "أنا" آلاف الأحوال والصفات والمشاعر، المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة، التي تستطيع أن تدل وتبين -إلى حد ما- الصفات الإلهية وشئونها الحكيمة كلها.

أى أن "أنا" لا يحمل فى ذاته معنى، بل يدل على معنى فى غيره، كالمرأة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف، والمعنى الحرفى. فهو شعرة حساسة من حبل وجود الإنسان الجسيم.. وهو خيط رفيع من نسيج ثوب ماهية البشر.. وهو حرف "ألف" فى كتاب شخصية بنى آدم، بحيث أن ذلك الحرف له وجهان:

♦ وجهه متوجه إلى الخير والوجود، فهو فى هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، أى يقبل الإفاضة عليه فقط، إذ هو عاجز عن إيجاد شىء فى هذا الوجه، أى: ليس فاعلاً فيه، لأن يده قصيرة لا تملك قدرة الإيجاد.

♦ والوجه الآخر: متوجه إلى الشر، ويفضى إلى العدم، فهو فى هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

وبذلك فإن ماهية "أنا" حرفية: أى يدل على معنى فى غيره، فربوبيته خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل، إلى حد لا يطيق أن يحمل بذاته أى شىء كان، ولا يطيق أن يحمل عليه شىء. بل هو ميزان ليس إلا، يبين صفات الله تعالى، التى هى مطلقة ومحيطة بكل شىء، بمثل ما يبين ميزان الحرارة، وميزان الهواء، والموازن الأخرى، مقادير الأشياء ودرجاتها.

♦ فالذى يعرف ماهية "أنا" على هذا الوجه، ويدعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى: (قد أفلح من زكاهها) (الشمس: 9) ويكون قد أدى الأمانة حقها، فيدرك بمنظار "أنا" حقيقة الكائنات والوظائف التى تؤديها.. وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية إلى النفس، تجد فى "أنا" ما يصدقها، فتستقر تلك المعلومات علوماً نورانية، وحكمة صائبة فى النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العبثية.

وحينما يؤدى "أنا" وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة، ومالكيته المفترضة -التي هى وحدة قياس ليس إلا- ويفوض الملك لله وحده قائلاً: له الملك، وله الحمد، وله الحكم، وإليه ترجعون. فيلبس لباس عبوديته الحق، ويرتقى إلى مقام أحسن تقويم. ولكن إذا نسى "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمى، تاركا وظيفته الفطرية، معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي: (وقد خاب من دساها) (الشمس: 10).

وهكذا فإن إشفاق السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتين من شرك موهوم مفترض، إنما هو من هذا الوجه من "الأنا" التى تولد جميع أنواع الشرك والشور والضلالات.

أجل! إن "أنا" مع أنه ألف رقيق، خيط دقيق، خط مفترض، إلا أنه إن لم تعرف ماهيته، ينمو فى الخفاء، كنمو البذرة تحت التراب، ويكبر شيئاً فشيئاً، حتى ينتشر فى

جميع أنحاء وجود الإنسان، فيبتلعه ابتلاع الثعبان الضخم، فيكون ذلك الإنسان بكامله، وبجميع لطائفه ومشاعره، عبارة عن "أنا". ثم تمده "أنانية" النوع، نافخة فيه روح العصبية النوعية والقومية، فيستغلظ بالاستناد على هذه "الأنانية" حتى يصير كالشيطان الرجيم، يتحدى أوامر الله ويعارضها. ثم يبدأ بقياس كل الناس، بل كل الأشياء على نفسه، ووفق هواه، فيقسم ملك الله سبحانه، على تلك الأشياء، وعلى الأسباب، فيتردى في شرك عظيم، يتبين فيه معنى الآية الكريمة: (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان: 13).

إذ كما أن الذي يسرق أربعين ديناراً من أموال الدولة، لا بد أن يرضى أصدقائه الحاضرين معه، بأخذ كل منهم درهماً منه، كي تسوغ له السرقة، كذلك الذي يقول: إنني مالك لنفسى، لا بد من أن يقول ويعتقد: إن كل شيء مالك لنفسه. وهكذا فـ "أنا" في وضعه هذا المتلبس بالخيانة للأمانة، إنما هو في جهل مطبق، بل هو أجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة، حتى لو علم آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن ما تتلقفه حواسه وأفكاره، من أنوار المعرفة المبتوثة في رحاب الكون، لا يجد في نفسه مادة تصدقه وتنوره وتديمه. لذا تنطفئ كل تلك المعارف، وتغدو ظلاماً دامساً، إذ ينصبغ كل ما يرد إليه، بصبغة نفسه المظلمة القائمة، حتى لو وردت حكمة محضه باهرة، فإنها تلبس في نفسه لبوس العبس المطلق، لأن لون "أنا" في هذه الحالة هو الشرك، وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة، وإنكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدى، فإن النقطة المظلمة في "أنا" تكسف جميع تلك الأنوار القادمة، وتحجبها عن الظهور.

تعريف إجمالي لماهية النفس البشرية:

وفي موضع آخر من رسائل النور، يبين الإمام النورسي ماهية النفس البشرية، بصورة أكثر تحديداً، وفي نقاط محددة واضحة فيقول (2): "يا نفسى الغافلة! إن كنت تريد أن تفهمي شيئاً من: غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك. فإليك ما تريد: "

إن مجمل "غايات حياتك" تسعة أمور:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية، بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثها: إعلان ما ركبت فيك الأسماء الحسنى، من لطائف تجلياتها وبدائع صنعته، وإظهار تلك اللطائف البديعة، أمام أنظار المخلوقات، بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة، في معرض الدنيا هذه.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

(2) ص 137 : 140 من الكلمات (الكلمة الحادية عشرة).

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية، التي وهبها لك تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي جل وعلا.. مثلك في هذا كمثل الجندي، الذي يتقلد الشارات المتنوعة، التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره، ليظهر آثار تكرمه عليه وعنايته به.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوى الحياة، شهود علم وبصيرة، إذ هي تحياتها ودلالاتها بحياتها على بارئها سبحانه.. ورؤية تسبيحاتها لخالقها، رؤية تفكر وعبرة، إذ هي رموز حياتها.. وعرض عبادتها إلى واهب الحياة سبحانه، والشهادة عليها، إذ هي غاية حياتها ونتيجتها.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك، من علم جزئي، وقدرة جزئية، وإرادة جزئية، أى جعلها نماذج مصغرة، ووحدة قياسية، لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.
فمثلاً: كما أنك قد شيدت هذه الدار بنظام كامل، بقدرتك الجزئية وإرادتك الجزئية، وعلمك الجزئي، كذلك عليك أن تعلم -بنسبة عظمة بناء قصر العالم، ونظامه المتقن- أن بناءه قدير، عليم، حكيم، مدبر.

ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل موجود فى العالم، وإدراك كلماته المعنوية - كل حسب لسانه الخاص- فيما يخص وحدانية خالقه، وربوبية مبدعه.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية، والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية فى نفسك، إذ كما تدرك أنواع الأطعمة ودرجاتها ولذاتها، بدرجات الجوع، وبمقدار الاحتياج إليها، كذلك عليك فهم درجات القدرة الإلهية، وثروتها المطلقتين، بعجزك وفقرك غير المتناهيين.

فهذه الأمور التسعة وأمثالها هي مجمل "غايات حياتك".

أما "ماهية حياتك الذاتية" فمجملها هو:

أنها فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى..

ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفاتها الجليلة..

وميزان للعوالم التي فى الكون..

ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير..

وخريطة لهذا الكون الواسع..

وفذلكة لكتاب الكون الكبير..

ومجموعة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية..

وأحسن تقويم للكلمات المبنوثة فى الموجودات، والمنشورة على الأوقات

والأزمان..

فهذه وأمثالها هي "ماهية حياتك".

وإليك الآن "صورة حياتك" وطرز وظيفتها، وهى: إن حياتك كلمة حكيمة، مكتوبة بقلم القدرة الإلهية.. وهى مقالة بليغة، تدل على الأسماء الحسنى، المشهودة والمسموعة.. فهذه وأمثالها هي صورة حياتك.

أما "حقيقة حياتك" وسرها فهى:

أنها مرآة لتجلى الأحذية، وجلوة الصمديّة، أى أن حياتك كالمرآة، تنعكس عليها تجلى الذات الأحد الصمد، تجلياً جامعاً، وكأن حياتك نقطة مركزية، لجمع أنواع تلك التجليات الإلهية، المتجلية على العالم أجمع.

أما "كمال سعادة حياتك" فهو:

الشعور بما يتجلى من أنوار التجليات الإلهية، فى مرآة حياتك وحبها، وإظهار الشوق إليها، وأنت مالكٌ للشعور، ثم الفناء فى محبتها، وترسيخ تلك الأنوار المنعكسة، وتمكينها فى بؤبؤ عين قلبك.

فيا نفس!

أن حياتك التى تتوجه إلى مثل هذه الغايات المثلى، وهى الجامعة لمثل هذه الخزائن القيمة.. هل يليق عقلاً وإنصافاً أن تصرف فى حظوظ تافهة، تلبية لرغبات النفس الأمارة، واستمتاعاً بلذائذ دنيوية فانية، فتهدر وتضيع بعد ذلك.

فإن كنت راغبة فى عدم ضياعها سدى، ففكرى وتدبرى فى القسم، وجواب القَسَم، فى سورة "الشمس": **والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها .**

من أمراض ضلالة النفس:

فرعونية النفس:

يرى الإمام النورسى أن الغفلة عن المالك الحقيقى Ψ سبب لفرعونية النفس⁽³⁾، فتنوهم نفسها مالكة لها، فيتشكل فى وهمها دائرة لحاكميتها، ثم تقيس الناس بل الأسباب على نفسها، فتقسم مال الله عليها، فتعارض الأحكام الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها. مع أن الحكمة فى إعطاء أنانية لها، أن تصير واحداً قياسياً، لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفتها فى غير ما وضعت له.

فماذا يرد الإمام النورسى على تجاوز النفس لحدودها؟

يقول رحمه الله⁽⁴⁾: **إن من أعاجيب فطرة الإنسان فى وقت الغفلة، التباس أحكام اللطائف والحواس. كالمجنون الذى يصل نظره إلى شىء، فيمد يده إليه، ظناً منه - لمجاورة العين لليد- أن ما يحصل بتلك، يحصل بهذه أيضاً. فالإنسان الغافل الذى لا يصل يد اقتداره، إلى تنظيم أدنى جزء من أجزاء نفسه، يتناول بغروره وسعة خياله، إلى الحكم والتحكم فى أفعال الله فى الأفاق.**

وكذا من أعجب فطرة البشر أن أفرادهم، مع تقارب درجاتهم فى الصورة الجسمية، يتفاوتون معنى بدرجات كبيرة، كما بين الذرة إلى الشمس، إلى شمس الشمس - خلافاً لسائر الحيوانات والطيور. فكأن الإنسان إذا لم تحدد قواه، وتوجه الوجهة الصحيحة، أمكن له أن ينتزل ويتسفل "بالأنانية" إلى أن يكون هو والذرة سواء.. وكنا جاز له أن يتجاوز بالعبودية ويترك "أنا" إلى آفاق عالية، ويصير بفضل الله كشمس الشمس، مثل محمد (صلى الله عليه وسلم).

(3) ص 128 من المثنوى العربى النورى (قطرة).

(4) ص 231 من المثنوى العربى النورى (حبة).

فيا أيتها الحجيرة الكبرى المعبرة "بأنا" المركبة من تلك الحجيرات! فقل: يا إلهي، يا ربي، يا خالقي، يا مصوري، يا مالكي، يا سيدي، يا مولاي، لك الملك ولك الحمد، أنا مسافر في وديعتك، وأمانتك ومملوكك، الذي هو هذا الجسد بمشتملاته.

واعلم يا "أنا" أن لك أمور تسعة في دنياك، تعاميت عن ماهيتها وعواقبها(5):

♦ أما جسديك: فكالثمرة المتزهرة المتزينة صيفاً، المنكشمة المتسخة شتاء.
♦ وأما حيوانيتك (أي حياتك المادية): فانظر إلى جنس الحيوان، كيف يسرع فيهم الموت والزوال.

♦ وأما إنسانيتك: فمتردة بين الانطفاء والاصطفاء، والزوال والبقاء، فاستحفظ على ما بقي، بما من شأنه أن يبقى بذكر الدائم الباقي.

♦ وأما حياتك (أي مدة بقائك وعمرك): فكفامتك قصيرة، معينة الحدود، لا تقدم ولا تؤخر. فلا تتألم ولا تحزن ولا تخف عليها، ولا تحملها ما لا طاقة لها به، مما تطاول إليه طول الأمل.

♦ وأما وجودك: فليس ملكاً لك، فله مالك، له الملك وأشفق به منك، فمداخلك بغير ما أمرك به، فكما أنها من الفضول، وشغل فضولي، فكثيراً ما تضر. ألا ترى الحرص وأرق النوم، كيف يفعلان ويجلبان الخيبة والسهر!

♦ وأما مصائبك: فليس لها مرارة حقيقية، لأنها تمر سريعاً، بل تحلو لأنها تحول، فتحول وجهك من الفناء في الفاني، إلى البقاء بالباقي. وأما أنت هنا الآن، فمسافر ثم مسافر، والمسافر لا يعلق قلبه بما لا يتعلق به، ويفارقه بسرعة. فكما ستفارق هذه الدنيا الفانية بالضرورة فاخرج وأنت عزيز، قبل أن تطرد وأنت ذليل.

♦ وأما وجودك: فافده لموجده الذي يشتريه بثمن غال، فسارع إلى البيع بالفداء - أولاً: لأنه يزول مجاناً - وثانياً: لأنه ماله وإليه يؤول - وثالثاً: لأنه إن اعتمدت عليه، سقطت في العدم، لأنه باب إليه، وإذا فتحته بالترك، وصلت إلى الوجود الثابت - ورابعاً: لأنه إذا تمسكت به، كان في يدك نقطة وجود فقط، ويحيط بك ما لا يتناهى من مواطن الإعدام الهائلة.. وإذ انفضت يدك منه، استبدلت لمعة بشمس، فينقلب محيطك إلى ما لا يتناهى من أنوار الوجود.

♦ وأما لذائذ الدنيا: فقسمتك تأتيك، فلا تطش في طلبها.. ولزوالها بسرعة، لا يليق بالعاقل تعليق القلب بها. وكيفما كانت عاقبة دنياك، فترك اللذائذ أولى، إذ إما إلى السعادة، وهي تستلزم تركها.. وإما إلى الشقاوة، ومن ينتظر الصلب، كيف يلتذ ويستعذب ما يزيد عذابه، من تزيينات آلات الصلب؟ إذ بزوال اللذة يحس ذلك العدم الهائل بألمه الأليم، وهذا الألم أثقل بمراتب من لذة الوصال، إن كنت تشعر.

ويختتم الإمام النورسي خطابه لضلالة النفس وغفلتها قائلاً(6):

أيها السعيد الشقي! ما هذا الغرور والغفلة والاستغناء؟ ألا ترى أن ليس لك من الاختيار إلا شعرة، وليس لك من الاقتدار إلا ذرة، وليس لك من الحياة إلا شعلة

(5) ص 221 من المثنوى (حبة).

(6) ص 191 من المثنوى (حباب).

تتطفئ، وليس لك من العمر إلا قليل، مثل دقيقة تنقضى، وليس لك من الشعور إلا لمعة تزول، وليس لك من الزمان إلا أن يسيل، وليس لك من المكان إلا مقدار القبر! ولك من العجز ما لا يحد، ومن الاحتياج ما لا يتناهى، ومن الفقر ما لا يحصى، ومن الآمال ما لا غاية لها، وهكذا.. فمن كان بهذه الحالة من العجز، وفي هذه الدرجة من الحاجة، هل يتوكل على ما فى يده، ويعتمد على نفسه؟! أو يتوكل على الله الرحمن الرحيم، الذى من خزائن رحمته وصناديق نعمته: هذه الشمس، وهؤلاء الأشجار المملوءة من الأنوار والأثمار، ومن موازيب حوض فيضه: الماء والضياء. فيا نور النور بحق اسمك النور، أخرجنا من الظلمات إلى النور (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (البقرة: 257).

قلب موازين الأمور:

♦ إن فى النفس عقدة مغلقة مذهشة: تصير الضد مولد الضد، وترى ما عليها كأنه لها⁽⁷⁾.

فمثلاً: إن الشمس تصل يدها إليك، تمسح أو تضرب وجهك، ولا تصل يدك إليها، ولا يؤثر مزاجك فيها. فهى قريبة إليك، بعيدة منك. فكما أن جعل وجه البعيدة، دليلاً على عدم تأثيرها فيك، ووجه القريبة دليلاً على تأثرها منك، جهل.. كذلك نظر النفس -بعين الهوى والأنانية- إلى خالقها القريب إليها، البعيد منها سبب ضلالتها.

♦ واعلم أن النفس تديم الغفلة، بربط الدنيا بالآخرة، كأنها منتهاهما، كلابل معكوستها. فيتصور الآخرة - ولو مع الشك، تتخلص من دهشة فناء الدنيا وألم الزوال، وبسبب الغفلة أو الشك، تريد الخلاص من كلفة العمل للآخرة، وتنظر إلى الأسلاف الميتين، كأنهم أحياء غائبون، فلا تعتبر بالموت⁽⁸⁾.

♦ وكثيراً ما يثبت عروق مطالبها الدنيوية، فى أرض الآخرة للتأييد بدسياسة: إن تلك المطالب لها وجهان: وجه إلى الدنيا لاثبات له، بل هباء منثوراً. ووجه إلى الآخرة تتصل أساساته بأرضها فتدوم.. كالعلم مثلاً له وجه مظلم ووجه مضىء. فالنفس الشيطانية تريك المضىء وتبلعك المظلم، إذ النفس نعامة تغمر رأسها فى الغفلة، والشيطان سوفسطائى (ينكر كل شىء).. والهوى بيطاشى (أى يغير معانى الأشياء)⁽⁹⁾.

♦ إن القلب ما خلق للاشتغال بأمر الدنيا قصداً، لأنه إذا تعلق بشىء تعلق بشدة، واهتم به اهتماماً عظيماً، ويتطلب فيه أبدية ودواماً، ويفنى فيه فناء تاماً.. لذلك فمن فى قلبه حياة، إذا توجه إلى الكائنات، يرى من عظام الأمور، ما لا يحيط به، ويعجز عن إدراكه، ويتحير فيه. ويرى من عجائب المخلوقات وغرائبها، ما لا يطيق مقاييس عقله وزنها، ويضيق ذهنه عن محاكمتها.

(7) ص 635 من المنوى (ذيل القطرة).

(8) ص 301 من المنوى (ذرة).

(9) ص 233 من المنوى (حبة).

♦ اعلم أنك بسيئاتك، لا تضر الله شيئاً، إنما تضر نفسك. مثلاً ليس فى الواقع شريك لله، حتى تقويه باعتقادك، فتؤثر فى كمال ملكه تعالى، بل هو فى ذهنك وفى عالمك فقط، فتخرب بيتك على رأسك. فمن توكل على الله فهو حسبه.. فقل "حسبى الله ونعم الوكيل". وكفاك فخراً بلا نهاية -لا كفخر بكمال كبرائك- أن يكون لك وكيل قدير على كل شىء، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: لأنه الكامل المطلق، والكامل محبوب لذاته، وتفدى له الأرواح.

ثانياً: لأنه محبوب لذاته، وهو المحبوب الحقيقى، والمحبة تقتضى الفداء.

ثالثاً: لأنه الموجود الواجب. وبقربه أنوار الوجود. وبيعه ظلمات العدمت، وألم أليم فى أفول آمال الروح الإنسانى.

رابعاً: لأنه الملجأ والمنجأ للروح، الذى ضاقت عليه الأكوان، وآلمته مزخرفات الدنيا، وعادته الكائنات، وانقض ظهره تحت الشفقة اليتيمة، والمرحمة المأتمية.

خامساً: لأنه الباقي الذى به البقاء، وبدونه الزوال، وكل العذاب فى الزوال. وبدونه يتراكم على الروح آلاف بعدد الموجودات، وبه يتظاهر على المتوكل أنوار بعددها.

سادساً: لأنه المالك يحمل عنك ملكه الذى عندك، إذ لا تطبيق حمل، فبتوهم التملك تقع فى عذاب أليم أليم. فليقائه ودوام إنعامه، لا تغتم بفناء ما فى يدك، كما لا تحزن الحبابات المتشمسة بالتحول والانحلال. فلاظهار تجددات تجليات الشمس، يفدى الحباب صورته بكمال النشاط، بل يموت وهو يضحك. وكما لا تغتم الثمرات بفراق الشجرة، ولا النواة بانحلال الثمرة، ولا أنت بزوالها، إذ تقولون: فلتحيا الشجرة، إذ فى حياتها، موتنا حياة.. يا هذا أنت ثمرة إنعاماته، بل مجسم إنعاماته.

سابعاً: لأنه الغنى المغنى، وبيده مقاليد كل شىء، إذا صرت عبداً خالصاً له، ثم نظرت إلى الكائنات تراها ملك مالكك، وحشمته وحواشيه، فتتنزه بها كأنها ملك لك، بل أعلى، بلا كلفة ولا ألم زوال.. إذ الخادم الخالص للملك، والفانى فى محبته، يفخر بكل ما للملك.

ثامناً: لأنه رب الأنبياء والمرسلين، والأولياء والمتقين، وكلهم مسعودون فى رحمته. فعلمك بسعادتهم يعطيك فى شقاوتك سعادة ولذة، إن كنت ذا قلب.

فيا نفسى المسكينة: لم تتوهمين نفسك خارجة عن دائرة الأوامر الإلهية، حتى يلزم عليك مراعاة كل حى واحترامه، أو ظلم الكل بعدم الأهمية⁽¹⁰⁾. فهذا حمل ثقيل لا يطاق حمله، فحينئذ لا بد أن تتركى الشرك، الذى هو أجنبى عن الفطرة، وتدخل فى دائرة ملك الله، حتى تبعدى عن دائرة الشياطين، وتتجى من صفات النفس الأمارة، التى تصبح كالنعامة التى تظهر الوجه المضىء من أمور العالم، بأن له فوائد ستظهر فى الآخرة، وإن لم تظهر فى الدنيا، وذلك لتبلىع الإنسان الوجه المظلم منه. ويصدق عليه قول الحق جل شأنه: (إن الإنسان لظلم لظلم) (إبراهيم: 34).

ميل النفس للبقاء والدوام:

إن أشد ما تطلبه النفس الناطقة: البقاء والدوام. حتى لو لم تتخضع بتوهم الدوام، ما التذت بشئ.

فيا من ابتلى بحب هذه الحياة، حتى حسبت أن العلة الغائية في الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعته القدرة الأزلية، في جوهر الإنسانية وذوى الحياة، من الجهيزات العجيبة، والتجهيزات الخارقة.. إنما أعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة، السريعة الزوال، ولأجل البقاء.. كلا ثم كلا. إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهر وأنور دلائل الحكمة والعناية والانتظام، بإجماع شهادة نظام الكائنات، أعجب وأغرب، وأنسب مثال للعبثية والإسراف، وعدم الانتظام وعدم الحكمة. بل يرجع إلى الحر من ثمرات الحياة وغاياتها، بمقدار درجة مالكية الحى للحياة، وتصرفه الحقيقى فيها. ثم سائر الثمرات والغايات، راجعة إلى المحبى ψ بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته، فى جنته فى الحياة الأخروية، التى هى ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية⁽¹¹⁾.

فيا أيتها النفسى طالبة الدوام: اشتملى على ذكر الدائم لتدومى، وكونى زجاجة لنوره لئلا تنطفى، وصدفا لدره لتصطفى، وبدنا لنسيم ذكره لتحىي، وتمسكى بالخيط النورانى، الذى هو شعاع من اسم من الأسماء الإلهية، لئلا تسقطى فى فضاء العدم. فالثمرة الغافلة، إذا لم تتوجه إلى ما تقوم به، وانجذبت إلى متهاتات الشرك وإغراءاته الزائفة، انقطعت وسقطت على رأسها.

فيا نفسى استندى على ما يقومك، ولا تشركى بالله (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان: 13).

فإن ما أنعم الله به عليك من وجودك وتوابعه، ما هو إلا إباحة وليس بتمليك. فلك أن تتصرفى فيما أعطاك، كما يرضى من أعطى، لا كما ترضى أنت. كمن أضاف أحدا، ليس للضيف أن يسرف، أو يصرف، فيما لا إذن للمضيف فيه⁽¹²⁾.

نفس أمارة ثانية:

قبل أن نختتم جولتنا داخل النفس البشرية، لتحديد بعض معالمها، لنفهم بعمق عظمة الحلول القرآنية فى مواجهة مشكلات تلك النفس الإنسانية.. نعرض فى نهاية جولتنا، ذلك الاكتشاف اللماح للإمام النورسى، الذى يدل على شفافيته، وقدمه الراسخة فى الإحاطة بملامح النفس، فى جميع جوانبها.

يقول الإمام τ وأرضاه⁽¹³⁾:

رأيت -فى وقت ما - لدى عدد من الأولياء العظام- ممن نجوا من أضرار نفوسهم الأمارة بالسوء، مجاهدات نفسية، وشكايات منها.. فكانت أحرار فى الأمر كثيرا. ولكن بعد مدة طويلة، رأيت أن هناك نفسا أمارة معنوية -غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية- هى أشد عصيانا من الأولى، وأكثر نفورا من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق

(11) ص 193 من المتنوى (حجاب).
 (12) ص 208 من المتنوى (ذيل الحجاب).
 (13) ص 210 من الملاحق (ملحق قسطنطين).

الذميمة، هي النفس الثانية. وهي مزيج من الهوس، والمشاعر والطباع، وهي موعلة في الأعصاب والعروق، وهي الحصن الأخير، الذي تحتوى به النفس الأمانة. وهي التي تتولى القيام بوظيفة النفس الأمانة، السيئة السابقة -التي تزكت منها- فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر.

وأدركت حينها أن أولئك الأفاضل الميامين، ما كانوا يشكون من النفس الأمانة الحقيقية، بل من نفس أمانة مجازية. ثم شاهدت أن الإمام الرباني أحمد الفاروقى السرهندي أيضاً، يخبر عن هذه النفس المجازية.

ولما كانت حواس هذه النفس الأمانة الثانية عديمة الشعور، عمياء لا تبصر فلا تفهم أقوال العقل، ولا تدرك نصائح القلب، ولا تغير لها سمعاً، كى تنصلح وتدرك تقصيراتها.. لذا لا ترتدع عن السيئات إلا بلطحات التأديب وصفعاتها، وبالآلام. أو بالتضحية التامة، بحيث يضحي المرء بمشاعره وحواسه كلها، للهدف الذى يصبو إليه، فيترك أنانيته كلياً، بل كل ما يملكه لذلك الهدف.. وفى هذا العصر العجيب، تتفق النفسان الأمارتان -الحقيقية والمجازية- معا بتلقينات رهيبية، حتى تدفعا الإنسان، ليدخل فى السيئات والآثام، طوعاً وبرغبة منه، تلك السيئات التى ترتعد من شناعتها الكائنات.

فكيف النجاة من هاتين النفسين الأمارتين بالسوء؟

يرد على هذا السؤال الإمام النورسى بقوله⁽¹⁴⁾: كما أن الحبة من بذور الحبوب، ونوى الثمرات، إذا ثقبت فى قلبها، لا تتكبر بالتنبت. كذلك حبة "أنا" إذا ثقبت بشعاع ذكر: الله.. الله.. لا تتعاطم تلك الأنانية، متفرعة بالانتعاش ومتفرعة بالغفلة، ومستحصنة ومستندة بآثار النوع، ومبارزة بالعصيان لجبار السموات والأرض. والأولياء موفقون لفتح حبة القلب، وكشف طريق قصير، بثقب جبل "أنا" وكسر رأس "النفس" بمثقاب الذكر الخفى. كذلك بالذكر الجهرى، تخرب طاغوت الطبيعة أو تمزق.

فالذكر من شأنه أن يكون من الشعائر⁽¹⁵⁾، والشعائر أرفع من أن تنالها أيدي الرياء. وفى الذاكر لطائف مختلفة فى الاستفاضة، بعضها يتوقف على شعور العقل والقلب، والبعض الآخر لا شعورى تحصل الاستفادة منه، من حيث لا يشعر الإنسان. فالذكر مع الغفلة أيضاً، لا يخلو من الإفاضة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: (فأذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) (البقرة: 152).

وبعد استعراض تلك الجولة السريعة، داخل النفس البشرية، ننتقل إلى الشق الأول من بغيتنا بهذا البحث، وهو التعرف على بعض الحلول القرآنية، فى مواجهة مشكلات الإنسان النفسية، معترفين أن كل دورنا هو: التقاط بعض اللآلى من كنوز القرآن الكريم، التى اعترف منها الإمام النورسى، ببصيرته النفاذة، وسبقه الذى لا يبارى فى

(14) ص 192 من المثنوى (حباب).

(15) ص 179 من المثنوى (حباب).

عالم الحقيقة.. داعين الله من أعماق قلوبنا أن يكون بحثنا هذا فاتحة خير للبشرية، ولبنة في بناء البحث العلمي لتحقيق الأمن النفسى للإنسانية.

كيف عالج القرآن مشكلات الإنسان النفسية؟

نظراً لأن النفس البشرية طلسم عجيب، ولغز كبير، كما قال الإمام النورسى، فإنها تحوى من المشاعر والانفعالات، ما لا يقدر على مواجهتها إلا القرآن، الذى يحوى من العلاجات النورانية ما تعجز عنه كل القدرات الطبية، المختصة بعلم النفس. ونحن أمام هذا الخضم الهائل، من الانفعالات النفسية، وأمام تلك الإشعاعات المبهرة، من الآيات القرآنية، التى فيها شفاء لما فى الصدور، واطمئنان القلوب.. لا يمكننا أن نوفى الموضوع حقه، من جميع جوانبه، إنما هى أمثلة ونماذج، تصلح كمؤشر، لمن يريد مزيداً من الغوص فى أعماق الحقيقة، لتحقيق مراحل أعمق وأرسخ من اليقين، فى معراجة الروحى. وصدق الله العظيم إذ يقول: **(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (العنكبوت: 43)**. ومن منطلق قدراتنا المحدودة، وعجزنا الذى لا يوصف، نقدم بعض الأمثلة لمشكلات الإنسان النفسية، فى كل زمان ومكان، وكيف قدم لها القرآن العلاج، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ممن كان له قلب حى بنور الإيمان، أو ألقى السمع وهو شهيد:

المشكلة النفسية الأولى

الرعب من مواجهة الموت وفراق الدنيا والأحبة

إن الإنسان بما أودع الله فيه من ماهية جامعة، يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى.. ففى تلك الماهية الجامعة، من الاستعداد غير المحدود للمحبة، ما يجعله يكن حبا عميقاً، تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة، كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة، كما يحب بيته⁽¹⁶⁾. بينما تلك الموجودات التى وجه الإنسان حبه نحوها لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الإنسان دائماً عذاب ألم الفراق للمحوبات الفانية.

كما أنه فى فطرة الإنسان عشق شديد نحو البقاء، حتى أنه يتوهم نوعاً من البقاء فى كل ما يحبه، بل لا يحب شيئاً إلا بعد توهمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر فى زواله أو يشاهد فناءه، يطلق عليه الزفريات والحسرات والآهات من الأعماق. وهكذا فإن الرعب من مواجهة الموت، وفراق الدنيا والأحبة، ينشأ من خصائص نفسية الإنسان وهى: الاستعداد غير المحدود للمحبة، وعشق البقاء.

فكيف عالج القرآن ذلك المرض النفسى للإنسان؟

استلزمت حكمة الحكيم الخبير، أن يكون ذلك العلاج شاملاً عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: تجريد القلب مما سوى الله تعالى، وتوجيه استعداد المحبة فى الإنسان، إلى من له جمال خالد مطلق، وقطع العلاقات مع الموجودات الفانية الزائلة، حتى لا يذوق الإنسان وبال أمره، بآلام الفراق، وما يتبعه من جراحات وآلام. فقال المولى Y بصورة قاطعة، تدعو إلى قطع الوشائج التى تربط القلب بالموجودات، وتجعله يتعلق بها: **(كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون)** (القصص: 88)، وهذا يجعل الإنسان المؤمن الذى يعى هذه الحقيقة جيداً أن يقول: لا باقى بقاء حقيقياً إلا أنت يا إلهى. فما سواك فان زائل، والزائل غير جدير بالمحبة الباقية، ولا العشق الدائم، ولا بأن يشد معه أواصر قلب، خلق أصلاً للأبد والخلود. وحيث أن الموجودات فانية، وستتركنى ذاهبة إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركنى، بترديدى: "يا باقى أنت الباقى"، أى: أو من وأعتقد يقيناً أنه لا باقى إلا أنت يا إلهى، وبقاء الموجودات موكول بإبقائك إياها، فلا يوجه لها المحبة إذن، إلا من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلا فإنها غير جديرة، بربط القلب معها.

وهكذا فمن يتجرع آلام الفراق، يكون نتيجة تقصيره هو، حيث وجه استعداد المحبة، الذى خلقه الله فيه، إلى موجودات فانية، تعتبر ظلال باهتة للحسن والإحسان والكمال الإلهى، وكان الأولى أن يوجه ذلك الحب، إلى الله سبحانه الباقى دون سواه.

الاتجاه الثانى: استجاب الباقى ذو الجلال، للرجبة الملحة للبقاء، المغروزة فى فطرة الإنسان، والدعاء الشامل الذى يسأله بشدة للخلود.. فخلق سبحانه عالماً باقياً خالداً.. لهذا الإنسان الفانى الزائل، وأخيره بذلك فى كتابه الكريم. فقال جل شأنه: **(لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) (المائدة: 119).. (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) (ق: 34).**

وهكذا فإن من يريد تحويل عمره القصير الفانى، إلى عمر باق طويل مديد، مثمر بالمغانم والمنافع، فعليه أن يصرف عمره فى سبيل الباقى، لأن أيما شيء يتوجه إلى الباقى، ينال تجلياً من تجلياته الباقية.

وبناء على ذلك فإن عمر الإنسان الفانى، يتضمن عمراً باقياً، من حيث حياته القلبية والروحية، اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية، والمحبة الربانية، والعبودية السبحانية، والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقى الخالد، فى دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفانى، بمثابة عمر أبدي.

فعلى الإنسان الذى يطلب بالحاح عمراً طويلاً، وهو مشتاق للبقاء، أن يعمل لله، ويلتقى لوجه الله، ويسعى لأجل الله.. فكل ثانية من هذا الوصال، تعتبر كنافذة مظلّة على حياة دائمة باقية.

الاتجاه الثالث: تحرير الإنسان من الخوف من الموت، وبيان أنه ليس انحلال وعدم وتفسخ، وانطفاء لنور الحياة، وهادم للذات، كما يدعى أهل الغفلة والضلالة، بل يبين القرآن أن الموت مخلوق كالحياة، وأنه نعمة إلهية. فيقول المولى Y: **(الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (المالك: 2).**

ويقوم الإمام النورسي بإزالة ما علق في الأذهان، من لبس تجاه الموت، وبيان بعض مقاصد القرآن تجاهه، فيقول رحمه الله⁽¹⁷⁾:

بالنسبة لكون الموت مخلوقاً: فقد وضح لنا أن الموت في حقيقته هو: تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا، هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا، هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتديبير إلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء -وهو النبات- يظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق، ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها.. فموت الأثمار والبذور والحبوب، الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحلاً، هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيميائية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكل للذرات بعضها ببعض، في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث أن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية، للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني أن موت البذرة، هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً.. بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منتظم كالحياة.. وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان، من موت لثمرات حية، أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنتشاً لصعود ذلك الغذاء، في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فلئن كان موت النبات -وهو في أدنى طبقات الحياة- مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان، وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا، سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب، والتي تصبح بموتها، نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة، في (عالم الهواء).

أما كيف يكون الموت نعمة؟

فالجواب: سنذكر أربعة وجوه فقط، من أوجه النعمة والامتنان الكثيرة للموت:
أولها: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه، مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظيمة!

ثانيها: أنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي، وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستتيرة، لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا هم.

ثالثها: أن الشيخوخة وأمثالها، من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبين مدى كون الموت نعمة، تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت أن أجدادك، مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة، قابعون أمامك حالياً مع والديك، اللذين بلغا أرذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة. بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت،

ومدى الصعوبة فى إدامة الحياة أيضاً، بالتأمل فى تلك الحشرات الجميلة، العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس فى الشتاء عليها.

رابعها: كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولاسيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت -الذى هو أخو النوم- رحمة ونعمة عظيمة، للمبتلين ببلايا يائسة، قد تدفعهم إلى الانتحار.

أما أهل الضلال، فالموت لهم كالحياة نقمة عظيمة، وعذاب فى عذاب، مصداقاً لقول الحق جل شأنه: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (الجمانية: 21).

وبذلك نكون قد عرضنا مؤشرا تقريبياً، لكيفية معالجة القرآن لمشكلة من مشكلات الإنسان النفسية وهى الرعب من مواجهة الموت وفراق الدنيا والأحبة.. وننتقل إلى مشكلة أخرى.

المشكلة النفسية الثانية

الإحساس بالضياع والعدم والعبث من الوجود

إن تلك المشكلة تنتشأ من البعد عن الله، فمادام الله موجوداً، وعلمه يحيط بكل شىء، فإن عالم المؤمن تظله الطمأنينة والأمن والسكينة، بينما دنيا الكفار زاخرة بالعدم والفراق والانعدام، وملينة بالعبث والفناء.. فالإيمان مثلما ينقذ الإنسان من الإعدام الأبدى أثناء الموت، كما وضحنا فى النقطة السابقة، فهو ينقذ دنيا كل شخص أيضاً من ظلمات العدم والانعدام والعبث⁽¹⁸⁾.. بينما الكفر، ولاسيما الكفر المطلق. فإنه يعدم ذلك الإنسان، ويعدم دنياه الخاصة به بالموت. ويلقيه فى ظلمات جهنم معنوية، محولاً لذائذ حياته الآما وغصصاً.

ومما يوضح هذه الحقيقة، ما يدور على الألسنة من قول مشهور: "من كان له الله، كان له كل شىء، ومن لم يكن له الله، لم يكن له شىء".

كيف يضاعف البعد عن الله إحساس الإنسان بالضياع؟

يجيب على هذا السؤال الإمام النورسي، مستمداً تلك الإجابة من أسرار قول الله Y: (ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) (التين: 4-6).

فيقول رحمه الله⁽¹⁹⁾: إن طريق الشرك والضلالة، والسفاهة والفسوق، يهوى بالإنسان إلى منتهى السقوط، وإلى أسفل سافلين، ويلقى على كاهله الضعيف العاجز، فى غمرة الآم غير محدودة، عبئاً ثقيلاً لا نهاية لثقله.. ذلك لأن الإنسان إن لم يعرف الله، وإن لم يتوكل عليه، يكون بمثابة حيوان فان، يتألم دوماً ويحزن باستمرار، ويتقلب فى عجز وضعف لا نهاية لهما، ويتلوى فى حاجة وفقر لا نهاية لهما، ويتعرض لمصائب لا حد لها، ويتجرع آلام الفراق، من الموجودات التى استهواها،

(18) ص 540 من الكلمات (الذيل الثانى من الكلمة الخامسة والعشرين).
(19) ص 755 : 757 من الكلمات (المبحث الثانى من الكلمة الثانية والثلاثين).

ونسج بينه وبينها خيوط العلاقات، فيقاسى ومازال يقاسى، حتى يغادر ما بقى من أحبائه نهاية المطاف، ويفارقهم جزعاً وحيداً غريباً، إلى ظلمات القبر.

وبينما يقاسى هذا الإنسان ما يقاسى من وضعه، إذا بأحوال الدنيا التى يتعلق بها ترفقه دوماً، وإذا بأوضاع بنى الإنسان الذى يرتبط بهم، تنهكه باستمرار، ذلك لظنه أن هذه الأحداث والوقائع ناشئة من لعب الطبيعة وعبث المصادفة، وليست من تصرف واحد أحد حكيم عليم، ولا من تقدير قادر رحيم كريم، فيعانى مع آلامه هو، آلام الناس كذلك، فتصبح الزلازل والطاعون والطوفان، والقحط والغلاء والفناء والزوال، وما شابهها مصائب قاتمة، وبلايا مزعجة معذبة.

فهذا الإنسان الذى اختار بنفسه هذا الوضع المفجع، لا يثير إشفافاً عليه، ولا رثاء على حاله.. فهو يتوهم بسكر الكفر، وجنون الضلالة، الناشئين من سوء اختياره، أن الدنيا التى هى مضيف الصانع الحكيم، لعبة المصادفة العمياء، وألعوبة الطبيعة الصماء.. ويتصور تجديد المصنوعات، لتجليات الأسماء الحسنى، وعبورها إلى عالم الغيب مع تيار الزمن، بعد أن أنهت مهامها، واستنفدت أغراضها، كأنها تصب فى بحر العدم، ووادى الانعدام، وتغيب فى شواطئ الفناء.. ويتخيل أصوات التسبيح والتحميد، التى تملأ الأكوان والعوالم، أنينا ونواحا، يطلقه الفانون فى فراقهم الأبدى.. ويحسب صحائف هذه الموجودات التى هى رسائل صمدانية رائعة، خليطاً لا معنى له ولا مغزى.. ويخال باب القبر الذى يفتح الطريق إلى عالم الرحمة الفسيح، نفقا يودى إلى ظلمات العدم.. ويتصور الأجل الذى هو دعوة الوصال واللقاء بالأحباب الحقيقيين، هو أوان فراق الأحبة جميعهم.

نعم! إن الذى يعيش فى دوامة هذه التصورات والأوهام، يلقي بنفسه فى أتون عذاب دنيوى أليم، ففضلاً عن أنه لا يكون أهلاً لرحمة ولا لرأفة، يستحق عذاباً شديداً، لتحقيره الموجودات - باتهامها بالعبثية، وتزييفه الأسماء الحسنى بإنكار تجلياتها، وإنكاره الرسائل الربانية، برده شهاداتها على الوجدانية.

فيا أيها الضالون الغافلون: إن ما أودع فى فطرتكم من استعداد المحبة والمعرفة، ينبغى أن تتوجه إلى صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، ولكنكم قد بذلتموها -بدلاً من غير مشروع- لأنفسكم وللدنيا، فتعانون مستحقين عقابها، وذلك بسر القاعدة: "إن نتيجة محبة غير مشروعة، مقاساة عذاب أليم بلا رحمة". لأنكم وهبتم أنفسكم المحبة التى تخص الله، فتعانون بلايا محبوبتكم التى لا تعد، إذ لم تمنحوها راحتها الحقيقية.. وكذا لا تسلمون أمرها بالتوكل إلى المحبوب الحق، وهو الله القدير المطلق، فتقاسون الألم دائماً.

ألا ما أكثف حجاب السفاهة والسكر، الذى يخدر الشعور والإحساس، وتبا لعقل أولئك الضالين..

العلاج القرآني لمشكلة الضياع الإنساني⁽²⁰⁾:

إن أحوال الدنيا المضطربة، التي لا قرار فيها ولا ثبات، وكلها تقلبات، تلح على فكر الإنسان، بهذا السؤال:

"إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!"

وبينما الإنسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي، يدوي في الأفق، ويقول له: نعم إن هناك علاجاً لهذا الداء، يتمثل في ذلك الدواء: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (التوبة: 11).

فالعلاج هو: بيع الأمانة إلى مالكةا الحقيقي.. وفي هذا البيع خمس درجات من الربح، في صفقة واحدة:

الربح الأول: الإنسان الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحى القيوم، ويبدل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً أبدياً باقياً.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمن كل عضو وحاسة، ويغلو من الواحدة إلى الألف.

فمثلاً: العقل عضو وآلة: إن لم يستعمله الإنسان في سبيل الله، جعله في سبيل الهوى والنفوس، ويتحول إلى عضو مشنوم مزعج، إذ يحمله آلام الماضي الحزينة، وأهوال المستقبل المخيفة، فيحاول أن يهرب من واقع حياته، وينغمس في اللهو أو السكر، إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله.. ولكن إذا بيع العقل إلى الله، واستعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً، بحيث يفتح مالا يعد من خزائن الرحمة الإلهية، وكنوز الحكمة الربانية: فأينما ينظر صاحبه، وكيفما يفكر، يرى الحكمة الإلهية في كل شيء، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني، يهبي صاحبه للسعادة الخالدة. ويمكن قياس بقية الأعضاء والحواس على هذا.. وبعدها يفهم كيف أن المؤمن يكسب حقا خاصة تليق بالجنة.

الربح الرابع: أن الإنسان ضعيف بينما مصائبه كثيرة، وهو فقير. ولكن حاجته في ازدياد، وعاجز إلا أن تكاليف عيشه مرهقة، فإن لم يتوكل هذا الإنسان على العلى القدير، ولم يستند إليه، فسيظل يقاسى في وجدانه ألما دائمة، وتخنقه حسراته وكدحه العقيم.

الربح الخامس: أنه من المتفق عليه إجماعاً، بين أهل الاختصاص والشهود والذوق والكشف أن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاء، عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه، تتحول إلى ثمار طيبة لذيدة من ثمار الجنة، وتقدم إلى الإنسان في وقت يكون في أمس الحاجة إليها..

وصدق الله العظيم إذ يقول: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) (لقمان: 22).

وهنا نتساءل: هل اقتصر القرآن على هذا المحور في العلاج؟
حاشا لله أن يعالج مشكلة ضخمة كهذه، تهدد كيان الإنسان وتكاد تقضى عليه، في اتجاه واحد فقط. بل شمل العلاج عدة محاور منها:
♦ بيان أهمية قيمة حياة الإنسان وأنه لم يخلق عبثاً⁽²¹⁾:

لقد حفلت آيات الكتاب الكريم، ببيان أهمية الإنسان، حيث خلقه الله في أحسن تقويم، حتى أصبح مرآة جامعة لأسمائه الحسنی، وليكون أجمل معجزات القدرة الإلهية من كنوز. ووهب له استعداداً فطرياً سامياً، يمكنه من حمل الأمانة الكبرى، التي أبت السماوات والأرض والجال أن يحملنها، أى خلقه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة، وشئونه الكلية، وتجلياته المطلقة، بموازينه الجزئية، وبمهاراته الضئيلة.

إن تلك الآيات تحقق في مضمونها غايات كثيرة، ما يخصنا هنا: أنها تحمي الإنسان من الضياع والعدم والعبث، ببيان أهميته في الحياة، وبعث الثقة في نفسه لا عزازة بإيمانه، وبت أهداف سامية في حياته، تجعل خطواته ثابتة في الحياة، لأنه يستند إلى نقطة ارتكاز عظيمة، تحدد الهدف والغاية والمنتهى لأنه يعي بيقين قول الحق تبارك وتعالى: (أفحسبتم أنما خلقتكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (المؤمنون: 115).

♦ بيان أنه لا عبثية ولا إسراف في خلق الموجودات:

احتشد القرآن الكريم بالآيات الدالة على عظمة الله وقدرته في خلق الكون. وحاشا لله أن يخلق شيئاً عبثاً فهو القائل Y: (وكل شيء عنده بمقدار) (الرعد: 8).
ويخاطب الإمام النورسي من توهم الوجود عبثاً قائلاً⁽²²⁾: يا من ابتلى بحب هذه الحياة، حتى حسبت أن العلة الغائية في الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعته القدرة الأزلية، في جوهر الإنسانية، وذوى الحياة من الجهازات العجيبة والتجهيزات الخارقة، إنما أعطاها الفاطر الحكيم، لحفظ هذه الحياة السريعة الزوال ولأجل البقاء.. كلا ثم كلا. إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهر وأنور دلائل الحكمة والعناية والانتظام، مثال العبثية والإسراف. بل يرجع إلى الحى من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجة مالكية الحى للحياة، وتصرفه الحقيقي فيها.. أما سائر الثمرات والغايات، فراجعة إلى المحيى بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته، في جنته في الحياة الأخروية، التي هى ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية.

♦ ربط الإنسان بصانعه الجليل⁽²³⁾:

إن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويؤكد القرآن على تلك الوثائق الشديدة، فالإيمان إنما هو انتساب. لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية، من حيث تجلى الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده. أما

(21) ص 94 من الكلمات (الحقيقة الحادية عشرة من الكلمة العاشرة).

(22) ص 193 من المتنوى العري النورى (حباب).

(23) ص 348 من المتنوى (حبة).

الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتتقص قيمة الإنسان، حيث تنحصر في مادته فحسب. وقيمة المادة لا يعتد بها، فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة. وهكذا نجد الكون كله، يردد سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير: (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (البقرة: 257).

♦ مد الإنسان بالقوة بدعوته إلى التوكل على الله:

إن من الأسباب القوية لخروج الإنسان من حالة الضياع والعدم والعبث، هو التوكل على الله، حيث حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى ذلك. ومنها: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق: 3)، ويشرح الإمام النورسي ذلك بقوله (24): كما أن الإيمان نور فهو قوة أيضاً. فالإنسان الذى يظفر بالإيمان الحقيقى، يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من ضيق الحوادث، مستندا إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجاً على سفينة الحياة، فى خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان والسلام قائلاً: توكلت على الله.. ويسلم أعباءه الثقيلة، أمانة إلى يد القدرة، للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا، مطمئن البال فى سهولة وراحة، حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع طائراً إلى الجنة، للدخول إلى السعادة الأبدية.

أما إذا ترك الإنسان التوكل، فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين. فالإيمان إذن يقتضى التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كلية، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هى حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغى رعايتها ومداراتها. أما التثبث بها أو الأخذ بها، فهو نوع من الدعاء الفعلى. فطلب المسببات إذن وترقب النتائج، لا يكون إلا من الحق، وأن المنة والحمد والثناء، لا ترجع إلا إليه وحده..

♦ فتح باب الدعاء أمام الإنسان (25):

إن فتح باب الدعاء أمام الإنسان، من أجل النعم الإلهية، حيث تجعله وسيلة قاطعة، ووساطة بين المؤمن وربّه، بما يتفق مع الفطرة الإنسانية، التى تتلهف إليه بشدة وشوق، حيث الدعاء يخفف وطأة المشاكل على الإنسان، وتجعله إنساناً حقاً، بل سلطاناً، بينما الكافر المحروم من الدعاء، يصبح حيواناً مفترساً فى غاية العجز. ولعل البعض يتساءل: إننا كثيراً ما ندعو الله فلا يستجاب لنا، رغم أن الآية عامة تصرح بأن كل دعاء مستجاب، وذلك فى قوله تعالى: (ادعوني أستجب لكم) (غافر: 60).

ويجيب على ذلك الإمام النورسي بقوله: إن استجابة الدعاء شىء، وقبوله شىء آخر، فكل دعاء مستجاب، إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه، منوط بحكمة الله سبحانه.. فمثلاً: يستصرخ طفل عليل الطبيب قائلاً: "اعطني هذا الدواء". فالطبيب

(24) ص 352 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(25) ص 354 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

حينذاك إما أن يعطيه الدواء نفسه، أو يعطيه دواء أكثر نفعاً وأفضل له، أو يمنع عنه العلاج نهائياً. وذلك حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وكذلك الحق تبارك وتعالى (وله المثل الأعلى): فلأنه حكيم مطلق، ورقيب حسيب فى كل آن، فهو سبحانه يستجيب دعاء العبد.. وباستجابته يزيل وحشته القاتمة، وغرته الرهيبة، مبدلاً إياها أملاً وأنساً واطمئناناً. وهو سبحانه إما أن يقبل مطلب العبد، ويستجيب له مباشرة، بالدعاء نفسه، أو يمنحه أفضل منه، أو يرده، وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربانية، لا حسب أهواء العبد المتحكمة، وأمانيه الفاسدة.

وفى ختام الكلام عن أهمية الدعاء، يتوجه الإمام النورسى بنصيحة إلى الإنسان العاجز الفقير: ألا يتخلى عن مفتاح خزينة الرحمة الواسعة، ومصدر القوة المتينة، ألا وهو الدعاء. فيجب أن يتشبث به ليرتقى إلى أعلى على الإنسانية، ويتخلص من الأعباء النفسية.

وننتقل إلى مشكلة أخرى من مشكلات الإنسان النفسية، محاولين التعرف على كيفية علاجها، من أدوية الحكمة الربانية، المتمثلة فى الآيات القرآنية.

المشكلة النفسية الثالثة

الشعور بالاغتراب فى مواجهة الكون

قد يظن البعض أن هذه المشكلة تماثل المشكلة السابقة، ويتساءل: لماذا أفردنا لها عنواناً خاصاً؟

والحق أن هذه المشكلة قد تشابه سابقتها فى بعض جوانبها، ولكنها تختلف عنها اختلافاً جذرياً: فالسابقة لا تجابه غالباً إلا الكفار، أو من هو على شفا حفرة من الكفر.. أما هذه فقد تواجه كلا من المسلم والكافر بدرجات متفاوتة.

وقد اهتم الإمام النورسى اهتماماً كبيراً بعلاج هذه المشكلة، من وحى آيات القرآن الكريم، فى مواطن عديدة من رسائل النور، ننخير منها عدة نقاط، تكون مؤشراً لتوضيح الهدف من بحثنا⁽²⁶⁾.

يقول الإمام النورسى مخاطباً الإنسان فى كل زمان ومكان⁽²⁷⁾:

♦ إن كنت تريد أن تعرف أئمن مفتاحين، يحلان لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء فهما: الإيمان بالله واليوم الآخر: (ولكن البر من أمن بالله واليوم الآخر و...) (البقرة: 177).

♦ وأن أنفع علاجين لذلك هما: توكل الإنسان على خالقه صابراً، والرجاء من رزاقه شاكراً:

(أولئك يرجون رحمة الله) (البقرة: 218).

(26) وعلى من يريد التوسع فى تلك النقطة أو فى غيرها أن يرجع إلى ينبوع الأصل الذى استقيناه منه البحث وهو رسائل النور القيمة. جازى الله عنا الإمام النورسى خير الجزاء.

(27) ص 26 : 37 من الكلمات (الكلمة السابعة).

♦ وأن الإنصات إلى القرآن الكريم، والانقياد لحكمه، وأداء الصلوات، وترك الكبائر، أغلى زاد للأخرة، وأسطع نور للقبر، وأيسر تذكرة مرور في رحلة الخلود، وأنه لولا الدين، لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب: (إن الدين عند الله الإسلام) (آل عمران: 19).

ونأتى إلى تفصيل تلك النقاط الثلاث، لبيان كيف عالج القرآن إحساس الإنسان بالاعتراب في مواجهة الكون:

♦ بالنسبة للنقطة الأولى وهي: أن الإيمان بالله واليوم الآخر، يحلان لروح البشر، طلسم الكون ولغزه: إن الإيمان بالله واليوم الآخر: يحفز الإنسان إلى رؤية الجدة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة متنوعة، وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذي الجلال، وخوارق قدرته وتجليات رحمته سبحانه، ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضيفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغير الصور في شاشة السينما، من جمال وروعة، إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها.

وهكذا بالنسبة للإنسان المؤمن، عندما ينظر إلى الكون، يردد بلسان الحال والمقال (28): (الله نور السماوات والأرض) (النور: 35)، فتصطبغ الكائنات في نظره بالنور الإلهي، ويتيقن بأن كل حادثة من حوادث الكون -كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها- إنما هي مسخرات موظفات مأمورات.. ويرى أن عواصف الربيع والمطر، وأمثالها من الحوادث، التي تبدو حزينة سمجة، ما هي في الحقيقة والمعنى، إلا مدار الحكم اللطيفة، حتى إنه يرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبر باب سعادة خالدة.. وبالقياس على هذا المنوال، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر، نور ينير الكائنات، ويظهر بارزاً جميع المكاتب الصمدانية المكتوبة عليه، مما يشعر الإنسان بالانسجام التام مع الكون، ويحرره نهائياً من الشعور بالاعتراب.

أما الإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره، ويقع في شرك ظلمات الغفلة، ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يرى الكون كأنه أمواج ظلمات عاتية، تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة، وكأنها تتأهب للانقضاض عليه، فيشعر بالاعتراب والوحشة في مواجهة هذا الكون.

♦ بالنسبة للنقطة الثانية: وهي العلاجان:

فأحدهما: التوكل على الله والتحلى بالصبر، أى الاستناد إلى قدرة الخالق الكريم، والثقة بحكمته سبحانه.

نعم، إن من يعتمد بهوية عجزه على سلطان الكون، الذي بيده أمر (كن فيكون) كيف يجزع ويضطرب؟ بل يثبت أمام أشد المصائب، واثقا بالله ربه، مطمئن البال، مرتاح القلب وهو يردد: (إنا لله وإنا إليه راجعون) وهي بالنسبة للمؤمن في حكم الإيقاظات الإلهية الحلوة، والالتفاتات الرحمانية لنلا يغفل.. فيسير في الحياة على

قاعدة: "خذ ما صفا.. ودع ما كدر". وهو بذلك لا يعانى الوحشة واليأس، لأنه يتمتع متعة ضيف عزيز، وكيف لا، وهو ضيف عند مضيف كريم. وهكذا يتبين سر من أسرار الآية الكريمة: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (النساء: 79).

فالإنسان المتوكل بحسن نيته، وحسن ظنه بالله، ينال الفيض والسعادة والإحسان العميم، أما الإنسان الظالم لنفسه، فإنه يعانى من الاغتراب واليتم، ويرتجف خوفاً وهلعاً من كل محدثات الكون.

أما العلاج الآخر: المتمثل فى الرجاء، فهو يشمل الدعاء والسؤال، ثم القناعة بالعطاء، والشكر عليه، والثقة برحمة الرزاق الرحيم، فمن كان ضيفاً، لدى الذى فرض له وجه الأرض مائدة حافلة بالنعمة، وجعل الربيع كأنه باقة أنيقة من الورود، وضعها بجانب تلك المائدة العامرة، بل نثرها عليه.. كيف يشعر هذا الضيف عند الجواد الكريم جل وعلا بالاغتراب؟ بل كيف تكون حوادث الدهر مؤلمة بالنسبة إليه؟ إنه يوقن أن الذى وهب الحياة وأنشأها، صنعة صمدانية معجزة تتلمع، وجعلها ربانية خارقة تتألق، هو وحده الذى يرعاها ويصرفها بحكمته وقضائه.

♦ بالنسبة للنقطة الثالثة: فإن جميع أهل الاختصاص والشهود، وجميع أهل الذوق والكشف، متفقون على أن زاد الآخرة، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة، ونورها وبراقها، ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم، واجتناب نواهيه، وأداء الصلوات وترك الكبائر.

فالإنسان هو مثال مصغر لهذا العالم الكبير، والصلاة تحقق الانسجام التام والتوافق الكلى، بين الإنسان والكون، وتذكره بمعجزات القدرة الصمدانية، وهدايا الرحمة الإلهية، سواء منها السنوية، أو العصرية، أو الدهرية، بإشارات تصرفاتها اليومية العظيمة.. فعلى سبيل المثال (29).

وقت الفجر إلى طلوع الشمس: يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان فى رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة فى خلق السماوات والأرض، فينبه الإنسان إلى ما فى تلك الأوقات من الشئون الإلهية العظيمة.

أما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف، وإلى عنفوان الشباب، وإلى فترة خلق الإنسان فى عمر الدنيا، ويذكر ما فى ذلك كله، من تجليات الرحمة، وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيوخة، وعصر السعادة، الذى هو عصر خاتم الرسل محمد p ، ويذكر ما فى ذلك كله، من الشئون الإلهية، والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فإنه يذكر بغروب أغلب المخلوقات، وأقولها نهاية الخريف، ويذكر أيضاً بوفاة الإنسان، ودمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلم التجليات الجلالية، ويوقظ الإنسان من نوم الغفلة وينبئه.

أما وقت العشاء: فيذكر بغشيان عالم الظلام، وستره آثار عالم النهار، بكفنه الأسود. ويذكر أيضاً بتغطية الكفن الأبيض للشتاء، وجه الأرض الميتة، وبوفاة حتى آثار الإنسان المتوفى، ودخولها تحت ستار النسيان، وبانسداد أبواب دار امتحان الدنيا نهائياً، ويعلن في ذلك كله تصرفات جلالية للقهار ذي الجلال.

أما وقت الليل: فإنه يذكر بالشتاء، وبالقبر، وبالعالم البرزخ، فضلاً عن أنه يذكر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمن.

أما التهجد في الليل: فإنه يذكر بضرورته لضياء ليل القبر، ولظلمات عالم البرزخ، وبنبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنع الحقيقي، عبر هذه الانقلابات، ويعلن أيضاً عن مدى أهلية المنعم للحمد والثناء.

أما الصباح الثاني: فإنه يذكر بصباح الحشر.. فكما أن مجيء الصبح لهذا الليل، ومجىء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مجيء صباح الحشر، وربيع البرزخ، هما بالقطع والثبوت نفسه.

وهكذا فإن الصلاة تمثل استغراق الإنسان، بالروح والقلب والعقل، مع الكون كله. مما يحميه من الإحساس بالاغتراب.

علاج شامل لتحقيق الانسجام مع الكون:

إن هذا العلاج الذي يذكره لنا الإمام النورسي، ليدل دلالة قاطعة، على قدمه الراسخة في عالم الحقيقة، إذ يقول رحمه الله⁽³⁰⁾: إذا أردت أيتها النفس أن تنجى من ذل التسول أمام الكائنات، ومهانة الخوف أمام الحادثات، فعليك: (بسم الله) فهي ذكر جميع الموجودات بألسنة أحوالها. فالموجودات تؤدي وظائفها باسم الله.. فالبذيرات المتناهية في الصغر، تحمل فوق رؤوسها باسم الله، أشجاراً ضخمة وأثقلاً هائلة. أي أن كل شجرة تقول (بسم الله) وتملأ أيديها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية، وتقدمها إلينا.. وكل بستان يقول: (بسم الله) فيغدو مطبخاً للقدرة الإلهية، تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة.. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنعمة -كالإبل والماعز والبقر- يقول: (بسم الله) فيصبح ينبوعاً دفاقاً للبين السائغ، فيقدم إلينا باسم الرزاق، ألطف مغذ وأنظفه.. وجذور كل نبات وعشب تقول (بسم الله) وتشق الصخور الصلدة باسم الله، وتنقبها بشعيراتها الحريريّة الرقيقة، فيسخر أمامها باسم الله وباسم الرحمن، كل أمر صعب، وكل شيء صلد.

نعم إن هذه الكلمة الطيبة (بسم الله) كنز عظيم لا يفنى أبداً، إذ بها يرتبط عجز النفس، برحمة واسعة مطلقة، أوسع من الكائنات، ويتعلق فقرها بقدرة عظيمة، تمسك زمام الوجود، من الذرات إلى المجرات.. فالذي يتحرك ويسكن ويصبح ويمسى بهذه الكلمة (بسم الله) كمن انخرط في الجنديّة، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحداً، حيث أنه يتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال، ويثبت أمام كل شيء.

و (بسم الله) يحقق الإنسان الانسجام مع الكون، ويبعد عنه كلية الإحساس بالاغتراب، الذي يجرمه من التمتع بنعمة الحياة.

(30) ص 6 : 9 من الكلمات (الكلمة الأولى).

وننتقل إلى مشكلة أخرى من مشاكل الإنسان النفسية، قلما ينجو منها أحد، ولكن يختلف الإحساس بها، من شخص لآخر حسب قوة الإيمان واليقين في القلوب.

المشكلة النفسية الرابعة

عجز الإنسان في مواجهة الحزن والآلام

إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزاً لا حد له، وفقراً لا نهاية له، إظهاراً لقدرته المطلقة وإبرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة، بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات⁽³¹⁾.

فالإنسان بما يحمل من ماهية جامعة، يتألم من الحمى البسيطة، كما يتألم من زلزلة الأرض وهزاتها، وكما يتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة. ويخاف من جرثومة صغيرة، كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية⁽³²⁾. فما هو العلاج القرآني، إذا داهم الإنسان الرهبة والخوف من كل مكان، وانقطعت أسباب الرجاء أمامه، وانسدت أبواب الأمل؟

الملاحظ أن القرآن يعالج المشكلات النفسية للإنسان دائماً على محورين:

المحور الأول: يشبه الإسعاف السريع، حيث تحتاج النفس البشرية إلى ما يسكن روعتها، في حالة هلعها، وبعد ما تهدأ، تكون على استعداد لتلقى العلاج.. والإسعاف السريع هنا يتمثل في الدعاء.

المحور الثاني: هو علاج طويل المدى، يشمل تجهيز النفس مسبقاً، لتحمل شدائد الحياة، ثم صقلها بحيث لا تنهار في مواجهتها.. وهذا يتمثل في التشريع بكل جوانبه.

بالنسبة للمحور الأول وهو الدعاء:

فقد علمنا الحبيب المصطفى م أن أفضل دعاء لمواجهة الكرب بكل أنواعه هو دعاء سيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت، حيث الليل الحالك، والبحر الهائج، والحوت الهائل⁽³³⁾.

(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) (الأنبياء: 87)، فإذا نظرنا بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا: فنحن في وضع مخيف ومرعب، أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث أن:

ليلنا: الذي يخيم علينا هو: المستقبل.. فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة، يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً، وأشد عتامة، من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة.

وبحرنا هو: بحر الكرة الأرضية.. فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم، تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب، بمائة ضعف رهبة البحر الذي ألقى فيه عليه السلام.

(31) ص 19 من اللغات (اللغة الثانية).

(32) ص 9 من اللغات (اللغة الأولى).

(33) ص 6 : 8 من اللغات (اللغة الأولى).

وحوتنا هو: ما نحمله من نفس أمارة بالسوء.. فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويمحقها. هذا الحوت أشد ضراوة من الحوت الذى ابتلع سيدنا يونس عليه السلام، إذ كان يمكنه أن يقضى على حياة أمدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن، يحاول إفناء مئات الملايين، من سنن حياة خالدة هنيئة رغيدة. فمادامت حقيقة وضعنا هكذا، فما علينا إلا الإقتداء بسيدنا يونس عليه السلام، والسير على هديه، معرضين عن الأسباب جميعا، مقلين كليا إلى ربنا، الذى هو مسبب الأسباب، متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، موقنين أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوف المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يبعد عنا أضرار النفس الأمارة بالسوء ودساتسها، إلا من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وأنفسنا تحت إدارته، فنقول: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

بالنسبة للمحور الثانى وهو أركان الشريعة:

يمكن القول إن أركان الشريعة بمجملها، الهدف منها صقل النفس البشرية، لمواجهة شدائد الحياة بصدر رحب وصبر جميل، كما قال سيدنا يعقوب بعد حزنه على فقد ابنه: **(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)** (يوسف: 18). ولما كانت الصلاة عماد الدين، فقد بين الإمام النورسى بطريقة رائعة، حكمة توقيتاتها كما فرضها الله فى مد روح الإنسان بالقوة اللازمة، لمواجهة الأحزان والآلام.. مستمدا تلك الإلهامات من أسرار الآية الكريمة: **(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون)** (الروم: 17، 18).

فقال رحمه الله (34):

إن الإنسان بفطرته ضعيف جدا، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التى تورثه الحزن والألم، وهو فى الوقت نفسه عاجل جدا، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جدا. وهو فقير جدا، مع أن حاجاته كثيرة وشديدة. وهو كسول وبلا اقتدار، مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه. وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعا، مع أن فراق ما يحبه، وزوال ما يستأنس به، يؤلمانه. وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة، وصبره محدود.

من أجل ذلك خصص المولى الصلاة فى هذه الأوقات الخمسة المعينة، لمساعدة الإنسان على مواجهة ضعفه وفقره وعجزه:

فى وقت الفجر: تكون روح الإنسان أحوج ما تكون، إلى أن تطرق بالدعاء والصلاة، باب التقدير ذى الجلال، وباب الرحيم ذى الجمال، عارضة حالها أمامه، سائلة العون والتوفيق منه سبحانه. وما أشد افتقار تلك الروح إلى نقطة استناد، كى تتحمل ما سيأتى أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف فى عالم النهار الذى يعقبه.

وعند وقت الظهر: ذلك الوقت الذى هو ذروة كمال النهار، وميلانه إلى الزوال، وهو أوان تكامل الأعمال اليومية، وفترة استراحة مؤقتة من عناء المشاغل.. وهو وقت حاجة الروح إلى التنفس والاسترواح، مما تعطيه هذه الدنيا الفانية، والأشغال المرهقة الموقته، من غفلة وحيرة واضطراب، فضلاً عن أنه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.

فخلاص روح الإنسان من تلك المضايقات، وانسلاها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة الزائلة، لا يكون إلا بالالتجاء إلى باب القيوم الباقي -وهو المنعم الحقيقى- بالتضرع والتوسل أمامه، مكتوف اليدين، شاكر حامداً لمحصلة نعمه المتجمعة، مستعينا به وحده، مع إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضوع بإعجاب وتعظيم وهيام- بالسجود أمام كماله الذى لا يزول، وأمام جماله الذى لا يحول.. وهذا هو أداء صلاة الظهر، فما أجملها، وما أذها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورتها!. ومن ثم فلا يحسبن الإنسان نفسه إنساناً، إن كان لا يفهم هذا.

وعند وقت العصر: الذى يذكر بالموسم الحزين للخريف، وبالحالة المحزنة للشيوخوخة، وبالأيام الأليمة لآخر الزمان، وبوقت ظهور نتائج الأعمال اليومية. فهو فترة حصول المجموع الكلى الهائل للنعم الإلهية، أمثال التمتع بالصحة والتنعم بالعافية، والقيام بخدمات طيبة. وهو كذلك وقت الإعلان بان الإنسان ضيف مأمور، وبأن كل شىء يزول، وهو بلا ثبات ولا قرار، وذلك بما يشير إليه انحناء الشمس الضخمة إلى الأفول.

نعم إن روح الإنسان التى تنشد الأبدية والخلود، وهى التى خلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تنهض بهذا الإنسان ليقوم وقت العصر، ويسبغ الوضوء لأداء صلاة العصر، ليناجى متضرعاً أمام باب الحضرة الصمدانية للقيوم الباقي، فيجد السلوان الحقيقى، والراحة التامة لروحه، بوقوفه بعبودية تامة، وباستعداد كامل، أمام عظمة كبريائه جلا وعلا.

وعند وقت المغرب: الذى يذكر بوقت غروب المخلوقات اللطيفة الجميلة، لعالم الصيف والخريف فى خزينة الودائع منذ ابتداء الشتاء، ويذكر بوقت دخول الإنسان القبر عند وفاته، وفراقه الأليم لجميع أحبته، وبوفاة الدنيا كلها بزلزلة سكراتها، وانتقال ساكنيها جميعاً إلى عوالم أخرى.

لذا فالإنسان الذى يملك روحاً صافية كالمرأة المجلوة، يولى وجهه إلى عرش من هو باق، فيدوى بصوته قائلاً: فوق رؤوس هذه المخلوقات الفانية، مطلقاً يده منها، ليقول: (الحمد لله) أمام كماله الذى لا نقص فيه، مثنياً أمام رحمته الواسعة فيقول: (إياك نعبد وإياك نستعين)، ليعرض عبوديته واستعانتته تجاه ربوبية مولاه. ثم يركع إظهاراً لعجزه وضعفه وفقره، مع الكائنات جميعاً، مسبحاً ربه العظيم قائلاً: (سبحان ربي العظيم). ثم يهوى إلى السجود أمام جمال ذاته الذى لا يزول، معلناً بذلك حبه وعبوديته، فى إعجاب وفناء وذل، تاركاً ما سواه سبحانه قائلاً: (سبحان ربي الأعلى). ويجلس للتشهد، فيقدم التحيات والصلوات الطيبات لجميع المخلوقات، هدية باسمه إلى

ذلك الجليل الذي لا يزال، مجدداً ببعته مع رسوله الأكرم، بالسلام عليه، مظهراً بها طاعته لأوامره، فيجدد إيمانه وينوره.. ثم يشهد على دلال الربوبية، وترجمان آيات كتاب الكون الكبيرة، ألا وهو محمد العربي p. وهكذا تغسل الصلاة الأحزان والآلام، بالصحة الكريمة، والجلسة المباركة.

وعند وقت العشاء: ذلك الوقت الذي تغيب فيه في الأفق، حتى تلك البقية الباقية من آثار النهار، ويخيم الليل فيه على العالم، فيذكر بالتصرفات الربانية لـ (مقلب الليل والنهار).. ويذكر كذلك بالإجراءات الإلهية لـ (مسخر الشمس والقمر).. ويذكر بالشئون الإلهية لـ (خالق الموت والحياة). فهو وقت يذكر بالتصرفات الجلالية، وبالتجليات الجمالية، لخالق الأرض والسموات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح الخالد العظيم، وبموت الدنيا الضيقة الفانية الحقيرة.. وهكذا فروح البشر التي هي في منتهى العجز، وفي غاية الفقر والحاجة، والتي هي في حيرة من ظلمات المستقبل، وفي وجل مما تخفيه الأيام والليالي.. تدفع الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء بهذا المضمون - أن لا يتردد في أن يردد على غرار سيدنا إبراهيم عليه السلام: (لا أحب الأفلين). فيلتجئ بالصلاة إلى باب من هو المعبود، الذي لم يزل، ومن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجياً ذلك الباقي السرمدي، لينشر على أرجاء دنياه النور، من خلال صحة خاطفة، ومناجاة موقته، ولينور مستقبله، ويضمّد جراح الزوال والفراق، عما يحبه من أشياء وموجودات، ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجه رحمة الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى بدوره - تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية، قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة.

وبذلك استعرضنا دور الصلاة، في علاج الإنسان، في مواجهة الحزن والآلام، بصفة الصلاة من أساسيات الشريعة، ولا تسقط عن المسلم في جميع أحواله (سفر - مرض - حرب - عجز..). وقد اكتسبت تلك الأهمية، لدورها الهيكلية في صقل نفسية الإنسان.. ثم ننتقل إلى بيان دور القرآن الكريم بصفة عامة، في مداواة الجروح التي تنشأ عن ضلالة النفوس، بانحرافها عن الصراط المستقيم.

كيف يداوى القرآن جميع جروح الإنسان⁽³⁵⁾؟

◆ إنه يداوى ضعف الإنسان وعجزه وفقره، واحتياجه، بالتوكل على التقدير الرحيم، مسلماً أثقال الحياة وأعباء الوجود، إلى قدرته سبحانه وإلى رحمته الواسعة، دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكا لزام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرفه بأنه ليس بحيوان ناطق، بل هو إنسان بحق، وضيف عزيز مكرم عند الملك الرحمن.

(35) ص 759 : 761 من الكلمات (الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين. ومن يريد المزيد من التوسع فعليه الرجوع إلى: رسالة المرضى ص 315 : 399 من اللغات، رسالة الشيوخ ص 340 : 480 من اللغات، رسائل بعث بها الإمام النورسي في سجن "دينزلي" إلى طلابه ص 348 : 402 من الشعاعات).

♦ويداوى أيضا تلك الجروح الإنسانية، الناشئة من فناء الدنيا وزوال الأشياء، ومن حب الفانيات. يداويها بلطف وحنان، بإظهاره الدنيا دار ضيافة الرحمن، ومبينا أن ما فيها من الموجودات، هي مرايا الأسماء الحسنى، وموضحا أن مصنوعات رسائل ربانية، تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام.

♦ويداوى أيضا تلك الجروح التي يتركها الموت، الذي يتلقاه أهل الضلالة، فراقاً أبدياً عن الأحبة جميعاً.. ولكنه يبين أن الموت مقدمة الوصال واللقاء مع الأحباء، الذين رحلوا إلى عالم البرزخ، والذين هم الآن فى عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفرق هو عين اللقاء.

♦ويزيل كذلك أعظم خوف للإنسان، بإثباته أن القبر باب مفتوح إلى عالم الرحمة الواسعة، وإلى دار السعادة الأبدية، وإلى رياض الجنان، وإلى بلاد النور للرحمن، مبينا أن سياحة البرزخ، التي هي أشد ألماً وأشقى سياحة، عند أهل الضلالة، هي أمتع سياحة وأنسها وأسرها.. إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب إلى روضة من رياض الجنة.

♦ويقول القرآن للمؤمن: إن كانت إرادتك واختيارك جزئية، ففوض أمرك لإرادة مولاك الكلية.. وإن كان اقتدارك ضعيفاً، فاعتمد على قدرة القادر المطلق. وإن كانت حياتك فانية وقصيرة، ففكر بالحياة الباقية الأبدية.. وإن كان عمرك قصيراً فلا تحزن، فإن لك عمراً مديداً.. وإن كان فكرك خافتاً، فادخل تحت نور شمس القرآن الكريم، وانظر بنور الإيمان، كى تمنحك كل آية من الآيات القرآنية نورا كالنجوم المتلألئة الساطعة، بدلا من ضوء فكرك الباهت.. وإن كانت لك آمال وآلام غير محدودة، فإن ثواباً لانهاية له، ورحمة لا حد لها ينتظرانك.. وإن كانت لك غايات ومقاصد لا تحد، فلا تقلق متفكراً بها، فهي لا تحصر فى هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى، ومانحها جواد كريم واسع العطاء.

♦ويخاطب الإنسان أيضا ويقول:

أيها الإنسان! أنت لست مالكا لنفسك، بل أنت مملوك للقادر المطلق القدرة، والرحيم المطلق الرحمة، فلا ترهق نفسك بتحميلها مشقة حياتك، فإن الذى وهب الحياة هو الذى يديرها.

ثم إن الدنيا ليست سائبة دون مالك، كى تقلق عليها، وتكلف نفسك حمل أعباؤها، وترهق فكرك فى أحوالها. ذلك لأن مالكا حكيم ومولاها عليم، وأنت لست إلا ضيفا لديه، فلا تتدخل بفضول فى الأمور، ولا تخلطها من غير فهم.

ثم أن الإنسان والحيوان ليسوا موجودات مهملة، بل موظفون مأمورون، تحت هيمنة حكيم رحيم وتحت إشرافه. فلا تجرع روحك ألماً، بالتفكر فى مشاق أولئك والآمهم، ولا تقدم رأفتك عليهم، بين يدي رحمة خالقهم الرحيم.

ثم أن زمام أولئك الذين اتخذوا طور العدا معك، ابتداء من الميكروبات إلى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل، فلا تحمل تجاههم من الهموم أكثر مما ينبغى، لأن زمام كل شىء بيد الرحيم الحكيم سبحانه. فهو حكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمل فيه أثر من لطف ورأفة.

♦ ويقول أيضا:

إن هذا العالم، مع أنه فان، فإنه يهيبى لوازم العالم الأبدى.. ومع أنه زائل ومؤقت، إلا أنه يؤتى ثمرات باقية، ومع أن لذائذه قليلة وآلامه كثيرة، إلا أن لطائف الرحمن الرحيم وتكرمه وتفضله، هي بذاتها لذات حقيقية لا تزول، أما الآلام فهي الأخرى تولد لذات معنوية، من جهة الثواب الأخرى.. فما دامت الدائرة المشروعة كافية، ليأخذ كل من الروح والقلب والنفس، لذاتها ونشواتها جميعا، فلا داعى إذن أن تلج فى الدائرة غير المشروعة، لأن لذة واحدة من هذه الدائرة، قد يكون لها ألف ألم وألم، فضلا عن أنها سبب الحرمان، من لذة تكريم الرحمن الكريم، التى تعتبر لذة خالصة زكية دائمة خالدة.

وهكذا فإن القرآن الكريم يأخذ بيد الإنسان -بالإيمان والعمل الصالح- ويرفعه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، فيردم الأغوار العميقة فى نفسه، بمراتب رقى معنوى وروحى. وكذا يبسر له رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهونها عليه، وذلك بإبرازه الوسائط والوسائل التى يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة، بل خمسين ألف سنة فى يوم واحد.. ومن تلك الوسائط، تلك الإشعاعات النورانية التى تمسح ما على الصدور، وتنفذ النفوس من هلع الأحزان والمصائب. حيث يقول المولى جل جلاله: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة: 155-157).

المشكلة النفسية الخامسة

الخوف من الجوع وفوات الرزق

مما لاشك فيه: أن هموم العيش الثقيلة من أول ما يشغل بال الناس، حتى أنه قد تدفع أحيانا الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تسلب المقدسات الدينية مقابل ذلك.. ويفهم من بعض الروايات أن الجوع سيؤدى دوراً مهماً، فى فتنة آخر الزمان، وأن أهل الضلالة سيحاولون بهذا التجويع، إغراق أهل الإيمان الضعفاء الجائعين، فى متطلبات هموم العيش، حتى ينسونهم مشاعرهم الدينية، أو يجعلونها فى المرتبة الثانية أو الثالثة، بحيث يجد أهل الدين أنفسهم معذورين قائلين: ماذا نعمل إنها ضرورة فيتزكون جادة الحق، لهاثا وراء متطلبات العيش، كما تسوق المصالح الدنيوية، كثيراً من أهل الحقيقة وأهل الطريقة، إلى نوع من المنافسة، التى تجر أوخم العواقب على حقائق الدين والعقيدة⁽³⁶⁾.

فكيف عالج القرآن تلك القضية الخطيرة، التى تؤثر على نفسية الإنسان، بشكل قد يودى به إلى التهلكة؟

لقد جعل القرآن قضية الرزق، من القضايا اليقينية، التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية، وأنها من الغيبات التى يستأثر بها علم الله، وذلك حتى لا تحتل تلك

(36) ص 161 ، 201 ، 206 من الملاحق (ملحق قسطنطين).

القضية، أكثر من المكانة اللائقة بها، من تفكير المسلم ووجدانه، فيتحول عن مساره العقائدي، يلهث وراء لقمة العيش، غير مبالي بما ينتهك من حرمان الله. فقال المولى ٧: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) (لقمان: 34). ويرى الإمام النورسي: أن الضمان الإلهي للرزق، هو من حقائق التوحيد والربوبية، ويسجل ذلك تحت عنوان:

حقيقة الرحيمية والرزاقية⁽³⁷⁾: أى حقيقة إعطاء الرزق إلى جميع ذوى الحياة، وبخاصة ذوى الأرواح، وبخاصة العاجزين والضعفاء، وبخاصة الأطفال والصغار، على وجه الأرض كافة، وفي جوفها وفي جوها وفي بحرها.. إعطاؤهم أرزاقهم كافة، سواء المادية المعدية منها، أو المعنوية القلبية، بكل شفقة ورأفة.. وذلك من الأطعمة المعمولة من تراب بسيط يابس، ومن قطع خشب جافة جامدة، وإخراج أطف تلك الأطعمة من بين فرث ودم، وإخراج كميات هائلة من الأطعمة، من بذرة واحدة صلدة كالعظم، وهى لا تزن درهما.. فأخراج كل ذلك فى وقته المناسب، وأمام أنظارنا، إخراجاً مقنناً، دون نسيان أحد، أو التباس أو خطأ، ليدل دلالة قاطعة، على أن حقيقة الرزق، من لدن رزاق كريم.

◆ نعم إن الآية الكريمة: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (الذاريات: 85).

تخصص الإعاشة والإنفاق وتحصرها فى الحق I.

◆ وكذا الآية الكريمة: (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) (هود: 6).

تأخذ أرزاق الناس والحيوان جميعها، تحت تعهد الرب سبحانه وكفالتة.

◆ وكذا الآية الكريمة: (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو

السميع العليم) (العنكبوت: 60).

تثبت وتعلن بأن الله سبحانه هو الذى يتكفل -كما هو مشاهد- بأرزاق المساكين والضعفاء والعاجزين، وأمثالهم ممن لا يستطيعون أن يتداركوها، فيرسلها إليهم من حيث لم يحتسبوا، ومن مصادر لا تخطر لهم على بال، بل من الغيب، كأمثال الحشرات الموجودة فى أعماق البحار، التى تتغذى على غير شىء، وجميع الصغار التى يأتىها رزقها من حيث لا تحتسب، وجميع الحيوانات التى قد تكفل سبحانه بأرزاقها.. حتى أنه هو الذى يرسل أرزاق أولئك المفتونين بالأسباب، تحت ستار الأسباب، فلا يرزقهم سواه.

وهكذا فالرزق ذو أهمية عظيمة، كأهمية الحياة، فى نظر القدرة الإلهية⁽³⁸⁾.. إن القدرة هى التى تخرج وتوجد الرزق، والقدر يلبسه اللباس المعين، والعناية الإلهية ترعاه.. فالذى وهب الحياة، يهب الرزق متناسبا مع انبساط الحياة، وليس هناك موت من الجوع.

(37) ص 218 : 222 من الشعاعات (الشعاع السابع).
(38) ص 335 من صيقل الإسلام (السنوحات).

لماذا إذن الخوف من الجوع وفقدان الرزق؟

رغم أن الآيات القرآنية تثبت أن الرزق بيد القدير الجليل وحده، ويخرج من خزانة رحمته دون وساطة.. إلا أن هناك الكثيرون الذين يخافون من الموت جوعاً، أو من فقدان الرزق.

ويبرر الإمام النورسي هذا الخوف بقوله (39): إن الرزق قسمان:

القسم الأول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني، وتكفله بنفسه. فلا أحد يموت من عدم الرزق، لأن الرزق الذي يرسله الحكيم ذو الجلال، إلى جسم الكائن الحي، يدخر قسماً منه احتياطاً، على هيئة شحوم ودهون داخلية. بل يدخر قسم من الرزق المرسل في زوايا حجيرات الجسم، كي يصرف منه في واجبات الجسم، عند عدم مجيء الرزق من الخارج.. فالذين يموتون إذن، إنما يموتون قبل نفاذ هذا الرزق الاحتياطي المدخر. أى أن ذلك الموت لا ينجم من عدم وجود الرزق، وإنما من مرض ناشئ من ترك عادة سيئة من سوء الاختيار، إذ "ترك العادات من المهلكات" قاعدة مطردة.

القسم الثاني: وهو الرزق المجازي: فالذي يسىء استعماله، لا يستطيع أن يتخلى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضرورية عنده، نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمان الحصول على هذا الرزق باهظ جداً، ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، إذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً، راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل إلى تقبيل أقدام أناس منحطين وضيعين. لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحق، بالتضحية بمقدساته الدينية، التي هي نور حياته الخالدة.

إنه ينبغي في هذا الزمان العجيب، للتحري من الخوف من الجوع: الاقتصار على الحاجات الضرورية، ومراعاة قاعدة "الضرورة تقدر بقدرها" فليس للمضطر أن يأكل من الميتة إلى حد الشبع، بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت.. ثم عليه التوكل على الله، فبرزقه من حيث لا يحتسب.

تناسب الرزق تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار:

إن من يتأمل قدرة الله في الكون وحكمته، ليتحرر من الخوف من الجوع أو فوات الرزق نهائياً. لأن توكله على الرزاق الكريم، كفيل بتحقيق الأمن له. نعم، إن تسارع أرزاق الأشجار إليها، دون أن يكون لها اقتدار ولا اختيار ولا إرادة، وهي ساكنة في أماكنها متوكلة على الله.. وكذلك سيلان الحليب المصفي من تلك المضخات العجيبة، إلى أفواه الصغار العاجزين، وانقطاع تلك النفقة مباشرة عنهم بعد اكتسابهم جزءاً من الاقتدار، وشيئاً من الاختيار والإرادة.. ومعيشة حيوانات لا اقتدار لها، أفضل من حيوانات كاملة القدرة، كل ذلك ليثبت بدهاء أن الرزق الحلال، لا يأتي متناسباً مع القدرة والإرادة، وإنما يأتي متناسباً مع الضعف والعجز، للذين يمنحان التوكل. ومع

(39) ص 98 ، 99 من اللمعات (اللمعة الثانية عشرة).
ص 216 من اللمعات (اللمعة التاسعة عشرة).

ذلك لا يعدو الرزق نحو الإنسان المتوكل ولا يساق إليه، بل يسكن قائلاً: تعال اطلبني، فتنش عني وخذني، بالسعي الحلال والاقتصاد والقناعة.

كيف يكون السعي لطلب الرزق مدار السعادة واللذة بدل الخوف والقلق⁽⁴⁰⁾؟

كما أن الخالق القدير الحكيم، قد خلق الحياة خلاصة جامعة، مستخلصة من الكائنات، يحشد فيها مقاصده العامة، وتجليات أسمائه الحسنی. كذلك جعل الرزق في عالم الحياة، مركزاً جامعاً للشئون الربانية، خالقاً في ذوى الحياة غريزة الاشتهااء، وتذوق الرزق، ليفسح بذلك المجال، لأهم غاية لخلق الكائنات وحكمتها، وهى جعل المقابل فى شكر ورضى دائمين وكليين، يتمان بكل خضوع وعبودية، تجاه ربوبيته وتودده سبحانه.

فمثلاً: أنه سبحانه قد عمر كل طرف من أطراف المملكة الربانية الواسعة جداً، فعمر السماوات بالملائكة والروحانيين، وعمر عالم الغيب بالأرواح، كما عمر العالم المادى -لحكمة بث الروح وإضفاء البهجة فيه- بوجود الأحياء، وبخاصة الطيور والطويرات والحشرات. فغرز الاحتياج للرزق وتذوقه فى الحيوانات والإنسان، وجعلهم يسعون دوما وراء رزقهم. وكان ذلك الاحتياج سوط تشويق لهم، يسوقهم ويحركهم ويجريهم وراء الرزق، منتشلاً إياهم من الكسل والعطالة، وما ذلك إلا حكمة من حكم الشئون الربانية. ولولا أمثال هذه الحكمة من الحكم المهمة، لكان سبحانه يجعل التعيينات المقننة للحيوانات، تسعى إليها دون كد وعناء، كما جعل أرزاق النباتات تسعى إليها.

وهكذا فإن السعيد هو من يعلم أن السعى الحلال لطلب الرزق، والاقتصار على الحاجات الضرورية، هو نوع من العبادة، وهو دعاء فعلى لكسب الرزق.. لذا يقضى هذا السعيد حياته بهناء، ويقبل ذلك الإحسان شاكراً ممتناً، متحرراً من كل دواعى خوف النفس، من الجوع أو فوات الرزق.

المشكلة النفسية السادسة

الوسوسة التى تزلزل نفسية الإنسان

تعريف الوسوسة: إن الوسوسة فى أبسط تعريف لها هى⁽⁴¹⁾: تلك الخواطر السيئة الفاسدة، التى يلقيها الشيطان فى القلب والخيال، مما تسبب توتر الأعصاب والأوهام. وقد يؤدى ذلك إلى اليأس والسقوط فى الغفلة، إن لم يعرف الإنسان حقيقتها، ولم يسبر أغوارها. فهى أشبه بالمصيبة تبدأ صغيرة، ثم تكبر شيئاً فشيئاً، على قدر اهتمام المرء بها. أما إذا أهملها فإنها تزول وتفتنى.

ويرى الإمام النورسى: أنه لا ضرر من الخواطر النجسة والقيحة والكفرية، التى ترد دون رضى من الإنسان: فكما أن صورة النجاسة فى المرأة ليست نجسة، وصورة الحية لا تلدغ، وصورة النار لا تحرق.. كذلك لا ضرر من تلك الوسوس، التى تتمثل فى مرايا القلب والخيال، مثلما تقرر فى علم الأصول: أن تصور الكفر

(40) ص 221 من الشعاعات (الشعاع السابع).

(41) ص 102 من الملاحق (ملحق قسطنطين)، ص 189 من المثوى (حجاب).

ليس كفرة، وتخيل الشتم ليس شتماً. أما تلك الآلام والأوجاع الروحية، الناتجة عن الوسوسة: فهي أسواط ربانية تحت على المجاهدة والصبر. إذ تقتضى الحكمة الإلهية عدم الوقوع فى اليأس، وكذلك دون البقاء فى الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التجل بالصبير والتحل بالشكر، والاستعانة بقول الحق: **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون** (المؤمنون: 97-98).

بعض أوجه الوسوسة وكيفية علاجها⁽⁴²⁾:

يبين الإمام النورسى خمسة وجوه للوسوسة، من وجوها التى تحدث كثيراً، حتى يكون بيانها -بعون الله- شفاء لما فى الصدور.. ذلك لأن الجهل مجلبة للوساوس، بينما العلم بها دافع لشرها. فلو جهل الإنسان أوجه الوسوسة، أقبلت ودنت، وإذا ما عرفها، ولت وأدبرت.

الوجه الأول: الجرح الأول:

إن الشيطان يلقى بشبهته فى القلب، ثم يراقب صداها فى الأعماق، فإذا أنكرها القلب، انقلب من الشبهة إلى الشتم والسب، فيصور أمام الخيال ما يشبه الشتم، من قبيح الخواطر السيئة، والهواجس المنافية للأداب.. فيظن الموسوس أن قلبه آثم، وأنه قد اقتترف السيئات حيال ربه الكريم، ويشعر باضطراب وانفعال وقلق، فينفلت من عقل السكينة والطمأنينة، ويحاول الانغماس فى أغوار الغفلة.

أما ضماد هذا الجرح فهو: أيها المبتلى المسكين! لا تخف ولا تضطرب! لأن ما مر أمام مرآة ذهنك، إنما هى مجرد صور وخيالات. وحيث أن تخيل الكفر ليس كفرة، فإن تخيل الشتم أيضاً ليس شتماً. فتلك الكلمات غير اللائقة، لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، ولعلها آتية من لمة شيطانية، قريبة من القلب. لذا فإن ضرر الوسوسة إنما هى فى توهم الضرر، حيث يظن المرء أن همزات الشياطين، هى من خواطر قلبه هو، ويتصور أضرارها فيقع فيها. وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات.. والمطلوب هنا أن يتحصن بالأية الكريمة: **(وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم)** (فصلت: 36).

الوجه الثانى:

عندما تتطلق المعانى من القلب، تنفذ فى الخيال مجردة من الصور، والخيال هو الذى يكسيها الأشكال والصور هناك.. فإن كانت المعانى منزهة نقية، والصور والأنسجة ملوثة دنية، فلا لباس ولا إكساء، إنما مجرد مس فقط.. ومن هنا يلتبس على الموسوس أمر التماس، فيظنه تلبساً وتلبساً، ويقول فى نفسه: "يا ويلتاه! لقد تردى قلبى فى المهوى، وستجعلنى هذه الدناءة والخساسة النفسية، من المطرودين من رحمة الله" فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه استغلالاً فظيماً.

ومرهم هذا الجرح العميق هو: كما لا يؤثر في صلاتك ولا يفسدها، ما فى جوفك من نجاسة، بل يكفى لها طهارة حسية وبدنية. كذلك لا تضر مجاورة الصور الملوثة، للمعاني المنزهة والمقدسة.

مثال ذلك: قد تكون متدبراً فى آية من آيات الله، وإذا بأمر مهيج من مرض يفاجئك، أو تدافع الأخبثين.. فلاشك أن خيالك سينساق إلى حيث الدواء، أو قضاء الحاجة، ناسجاً ما يقتضيه من صور دنيئة.. فتمر المعاني السامية الواردة فى تدبرك، من بين الصور الخيالية السافلة. دعها تمر، فليس ثمة ضرر ولا خطورة. إنما الخطورة فقط هى فى تركيز الفكر فيها، وتوهم الضرر منها. واعتبر دائماً بقول الحق جل شأنه: (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (النساء: 76).

الوجه الثالث:

قد تتوارد خيالات سيئة أحياناً، عند النظر فى أمور مقدسة. إذ التناقض الذى يكون سبباً للابتعاد فى الخارج، يكون مدعاة للقرب والتجاور فى الصور والخيال، كما هو معلوم فى علم البيان. أى أن ما يجمع بين صورتى الشيين المتناقضين، ليس إلا الخيال.. ويطلق على هذه الخواطر الناتجة بهذه الوسيلة تداعى الأفكار. مثال ذلك: بينما أنت تناجى ربك فى الصلاة، بخشوع وتضرع وحضور قلب، مستقبلاً الكعبة المعظمة، إذا بتداعى الأفكار هذا، يسوقك إلى أمور مشينة مخجلة، لا تعنيك بشيء.. فإذا كنت يا أخى مبتلى بتداعى الأفكار، فإياك إياك أن تقلق أو تجزع، بل مر عليها مر الكرام، لنلا تقوى تلك العلاقات الواهية العابرة، بتركيزك عليها، وتتأصل تدريجياً، حتى تتحول إلى مرض خيالى.. بل عد إلى حالتك الفطرية حالما تنتبه لها.

أما علاج هذا الداء فهو: اعلم أنه لا مسئولية فى تداعى الأفكار، لأنها لا إرادية غالباً. وهى ليست بمرض قلبى، إنما هى هواجس نفسية، وخواطر خيالية، لدى مرهفى الحس والأمزجة الحادة، ولكن خطورتها أن الشيطان يتغلغل عميقاً مع هذه الوسوس. فعليك الاستعاذة بالله، عند ورود تلك الخواطر والهواجس عليك، كما أمرتنا الآية الكريمة⁽⁴³⁾.. واعلم كذلك: كما أن مجاورة ملائكة الإلهام للشيطان حول القلب لا بأس فيها، ومجاورة الأبرار للفجار وقرابتهم، ووجودهم فى مسكن واحد، لا ضرر فيه، كذلك إذا تداخلت خواطر سيئة غير مقصودة، أو انشغلت بها نفس الإنسان كثيراً، حيث ينتهز الشيطان هذه الفرصة، ويقدم الأخيلىة الخبيثة، وينثرها هنا وهناك، مما يعود بأبلغ الضرر على الإنسان.

الوجه الرابع:

هو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط، لدى التحرى عن الأكمل الأتم من الأعمال. فكلما زاد المرء فى التشدد هذا -باسم التقوى والورع- ازداد الأمر سوءاً وتعقيداً، حتى ليوشك أن يقع فى الحرام، فى الوقت الذى يبتغى الوجه الأول والأكمل، فى الأعمال الصالحة. وقد يترك "واجباً" بسبب من تحريه عن "سنة" حيث يسأل

(43) (فصلت: 36) والى ذكرناها فى علاج الوجه الأول.

نفسه دائماً، عن مدى صحة عمله وقبوله، حتى يطول به الأمر فييأس.. ويستغل الشيطان وضعه هذا، فيرميه بسهامه ويجرحه من الأعماق.

ولهذا الجرح دواءان اثنان:

الدواء الأول: عليك يا أخى الأخذ بمذهب أهل السنة والجماعة، ولا تتبع المذاهب الأخرى مثل المعتزلة. فعملك يكون صحيحاً لا غبار عليه، نظراً لموافقته ظاهر الشرع. وإياك أن توسوس في صحة عملك، ولكن إياك أن تغتر به أيضاً، لأنك لا تعلم علم اليقين، أهو مقبول عند الله أم لا؟

الدواء الثاني: اعلم أن الإسلام دين الله الحق، دين يسر لا حرج فيه، وأن المذاهب الأربعة كلها على الحق. فإن أدرك المرء تقصيره، تلافاه بالاستغفار، الذى هو أثقل ميزاناً من الغرور، الناشئ من إعجابه بالأعمال الصالحة. واطرح الوسوس واصرخ في وجه الشيطان: إن هذا الحال حرج، بل ينافي اليسر في الدين، ويخالف قاعدتي: "لا حرج في الدين" و "الدين يسر"، ولا بد أن عملي هذا يوافق مذهباً من المذاهب الإسلامية الحقّة، وهذا يكفيني.

الوجه الخامس:

وهو الوسوس التي تتقمص أشكال الشبهات في قضايا الإيمان:

♦ فكثيراً ما يلتبس على الموسوس خلجات الخيال، فيظن أنها من بنات عقله. أى يتوهم أن الشبهات التي تنتاب خياله، كأنها مقبولة لدى عقله، فيظن أن اعتقاده قد مسه الخلل.

♦ وقد يظن الموسوس أن الشبهة التي يتوهمها، إنما هي شك يضر بإيمانه.

♦ وقد يظن أن ما يتصوره من رؤى الشبهات، كأن عقله قد صدقه.

♦ وربما يحسب أن كل تفكير في قضايا الكفر كفرأ، أى أنه يحسب أن كل تحرر وتمحيص، وكل متابعة فكرية، ومحاكمة عقلية محايدة، لمعرفة أسباب الضلالة، أنه خلاف الإيمان.

فأمام هذه التلقينات الشيطانية الماكرة، يرتعش ويرتجف، ويقول: "ويلاه! لقد ضاع قلبي وفسد اعتقادي واختل". وبما أنه لا يستطيع أن يصلح تلك الأحوال، بإرادته الجزئية -وهي غير إرادية على الأغلب- فإنه يتردى إلى هاوية اليأس القاتل.

أما علاج هذا الجرح فهو:

إن توهم الكفر ليس كفرأ، كما أن تخيل الكفر ليس كفرأ.. وأن تصور الضلالة ليس ضلالة، مثلما أن التفكير في الضلالة ليس ضلالة.. ذلك لأن التخيل والتوهم، والتصوير والتفكير، أمور حرة طليقة إلى حد ما، لذلك فهي لا تحفل بالجزء الاختياري، المنبثق من إرادة الإنسان، ولا ترضخ كثيراً تحت التبعات الدينية.. بينما التصديق العقلي والإذعان القلبي، ليسا كذلك، فهما خاضعان لميزان.

ولكن إذا تكررت هذه الحالة -دون مبرر- وبلغت حالة من الاستقرار في النفس، فقد يتمخض عنها لون من الشبهات الحقيقية، ثم قد ينزلق الموسوس، بالتزامه الطرف المخالف، باسم المحاكمات العقلية الحيادية، أو باسم الإنصاف، إلى حالة يلتزم المخالف (أى الخصم أو الشيطان) دون اختيار منه، وعندها يتنصل من الالتزامات

الواجبة عليه تجاه الحق.. فيهلك. ولكي ينجو الإنسان من تلك المهوى الخطرة، عليه الالتجاء دوماً إلى تلك القلعة المتينة، والحصن الحصين. المتمثلة في تلك السورة القرآنية: (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس).

وفى نهاية عرض أوجه الوسوسة وكيفية علاجها.. قد يثور سؤال لدى بعض الناس: ترى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بهذه الوسواس، المزعجة للنفس والمؤلمة للقلب؟

أو بعبارة أخرى: إن خلق الشياطين وهم الشر المحض، وتسليطهم على أهل الإيمان، وسوقهم كثيراً من الناس إلى الكفر، ودخولهم النار بمكايدهم.. هو أمر مرعب. فيا ترى كيف ترضى رحمة الله بهذه المصيبة العظمى؟ والإجابة على هذا التساؤل نجدها فى النقطة التالية:

ما الحكمة فى خلق الشياطين الذين هم مبعث الشرور (44)؟

إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، يكمن فى وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية، وكمالات ترقى بالإنسان فى سلم الكمال.

فإننا إذا مانحنا الإفراط والغلبة جانباً، فإن الوسوسة تكون حافزه للتيقظ، وداعية للتحري، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كله جعل العليم الحكيم الوسوسة، نوعاً من سوط تشويق، وأعطاه بيد الشيطان، كى يحث به الإنسان فى دار الامتحان، وميدان السباق، إلى تلك الحكم.. وإذا ما أفرط فى الأذى، فرنا إلى العليم الحكيم وحده، مستصرخين: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

نعم! كما أن هناك مراتب كثيرة، بدءاً من البذرة إلى الشجرة الباسقة، كذلك فإن للاستعدادات الفطرية الكامنة فى ماهية الإنسان، من المراتب والدرجات ما تفوق ذلك، بل قد تصل إلى المراتب الموجودة بين الذرة والشمس. ولكى تظهر هذه الاستعدادات وتنسبط، لا بد لها من حركة، ولا بد لها من تفاعل، متمثل فى "المجاهدة" لتحقيق الرقى والسمو.. ولا تحصل هذه المجاهدة، إلا بوجود الشياطين والأشياء المضرة، حتى تظهر تلك الأصناف السامية من الناس، التى هى بحكم الآلاف من النوع الإنسانى. فالنقويم يأخذ "النوعية" بنظر الاعتبار، ولا ينظر إلى الكمية إلا قليلاً. بل قد لا ينظر إليها.

فالمنافع التى حازتها البشرية من عشرة أشخاص كاملين، يتلألأون كالنجوم فى سمائها، والذين أخذوا بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وأضاءوا السبل أمامهم، وأخرجوهم إلى النور، بمجاهدتهم للنفس والشيطان.. لتبين بوضوح حكمة العدالة الإلهية، بوجود الشياطين وتسليطها. وصدق الله العظيم إذ يقول: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون) (العنكبوت: 2)، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (آل عمران: 142).

المشكلة النفسية السابعة

الحسد الذى يسبب الغناد والشقاق

ما هو الحسد؟

إن الحسد داء نفسى رهيب، لا ينجو منه إلا من رحم ربي، وهو ذا أثر خطير على نفسية الإنسان أولاً، ثم على حياة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة.

ويعرفه الإمام النورسي بقوله(45):

إنه مشاعر الحقد والغل والعداء، التى توغر قلب الإنسان، تجاه أخيه الإنسان، وما يتبع ذلك من تحايز وعناد وشقاق، فى أوساط المجتمعات.. وهو مرفوض كلية: حيث ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام، الذى يمثل روح الإنسانية الكبرى. فالذين يملأ قلوبهم الحقد والعداوة، تجاه إخوانهم المؤمنين، إنما يظلمون أنفسهم، قبل ظلمهم لإخوانهم، فضلاً عن تجاوزهم حدود الرحمة الإلهية. حيث أنه بالحقد والعداوة، يوقع نفسه فى عذاب أليم، فيقاسى عذاباً، كلما رأى نعمة حلت بخصمه، ويعانى ألماً من خوفه.. والحسد أشد إيلاًما للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهبه، أما المحسود فلا يمسه من الحسد شيء، أو يتضرر طفيفاً.

أضرار الحسد على المجتمعات الإسلامية:

إن الحسد يؤدى إلى التفرق والتحزب فى الأمة الإسلامية، حيث يحاول الحاسد دائماً، هدم مسالك الآخرين، أو الطعن فى وجهة نظرهم، وإبطال مسلكهم. لا لسبب إلا أغراض شخصية، ولهوى النفس الأمارة بالسوء، التى تريد التسلط والاستعلاء، وإشباع شهوات نفس فرعونية(46).

ورغم أن أشد القبائل تأخراً يدركون معنى الخطر الدايم عليهم، فينبذون الخلافات الداخلية، وينسون العداوات الجانبية، عند إغارة العدو الخارجى عليهم، تقديراً لمصلحتهم الاجتماعية.. إلا أن الذين يتولون خدمة الإسلام ويدعون إليه، لا ينسون عداوتهم الجزئية الطفيفة، فيمهدون بها سبيل إغارة الأعداء الذين لا يحصرهم العد عليهم(47).

وهذا ما أدى بتلاميذ الإمام النورسي إلى توجيه ذلك السؤال له(48):

لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء، وأرباب الطرق الصوفية، وهم أهل حق ووفاق وونام، بالتنافس والتزاحم.. فى حين يتفق أهل الدنيا والغفلة، بل أهل الضلالة والنفاق، من دون مزاحمة، ولا حسد فيما بينهم.

(45) ص 339 : 345 من المکتوبات (المکتوب الثان والعشرون).

(46) ص 347 من المکتوبات.

(47) ص 349 من المکتوبات (المکتوب الثان والعشرون).

(48) ص 226 من الممعات (اللمعة العشرون).

وقد أجاب النورسي رحمه الله- على ذلك السؤال إجابة شافية، تبين كيف أن التحاسد يضيع على الأمة الإسلامية كثيراً من ثمرات العمل الإيجابي، الذي يبذله أفرادها.. نقتبس من تلك الإجابة ما يلي:

♦ إن اختلاف أهل الحق، غير نابع من فقدان الحقيقة.. كما أن اتفاق أهل الغفلة، ليس نابعاً من ركونهم إلى الحقيقة. بل لأن وظائف أهل الدنيا والسياسة والمتقنين، وأمثالهم من طبقات المجتمع، قد تعينت وتميزت: فلكل طائفة وجماعة وجمعية، مهمة خاصة تشغل بها، وما ينالونه من أجره مادية - لقاء خدماتهم وإدامة معيشتهم- هي كذلك متميزة ومتعينة. كما أن ما يكسبونه من أجره معنوية، كحب الجاه وذبوع الصيت والشهرة، هي الأخرى متعينة ومخصصة وتميزة.. فليس هناك إذن ما يولد منافسة أو مزاحمة، أو حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال. لذا فهم يتمكنون من الاتفاق، مهما سلكوا من طرق الفساد.

أما أهل الدين، وأصحاب العلم، وأرباب الطرق الصوفية: فإن وظيفة كل منهم متوجهة إلى الجميع، وأن أجرتهم العاجلة غير متعينة، وغير متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي، وتوجه الناس إليهم، والرضى عنهم، لم يتخصص أيضاً.. فهناك مرشحون كثيرون لمقام واحد. وقد تمتد أيد كثيرة جداً إلى أية أجره - مادية كانت أو معنوية- ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة.. فيتبدل الوفاق نفاقاً، والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

ولا يشفى هذا المرض العضال، إلا مرهم الإخلاص الناجح، أي أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: (إن أجرى إلا على الله) (يونس: 72)، بإيثار الحق والهدى، على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أثره النفس.. فمن وفقه الله إلى ذلك يجد لذة الإخلاص.

وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية في النفس، بحيث يتوهم المرء نفسه محقاً، ومخالفه على باطل، بحيث يقع الاختلاف والمنافسة، بدل الاتفاق والمحبة. فعليه اتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، بحيث يقول: "إن مسلکی حق وهو أفضل" ولكن لا يجوز له أن يقول: "الحق هو مسلکی فحسب".

♦ إن اتفاق أهل الضلالة نابع من ذلتهم، واحتياجهم إلى اكتساب القوة، ومعاونة الآخرين، والاتفاق معهم.. بينما أهل الحق، لا يرون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين، لما يحملون في قلوبهم من إيمان قوى، يمدهم بسند عظيم، ويبعث فيهم التوكل والتسليم.. إنما اختلافهم وما يتبعه من غيرة وحسد، ناتج من المبالغة في الحرص على ثواب الآخرة، وطلب الاستزادة منها دون قناعة، وحصرها على النفس. ويرد عليهم الإمام النورسي قائلاً⁽⁴⁹⁾: اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولا غيرة في أمور الدين والآخرة.. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تطاول الأيدي الكثيرة على شيء واحد، وحصر الأنظار إلى مقام واحد، وشهية المعدات الكثيرة إلى طعام واحد. فتؤول المنافسة والمساابقة والمزاحمة إلى الغبطة

والحسد.. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة، ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبه الكثيرة، وحيث أن هناك الكثيرون يتهاكفون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط فى هاوية الحسد والمنافسة.. أما فى الآخرة الفسيحة: فلكل مؤمن جنة عرضها السماوات والأرض، تمتد إلى خمسمائة سنة، ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب إذن هناك للحسد والمنافسة قط.. ويدلنا هذا على أنه لا حسد ولا مشاحنة فى أعمال صالحة، تفضى إلى الآخرة. فمن تحاسد فهو لاشك مرأى، أى يتحرى مغام دنيوية تحت ستار الدين، ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو أنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة، ولم يدرك بعد أن الإخلاص روح الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة، منطويًا فى قرارة نفسه على نوع من العدا، مع أولياء الله الصالحين الصادقين. فيضيع على نفسه، وعلى كثير من المسلمين، فرصة الاستفادة من توجيهاتهم المثمرة البناءة التى تعالج انحراف الإنسان والمجتمعات.

وبذلك فإن الحسد فى أمور الدين والآخرة، يجب ألا يصدر من مسلم لأخيه المسلم، لأن رحمة الله واسعة.. بل ذلك النوع من الحسد، يجب أن ينحصر فى قلوب الكفار فقط، كما أخبرنا بذلك العليم الخبير: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) (البقرة: 109)، وهذا هو أشد أنواع الحسد، لأنه يهدد كيان الأمة الإسلامية بأسرها، لأنه يعرضها لحقد وانتقام أهل الضلالة والإلحاد.

كيف عالج القرآن الحسد ودواعيه؟

يذكر لنا الإمام النورسي بعض الحلول، المستقاة من روح القرآن الكريم، لعلاج الحسد. فيقول رحمه الله (50):

♦ يجب أن يلاحظ الحاسد عاقبة ما يحسده، ويتأمل فيها، ليدرك أن ما ناله محسوده من أعراض دنيوية -من مال وقوة ومنصب- إنما هو أعراض زائلة فانية. فأنذتها قليلة، ومشقتها عظيمة.. فقد تدخل تحت قول الحق تبارك وتعالى: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (التوبة: 55)، أو قوله تعالى: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (طه: 131).

♦ يعلم القرآن النفس أن الحاسد فى حسده يسخط على قدر الله، لأنه يحزن من مجيء فضل من الله ورحمته على محسوده، ويؤنب المولى Y هؤلاء الحاسدين بقوله: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) (النساء: 54).

♦ إن الحاسد الذى يحزن من فضل جاء لمحسوده، ويرتاح من نزول المصائب عليه.. فإنه بذلك كأنه ينتقد القدر الإلهي، ويعترض على رحمته الواسعة. ومعلوم أن من ينتقد القدر كمن يناطح الجبل، ومن يعترض على الرحمة الإلهية يحرم منها. ولينصت الحاسد لقول الحق تبارك اسمه: (أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون) (الزخرف: 32).

♦ على الحاسد أن يجاهد وسوسة الشيطان التي تدعوه إلى الغيرة والحقد والحسد، وكذلك نزغات نفسه الأمانة بالسوء، حتى يتخلص من شرور العداة المغرور فيه، ويستأصل شأفته.. فإن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتما توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، مما يؤدي إلى وحدة المجتمع⁽⁵¹⁾. تحقيقاً لقول الحق I: (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) (الحجرات: 10).

♦ يحرص القرآن حرصاً شديداً على تطهير النفس من الحسد، بغرس أسمى معاني الحب والإخلاص والإيثار، بين المؤمنين كافة.. فإذا ما تذوق المؤمن حلاوة الإخلاص، تحرر من نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء، ويصبح المؤمنون كالجسد الواحد: فكما لا تحاسد في جسم الإنسان بين اليدين، ولا انتقاد بين العينين، ولا يعترض اللسان على الأذن، ولا يرى القلب عيب الروح، بل يكمل كل منه نقص الآخر، ويستتر تقصيره، ويسعى لحاجته، ويعاونه في خدمته.. وإلا انطفت حياة ذلك الجسد، ولغادرت الروح وتمزق الجسم. وكما لا حسد بين تروس المعمل ودواليبه، ولا يتقدم بعضها على بعض ولا يتحكم، ولا يدفع أحدها الآخر إلى التعطل بالنقد والتجريح، وتتبع العورات والنقائص، ولا يثبط شوقه إلى السعي، بل يعاون كل منها الآخر، بكل ما لديه من طاقة موجها حركات التروس والدواليب إلى غايتها المرجوة، فيسير الجميع إلى ما وجدوا لأجله، بالتساند التام والاتفاق الكامل. فلو تدخل شيء غريب أو تحكم في الأمر -ولو بمقدار ذرة- لاختل المعمل وأصابه العطب، ويقوم صاحبه بدوره بنشئته أجزائه، وتقويضه من الأساس.

فكذلك يريد الإسلام من المؤمنين: أن يكونوا جميعاً أجزاء وأعضاء، في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها: الإنسان الكامل.. وأن يكونوا جميعاً بمثابة تروس ودواليب معمل، ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة⁽⁵²⁾.. ولذلك قال الحق Y: (فألف بين قلوبكم وأصبحتم إخواناً) (آل عمران: 103).

ومن صفات هؤلاء الإخوان: (يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (الحشر: 9).

فلا حسد ولا حقد ولا تباغض.. بل حب وإيثار وتضحية، في أسمى الصور والمعاني..

♦ إن حرص القرآن على تطهير النفس من الحسد، ناتج من حرصه على تحقيق الاتحاد والتساند التام في المجتمع الإسلامي، وفوزه بسر "الإخلاص" الذي يهيب قوة معنوية، بمقدار ألف ومائة وأحد عشر "1111" ناتجة من تساند أربعة أفراد. ذلك أن كل فرد من الأفراد المتفقين حقيقة، يمكنه أن يرى بعيون سائر إخوانه، ويسمع بأذانهم، ويفكر بعقولهم، ويعمل بأيديهم.. والله من وراء القصد، ومع الجماعة التي تطهرت قلوبها من الأثرة والأنانية، والغل والحسد، وخشعت لله الحي القيوم.

(51) ص 341 من المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون).

(52) ص 242 من اللغات (اللغة الحادية والعشرون).

(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (النحل: 128).

♦ كل ما ذكرناه سابقاً كان عن علاج القرآن للحاسد، لأن داءه وبيل، وما فى صدره من حقد وغل وعداء، يستلزم جهداً كبيراً، وأمدأ طويلاً، فى إزاحة ماران على قلبه من ظلمات، وبعث نور الإيمان بدلاً من نيران العداوة والبغضاء، التى تؤجج الصدور، وتؤدى إلى تفكك المجتمعات وانهيارها.

أما بالنسبة للمحسود:

فعلية الالتجاء إلى الحصن المنيع المتمثل فى سورة الفلق.. تلك الهدية الرحمانية، التى تقى الإنسان من مكائد النفس الشيطانية: (قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد). فالاعتصام بالله هو حبل النجاة، من ظلمات الدنيا والآخرة، ومن شر كل ذى شر، فهو الركن الركين، والملاذ الأمين، والعروة الوثقى، ونقطة الاستناد الكبرى. وننتقل الآن إلى مشكلة أخرى من مشكلات الإنسان النفسية، التى وضع لها القرآن الحلول الجذرية، ووصف لها الدواء الشافى والعلاج الوافى.

المشكلة النفسية الثامنة

القلق النفسى وآثاره المدمرة

لاشك أن القلق النفسى من أخطر الأمراض، التى تهز كيان الإنسان هزاً وتقلق مضجعه، وتحرمه من الاستمتاع بأى متعة من متع الحياة. ولذلك فقد أولاه القرآن الحكيم أهمية كبرى، حتى يحقق للإنسان الاستقرار النفسى اللازم، لكى يخطو خطواته فى الحياة، بأقدام راسخة وقلوب مطمئنة.

وفى رحاب الآية الكريمة: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: 28).

قال الإمام النورسي (53):

إنه لا خلاص للقلوب والأرواح، من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة، وحرقة نار البعد عن الله، إلا بمعرفة خالق واحد أحد.. إذ ما إن يسلم أمر القلوب والأرواح، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد، حتى تجد راحتها، وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمرة، وتسكن من ذلك القلق، وتستقر وتطمئن.

لأنه إن لم يسند أمر الموجودات كافة إلى واحد أحد، فسيحال خلق كل شىء إذن إلى ما لا يحد من الأسباب.. وعندها يكون إيجاد شىء واحد مشكلاً وعويصاً، كخلق الموجودات كلها. ولنوضح ذلك بمثال: فكما أن تفويض إدارة جندى واحد إلى أمراء عديدين، فيه مشاكل عديدة جداً، بينما تفويض إدارة مائة جندى إلى ضابط واحد، فيه سهولة بالغة كإدارة جندى واحد.. كذلك اتفاق ما لا يحد من الأسباب فى إيجاد شىء واحد، فيه مئات الأضعاف من الإشكالات.. بينما فى إيجاد الواحد الأحد للأشياء العديدة، فيه مئات الأضعاف من السهولة.

وهكذا فيما يستشعره الإنسان من لهفة إلى الحقيقة وتوق إليها، يجعله دائم القلق والاضطراب ما لم يبلغها. فلا يجد الاطمئنان والسكون إلا بتوحيد الخالق، ومعرفة الله سبحانه. ذلك لأن سلوك سبيل الكفر الذى فيه ما لا يحد من الاضطرابات والمشاكل محال، ولا حقيقة له أصلاً.. بينما التوحيد فيه من السهولة المطلقة، فى خلق الموجودات بهذه الكثرة والإبداع، بحيث لا يدع للإنسان مجالاً إلا سلوكه. فيا من يتبع الضلالة.. يا أيها الشقى المسكين! تأمل طريق الضلالة، ما أظلمه وما أشده إيلاًماً لوجدان الإنسان.. ثم تأمل فى طريق التوحيد، فما أصفاه وما أبسّمه.. فاسلكه وانج بنفسك من كل عوامل القلق.

كيف يحقق الإيمان الاطمئنان القلبى؟

المؤمن من يعتقد بأنه "لا إله إلا الله". أى لا خالق ولا رازق إلا هو، النفع والضرر بيده، وأنه حكيم لا يعمل عبثاً، كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان (54). لذا يجد كل شىء باباً يفتح إلى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقة بالدعاء، ويرى أن كل شىء مسخر لأمر ربه، فيلتجىء إليه بالتضرع، ويتحصن أمام كل مصيبة مستنداً إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام، والاطمئنان الكامل.

فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمرة وانفجرت، فربما لا تخفيف عابداً لله ذا قلب منور، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها بإعجاب ومتعة.. بينما الفاسق ذو القلب الميت -ولو كان فيلسوفاً ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى فى الفضاء نجماً مذنباً، يعتريه الخوف، ويرتعش هلعاً، ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟ فيتردى فى وادى الأوهام.. ولقد ارتعد الأمريكان يوماً، من نجم مذنب ظهر فى السماء، حتى هجر الكثيرون مساكنهم أثناء ساعات الليل.

نعم! رغم أن حاجات الإنسان تمتد إلى ما لانهاية من الأشياء، فرأس ماله فى حكم المعدوم. ورغم أنه معرض إلى ما لا نهاية من المصائب، فإن اقتداره كذلك فى حكم لا شىء.. ومن هنا ينشأ القلق: إذ أن مدى دائرتى رأس ماله واقتداره، بقدر ما تصل إليه يده، بينما دوائر آماله ورغائبه وآلامه وبلاياه، واسعة سعة مد البصر والخيال.. فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة، إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام. فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيل ظاهراً، إلا أن لها فى معناها راحة وخفة عظيمتين لا توصفان.

علاج القرآن لجميع حالات قلق الإنسان:

إذا تتبعنا الآيات القرآنية، فإننا سنجدها بلسماً شافياً لصدور المؤمنين، من أمراض القلق النفسى. وصدق الله العظيم إذ يقول:

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (الإسراء: 82).

(قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) (يونس: 57).

(أ أعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) (فصلت: 44).

وإذا حاولنا تسجيل الآيات القرآنية، التي تعالج كل حالة قلق، يتعرض لها الإنسان، فإننا سنضطر إلى نقل معظم القرآن على هذه الصفحات.. لذا فإن منهج الإمام النورسي يقوم على تسجيل الروح العام للقرآن الكريم، في علاج البشرية من حالات القلق النفسية. ونحن بدورنا سنقوم بتسجيل مقتطفات، مما أفاض الله به على الإمام الراحل، يكون مؤشراً لمن يريد الغوص في بحار الحقيقة:

• قلق الإنسان على مصيره وكيفية دخوله القبر (55):

إن ما يقلق الإنسان دوماً وينغص حياته، هو تفكيره الدائم في مصيره، وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير أحبته وأقاربه.. فتوهم الإنسان المسكين وتصوره من أن آفأ، بل ملايين، من إخوانه البشر، ينتهون إلى العدم بالموت -ذلك الفراق الأبدي الذي لا لقاء وراءه- سيذيقه هذا التصور ألماً شديداً، ينبئ بآلام جهنم.. فالإنسان، خلافاً للحيوان - ذو علاقة مع بيته، ومرتبطة بأقاربه، بروابط ووشائج، وهو كذلك ذو ارتباط وثيق مع الدنيا، لأنه ذو نسب فطري بالجنس البشري، لذلك فهو مرتبط فطرة بالخلود والبقاء.. لذلك فإنه يتلوى من ألم العذاب، النابع من التفكير في العدم، المرتبط بالموت.

وهنا يأتي نور القرآن الكريم فاتحاً بصيرته، مزيلاً الغشاوة عن عينيه، فينظر بنور الإيمان، ويعرف أن "الإيمان بالأخرة" كنز عظيم للإنسان، الوثيق الصلة بالرغبات والآمال التي لا تنتهي.. فإذا به يكتسب لذة روحية عميقة، تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهد من نجات أحبته، وخلصهم جميعاً من الموت النهائي، والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي، منتظرين قدومه إليهم. وهكذا يصبح الإيمان بالله واليوم الآخر، محوراً للسعادة المطلوبة واللذة المبتغاة، ومدار استمداد القوة وسلوى للإنسان، تجاه هموم الدنيا غير المحصورة. فيتحرر من دواعي القلق، حتى يكون ممن قال الله فيهم: (يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي) (الحجر: 27-30).

• قلق الأطفال وحيرتهم أمام موت أحبائهم (56):

إن الأطفال الذين يمثلون ربع البشرية، لا يمكنهم أن يتحملوا تلك الحالات، التي تبدو مؤلمة ومفجعة أمامهم، من حالات الموت والوفاة، إلا بما يجدونه في أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف، من القوة المعنوية الناشئة من "الإيمان بالجنة" .. إذ لولا هذا الإيمان، لاضطروا أن يقضوا حياة ملؤها الوقاحة والاضطراب والهموم الأليمة.. فلا يهنأون بألعابهم، ولا يتسلون بلعبهم، لأن الموت الذي يصيب من حولهم من الأطفال، يؤثر بالغ التأثير في نفس كل طفل، وفي قلبه الذي سينطوى في المستقبل، على آمال ورغبات كثيرة، وفي روحه التي لا تستطيع الثبات، فتصاب بالقلق والحيرة، حتى تصبح حياته وعقله، وسيلتي عذاب له، فلا يجدى ما يتسلى به من لهو ولعب نفعاً، قبل أن يجد لتساؤله وحيرته جواباً.

(55) ص 277 ، 278 من الشعاعات (الشعاع الحادي عشر - الثمرة).
(56) ص 280 من الشعاعات، ص 104 من الكلمات.

وهكذا يأتي الإيمان بالجنة، ليفتح باب الأمل المشرق أمام طبائع الأطفال الرقيقة، التي لا تتمكن من المقاومة والصمود، وتبكي لأدنى سبب، فيتمكنون من العيش بهدوء واطمئنان، بعيدا عن القلق النفسى.. ويحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه قائلاً: "إن صديقى أو أختى الذى توفى، قد أصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو أكثر منا أنسا وانطلاقاً وتجوّلاً.. وإن والدتى التى توفيت، قد مضت إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وستضمنى أيضاً إلى صدرها الحنون فى الجنة، فأرى تلك الوالدة الشفوقة".

• قلق الشيوخ حيال قرب انطفاء حياتهم⁽⁵⁷⁾:

كذلك الشيوخ الذين يمثلون ربع البشرية، فإنهم يعيشون ضراماً روحياً، واضطراباً نفسياً، وقلقاً قلبياً، حيال انطفاء حياتهم قريباً، ودخولهم تحت التراب، وقد أوصدت الدنيا الجميلة أبوابها فى وجوههم.. ولا يجدون الصبر والسلوان، من قرب انطفاء شعلة حياتهم، العزيزة عليهم، ولا من انغلاق باب دنياهم، إلا فى الإيمان بالله واليوم الآخر.. حيث يقول لهم هذا الإيمان:

♦ "لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيراً، فإن لكم شباباً خالداً وهو أمامكم، وسيأتى حتماً. وأن حياة ساطعة بهيجة، وعمراً مديداً أبدياً فى انتظاركم، وستلتقون بأولادكم وأقاربكم الذين فقدتموهم، وجميع حسناتكم محفوظة، وستأخذون ثوابها، حسب وعد الرحمن الرحيم: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين) (الطور: 21).

♦ كما أمدهم القرآن بسلاح بتار، يواجهون به شدائد الحياة، ومنغصاتها ومصائبها وآلامها، التى تشتد وطأتها عليهم فى شيخوختهم. ذلك السلاح هو الدعاء، حيث يطمئن حياتهم، بأنوار السلوى المشعة من نقطة استنادهم بالله، كما استند إليه الأنبياء فى ظروف الشيخوخة، التى تشبه ظروفهم:

(كهيعص . ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً) (مريم: 1-4).

♦ ولم يكتف القرآن بهذا، بل سلك طرقاً إيجابية، فى إدخال الطمأنينة واستقرار النفس والقلب للشيوخ، بأن أوصى الأبناء بتوقير الوالدين والبر بهما، وخاصة عند الكبر، حيث الضعف والعجز، اللذان يصبحان محورين لجلب الرحمة الإلهية الواسعة. فقال تعالى: (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) (الإسراء: 23-24).

وهكذا يحول الإيمان قلق الشيخوخة وعجزها، إلى اطمئنان وقوة، لأنهم يستندون إلى سلطان عظيم ذى قدرة مطلقة، وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم، السلام المؤمن المهيمن.. فكيف يقلق الشيوخ وهم يعيشون فى كنف الرحمة الإلهية الواسعة، التى أسبغت عليهم الرحمة، على صورة بركة تعمهم، وتعم من حولهم، فتخفف وقع المصائب والأحداث.

(57) ص 280 ، 284 من الشعاعات ، 10z من الكلمات - ص 341-409 من اللغات "رسالة الشيوخ".

• قلق الشباب أمام ثورة وجيشان رغباتهم وهواهم (58):

إن الشباب فى حالة قلق دائم، لأنهم لا يصغون غالباً لصوت عقولهم الجريئة. فرغباتهم وهواهم فى ثورة وجيشان، وهم مغلوبون على أمر حواسهم ونوازعهم.. فإذا ما فقد هؤلاء الشباب الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم يتذكروا عذاب جهنم، فإن أموال الناس وأعراضهم، وراحة الضعفاء، وكرامة الشيوخ، تصبح مهددة بالخطر.

فماذا يقول لهم الإيمان؟

♦ يقول لهم: إذا ما بذل الشاب ما يملك من طاقة مؤقتة، فى سبيل الخير والصلاح، ضمن دائرة الطهر والعفة والاستقامة، فإن الأوامر السماوية كلها تبشره، بأنه سيغنم به شباباً باقياً، لا زوال له.. (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) (الكهف: 13).

♦ ويقول لهم: إن نشوة الشباب وسفاهته، وأذواقه العابرة -فى غير ما أحل الله- تسبب ألماً أكثر وأعمق، فى ذات اللذة نفسها، فضلاً عن العقاب الرهيب فى الآخرة، والعذاب المرير فى القبر، والعقاب فى الدنيا المترتب على الذنوب والآثام.. فليحذر الشباب طريق الشهوات، الذى يعرضهم لعذاب الدنيا والآخرة، ويحرمهم من اطمئنان النفس وراحة القلب.. وليكن إمامهم وقوتهم: سيدنا يوسف، الذى رفض كل إغراءات الفتنة: (قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) (يوسف: 33).

♦ ويقول لهم مستحثاً فيهم حيوية الشباب وعزيمتهم، بحيث يقومون بدورهم الإيجابى فى الحياة، لتحقيق كل دواعى الأمن النفسى، والأمان العقائدى: (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) (لقمان: 17).

وهكذا فإن الإيمان يحمى هؤلاء الشباب من القلق الناتج عن طيش أنفسهم ونزواتها، وفى نفس الوقت يحميهم من أن تنقلب أهواؤهم إلى جحيم، تتأجج على الضعفاء والعجائز، وتحويل الحياة الإنسانية السامية، إلى حياة حيوانية سافلة، حيث "الحكم للغالب".

• قلق المظلومين وذوى المصائب والفقراء والمساجين (59):

إن كل هؤلاء الذين يمثلون الجزء الأهم من البشرية: يعانون أشد حالات الضيق واليأس والقلق والاضطراب وسورة الثأر، كل حسب قدرته النفسية.. فنرى المظلومين يتجرعون كنوس الإهانة التى يرونها من الظلمة - دون أن يتمكنوا من الاقتصاص منهم، ولا من إنقاذ شرفهم وكرامتهم، من بين مخالبيهم. وهنا يقدم لهم القرآن الدواء، الذى يشفى ما فى صدورهم، بأن هناك ملك مقدر، سوف ينتقم من هؤلاء الظالمين. فيقول المولى جل شأنه: (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) (إبراهيم: 42).

♦ أما ذوى المصائب فهم يشعرون باليأس الأليم، النابع مما أصاب أموالهم وأولادهم من الضياع فى الكوارث.. وهنا تتبعث كلمات القرآن الحكيم، تقدم الصبر

(58) ص 255 ، 281 ، 284 من الشعاعات (الشعاع الحادى عشر - الثمرة).
(59) ص 280 ، 284 من المعات ، ص 277 ، 284 من الشعاعات.

والسلوان، وتحقق الطمأنينة والأمان: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة: 157).

♦ أما المساجين: فإنهم يشعرون بضيق شديد، ناشئ من آلام السجن وعذابه لسنوات عدة.. فيفتح لهم القرآن باب السلوان، لإزالة ما خيم على صدورهم من قلق ويأس.. ويقول لهم الرحمن الرحيم: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر: 53).

بل إن القرآن يحبب إليهم السجن، إذا كان هذا السجن بسبب الاعتصام بمنهج الله، والعض عليه بالنواجذ، كما سبق أن قلنا عن سيدنا يوسف عليه السلام. ويقول الإمام النورسي (60): يمكنني القول إنه لولا الإيمان بالآخرة، الذي أمدني وإخواني بالصبر في مصيبتنا الرهيبة، ودخولنا السجن هذا - دون ذنب اقترفناه - لكان تحمل مرارة يوم واحد، من أيام العذاب، كالموت نفسه، ولساقتنا هذه المصيبة إلى ترك الحياة ونبذها. ولكن نور الإيمان بالآخرة وقوته قد منحني صبراً وجلداً، وعزاءً وتسليّة، وصلابة وشوقاً للفوز بثواب جهاد عظيم، في هذا الامتحان، إلى حد، بت أعد نفسي في مدرسة كلها خير وجمال، وحق أن نطلق عليها "المدرسة اليوسيفية".

• قلق المرضى (61):

إن آلام المرض تجعل المريض قلقاً، يئن من الآلام، ويخشى الموت نتيجة المرض.. ولما كانت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالأمراض والمصائب - عدا الدينية منها - وبشرط الصبر عليها، تكون ملائمة جداً مع ذلك العمل، بل منسجمة تماماً مع تلك العبادة، حيث أنها تمد العمل بقوة، وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكي منها، بل يجب التحلى بالشكر لله بها، حيث أن تلك الأمراض والنوائب، تحول كل ساعة من حياة المصاب إلى عبادة يوم كامل (62).

فالعبرة قسمان: قسم إيجابي وقسم سلبي:

والبلايا والأمراض من القسم الثاني، حيث تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجئ إلى ربه الرحيم، ويتوجه إليه ويلوذ به، كما علمنا القرآن الكريم: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) (الأنبياء: 83، 84). ويداوى الإمام النورسي - بروح الإيمان - قلق المريض فيقول له (63):

(60) ص 282 من الشعاعات الشعاع الحادى عشر - الثمرة.

(61) يمكن الرجوع إلى رسالة المرضى ص 315 : 338 من اللمعات للتعرف على المنح الإلهية التي يعطيها الله للمرضى بحيث يصبح المرض نعمة كبرى تستحق الشكر وليس القلق كما وضع ذلك الإمام النورسي بإسهاب.

(62) ص 10 : 13 من اللمعات (اللمعة الثانية).

(63) ص 324 من اللمعات (اللمعة الخامسة والعشرون).

أيها المريض القلق دون داع للقلق! أنت قلق من وطأة المرض وشدته، فقلبك هذا يزيد ثقل المرض عليك. فإذا كنت تريد أن تخفف المرض عنك، فاسع جاهداً للابتعاد عن القلق. أي: تفكر في فوائد المرض، وفي ثوابه، وفي حثه الخطي إلى الشفاء. فاجتث جذور القلق من نفسك، لتجتث المرض من جذوره. نعم، إن القلق (أو الوسوسة) يضاعف مرضك ويجعله مرضين. لأن القلق يبيت في القلب - تحت وطأة المرض المادي - مرضاً معنوياً، فيدوم المرض المادي مستنداً إليه.. فإذا ما أذهبت عنك القلق والهواجس، بتسليم الأمر لله والرضا بقضائه، وباستحضار حكمة المرض، فإن مرضك المادي سيفقد فرعاً من جذوره فيخفف، وقسم منه يزول.

وإذا ما رافقت المرض المادي أو هام وهواجس، فقد يكبر عشر معشار تلك الأوهام، بوساطة القلق إلى معشار. ولكن بانقطاع القلق، يزول تسع من عشرة، من مفعول ذلك المرض.. وكما أن القلق يزيد المرض، كذلك يجعل المريض كأنه يتهم الحكمة الإلهية، وينتقد الرحمة الإلهية، ويشكو من خالقه الرحيم، لذا يؤدب المريض بلطمات التأديب - بخلاف ما يقصده هو - مما يزيد مرضه. إذ كما أن الشكر يزيد النعم، فالشكوى كذلك تزيد المرض والمصيبة.. وذلك كما قال المولى ٧: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) (إبراهيم: 7).

وهكذا فإن القلق في حد ذاته مرض، وعلاجه إنما هو في معرفة حكمة المرض. فإذا ما عرف المريض حكمته وفائدته، فليسمح لقلقه بذلك المرهم، ولينج بنفسه، ويقبل بدلاً من "وا أسفاه": "الحمد لله على كل حال".

• قلق الإنسان داخل بيته⁽⁶⁴⁾:

إن بيت كل إنسان هو دنياه الصغيرة، بل جنته الصغيرة، فإن لم يكن "الإيمان بالله واليوم الآخر" حاكماً ومهيماً في سعادة هذا البيت، لوجد كل فرد من أفراد تلك العائلة، اضطراباً أليماً، وعذاباً شديداً في علاقة بعضهم ببعض، حسب درجات رافته ومحبته لهم، فتتحول تلك الجنة إلى جحيم لا يطاق.

فالوالدة مثلاً - التي تضحي بنفسها لأجل ولدها - كلما رأت ابنها يتعرض للخطر، ارتعشت هلعاً وخوفاً عليه. والأولاد كذلك عندما لا يستطيعون إنقاذ آبائهم أو إخوانهم، من المصائب التي لا تنقطع، يظلون في قلق دائم، ويحسون خوفاً مستمراً.

وهنا يمددهم القرآن بأنواع من العلاج شتى:

♦ أعظم أنواع العلاج هو الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، وتسليم الأمر لله، حيث يرتكزون على نقطة ارتكاز قوية، تمددهم بالصبر والسكينة والاطمئنان. وذلك في قوله تعالى: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة: 51).

♦ ينشر "الإيمان بالآخرة" نوره في البيت المسلم، فينور أرجاءه مباشرة ويستضيء.. لأن علاقة القربي، والرفقة والمحبة التي تربط أفرادها، لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جداً، بل تقاس وفق علاقات تمتد إلى خلودهم، ويقائهم في دار

الأخرة، حيث السعادة الأبدية.. وهنا يصبح الموت والزوال والفراق، وسيلة لنيل تلك السعادة، فيخف وطأة الشعور بالقلق والخوف إلى حد كبير.

♦ يؤدي الإيمان بتعاليم القرآن، إلى انبساط الفضائل داخل البيت المسلم، فيظهر فيه الاحترام المتبادل، والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقّة بلا احتيال، والمعاشرة والإحسان بلا رياء، والفضيلة والتوقير بلا استكبار. حيث يهتف القرآن بالجميع قائلاً: "دعوا للقلق والخوف، فقدامكم جنة النعيم، فلا تشغلوا أنفسكم بما يعطلكم عنها".

وهكذا نكون قد عرضنا - بما يسمح به المقام - بعض الحلول القرآنية، في معالجة ذلك المرض النفسى، الذى قلما ينجو منه إنسان وهو القلق.. ومنتقل إلى إلقاء الضوء على مشكلة أخرى من مشاكل الإنسان النفسية.

المشكلة النفسية التاسعة

الأنانية والعجب والغرور وما يتبعهم من ظلم واستبداد

إن القوى والميول المودعة فى الإنسان لم تحدد، خلافاً للحيوان، لذا فإن الميل للظلم، وحب الذات يتماديان كثيراً، وبشكل مخيف (65).

نعم، إن حب الإنسان لنفسه، وتحري مصلحته وحده، وحبه لذاته وحده، من الأشكال الخبيثة لـ "أنا والأنانية". وإذا ما اقترن العناد والغرور بذلك الميل، تولدت فظائع بشعة، بحيث لم يعثر له البشر على اسم بعد.

ولذلك فإن الآية الكريمة: (إنه كان ظلوماً جهولاً) (الأحزاب: 72)، تبين استعداد الإنسان إلى الظلم الرهيب المغرور فى فطرته. فالذى تمكن فيه الحرص والأنانية، يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء، يقف دون تحقيق أهوائه، حتى تدمير العالم، والجنس البشرى إن استطاع.

ولاشك أن الأنانية من الأمراض الخطيرة، التى يمكن أن تصيب النفس البشرية بسهولة، وهى تتعارض كلية مع الشريعة الإسلامية، التى تهدف فى مجموعها إلى تفاعل الإنسان مع المجتمع، تفاعلاً تاماً، حتى يصير ذلك المجتمع كالبنیان المرصوص، يشد بعضه بعضاً.

كيف تتعاضم الأنانية والعجب والغرور فى نفس الإنسان؟

إن الغفلة عن المالك الحقيقى، سبب لفرعونية النفس، فتتوهم نفسها مالكة لها، فيتشكل فى وهما دائرة لحاكميتها، ثم تقيس الناس، بل الأسباب على نفسها. فتقسم مال الله عليها، فتعارض الأحكام الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها.. مع أن الحكمة فى إعطاء أنانية لها: أن تصير واحداً قياسياً لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفتها فى غير ما وضعت له، فالنفس ليست مالكة لنفسها ولا لجسمها، الذى هو ماكينة دقيقة عجيبة إلهية، يعمل فيه فى كل وقت قلم القدرة، بيد القضاء والقدر (66).

(65) ص 345 من صيقل الإسلام (السنوحات).

(66) ص 128 من المتنوى العري النورى (قطرة).

ويخاطب الإمام النورسي نفسه قائلاً: اعلم يا أنا، أن ما التفتت على رأسك من سلاسل الإيجاد العلمية، واتصلت بأنانيتك من سطور الصنائع الشعورية، وما أخذت بأيدي حوائج ذاتك، من وسائل المدد والإجابة، تدل على أن موجدك وصانعك ومغيثك، يسمع أنينات فاقاتك، فيتحنن لها، ونداء حاجاتك وآمالك، فيتعهدا بفضله سبحانه.

فا أيتها الحجيرة الكبرى المعبرة "بأنا" المركبة من تلك الحجيرات: فقولى يا إلهى يا ربى، يا خالقى، يا مصورى، يا مالكى، يا سيدي، يا مولاي.. لك الملك ولك الحمد، أنا مسافر فى وديعتك وأمانتك، ومملوكك الذى هو هذا الجسد بمشتملاته.. فى أنا: لم تتملك ما لا يصير لك ملكاً؟ فتفرغ من هذه الدعوى الباطلة، إذ توهم التملك يوقعك فى ألم أليم، ويعرضك أن تمرق من الدين (67).

واعلمى يا نفس: أن ما أنعم الله عليك، من وجودك وتوابعه، ما هو إلا إباحة لا تملك فلك أن تتصرفى فيما أعطاك، كما يرضى من أعطى، لا كما ترضى أنت (68).
وعليك أن ترددى دائماً: (إنا لله وإنا إليه راجعون) (البقرة: 156)، أى أن المال له، وأنا فى أمره، وإليه أذهب، ما على لو لم أقصر فى حفظه.. فهذا بلاشك أدعى إلى توجيه.. "أنا" فى مسارها الصحيح.

ويقول النورسي - رحمه الله - (69): إن هذه ثلاثون سنة لى، مجادلة مع طاغوتين وهما: "أنا" فى الإنسان، والطبيعة فى العالم.
أما "أنا" فرأيته مرآة ظلياً حرفياً.. لكن نظر الإنسان إليه نظراً اسمياً قصدياً بالأصالة، فتفرغن عليه وتتمرد.

أما "الطبيعة" فرأيتها صنعة إلهية، وصبغة رحمانية. لكن نظر البشر إليها بنظر الغفلة، جعل الطبيعة تتأله عند ماديهم، فأنشأت كفران النعم المنجر إلى الكفر. فى نفسى المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء! يا نفسى الغوية (70):

إن كانت بذيرة التين، التى هى منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة، التى تعلقت بها منات العناقيد.. إن كانت هذه الثمرات والعناقيد، من عمل تلك البذيرة والساق، ومن مهارتهما، لزم كل من يستفيد من تلك النتائج، أن ييذى المدح ويظهر الثناء لهما!

أقول: إن كانت هذه الدعوى حقاً، فلربما يكون لك يا نفسى حق أيضاً فى الفخر والغرور، لما حملت من النعم.. بينما أنت لا تستحقين إلا الذم، لأنك لست كتلك البذيرة، ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختياري.. قنتنقصين بفخرك وغرورك من قيمة تلك النعم، وتبخسين حقها، وتبطلينها بكفرانك النعم، وتعصبينها بالتملك.

(67) ص 130 من المثوى.

(68) ص 208 من المثوى.

(69) ص 221 من المثوى (حبة).

(70) ص 248 : 249 من الكلمات (الكلمة الثامنة عشرة).

فليس لك الفخر، بل الشكر.. ولا تليق بك الشهرة، بل التواضع والحياء.. وما عليك إلا الاستغفار، وملازمة الندم، لا المدح.. فليس كمالك في الأنانية، بل في الاستهزاء. نعم يا نفسى! أنت في جسمى تشبهين الطبيعة فى العالم، فأنتما (النفس والطبيعة) قد خلقتما قابلين للخير، مرجعين للشر. أى أنتما لستما الفاعل ولا المصدر، بل المنفعل ومحل الفعل، إلا أن لكما تأثيراً واحداً فقط، وهو تسبيكما فى الشر، عند عدم قبولكما الخير الوارد، من الخير المطلق، قبولاً حسناً.

فيا نفسى! لا تقولى: إننى مظهر الجمال، والذى ينال الجمال يكون جميلاً" .. كلا إنك لم تتمثلى الجمال تمثلاً تاماً، فلا تكونين مظهراً له، بل ممرراً إليه. ولا تقولى أيضاً: إننى قد انتخبت من دون الناس كلهم، وهذه الثمرات إنما تظهر بوساطتى، بمعنى أن لى فضلاً ومزية.. كلا.. وحاشى لله.. بل قد أعطيت تلك الثمرات، لأنك أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاساً، وأكثرهم تألماً.. وصدق الله العظيم إذ يقول: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) (آل عمران: 188).

وهكذا: فإن الإنسان الذى يعتمد على أنانيته وغروره، يقع فى شرك ظلمات الغفلة، وبيتلى بأغلال الضلالة القاتلة. ويحق عليه حكم الآية الكريمة⁽⁷¹⁾: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (البقرة: 257)، أما إذا أغاثت الإنسان الهداية الإلهية، ووجد الإيمان إلى قلبه سيلاً، وانكسرت فرعونية النفس وتحطمت، وأصغى إلى كتاب الله، فتصطبغ الكائنات فى نظره بالنهار، وتمتلى بالنور الإلهى، وينطق العالم برمته: (الله نور السماوات والأرض) (النور: 35).

وفى الحقيقة: فإن محبة الإنسان الشديدة لنفسه، والمغرورة فيه، ما هى إلا محبة ذاتية، متوجهة إلى ذات الله الجليلة سبحانه.. إلا أنه أساء استعمال تلك المحبة فوجهها إلى ذاته.. ولذلك يخاطب الإمام النورسى نفسه قائلاً⁽⁷²⁾: مزقى يا نفسى إذن ما فىك من "أنا" واطهرى "هو". فإن جميع أنواع محبتك المتفرقة على الكائنات، إنما هى محبة ممنوحة لك تجاه أسمائه الحسنى، وصفاته الجليلة.. بيد أنك أسأت استعمالها. فستتالين جزاء ما قدمت يدك. لأن جزاء محبة غير مشروعة، وفى غير محلها، مصيبة لا رحمة فيها.

واستمعى يا نفسى، واتبعى هذا العهد الأزلى، بقوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله) (آل عمران: 31).

لماذا الأنانية والعجب والغرور؟

يستنكر الإمام النورسى بشدة تعاضم أنانية الإنسان، وعجبه وغروره بنفسه، لأنه يوقن يقيناً لا حدود له، بقول الله ۞: (وخلق الإنسان ضعيفاً) (النساء: 28)، ومن وحى هذه الآية الكريمة، يخاطب نفسه، ويخاطب كل إنسان يبحث عن الحقيقة، فيقول:

(71) ص 351 ، 352 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).
(72) ص 413 من الكلمات (الكلمة الرابعة والعشرون).

♦ يا "أنا" المتمرد المغرور المتكبر! انظر إلى درجة ضعفك وعجزك وفقرك ومسكنتك.. إذ يبارزك ويصارعك "الحوين" الذي لا يرى إلا بتكبيره مرات ودرجات، فتخر صعقا(73).

♦ يا أنا! أراك أنك لا ترى تناسبا بينك وبين العلى القدير.. فأنت عجز مطلق، وفقر مطلق، قد تضايقت عليك الحدود والقيود، حتى صرت كذرة، غابت في رمال الجزئيات، وكنملة تراكمت عليها جبال الحادثات، وكنحلة تفاقمت عليها العاصفات. أما العلى القدير: فهو لا نهاية لقدرته وغناؤه، ولا حد ولا قيد لتجليات أسمائه وصفاته.. جميع الخلق في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، لا تتحرك ذرة في الكون إلا بإذنه، لا شريك له في ملكه وألوهيته، ولا منازع له في جبروته وربوبيته، ولا إله إلا هو(74).

♦ نعم! لو كانت وظيفتك في الدنيا الاشتراك مع فاطرك، في ربوبيته سبحانه، لكانت المناسبة لازمة في المعاملة معه.. لكن هيهات! أين يد البعوضة من نسج قميصات مطرزات، قدت على مقدار قامات هذه العوالم.. بل وظيفتك في فطرتك، وغاية كمالك في استعداد ماهيتك، إنما هي: العبودية التي على المحوية تنبت (وليس الأنانية والعجب والغرور). والعبودية ضد الربوبية والمالكية.. فعدم المناسبة هي المناسبة. فدرجة علمك ببعده عن الربوبية والمالكية، تصير عبداً محبوباً مرحوماً.. وإن العبودية هي مرآة الربوبية بالضدية، ككتابة الحروف النورية على صحيفة الظلمة، فكلما تقربت إلى العدم، تراءت منها أعالي مراتب جلوات الوجود للواجب، ولا إله إلا هو.

♦ أيها الإنسان! إن من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة: أن لا تحسبن ما سوى الله تعالى أعظم منك، فترفعه إلى مرتبة العبادة.. ولا تحسبن أنك أعظم من شيء من الأشياء، بحيث تتكبر عليه. إذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن "المعبودية" وفي نسبة المخلوقية(75).

♦ أيها الإنسان: لا تتكبر على الحيوان، إن سبب رفعتك على سائر الحيوانات، إنما هو ضعفك وعجزك.. هل ترى في الحيوانات أعجز منك في تحصيل لوازم الحياة؟ بل ما يحصل لك بالتجارب والتدريس في عشرين سنة - مما يلزم لحفظ حياتك - يحصل للحيوان في عشرين يوماً، وبعضاً في عشرين ساعة، وبعضاً في عشرين دقيقة.. بل فرده برأسه، يساوى في حفظ الحياة الحيوانية، جماعة متعاونة منكم. كما أن فرداً منكم، يساوى أنواعاً منهم، من جهة كمال الإنسانية المنحصرة في الإسلامية والعبودية. يا هذا ويا "أنا" إما تصير أدنى من أدنى الحيوانات، وأذل وأعجز، وإما تصير أعز وأكمل من أنواعها.. فاختر ما شئت. واعرف عجزك وضعفك، وأن قدرتك وقوتك في الدعاء والبقاء لدى مالِكك(76).

(73) ص 178 من المثنوى (حباب).

(74) ص 293 من المثنوى (ذيل الزهرة).

(75) ص 175 من اللغات (اللغة السابعة عشرة).

(76) ص 444، 445 من المثنوى (نور من أنوار نجوم القرآن).

وصدق الله العظيم، وهو ينهى عن العجب والغرور، في قوله تعالى: (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور) (لقمان: 18).

أخطار الأناية والغرور على حقل العمل الإسلامي:

تعتبر الأناية والغرور من أشد الأخطار، التي يمكن أن تواجه المجتمع الإسلامي، لأنها تؤدي إلى تفكك المجتمع، وسيادة قوى الضلال فيه. ويقول الإمام النورسي في ذلك⁽⁷⁷⁾: إن الموالين للضلالة يرومون سحب إخواني عنى، مستفيدين من الأناية والغرور الكامن في الإنسان.. وفي الحقيقة إن أخطر وأضعف عرق يبيض في الإنسان، إنما هو عرق الغرور، إذ يمكنهم بالتربيت على ذلك العرق وتلطيفه، أن يدفعوه إلى كثير من المفاسد. إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا "أنا" فهو يجوب بهم في وديان الضلالة. فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك "أنا".. وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم "أنا" فعليهم تركه،، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم، أنهم مثلهم يعبدون النفس.. لذا فإن عدم ترك "أنا" بخس للحق تجاه خدمة الحق.

زد على ذلك أن الخدمة القرآنية التي اجتمعنا عليها، ترفض "أنا" وتطلب "نحن" فلا تقولوا: "أنا" بل قولوا: "نحن".

فيا إخواني: إن أخطر جهة من الأناية في عملنا هذا، هو الحسد والغيرة، فإذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده، فإن الحسد يتدخل فيفسد العمل. فكما أن إحدى يدي الإنسان لا تحسد الأخرى، ولا تغار منها، وكذا لا تحسد العين أذنه، ولا يغار قلبه من عقله.. كذلك أنتم، فكل منكم في حكم عضو وحاسة، في الشخص المعنوي لجماعتنا هذه.. فواجبكم الوجداني ألا يحسد بعضهم بعضاً، بل يفتخر كل منكم بمزايا الآخر ويسعد بها.

بقي هناك أمر آخر، وهو أخطر الأمور، وهو: وجود الحسد والغيرة فيكم، أو في أحبائكم، تجاه أخيك هذا الفقير. حيث فيكم علماء أجلاء متبحرون، وفي قسم من أهل العلم غرور علمي، ولو أنه متواضع بالذات، إلا أنه في تلك الجهة، مغرور وأناي، فلا يدع غروره فوراً. ومهما التزم عقله وتمسك قلبه بالخدمة، إلا أن نفسه تروم التميز والظهور والشهرة، من جراء ذلك الغرور العلمي. بل إنها ترغب حتى في إظهار المعارضة للرسائل المكتوبة.. وعلى الرغم من أن قلبه يحب الرسائل، وأن عقله يعجب بها ويجدها رفيعة، فإن نفسه تضمّر عداً آتياً من الغيرة العلمية، وتتمنى تهوين شأن الكلمات، كي تبلغها نتاجات فكره.. وهو بهذا لا يمثل لقول الله ﷻ: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) (النساء: 32).

كيف عالج القرآن الأنانية والعجب والغرور؟

إن القرآن الكريم فى مجمله، يهدف إلى اقتلاع جذور ذلك المرض النفسى، حتى يحرر الإنسان من هوى النفس، ومن كل ما يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الله. وقد استعرضنا فى المواقف السابقة بعض الآيات القرآنية، التى تحقق هذا الهدف.. وسنذكر هنا خطوات أربع من القرآن العظيم⁽⁷⁸⁾، تعتبر أقصر الطرق لعلاج النفس البشرية من الأنانية والعجب والغرور.

الخطوة الأولى: تشير إليها الآية الكريمة: **(فلا تزكوا أنفسكم) (النجم: 32)**، ويقصد بها: عدم تزكية النفس.. ذلك لأن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته، محب لنفسه بالذات. بل لا يحب إلا ذاته فى المقدمة، ويضحى بكل شىء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً، لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً، ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة، لحمده سبحانه وتقديسه، إلى نفسه.. فيصيبه وصف الآية الكريمة: **(من اتخذ إلهه هواه) (الفرقان: 43)**، فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلا بد إذن من تزكيتها. فتزكيتها فى هذه الخطوة وتطهيرها، هى بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية: كما تلقنه الآية الكريمة من درس: **(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (الحشر: 19)**، وذلك: أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فإذا ما فكر فى الموت صرفه إلى غيره، وإذا ما رأى الفناء والزوال دفعه إلى الآخرين، وكأنه لا يعنيه شىء، إذ مقتضى النفس الأمارة، أنها تذكر ذاتها فى مقام أخذ الأجرة والحظوظ، وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها فى مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها فى هذه الخطوة هى: العمل بعكس هذه الحالة: أى عدم النسيان فى عين النسيان، أى نسيان النفس فى عين النسيان، أى نسيان النفس فى الحظوظ والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

الخطوة الثالثة: هى ما ترشد إليه الآية الكريمة: **(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (النساء: 79)**، وذلك أن ما تقتضيه النفس دائماً، أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء فى هذه الخطوة، أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته، إحساناً من فطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس فى هذه المرتبة، هى فى سر هذه الآية الكريمة: **(قد أفلح من زكاهها) (الشمس: 9)**. وهى أن تعلم بأن كمالها فى عدم كمالها، وقدرتها فى عجزها، وغناها فى فقرها (أى كمال النفس فى معرفة عدم كمالها، وقدرتها فى عجزها أمام الله، وغناها فى فقرها إليه).

الخطوة الرابعة: هى ما تعلمه الآية الكريمة: **(كل شىء هالك إلا وجهه) (القصص: 88)**، ذلك لأن النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدعى نوعاً من الروبوتية، وتضمّر عصياناً حياً معبودها الحق.. فبادرك الحقيقة الآتية، ينجو الإنسان

من ذلك، وهى: كل شىء بحد ذاته، وبمعناه الاسمى: زائل، مفقود، حادث، معدوم، إلا أنه فى معناه الحرفى، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة، لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها فى هذه الخطوة هى معرفة: أن عدمها فى وجودها، ووجودها فى عدمها، أى إذا رأت ذاتها، وأعطت لوجودها وجوداً، فإنها تغرق فى ظلمات عدم، يسع الكائنات كلها.. يعنى إذا غفلت عن موجدتها الحقيقى وهو الله، مغتررة بوجودها الشخصى، فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة، فى ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها البراعة فى ضيائها الفردى الباهت، فى ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الأنانية والغرور، ترى نفسها حقاً أنها لا شىء بالذات، وإنما هى مرآة تعكس تجليات موجدتها الحقيقى، فتظفر بوجود غير متناه، وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم! من يجد الله فقد وجد كل شىء، فما الموجودات جميعها، إلا تجليات أسمائه الحسنى.

وهكذا إذا تبع الإنسان المؤمن تلك الخطوات، وجاهد نفسه حق الجهاد، فإنه يتخلص من مرض الأنانية والعجب والغرور، ويتحرر من ظلم نفسه، وظلم الآخرين واستبدادهم.. ويعلم علم اليقين⁽⁷⁹⁾.

♦ أن الحياة فى كل ذى حياة، لها غايات لا تعد ولا تحصى، يعود إلى الحى واحد، وإلى المحيى بمقدار مالكيته الغير متناهية.. ولا حق للكبير أن يتكبر على الصغير فى الخلقة، ولا عبثية فى الواقع.. وإنما هى فى نظر البشر، النفس الغرور، الذى يزعم ويرى: أن الأشياء كلها لأجل منافعه وهوساته، ويحسب أن لا غاية لها غير ما يعود عليه.. نعم، هذه الضيافة المفروشة على ظهر الأرض، إكرام للبشر بسر الخلافة، وبشرط استحصال لياقة الكرامة، لا له ولا استفادته فقط.

♦ ويعلم أن الإسلام دين التوحيد الخالص، يسقط الوسائط والأسباب عن التأثير، ويهون من شأن أنانية الإنسان، مؤسساً العبودية الخالصة لله وحده. فيقطع دابر كل نوع من أنواع الربوبيات الباطلة، ويرفضها رفضاً باتاً، بدءاً من ربوبية النفس الأمارة.. لذا لو أصبح أحد الخواص متقياً، لا يضطر إلى ترك الأنانية والغرور. ومن لم يترك الأنانية والغرور يتراخ فى التدين، بل يدع قسماً من أمور الدين، فالتقوى الحقيقية لا تجتمع مع الأنانية والغرور⁽⁸⁰⁾.

وهذا بعكس النصرانية الحاضرة، فلقد ارتضت عقيدة البنوة.. لذا تعطى للوسائط والأسباب، تأثيراً حقيقياً، ولا تقاوم الأنانية باسم الدين، بل تمنح الأنانية نوعاً من القداسة، وكأنها وكيل مقدس عن سيدنا عيسى.. ولأجل هذا فإن خواص النصارى، الذين يشغلون أرفع المقامات الدنيوية، يستطيعون أن يكونوا متدينين تديناً كاملاً، بينما فى المسلمين، نادراً ما يظل الذين يلجون مثل هذه المقامات على صلابتهم الدينية، وقلما يكونون من أهل التقوى والصلاح، لعدم تركهم الأنانية والغرور.

(79) ص 214 من المثوى العرى النورى (ذيل الحباب).
(80) ص 635 من المكتوبات (القسم السابع من المکتوب التاسع والعشرين).

وفي ختام حديثنا عن الأناية نقول: إن القرآن قد نجح إلى أبعد الحدود، في تطهير النفس المؤمنة من ذلك الداء النفسى الخطير، ولا غرو في ذلك فهو من لدن حكيم خبير، يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور.. ومن يجد صدره ضيقاً حرجاً، وحياته أو مجتمعاته يعترضها داء الأناية الرهيب.. فلا يلومن إلا نفسه، ونفوس الشاردين عن منبع النور والحق والجمال.

ونواصل رحلتنا مع إعجاز القرآن الكريم، في معالجته لمشكلات الإنسان النفسية، حيث يثبت على مر العصور والأجيال، أنه حقاً نزل من عند الحكيم الخبير، الذى وضع فى صيدلية القرآن، ما فيه شفاء لما فى الصدور، حتى يحقق الإنسان دوره من الاستخلاف فى الأرض، فى أمن وسكينة واطمئنان..

المشكلة النفسية العاشرة

السلبية وتشتت الإنسانية

إن السلبية مرض نفسى خطير، ينشأ من البعد عن الله، وعن ينابيع النور والإيمان، وهو إحدى مظاهر الأناية التى سبق شرحها.. فالأناية إما تؤدى إلى السلبية والانعزالية، وإما تؤدى إلى الظلم والاستبداد.

كيف تنشأ السلبية من البعد عن الإيمان؟

تنشأ تلك السلبية لأن الإنسان فيه جهتين (81):

الأولى: جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل.

الثانية: جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال.

فتنمو الجهة الأولى: بتوجيه القلب والسر والروح والعقل، وحتى الخيال، وسائر القوى الممنوحة للإنسان إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كل منها بما يخصها ويناسبها من وظائف العبودية.

أما الجهة الثانية: فتتنمو بالانغماس فى تفاهات الحياة، والتلذذ بملذاتها الهابطة، والانتكباب على جزئيات لذاتها الفانية، دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذاتها، الباقية الخالدة، وتسخير القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية، تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء، وتسييرها جميعاً لخدمتها.. مما يعنى السقوط والهبوط والانحطاط، ليس للإنسان فقط، بل للبشرية كلها.

وهكذا (82): فالإيمان يؤسس الأخوة بين كل شىء، حيث لا يشتد الحرص والعداوة والحقد والوحشة فى روح المؤمن.. إذ بالدقة يرى أعدى عدوه، نوع أخ له.. بينما الكفر يؤسس أجنبية واقتزافاً، بين كل الأشياء، ويشتد فى الكافر الحرص والعداوة، والتزام النفس والاعتماد عليها، أى السلبية بكل صورها، التى تنتاقض مع أوامر القرآن الكريم، فى قوله تعالى: **(واعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)** (آل عمران: 103).

(81) ص 360 : 363 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(82) ص 158 من المثنوى العربى النورى (قطرة).

فسر تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتهم في جماعاتهم سر عظيم، وأمر جسيم، له شأن فخيم⁽⁸³⁾.. إذ يصير به كل فرد كالحجر المخصوص، في البناء المرصوص. يستفيد من إخوانه في الإيمان، بألوف ألف ألف، ما يستفيد من عمل نفسه. فإذا نظمهم سلك الإيمان، يصير كل لكل، وللكل شفيعاً، وداعياً ومسترحماً، وراجياً ومادحاً ومزكياً. وعلى رأسهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم).. فيتلذذ كل فرد بسعادات سائر إخوانه، كتغنم الأم الجائعة بلذة ولدها. والأخ الشفيق بسعادة شقيقه حتى يصير هذا الإنسان المسكين، مستعداً لعبودية خلاق الكائنات، وقبول السعادة الأبدية.

التعاون دستور الحياة في القرآن الكريم:

إن الإسلام يرفض السلبية رفضاً مطلقاً، لأنها تؤدي إلى تشتت المجتمعات وتفككها، وبالتالي ضعفها، فتصبح لقمة سائغة أمام أعدائها. ولذلك قال تعالى في قرآنه العظيم: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (المائدة: 2). وهذا التعاون ليس مفروضاً على الإنسان فقط لصالح البشرية، بل مفروض على الكون كله لتحقيق الصالح العام.. فنرى: تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات⁽⁸⁴⁾.. وتسارع النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لتزريق الثمرات، وتزين الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاون الذرات في الإمداد لغذاء حجيرات البدن، وعدم مقاومة التراب الصلب، ولا الحجر الصلب، لسيران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة.. بل يشق الحجر قلبه القاسي، بتماس حرير أصابع بنات النبات، ويفتح التراب صدره المصمت، لسريان رائد النباتات.

وصدق الله العظيم إذ يقول: (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) (فصلت: 10).

كيف تزيد المدينة الحديثة أمراض السلبية في النفس البشرية؟

الرد على ذلك⁽⁸⁵⁾: أن المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركييزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة" وهي تستهدف "المنفعة" في كل شيء.. وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة.. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات.. وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء، وميول النفس التي من شأنها زيادة جموح النفس وإثارة الهوى.

ومن المعلوم أن شأن "القوة" هو "الاعتداء".. وشأن "المنفعة" هو التزاحم، إذ هي لا تقي بحاجات الجميع، وتلبية رغباتهم.. وشأن "الصراع" هو النزاع والجدال.. وشأن العنصرية هو "التجاوز" حيث تكبر بابتلاع غيرها.

فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة، هي التي جعلتها عاجزة - مع محاسنها - عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر، سعادة ظاهرية،

(83) ص 406 ، 407 من المتنوى (شعلة).

(84) ص 348 من المتنوى (شمة "3").

(85) ص 145 ، 472 من الكلمات (الكلمة الثانية عشرة والخامسة والعشرون).

بينما أقلت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق، نتيجة السلبية التي تعمقها في النفوس البشرية.

أما القرآن: فهو يقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلا من "القوة" .. ويجعل "رضى الله ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف بدلا من "المنفعة" .. ويتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة بدلا من دستور "الصراع" .. ويلتزم رابطة "الدين" والصنف والوطن لربط فئات الجماعات، بدلاً من "العنصرية والقومية السلبية" .. **ويجعل غايته:** "الحد من تجاوز النفس الأمانة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وتطمين مشاعر السامية، لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا، لجعل الإنسان إنساناً حقاً".

إن شأن "الحق" هو "الاتفاق" .. وشأن الفضيلة هو "التساند" .. وشأن "التعاون" هو "إغاثة كل للآخر" .. وشأن "الدين" هو "الأخوة والتكاتف" .. وشأن "إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو "سعادة الدارين".

وهكذا فعلى قدر ما تفسح المدنية الحديثة المجال، لزيادة أمراض السلبية في النفوس البشرية .. فإن القرآن يضيق إلى أبعد مدى ذلك المجال، بتحويل المسار إلى الإيجابية والتفاعل، والترابط بين أبناء المجتمع الإسلامي، حتى يحققوا القوة المطلوبة، التي ترهب عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم لا يعلمونهم، ولكن الله يعلم أغراضهم ونواياهم، المتربصة بالأمة الإسلامية لتقويض أركانها .. لذلك فتعاليم الإسلام بمجموعها، تعالج النفوس من السلبية، وتدفعها إلى التعاون والإيجابية.

لماذا؟

♦ لأنه - كما يقول الإمام النورسي⁽⁸⁶⁾: في التعاون سر عجيب .. بحيث إذا اجتمع حسن ثلاثة أشياء، صار كخمسة، وخمسة كعشرة، وعشرة كأربعين، وذلك بسر الانعكاس .. إذ في كل شيء نوع من الانعكاس، ودرجة من التمثيل .. كما إذا جمعت بين مرتين تتراءى فيهما مزايا كثيرة، أو نورتهما بالمصباح، يزداد ضياء كل بانعكاس الأشعة .. ومن هذا السر والحكمة: ترى كل صاحب كمال، وصاحب جمال، يرى من نفسه ميلا فطرياً، إلى أن ينضم إلى مثيله، ويأخذ بيد نظيره، ليزداد حسناً إلى حسنة .. حتى أن الحجر، مع جبريته، إذا خرج من يد المعقد الباني في السقف المحدد، يميل ويخضع رأسه، ليماس رأس أخيه، ليتماسكا عن السقوط .. فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون، لهو أجمد من الحجر، إذ من الحجر من يتقوس لمعاونة أخيه ..

أضرار السلبية على المجتمع الإسلامي⁽⁸⁷⁾:

قال تعالى في كتابه الكريم: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات: 13).

(86) ص 49 من إشارات الإعجاز.

(87) ص 413 من المكتوبات (المبحث الثالث من المكتوب السادس والعشرين).

أى: خلقناكم طوائف وقبائل وأممًا وشعوبًا، يعرف بعضكم بعضاً، وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية.. ولم نجعلكم قبائل وطوائف، لتتناكروا فتنخاصموا.
 فبناء على دستور التعارف والتعاون، الذى تشير إليه هذه الآية الكريمة: نجد أن الجيش يقسم إلى فيالق وإلى فرق وألوية، وأفواج وسرايا، وإلى فصائل وحظائر، وذلك ليعرف كل جندي واجباته، حسب تلك العلاقات المختلفة المتعددة، وليؤدى أفراد ذلك الجيش، تحت دستور التعاون، وظيفة حقيقية عامة، لتصان حياتهم الاجتماعية من هجوم الأعداء.. وإلا فليس هذا التقسيم والتمييز إلى تلك الأصناف، لجعل المنافسة بين فوجين، أو إثارة الخصام بين سريتين، أو وضع التضاد بين فرقتين.
 وكذلك الأمر فى المجتمع الإسلامى، الشبيه بالجيش العظيم: فقد قسم إلى قبائل وطوائف، مع أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة: إذ خالقهم واحد، ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبيلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد.. وهكذا واحد، واحد.. إلى الألوف من جهات الوحدة، التى تقتضى الأخوة والمحبة والوحدة.. بمعنى أن الانقسام إلى طوائف وقبائل - كما تعلنه الآية الكريمة - ما هو إلا للتعارف والتعاون، لا للتناكر والتخاصم. أما إذا اختلطت الروابط والوظائف، ولم تعين وتحدد، ما كان هناك تعاون ولا تعارف، واتجه الشعور القومى إلى السلبية التى تشتت الإنسانية.

فتمو الشعور القومى فى الشخص إما أن يكون إيجابياً أو سلبياً(88):

فالإيجابى: ينتعش بنمو الشفقة على بنى الجنس، التى تدفع إلى التعاون والتعارف.
أما السلبى: فهو الذى ينشأ من الحرص على العرق والجنس، الذى يسبب التناكر والتعاند.. والإسلام يرفض هذا الأخير.

فكيف إذن تسلل الفكر القومى السلبى فى المجتمعات الإسلامية(89)؟

انتشر الفكر القومى وترسخ فى هذا العصر.. ويثير ظالمو أوروبا الماكرون خاصة، هذا الفكر بشكله السلبى، فى أوساط المسلمين، ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم.. فروجوا القومية السلبية المشنومة المضرة، التى تنربى وتنمو بابتلاع الآخرين، وتدوم بعداوة من سواها.. وهذا يولد المخاصمة والنزاع.

ولهذا ورد فى الحديث الشريف: (أن الإسلام يجب ما قبله) ويرفض العصبية الجاهلية.. وهذا يتمثل فى قول الله تعالى: (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليمًا) (الفتح: 26).

فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف، يرفضان رفضاً قاطعاً، القومية السلبية وفكر العنصرية، لأن الغيرة الإسلامية الإيجابية المقدسة، لا تدع حاجة إليها.

ولقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية منها:

♦ أن الأمويين خلطوا شيئاً من القومية السلبية فى سياساتهم، فأسخطوا العالم الإسلامى، فضلاً عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية.

(88) ص 335 من صيقل الإسلام (السنوحات).

(89) ص 414 من المكنوبات.

◆ كذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية، وأوغلوا فيها في هذا العصر، نجم العداة التاريخى الملىء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان.. كما أظهر الدمار الرهيب، الذى أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذى يسببه هذا الفكر السلبى للبشرية.

◆ كذلك الحال فى تركيا: ففى بداية عهد الحرية (أى إعلان الدستور) تشكلت جمعيات مختلفة للاجئين، وفى المقدمة الروم والأرمن، تحت أسماء أندية كثيرة، وسببت تفرقة القلوب - كما تشكلت الأقوام بانهدام برج بابل، وتفرقوا أيدى سبأ فى التاريخ - حتى كان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب، ومنهم من تردى وذل ضللاً بعيداً⁽⁹⁰⁾.

◆ أما الآن: فإن التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومى السلبى - هلاك عظيم، وخطب جسيم.. إذ أن تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم لبعض، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف، ولشدة الفقر الذى نزل بهم، ولسيطرة الأجانب عليهم.. كل ذلك يسحقهم سحقاً. لذا فإن نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداة، مصيبة كبرى لا توصف، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض، ولا يعبأ بالثعابين الماردة التى تحوم حوله.

نعم، إن أطماع أوروبا التى لا تقتر ولا تشبع، هى كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع.. لذا فإن الاهتمام بهؤلاء الأوروبيين، وتقبل فكرهم العنصرى السلبى، هلاك وأى هلاك وضرر وبيل.

أما القومية الإيجابية: فهى سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية.. وينبغى أن يكون هذا الفكر الإيجابى القومى خادماً للإسلامى، وأن يكون قلعة حصينة له، وسورا منيعاً حوله.. لا أن يحل محل الإسلام، ولا يديلاً عنه، لأن الأخوة التى يمنحها الإسلام، تتضمن ألوف أنواع الأخوة.. وأى إقامة للقومية بديلاً عن الإسلام، تعتبر جناية خرقاء، أشبه ما يكون بوضع أحجار القلعة فى خزينة ألماس، وطرح ما فيها من ألماسات خارج القلعة.

كيف عالج القرآن السلبية التى تشكلت المجتمعات الإسلامية؟

هناك عدة أوامر ونواهى فى القرآن الكريم، تحمل معها معانى متعددة، وأهدافاً متنوعة، وأبعاداً شتى:

◆ فهى من جهة إشعاعات نورانية، تهدف إلى شفاء أمراض النفس البشرية.

◆ وهى من جهة أخرى: قوانين إلهية، الغرض منها تصحيح مسار المجتمع الإسلامى، وتوجيهه الوجهة المثلى.

◆ ومن جهة ثالثة تمثل دساتير ملزمة، لكل من الحاكم والمحكوم، لتحقيق سيادة الشريعة الإسلامية.

ومن تلك الآيات التى تعالج السلبية: فى النفس البشرية خاصة، وفى المجتمعات الإسلامية عامة:

♦ **الدعوى إلى الشورى: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: 38).. (وشاورهم فى الأمر) (آل عمران: 159).**

ويرى الإمام النورسى (91): أن مفتاح سعادة المسلمين فى حياتهم الاجتماعية، إنما هو "الشورى".. فالشورى هى تلاحق الأفكار بين أبناء الجنس البشرى، على مر العصور، وهى مدار رقى البشرية، وأساس علومها.. والشورى هى الوسيلة لفك أنواع القيود، ورفع أنواع الاستبداد عن البشرية، وتحقيق الشهامة الإسلامية. فالشورى الحق تولد الإخلاص والتساند: إذ أن ثلاث ألفات هكذا (إلى) تصبح مائة وإحدى عشرة.. فكذلك بالإخلاص والتساند الحقيقى، يستطيع ثلاثة أشخاص، أن يفيديوا أمتهم فائدة مائة شخص، بالشورى الشرعية النابعة من حقائق الإيمان.

♦ **الحرص على الأخوة الإيمانية: (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) (الحجرات: 10).**

ويرى الإمام النورسى (92): أن سبب حرص الإسلام على تحقيق المحبة والإيجابية بين المؤمنين، هو أن المجتمع الإسلامى ككل، أشبه ما يكون بمصنع ذى تروس وآلات عديدة. فإذا ما تعطل ترس من ذلك المصنع، أو تجاوز على رفيقه الترس الآخر، فسيختل حتما نظام المصنع الميكانيكى. لذا فينبغى أن يصرف المسلمون النظر عن تقصيراتهم الشخصية، وليتجاوز كل عن الآخر.

♦ **محاربة حصر الهمة فى المنفعة الشخصية:**

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك المفلحون) (الحشر: 9).

ومن وحى هذه الآية الكريمة، يقول الإمام النورسى (93):
وهنا أنبه ببالح الأسى والأسف: إلى أن قسماً من الأجانب، كما سلبوا أموالنا الثمينة وأوطاننا، بثمن بخس دراهم معدودة مزورة، كذلك فقد سلبوا منا قسماً من أخلاقنا الرفيعة، وسجايانا الحميدة، والتي بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقبيهم وتقدمهم، ودفعوا إلينا نظير ذلك، رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم.
فمثلاً: إن السجية المليئة التى أخذوها منا، هى قول واحد منهم: "إن مت أنا فلتحيا أمتى، فإن لى فيها حياة باقية".. هذه السجية التى هى أقوى أساس وأمتته لرقبيهم وتقدمهم، قد سرقوها منا.. إذ هذه الكلمة إنما تنبع من الدين الحق، ومن حقائق الإيمان، فهى لنا وللمؤمنين جميعاً.. بينما دخلت فىنا أخلاق رذيلة وسجاياء فاسدة، فترى ذلك الأنانى الذى فىنا يقول: "إذا مت ظمأنا فلا نزل القطر" و "إن لم أر السعادة فعلى الدنيا العفاء". فهذه الكلمة الحمقاء، إنما تنبع من عدم وجود الدين، ومن عدم معرفة الآخرة، فهى دخيلة علينا تسمنا. ثم إن تلك السجية الغالية، عندما سرت إلى

(91) ص 514 ، 515 من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

(92) ص 512 من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

(93) ص 513 من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

الأجانب، أكسبت كل فرد منهم قيمة عظيمة، حتى كأنه أمة وحده، لأن قيمة الشخص بهيمته، فمن كانت همته أمتة، فهو بحد ذاته أمة صغيرة قائمة.

وبسبب عدم تيقظ أناس منا، وبحكم أخذنا الأخلاق الفاسدة من الأجانب، فإن هناك من يقول: "نفسى نفسى" مع ما فى شريعتنا الإسلامية من سمو وقدسية، حيث تدعو إلى الإيثار والإيجابية.

فالذى يحصر نظره فى منافعه الشخصية وحدها، إنما ينسلخ من الإنسانية، ويصبح حيواناً مفترساً، ويبعد بذلك كلية عن الشريعة الإسلامية.

♦ الدعوى إلى الوحدة الحقيقية بين المسلمين:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (آل عمران: 103). (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران: 104).

وينصح الإمام النورسي المسلمين فى الجامع الأموى قائلًا (94): لا يعتذرن أحدكم بالقول: إننا لا نضر أحداً، ولكننا لا نستطيع أن ننفع أحداً أيضاً، فنحن معذورون إذن". فعذرکم هذا مرفوض، إذ أن تكاسلكم وعدم مبالاةكم، وتقاعسكم عن العمل، لتحقيق الاتحاد الإسلامى، والوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية، إنما هو ضرر بالغ وظلم فاضح.. فكما أن سيئة واحدة تتضاعف إلى الألوف، فإن حسنة واحدة فى زماننا هذا - وأعنى بالحسنة هنا ما يتعلق بقدسية الإسلام - لا تقتصر فائدتها على فاعلها وحده، بل يمكن أن تتعداه، ليعم نفعها معنوياً ملايين المسلمين، ويشد من حياتهم المادية والمعنوية.

وعليه: فإن هذا الزمان ليس زمان الانطراح على فراش الكسل، والخلود إلى الراحة، وعدم المبالاة بالمسلمين بترديد: "أنا مالى". إن مصالح الطوائف الصغيرة، وسعادتها الدنيوية والأخروية، ترتبط بالطوائف الكبيرة العظيمة.. ولذلك فإن تكاسل وتخاذل تلك الطوائف، يضران بإخوانهم من الطوائف الصغيرة، أيما ضرر، مما يجعل ذنب التقاعس عظيماً، ومسئوليته خطيرة أمام الله.

وهكذا فإن السلبية مرفوضة كلية، بكل مفاهيم الشريعة ومحدداتها، وكل آيات القرآن وأهدافها.. ونعبر عن إيجابية الإسلام المطلقة فى قول الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم): (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) رواه البخارى.

وننتقل الآن إلى مرض جديد، وعلاج أكيد، من صيدلية القرآن، التى فيها دواء لكل داء تعانى منه النفوس البشرية.

المشكلة النفسية الحادية عشر

اليأس وانحطاط الهمة

إن اليأس من الأمراض القاتلة للنفس البشرية، وهو أشد ما تحاربه الشريعة الإسلامية، لأن الحياة حركة وفعالية، والشوق جوادها، وهو مطية الهمة، لنشد معالي الأمور، في ميادين معركة الحياة. أما اليأس فهو العدو الألد، الذي يفت من قوة الهمة⁹⁵.. ولذلك فقد جعله الله من صفات الكافرين، حيث لا يأس مع الإيمان، ولا إيمان مع اليأس، ويظهر هذا واضحاً في الآية الكريمة: (ولا تياسوا من روح الله إنه لا يينس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف: 87).

ويرى الإمام النورسي: أن اليأس يعرض الإنسان لأن تتخطفه الشياطين في أودية مهلكة، وذلك إذا وصل حدوداً بعيدة في الخوف من العذاب، لدرجة تؤدي به إلى اليأس والإحباط.. فيقول⁽⁹⁶⁾: اعلم أنك إذا تدهشت من العذاب، ما وفقت للعمل. تتمنى عدم العذاب، فتتحري ما ينافيه، فتري الإمارات المنافية براهين، فتخطفك الشياطين.. فاستمع بقلب شهيد إلى قوله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر: 53).

ويقول الإمام النورسي تحت عنوان:

اليأس داء قاتل⁽⁹⁷⁾:

إن مما أملت على تجاربي في الحياة، وتمخض عنه فكري هو: أن اليأس داء قاتل، وقد دب في صميم قلب العالم الإسلامي.. فهذا اليأس هو الذي أوقعنا صرعى كالأموات، حتى تمكنت دولة غربية، لا يبلغ تعدادها مليوني نسمة، من التحكم في دولة شرعية مسلمة، ذات العشرين مليون نسمة، فتستعمرها وتسخرها في خدمتها. وهذا اليأس هو الذي قتل فينا الخصال الحميدة، وصرف أنظارنا عن النفع العام، وحصرها في المنافع الشخصية.. وهذا اليأس هو الذي أمات فينا الروح المعنوية، التي بها استطاع المسلمون أن يسيطروا سلطانهم على مشارق الأرض ومغاربها، بقوة ضئيلة.. ولكن ما إن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس، حتى تمكن الأجنبي الظلمة - منذ أربعة قرون - أن يتحكموا في ثلاثمائة مليون مسلم، ويكبلوهم بالأغلال. بل قد أصبح الواحد، بسبب هذا اليأس، يتخذ من فتور الآخرين، وعدم مبالاتهم، ذريعة للتملص من المسؤولية، ويخلد إلى الكسل قائلاً: "مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي.. فيتخلى عن الشهامة الإيمانية، ويترك العمل الجاد للإسلام. فما دام هذا الداء قد فتك فينا إلى هذا الحد، ويقتلنا على مرأى منا، فنحن عازمون على أن نفتص من قاتلنا، فنضرب ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: (لا تقنطوا من رحمة الله) (الزمر: 53).

(95) ص 433 من صيقل الإسلام (المناظرات).

(96) ص 126 من المثوى العربي النوري (قطرة).

(97) ص 505 من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

ونقصم ظهره بحقيقة الحديث الشريف: (ما لا يدرك كله لا يترك جله).
 إن اليأس داء عضال للأمم والشعوب، أشبه ما يكون بالسرطان.. وهو المانع عن بلوغ الكمالات.. والمخالف لروح الحديث القدسي الشريف (أنا عند ظن عبدي بي).. وهو شأن الجبناء والسفلة والعاجزين، وذريعتهم، وليس هو من شأن الشهامة الإسلامية قط.. وليس هو من شأن العرب الممتازين بسجايا حميدة، هي مفخرة البشرية. فلقد تعلم العالم الإسلامي من ثبات العرب وصمودهم الدروس والعبر. وأملنا بالله عظيم أن يتخلى العرب عن اليأس، ويمدوا يد العون والوفاق الصادق إلى الترك، فيرفعوا معا راية القرآن عالية خفاقة، في أرجاء العالم إن شاء الله.

كيف عالج القرآن اليأس وانحطاط الهمة؟

إن اليأس ينتج غالبا عن الوقوع في شرك ظلمات الغفلة، والابتلاء بأغلال الضلالة القاتلة.. حيث ترى النفس الزمن الماضي، كمقبرة عظيمة في ظلمات العدم، وتتصور الزمن المستقبل موحشاً، تعبت فيه الدواهي والخطوب، وتتصور جميع الحوادث والموجودات - التي كل منها موظفة مسخرة من لدن رب رحيم حكيم، كأنها وحوش كاسرة وفواتك ضارية⁽⁹⁸⁾.

وهنا يعالج القرآن اليأس في محورين رئيسيين:

♦ **المحور الأول:** الآيات التي تدعو إلى التوحيد، مما يبعث الأمل والأمان في القلوب⁽⁹⁹⁾: (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض) (الزمر: 62-63). (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) (الأحزاب: 3). (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) (يونس: 58). (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير) (الروم: 50).

فالإيمان إذن يقتضى التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين، ويبعد اليأس عن الإنسان، ويرتفع به إلى أعلى عليين، بما يمدّه من قوة الإيمان.. أما إذا ترك الإنسان التوكل، فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين⁽¹⁰⁰⁾.

والإيمان نور: فإذا استقر نور الإيمان في هذا الإنسان، لبين ذلك النور جميع ما على الإنسان من نقوش حكيمة، فيقرأها المؤمن بتفكير، ويشعر بها في نفسه شعوراً كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتملونها.. أى كأنه يقول: ها أنا ذا مصنع الصانع الجليل ومخلوقه، انظروا كيف تتجلى في رحمة وكرمه⁽¹⁰¹⁾.. وتصطبغ الكائنات في نظره بالنور الإلهي..

فليس الزمن الغابر كما يتوهم اليأس مقبرة عظمى، بل يشهد ببصيرة القلب، كل عصر من العصور الماضية زاخر بوظائف عبودية تحت قيادة نبي مرسل، أو طائفة

(98) ص 351 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(99) يمكن الرجوع إلى "اثننا عشرة لمعة حول التوحيد الحقيقي" ص 325 : 347 من الكلمات.

(100) ص 352 ، 353 من الكلمات.

(101) ص 349 من الكلمات.

من الأولياء الصالحين.. ويخترق حجب المستقبل، فيرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبر باب سعادة خالدة.. ويتيقن أن كل حادثة من حوادث الكون - كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها - إنما هي مسخرات موظفات مأمورات، ويرى أن عواصف الربيع والمطر، وأمثالها من الحوادث التي تبدو حزينة سمجة، ما هي في الحقيقة والمعنى، إلا مدار الحكم اللطيفة⁽¹⁰²⁾.

وهكذا تتحرر النفس البشرية من كل دواعي اليأس الذي يقوض أركانها.

♦ المحور الثاني: استنهاض الهمة إلى أقصى مدى:

إن إحساس الإنسان باليأس، ينتج أيضا من انحطاط الهمة، والانشغال بسفاسف الأمور.. حيث يستغل الشيطان حب الراحة والدعة لدى الإنسان، فيصرفه عن الإيمان بدساتس ومكايد خبيثة، تصيبه بالغفلة وانحطاط الهمة، فيقعده عن معالي الأمور، ويقذف به في هاوية السفالة والذلة⁽¹⁰³⁾.

لذلك فقد جعل القرآن للعمل منزلة مقدسة سامية، واستحث الإنسان أن يسعى في الأرض لاستنطاق أسرارها، واستخراج خيراتها، لأن إعلاء كلمة الله في الأرض، يتوقف على الرقي المادي⁽¹⁰⁴⁾. فقال تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) (التوبة: 105). (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم: 39).

ويخاطب الإمام النورسي نوى الهمة الضعيفة في السعي والعمل، مما يؤدي بهم إلى الملل واليأس فيقول⁽¹⁰⁵⁾:

يا من لا يدرك مدى اللذة والسعادة في السعي والعمل.. أيها الكسلان، اعلم أن الحق تبارك وتعالى قد أدرج لكمال كرمه، جزاء الخدمة في الخدمة نفسها، وأدمج ثواب العمل في العمل نفسه.

ولأجل هذا: كانت الموجودات قاطبة، تمتثل الأوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند أدائها لوظائفها الخاصة بها، والتي يطلق عليها "الأوامر التكوينية" فكل شيء: ابتداء من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كل منها يسعى بلذة تامة في أداء مهماتها.. أي: اللذة كامنة في ثنايا وظائف الموجودات، حيث أنها تقوم بها على وجه من الإتقان التام، برغم أنها لا تعقل ما تفعل، ولا تدرك نتائج ما تعمل.

♦ فتأمل في وظائف أعضائك وحواسك: تر أن كلا منها يجد لذائذ متنوعة، أثناء قيامه بمهامه، في سبيل بقاء الشخص أو النوع.. فالخدمة نفسها، والوظيفة عينها، تكون بمثابة ضرب من التلذذ والمتعة بالنسبة لها.. بل يكون ترك الوظيفة والعمل، عذابا مؤلما لذلك العضو.

♦ وهناك دليل ظاهر آخر هو: أن الديك مثلاً، يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه إلهين، دون أن يأكل منها.. ويشاهد أنه يقوم بهذه المهمة،

(102) ص 352 من الكلمات.

(103) ص 552 من المكتوبات، ص 434 من صيقل الإسلام.

(104) ص 402، 403 من صيقل الإسلام (المنظرات).

(105) ص 188 : 191 من المعات (اللمعة السابعة عشرة).

وهو في غاية الشوق، وعز الافتخار، وذروة اللذة.. فهناك إذن لذة في تلك الخدمة، أعظم من لذة الأكل نفسه.

♦ وكذا الحال مع الدجاجة - الراحية لأفراخها - فهي تؤثرها على نفسها. إذ تدع نفسها جائعة في سبيل إشباع الصغار، بل تضحي بنفسها في سبيل الأفراخ، فتهاجم الكلب المغير عليها، لأجل الحفاظ على الصغار.. ففي الخدمة إذن لذة تفوق مرارة الجوع، وترجح على ألم الموت.

♦ والنباتات والأشجار تمتثل أوامر فاطرها الجليل، بما يشعر أن في عملها شوقاً ولذة، لأن ما تنتشره من روائح طيبة، وما تنتزين به من زينة فاخرة، تستهوى الأنظار، وما تقدمه من تضحيات وفداء، حتى الرmq الأخير، لأجل سنابلها وثمارها.. كل ذلك يعلن لأهل الفطنة: أن النباتات تجد لذة فائقة في امتثالها للأوامر، بما يفوق أية لذة أخرى، حتى أنها تمحو نفسها وتهلكها، لأجل تلك اللذة.. ألا ترى شجرة جوز الهند، وشجرة التين، كيف تطعم ثمرتها لبنا خالصاً، تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها، وتتسلمه منها، وتظل هي لا تطعم نفسها غير الطين. وشجرة الرمان تسقى ثمرتها شراباً صافياً، وهبها لها ربها، وهي ترضى قانعة بشارب ماء عكر. حتى أنك ترى ذلك في الحبوب: فهي تظهر شوقاً هائلاً للتسنبيل، بمثل اشتياق السجين إلى رحب الحياة.

ومن هذا السر الجارى في الكائنات المسمى بـ "سنة الله" ومن هذا الدستور العظيم: يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة، أشقى حالاً وأضيق صدرأ، من الساعى المجد.. ذلك لأن العاطل يكون شاكياً من عمره، يريد أن يمضى بسرعة في اللهو والمرح.. بينما الساعى المجد شاكر لله وحامد له، لا يريد أن يمضى عمره سدى.

لذا أصبح دستوراً عاماً في الحياة: "المستريح العاطل شاك من عمره، والساعى المجد شاكر". وذهب مثلاً: "الراحة مندمجة في الزحمة، والزحمة مندمجة في الراحة". وهنا يتبين سر الآية العظيمة التي جعلت السعى في الحياة، مدعاة لذهاب دواعى اليأس.. وذلك في أمر نبي الله يعقوب عليه السلام لبننيه ألا يستسلموا لليأس، ويسعوا في البلاد بحثاً عن يوسف وأخيه: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف: 87). وبهذا نكون قد تعرضنا لأقل القليل من خزائن الرحمة الإلهية، والإشعاعات النورانية، في مداواة اليأس، الذى يحطم كيان النفس البشرية.. ونترك لبصيرة المؤمن أن تستكشف جوانب القرآن، وتستخرج منه الكنوز واللآلى، التى تشرح الصدور والقلوب، وتجلبها مماران عليها من ظلمات الغفلة، التى تسبب اليأس وانحطاط الهمة.

المشكلة النفسية الثانية عشر

حب التقليد ونتاجه في ضياع النفس

إن حب التقليد مرض نفسى خطير، يؤدى إلى ضياع الهوية، ومعالم الشخصية. وهو من الأسباب التى ألفت الأمة الإسلامية في غياهب الضياع، وأقعدتها عن معالى

الأمر - كما يرى ذلك الإمام النورسي (106) - لأنه يقصم ظهر الهمة، ويؤدى إلى فقدان الثقة بالنفس، وضياع مواهب العقل، ونور القلب، ويلقى بالإنسان فى ظلمات الضلالة العمياء.

وهنا يثور السؤال التالى:

لماذا يعتبر التقليد مرضاً نفسياً خطيراً؟

ويجب على ذلك السؤال الإمام النورسي، ناهياً نفسه عن التقليد، فيقول (107): أيتها النفس! لا تقلدى أهل الدنيا، ولا سيما أهل السفاهة، وأهل الكفر خاصة، منخدة بزينتهم الظاهرية الصورية، ولذائهم الخادعة غير المشروعة.. لأنك بالتقليد لا تكونين مثلهم قطعاً، بل تتردين كثيراً جداً.. ولن تكونى حتى حيواناً أيضاً، لأن العقل الذى فى رأسك، يصبح آلة مشنومة مزعجة، تنزل بمطارقها على رأسك. وإليك تفسير ذلك: إذا كان ثمة قصر فخم، فيه مصباح كهربائى عظيم، تشعبت منه قوة الكهرباء إلى مصابيح أصغر فأصغر، موزعة فى منازل صغيرة، مرتبطة كلها بالمصباح الرئيسى. فلو أطفأ أحدهم المصباح الكهربائى الكبير، فسيعم الظلام المنازل الأخرى كلها، وتستولى الوحشة فيها.

ولكن إذا كان هناك مصابيح فى قصور أخرى، غير مربوطة بالمصباح الكبير فى القصر الفخم، فإن صاحب هذا القصر، إن أطفأ المصباح الكهربائى الكبير، فإن مصابيح أخرى تعمل على الإضاءة فى القصور الأخرى، ويمكنه أن يؤدى بها عمله، فلا يستطيع اللصوص نهب شىء منه.

فيا نفسى!

القصر الأول: هو المسلم.. والمصباح الكبير هو سيدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم): فى قلب ذلك المسلم.. فإن نسيه بالتقليد، وأخرج الإيمان به من قلبه - والعباد بالله - فلا يؤمن بعد بأى نبي آخر.. بل لا يبقى موضع للكمالات فى روحه، بل ينسى ربه الجليل.. ويكون ما أدرج فى ماهيته من منازل ولطائف، طعمة للظلام، ويحدث فى قلبه دماراً رهيباً، وتستولى عليه الوحشة.

ترى ما الذى يغنى عن هذا الدمار الرهيب، وما النفع الذى يكسبه حتى يستطيع أن يعمر ذلك الدمار والوحشة؟!!

أما الأجانب: فإنهم يشبهون القصر الثانى، بحيث لو أخرجوا نور محمد (صلى الله عليه وسلم): من قلوبهم، تظل لديهم أنوار - بالنسبة لهم - أو يظنون أنها تظل، إذ يمكن أن يبقى لديهم شىء من العقيدة بالله، والإيمان بموسى وعيسى - عليهما السلام - والذى هو محور كمال أخلاقياتهم.

فيا نفسى الأمانة بالسوء!

إذا قلت: أنا لا أريد أن أكون أجنبياً بل حيواناً، فلقد كررنا عليك القول يا نفسى! إنك لن تكونى حتى كالحوان، لأنك تملكين عقلاً. فهذا العقل - الجامع للآلام الماضى، ومخاوف المستقبل، سينزل ضربات موجعة، وصفعات مؤلمة، برأسك وعينيك،

(106) ص 635 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(107) ص 635 من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

فيذيقك ألوف الآلاف في ثنايا لذة واحدة، بينما الحيوان يستمتع بلذة غير مشوبة بالآلام.. لذا إن أردت أن تكونى حيواناً: فتخلّى عن عقلك أولاً وارميه بعيداً، وتعرضى إلى صفة التأديب فى الآية الكريمة: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف: 179).

هل التقليد ضرورة تفرضها ظروف العصر؟

إن التقليد مرض نفسى، متواجد فى كل العصور، نتيجة حب الشهوات، والركون إلى الحياة الدنيا، وعجز الهمم عن التطلع إلى المعانى والقيم النبيلة، والأهداف السامية.. وقد نبأنا بذلك العليم الخبير فى قرآنه الكريم، وهو يخاطب رسوله الحبيب (صلى الله عليه وسلم):.. فقال تعالى⁽¹⁰⁸⁾: (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير.. إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.. قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم.. قالوا إنما بما أرسلتم به كافرون.. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) (الزخرف: 23-25).

ويجيب الإمام النورسى على ادعاء (أن التقليد ضرورة تفرضها ظروف العصر) بالرفض، ويعيب على من يدعو المسلمين إلى تقليد الأجانب فيقول⁽¹⁰⁹⁾:

♦ يا من يحث المسلمين ويشوقهم على حطام الدنيا، ويسوقهم قسراً إلى صنائع الأجانب، والتمسك بأذيال رقيهم.. ويا من يدعى الحمية، أيها الشقى! تمهل وتأمل، واحذر من انقطاع عرى الدين، لبعض أفراد هذه الأمة، وانفصام روابطهم معه.. لأنه إذا انقطعت تلك الروابط لدى البعض، تحت سطوة مطارق التقليد الأعمى، والسلوك الأرعن، فسيكونون ملحددين مضرين بالمجتمع، مفسدين للحياة الاجتماعية كالسم القاتل.. إذ المرتد سم زعاف للمجتمع، حيث قد فسد وجدانه وتعفت طويته كلياً.. ومن هنا ورد فى علم الأصول: "المرتد لا حق له فى الحياة، خلافاً للكافر الذمى، أو المعاهد، فإن له حقاً فى الحياة".. لذا فإن شهادة الكافر من أهل الذمة مقبولة عند الأحناف، بينما الفاسق مردود الشهادة لأنه خائن.

أيها الفاسد الشقى! لا تغتر بكثرة الفساق، ولا تقل إن أفكار أكثرية الناس تساندنى وتؤيدنى، ذلك لأنه لم يدخل الفسق فاسق برغبة فيه، وطلباً بذات الفسق، بل وقع فيه، ولا يستطيع الخروج منه، إذ ما من فاسق إلا ويتمنى أن يكون تقياً صالحاً، وأن يكون رئيسه وأمره ذا دين وصلاح، اللهم إلا من أشرب قلبه بالردة - والعياذ بالله - ففسد وجدانه بها، وأصبح يلتذ بلذغ الآخرين، وإيذائهم كالحية.

وهكذا فإن الأجانب لا يملكون من حقائق الحياة، ما يستحق أن يقلدهم المسلمون فيها، ومن يقلدهم يكون كمن استبدل الألماس بقطع زجاجية تافهة، ولم ينصت إلى

(108) الآيات التى تتكلم عن حب التقليد عند النفوس الضعيفة كثيرة جداً منها: (المائدة: 104) - (الأعراف: 28) - (يونس: 78) - (الأنبياء: 53) - (الشعراء: 74) - (لقمان: 21) - (الزخرف: 22).
(109) اللغات ص 186 : 188 (اللمعة السابعة عشرة) - وكذلك يمكن الرجوع إلى المثنوى العربى النورى ص 273 ، 276.

قول الحق ٧: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (التوبة: 55).

♦ أيها العقل الأبله والقلب الفاسد! أتظن أن المسلمين لا يرغبون فى الدنيا، ولا يفكرون فيها، حتى أصبحوا فقراء معدمين، فتراهم بحاجة إلى من يوقظهم من رقدتهم، كيلا ينسوا نصيبهم من الدنيا، ويقلدوا الأجانب؟ كلا.. إن ظنك خطأ.. بل لقد اشتد الحرص، فهم يقعون فى الفقر وشباك الحرمان، نتيجة الحرص، إذ الحرص للمؤمن سبب الخيبة وقائد الحرمان والسفالة.. ولذلك قال الحق جل وعلا: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (الحشر: 9 ، التغابن: 16).

نعم، إن الأسباب الداعية إلى الدنيا كثيرة، والوسائل السائقة إليها وفيرة، وفى مقدمتها ما يحمله كل إنسان من نفس أمارة بالسوء، وما يكمن فيه من هوى وحاجة، وحواس ومشاعر، وشيطان عدو.. فضلاً عن أقران السوء من أمثالك، وحلاوة العاجلة ولذتها.. وغيرها من الدعاة إليها كثير.. بينما الدعاة إلى الآخرة، وهى الخالدة، والمرشدون إلى الحياة الأبدية قليلون. فإن كان لديك ذرة من الحمية والشهامة تجاه هذه الأمة، وإن كنت صادقاً فى دعواك إلى التضحية والفداء والإيثار.. فعليك بمد يد المساعدة إلى أولئك القلة من الداعين إلى الحياة الباقية.. وإلا فإن عاوتت الكثرة بالتقليد، وكملت أفواه أولئك الدعاة القلة، فقد أصبحت للشيطان قريناً، وساء قريناً.

♦ أيها الداعى إلى تقليد الأجانب: أتظن أن فقرنا ناجم من زهد الدين، أو من كسل ناشئ من ترك الدنيا؟ إنك مخطئ فى ظنك أشد الخطأ.. ألا ترى أن المجوس والبراهمة فى الصين والهند، والزنوج فى أفريقيا، وأمثالهم من الشعوب المغلوبة على أمرها، والواقعة تحت سطوة أوروبا، هم أفقر منا حالاً؟!!

أو لا ترى أنه لا يبقى بأيدي المسلمين سوى ما يسد رمقهم، ويقوم أودهم، حيث يغتصبه كفار أوروبا، الظالمون منهم، أو يسرقه منافقو آسيا، بما يحكون من دسائس خبيثة.

♦ إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسرا إلى المدنية، التى هى الدنية (أى بلا ميم) تسهياً لإدارة دفة النظام، وبسط الأمن فى ربوع المملكة.. فاعلموا جيداً أنكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد.. لأن إدارة مائة من الفاسقين الفاسدين أخلاقياً، والمرتابين فى اعتقادهم وإيمانهم، وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم، لهو أصعب بكثير، من إدارة ألوف من الصالحين المتقين، ونشر الأمن فيما بينهم.

♦ وبناء على ما تقدم من الأسس: فليس المسلمون بحاجة إلى ترغيبهم وحثهم على حب الدنيا والحرص عليها، بتقليد الأجانب، والتمسك بأذيال رقيهم.. فلا يحصل الرقى والتقدم، ولا ينشر الأمن والنظام فى ربوع البلاد بهذا الأسلوب.. بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبتثالثة فيما بينهم، وتسهيل وسائل التعاون فيما بينهم.. ولا تتم هذه الأمور إلا باتباع الأوامر المقدسة فى الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته.

مخاطر تقليد الأجانب في العصر الحاضر:

إن تقليد الأجانب سبب جروحاً واسعة غائرة، في القلب العام للمسلمين، وسبب انحراف الأفكار العامة، بالوسائل المفسدة التي هيئت لها، واتجاه الوجدان العام نحو الفساد، نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره، التي هي المستند العظيم للجميع، ولاسيما عوام المؤمنين⁽¹¹⁰⁾.

وتظهر تلك التخريبات الكلية الرهيبة، والشقوق الواسعة، والجروح الغائرة فيما يلي:

♦ غلو المسلمين في السذاجة، وتسامحهم وتجاوزهم عن خطيئات جناة رهيبيين: إذ لو رأى أحدهم حسنة واحدة من شخص، ارتكب ألوف السيئات، وتعدى على حقوق ألوف العباد (سواء المعنوية أو المادية) ينحاز إلى ذلك الظالم، لأجل تلك الحسنة الواحدة.. وبهذه الصورة يشكل أهل الضلالة والطغيان الأكثرية العظمى من الناس، رغم أنهم قلة قليلة جداً، وذلك لموالات أولئك السذج لهم.. ولأجله ينزل القدر الإلهي المصيبة العامة، التي تترتب وتنبئ على خطأ الأكثرية، بل إن عملهم هذا يعين على دوام المصيبة واستمرارها، بل على شدتها.

نعم، إن التجاوز عن السيئات والعفو والصفح، إنما يكون عن حقوق الشخص نفسه. أي له أن يعفو ويصفح عن تعدى على حقوقه، وليس له العفو والسماح عن الذي يهضم حقوق الآخرين، من الجناة والطغاة، إذ يكون شريكا معهم في ظلمهم⁽¹¹¹⁾.

♦ إن من يولى اهتماماً بالغاً في الوقت الحاضر، بالصراعات الدائرة في الكرة الأرضية، ويتابعها بلهفة وفضول، تلحقه أضرار مادية ومعنوية كثيرة جداً: فهو إما يشنت عقله، ويصبح أبلها، روحاً ومعنى، وإما يشنت قلبه، فيكون ملحداً، روحاً ومعنى، وإما يشنت فكره، فيغدو أجنبيها، روحاً ومعنى⁽¹¹²⁾.

ولقد شاهدت رجلاً من العوام، صاحب تقوى ودين، وآخر ينتسب إلى العلم، قد حزن حزناً لحد البكاء، لانهزام كافر عدو للإسلام، وفي الوقت نفسه سر سروراً بالغاً، من تفهقر جماعة السادة من أهل البيت، تجاه كافر عنيد.. أليس هذا أعجب مثال للجنون وتشنت العقل؟ أن يفضل رجل عامي يتعلق عقله بدائرة السياسة الواسعة، كافراً عدواً للإسلام، على مجاهد سيد من أهل البيت؟

نعم، إن مسائل السياسة تتعلق - إلى حد ما - بوظيفة العاملين في الشؤون الخارجية، وأركان الحرب في الجيش، والقادة المسؤولين.. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج، وإثارته بها، وصرفه عما يلزمه من وظائف، تجاه شئون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شئونه الشخصية بالذات، ولو أزم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف والفضول، سائب الروح، ثرثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية والإسلامية، خائر الشوق إليها.. وكذا إثارته بتلك الاهتمامات

(110) ص 118 من الملاحق (ملحق قسطنطين).

(111) ص 116 من الملاحق.

(112) ص 119 ، 120 من الملاحق.

التافهة، التي تقتل قلوبهم معنى، لأنها تهيب الجو الملائم للإلحاد.. كل ذلك ضرر بالغ للحياة الاجتماعية الإسلامية، مما يعود بنتائج وخيمة عليها.

♦ إن تقليد الأجانب وموالاتهم: أدى إلى التعاطف معهم والدعاء لهم، رحمة بهم وعطفا عليهم، رغم أنهم يبيدون حياة ألوف المسلمين الأبدية ويمحونها، ويسوقون مئات المؤمنين إلى سوء العاقبة، يدفعهم إلى ارتكاب الذنوب والخطايا.. وهذا ظلم عظيم، وإنكار لقسم كبير من القرآن الكريم، لأن حماية الوحوش الكاسرة والعطف عليها -وهي التي تمزق الحيوانات البريئة- يعتبر غدر عظيم تجاه تلك الحيوانات البريئة، ووحشية بالغة نابعة من فقدان الضمير والوجدان. وكذلك فإن التعاطف مع الكفار والمنافقين، يعتبر ظلماً شديداً وغدراً شنيعاً، تجاه أولئك المؤمنين المظلومين (113).. فيجب في خضم تلك التيارات الرهيبة، والحوادث المزلزلة للحياة والعالم، أن يكون المؤمنون على ثبات وصلابة، لا تحد بحدود، وضبط للنفس لا نهاية له، واستعداد دون حدود للتضحية.. ولا يكونون ممن يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، بسيطرة دوافع الحس العمياء، التي لا تبصر العقبى، وترجح درهم من لذة أنية حاضرة على رطل من لذات صافية آجلة.. فهذا مرض مخيف أصاب هذا العصر، بل هو مصيبة من مصائبه وبليّة من بلاياه، وهو موالاتة أهل الضلالة (114).. وهو يدخل في التحذير الإلهي: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (المجادلة: 22).

♦ إن تقليد الأجانب يؤدي مع الوقت، إلى وقوع ضعفاء الجيل المقبل، في مخالب الضلالة المطلقة، حيث تفودهم نفوسهم الأمانة بالسوء، إلى فوضى ضاربة أطنابها.. فالمسلم الذي يحل ربقة من الدين، ليس أمامه إلا الضلالة المطلقة، فيصبح فوضوياً إرهابياً، ولا يمكن دفعه إلى الولاء، بالإدارة والنظام (115).

إذ أن أهل الضلالة المغيرين على أهل الإيمان، يصبحون روحاً خبيثة تسرى في الأمة، وشخصية معنوية حاملة لروح الجماعة والتنظيم الخاص، تفسد وجدان الناس وقلوبهم عامة في العالم الإسلامي، وتمزق الستار الإسلامي السامي، الذي يحيى العقائد التقليدية، لدى عوام المسلمين، وتحرق المشاعر المتوارثة أبا عن جد، تلك المشاعر التي تديم الحياة الإيمانية.

لذلك ومن أجل الأخطار التي استعرضناها، فيجب على المسلم أن يتحرر من التقليد، لأن له نقطة استناد عظيمة وركيزة لا تنزع قط، وهي الإيمان بالله، الذي يمدّه بالشخصية المستقلة، والقوة المعنوية الكاملة (116).

علاج القرآن لداء التقليد:

نظراً لأن داء التقليد مغروز في النفس البشرية، فقد عاجه القرآن بحكمة بالغة على مستويين رئيسيين:

(113) ص 123 ، 124 من الملاحق (ملحق قسطنطين).
 (114) ص 200 ، 201 من الملاحق (ملحق قسطنطين).
 (115) ص 234 من الملاحق (ملحق أمير داغ-1).
 (116) ص 222 من الملاحق (ملحق قسطنطين).

أولهما: صقل الشخصية الإسلامية إلى أبعد مدى.

ثانيهما: فرض القدوة الحسنة الواجب اتباعها.

بالنسبة للنقطة الأولى: صقل الشخصية الإسلامية إلى أبعد مدى:

♦ يزخر القرآن بالأوامر والنواهي والمعاني، التي تهدف إلى صقل شخصية المسلم، وحفز همته إلى معالي الأمور، وكيف أنه مسئول مسئولية شخصية عن أعماله التكليفية، وأنه مسئول عن تسخير السمع والبصر والفؤاد، في اكتشاف أسرار الله في الكون، وأن الله كرمه بالفهم والعقل والإرادة، لتكون له شخصيته المتميزة، وخطواته الراسخة، ووعيه الناضج، ليتحدى التقليد بالحقيقة الشاهقة⁽¹¹⁷⁾: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) (المائدة: 105).

♦ وهناك نهى واضح عن تقليد أهواء الكسالى والمتخلفين، لأن ذلك يقصم ظهر الهمة، ويورد مسالك الضلال والانحراف عن الجادة. فقال ٧: (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) (المائدة: 77).

♦ إن أوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها، تحيل الإنسان إلى العقل قائلة: راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان وشاورهما: "فاعلموا.. أفلا يعقلون.. أفلا يتدبرون.. أفلا يتذكرون" وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشري، حتى يتبع البرهان، ويبعد عن التقليد، الذي يعصب العيون، ويعمى عن رؤية الحق.. فالإسلام يهدف من البشرية، أن تتحلى بأسمى ما يليق بالإنسانية، من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها.. ويرفض مدهانة المستبدين وتقليد المنحرفين، لأن هذا لا يحقق العزة الإسلامية التي تعلن إعلاء كلمة الله⁽¹¹⁸⁾.

♦ يغرس القرآن في وجدان المسلم: أن ما يخدم أهل الضلالة في هذا العصر العجيب، ويجعلهم سكارى ثملين، هو أن ما يتلذذونه من أوضاع فانية، لذة ظاهرية، هو في الحقيقة في منتهى الألم، وبالتالي فكل شيء معدوم لأهل الضلالة، سوى الحال الحاضرة.. فكيف يقلدهم أهل الإيمان وبإمكانهم أن يتلذذوا لذة علوية، في نفس الموضع من تلك الأمور، والأوضاع الفانية.. فمادام الله موجودا، فكل شيء موجود إذن. ومن كان الله تعالى، كان له كل شيء، ومن لم يكن له، كان عليه كل شيء، فكل شيء معدوم له⁽¹¹⁹⁾.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) (النور: 39).

بالنسبة للنقطة الثانية: فرض القدوة الحسنة الواجب اتباعها:

إن الحكيم الخبير الذي يعلم ميل النفس البشرية إلى التقليد، قد وضع لها نماذج سامية، تكون قدوة حسنة، ترتقى بتلك النفس إلى معارج الكمال. فقال تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) (المتحنة: 4). (وكان يأمر أهله بالصلاة

(117) ص 333 ، 334 من صيقل الإسلام (المناظرات).

(118) ص 495 : 500 من صيقل الإسلام.

(119) ص 144 من الملاحق.

والزكاة وكان عند ربه مرضيا وأذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) (مريم: 54-57).

وهناك قدوة واجبة الاتباع، لأن هذا من مستلزمات الإيمان، وهو الرسول الحبيب (صلى الله عليه وسلم). حيث يقول المولى Y: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (الأحزاب: 21). وجعل الله اتباع الحبيب المصطفى، والاعتداء بسنته المطهرة، هو الطريق للمقصد الأسنى، أى يكون الإنسان أهلا لمحبة الله.. فقال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (آل عمران: 31).

ويرى الإمام النورسى: أن اتباع السنة، هو ترياق مرض البدعة. ويستشهد فى ذلك بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): «من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد» (أخرجه الطبرانى فى الكبير).

ويقول (120): إن اتباع السنة المطهرة لهو حتما ذو قيمة عالية، ولا سيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبيتها، فإن له قيمة أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تشعر مراعاة أبسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة، وإيمان قوى راسخ، ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة، يذكر بالرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم).. فهذا التذکر الناشئ من ذلك الاتباع، ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول فى الدقائق التى تراعى فيها السنة الشريفة، أبسط المعاملات العرفية، والتصرفات الفطرية - كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها - إلى عمل شرعى وعبادة مثاب عليها. لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد، اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه (صلى الله عليه وسلم) صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه إلى الشارع الحقيقى، وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينه وأطمئنانا، ونوعا من العبادة.

وهكذا فإن تقليد الرسول وأنبياء الله، يقود إلى الأمن والأمان، فى الدنيا والآخرة، أما تقليد الكفار والكسالى والمنافقين، فهو يقود إلى الفوضى والإرهاب، وجحيم الدنيا والآخرة.. وصدق الله العظيم إذ يقول: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولن أتبعن أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) (البقرة: 120).

وهكذا بعد أن كملت قواعد الشريعة الغراء ودساتير السنة المطهرة، وأخذت تمام كمالها بدلالة الآية الكريمة: (اليوم أكملت لكم دينكم..) (المائدة: 3). فإن الإسلام لا يسمح بالتقليد الخارج عن إطار الشريعة، التقليد الذى يضعف الهمة، ويبعد عن معالى الأمور، ويؤدى بالأمة إلى التفكك والانهيال، لأنها فرطت فى العروة الوثقى، التى تحفظ لها تماسكها، وثبات بنيانها فى جميع الميادين. وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) (رواه النسائى عن جابر π (188/3)).

المشكلة النفسية الثالثة عشر

موت الصدق والإخلاص

إن المدنية الفاسقة أبرزت رياء مدهشاً، يتعذر الخلاص منه على أصحاب المدنية، إذ سمت الرياء بالشهرة، وصيرت المرء يرائي للمل، ويتصنع العناصر، كما يرائي للأشخاص، وصيرت الجرائد دلالين له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق، وأنست الموت الشخصي، بحياة العنصرية المتمردة، فأصبحت حياة الشخص تقدي لحياة العنصرية، تحت ستار الحمية الجاهلية (121).

ويعترض الإمام النورسي على ذلك فيقول (122):

لقد علمتني زبدة تتبعاتي وتحقيقاتي في الحياة، بتمخض الحياة الاجتماعية أن: "الصدق" هو أس أساس الإسلام، وواسطة العقد في سجايه الرفيعة، ومزاج مشاعره العلوية.. فعلياً إذن أن نحى الصدق الذي هو حجر الزاوية، في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا، ونداوى به أمراضنا المعنوية.. أما الرياء فهو نوع من الكذب الفعلي، وأما المداهنة والتصنع فهو كذب دنيء مرذول. أما النفاق فهو كذب ضار جداً. والكذب نفسه إنما هو افتراء على قدرة الصانع الجليل.

إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق وحقيقة. وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب، بعد ما بين المشرق والمغرب. وينبغي أن لا يختلط الصدق والكذب، اختلاط النور والنار، ولكن السياسة الغادرة، والدعاية الظالمة، قد خلطتا أحدهما بالآخر، فاختلفت كمالات البشرية ومثلها، بسفاسفها ونقائصها.

أضرار موت الصدق على الإنسانية (123):

لما كان الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر، بعد الكفر عن الإيمان. لذا فإن عروج محمد في خير القرون إلى أعلى عليين بوساطة الصدق، وما فتحه من كنوز حقائق الإيمان وأسرار الكون.. جعل الصدق أروج بضاعة، وأثمن متاع، في سوق الحياة الاجتماعية.. بينما تردى مسيلمة الكذاب وأمثاله إلى أسفل سافلين بالكذب. إذ لما حدث ذلك الانقلاب العظيم في مكة، تبين أن الكذب هو مفتاح الكفر والخرافات، وأفسد بضاعة وأقذرها.. ولذا فالبضاعة التي تثير التقزز والاشمئزاز، لدى جميع الناس إلى هذا الحد، لا يمكن أن تمتد إليها يد أولئك الذين كانوا في الصف الأول، وهم الصحابة الكرام، الذين فطروا على تناول أجود المتاع وأثمنه وأقصره، وحاشاهم أن يلوثوا نفوسهم المباركة بالكذب، ويتشبهوا بمسيلمة الكذاب.. بل كانوا بميولهم الفطرية السليمة، وبكل ما أوتوا من قوة، في طبيعة المبتاعين للصدق، الذي هو أروج مال وأقوم متاع، بل هو مفتاح جميع الحقائق، ومرقاة عروج محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى أعلى عليين. ولأن الصحابة الكرام قد لازموا الصدق، ولم يجيدوا عنه، ما أمكنهم ذلك، فقد تقرر لدى علماء الحديث والفقهاء: "أن الصحابة

(121) ص 309 من المتنوى العربي النورى (ذرة-2).

(122) ص 506 من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

(123) ص 507 ، 508 من صيقل الإسلام.

عدول، رواياتهم لا تحتاج إلى تزكية، وكل ما رووه من الأحاديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) صحيح".

فهذه الحقيقة المذكورة حجة قاطعة على اتفاق هؤلاء العلماء.. وهكذا فإن الانقلاب العظيم الذى حدث فى خير القرون، أدى إلى أن يكون البون شاسعاً بين الصدق والكذب، كما هو بين الكفر والإيمان.

إلا أنه بمرور الزمن، تقاربت المسافة بين الصدق والكذب، بل أعطت الدعايات السياسية أحياناً رواجاً أكثر للكذب.. فبرز الكذب والفساد فى الميدان، وأصبح لهما المجال إلى حد ما.

ولا نجاة لنفوسنا إلا بالصدق، فالصدق هو العروة الوثقى. أما الكذب للمصلحة فقد نسخه الزمان، ولقد أفتى به بعض العلماء "مؤقتاً للضرورة والمصلحة، إلا أنه فى هذا الزمان، يجب ألا يعمل بتلك الفتوى، إذ أسىء استعمالها إلى حد لم يعد فيها نفع واحد، إلا بين مائة من المفاسد.. ولهذا لا تبنى الأحكام على المصلحة.

مثال ذلك: أن سبب قصر الصلاة فى السفر هو المشقة، ولكن لا تكون المشقة علة القصر. إذ ليس لها حد معين، فقد يساء استعمالها، لذا لا تكون العلة إلا السفر.. فكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون علة للكذب، لأنه ليس للكذب حد معين، وهو مستنقع ملائم لسوء الاستعمال، فلا يناط به الحكم. وعلى هذا فالطريق اثنان لا ثالث له: "إما الصدق وإما السكوت" وليس الصدق أو الكذب أو السكوت قطعاً.

ثم إن انعدام الأمن والاستقرار فى الوقت الحاضر، بالكذب الرهيب الذى تقترفه البشرية، بتزييفها واقتراءاتها، ما هو إلا نتيجة كذبها وسوء استعمالها للمصلحة، فلا مناص للبشرية إلا سد ذلك الطريق الثالث، وإلا فإن ما حدث خلال نصف هذا القرن من حروب عالمية وانقلابات رهيبية ودمار فظيع، قد يؤدي إلى أن تقوم قيامة على البشرية.

أجل! عليك أن تصدق فى كل ما تتكلمه، ولكن ليس صواباً أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحياناً إلى ضرر، فينبغى السكوت. أما الكذب فلا يسمح به قطعاً.

عليك أن تقول الحق فى كل ما تقول، ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصاً، فقد يؤثر تأثيراً سيئاً، فتضع الحق فى غير محله.

أضرار موت الإخلاص فى النفوس البشرية:

إن موت الإخلاص يؤدي إلى الحرص والطمع فى النفوس البشرية، مما يؤدي إلى التنازع والتنافس على الشهرة وحب الجاه، وطلب نيل المقامات، والتفوق على الأقران، وأمثالها من الأحاسيس والمشاعر، وكذا التظاهر بمظهر حسن رفيع، وتقمص طور أشخاص عظام، وجلب أنظار الناس وإعجابهم، بما هو فوق الحد والطاقة، وما شابه ذلك من أنواع التصنع والتكلف، فى الأعمال التى تؤدي إلى ضعف الإيمان والبعد عن الله، الذى يلقي فى هاوية المهالك، والكثير من الأخلاق الرذيلة، التى يشجع عليها شياطين الإنس والجن. لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقبلة

مضرة مكدره، لا طائل من ورائها ولا فائدة، غير الإعجاب بالنفس والرياء، تؤدي في النهاية إلى الشرك الخفى (124).

إن موت الإخلاص يحرم المجتمعات من أسرار الفوز بالإخلاص، الذى يهيب قوة معنوية كبيرة نتيجة الاتحاد والتساند (125):

◆ فإن أربع "أربعات" عندما تكتب كل "4" منفردة عن البقية، فإن مجموعها يكون "16" .. أما إذا اتحدت هذه الأرقام، واتفقت بسر الأخوة ووحدة الهدف، والمهمة الواحدة على سطر واحد، فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعين "4444" وقوتها.

◆ والإخلاص يساعد على الإنتاج الوفير والثروات الهائلة، نتيجة الاشتراك فى الأموال والصناعة والمهارة، والإخلاص فى بذل الجهد وصدق النية.

◆ والإخلاص واسطة الخلاص، ووسيلة النجاة من العذاب، وتحقيق المنافع الأخروية والدنيوية.. حسب الدستور النبوى العظيم (صلى الله عليه وسلم): (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (أخرجه البخارى ومسلم والترمذى).

◆ إن الإخلاص فى الأعمال - ولا سيما الأخروية منها - هو أهم أساس، وأعظم قوة، وأرجى شفيح، وأثبت مرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبر دعاء معنوى، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية.

وهكذا فإن موت الإخلاص فى النفوس البشرية، يسبب الشقاء للإنسان، والفوضى والنفاق فى المجتمعات، مما يجعلها على شفا حفرة من النار، لا ينقذها منها إلا الالتجاء إلى الرحمن.

كيف عالج القرآن موت الصدق والإخلاص؟

يقول الإمام النورسي (126): إن تدوير أفكار العموم وإرشادها، بحيل الترهيب والترغيب والخوف والتكليف، إنما يكون تأثيرها جزئياً سطحياً مؤقتاً، يسد طريق المحكمة العقلية فى زمان.. أما القرآن فقد نفذ فى أعماق القلوب بإرشاده، وهيج دقائق الحسيات، وكشف أكام الاستعدادات، وأيقظ الأخلاق، وأظهر الخصائل المستورة، وجعل جوهر إنسانيتهم فواراً، وأبرز قيمة ناطقتهم.

فبينما ترى شخصاً فى قساوة قلبه، يقبر بنته حية ولا يتألم ولا يتأثر، إذ تراه وقد أسلم، يترحم على نحو النمل، ويتألم بألم حيوان.

وهكذا أيقظ القرآن دواعى الصدق والإخلاص فى القلوب:

◆ فقد اختار الله رسولا اشتهر بالصدق بين قومه.. وكل حال من أحواله، وكل حركة من حركاته عليه السلام، يلوح بالمبدأ على صدقه وبالمنتهى على حقانيته (127).. ألا ترى عليه السلام أنه كيف كان حاله فى أمثال واقعة الغار التى انقطع - بحسب

(124) ص 194 من من الملاحق، 532 من المكتوبات.

(125) ص 241 : 251 من اللغات (اللمعة الحادية والعشرون).

(126) ص 169 من إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز.

(127) ص 165 : 166 من إشارات الإعجاز.

العادة - أمل الخلاص، يقول بكمال الوثوق والاطمئنان والجديّة: (لا تحزن إن الله معنا) (الأحزاب).

وقد شهد القرآن له بالصدق وقرنه بصدق الله: (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) (الأحزاب: 22).

وجميع الأنبياء بألسنة معجزاتهم، كأنهم شاهدون على صدق محمد م الذي هو البرهان النير، على وجود الصانع ووحدته.

(هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (يس: 52). (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) (الصافات: 37).

◆ غرس القرآن الصدق في وجدان المؤمنين بكل معانيه: صدق العقيدة، صدق العبادات، صدق المعاملات.. وقص قصص الأولين والأنبياء، وبين أحوالهم وشرح أسرارهم على رؤوس العالم، مصداقاً فيما اتفقت عليه الكتب السالفة، ومصححاً فيما اختلفت فيه⁽¹²⁸⁾. (وأنتيناك بالحق وإنا لصادقون) (الحجر: 64).

◆ رفع الله الصادقين منزلة عالية تشرئب إليها الأرواح، ليحبب الناس في الصدق، ويدفعهم إليه دفعا: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) (النساء: 69). (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) (المائدة: 119).

◆ وحذر الله من الكذب، وبين عاقبته الوخيمة، حتى يكون نذيراً ورادعاً، لكل من تسول له نفسه الكذب: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) (الزمر: 60). (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) (يونس: 73). (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) (المرسلات: 29).

◆ جعل الله الإخلاص هو المحك الفاصل لقبول العبادة، لأنه دليل النضج الروحي والصفاء القلبي، ومجاهدة النفس الأمارة.. فقال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) (البينة: 5). (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) (الأعراف: 29). فعبادة بدون إخلاص، هي جسد بدون روح، لا تثمر فعاليتها، ولا تحقق إشراقياتها للإنسان، كي يخلق في ملكوت الله.

◆ جعل الله الإخلاص ينجي من كل كرب، وتنجلي به كل فتنة ظلماء: (وإذا غشيهم موج كالأظلم دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) (لقمان: 32). (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) (يونس: 22).

وهكذا فإن الآيات التي تمتدح الصدق والإخلاص، وتبين مكانة الصادقين والمخلصين، لمن الكثرة والعمق والاتساع، بحيث تستطيع أن تنفذ في أعماق

المسلمين، وتقتلع الكذب والرياء من نفوس المؤمنين، ليتذقوا أنبل المشاعر الإنسانية، وأسمى المعاني الإيمانية، التي تحقق لهم السكينة النفسية، وتنقذهم من براثن الضياع والأمراض النفسية.

وتلك الآيات ليست للتلاوة فقط، بل هي دستور للمسلمين، يلزمهم في القضاء والمعاملات، والعقود والبيع والشراء، وكل أمور حياتهم.. فالكذب معناه ضياع الحقوق بين العباد، وهذا مما تأباه وترفضه شريعة الإسلام، التي تقوم على العدل والحرية والمساواة.

المشكلة النفسية الرابعة عشر

العجلة وعدم الصبر

يكاد يمكننا القول إن العجلة وعدم الصبر، هي من الخصائص الفطرية للنفس البشرية، وهي السبب في كل ما سبق من أمراض نفسية، لأن تعجل الإنسان على نتائج عمله، وعدم تحمله ابتلاءات الحياة، تسبب له كثيراً من المشاكل النفسية، التي سبق التعرض لها.

والدليل على أن العجلة وعدم الصبر، هي من الداءات المركوزة في نفس الإنسان هو قول الحق جل وعلا: (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً) (الإسراء: 11). (خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون) (الأنبياء: 37). (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) (فصلت: 49). (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) (الروم: 36).

ونظراً لأن الله عليم بنفوس البشر، خبير بما يصلحهم، حكيم في تشخيص الداء، ووصف الدواء، فقد أرسل رسوله الحبيب، رحمة للعالمين، من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، وأنزل عليه القرآن الكريم، فيه شفاء لما في الصدور، حتى يتخلصوا من كل داء دفين، يقلق كياناتهم، ويحرمهم من الطمأنينة والسكينة، التي تحلق بهم في مدارج العلا، وتسدد خطاهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الناس في كل عصر، محتاجين إلى القرآن الكريم، ليشفي علمهم، وينقذهم من أمراضهم.. فإنهم في هذا العصر، أشد احتياجاً لهدى القرآن وتعاليم الإسلام، وهدى النبوة، ليقتبسوا بعض الأنوار التي تبديد ظلمات المدنية الحديثة، وتراكمات المادية التي تسبب الشقاء والضياع للنفوس البشرية.. وهذا ما سنحاول التعرف على أبعاده، من كلمات الإمام النورسي، التي تتبع من القرآن العظيم.

لماذا اتسم هذا العصر بالعجلة وعدم الصبر عن العصور السابقة؟

يجيب على ذلك الإمام النورسي بقوله (129):

إن خاصية هذا العصر أنها تجعل المرء يفضل الحياة الدنيا على الآخرة، أي يفضل الحياة العاجلة على الباقية، كما قال المولى: (كلا بل تحبون العاجلة.. وتذرون الآخرة) (القيامة: 20 ، 21). وكما أنه إذا اشتكى عضو من الجسد، تداعى له سائر

الجسد، تاركاً قسماً من وظائفه.. كذلك جهاز الحرص على الحياة والحفاظ عليها، والتلذذ بها وعشقها، المندرج في فطرة الإنسان، قد جرح في هذا العصر، فبدأ يشغل سائر اللطائف به، لأسباب عديدة، محاولاً دفعها إلى نسيان وظائفها الحقيقية.. ونظراً لأن الحياة الإنسانية في هذا العصر - ولاسيما الحياة الاجتماعية - قد اتخذت وضعاً مخيفاً، ولكنه ذات جاذبية شديدة، فإنها تثير اللفتة والفضول، بحيث تجعل عقل الإنسان وقلبه ولطائفه الرفيعة، تابعة لنفسه الأمارة بالسوء، حتى تحوم حول نار تلك الفتنة وترديها فيها.

نعم، إن هذا العصر قد غرز حب الحياة الدنيوية في عروق الإنسان، حتى أنه يترك أموراً دينية ثمينة كالألماس، لحاجة صغيرة تافهة، أو لئلا يصيبه ضرر دنيوى اعتيادى.. فهذا العصر الذى رفعت منه البركة، من جراء الإسراف المتزايد وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد، فضلا عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش.. قد سبب جروحا بليغة في تطلع الإنسان للعيش، وفي نزوعه لحفظ الحياة، علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة، زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة.. كل ذلك عمق تلك الجروح، حتى دفع بالإنسان إلى أن يفضل أدنى حاجة من حاجات الحياة، على مسألة إيمانية عظيمة، واستحاب الدنيا على الآخرة، وتفضيلها عليها في كل شيء. وهكذا أسدل هذا العصر العجيب بهذه الأمور، حجابا دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية، أو على الأقل جعلها أمرا ثانويا أو ثالثيا بالنسبة للإنسان.. لذا جوزى هذا الإنسان على خطئه ذلك، بلطمة قوية شديدة، حولت دنياه إلى جحيم لا يطاق، بحيث لا يجدى معه أى صبر.

وقد يتورط المتدينون أيضا في هذه المصيبة الرهيبة، ولا يشعر قسم منهم أنهم قد وقعوا في هذه الورطة وأذكر مثالا على ذلك: أننى رأيت عددا من الأشخاص -من أهل التقوى- يرغبون في الدين، ويحيون إقامة أو امره، كي يوفقوا في حياتهم الدنيوية، ويفلحوا في أعمالهم. حتى أن منهم من يطلب الطريقة الصوفية، لأجل ما فيها من كرامات وكشفيات. بمعنى أنه يجعل رغبته في الآخرة وثمارها، سلما للوصول إلى أمور دنيوية، ولا يعلم هذا أن الحقائق الدينية، التى هى أساس السعادة الدنيوية، كما هى أساس السعادة الأخروية، لا تكون فوائدها الدنيوية إلا مرجحة ومشوقة، فلو ارتقت تلك الفائدة إلى مرتبة لعمل البر، فإنها تبطله، وفى الأقل يفسد إخلاصه، ويذهب ثوابه. وبذلك فإن هذا العصر قد جعل حتى المسلمين، يستحبون الحياة الدنيا، ويرجعونها على الآخرة، على علم منهم، ورغبة فيهم، كما تشير إليه الآية الكريمة: **(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) (الإنسان: 27).**

وهكذا فإن جميع المسائل العظمى التى ينهمك بها أهل الدنيا، إنما تدور ضمن الدستور الظالم، دستور الجدال والصراع، وفى نطاق الحياة الفانية، بأشع صورها

وأظلمها، حتى يضحى في سبيلها بالمقدسات الدينية، حصولاً على حطام الدنيا، لذا يلقبهم القدر الإلهي في عذاب جهنم معنوية، من خلال جرائمهم التي يرتكبونها⁽¹³⁰⁾.

كيف يمكن علاج النفس من العجلة وعدم الصبر؟

يشرح لنا الإمام النورسي هذا السبيل شرحاً وافياً، يبدد ظلمات النفس العمياء، مستمداً منهجه هذا من أنوار القرآن الكريم، ووحى الشريعة الغراء، التي تركها لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ونختصر منهاج الإمام النورسي في تلك النقاط:

♦ اعلم يقينا أيها الإنسان: أن بدنك وأعضاءك ووجودك ومالك وحيواناتك، التي أنعمها الله سبحانه عليك، ليس للتملك بل للإباحة.. أى أنه ملكك ملكه لتستفيد، وأباحه لك للانتفاع، ولم يملكه لك ملكاً.. وما عليك إلا العمل وفق دستور الإباحة، وليس وفق رغباتك وأهوائك⁽¹³¹⁾.

ومن هذا المنطلق، لا يحق لك العجلة وعدم الصبر: فلا يجوز الانتحار وإنهاء الحياة، التي وهبها لك الله سبحانه إباحة.. ولا يمكنك أن تفقأ عينك، سواء حقيقة أو معنى (بالنظر إلى الحرام مما لا يرضى به صاحبها) وكذا الأذن واللسان والأنف، وما شابهها من الجوارح والحواس والأجهزة.. فينبغي التصرف في جميع النعم في الدنيا، وفق شريعة المضيف الكريم.

♦ في هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة، إلى درجة تستحوذ على كل شيء، وتستولى عليه، وتمتلكه لنفسها، وتسخره لأجلها.. ومن يريد الإصلاح (سواء كان المهدي المنتظر أو غيره) فعليه أن يجرد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات⁽¹³²⁾.

ولما كانت هناك ثلاث مسائل هامة تحتاج إلى التغيير وهي: الحياة - الشريعة - الإيمان.. فإن تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها، دفعة واحدة في الأرض كافة، لا يوافق سنة الله الجارية في البشرية.. لذلك فعليه أن يتذرع بالتأني والصبر، والثبات العظيم، والوفاء الخالص، والغيرة الشديدة على الإسلام، حتى يتحقق لدى عقول عوام الناس - الذين يمكن أن يستغفوا ببساطة - أن تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر.. وبذلك تتحقق الثمرة المرجوة من الإصلاح.

♦ على المؤمنين الحقيقيين الصادقين: أن يتذرعوا بالتساند والترابط الخالص، حتى لا يكونوا عاجزين ضعفاء أمام الفرق الضالة المتحدة.

ففي خضم هذه الأهوال والمصائب، التي نشبت في الكرة الأرضية، فإن كل إنسان له نصيبه من المعاناة: إما قلباً أو روحاً أو عقلاً أو بدناً. ولاسيما أهل الضلالة والغافلين.. ولن يقدر على الحفاظ على سلامة القلب وراحة الروح، إلا أهل الإيمان وأهل التوكل والرضا. لأنهم يرون أثر الرحمة الإلهية في كل حادثة.. لذا يجابهون المصائب بالتسليم التام لأمر الله. ويساعدهم على تخفيف أثرها الترابط مع إخوانه

(130) ص 247 من الملاحق (ملحق أمر داغ-1).

(131) ص 93 من الملاحق (ملحق بارلا).

(132) ص 136 من الملاحق (ملحق قسطنطين).

المؤمنين، إذ يشترك معهم بسر الإخلاص فى الأعمال الأخروية، فلا يتعبد بلسان واحد، بل بعدد ألسنة إخوانه جميعاً. ويستغفر ربه بعدد تلك الألسنة، ويقابل كذلك الذنوب المهاجمة من ألف جهة، بألوف ألوف من الألسنة المستغفرة العابدة⁽¹³³⁾.

♦ إن الشباب الذى يتسم بالعجلة وعدم الصبر أكثر من غيره: يجب أن يعلم علماً يقينياً، أن الشباب سيزول حتماً وسيزول لا محالة.. فإن كان قد انقضى فى سبيل المذات، ونشوة الطيش والغرور، فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجهة، سواء فى الدنيا أو الآخرة.. وعليه أن يعلم أن تصرفات الشباب الطائشة وإسرافاتهم، تؤدى بهم فى غالب الأمر إلى المستشفيات، بسبب نزواتهم وغرورهم.. أو إلى الملاهى والخمارات، بسبب ضيق صدورهم بالآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التى تنتابهم.

♦ وينصح الإمام النورسى شباب رسائل النور قائلاً: إن أهل الضلالة يريدون زعزعة الرابطة التى بينكم، مستفيدين من عروق واهية، نابعة من اختلاف المشارب أو المشاعر، مستغلين متطلبات العيش ولوازمه، والغفلة التى تخيم نتيجة النفس الأمارة والشيطان.. فعليكم بالتساند والإخلاص والشورى. ولا تتشددوا وأوغلوا برفق، فالناس ليسوا سواسية فى المشارب. وعليكم التسامح مع بعضكم البعض، حتى لا تتشغلوا بلسع البعوض، وتتركون هجوم الثعابين المرعبة عليكم، من المنافقين الذين يهدفون إلى تدميركم وتحطيمكم. فبالإيمان والإخلاص مع الإخوان، يكون للمؤمنين نقطة استناد عظيمة، وركيزة لا تتزعزع، تحميهم من نتائج العجلة واليأس، الناتج عن عدم الصبر⁽¹³⁴⁾.

♦ وأخيراً يرى الإمام النورسى، أن أهم علاج فى هذا السبيل هو: أن يعلم المؤمن يقيناً: أن هذه الدنيا دار عمل، وليس موضع أخذ الأجرة، فثواب الأعمال الصالحة وثمراتها وأنوارها، تمنح فى البرزخ والآخرة. وأن جلب تلك الثمرات الباقية إلى هذه الدنيا، وطلبها فى هذه الدنيا، يعنى جعل الآخرة تابعة لهذه الدنيا. وعندها ينتلم إخلاص تلك الأعمال الصالحة ويذهب نورها.. نعم إن الثمرات لا تطلب ولا تنوى قلباً، بل يشكر عليها إذا ما منحت للحث.. ولكن إنسان هذا العصر، قد غرز حب الحياة الدنيوية فيه، وجرى فى عروقه، فجرحه جروحاً بالغة، حتى أن شيخاً هرماً، وعالماً تقياً صالحاً، يطلب أذواق الحياة الأخروية فى الدنيا، لجريان حكم أذواق الحياة الدنيوية فيه أولاً⁽¹³⁵⁾.

إن أهل الضلالة يكافحون فى سبيل حياة دنيوية مؤقتة، أما أهل الإيمان فيجاهدون الموت بنور القرآن.. وهكذا تصبح أعظم مسألة فى نضال أهل الضلالة - لأنها مؤقتة، لا تعادل أصغر مسألة من مسائل أهل الإيمان، الذين لا يتعجلون النتائج، ويتذرعون بالصبر، لأن توجههم فى المقام الأول يكون إلى دار البقاء والخلود⁽¹³⁶⁾.

(133) ص 140 ، 152 من الملاحق.
 (134) ص 211 ، 214 ، 222 من الملاحق.
 (135) ص 156 من الملاحق.
 (136) ص 247 من الملاحق.

وحيث أن الحرص في الأمور الأخروية والاستزادة منها، مقبول من جهة، إلا أنه في مسلك الإمام النورسي - قد يكون لبعض العوارض - سبباً للشكوى واليأس بدل الشكر، إذ قد يقع الحريص في خيبة الظن من عمله - لعدم رؤيته نتائج، بل ربما يدع خدمة الإيمان.. لذا فالإمام النورسي يرى أنه مكلف في مسلكه بالقناعة، وعدم الحرص على نتائج الخدمة وثمراتها، وذلك لأن القناعة في النتائج، تورث دائماً الشكر والثبات والصلابة⁽¹³⁷⁾.

علاج العجلة وعدم الصبر في القرآن الكريم:

لما كانت العجلة وعدم الصبر، من الخصائص الأساسية للنفس البشرية، فقد اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بعلاج ذلك الداء الدفين. وقد شمل العلاج محورين أساسيين:
المحور الأول: هو الترغيب والترهيب بأيات القرآن، التي تجل عن الحصر، في بيان مساوئ العجلة وعدم الصبر، وبيان مكانة الصبر والصابرين عند الله. وضرب الأمثلة لصبر الأنبياء على أذى الناس في دعوتهم، أو صبرهم على الابتلاءات الإلهية.

من تلك الآيات:

مكانة الصابرين: (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (الرعد: 24).
صبر الرسل: (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا) (الأنعام: 34).
الصبر يحقق الإمامة: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) (السجدة: 24).

الصبر يحقق المعية مع الله: (استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) (البقرة: 153).

الصبر ضروري لتمحيص المجاهدين في الله حق جهاده: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (آل عمران: 142).
العجلة مطلوبة في الخير: (قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى) (طه: 84). (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) (آل عمران: 133).

أما العجلة في الشر فغير مرغوبة: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) (الإسراء: 18).

وتلك الآيات ما هي إلا غيض من فيض، من وحي كلمات الله، التي تهدف إلى تهذيب الوجدان، وتطهير نفس الإنسان، ليكون مؤمناً حقاً وعدلاً، يسلم وجهه لله في خشوع واطمئنان..

أما المحور الثاني فهو: فرض العلاج العملي، الذي يعلم الإنسان فعلاً الهدوء والسكينة، وينزع من نفسه العجلة وعدم الصبر. ذلك العلاج يتمثل في الصلاة، التي جعلها الله عماد الدين، فمن أقامها أقام الدين. ومن شروط الصلاة التي لا تقبل إلا بها الخشوع. حيث قال الله ﷻ في كتابه الكريم: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) (المؤمنون: 2).

ويبين الإمام النورسي أهمية الصلاة في صقل القلب والوجدان، وتعويد النفس الصبر والسلوان. فيقول مخاطباً نفسه (138):

♦ إن الصلاة التي تجلب الغذاء لقلبي، وماء الحياة لروحي، ونسيم الهواء للطيفة الربانية الكامنة في جسمي، لا بد أنها تجعلك لا تملين ولا تسأمين أبداً.
نعم! إن القلب المتعرض لأحزان وآلام لا حد لها، المفتون بآمال ولذائذ لا نهاية لها، لا يمكنه أن يكسب قوة ولا غذاء، إلا بطرق باب الرحيم الكريم، القادر على كل شيء بكل تضرع وتوسل.. وأن الروح المتعلقة بأغلب الموجودات الآتية، والراحلة سريعاً في هذه الدنيا الفانية، لا تشرب ماء الحياة، إلا بالتوجه بالصلاة إلى ينبوع رحمة المعبود الباقي، والمحبوب السرمدي. وأن السر الإنساني الشاعر الرقيق اللطيف، وهو اللطيفة الربانية النورانية، والمخلوق للخلود، والمشتاق له فطرة، والمرآة العاكسة لتجليات الذات الجليلة.. لا بد أنه محتاج أشد الحاجة إلى التنفس، في زحمة وقساوة وضغوط هذه الأحوال الدنيوية الساحقة، الخائفة العابرة المظلمة، وليس له ذلك إلا بالاستنشاق من نافذة الصلاة.

♦ فيا نفسى الفارغة من الصبر.. إنك مكلفة بثلاثة أنواع من الصبر:

الأول: الصبر على الطاعة.

الثاني: الصبر عن المعصية.

الثالث: الصبر عند البلاء.

فان كنت فطنة فقولى بكل همة ورجولة: يا صبور. ثم خذى على عاتقك الأنواع الثلاثة من الصبر. واستندى إلى قوة الصبر المودعة فيك، وتجملى بها، فإنها تكفى للمشقات كلها، وللمصائب جميعها ما لم تبعثرها خطأ في أمور جانبية..
إن الصلاة هي قوت لقلبك العاجز الفقير وسكينة له، في هذا المضيق المؤقت وهو الدنيا. وهي غذاء وضياء لمنزلك، الذى لا بد أنك صائرة إليه، وهو القبر. وهي عهد وبراءة في محكمتك، التى لاشك أنك تحشرين إليها. وهى التى ستكون نورا وبراقا على الصراط المستقيم، الذى لا بد أنك سائرة عليه..

♦ يا نفسى المغرمة بالدنيا!.. هل أن فتورك في العبادة، وتقصيرك في الصلاة، ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ أم أنك لا تجددين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!
فيا عجباً! هل أنت مخلوقة للدنيا فحسب، حتى تبدلى كل وقتك لها؟! تأملى!! أنك لا تبلغين أصغر عصفور، من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا، رغم أنك أرقى من جميع الحيوانات فطرة. لم لا تفهمين من هذا أن وظيفتك الأصلية، ليس الانهماك بالحياة الدنيا، والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعى والدأب لحياة خالدة، كالإنسان الحقيقي. مع هذا فإن أغلب ما تذكرينه من المشاغل الدنيوية، هى مشاغل ما لا يعينك من الأمور، وهى التى تتدخلين فيها بفضول، فتهدرين وقتك الثمين جداً فيما لا قيمة له، ولا ضرورة ولا فائدة منه.. كتعلم عدد الدجاج فى أمريكا!! أو نوع

الحلقات حول زحل. وكأنك تكسبين بهذا شيئاً من الفلك والإحصاء!! فتدعين الضرورى والأهم والألزم من الأمور، كأنك ستعمرين آلاف السنين؟
♦ واعلمى يا نفسى.. أن لكل منا عالمه الخاص من ذلك العالم، وأن نوعيته تتبع عملنا وقلبنا، مثله فى ذلك مثل المرأة، تظهر فيها الصورة تبعاً للونها ونوعيتها، فإن كانت مسودة فستظهر الصورة مسودة.. وإن كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة، وإلا فستظهر مشوهة، تضخم أشفه شىء وأصغره.. وكذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك، يمكنك أن تغيرى صور عالمك، وباختيارك وطوع إرادتك، يمكنك أن تجعلى ذلك العالم يشهد لك أو عليك.

وهكذا إن أديت الصلاة وتوجهت بصلاتك إلى خالق ذلك العالم ذى الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه إليك حالاً، وكأنك قد فتحت بنية الصلاة مفتاح النور، فأضاءه مصباح صلاتك، وبدد الظلمات فيه.. وعندها تتحول وتتبدل جميع الاضطرابات والأحزان، التى حولك فى الدنيا، فتراها نظاماً حكيماً، وكتابة ذات معنى بقلم القدرة الربانية، فينسب نور من أنوار "الله نور السماوات والأرض" إلى قلبك، فيتنور عالم يومك ذلك، وسيشهد بنورانيته لك عند الله..

وفى نهاية تلك المقطعات التى نقلناها عن الإمام النورسى، وهو يخاطب نفسه مبينا أهمية الصلاة فى تعويدها الصبر وجملاء همها وجزنها، لا يسعنا إلا أن نسجد أمام عظمة الله، وعظمة قرآنه الحكيم. حيث يقول المولى جل شأنه: (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) (العنكبوت: 45).

وهكذا نكون قد وصلنا إلى نهاية المطاف، فى عرض كيف عالج القرآن مشكلات الإنسان النفسية.. ندعو الله أن يكون القارئ المسلم - أو غير المسلم - قد استفاد من هذا العرض، وألا يكون قد ضيع وقته الثمين وجهده معنا، سدى بلا طائل يذكر.. وأشهد الله أننى اجتهدت بقدر استطاعتى، فإن كنت قد وفقت، فبفضل من الله وحمده، وبفضل رسائل النور، التى تزخر بالأنوار الساطعة، التى تبهر ذوى البصائر، ورحم الله الإمام النورسى الذى علمنا العلم النافع.

وإن لم أكن قد وفقت، فإنه من نفسى، التى لم تعرف كيف تجاهد فى الله حق جهاده، ولم تعرف كيف تعترف من كنوز الرحمة الإلهية.
ولكى يكتمل المقصود من بحثنا نردفه بخاتمة، عن كيفية تحقيق القرآن السكينة والاطمئنان للنفس البشرية.

الخاتمة

كيف يحقق القرآن السكينة للنفس والاطمئنان؟

يقول تعالى عن قرآنه الكريم: (قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) (يونس: 57).

ويصف الإمام النورسي القرآن بأنه (139): المربي لهذا العالم الإنساني.. وكالماء والضيء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلام.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة.. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب، التي تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية، حتى أنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين، رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتوثيره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره.

مسلك القرآن في تحقيق السكينة والاطمئنان:

يمكن بيان هذا المسلك موجزاً، فيما كتبه الإمام النورسي، عن أسرار آية واحدة من آيات القرآن الكريم.. ونترك للقارئ مجال الاجتهاد مفتوحاً، لاستخراج ما يروق له من كنوز القرآن، التي تحقق للنفس كل أمان واطمئنان.. تلك الآية هي "بسم الله الرحمن الرحيم" وذلك في قولي تعالى: (قالت: يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) (النمل 29-30).

فيقول الإمام النورسي (140):

سنذكر في هذا المقام بضعة من الأسرار (141):

السر الأول:

أثناء تأمل في البسملة، رأيت نوراً من أنوار "بسم الله الرحمن الرحيم" على الصورة الآتية: أن هناك ثلاث علامات نيرة ساطعة للربوبية، على سيماء الكائنات، وعلى قسّمات وجه الأرض، وعلى ملامح الإنسان. هذه العلامات الزاهرة والآيات الساطعة، متداخل بعضها في البعض الآخر، حتى أن كلاً منها يبين نموذج الآخر ومثاله.

فالعلامة الأولى: هي علامة الألوهية، تلك الآية الكبرى، الساطعة من التعاون والتساند والتعاقب والتجاوب، الجارى في أجزاء الكون كله؛ بحيث يتوجه "بسم الله" إليها ويدل عليها.

العلامة الثانية: هي علامة الرحمانية، تلك الآية العظمى، الزاهرة من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللفظ والرحمة، السارى في تربية النباتات والحيوانات؛ بحيث يتوجه "بسم الله الرحمن" إليها ويدل عليها.

ثم العلامة الثالثة: وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة السامية، الظاهرة من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها، المنطبعة على سيماء الماهية الجامعة للإنسان، بحيث يتوجه اسم "الرحيم" الذى فى "بسم الله الرحمن الرحيم" إليها ويدل عليها.

(139) ص 422 من الكلمات (رسالة المعجزات القرآنية).

(140) ص 146 : 155 من اللمعات (المقام الثانى من اللمعة الرابعة عشرة).

(141) ونحن بدورنا اخترنا من الأسرار ما يحقق مقصودنا. ومن يريد التوسع عليه الرجوع إلى المرجع الأصلي.

أى أن **(بسم الله الرحمن الرحيم)** عنوان قدسى، لثلاث آيات من آيات الأحدية، حتى أنه يشكل سطرأ نورانياً فى كتاب الوجود، ويخط خطأ ساطعاً فى صحيفة العالم، ويمثل حبلاً متيناً بين الخالق والمخلوق. أى أن "بسم الله الرحمن الرحيم" نزولاً من العرش الأعظم، يرتبط طرفه ونهايته بالإنسان، الذى هو ثمرة الكائنات، ونسخة العالم المصغرة، فيربط الفرش بالعرش الأعظم، ويكون سبيلاً ممهداً لعروج الإنسان إلى عرش كمالاته.

فان شئت أن تعرف مدى أهمية هذا المعراج، ومدى عظمتة ومكانته، فانظر إلى مستهل سور القرآن الكريم، البالغة مائة وأربع عشرة سورة، وانظر بدايات كل كتاب قيم، ولاحظ بدء كل أمر ذى بال. حتى يعد حجة قاطعة على عظمة البسمة وعلو قدرها، ما قاله الإمام الشافعى، وأمثاله من المجتهدين العظام: إن البسمة رغم أنها آية واحدة، فإنها نزلت فى القرآن مائة وأربع عشرة مرة.

السر الثانى:

إن القرآن الكريم يبين دوماً "الأحدية" ضمن تجلى "الواحدية" ليحول دون غرق العقول وتشتتها، فى تلك "الواحدية" الظاهرة فى مخلوقات كثيرة لا يحصرها العد. إن تجلى الواحدية فى مخلوقات لا حد لها، لا يحيط به كل من يقول: (إياك نعبد). حيث يتشتت الفكر وبيته فى تلك الكثرة، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد، من خلال مجموع المخلوقات، لدى خطاب (إياك نعبد وإياك نستعين) وجود قلب واسع يسع الأرض كلها.

فبناء على هذا السر الدقيق، فإن الله سبحانه يبين بجلاء طابع الأحدية فى كل جزء، مثلما يظهره فى كل نوع، وذلك لتشد الأنظار إلى ذات الله الأحد، وليتمكن كل شخص - مهما بلغت مرتبته - من التوجه المباشر فى خطابه (إياك نعبد وإياك نستعين) إلى ذات الله الأقدس سبحانه، من دون تكلف أو صعوبة. فتبيننا لهذا السر العظيم، فإن القرآن الكريم عندما يبحث فى آيات الله، فى أجواء الآفاق وفى أوسع الدوائر، إذا به يذكر أصغر دائرة من دوائر المخلوقات، وأدق جزئية من جزئياتها، إظهاراً لطابع الأحدية بوضوح فى كل شىء. مثال ذلك:

عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض، يعقبها بآيات خلق الإنسان، وبيان دقائق النعمة فى صوته، وبدائع الحكمة فى ملامحه، كى لا يتشتت الفكر فى آفاق شاسعة، ولا يغرق القلب فى كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروح معبودها الحق دون وساطة.

فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (الروم: 22).

السر الثالث:

إنه بديهى، بل مشاهد أن الرحمة الإلهية هى التى أبهجت الكائنات التى لا يحدها حدود.. وأن الرحمة نفسها هى التى أنارت هذه الموجودات المعشوية بالظلمات.. وأن الرحمة أيضاً هى التى ربت فى أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة فى حاجات لا حد

لها.. وأن الرحمة أيضاً هي التي وجهت الكائنات من كل صوب وحذب، وساققتها نحو الإنسان وسخرتها له، بل جعلتها تتطلع إلى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه أجزاء الشجرة إلى ثمرتها. وأن الرحمة أيضاً هي التي عمرت هذا الفضاء الواسع، وزينت هذا العالم الخالي.. وأن الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني، مرشحاً للخلود والبقاء، وأهله لتلقى خطاب رب العالمين، ومنحته فضل ولايته سبحانه.

فيا أيها الإنسان المتقلب في خضم عجز لا نهاية له، وفقر لا حد له، إذا أردت أن تفهم كيف أن الرحمة أعظم وسيلة وأرجى شفيع، فاعلم: أن الرحمة أقوى وسيلة للوصول إلى سلطان عظيم ذي جلال، تنقاد له النجوم والذرات معاً، جنوداً مطيعين طاعة تامة في انتظام تام.. ذلك السلطان ذو الجلال والإكرام رب العالمين، المستغنى عن الخلق أجمعين، الكبير المتعالى عن الموجودات، فلا حاجة له أصلاً إلى الموجودات، بل كل شيء قد تواضع لعظمته، واستسلم لقدرته، وذل لعزته، وخضع لهيبة جلاله.. فالرحمة أيها الإنسان ترفعك إلى ديوان حضور ذلك الغنى المطلق، وتجعلك خليلاً لذلك السلطان السرمدي الأعظم، بل تعرج بك إلى مقام خطابه الجليل، وتجعلك عبداً مكرماً محبوباً عنده.

ولكن، كما أنك لا تصل إلى الشمس لبعدها عنها، بل لا يمكنك التقرب إليها بحال، فإن ضوءها يسلم إليك تجليها وصورتها بواسطة مرآة.. (ولله المثل الأعلى)، فنحن على الرغم من بعدنا المطلق عن الله، فإن نور رحمته يقربه إلينا. فيا أيها الإنسان! إن من يظفر بهذه الرحمة، فقد ظفر بكنز عظيم لا يفنى، كنز ملؤه النور..

أما طريق الوصول إلى ذلك الكنز العظيم فاعلم: أن أسطع مثال للرحمة، وأفضل من يمثلها، وأبلغ لسان ناطق بها، وأكرم داع إليها، هو الذى سمي في القرآن الكريم (رحمة للعالمين) وهو رسولنا الحبيب (صلى الله عليه وسلم). فالطريق الأمثل لبلوغ تلك الخزينة الأبدية، هو اتباع سنته المطهرة. ولكن كيف الوصول إلى الرسول الحبيب (صلى الله عليه وسلم)، وما الوسيلة إليه؟

فاعلم ان الوسيلة هي الصلاة عليه. نعم! الصلاة عليه تعنى الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة، لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهي وسيلة الوصول إلى من هو رحمة للعالمين. فيا أيها الإنسان! اجعل الصلاة عليه وسيلة الوصول إليه، ثم استمسك به، لئيلغك رحمة الرحمن الرحيم. فإن الأمة جميعها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم، إنما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة، ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

وفي نهاية تلك الخاتمة نقول: اللهم يا رحمن يا رحيم، وفق المسلمين إلى فهم أسرار القرآن الكريم، حتى يحققوا السيادة على العالمين، بتحررهم من الآفات النفسية، وتحقيق الأمن والسكينة للنفوس البشرية، بتعاليم الإسلام السماوية، حتى يرجعوا إلى ربهم بنفوس مطمئنة راضية مرضية..

كما قلت وقولك الحق في قرآنك الكريم:
(يا أيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) (الفجر: 27).
وندعوك يارب بدعاء رسولك الحبيب (صلى الله عليه وسلم):
اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء حزننا وذهاب غمنا.
وصل اللهم على سيدنا محمد صلاة تصفى بها نفوسنا من كل الأمراض حتى نلتقائك
بالقوالب المسلمة والقلوب السليمة .. إنك بالإجابة جدير وعلى كل شئ قدير.

حلول قرآنية لمشكلات الانسان

د. محي الدين آق كل^٥

خُلق الانسان في احسن تقويم واكمل صورة، لكنه مع ذلك ضعيف وفقير الى امور كثيرة. فهو غير قادر على الاحاطة بكل شئ علمياً، بعقله الذي وهبه الله له نعمة عظيمة. ان النقاش حول قدرة العقل على الاحاطة بالمعضلات قديم جداً. والقناعة السائدة هو الاعتراف بعجزه عن التوصل الى الحقيقة بشكل مطرد وثابت. ولذلك احتاج الانسان الى عناية الله تعالى بإرسال الرسل منذ خلقه وتنزيل الكتب لتطبيق الشرائع الالهية وبلوغ سعادة الدنيا والعقبى بخير سبيل .

ان خير من يعرف المصنوع هو صانعه . وبدهي ان الله الذي خلق الانسان ووهب خصائصه، هو خير من يعرف بحاجاته كلها. والمشاهد ان للانسان حاجات لا تعد ولا تحصى، ومطالب تمتد الى الأبد، ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. فانعم الله عليه بالقرآن الكريم هادياً الى سعادة الدارين، وباباً الى الاطمئنان. فما حالنا لولا القرآن الكريم الذي يأخذ بأيدينا ويحل العقد في كل معضلة تحير العقول؟ ان القرآن نور يهدي المؤمنين الى الحرية والعدل والآخوة والتضحية والايثار والسمو الى درجة الملائكية ، وكل اسباب سعادة الدنيا والآخرة. لقد ارشد القرآن الى كل ما يسمو به في الدنيا حتى يبلغ مرتبة الانسان الكامل .

فهو يعلمه كيف يعيش، ويتعامل مع نفسه وعائلته ومجتمعه باحسن وجه، ليحيا حياة طيبة في الدنيا والآخرة. فالمؤمن يمتلك بذلك مفاتيح تفتح ابواب الخزائن القرآنية لمعالجة كل حال ومعضلة تواجهه في حياته اليومية لتأخذ بيده الى الخير العميم. ولما كان القرآن الكريم رسالة عالمية الى البشر كافة في كل عصر وزمان، فيلزم ان تتجدد دراسته وبيانه حسب حاجات الانسان. فلم يترك القرآن حاجة من حاجات الانسان العظيمة او اليسيرة إلا وعالجها بلا نقص وفي اتم الكمال. ولا نبالغ إذا قلنا ان في القرآن الكريم غاية مطلوب العاقل والمدرك والفاهم. فمثلاً : الايمان وما يتعلق به

٥ من مواليد عام 1963 في قضاء "جات" التابعة لأرضروم خريج جامعة اولوطاغ 1988 . حصل على الدكتوراه من جامعة مرمره عام 1997 قضى سنة كاملة في مصر للبحث والتنقيب. حالياً استاذ مساعد في كلية الآلهيات بجامعة صفاريا. أب لولدين.

ضرورة لا يستغني عنها البشر. فنجد في القرآن الكريم تفاصيل الايمان واسماء الخالق الجليل وصفاته¹ واستحقاقه وحده بلا شريك للعبادة² والارشاد الى تصديق الرسل والملائكة والكتب المنزلة³ والبعث بعد الموت والحشر والحساب والجزاء⁴ والعبادات مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج وما ينفع الانسان في حياته من حلال وحرام⁵ وبيع وشراء ومعاملات⁶ واحكام اليتامى والوصاية،⁷ والنكاح والصداق والنفقة والعدة والرضاع، كذلك، وضع الحدود والقصاص والعقوبات على الجرائم، مثل القتل العمد⁸ والقتل الخطأ⁹ وقطع الطريق¹⁰ والسرقه¹¹ والزنا¹² والقذف¹³. وبين سبل فض النزاع والقتال¹⁴ ورأب صدع الشقاق في العائلة¹⁵ والتعامل مع غير المسلمين والصلح¹⁶ والحرب¹⁷ والاستعداد لها¹⁸ والجرأة على الاعداء والنهي عن الفرار في الزحف¹⁹ وحال المستأمنين²⁰ ومعاملة اسرى الحرب²¹ والعهود²²، وعلاقات ذوي القربى²³ ورد الشر بالخير²⁴ وفضل الصفح والعفو²⁵ والحث على الاستقامة والصدق²⁶ واداء الامانة²⁷ ولزوم العدل²⁸ وفضل التواضع وذم الكبر²⁹

-
- 1 انظر سورة البقرة : 255 والانعام : 102 والانبيا : 22 وطه : 14 . والشورى : 11 والمؤمنون : 91 والحشر : 22 - 24 والملك : 1 - 2 والاحلاص : 1 - 4 .
 2 الاعراف : 191 - 195 ، النحل : 17 ، الحج : 73 - 74 ، الاحقاف : 4 - 6
 3 البقرة : 136 ، النساء : 136
 4 التغابن : 7 ، الواقعة : 47 - 50 ، الانبياء : 104 ، القيامة : 3 - 4 ، السبا : 7 ، ق : 3 - 15 ، السجدة : 10 ، الروم : 27 ، يس : 78 - 79 .
 5 البقرة : 275 ، آل عمران : 130 ، النساء : 10 ، الانعام : 152
 6 البقرة : 282
 7 المائدة : 106 ، النساء : 6
 8 البقرة : 178
 9 النساء : 92
 10 المائدة : 33
 11 المائدة : 38
 12 النور : 2
 13 النور : 3
 14 الحجرات : 9 - 10
 15 النساء : 34 - 35
 16 النساء : 90 الانفال : 61
 17 البقرة : 190
 18 الانفال : 60
 19 النساء : 104 ، الانفال : 15 - 16
 20 التوبة : 6
 21 محمد : 4
 22 التوبة : 4 ، النحل : 91 ، الانفال : 58
 23 النساء : 36 ، القصص : 77
 24 فصلت : 34
 25 آل عمران : 133 - 134 ، المائدة : 13 ، الشورى : 40
 26 التوبة : 119
 27 النساء : 58 - 107 ، الانفال : 27 ، المؤمنون : 1 - 11
 28 النحل : 90
 29 الفرقان : 63 - 75 ، الاسراء : 37 ، لقمان : 18 - 19

والنهي عن السخرية والتنايز بالالقاب³⁰ وسوء الظن والغيبة والتجسس³¹ ورعاية حرمة البيوت وآداب دخولها³² وعفة النساء³³ وآداب الضيافة³⁴....
خلاصة القول: ان القرآن يحوى امورا متنوعة في مساحة واسعة جداً ، وفيه مطلوب كل قاصد ، فلا غناء عنه في حل كل معضلة وتلبية كل حاجة .
ان موضوع البحث هذا ، هو الحلول التي استقاها بديع الزمان النورسي من القرآن الكريم لمعالجة المشكلات الانسانية. ونقر بعجزنا عن الاحاطة بهذه الحلول في هذه الصفحات المحدودة . فان كل موضوع طرقة هذا العالم الجليل من علماء العصر الحديث، يمكن ربطه بأصله المستقى منه في القرآن الكريم . وهو ميدان واسع يرجع الى استفادته من القرآن الكريم لايجاد الحلول لكل مشكلة تصدى لها وبيان حقيقتها . فتأمل في ذلك قوله: " ارى في البحث عن برهان آخر مع وجود المعجزة الخالدة ، القرآن، فضلة في عقلي. وهل يضيق قلبي على الزام المنكرين، وعندى برهان الحقيقة، القرآن ؟ " ³⁵ فنكتفي هنا ببعض المشاكل الاجتماعية التي تناولها النورسي، ونستعرض اولاً الغيبة والحسد ، ثم نستعرض الحلول التي سردها لمشاكل الشرائح الاجتماعية مثل الاطفال والشباب والشيوخ

1 - الغيبة :

الغيبة ذكرنا بما يكره في غيابه³⁶ . وهي داء يصيب الروح ويسم الفرد والمجتمع. لقد اعلى الله تعالى مرتبة الانسان في الخلق وفضله على من في الارض جميعاً. ويستتبع ذلك علو شأنه وشرفه وكرامته. فلا يجوز تحقيره وقبحه واشاعة معايبه او مالا يرغب من افعاله. وقد اوعد الخالق الجليل من يفعل ذلك بالويل فقال : " ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده " ³⁷ . ويوازي الرسول صلى الله عليه وسلم بين مرتبة الاسلام واطمئنان المسلم على نفسه، فيقول " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " ³⁸ ، وتكفل بالجنة لمن يكف لسانه .³⁹
ان الاسلام نهى عن العدوان باليد ، كما نهى عن العدوان باللسان بالغيبة والبهت والتحقير والفرية . فعنوان اليد يجرح البدن وعدوان اللسان يجرح الروح . ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعراج قوماً يشق وجوههم وصدورهم بامشاط من حديد فسأل جبريل عنهم فاخبره بانهم كانوا يشتمون الناس ويكشفون عيوبهم⁴⁰

30 الحجرات : 11

31 الحجرات : 12

32 النور : 27 - 29 و 58 - 59

33 النور : 31 ، الاحزاب: 32 و 33 و 59

34 الاحزاب : 53

35 الكلمات ص 419

36 الجرجاني ، علي بن محمد ، التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1988 ص 163

37 الهمزة : 1 - 2

38 البخارى ، الايمان، الباب الرابع ، الحديث العاشر

39 البخارى ، الرقاق ، 23 . ولعل الباحث يعني الحديث: (من يضمن لي مابين لحييه ومابين رجليه أضمن له

الجنة) - المترجم

40 انظر ابو داود ، الادب ، 35 ، احمد بن حنبل 3 / 224

وما اعظمه من سوء حتى نهى عنه الله تعالى في كتابه ورسوله في سننه نهياً شديداً ! لذلك، اشار سعيد النورسي الى قبح هذه الخصلة الذميمة مستدلاً بالآية الكريمة : " يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم . ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . ائحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتاً ، فكرهتموه . واتقوا الله ان الله تواب رحيم " ⁴¹

تتهى هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مراتب وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث ان خطاب الآية موجه الى المغتابين، فيكون المعنى كالآتي:
ان الهمزة الموجودة في البداية، للاستفهام الانكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء الى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكماً.
وفي الكلمة الاولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة:
أليس لكم عقل - وهو محل السؤال والجواب - ليعي هذا الامر القبيح؟
وفي الكلمة الثانية: «ايحب» تخاطب الآية بالهمزة:
هل فسد قلبكم - وهو محل الحب والبغض - حتى أصبح يحب اكره الاشياء واشدها تنفيراً.

وفي الكلمة الثالثة: «احدكم» تخاطب بالهمزة:
ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية - التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة - وما بال مدنينكم وحضارتكم حتى اصبحت ترضى بما يسم حياتكم ويعكر صفوكم.
وفي الكلمة الرابعة: «ان يأكل لحم» تخاطب بالهمزة:
ماذا اصاب انسانيتم؟ حتى اصبحتم تفترون صديقكم الحميم.
وفي الكلمة الخامسة: «اخي» تخاطب بالهمزة:
اليس بكم رافة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم، حتى اصبحتم تفتكون بمن هو اخوكم من عدة جهات، وتتهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشاً قاسياً ، ايملك عقلاً من يعرض عضواً من جسمه؟ او ليس هو بمجنون؟
وفي الكلمة السادسة: «ميتاً» تخاطب بالهمزة:
ابن وجدانكم؟ أفسدت فطرتكم حتى اصبحتم تجترحون ابغض الاشياء وافسدها - وهو أكل لحم اخيكم - في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير.
يفهم من هذه الآية الكريمة - وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها - ان الغيبة مذمومة عقلاً وقلباً وانسانية ووجداناً وفطرة وملة.
فتدبر هذه الآية الكريمة، وانظر كيف انها تزجر عن جريمة الغيبة باعجاز بالغ وبايجاز شديد في ست مراتب" ⁴²

ويعد النورسي الغيبة سلاحاً حقيراً يستخدمه الحاقد والحاسد والمعاند في الغالب ، وينبغي ان تترفع النفس الابية عن مثل هذا السلاح الدنيء ⁴³ . كذلك ، يربط بين الغيبة والسياسة ربطاً عجيباً ، فيصف السياسة في عصره بانها قائمة على الغيبة بدرجة

41 الحجرات : 12

42 الكلمات ص 439 - 440

43 المكتوبات ص 358

واسعة : " حقيقة الآية الكريمة " ولا تزر وازرة وزر اخرى " ⁴⁴ وهي واحد من قوانين الاسلام الاساسية الكثيرة ، أن لا يسأل الغير قريباً او خليلاً عن جريمة ارتكبتها واحد منهم. والحال في السياسة الحاضرة إظهار الرضا بالضرر الواقع على كثير من الأبرياء بسبب مجرم واحد لعصبية التحزب . اذ يتعرض الانصار أو الاقرباء الى اشنع الغيبة والفرية بسبب جناية مجرم واحد، فتحول الجناية الواحدة الى مائة جناية ، فتشحن النفوس بعداء وحقد رهيب ، وتضطر الى الرد بالمثل على الحقد والبغض . وهذا سم يشنت الحياة الاجتماعية شذر مذر ويمهد السبيل لعبث العدو الخارجي " ⁴⁵ . ويظن كثير من الناس اليوم انهم لا يخوضون في الغيبة بزعمهم أنهم يخبرون بما هو حاصل فعلاً . وهل الغيبة إلا ذلك ؟ فان ذكرك أخاك بما ليس فيه إفتراء وبهت . عن ابي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره . قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته " ⁴⁶ . وقياس الغيبة كما يقول النورسي " هو انه لو كان حاضراً وسمع المقال كرهه . فان كان صدقاً فهو الغيبة ذاتها ، وان كان كذباً فهو غيبة وبهت . اثم قبيح مضاعف " ⁴⁷ ويوضح انها تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ⁴⁸ ، فينبغي اجتنابها ، فان اغتاب استمع غفلة ، فليقل : اللهم اغفر لنا ولمن اغتبناه ، وليطلب التحلة من الذنب اذا لقيه ⁴⁹ . فاذا علم هذا ردعه عن الولوج في الغيبة .

2 - الحسد

الحسد تمنى زوال النعمة والفضيلة من امرئ لنفسه، ⁵⁰ أو زوال خصلة او فضل او نعمة مطلقاً ، او التفرد بها لنفسه وزوالها من غيره . وما من نفس في الحقيقة إلا وفيها شئ من الأثرة والحسد . وهو بهذا الحد دافع الى التقدم والتنافس ، ويسمى " الغبطة " . وليس في الغبطة تمن بزوال فضل عن صاحبه، بل نوال فضل مثل ذلك الفضل لنفسه . الاصل في الحسد تمنى زوال فضل او نعمة او خير عن صاحبه، ثم نواله لنفسه، او الضيق من رؤية الخير عند غيره سوا تمناه لنفسه او لم يتمنه، حتى اذا قيل له: خذ مثل ذلك الخير ودع ما عنده، تراه يضيق صدره ويتمنى ان ينفرد بالخير ويحرم غيره منه . واذا كان المحسود خصلة تتعلق بالذات خاصة، ولا يمكن غصبها او تحولها، ينقلب الحاسد عدواً للخصلة والفضيلة، ولا يسلو إلا بزوال ذات المحسود. ⁵¹ فالحسد يوقع المجتمع في العدواة والبغضاء . قال الله تعالى: " ومن شر حاسد اذا حسد " ⁵² .

44 الانعام : 164 ، الاسراء : 15 ، فاطر : 18 ، الزمر : 7 ، النجم : 38

45 النورسي ، الملاحق - اميرداغ ص 244

46 مسلم ، البر ، 70 ، ابو داود ، الادب ، 4 ، الترمذي ، البر ، 23 .

47 المكتوبات ص 358

48 نفسه

49 نفسه

50 الفاموس المحيط للفيروز ابادي - مؤسسة الرسالة - بيروت 1993 ص 353

Elmalili, Hamdi Yazirr Hak Dini Kuran Dili, Azim Dagitim, Ist. 173-172/1 51

52 الفلق: 5

ينبه سعيد النورسي الى اجتناب الحسد في شؤون الدين والآخرة. ويرجع الحسد الى امتداد اياد كثيرة لشيء واحد او رصد عيون كثيرة لمقام واحد، او طلب بطون كثيرة لخبز واحد، فيتنافس جمع ويتدافعون ويتسابقون ويغيب بعضهم بعضاً، ثم ينبع الحسد. ان سبب التنافس في الدنيا لوقوع طلب كثير على الشيء الواحد، وهي ضيقة وفانية، ومطالب البشر واسعة وشرهة.⁵³ ويرى النورسي ان فرض الزكاة وتحريم الربا هو لرفع اسباب الحسد الموفية الى العداوة.

"ان اس اساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الانساني انما هو كلمة واحدة، كما أن منبع جميع الاخلاق الرذيلة كلمة واحدة ايضاً. كما أثبت ذلك في (اشارات الاعجاز).

الكلمة الاولى: (ان شبعت، فلا عليّ ان يموت غيري من الجوع).

الكلمة الثانية: (اكتسب انت، لأكل انا، واتعب انت لأستريح أنا).

نعم، انه لا يمكن العيش بسلام وونام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، اي بين الاغنياء والفقراء، واساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، واطاعة العوام واحترامهم للخواص.

فالآن، ان الكلمة الاولى قد ساقنت الخواص الى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام الى الحقد والحسد والصراع. فسلبت البشرية الراحة والامان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث اوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين واصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد.

فالمدينة بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الاخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عجزت عن ان تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن ان تضمد جرحي الحياة البشرية الغائرين.

أما القرآن الكريم فانه يقلع الكلمة الاولى من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة. ويقلع الكلمة الثانية من اساسها ويداويها بحرمة الربا.

نعم، ان الآيات القرآنية تقف على باب العالم قائلة للربا: الدخول ممنوع. وتأمر البشرية: اوصدوا ابواب الربا لتتسد امامكم ابواب الحروب. وتحذر تلاميذ القرآن المؤمنين من الدخول فيها".⁵⁴

ويتناول النورسي الموضوع تارة اخرى فيقول :

" اعلم! ان شرط انتظام الهيئة الاجتماعية ان لا تتجافى طبقات الانسان، وان لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم. مع ان باهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا انفرجت المسافة بين الطبقات، وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينهما، ولا يفور من الطبقة السفلى الى العليا إلا صدى الاختلال، وصياح الحسد، وأنين الحقد والنفرة بدلا عن الاحترام و الاطاعة والتحبب، ولا يفيض من العليا على السفلى بدل الرحمة

53 اللمعات - اللمعة العشرون

54 الكلمات ص 474

والاحسان والتلطيف إلا نار الظلم والتحكم، ورعد التحقير. فأسفاً!.. لأجل هذا قد صارت «مزية الخواص» التي هي سبب التواضع والترحم سبباً للتكبر والغرور. وصار «عجز الفقراء» و«فقر العوام» اللذان هما سببا المرحمة عليهم والاحسان اليهم سبباً لأسارتهم وسفالتهم.. وان شئت شاهدت فعليك بفساد وردالة حالة العالم المدني، فلك فيه شواهد كثيرة. ولا ملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها إلا جعل الزكاة - التي هي ركن من اركان الاسلامية - دستوراً عالياً واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية⁵⁵.

ويعد الحسد حاصلًا من الأناية :

" فيا اخواني! ان أخطر جهة من الأناية في عملنا هذا هو الحسد والغيرة، فاذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده، فان الحسد يتدخل فيفسد العمل. فكما ان إحدى يدي الانسان لاتحسد الاخرى ولاتغار منها، وكذا لاتحسد العين اذنه ولايغار قلبه من عقله، كذلك انتم، فكل منكم في حكم عضو وحاسة في الشخص المعنوي لجماعتنا هذه. فواجبكم الوجداني الا يحسد بعضكم بعضاً، بل يفتخر كل منكم بمزايا الآخر ويُسرُّ بها"⁵⁶.

اما مداواته للحسد فهو بدواء القرآن :

" وعلاج الحسد هو: ان يلاحظ الحاسد عاقبة ما يحسده، ويتأمل فيها، ليدرك ان ما ناله محسوده من اعراض دنيوية - من مال وقوة ومنصب - انما هو اعراض زائلة فانية. فاندتها قليلة، و مشقتها عظيمة.

اما اذا كان الحسد ناشئاً من دوافع اخروية، فلا حسد اصلاً. ولو تحرك عرق الحسد حتى في هذه الامور، فالحاسد اما انه مرء، يحبط حسناته الاخرية في الدنيا. او انه يسئ الظن بمحسوده فيظلمه"⁵⁷.

فالنورسي ينظر بمنظور القرآن للحسد واسبابه ومفاسده وعلاجه .

3 - الاطفال :

الاطفال نواة لحفظ النوع والنسل كالبذور للاشجار. والامم التي لا تكثرث بالاطفال او تتركهم نهب الثقافات الاجنبية محكوم عليها بالتدهور والانقراض. ان الجيل النشط للامة بعد ثلاثين او اربعين سنة هم اطفال اليوم، وترك العناية بهم اهمال لعنصر مهم يثير الرعب في العقول والنفوس.⁵⁸ ويمتاز الاطفال بحساسية مفرطة ازاء الحوادث، وقد يصابون بجروح لا تلتئم في ارواحهم ونفوسهم لضعف ادراكهم جوهر الوقائع وحقيقتها، مثل الموت الذي قد يصيب الوالدين او الاقربين او الاصدقاء ، والم مفارقتهم ودفنهم في التراب امام اعينهم. لذلك يداوي الخالق مثل هذه الوقائع بالابمان بالآخرة والجنة ، فلا يكون الموت فناء وهدماً، بل عالماً آخر فيه لقاء مع من ماتوا.

55 اشارات الاعجاز ص 54 - 55

56 المكتوبات ص 551

57 المكتوبات ص 344

58 Sahin, M.Abdulfettah, Kriterler, Caglayan A.S., Izmir1991,2/58-59

يوضح سعيد النورسي:

"ان الاطفال الذين يمثلون نصف البشرية، لا يمكنهم ان يتحملوا تلك الحالات التي تبدو مؤلمة ومفجعة امامهم من حالات الموت والوفاة إلا بما يجدونه في انفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من «الايمان بالجنة». ذلك الايمان الذي يفتح باب الامل المشرق أمام طبائعهم الرقيقة التي لا تتمكن من المقاومة والصمود وتبكي لأدنى سبب. فيتمكنون به من العيش بهناء وفرح وسرور. فيحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه: «أن اخي الصغير أو صديقي الحبيب الذي توفي، اصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو اذن يسرح من الجنة حيث يشاء، ويعيش افضل واهناً مثلاً». وإلا فلولا هذا الايمان بالجنة لهدم الموت الذي يصيب اطفالاً امثاله - وكذلك الكبار - تلك القوة المعنوية لهؤلاء الذين لا حيلة لهم ولا قوة، ولحطم نفسياتهم، ودمر حياتهم ونغصها فتبكي عندئذ جميع جوارحهم ولطائفهم من روح وقلب وعقل مع بكاء عيونهم. فإما أن تموت احساسهم وتغلظ مشاعرهم أو يصبحوا كالحوانات الضالة التعسة".⁵⁹

ان الاطفال يحيون حياة انسانية بالايمان بالآخرة ، وبها ينالون اللطائف الانسانية، وبخلافه ، يحيون في قلق أليم، تستغرقهم حياة مضطربة غايتها ان تنسي القلق باللعب واللهو . فان مشاهدة الوفيات المتكررة التي تترك آثاراً غائرة في عقولهم الطرية وقلوبهم الضعيفة تحيلها الى اجهزة تعذيب لارواحهم مستقبلاً ، اذا لم يتداركها الايمان بالآخرة ليجعلها وسائل سرور واطمئنان :

" ان صديقي - او أخي - الذي توفي قد اصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو اكثر منا أنساً وانطلاقاً وتجوالاً. وان والدتي - وان توفيت - الا انها مضت الى الرحمة الإلهية الواسعة، وستضمني ايضاً الى صدرها الحنون في الجنة، فأرى تلك الوالدة الشفيقة». وبهذا يمكنه ان يعيش هادئاً مطمئناً عيشاً يليق بالانسان".⁶⁰

4 - الشباب :

ان تقدم الأمم او تأخرها، وضمان مستقبلها او ضياعها ، رهن بالشباب وتربيتهم وسلوكهم . الشباب عنصر الحياة في المجتمع وسر اندفاعه. فاذا أهمل امرهم وتعليمهم وتربيتهم تربية دينية ، تحولوا الى الغمام مهياة للانفجار. يقول النورسي . " ان الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدئ فورة مشاعرهم، ولا يمنعهم من تجاوز الحدود الى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش انفسهم ونزواتها، ولا يؤمن السير الافضل في علاقاتهم الاجتماعية الا الخوف من نار جهنم. فلولا هذا الخوف من عذاب جهنم لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم الدنيا الى جحيم تتأجج على الضعفاء والعجائز، حيث "الحكم للغالب" ولحولوا الحياة الانسانية السامية الى حياة حيوانية سافلة".⁶¹

ويحذر النورسي الشباب من الوقوع في المفاصد وميلهم الى اتباع الهوى واشباع

النفس وسحق الضعفاء وينبه الى ان الانسان لا بد أن يسأل عما يفعل ، ⁶² وان الدنيا فانية ⁶³ والشباب ذابل وراحل ⁶⁴ وان الخروج من دائرة الشريعة يفني العمر ويجعله بلاء ونقمة في الدنيا والقبر والآخرة مخلفاً المصائب والآلام بدلاً عن اللذات ، فاذا شكروا الله على نعمة الشباب (بتربيتهم الاسلامية) بالعفة والشرف والطاعة، فشبابهم يدوم معنى ويكسبهم شباباً ابدياً ⁶⁵ وايضاً، يوصي الشباب فيقول : "ان الشباب ذاهب وأقل، وسيزول لا محالة؛ اذ كما ان الصيف يخلفه الخريف والشتاء، والنهار يعقبه المساء والليل، فالشباب كذلك سيتحول الى مثيب، والى الموت، بمثل هذه الحقيقة المحتملة.

فاذا ما بذل الشاب ما يملك من طاقة مؤقتة في سبيل الخير والصلاح، ضمن دائرة الطهر والعفة والاستقامة، فان الاوامر السماوية كلها تبشره بأنه سيغنم به شباباً باقياً لازوال له، و كما ان غضب دقيقة واحدة، قد يدفع الانسان الى ارتكاب جريمة قتل فيقضي مقاساة ملايين من الدقائق في مقاساة من عذاب السجن، كذلك نشوة الشباب وسفاهته، واذواقه العابرة - في غير ما أحل الله - تسبب له آلاماً اكثر واعمق في ذات اللذة نفسها، فضلاً عن العقاب الرهيب في الآخرة، والعذاب المرير في القبر، وعلاوة على معاناة الحشرات العميقة المنبعثة من زوال اللذة، والعقاب في الدنيا المترتب على الذنوب والآثام. يشهد بصدق وجود هذه الآلام في اللذة نفسها كل شاب حصيف، بما مر عليه من تجارب، فمثلاً:

ان الحب المحرم، او العشق لغير وجه الحق، فيه من الآلام ما ينغص اللذة الجزئية فيه، منها الشعور بألم الغيرة والحسد، ومنها ألم الفراق عن المعشوق، ومنها ألم عدم مقابلة المحبة بالمثل.. وغيرها كثير من المنغصات التي تجعل تلك اللذة الجزئية بحكم عسل مسموم.

فان كنت تريد أن تفهم ان سوء تصرف الشباب واسرافهم في امرهم يسبب فيهم من الامراض ما يسوقهم الى المستشفيات أو المقابر..

وان كنت تريد ان تفهم ان غرور الشباب وطيشهم يدفعهم الى السجن.
وان كنت تريد أن تفهم ان ما يصيبهم من آلام معنوية وهموم نفسية - من الخواء الروحي والجوع القلبي والفراغ - يسوقهم الى ابواب الحانات والملاهي.. نعم ان كنت تريد ان تتحقق من هذا، فاسأل المستشفيات والسجون والخمارات والمقابر، فستسمع حتماً أنات وأهات، وبكاء مريراً، وحسرات الندم، واصوات الأسي والأسف، يطلقها - على الأغلب - شباب أشقياء، تلقوا الصفعات الموحجة والضربات الأليمة لخروجهم عمّا اباح الله لهم من الطيبات بدافع نزواتهم واسرافهم وسئ اعمالهم، وارتكابهم المحرمات، وانسياقهم وراء اللذات المشؤومة.

بينما اذا ما قضى الشاب عهد شبابه بما أمره الله به واتبع الصراط السوي واستقام

62 سورة النساء: 123 الزلزلة: 7-8

63 سورة البقرة: 212 آل عمران: 185 يونس: 24 الرعد: 26 الكهف: 45 الحديد: 20

64 سورة البقرة: 243 آل عمران: 145 النساء: 78 ق: 19

65 الكلمات ص 161

عليه. فانه يجعله احلى نعمة إلهية وأجمل هبة رحمانية، ويتخذها سبيلاً قويمًا ممهداً الى الصالحات من الاعمال، ولأثمر له كذلك شباباً ناضراً، وفتوة خالدة دائمة في الآخرة بدلاً من هذا الشباب الفاني الزائل.. ذلك ما تبشرنا به الكتب السماوية والصحف المنزلة جميعها، وفي مقدمتها القرآن الكريم بآياته المحكمة الكريمة.

فما دامت هذه هي الحقيقة.. ومادام ميدان الحلال كافياً ووافياً للأنس والمتعة والنشوة.. ومادامت اللذة الواحدة - ضمن المحرمات - تذيق صاحبها ألماً يدوم سنة واحدة من عذاب السجن واحيانا عشر سنوات.. فيلزم اذن قضاء عهد الشباب بالعفة والطهر والاستقامة على الصراط السوي أداء لشكر تلك النعمة اللذيذة المهداة، بل هذا هو الألزم⁶⁶.

ان في يد الشباب مصدراً يفك لهم معضلاتهم على خير وجه هو الدين القويم، والقرآن الكريم . ولا سلام ولا أمان إلا بذلك ، اذ لا يتصور جيل من الشباب يريح ويرتاح إلا بالدين. ويؤيد البحث العلمي ايضاً ما ذهبنا اليه . يقول هنري لنك في كتابه " العودة الى الدين " انه بنتيجة البحث النفسي الذي قام به بصفته رئيساً لدائرة البحوث النفسية في الولايات المتحدة الامريكية على 15.321 رجلاً وامرأة وتطبيق 73.226 تجربة نفسانية تبين : ان من يؤمن بدين ويتردد على معبد، اقوى واثبت شخصية من الذي لا يبالي بدين ولا يتردد على معبد " . ويقول عالم آخر من كبار علماء النفس هو الدكتور كارل يونك في كتابه " الرجل المعاصر " : راجعني كثير من المرضى من مختلف مناطق العالم اثناء السنوات الثلاثين الأخيرة ، وعالجت المئات منهم. لقد كان غياب المعتقدات الدينية السبب الاساس لاصابة الذين عبروا سن الخامسة والثلاثين بالامراض : هؤلاء لا ينظرون الى الدنيا بمنظور ديني ولا يتصرفون كما يتصرف زملاؤهم المتدينون . ولم يكونوا يشفون تماماً بغير عودتهم الى المعتقدات الدينية . ينتحر 100 طبيب سنوياً في الولايات المتحدة الامريكية . وحسب احصاءات منظمة الصحة العالمية ، انتحر سنة 1955 في اليابان 22477 شخصاً ، وسنة 1978 في السويد 20000 شخصاً . اما في مصر التي لا تنعم بالرفاه مثل رفاه تلك الدول، فيبلغ نسبة الانتحار خمسة اشخاص فقط في كل عشرة ملايين . بينما تبلغ النسبة في اليابان مثلاً خمسة اشخاص في كل عشرة آلاف . فالمشاهد ان الرفاه المادي لم يحقق السعادة لهذه المجتمعات . تأمل في حال المجتمعات التي ابتعدت عن الدين وآلت مدينتها الى السقوط كشجرة نخرة :- نسبة الارتفاع في الجرائم الكبيرة بين سنة 1960 الى 1970 في الولايات المتحدة 144% . ونسبة المدانين بجرائم كبيرة في السويد 5 , 78 من كل الف ، وفي الدنمارك 5 , 64 وفي الولايات المتحدة 2 , 41 وفي فرنسا 6,43⁶⁷ فالتقدم المادي اذن لا يحل كل المشاكل . فنسبة الجرائم تزداد مع ضعف الايمان وفقدان المؤثرات الدينية ، وتزداد نسبة المدمنين

66 الشعاعات ص255-256

67 Saffet Senih, Ibadetin getirdikleri, Nil Yayinlari, Izmir1995,s.21-22

على المخدرات بحثاً عن الراحة النفسية والسعادة الزائفة وهرباً مؤقتاً من سياط الاسئلة اللاذعة التي تثور في عقولهم.

وفي الحقيقة ان القلوب لا تطمئن ولا ترتاح إلا بذكر الله . ففيه الامان والشفاء من الآلام النفسية وسكون الروح. فما من شئ إلا بالله، وما من شئ إلا ومصيره الى الله . الى الله ترجع الامور كلها، الآمال والافكار والعواطف والعقول والمخاوف والاسباب والمسببات . ومهما حال الانسان الى نعمة من نعم الدنيا ، او بلغ مطلباً من المطالب، لا يقر له قرار ولا امان، لانه حرم من نعمة او مطلب ارقى طبقة مما بلغ او نال . لذلك لا تسكن روح ولا تشبع رغباتها إلا بما عند الله . فترى الانسان يكابد العناء لبلوغ لذة اسمى وحظ ارفع . لكن ما ان يرتشف القلب من معرفة الله تعالى ، حتى يجد لذته في ذكر الله، ويعلم ان المقاصد والامور كلها الى الله، فلا يغادر الى مقصود غيره ولا يراجع أحداً سواه . ولذلك لا ينجو قلب كافر او غافل لا يذكر الله ولا يرتفع في مقامات معرفة الله ، من القلق ، ولا يذوق الامان والاطمئنان القلبي .⁶⁸ كما قال الله تعالى : " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " ⁶⁹

يشير بديع الزمان سعيد النورسي الى ضرورة تعليم القرآن لتربية الشباب تربية عالية وحل مشاكلهم واناذهم من القلق والاضطراب، مقارناً ذلك ببحوث جرت في تلك الايام :

" القرآن الحكيم يلف بخمائل خضراء ويوضع اعالي الرفوف توقيراً وتبجيلاً. والمخترعون والفلاسفة والنفسانيون والاجتماعيون والاطباء يقرأون الآثار المصنفة استناداً الى القرآن الكريم، ويصنفون ما يقتسبون من هذا الكتاب المقدس فيشتهرون في آفاق الدنيا، ويخدمون البشرية وشعوبهم. فقد شكلت هيئة من كبار رجال العلم السويديين والنرويجيين والفنلنديين ، فبحثوا سنوات عديدة عن كتاب فيه خلاص للشباب ، ثم توصلوا الى ضرورة مطالعة القرآن الكريم لتلقين الشباب اسمى الاخلاق ويجاد رجال علم في العالم على استقامة وعقل منفتح .⁷⁰

5 - الشيب والشيوخ :

يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحياة الدنيا بمسافر يستقي بظل شجرة ساعة ثم يرحل .⁷¹ فهي رحلة من عالم الارواح الى هذه الدنيا، فطفولة ، فشباب ، فهرم ، فموت . الشيب اذن مرحلة لا بد من المرور بها ، فتضعف الاعضاء حتى لا تكاد تلبي ضرورات حاجات البدن ، وقد يهجره الاولاد تعاجزاً عن خدمته ، وتتزاحم عليه المصائب والمصاعب حتى يحس بانفاس الموت الباردة في كل آن وحين . في هذه المرحلة ، يحنو الاسلام على الانسان بالدواء . يقول النورسي رحمة الله : ان الشيوخ الذين هم نصف البشرية، انما يتحملون ويصيرون وهم على شفير القبر بـ"الايمان بالآخرة". ولا يجدون الصبر والسلوان من قرب انطفاء شعلة حياتهم

68 Elmalili, Hamdi Yazır Hak Dini Kuran Dili, Azim Dagitim, Ist.5/145-146

69 الرعد: 28

70 مرشد الشباب للنورسي

71 انظر الترمذي، الزهد 44؛ ابن ماجه، الزهد 3.

العزيزة عليهم، ولا من انغلاق باب دنياهم الحلوة الجميلة في وجوههم إلا في ذلك الايمان. فهؤلاء الشيوخ الذين عادوا كالأطفال واصبحوا مرهفي الحس في ارواحهم وطبائعهم، انما يقابلون ذلك اليأس القاتل الأليم الناشئ من الموت والزوال ويصبرون عليه بالأمل في الحياة الآخرة⁷².

"ان أهم درس يلقتنا القرآن آياه هو «الأيمان بالآخرة» وهذا الدرس رصين ومتين الى هذه الدرجة، وفي ذلك الايمان نور باهر ورجاء شديد وسلوان عظيم ما لو اجتمعت مائة الف شيخوخة في شخص واحد لكفاها ذلك النور، وذلك الرجاء، ذلك السلوان النابع من هذا الايمان؛ لذا علينا نحن الشيوخ ان نفرح بشيخوختنا ونبتهج قائلين: «الحمد لله على كمال الايمان»⁷³.

ويقول النورسي ايضاً: "الشيوخ؛ الذين يمثلون ثلث الامة، فهؤلاء يقترّبون من القبر، ويدنون من الموت، ويبتعدون عن الدنيا، ويجاورون الآخرة! فهل سلوان هؤلاء ونفعهم في الاستماع الى سيرة الظالمين من امثال (جنكيز خان) و (هولاكو) المليئة بالذغدر؟ وهل هي في هذا النمط من افعالكم الحاضرة التي تُنسي الآخرة، وتُلصق بالدنيا، وهي افعال لا طائل تحتها، وهي سقوط وتردٍ معنوي رغم ما يطلق عليها من رقي في الظاهر. وهل أن نور الآخرة في السينما؟ وهل السلوان الحقيقي في المسرح؟ واذ ينتظر هؤلاء الشيوخ الضعفاء الاحترام والتوقير من اهل النخوة والغيرة اذا بهم يخاطبون: انكم تساقون الى اعدام ابدى، بما ينفث في روعهم ان باب القبر الذي يتصورونه رحمة ما هو الا فم تُعبان يبتلعهم، ويهمس في اذانهم المعنوية: انكم ماضون الى هناك وكان هذا الكلام طعنات معنوية تنزل عليهم، فتذبجهم ذبحاً معنوياً. فان كانت هذه غيرة قومية وحمية مليّة، فاني استعيز بالله مائة ألف مرة من هذه الحمية والنخوة القومية"⁷⁴.

ومما يعانيه الشيب هو الثقل الذي يحسونه فيمن يبلغون عندهم الكبر، فيضطربون ويقلقون. فيحذر سعيد النورسي بأيتين من القرآن الكريم بقوله:

" ايها الانسان المبتلى بهموم العيش! اعلم ان عمود بركة بيتك ووسيلة الرحمة فيه، ودفع المصيبة عنه، انما هو ذلك الشيخ، او ذلك الاعمى من اقربائك الذي تستثقله لا تقل ابدأ: ان معيشتي ضنك، لا تستطيع المداراة فيها!.. ذلك لانه لو لم تكن البركة المقبلة من وجوه اولئك، لكان ضنك معيشتك اكثر قطعاً. فخذ مني هذه الحقيقة، وصدقها، فاني اعرف لها كثيراً من الادلة القاطعة، واستطيع ان املك على التصديق بها كذلك. ولكن، لئلا يطول الامر فانني اوجزها. كن واثقاً جداً من كلامي هذا. أقسم بالله ان هذه الحقيقة هي في منتهى القطعية، حتى ان نفسي وشيطاني ايضاً قد استسلما امامها. فلا غرو ان الحقيقة التي اغاظت شيطاني واسكتته وحطمت عناد نفسي الامارة بالسوء لا بد انها تستطيع ان تقنعك ايضاً.

72 الشعاعات ص 229

73 الكلمات ص 128

74 المکتوبات ص 544

أجل؛ ان الخالق ذا الجلال والاكرام الذي هو الرحمن الرحيم وهو اللطيف الكريم - بشهادة ما في الكون اجمع - حينما يرسل الاطفال الى الدنيا فانه يرسل ارزاقهم عقبهم مباشرة في منتهى اللطف؛ كاتقاذ ما في الاثداء وتفجير كاليئابيع الى افواههم، كذلك فان ارزاق العجزة - الذين دخلوا في عداد الاطفال بل هم احق بالرحمة واحوج الى الرأفة - يرسلها لهم سبحانه وتعالى بصورة برّكة، ولا يحمل الاشحاء من الناس اعاشة هؤلاء ولا يدعها لهم. فالحقيقة التي تفيدها الايات الكريمة: (انّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (الذاريات: 58). (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم). (العنكبوت: 60) حقيقة ذات كرم ينطق بها وينادي بلسان حال جميع المخلوقات المتنوعة من الاحياء⁷⁵. وفي الشيوخ كسب أهم من البركة وهو احسان الله تعالى بدفع البلايا والمصائب ، كما يوضح سعيد النورسي :

" الضيف سبب البركة . فقس درجة البركة والرحمة في الانسان وهو اكرم المخلوقات ، وفي اهل الايمان وهم اكمل البشر، وفي العجزة والشيوخ وهم اجدر اهل الايمان بالرحمة والرحمة وفي الاقرباء وهم الأولى والاليق بالشفقة والخدمة والمحبة بين الشيوخ ثم في الوالدين من بين الاقربين وهم اصدقهم حبا ووافاهم دأ ، اذا حلوا في بيت ، وفس مبلغ الوسيلة في دفع البلايا والمصائب بسر " لولا الشيوخ الركع لصبّ عليكم البلاء صبا " ⁷⁶

ويذكر النورسي ايضا بان في رعاية الشيوخ ، والوالدين خاصة، ثواباً جزيلاً ، وكسباً لدعواتهم ، ⁷⁷ وتعبداً لامر القرآن الكريم بقوله تعالى : " وقضى ربك إلا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً " . ⁷⁸

فاذا استقمنا على امر القرآن وحسبنا ذكر فيما سبق ، فلا يتصور تقاعس المؤمن عن رعاية المسنين والشيوخ ، والوالدين خاصة ، كذلك لا يتصور حزن المسنين ويأسهم واضطرابهم .

النتيجة :

لا يخفى صعوبة احتواء ما اورده سعي النورسي من حلول مستقاة من القرآن الكريم لمعالجة المشاكل البشرية، في مثل هذا البحث القصير . لقد تناولنا في بحثنا بقدر الاستطاعة بعض طروحات النورسي مسترشداً بالقرآن حول الغيبة والحسد باعتبارهما من اسباب الاختلاف والقلق والمضايقات ، كذلك حول الشباب ولكهول باعتبارهما شريحتان اجتماعيتان واسعتان . وشهدنا من خلال ذلك ان سعيد النورسي يعالج المشاكل على ضوء القرآن الكريم بأسلوب يتخطى حدود المكان والزمان ،

75 المكتوبات ص 336

76 الهيئتي ، مجمع الزوائد 227/10 البيهقي ، السنن الكبرى 345/3 العجلوني ، كشف الخفاء 163/2

77 المكتوبات ص 336

78 الإسراء 23-24

ويحدد مشاكلنا المعاصرة ويقترح لها حلولاً مهمة. ان مجتمعاتنا التي تنن تحت وطأة المادية، تحاول حل مشاكلها ايضاً باسلوب مادي وباخلاقية مادية. ولقد ادرك سعيد النورسي هذا التناقض ، فحاول حلها اعتماداً على الجانب المعنوي عموماً، وعلى المؤثرات الوجدانية والمعنوية مثل المؤثرات المادية. ونرى ان من واجب المسؤولين أن يستفيدوا من الافكار التي استقاها هذا العالم الجليل من القرآن الكريم في هذا القرن المقترن بالمعضلات ، وذلك باشاعتها في جميع ارجاء البلاد .

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

حلول قرآنية لمشكلات الانسان من خلال رسائل النور

الدكتور رؤوف صامدلي^①

نحن مسلمو اذربيجان، قد عانينا الكثير الكثير طوال سبعين عاما تحت عن الفلسفة الملحدة المادية التي كانت تتبناها الاتحاد السوفياتي فديت ببحث ومكر في نفوسنا فقاسينا آلامها الرهيبة في اعماقنا، وتسلمت بمفاهيمها الفاسدة الى ارواحنا واصبحنا نحن تحت وطأتها. الا ان التوق الى الحياة الباقية المندرجة في فطرتنا، والشوق الى السعادة الباقية المرجوة من صميم قلب الإنسان والرغبة الملحة في البحث عن معرفة الخالق المغرور في كياننا جعلنا نردد فنقول: "يا ليتنا وجدنا كتابا قيما يثبت لنا وجود الله والنبوة والاخرة والحياة الابدية والحقائق الالمانية والقرآنية التي قدمت لنا في المدارس ألها اساطير وخرافات. فدعونا العلي القدير متضرعين بعيون دامعة منادين : ياربنا عرّف نفسك لنا! اننا نريد معرفتك، ونستغيثك طالبين منك السعادة الخالدة. فأوصلنا يا ربنا الى تلك السعادة!

ففي هذه الأثناء أمدتنا العناية الإلهية برسائل النور لبديع الزمان النورسي - بفضل وكرم منه تعالى - بوساطة طلاب النور الساعين لإنقاذ إيمان الأجيال المقبلة. فمدت لنا يدها الحانية وكأنها امتدت لنا من رياض الجنة. فبدأنا نعتزف من مائتها السلسيل. فاحيا الله بما قلوبنا الميتة بغيثها مثلما يحي سبحانه وتعالى الارض بانزال الماء من السماء بعد موتها. ولم تكنف الرسائل ان تكون البلسم الشافي لجروحنا الغائرة، بل تقلدت وظيفة احياء موات القلوب. فنحمده سبحانه وتعالى حمدا لا منتهى له على اننا في اذربيجان نطالع رسائل النور بجد واستمرار فنحس نورا في ارواحنا، ونشعر بمسرة خالصة وفرح صاف في قلوبنا بل نتحسس بنسائم طيبة وكأننا في جنة معنوية.

ونستطيع القول بقناعة تامة وبيقين جازم؛ ان ليس هناك اثر في عصرنا هذا غير رسائل النور التي توصل الناس الى السعادة الحققة وتحل لهم جميع مشكلاته وتثبت جميع الحقائق القرآنية ويوصله الى القناعة العقلية والقلبية التامة في آن واحد.

ان أهم مشكلة من مشكلات الإنسان هي تحقيق رغبته الملحة في أن يقضي حياته بسعادة كاملة ويعيش مع احبابه في حياة أبدية، ولمن لأنه في منتهى العجز ومتعرض الى هجوم البلايا والأعداء التي لا حد

^① من مواليد سنة 1955 في كوكجاي في اذربيجان. خريج كلية طب الأسنان بباكو . أب لولدين.

لها ولأنه في منتهى الفقر ومحتاج الى حاجات لا منتهى لها ومطالب لا حد لها، لذا يلتجئ هذا الإنسان الى الغني المطلق ويستند الى القدير المطلق لينجو من تلك البلايا والأعداء ويحقق تلك الآمال والرغبات، فيكون عبداً حقاً لمعبوده الحق

ان الله عز وجل وهو الرحمن الرحيم قد بعث بديع الزمان سعيد النورسي فأشرق كالشمس في آفاق العالم الاسلامي في وقت قد عمت فيه الفتن والضلالة والعصيان ليكون رحمة للأمة الإسلامية بل للانسانية ولتتقلد مهمة ورثة الانبياء، ملهما اياه العلوم القرآنية الساطعة لينشر تفسيره القيم "رسائل النور" المترشحة من حزائن الإعجاز المعنوي للقرآن الكريم ولتستجيب متطلبات هذا العصر المليء بالفتن. اذ تعرضت في هذا العصر الرهيب، الاساسات الاسلامية والاركان الايمانية الى شبهات والتباسات نفثها الماديون والطبيعويون الذين يصبون الى انكار الالهية. فعملت تلك الشبهات والوساوس في القلوب من التخريب والدمار حتى ابعدت الناس كلياً عن الدين والايمان - بما يشبه دور الفترة- كامثالنا الذين ظلوا تحت الاسارة البلشفية الشيوعية.

ان مؤلف رسائل النور قد كثف جل جهوده في انقاذ الايمان فقدم الحقائق القرآنية والايمانية بشكل يوافق افكار هذا العصر قائلاً: «لقد حصرت حياتي في استنباط الحقائق الايمانية والاساسات الاسلامية واستمدادها من القران المعجز البيان والذي يحقق السعادة الابدية للبشرية عامة ويقوي الرابطة الاخوية بينها، تاركاً المسائل الفرعية التي هي الوسيلة للمناقشات المتحيزة والعدوانية. اذ الايمان بالله اسمى غاية للخلق وازكى نتيجة للفطرة. فشرع بتقديم العلوم الايمانية بلسان العلوم التي تدرس في المدارس والجامعات. ويعززها بإيراد الامثلة من العالم المادي سائقاً دلائل قاطعة في التعريف بالله سبحانه بجميع صفاته الجليلة واسمائه الحسنى وبجميع مراتبها بما يسوق الى الانشراح والتمتع بالسعادة الحققة واصلاً الى محبة الله سبحانه ماراً من مراحل معرفة الله.

نعم، ان اعنى المشاكل التي يتورط بها الانسان عادة هو عدم الايمان باليوم الآخر. اذ بتلقين من الفلسفة المادية الشيوعية، يلاقي الانسان عذاباً معنوياً نابعا من عدم الايمان بالآخرة ليس فوقه عذاب. فنحن طوال الأعوام العجاف التي مرت تحت حكم السوفييات قد تورطنا بمثل هذا الكفر الداهم لايماننا. فظننا ان الموت جلاد يقطع رقاب الناس ويرميها الى العدم، وان الحياة منحصرة بهذه الدنيا الفانية فحسب. فدفعنا الى الإنغماس في السفاهة والمسكرات لننسى الآلام الناجمة من موت الاحباب وارتحال الاصدقاء والاقارب امام اعيننا كل يوم ولكن هيهات..

و رسائل النور تسرد الايات القرآنية امام الاعين، موضحة مفسرة معانيها الجليلة اقرب مما يكون الى علم اليقين بل الى عين اليقين؛ بان الانسان انما خلق للحياة الابدية وان هذه الدنيا دار امتحان ليس الا وتثبت بدلائل قاطعة ان الآخرة امر قطعي لا ريب فيها، وان الموت ليس اعداما ابدياً بل انتقال من عالم الى اخر و تبديل مكان، و القبر ليس فوهة بئر مظلم بل باب الى عالم نوراني، ونافذة الى الملذات الروحانية المطللة على السعادة الابدية وتورد الأدلة والأمثلة على الحشر الجسماني كأننا نراها رأي العين، ونخبر بان الاحباب والاقرباء والاصدقاء لم يعدوا بل وسبقونا الى الجنة فهم في حياة ملؤها المسرة والبهجة وهم في انتظارنا لنلحق بهم.

وبما ان رسائل النور تتسم بالاصالة والقدرة العلمية فانها تجيب على الاسئلة التي طالما يستفسرها الانسان الا وهي : ما الحياة؟ وما الكون؟ وما علاقة اجهزة الانسان مع الكون؟ وما الغاية في خلق الانسان؟ ومن اين اتينا والى اين المصير؟ ولماذا؟ فالرسائل تجيب عن جميع هذه الاسئلة وما شاهها بأدلة قاطعة. معلنة ماهية الانسان الحقيقية ووظيفته في هذه الحياة، وكونه ثمرة جامعة للكون، وكيف انه مكلف بالعبادة الكلية وكونه عبد كلي وانه مرآة جامعة لجميع اسماء الله الحسنی سلطان هذه الكائنات، وانه اكثر الموجودات لياقة للخطاب الرباني ومخاطبه الخاص، فضلا عن ان الرسائل تحمل ما انغلق على كثير من الفلاسفة من المشاكل والإشكالات العويصة حتى ضاع فيها الماديون والطبيعيون، مبينة في كل ذلك نورالتوحيد وربوبيته سبحانه المحيطة بالكون اجمع ، وكيف ان الامور جميعها ابتداءً من الذرات حتى المجرات في قبضة تصرفه سبحانه وتحت قدرته وارادته وضمن علمه.

وتعلن رسائل النور بان الله سبحانه الذي جعل للانسان عينين ولسانا وشفيتين والاعضاء الظاهرية والباطنية ولطائفه قاطبة ، عليه أن يسير هذه الاجهزة ويوجه هذه اللطائف في مجراها الحقيقي المخلوق لأجلها فيوجه اللطائف كالحرص والطمع والعناد والنفس والهوسات الى مجراها الحقيقية الى الآخرة من دون نسيان حظها من الدنيا، فهذه الاعضاء واللطائف لم يخلق للحياة الفانية هذه فحسب بل منحها الرب الكريم لاجل الحياة الابدية .

تمنح رسائل النور لكل انسان زاوية نظر ، يلمس بما حقيقة الكون والموجودات، ويرى من خلالها مثلاً كيف ان الكون كتاب صمداني وقرآن رباني جسماني، وقصر صمداني مزين و مدينة رحمانية منتظمة، وان هذه الدنيا محل تجارة مؤقتة، ومضيف بملاً ويفرغ كل يوم، وسوق مقيم في الطريق من اجل اخذ وعطاء عابري السيل، ودفتر لنقاش ازلي حافل بالحكم ، ورسالة ساطعة في كل ربيع، وقصيدة منظومة في كل صيف، وجلوات اسماء الصانع ذي الجلال التي تتجدد ، ومشتل ومزرعة الاحرة، ومزهرة الرحمة الالهية، ومحل تجارة خاص لاعداد اللوحات التي تتراعى في عالم البقاء، جامعاً معها مئات الالاف من انواع ذوي الحياة مع ارزاقها ولوازمها، ومظهِراً كأنها سفينة ربانية تبحر في عباب الفضاء بميزان دقيق ونظام صارم ليوصل سكنتها الى ساحل السلامة والى دارالسلام والى السعادة الابدية.

ايها الضيوف الكرام!

ابي تحدث باسم ملايين من الناس الذين ابتلعهم ثعبان الشيوعية والبلشفية. فنحن ما ان فتحنا اعيننا الى الحياة حتى رأينا انفسنا في فم ذلك الثعبان وفي مستنقع الشيوعية الاسن. لذا نلتجى الى عفوكم الكريم عما بدر من نقص في افكارنا وقصر في افاداتنا، حيث تتلاطم امواج زمان الكون في أفسدنا فتتربطم بسواحل الماضي والمستقبل وتنقلب خائباً واعيننا تذرف الدموع. هذا البكاء ليس الا من مسرتنا وابتهاجنا. انني لم اقط ابدأ من ان احد من يسوقني الى البهجة الحقيقية والسعادة اذ سألت الله سبحانه ان يوصلني الى تلك السعادة ، وقد وجدتها بعد قراءتي لرسائل النور والحمد لله انني سعيد بما اكرمني ربي من فضله وكرمه.

ترجمة : دنجر قورقماز

حول تحليلات رسائل النور للكتاب المقدس

د. عثمان جيلاجي^P

ان لمصطلح "المقدس" معاني كثيرة شتى؛ كالقدسي والمنزّه والمبارك وغيره. و"ام الكتاب" مصطلح يتعذر استعماله لغير القرآن الحكيم. ومعلوم ان الاصطلاحات كالفرقان، والنور، والذكر، وغيرها تستعمل فقط للتعبير عن المصطلحين المذكورين الآنفين.

ومصطلح "اهل الكتاب" مهما كان يعبر عن "من يؤمن باحدى الكتب المقدسة الاربعة" انه مصطلح يعبر عن الموسويين والمسيحيين (اليهود والنصارى) على الوجه الخاص. اما في التعريف العام فتقصد بالكتب السماوية التوراة والزبور والانجيل والقرآن الكريم.

ومفهوم "الكتاب المقدس" الذي يشكل اساس بحثنا هذا يعبر عن الكتب السماوية الثلاثة (التوراة و الزبور والانجيل) وتدخل في ضمنه جميع النصوص الدينية في علم المصطلحات الفنية وعلم الالهييات التي تعد مقدسا لدى اليهود والنصارى.

تنقسم النصوص القدسية في النصارى الى قسمين وهي العهد العتيق والعهد الجديد. وكلمة "العهد" هنا تعني المعاهدة والاتفاقية. فالعهد العتيق ينوف على النص الكامل للمعاهدة التي أبرمها الإله ياهوفا مع اليهود حسب اعتقاد اليهود والنصارى. اما العهد الجديد فانه ينص على المعاهدة التي ابرمت بين عيسى عليه السلام مع الله سبحانه وتعالى.

أملي الكتاب المقدس من قبل كتّاب مختلفين وفي ازمئة شتى . وعدد هذه الكتب ينوف على 39 كتاباً حسب ما يرويه اليهود. اما العهد الجديد فيضم 27 كتاباً ويُعده النصارى كلاماً الهياً².

وقد ترجم الكتاب المقدس الى اللغة التركية لأول مرة في عهد السلطان محمد الرابع من قبل مترجم مهتدي بولوني اسمه "علي بك" في عام 1666. اما ترجمته بالحروف الحديثة فقد تم نشرها لأول مرة في اسطنبول عام 1951³.

P من مواليد مدينة انطاليا سنة 1944م . بعد اكمال دراسته العليا في كلية الإلهيات بجامعة استانبول سافر الى بلدان اشرق الأوسط ثم الى ألمانيا لإجراء بحوث علمية تتعلق باختصاصه . حصل على الدكتوراه في تاريخ الأديان بكلية الإلهيات بأرضروم سنة 1976 وتسلم وظائف علمية مختلفة وهو حالياً رئيس قسم تاريخ الأديان- كلية الإلهيات جامعة سليمان دميريل. له مؤلفات كثيرة منشورة.

1- لاروس الكبير، اسطنبول 1985 الامام القرطبي، الاعلام، القاهرة - 1978، صموئيل بن يحيى المغربي، بذل المجهود في افهام اليهود: بيروت 1989، الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة، 1961

2- الموسوعة البريطانية، اسطنبول 370

3- شركة الكتاب المقدس، اسطنبول 1958

وبدع الزمان سعيد النورسي في مواضع كثيرة من رسائل النور قد اتى بتحليل جادة وسرد افكاره السديدة حول اليهودية والنصرانية والتوراة والانجيل والزبور مبيناً العلاقات بين الاسلام والنصرانية. وكما هو معلوم فان القرآن الكريم يشهد بنبوته محمد p وقدمه بعد النبي عيسى عليه السلام،⁴ ومذكور هكذا ايضا في الانجيل المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام.⁵

وبدع الزمان سعيد النورسي قد تناول هذا الموضوع القيم في الكلمة التاسعة عشرة التي تخص الرسالة الاحمدية واستهله بعبارة "وما مدحت محمداً بمقاليتي ولكن مدحت مقاليتي بمحمد عليه الصلاة والسلام." ويقررب: "ان هذا البرهان النوراني الذي دل على التوحيد وارشد البشر اليه، كما انه يتأيد بقوة ما في جناحيه من نبوة وولاية من الاجماع والتواتر.. كذلك تصدقه مئات اشارات الكتب السماوية من بشارات التوراة والانجيل والزبور وزُبر الاولين . وكذلك تصدقه رموز ألوف الارهاصات الكثيرة المشهودة، وكذا تصدقه دلالات معجزاته من أمثال: شق القمر ، ونبعان الماء من الاصابع كالكوثر ومجى الشجر بدعوته ونزول المطر في آن دعائه، وشيع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والحمل والحجر، الى ألف من معجزاته كما بينه الرواة والمحدثون المحققون.. وكذا تصدقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين... وقوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته، وكذا كمال وثوقه بشهادة سيره ، وكمال جديته وكمال متانته ن وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة إطمئنانه .. تصدقه كالشمس الساطعة في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه الحقيقية".⁶

ان وجوه الاعجاز للقرآن الكريم قد فصلت في كليات رسائل النور تفصيلاً واضحاً: بان القران الكريم قد أنزل الى امي p، الذي ذكر بلسانه حالات وحوادث بالغة في الهمية، مبينا ما يصدق التوراة والانجيل فيقول:

"نعم . ان القرآن الحكيم، بلسان امي أمين بالاتفاق يذكر اخباراً من لدن آدم عليه السلام الى خير القرون، مع ذكره اهم احوال الانبياء عليهم السلام واحداثهم المهمة، يذكرها ذكراً في منتهى القوة وغاية الحد، ويتصدىق من الكتب السابقة كالتوراة والانجيل فيوافق ما اتفقت عليه تلك الكتب السابقة ويصحح حقيقة الواقعة ويفصل في تلك المباحث التي اختلفت فيها".⁷

وبدع الزمان يولي تعظيماً واحتراماً كبيراً للصحابة الكرام وبيّن باهم افضل البشر بعد الانبياء عليهم السلام الذي وصفهم الله تعالى في التوراة والانجيل. فيثنى عليهم. قائلاً: "لا يبلغ احد من حيث الفضائل الكلية منزلة الصحابة الكرام الذين اثنى الله تعالى عليهم في قرآنه المبين ووصفهم في التوراة والانجيل، كما هو في حتم سورة الفتح"⁸

وعمضي النورسي مبيناً بان امر ظهور خاتم النبيين سيدنا محمد p في آخر الزمان امر ثابت في الكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور فيقول:

"إن ما أخبرت به التوراة والانجيل والزبور وصحف الانبياء عليهم السلام عن نبوة محمد p هو ثابت بنص القرآن الكريم.

4 - انظر سورة الصف : 6

5 - انظر انجيل يوحنا 7/16، 12، 13، 14 تكفي جملة واحدة من جمل الإنجيل بالغرض وهي: "إنه سيحلني" الواردة في انجيل يوحنا 14/16 ولزبد من المعلومات يمكن مراجعة الرسالة الحميدية لحسين الجسر، وكتاب احمد ديدات " سيدنا محمد في العهد القديم والمجديد. وكتاب الأناجيل الأربعة لشعبان كوزكون استانبول 1991 (بالتركية)

6- كليات رسائل النور - الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي /255-256

7 - الكلمات/ 468

8 - الكلمات / 573 ذيل الكلمة السابعة والعشرين

نعم، فما دامت تلك الكتب كتباً سماوية، واصحابها هم انبياء كرام عليهم السلام، فلا بد ان اخبارها عن سببى بالنور الذي يأتي به نصف المعمورة، وينسخ الاديان الاخرى، ويغير ملامح الكون، اقول لا بد ان ذكرها لهذه الذات المباركة ضروري وقطعي. " ⁹ ويصل بإفادته هذه الى نتيجة مقنعة ومعقولة.

وبعد عرضه للتحليل حول الكتاب المقدس، وايضاحه لعدم محافظة تلك الكتب على وضعيتها الاولى التي كانت عليها حين نزولها، يحيل النورسي النظر بان هذه الكتب لا تشبه القرآن الكريم قائلاً: "لقد خالطت آيات التوراة والانجيل والزبور كلمات غريبة عنها لتوالي ترجماتها، والتباس كلام المفسرين وتأويلاتهم الخاطئة مع آياتها، حيث ان آياتها ليس فيها الاعجاز الذي في آيات القرآن الكريم، فضلاً عما قام به الجهلاء وذوي الأغراض السيئة من تحريفات في تلك الكتب، فزادت من تلك التحريفات حتى ان العلامة المشهور رحمة الله الهندي ألزم الحجة علماء اليهود والنصارى باظهار الوفاء من التحريفات في الكتب السابقة." ¹⁰

ان اهم النقاط الملفتة للانتظار هنا في هذا الموضوع، هو التباس آيات الكتب المقدسة مع كلام المفسرين و التأويل الخاطئ الى درجة لا يمكن معها فرز الايات عن كلام المفسرين . فهذا امر ذو اهمية بالغة للكتب المقدسة.

لم تبق الكتب المقدسة مصوناً عن التحريفات والتغييرات فضلاً عن الالتباسات. واهم دليل على ذلك هو النصوص الموجودة بين ايدينا في يومنا هذا. ومع هذا القدر من التحريفات في هذه الكتب يمكن استخراج ادلة وبشارة الانجيل على نبوة محمد p: "نعم ان عيسى عليه السلام قد بشر بمحمد p" ورسائل النور تذكر هذه الحقيقة بجملة الواجزة المكثفة والقصيرة. ¹¹

ولم يكتف ببيدع الزمان بذكر الدلائل الثابتة المنصوصة في الكتب المقدسة حول نبوة محمد p بل قام بذكر اصول هذه النصوص في الكتب المقدسة بشكل ووضحها وقدمها كحجة ثالثة كالتالي:

1- هناك آية في الزبور ما معناه.

"اللهم ابعث لنا مقيم السنة بعد الفترة" ¹² ومقيم السنة يقابل اسم "احمد" وهو من اسمائه p

2- وهناك عبارة في الانجيل:

"قال المسيح ابي ذاهب الى ابي واييكم ليبعث فيكم الفارقليطاً" والفارقليط يعني هنا "احمد". ¹³ وان مصطلح "الاب" المذكور في هذه الاية اشارة الى الله (حاشاه) في علم المصطلحات الالهية المسيحية.

وآية اخرى في الانجيل:

"واني اطلب من ربي فيعطيك فارقليطاً يكون معكم الى الابد" ¹⁴ والفارقليط : الفارق بين الحق والباطل وهو اسم النبي p في تلك الكتب.

3- اما في التوراة:

9- المكتوبات - المكتوب التاسع عشر، الاشارة السادسة عشرة

10 - المصدر السابق - الحجة الثانية / 220

11 - المصدر السابق . اضافة انظر الى ابن سيد الناس، عيون الاثر 2/ 26 القاضي عياض، الشفاء، 1/ 364 ؛ علي القاري، شرح الشفاء / 745

12- المصدر السابق / 222

13- المصدر السابق / 222 وانظر كذلك السيرة الحلبية 1/ 352 والرسالة الحميدية / 250 والمواهب اللدنية للسفطاني / 6 / 201

14- وانظر ايضا شرح الشفاء / 1 / 748؛ يوسف النبهاني، حجة الله على العالمين / 99؛ انجيل يوحنا 14 / 16

وهي الكتاب المقدس لليهود فقد وردت نبوة محمد p الذي يبعث في اخر الزمان كالآتي:
 “ان الله قال لابراهيم ان هاجر تلد ويكون من ولدها من يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة
 اليه بالخشوع”¹⁵ وكما هو معلوم ان النبي محمد p أت من آل ابراهيم عليه السلام.
 ويقول بديع الزمان سعيد النورسي بان الكتب قد عبر عن اسم محمد p باسما سريانية ضمن اسماء
 عبرية فمثلاً: (مشفح، مُنَحْمَا، حَمِيَاط) وغيرها من الاسماء التي ترد بمعنى محمد في اللغة العبرية. اما
 الاسم الصريح (محمد p) فلم يأت الا نادراً، وهذا قد حرّفه اليهود لحسداهم وعنادهم.¹⁶
 وآية اخرى من التوراة:
 “محمد رسول الله مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه الشام. وامته الحمادون”¹⁷ والاستاذ بديع
 الزمان يفسرها بانه يخاطب النبي p الذي يأتي من بعد موسى ومن بني اسماعيل عليه السلام الذي هو
 اخوة بني اسحاق عليه السلام فهذا هو التفسير المنطقي.
 هذا وما شابهها من التفسيرات يدل على ان الاستاذ النورسي يولي اهمية للكتب المقدسة.
 وفي آية اخرى من التوراة:
 “عبد الله المختار ليس بفظ ولا غليظ” والمختار هنا اشارة الى المصطفى وهو اسم من اسماء النبي
 .p

وفسر بديع الزمان تفسيراً قيماً لهذه الاية في التوراة:
 “وقال: جاء الرب من سيناء واشرق لنا من ساعيرا ستعلن من جبل فاران ومعه الوف الاطهار في
 يمينه”¹⁸
 قائلاً: “هذه الآية مثلما تخبر عن نبوة موسى عليه السلام باقبال الحق من طورسينا، فهي تخبر عن
 نبوة عيسى عليه السلام بـ “اشرق لنا من ساعيرا” وفي الوقت نفسه تخبر عن نبوة محمد p بظهور
 الحق من فاران التي هي جبال الحجاز بالاتفاق، فالآية تخبر بالضرورة عن نبوته p. واليوم نشاهد ان
 الذين يحللون هذه الاية يأتون بتوضيحات مشابهة بتوضيحات الاستاذ المكتوبة قبل عشرات من السنين.
 4- اما في الزبور:

من المعلوم ان الزبور كتاب منزل على سيدنا داود عليه السلام. فلا توجد امة تابعة بكثرة لداود
 عليه السلام، كما ليس هناك من يكتفي بقراءة الزبور فحسب. ومن بين الكتب المقدسة هناك كتاب
 مسمى بالزمور ويشمل ما يقارب 150 زموراً. واليهود والنصارى لا يزالون يواصلون قراءة هذه
 النسخ كادعية في عباداتهم. وفي هذا الكتاب تقرر مجيء محمد p بعد النبي داود عليه السلام بهذه
 العبارة “يا داود! سيأتي بعدك نبي اسمه احمد، محمد وصادق وسيد. وامته مرحومة”¹⁹ واكتفى
 النورسي بنقل الاية دون الرجوع الى اي تأويل او تفسير يذكر. ليسوق القراء الى التفكير والتدبر.
 {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم... ذلك مثلهم في التوراة
 ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطنه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم
 الكفار...} (سورة الفتح:29)

15- انظر الى نفس المعنى: التوراة، التثنية 1/33، شرح الشفاء 1/743؛ حجة الله على العالمين / 86

16- المكتوبات - المكتوب 19 وانظر اللمعة السابعة من اللمعات كذلك

17- المصدر السابق. وقد بشر بقدم “سيد العالم” اي محمد p بعد النبي عيسى عليه السلام في اماكن متعددة من الانجيل .

18- التثنية 1/33

19- المكتوبات / 224، اضافة انظر الى السيرة الحلبية؛ وحياة الصحابة للكاندهلوي، 18/1؛ ابن الكثير، البداية والنهاية، ص:

يورد بديع الزمان هذه الآية القرآنية ويذكر انها تماثل الآية في الانجيل: "سيأتي من هو صاحب السيف مأمور بالجهاد" فيدعو قومه الى الدين الخفيف، ويفرض الجزية على من يبقى على دينه ويجاهد الكافرين بالسيوف.

ويفسر بديع الزمان هذه الآية الآتية في الانجيل: "لا اتكلم ايضاً معكم كثيراً لان رئيس هذا العالم سيأتي، وليس له في شئ او ليس له عندي مثيل"²⁰ قائلاً:

"نعم، انه هو سيد عظيم حقاً؛ اذ يدوم سلطانه الفأ وثلاثمائة وخمسين سنة وله اتباع في كل عصر بعد عصره يزيدون على ثلاثمائة وخمسين مليوناً من البشر(اما اليوم فقد ارتفع هذا الرقم الى اكثر من مليار من البشر)، وقد نشر رايته في نصف المعمورة ويجدد معه اتباعه البيعة يومياً في صلواتهم وسلامهم عليه وبكل استسلام واذعان وينقادون لاوامراه"²¹.

يعلن النورسي هنا مرة اخرى ان الاسلام سيحضر منتسبيه انحاء العالم ويصل الى اقاصي الارض مطلقاً تحت رايته في العالم اجمع . وسيكون المستقبل لصالح الاسلام.²² وهناك آيات في الزبور بجانب التوراة والانجيل تدل على حاكميته p. فمثلاً في الباب الثاني والسبعين من الزبور هذه الآية:

"انه يملك من البحر الى البحر، ومن الاتمار الى اقاصي الارض، وترده الهدايا من اليمن والجزائر، وتسجد له الملوك وتنقاد اليه ، ويصلى عليه كل وقت ويدعى له بالبركة كل يوم. وتشع انواره من المدينة، وسيدوم ذكره ابد الآباد وان اسمه موجود قبل ان تخلق الشمس، وسيبقى اسمه ما بقيت الشمس"²³ ان هذه الآية صريحة وواضحة جلية الى درجة لا تقبل معها الايضاح والتفسير الا ان النورسي لنتظر كيف يوضحها:

"فهذه الآية صريحة في وصف النبي p، فهل جاء بعد نبي الله داود عليه السلام نبي غير محمد p الذي اعلن الدين شرقاً وغرباً وجعل الملوك يعطون له الجزية صاغرين ، وانقاد له الملوك والسلاطين انقياد خضوع ومحبة، وتوهب له الصلوات والادعية يومياً من خمس البشرية ، وبزغت انواره من المدينة؟.. فهل هناك غيره؟"²⁴

لقد دام نبوة عيسى عليه السلام مدة ثلاث سنوات وفي غضون هذه المدة قد اخبر عن نبوة محمد p في الانجيل بين حين وآخر مبينا دعوته وارشاده الناس الى الحق تلميحاً وموافقاً بما جاء في الآية القرآنية "وما ينطق عن الهوى" (سورة النجم: 3)

وهذه الآية في الانجيل:

"اذا جاء روح الحق ذلك، فهو الذي يرشدكم الحق كله، لانه لا ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بالآتي من الامور"²⁵

ورغم ما هو واضح وجلي بيان النبي عيسى عليه السلام هذا، فان النورسي يقول حول ما اشار اليه الكتاب المقدس باسما مختلفة للرسول الاكرم عليه ازكى الصلاة والسلام :

20- انجيل يوحنا 14 / 30

21- المكتوبات / 226. اضافة انظر الى اللمعة السابعة .

22- المكتوبات / 225

23- الزبور، 72، 8-9

24- المكتوبات / 225

25- المكتوبات / 226

”ثم ان في صحف الانبياء اسماء للرسول p تفيد معنى “محمد” “احمد” “المختار” “مصطفى” وذلك باللغة السريانية والعبرية:

ففي صحف شعيب عليه السلام؛ هناك: (مشفح) وهي بمعنى: “محمد” كما انه في التوراة اسم (منحمن) وهذا بمعنى اسم “محمد”. كما جاء في الزبور (حمباطا) وهو بمعنى نبي الحرم. وفيه ايضا (المختار)، وقد جاء في التوراة اسم (الخاتم، الخاتم)، وجاءت كلمة (مقيم السنة) في كل من التوراة والزبور. وفي صحف ابراهيم والتوراة: (مازمار) وفي التوراة ايضا (أحيد)²⁶. وقد اتفقتنا في هذه الايضاحات التي جاء بها النورسي معرفة الاسماء الاخرى للرسول p في اللغة السريانية والعبرية.

وكما هو معلوم فان النورسي يحاول حل بعض العضلات والالتباسات بشكل محاورات او يتناولها بشكل سؤال وجواب في رسائل النور. واليك نموذجا منها الذي يسرد النورسي فكره في موضوع بشاراة النبي عيسى عليه السلام بالرسول الكريم p:

سؤال: لَمَ بَشَّرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقُدُومِ النَّبِيِّ p أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَيْنَمَا أَكْتَفَى الْآخَرُونَ بِالْأَخْبَارِ عَنْهُ فَقَطْ؟

الجواب: لان الرسول الكريم p قد انقذ عيسى عليه السلام من تكذيب اليهود من افتراءهم الشنيعة، وانقذ دينه من تحريفات فظيعة فضلاً عن انه اتى بشريعة سمحاء بدلاً من تلك الشريعة التي ارهقت بني اسرائيل الذين لا يؤمنون بعيسى عليه السلام. ومن هنا تأتي بشاراة عيسى عليه السلام بالرسول الكريم p بانه سيأتي رئيس العالم..²⁷

وواضح جلياً ان بشارات عيسى عليه السلام في حق الرسول الكريم تحققت جميعها كما ورد. ونال الرسول الاكرم درجة “سيد العالم” ففي يومنا هذا يزداد المسلمون عدداً في مشارق الارض ومغاربها من جراء الاهتداءات المتواصلة وهذا بجد ذاته خير دليل عليها. ألم يخبر النورسي قبل سنوات عديدة بان المستقبل سيستسلم للاسلام؟ وكانت تلك الجملة تُلقى امرأ مستحياً وبعيداً عن المنطق. اما اليوم فقد اخذت طريقها الى التحقق. واكثر من يسعد بها هو النورسي نفسه وهو في الدار الاخرة. ان توجيه المسلمين الى فهم موقفهم تجاه اليهود والنصارى امر هام في توضيح المعاشرة معهم وازالة التناقض والبلبلية بينهم وحل العضلات التي تواجههم في العالم الآخذ طريقه الى التطور. فالذي كان يشغل اذهان المسلمين عامة، في اتخاذهم او عدم اتخاذهم اليهود والنصارى اولياء لهم والذي صرح به القرآن الكريم في سورة المائدة الآية 51: { يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتوهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين }..

ومع هذه الصراحة فقد سئل النورسي: كيف توصينا ان نكون ممن يتخذونهم اولياء؟ و النورسي يجعل القارئ المسلم يتأمل في الموضوع تأملاً جيداً حتى يوصله الى الاعداد الفكري والذهني ليصل الى الجواب المقنع الذي تنحل به هذه المعضلة فيقول:

“ كما يلزم أن يكون الدليل قطعي المتن، يلزم كذلك أن يكون قطعي الدلالة، مع أن للتأويل والاحتمال مجالاً، لأن النهي القرآني ليس بعام بل مطلق، والمطلق قد يُقيد، والزمان مفسر عظيم، فاذا ما أظهر قيده فلا اعتراض عليه.

وأيضاً، إن كان الحكم قائماً على المشتق، فإنه يفيد علية مأخذ الأشقاق للحكم. فاذن المنهي عنه في هذه الآية الكريمة هو محبتهم من حيث ديانتهم اليهودية والنصرانية... وإيضاً، لا يكون المرء محبوباً لذاته، بل لصفته وصنعتة، لذا فكما لا يلزم ان تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمة، كذلك لا يلزم أن تكون جميع صفات الكافر وصنعتة كافرة أيضاً.

فعلى هذا، لم لا يجوز اقتباس ما استحسناه من صفة مسلمة أو صنعة مسلمة فيه؟ فان كانت لك زوجة كتابية، لا شك أنك تحبها".²⁸

ويراعى لنا ان النورسي بوضعه الحل الاساسي للمسألة يثبت شمولية القران الكريم ودوام بقاء رسالته حتى قيام الساعة. وانه يلفت الانتظار الى العالم الذي يأخذ طريقه في التطور والانكشاف ويدي لنا امكانية تفسير القران الكريم حسب الازمنة.

وهكذا تُلمس فوائد حجة لفكر النورسي الذي قد بلغ درجة الكهانة ما اخبر به قبل اكثر من سبعين سنة من حيث علاقته باهل الكتاب.

"لقد حدث انقلاب ديني عظيم في العصر النبوي السعيد، وجه كل الأفكار والأذهان نحو السدين، فارتبطت بالدين جميع الحسيات والمشاعر، فكانت العداوة والمحبة تدوران حول ذلك المحور "الدين"، لهذا كانت تُشَمُّ رائحة النفاق من المحبة لغير المسلم. ولكن الانقلاب الحاضر العجيب في العالم هو انقلاب مدني وديني، فالمدينة والرقمي الديني يجذبان العقول كلها ويشغلاهما ويشدنان بهما جميع الأذهان فضلاً عن أن معظم غير المسلمين ليسوا ملتزمين إلتزاماً جاداً بدينهم اساساً... فعلى هذا فان محبتنا لهم ماهي الا لإقتباس ما استحسناه من مدينتهم وتقدمهم ولأجل المحافظة على نظام البلاد وأمنها الذي يُعدُّ اساس سعادة الدنيا، فهذه الصداقة اذاً لا تدخل قطعاً ضمن النهي القرآني".²⁹

ويشير النورسي بهذه الجملة انقياد الناس في المستقبل بالدين في غضون القرن الحادي والعشرين وذلك لدى محاورته البوليس الروسي:

"لقد بدأ ظهور ثلاثة انوار متتابعة في آسيا، في العالم الاسلامي، وستظهر عندكم ثلاث ظلمات بعضها فوق بعض، سيمزق هذا الستار المستبد ويتقلص، وعندها آتي الى هنا انشيء مدرستي. أمكن توقع دوام هذا الشتاء؟ ان لكل شتاء ربيعاً ولكل ليل نهاراً."³⁰

فلا حاجة لمزيد من الكلام بعد هذا كله. لقد تحقق تشخيص النورسي وخرج من طور القوة الى طور الفعل. فانقشعت الظلمات الحاكمة الحالية في الاتحاد السوفياتي بعد سبعين سنة تقريباً. فتبدل (كما عبر عنه النورسي ببلاغته) الشتاء ربيعاً والليل نهاراً.

ففي يومنا هذا تم قطع مسافة كبيرة في التحاور مع اهل الكتاب وخاصة بين المسلمين والنصارى وذلك بعد المجلس الثاني للفتاياتكان (1962-1965). فالنورسي قد تطرق الى هذه المعضلة المهمة قبل اكثر من 60 سنة في رسائل النور ولم يكتف بتقدم الحلول وانما بين طراز هذه المحاورات فأفاد:

" لا نجعل نقاط اختلاف ونزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى"³¹

فالنورسي يعرض بان اول من يجب معارضتهم هم الزنادقة واهل الإلحاد، ويسرد وجوب اتفاق

28- صيقل الإسلام - المناظرات / 399

29- صيقل الإسلام - المناظرات / 400

30- صيقل الإسلام - المناظرات / 371

31- الملاحق - قسطنطيني / 215

المسلمين مع المعتز من النصارى تجاه الملاحدة المتمادين في ضلالة الكفر وبمضي قاتلاً:
 " لقد ثبت في الحديث الصحيح ان المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان
 مستندين الى أهل القرآن للوقوف معاً تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا
 هذا ليسوا بحاجة الى الإتفاق الخالص فيما بينهم وحده ، بل مدعوون ايضاً الى الإتفاق حتى مع
 الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى ، فيتركوا مؤقتاً كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً
 لعدوهم المشترك الملحد المتعدي"³²
 فالتحاور الذي تمناه الاستاذ النورسي قد تحقق بلا ريب، فاجتمع الطرفان في حوزة واحدة³³
 متوسلين لايجاد حلول المشاكل المتلاحقة التي يعاني منها العالم واتفقا ليكونا السد المنيع امام الكفر.
 ولا شك ان الايمان هو العامل الوحيد الذي دونه لا يمكن الوصول الى الحلول السليمة. وهذا ما يقبله
 كل من له مسكة عقل.

ترجمة : دنجر قورقماز

32- اللمعات /هامش 229

33- لمزيد من المعلومات انظر: محمد آيدين ، المجلس المسيحي العام ، قونيا ، 1991. . علي اسرا كونكور، المحاوره ، انقره
 1997 (بالتركية)

سعيد النورسي .. في رحاب القرآن

أ.د. عشراقي سليمان*

سعيد.. الطاقة التي تستمد قوامها الروحي والمعنوي من السماء. كانت حياته تجليات حية، ارتبطت بتمجيد الله — عز وجل — والتواجد بأسرار آياته البينات، سواء المسطور منها في القرآن العظيم أو التي تعكسها ظواهر الكون الحسي وخفاياه.. فهذه الروح التي تتحدى القيود والتكبيلات الاستبدادية باستمرار.. ما كان أرقها وأسرعها إلى الإدماج كلما ربطها بالخالق وبآثار عظمته الخارقة، موقف تأمل ولحظة إعتبار..

الأنا بين التعدد والإحساء..

لقد بلغ هذا الداعية الصلب منزلة الإحساء في حياته، وانعكس ذلك على كتاباته، فلا تكاد تلمس للذات ولتجربة العمر شيئا إلا ما جاء تكوة لتوضيح تجربة شخصية رجحت روحيتها، أو الكشف عن واقعة ضيق طارئة اكتنفه فيها ظل اليقين..

لكن هذه الذات تحضر بكثافة حين يغدو الموقف تأمليا، عندذاك تجد الخطاب يصطنع الأنا، وتجد المشهد يتملمع حيالك بجغرافيته وتاريخه، ذلك لأن الذات هنالك تكون بصدد أداء شهادة حق، عما غنمت من جراء معاشيتها لأحوال التأمل وتواصلها بالملكوت وبجلاله..

فالأنا عندئذ (أنا) مجرد، لا يحيل على الفرد المادي ذلك الذي تراقبه العيون، وتكبل حركته القيود السلطانية، لما ترى فيه من خطر على وجودها، بل الأنا في ذلك المقام هو — في ذاته — معلّم من معالم التجلي، وشاهد من شواهد العبرة والإبانة التي هيأ الله لها أن تسفر وتتكشف على لسان عبده المشدود إلى الملكوت برابطة اليقين..

ولا غرو أن تتجرد الذات الفردية من الإحالة على فرديتها، إذ أن تعيين تلك الذات نفسها قد اتخذ مستويات وصفات تطويرية انسجما مع حقيقة التطور والارتقاء التي عاشها الداعية في تدرجه مع

* من مولى الجزائر سنة 1946 دكتوراه دولة في أدبية الخطاب القرآني واستاذ كرسي الدراسات القرآنية والمقارنة بين السديانات في جامعة وهران ورئيس جمعية الدراسات القرآنية وإحياء التراث ومدير عام مجلة الحداثة بمعهد الآداب بوهران ومؤسس مجلة الدراسات المغاربية ومدير تحريرها ومدير تحرير حوليات جامعة وهران ونائب رئيس جمعية المغاربة لإدماج العلم والتكنولوجيا في التنمية وله ثلاثة كتب مطبوعة ومقالات كثيرة

العمر والتجربة.. فهو سعيد القديم، وهو سعيد الجديد، وهو سعيد الاستشراقي.. وكل ذلك كرس لديه واقع التجرد والتخلي عن الأنا الحسية، الأنا المبتذلة التي لا يعدمها الفرد البشري.. والحقيقة أن في هذا الترقى المرحلي إحالة ضمنية على الترقى الروحي الذي يقرره أهل السلوك وأصحاب الطريقة.. لكن سعيدا النورسي لا يتماهى في تلك الخطة بسلمها السلوكي التحصيلي المقرر، ولكنه يثبت التحول المرحلي الذي تسجله شخصيته في مضممار المدارك وجلاء الرؤية، من خلال النضج النفسي والأدبي والمعرفي، ليرسم فوارق عقلية وروحية مرحلية وسمت تجربته الحياتية وصنفتها ثلاثة، ارتبطت ظاهرا بالسن.. إذ الأمر في تجربة الداعية يتجاوز نشدان الموقفية السلوكية، وصولا إلى تلك الذروة من التحول الروحي الذي تتحقق به فذاذة الإنسان المتحرر من القيود والمواضعات.. ومن سائر تلك الأشرط التي لا طائل للروح والعقل من ورائها..

فهو تحول لا يقتصر على الجوانب الوجدانية فحسب، ولكنه انبثاق عملي مرحلي تترتب عنه ارتقاءات استبصارية نوعية تأخذ فيها حياة الداعية — وفي كل منعطف — وجهة مميّزة لسابقتها على الصعيد الروحي والسلوكي معا..

من هنا كان ذلك التحول الإرادي المطرد، خاليا من الصبغة الإستقالية، التنصلية التي يطوي بها المرء صفحة من عمره، تكيفا مع واقع مستجد أو مجارة لاعتبارات انتسابية طارئة..

وحقا إن النورسي قد ظل يتحدث عن ماضيه بارتدادات تجردية، ومن خلال اصطناع لسان سعيد القديم، ولكن تلك الحال لا تؤكد تنكرا لذلك الماضي، بقدر ما هي اعتراف بأن حد النضج الروحي لديه لم يكن يومها على الإستواء المطلوب، وأن الحاجة الملحة ظلت تدعوه باستمرار إلى أن يدخل التعديل الضروري على أفكاره ورؤيته وفق منطق الترقى والتطور الذي يأخذ به..

وتلك إحدى تجليات القانون الإلهي الجسد لمبدأ التزكية.. تزكية النفس من خلال ما يمنحه إياها العامل الزمني والجهد التحصيلي من أسباب التفوق، ونتيجة للشفافية الروحية والخلوص العقلي اللذين تكتسبهما عبر المسيرة، وذلك ما يحصف الرؤية لدى الانسان ويرشد الفعل..

بل لقد طفق النورسي يعلن — من خلال تلك الارتدادات نحو ماهيته القديمة — أنه لم يعد مؤهلا للخوض في موضوعات تمس الحياة كما يتعارف عليها الناس ويمارسونها.. من هنا رأينا — في بعض المواقف — ينعي على نفسه حتى الاهتمام بإسداء النصح لأتباعه، لما يراه في ذلك الاهتمام من اشتغال بغير ما رابط له وتجدد من أجله..

وربما رأينا يتناول الحديث أحيانا عن شخصيته، ويكشف عن منازعها وعن نظامها المعيشي والاستجمامي وعن غير ذلك مما يتعلق بمسائل حفظ الذات وضمان البقاء.. لكن ذلك الحديث كله يظل ضمن حدود التنبيه الإيعازي الموجه، ولا يخرج قط عن نطاق التجرد الذي إلتمه الداعية عن إخلاص.. فما كان يُفصح عنه في مواقف الحميمية أحيانا، لا يعدو الإشارة إلى جانب حسي ينسدرج في برنامج حياتي مكرس للعبادة والاندماج في جو الروح..

لقد تكاملت التجربة الروحية وأخذت إطارا حياتيا يلتقي طرفاه في نقطة تعبدية، لا مجال فيها لغير ذكر الله والانسحاق في سبيل الدعوة إليه.

ورغم ما أدركه النورسي — في مجال قمع النفس وترشيدها، وحملها على الأخذ بنظام التجرد والإحتساب الى الله — من منزلة أدرجته في زمرة الروحانيين، إلا أنه ظل مترفعا عن السقوط في شرك الذاتية بمعناها الغروري، متأبيا عن الإقرار بأن يكون له امتياز شخصي أو قربي غيبية..

لقد طفق النورسي يعلن للأتباع والمحبين بأنه شخص عار من الكرامة، وبأنه مثابر على العبادة رجاء نيل رحمة الله، وأن ما كانوا يعتقدونه فيه من سامي الأحوال والكرامات، إن هو إلا روح القرآن، تتوهج في قلبه فتضفي عليه ما يلمسونه فيه من اعتبارات..

ولقد رأيناه — على صعيد آخر لا يكف عن الاعتداد باستقراءاته واستباراته للآيات القرآنية، وربما كان ذلك هو المنزوع الإعتزالي الوحيد الذي نحس أن النورسي يشهر فيه ذاته..

والحقيقة أن وعيه الانضباطي، وتجرده الصارم، لا يزاولانه حتى في ذلك الموقف، إذ لا نفتأ نراه يسارع باستمرار الى نفي أن يكون له شأن في ما يقرر وما يستخلص من أحكام وتجليات قرآنية، مؤكداً أن ما يصدر عنه من تخریجات ومن قراءات لأي ذكر الحكيم، إنما هو نور الإيمان يتبلج في قلبه وروحه، ويتكشف على لسانه، على نحو معجز، وأن الفضل في ذلك لله ولنورانية القرآن..

لقد راح النورسي — المرات الكثرات — يصرح بأमितه، وبقصوره عن أن يستحصل من القرآن ما استحصل، لو لم يكن الأمر توفيقاً من الله وتسديداً..

من هنا اكتسبت تأملاته صبغة المكاشفة والتجلي، إذ أن النورسي ما يفتأ ينسلخ عن فرديته كلما تصدى للتأمل والتفكير في الكون وفي القرآن.. فما من إشارة تمثل له، إلا وراعاها وجه الله.. لذا كانت حال تواصله مع الله حالاً ملازمة، وذلك لتواصله الدائم مع النص القرآني.. وهو ما جعل تقريرات القرآن العظيم حاضرة في ذهنه كلما تأمل مشهداً من محسوسات الكون ومن تجليات الطبيعة..

لقد غدت الفوائد تنبجس له من كل موقف قرآني، وغدت النشوة تبعث في قلبه كلما لابس الحقيقة الإيمانية، وما أسرع ما كانت روحه تتفتق عن جلاء استشراقي باهر، ولا يعتم عقله — في تلك الحال — أن يبحر في رحاب من المعاني لا تفتأ مساحة المدارك اليقينية تتوسع حياها.. وهو ما يعطي للموقف التدبري طابعا تواجديا، يجعلنا نستشعر آثاره الروحية تتدفق في كتابات النورسي وتطبيقاته التي يتأول بها الآي والمشاهد القرآنية، بحيث يبدو لنا وكأن الداعية النورسي يقف حقاً في مواجهة الخارق، وأن روحه تخوض غماراً استشرافياً ملكوتياً يسد الإلهام الرباني الطاهر خطاها فيه..

القوامة العقلية ورجاحة التأويل..

على أن تواجهه بالآيات وبالأسرار القرآنية كان يعمق من الرجاحة الفكرية التي توطدت لديه في كل مشاهد التأمل.. وهي رجاحة لم تخطئه طيلة حياته.. فقد مضى — حتى بعد أن تجاوز الثمانين — يجدثنا عن خلجاته وخواطره وعمما يعن له من أفكار تنويرية، سواء في حضرة الدرس القرآني — شغله الدائم والمركزي — أو من خلال انطباعاته الخاصة واستجاباته للاحداث التي كانت تمس حياته وهو يعيش العزلة.. لقد كان يجدثنا عن ذلك بعقل مسدد وببصيرة يقظة لم تنل منها الحوادث ولا السنون.. لقد ظل النورسي يفاعل القرآن من موقع المتعبد، وهو ما جعل نشاطه التأملي يأخذ بمدى القوامة العقلية في ما كان يتناوله من الموضوعات — سواء منها الحياتية، أو تلك المتعلقة بالغيب وعماء وراء المدرك — وتيقظت لديه روح التدبر في مجالي الحكمة القرآنية، وفي ما ينبغي أن يكون عليه واقع المسلمين، وما يكتنف العالم من حولهم، من شر وتوقان الى الهيمنة والتنجير.. يفعل ذلك وهو يياشر ألواناً من الكشف الفكري النير، وسيلته في ذلك التحليل وضرب الشواهد واستنباط مكنون الآيات المنزلات، وربط الأواصر بين معانيها المسطورة في الكتاب والمنقوشة على صفحة الكون، للدلالة على القدرة الإلهية واستلهاهم حجج اليقين منها جميعاً..

كما طفق يستحضر سيرَ الرموز: النبي p ، وآله، والطيبين من أتباع سنته الشريفة.. تلك الزمير
المتباه التي ظلت تمثل لفكر النورسي مددا ارتكازيا يدعم به همته كلما نالها خلال المراقبة في الثغر..
نغر الترشييد والعبادة والتبتل ..

المجاهدة الروحية والمطمح الحضاري القويم.

وإذ كان أهل السلوك يبغون في مجاهداتهم الغنم الشخصي، ومن أجله يتجشمون الفناء
والإحشاءات.. فإن النورسي كان وازعه ارحب من ذلك المطمح الشخصي وأبعد غاية، وهو لذلك
كان ذا مهمة أبلغ في المعاناة، إذ أن الفناء الذي كان يمارسه على ذاته، كان جزءا من الرسالة العليا
التي وقف نفسه عليها، إذ لم يكن الفناء مطلبا ترتكن إليه النفس استمراءا للذة اللقاء، وتمتعا ببرد
السكينة بعد جهد المسار، بل كان عناءا من أجل ترسيخ رؤية حضارية تبني قواعدها على طهارة
إيمانية، شمولية، لاشائبة منزعجة فيها، إلا الإذعان لوصايا رب رؤوف بالمؤمنين من كل جنس رحيم..
إن الاستصفاة الروحي الذي نشده النورسي كان استصفاةا مدنيا جمعيا، إذ أن الترقى بالامة كان
يقتضي حتما المصي بأفرادها وجماعاتها في طريق الإيمان.. وهو ما يجعل من سيرة كل فرد، شرطا
يتوقف على صلاحه ومثاليته وانسجامه مع مبدأ الحق والعدل، بلوغ القصد الحضاري المنشود.. فالمسألة
الوجودية عنده تلحم حياة الانسان الدنيا بحياته الأخرى برباط عضوي، ولا بد لمن شاء أن يكون مقامه
في الآخرة عليا أن يسعى لإعلاء موقعه في دنياه، وهذا بالتزام أوامر الله ونواهي، أي بالانخراط ضمن
دائرة من وعدهم الله بقوله: الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم روضات الفردوس.

النورسي غزالي عصره وحجة زمانه .

وقد تبدو المفارقة في موقف النورسي من خلال النهج الاجتماعي الاعتزالي الذي سلكه، والذي
هجر في ضوءه، حياة التبذل الحفلي، والانتماءات السياسية والمذهبية.. إذ قرّ في الأذهان أن التأثير
الفعلي والتغيير البناء إنما يتحققان من خلال الملابس الاجتماعية، والخوض في غمار الجدل، واحتراف
المضاربات بأنواعها الدينية والفكرية والحزبية..

وربما ضربوا المثل بشواهد التاريخ، فعابوا سلوك كثير من أعلامنا وصلّاحنا على عزوفهم عن
الحياة والتخلي عن واجباتهم الحيوية وعدم مشاركة الأمة أعباء التصدي، أو بالأصح، عدم توجيهها
التوجيه النير الذي كان يخلصها من كثير مما عانت عبر حلقات تاريخها..

وإذا كان هناك من يلوم الغزالي — أستاذ النورسي الروحي — على انقطاعه عن الناس وإعراضه
عن الحياة في وقت كانت دواعي التوعية والنفير أكثر إلحاحا، لا سيما من قبل النيرين وأهل الصلاح
أمثاله.. فإننا ما زلنا نستصوب النهج الذي اختاره ذلك الإمام الحجة، لأنه كان على غاية من الإدراك
بواقع الخمول الذي ضرب أطنابه على الأمة وأعاقها عن الحركة والتصدي، فكان عليه — هو العالم
المسلم المستنير — أن يواجه الحالة بما قدر لها من تعهد وعلاج يلائمها.. فكانت كتبه أفضل ما أمكنه
أن يسعف به وضع الإتهار الذي كان يودي بالامة..

وبعض النظر عن الآثار الفورية أو الأجلة التي كانت لذلك العلاج النظري، إلا أن الثابت أن ما
كتبه الغزالي ما يزال يحمل من أسباب التداوي والإحتماء، ما يمكن أن يفيد في مواجهة كثير من
أوضاع الترددي التي ما زالت تلازمنا إلى اليوم..

بل لقد تعمقت أسباب البلاء وتفاقت في عصرنا الراهن، نتيجة طغيان البالوعة الحضارية التدينسية الصهيونية — الغربية، واستفحال جبروتها التكنولوجي المتصاعد، ما يعطي للوصفة الروحية — كما قررها الغزالي — قيمتها ونجاعتها ودوام نفاذها في مجالات روحية وحضارية عديدة..

وشأن النورسي شأن شيخه الغزالي من حيث الاشتراك في ملابسات متعددة، إذ كلاهما اختار حياة العزلة من أجل أن يكون تسديده على أكمل وجه من التجرد والحصافة، وكلاهما رأى في استخدام سلاح القرآن وسيلته التي تفيد في تغيير ما بالأمة من أدواء، وكلاهما سلك سبيل التنوير والتبليغ، موسعا دائرة عمله عبر المدى الزماني والمكاني، بحيث ضمن لتعاليمه الحضور والديموم من خلال كتاباته وتبليغاته، وذلك هو سر الحفاقة التي تنهياً للتعاليم الروحية، إذ تتصدى لمعالجة التحديات المصيرية بصورة دائمة ونافذة حتى بعد رحيل أصحابها، فالعقل ماهية روحية لا تفنى، شريطة أن تجتاز عتبة الاستبصار..

لقد كان النورسي يرى في الغزالي أستاذه ورائده في الإصلاح، لا لتماثل في التجربة وتشاكل في الاعتقاد فحسب، ولكن لأن الغزالي كان إحدى وسائط الصلة الروحية التي ربطت النورسي بالعلين من السلف، وفي طليعتهم الإمام علي رضي الله عنه.

لقد كانت سيرة الغزالي العقلية وتراثه الفكري وتجربته الروحية والحياتية جميعا تحيل النورسي على شخصية الإمام علي الفذة وعلى مكنوزاتها من رفيع المثل وسامي القيم.. من هنا رأينا النورسي يؤكد صلته بشيخه الغزالي ويصرح بأنه هو "أستاذي الوحيد الذي ربطني بالإمام علي.

بل لم تقتصر افشاءات النورسي على هذا الاعتراف، وإنما ظل دائم التنويه بالغزالي وتأكيده الانتساب اليه..

بل لقد وجدناه يوكل الى رسائله وطلابه مهمة المضي على درب الصلاح الذي سلكه الغزالي، وهذا بدعوتهم الى تعهد المبادئ السنوية التي تعهدا حجة الاسلام.. يقول النورسي:

"إن مهمة رسائل النور وطلابها هي الحفاظ على مسلك أستاذهم حجة الإسلام الإمام الغزالي"¹.

وإذا كان الغزالي قد عدّ مجددا روحيا من أولئك الأخيار الذين يهيمهم الله — من عصر لآخر — لبعث الحرارة في الدين وإحياء روح الشريعة، فلا جرم أن سعيدا النورسي كان مشاكلا لشيخه في المهمة التجديدية التي أناطها بنفسه، وكان امتدادا له في المقاصد التي توخاها، وان بدا هناك من فرق بينهما، فهو في منهج كل منها، وفي ما قيض الله من سبيل لكل منهما، من أجل أن ينشر تعاليم الاسلام ويوصلها الى المسلمين.. فعزلة النورسي قامت على دعامة بث الرسالة من خلال الوسيط الفعلي، الحي، أي من خلال التلميذ والمريد، فيما عدت عزلة الغزالي هذا الارتكاز الفعال، وذلك بسبب الظروف التاريخية التي كانت تحول بين الداعية وبين خلق المدرسة والأتباع العاملين.. ولا يعني هذا ان ظروف النورسي كانت تساعد على اصطناع القاعدة البشرية الحاملة للشعار، ولكن ذكاءه وحكمته ووعيه بحجوية البث المباشر والفوري، كانت تحمله على أن ينفذ برنامجه التجديدي، التنويري، على مستوى تنظيمي دقيق، وفي كنف من التحوط المحكم، وهو ما جعله يحيا عمر النضج في المنافي وفي الاحتجاجات، الأمر الذي ظل يدفعه الى العمل — بكل عناد ومغالبة — على تجاوز وضع المصادر والحجر، فكان له في وسيلة المراسلة وتلقين الأتباع، ما كفله له الوصول الى الناس، وتخطي العوائق، ضامنا على ذلك النحو الدينامية لأفكاره.. وربما أفاد في هذا الجانب من التجارب التاريخية — لا سيما

تجربة إخوان الصفا — ومن النضالات السياسية في عهده، ومن برامجها وخططها في التوعية، ومن التأثير الإذاعي الإعلامي الذي استحدث يومئذ، ومما كان يراه لوسائل الإعلام من فاعلية آنية، من حيث التأثير، زيادة على ما كان يلمس من جدوى ونباعة، للترشيد المسجدي القائم على التواصل مع المستمعين..

لقد نظر كل من الغزالي والنورسي الى الحقائق الروحية بعقل استشرافي، وبسداد تحقيقي، أذ رأيا معا أن الطريق الى الله لا تنحصر بوجهة من وجهات البر دون أخرى، وإنما يكمن الاختلاف في طول الطريق او قصره.. ولا جرم أن سيرة الإماميين تتواشجان، وأن الحديث عن أحدهما — هو في واقع الأمر — حديث عن الآخر إذ هما يتلاقيان في مضمار التنوير وتعزيد الدافعية الروحية والحضارية على أكثر من صعيد..

وإذا كانت الصورة قد قرّنت — خطأً — في كثير من الأذهان عن الغزالي، بأنه شخص جنحت به الحال الى التصوف والانقطاع عن الدنيا في وقت كان عليه أن ينخرط في الجهاد المادي ويحمل السيف ضد الصليبية.. فالمؤكد ان ما كتبه الغزالي عن التوكل والتصوف وعن فضائل السعي وكسب الرزق وعن الجهاد المادي والجهاد المعنوي، وعن الإيمان والمرحمة وعن التكافل.. تجعل منه — بحق — العالم البصير الذي كان يضطلع بواجب تقويم جذري حاول من خلاله ان يضع الأسس التي تسلك بالامة نحو طريق الحياة الحق.. فالأمة كما قدر الغزالي كانت تحتاج الى ترميم روحي قبل كل شيء، اذ لا جدوى من المكاثرة ومعاودة الوقائع النزالية ما لم يكن سلاح الأمة مشحودا بالإيمان.²

ولقد كان هذا هو — بالذات — الدرب الذي شقه النورسي في وجه الأمة، إذ اعتبر نفسه — بحق — حلقة أخرى في سلسلة أهل الإيمان ممن تزكو بهم العصور وتعطر الأطوار، من خلال فهمهم بمهمة التجديد والأنبعاث..

من هنا يمكن اعتبار النورسي حجة عصره، بالنظر الى الرؤية الجذرية التي عاين بها واقع أمته، والمنهج السلمي الفعال الذي ارتضاه اسلوبا للبناء، وخطه للعمل من أجل تحقيق سعادة المسلم.. هذا المسلم الذي أناط به رب العالمين مهمة نشر الخير وتحقيق العدل لصالح الأمة والإنسانية قاطبة، اذ الربوبية عند المسلم لا تقصي جنسا ولا تقول بالعرقية، ولا تمارس مفاضلة بين البشر إلا على اساس من التقوى والعمل الصالح الذي يشمل البشرية كافة..

لقد كان حجة الإسلام يُنهض في الآن ذاته، بمهمتين على الأقل: أن يعيد الأمل الى الأمة، وان يرسم لها الخطة السلوكية التي تتمدد بما على وجه إيماني يتسامي به الإنسان، ويطمح الى ان يكون خليفة الله في ارضه.. من هنا لا يمكننا إلا ان نثمن تراثه وننوه بذلك الحس الإنساني الثاقب الذي اتسمت به تعاليمه.. وان كتاب الإحياء مثلا، ليعدّ مدونة سلوك حضاري تم الإنسانية قاطبة.. وكان ذلك أفضل ما استطاع الغزالي ان يقدمه للأمة في مرحلة انبعاث متفاقمة..

ولا جرم ان يكون انقطاعه شبه المفاجئ عن الحياة المدنية، في وقت كانت الدنيا تبسم فيه لأمثاله ممن كان فحجهم بحمارة الحاكم وتزكية قرارات السلطة، بمثابة موقف إدانة للواقع المتهالك حياله، وتعبير عن رفضه له والإصرار على عدم مهادنته.. لذلك بادر الغزالي الى إخلاء الموقع، وهام على وجهه يتداوى من خيبته الوجودية بالتأمل واستراق السوانح، لكنه ظل مع ذلك يؤكد صلته العضوية بواقع أمته، من خلال ما كتب وما صوّب..

فسيرته الإعتزالية، تتضمن إرادة تقويمية كان يرى ان صلاح الأمة لا يتم إلا بها، اذ أنه أيقن ان صرحا من الاباطيل والترهات قد نشأ وحجب عن الأمة وجه الحقيقة، من هنا كان تصوره ينسب تحقيق سلامة الأمة بإعادة بناء معنوي ومادي تسترجع بها رشادها..

وذلك بعض ما تقاطعت فيه تجربة الغزالي مع نضال النورسي، اذ ان رسائل النور كانت بدورها معينا روحيا ثرا من التجليات ومرجعية ترشيدية فذة سعى من خلالها النورسي الى استنقاذ الأمة في مرحلة ماثلت في حثياتها الانحرافية والصراعية كثيرا من أوضاع العصر الذي عاش فيه سلفه الغزالي.. واذا كان الغزالي قد شهر الكلمة المحصنة في وجه الترددي، وجعل من الموعظة الحسنة والترشيد الروحي سلاحه، فان صلاح الدين قد شهر السيف والرمح، وجدد الأمة ونازل المعتدين باستماتة المؤمن الوثاق من ربه.. الأمر الذي مكنه من تحقيق النصر وإعلاء كلمة الله واسترداد الحقوق السليبية.. وكان على النورسي من جهته ان ينخرط في جهاد لم تكن اسباب التجنيد مهيأة له، لطول ما نال الأمة من هوان، جردها من شيمها وأودى بها في الحضيض.. وكان عليه ان يجابه واقع الأمية الفكرية والجهل المادي المتفشين في الأمة، وان يعمل على تجاوز احوال التفكك التي لا تساعد على التواصل والاستنصاح، وان يتصدى للعدوان الغربي والصهيوني ولقوى الشر المدسوسة والمتحالفة معه، والكائنة للإسلام او المناهضة له علنا وبلا موارد..

لقد كان على النورسي ان يناضل ضد اعداء الملة في الداخل وان يعمل على فك الارتباط الخطير الذي يربط أولئك الأعداء مع قوى البغي في الخارج..

من هنا طفق سعيد يواجه ضغوط النظام السياسي في بلده ويتصدى للمناورات الأجنبية التي كانت تستهدف تصفية مقومات الأمة وفي مقدمتها مرفق الخلافة وعزل القومية التركية عن اطارها الملسي، ومضى يناضل في ذلك السبيل بروح مصممة، لا تحيد قيد أملة عن أهدافها الإصلاحية المسطرة.. لقد كانت بسالة النورسي الإصلاحية — على الرغم من انقطاع المنهج عن السياسة — بسالة ميدانية، لا يمكن إلا ان تقوم بكل ما تقوم به البطولات المتصدية للظلم المتعدد الرؤوس.. لقد أدرك ان الفكرة تمر حيث لا يمر التيار الهوائي، لذلك برر ساحه بالانقطاع عن الحياة العامة، وتصدى من رباطه الروحي، للزيغ يقاومه، ولأنواع الترديات يصلح من شأنها.. وان هذا هو وجه الحكمة التي أوتيتها النورسي، إذ رفع راية الاسلام، وشن تحتها أعنى الحملات وأشرسها على البغي والرذيلة والجبروت..

وكان صبره وأناته وعمق بصيرته ومنهجه التنويري العقلي يلحقه بالغزالي ويضارعه به، لأن الغزالي ايضا سلك طريق السعي الى الحق بتجرد لا مرء فيه، بعد ان تخلى عن مغريات الحياة الفانيّة، واختار ان يصلح اعوجاجها من خلال ممارسة مهمة التنوير وان ينيط بمقاصده التربوية الأجيال كافة.. من هنا استرسلت التقارير القرآنية والاستنباطات الشرعية التي ما فتى النورسي يترسم بها للمسلم سبيل التوازن الذي يحفظ له كيانه، ويجعله يخرج من غمار الهزات الهدمية المتتالية، حيا، غير مباد روحيا.. ومن هنا ايضا ظلت الإحالة الى الغزالي تترى في رسائل النورسي، وظلت تفيسه حق التحلة والاعتراف، على ما أسدى لأمة في مجال الإحياء الروحي.. وبذلك تتأكد اللحمة بين الإمامين، ووحدة الغاية التي توخياها كلاهما.

كما انه وجد في مآثر الأئمة الأطهار علي بن أبي طالب وسبطيه الحسن والحسين، وفي ما تسلسل من العترة الشريفة من أختيار، وفي فضائل الأقطاب من أمثال الجنيد والجيلاني وغيرهما.. النماذج

الربانية التي اكتملت فيها شمائل المخلوقة الإنسية، وتجلت الكرامة الإلهية، فراح من خلال الاستدعاء المتكرر لسير أولئك الأقطاب، والاقْتباس من فيوضهم المعنوية، يمتن لحمة الإيمان في القلوب، ويستلهم المدد والمعايير..

وطبيعي — بعد هذا وذلك — ان يكون المثل الأعلى الذي تتجلى لسعيد فيه صورة الكمال والقوامة الإنسانية المطهرة بيناييع الأصفاء الإلهي، هو شخص النبي محمد p، فقد ظلت مآثر الرسول p مجال استلهم واستحضار، تقريراً لحقائق الإيمان.. وربما تواتر حديثه عن معجزات الرسول p وهذا بقصد ترسيخ الجانب الروحي الغيبي الذي كان يريد الداعية ان يوطده في حياة كانت التسوسات الحسية المادية، اللادينية، تتاكلها من كل جانب..

النورسي حلقة في السلسلة الذهبية لأفذاذ الإسلام والانسانية:

ويمكننا من جهة أخرى استدعاء سيرة صلاح الدين، ومطابقتها، في مستواها البطولي، بسيرة النورسي، بل ان تقاطع هذه السيرة ليقرب — وفي أوجه نيرة عديدة — بين النورسي وطائفة من الإنسانيين ممن رفهم عالمنا المعاصر، وكان لهم تأثير نوعي في مجرى أحداث هذا القرن.. ولعل شخصية غاندي من بين هؤلاء الإنسانيين، تكون الوجه الأقرب والأكثر مشابهاً بالنورسي، لا من حيث تماثل الشعار السلمي والمبادئ الإنسانية التي ناديا بها، ولكن من حيث الرؤية والمنهج كذلك.. لقد كانت الروحانية الشرفية توحد بينهما، وكان مشعل الإسلام الذي حمله النورسي، مصدراً أساسياً من مصادر الاقتباس التي سمت بروحانية غاندي، وأضفت عليه روحا عالمية، خلّدت فكره..

لقد كانت حياة النورسي هجرة دائمة وراء الحق وملاحقة مستمرة للحقيقة، وكانت رهاناته الاصلاحية ميدانية وعلى نطاق ملي شامل، وربما شابه في تبتله الإرادي صنوه الروحي الأفغاني، إذ كلاهما عاش لقضية الإسلام والمسلمين في عصر استفز ذوي الهمم — وما أقل أهل النبوع منهم — وأهاب بهم ان يذودوا عن الاسلام ويدفعوا عنه المخاطر الداهية التي كانت تعمل علنا وبلاهوادة للاجهاز عليه همتا.. والواقع ان النورسي تزوج قضية المسلمين كافة، وكان له في تلاميذه أبناء واهل رويون عوضوه عن أبناء الصلب..

النورسي في المعمعان

الذود عن الإيمان ومجاهدة الردة والإلحاد، بناء للحياة الأمثل.

لقد كان من اولويات العمل التي نذر النورسي نفسه لها، تصديه للكفر والتغريب، ودحض حجج الإلحاد واللائكية المتسربة الى ثقافة الأمة والى فكرها، من خلال ما تبثه الدوائر الصهيونية والصليبية الحاقدة على الإسلام من قيم متهاكمة مستهتره لا تقيم للإيمان وزنا. فكان النورسي من ثمة يجسد في إحياء المآثور النبوي والإسلامي، وبعث ما يحوي من الخوارق والكرامات، ما يواجه به ثقافة الكفر والجحود..

فإزاء الجنوح المادي الإلحادي الذي تجندت القوى العلمانية لتكريسه، تمهيدا لتقويض أركان الصرح المادي والمعنوي (بما فيه مرفق الخلافة العثمانية)، كان النورسي يشهر قيمة الإيمان بالغيب، إذ وجد في ترويح معجزات الرسول وكرامات الصحابة ما يساعد الدعوة على احتواء شرور الإلحاد المهياة لتكريس روح التخاذل والانبطاح..

بل لقد التفت الى فضائل الأنبياء والمكرمين وراح يستعرضها لغاية إيمانية ملحة.. ففي وقت شبت فيه نيران الإلحاد، كان على ثقافة الإيمان ان تعلن عن نفسها من خلال أبلغ الأمثلة والشواهد التي تجعل

من الصلة بالله صلة فوق الجدل الكلامي والتمحل المنطقي.. وفي هذا النطاق وجدنا سيرة الخضر وإدريس والسيد المسيح، تستدعي في "الرسائل" لغاية إجرائية، إيمانية..

على أننا لا نلمس في كل ذلك، شائبة دجل أو ترويح للخرافية كما كان ديدن الثقافة الإسلامية في عهود الانحطاط. تلك الثقافة التي حولت شواهد العبرة والتثبيت التي توعد بها معجزات الله، الى قيم تقعد بالإمة وتوكلها الى الوهم والخرافة والبلادة المعطلة لنواميس الحياة..

ولا غرو ان نجد النورسي يقرر بشأن الخوارق انها جاءت لتحمل — في ما تحمل — الدعوة الى الحياة والحض على تعميرها بوسائل ومنجزات تضاهي كرامات الله ومعجزاته التي كان يوسع بها على عباده المكرمين، وينفجهم من خلالها بالانفراج..

وضمن هذا المنظور، تندرج نظرة النورسي للمبتكرات الصناعية والتقنية، من قبيل ما راج في بداية العصر من منجزات مثل الراديو والسينما والقطار والطائرة.. لقد رأى فيها مبتكرات تحققت للإنسان بتوفيق من الله وبما حباه من عقل وبصيرة، وبغاية ترشيدية، إذ أهما دلائل عملية على قدرة الله وشواهد على تسخير الكون للإنسان تأكيداً لمبدأ الاستخلاف الذي قرره الله للإنسانية على هذا الكون..

روح التناول والمباشرة الاجتهادية..

لقد كان النورسي في ألواح التاريخ وشواهد التراث المعبرة، طاقة الإلهام، غير أنه ظل مرتكراً على فهم ذاتي للقرآن، كان يجعله على طلاقة أجدى في تقرير الرؤية الإضافية التي كان يرى ان الاسلام يتسع لها من خلال شموليته ورحابة مقاصده الكريمة، وهو ما جعل النورسي يؤكد الطابع الاجتهادي الذي كان يصدر عنه في قراءته الآيات والأحاديث الشريفة، وتوجيهها ضمن اطار ترشيدية، لا سيما في مناهضة الملاحدة والمتزندقين. فالرسائل — بحسبه — لا ترفع أسلحة أولئك السلف الأفاذا، فلها في القرآن أقوى الأسلحة للفتك بالزندقة³.

وفضلا عن ذلك، فإنه كان يجد في الرجوع الى القرآن مباشرة، مزية الركون الى المصدر الفذ والإعتداد بوسيلة نافذة، وعملية، وقريبة من اليد والذهن.. "إن رسائل النور باستلهامها القرآن المبين قد وجدت أسلحة يمكن الحصول عليها بسرعة، وهي قوية، نافذة، وفي الوقت نفسه تمزق العدو وتجعلهم شذر مذر، لذا لا تراجع مصانع أسلحة أولئك الأفاذا الساميين الميامين، لأن القرآن الكريم الذي هو مصدرهم جميعاً ومنبعهم ومرجعهم وأستاذهم قد أصبح أستاذا كاملاً لرسائل النور.."⁴

الاقتنار على الفصل ، وخوض غمار التصحيح والتطهير.

بل لقد رأينا للنورسي قوامة عالية واجتراء راسخاً على إثارة شائكة الموضوعات وأكثرها استغلافاً على التمثيل الإنساني الجاحد أو المحجم عن التسليم، وهذا من خلال خوضه المستفيض في موضوعات الخارق والمعجز، والروح التي يتناولها بها، والأوجه النيرة التي يتأولها عليها.. معولا في ذلك على الأثر الإسلامي ذاته، مسددا ما يكون أسئ فهمه من دلالة ومرمى تلك الآثار، جاعلا القارئ أو السائل يجد الإجابة التي تبرا من شائبة الدجل والاستخفاف بمكانة الانسان وحقه في فهم تسمو به روحه وتتسع أفاقه.. محصفا تخريجات إدراكية تبرز منزعه التجديدي الذي ينيط بالداعية المصلح واجب السمو بالقيم والتجاوز بها مستوى الضحالة التي لحقتها جراء الإدراك الحسي أو المحرف الذي فهمت به..

3- انظر الملاحق ص. 192

4- الملاحق ص 192

لقد لوثت روح التخريج الإسرائيلية وما مارسته الثقافة الكنايية الأسطورية على الفكر، من نصاعة التراث الاسلامي التي ظل يقرأ بها أمدا طويلا، وألحقت الأذى بمستويات صميمة منه، لا سيما المجال الغيبي، وهو ما يجعل أعباء تقويم ذلك الواقع من مسؤولية العلماء.

وفي هذا النطاق عمل النورسي جهده من أجل أن يحل كثيرا من المسائل التي كان التطور المعرفي يطرحها أو يضعها في موضع التساؤل من جديد.. الأمر الذي جعل النورسي يخصص وقفات كثيرة للاجابة عن المغلق من القضايا والمعلق من التساؤلات.. من هنا وجدناه يصرح أن الرسائل تصدت للأفناء في أزيد من مائة قضية من القضايا التي اكتنفها الغموض بسبب طابعها الغيبي، ولما علق بها من تمحلات دخيلة..

“إن رسائل النور قد كشفت وحلت ما يقرب من مائة من طلاسم الدين وأسارره ومعميات الحقائق القرآنية”⁵

اشكال المتشابه اشكال أدائي استيعابي من طبيعة أدبية التبليغ الخالد.

ولم يفته في هذا المجال أن يعالج موضوعات اشكالية مركزية في التراث الديني، وربما قضية “الحكم والمتشابه” واحدة مما خاض فيه النورسي في رسائل النور، مبديا فهما تغدو به هذه المسألة على حقيقتها، بكونها مسألة أداء وتلق، وأنها بريئة من كل ما سعت العقول المدخولة الى إلحاقه بالإسلام، من خلال الطعن في مستوى إعجازيته.. لقد رأى النورسي أن في الحديث الشريف نصيبا مستغلقا على الإدراك، لا ينفذ اليه الفهم ببادي الرأي كما يقول أسلافنا (أي بالبداهة)، واعتبر هذا القسم من السنة يندرج ضمن اطار المتشابه، مقررًا بذلك أن في السنة أيضا مستوى تبليغيا لا يمكن ان تسبر غوره المدارك إلا تأويلا، شأن مسائل المتشابه في القرآن.. فمن خلال المتشابه شاء الله — عز وجل — أن يوسع على عباده من حيث التعقل والاستيعاب، إذ أتاح لعقولهم أن تستقرئ النص على قدر فهمهم المسددة بالإيمان..

فالمتشابه هو وجه إعجازي يرتقي بالمدارك الى مستوى ارحب وأكثر حيوية..

من هنا كان المتشابه مستوى جماليا وبيانيا تستشف الروح عبره مزيدا من المنفعة والفائدة. يقول النورسي:

“إن إغلاق الكلام المعقد وإشكاله ينشأ إما من ركاكة اللفظ وضعف الأسلوب — فهذا لا يدنو من القرآن — أو من دقة المعنى وعمقه وجودته وعدم مألوفيته وندرته، حتى لكأن المعنى يتدلل على الفهم ويهيم اتجاهه ليثير الشوق، طلبا للاهتمام والمكانة، فمشكلات القرآن من هذا القبيل”⁶

ولا غرو أن يكون هذا شأنه مع القرآن والحديث وما يسمهما من علو أدائي، استثنائي، يستوجب الجهد والتعمق المستنير.. فقد واظب النورسي على استجلاء النصوص، إذ رأى فيها خدمة وعبادة..

يقول في هذا الصدد:

“إن أساس مسلكي منذ أيام صباي — ولا فخر — إزالة الشبهات التي تلوث حقائق الاسلام، سواء بالإفراط أم بالتفريط، وصقل تلك الحقائق الأمامية، والشاهد الى هذا تاريخ حياتي في كثير من حوادثه”⁷

5- ملحق قسطنطين ص. 204

6- صيقل الإسلام ص. 60

7- صيقل الإسلام ص. 34

من خصوصيات الإعجاز القرآني .

مما لا شك فيه أن الفارق الجوهرى الذى ميز القرآن عما سواه من الكتب، هو كفاءته الأدائية المتخصصة، إذ أنه تخطى الأعراف القولية وجاء مباشرا في تقريراته، ينزل على الأسنة، ويلقنها التعاليم التي تترشد بها وتجد اليقين

كما ينزل في صورة أدعية وابتهالات توضع حيال المسلم ليرفعها الى خالقه، نجوى منه ودعاء يقر له بالعبودية شأن سورة الفاتحة، ذلك الموقف القرآني الذي يعرب فيه العبد عن حمده وتمجيده لربه في كل صلاة، فتغدو حوارحه متعلقة بالقول كأنها هي التي أبدعته:

فالخطاب في تلك الصورة خطاب يصدر عن العبد، وهو مسند في صيغته الى (النحن)، فهو من ثمة خطاب المؤمنين المرفوع الى ربهم.. لكنه هو قول الله، تنزل على كيفية خارقة كفلت للمؤمن ان يقف حيال ربه، يحمده، ويعظمه، ويناجيه، من غير ان يمر الخطاب عبر سياق سرمدى إخباري.. إنها المباشرة الإفضائية القرآنية، جسدها قول هياه رب العزة على لسان المسلم ليضحى لازمة قلبية وترتيلية ناجزة يؤديها في كل حين.⁸

وبالإضافة الى ذلك، فإن فداة الأداء قد تنوعت بحيث تساوقت في الاكتنان وهو ما عبر عنه الاعجازيون بقوامة النجر النظمي، فلا تفاوت في النسخ التعبيري كيفما استرسل الخطاب وتمادت إبانته.. ثم إنه خطاب وثاب، فتي، لا ترهقه الأدعاء التي تقتضي منه أن يكون ملتفتا الى أكثر من أفق، وحاضرا في أكثر من صعيد.. ثم إن عصمته البيانية تسامت عن التبذل الإسفاف، ليس المضموني فحسب ولكن الفني ايضا، فكفاءته الأداة العالمية لا يربكها تعدد المقاصد والمبادرات الغرضية التي يستدعيها او ينتقل عبرها، بنفاذ خطابي لا مرية في جماليته وفذاذته.. فهو خطاب ينطق ويستنطق ويخبر ويستخبر، يطوي الغيب فيحضره عيانا، ويغيب الشهود فيحيل به على عوالم البعدية، ويقرر الحجة بالمواجهة الجدالية وبالمناظرة الافحامية، كما ييسط العبرة من خلال الإيعاز وسوق المثل.. وفي هذا الصدد فإن الخطاب القرآني قد أضفى على عالم الاشياء والعجماوات من حكمته ما جعلها على حال من المشاركة والإعراب. فهي تنطق وتبين، وهي تسعى وتأخذ دورها في المشهد الحياتي وفي الكون، وهي بذلك غدت موضع نظر وتوعية، فلا غرو ان تضحى تلك الأجناس وعوالمها مجال عبرة واتعاط، وان تدور حولها آيات القصص القرآني، وتضرب بها الأمثال..

فلسفة البيان كما نظر إليها النورسي من خلال كتابه: صيقل الاسلام.

وإذا كان القرآن قد نزل على أروع الأساليب وأكملها بيانا، فلا جرم أن من إشاراته وسياقاته ما تغيب حقيقته عن العقل، وذلك — لعمر الحق — هو بعض أوجه إعجازه، إذ أنه — ولقصد إلهي — جاء محكما في عمومه، ومشملا في — الآن ذاته — على إيماءات تعد من باب متشابهه..

يقول النورسي: “إن أهم أساس في إعجاز القرآن المبين هو الإيجاز بعد بلاغته الفاتحة.. فهذا الإيجاز المعجز في القرآن الكريم كثير ولطيف جدا في الوقت نفسه. بحيث ينهر أمامه أهل العلم والتدقيق”⁹ والواقع أن الإيجاز — بمعايير العرب — هو البلاغة عينها، فقد أخذت لغتهم بأسبابه، لأنها لغة بلاغية في أصلها، طغى عليها — طبيعة — التسديد وإصابة المقصد بالقليل من اللفظ.. وتلك خصزوية تشمل — في واقع الحال — سائر مناحي حياتهم المعاشية والعقلية والوجدانية.. فقد جنحت

8- انظر مثلا تفسير مفاتيح العلوم للرازي وما أورده عن سورة الفاتحة..

9- المكتوبات ص. 407

حياتهم الى الإقتصاد في كل شيء، وربما استمدوا من ظروف صحرائهم سياسة القصد في الحركة وفي المعاش وفي الخطاب.. فطبيعة الصحراء تعلم الكيفية التي يجيها الكائن دوغما اسراف في البذل ولا حور في الاستهلاك.. ولقد جسدت بلاغتهم هذه الخاصة إذ حفلت بالإيجاز ونوهت به، واستغنت عن الإفاضة في العرض والاسترسال في البسط، تجنبا لترهيل سمع المقال وإثقاله بالزائد من الكلم.. ولما كان المجاز هو المظهر الراقي لفاعلية الإيجاز، لما يكفله الإيجاز من تكثيف للرسالة وعرضها في صورة إحصائية مزدوجة (معنى المعنى)، أصبح المجاز جماع بلاغتهم، ومناط أدبيتهم كلما تأجج فيهم باعث القول..

من هنا كان الشعر مجاهم الأمثل للأداء، لما يتيح لقرائتهم من سوانح قتل القول الجميل وصقل النظم النضيد..

ولقد جاء القرآن الكريم ضربا من القول خارقا، استجمع في إهابه الجزالة المحكمة والنظم المبهر، وخرج عن العرف الإنشادي الذي تمرست به أشعارهم وخطبهم في أغراضها المطروقة، إذ باشر آفاقا من القول تشمل الحياة وما بعد الحياة، وتخوض في الدعوة الى نظام كوني برئ من لمزات العرقية الدينية والجنسية والثقافية، مكرسا صعيدا من القيم والمبادئ التي من شأنها أن تلحم بين العالمين على أتم الوجوه وأسلمها، معليا من شأن الإنسان جملة، ضامنا له بذلك البقاء الدائم على الموثق مع ربه، من غير ما تمايز ولا تفاضل إلا بالتقوى، محفزا اياه على تحريك العقل وتمييز مقدرات الكون التي هيأها له الله لصالح الانسانية..

لقد جانس القرآن خطب العرب من حيث استخدامه للغتهم، وانتحاؤه المنحى الإيجازي الذي كان مرقى العلو البلاغي عندهم، لكن القرآن لم يحتد طرقهم البلاغية، بل صاغ نظامه البياني الخاص، واستفرغ كثيرا من الدول، من قيمها المعجمية التليدة وأضاءها بقيم أخرى أدرجها في سلاطة التأصيل المعجمي القرآني. وبذلك ظل القرآن العظيم ظاهرة تأصيلية طاغية، إذ أن روح البلاغة العربية قد اكتسبت من خلال النص القرآني مستوى أدائيا وخطائيا فتح حيالها مزيدا من آفاق التفتيق القولي التي ظلت بكرًا، لم تطرقها ذهنيتهم.. لا سيما في مضمار التدبير الفكري ورؤية الكون والانسان والحياة والمصير.¹⁰

لقد قلبت محارث البيان القرآني أرضية البلاغة العربية، واستصلحتها لاستنبات الوان من القول الرصين البهيح.. فلا غرو ان تفتح لغة الشعر الغنائي بعد واقعة النزول، على أفق التحليل الفكري، وان تستحدث أضربا من فنون السرد التاريخي والاجتماعي والقصي وأنماطا من الاستقراء الرياضي والعلمي والادبي.. لقد امتلكت العربية من خلال القرآن قابليات أدائية جديدة خرجت بها من حيز الجزالة الشعرية محدودة الاغراض والطبوع الفنية، الى رحاب الاضفاء التحليلي وتلوين الفنيات والصياغات الخطائية والخوض بها في كل مضمار، لأنها تغذت من معين سماوي جمع في ماهيته البيانية قابلية الأداء الصوتي والخطي، إذ أن الآيات البيئات تجاوزت ذلك النجر الخطابي النظيم الذي كان يمثله القصيد الشعري، والذي كان يتهيا فقط للإنشاد والتأدية الغنائية.. ليضحي المتن القرآني — وهو مصدر سائر المتون العربية التي نتجت بعده — نصيا مكتوبا ومسبورا بأنواع من النظر الفكري

والتعديدي، غادرت بما العقلية العربية — وبصورة نهائية — محطة السماع التي كانت شاهدا من الشواهد على بدائيتها، وفطريتها.¹¹

ولقد تدبر النورسي ظاهرة الإعجاز، وعابنها على أكثر من صعيد، وربما أهرته نظمية خطابها الفريدة التي تجسدت فيها أرقى صفات الجمال التعبيري..

لقد تجلّى الإعجاز القرآني على صور كثيرة من البيان، منها الإلتفات من الغيبة الى الشهود ومن الشهود الى الغيبة، وإذا كانت العربية قد عرفت هذا الوجه من المخاطبة، فإن القرآن قد تفنن في استخدامه بحيث امتلك صفة الخصوصية الواعية التي أضحت ملمحا أصيلا في البيان القرآني.. كما عرف فنية الإحتزاء الذي يبني القول على منطق إفصاحي من أسسه الإضمار والأقتضاء والتضمين.. وكلها قيم موكولة الى بداهة المخاطب ونباهته، لذا عدّ الإحتزاء من شجاعة البيان القرآني.. ومنهها النقالات البعيدة والاقترار على التحول من قصد الى آخر.. وهو ما يسميه النورسي — رحمه الله — بلاغة الطي.¹²

إذ أن الآيات في هذه المواطن تنحطى منطق الترابط الزماني المكاني، وتجتاز الى قصدها، في سفور بلاغي راسخ.. إنها فوقية مقالية تتنجح عبر الأجواء لترصد المشاهد والرؤية من حيث شاءت، كافلة بذلك للمتلقى إطارا من المادة الإعلانية والتعليمية الربانية المصوغة في الشكل الفذ، والجامعة لوقائع متعددة ومتلاحقة، لا عهد لذهن البشر بتلقيها على ذلك النحو الكلي الفريد..

كما تجلّت جمالية الإعجاز في ظاهرة القبض والبسط الخطائين التي حفلت به الآيات البيّنات، لا سيما في ما يتبدى تكرارا، وفي مواقف الإجمال والتفصيل، وتجلّى الإعجاز أيضا على صعيد المراوحة بين الفواصل وتنويع صورها الصوتية، ما أكسبها صبغة ترنمية أصيلة، بعيدة عن التعمل والاصطناع.. إنه ضرب من التتابع العضوي لحركة قائمة على فاعلية الشد والإطلاق، التقريب والإبعاد.. من خلال نظام ابدالي لصوتيات المنطوق القرآني، وخاصة على مستوى الفواصل، فضلا عما تبديه بنية الخطاب، من إيقاع مجسد لنوع من التواتر النبري، ومن مزاجية إيقاعية، يطرد بها النسق الانسيابي الذي يكتنف الكلمات ويجري بها في سياق الآية لينتظمها السلك الأدائي العام للسورة.. مع ما يلوح في سمّت الخطاب من رجاحة أدائية، وتنوع صوتي (هارموني) مرده الى طبيعة التشكيل البلاغي القائم على تلوين جرس ذاتي، مستمر، وذو صلة بالقصد التأثيري الذي تتوخاه الآيات..

يقول النورسي في هذا الصدد :

“ أيقنت أن القافية الفطرية الممتازة بالقرآن الكريم ومزايا نظمه، إنما هي من أنواع الإعجاز، بحيث أمّا تحافظ على الإخلاص الجاد وسكينة القلب وطمأنينته من دون أن يخل بشيء منها”¹³

ولقد بدا له في التواتر اللفظي الذي يميز المتن القرآني مظهرها من مظاهر الإعجاز، ووجهها من أوجه رسوخه ودقته المظمية التي لا يضارعها بناء.

يقول النورسي :

“ ومن كرامات القرآن تواتر بعض ألفاظه وتكرارها على نحو موح، مما ينبه الى دقة الإحكام التي

11- الظاهرة القرآنية. مالك بن نبي.

12- المكنوبات ص. 408

13- المكنوبات ص. 242

تميز النظم القرآني والكاشفة عن جانب من إعجازه للمتأمل.¹⁴ لقد استجلى النورسي — كما قرر — في بعض رسائله، زهاء الأربعين وجها للإعجاز، توزعت على مستوياته البيانية والتصورية، واستوعبتها مضامينه التنظيمية والفكرية والتشريعية والوعظية والمستقبلية وما إلى ذلك..

كما وجدنا النورسي في مواطن أخرى من رسائله، يحوصل أوجه الإعجاز ويحملها في منابع تتفرع عنها الظاهرة الإعجازية جملة وتناط بها في كليتها..

لقد راح — تحت عنوان: بيان موجز لإعجاز القرآن.. يعدد هذه المنابع قائلا:

“ إن إعجاز القرآن يتجلى من سبعة منابع كلية، ويتركب من سبعة عناصر:

1 — سلاسة لسانه من فصاحة اللفظ، إذ تنشأ بارقة بيانه من جزالة النظم وبلاغة المعنى وبداهة المفاهيم وبراعة المضامين وغرابة الأساليب.

2 — الإخبار السماوي عن الغيوب..

3 — إن للقرآن جامعية خارقة من خمس جهات: في لفظه، في معناه، في أحكامه، في علمه، في مقاصده .

4 — إفاضته النورانية حسب درجة فهم كل عصر، ومستوى أدب كل طبقة من طبقاته وعلو وفق استعدادها ورتب قابليتها.. فكلما شاب الزمان شب القرآن وتوضحت رموزه..

5 — نقوله وإخباره في أسلوب بديع، غزير المعاني، فينقل النقاط الأساس للإخبار الصادقة كالشاهد الحاضر لها. ينقل هكذا لينبه البشر .

6 — إنه مؤسس دين الاسلام ومتضمنه. ولن تجد مثل الاسلام إن تحرير الزمان والمكان، لا في الماضي ولا في المستقبل ..

7 — إن الأنوار الستة المفاضة من هذه المنابع الستة يمتزج بعضها مع بعض، فيصدر شعاع حسن فائق، ويتولد حدس ذهني، وهو الوسيلة النوراني¹⁵

ويجتم رصد — بعد هذا — للظاهرة الإعجازية، بالتنبه على ما يميز القرآن من تجرد نزوعي، وبعد عن المنزع النفسي الذاتي، فكونه مقولا إلهيا ساميا، فلا غرو أن تنعدم فيه الانفعالية الشخصية، إذ لو كان من ابتداء قريحة بشرية لخانتها خلجات النفس وأعربت عن حميميتها. يقول النورسي:

“ وفي القرآن خاصية لا توجد في أي كلام آخر، لأنك إذا سمعت كلاما من أحد فإنك ترى صاحب الكلام خلفه أو فيه، فالأسلوب مرآة الإنسان”¹⁶

من هنا تباينت عواطف النص الأدبي الخيل على القرآن، والآخر الموصول بالمادية المبخوسة وغلظتها وفجاجة قيمها.. لحفوله بالواقع الخام وما ينقله من وحشية وغريزية أو من بهيمية تسكن الانسان الذي لم تمذبه أخلاق السماء..

وفي هذا المقام يوازي النورسي بين الأدب الغربي والأدب القرآني، ويسجل سمو رؤية القرآن وتماوي الرؤية الأدبية الغربية.. إذ الأدب مسعر شهوات، مفاقم لأسقام الروح وضلالها، فيما أدب القرآن يسمو بالعاطفة، ويورث الإتران.. فهو لا ينظر الى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها

14- المكتوبات ص. 242

15- الملاحق ص. 183-185

16- المصدر السابق ص. 185

صتعة إلهية، صبغة رحمانية، دون أن يحير العقول...

وإذا كان كلا الأديين القرآني والغربي يحرك العواطف ويشجى المتلقي، ويورثه الحزن والتأثر.. فإن ما يورثه أدب الغرب — كما يرى النورسي — هو حزن مهموم، قد يكون ناشئا عن التلوع النفسي الناتج عن مشاركة رومانسية، أو عن بقايا ندوب في النفس أو في بواطنها اللاشعورية، أو ربما بسبب ذهولها وذهانيتها. بما تزرعه فيها روح العدمية واللامعقول التي دانت بها آداب وجودية ودهرية لا تؤمن بأن للإنسان استمرارا وخلودا في عالم ما بعد الحياة، لذلك تغدو آثار كثيرة من الأدب الغربي على القارئ سلبية، بل مدمرة، لما ترسمه من أفق مسدود، ولما تعكسه من فظائع لإنسانية ممزقة، ضالة، لا سند لها، ولا مصير.. فيما قارئ الأدب القرآني لا يضع يده إلا على ثوابت معنوية تقوي أنسه بالحياة، وتؤكد خلوده، وتربط الصلة بينه وبين الطبيعة، وتصورها وجها من أوجه النعمة التي من الله بها على عباده، وتجتث من قلبه كل نزوع لتأليه شاذ أو وثنية مستحدثة أو مروق عديمي، فالطبيعة لا تشخص له إلا كتجليات، وليس كمصدر ترجع إليه الخليقة في نشوئها.¹⁷

أما على مستوى التوصيل، فإن القرآن — بحسب النورسي — قد اتبع بيداغوجية تبليغية توطئة، بحيث لا يجيب أي فئة من مستمعيه، وتلك هي إحدى سمات فذاذته، إذ لما كان نصا مرشدا لكل طبقات البشر، استلزم بلاغة الارشاد ان لا يذكر ما يوقع الأكثرية في المغالطة والمكابرة مع البديهيات في نظرهم الظاهري، وأن لا يغير بلا لزوم ما هو متعارف محسوس عندهم، وان يلغى أو يجمل ما لا يلزم لهم في وظيفتهم الأصلية.¹⁸

“من هنا كان إعجازه يتكشف لكل طبقة من طبقات الناس بوجه مخصوص تستوعبه ذهنيته و مداركها”¹⁹

“ إن جمال جلوات الاعجاز يختلف باختلاف المشارب، إذ الاعجاز الذي يفهمه ولي من العارفين يختلف عن الاعجاز الذي يشاهده ولي غارق في العشق الإلهي. وإن وجه الاعجاز الذي يشاهده إمام من أئمة أصول الدين، غير الوجه الذي يشاهده مجتهد في فروع الشريعة”²⁰.

ولما للخصوصية القرآنية من أصالة وجوهية، كان من العيب السعي الى ترجمة بيانه :

“ إن ألفاظ الكلمات القرآنية والتسيبحات النبوية ليس لباسا جامدا يقبل التبديل والتغيير وإنما مثله مثل الجلد الحي للجسد، بل إنما أصبحت فعلا جلدا حيا بمرور الزمن. ولا جدال في أن تبديل الجلد وتغييره يضر الجسم. ثم إن تلك الكلمات المباركة في الصلاة والذكر والآذان أصبحت إسما وعلمًا بمعانيها العرفية والشرعية ولا يمكن تبديل الاسم والعلم²¹. ” الترجمة عمل ميتور بل ناقص وقاصر”²².

ولا يخفى الوازع الاستنكاري الذي يحمله هذا النهي عن تغيير المقومات وخاصة منها الروحية، المرتبطة بالعقيدة، ووجوب استبقائها على صورتها النصية الاصل، كما هو حال المتون التي يتأدى بها الآذان والأذكار والصلاة.. ومن غير شك فإن النورسي يقف هنا ضد تيار التتريك الذي شاء أن يخرج

17- المصدر السابق ص. 189

18- المصدر السابق ص. 269

19- المكنوبات ص. 238

20- المكنوبات ص. 523

21- المكنوبات ص. 437

22- المصدر السابق ص. 439

بالمجتمع التركي عن أصلته، واستهدف المقدسات، يضفي عليها صبغة القومية الضيقة، تمهيدا لوأدها نهائيا..

ومن غير ما شك أن المكاشفة التنديدية للانحرافات التي كانت عليها الأمة الإسلامية قاطبة، وتلك التي كان يأتيها ساستها، في اطار مساعي الانبعاث التي رفعوا لها الشعارات المختلفة، والتي لم تسلم من دس ومن نوايا نكوصية مبيتة وسافرة، كانت حاضرة في مجمل ما كان النورسي يكتب ويذيع، إذ أن وازع التحصيف كان يجعل الداعية يضع عينها على حال الأمة، فيذكي فيها جذوة اليقظة والنهوض، ويضع العين الأخرى على ما كانت دوائر الردة والعدوان تنفذه في طريق الإسلام والمسلمين من عواقق وتشويش وتثبيطات، استبقاء للأمة في حطتها ومواتها..

ولقد استطاع فكر النورسي أن يعترض في الآن، وفي حرارة المواجهة، على المقاصد الشريرة، التي كانت تنجزها أيدي بني الجلدة الضالين، وأن يتعهد الأوضاع الخائرة التي انتهت إليها الأمة بعد ليل طويل، دامس، من التأخر والانحطاط، وان يعمل إزاء هذا وذاك على أن يستنقذ الأمة وأن يدلها على طريق رأى لها فيه حظوظها للخروج من الدائرة المغلقة بأقل التكاليف، وبصورة مؤكدة لا ريب فيها.

شبابية القرآن الكريم في رسائل النور

أ.د. لطف الله جبجي^٥

الكون يتعرض عبر الزمان لتغير و رقي، وهو ينساب للنهائية التي عينها له الحق سبحانه. فهذا التغير والرقي يربي كل مولود وينميه ويكمله ثم يميتة، ويولي كل جديد ويذبله ويشحبه، ويجعل كل طري يابساً، ويجعل كل ما يكفي اليوم لا يكفي لغد، والحاصل أن الزمان بمثابة طاحونة يسحق كل شئ ويهرسه. فلا بد أن هذه الطاحونة لا تعمل من تلقاء نفسها كما هو شأن بقية الطاحونات، بل هناك من يديرها. لذا قال الرسول ﷺ لمن غضب للزمان وسبه لما رأى فيه من قابلية السحق والإحماء "قال النبي ﷺ قال الله تعالى يُؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر اقلب الليل والنهار"¹ وأشار أن الزمان ليس في الأساس هو الساقط. ومن جانب آخر اشار سبحانه تعالى في كتابه العزيز لجهل من اعتقد بألوهية الزمان ممن طبع على قلوبهم وأذهابهم واسدل على عيونهم من الناس {وما يهلكنا إلا الدهر} (الجنّة: 23-24). فعليه أن الزمان أيضا جندي من جند الله وظيفته طحن الموجودات الفانية.

فالزمان يحيط بالأنظمة الدينية والفكرية ويسعى لطحنها، "فقوة نظام فكري، وقوة معتقد ومنظومة تطبيقات يرتبط بما تضم من الأساسات وموقفها تجاه مجرى الزمان، ومدى حكمه للزمان، واستمرارية حيويتها ونداوتها وجدتها. فالخلاصة كل ذلك منوط عن قريب مدى علاقتها بالبعد الزماني. فلو بقيت فكرة أو معتقد ولاسيما الدين ورسائله طريا حديثاً تمنح شذى الابدية جديدة ندية لتبعيه خلال الزمان الذي يبلي كل شئ، يعتبر إذن هذا الدين التفاحة الحمراء للإنسانية، وإنشاء ماء الحياة الذي تشتاق له شفاهاً"².

فسيدينا آدم (عليه السلام) كان هو الإنسان الأول في نفق الزمان والنبي الأول في الوقت نفسه.

^٥ من مواليد سنة 1954 في (دولي) التابعة لولاية قيصري. اكمل دراسته الجامعية في كلية العلوم الإسلامية بجامعة اتاتورك بارضوم (1978) وعين معيدا في الكلية نفسها. حصل على الدكتوراه في "مشكلة الشر في نظر القرآن الكريم" (1982) واصبح مساعدا استاذ (1986) واستاذا منذ سنة 1992 في كلية الإلهيات بجامعة اتاتورك بارضوم.

1- المسند 299/5، 311 (بالإضافة لهذا انظر البخاري، تفسير سورة 45، 1؛ التوحيد 35، الأدب 101: المسلم الأنفاظ 6-1 أبو داود، الأدب 169)

2- صادق قلج، "البعد الزمني للرسالة" الرسالة الخالدة 265/2 منشورات دار اشق، زمير 1993.

فمنه ومن زوجته حواء ولد الناس وتكاثروا (انظر: الأعراف: 189). فالتاريخ الإنساني بدأ من شخص واحد واصبح عائلة، وقبيلة، ونسلاً وأمة وأماً حتى بلغ المليارات اليوم. فالنبوة بدأت من سيدنا آدم عليه السلام، وحررت عليها تغير وتطور ضمن اطار تقدير الله العليم الحكيم، وترقى موافقاً للحكمة الإلهية والمقاصد الجليلة نحو الأكمل ضمن تدرج زميني، حتى مجئ الرسالة النهائية العامة الشاملة للكون.³ وأقتضت المشيئة الإلهية بإرسال الرسل لتربية الناس مؤقتاً حتى وصول النبوة للكمال، ولعدم كون هؤلاء الرسل صاحب شريعة أبدية، لذا لم تعد كتبهم وصحفهم وتصرفاتهم ومواقفهم نفي الغرض في قيادة المجتمعات بالشكل النموذجي على مدى التاريخ. ولهذا السبب فقد نسي تماماً، أو أصابها التحريف فجعلها تفتقد النصاعة والقداسة الإلهية. ومن هذه الزاوية فالآية الكريمة {اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة: 3) تشير إلى أن الماء قد راق والضباب قد انسحب ووصلت الرسالة الإلهية إلى قمتها السامقة وإلى اقصى كمالها. فقد استمرت هذه الحالة على هذا المنوال الى ختام الرسل وخاتم الكتب {ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} (الأحزاب: 40) تخبرنا بأننا قد وصلنا إلى الحلقة الأخيرة من سلسلة الرسل.

فالاسلام الذي غايته ايصال الإنسان إلى السعادة بتنمية احساسيس الفضيلة والحق والخير الموجود في فطرته، قد وصل إلى كماله بمحمد p، وأن القرآن الكريم مصون من كل زيادة أو نقصان، وتحريف وتبديل بصريح قوله تعالى {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} (الحجر: 9) وبهذه الآية الكريمة وعد الله تعالى بحفظ كتابه الكريم من كل تغير وتحريف. وذلك أن الفطرة في حاجة إليه إلى قيام الساعة بصورته الأصلية غير المحرفة.⁴

واستناد الدين للفطرة يعني، موافقة تعاليمه إلى الفطرة والطبيعة ووجود تلاؤم بين حاجات الإنسان الفطرية والطبيعية وأحكام الدين. فبناءً على هذا يعتبر الموقع الحقيقي للقرآن الكريم في ساحات العقيدة والأخلاق والأحكام الشرعية، هو تقديم ليس ملائم مصمم مخيط من قبل خياط ماهر متقن، بحيث يتطابق مع ماهية الإنسان وخلقته تطابقاً تاماً، فهو ليس بضيق ولا كبير، ومهما دققنا هذا اللبس فلا نجد مثله في تاريخ المجتمعات البشرية، ولا ينتسب لأي مرحلة من مراحلها.⁵ لذا نستطيع القول؛ أن الإسلام هو مجموعة قوانين توصل الإنسان - المستند من حيث الحلقة إلى التكامل - من أقصر طريق وأسلمه إلى الهدف، وهو وضع إلهي. لذا اكتسب الأبدية الشاملة للعالم أجمع.⁶

فالشمولية العالمية وبعبارة أخرى الشمولية الكونية لدين أو مبدأ سياسي أو نظام حقوقي أو اعتقادي أو تعليم فلسفي يعني استجابتها للحاجات الإنسانية استجابة تتجاوز الدهور والأزمنة. فعندما تكون شمولية دين موضوع البحث، ينبغي أن يكون ما يقترح من الأسس الإيمانية، والمبادئ الحقوقية والأخلاقية، ونظرتها العالمية كافية مطابقة لمبنى الإنسان الفيزيائية والنفسية بكل معنى الكلمة.⁷

3- أحمد حمدي اقساكي، الإسلام ص 333، منشورات دار العرفان، استانبول 1966.

4- صادق قلج 271/2-272

5- محمد سعيد رمضان البوطي "عالمية الرسالة المحمدية" الرسالة الخالدة، 314/2-315، منشورات دار اشق، ازمير، 1993

6- أحمد حمدي اقساكي، 355-357

7- محمود قيا "حول عالمية الإسلام" الرسالة الخالدة 301/2، منشورات دار اشق، ازمير 1993. اقساكي ص 335.

لقد اشرق نور القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً وإلى يومنا الحاضر قد تبدل كثير من المفاهيم التي اعتبرها الإنسانية صائبة إلى خاطئة وكثير من المفاهيم التي اعتبرها خاطئة إلى صائبة، وقلب الأفكار رأساً على عقب، وغير كثير من العادات والتقاليد والملابس والأخلاق والمعلومات التي ابتلعت كثيراً من العمالقة والدول. ولا سيما أن التطورات العلمية والاستكشافات المحيرة اظهرت كثيراً من أخطاء الأديان والفلسفات والمعتقدات القديمة في النصف الأخير من هذا القرن. والقرون الأربعة عشر هذه قد أظهرت في نفس الوقت أن القرآن قائم على قدم وساق كيوم نزوله، وذلك أن العلم الحديث المتطور بسرعة كبيرة في العصر الأخير اظهر تحريفات التوراة والإنجيل، واثبت في الوقت نفسه أن حقائق القرآن صائبة لا يزال طرية ندية.

واحسن نموذج في هذا المجال نراه في "موريس بوكاي" الذي اهتدى نتيجة أبحاثه حول النصرانية فهو يقول: "الجوانب العلمية التي هي من أهم ميزات القرآن الكريم قد حيرتني وأبهرتني في البداية، وذلك ان المتن المكتوب لأكثر من ثلاثة عشر قرناً كان ملائماً لمعطيات العلم الحديث تلاماً تاماً. ولم أكن إلى ذلك اليوم أو من أن المعلومات المتعلقة لموضوعات شتى كان قد اكتشف سابقاً، وعندما بدأت بالعمل كنت لا أؤمن بالإسلام بتاتا. وباشرت بالعمل بشكل غير منحاز ومتجرداً من كل فكر سابق، ودققت المتون (الآيات). وقد كنت متأثراً بالتعليم الذي تلقينته في أيام شبابي، فالتعليم هذا كان لا يبحث عن المسلمين بل عن المحمديين (أي انه كان تعليماً نصرانياً، وان الإسلام ليس بدين الله بل - حاشا لله - هو دين ابتدعه محمد)".⁸

"وعندما كنت أبحث عن مدى تلائم المتون القرآنية مع معطيات العلم الحديث، ركزت أولاً على الوحي القرآني، وتدقيق المتن العربي بدقة كبيرة، أجبرني بقبول عدم احتواء القرآن الكريم لأي جانب يمكن تنقيده من حيث الوجهة العلمية بصورة قاطعة. وبنفس الصورة وعدم الإنحياز دققت التوراة والإنجيل العائدين للعهد القديم، فرأيت أنه لا حاجة لعبور سفر "التكوين" الذي هو القسم الأول من العهد القديم. وذلك ان هذا القسم كان يحتوي لكثير من الخصائص التي لا يمكن تلامها مع النتائج العلمية التي توصل إليها العلم الحديث بشكل قاطع في عصرنا هذا.."⁹

(وفي بحثي هذا) كنت أتناول القرآن في وصفه شتى الحوادث الطبيعية، بدقة خاصة، فالتوضيحات المتعلقة بمذمومة الموضوعات التي ما كنت انفذ إليها إلا من خلال المتن الاصيلي للكتاب. فهذه الجوانب اثرت علي أيتها تأثير. فمع كون هذه المعلومات موافقة لاعتبارات في عصرنا الحاضر، فهي أيضاً خصائص لا يستطيع أي انسان كان في زمن محمد p أن يكون صاحب أصغر فكرة بها. الكتاب المقدس فيها أخطاء علمية كبيرة، غير أنني لم أجد أي خطأ علمي كان في القرآن الكريم. فكان يجبرني أن أسأل نفسي هذا السؤال "فإن كان مؤلف القرآن هو انسان، فكيف كتب هذا المؤلف ذا الخصائص الموافقة لكافة النتائج العلمية المعاصرة في العصر السابع حسب التقويم النصراني"¹⁰... "وكيف اصبح هذا الشخص الذي كان في البداية رجلاً آمياً الرجل الأول من حيث الأدب العربي، ثم توصل إلى الحقائق العلمية التي ما كان ينبغي لأحد أن يعلمها في ذلك العصر، دون أن يستعمل أي تعبير خاطئ كان".¹¹

8- الكتاب المقدس، القرآن والعلم. ترجمة سعاد بلدرم. ص 179-180 منشورات دار توازيم 1981.

9- نفسه ص 12.

10- نفسه ص 181.

11- نفسه ص 188.

وقد أظهر موريس بوكاي في أبحاثه، أن القرآن الكريم معجزة للتاريخ العلمي كافة منذ بزوغ الإسلام إلى قيام الساعة . وقد عجز الزمان من أن يبطل منه شيء، أو أن يظهر خطأه.¹² وقد اهتدى موريس بوكاي نتيجة هذه الأبحاث، ولم يكن هو الرجل الوحيد في الغرب يقدر القرآن ويجله، فهناك كثير من الغربيين اعترفوا لقوة القرآن وطراوته في عصرنا، مع أنهم لم يسلموا.¹³ لقد أظهر اسماعيل حامي دانشمند باقتباسه عبارات من مؤلفات الغربيين اعجابهم للقرآن الكريم، وتوصل بأسمهم إلى النتائج التالية:

“الإسلام الذي بلغه القرآن الكريم هو الدين الوحيد الشامل للعالم والمخاطب للانسانية جمعاء.”
 “القرآن الكريم؛ هو مصدر الإلهام للعلوم والحركات الفكرية في نفس الوقت.”
 “أعلن القرآن الكريم وحده فقط اساس المساواة المطلقة بين الناس، وأزال فارق القومية واللون واللغة بينهم.”

“لذا يعتبر القرآن الكريم مصدر أول انقلاب اجتماعي شامل بين الأمم على سطح الأرض.”
 “فلهذا يفقد سائر الأديان حاكميتها على الناس ويضعف. مرور الزمن، بينما الإسلام محتفظ على قوته وقدرته.”

“القرآن الكريم في نفس الوقت هو من أهم المجموعات الحقوقية والقانونية للعالم جمعاء.”
 “القرآن الكريم هو أكبر وأهم مصادر الغايات الانسانية”
 “لم يبلغ أحد إلى مستوى الأكمالية للقرآن الكريم على مدى التاريخ، ولن يبلغ قط”¹⁴ كل هذا نتائج اعترافات بعض المنصفين الغربيين.

ولما كان القرآن الكريم كتاباً وافياً كافياً إلى قيام الساعة، كان عليه أن يصمد أمام التغير والزمان، وقد أرسله رب العالمين بهذا الوصف وبهذه الميزة، فمثل هذا الكتاب الذي اثبت أنه إلهي من هذا الجانب وبهذا الشكل، وحفظ من المداخلات الإنسانية، كان لابد أن يبقى طرياً ندياً، جديداً، شاباً، ساطعاً. ولا سيما أن هذا الكتاب هو الكتاب الإلهي الأخر، لذا يستلزم الدفاع عنه أو في الأقل الإعتقاد بحكمته الشاملة ومنطقه السليم من قبل اناس جادين إلى قيام الساعة. وهذا يتوقف على طراوته وشبابيته، وعلى العكس من هذا فلا يكون اساس أية حضارة جديدة كانت. وذلك أن كتاباً لا تستجيب نظرتة الى الحياة الدنيا النظرة العالمية لا يمكن الدفاع عنه¹⁵ ويعدّ كتاباً بالياً انتهى مفعوله.

ومن جوانب القرآن الكريم المحتفظ على جدته تجاه الزمان كونه معجزاً من ناحية اللغة والأدب. وقد تحدى الأناج والجن كافة على أن يأتوا بمثله من هذه الناحية، ولم يستطيعوا على أن يأتوا بمثله إلى هذا اليوم. “وبالطبع كان هذا التحدي لاجل تسجيل عجزهم أمام التاريخ” وقد بقيت آية {ولن تفعلوا} (القرة:24). بمثابة شارة ومهر على عجزهم، لن يمسخ على مدى الدهور. وبفضل أعجازه هذا يسمع القرآن صوته وتناسقه حتى لمن جعلوا اصابعهم في آذانهم لأجل عدم سماع صوته، وهذه الفصاحة والبلاغة تؤثر في أرواحهم.. فناهيك عنه فقد نظمت أحرفه بشكل يرد كل حرف منها إلى القلب بمثابة نغمة موسيقية. ولتأثير هذه النغمة الموسيقية ترق أمامه حتى القلوب القاسية،

12- مصطفى صادق الرفاعي، اعجاز القرآن، ص 114-129، دار الكتاب العربي، بيروت 1973
 13- صبحي الصالح، مبحث في علوم القرآن، ص 320، دار العلم، بيروت 1974
 14- اسماعيل حمدي دانشمند، اعجاب العلم الغربي بالقرآن الكريم، ص 66، 68، دار الحركة، استانبول 1973
 15- دجانة حندي اوغلو، خلاصة القول، ص 7-8، دار النيبان، استانبول 1996.

وتجلب الأرواح إلى القرآن الكريم، كما يجلب الضياء الفرائش، وتتسابق الأرواح نحو نور القرآن بانجذاب عارم. لذا لا يكاد يفارقه كل من سمع صداه.. ولا تُشْبِعُ لتناسقه العذب.. حتى ان من لا يجيد اللغة العربية، عندما يصغى إلى تلاوته العذبة يغشى عليه بتأثير صداه الجميل، فيرهف شعوره، ويهتز اعماق قلبه.. " 16

وفضلاً عن ميزاته الأخرى، فإن في تلاوته من التناسق والموسيقى¹⁷ ما جعل مليارات من الناس نشاوى الذين سواء يعرفون معانيه أو لا يعرفونها " . فليست هناك تناسق موسيقي يؤثر على الناس بنفس الطراوة ضمن مساحة جغرافية واسعة، وعلى مدى العصور السالفة، على اختلاف أذواقهم الموسيقية وعاداتهم واعرافهم، دون أن يفقد من تأثيره وجدته شيئاً. فالطفلة التي عمرها أربع سنوات تستطيع حفظ هذا القرآن من بدايته إلى نهايته، وكأن القرآن يعكس أعجازه بها، وتلاوتها القرآن الكريم بصوتها الحزين يؤثر على الإنسان ولو كان غير مسلماً مثل رئيس الوزراء (نلسون مانديلا) Nelson Mandela¹⁸.

وبعد أن يبحث ريغيس بلاشير (Regis Blachere) في كتابه "المدخل إلى القرآن" عن مدى وجد ورهفة المستمعين للقرآن الكريم، يقول "كيف يمكن تفسير حالة الوجد والرهفة هذه من دون القول بأنها خاصية تنفرد بها لغة القرآن الكريم؟ حتى ان المستمع الأوروبي الذي لا يعرف اللغة العربية، يأخذ الوجد والرهفة عندما تتلى عليه بعض السور "ويقول الكاتب نفسه في كتابه "القرآن" (قراءة هذا الكلام الإلهي المحي" بصوت عال يؤثر على المستمعين بشكل معجز"¹⁹ فتناسقه السحري النابع من حسن الإفادة، والتوازن الصوتي والجمال اللغوي²⁰، يجعله وكأنه يتنزل الآن حديداً امام مراتبنا، وكأن اسماعنا تتلقاه لأول مرة.²¹

ويعد سعيد النورسي من علماء الإسلام الذين بحثوا عن قوة وطراوة القرآن بشكل مفصل، فهو عندما يبحث في رسائله عن وجوه الأعجاز القرآني يعد "شبايته" بين تلك الأوجه²² ويولي لها أهمية كبيرة، ولا سيما أن الكلمة الخامسة والعشرين من كتاب الكلمات يبحث بصورة رئيسية عن الاعجاز القرآني. ويقول بديع الزمان في مستهل هذه الرسالة مباشرة عند تعريفه القرآن الكريم "القرآن هو الترجمة الازلية لكتاب الكائنات الكبير.. والترجمان الابدي لألستها المتنوعة التالية للآيات التكوينية.. ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمره في سطور الحادثات.. وكذا هو المرئي لهذا العالم الانساني.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي الى ما يسوق الانسانية الى السعادة.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الانسان المعنوية.. وهو خطاب ازلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى²³ فمثلما تشير هذه العبارات من شتى الزوايا على أبدية القرآن، فهي أيضاً تدل على أنها كتاب لا يبلى.

16- عثمان كسكي أوغلو "العلوم القرآنية منذ نزوله وإلى يومنا الحاضر" ص 198-199، دار نشر وقف الديانة/ أنقرة، 1987 مصطفى صادق الرافعي ص 166-188.

17- المصدر السابق ص 212-220 / دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، ص. الصالح، 334-340.

18- جريدة "بني شفق" ملحق الإسلام والمجتمع" ص 12، 12، شباط، 1998.

19- اسماعيل حمدي داشمند ص 55-56

20- سعاد يلدرم/ القرآن الكريم والمدخل للعلوم القرآنية ص 130-131، نشرات الأنصار، استانبول، 1983.

21- الصالح ص 342

22- الكلمات ص 471

23- الكلمات/ ترجمة احسان قاسم الصالحي ص 422، اشارات الأعجاز تحقيق احسان قاسم الصالحي، ص 22

فهو أيضاً “بمذه البلاغة الخارقة تحدى القرآن الكريم، منذ ألف وثلاثمائة سنة، أذكى بلغاء بني آدم وأبرع خطبائهم وأعظم علمائهم، فما عارضوه، وما حاروا بنت شفة، مع شدة تحديه إياهم، بل خضعت رقابهم يذل، ونكسوا رؤوسهم بهوان، مع أن من بلغائهم من ينطاح السحاب بغروره.”²⁴ “لم يقلد أحداً قط ولا يستطيع أحد أن يقلده. فلقد حافظ وما يزال يحافظ على طراوة أساليبه وشبائيته وغرابتة مثلما نزل أول مرة”²⁵. ويوضح أيضاً أن القرآن الكريم ندي طري كيوم نزوله من حيث استحالة الأتيان بمثله وعدم الأجابة لتحدياته، ويبين “أن الأعجاز طغراء وسكة إلهية على القرآن الكريم”²⁶.

وعندما يبحث الأستاذ عن فصاحة القرآن الكريم يقول “نعم! لو كرّر الوف المرات فلا يورث سأمًا ولا مللاً. بل يزيد لذةً وحلاوةً.. ثم أنه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه.. ولا تسأم منه أذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى من ادنى كلام، بل يتلذذ به.. وكأنه الشراب العذب في فم المختصر الذي يتقلب في السكرات، وهو لذيق في أذنه ودماغه لذة ماء زمزم في فمه. والحكمة في عدم الملل والسأم من القرآن هو: ان القرآن قوتٌ وغذاء للقلوب، وقوة وغناء للعقول، وماء وضياء للارواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يُمل. مثاله الخبز الذي نأكله يوماً دون ان نمل، بينما لو تناولنا اطيب فاكهة يوماً لشعرنا بالملل. فإذا لأن القرآن حقٌ وحقيقة وصدق وهدى وذو فصاحة خارقة فلا يورث الملل والسامة، وانما يحافظ على شبائيته دائماً كما يحافظ على طراوته وحلاوته”²⁷ ويعد هذا الجانب طراوة أخرى للقرآن الكريم

وكما يقول الاستاذ، أن القرآن استطاع أن يخاطب في كل مرحلة مدارك مختلفة وطبائع متغايرة. ولأجل اسلوبه المرن هذا، وجد فيه كل الناس مبعثاً من السلوى والأطمئنان رغم الفروق بينهم، “وقد منح الإنسانية في كل عصر أموراً جديدة. فالتطور الفائق في هذا العصر أكثر من كل عصر مضى ولا سيما خلال السنين الخمسين الأخيرة على الساحة العلمية لم يورث أي ضرر للقرآن الكريم، ولم يمس قداسته وأحقيته بسوء”²⁸. “وذلك ان القرآن جاء ليرشد الإنسانية في كل زمان ومكان إلى الصواب، وليحل مشاكلها”²⁹ وهو يملك هذه القدرة. فمثلاً قال أحد رجال العلم الفرنسيين العالم رايونند لورج (Raymond Lerouge) على رغم نصرانيته: “القرآن على استعداد ليخلص الإنسانية مما تعاني من المآزق، ومحمد كما كان فهو رجل زماننا أيضاً”³⁰.

ويلخص بديع الزمان لنا هذا الأمر بكلماته الوجيهة كما يلي:

“نعم! لما كان القرآن كلاماً لرب العالمين نزل من المرتبة العظمى لربوبيته الجليلة، مهيمناً على جميع المراتب الأخرى، مرشداً البالغين الى تلك المراتب، مخترقاً سبعين ألف حجاب، ملتفتاً إليها ومنوراً لها، وقد نشر نوره على الاف الطبقات من المخاطبين المتباينين في الفهم والادراك، ونثر فيضه طوال عصور وقرون متفاوتة في الاستعدادات. وعلى الرغم من نشره لمعانيه بسهولة تامة في جميع الانحاء والازمان، احتفظ بحيويته ونداوته ونضارته ولم يفقد شيئاً منها، بل ظل في منتهى الطراوة

24- الكلمات ص 424

25- الكلمات ص 431

26- الكلمات و محمد كلاحي “الإعجاز القرآني في رسائل النور ص 37 منشورات دار إيز، استانبول 1997

27- الكلمات ص 437

28- محمد الغزالي، طريقة فهم القرآن ص 332 منشورات دار سور، أنقرة 1993.

29- محمد الغزالي ص 131

30- اسماعيل حمدي دانشمند ص 54- 55 de Mahomet 1939، باريس ص 21 .

والجدة واللطافة سهلاً ممتعاً، إذ مثلما يلقي دروسه على أي عامي كان في غاية السهولة يليقه على المختلفين في الفهم والمتباينين في الذكاء من الطبقات المتفاوتة الكثيرة جداً ويرشدهم إلى الصواب ويورثهم القناعة والاطمئنان. ³¹ نعم، إن القرآن قد جمع المباحث الكلية لما يخص الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه والأرض والسموات والدنيا والآخرة والماضي والمستقبل والأزل والابد. فهو كتاب الله ³² فلا تنقص شبابه بل تزيد، وذلك لأنه “يشاهد الأزل والابد ... كالزمان الحاضر” ³³ فبناءً على هذا “القرآن ما نزل لأهل عصر فقط بل لأهل جميع الأعصار، ولا لطبقة فقط بل لجميع طبقات الإنسان، ولا لصنف فقط بل لجميع أصناف البشر. ولكل فيه حصة ونصيب من الفهم. والحال أن فهم نوع البشر يختلف درجة درجة.. وذوقه يتفاوت جهة جهة.. وميله يتشتت جانبا جانبا.. واستحسانه يتفرق وجهاً وجهاً.. ولذته تتنوع نوعاً نوعاً.. وطبيعته تتباين قسماً قسماً.. فكم من أشياء يستحسنها نظر طائفة دون طائفة وتستلذها طبقة ولا يتزل إليها طبقة. وقس!..

فلأجل هذا السر والحكمة أكثر القرآن من حذف الخاص للتعميم ليقدّر كل مقتضى ذوقه واستحسانه. ولقد نظم القرآن جملته ووضعها في مكان يفتح من جهاته وجوه محتملة لمراعاة الأفهام المختلفة ليأخذ كل فهم حصته.. وقس!.. فإذا يجوز أن يكون الوجوه بتمامها مرادة بشرط أن لا ترددها علوم العربية، وبشرط أن تستحسنها البلاغة، وبشرط أن يقبلها علم أصول مقاصد الشريعة. فظهر من هذه النكتة أن من وجوه اعجاز القرآن نظمه وسبكه في أسلوب ينطبق على أفهام عصر فعصر.. وطبقة فطبقة.” ³⁴ “إن البلاغة هي مطابقة الحال. والحال: إن المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة، وفي أعصار مختلفة. فلمراعاة هذه الطبقات، ولجواره هذه الأعصار، ليستفيد مخاطب كل نوع ما قدّر له من حصته” ³⁵ “ولا يلبثه مرور الزمان، فهو أسلوب غض طري يحتفظ بفتوته وشبابه ونضارته دائماً” ³⁶

وكما أشار الاستاذ، لم تعجز المدينة الحاضرة أمام القرآن الكريم من ناحية العلمية والعملية فقط، بل عجزت من الناحية الأدبية والبلاغية أيضاً، فقد اضطرت الخضوع أمام قوة وجمال كلامه الذي لا يهيج ولا يذبل ولا ينقص منه شيء. فالقرآن بطراوته “يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور، وكأنه متوجه توجهاً خاصاً إلى تلك الطبقة بالذات.” ³⁷ لذا استطاع القرآن الكريم أن يبقى شاباً قوياً على مر الزمان. وذلك أنه مع اختلاف مقتضى الحال على مر الدهور قد حافظ هذا الكتاب على بريقه ولعانه، ولم يخرج في أي زمان على خارج حدود التحضر والتمدن. وبعبارة الاستاذ بديع الزمان الوجيهة الجميلة “نعم! إن القرآن الكريم لأنه خطاب أزلي يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور خطاباً مباشراً يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً وهو كذلك كما كان. حتى أنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطباع نظراً لأنه خاص بذلك العصر ووفق مقتضياته ملقناً دروسه ملفتاً إليها الأنظار.

31- الكلمات ص 450

32- الكلمات ص 458

33- الكلمات ص 458

34- اشارات الاعجاز ص 49

35- اشارات الاعجاز ص 56

36- المكويبات / ترجمة احسان قاسم الصالح ص 238

37- الكلمات ص 478

ان آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتبدل. إلا ان احكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها اكثر كلما مرت العصور.³⁸

فالقرآن الكريم يمتلك قوة تسديد احتياجات هذا العصر بطراوته مثلما قد لبي احتياجات بقيه العصور، وهذا دليل على أديته، وكل ما يكتشف الإنسان آية في نفسه وفي الكون، تعتبر هذه الآية دليلاً مشهوداً على حقائق القرآن وعلى سرمديته. والكشوفات البشرية في مجال العلم والقوانين الطبيعية تؤيد مدى صواب النظرة القرآنية.³⁹

“ان المدنية الحاضرة التي هي حصيلة افكار بني البشر وربما الجن ايضاً قد اتخذت طوراً مخالفاً⁴⁰ للتحدي القرآني منذ أربعة عشر قرناً، غير هذا الطور المخالف لم تعمل سوى تصديق حكم الآية الكريمة {قل لمن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً} (سورة الاسراء : 88) . “فكما ان المدنية الحاضرة تخسر وتغلب امام دساتير القرآن المتعلقة بحياة الانسان الاجتماعية، فيظهر افلاسها _ من زاوية الحقيقة _ ازاء اعجاز القرآن المعنوي، كذلك فان فلسفة اوربا وحكمة البشر _ وهي المدنية _ عند الموازنة بينها وبين حكمة القرآن. بموازين الكلمات الخمس والعشرين السابقة، ظهرت عاجزة وحكمة القرآن معجزة⁴¹ نعم “ان دساتير القرآن الكريم وقوانينه لأنها آتية من الازل فهي باقية وماضية الى الابد. لا تهرم ابداً ولا يصيبها الموت كما تهرم القوانين المدنية وتموت، بل هي شابة وقوية دائماً في كل زمان.⁴² فالكتاب الذي يجيب بدساتيرها على اسئلة كل عصر بطراوته وشبابيته، ولم يتخلف عن تطور العصر، بل تقيم العلاقة مع كل رقي، فهو معجزة ابدية خالدة.

لذا يرى الاستاذ بدیع الزمان “ان الطائفة والكهرباء والقطار واللاسلكي وامثالها من منجزات العلم والصناعة _ التكنولوجيا الحديثة _ والتي تعدّ حصيلة التقدم الانساني ورقيه في مضمار الصناعة والعلم، أصبحت هذه الاختراعات موضع اهتمام الانسان، وتبأت مكانة خاصة في حياته المادية. لذا فالقرآن الكريم الذي يخاطب البشرية قاطبة لم يهمل هذا الجانب من حياة البشر، بل قد أشار الى تلك الخوارق العلمية⁴³ وقد حافظ القرآن على طراوته من هذه الناحية ايضاً، ولم يتخبط أمام الكشوفات، ولم يجعل منتسبه عاجزين من هذه الناحية. “ان القرآن العظيم، حكيم يعطي لكل شئ قدره من المقام، ويرى القرآن من ثمرات الغيب التقدم الحضاري البشري قبل ألف وثلاثمائة سنة المستترة في ظلمات المستقبل، أفضل واوضح مما نراها نحن وسراها. فالقرآن اذاً كلام من ينظر الى كل الأزمنة بما فيها من الأمور والأشياء في آن واحد...⁴⁴ “ان البيانات القرآنية لا يمكن ان تستند الى علم جزئي لبشر، ولا سيما إنسان امي، بل لا بد ان تستند الى علم واسع محيط بكل شئ والبصير بجميع الاشياء معاً...⁴⁵ والقرآن تحت الحفظ الإلهي تجاه التحريفات، فمثل هذا الكلام لا بد ييقى ندياً طرياً على الدوام.

38- الكلمات ص 471

39- محمد الغزالي ص 330

40- الكلمات ص 471

41- الكلمات ص 476 / انظر ايضاً إلى محمد كلاحي ص 261 - 266

42- الكلمات ص 473

43- الكلمات ص 278

44- الكلمات ص 296

45- الكلمات ص 154 - 155

والخلاصة: إن جدّة القرآن ونداوته على الدوام، وقرائته وكأنه يتنزل جديداً في كل عصر، وحفظه على حدائته، وعدم نقصانه وتذيله، وكونه خطبة أزلية تخاطب الناس جميعاً على مر الدهور بمختلف مداركهم، كل ذلك ضمن حدود الاعجاز القرآني لدى الاستاذ النورسي. أجل فالاستاذ النورسي يرى أن القرآن الكريم ينظر إلى مختلف العصور من حيث الفكر والقابلية، ويمنح كل عصر ما يحتاجه، ويأخذ كل عصر منه حصته دون أن يمد يده لخصص بقية العصور. وبذلك لا يهزم القرآن⁴⁶ بل يشبّ كلما شاب الزمان⁴⁷ فالتغيرات العظيمة الجارية في العالم، لم تمس الأسلوب الجميل للقرآن الكريم وحقائقه القيمة مس سوء، ولم تهرمه، ولم تطفئ جماله ولم تسقط قيمته.⁴⁸ وأنا بدوري اختتم تبليغي هذا بمحدث نبوي شريف يشير إلى نداوة القرآن وجدته ويبين أن الحصن الحصين تجاه مشاكل المستقبل القادم هو القرآن الكريم:

“كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل؛ من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكور الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيع به الاهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشيع منه العلماء ولا يخلق على كثرة ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: انا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى الى الرشده من قال به صدق ومن عمل به اجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم”⁴⁹

ترجمة: جميل شانلي

46- محمد كلاجي ص 39
47- محمد كلاجي ص 318 – 319
48- محمد كلاجي ص 319
49- الترمذي / فضائل القرآن، 14 (178/5).

ضوابط الإعجاز العددي في القرآن الكريم

أ.د. محمد زكي محمد خضر^P

1- مقدمة:

عرف العلماء منذ القرن الثاني للهجرة النبوية الشريفة تأليف عديدة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم. بل كاد أن يكون مفهوم إعجاز القرآن هو الإعجاز اللغوي فحسب. فالتحدي الذي ورد في القرآن بالإتيان بعشر سور من مثله أو بسورة مثله كان على مر القرون مفهومه من حيث اللغة والبيان والمعنى ليس إلا. وقد تعرض موضوع الإعجاز اللغوي لدراسات معمقة وأدلى العلماء بدلائهم في تبيان أوجه الإعجاز في كل سورة وآية بل لفظة من ألفاظ القرآن حتى عدَّ بعضهم أكثر من عشرين لونا من ألوان البلاغة في آية واحدة مثل قوله تعالى في سورة هود { وقيل يا أرض ابلي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين } فتحدثوا عن بلاغته وفصاحته وبيانه وبديعه وتأليفه وأسلوبه ومطالعه ومقاطععه وفصله ووصله وترغيبه وترهيبه وأمره ونهيته وتسلسل التشريع فيه وأحكامه بل كل لفظة جاء بها وما أحاطت به من معان ومقاصد. وسيظل الناس يزيدون ذلك تمحيصا وبيانا كالبحر دون أن يصلوا إلى غوره.

وقد تضمن القرآن أخبارا لما سلف من حوادث خلعت وحقائق سابقة كما تضمن أخبارا بوقائع تقع بعد نزوله وقد وقع فعلا منها ما بينه العلماء في مواضعه. فهذا النوع من الإعجاز يقع في أي زمن يشاء الله تبيانه للناس يفهمه من يفهمه وينكره من ينكره. ومثال ذلك مطلع سورة الروم { الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم } حيث نزلت هذه الآيات من سورة الروم والرسول ﷺ بمكة قبل الهجرة بثلاثة أعوام ولم يتحقق نصر الروم إلا في السنة الثانية للهجرة وجاء الخبر بذلك يوم انتصار المسلمين في معركة بدر وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله.

P من مواليد سنة 1944م، نال شهادة الماجستير في الهندسة الكهربائية من جامعة بغداد سنة 1965م والدكتوراه من جامعة شفيهد يانكلترا سنة 1972م. عمل أستاذا في جامعة الموصل ثم رئيسا لقسم الهندسة الكهربائية فيها 1972-1978 ثم رئيسا لقسم الحاسوب سنة 1981 واعتبارا من سنة 1992 أستاذا في قسم الهندسة الكهربائية في جامعة الأردن. له 11 ضمن اختصاصه مؤلفا ومشاركاً و3 كتب إسلامية، مع أكثر من 50 بحثا علميا.

أما الإعجاز العلمي فلم يكشف عنه النقاب سوى في العصر الحديث وقد تحدث فيه الكثير من المؤلفين المحدثين وأصاب كثير منهم في تفسير بعض آيات من القرآن الكريم وأخطأ بعض في تأويلات أخرى. وقد شملت الدراسات التي تمت في علوم التشريح والأحياء والنبات والصخور والجبال والفضاء والمياه وغيرها وقد أدلى الكثيرون بدلائهم في مجالات تخصصاتهم ما يلفت الأنظار ويبهز العقول. إذ كيف يمكن لرجل أمي قبل ألف وأربعمائة عام أن يتحدث عن أمور علمية دقيقة لم يكشفها العلم الحديث سوى في السنوات الأخيرة. وقد هدى الله بهذا البيان علماء متخصصين في علوم شتى للإسلام بعد أن تبين لهم الحق من خلال هذا النوع من الإعجاز. ولغرض تحديد مقومات الإعجاز العلمي في القرآن فقد أوجز بعض العلماء¹ شروط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن بما يأتي: موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي وعدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام أو ما له حكم المرفوع و موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافرا عن السياق. كما يجب التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات (إنكارها) وأن لا يكون التفسير حسب نظرية وهمية متداعية بل لا بد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة. وهناك بعض العلماء من يفضل استعمال مصطلح التفسير العلمي أو دلائل النبوة بدل الكلام عن الإعجاز العلمي في القرآن.²

أما في مجال العد والأرقام والإحصاء فقد قام المسلمون منذ عصر الحجاج بن يوسف الثقفي بإحصاء حروف القرآن وكلماته وسوره وأماكن الوقف فيه وأماكن الوصل وسجده وأعرشاه وأحزابه وغير ذلك مما أمكنهم واسترعى أنظارهم. وكان هدفهم من ذلك تثبيت الواقع خوفا من زيادة أو نقصان أو خطأ أو سهو من النساخ والكتبة وكان ذلك مما هبأه الله من وسائل لحفظ كتابه. ويشكك السخاوي (المتوفى سنة 643 هجرية) في فائدة ذلك بقوله: "لا أعلم لعد الكلمات والحروف من فائدة، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان والقرآن لا يمكن فيه ذلك".³

وعلى الرغم من ذلك فلم يغلق الأولون أبواب التحري والبحث فيه فيقول الطوسي في كتاب اللمع صفحة 106: "إن تحت كل حرف من كتاب الله كثيرا من الفهم على مقدار ما قسم لهم من ذلك" واستدل على ذلك بمثل قوله تعالى {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} الحجر/21⁴

ويقول الفخر الرازي: "من تأمل في لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيب ونظم آياته"⁵ يقول الإمام النورسي⁶ "بين السابقون من أهل الحقيقة ما في كلمات القرآن من الوجوه العديدة والعلاقات والأوصار والإرتباطات التي تربطها مع سائر جملة وآياته ولا سيما علماء علم حروف

1- إتقان البرهان في علوم القرآن فضل حسن عباس/ دار الفرقان 1997 الجزء الأول
2- كيف تتعامل مع القرآن - عمر عبيد حسنة- مدارس مع الشيخ محمد الغزالي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1991 فيرجينيا
3- إتقان في علوم القرآن للسيوطي 1/151
4- هذا القرآن في مائة حديث نبوي: محمدزكي محمد خضر/الطبعة الثانية 1987/1408 صفحة 8
5- إعجاز النظام القرآني - اللواء أحمد عبد الوهاب - مكتبة غريب 1980
6- رسائل النور: المکتوبات الجزء الثاني صفحة 247

القرآن ، فقد أوغلوا كثيرا في هذا الموضوع وأثبتوا بدلائل : أن في كل حرف من القرآن الكريم أسراراً دقيقة تسع صحيفة كاملة من البيان والتوضيح"

فالآية الكريمة من سورة الكهف: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} (الكهف: 109)، تبين رمزا مدى أهمية الحروف القرآنية ومدى قيمتها ومزاياها وكونها نابضة بالحياة فتقول بمعناها الإشاري أن القرآن الكريم الذي هو كلام الله حي يتدفق بالحيوية رفيع سام الى حد لا ينفد عدد الأسماع التي تنصت اليه ولا عدد الكلمات المقدسة التي تدخل تلك الأسماع، لا تنفذ تلك الأعداد حتى لو كانت البحار مدادا والملائكة كتابا لها.⁷

2- تكرار الكلمات في القرآن الكريم:

عني كثير من العلماء الذين اهتموا في علوم القرآن بأسرار الكلمات والعبارات المكررة في القرآن الكريم وعنوا ببيان معنى ومغزى كل لفظة أو جملة تكرر ورودها في القرآن.⁸ وأول من لفت النظر الى جانب من الحكم في تعداد بعض ألفاظ القرآن الكريم في العصر الحديث هو الإمام النورسي رحمه الله تعالى.⁹ فقد أورد جملة من الألفاظ القرآنية وتعداد مرات تكرارها في القرآن الكريم . وفيما يأتي جانب من ذلك:

1- الإشارة الى ورود لفظ "الرسول" الوارد في القرآن الكريم في 160 آية وكانت سورتا "محمد" و "الفتح" هما أكثر السور القرآنية ذات العلاقة ولذا حصر نظره في السلاسل الظاهرة في تلكما السورتين.

2- لفظ "القرآن" ورد في 69 آية وقد وردت في 7 سلاسل وظلت كلمتان منها خارج السلاسل وكانت تلكما الكلمتان بمعنى القراءة مما شد - بخروجهما - من قوة النكته.

3- ورد لفظ الجلالة "الله" 2806 مرات في القرآن الكريم وورد لفظ "الرحمن" - مع ما في البسملة - 159 مرة وورد لفظ "الرحيم" 120 مرة ولفظ "الغفور" 61 مرة ولفظ "الرب" 846 مرة ولفظ "الحكيم" 86 مرة ولفظ "العليم" 126 مرة ولفظ "القدير" 31 مرة ولفظ "هو" في "لا إله إلا هو" 26 مرة (بعض الأرقام ليس دقيقاً)

4- إن وجود علاقة بين عدد آيات القرآن الكريم مع ستة أرقام من عدد الأسماء الحسنی يشير إلى سرّ مهم فإن عدد ألفاظ "الله والرحمن والرحيم والغفور والحكيم" هو نصف عدد آيات القرآن الكريم والفرق أربعة أعداد.

5- لفظ الجلالة "الله" مع لفظ "الرب" الوارد بمعنى "الله" نصف عدد آيات القرآن أيضاً إذ أن لفظ "الرب" المذكور 846 منها خمسمائة وبضع قد ذكرت بدلا عن لفظ الجلالة "الله" ومائتين وبضع منه ليس بمعنى "الله"

6- مع لفظ "القدير" عوضا عن لفظ "هو" هو نصف عدد مجموع الآيات أيضاً، والفرق تسعة أعداد

7- عدد لفظ الجلالة "الله" في سورة البقرة مساو لعدد آياتها ، والفرق 4 أعداد وهناك 4 ألفاظ بدلا عن لفظ "الله" كما هو في "لا إله إلا هو" وبها يتم التوافق

7- رسائل النور : للمعات الجزء الثالث صفحة 416 و 421

8- اسرار التكرار في القرآن الكريم للكرماني

9- رسائل النور: المكتوبات: القسم الثالث من المكتوب التاسع والعشرين صفحة 522-527

- 8- عدد لفظ الجلالة "الله" في سورة آل عمران متوافق مع عدد آياتها ويساويها ولكن لفظ "الله" ورد فيها 209 مرات بينما عدد آيات السورة 200 آية فالفرق إذن 9 آيات ولا تخل الفروق الصغيرة في مثل هذه المزايا الكلامية والنكات البلاغية، إذ تكفي التوافقات التقريبية
- 9- عدد آيات السور الثلاث "النساء والمائدة والأنعام" 464 يتوافق مع مجموع عدد ما في السور الخمس التالية من لفظ الجلالة "الله" 461 وهما متوافقان تماما إذا عد لفظ الجلالة في البسملة
- 10 - عدد لفظ الجلالة في السور الخمس الأولى هو ضعف عدد لفظ الجلالة في سور "الأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود"
- 11 - عدد لفظ الجلالة في السور الخمس التي تليها "يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل" هو نصف النصف
- 12- عدده في سور "الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج" هو نصف نصف النصف
- 13- السور التالية بعدها بخمس سور وخمس سور تدوم بتلك النسبة تقريبا ولا بأس بمثل هذه الفروق في مثل هذا المقام الخطابي
- مثلا ان قسما منها 121 وآخر 125 وآخر 154 وآخر 159
- 14- في السور الخمس التالية التي تبدأ من سورة "الزخرف" ينزل الى نصف نصف ذلك النصف
- 15- السور التي تبدأ من سورة "النجم" يكون العدد نصف نصف نصف ذلك النصف ولكن بصورة مقاربة ولا ضرر في فروق الكسور الصغيرة في مثل هذه المقامات الخطابية
- 16- في ثلاث مجموعات من السور الخمس الصغيرة ثلاث أعداد من لفظ الجلالة
- 17- للفظ الجلالة "الله" في صفحات المصحف الشريف نكتة فإن أعدادها في الصحيفة الواحدة له علاقة بوجه تلك الصحيفة اليمنى وبالصحيفة المقابلة لذلك الوجه وأحيانا بالصحيفة المقابلة لها في الجانب الأيسر وبوجه ما وراءها، وقد تتبعت ذلك في مصحفي فرأيت توافقا عدديا بنسبة عددية جميلة للغاية على الغالب... فكثيرا ما كانت تتساوى وأحيانا تصبح نصفًا او ثلثًا وعلى كل حال تشعر بحكمة وانتظام
- 18- إذا ما نظمت الفاظ الجلالة "الله" في القرآن والبالغة 2806 باستثناء نادر جدا فستشاهد التوافقات وستشعر في ذلك نور اعجاز عظيم لأن فكر الإنسان لا يمكن أن يحيط بهذه الصفحات الواسعة جدا ولا يستطيع أن يتدخل فيها قطعا. أما المصادفة فلا تنال يدها هذه الأوضاع الحكيمة
- 19- نستكتب مجددا مصحفا شريفا ليرز التوافقات في الصحيفة الواحدة.. وعند ذلك سيظهر سر انتظام التوافقات الحقيقي إن شاء الله وقد أظهر فعلا.
- إن من يتمعن في هذه الملاحظات يجد أن الإمام النورسي رحمه الله تعالى يحاول أن يصل إلى الإعجاز من خلال ثلاث خطوات هي :

ملاحظة عددية ----> ملاحظة جمالية لبيان القرآن ----> إعجاز

فهو يقرر أن الملاحظة العددية حتى ولو لم تكن دقيقة تماما (كما يتضح من العبارات التي وضع تحتها خطوط في النصوص أعلاه) فإنها تخدم صدق النظر في جمال نظم القرآن الكريم وهو أمر حسي بلاغي وليس مجرد أرقام صماء تتساوى أو تختلف . ولذلك فهو يتجاوز الفروق الصغيرة لأنها لا

تشكل خلافاً في ما أسماه بالمزايا الكلامية والنكات البلاغية والتي هي أمور حسية يدركها المتأمل في التوافق العام لألفاظ القرآن الكريم كما يتضح ذلك من الأمثلة المنتقاة والمعروضة أعلاه وهنا نود أن نؤكد على أهمية هذه الملاحظة بشكل خاص وذلك بمقارنتها ببعض من ولج في حقل الإعجاز العددي للقرآن الكريم في السنوات الأخيرة كما سنبينه فيما بعد ثم تلا ذلك عدد من المؤلفين بالإشارة إلى تعداد كلمات أخرى في القرآن الكريم وتبيان التوافقات في أعدادها . فقد قام عبد الرزاق نوفل في كتاب (الله والعلم الحديث) الذي صدر في عام 1376 هـ وفي كتاب (الإسلام دين ودنيا) الذي صدر عام 1959م وفي (كتاب عالم الجن والملائكة) عام 1968 وفي كتاب الإعجاز العددي للقرآن الكريم في عامي 1975-1976 وفي كتاب معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم الذي صدر عام 1403هـ/ 1983م بتعداد عدد من ألفاظ القرآن الكريم مبينا التوافقات فيها . ومن ذلك^{10، 11} :

لفظة الدنيا قد تكرر 115 مرة في القرآن وهو نفس العدد الذي تكرر به لفظة الآخرة وذلك بالرغم من أنه ليست كل الآيات التي وردت فيها الدنيا وردت فيها الآخرة فهل هذا التساوي على سبيل المصادفة؟

لفظة الملائكة بلغ عددها 68 وهو نفس العدد الذي تكرر فيه لفظة الشيطان . وألفاظ الملائكة (ملك ، ملكا ، ملكين ، ملائكة) يساوي لفظة الشيطان (الشياطين، شيطانا، شياطينهم) . ولفظة الحياة ومشتقاتها بلغ 145 مرة ويساوي عدد الفاظ الموت ومشتقاته . ولفظة الصالحات ومشتقاتها 167 مرة ويساوي لفظة السيئات ومشتقاتها . ولفظة المحبة بلغ 183 مرة ويساوي لفظة الطاعة ولفظة الهدى بلغ 79 مرة ويساوي لفظة الرحمة ولفظة الشدة بلغ 102 مرة ويساوي لفظة الصبر ولفظة السلام بلغ 50 مرة ويساوي لفظة الطيبات ولفظة العقل ومشتقاته يبلغ 49 مرة ويساوي لفظة النور ولفظة المصيبة بلغ 75 مرة ويساوي لفظة الشكر ولفظة الجهر 16 مرة ويساوي لفظة العلانية ولفظة إبليس بلغ 11 مرة ويساوي لفظة الاستعاذة بالله ولفظة الرغبة بلغ 8 مرات ويساوي لفظة الرهبة ولفظة الرحمن بلغ 57 مرة ويساوي نصف عدد لفظة الرحيم البالغ 114 مرة (لاحظ الاختلاف في الأعداد عما ورد أعلاه والسبب في احتساب البسملة أو صيغ الرحيم ورحيما) ولفظة الجزاء يبلغ 117 مرة ويساوي نصف عدد ألفاظ المغفرة الذي بلغ 234 مرة ولفظة الفجار ورد 3 مرات ويساوي نصف عدد ألفاظ الأبرار الذي ورد 6 مرات ولفظة العسر 12 مرة يبلغ ثلث عدد ألفاظ اليسر الذي يبلغ 36 مرة ولفظة الشهر بلغ 12 مرة (وكأنه يقول إن السنة 12 شهرا) ولفظة اليوم بلغ عددها 365 مرة (وكأنه يقول إن السنة 365 يوما)

ويلاحظ أن هذه الأعداد قد حسبت أحيانا اللفظة مجردة فقط وأحيانا مع ملحقاتها وأحيانا وقعت أخطاء في احتسابها. لذلك ينبغي الإشارة إلى أن هذا النوع من العد يجب أن يكون تقريبا للوصول إلى الجمال بشكل عام . لأن كلمات أخرى قد ترد ذات علاقات وثيقة لكن الحسابات العددية لا تأتي متفقة تماما.

10- الإعجاز العددي للقرآن الكريم : عبدالرزاق نوفل 1975

11- معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم - عبدالرزاق نوفل - دار الكتاب العربي 1982

وقد أورد كاتب آخر¹² إحصاءات أخرى فمثلا وردت كلمة البر 12 مرة وبضمنها كلمة ييسا (بمعنى البر) بينما بلغ تكرار كلمة البحر 23 مرة (وفي ذلك أشار الى أن هذا التكرار هو بنسبة البر إلى البحر على سطح الأرض الذي هو بنسبة 12 / 23)

ووردت لفظة جهنم 77 مرة يقابلها لفظة جنات ومشتقاتها وردت 77 مرة ولفظة رجل مفردة وردت 24 مرة وكذلك إمراة مفردة وردت 24 مرة ولفظة أخ وردت 4 مرات وكذلك لفظة أخت وردت 4 مرات ولفظة الحياة ومشتقاتها وردت 145 مرة وكذلك الموت ومشتقاته ورد 145 مرة ولفظة افسد وردت 50 مرة وكذلك لفظة ينفع وردت 50 مرة ولفظة الرغبة وردت 8 مرات وكذلك الرهبة وردت 8 مرات والإيمان وردت 17 مرة وكذلك الكفر وردت 17 مرة والطيب وردت 7 مرات وكذلك الخبيث وردت 7 مرات والرشد وردت 3 مرات وكذلك الغي وردت 3 مرات ولفظة شك وردت 15 مرة وكذلك لفظة ظن وردت 15 مرة ولفظة جهرة وردت 16 مرة وكذلك علانية ومشتقاتها وردت 16 مرة ولفظة هلك ومشتقاتها وردت 66 مرة وكذلك نجاة الإنسان ومشتقاتها 66 مرة . النور وردت 24 مرة وكذلك الظلمة وردت 24 مرة . لفظة ثقلت وردت 17 مرة وكذلك خفت وردت 17 مرة وألفاظ قبل ، قبلك وردت 149 وكذلك بعد ، بعدك وردت 149 مرة ولفظة قالوا وردت 332 وكذلك قل وردت 332 (نؤكد مرة أخرى إلى وقوع خلل في بعض هذه الأرقام).

هناك نوع آخر من ظواهر تكرار وتوافق وتوازن عدد الكلمات في القرآن الكريم (12) وهي توافق أعداد الكلمات المكونة لعبارة أو آية مع آية أخرى أو عبارة أخرى وتقف العبارتان أو الأيتان على كفتي ميزان في تماثلهما بالإشارة إلى الموضوع نفسه أو إلى عكسه تماما. إن كلمات القرآن الكريم تصنف وتصور بشكل مطابق تماما للواقع الذي توجد فيه هذه المسائل لذلك فالمسألة المكونة من ركنين تتوازن تماما بالنسبة لركني المسألة. أما المسألة المكونة من ركنين بحيث يتميز أحدهما عن الآخر فإن كلمات القرآن الكريم تصورهما بشكل متوازن من جهة ومتفوق من جهة أخرى. فمثلا قوله تعالى:

{ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين } (التوبة 44) وهي 14 كلمة يقابلها قوله تعالى في الموضوع نفسه:

{ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون } (التوبة 45) وهي 14 كلمة كذلك.

وفي قوله تعالى : **{ وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله }** 7 كلمات يقابله الجواب على ذلك وهو قوله تعالى في الآية نفسها **{ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا }** وهو 7 كلمات أيضا

وفي قوله تعالى **{ قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء }** 7 كلمات وتمتها قوله تعالى **{ قال لا عاصم اليوم من أمر الله }** وهي 7 كلمات أيضا.

وهكذا يورد عشرات الأمثلة على ذلك لجزئين من آية أو آيتين كل منهما تحوي العدد نفسه من الكلمات وتشكلان عنصرتين متوازيتين من سؤال وإجابة أو من كفتي ميزان لأمرين متناظرين .

وينطبق الأمر نفسه في تعداد الحروف كذلك في أمثلة أخرى مثال ذلك قوله تعالى **{ ذلك الكتاب }** تحوي 8 حروف يقابله 8 حروف كذلك في قوله تعالى **" لا ريب فيه "** وبالْحَقِيقَةُ أن عدد

الحروف ذو علاقة خفية مع الوزن البلاغي والصوتي لللفاظ . لذلك فإن هذا النوع من الحساب والإحصاء إنما هو تأكيد في أحد جوانبه للإعجاز اللفظي والبلاغي للقرآن الكريم .
ويشبه ذلك التوازن بين قوله تعالى {من يطع الرسول} وقوله "فقد أطاع الله { فكلاهما مكون من 11 حرف والصلة بالمعنى والتعاقب في الورد ظاهر. وكذلك قوله تعالى {لا تدركه الأبصار} وتتمتها { وهو يدرك الأبصار} 13 حرفا وفي قوله {إنما المؤمنون إخوة} وتتمتها { فأصلحوا بين أخويكم} وكلاهما 16 حرفا. وهكذا يمكن إيراد العشرات من العبارات المتوازنة في أعداد حروفها . ونرى الكاتب هنا يتجاوز أحيانا في الاختلافات البسيطة مثال على ذلك .
{ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون} (28 حرفا) بينما {ففرؤا إلى الله إني لكم منه نذير مبين} (29 حرفا)

فالثمان وعشرين حرفا مقابل التسع والعشرين لا تمثل خلا في الجمال والتوازن والتناظر الذي هو موضوع الإعجاز الجمالي والبياني رغم عدم تطابق الحساب العددي تماما . وهو بهذا يسلك سلوك الإمام النورسي نفسه في الأخذ بخطوات الوصول إلى الإعجاز من خلال خطوات الملاحظة العددية فالجمال البياني فالإعجاز.

ويشير الإمام النورسي في ذكره لفهرس الحروف القرآنية الذي يقول بأنه قد كتب بشكل تقريبي ليكون مرجعا مؤقتا... ثم إن أسرار التوافقات تأخذ بنظر الإعتبار الجامع الكلية ، فالفهرس التقريبي كاف لنا والتوافقات المذكورة في النكات الثلاث لدعاء "كنز العرش" (دعاء يبدأ بالتوسل بالبسملة وبدائيات السور القرآنية سورة سورة ثم بكل حرف من حروف القرآن مع ذكر أعدادها في القرآن الكريم) لا تتغير بتغير الكسور ولا تفسد تلك التوافقات حتى بتغير الجامع الكبيرة مثلا سورة الكهف ومعها 39 سورة تتفق في عدد الألف فإذا ما فقدت إحدى السور أو اثنتان منها ذلك العدد الألف فلا يفسد ذلك التوافق وهكذا رغم أن الكسور لها أسرارها فإنها لم تفتح أمامنا بعد فتحا جليا ونسأل الله أن يفتحها لنا وعندها يأخذ الفهرس صورته التحقيقية. (لم أطلع على الفهرس المذكور)¹³
يعتمد كاتب آخر¹⁴ على حساب عدد كلمات وعدد الحروف المكونة لآية معينة حاذفا منها المكرر ويبين التوافق في ذلك بين آيات متفرقة . مثال ذلك في قوله تعالى :

{ أن لكم فيه لما تخيرون } فهي مكونة من 5 كلمات وورد فيها 12 حرفا مختلفا (هي : أ ، ت ، خ ، ف ، ك ، ل ، م ، ن ، ه ، و ، ي) ومجموع حروفها 17 حرفا
{إذهب إلى فرعون إنه طغي } مكونة من 5 كلمات وورد فيها 12 حرفا أيضا ومجموع حروفها 18 حرفا

{ فيهما من كل فاكهة زوجان } مكونة من 5 كلمات وورد فيها 12 حرفا أيضا ومجموع حروفها 19 حرفا

وهكذا إلى آيات تحوي 5 كلمات وورد فيها 12 حرفا ومجموع حروفها 29 حرفا في مثل قوله تعالى { أَلربك البنات ولهم البنون }

ثم ينتقل إلى المجموعة المكونة من 13 حرفا بحذف التكرار ثم 14 ثم 15 .. وهكذا ، ويجد الشواهد لكل مجموعة متدرجة في آيات من المصحف الكريم . ويورد جدولا بترتيب عدد حروف كل

13- رسائل النور : الملاحق - الجزء 7 صفحة 76-77

14- أسرار الحروف والآيات في رسالة القرآن العجيب : عاطف محمد عزازية - مطبعة الهدى - كفرمندا (الجليل)

كلمة ضمن الآية. وقد يكون هذا النوع من الظواهر جماليا أيضا وربما لا يثبت أمام الطرق الإحصائية

3- ظواهر عددية في القرآن الكريم

في القرآن الكريم ذكر لأعداد كثيرة . وقد إهتم بعض الباحثين بالبحث عن ظواهر تتعلق بأرقام معينة لاحظوا ورودها بشكل ملفت للأنظار ومن هذه الأرقام 3 ، 4 ، 6 ، 7 ، 13 ، 19 ، وغيرها.

شغف بعض المؤلفين¹⁵ بالبحث عن خصائص بعض الأعداد في القرآن الكريم وألفت في ذلك كتب عديدة . على سبيل المثال ما يتعلق بالرقم 3 ، 7 ، 19 .

ففيما يخص الرقم 3 نجد كتاب: (معجزة القرآن العشرين في كشف سباعية وثلاثية أوامر القرآن الكريم)¹⁶ يذكر منها أوامر العبادة في القرآن الكريم بلفظ اعبدوا ودعوة الأنبياء (شعيب ونوح وصالح وعيسى) أقوامهم إلى عبادة الله بصيغة الأمر فقد وردت دعوة الأنبياء الأربعة لأقوامهم ثلاث مرات لكل منهم. أما إبراهيم عليه السلام فقد ورد الخطاب على لسانه مرة واحدة وعيسى وموسى معا ثلاث مرات أخرى لكل منهم كما ورد خطاب الضالين من قريش ثلاث مرات

وورد خطاب الله لرسوله محمدا (اعبد) ثلاث مرات : في قوله تعالى {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} (الحجر: 99) وقوله تعالى {فاعبد الله مخلصا له الدين} (الزمر: 2) وقوله تعالى {فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا} (مريم: 65).

وهكذا يمضي في تعداد ثلاثيات أخرى في القرآن الكريم أو في مجال السباعيات فيذكر عددا منها فمثلا:

النبأ مثل : { نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم } و { ونبيهم عن ضيف إبراهيم } و { ونبيهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر } و { وقال يا آدم أنبتهم بأسمائهم } و { أنبؤوني بأسماء هؤلاء } و { أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين } و { نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين }

وهكذا يمضي بتعداد السباعيات مثل الأمر بالسجود للخالق جل وعلا وسباعيات أمر الهبوط وسباعية أمر أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بعد النداء وسباعية الأمر بالاستغفار الموجه إلى رسول الله ﷺ. وهذه الملاحظات كلها تتجه نحو تلمس الجمال البياني في القرآن الكريم كخطوة بيانية للوصول إلى الإعجاز على النسق الذي بدأه الإمام النورسي رحمه الله.

وفيما يتعلق بالرقم 19 يشار إلى أن الآية من سورة المدثر {عليها تسعة عشر} حاول بعض الكتاب المحدثين الإشارة إلى أن المقصود بها أن إعجاز الرقم 19 هو تحد للكفار. وقد رد عليهم آخرون منكروين ذلك التأويل وأن المقصود بالرقم 19 هو عدد الملائكة المكلفين بنار جهنم كما هو قول جمهور المفسرين على مر القرون. ولم يكتف هؤلاء بذلك بل ردوا على ذلك بالإتهامات والتجريح بل والتخوين والتكفير متخذين من ذريعة تقديس البهائيين لهذا الرقم أساسا لذلك.

ومهما يكن فقد لاحظ بعض الباحثين (16) جملة ملاحظات عددية تتعلق بالعدد 19 فإن البسمة مكونة من 19 حرف ، ويمضي من يتحمس للعدد 19 بالإتيان ببعض الظواهر القرآنية

15- معجزة القرن العشرين في كشف سباعية وثلاثية القرآن الكريم / ابن خليفة علوي / دار الأمان الطبعة الأولى 1403- 1983 دمشق

16- الإعجاز الرقمي في القرآن محمد رشاد خليفة - 1976

حوله فمثلا أن عدد آيات سورة الفاتحة بدون البسمة هو 6 وإذا ضرب هذا العدد في الرقم 19 كان الناتج هو 114 وهو عدد سور القرآن وأن عدد آيات سورة الناس هو 6 فلو ضرب كذلك في 19 لكان الناتج 114 . أي أن أول القرآن وآخره يحدد عدد سوره (ولا يخفى ما في ذلك من تكلف).

ويشير بعضهم إلى أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى { إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم } وهذه الآيات الخمس مكونة من 19 كلمة . وإن آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } (المائدة: 3) وعدد حروف العبارة {ورضيت لكم الإسلام ديناً} يبلغ 19 حرفاً وفي ذلك تكلف ظاهر أيضاً . وقوله تعالى { إياك نعبد وإياك نستعين } يبلغ عدد حروفها 19 حرفاً وكذلك قوله تعالى { إهدنا الصراط المستقيم } يبلغ 19 حرفاً أيضاً وكذلك قوله تعالى { الدين عند الله الإسلام } يبلغ 19 حرفاً وهي الآية 19 من سورة آل عمران.

وعمضي بعضهم (11) في تعداد ما ورد من عبارات في القرآن الكريم تحوي 19 حرفاً أو تتكرر 19 مرة مثل أسماء الله الحسنى :

السميع تكرر 19 مرة والحكيم تكرر 38 مرة ويساوي 2×19 و الرحمن 57 مرة ويساوي 3×19 و الرحيم تكرر 114 مرة ويساوي 6×19 .

كما حاول مؤلف آخر (20) تبيان مظاهر الإعجاز في العدد 13 والعدد 19 فلإن مجموع آيات أول سورة من القرآن (الفاتحة) وآخر سورة من القرآن (الناس) $7 + 6$ يساوي 13

كما أن أول القرآن نزولاً " إقرأ باسم علم الإنسان ما لم يعلم " وآخر ما أنزل " واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون " (البقرة 281) عدد حروف الأولى 76 وعدد حروف الأخيرة 54 وبذلك يكون $76 + 54$ يساوي 130 وهو 10×13 (لاحظ الإختلاف في تحديد آخر ما نزل من القرآن عما ذكر مسبقاً في موضع آخر)

ويقرن بعضهم الرقمين 13 و19 معاً ، أول سورة في ترتيب المصحف المبتدئة بالحروف المقطعة هي البقرة آياتها 286 ويساوي 13×22 وآخرها هي القلم عدد آياتها 52 ويساوي 13×4 كما أن الآية 13 من سورة الممتحنة (آخر آية من السورة) عدد كلماتها 19 كلمة كما أن أول آية قرآنية في المصحف والتي تتكون من 19 كلمة هي { وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون } وهي الآية 13 من البقرة، وهكذا يمضي في تعداد ظواهر العدد 13 و 19 على هذه الشاكلة مستعينا بأعداد الآيات في السور وأرقام الآيات .

4- الحروف المقطعة في بدايات السور:

يختلف أهل التأويل في الحروف المقطعة التي في أوائل بعض سور القرآن وذهب بعضهم إلى أنها سر الله في القرآن ولا يجب أن يتكلم فيها . وقال جمع كبير من العلماء بل يجب أن يتكلم فيه وتلمس الفوائد التي تحتها¹⁷ . وهناك من قال إنها تدل على معرفة المدد المستقبلية ، كما ورد في حديث ضعيف

أن يهودا مروا برسول الله ﷺ وهو يتلو سورة البقرة: {الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه} فقال حيبي بن أخطب الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة. أفتدخلون في دين نبي مدة ملكه وأجله إحدى وسبعون سنة ، ولما علموا بباقي أحرف المقطعات قالوا تشابه الأمر علينا (18).

ولو صح الحديث أعلاه فإن سكوت النبي ﷺ عن الإنكار على طريقة حسابهم بهذه الطريقة يدل على جوازه . إلا أنه روي عن ابن عباس الزجر عن عدّ أبي جاد (المعروف بحساب الجمل: أبجد هوز ..) وقد ألح الحافظ ابن كثير¹⁸ والحافظ ابن حجر¹⁹ إلى أنه لو صح الحساب لكان الأخذ بكل ما ورد من حروف مقطعة مجتمعة هو الأولى.

وقد إهتم بعض العلماء (الذي أسماهم الإمام النورسي علماء الحروف) على مر القرون بالبحث في معاني الحروف المقطعة وذهبوا مذاهب شتى في ذلك وقد سمي الإمام النورسي الحروف المقطعة بأئها حروف الشفريات الإلهية (7) كما أن الحافظ ابن حجر قال عنها " فإنه ما من حرف منها إلا وله سر يخصه " (19). وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الحروف دلالات غيبية بعضها يتعلق بالمستقبل وبعضها يتعلق بإعجاز القرآن وأساسهم في ذلك إشارة مطلع سورة الروم إلى غلبة الروم كما مر ذكره أعلاه.. ويلاحظ أن الكتابات القديمة حول الحروف المقطعة والدراسات الرقمية حول الفاظ القرآن الكريم كانت كلها باستخدام حساب الجمل (أبجد هوز... بشكل عام)

وقد حظي الموضوع بإهتمام المحدثين كذلك(11). فعدد سور القرآن التي بدأت بها هذه الحروف يبلغ 29 سورة وهو عدد حروف اللغة العربية وعدد الحروف المفردة في السور التي بدأت بها يبلغ 78 وهو عدد حروف أول خمس آيات أنزلت من القرآن الكريم {اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم} وأشار آخرون (16) إلى أن السورتين (ق والشورى) اللتين تبدئان بالحرف ق من الحروف المقطعة تحوي كل منهما الحرف ق 57 مرة (وهو يساوي 19 مضروباً في 3) وكذلك سورة الشورى (التي تبدئ بـ حم عسق) تحويه 57 مرة وحيث أن سورة الشورى تزيد في الطول عن سورة ق بأكثر من الضعف يبدو بوضوح تفوق الحرف ق في سورة ق على كل سور القرآن . كما أن مجموع حرف القاف في السورتين يساوي 114 وهو عدد سور القرآن . كما أن سورة القلم متفوقة في حرف النون بالأخذ بالإعتبار أن كل السور التي تبدئ بنفس الحروف يجب أخذها مجتمعة . وهكذا يجد المؤلف الذي استعمل الحاسب الإلكتروني في هذا الموضوع لأول مرة الكثير من العلاقات خاصة فيما يتعلق بالسور التي تبدئ بالحروف المقطعة.

أما سورتا ص والأعراف فمتفوقتان بالحرف ص (لأن بداية الأولى ص والثانية ألمص) على جميع السور بشرط أن تحسباً سوية وهاتان السورتين كان نزولهما متعاقباً . وكذلك تعامل السور التي تحوي البداية نفسها سوية (16)

5-ظواهر رقمية أخرى:

اهتم كاتب آخر²⁰ بإظهار الإعجاز الرقمي للقرآن من خلال ترتيب سورته حيث قسمها إلى سور زوجية الترتيب وسور فردية الترتيب في المصحف ثم عاد فقسّمها إلى سور عدد آياتها زوجية وسور

18- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الجليل - بيروت :الجزء الأول صفحة 37

19- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني : الجزء 11 صفحة 352

20- أسرار ترتيب القرآن - عبدالله جلغوم - دار الفكر للنشر والتوزيع - الزرقاء 1994

عدد آياتها فردية ثم حاول من خلال إيجاد علاقات رياضية أن يثبت أن ترتيب السور وتقسيمها إلى عدد من الآيات كما مثبت في المصاحف المتداولة اليوم بجوي على إعجاز عددي وقد دافع عن هذه العلاقات رغم وجود اختلافات بين القراء في تحديد عدد آيات كثير من السور. فقد وجد أن السور الزوجية الترتيب في النصف الأول من القرآن 28 سورة وفي النصف الثاني 29 سورة والسور الفردية الترتيب بالعكس أي 27 في النصف الأول من القرآن و28 في النصف الثاني .

وهو بذلك يحاول أن يعود فيقول بما أن كل هذه الظواهر موجودة في أرقام الآيات وأعدادها في السور لذلك فإن عدد آيات السور في المصاحف الموجودة في المشرق من البلاد الإسلامية (بقرأة حفص عن عاصم) هي الصحيحة وما عداها غير صحيح متناسيا أن أعداد الآيات في المصاحف الموجودة في المغرب العربي (بقرأة ورش عن عاصم) مختلفة في أعداد الآيات وهو بذلك يظن بأنه يستطيع جمع الأمة حول تحديد أعداد الآيات في السور بهذا النسق من الحساب.

6- الطرق الإحصائية العلمية وظاهرة الإعجاز الرقمي في القرآن الكريم:

إن من المعروف لدى العاملين في حقل الإحصاء أن الكثير من الظواهر تتوزع بشكل إحصائي يعرف بالتوزيع الطبيعي أي أن يكون هناك تركيز للظاهرة في موضوع معين وتقل كلما كان هناك ابتعاد عن هذا الموقع وإذا لم يكن هناك توزيع طبيعي فهناك توزيع من نسق معين . إن الكثير ممن قام بدراسات الظواهر الرقمية في القرآن الكريم غير متخصصين بالإحصاء وليس لديهم فكرة عن التوزيع الإحصائي. لذلك فهم قد وجدوا بعض الظواهر وحاولوا منها أن يثبتوا الإعجاز بينما الظواهر القرآنية قد تعني جمالا وتناسقا والجمال من صفات القرآن دون اختلاف .

لقد وجد بعض الباحثين ظواهر متفرقة قد تعني إشارات رقمية ذات إعجاز حقيقي . إلا أنهم قاموا بمحاولة تعميم تلك الظواهر فوجدوها أقل انطباقا مما حدى بهم إلى تبرير ذلك بأسباب أقل وضوحا مما أظفي مقدارا من التكلف على أبحاثهم .

إن من يعرف الإحصاء بشكل دقيق قد يتقدم فيشكك في أسس عمل أمثال هؤلاء الحريصين على إثبات الإعجاز فينتهي الموضوع من أساسه وتضيع الإشارات والموضات الحقيقية من الإعجاز الذي لا يمكن دحضه بأساليب إحصائية. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تصدى لمحاربة ظاهرة الإعجاز الرقمي في القرآن بعض العلماء على أساس أنه ليس هناك تقديس للأرقام في الإسلام مما أدى إلى التشكيك والتبديع والتفسيق بل والتكفير أحيانا لبعض من عمل في حقل الإعجاز الرقمي في القرآن.

ولنأخذ مثلا على ذلك فيما يخص العدد 19 ومضاعفاته ، فهي تشكل حوالي 5 % من كل الأعداد الصحيحة المعروفة (5 من كل مائة تساوي تقريبا 19/1) . لذلك يتوقع إحصائيا أن يكون بين كل مائة سورة مثلا هناك 5 سور عدد آياتها يقبل القسمة على 19 (من ناحية نظرية الاحتمالات). أما إذا زاد عدد السور التي يقبل عدد آياتها القسمة على 19 عن 5 % بمقدار محسوس (كأن يبلغ 20% مثلا) فعند ذلك يمكن القول أن العدد 19 متفوق . أم أن يكون هناك سورتان فقط من بين 114 سورة يقبل عدد آياتها القسمة على 19 فلا يمكن بأي حال من الأحوال الإدعاء بتفوق العدد 19 (بل وربما يمكن أن يدعى بأنه رقم مغمور وليس متفوقا) .

ولقد اتخذ من الرقم 19 الذي هو رقم مقدس عند البهائيين أساسا للهجوم على كل من ذكر ظواهر تتعلق بهذا الرقم بالقرآن

كما أن حساب الجمل الذي أشرنا له فيما سبق لم يسلم من الهجوم أيضا.

7- استخدام الحساب من آيات قرآنية في التنبؤ بأحداث قادمة :

إشارت الآيات من مطلع سورة الروم إلى غلبة الروم على الفرس في بضع سنين وقد تحقق ذلك فعلا في زمن الرسول ﷺ وفرح المؤمنون بنصر الله وتحققت نبوءة القرآن الكريم حيث كان وصول خبر ذلك الانتصار يوم انتصار المسلمين في معركة بدر ففرح المؤمنون بنصر الله يومئذ. وقد علمت أن للإمام النورسي كتابات تشير إلى تفاؤله نتيجة توافق بعض الأرقام وإستنباطه أموراً مستقبلية من هذا التوافق فيما يخصه أو يخص جماعة النور ولكن لم أستطع الأطلاع عليها كونها باللغة التركية ولم تترجم إلى العربية.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بعضاً من العلماء فيما سبق قد أشار إلى أمور مستقبلية مستنبطاً إياها من حسابات تتعلق بفواتح السور المقطعة، ومن بين المؤلفين المحدثين من أشار إلى شيء من ذلك منها حسابات للجمل لبعض آيات من القرآن الكريم تشير إلى عام 1974 مدعين أن ذلك يشير إلى أنه أول عام انتشر فيه الإعجاز الرقمي للقرآن على أنه عام مشار إليه في القرآن الكريم وقام آخرون بالتنبؤ بزوال دولة اليهود في 2022 في حسابات أخرى.

إن كافة الحسابات والأقاويل في هذا المجال هي أمور ظنية نرجو أن لا يكون هناك إثم على من توقف عندها ولا على من صدقها وهي لا تدخل في أمور العقيدة ولا ينبغي أن تجر إلى جدل ولا ينبغي الإنكسار عليها في عمل. أما التفاؤل بتوافق بعض الأمور فهي من سنن الرسول ﷺ فكان يعجبه الفأل الحسن فقد ورد أنه تفاعل عندما عرف أن سهيل بن عمرو قدم للتفاوض في صلح الحديبية (كون اسمه سهيل). ولا مانع من أن يتفاعل المسلم بتوافق عدد ما أو إسم ما أو حدث ما فذلك متفق مع السنة النبوية. فإن تحقق الخير فيها ونعمت وإلا فالأمر بيد الله وليس في ذلك من ضرر.

8- الخلاصة:

من يحمل ما قدمنا حول المحاولات في مجال الإعجاز العددي في القرآن الكريم، نخلص إلى جملة أمور منها:

1) الإشارات الرقمية في القرآن الكريم باب مفتوح للبحث وقد يجد في كل باحث ما يوافق ذوقه أو أمينته وقد يستنتج بعض التوافقات والظواهر وقد يراها ظاهرة فريدة وقد يقنع بما غيره. وكل ذلك مفتوح الا أنه يجب أن يعتبر ذلك من المسائل الظنية ولا تنسم بصفة القطع بأي حال من الأحوال ما لم تكن معززة بنتائج مستندة إلى قواعد رياضية وإحصائية رصينة.

2) الرجوع إلى الرسم العثماني ضروري عند أخذ أعداد الحروف والكلمات القرآنية بنظر الاعتبار.

3) أن يكون المستند لدعوى الإعجاز متواتراً لا خلاف فيه. فلا يجوز الإستناد إلى أمور مختلف فيها مثل عدد آيات بعض السور. فالبسمة إختلف فيها هل هي آية من كل سورة أم من الفاتحة فقط أم هي بعض سورة من سورة النمل فحسب. وهذا الإختلاف ليس ثانوياً بين من اهتم بأعداد الآيات من العلماء بل هو إختلاف بين أئمة الفقه (كأبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما) وهو خلاف يعتد

به مما يعني أن عدد آيات السور أمر مختلف فيه وليس متواترا واختيار تعداد معين لأعداد الآيات جائز ولكن لا يعطي أية دلالة إعجاز إذا كان العدد مختلفا فيه.

إن كل الدراسات يجب أن تستند إلى التواتر . كما أن القراءات القرآنية المتواترة يجب أخذها بنظر الإعتبار. فالتفوق العددي وفق قراءة لا يعطي مدلولاً لدى من يقرأ بقراءة أخرى كما أنه لا يعطي دليلاً بأن تلك القراءة وحدها صحيحة وغيرها غير صحيح.

4) من مجمل موضوع الدراسات العددية المتعلقة بالقرآن الكريم يتأكد وجود إعجاز رقمي في القرآن وإن ما يقدمه باحث واحد من قليل من الحقائق قد يضاف إلى ما يقدمه غيره فتتكون ثروة في هذا المجال على مر السنين . لذلك فالموضوع لا يزال حديث النشأة ويحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي وقد يستغرق سنوات طويلة قبل أن ينضج ويؤتي أكله بشكل راسخ .

5) إن كل بحث لإثبات إعجاز رقمي يتعلق بعدد معين يجب مقارنته بأرقام أخرى قريبة من مستواه . فعند بذل جهد لإثبات أن الرقم 7 متفوق يجب أن تتم محاولات مشابهة للرقمين 6 و 8 القربيين منه. ثم بعد ذلك يتقرر إن كان الرقم 7 متفوقاً بشكل ملموس على كل من الرقمين المحيطين به أم لا . وعند ذلك فقط يكون إستنتاج الإعجاز في رقم معين راسخاً.

6) إن النهج الذي سار عليه الإمام النورسي في الوصول إلى إثبات الإعجاز من خلال الجمال البياني للقرآن يبدو أسلم الطرق في هذا المجال بالوقت الحاضر وهو يخاطب الشعور والضمير كما يخاطب العقل.

الهوامش والمصادر:

- 1- إتقان البرهان في علوم القرآن: فضل حسن عباس/ دار الفرقان 1997 الجزء الأول
- 2- كيف تتعامل مع القرآن - عمر عبيد حسنة- مدرسة مع الشيخ محمد الغزالي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1991 فيرجينيا
- 3- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 1/151
- 4- هذا القرآن في مائة حديث نبوي : محمد زكي محمد حضر /الطبعة الثانية 1987/1408 ص 8
- 5- إعجاز النظام القرآني - اللواء أحمد عبد الوهاب - مكتبة غريب 1980
- 6- رسائل النور : المكتوبات : 247
- 7- رسائل النور : اللغات : 416 و 421
- 8- اسرار التكرار في القرآن الكريم للكرمان
- 9- رسائل النور : المكتوبات: القسم الثالث من المكتوب التاسع والعشرين صفحة 522-527
- 10- الإعجاز العددي للقرآن الكريم : عبدالرزاق نوفل 1975
- 11- معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم - عبدالرزاق نوفل - دار الكتاب العربي 1982
- 12- المعجزة - كشف إعجازي جديد في القرآن- المهندس عدنان الرفاعي - سوريا
- 13- رسائل النور : الملاحق - الجزء 7 صفحة 76-77
- 14- أسرار الحروف والآيات في رسالة القرآن العجيب : عاطف محمد عزيزة - مطبعة الهدى - كفرمندا (الجليل)

416 المؤتمر العالمي الرابع لبدیع الزمان سعید النورسی

- 15- معجزة القرن العشرين في كشف سباعية وثلاثية القرآن الكريم / ابن خليفة عليوي / دار الأيمان ط 1 1403-1983
دمشق
- 16- الإعجاز الرقمي في القرآن محمد رشاد خليفة - 1976
- 17- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي دار الحديث 1414/1994: الجزء الأول صفحة 172
- 18- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الجيل - بيروت : الجزء الأول ص 37
- 19- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني : الجزء 11 ص 352
- 20- أسرار ترتيب القرآن - عبدالله حلقوم - دار الفكر للنشر والتوزيع - الزرقاء 1994

ظَاهِرَتَانِ تَبَعْتَانِ عَلَيَّ الدَّهْشَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

أ.د محمد سعيد رمضان البوطي^P

حمداً لله ، وسلام على رسوله المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
فإن للأستاذ بديع الزمان، سعيد النورسي رحمه الله ، سياحة واسعة وعميقة في خضم القرآن
وبجهره. بل إن رسائله كلها، المعروفة برسائل النور، إنما كان يستبينها على ضوء القرآن، ويستوحي
حقائقها من نوره.
وانك لتنظر فتجد إن الحقائق التي استخرجها رحمه الله ، من كنوز هذا الكتاب الرباني المبين،
كثيرة ومتنوعة شتى، تتصل بسائر المعارف والعلوم والثقافات والفلسفات على اختلافها!..
ولقد وجدته من هذه الحقائق التي يستخرجها رحمه الله ويجلِّها من كتاب الله عز وجل، أمام
فيض كبير بعثني على الحيرة فيما ينبغي أن أختاره منها، لأجعل منه متناً أشرحه، أو شرحاً أهشّي عليه
وأزيده جلاءً أمام بصائر الباحثين والمتدبرين.
غير أنني تحررت من هذه الحيرة، عندما قررت أن أنتقي من هذه الحقائق القرآنية الكثيرة التي
يستخرجها ويلفت النظر إليها، تلك التي لم يُسبق إلى بيانها من قبل.. أو تلك التي كان نصيبها من
الدراسة والبحث لدى العلماء والباحثين المتقدمين مقتضباً أو غير واضح ومتكامل.
ولقد وقعت من هذا الذي بحثت عنه على حقيقتين قرآنتين هما من الأهمية بمكان:
أولاهما جديدة على سمع الدارسين والباحثين، لا أعلم أن في السابقين من العلماء والباحثين من
تنبه ولفت النظر إليها.
والثانية نالت كلاماً مقتضباً من بعض الباحثين السابقين الذين عكفوا على دراسة علوم القرآن
وجوانب الإعجاز فيه، ولكن يعوزه مزيد من البيان والدعم بالأدلة والبراهين.

□ ولد في الجزيرة (جنوبي تركيا) هاجر مع والده وهو في الرابعة من عمره الى سورية، أكمل دراسته الثانوية في كلية التوجيه الاسلامي التي كانت تحت اشراف العالم المربي الشيخ حسن حينكة المبداني. تخرج في كلية الشريعة في الازهر سنة 1955 ونسأل الماجستير من كلية الاداب واللغة العربية للازهر - فرع التربية سنة 1958 وانخرط في سلك التعليم سنة 1958 في سورية وفي سنة 1960 اصبح معيداً في كلية الشريعة ونال الدكتوراه في الاصول الشريعة الاسلامية من الازهر سنة 1965 واصبح مدرساً في كلية الشريعة بدمشق ثم معاوناً لعميدها ثم عميداً لها. وحالياً هو رئيس قسم تاريخ الاديان في الكلية نفسها وهو عضو في مركز البحوث الحضارة الاسلامية التابع للمملكة الاردنية. له مؤلفات يقارب الاربعين مؤلفاً في الفقه والعقائد والفلسفة والادب وترجم اغلب كتبه الى التركية والانكليزية والفرنسية. اشترك في كثير من الندوات والمؤتمرات العالمية.

وها أنا أضع أمامكم ما يقوله رحمه الله في بيان كل منهما، بنصه مترجماً الى اللغة العربية.. ثم أجعل منه، كما قلت ، متناً أشرحه بما يزيد جلاءً، وبما يكشف عن مصداقه في واقع عصرنا اليوم وفي بحوث الكتّاب اليوم على اختلاف مشاربهم وتنوع عقائدهم من مؤمنين وجاحدين.

الحقيقة الأولى: تلك التي يسميها: محافظة القرآن على التوازن الموجود بين الحقائق الإلهية السامية كلها. يقول في بيان هذه الحقيقة.

بأن هذه المحافظة والموازنة والجمع، خاصة لا توجد قطعاً في أي أثر من آثار البشر، ولا في نتاج أفكار أعظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الأولياء الصالحين، ولا في كتب الإشرافيين الموقبلين في بواطن الأمور، بل كل فريق من أولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب، من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه، دون ان يلتفت الى غيره من الأغصان، إما لجهله به او لعدم التفاته اليه، وكأن هناك نوعاً من تقسيم الأعمال بقصد الاختصاص فيما بينهم.

نعم، ان الحقيقة المطلقة لا تحيط بما أفكار محدودة مقيدة. إذ لا بد لها من نظر كلي كنظر القرآن الكريم ل يحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم، لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود الا طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكلية، فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه وينحصر فيه.. فيخل ذلك بالموازنة التي بين الحقائق، ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو التفريط.¹

ثم يضرب الأستاذ رحمه الله المثل لذلك بكنز عظيم يحوي جواهر شتى عثر عليه الغواصون في قعر أحد البحار، ونظراً الى أن كل واحد منهم تعرف على جانب صغير من ذلك الكنز الواسع الكبير، منفصلاً عن الجوانب الأخرى منه، فقد تخالفت بل تناقضت تصوراتهم له. ثم يقول:

فالقرآن الكريم الذي هو بحر الحقائق، آياته الجلييلة غواصة كذلك في البحر، تكشف عن الكنز، الا ان عيوبها - أي عيوب الآيات القرآنية - مفتحة بصيرة تحيط بالكنز كله وتبصر كل ما فيها.²

أعتقد أن هذه الحقيقة العظمى التي يلفت بديع الزمان بصائرنا إليها في هذه السطور، تحتاج الى شيء من الشرح والبسط، لا سيما وقد تجلّى مصداق هذا الذي يقوله الأستاذ تماماً، في الحيرة البالغة التي غدت اليوم جامعاً مشتركاً، لدى سائر العلماء الغربيين بل سائر الباحثين الشاردين عن هدي القرآن وضيائه، تجلّى في اعترافات متكررة ظهرت في ثنايا كتاباتهم او محاوراتهم، كما سنجد بعد قليل.

إسمحوا لي، إذن، أن أشرح هذا الكلام الجامع المركز، وأبسّطه في البيان التالي:

كثيرون هم الذين يتصورون أن هذا الكون الذي نعيش فيه، يغور بحقائق متنوعة شتى... والواقع ان هذا التصور وهمٌ باطل، فالكون لا يحتضن أكثر من حقيقة واحدة. وانما المتعدد والمتنوع أحنحة هذه الحقيقة وزواياها.

أي إن الذي ينصرف إلى دراسة الأنواء والفلك، والذي يعكف على دراسة طبقات الأرض، والذي يتتبع علوم الحياة الحيوانية، والذي يختار دراسة التاريخ او التاريخ الطبيعي، والذي يتفرغ لدراسة علم النفس والفلسفة والأخلاق .. كل هؤلاء إنما يتفرقون في جوانب شتى من جسم الحقيقة الكونية الواحدة!.. ولكن عظم هذه الحقيقة بما لها من جوانب وجهات مترامية الأطراف، يخيل لكثير من الناس بيمين فيهم كثير من المثقفين والعلماء المتخصصين إنما حقائق علمية متعددة ومستقلة بعضها عن بعض. لذا يميز كل منهم لنفسه أن لا يُعني بما انصرف اليه الآخرون، وأن يحصر همه في دنيا الحقيقة

1 - أنظر كليات رسائل النور "الكلمات" ص 512 و 513 ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي.

2 - المرجع المذكور.

المستقلة التي تخيلها.

ومن هنا تأتي معلومات هؤلاء الناس عنها مبتورة، لا بل مضللة أيضاً.. ثم انما لا تروي لهم ظمأ ولا تشبع لهم تطلعاً. بل تزيدهم في شأها حيرة واضطراباً.. لأنهم كلما ازدادوا فيها تعمقاً، فاجأهم منها عروق وخبوط تتجاوز بهم دائرة بحثهم ومجال دراستهم، وكلما تتبعوا منها مجهولاً أسلمهم الى نطاق أوسع وخبوط أكثر تشابكاً وتعقيداً.

إن هذه المعارف الجزئية التي تبدو حقائق مستقلة بعضها عن بعض داخل هذا البنيان الكوني المتناسك، أشبه ما يكون بفصول متعددة كثيرة من كتاب كبير ذي موضوع علمي واحد. فماذا عسى يفيد من وقع على أحد فصوله تلك، ثم عكف على دراسته في تأمل ودقة؟.. بل ماذا عسى أن يفقه منه من درس فصوله كلها، ولكن على غير ترتيب وتناسق، ودون الرجوع الى أي رابطة بين الواحد منها والآخر؟.. من الثابت يقيناً أن هذا الإنسان لن يعود من دراسته تلك، مهما كانت دقيقة معمقة، إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف مبتورة. وهي في مجموعها ليست الا لوناً من أسوأ ألوان الجهل المركب، وإن بدا أنهما معلومات جزئية صحيحة.

فكذلك هذا الكون، إنه كتاب علمي واحد، ذو فصول مترابطة ومتناسقة شتى، وان بدت لدى النظرة العجلى أنها مستقلة متباعدة من بعضها.

وآية هذا الذي أبرزه بديع الزمان في كلماته مركزاً موجزاً، ونحاول أن نحلله وأن نسطه هنا مشروحاً مبيناً، ما نعرفه جميعاً من أن حل العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم وشهرتهم الدنيا، عادوا في أيامهم الأخيرة يشكون الجهل، وينشدون المعرفة، ويتبرمون بالحيرة، ويعانون من الاضطراب. لقد رأينا برتراند رسل يشكو، فيما يقصه علينا من سيرته الذاتية، أنه على الرغم من كونه حقيق كثيراً مما كان يحلم به ويسعى للوصول اليه، ومن ذلك الحب والسلام، إلا أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الاولى، وهي المعرفة، إلا بأوكس الحظوظ.³

كما رأينا من قبله أنشتاين - وهو الذي ابتدع نظرية النسبية وحدد قوانين الفضاء والزمن والحاذبية - يشكو المعضلة ذاتها، ويعلن لصديقه الكاتب الأمريكي جورج فيرك ان معلوماته التي جمعها عن الكون لم تستطع ان تقدم له الا لغزاً مقللاً يستعصي على الحل، قال له ذلك عندما سأله جورج فيرك عن الموت، فقال: لا أدري!!⁴

ويعبر إنجلز في كتابه "أنتي دوهرنغ" عن حيرته في قضايا الكون بكلام طويل، يقول فيه: كم هي زهيدة معرفتنا بأصل الكريات الدموية.. وكثيراً ما تحدث بعض الاكتشافات، كالكشف الخلية مثلاً فتضطرنا إلى مراجعة كاملة لسائر الحقائق الأخيرة والنهائية المقررة من قبل، في مجال علم الحياة، والى وضع أكوام كاملة منها في سلة المهملات دفعة واحدة..! ثم يضيف فيقول وان الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجه من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشدّ تحللاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة. وأغلب الظن أن الذين سيأتون من بعدنا سيصححون معارفنا أكثر مما يفيدون منها.⁵

بل إنى لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة، من مثالية ووجودية وذرائعية ونحوها، ليس الا ثمرة اضطراب نتج عن معرفة مقطعة مجزأة عن تصور الهيكل الكلي لهذا الوجود، هذا مع

3- سيرتي الذاتية لبرتراند رسل: ص 6-7

4- مجلة العلوم اللبنانية، السنة الرابعة، العدد الثالث

5 - أنتي دوهرنغ تأليف إنجلز ص. 105

افتراض أنهما جاءتت معارف جزئية صحيحة. إذن، فالمعرفة لا تكون صحيحة بحيث تقع العقل وتطمئن إليها النفس، إلا إن جاءتت على أعقاب معرفة كلية شاملة تحيط بين بنیان هذا الوجود كله، متمثلاً في كل من الإنسان والكون والحياة ووجه العلاقة السارية فيما بينها. وليس المهم في هذه المعرفة الكلية أن تكون عميقة دقيقة، لا سيما في بادئ أمرها. إنما المهم جداً أن تكون صحيحة وشاملة.

وأذكركم في هذا الصدد بالقاعدة العلمية التي يجب أن تسترعي انتباهنا، كبرهان على ما نقول، وهي أن دراسة 20% من كتلة ذات أجزاء مترابطة، ليس من شأنها أن تؤدي بالضرورة إلى معرفة صحيحة لـ 20% من حقائق تلك الكتلة. بل أن مثل هذه الدراسة لا تؤدي حتى إلى معرفة 1% من تلك الحقائق على وجه صحيح. أو قد توصل إلى تصورات مشوشة عن مجمل تلك الكتلة. ولا عبرة بما قد يعود به هذا الباحث من أوهام يحسبها معارف وعلومًا.. والأفخبرني: كم هي نسبة المعارف الصحيحة التي يعود ذلك الذي أقبل إلى خارطة، فوضع منظوراً مكبراً على رقعة منها، ثم راح يحصر نظره وفكره في دائرة ذلك المنظر، ويتأمل في الألوان الساطعة والخطوط الكبيرة التي تحت عينيه، أي قبل أن يتعرف على الخارطة بمجموعها الكلي وقبل أن يتبين خطوط الطول والعرض فيها.. نعم انه قد يعود من ذلك بما يسمى في اللغة معرفة، عندما يدرك الألوان على حقيقتها، ويقرأ أسماء المدن التي تبدو تحت منظاره قراءة صحيحة، ويلاحظ تعاريف الخطوط ما هي، ولكنها تسمى في هذا المقام معرفة ميتة، إذ لا صلة لها بشئ من المعارف التي تتضمنها تلك الخارطة في مجموعها الكلي. فتلك هي حقيقة المعارف التي يعود بها من قد حصر فكره من بيان هذا الوجود الكوني في زاوية من زواياه أو جزء من أجزائه.. إنما بكل تأكيد معارف ميتة، لا صلة لها بشئ مما توحى به المجموعة الكونية كلها من المعارف والمعلومات. وهي لذلك أعجز من أن تمد صاحبها بشئ مما ينشده الباحث من طمأنينة اليقين العلمي.

والآن.. ما السبل إلى هذه المعرفة الكلية الشاملة؟

وبتعبير آخر: أين يمكن العثور على تلك الخارطة التي تصور لنا المنظور الشامل لبنیان هذا الهيكل الكوني كله، وتكشف لنا نوع العلاقة السارية بين جوانبه وأركانها الكبرى؟..

من الثابت يقيناً أننا لن نعثر على هذه الخارطة إلا في القرآن، كما يؤكد بدیع الزمان رحمه الله.. بل هي المهمة الأساسية الكبرى الذي تنزل القرآن من أجلها، والتي يتوقف عليها تعريف الإنسان على ذاته وامكان تھوضه بالمسؤوليات التي كلف بها وخلق من أجلها.

وبوسعنا جميعاً أن نعلم بأن القرآن لو لم يكن كلام صانع هذا الكون ذاته، لما أمكن أن يجوي بين دفتيه الصورة الكاملة الشاملة لوحدة هذه المصنوعات المترابطة والمتشابهة في تناسق عجيب.

فمن عكف على دراسة القرآن، بتدبر وتجرد وإمعان، وجد أن هذا الكتاب يبدأ فيعرّف الإنسان على ذاته وخصائصه ومهامه في هذه الدنيا التي خلق فيها. ثم يعرفه على حياته التي يتمتع بها وعلى ما فيها من جوانب التفاهة والأهمية معاً.. ويصّره بمبدئها ومنتهاها، وعلاقتها بما وراءها، ثم يعرفه على المظاهر الكونية التي تموج من حوله وعلى صلة ما بينه وبينها، بشكل شمولي وإجمالي.. وهو ينهيه من خلال ذلك إلى ما في تلك المظاهر من السنن الراسخة التي لا تخضع لأي تطوير أو تغيير، وإلى ما فيها من الرموز المتطورة المسخرة لمصالح الإنسان.

وتلك هي العناصر والأركان الكلية الكبرى لبنيان هذا الوجود: الإنسان، الحياة، الكون "أى سائر المكونات الأخرى" واذن فتلك هي ينيابيع المعرفة كلها.

وهكذا يتمثل الهيكل الكوني أمام بصيرة الإنسان، من خلال تدبره لهذا الكتاب الرباني العجيب، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمامك، عندما تنظر إليها على ارض مستوية ليس بينك وبينها أي حجاب او سحاب، فهي حلية أمام العين في هيكلها وفي ضخامة جذعها واتساع فروعها، وفيما تحمله من ثمر بين أوراقها.

فإذا أقبل الإنسان بعد هذه المعرفة الشمولية الكلية التي استقاها من القرآن، الى هذا الوجود الكوني، يتعمق في فهم ما يشاء فهمه من الجوانب والأجزاء التي يجب ان يتعمق في معرفتها وأن يتخصص بدراستها، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات، ولن تخدعه ألوان الطيف المتكسرة التي كانت تتبعث من حراء انحصار النظر في زوايا ضيقة ومقطعة بعضها عن بعض.. بل سيكون له من الاعتماد على تلك الخارطة الشاملة التي انطبعت في بصيرته، ما يردّه عن كل ضلالة ويبعده عن كل خدعة. ولسوف يكون له من ذلك ما ينهيه إلى الرابطة القائمة بين الأجزاء التي قد تبدو متنافرة او مستقلة بعضها عن بعض.

وهذا هو المقصود بالعلم الذي يظل القرآن ينوّه بأهميته وشرفه في كثير من الآيات وعن الذين تحلوا بهذه البصيرة العلمية، دون غيرهم، يتحدث القرآن قائلاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..﴾ أما أولئك الذين شأهم أن يبدؤوا فيضعوا المكبرات الضخمة على رقعة صغيرة، في قلب خارطة كونية كبيرة، ثم ان يخلقوا في تلك الرقعة، وهم عن الخارطة ذاتها غافلون، فهم الذين قال الله عنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾. وقد يجيل إلى أحدنا أن كلمة "ظاهراً" في الآية إنما تعني المدارك السطحية للشئ بالمعنى المتعارف عليه عند الناس.. ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشئ تتمثل أول ما تتمثل في المعرفة التي يُرهي بها من لم يعلم بعد حجم ذلك الشئ وحقيقته. وإنما انطلق بادئ ذي بدء بغوص بأجهزته وتأملاته في احدى زواياه التائهة الضئيلة وسط حجمه الكبير الفسيح.

بقي أن نسأل على أعقاب هذا الكلام الذي يبرز للقرآن دوراً معرفياً لا يغني عنه - كما قال بديع الزمان رحمه الله - أي فلسفة او فن من فنون المعارف والعلوم على اختلافها: هل بلغك ان واحداً ممن انطلقوا الى معارفهم الكونية من دراسة كتاب الله أولاً، وقف من الموت أمام لغز كوني محير، كما كان من شأن انشتاين؟.. أم هل سمعت أن واحداً ممن بدأ فأمعن في الخارطة الكونية التي تتجلى في هذا الكتاب الرباني، زجته معارفه وعلومه عن الدنيا التي يعيش فيها، في مجهلة محيرة او ظلمات موحشة، كما هو شأن أولئك العلماء او الفلاسفة الذين انطلقوا الى سياحاتهم العلمية، بعيداً عن البوابة القرآنية الكبرى التي تبصر الإنسان بمحمل هذه الكتلة الكونية وعلاقتها الشمولية العامة؟..

أمعن ما شئت في تاريخ العلماء الغابرين او العلماء المعاصرين، ممن اتخذوا من القرآن منهج معرفة لهم، ومفتاحاً لسياحاتهم الفكرية في ارجاء هذا الكون، فلن تجد فيهم من زجته معارفه في حيرة، او أقحمتته اكتشافاته العلمية في مخافة او وحشة. والعكس دائماً هو الصحيح، كما قد مثلت لك من قبل.

الحقيقة الثانية: تلك التي يعبر عنها الأستاذ رحمه الله بشبايية القرآن وفتوته. يقول بـ"ان القرآن الكريم قد حافظ على شباييته وفتوته، حتى كأنه ينزل في كل عصر، نظراً فتياً. نعم، إن القرآن الكريم، لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون

له شبابيته دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان، حتى إنه ينظر الى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطباع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقناً دروسه ملقناً إليها الأنظار".

"إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، وتتغير وتبدل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور".

"نعم، إن هذا العصر الذي اغترّ بنفسه، وأصمّ أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة، أحوج ما يكونون الى ارشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ" يا أهل الكتاب.. حتى كأن ذلك الخطاب موجه الى هذا العصر بالذات. إذ ان لفظ "أهل الكتاب" يتضمن معنى: أهل الثقافة الحديثة أيضاً. فالقرآن يطلق نداءه يدوي في أجواء الآفاق وبملا الأرض والسبع الطبايق بكل شدة وقوة، وبكل نضارة وشباب، فيقول {يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم..} ⁶

ثم إن الأستاذ رحمه الله تعالى أخذ يعرض من الأمثلة التطبيقية، ما يؤكد فتوّة وشبابية القرآن الباقيتين في كل عصر، على حدّ تعبيره.

وأقول: إن هذه المزية واحدة من أخطر وأروع المزايا التي لا تنطبق الا على كتاب الله عز وجل: القرآن. غير أن هذه المزية لا تولد وتستبين الا في رحم الأجيال والعصور المتعاقبة. فالمسلمون في صدر الإسلام وعصوره الأولى لا يستطيعون أن يلاحظوا فيه هذه المزية، لجهلهم بما ستأتي به العصور اللاحقة من أعراف وتطورات ومعارف وعلوم جديدة، حتى يستبين لهم موقف القرآن منها وحديثه عنها. أما اليوم وقد تراكمت على ساحة التاريخ ألوان من التقلبات والأفكار والاكتشافات والأحداث، متجمعة من سلسلة العصور المتلاحقة، فإنه بوسعنا، إن عدنا نتأمل في خطاب القرآن لأصحاب هذه العصور كلها، ان نتبين جدّة القرآن، او شبابيته على حدّ تعبير بديع الزمان، من خلال تألفه مع سائر ما قد مرّ او يمرّ اليوم على دنيا الناس من تطورات في أعرافهم وأفكارهم وظروفهم وعلومهم.

يركز بديع الزمان حديثه عن جدّة القرآن، رغم تقادم ذلك العصر الذي نزل فيه، على ما يحمله القرآن للناس من مبادئ وديانات وقيم حضارية وسلوكية، ويبين لنا مدى جدتها ومدى احتياج الناس في كل عصر إليها، في مقابل تمّافت الجديد الذي يخالفه والذي تبتدعه اجتهادات الناس مع تقلبات الأزمنة والعصور.. ويضرب لذلك أمثلة كثيرة.

إلاّ أني أتصور أن هذه الجدّة المستمرة أبعث على الدهشة وأكثر إثارة للعجب، عندما نقف عليها من خلال التعابير القرآنية عن حقائق وظواهر كونية، تتفاوت مدارك الناس في رصدها واستيعابها، إذ يكون فيهم الجاهل الذي لا يدرك منها إلا ظاهر ما يرى. ويكون فيهم المثقف الذي يضيف إدراكه إلى ذلك الظاهر المرئي بعض خفاياه العلمية، ثم قد يأتي في أعقاب هذا وذاك من قد حولته معارفه ان يضيف إليهما معلومات معمقة لا يتبينها إلا أصحاب الاختصاص، او الذين ساعدتهم عصورهم العلمية على معرفة هذا المزيد.

وتنظر الى حديث القرآن عن هذه الظواهر الكونية، فتجده يعبر عنها بألفاظ دقيقة وبأسلوب متميز، بحيث يدرك الجاهل من حديث القرآن عنها ما يتطابق مع الظاهر المرئي الذي وقفت عنده مداركه، ويدرك المثقف من الحديث ذاته بالإضافة الى ما فهمه الأول، ما يتطابق مع بعض تلك الخفايا

العلمية التي علمها، ويرى العالم المتخصص الذي جاء في العصور التالية في الحديث ذاته، بالإضافة الى دلالته على المعنى السطحي الأول، والمعنى الخفي الثاني، دلالة واضحة على عمق علمي لا يدركه الا أصحاب الغوص والاختصاص.

هذا مع العلم بأن دلالة الصيغة القرآنية على هذه الطبقات او الدرجات الثلاث تأتي واضحة متساوقة، دون اي تحمل او تكلف مما قد يطيب لبعض الناس فعله، عندما يتمحلون في تحميل بعض الجمل أو الألفاظ ما لا تحمله من المعاني.

أنظروا الى قول الله عز وجل: **{والأرض مددناها فنعم الماهدون}**. إن الأعرابي عندما سمع هذا الكلام الرباني في صدر الإسلام، لم يشك أنه وصف لواقع مرئي مشاهد من صفة الأرض ذات الإمتداد المرئي لكل ذي عينين، وهو امتداد ييسر للناس الذين يتحركون على ظهرها أن يمارسوا بسهولة ويسر أسباب معاشهم.. أما العلماء المدققون والمتخصصون الذين جاؤوا فيما بعد، فلم يشكوا عندما سمعوا هذا الكلام الدقيق، أن الحديث إنما هو عن الأرض كلها، أي بمعناها الكلي، أي فالامتداد وصف لسائر أجزائها السطحية. فإن سرت مع امتداد الأرض الى أقصى الشرق، لن تجد لهذا الامتداد اي حافة او نهاية، وان سرت مع امتدادها الى أقصى الغرب، رأيت الأمر كذلك. وكذلك ان سرت متجهاً الى الشمال أو الجنوب. وهذا يعني أن الأرض ممتدة في انحاء مستمر إلى أن يتكون لسطحها محيط دائري مكور.

وهذا المعنى ذاته هو الذي ينبثق، بهذا التدرج، من قول الله تعالى **{.. والى الأرض كيف سطحت}** وهذا هو قرار القرآن قبل أن ينطق به او يدركه أحد من الناس.

فانظروا الى المعنى السطحي الأول، كيف يتممه المعنى الدقيق الثاني، في تناسق وائتلاف أي دون ان ينسخ الثاني منهما الأول، ليتكون من العبارة التي تحمل المعنيين الخطاب الشبائي المتجدد، كما يقول بديع الزمان، لسائر طبقات الناس في سائر العصور المتوالية.

كلمة "دحا" تأتي في اللغة العربية بمعنى عظم، وبمعنى وسع، وبمعنى كور وقد تكررت بمعناها الثاني والثالث في هذه الآيات لابن الرومي:

إن أنس، لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرةً وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرةً في صفحة الماء يلقي فيه بالحجر

ويقول الله عز وجل **{والأرض بعد ذلك دحاها..}** يقرأ هذا الكلام العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراها عليه وهو الاتساع والبسط، فيفهم من قوله "دحاها" هذا المعنى الذي يراه. وهو فهم صحيح يطابق المعنى اللغوي للكلمة. ثم يقرؤها العالم الفلكي او المثقف العادي في هذا العصر، فيفهم بالإضافة الى ما تحمله الكلمة من المعنى الأول، ما تدل عليه أيضاً من معنى الاستدارة والتكوير.

وإننا لنلاحظ كيف أن الكلمة تحتضن كلا المعنيين، على درجتين من السطحية والعمق، وكيف إن المعنيين مندرجان في تساوق وتآلف أي دون ان يقع بينهما أي تشاكس او تعارض وهكذا فالكلمة ذات جدّة اذ سمعها الأعرابي قبل خمسة عشر قرناً، وهي ذات جدّة أيضاً إذ يصغي إليها العالم المتخصص او المثقف من الناس اليوم.

ولنعرض مزيداً من الأمثلة فنقول: يصف القرآن القمر دائماً بالإنارة، في حين يصف الشمس

بالإضاءة أو السراج. فهو يقول مثلاً {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً} ويقول {تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً} الفرقان : 61 ويقول {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً} نوح: 15-16 والجامع المشترك في اللغة بين معنى المنير والمضيئ والسراج، هو نقيض الظلمة.. ثم إن كلمة المنير تنفصل عن "المضيئ أو السراج" في أن المنير هو ما ينعكس إليه النور من جرم آحر، أما المضيئ والسراج فهو كل ما ينبثق النور حرارة، أما المنير فلا يطلق إلا على ما ينعكس إليه النور دون أن يث أي حرارة.

إذن، فحديث القرآن عن كل من الشمس والقمر يحمل معنى ذا ثلاث درجات: سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ألا وهو الجامع المشترك الذي هو نقيض الظلمة، وعمق يصل إليه المتأملون ألا وهو التنبيه إلى ان ضياء الشمس مصحوب بحرارة أما نور القمر فخال ومجرد عنها، وجذر بعيد يدركه الباحثون المتخصصون أو المثقفون من أهل هذا العصر، ألا وهو أن القمر ينعكس إليه الضياء من جرم آخر هو الشمس. في حين ان ضياء الشمس ينبعث من داخلها.

وهكذا فإن هذه الآيات تفيد كل فئات الناس على اختلاف ثقافتهم واختلاف عصورهم حسب قدراتهم الفكرية، دون ان يقوم أي تعارض علمي بين حظوظ هذه الفئات فيما يفهمونه من معانيها. إذ هي معان لغوية صحيحة متساوقة ومتدرجة من السطح إلى العمق فالجذور. حقا إنها شياوية علمية دائمة مستمرة يتسم بها كتاب الله عز وجل، الذي يبحر أطوار المعارف والعلوم في جدة تستعصي على التقادم وهيمنة علمية سامية لا تقهر.

ولكن إياكم أن تتصوروا أننا بهذا الذي أوضحناه نخرج إلى موقف أولئك الذين يحملون نصوص القرآن كل ما يروق لهم من النظريات أو التصورات العلمية الراجعة، في تكلف لا موجب له، وبطريقة هي أشبه بالبعث بالقرآن والتلاعب بقانون دلالاته!..

إننا لسنا من هؤلاء العابثين في شيء، ولسنا ممن يدعون إلى إخضاع القرآن لقراءة معاصرة، تجعله مرآة دقيقة ينطبع عليها سائر التيارات الفكرية الجائحة والعقائد والتصورات الزائفة، والتنبؤات العلمية المتداولة.

إننا نتحدث عن دلالات لغوية ثابتة يحضنها كتاب الله تعالى منذ فجر نزوله، طبقاً لقواعد تفسير النصوص، وقبل أن تتطور المعارف ويسر الناس في طريق اكتشاف الحقائق العلمية المتنوعة.

إن القرآن يقول منذ فجر نزوله {ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً}.. المرسلات: 25 والكفت معناه في اللغة الجذب، فمعنى الآية إذن: ألم نجعل الأرض جاذبة لكم إذ تنتقلون على وجهها وأنتم في طور الحياة، وتدفنون في باطنها إذا حاق بكم الموت. ولقد فسر العلماء الآية بهذا المعنى بسائق من ضرورة الدلالة اللغوية، قبل ان يكتشف الغربيون ما يسمى بجاذبية الأرض بل إن يونس بن قره هدي إلى هذه الجاذبية ووجودها، قبل اكتشاف الغربيين لها بآماد طويلة. اتباعاً لهذا الذي نطقت به دلالة القرآن.

إننا هنا نتحدث عن المواقف التي يهدي القرآن فيها الناس إلى الحقائق الكونية والعلمية، ولسنا نتحدث عن المواقف التي يستجر فيها القرآن من قبل بعض الناس إلى النظريات والافتراضات العلمية. وشتان بين الموقفين.

كل ما في الامر أننا نقف مع بديع الزمان رحمه الله أمام هذه الجدة المستمرة في كتاب الله إذ

يخاطب فئات الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم. فلا يحمل القرآن الجاهل من الناس من معانيه المترابطة أكثر مما يطيق، ولا ينجل على العالم منهم بتلقيه من معانيه تلك كل ما يطيق. وكل ذلك يتم ضمن دلالة لغوية مستقرة ثابتة منذ صدر الإسلام وأول نزول القرآن.

أما من حيث حدة المبادئ والقيم التي يخاطب بها القرآن الناس في كل عصر، دون أن تشيخ أو تتقدم، والتي يركز عليها بديع الزمان ويضرب لها أمثلة عديدة، فهو رحمه الله إنما ينبه من ذلك إلى أمر بالغ الأهمية. وهو: أن الإنسان قد يتقدم صعداً في مجال المعارف والعلوم، كلما امتدّ به الزمن، ذلك لأن أداة المعرفة والعلم هي الفكر والعقل وحركة كل منهما في اجتياز معلوم إلى معلوم آخر، أشبه ما تكون بالحركة الآلية التي تقوم على الاندفاع الذاتي.. أما فيما يتعلق بمجال الأخلاق والمبادئ والقيم، فالشأن في الإنسان كلما امتدّ به الزمن وتعرض لتطورات المعاش واحتلاف أسبابها، أن يتراجع في ذلك كله إلى الوراء، ذلك لأن التقدم المادي والازدهار المعاشي، من شأنهما أن يزجّيا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار والاعتداد بالقوة والتنكر لموازين الحق..

وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: **{إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}**

ومن هنا تظل دعوة القرآن الإنسان إلى تحكيم المبادئ والقيم، متمثلة في استخدام القوة لرعاية الحق، واحلال التعاون محل الاستبداد، تتسم بالجدّة والشبائية على حدّ تعبير الأستاذ رحمه الله، مهما تطور أو تقادم الزمن.

وهذا هو السبب في حاجة الإنسان الدائمة إلى الانضباط بالدين الحق.

ذلك لأن المجتمع الإنساني مدعوّ بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً، كي لا تقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة أمام الإنسان، والسبيل الوحيد إلى تجديد نفسه ان يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلّم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة، التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء، ولا تنجّه إلا صعداً نحو الجدّة وفتوة المجتمع الإنساني.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عالمية القرآن الكريم قراءة في رسائل النور

رشيد هايلاماز^P

الانسان والدين وحدة متكاملة لا يمكن الفصل بينهما، ومنذ الانسان الاول، يمتنع الفصل بين البشر والدين الذي امتزج بنمط الحياة. فالبنز بينهما يخالف الفطرة ويؤدي الى عقد اجتماعية وفردية متنوعة. ولو تفرسنا في غاية خلق الكائنات ومحورية الانسان في الاشياء، وتعصيد ما يفهمه الانسان من كتاب الكائنات من مجمل الاصول بكتب تحتويها وتضم تنوعات اضافية فيها، ثم زيادة على ذلك إعانة البشر بمعلمين يشرحون ما في هذين الكتابين، فاننا نستنبط ان الله (جل جلاله) يدعو بني الانسان - رحمة منه - في اطوار الانسانية كلها الى حياة تتخذ الدين محورا.

من اجل تحقق العبادة، تنبه التفاسير الى "العلم" تأكيدا على أهمية العلم بالمعبود،¹ في النص القرآني الذي يبين الله جل جلاله ان العبادة غاية الخلق {وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون}² فجعل العبادة مقصد خلق اهل الشعور.

ان الاصول في جميع الاديان واحدة لا تختلف وان تنوعت في الفروع.³ فالاديان التي تهدي البشرية منذ الانسان الاول تتحد في الاصول مثل الايمان بالله وبالآخرة وبالنبوة وبالملائكة، مع التنوع في خصوصيات معينة. وعالمية الاسلام بالمعنى الخاص، فرق من فروق التنوع بين الاسلام وما قبله من الاديان. اذا عرفنا مفهوم "العالمية" التي تعنى شمول العالم ومخاطبة بني البشر كافة والامتداد في الارض

P من مواليد سنة 1965 يبحث الآن في موضوع "العقل في نظر القرآن" للحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة صقاريا علاوة على عمله مستشارا في جريدة "الزمان" اليومية له مؤلفين منشورين.

1 - انظر فيروز آبادي، تفسير ابن عباس، مجموعة التفاسير، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، والزحيلي، التفسير المنير.

2 - الزحيلي، التفسير المنير.

3 - في هذا المعنى يقول الله تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" الشورى - 13

و"ان الدين عند الله الاسلام" آل عمران: 19. ويؤيده ايضا الحديث الذي يفيد بان الانبياء اخوة، امهاتهم شتى ودينهم واحد، الوارد في البخاري/ الانبياء ومسلم/ الفضائل. وانظر ايضا الآية 285 في سورة البقرة و84 في سورة آل عمران.

كلها،⁴ بانها: "دين او نظرية سياسية، او نظام قانوني او اقتصادي. او تعليم فلسفي، يلبي حاجات الانسانية في كل عصر وزمان"⁵ فان النظام الاوحد الذي ينطبق عليه التعريف تماما، هو الاسلام.

ان الاسلام لا ينبعث بدعوى العالمية، لكن هذه الخصوصية فيه تظهر في مبادئه. فمراجعة مصادر الاسلام في اسلوب الخطاب العام، وغور اعماق مفاهيمه، وبناء عالم على محور الانسان وحفظه كما نزل بغير تبديل، وقدسية مبعثه وتقبله للمجتمعات بثقافتها الذاتية ما لم تتناقض مع نصوصه... وغير ذلك كثير، ندرك هذه الحقيقة جلية.

الاسلام دين بلغ الكمال⁶ ورسول الله خاتم الانبياء هو مركز تبليغه وقودته وتشريعه⁷. الاسلام للانسانية هو الحل الاخير الذي لا بديل له⁸. وهذا يعني أن الاسلام يستجيب لحاجات البشر كافة الى نهاية الدنيا.

لنوضح الموضوع بمسائل تخرجه من النظرية الى الواقع المشهود.

المخاطب في الاسلام :

المخاطب في الاديان بصورة عامة هو الانسان. ومن الحقائق المعروفة ان الاديان، غير الاسلام، لم تشمل في خطابها بني الانسان كافة، بل انحصرت في قوم بعينهم او ارض معلومة. اما الاسلام، الدين الذي نزل كاملا بغير نقص لبشرية تتكامل، فلم يتوجه في خطابه الى بني الانسان فقط، بل خاطب الجن ايضا محتضنا ذوي الشعور كلهم.⁹

وحين يكرر القرآن الكريم قصص الانبياء السابقين، ينبؤنا من خلال خطابهم الى اقوامهم او قبائلهم، ببعثهم اليهم خاصة. لذلك، نجد خطابا مثل "ياقومي"¹⁰ أو "يا بني اسرائيل"¹¹.. اما في الاسلام، فنجد الخطاب يكتسب عمومية ويتوجه الى البشر سواء في القرآن¹² او في الحديث¹³ مثل : "يا ايها الناس" .. "يا بني آدم". ومن العناصر

4 - الهياة (حسن ارن، نوزاد كوز آيدن، اسماعيل بارلانر، طلعت تكين، حمزة ذو الفقار)، مجمع اللغة التركية، وانظر Türk dil sözlüğü رمزي خنجر او غلو، نشر مكتبة رمزي - استانبول 1995 ص 217.

5 - انظر محمود قايا، islamın Evrenselliği Üzerine ، نشرات ايشيق، أزمير 1993 ص 301.

6 - يقول الله تعالى "اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً" المائدة: 3

7 - يقول الله تعالى "ما كان محمد ابا احد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين" الاحزاب: 4

8 - "ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" آل عمران: 85

9 - الخطاب القرآني يشمل الانس والجن، فهو يخاطب الانس والجن في صلب الجمع عموماً. وفي سورة الرحمن: الآية 31، 33 "سنفرغ لكم ايها النفلان" و"يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا..." وفي سورة الجن استماع نقر من الجن الى القرآن وعلمهم بالرسول وایمانهم به فليراجع تفسير سورة الجن.

10 - الآيات في هذا الشأن كثيرة، مثل: الآيات في سورة البقرة: 54، المائدة: 21، الانعام: 68، الاعراف: 59، 61، 65، 67، 73، 79، 85، 93، ويونس: 71، وهود: 28، 29، 30، 50، 51، 52، 61، ..

11 - وانظر الى سورة البقرة: 40، 47، 122، وآل عمران: 49، والمائدة: 72، والاسراء: 2، 4، 101، 104، وطه: 8، والزخرف: 59، والصف: 6، ..

12 - انظر: البقرة: 21، 168، 187، 221، وآل عمران: 138، والنساء: 1، 79، 105، 133، 165، 170، 174، والاعراف: 158، والتوبة: 3، ويونس: 2، 23، 57، 104، وابراهيم: 1، 44، 52، والنحل: 44، والحج: 1، 5، 49، 73، لقمان: 33، وفاطر: 3، 5، 15، والحجرات: 13، والاعراف: 26، 27، 31، 35، 172، واسراء: 70، ويس: 60

13 - في حالات كثيرة، كما في خطبة الوداع، يخاطب الرسول البشر جميعاً، بل ما اكثر ما يجعل الخاص عاماً، بصيغة "ايها الناس" ... او "يا ابن آدم" ... او "يا بني آدم".

المهمة في تأييد البعد العالمي للرسالة، كلمات تفيد المعاني نفسها مثل "عبد - عباد"،¹⁴ "الانسان" ¹⁵ "العالمين" ¹⁶. وقد بين القرآن أنه يشمل بخطابه البشرية جمعاء في آيات عديدة ومواضع متنوعة. واول ما يخطر على قلب المشتغلين بالقرآن في هذا المجال آيات مثل:

{قل ياايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا}¹⁷ {انما انت منذر ولكل قوم هاد}¹⁸
 {وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين}¹⁹ {وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}²⁰
 {هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}²¹ ولو انعمنا النظر في قوله تعالى {لتنذر ام القرى ومن حولها}²²
 لتبين لنا بعد التدقيق معنى العالمية، على خلاف ما يبادر الى الذهن في اول وهلة. وما اختلاف هذه الآية عن امثالها إلا تقديم موطن الدين الاول على غيره. فالمقصود بـ {من حولها} البشرية جمعاء بدءا من أم القرى، وليس حزاما جغرافيا ضيقا. والاستخدام القرآني لكلمة "من" في معظمه تفيد الشمولية والاحتواء لما يرد بعدها. مثل "من في السموات" ²³ تفيد كل ذي حياة في السموات و "من في الارض" ²⁴ تفيد كل ذي شعور في الارض. ان هذه الآية تضع قاعدة للتبليغ، وايضا تظهر المراحل الطبيعية في التبليغ اذا تأملنا فيها من هذه الزاوية. فالقرآن بين للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين اولا،²⁵ والثابت تأريخا انه انذر عشيرته الأقربين وحادانا وزرافات في خطابه.²⁶ ومن طبيعة الامر، زمانا ومكانا، ان يحصل ذلك. وان كل دعوة وفكر، لا بد ان يلفت نظر من حوله اولا، ويعرض نفسه على الاقرب، فالاقرب.

نفهم من آيات القرآن واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أن مقصود الدين ليس العرب وحدهم ولا عصر بعينه. فهو يخاطب ابا بكر وعمر وايضا ابا جهل وابالهب ويهتم بامريكا وروسيا واليابان واستراليا والارض كلها مثلما بالجزيرة العربية. وبين

14 - انظر: البقرة: 207، وآل عمران: 15، 20، 30، وابراهيم: 31، والحجر: 39، واسراء: 53، والفرقان: 63، والعنكبوت: 56، وسبأ: 9، والزمر: 10، 16، 53، وغافر: 31، 44، والزخرف: 68، والدخان: 18، وق: 8، ومريم: 94.

15 - انظر: البقرة: 187، 189، 221، 243، وآل عمران: 4، 97، 138، والنساء: 58، 79، 105، 165، والتوبة: 3، ويونس: 2، 60، 99، والرعد: 6، وابراهيم: 1، 44، 52، والنحل: 44، واسراء: 60، 89، 106، والكهف: 54، ...

16 - الفرقان: 1

17 - الاعراف: 158

18 - الرعد: 7

19 - الانبياء: 107

20 - سبأ: 27

21 - الصف: 9

22 - الانعام: 92

23 - انظر: آل عمران: 58، يونس: 66، اسراء: 55، مريم: 93، الانبياء: 19، الحج: 18، النور: 41، النحل: 85، 87، الروم: 26، الزمر: 68، الرحمن: 29،

24 - انظر: آل عمران: 83، يونس: 66، اسراء: 55، مريم: 93، الانبياء: 19، الحج: 18، النور: 41، النحل: 65، 87، الروم: 26، الزمر: 26، الرحمن: 29،

25 - الشورى: 214

26 - ابن هشام، السيرة.

هذا وذلك، ان يستجيب الى الدعوة من يستجيب ويمتزج بها، أو ان يصم اذنه من يصم، فيتبته في متاهات العناد والعصبية او يقع ضحية الافكار المسبقة النابعة من الجهل، كما حصل في ايام الرسالة الاولى.

مصادره

ما ينتج من محدود، محكوم عليه بالبلى. وكل فكر لا يجدد نفسه او لا يساير ظروف العصور يلقي هذا المصير. ونجد في اساس العقائد التي يدوم تأثيرها عبر العصور الوحي الالهي أو اقتباسا من اجواء الوحي الالهي في شئ أو آخر. ومهما بلغت المبادئ والافكار الناتجة من قرائح البشر، فانها تذوي وتفقد اصالتها بمرور الزمان. فهذا سبب الحاجة الى تغيير النظم القانونية في ايامنا بين حين وآخر. ويبقى الاسلام نظاما واحدا لا يبلى رغم أنف الزمان بل يزيد جاذبية كلما مر الزمان.²⁷ فمصدر الاسلام الهى ومكفول من التحريف والتبديل بالتأييد الالهي²⁸ والله غير محدود بالزمان، بل هو خالق الزمان. ومحال ان تبلى القيم التي يضعها الله بتوالى العصور. فهو شهيد على كل شئ²⁹، وعلیم بالظروف التي يضع الاحكام لها، ومحيط بعلمه بتطور الاحداث والظروف المتعلقة باحكامه الى قيام الساعة.³⁰ وكما ان ذاته منزه عن البداية والنهاية، كذلك علمه. وبدهي ان تكون القيم والاحكام التي يضعها الله الذي يعلم بالأبد منذ الازل، خالدة. وبدهي ان يكون دين مصدره كلام الله وممثله رسول الله صلى الله عليه وسلم حاويا للازمان ومعبرا عن قيم عالمية ما دام العنصر الفاعل في التقويم هو: من الفائز ولمن يوجه الخطاب وما حال المخاطب وما الداعي الى القول؟!

والاسلام دين لا ينسب الى نبي الاسلام كما هو حاصل في الاديان الأخرى.³¹ الاسلام دين انزله الله الرحمن الرحيم³² بواسطة رسول امين³³ الى اعظم البشر امانة.³⁴ انزله الله الذي يعلم السر في السموات وما تحت الثرى.³⁵ لذلك، محال ان

27 - ان انتفاء العالمية عن الاديان الأخرى غير الاسلام هو بسبب انتفاء هذا القصد فيها اصلا، وايضا اختلاط الكلام الالهي بالقول البشري فيها، أي التحريف والتبديل فيه.

28 - "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" الحجر: 9

29 - الحج: 17، سبأ: 47، فصلت: 53، المجادلة: 6

30 - عن منطق الهداية يقول الله تعالى في سورة يونس: 35، "أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أمن لا يهدي"

31 - إن تسمية المستشرقين عموما للاسلام بالدين المحمدي تضليل ايديولوجي. نعم ان للنبي محمد p مركز مهم جدا في الرسالة، لكنه ليس منبع الاسلام وليس القرآن من بنات عقله. وانظر: النحل: 44، التكوير: 19، 21، وايضا محمد دراز، القرآن، ترجمة سعاد يلدرم الى التركية، نشریات ايشيق 1994 ص 13

32 - التكوير: 21

33 - معلوم ان الامانة صفة مشتركة عند الانبياء جميعا واساس مهم في التبليغ. لذلك يبرز الانبياء كلهم هذه الصفة فيهم ويبرهنون بها على صدقهم. انظر: الاعراف: 18، الشورى: 108، 125، 143، 162، 178، 193، الدخان: 18، اما رسولنا محمد p فقد سلم له قومه بهذه الصفة حتى قبل بعثته فكان رسول الله p يستدل بها عليهم في صدق رسالته. انظر سيرة ابن هشام/ ترجمة تركية: 1/ 262

34 - فصلت: 1، 6

35 - الفرقان / 4 ، 6

تمسه يد الباطل او تحرفه،³⁶ او ان ينال منه كيد. فقد فشلت كل الجهود المبذولة لاضعافه منذ ظهوره في الارض، وسوف تفشل في عصرنا، وفي الزمان القابل ايضا، ويبقى هو حيا ومشعا.

وينبغي ألا نعزو عالمية الاسلام الى مصدره الاول والاهم حصرا، وهو القرآن، كما بينا. اذ للسنة النبوية ايضا دور مهم في عالميته.³⁷ كذلك للطرق الاستنباطية المستمدة من المصدرين السابقين دور مهم.³⁸ وكلها في اصلها تعتمد على الوحي، فنتكامل المصادر في مصدر واحد.³⁹ الحاصل، ان الاسلام بجملته النابع من مصدر واحد، ليس نظاما جامدا، بل حيويا دائما والى الابد، لانه ترك مساحة لتصرف البشر خارج النصوص الاساسية، وليس عالميا بتوجهات معينة فيه، بل بكله.⁴⁰

المحافظة على اصالته .

الاسلام دين يوجه الاهتمام الى القراءة والقلم، فقد بدأ الوحي بأمر {اقرأ} ، ثم اقسام {بالقلم وما يسطرون} فكان من البداهة ان يكون الاسلام النظام الوحيد الذي حفظ في ذاته على اصالة الوحي المنزل من الله. ومهما كان السبب، لا يمكن الادعاء بان التوراة والانجيل المتداول في يومنا هذا، هما الكتابان المنزلان على موسى وعيسى (عليهما السلام) بعينهما.⁴¹ ان مصدر الاسلام: (القرآن)، وحده دون غيره، حافظ على اصالته بنتيجة الحفظ الالهي الملحوظ رأي العين، المتمثل في الحساسية الشديدة المبذولة اثناء نزوله وفي المراحل التالية لنزوله.⁴² ان كل ما سطر في المصحف هو كلام الله. التاريخ لم يشهد همة واعتناء بشئ مثلما في الحفاظ على آيات القرآن منذ بداية الوحي حتى نزول آخر آية منه بكتابتها وحفظها في الصدور والعمل بها.⁴³ وزيادة على هذه الهمة والعناية الشديدة في حراسة وحفظ القرآن، كان ملك الوحي

36 - يقول الله تعالى: " ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد." فصلت / 41 ، 42 ، وفي آية أخرى عن وحدة المصدر القرآني: " أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" النساء / 82 .

37 - انظر محمد رمضان البوطي Hz. Muhammedin Risaletinin Evrenelligi (عالمية رسالة محمد p بالتركية ص 311 وما بعدها. واوز امرأة، ص 331 وما بعدها Ebedi Risaleti ، نشریات ايشيق، ازميز، 1993

38 - وانظر في هذا المعنى، فتح الله كولن، Prizma ، ص 89 وما بعدها.

39 - انظر النجم / 2 ، 4

40 - وانظر بشأن عالمية الاسلام قايا، Ebedi Risalet Islamin Evrenelligi Uzerine نشریات ايشيق، ازميز، 1993 ص 301 وما بعدها.

41 - يتكرر في القرآن تحريف اهل الكتاب للتوراة والانجيل (البقرة / 75 ، النساء / 46 ، المائدة / 13 ، 14 (او تبديلهما (البقرة / 59 ، 181 ، الاعرف / 62 ، الفتح / 15) والمجريات التاريخية المطردة تؤيد ذلك .. وكما يقول محمد حميدالله، تاريخ القرآن الكريم (ترجمة تركية) صالح طوغ، IFAV ، استانبول ، 1993 ص 20 ، 21 . ولذلك يدعو الرسول p التوقف بشأن اخبار التوراة والانجيل وألا نصدقها او نكذبها حتى لا نقع في تصديق الكذب او تكذيب الصدق والاسلام احالها الى الله تعالى. وانظر عن ذلك الى البخاري، الشهادات وابي دواد، العلم والمسنند 4 / 136 .

42 - تكفل الله سبحانه بحفظ آخر كتبه المنزلة (الحجر / 9) واعلمنا بصون آياته عن التبديل والتحريف (الانعام / 34 ، 115 ، يونس / 64 ، الكهف / 27 ، الروم / 30)

43 - كان كتاب الوحي يكتبون آيات القرآن من فورهم عند النزول. ويحفظه الاصحاح في الصدور ايضا. وكان الرسول p يدلهم الى محل الآية في السور. ثم يتعهدهم رسول الله p في حفظهم فيقوم اللحن ان وقع. ولم يجمع القرآن في مصحف في عهد رسول الله لنزوله منجما، فلما توفاه الله كان اول من جمع القرآن خليفة رسول الله ابو بكر رضي الله عنه، ثم تعاقب الحفظ باشد حرص واثقن وجه حتى أتم العمل عثمان رضي الله

جبريل يراجع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، كل سنة، وعرض عليه في العام الذي سبق وفاته القرآن مرتين. فما بقي محل لشبهة الى يوم القيامة في مصدر الدين، القرآن الذي يخاطب البشرية جمعاء.

ولا يخفى على المتأمل من هذه الزاوية الى المصدر الثاني، وهو الحديث، انه حافظ على اصله. فقد نقل الحديث كتابة وحفظاً. ومن المشهور منع تدوينه في البداية خشية ان يختلط بالقرآن،⁴⁴ لكن المنع لم يكن شاملاً للاحاديث في جملتها ولا الاصحاب كلهم كما هو معلوم ايضاً.⁴⁵

كان عامل الحفظ في ذلك العصر مهما في نقل العلم.⁴⁶ وقد مرت الاحاديث من خلال تدقيق وتقويم شديدين، ظهرت بنتيجتهما امهات المصنفات تجمع مدونات للحديث قام بجمعها علماء بغير اتصال او اتفاق بينهم وفي بلاد متفرقة. والعجب ان تتشابه الاحاديث في التصانيف المتنوعة، بل تتطابق الكلمات والجمل فيها، مما يدل على غاية العناية عند اولئك الرجال في حفظ الحديث.

اما الدس في الاحاديث في مراحل مختلفة ولمقاصد معينة،⁴⁷ فهو حقيقة واقعة. لكنه لم يفلت من ايدي صيارفة الحديث ولم تختلط بالصحيح منه، فالفوا في الوضع والوضايع مصنفات تفضحهم وتفضح مقاصدهم.

قاعدة المساواة في الاسلام :

عنه كما هو معلوم وهو المصحف الذي نتلوه اليوم. انظر البخاري / فضائل القرآن. ومحمد حميد الله، المصدر السابق، وجميع المصنفات في علوم القرآن.

44 - عن ابي سعيد الخدري: انهم استأذنوا النبي ﷺ في ان يكتبوا عنه فلم يأذن لهم. انظر مسلم / العلم، البغدادي / تقييد العلم. وعنه ان النبي ﷺ قال: لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليحجه. انظر مسلم / الزهد، الدارمي / المقدمة، المسند (ترجمة تركية 3 / 12). وبين رسول الله ﷺ سبب المنع في حديث عن ابي هريرة رضي الله عنه: اذا اتاهم رسول الله ﷺ ونفر من اصحابه يكتبون عنه، فسألهم: ماذا تكتبون. فقالوا: نكتب شيئاً سمعناه منك فقال: انما ضلت الامم من قبلكم بما كتبوا من غير كتب الله، البغدادي / تقييد العلم.

45 - عن وهب بن منية، عن اخيه سمع ابا هريرة يقول ليس احد من اصحاب رسول الله ﷺ اكثر حديثاً عن النبي ﷺ مني إلا ما كان من عند عبدالله بن عمرو فانه كان يكتب ولا يكتب. الدارمي / من رخص في كتاب العلم والبخاري / العلم. وعن عبدالله بن عمرو قال: كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله ﷺ اريد حفظه. فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا. فامسكت عن الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فاوماً باصبعه الى فيه، وقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق. ابو داود / العلم، المسند 2 / 162، الدارمي / المقدمة. وايضاً مشهور ان رسول الله ﷺ قال لمن حضره واشتكى كثرة النسيان. استعن بيمينك. انظر الترمذي / العلم. كذا ما قاله رسول الله ﷺ لرافع بن خديج حين سألته عن الكتاب: اكتبوا ولا ضير. (كنز العمال 10 / 232 وايضاً المسند 2 / 215). كذا عن رخصته ﷺ في تقييد الحديث انظر ابو داود / العلم، الترمذي / العلم. وحثه على تقييد العلم بالكتابة (الدارمي / المقدمة 43) يرشدنا الى مشروعية تدوين الحديث. وقد دونت الاحاديث في عهده ﷺ بدليل مدون الصحيفة الصادقة التي كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص وكذا همام بن منبه ومجموع زيد بن علي بن الحسين.

46 - كان العرب في الجاهلية يعتمدون الحفظ بدلا عن التدوين. لذلك توقفت ملكة الحفظ في العقول عند العرب، فاشتهروا به. ومن ذلك ما يروى ان عمر بن الخطاب كان يحفظ من الشعر ما يقدر ان يقرأه في يوم بغير توقف.

47 - ظهر في علم الحديث ما يعرف بالاحاديث الموضوعية لمقاصد مثل الترغيب والترهيب أو الدعوة الى مذهب ومشرب او ترويج لتجارة، فتصدى لها العلماء الجهابذة بالجرح والتعديل بل جردوها في مدونات مثل اللآلي المصنوعة للسيوطي وتنزيه الشريعة لابن عراك والموضوعات لعلي القاري وبالتركية الاحاديث الموضوعية لمحمد يشار فان دمير.

النظم التي تقوم على قيم عالية، لا بد ان تمتلك مبادئ تحقق المساواة المطلقة بين افراد البشر كافة. فلا يطول نفس أنظمة آفاقها لا تستوعب الانسانية جمعاء، ولا تتوسع مظلنها، في مواجهة ثقافات شتى وبنى متنوعة كثيرة. ان التوجه القائم على وضع الانسان في موضع بمقياس وضعه عند الله، وليس بمقياس اللون او الحالة الاجتماعية،⁴⁸ يمنح الامل للانسانية من اجل بلوغ الامان المنشود. لكن ينبغي ان نتذكر ان هذا الوضع لا يحقق لإنسان امتيازاً قانونياً في الاسلام.⁴⁹ ولا شك ان العقل يستبعد ان تنال الانسانية حيوية في المدى البعيد بمفاهيم تنحصر في قوم واحد او فكرة واحدة⁵⁰ او فكر يميز البشر حسب اللون أو التفوق بشئ فتعامل غيرها كخدم او عبيد.

والقرآن يأمر المسلم ان يحق الحق ولو على نفسه، وان ينفذ العدل بغير اتباع للهوى والشهوات، ويذكر من يحيد عنه بالله العليم الخبير وبالآخرة.⁵¹ وهذا دليل مهم على عالميته، لتحقيقه العدل المطلق ليس في الظاهر فقط، بل ظاهراً وباطناً. وأن وعيد الرسول صلى الله عليه وسلم بتحقيق العدل المطلق في الحياة الآخرة لمن يضل الحاكم عن الحق بقوة دليل باطل، عنصر مهم في تأييد الغاية القرآنية باحقاق العدل الذي يشكل اساساً من اساس المساواة.⁵²

هذا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي بلغ ديناً يحتضن الانسانية جمعاء في نداءه، ويورد قواعد مثل الاجتهاد والقياس والعرف والمصالح والضرورات، ويرى الناس سواسية كاسنان المشط امام القانون،⁵³ ويرسي اساس المساواة بين البشر واقعا وفعلا،⁵⁴ وحين سرقت بنت شريف و التمسوا شفاء لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، استعظم الامر وبين ان لو سرقت فاطمة بنته، لأقام عليها الحد.⁵⁵ فعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك الثبات على مبادئ الحقوق بغير اعتبار لشخص المذنب،

48- انظر الحجرات / 13

49- لا فضل في الاسلام إلا بالتقوى . وفضل التقوى عند الله وليس امام القانون يعني ان معظم نتائجها اخروية وليست دنيوية. فلا محل للتمايز في الحقوق وامام القانون بسبب التقوى.

50- "وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه" (سورة المائدة / 18) . فالذي ينسبون انفسهم الى ذات والى حبه، ويميزون انفسهم عن سائر الناس بالاستعلاء عليهم، تسقط دعواهم بالعالمية وتتهافت بالطبع.

51- في هذا المعنى: "يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين. ان يكن غنياً او فقيراً فالله اولى بهما. فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا. وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً" (النساء / 135) وايضا "وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك" (المائدة / 49)

52- عن ام سلمة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال: "انما انا بشر وانكم تختصمون الي ولعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضي له بنحو ما اسمع. فمن قضيت له بحق اخيه فانما اقطع له قطعة من النار" متفق عليه وانظر البخاري / الشهادات - الحيل - الاحكام. وايضا مسلم / الاقضية وابو داود / الاقضية - الادب والترمذي / الاحكام.

53- يروي الديلمي حديثاً في هذا المعنى "الناس سواسية كاسنان المشط" وعن انس بن مالك: الناس سواسية كاسنان المشط، لافضل لأحد على احد إلا بالتقوى. انظر العجلوني، كشف الخفاء.

54- انظر: البخاري / الحدود ، مسلم / الحدود.

55- عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا اهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا اسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه اسامة. فقال رسول الله ﷺ اتشفع في حد من حدود الله تعالى؟ ثم قام فاختطب ثم قال: "انما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد. وايم الله لو لن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" متفق عليه / الحدود

وان فئة المتنفذين عثرة امام العدل، وشيوع شفاعتهم بالباطل سبب زوال الامم السابقة.

ان قاعدة سيادة القانون والعدل اساس مهم رعاها الرسول صلى الله عليه وسلم رعاية عظيمة. مثال ذلك: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مس بعصاه رجلا يضحك الناس بمزاحه، فألمه. وحين اراد هذا الصحابي ان يقتص من رسول الله صلى الله عليه وسلم، مكنه من نفسه وابدى له اللين. فاحتج ان رسول الله مسه بالعصا وجلده ظاهر، وطالب الرسول ان يزيح ملابسه حتى يقتص، فرضي الرسول بذلك ايضا. فقام الصحابي وقبل جلده معبرا عن ان قصده هو تقبيل بدن رسول الله حبا به. ان هذا نموذج ساحق لأنفاذ المساواة بين البشر في واقع الحياة.⁵⁶

ان الدين لا يكتفي بالنص فقط على المساواة، بل يضع القواعد الضرورية لتنفيذها، ويؤكد على مبدأ سيادة القانون ويقدم نماذج واقعية لتكون قدوة من السلف الى الخلف. وهذا يجعل الدين، بخلاف النظم الأخرى، لا يبلى مهما تقدم الدهر، بل حيا يهب البشرية السعادة في كل العصور والازمان.⁵⁷

ثم ان مبادئ عامة مثل المسؤولية الشخصية في الجرائم وعقاب مرتكب الجريمة،⁵⁸ والمتهم برئ حتى تثبت الجريمة،⁵⁹ والاصل حماية المجتمع لا حماية المجرم،⁶⁰ تدلنا على الموقع المتقدم للإسلام في العالمية. كذلك، حقوق الانسان التي بدأ البحث عنه في اواخر النصف الاول من القرن العشرين الميلادي، "والاعلان العالمي لحقوق الانسان" الموقع عليه من دول عديدة في 10 / 12 / 1948 م،⁶¹ اذا قيس بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع،⁶² لظهر جليا أغوار الاسلام. فالبيان العالمي لحقوق الانسان لا يتجاوز ان يكون توصيات في جوهره، اما مبادئ الاسلام فهي حيوية وموجهة للتطبيق في واقع الحياة. هذا، وتعرض هذه الحقوق الى الانقطاع تارة واخرى حتى في الدول التي تدعي التحضر اليوم. بينما

56 - ابو داود / الادب، المسند 3 / 67

57 - ابو داود / الادب، المسند 3 / 67

58 - 58 - تكررت قاعدة المسؤولية الفردية عن الجرم في خمس آيات "ولا تكسب كل نفس الا عليها، ولا تزر وازرة وزر اخرى" الانعام / 164 وانظر الاسراء / 15 ، فاطر / 18 ، الزمر / 7 ، النجم / 38

59 - الاصل براءة الذمة قاعدة اسلامية صارت قانونا في مجلة الاحكام العدلية ايضا.

60 - الاصل في العقوبات الشرعية هو الردع وتنظيف المجتمع من المجرمين. لذلك، بنى الجزاء في القصاص على ايقاع مثله في بدن الجاني ومنع التحول عنه الى بدل المثل عموما الا ان يعفو ولي الحق.

61 - هذه الاتفاقية ثلاثون مادة تتضمن اعلانا عن حقوق الانسان الاساسية مثل الحرية والمساواة والحقوق وحق التملك وحرية الاعتقاد والوجدان والفكر والدين والامن الاجتماعي والانتخاب والترشيح. وافقت تركيا على هذه الاتفاقية في 6 نيسان 1949 بالقانون رقم 3 / 9119 ونشرت في الجريدة الرسمية العدد 7217 بتاريخ 27 ايار 1949 وقد صدرت توصية رسمية بقراءتها في المدارس والمؤسسات التربوية وشرحها.

62 - خطبة الوداع تخاطب العرب في القرن السابع الميلادي باعتبار التاريخ والزمن. لكن العمومية في الخطاب وعالمية الاحكام الواردة فيها تجاوزت الزمان والمكان لتشمل كل زمان ومكان الى قيام الساعة. فرسول الله p يتجاوز المخاطبين في ذلك اليوم بتكرار "ايها الناس .. ايها الناس" ويضع قواعد عالمية في الربا والنار وحقوق الانسان والاخلاق العامة.

نفذت تماما في عصر السعادة النبوية وكان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الاولى فيها. وخير مثال لها في خطبة الوداع وضع الدماء والربا⁶³ ومعاملة الرقيق.⁶⁴

الكنه والمحتوى :

ما من شئ رطب ولا يابس إلا في القرآن.⁶⁵ وهوتبيان لكل شئ.⁶⁶ لكن احتوائه على كل شئ وتبينه له، لا يعني السرد المفصل. لان الله تعالى وهب الانسان العقل والقدرة للاستنباط من رموز الكتاب المنزل، وحثه على إجلاء معانيه بالعلوم الموفورة والمنقولة نسلا بعد نسل. وحتى يهتدي العقل الى الصحيح ولا يضل عن الفهم السليم، ارسل رسوله صلى الله عليه وسلم هاديا للبشرية فبلغ بالقرآن وبينه وفصله وتمثل به. فصار للدين شمولية واسعة من المصدر القرآني الاصيل وانعكاسه كالمرأة على حياة الرسول العملية.

ان من اهم مقاصد القرآن السمو بالانسان الى الاخلاق العامة العالمية والرقي به الى مرتبة الانسان الكامل. وان مجتمعا في اعلى درجات الكمال الانساني لا بد أن يعرف كيف يتصرف إزاء كل مسألة ويصل الى احسن النتائج. ومن معالم حيوية الاسلام وبقائه على اصالته، نزول آيات عددها غير قليل في التشريع القانوني،⁶⁷ والتمسير على الانسان بحرية الحركة في دائرة واسعة بقواعد عامة مثل الشورى في الادارة،⁶⁸ والعقد شريعة المتعاقدين⁶⁹ وحفظ العدل والقسط⁷⁰ بل العدل حتى مع الظالمين،⁷¹ والقياس، والاجتهاد، والاستحسان والاستصحاب والاستصناع وسد الذرائع.. وغيرها كثير. ان الاسلام، على خلاف ظن طائفة من الناس، ليس محمدا وعلما مسطورا في صفحات الكتب فقط، بل علما لا حدود له ولا حصر، بالقواعد التي ذكرناها. أليس القرآن كتابا يتجدد في كل عصر؟ ولأنسان كل عصر؟ وتنطوي معانيه على ما يلائم كل زمان؟

63 - ان الرسول p لا يكتفي بالتبليغ فقط، بل يجري وينفذ ما يبلغ به. فهو اذ يعلن وضع الربا والدماء، يردف بنفاذه اولا على أقرب الناس اليه عمه العباس. وينفذ الأوامر والنواهي من فوره بالأعمال. انظر مسلم / الحج ، ابو داود / البيوع ، المناسك، الترمذي / تفسير سورة التوبة.

64 - رفع الرق لم يجر بالنصح او الامر مجردا عن الاجراء. ان هذا الامر الجاري في المجتمع الجاهلي مجرى الدم في العروق، خفف عنه في المجتمع الاسلامي بالفعل والعمل. وخير مثال على ذلك، زواج زيد رضي الله عنه الذي اعتقه النبي p من زينب الحرة القرشية الشريفة، ثم زواج الرسول p منها بامر الله تعالى اثر طلاقها بعد مراجعات من زيد لزوال الوثام بينهما. وايضا نصب اسامة بن زيد (رضي الله عنه) اميرا على جيش فيه كبار الصحابة.

65 - الانعام / 59

66 - النحل / 89 ، الاسراء / 12

67 - القرآن راعى التدرج، وقد وردت فيه بضع جرائم قانونية وعقوبات تتعلق بها مثل القتل والزنا والسرقة والقذف والحراية. ومقصود القرآن قمع الجرائم والمجرمين الى ادنى الحدود. اما العقوبات المنصوص عليها فمقصودها ردع المنحرفة فطرتهم عن الجرائم.

68 - انظر: آل عمران / 159 ، الشورى / 38 ، البقرة / 233

69 - انظر: البقرة / 233 ، النساء / 29 ، 58 ، النحل / 90 ، الحجرات / 9 .

70 - انظر: المائدة / 8 ، الشورى / 15 .

71 - يقول الله تعالى: "يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا، هو أقرب للتقوى. واتقوا الله، ان الله خبير بما تعملون" المائدة / 8

ان قيم الاخلاق وشؤون العائلة والايمان والعبادة والمعاملات واخبار الامم الغابرة وشؤون الكون والآخرة امور عامة عالمية تهتم كل انسان في كل العصور وامثالها تتكرر كثيرا في القرآن.

ان ما يبعث العجب ويحير العقول ان يحتوي القرآن على امور تظل سارية ونافذة في الاصر المتتالية، وليس ما يقع فيه عقل نفر من الناس من الاستصعاب والتهويل لفهم امكانية القرآن المنزل من الله الذي لا يحده زمان او مكان، العليم البصير بالازمنة والامكنة كلها جميعا، على الانسجام مع تغيرات الزمان والمكان. ذلك لأن القرآن من الله الحاضر دائما وليس في وقت معين، لذا لا بد ان تكون رسالته عالمية.⁷² هذه الرسالة التي احتفظت باصالتها كما هي منذ نزولها حتى يومنا، فانه المتعالي يخاطبنا بالقرآن بذاته.⁷³

ان الاسلام قدم علوما مركزة بشأن الحقائق العالمية ونشر مفاهيم راسخة عن الحياة الدنيا وايضا الحياة الأخرى، وهي التي يبحث عنها ويسعى اليها الفلاسفة عبر العصور. ويحصل كثيرا ان رجال الفكر يحسبون امورا عديدة في عصر من العصور حقائق مطلقة، ثم لا تلبث ان تنهار، وتقوم مقامها امور اخرى يحسبونها حقائق مطلقة ايضا. مثلا: كانت العقلانية نظرية متحكمة ردا من الزمان ثم حلت محلها النظرية الحسية لتكون النظرية السائدة الوحيدة. وكتاهما لم تكونا حقائق مسلمة في نظر مبادئ الاسلام، لانها تنعكسان من الافراط والتفريط. فالاسلام يقر للنظريتين كلتاهما بنصيبهما فيما اصابتا، ويقرر ان الحق المطلق لا يدرك بالعقل وحده، ولا بالحس وحده، بل باتباع الصراط المستقيم الوسط بين الامرين باعمال العقل والاحاسيس. ولو استخدمت أنعم وهبها الله مثل العقل والفكر والحس القلب فيما يوجه اليه القرآن، لتعرف التاريخ على خلاصات العقل لأفذاذ رجال الفكر في مواقع متقدمة على مواقعها ولدخلت التاريخ بتوجهات مختلفة في التنوع والغنى. ولم تفت الفرصة في زماننا هذا ايضا.

ومعلوم ان اتهامات توجه الى الاسلام الذي يعرض عالمية في محتواه، تنصب في قوانينه الجزائية خاصة. وهذه لو نوقشت في ارضية مناسبة، لاتخذت مجراها الطبيعي وحلت عقبتها. ثم انها ينبغي ألا تناقش باعتبار عالميتها، بل باعتبار احتوائها

72 - قد يرد هنا سؤال : لماذا كتب الانبياء السابقين، مثل موسى وعيسى عليهما السلام، ليست عالمية وقد بعثهم كلهم الله الواحد؟ ينبغي اولا ان نبين حقيقة هي: ان الانجيل والتوراة ليستا عالميتان باعتبار المجتمع الذي خاطباه، وان كان كلا الكتابين يحويان على امور تهتم جميع البشر نجدها في القرآن ايضا، لا يمكن انكار عالميتها. ومن الحقائق ايضا تبشير الانبياء السابقين بخاتم النبيين بنص التوراة والانجيل. فان الانبياء السابقين مهدوا السبيل للرسالة العالمية. اذا ليست المسألة عالمية "العلم الالهي"، بل رعاية التدرج على ما هو جار في السنن الكونية. فانه تعالى لم يدع المجتمعات البشرية بلا مرشدين، بل ارسل انبياء بين مدة واخرى او في زمن واحد ليضئوا افاق الانسانية حسب البيئة الجغرافية وظروف الاتصالات السائدة، حتى وهبهم رسالة عالمية تصلح للبشر جميعا.

73 - هنا مسألة اخرى هي غياب السعي في فهم البيان الالهي وبذل مساع غير نافعة في معظمها تجهد العقول لاستيضاح معضلات يضعها المستشرقون في مقترباتهم من الاسلام انطلاقا من سؤال عن نقطة البداية ونقطة النهاية لسلطة الكتاب المقدس خاصة (انظر: باليون، توجهات حديثة). فاننا لو جعلنا هنا فهم المقاصد الالهية في القرآن مثل مهمهم في ضبط المقاصد وضبط العبارات، لفتح لنا القرآن ابوابا على الوان شتى من المعاني العظيمة. فليتنا ان نعرف عما نبحت اولا واين؟ نعي ان نملك ناصية اردنتنا.

على تفسيرات تاريخية بنتيجة ثقافة معينة لا تعترف احيانا حتى بحق الحياة لها. يعني ان الموضوع هنا هو الانحياز الى الذات.

ان قانون الجزاء في الاسلام يؤكد على الردع وحماية المجتمع وليس حماية الجاني. والذين يظنون ان عقوبات الجزاء في الاسلام ليست صالحة للانفاذ، يهملون تفويم الحادث وحال المتأثرين به، وينقلبون على انفسهم بحماية الجاني بعد نسيان اثر الحادث حين يتأثر حكم العدل. والحاصل ان تقديم الحادث حين وقوعه - كما مشاهد في حوادث شبيهة به حال وقوعها - يؤدي الى قناعات بعقوبات اشد من العقوبات التي يفرضها الاسلام. والثابت ان تقويما وسطا بعيد عن الحيد يؤدي الى ضرورة ايقاع جزاء رادع مناسب وسريع يحمي المجتمع .

طريقة رسائل النور لقراءة عالمية للقرآن:

ان رسائل النور من اهم المناهج التي تفسر الاسلام في عصرنا، وينبغي ان تحتوي على توجهات بشأن عالمية الاسلام. وان رسائل النور لم تفرد للعالمية عنوانا خاصا، لكن تناولت الموضوع في طريقة توجهاتها في كل بحث، وفي بحوث القرآن خاصة، واستخدمت وسائل الاقتناع الخاصة بها، بأسلوب طبعي بعيد عن الضغط والتصنع، في مسألة عالمية الاسلام تعريف بديع الزمان للقرآن⁷⁴ فيه "عالمية"

74 - يقول بديع الزمان عن القرآن: "هو الترجمة الازلية لكتاب الكائنات الكبير... والترجمان الابدی لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية.. ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة.. وكذا هو كشاف لمخفيات الكنوز المعنوية للاسماء الإلهية المستترة في صحائف السموات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان عالم الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والانتقائات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا.. وكذا هو شمس عالم الاسلام المعنوي وأساسه وهندسته.. وكذا هو خريطة مقدسة للعوالم الاخروية.. وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.. وكذا هو المربي لهذا العالم الانساني.. وكالماء والضيء للانسانية الكبرى التي هي الاسلام.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي الى ما يسوق الانسانية الى السعادة.. وكذا هو للانسانية كما انه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة، وكما انه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب امر ودعوة، وكما انه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الانسان المعنوية، حتى انه قد ابرز لمشرب كل واحد من اهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لانقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره. فهذا الكتاب السماوي اشبه ما يكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب.

الجزء الثاني وتنمة التعريف: لقد وضع في "الكلمة الثانية عشرة" واثبت فيها: ان القرآن قد نزل من العرش الاعظم، من الاسم الاعظم، من اعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو امر الله بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكاملة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطاب ازلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى، وهو سجل الانتقائات والتكريم الرحماني النابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء، وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الالهوية - اذ في بدايات بعضها رموز وشفرات - وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة، نازل من محيط الاسم الاعظم ينظر الى ما احاط به العرش الاعظم. ومن هذا السر اطلق على القرآن الكريم ويطلق عليه دوما ما يستحقه من اسم وهو: "كلام الله". وتأتي بعد القرآن الكريم الكتب المقدسة لسائر الانبياء عليهم السلام وصحفهم. أما سائر الكلمات الإلهية التي لا تنفذ، فمنها ما هو مكاملة في صورة إلهام نابغ باعتبار خاص، ويعنوان جزئي، وينجل خاص لإسم خصوصي، وبربوية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية. فالهامات الملك والبشر والحيوانات مختلفة جدا من حيث الكلية والخصوصية.

الجزء الثالث: ان القرآن الكريم، كتاب سماوي يتضمن اجمالا، كتب جميع الانبياء المختلفة عصورهم، ورسائل جميع الاولياء المختلفة مشاربهم، وآثار جميع الاصفياء المختلفة مسالكهم. جهاته الست مشرفة ساطعة نقية من ظلمات الاوهام، طاهرة من شائبة الشبهات، اذ نقطة استناده: الوحي السماوي والكلام الازلي باليقين.. هدفه وغايته: السعادة الابدية بالمشاهدة.. محتواه: هداية خالصة بالهداية.. أعلاه: انوار الإيمان بالضرورة.. أسفله: الدليل والبرهان بعلم اليقين.. يمينه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة.. يساره: تسخير العقل والادعان بعين

قائمة بذاتها فهو ينظر الى الكون كله وحدة متكاملة،⁷⁵ والى القرآن رسالة خاصة موجهة الى من لا يعي السنة عالم المادة،⁷⁶ يعني ان القرآن ترجمان كتاب الكائنات.⁷⁷

وإذا تطلعنا الى رسائل النور من جهة موضوعاتها، لشهدنا الشبه الكبير بينها وبين الموضوعات التي ترد في القرآن وتوجهها الى افراد البشر. وغني عن البيان ان المسائل الايمانية التي فيها خاصة، حيوية في كل زمان ولكل انسان، لذلك لا يمكن اعتبارها مسائل تاريخية. وخير مثال عليها: رسائل الطبيعة، والثمرة، والحشر، وفصول مسائل النبوة.

ان رسائل النور تلفت النظر الى القرآن، منبع الدين واهم عناصره، في مسائلها كلها، وتكتف الاهتمام به. مثال ذلك: يقول بديع الزمان "ملتنا جسد واحد، روحه الاسلام، وعقله القرآن والايمان"⁷⁸، و"ينبغي ان تكون كتب المجتهدين وسيلة او زجاجا نرى بها القرآن، لا ان تكون وكيلة عنه او ظلا له"⁷⁹، فنبه ألا تكون الكتب - وان قصدت بيان مقاصد القرآن - ظلا للقرآن. وهو يرى ان حل كل معضلة هو "في نهوض المسلمين من سباتهم وتمسكهم بالقرآن"⁸⁰ لان طلسم الكون لا يفك إلا بترجمان الكائنات: القرآن⁸¹

ان توجهات بديع الزمان لا تنحصر في القرآن فقط، بل يعنى بعباراته العامة الاسلام ايضا .. مثال: "الاسلام كالشمس لا تنطفئ بالنفخ، وهو كالنهار لا يصير ليلا باغماض العين. ان من يغمض عينه يجعل نهار نفسه فقط ليلا"⁸² فهو بذلك، لا يحصر القراءة بالقرآن، بل يشملها بالدين كله ويلفت النظر الى حيوية الاسلام ابدًا. فالذي يسئ الظن بحيوية الاسلام، ليس من بحث عنه ولم يجد، بل اغمض عينه عن الحق فصارت دنياه ظلاما وسجنا.

وتتكاثف المواضيع المتعلقة بالعالمية في فصول رسائل النور، وفي الكلمة الخامسة والعشرين واشارات الاعجاز خاصة، في ابواب مثل منبع الدين ومصدره، وغور اعماقه واستحالة معارضته، وعلو مراتب متونه، وخطابه لكل زمان وانسان، واسلوبه، ووسيلة اقناعه، وعلاقة القرآن بالكائنات وغيرها.. ونستعرض هنا اسلوب رسائل النور في بيان عالمية القرآن:

المصدر والعالمية:

اليقين.. ثمرته: رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين.. مقامه: قبول الملك والانس والجان بالحدس الصادق .
الكلمات / 422 - 423
وانظر لافادات شبيهة في المثنوي العربي النوري
75 - الكلمات - الكلمة العاشرة ، الفقرة الثانية من الذيل .
76 - الكلمات وايضا للمعات والمثنوي والملاحق - قسطنوني .
77 - اشارات الاعجاز / 22 ، الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ، المثنوي العربي النوري .
78 - المناظرات .
79 - صيفل الاسلام - السانحات / 348 .
80 - Tarihcei Hayat s 140
81 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون - الشعلة الثانية، الضوء الاول
82 - صيفل الاسلام - المناظرات / 387 .

ان مصادر الاسلام هي القرآن والسنة والقواعد المستندة اليهما. فالقرآن والسنة، والقرآن خاصة، هما اساس الاسلام. ان رسائل النور، بجانب ابرازها لعالمية الاسلام بصورة عامة توجه الاهتمام الى الاساس الاول: القرآن والى مصدر القرآن خاصة، وذلك من خلال بحوثها بشأنه. مثال: "القرآن كلام الله العظيم المحيط بعلمه لكل شئ، وليس من رجل امي" ⁸³ انه كلام ذات يحيط بالازمنة كلها، والاشياء كلها، في أن واحد" ⁸⁴. القرآن، خطاب ازلي" ⁸⁵ ومحال عليه أن لا يكون كلام الله" ⁸⁶ والظن بانه من كلام النبي جرم عظيم" ⁸⁷ بذلك، يوجه بيدع الزمان الذهن الى العلاقة بين الكلام والذات صاحب الكلام.

ويؤكد النورسي ان القرآن يعطي مقاما لكل شئ بقدر قيمته، فيقول: انه كلام من يحيط بالازمنة كلها، والاشياء كلها، في أن واحد، فيبين مدى احاطة العلم الالهي والكلام الالهي. ⁸⁸

يكرر بيدع الزمان القول في العلم الالهي ووسعة احاطته في مواضع كثيرة، ويقول عن القرآن. "أن القرآن الكريم لا يمكن ان يقاس بأي كلام آخر، اذا إن منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة :

الأول: المتكلم. الثاني: المخاطب. الثالث: المقصد. الرابع: المقام. وليس المقام وحده كما ضل فيه الادباء. فلا بد ان تنظر في الكلام الى : مَنْ قال؟ ولمن قال؟ ولم قال؟ وفيمْ قال؟ فلا تقف عند الكلام وحده وتنظر اليه..ولما كان الكلام يستمد قوته وجماله من هذه المنابع الاربعة فبانعام النظر في منابع القرآن تدرك درجة بلاغته وحسنها وسموها وعلوها.

نعم ان الكلام يستمد القوة من المتكلم، فاذا كان الكلام أمراً ونهياً يتضمن ارادة المتكلم وقدرته حسب درجته وعند ذلك يكون الكلام مؤثراً نافذاً يسري سريان الكهرباء من دون اعاقه أو مقاومة. وتتضاعف قوة الكلام وعلوه حسب تلك النسبة" ⁸⁹. ان بيدع الزمان، اذ يقول "دساتير القرآن وقوانينه خالدة الى الابد لانها صادرة من الازل، قتيبة وقوية، وليست مثل قوانين المدنية محكومة بالهرم ثم الموت" لا يكتفي بالتقرير المجرد، بل يوضح قوله بامثلة يوردها، فيثبت انه حقيقة وليس ادعاء مجرداً. ⁹⁰

83 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون الشعلة الثالثة، الضوء الاول

84 - الكلمات - الكلمة العشرون، المقالة الثانية - السؤال الثاني.

85 - اشارات الاعجاز / 20

86 - الكلمات - الكلمة العشرون، الشعاع الثاني - اللمعة الرابعة

87 - الكلمات - الكلمة الخامسة عشرة، الذيل

88 - الكلمات / 296

89 - الكلمات / 500

90 - مثال ذلك يقول في معرض التنبيه الى الفوائد السايغة على المجتمع من أمرين قرآنيين هما: تحليل البيع وتحريم الربا، وفشل الانظمة المعاصرة، مع توافر قدراتها، في فك معضلات حلها القرآن بامرین اثنين فقط. وايضا علو قواعد الاسلام على غيره في تحقيق التوازن الاجتماعي بالتنبيه الى مسألة تعدد الزوجات وايضا حظ النساء في الميراث واحقية ما جاء به القرآن. انظر. الكلمات، الكلمة الخامسة والعشرون.

"ان القرآن الكريم كنز عظيم لا ينفد، وان كل عصر يأخذ حظه من حقائقه الخفية التي هي من قبيل التتمات، مع التسليم بنصوص القرآن ومحكماته من دون ان يتعرض او يمس ما خفي من الحقائق من حظ اهل العصور الأخرى.

وحقاً ان حقائق القرآن تتوضح أكثر كلما مضى الزمان، لانها نصوص قاطعة وأسس وأركان لا بد من الايمان بها." ⁹¹ ويوجه الانظار الى مصدر القرآن فيقول:

"فان أخذ كل طبقة من طبقات البشر ابتداءً من الغبي الشديد الغباء والعامي، الى الذكي الحاد الذكاء والعالم نصيبها كاملة من الدروس التي يلقيها القرآن الكريم، وفهمهم منه أعمق الحقائق، واستنباط جميع الطوائف من علماء مئات العلوم والفنون الاسلامية، وبخاصة مجتهدى الشريعة السمحة ومحققى اصول الدين وعباقرة علم الكلام وامثالهم، واستخراجهم الاجوبة الشافية لما يحتاجونه من المسائل التي تخص علومهم من القرآن الكريم، انما هو تصديق بأن القرآن الكريم هو منبع الحق ومعدن الحقيقة" ⁹²

ويقرر بديع الزمان " ان القرآن لا يمكن ان يحاكم محاكمة عقلية بغير انحياز"، ويكتب " المكتوب السادس والعشرين " ليدفع عن العقل كل وسوسة او شبهة ترد بشأن القرآن، ويبرهن انه كلام الله حتماً بأدلة تطمئن العقل والقلب. ⁹³

المخاطب والعالمية:

القرآن يتوجه بخطابه الى ذوي الشعور كافة وفيهم الانسان الذي هو اكثرهم اهمية. اما الموجه للخطاب، كما ذكرنا فيما سبق، فهو الله الخالق المالك لكل شئ. لكن الخطاب ليس فوق قدرة فهم البشر، بل ضمن قدرة فهمهم. ويفيد بديع الزمان بهذه الحقيقة التي ذكرت اثناء التاريخ بعبارات متنوعة، اذ يقول: "ان في القرآن تنزلات إلهية" ⁹⁴، فيلفت النظر الى هذه الخصوصية فإلله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ⁹⁵ لذا انزل كتابه بلسان يفهمه الانسان. لكن إن خطر على الظن القدرة على ان يؤت بمثل

91 - المكتوبات / 501

92 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون

93 - المكتوبات - المكتوب السادس والعشرون.

94 - - صيقل الاسلام - المحاكمات - المقالة الاولى، المكتوب العاشر. وايضا من الملفت للنظر ما ورد في مخطوطات "اللمعات" والذي كتب في مناخ اقرب الى الشعر منه الى النثر: "... اما القرآن، فييدي النبي مخاطبا (بفتح الطاء) في الظاهر. المخاطب (بفتح الطاء) ستار لصاحب الكلام. فانه واجب الوجود الذي تفضل ويفضل، على مخاطبين لا يجدون بحدود، من الازل الى الابد، جميعا ومعاً، بخطاب وكلمات سبحانية بلا نفاذ ولا نهاية. ولو كان سماع كل الكلمات اللانهاية دفعة واحدة في دائرة الامكان، وكان المكان او المخاطبين جميعاً اذنا واحدة في صورة ذرات الكائنات، لشهدت تلك الاذن الكونية، بالنور الايماني وبالحدس الوجداني، ما وراء الكلام اللانهائي او فيه، الجلال اللانهائي، وفي عظمتة الحشمة السلطانية. اذن، التنوع في اساليب التنزيل الهية وتجليات للاسماء والصفات، فيشهد النظر الايماني اياه فيما وراء الكلام.

كل انسان يستطيع ان يقول: الشمس متوجهة لي في داري التي هي الدنيا. الشمس تنبسم لي في هذه المرأة، التي تنظر هذه العين السماوية، ولو وهب الله اسماء الشعور والنطق، لتكلمت معي هذه السماء الطوة ولصارت واسعة البيان مرآتي. انحصار الذهن يمنعه هذا الحق، فيقول ايضا: الله يخاطبني، فاني اشهد بالايمان رحمانا نورانيا فيما وراء الكلام. ذوي الارواح كلها، بل والكائنات كله تقول هذا جمعا واحداً. اذ لا نزاحم فيه ولا انحصار، فهو سرمدى لامكاني (مقتبس من دفتر مخطوط بالتركية العثمانية للسيد اياماز - صفحة 195 - 196)

القرآن، فبقليل من التمعن يتبين العجز عن مجارات أسلوبه السامق كأنه من قبيل "السهل الممتنع"! وهذا وجه من أوجه الإعجاز فيه. يقول بديع الزمان عن خطاب القرآن "إن له خطاب خاص لكل إنسان أو طبقة أو اصحاب مهنة أو مشرب ولكل عصر من الزمان. ويضرب لذلك الامثال من آيات القرآن، يرد كثير منها في رسالة "إشارات الإعجاز" التي كتبها بنية تأليف تفسير واسع للقرآن، لكنه تحول عن ذلك مكتفياً باعتبارها نموذجاً لتفسير قد يقتدى به، وايضا في الكلمة الخامسة والعشرين التي يبدوها بالقول: "أرى من الفضول التحري عن برهان وفي اليد معجزة خالدة، القرآن.

أثراني أتضابق من إلزام الجاحدين، وفي اليد برهان الحقيقة، القرآن؟". ويبين بأمثلة من القرآن في معرض تركيز الاهتمام بمصدره وسمو أسلوبه، ان الآيات قد تتوجه الى ادنى الناس ملكة، ويستفيد منها أعلاهم. ومن جملة ذلك: القصص في القرآن التي قد تبدو احداثاً تاريخية لأول وهلة لكنها تترك آثارها في العقول البسيطة وفي عقول الخاصة سواء بسواء.⁹⁶

ويؤكد حيوية القرآن، اذ يقول: "الحقائق القرآنية القيمة لم تفقد اهميتها بمرور الزمان"⁹⁷. "ان قوانين القرآن فتية ابداء"⁹⁸ وعلى خلاف القوانين البشرية الوضعية، تثبت تفوقها بتقدم العصور.⁹⁹

ان بديع الزمان يورد حشوداً من الافادات التي تظهر ان القرآن يخاطب كل انسان وكل طبقة وكل عصر على حدة. مثل: "ما دام القرآن الكريم خطاباً أزلياً، يخاطب به الله سبحانه وتعالى مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور ويرشدهم جميعاً، فلا بد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الافهام، وسيضع إمارات على ارادته هذه"¹⁰⁰. وليبيان أكثر تفصيلاً نفرد ايضاحاً للانسان والطبقات والعصور:

الإنسان :

ان القرآن يهتم بذوي الشعور كلا منهم على حدة. لذلك يستفيد، وينبغي ان يستفيد كل انسان من معانيه. ان تنوع اسلوب القرآن، على خلاف كلام البشر، يجعله يخاطب كل عقل.

ويتوقف بديع الزمان على نزول القرآن على سبعة احرف،¹⁰¹ ويقول "القرآن يحافظ على فتوته كأنه ينزل في كل عصر"¹⁰²، فيوجه الاذهان الى طراوته، كذا الى علو كلمة البيان الالهي وحيويته بقوله: "حروف القرآن تخرج سنابلها حسب العصر الذي تقرأ فيه"¹⁰³

96 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون. الشعاعات، رسالة الثمرة.

97 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون. الشعلة الثانية، النور الثالث.

98 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون. الشعلة الاولى الشعاع الثالث، الجلوة الثانية

99 - يقول بديع الزمان في الكلمات /471 عن دوام طراوة القرآن: "أثار البشر وقوانينه تهرم وتتغير وتتبدل مثلما البشر. لكن احكام القرآن وقوانينه ثابتة وراسخة حتى انها تشتد قوة بمرور العصور"

100 - الكلمات / 456

101 - اللغات - اللعة الثانية عشرة، المسألة الثانية

102 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الثالث، الجلوة الثانية

103 - الكلمات - الكلمة الرابعة والعشرون، الغصن الثالث، الاصل التاسع.

ان كل انسان يقتبس من فيوضات القرآن بقدر قابليته،¹⁰⁴ فيقول النورسي: "كل انسان يفهم اعجاز القرآن على قدر علمه"¹⁰⁵ ويؤكد كذلك، على ان معاني القرآن يشبع عقولا عظيمة بقدر الجبال وعقولا بسيطة بقدر الذباب،¹⁰⁶ "وان ابن سينا ومؤمن عادي سواء في اكتساب الدروس من القرآن"¹⁰⁷ ، وان كل انسان له مطالب مختلفة، فاستفادة كل انسان من القرآن باعظم وجه، يكشف عجز البشر، كما يعلن عن سمو بيان القرآن.¹⁰⁸

الطبقة :

ان فطر البشر مختلفة ومشاربهم متنوعة. فلا ينكر تنوع عقولهم ومداركهم حسب المهنة والمشرّب. ويتبع ذلك اختلاف فهمهم وتنوع مواقفهم ازاء النصوص. فانه جل جلاله راعى هذا التنوع في البيان الالهي، وخاطب الطبقات والمشارب كلها باسلوب يفهمونه، وجعل في الخطاب اسلوبا يستفيد منه كلهم جميعا، فظهر من هذه الجهة علو الرسالة العالمية.

ولو تطلعتنا الى رسائل النور من هذه الزاوية، لوجدنا ان النورسي يقول "للقرآن اعجاز في كل طبقة من الطبقات"¹⁰⁹ ويصف القرآن بانه "مائدة الهية يخاطب الطبقات كلها"¹¹⁰ وان "كل طبقة من طبقات البشر تستلهم من القرآن دروسا تامة"¹¹¹ وانه "خطاب أبدي شامل للطبقات كلها"¹¹²

لقد اعتاد بديع الزمان ان يوضح رأيه بأمثلة متنوعة بدلا عن الاستناد الى افادة مطلقة، فيقول في بيان اعجاز القرآن ازاء كل الطبقات من اهل البلاغة الفصاحة واهل الشعر والخطابة، وتذوقهم جميعا له، مع العجز عن محاكاته، والحفاظ على جدته وطرأوته بنقادم الزمان وتعدد خطابه الى كل الطبقات مثل اخباره عن الغيوب ازاء طبقة الكهان والعرفان، وطبقة المؤرخين والآثارين، وظهور معجزات اسرار الآيات مثل امواج البحر التي لا تنقطع، ازاء طبقة علماء الاجتماع والسياسة، وطبقة الغواصين في المعارف الالهية والحقائق الكونية، ثم اهل الطريقة والولاية. "بل حتى ازاء طبقة عوام لا يملك غير اذنين وادراك درجة من المعاني، فيذعن صاحب الاذن مصدقا حين يسمع القرآن انه لا يشبه كتبنا غيره" ومن هنا يؤكد النورسي: ان من

104 - اشارات الاعجاز

105 - المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون القسم الثالث، المسألة الاولى

106 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول، النقطة الخامسة

107 - المكتوبات - المكتوب التاسع عشر، الاشارة الثامنة عشرة.

108 - يقول بديع الزمان بشأن هذا الموضوع " اذ القرآن ما نزل لأهل عصر فقط بل لأهل جميع الأعصار، ولا لطبقة فقط بل لجميع طبقات الانسان، ولا لصنف فقط بل لجميع اصناف البشر. ولكل فيه حصّة ونصيب من الفهم. والحال أن فهم نوع البشر يختلف درجة درجة.. وذوقه يتفاوت جهة جهة.. وميله يتشتت جانبا جانبا. ز واستحسانه يتفرق وجها وجها.. ولذته تتنوع نوعا نوعا.. وطبيعته تتباين قسما قسما. فكم من أشياء يستحسنها نظر طائفة دون طائفة، وتستلذها طبقة ولا تنتزل اليها طبقة. وقس!.. فلأجل هذا السر والحكمة أكثر القرآن من حذف الخاص للتعميم ليقدّر كل مقتضى ذوقه واستحسانه. ولقد نظم القرآن جملة ووضعها في مكان يفتح من جهاته وجوه محتملة لمراعاة الافهام المختلفة ليأخذ كل فهم حصته". اشارات

109 - المكتوبات ، المكتوب التاسع عشر، الاشارة الثامنة عشرة، النكتة الاولى.

110 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول، النقطة الخامسة.

111 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى.

112 - صيقل الاسلام - السانحات.

المحال ان يكون القرآن ببيانه المختلف هذا دون غيره من الكتب، وهو ما يذعن به اقل العقول ادراكا. اذن هو فوق الكتب جميعا بهذه الكيفية، ويعني انه معجزة¹¹³. يقول بديع الزمان: "كما ان الاعجاز الذي يفهمه ولي من اهل المعرفة، وجمال الاعجاز الذي يشاهده ولي من اهل العشق ليس واحدا، فكذلك تتبدل جلوات جمال الاعجاز بتنوع المشارب. وان وجه الاعجاز الذي يراه علامة في علم اصول الدين او امام فيه، ليس مثل الاعجاز الذي يراه مجتهد في فروع الشريعة". ويصنف فهم اعجاز القرآن الى طبقات بدءا من طبقة ابسط العوام ويسميتها "طبقة الاذن" وهم الذين يسمعون القرآن بأذانهم فقط ويفهمون اعجازها بها، فيقر السامع منهم بان "القرآن الذي سمعته اذنه لا يشبه غيره من الكتب. وهو اما دونها كلها او فوقها كلها. اما ان يكون دونها فلا يقول بذلك قائل ولم يقله احد من الناس، ولا يقول به حتى الشيطان نفسه. اذن هو فوق الكتب كلها جميعا. ويسمي طبقة اخرى هم الماديون الذين هوت عقولهم الى اعينهم: طبقة ذوي العيون. فيقول إن للقرآن اشارة اعجاز ترى بالعيون يراها هؤلاء¹¹⁴. ثم على عادته يورد امثلة على ذلك ليخرج فكره من النظرية الى الواقع، ويوضح ان الدرس ليس متعددًا، بل درس واحد، لكن كل متلق للدرس انسانا او طبقة يأخذه كاملا دون نقص، فيبرز تفوق القرآن ههنا¹¹⁵.

113 - المكتوبات - المكتوب الناشع عشر، الاشارة الثامنة عشرة، النكتة الاولى.

114 - المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون، الرسالة الثالثة

115 - يأتي بديع الزمان بمثالين عن هذا، في قوله تعالى: "لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد" فان حظ فهم طبقة العوام التي تشكل الاكثريّة المطلقة هو: "ان الله منزّه عن الوالد والولد وعن الزوجة والأقران" وحظ طبقة اخرى متوسطة من الفهم هو:

"نفي الوهية عيسى عليه السلام والملائكة، وكل ما هو من شأنه التولد" لأن نفي المحال لا فائدة منه في الظاهر، لذا فلا بد ان يكون المراد اذا ما هو لازم الحكم كما هو مقرر في البلاغة. فالمراد من نفي الولد والوالدية اللذين لهما خصائص الجسمانية هو نفي الالوهية عن كل من له ولد ووالد وكفو، وبيان عدم لياقتهم للالوهية.

فمن هذا السر تبين: أن سورة الاخلاص يمكن أن تفيد كل انسان في كل وقت. وحظ فهم طبقة اكثر تقدما هو:

ان الله منزّه عن كل رابطة بالموجودات تشتم منها رائحة التوليد والتولد، وهو مقدس عن كل شريك ومعين ومجانس، وانما علاقته بالموجودات هي الخلاقية. فهو يخلق الموجودات بأمر "كن فيكون" بارادته الازلية وباختياره. وهو منزّه عن كل رابطة تنافي الكمال، كالايجاب والاضطرار والصدور بغير اختيار.

وحظ فهم طبقة أعلى من هذه هو:

ان الله ازلي، ابدى، أول وآخر، لا نظير له ولا كفو، ولاشبيه، ولا مثيل ولا مثال في اية جهة كانت، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله. وانما هناك (المثل) (والله المثل الاعلى) الذي يفيد التشبيه في افعاله وشؤونه فحسب.

فلك أن تقيس على هذه الطبقات اصحاب الحظوظ المختلفة في الادراك من امثال طبقة العارفين وطبقة العاشقين وطبقة الصديقين وغيرهم

المثال الثاني:

قوله تعالى "ما كان محمد ابا احد من رجالكم" (الاحزاب: 40)

فحظ فهم الطبقة الاولى من هذه الآية هو:

ان زيدا خادم الرسول (ص) ومتبناه ومخاطبه ب: يا بني، قد طلق زوجته العزيزة بعدما احس انه ليس كفوا لها، فتروجها الرسول (ص) بأمر الله تعالى، فالآية (النازلة بهذه المناسبة) تقول: ان النبي (ص) اذا خاطبكم

العصور:

من المعلوم ان القرآن لم يوجه خطابه الى عرب القرن السابع الميلادي حصرا. فهو يخاطب الاحياء من ذوي الشعور كافة ما دامت السموات والارض، ولا يضع حدودا تحد ذلك. ونلاحظ ان رسائل النور تؤيد وجود خطاب للقرآن حسب نوع المخاطبين ويجلب اهتمامهم جميعا. وما اكثر تكرار بديع الزمان بان "القرآن يخاطب الانسان في كل عصر وزمان" ¹¹⁶ وان "كل عصر يأخذ حصته من القرآن" ¹¹⁷ وان "القرآن رحمة للعصور كلها." ¹¹⁸

ولا يكتفي بديع الزمان بان "القرآن الحكيم يتوجه توجها خاصا، مخاطبا كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور خطابا مباشرا" ¹¹⁹ ، بل يزيد عليه بان الاسلام يخاطب كل العصور، فينبه الى "الحديث الصحيح الذي له اهمية في تفسير القرآن بقدر اهمية القرآن" ¹²⁰ ، فهو يخاطب بقوة عالية فتصغي اليه العصور كلها. نعم، كل عصر يستمع الى رجع صده ¹²¹ . فيعلمنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعده وسيلة لوجود وايجاد السعادة بدعائه وعبوديته، فيقول: "نعم، فانظر! هذا الذات امام نوع البشر جمعا. مسجده الارض كلها، لا جزيرة العرب وحدها. وجماعته هم الخلق من كل العصور منذ آدم عليه السلام الى القيامة يقفون صفا خلفه، لا بشر

مخاطبة الاب لابنه، فانه يخاطبكم من حيث الرسالة، اذ هو ليس ابا لأحد منكم باعتباره الشخصي حتى لا تليق به زوجاته
وحظ فهم الطبقة الثانية هو:

ان الامير العظيم ينظر الى رعاياه نظر الأب الرحيم، فان كان سلطانا روحانيا في الظاهر والباطن فان رحمته ستفوق رحمة الاب وشفقته اضعافا مضاعفة، حتى تنتظر اليه افراد الرعية نظرهم للاب وكأنهم اولاده الحقيقيون. وحيث ان النظرة الى الاب لا يمكن ان تنقلب الى النظر الى الزوج والنظر الى البنت لا يتحول بسهولة الى النظر الى الزوجة، فلا يوافق في فكر العامة تزوج الرسول (ص) بنات المؤمنين استنادا الى هذا السر. لذا فالقرآن يخاطبهم قائلا: ان الرسول (ص) ينظر اليكم نظر الرحمة والشفقة من زاوية الرحمة الإلهية ويعاملكم معاملة الأب الحنون من حيث النبوة، ولكنه ليس ابا لكم من حيث الشخصية الانسانية حتى لا يلائم تزوجه من بناتكم ويحرم عليه.

القسم الثالث يفهم الآية هكذا:

ينبغي عليكم ألا ترتكبوا السيئات اعتمادا على رافة الرسول الكريم (ص) عليكم وانتسابكم اليه. اذ ان هناك الكثيرين يعتمدون على ساداتهم ومرشديهم فينكاسلون عن العبادة والعمل، بل يقولون احيانا: "قد ادبت صلاتنا" (كما هو الحال لدى بعض الشيعة).

النكتة الرابعة:

ان قسما آخر يفهم اشارة غيبية من الآية وهي:

ان أبناء الرسول (ص) لا يبلغون مبلغ الرجال، وانما يتوفاهم الله - قبل ذلك - فلا يدوم نسله من حيث كونهم رجالا لحكمة براها سبحانه وتعالى. إلا أن لفظ "يشير الى أنه سيدوم نسله من النساء دون الرجال. فله الحمد والمنة فان النسل الطيب المبارك من فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) كالحسن والحسين (رضي الله عنهما) وهما البدران المنوران لسلسلتين نورانيتين، يديمان ذلك النسل المبارك (المادي والمعنوي) لشمس النبوة. الكلمات / 478 - 480

وفيما يخص زواج زينب انظر المكتوبات وايضا مرشد اخوات الاخرة

116 - الكلمات، الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الثالث، الجلوة الثالثة، ايضا للمعات،

اشارات الاعجاز، ملحق قسطنوني

117 - المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون، النكتة الاولى: حزب القرآن

118 - المثوي العربي النوري - ذيل الحبة

119 - الكلمات / 478

120 - صيقل الاسلام - المحاكمات - المقالة الاولى، المقدمة الثالثة

121 - المكتوبات / 254

ذاك الزمان وحدهم، فصفوف العصور من خلفه تقول: أمين لدعائه. بل الارض والسماء وكل الموجودات تقول: أمين لدعائه، لا تلك الجماعة وحدهم يعني يدعون: يا ربنا! استجب لدعائه، فنحن ندعو مثلما يدعو، ونطلب ما يطلب.¹²² ويصور اغوار خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذكر صفاته ونقطة استناده، فيقول:

"إن من يتصف بهذه الصفات الجميلة المذكورة، وتستند رسالته الى تلك الادلة والركائز الرصينة، ذلك الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم يتكلم باسم عالم الغيب موجهها الى عالم الشهادة، معلنا على رؤوس الأشهاد من الجن والأنس، مخاطبا الاقوام المتراصين وراء العصور المقبلة، فيناديهم جميعا نداء رفيعا سامية يسمعون قاطبة في جميع الاعصار اينما وجدوا وحيثما كانوا... نعم.. نعم نسمع!..."¹²³ ويبين النورسي اذ يتطرق الى دليل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فيمس الموضوع الذي نحن بصدده فيقول: "انك ان كنت عارفا بطبيعة البشر لا ترى أحدا يتجاسر وبلا تردد وبلا مبالاة بسهولة على مخالفة وكذب لو صغيرا.. في قوم ولو قليلين.. في دعوى ولو حقيرة.. بحيثية ولو ضعيفة.. فكيف بمن له حيثية في غاية العظمة.. وفي دعوى في غاية الجلالة.. في قوم في غاية الكثرة.. في مقابلة عناد في غاية الشدة مع انه امي لم يقرأ.. يبحث عن أمور لا يستقل فيها العقل ويظهرها بكمال الجدية، ويعلنها على رؤوس الأشهاد. أفلا يدل هذا على صدقه وانه ليس منه بل من الله؟"¹²⁴

ويبدو أن اسلوب بديع الزمان سرى فيمن حوله ايضا. ومن ذلك ما كتبه طالب له اسمه محمد الى الاستاذ، جاء فيه: لما كنت أقرأ درسي من القرآن العظيم، فبلغت { **ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك** } من سورة لقمان، نفذ قلبي وروحي وعقلي - بلا اختيار مني - الى الغور العميق والسمو العلوي لمعنى هذا الكلام القدسي. هذه الآية الكريمة تتوجه حتما الى عصرنا، مثلما تخاطب العصور كلها، وفي المقدمة عصر الذات الطاهرة محمد صلى الله عليه وسلم".¹²⁵ "ان القرآن لانه مرشد لكل طبقات البشر تستلزم بلاغة الارشاد ان لا يذكر ما يوقع الاكثر في المغلطة والمكابرة مع البديهييات في نظرهم الظاهري، وان لا يغير بلا لزوم ما هو من المتعارفات المحسوسة عندهم، وان يهمل او يجمل ما لا يلزم لهم في وظيفتهم الاصلية.

مثلا: يبحث عن الشمس، لا للشمس ولا من ماهيتها، بل لمن نورها وجعلها سراجا، وعن وظيفتها بصيرورتها زنبرك انتظام صنعة، ومركز نظام خلقة، ومكوك انسجام صيغة في نسج النقاش الازلي لهذه المنسوجات بخيوط الليل والنهار، في اختلاف الفصول، المفروشات تلك المنسوجات على وجه الارض والسماء. ليعرفنا

122 - المثنوي العربي النوري / 62

123 - المكتوبات / 254

124 - اشارات الاعجاز / 167

125 - Nurun ilk kاپisi

القرآن براءة نظام النسيج وانتظام المنسوجات كمالات فاطرها الحكيم وصانعها العليم. وحركة الشمس سواء كانت ظاهرة او حقيقية، لا تؤثر في مقصد القرآن. اذ المقصد اراءة نسيج النظام الحكيم في ضمن اراءة جريان الشمس المشهود. فالنسيج مشهود بكمال حشمته فلا يضره سكون الشمس في الحقيقة على ما يزعمه الفن..¹²⁶ ومن تجليات القدر أن رسائل النور التي تقتدي بالقرآن في اسلوب عرضها، تشبهه في النتيجة من هذه الزاوية. فالقارئ لرسائل النور سواء اكان عالما من العلماء أم من ادنى الناس فكرا يحظى بحصته منها على قدر سعته.¹²⁷ وقد تطرق الى هذا الموضوع في وثيقة تاريخية ومعها طلابه طاهري وزبير وصونغور وضياء وجيلان وبيرام، فذكروا مفتخرين مدى التغيير والعمق في فهمهم للقرآن بعد الدروس التي تلقوها من استاذهم النورسي.¹²⁸ وايضا، بين بديع الزمان ذلك في مواضع عديدة وتحرز في الاكثر من عزو التفوق الذي فيها الى نفسه.¹²⁹

المحتوى والعالمية :

ان محتوى القرآن المنزل من العلم الالهي والمخاطب للبشر كافة في العصور كافة، يؤيد عالميته ايضا ومن هذا الوجه، تلفت رسائل النور الانظار كثيرا الى القرآن معنى¹³⁰ وموضوعا¹³¹ ولفظا¹³² والكلية والجامعية في علمه¹³³ ، واحتواء القرآن

126 - المثنوي العربي النوري / 73
127 - اذا قومنا رسائل النور منذ تسطيرها حتى يومنا هذا بمقياس جذبها للقروي الذي يدع المحراث ساعيا اليها وطلاب الجامعة المشتغل بالقلم سواء بسواء، واستفادة الجميع منها، سنشهد تاريخا حيا حافلا بالتنوع والغنى.

128 - اشارات الاعجاز / 243

129 - سكة التصديق الغيبي وعصا موسى ومرشد الشباب و Konfeans

130 - اشارات الاعجاز / 19 ، الكلمات - الشعاع الثاني - اللعة الثانية.

131 - الكلمات - الشعاع الثاني - اللعة الثالثة.

132 - يؤكد النورسي على الجامعية في لفظ القرآن ويشبع الموضوع بالامثلة، منها: رتق السموات والارض وفققها ودوران الشمس في فلكها ونجاة اهل الفلاح والتوحيد وقصص القرآن، فيقول في نموذج من القرآن يورده: "والجبال اوتادا" - من كلام الله في القرآن، حصة العامي منه: يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الارض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل ما فيها من نعم وفوائد، ويشكر خالقه. وحصة شاعر من هذا الكلام أنه:

يتخيل أن الارض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزينت الخيمة بمصابيح، وان الجبال تترأى وهي تملأ دائرة الأفق، قممها اذيال السماء، وكأنها اوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتغمزه الحيرة والاعجاب ويقدم الصانع الجليل.

أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه:

يتصور سطح الارض كصحراء واسعة، وكان سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم كثيرة بانواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى أن طبقة التراب عبارة عن غطاء القي على تلك الاوتاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقات.. هكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة واعجاب بجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الارض.

أما الجغرافي الاديب فحصته من هذا الكلام أن:

كرة الارض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الاثيري. وان الجبال اوتاد دقت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة.

هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الارضية الضخمة سفينة منتظمة وأركبنا فيها، لتجري بنا في أفاق العالم: (سبحانك ما اعظم شأنك)

أما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصته من هذا الكلام:

أنه يفهم الارض عبارة عن مسكن، وان عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وان عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب، التي هي شرائط الحياة. وان عماد هذه الثلاثة هو الجبال. لأن الجبال مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاته - اذ ترسب الغازات المضرة - وحامية التراب - اذ تحميها من استيلاء البحر والتوحد

على كل شيء – كما في الآية – من رطب ويابس¹³⁴ ، لكن هذه قد تكون مثل الزهور او البراعم¹³⁵ ، فالقرآن يعلم كل شيء بقدر قيمته¹³⁶ ، والمتبحرون بعلوم الباطن خاصة يعلمون ان القرآن منظومة خزائن غيبية من اوله الى آخره¹³⁷ ، وأن دساتير كلية تستتر بحوادث جزئية فيه¹³⁸ ، وان مندرجاته ترد في كل سورة فيه¹³⁹ ، وكل آية من آياته – كالنجم الثاقب – كل كلام فيها يحوى ثلاث قضايا¹⁴¹ ، وكل حرف فيها محمل بحقائق هامة¹⁴² ويؤكد بديع الزمان على ان الحروف المقطعات في اوائل سور من القرآن محملة بتنبهات مهمة¹⁴³ ، وان القرآن لا يقبل القياس بكلام غيره لانعدام المناسبة بينه وبين غيره. فان قوة الكلام وعلوه، وما يمنح القوة لجماله وحسنه، ليس المقام وحده كما يظن الادباء، بل اربعة عناصر هو: المتكلم والمخاطب المقصد والمقام. لذلك، يلزم لفهم قوة الكلام ودرجته النظر الى امور مثل الفاعل والمخاطب والغاية والموضوع¹⁴⁴ . ثم يقول: إن القرآن خطبة ازلية يخاطب طبقات البشرية كافة وطوائف اهل العبادة جميعا، فمن البدهي ان يتضمن معان متنوعة ودساتير كلية ومراتب كثيرة¹⁴⁵ .

ويدل بديع الزمان الى دليل مهم على اعجاز القرآن وعلويته اذ يقول: "لا تحاط الحقيقة المطلقة بالانظار المقيدة. ويلزم للاحاطة نظر كلي مثل القرآن". فالقرآن عنده محفوظ التوازن مع دخوله في أنواع المواضيع كلها، بينما تعجز الكتب حتى المصنفة بالاستفادة منه عن حفظ مثل هذا التوازن. ذلك، لان مثل القرآن كالخزينة المستخرجة من البحر، كل يصفها ويصورها بالجزء الذي حصل عليه منها، اما القرآن كلا وكاملة¹⁴⁶.

– وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الانسان.. هكذا يفهم فيحمد ويقصد ذلك الصانع ذا الجلال والاکرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة اوتادا ومخازن معايشنا على الارض التي هي مسكن حياتنا.

وحصة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام: انه يدرك أن الامتزازات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الارض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سببا لهدوء الارض واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي وكان الارض تتنفس بمنافذ الجبال فيخف غضبها وتسكن حداثها.. هكذا يفهم وبطمئن ويلج في الايمان قائلًا: الحكمة لله.

133 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون - الشعاع الثاني - اللمة الثالثة
134 - انظر الكلمات - الكلمة العشرون - المقام الثاني - ويؤيد هذه الحقيقة القرآن الكريم في سورة الانعام - الآية 59

135 - صيقل الاسلام - المحاكمات - المقالة الثالثة المقصد الاول

136 - الكلمات - الكلمة العشرون، المقام الثاني، السؤال الثاني.

137 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون - الشعاع الثالث - الجلوة الاول

138 - الكلمات - الكلمة العشرون، المقام الاول، النكتة الاولى

139 - المثنوي العربي النوري، ذيل الحجاب.

140 - الكلمات - الكلمة الثالثة عشرة

141 - اشارات الاعجاز / 74

142 - المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون، القسم الاول، النكتة السادسة

143 - المكتوبات / 502

144 - المثنوي العربي النوري

145 - الشعاعات / 354

146 - الكلمات / 512 - 513

ويتطرق النورسي في كليات رسائل النور الى الصفات التي يجب توافرها فيمن يتصدى الى التفسير في مبحث احتواء القرآن على العلوم الحقة ومخاطبته الانسان في كل العصور من الازل الى الابد، فيقول: يجب ان يبقى مفسر القرآن الكريم مصونا من تأثير مسلكه ومشربه الخاص، بعيدا عن أذواقه الشخصية وهواه عند تفسيره القرآن كي تظل الحقائق القرآنية على صفائها ونقاها، أي دون ان يشوب نصاعتها بألوان مشربه الخاص، وعندها فقط يمكن ان يكون التفسير تفسيرا لاطهار حقائق القرآن الكريم.

ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب الالهي المقدس الذي يضم بين دفتيه العلوم كلها، وهو الخطاب الرباني الذي يخاطب به جميع طبقات البشرية، وفي العصور كافة، لذا يلزم ان يكون ذلك المفسر متخصصا في كل علم من العلوم، ويكون ذو فكر واسع، واطلاع شامل، ونظر دقيق ثاقب وعلى اخلاص تام. أي يلزم ان يكون علامة جهبذا وذا ذكاء سام، وذا اجتهاد عميق نافذ، وله من القوة القدسية والعناية الربانية نصيب وافر.. كل ذلك كي يتمكن من ان يوضح تلك الحقائق التي اتى بها القرآن الكريم على نصاعتها، ويكشف عن تلك المعاني الواسعة العميقة على حقيقتها¹⁴⁷.

العالمية وعلو النص واستحالة المعارضة

في النص القرآني الموحى من الله والمنقول جيلا بعد جيل على ما هو في الاصل، علو لا يضاهيه بشئ قول غيره. وهذا من البديهة طبعاً. والمطلع على رسائل النور يجد فيها بيانات بان القرآن وصل الينا على هيأته يوم النزول من اوله الى آخره¹⁴⁸، وعن قوة انتظام آياته¹⁴⁹ وتناسقها¹⁵⁰ والتناسب والتآلف بين الآيات كانها نزلت دفعة واحدة لا تنجيما¹⁵¹، واستحالة مضاهاة القرآن او معارضته¹⁵². فيقول الاستاذ: "القرآن عال فوق الكلام جميعا علوا كبيرا"¹⁵³ وليس شبيها بقول البشر¹⁵⁴. "ومحال ان يكون من كلام البشر"¹⁵⁵ وفيه حكم كثيرة¹⁵⁶ "ومحال ان يحاكي¹⁵⁷ او يؤتى بشبيهه"¹⁵⁸ وانه يحمي نفسه بنفسه¹⁵⁹ فيديم هيمنته¹⁶⁰. وان اعجازه سد

147 - الكلمات / Konferans

148 - اشارات الاعجاز / 49

149 - الكلمات - الكلمة الرابعة عشرة

150 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول، النقطة الرابعة.

151 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الثانية، النور الاول

152 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الثاني، اللمعة الخامسة

153 - الكلمات - الكلمة الثانية عشرة، الاساس الرابع

154 - الكلمات - الكلمة الخامسة عشرة، الذيل

155 - المكتوبات - المكتوب السادس والعشرون، المبحث الاول وايضا الكلمات - الكلمة الخامسة عشرة، الذيل

156 - المكتوبات - المكتوب السادس والعشرون، المبحث الاول

157 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الثاني، اللمعة الخامسة

158 - اشارات الاعجاز / 214

159 - يحشد بديع الزمان الكلام في الموضوع حشدا ويذكر ان المخاطبين بالمعارضة لديهم اسباب كثيرة للرد فيبين في تفسيره آيات التحدى: يقول القرآن المعجز بيانه:

فان لم تفعلوا هذا فأتوا به من غير أمي، وليكن بليغا أو عالما..

فان لم تفعلوا هذا فأتوا به من جماعة من البلقاء وليس من شخص واحد، بل اجمعوا جميع بلغاتكم وخطباتكم والآثار الجيدة للسابقين منهم ومدد اللاحقين وهم شهدائكم وشركائكم من دون الله، وابدلوا كل ما لديهم حتى أتوا بمثل هذا القرآن..

يحول دون تحريفه. وان القرآن مادته احرف وكلمات مما يستعمله البشر، لكن علوه وارتفاعه مسلم به¹⁶¹، وقد تحدى اعداءه¹⁶² من اجل ان يبرهن الاعجاز فيه¹⁶³ فثبت استحالة معارضته¹⁶⁴ واستحالة التشبه به¹⁶⁵. ويبين ايضا أسباب ذلك¹⁶⁶، ونتائجه¹⁶⁷، واستحالة تحدى اعجازه او مناظرته ومضاهاته بشهادة التأريخ لعلوه وارتفاعه، فقد جرح كرامة المشركين بالتحدي مرات، فلم يناظره، بل حاربوه بالسيف، "فلما عجزوا عن المعارضة بالحروف، اضطروا الى المقارعة بالسيف"، فكيف يعرف انتفاء المعارضة؟ يقول بيدع الزمان جوابا عن السؤال:

"لو كانت المعارضة ممكنة، لكانت المحاولة قائمة لا محالة، لان هناك قضية الشرف والعزة وهلاك الارواح والاموال. فلو كانت المعارضة قد وقعت فعلا، لكان الكثيرون ينحازون اليها، لان المعارضين للحق والعنيدون كثيرون دائما. فلو وجد من يؤيد المعارضة لاشتهر به، اذ كانوا ينظمون القصائد لخصام طفيف، ويجعلونها في المأثر، فكيف بصراع عجيب كهذا يبقى مستورا في التاريخ؟

ولقد نقلت واشتهرت أشنع الاشاعات وأقبحها طعنا بالاسلام، ولم تنقل سوى بضع كلمات تقولها مسيلمة الكذاب لمعارضة القرآن. ومسيلمة هذا، وإن كان صاحب بلاغة لا يستهان به إلا أن بلاغته عندما قورنت مع بلاغة القرآن التي تفوق كل حسن وجمال عدت هذيانا. ونقل كلامه هكذا في صفحات التاريخ"¹⁶⁸.

فان لم تفعلوا هذا فاتوا بكتاب في مثل بلاغة القرآن ونظمه، بصرف النظر عن حقائقه العظيمة ومعجزاته المعنوية.

بل القرآن قد تحداهم بأقل من هذا اذ يقول فاتوا بعشر سور مثله مفتريات (انظر سورة هود: 13) أي ليس ضروريا صدق المعنى فلنكن اكاذيب مفتريات.

وان لم تفعلوا، فليكن عشر سور منه وليس ضروريا كل القرآن.. وان لم تفعلوا هذا، فاتوا بسورة واحدة من مثله فحسب، وان كنتم ترون هذا ايضا صعبا عليكم، فلنكن سورة قصيرة..

واخيرا ما دمت عاجزين لا تستطيعون ان تفعلوا ولن تفعلوا مع انكم في أمس الحاجة الى الاثبات بمثيله، لأن شرفكم وعزتكم ودينكم وعصبيتكم واموالكم وارواحكم وديناكم واخراجكم انما تصان باتيان مثله، والا ففي الدنيا يتعرض شرفكم ودينكم الى الخطر وتسامون الذل والهوان وتهدر اموالكم، وفي الآخرة تصيرون حطبا للنار مع اصنامكم ومحكومين بالسجن الابدي فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة (البقرة: 24) فما دمت قد عرفتم عجزكم بثماني مراتب، فلا بد ان تعرفوا ان القرآن معجز بثمانى مراتب فإما ان تؤمنوا به أو تسكتوا نهائيا وتكون جهنم مثواكم وبنس المصير.

وبعد ما عرفت بيان القرآن هذا والزامه في مقام "الافحام" قل: حقا انه "ليس بعد بيان القرآن". الكلمات / 443 - 444

160 - الكلمات - اللوامع / 878

161 - المثنوي العربي النوري، المكتوبات - المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة

162 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول، النقطة الخامسة، المكتوبات - المكتوب التاسع عشر، الإشارة الثامنة عشرة.

163 - اشارات الاعجاز / 220

164 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول، النقطة الخامسة، المكتوبات - المكتوب التاسع عشر، النكتة الثامنة، اشارات الاعجاز

165 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون - الشعلة الثانية - النور الثالث

166 - المكتوبات - المكتوب التاسع عشر، الإشارة السابعة عشرة، والثامنة عشرة

167 - اشارات الاعجاز / 216

168 - الكلمات / 426

والنورسي يؤكد ان ثقل الكلام وعلويته وبلاغته يعرف بمصدره والموجه اليه وسببه، ليظهر ان القرآن معجز وخطاب فوق قدرة البشر.¹⁶⁹
الاسلوب والعالمية :

أسلوب القرآن، كما اغوار معانيه وعلوية افادته، يستجمع النظر والاهتمام. ورسائل النور تشير بين فينة واخرى الى اسلوب القرآن¹⁷⁰ ، واتخاذه المخاطب اساسا¹⁷¹ وأنه خطاب فوق طاقة البشر، موضحة ذلك بآيات منه. وتنبه في هذا الباب الى أمور مثل ايجاز المعاني في القرآن¹⁷² كأنه يختزل البحر في اناء¹⁷³ ويستهل الحقائق للعوام ويفهمها بضرب الامثلة حتى يعيها الناس كلهم¹⁷⁴ و اساس ذلك¹⁷⁵ قدرة مدارك المخاطبين¹⁷⁶ ، هذا، وان مراد الله في القرآن هو الحق بعينه¹⁷⁷ ، وان القرآن يحمل معاني جمّة حتى في معرض سكوته¹⁷⁸ . ثم ان القرآن يرشد حين يرشد الى طريق مستقيم مختصر¹⁷⁹ ، وانه يشق استار الألفة والتعود في الأفاق والانفس

169 - - الافادة الآتية لسعيد النورسي تجلب الانتباه: "ان القرآن الكريم لم يأت ولن يأتي مثله ولن يدانيه شيء قط، ذلك لأن القرآن الكريم انما هو خطاب من رب العوالم جميعا وكلام من خالقها، وهو مكاملة لا يمكن تقليدها - باي جانب كان من الجوانب - وليس فيه امارة تومي بالتصنع.

ثم ان المخاطب هو مبعوث باسم البشرية فاطبة، بل باسم المخلوقات جميعا، وهو أكرم من أصبح مخاطبا وأرفعهم ذكرا، وهو الذي ترشح الاسلام العظيم من قوة إيمانه وسعته، حتى عرج به الى قاب قوسين أو أدنى فنزل مكللا بالمخاطبة الصمدانية.

ثم ان القرآن الكريم المعجز البيان قد بين سبيل سعادة الدارين، ووضح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية موضحا ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الايمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الاسلامية كلها عارضا كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلبا اياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه، معلما الانسان صانعه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته. فلا ريب ولا بد انه لا يمكن الاثيان بمثل هذا القرآن أبدا، ولا يمكن مطلقا ان تتال درجة إعجازه". الكلمات / 522 -

170 - للمعات - اللمعة السابعة عشرة - المذكورة الثانية، المثنوي العربي النوري، زهرة، المذكورة الثانية، الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون، الشعلة الاولى، الشعاع الاول النقطة الثالثة والخامسة وكذا - الشعاع الثاني اللمعة الخامسة منها.

171 - المثنوي العربي النوري، شمة، القطرة، الذيل.

172 - صيقل الاسلام - المحاكمات - المقالة الاولى

173 - الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون - الشعلة الاولى، الشعاع الثاني، اللمعة الخامسة

174 - اشارات الاعجاز / 239

175 - الكلمات - الكلمة العشرون - المقالة الاولى - النكتة الثالثة. ويتطرق بديع الزمان الى السبب فيقول: "ان من شأن البلاغة الارشادية مماشاة نظر العموم، ومراعاة حس العامة وموائسة فكر الجمهور، لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة فابلق الخطاب معهم والارشاد: ان يكون ظاهرا بسيطا سهلا لا يعجزهم، وجيزا لا يملهم، مجملا فيما لا يلزم تفصيله لهم". المثنوي العربي المثنوي / 72

176 - - صيقل الاسلام - المحاكمات - المقالة الاولى، المقدمة الاولى، ويقول النورسي: "كذلك الامر في القرآن الحكيم، اذ هو إمام أرباب الشعور ومرشد الجن والانس وهادي الكاملين ومعلم أهل الحقيقة، فالضرورة تقتضي ان يكون على نمط محاورة البشر واسلوبه، لأن الانس والجن يستلهمون مناجاتهم منه، ويتعلمون دعواتهم منه، ويذكرون مسألهم بلسانه، ويتعرفون منه اداب معاشرتهم.. وهكذا يتخذ كل مؤمن به، إماما له ومرجعا يرجع اليه.

فلو كان القرآن على نمط الكلام الإلهي الذي سمعه سيدنا عيسى عليه السلام في "جبل الطور" لما اطاق البشر سماعه ولا قدر على الانصات اليه، ولا استطاع ان يجعله مرجعا لشؤونه كافة. فسيدنا موسى عليه السلام، وهو من اولي العزم من الرسل، ما استطاع ان يتحمل الا سماع بعض من كلامه سبحانه". المكتوبات/ 401

177 - اشارات الاعجاز / 74

178 - صيقل الاسلام - السانحات / 334

179 - المثنوي العربي النوري، القطرة - الذيل

180 ، فهو حين يورد ذكر الشمس لا يورده من أجل كنه الشمس ذاته 181 ، بل القرآن يفيد بمراده مكتفياً بإيراد مقصد واحد من مقاصد كثيرة في شيء معين 182 . ويقول بدیع الزمان مبيناً الغنى في معاني القرآن: "لا تنحصر آيات القرآن في معان معينة" 183 . كذلك يشير إلى احتواء الخلاصات في نهاية آيات من القرآن معان كلية 184 ، ومن ثم تنوع الأسلوب القرآني. كذا في مكررات القرآن التي تزيد الشوق لقرآته، ناهيك عن السأم منها 185 . وإن القرآن نزل منجماً في ازمان متباينة ولأسباب متنوعة، لكن التألف والتناسب فيه كأنه نازل كله جميعاً في آن واحد 186 .

- 180 - صيقل الإسلام - المحاكمات / المقالة الأولى المقدمة الثانية عشرة
 181 - المكتوبات - المكتوب السادس والعشرون، المبحث الأول. الكلمات - الكلمة الخامسة عشرة - صيقل الإسلام - المحاكمات / المقام الأول، المقدمة الثانية. المكتوبات - المكتوب التاسع عشر - الذيل الأول - الرشحة الرابعة عشرة. الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون الشعلة الأولى الشعاع الأول النقطة الثالثة.
 182 - المثنوي العربي النوري - شمة، الرسالة العاشرة
 183 - المعات - اللعة السابعة، التتمة، النكتة الأولى
 184 - اشارات الاعجاز / 225
 185 - الكلمات / 520

186 - من المفيد ان نقتبس هذه الافادة من بدیع الزمان في بعض الاشارة الى الاسلوب والسلاسة "ان القرآن الكريم قد جمع السلاسة الرفاعة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون القوي بين الجمل وهيئاتها، والتجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها، بشهادة علم البيان وعلم المعاني وشهادة الوفاء من انمة هذه العلوم كالزخشري والسكاكي وعبد القاهر الجرجاني، مع ان هناك ما يقارب تسعة اسباب مهمة تخل بذلك التجاوب والتعاون والتساند والسلاسة والسلامة، فلم تؤثر تلك الاسباب في الافساد والاخلال بل مدت وعضدت سلاسته وسلامته وتسانده إلا ما اجرته بشئ من حكمها في اخراج رؤوسها من وراء ستار النظام والسلاسة، وذلك لتدل على معان جليلة من سلاسة نظم القرآن، بمثل ما تخرج البراعم بعض البروزات والندب في جذع الشجرة المنسقة، فهذه البروزات ليست لإخلال تناسق الشجرة وتناسبها وانما لإعطاء ثمرات يتم بها جمال الشجرة وكمال زينتها.

اذ ان ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجماً نجماً لمواقع الحاجات نزولاً متفرقاً متقطعاً، مع أنه يظهر من التلازم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة. وايضا ان ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزوله مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد. وايضا ان ذلك القرآن جاء جواباً لأسئلة مكررة متفاوتة، مع انه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد.

وايضا ان ذلك القرآن جاء بيانا لأحكام حوادث متعددة متغايرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة.

وايضا ان ذلك القرآن نزل متضمناً لتترلات كلامية إلهية في اساليب افهام مخاطبين لا يحصرون، وحالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل، كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسيل.

وايضا ان ذلك القرآن جاء مكملاً متوجهاً الى اصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الافهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف انه مخاطب وحده بالأصالة.

وايضا ان ذلك القرآن نزل هادياً وموصلاً الى غايات ارشادية متدرجة متفاوتة، مع انه يبين من الاستقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأن المقصد واحد.

فهذه الاسباب مع انها اسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلا انها استخدمت في اظهار اعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه.

نعم! من كان ذا قلب غير سقيم، وعقل مستقيم، وجدان غير مريض، وذوق سليم، يرى في بيان القرآن سلاسة جميلة وتناسقاً لطيفاً ونغمة لذيدة وفصاحة فريدة. فمن كانت له عين سليمة في بصيرته، فلا ريب أنه يرى في القرآن عينا ترى كل الكائنات ظاهراً وباطناً بوضوح تام كأنها صحيفة واحدة، يقلبها كيف يشاء، فيعرف معانيها على ما يشاء من اسلوب.

فلو اردنا توضيح حقيقة هذا النور الاول بأمثلة، لاحتجنا الى بضعة مجلدات. لذا نكتفي بالإيضاحات التي تخص هذه الحقيقة في كل من " الرسائل العربية " و " اشارات الاعجاز " و " الكلمات الخمس والعشرين السابقة. بل القرآن الكريم بكامله مثال لهذه الحقيقة. ايبنه كله دفعة واحد" .. الكلمات/ 481 - 482

ويقول ايضا: "ان مثل آيات القرآن وسائر الكلام، كمثل نجوم السماء بعينها اذا اضيفت (نسبة) الى الانعكسات الصغيرة لها على وجه الزجاج" فيؤكد استحالة قياس آيات القرآن بقول البشر مهما بلغ في البلاغة من مبلغ، وحفظها لطرأوتها وجدتها منذ نزولها مع تذوق البشر لها واستفادة البشرية قاطبة منها¹⁸⁷. ويدلنا الى معجزة اسلوب القرآن وديمومة اسراره فيقول: "اسلوب القرآن غريب كما هو بديع وعجيب كما هو مقتع. لم يجار شيئا او انسانا. ولا يستطيع انسان ان يجاريه. وهو يحتفظ، وسوف يحتفظ ابدا بطراوة اسلوبه وقوته وغرابته، مثلما نزل"¹⁸⁸. كذلك يذكر عجائب الفاظ القرآن التي لا تثقل على عقل صبي ولا تخف عند أعلى درجات الذكاء وتصد الحاجة اليها السأم والملل عنها¹⁸⁹. فيقول "القرآن المعجز بيانه، يبين ويعلم حقائق غامضة كثيرة في يسر وظهور يداعب المنظور العام ولا يخدش الشعور العمومي ولا يقهر فكر العوام او يرهقه" ثم يوضح قوله بامثلة تتجلى فيها مخاطبة الآية نفسها لكل انسان بأسلوب سهل وسلس وبلوغ¹⁹⁰.

الوشيجة بين القرآن والكائنات والعالمية :

يبدو للمرء في الوهلة الاولى أن لا ارتباط ووشيجة بين العالمية في القرآن والكائنات. لكن بديع الزمان يؤكد على الروابط بين القرآن والكائنات ويلفت النظر الى امتداد الوشائج بينهما. فهو يرى ان القرآن، وكذا الكائنات، رسائل نور الهية ليقرأهما الانسان ويفهمهما، من اجل ان يتعمق في العبودية. فالواحد منهما لسان كلي يشرح الآخر، ولا يفهم احدهما بغير الآخر.

187 - الكلمات / 502

188 - الكلمات / 431

189 - - انقل هذا النص من بديع الزمان لاقتناعي بفائدته في بيان المثال والقياس:
" نعم! لو كرر الوف المرات فلا يورث سأمًا ولا مللاً. بل يزيد لذة وحلاوة.. ثم أنه لا يتثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه.. ولا تسأم منه أذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى من ادنى كلام، بل يتلذذ به.. وكأنه الشراب العذب في فم المحتضر الذي يتقلب في السكرات، وهو لذيق في اذنه ودماعه لذة ماء زمزم في فمه.
والحكمة في عدم الملل والسأم من القرآن هو:

ان القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوة وغناء للعقول، وماء وضيء للارواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يمل. مثاله الخبز الذي نأكله يومياً دون ان نمل، بينما لو تناولنا اطيب فاكهة يوماً لشعرنا بالملل. فإذا لأن القرآن حق وحقيقة وصدق وهدى وذو فصاحة خارقة فلا يورث الملل والسامة، وانما يحافظ على شبابيته دائماً كما يحافظ على طراوته وحلاوته، حتى ان أحد رؤساء قریش وبلغائها عندما ذهب الى الرسول الكريم ليسمع القرآن، قال بعد سماعه له: "والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة.. وما يقوله بشر. ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجل اعلم بالشعر مني.. ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا".

فلم يبق امامهم إلا ان يقولوا انه ساحر، ليغرروا به اتباعهم ويصدوم عنه. وهكذا يبقى حتى اعنى اعداء القرآن مبهوتين أمام فصاحته. الكلمات / 436 - 437

190 - انقل هذه المقايسة مثالا: " كما ان لفظة قرآنية مثل: "الحمد لله" عندما تتلى تملأ الكهف الذي هو بمثابة اذن الجبل فانها تملأ في الوقت نفسه ما تشبه الأذنين الصغيرة جدا لبعوض فتستقر اللفظة نفسها فيهما معا. كذلك الأمر في معاني القرآن الكريم. اذ مثلما تشبع عقولا جبارة، تعلم عقولا صغيرة وبسيطة جدا، وتطمئنهما بالكلمات نفسها، ذلك لأن القرآن يدعو جميع طبقات الجن والانس الى الايمان ويعلم جميعهم علوم الايمان ويثبتها لهم جميعا، لذا يستمع الى درس القرآن وارشاده اغبي الاغبياء من عامة الناس مع اخص الخواص جنباً الى جنب متكاتفين معا.

أي أن القرآن الكريم مائدة سماوية تجد فيها الآف من مختلف الأفكار والعقول والقلوب والارواح غذاءهم، كل حسب ما يشتهي ويحب رغبته". الكلمات/ 450 - 451

يكرر النورسي كثيرا نظرة القرآن الى الكائنات، فيذكر " 191 ان هدف القرآن، بالشكل الذي يعبر عن معناه الحرفي، هو التعريف بالصانع" 192 ويرى ان القرآن لسان حال الكائنات الناطق" 193 وان "القرآن يقرأ الكائنات في المسجد الكوني الكبير" 194 وان القرآن ذاكرة تقرأ الآيات المسطورة في صفحات الكائنات بقلم القدرة 195 . واحكام القرآن عند النورسي مرتبطة بالكائنات 196 ، "وان القرآن ذكر وفكر" 197 ، انه "روح حياة الكائنات وعقل شعور الكون، بشهادة الحقائق الحية 198 ، فهو "كتاب حكمة، وكتاب شريعة، وكذا كتاب دعاء" 199

ويقوم النورسي شها بين الساعة والكائنات، فيضرب مثلا للعالم الذي يشبه ساعة كبرى للقدرة الالهية، كأنه آلة الساعة الثابتة في الظاهر، فهو في زلزال وتغير دائم وايل الى الفناء والزوال، مع ثباته في الظاهر. ويقول: "لما حل الزمان في الدنيا، اصبح الليل والنهار كعقرب الثواني ذي الرأس المزوج لتلك الساعة العظمى، تتبدل بسرعة .. وصارت السنة كأنها عقرب الدقائق لتلك الساعة .. وغدا العصر كأنه عقرب الساعات لها .." 200 ثم يعقب بان الكائنات بمفرداتها موجودات صف واحد تتبارى في العبودية لله 201 .

تقويم ونتيجة :

من الواضح ان الاسلام رسالة عالمية تهتم كل انسان وكل زمان وقد حاولنا هنا ان ننظر اليه من عدة زوايا وان نفتح نوافذ معينة بشأنه عموما. وان مفهومات الاسلام وقواعده العامة غنية وكافية للتدليل على عالميته. فهو عالمي بمصدره الاول القرآن،

- 191 - الكلمات - النوافذ - المثنوي العربي النوري / رشحات
192 - - الكلمات - الكلمة الثانية عشرة - الأساس الاول. مثل هذه الجملة تتكرر في الرسائل كثيرا. واورد هنا مثلا لها:
" لأن القرآن انما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل ان يكون ظاهرا وأظهر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته واسمائه. فلو قال علي ما يشتهي اهل الفن: "يا ايها الناس فانظروا الى الشمس في سكونها، والى الارض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها" ، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم اكثر البشر في اكثر الأزمان والأعصار، مع ان حق الاكثر المطلق اهم في نظر الارشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لاتنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقل محرومية الاكثر في اكثر الاوقات.
وثانيا: ان من شأن البلاغة الارشادية مماشاة نظر العموم، ومراعاة حس العامة وموائسة فكر الجمهور، لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا ينتشر حسهم بلا مصلحة فابلغ الخطاب معهم والارشاد: ان يكون ظاهرا بسيطا سهلا لا يعجزهم، وجيزا لا يملهم، مجملا فيما لا يلزم تفصيله لهم ". المثنوي العربي النوري / 72
193 - الكلمات - اللوامع الملاحق - قسطنطيني
194 - الكلمات - الكلمة السابعة
195 - للمعات - اللمعة السابعة عشرة - المذكرة الحادية عشرة، المثنوي العربي النوري، زهرة - المذكرة الحادية عشرة
196 - للمعات - اللمعة الثلاثون، النكتة الثانية
197 - المثنوي العربي النوري، الحبة
198 - الكلمات - الكلمة العاشرة - القطعة الثانية من الذيل
199 - المكتوبات - المكتوب التاسع عشر. الذيل الاول، الرشحة الرابعة عشرة
200 - الكلمات / 509
201 - المكتوبات / 507

كذلك بالاحاديث المستندة في اساسها الى الوحي ايضا، ثم بالقواعد العامة المنبثقة من هذين المصدرين.

وان رسائل النور، وهي من اهم شروحات الاسلام في القرن الاخير، تؤكد على عالمية الاسلام، وانه يخاطب كل انسان واهل كل صنعة، وكل عصر على حدة. والنظرة العالمية التي يعبر بديع الزمان عنها حين تطرقه الى اكثر المسائل، يعرضها باصالة خاصة به لا تشبه طريقة العلماء الذين سبقوه. فهو يرى ان الله تعالى خلق كتاب الكائنات بانتظام وبغير نقص وادام وجودها. كذلك، انزل كلامه ترجمانا للكائنات ومنتظما وكاملا، وجعله معينا لحاجة كل انسان ما دام الكتاب الاول - الكون - قائما. فالرسالة الكونية واسعة وحية وتخاطب كل عقل فتشبع فهمه، بقدر سعة الكون واشباعه نهم كل انسان، وهو - على خلاف غيره من الكلام - كامل يغني عما سواه.

ان عالمية الاسلام اوسع من ان تقيد قيود التاريخ. ومهما كانت الدوافع في ميول تسويره باسوار التاريخ، فهي لا تقود الى العالمية كما قد يظن بل تسور العالمية بالتاريخ. وينبغي ألا ننسى ان الله الذي بعث الاسلام رسالة عالمية هو خالق هؤلاء الذين يسعون في هذا السبيل وعقولهم التي تفكر في هذا الاتجاه. فتجد في الاسلام علوا سابقا لا يداني في الافادة - بعلمه الازلي - ، وتجد في اولئك البشر طاقة في حدود القبول التاريخية. وهل يستطيع المحدود ان يحيط بغير المحدود؟ فكيف يجد قواعد العالمية من يسحب ذيول العالمية الى الوسط التاريخي؟

ترجمة : عوني لطفي اوغلو

عالمية القرآن الكريم وبديع الزمان سعيد النورسي

أ.د: وهبة الزحيلي^P

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي أرسله ربه هادياً للناس جميعاً، ومبشراً ونذيراً، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: هذا بحث عن "عالمية القرآن الكريم" أحد مقومات كتاب الله وخصائص الإسلام، ومفاهيمه الجوهرية، ومن بدهيات الدين الخالد، التي لا تحتاج الى تعمق في الفهم او تحليل وبحث، ويذكرها كل من تصفح آي القرآن المجيد، في صراحه ووضوح.

فتكون مهمة كل مسلم، ولا سيما العالم أن يتفاعل مع هذا المفهوم، ويعمل مجاهداً مخلصاً في تحقيقه، مضحياً بكل إمكاناته وطاقاته، من أجل إرساء معنى العالمية القرآنية على الصعيد الواقعي، والمبادرة لتبليغ دعوة الله تعالى لجميع البشر، إما بالترجمة، او بالمناقشة، او بإحسان العرض وإفاضة البيان، ونقل تعاليم القرآن، ونشر العقيدة الإسلامية الصافية القائمة على توحيد الله، وتحقيق العبودية لله، والاستقامة على أمر الله وطاعته، بقدر الطاقة، ويذلل أقصى المجهود الفردي او الجماعي المتيسر في كل عصر وأوان، ومقارنة عالمية الإسلام مع المفاهيم الأخرى، لتظهر الفضيلة، وتبين المزايا، ومن أخصها الخلود والبقاء، بسبب ملازمة الحق والعدل، ومواكبة الفطرة الإنسانية النقية، ومواجهة كل ألوان التحديات المغايرة، الفكرية او السلطوية.

والعالم الرباني المتمكن، والغيور المخلص بديع الزمان النورسي أحد أعلام الصفوة المتميزة، والصحة الواعية الذين أدركوا ضرورة العمل على تحقيق آفاق عالمية القرآن.

ولقد اخترت بحث هذا الموضوع، على الرغم من وضوحه ومعرفته لكل إنسان، لاني لم أجد أحداً أشار إليه او عني به في التأريخ لحياة النورسي وتحليل أفكاره، إلا نادراً او عرضاً من خلال ما اطلعت عليه، لتركيز الباحثين حول حياة النورسي رحمه الله على جهاده وكفاحه، وبيان صلاحية عقيدته، ووجه عبادة ربه، وحرصه على العيش في أفياء رضوان الله، والغيرة على أمته ومجتمعه، وإعزاز الدين واحترام مقدساته.

^P رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في كلية الشريعة بجامعة دمشق. له مؤلفات عدة وفي مقدمتها : الفقه الإسلامي وأدلته والتفسير المنير

لقد عاش النورسي (1293-1379هـ/ 1876-1960) في القرن الرابع عشر الهجري القرن العشرين الميلادي، في أسوأ ظروف التحديات للإسلام ودولته وكيانه، وللفكر الإسلامي ومعظياته وممارساته، حيث عاصر أحداث التآمر على الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد ومشكلات المسألة الشرقية، ومحاوله تصفية وجود هذه الدولة التي لقبوها بالرجل المريض، وعاصر مآسي الحربين العالميتين الأولى والثانية، وشهد هزيمة الدولة العثمانية مع دول المحور بزعامه ألمانيا وحليفاتها النمسا بدول الائتلاف في الحرب العالمية الأولى، وعان ما تكبدته دولته من فقد ممتلكاتها في البلقان وغيرها من البلاد العربية، وقتل مئات الألوف من زهرة شبابها، وتقليص ظل عالميتها وسعتها، وامتداد سلطانها في الشرق والغرب، وعاش أحداث إلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924 وفرض السفور، ومنع الأذان باللغة العربية، وعلمانية الدولة.

ولكن النورسي رحمه الله، لم يخضع لوطأة هذه الأحداث، وإنما ترفع فوقها، وأحس بمرارة آلام الأمة الإسلامية، فحاول إنقاذها من طريق دعوته لوحدة الأمة، والعمل على تخليصها من قيود الزمان والمكان، وإحياء مفاهيم عالمية القرآن والإسلام، ومعالجة القضايا الساخنة بحكمة وشجاعة، وبيمان متين، وجرأة منقطعة النظر، سواء في مناقشة آراء جمعية الإتحاد والترقي، والترويج للعلمانية، أم في الرد على المستشرقين سدنة الإستعمار.

وإن هذه الظروف الأليمة التي أحدثت جرحاً عميقاً في قلب النورسي دفعته إلى الكفاح الفكري، وألهمت في نفسه الحنين إلى إحياء عزة الإسلام ودولته، فوجد عزاءه في بعث روح الاخوة الإسلامية، ونشر تعاليم الإسلام في داخل الدولة ومجتمعه، وخارج نطاق الدولة، انطلاقاً من نزعة الإسلام العالمية.

و طوال حياته، لم يفقد الأمل أمام التحديات الداخلية ممثلة بأنصار او دعاة العلمانية، والخارجية المثلة بتواطؤ الدول الأوروبية والشرقية الروسية، وتوقع ان المستقبل سيتمخص عن نصرة الإسلام، وعودته قويا، وسليماً معافياً إلى الحياة الإنسانية العالمية، وتجديد حيوية العالم الإسلامي، عن طريق إيمانه بعالمية القرآن المجيد، ودعوته العامة لجميع شعوب الارض، للإيمان الحق والإسلام والإستقرار، ومساندة أهل الحق، فإن المصائب والنكبات قد تدفع إلى تحقيق السعادة، والإحساس بالمشكلة أول طريق لحلها.

وإذا كانت الهزيمة العسكرية والمادية قد لحقت بالدولة العثمانية، فإن بديع الزمان النورسي أراد بدعوته إلى عالمية القرآن تحطيم الحرب النفسية التي حاول الانجليز وحلفاؤهم إشاعتها في الأوساط الإسلامية الشعبية والعلمية، وأنه لن تقوم للمسلمين بعدئذ قائمة.

ويرى النورسي عالم عصره - وإن كان في الظاهر لا يتدخل في السياسة كمنهاج مرحلي تدرجي - أن الذي يستنهض الشرق ويقدمه، إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة، لأن منهاج الدين خالد شامل للروح والمادة، وطريق العقل والفلسفة مؤقت وقاصر على المادة فقط، ولأن الأمة تحتاج إلى الدين أكثر من حاجتها إلى وسائل العيش، لذا قاوم الأفكار الشيوعية، وجاهد ضد الروس في القفقاس، مع إخوانه وتلاميذه، ولم ينس حاجة الأمة الروحية إلى دين يقوّمها، تحت كل الضغوط المدنية ال حاضرة.

خطة البحث:

تناولت في بحثي هذا الموضوعات التالية:

- مفهوم العالمية ونطاقها ومقوماتها.
- بديع الزمان النورسي وعالمية القرآن.
- أسباب العالمية وتطبيقاتها البعيدة، وأدلتها من القرآن والسنة.
- بين العالمية والقومية.
- بين العالمية واللامية.
- بين العالمية والعنصرية.
- بين العالمية والمدنية والحضارة الغربية بصراع الحضارات.
- بين العالمية والزرعة الفردية بالانطواء على الذات.
- بين العالمية والأديان الأخرى.
- بين العالمية والجهاد.
- الأسلوب والمنهج المعاصر لتحقيق مفهوم العالمية القرآنية.
- العالمية القرآنية ووحدة الأمة الإسلامية.
- علاقة الأمة الإسلامية بالأمم والشعوب الأخرى.

مفهوم العالمية ونطاقها ومقوماتها

العالمية: مأخوذة من كلمة العالم وموقعه في الكرة الأرضية شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، ويقصد بها في التعبير القرآني: كون دعوته الخالدة القائمة على مبدأ التوحيد الإلهي والاستقامة على منهاج الله تعالى موجهة لجميع العالمين من الإنس والجن، في شتى أصقاع الأرض، وفي كل زمان ومكان، إلى قيام الساعة، أي ان القرآن والإسلام ذو نزعة عالمية شاملة للمشاركة والمغارب، لإصلاح الحياة البشرية، وتحقيق السعادة، وعمران الكون، بل وإصلاح عالم الجن الخفي، الذي يلازم حياة البشر، وقد يؤثر بتخيلاته وتشكلاته على الإنسان، فيعكر صفوه، أو يتعامل معه لإشاعة الشر والفساد، والفتنة والضلال.

ذلك لأن هدف القرآن إنقاذ البشر والجن من الظلمات، إلى النور، بدليل قول الله تبارك وتعالى: **{لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم}** المائدة: 15-16
فيكون نطاق العالمية: عموم أنحاء الأرض، من غير تمييز بين عرب وغير عرب، ولا بين قطر وقطر، أو شعب دون شعب، لأن الله تعالى منزل القرآن يبغى الخير لجميع عباده، ويجب لهم الخير والصلاح والاستقامة، لصالحهم أنفسهم، لا لمنفعة تعود عليه.

ولا يلزم من هذا الطموح أو النزعة العالمية الشاملة تحقيق ذلك على صعيد الواقع، أو إجبار الناس على قبول الهداية الإلهية، أو الانصهار في دين واحد، أو ملة واحدة، فإن نظام التعدد العقدي أو التعددية المذهبية سنة الله ومشيئته، كما قال الله سبحانه: **{ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس¹ على الذين لا يعقلون}** (99-100).

والإسلام أو القرآن يقر الواقع ولا يمنع من التعدد الأممي أو الإحتلاف الملقى أو التفاوت

المذهبي، لقوله تعالى: { تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم² بينكم أن تكون أمة هي أربي³ من أمة، إنما يبيلوكم الله به، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون } (النحل: 92) أي إن الحرية هي أساس اختيار الدين، سواء أكان المؤمنون بالدين الصحيح قلة أم كثرة، والحساب في النهاية على الإختيار الى الله تعالى وحده.

والخلاصة: إن المقصود بعالمية الإسلام أو القرآن: قابليته للوفاء بحاجة الإنسان وصلاحيته لقيادة البشر، من غير تمييز بسبب الجنس واللون والبيئة والزمن وغير ذلك من الفروق. وأما مقومات عالمية القرآن: فتتضمن في أنه دعوة الى الثوابت الكبرى للحياة الإنسانية: وهي أنه يدعو الى كلمة التوحيد بتوحيد الله تعالى والعبادة الخالصة لله، وتحقيق عبودية المخلوق للخالق، والإستقامة على منهج الحق، فالإسلام دين الحق، والعدل، والحرية، والشورى، والمساواة بين الناس، وإقرار المعروف والأمر به، ونبذ المنكر والرذيلة والنهي عنه، والتزام مكارم الأخلاق دون تفریق أو تمييز بين الناس في معاملة بسبب السلطة والرعية، والغنى والفقر، والسيادة والتبعية، والقوة والضعف، والصداقة والعداوة، والإنتماء للإسلام أو غيره، لأن طريق التقدم وبناء الحضارة في القرآن أو الإسلام، والوسيلة: هي العلم الدقيق المتقن، وتحريك العقل وإعمال الفكر في مختلف أنحاء الكون.

سئل النورسي: ما المدنية التي في الشريعة⁴

فقال: المدنية التي تأمرنا بها الشريعة وتضمنها: هي التي ستكشف بانقشاع هذه المدنية (الحضارة)، وتضع أساساً إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية. إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها القريب: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: التجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوثام، والذود عن البلاد عند تجاوز الأجناب.

ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والإتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى، ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانية الى مرافق الكمالات، فهي إذ تقمع الهوى، وتحد من النزعات النفسانية تطمئن الروح وتشوقها الى المعالي.

وهكذا يتبين أن العالمية سمة الإسلام، سواء في وحدة الأمة الإسلامية أو وحدة العالم، وهذه العالمية تقوم على أساس متين من الخير والحمة والهداية والفضيلة، وتعتمد على العلم، والحرية وصون الكرامة الإنسانية، والشورى والعدالة، والتآلف والمساواة، والسلم والأمان.

– بديع الزمان النورسي وعالمية القرآن:

المصلح العظيم بديع الزمان تعرّض بسبب جهاده المشرف، ودعوته الى الله تعالى، لأحداث حسيمة، من الأسر في روسيا لمدة سنتين واربعة أشهر واربعة أيام، في مدينة قوستانورما شمال شرقي روسيا في معتقلات الأسرى في سبيرييا، لمقاومته الروس في القفقاس مع مجموعة من الفدائيين في

2- أي مكرراً وحديعة

3- أي لأن تكون أمة او جماعة هي أكثر وأوفر عدداً.

4 - سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة للإستاذ أورخان محمد علي ص 89-90

الحرب العالمية الأولى، ثم النفي لبلدان متعددة في تركيا، منها مدينة الذكريات بارلا وكثير من العلماء العظماء حفظوا القرآن في السجن أو صنّفوا المصنّفات الرائعة فيه، وهكذا في بارلا كتب بديع الزمان معظم رسائل النور في غضون ثماني سنوات ونصف السنة، واستمر في التّأليف حتى سنة 1950م وعددها 130 رسالة جمعت تحت عنوان بكتليات رسائل النور وطبعت بعد سنة 1954م.

فسّر فيها القرآن الكريم، بأسلوب يختلف عن الطريقة التقليدية التي هي شرح النص والتعليق عليه، وذلك بالتركيز على إثبات حقائق الإيمان وإنقاذ الإيمان، وإثباته بالبراهين الساطعة والأدلة الكثيرة، فهي غذاء للروح والقلب، وخطاب للعقل والروح كما هي مهمة القرآن، وإنارة الوجدان والنفوس، وسكب الطمأنينة في أنحاء النفس، فكانت هذه الرسائل بحق كتاب شريعة وعقيدة، ودعاء وحكمة، وعبودية ودعوة، وذكر وفكر، وحقيقة وتصوف قرآني، ومنطق وعلم كلام توحيد وحث على العمل، وإبطال الشبهات، وإسكات المعارضين، وإلجام المناوئين.

وصنّف أو ألف أيضا قبل ذلك إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز أثناء الحرب العالمية الأولى، في ساحة الجهاد ضد الروس وباللغة العربية، كبقية التفاسير الاعتيادية وكتب أيضا كتابه "الخطوات الست" حينما دخل الغزاة الغربيون بعد الحرب العالمية الأولى الى استانبول، لإزالة عوامل اليأس لدى كثير من الناس.

فكان بحق خادماً للقرآن ورسالته، وللإسلام وشريعته، أبرز فيها أستاذية القرآن الكريم وعالميته وشموله، وصفاءه الكامل وجدّته، ومخاطبته جميع فئات الناس، ابتداء من العوام، وانتهاء بالخواص بأسلوب سهل وشائق، وإيجابية في الإثبات، وخطاب جميع مشاعر الإنسان: عقله وروحه ووجدانه وحواسه، وتقويم السلوك الإنساني، واتباع السنة الشريفة، والإستعلاء على الضغوط والصعاب، وكانت رسائل النور معجزة معنوية للقرآن الكريم في عصره، وعلاجاً لأمراض الجيل، وتبيان الحقائق الأساسية في حياة الفرد والجماعة، وإيضاح أسرار القرآن والدين والشريعة، كالشمس الساطعة في رائعة النهار.⁵

وكان من أقواله في عالمية القرآن لمن حوله: لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية، لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها وذلك حينما نشرت الصحف المحلية أن وزير المستعمرات البريطاني "غلاستون" قد صرح في مجلس العموم البريطاني مخاطباً النواب قائلاً: ما دام القرآن بيد المسلمين، فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من ان نزيله من الوجود، او نقطع صلة المسلمين به.

وأثبت التاريخ أن الإستعمار قد زال، وبقي القرآن يتلى في جميع محطات الإذاعة في العالم، وأنه مصدر للخير على الدوام، والخير يجزّ الى الخير ويرشد اليه، كما أن الشر يجزّ الى الشر ويدل عليه، لذا بقي القرآن وذاع، لأنه مصدر الخير والسعادة، وأقل نجم الإستعمار، لأنه منبع الشر والفساد والشقاوة.

ومن المعلوم بداهة من نصوص القرآن الكريم: أن القرآن دعوة عالمية لجميع شعوب الأرض، كما سآيين في المطلب التالي، ولكن الجديد في الموضوع ان النورسي رحمه الله أبان فاعلية هذا المبدأ، للحفاظ على وجود الأمة الإسلامية، وخلود هذا الشعار، ونمو انتشاره حتى يعم الدنيا بأسرها، ويخسر هنالك المبطلون المعادون له.

وظل النورسي في خدمة القرآن ينافح عن أحكامه وشرائعه وعالميته وتبليغ الحقائق الإيمانية لجميع

الناس، فقال وهو يرد تهمة تأليف جمعية سرية:
نحن أعضاء جمعية ملايين المسلمين المقدسة العظمى في كل عصر بوكان عددهم في الماضي ثلاثمائة وخمسين مليوناً، دستورنا: **{إنما المؤمنون إخوة}** الحجرات: 10 ووظيفتنا ضمن نطاق هذه الجمعية هي:
أولاً: تبليغ الحقائق الإيمانية التي يتضمنها القرآن الكريم الى طلاب الحق والإيمان على أصح وأزهر وجه.

ثانياً: إنقاذ أنفسنا من الإعدام الأبدي، وبرزخ السجن الإنفرادي السرمدي⁶

أسباب العالمية وتطلعنا البعيدة وأدلتها من القرآن والسنة:

لم تتوافر مقومات العالمية في الديانتين الموسوية والمسيحية، فهما محصورتان في الاصل في شعب بني إسرائيل، وازدادت الموسوية انغلاقاً فيما بعد موسى عليه السلام، لظهور النزعة العنصرية البغيضة في أفكار اليهود، متصورين أن الإله إلههم، وأنهم شعب الله المختار، وأن ما جاء في التوراة المتداولة والتلمود محصور عليهم.

وأما دعوة القرآن المجيد فكانت عالمية، لا تقتصر على العرب، وإنما هي دعوة مفتوحة لجميع شعوب العالم، فلا أفضلية لشعب على آخر، ولا تمييز للعرب الذي نزل القرآن بلغتهم على من سواهم، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح.

وأسباب نزعتها العالمية واضحة، فهي تقوم على المحبة والأخوة والألفة والمودة، والتعاون بين جميع الشعوب، وتلتزم بمبادئ العدل والحرية والمساواة في التعامل بين الناس قاطبة، وتدعو الى المدنية والحضارة السامية الجامعة بين المادة والروح، والدين والدولة، والعبادة والحياة، وتوحيد الله الذي تفرقه العقول السليمة، والشرائع التي تتضمنها تنسجم مع الفطرة الإنسانية، وتتفق مع السماحة واليسر، دون تعقيد ولا رعنات ولا حرج، وأسلوبها الدعوى: الحكمة والموعظة الحسنة، وتحترم معطيات العلم ونتاج العقل الرشيد، وتقر مبدأ الوسطية والإعتدال الذي يجمع بين عنصر الثبات ومرونة الأحكام القائمة على المصلحة والعرف الصحيح الذي لا يحل الحرام ولا يحرم الحلال، وتفتح باب الإجتهد على مصراعيه لمن كان أهلاً متمكناً من الاستنباط والنظر السليم في النصوص الشرعية، وهذا يحقق صلاحية الإسلام وشريعته لكل زمان ومكان.

وتطلعات دعوة القرآن العالمية: سامية غير نفعية ولا مادية، إنسانية غير عنصرية، وخير كل إنسان وسعادته، وتكرمه وإعلاء شأنه، ومن أجل الجماعة لا الفرد، وبالنظرة الموضوعية الحالية من التأثر بالأهواء والنزوات، وإيثار الآخرة على الدنيا، وإعمار الكون وتحضره، والحرص على تقدمه، والبعد عن كل معاني التخلف أو الإرهاب والتدمير، والتزام مقومات السلم العادل، القائم على الحق والإنصاف، ورد الخلافات أو المنازعات الى كتاب الله وسنة رسوله، وتسوية الأمور بالصلح وحسن النية، والتسامح والفضيلة، والتوصل في نهاية المطاف إلى إقامة المجتمع الإنساني الفاضل الوادع الهانئ، المتمتع بالرخاء والرفاه والاستقرار.

وأدلة عالمية القرآن الكريم كثيرة واضحة، منها قول الله تعالى:

{ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً } (الفرقان: 1)
{ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } (الأعراف: 158)

{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } (الأنبياء : 107)

{ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } (سبأ : 28)

وأيدت السنة النبوية الصحيحة عالمية القرآن نظرياً وعملياً، قولياً وفعالياً، فمن أقوال النبي ﷺ في ذلك ما يأتي:

- الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم، والنسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وهو : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، ومنها: وكان النبي يعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة.

- وحديث الشيخين أيضاً : اني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة.

- وحديث مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه: ارسلت إلى الخلق كافة، وحتم بي النبيون .

وأما الحديث العملي: فهو ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله زوي⁷ لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أممي سيلغ ملكها ما زوي لي منها.. فالجملة الأخيرة من معجزاته ﷺ، لأن ملك أمته بلغ من المشارق والمغارب كثيراً واسعاً. اما من الغرب: فإلى منتهى الأرض، وأما من الشرق: فإلى أقاصي العمارة، والباقي من المشرق يسير بالنسبة إلى المملوك منه.⁸

- بين العالمية والقومية:

القومية: الإلتواء إلى أمة معينة والتعلق بها ، بناء على روابط مشتركة من الأصل أو اللغة أو العقيدة، تدفعهم إلى تكوين وحدة سياسية مستقلة. وهذا المعنى يؤدي عادة إلى الصراع بين القوميات، ويولد الفرقة والاختلاف بين الشعوب.

ومنها ما يؤدي إلى الضرر المستمر والعداوة الدائمة، كالعصبية الجاهلية التي رفضها الإسلام، فقال الله تعالى: { إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها، وكان الله بكل شئ عليماً } (الفتح: 26).

وأكد النبي ﷺ هدم برج العصبية الجاهلية، فقال: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)⁹

وأما العالمية القرآنية: فتقوم على تجميع قوى البشر جميعاً في تحقيق الخير المشترك وإسعاد الإنسانية كلها، على أساس من التراحم والتعاون والتسامح والتآخي والتعايش الودي، لقول الله تعالى: { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } (الحجرات: 13).

أقر النورسي العالمية الإسلامية، وأنكر العصبية الجاهلية، حيث ذكر القومية الإيجابية والسلبية، واشترط لأجل تحقق الوحدة الإسلامية اتخاذ القومية الإسلامية، ونبذ العنصرية المؤلدة للفرقة والاختلاف، فسمى الأولى قومية إيجابية، والثانية سلبية، والأولى يقرها القرآن في الآية السابقة: بوجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. أي خلقناكم طوائف وقبائل وأماً وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً، وتعارفوا على علاقاتكم الاجتماعية، لتعارفوا فيما بينكم، ولم نجعلكم قبائل وطوائف

7- أي جمع وضم الي.

8- جامع الأصول لابن الأثير الجزائري 61/12، 217

9- أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم، وهو حديث حسن..

لتنسكروا ففتنوا صاموا.

والثانية مرفوضة بالآية المذكورة { في قلوبهم الحمية } وبالحدِيث النبوي: (الإسلام يجب ما قبله)¹⁰ فهما يرفضان رفضاً قاطعاً القومية السلبية وفكرة العنصرية، لأن الغيرة الإسلامية الإيجابية المقدسة لا تدع حاجة إليها.¹¹

وأضاف النورسي في بيان معالم وسمات نظريته الإصلاحية التغييرية أنها تلتزم التدرج في الإصلاح والدعوة إلى التغيير، ومنهج في الإصلاح والتغيير يقوم على الوسطية، وعدم التعصب أو المغالاة في التحيز، وهي دعوة شمولية تحاول أن تكون مكافئة للقوى الثقافية المعادية، ودعوة عالمية، وليست إقليمية، لذا فإنه كان يبحث على ترجمة رسائله إلى اللغة العربية، وإلى اللغات الأخرى التي تنطق بها سائر الشعوب الإسلامية، بل وغير الإسلامية، من أجل التبشير بأفكاره وتعاليمه المنبثقة من القرآن والسنة. ويعرض بالقوميين العرب العلمانيين المناادين بالقومية العنصرية البعيدة عن الإسلام، كدعاة القومية التركية الطورانية، ويبين لدعاة القومية الطورانية فائدتين من مبادئ الفوائد التي تكسبها الحمية الإسلامية.

الأولى - أنها تحافظ على حياة الدول الإسلامية وكيانها تجاه جميع دول أوروبا العظيمة.

الثانية - الأمة الإسلامية كالجسد الواحد.

وينظر النورسي إلى الأتراك كنظيرته إلى العرب في تمسكهم بالإسلام، وأهم جزء لا يتجزأ منه. ويرى أن القومية بأنواعها، الطورانية، العربية، والسورية، والفرعونية، وسواها من القوميات الضيقة من نتاج الفكر الغربي التي استوردها دعاة التغريب والعلمانيون إلى بلاد المسلمين، مع بضاعة كاسدة فات أوامها، وتخلت عنها أوروبا منذ حين. ثم صدرتها إليها، فهي من مخلفات القرن الثامن عشر.¹² وذكر النورسي أن العلمانيين وضعوا الفكرة القومية التركية (أي العنصرية الطورانية) مكان فكرة "الأمة" في الإسلام، وفكرة الأمة تجمع وتؤلف، ترمز وتوحد، وفكرة القومية الطورانية تتعالى وتفترق وتشتت. وكانت النتيجة الوحيدة للدعوة للقومية الطورانية هي التفتيت. وأحلوا محل كلمات "الله، الرب، الخالق، الإسلام،" كلمات، "الطبيعة، التطور، القومية التركية" الخ.¹³

- بين العالمية والأمية:

الأمية: نسبة إلى مجموعة الأمم في العالم، ولذا سميت المنظمة الدولية السياسية بعد الحرب العالمية الأولى عصبة الأمم، ثم بعد الحرب العالمية الثانية في 26 يونيو (حزيران) 1945م حلت محلها منظمة الأمم المتحدة.

واتخذت الشيوعية مبدأً شمولياً لانتشارها وهو نظام الأممية أو الشيوعية الدولية، أي تكوين وتأييد الأحزاب الشيوعية في جميع الأمم والشعوب والدول.

أما الأمم المتحدة وعصبة الأمم اللتان وجدتا من أجل حماية حقوق الإنسان وصون السلم والأمن الدوليين، فلم يتحقق بطريقهما شيء يذكر إلا في بعض الأحوال حيث تكون للدول العظمى

10 - أخرجه ابن سعد في الطبقات عن الزبير وعن جبير بن مطعم، وهو ضعيف، لكن تؤيده أحاديث في صحيح البخاري ومسنده أحمد ومسند الطيالسي في النهي عن دعوى الجاهلية.

11 - الوحدة الإسلامية، مقتطفات من كليات رسائل النور للنورسي: ص 17-19.

12 - بديع الزمان النورسي - فكره ودعوته - حلقة دراسية أقامها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الأردن: ص 40، 139، 168-173.

13 - سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة: ص 133، 148-149.

مصلحة او منفعة او صيانة بعض الاعتبارات ودفع شر بعض الاحتمالات الحيوية او الخطيرة.¹⁴ وأما الشيوعية الدولية: فلم تطبق مبادئها الى الآن، وإنما طبقت الاشتراكية، ثم بعد محاولة تطبيق مبادئها، وانتماء بعض الأفراد في العالم الى الحزب الشيوعي، فشلت فشلاً ذريعاً، وأخفقت في مجال السياسة الاقتصادية، وبرامج الحقل الاقتصادي بعد مرور سبعين عاماً الى سنة 1989، وأدت الى انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1991، بل إن عوامل انهيار النظام الاقتصادي في روسيا، وبروز مشكلات كثيرة فيه ظهرت قبل هذا التاريخ بعشرين سنة.

ولقد حارب النورسي الروس مع ميليشيا مسلحة من طلابه في الحرب العالمية الأولى، ودافع عن وطنه، وجرح في الحرب، ووقع في الأسر، وبعد أن قضى سنتين في الأسر، استطاع الهرب بعد نشوب ثورة أكتوبر (تشرين الأول) الشيوعية عام 1917 في روسيا، مستفيداً من حالة الاضطراب والفوضى التي سادت هناك. وبعد رجوعه الى استانبول، استمر في جهاده ضد قوات الاحتلال الغربي في ظل عصبة الأمم.¹⁵

وواجه النورسي كغيره من مفكري الإسلام النظام الشيوعي، ونقدوا مبادئه، وأثبتوا عدم صلاحيته لبناء المجتمعات الإنسانية، على الرغم من التطور الذي آل اليه المجتمع السوفياتي، إلا أن الأمم لا تقاس عظمتها ببناء مادي او صناعي فحسب، بل هناك مقومات اخرى لبقاء الأمم، فالشيوعية تصادم الفطرة الإنسانية، ولا تقبل النفوس إلغاء نظام الملكية الفردية، والقيادة الجماعية في النظام الشيوعي ضيعت حرية الفرد ضمن حرية الجماعة، فضاعت المسؤولية، وغرق النظام في أخطاء متتالية، وأنكر النظام الشيوعي الدين، ووصفه بأنه أفيون الشعوب، وكانت الصهيونية على يد ماركس هي التي رعت هذا النظام، وفقدت قاعدة بناء المجتمع السليم، من الحرية والديمقراطية، وسقط الفكر الشيوعي سقوطاً ذريعاً، وانتهت أسطورة عبادة الزعيم، والدولة المتسلطة.

وبقيت عالمية القرآن، وأثبتت التجارب أنه لن تصلح أمور أمة إلا باتباع منهج الله في كل ميادين الحياة، وهو المنهج المتكامل للبشر في السياسة والأخلاق والاقتصاد والحياة، وتنظيم الحقوق والواجبات.

إن العالمية او الاممية شئ حسن إن التزمت مبادئ العدل والمساواة والحرية، لكن الأممية الشيوعية لم تقسم على مقومات مقبولة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، فأهملت، أما العالمية القرآنية فمقوماتها خالدة، تعتمد ثوابت لا تتغير، وقواعد مرنة في توجيه النظام والتطبيق، لرعاية تبدلات المصالح، وأوضاع التطور.

- بين العالمية والعنصرية:

العنصرية: الإلتواء لعنصر معين، وهي تقسيم باطل للإنسانية على أساس بعض المعايير الفيزيائية، كلون البشرة، ونسيج الشعر، وذاعت هذه الفكرة في القرن التاسع عشر لتقسم الإنسان الى العنصر الألي، والاري، والقوقازي، والنوردي، وغيرها، وظلت الفكرة سائدة في القرن العشرين، على الرغم من افتقارها الى الدليل العلمي، ومما ينقض فكرة العنصر عدم إثبات تعدد أصول الإنسان.¹⁶ وهدمت عالمية القرآن وأصوله منذ تنزل الوحي الإلهي بالقرآن هذه الفكرة، قبل اربعة عشر قرناً، كما يبدو في آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس

14- فقد صدر مثلاً عن مجلس الأمن والجمعية العمومية أكثر من 225 قراراً متعلقة بفلسطين المحتلة، لم ينفذ شئ منها..

15- بديع الزمان النورسي، فكره ودعوته: ص34..

16- الموسوعة العربية الميسرة: 1241/2

واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً... (النساء: 1).
وأوضح النبي ﷺ هذا المعنى، وأبان وحدة الأصل أو المنشأ الإنساني في خطاب حجة الوداع، بقوله: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي علي أعجمي فضل إلا بالتقوى"¹⁷.
ودأب المفكرون ومنهم العلامة النورسي على نقد هذه الفكرة، وكان النورسي يرى أن العنصرية مرض من أمراض الفرنج دخل إلينا من أوروبا، وأن هذا المرض سرى إلى العالم الإسلامي بفضل دعايات وجهود غير المسلمين، وكان هدفهم هو تمزيق المسلمين، والحيلولة دون تشكيلهم قوة دولية.¹⁸

واستعرض النورسي أضرار العنصرية، ومنها:
أن الأمويين خلطوا شيئاً من القومية في سياساتهم، فأسخطوا العالم الإسلامي، فضلاً عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية.

وكذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية، وأولغوا فيها في هذا العصر، نجم العداء التاريخي الملىء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية.

وكذلك الحال فينا، ففي بداية عهد الحرية "أي إعلان الدستور" تشكلت جمعيات مختلفة للاجئين، وفي المقدمة الروم والأرمن، تحت أسماء أندية كثيرة، وسببت تفرقة القلوب - كما تشتت الأرقام بالهدام برج بابل، وتفرقوا أيدي سبأ في التاريخ - حتى كان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب، ومنهم من تردى وضل ضاللاً بعيداً، كل ذلك يبين نتائج القومية السلبية وأضرارها.

أما الآن، فإن التباعد والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومي - هلاك عظيم، وخطب حسيم، إذ إن تلك العناصر أخرج ما يكون بعضهم لبعض، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف، ولشدة الفقر الذي نزل بهم، ولسيطرة الأجانب عليهم، كل ذلك بسحقهم سحقا، لذا فإن نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء مصيبة كبرى لا توصف، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض، ولا يعبأ بالثعابين الماردة التي تحوم حوله.¹⁹

- بين العالمية والمدنية والحضارة الغربية "صراع الحضارات"

الحضارة: مجموعة المفاهيم عن الحياة الدنيا وعمها قبلها وعمها بعدها، وهي خاصة في كل أمة من الأمم.

والمدنية: هي الوسائل والأدوات التي تساعد على حل مشكلات الحياة، وجعلها أسهل وأفضل، وهي عامة، ولا تختص بما أمة من الأمم، وليس لها علاقة بالعقائد.

أي إن للحضارة بعدين: بعد روحي وأخلاقي، وبعد مادي، والبعد المادي: هو المدنية. والحضارة كما يقول مالك بن نبي رحمه الله: "هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة: المساعدة الضرورية له في هذا الطور وذاك من أطوار نموه".

17- أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وابو داود والترمذي عن أبي بكره رضي الله عنه.

18- بديع الزمان النورسي، فكره ودعوته إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور - تركيا: ص 40.

19- الوحدة الإسلامية، مقتطفات من كليات رسائل النور: ص 20.

أي إن الحضارة لا تبقى بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، بل لا بد من الروح، لتنهض الإنسانية وتتقدم.

والفارق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية: هو أن الأولى حضارة خالدة تعتمد على بناء الروح والمادة، والدنيا والآخرة، واستقامة الحياة بالأخلاق الإلهية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبعد عن كل ما يندس الذوق والعرض والخلق الرصين، ويحقق طمأنينة المجتمع، وعناصرها أربعة في قول الله تعالى: {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، وإن الله لا يحب المفسدين} (القصص: 77) وفي سورة العصر: {والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} (1-3) أي إن عناصر حضارتنا الأربعة: هي الإيمان والعمل للآخرة، والإحسان والعمل الصالح المفيد على الدوام، وتعمير الدنيا والتواصي بالحق والصبر، وتجنب الفساد. أما الحضارة الغربية: فهي مقصورة على إشباع النواحي المادية والأهواء والشهوات الذاتية، وتنتهج منهج العلمانية أو العلمانية (أي اللادينية) في الغالب، والأخلاق فيها نفعية محضه بسبب بعدها عن حقيقة العقيدة الدينية أو الإيمانية. وتحرص على مبدأ التسلط على مقدرات وثروات الشعوب الأخرى، فكان الاستعمار البغيض بشكليه القديم والحديث ملازماً لها.

وأدى هذا الخلاف في البعد النظري والعملي بين الحضارتين القرآنية والغربية إلى ما يعرف بالصراع الحضاري، وشكل هذا تباعداً وتحافياً بين الغربيين والمسلمين، أثر على اتخاذ القرارات السياسية والعلاقة الدولية بين الجانبين.

قارن النورسي رحمه الله بين الحضارتين، ودخل في الصراع الحضاري والثقافي مع المدينة الغربية بحصيلة قرآنية واعية، فجعل القرآن يدافع عن نفسه، ووظف حقائق القرآن ومعارفه الناصعة في سحق أسس الحياة التي تقوم عليها المدينة الغربية، فأثبت فشلها، وبيّن عدم قدرتها على قيادة مركب البشرية، بل أثبت أنها قد ضللت البشرية وموهنتها عن رؤية الحق والحقيقة. وكان يرى بشجاعة وثقة أن القرآن الكريم هو البديل الوحيد للمدينة الغربية، وأن الحياة البشرية لن تستطيع الاستغناء عنه.²⁰ وأوضح النورسي موقف المسلم تجاه المدينة الغربية، وكل شيء في الغرب ليس خيراً محضاً، ولا شراً محضاً، فالمدينة الغربية تحتوى على بعض القيم المشتركة مع المسلمين، فكما استفاد الغرب من المدينة اليونانية والمدينة الرومانية، فإنه استفاد أيضاً من المدينة الإسلامية، إذن يجب أخذ الحسن، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها - أي فهو أحق الناس بها - كما يجب ترك كل ما لا يتلاءم مع القرآن.

قال النورسي بصدد المقارنة بين الفلسفة الغربية العلمانية، وبين الحكمة القرآنية، في النظر للحياة الاجتماعية للإنسان:

"إن نقطة استناد الفلسفة في الحياة الاجتماعية: هي القوة، وهدفها المنفعة، ودستورها في الحياة هو الصراع، وهي تقدم العنصرية، أي القومية من ناحيتها السلبية، كرابطة بين الجماعات. وثمرات هذه النظرة هي إشباع النزوات النفسية، وزيادة حاجات البشر، بينما شأن القوة هو الاعتداء، وشأن المنفعة هو الصراع، لأنهما لن تكونا كافيتين للجميع، وشأن دستور الصراع هو الصدام، وشأن

20- بديع الزمان، فكره ودعوته إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور - تركيا: ص39.

العنصرية هو الإعتداء، لأن غذاءها هو ابتلاع الآخرين، لكل هذه الأسباب فقد سلبت سعادة البشرية.

ولكن الحكمة القرآنية تستند الى الحق بدل القوة، وغايتها هي الفضيلة والرضا الالهي بدلاً من المنفعة، ودستورها في الحياة: هو التعاون بدلاً من الصراع، وترى ان الرابطة التي تربط بين الجماعات هي الرابطة الدينية والمهنية والوطن، وغايتها وضع سد أمام اعتداءات الأهواء والنزوات وتشجيع الروح للارتفاع الى الاعالي، وإشباع حاجات الإنسان الروحية السامية، وإرشاده الى الكمالات الإنسانية، وشأن الحق هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند، ودستور التعاون هو الإسراع لنجدة الآخرين، وأساس الدين هو الأخوة والتقارب، وشأن السيطرة على الأهواء والنزوات، وتشويق الروح للكمالات، هو سعادة الدارين".²¹ ويضيف قائلاً:

"إن سياسة المدينة الحاضرة تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلة قليلة ظالمة، بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها او مصالحها".

والخلاصة: أنه إذا وصفت اليهودية بالعنصرية، وهي واليهود كذلك، والمسيحية بالتسامح، والمسيحيون خلاف ذلك، فإن الإسلام هو دين الحق، والحق يلازم العدالة، ويحقق السماحة، وينشر الأمن والسلام والإستقرار، والمسلمون في عصرنا الحضاري ضعاف عن حماية حقهم، والدفاع عن عقيدتهم وقرآتهم، بسبب تخلفهم الحضاري او الصناعي، مما أدى الى تفوق الغرب، وانحدار الشرق الإسلامي وتخلفه، ولا بد من صحوة إسلامية تعيد للمسلمين قوتهم ليحفظوا حقهم، ويفرضوا هيبتهم، فالحق والقيم العليا لا بد لهما من قوة عادلة معتدلة تحميها وتحافظ عليهما، وتنهي ما يسمي بصراع الحضارات.

وموقف النورسي من الحضارة الغربية: هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام ان يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها، لإقامة الحضارة، وبناء التقدم، لذلك دعا المسلمين الى الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، والى تبني التكنولوجيا الحديثة، وتبني العلوم الكونية الحديثة، قال رحمه الله: "ضياء القلب: هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية، اي العلوم الكونية الحديثة، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبأفتراقهما تتولد الخيل والشبهات في هذا، والتعصب الذمير في ذلك"²²

- بين العالمية والنزعة الفردية بالانطواء على الذات:

إن العالمية القرآنية تشمل الأمة والجماعة والأفراد، فإذا صلح الفرد صلحت الجماعة، وإذا حسنت أفعال الجماعة، كانت الأمة بخير، وإذا توجهت الأمة نحو مرضاة الله واحترام التوابت والمبادئ والأخلاق الإلهية، انتفع منها كل شئ في الوجود.

ويحرص الإسلام على إصلاح الفرد والجماعة، ويدعو الى محبة الخير للآخرين، ويمقت حب الذات (او الانانية) سواء في الأكل والشرب وغيرهما من المنافع الخاصة، او المشروعات العامة واذا كانت الروح الجماعية هي المسيطرة على شؤون الناس، استفاد منها كل الأفراد.

لذا كانت التوجيهات القرآنية والنبوية نحو الخير العام، وصلاح الجماعة، ونقاوة المجتمع، والبعد عن تدنيس القيم الاجتماعية، وإشاعة الفاحشة في الأمة، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قاعدة العيش الإجتماعي، وكان التكافل الاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي والسياسي والإنساني:

21- بديع الزمان النورسي، فكره ودعوته إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور - تركيا: ص37-38..

22- المرجع السابق: ص138.

هو مبدأ الإسلام وسياسته العامة في الإصلاح وبناء المجتمعات. والمثال على ذلك آية تميم البر في القرآن الكريم: {ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفي الرقاب..} الآية (البقرة: 177). وقال النبي ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى یحب لأخیه ما یحب لنفسه).²³

والدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم).²⁴

ومن أطرف ما يذكر²⁵. موقف ذلك الأعرابي، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: (قام رسول الله ﷺ في الصلاة، وقمنا معه، فقال أعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم رسول الله ﷺ قال: لقد تحجرت واسعاً - يريد: رحمة الله).

ونفر النبي ﷺ من اتباع الأهواء الخاصة والآراء الفردية، ودعا الى تأييد الجماعة، وتنمية الروح الجماعية، عن أبي امية الشغباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} قال: (أما والله، لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ قال: بل اتتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، دع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصير فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم).²⁶

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى لا يجمع أمي على ضلالة، ويد الله على الجماعة، من شد شد في النار.²⁷

يبدو مما سبق أن النزعة الفردية ضارة بالفرد والمجتمع، والنزعة الجماعية أو العالمية خير للفرد والمجتمع، وإذا سادت النزعة الأولى كما هو الغالب في الأنظمة الرأسمالية، ظهرت الكراهية والاحقاد والطبقية والتناحر والنزاع أو الصراع الطبقي، وإذا تنامت وتقوت النزعة الجماعية أو العالمية المنضبطة بمبادئ القرآن، برزت عناصر الرحمة والتعاون والتكافل وسادت المحبة والأخوة والسكينة والطمأنينة، وحينئذ تنقوى الزمة وتنمو فيها كل معاني الخير والأخلاق الكريمة.

ولقد عزا بديع الزمان النورسي أسباب الحرب العالمية التي أنزلت بالبشرية الكوارث، وحصدت ملايين الرؤوس.. الى "الضلال الناشئ" من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكم الهوى".²⁸

وذكر النورسي أن القرآن الكريم قد حوّل - كما نعلم مجتمعاً كاملاً الى مجتمع جديد، وانقذ كل إنسان من الأنانية -عبد الذات - والعجب بالنفس وغيرهما من الصفات التي تحول دون إدراك الحقائق، ورسخ بدلاً منها صفات وخصالاً سامية حميدة، كالتواضع والتضحية وغيرهما²⁹ أي لا بد

23- أخرجه البخاري ومسلم عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله عنه.

24- أخرجه مسلم عن أبي رقية تميم بن الداري رضي الله عنه.

25- أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي

26- أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

27 - أخرجه الترمذي، وهو حسن.

28- بديع الزمان النورسي، المرجع السابق إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي- مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور-

تركيًا: ص152..

29- بديع الزمان سعید النورسي للأستاذ إحسان قاسم الصالحي: ص152

من إعداد النفس والفرد اعداداً قويمًا صالحاً، بحيث يجب الخير لنفسه ولأمته.

بين العالمية والأديان الاخرى:

القرآن الكريم ذو نزعة عالمية تشمل جميع أرجاء العالم، من أجل خير الإنسان وإسعاده، في الدنيا والآخرة، فمن آمن به وصدق بتعاليمه، حقق النجاة لنفسه، ومن أعرض عنه، ترك أمر حسابه لربه، وليس لأحد من المسلمين إجباره على تغيير معتقده، لأنه في شرعة القرآن: **{ لا إكراه في الدين }** (البقرة: 256).

وعلاقة الإسلام أو القرآن بالأديان الأخرى لها صفتان أو حالان:

الأولى: علاقة تأييد وتصديق كلي للأديان السماوية الاخرى في أصولها الأولى الثابتة الصحيحة، المنزلة على موسى وعيسى عليهما السلام، لقول الله تعالى: **{ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم }** (البقرة: 41) وقوله سبحانه: **{ نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه }** (آل عمران: 3) وقوله عز وجل: **{ يا أيها الذين آمنوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم }** (النساء: 47) وقوله عزت أسماؤه: **{ وأنزلنا إليك الكتاب مصداقاً لما بين يديه من الكتاب }** (المادة: 48) وهذا إنصاف للأديان السماوية، فعلى المسلم احترامها والإيمان بما جاء به الرسل عليهم السلام، كما في قوله تعالى: **{ قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون }** (البقرة: 136).

الثانية: علاقة إقرار لواقع، وإظهار لتعايش ودي بين المسلمين واهل الأديان الأخرى في وضعها الحالي، من غير مساس بهم، لانا أمرنا بتركهم وما يدينون، ولأنه يجوز إقرارهم على العيش بمعاودة دائمة في ظل دار الإسلام أو الدولة الإسلامية، سواء كانوا عرباً أو غير عرب، ككتابيين أو وثنيين، في رأي الإمام مالك رحمه الله وأتباعه والأوزاعي والثوري وفقهاء الشام، هذه العلاقة تصديق لما بقي من أجزاء الأديان الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.³⁰ والنورسي في رسائل النور التي صنفها هو مع هذا الاتجاه القرآني المقرر، ولكنه يعارض بشدة ويشجب ويستنكر أعمال المعتدين على الوطن الإسلامي من المستعمرين الغربيين أو الشرقيين، ويندد على الصعيد الداخلي لوطنه تركيا بالسياسة الحمقاء التي ينتهجها العلمانيون القوميون، الذين يريدون تصفية معالم الإسلام، وهم أصحاب الفكر الدخيل، على أيدي الدخلاء من الذين يتلقون الخطط والدساتير لإفساد عامة الناس وخاصتهم، من خلال سياسية الواقع.³¹ والخلاصة: ليس الإسلام ولا حضارته ولا أهله خطراً على الأديان الاخرى، ولا على أتباعها، وليس من أهدافه محققها أو سحقها أو تصفيتيها، فبقاؤها لحكمة من الله، ومن أجل المقارنة أو الموازنة، ولتكامل الدنيا، بدليل وجود الحق مع الباطل، والخير مع الشر، ولأن الدخول في الإسلام قائم على الحرية والاختيار والطوعية، لا على القسر والإكراه.

بين العالمية والجهاد:

الدعوة الى الإسلام ونزعة القرآن العالمية تقوم على أساس من الحوار الهادئ، والإقناع العقلي، والبرهان الساطع، والجهاد في الاسلام، سواء الدعوى منه أو القتالي ليس لفرض الإسلام على الناس،

30- الدين للأستاذ الدكتور محمد عبدالله درازا ص 189.

31- بديع الزمان النورسي، فكره، ودعوته، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور - تركيا: ص 125.

وإنما هو لحماية المجتمع الإسلامي ودار الإسلام، والدفاع عن الدعاة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنع الفتنة في الدين، وإقرار فاعلية الحرية على أوسع نطاق في العالم، ولقمع الظلم وردّ العدوان، وإنقاذ المستضعفين.

فلا يعقل أن يعتدي الآخرون على المسلمين أو الدعاة إلى عالمية القرآن، ثم لا يجد هؤلاء من يذود عنهم ويحميهم، ويمكّنهم من متابعة مهامهم الإنسانية السامية، تنفيذاً لقول الله تعالى: **{وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** (آل عمران: 104) واستجابة لترغيب رسول الله ﷺ بقوله: (لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت).³²

ولقد كانت الفتوحات الإسلامية إما لرد الإعتداء، أو تطويق الأخطار، أو إضعاف العدو المشترك في بلاد تابعة له، أو مؤيدة له، أو لدفع الظلم وحماية المستضعفين، أو لمنع الفتنة في الدين، ومحاولة الإعتداء على الدعاة المسلمين، ولم تكن لنشر الإسلام بالقوة، ولم يثبت في تاريخ هذه الفتوحات أن أحداً من القادة أو الأتباع أكرهوا أحداً على الإسلام، أو أن الجهاد أو القتال كان للمعاهدين أو المدنيين الذين لا يقاتلون ولا يجرضون على القتال، برأي أو تدبير أو تأليب الناس على المسلمين، ولا يصلح الخلط بين القتال الذي هو رد العدوان وبين القتل بغير حق، قال الإمام الشافعي: "ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل، ولا يحل قتله" أي فإن مشروعية الجهاد في الإسلام إنما كانت لدفع الحاربة، أي ظهور قصد العدوان، لا من أجل شن الحروب المتتابعة على المسلمين أو الأمنين، قال ابن تيمية: "إنما القتال لمن قاتلنا".

ويكون الجهاد إما باللسان أو بالمال أو بالسلاح أو بالنفس، أما الجهاد باللسان: فهو للرد على طعون الأعداء وتفنيد شبهات الحاقدين. أما الجهاد بالمال: فهو الإسهام في إعداد المقاتلين لقمع العدوان، وأما الجهاد بالسلاح: فهو لطرد الغزاة المعتدين أو لإضعاف جبهات العدو في مواضع غير مباشرة، أما الجهاد بالنفس: فهو لترويض النفس على الفضائل والتزام دين الحق، والاستخلص من وساوس الشيطان والأهواء. وغاية الجهاد: إعلاء صرح الحرية في جميع مظاهرها وأنواعها. ولقد مارس بديع الزمان الجهاد بجميع أنواعه، فجاهد النفس والهوى، وأبطل بقلمه ولسانه باطيل الملحدين والكافرين والمنافقين، وحاض معارك الجهاد بالسلاح ضد الروس وغزاة الوطن. والجهاد ملازم لعالمية القرآن، وتمكين من نشر دعوة الإسلام.

ومن أقواله: "إن الجهاد المسلح لا يحشد كلياً إلا ضد العدو الخارجي، فالصراع المسلح داخل البلاد الإسلامية: هو ما يصبو إليه العدو الخارجي، إذ إن سفك دماء المسلمين فيما بينهم أمر يهيمهم".

وأضاف قائلاً: "إن الجهاد إنما هو جهاد معنوي يوصل إليه عن طريق تنوير الأفكار وإصلاح القلوب والأرواح، ويكون جهاداً إيجابياً ببناء لصد التخريبات المعنوية، ويتصرف فيه وفق سر الإخلاص. فهناك بون شاسع بين الجهاد في الخارج، والجهاد في الداخل. فنحن نبذل قصارى جهودنا للحفاظ على استقرار البلاد وأمنها على وفق العمل الإيجابي البناء.. في هذا الوقت الفرق عظيم جداً بين الجهاد الداخلي والخارجي".³³

32- أخرجه احمد والطبراني عن ابي رافع رضي الله عنه، وهو حسن..
33- سعید النورسی رجل القدر للأستاذ اورخان محمد علي: ص117..

الأسلوب والمنهج المعاصر لتحقيق مفهوم العالمية القرآنية:

لكل عصر أسلوب ومنهج في تبليغ الدعوة الإسلامية إلى أرجاء العالم، وأسلوب عصرنا يعتمد في الدرجة الأولى على الكلمة الطيبة الهادفة الواعية، ومخاطبة العقول والأفكار للاقناع، واثارة الميول الروحانية الصحيحة القائمة على النزعة الفطرية القومية، واعتماد العلم والمعرفة أساساً في غرس القناعة، ومواكبة ظروف العصر وتطلعاته وحاجياته.

وكل ذلك في الواقع ما قامت عليه الدعوة الإسلامية، فالله تعالى يامرنا بحسن العرض، ونصاعة البيان، وطيب الكلام، وإشعار الآخرين بالاحترام والتكريم، في قول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾ (النحل: 125) وقوله سبحانه: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون﴾ (العنكبوت: 46).

والإسلام دين العقل والفكر، وقد عني القرآن الكريم بإثارة الأفكار والعقول والتأمل في الكون، والإهتمام بذلك لإثبات وجود الله ووحدانيته.

والروح مركز الإشعاع الإيماني، وإيقاظ المشاعر الروحية: سبيل لإنارة العقل وتبنيه الإنسان نحو الخير وتحقيق السعادة.

والإسلام دين الفطرة الإنسانية، فكل أحكامه وتعاليمه وشرائعه تنسجم معها وتلتقي بها، فيتحقق اليسر والسماحة، وتمتنع كل ألوان الحرج والمشقة.

والعلم في الإسلام: دعامة له، وقاعدة رسالته، والقرآن مصدر العلوم والمعارف، وأداة لنشر العلم، وتوجيه العلماء. وهذا ما أكده النورسي مبيناً أن القرآن هو المصدر الأساسي للعلم والمعرفة، وأن العلوم الإجتماعية والإنسانية والطبيعية تنبثق من مشكاة القرآن الكريم.

لكن من المعلوم ضرورة الاعتماد في تبليغ العالمية القرآنية والدعوة إلى الإسلام على أساليب العلم المعاصرة، لتتحقق الغاية من نحو قريب ومن طريق يسير. لذا حرص النورسي على إصلاح نظام التعليم، بتعليم العلوم الدينية والعلوم الدنيوية المعاصرة معاً، دون اقتصار على إحداها دون الأخرى.

ولقد كان النورسي رحمه الله عميق الفهم لدين الإسلام وعالمية القرآن، في مجال العقيدة الصحيحة والعبادة القويمة، وفي تربية النفس على معالي الأخلاق، والتزام الآداب السلوكية، وفي المعاملة والتحضر والسياسة، ومراعاة ظروف الدولة، فاتخذ منهج التدرج في التغيير والإصلاح، واعتمد النظام وقمع الفوضى أساساً للوجود كله، وعني بغرس معالم الإيمان، واتخذ أسلوب الإقناع طريقاً صحيحاً في الحوار المفيد، وجعل منهج المناقشة والمفاضلة والموازنة سبيل الدعوة إلى القرآن، وكان مع سلامة منهجه وصحة أسلوبه، يعتمد التخطيط السليم في كل شيء، مع غيرة شديدة على دين الله وشعائره ومعطيات القرآن، واتصاف بصلاية لا تعرف اللين، وجرأة لا تردد معها، وشجاعة لا خور ولا ضعف فيها، لمقاومة آراء الملحدين والضالين وأعداء الإسلام.

قال لجماعة الحكام بعد أن رفعت ضده وضد طلابه (2500) دعوى، صدر فيها الحكم بالبراءة : أيا من بعتم دينكم بديناكم، أيها التعساء، افعولوا ما شئتم، ستكون الدنيا وبالاً عليكم لقد فديت هذه الدعوة المقدسة بملايين الأبطال، ونحن مستعدون لأن نفديها بأرواحنا، إننا نفضل البقاء في السجن ألف مرة على أن نرى الحرمات تنتهك، في ظل هذا الإستبداد لا يمكن أن يقال: إن هناك

حرية، حرية العلم، او حرية الضمير، او حرية التعبير، او حرية الدين، وبقي على طلاب الحرية ان يموتوا او يقموا في السجون محتمين بالله تعالى، قائلين {حسبنا الله ونعم الوكيل}.³⁴

وقال أيضا في الدفاع عن "رسائل النور":

"واجبي ان أشير الى حقيقة هامة جدا، وهي انه لا يمكن لأي شعب ان يعيش بدون دين، هذا دستور عام، معترف به في الدنيا كلها. وإن الكفر المطلق يسبب لصاحبه عذاباً أشد إيلا ما من عذاب جهنم في الدنيا نفسها".³⁵

واستمر النورسي في تطبيق نظريته التغييرية عن طريق نشر حقائق الإسلام بالأدلة والبرهان، وتكوين الجيل المؤمن الصالح، وبتث الوعي الإسلامي بخطورة الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين، وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية، ونقل التربية الإسلامية الى داخل البيوت.³⁶

ونجح أسلوب ومنهج النورسي، وكانت رسائله وآثاره خيراً وبركة مادية ومعنوية على تركيا، في حياته وبعد موته، واستمر طلابه بعده في أداء رسالته ودعوته، ولا سيما الشيخ الجليل "محمد فتح الله كولن" الذي قدم خدمات كبيرة في مجال تطبيق أفكار أستاذه النورسي، في الواقع العملي، وفي الحياة الاجتماعية، وعلى نطاق شعبي واسع، من طريق نشر العلم، سواء في تركيا او في خارجها، فقد أنشأ ما يزيد على مائتي معهد في خارج تركيا مثل ألبانيا والبوسنة والهرسك، ومنغوليا وياقوتستان، واليونان، وتايلند، والجزائر وغيرها، مما أثار الانظار إليه في العالم.³⁷

وكان النورسي بهذه الخطة الرشيدة علماً من اعلام العلم، والعمل، والجهاد، والدعوة الى سبيل الله والحق، لترسيخ عالمية القرآن، وجعل دين التوحيد وعقيدة الوجدانية عقيدة عالمية، لأن جميع النفوس تتجاوب معها، ولأنها عقيدة الفطرة الإلهية، وتتقبلها العقول الرشيدة بسرعة وأدنى تأمل.

– العالمية القرآنية ووحدة الأمة الإسلامية:

لا تعارض ولا تنافي بين الدعوة الى عالمية القرآن وإلى وحدة الامة الإسلامية، لأن هذه الوحدة ليست عنصرية، ولا تعصبية لدين الإسلام ضد أمم الارض وأديان البشر، وإنما هي وحدة قائمة على ضرورة رعاية المصالح، وتبادل المنافع وحماية الوجود الإسلامي، مع نظرة التسامح نحو الآخرين، والحذر من مكائد الآخرين، وتجنب شرورهم وأطماعهم.

وقد جمع القرآن الكريم بين الأمرين، فدعا الى ضرورة وحدة الامة تجاه الأعداء والمعارضين والمناوئين، في قول الله تعالى: {إن هذه امتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون} (الانبياء:) {وإن هذه امتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون} (المؤمنون: 152) {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا} (آل عمران: 103) وهذا توجه طبيعي بين الأمم قاطبة، والمسلمون أحق الناس بالاتحاد لوحدة عقيدتهم القائمة على توحيد الله تعالى، ووحدة كتابهم ورسولهم، واشتراكهم في رابطة الاخوة الإيمانية، وتعرضهم لمشكلات مشتركة.

وأما عالمية القرآن التي سبق الكلام عنها: فهي في مجال تبليغ عقيدة التوحيد وأحكام الله وشرائعه

34- النورسي رجل القدر في حياة أمة: ص212

35- المرجع السابق: ص230.

36- النورسي رجل القدر: ص117

37- بديع الزمان، فكره ودعوته إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور: ص43

38- أي بالقرآن او الإسلام.

الى جميع الناس، من أجل خيرهم وإسعادهم. ولقد دعا النورسي كغيره من أعلام الإسلام وأئمة العلم والنهضة والإصلاح الى وحدة المسلمين او اتحادهم على الدوام، ونبذ الخلافات والمنازعات، لأنها تضعف شأنهم، وتمز كيانهم. وكانت مقالاته في جريدة "وولقان" من المقالات البناءة التي تحض على وحدة الصف، وتجنب التفرقة، والبعد عن الحركات المتطرفة، وتدعو الى التأخي والتواؤ والتحاب، لقوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** (الحجرات:10) وكان يحذر من إثارة الاختلافات التي يحاول الأعداء نشرها بين المسلمين، أفرادا وشعوباً ودولاً، مستغلين بعض حالات الضعف والتخلف والجهل والغفلة} وكان دائم الهتاف: "أيها العالم الإسلامي، إن حياتك في الإتحاد، وإن موتك في الفرقة والإختلاف".³⁹

- علاقة الأمة الإسلامية بالأمم والشعوب الأخرى:

الأمة الإسلامية إحدى الامم الكبرى في هذا العالم، وهي ذات رسالة إلهية، مطالبة بتبليغها للعالم، وبيان مضمونها، والتعريف بأحكامها، وشرايعها بمختلف الأساليب المعروفة قديماً وحديثاً، سواء بالقول أو بالفعل او بالترجمة، لقوله تعالى: **{وَأَوْحِي إِلَيْهِ أَنْ نَبِّئِ النَّاسَ بِأَلْسِنَتِهِمُ الْكَلِمَةَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الْآيَاتِ الْمَوْجُودَةِ وَأَلَّا يُعْتَبِرُوا الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ وَأَلَّا يُؤْمِنُوا إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}** (الانعام: 19). والمبليغ الأول هو رسول الله ﷺ، عملاً بامر الله تعالى له في قوله: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}** (المائدة:67).

والأصل في علاقة الامة الإسلامية بالأمم والشعوب الأخرى: هو السلم لا الحرب، والود والتفاهم، لا الكراهية والنفور والتباغض، فإذا لم يكن هناك عدوان من الأمم الأخرى او الدول، فإن المسلمين أسبق الى التعاون والإلتفات الى كل ما يقدم البشرية، ويحل مشكلاتها ويزيل أزماتها المستعصية، لقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** (الحجرات:13).

وقاعدة العلاقات بين المسلمين وغيرهم مصدرها القرآن في قوله سبحانه: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}**. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} (المتحنة: 8-9).

وحينئذ يمكن ان تتوسط هذه العلاقات وتنمو وتتطور في صالح الفريقين، سواء في مجال السياسة او الإعلام او الإقتصاد ومنه التبادل التجاري، او الصناعي، او العلم والثقافة او غير ذلك.

ومنهاج المسلمين في تبليغ دعوتهم الى الله وتوحيده وما انزل في قرآنه هو قول الله تعالى السذي عمل به نبينهم في دعوتهم امراء وملوك العالم الى الإسلام: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** (آل عمران: 64).

إنه منهاج العقل والمنطق والحكمة، لأن دعوة القرآن وعالميته إنما هي كما تقدم لخير الإنسان نفسه، ولإنقاذه من يؤر الضلالة، والأخذ بيده نحو السعادة والنجاة، وإشاعة السكينة والطمأنينة في

39- بديع الزمان، فكره ودعوتيه إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، ومركز بحوث رسائل النور - تركيا.: ص166، سعيد النورسي رجل القدر: ص44.

قلبه ووجدانه ومشاعره وتفاعله مع الحياة. وكان النورسي في هذا مع توجه القرآن الذي دأب على بيانه، ونشر مقاصده، وإيضاح آياته، سواء في العقيدة أو العبادة، أو المصلحة العامة العليا للأمة الإسلامية، متخذاً الإخلاص أساساً، والاشتغال بنشر الحق والوعي، بدلاً من الإنشغال بعيوب الآخرين والتمسك بالأخوة الإسلامية، والإنفاق مع أهل الحق.

الخاتمة

هذه هي آفاق عالمية القرآن، وهذه هي معالمها في مجال المساس مع الأمم الأخرى، إنها معالم الإيمان ونشر عقيدة التوحيد بالله عز وجل، وتقوية الصلة به بالعبادة الخالصة، واتخاذ معطيات القرآن الكريم سبيلاً لإنقاذ الشعوب الأخرى، أفراداً وجماعات، دولاً وحكاماً ومحكومين. إنها مطامح تسمو على الأوضاع والمصالح المادية، أساسيتها محبة الخير للآخرين، والإخلاص في تبليغ رسالة الله لجميع العالم.

ولقد تمثل النورسي رحمه الله هذه الأصول، كغيره من قادة الإصلاح والتغيير لما هو الأفضل والأحكم، فكان بحق واعياً مقاصد القرآن مستوعباً متطلبات الشريعة، داعياً في سبيل الله لرفع راية الحق والعدل والخير والمحبة لكل العالم، سواء في وطنه أو غيره، وهو بكلمة موجزة: أمة في رجل، ورجل مسلم في أمة.

أهم المراجع

- القرآن الكريم
- رسائل النور لبيدع الزمان سعيد النورسي
- بيدع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، للأستاذ إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للطباعة والنشر، تركيا
- بيدع الزمان النورسي، فكره ودعوته، إعداد إبراهيم علي العوضي، عمّان، وقائع الحلقة الدراسية المنعقدة في قاعة المركز الثقافي الإسلامي.
- سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة، تأليف الأستاذ اورخان محمد علي، شركة النسل للطباعة، اسطنبول.
- المعجزات الأحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، من كليات رسائل النور، لبيدع الزمان النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، طبع اسطنبول.
- الوحدة الإسلامية، مقتطفات من كليات رسائل النور، لبيدع الزمان سعيد النورسي، دار الاتحاد والنشر والتوزيع، اسطنبول.
- عالمية الإسلام وقضايا العصر، للأستاذ محمد عللوه، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا.
- عالمية الإسلام، للأستاذ أحمد علي الملا، دار قتيبة بدمشق.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة، أ- د: وهبة الزحيلي.
- الدّين للأستاذ الدكتور عبدالله دراز، طبع القاهرة.

كتاب الكون موقعه وتطوره في فكر بديع الزمان

بقلم : شكران واحدة^P

المقدمة

عندما يتناول بديع الزمان سعيد النورسي الكون بالبحث يستعمل تشبيهات ومجازات عدة مثل "معرض"، "مضيف"، "قصر". ولكنه في نهاية المطاف "كتاب". أي أن تشبيهه للكون بشيء "يقرأ" يُعد علامة فارقة لرسائل النور وتعريفها ورمزها لها. ويقوم بديع الزمان في رسائل النور بتأكيد ماهية العلاقة المتكاملة بين القرآن الذي هو "كتاب صفة الكلام" وبين الكون الذي هو "كتاب القدرة". وبحول بديع الزمان أنظار قرائه إلى الكون على الدوام ويدلهم على كيفية القيام بقراءة كتاب الكون على الطريقة القرآنية، وعلى كيفية فهم دلالة جميع المخلوقات على المعاني التي لا تعد ولا تحصى، ليستخرجوا الدروس التي يشير إليها القرآن الكريم. إذن فمفهوم قراءة "كتاب الكون" يتأمل وتفكر¹ يشغل مركز رسائل النور، كما يشغل قلب "الطريق الموصل إلى الحقيقة" الذي فتحه بديع الزمان.

في هذه المحاضرة سأقوم بشرح هذا المفهوم وكيفية استعماله في رسائل النور، وبيان العلاقة الموجودة بينه وبين القرآن الكريم، وكيف أنه يرمز إلى طريقة رسائل النور في الفهم العصري للقرآن الكريم. وعندما أقوم بهذا سأتطرق إلى تعريف بديع الزمان نفسه وعن مسيرة تطور فكره في هذه

^P ولدت في مدينة لانكشاير بانكلترا سنة 1948م. تخرجت في قسم الادب التركي والفارسي في كلية الشريعات بجامعة دورهام سنة 1980م. وأعدت اطروحة دكتوراه آثار حسين واعظ كاشفي الهراي من أدباء القرن الخامس عشر تحت اشراف المستشرق الالماني البروفيسور د. بول لوفط. وبعد قراءتها للترجمة الانكليزية لرسائل النور سنة 1981م اهتدت الى الاسلام. وهي مقيمة في تركيا وتقوم بدراسات حول رسائل النور. ترجمت كثيرا من رسائل النور الى اللغة الانكليزية منها: الكلمات، والكتوبات، واللمعات، الشعاعات. مع عدد من الرسائل الصغيرة. شاركت في عديد من المؤتمرات العلمية التي تخص رسائل النور، ولها اجملات كثيرة في هذا الموضوع. وألفت كتابين: 1- الاسلام والغرب ورسائل النور. 2- حياة بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف رسائل النور.

1 استعمل تعبير "التفكير" هنا بمعناه الواسع الذي يتضمن "التفكير، والتفكير المنطقي، والتدبير، والتأمل، والانتقاد..". ويظهر ان بديع الزمان استعمل هذا التعبير بهذا المفهوم لدى الإشارة الى العديد من البراهين الموجودة في رسائل النور مثل: اللمعة التاسعة والعشرين (رسالة التفكير) التي تحتوي على خلاصة براهين عديدة استعملها في امساكن اخرى من رسائل النور (انظر الى اللمعات 454-515) والآية الكبرى التي سماها سياحة فكرية (الشعاعات 133) وزهرة امرداغ التي وصفها بأنها (عبادة فكرية) لتعلقها بالقرآن الكريم (الشعاعات 302) والحجة الزهراء (الشعاعات 626) الذي وصفها ثمرة فردوسية أُنعت من حياتي التفكيرية ومن اتحاد علم اليقين وعين اليقين في حياة النور المعنوية الحقيقية.

المسألة. وفي هذا السياق سأقدم أولاً بعض المعلومات عن حياة " سعيد القديم " لمعرفة السبب في قيامه باختبار هذا الطريق وهذه الطريقة. وستحتوي هذه المعلومات على الخطوط الرئيسة لتحول " سعيد القديم " إلى " سعيد الجديد " وعلى التطور الذي حدث في أفكاره نتيجة هذا التحول. ثم أتطرق بشكل موجز إلى العلاقة المتكاملة الموجودة بين القرآن وبين الكون. ويعقب هذا قسم بعنوان " كتاب الكون ووظائفه ومعانيه ".

لماذا كتاب الكون ؟

نعرف من حياة النورسي أنه كان يحس منذ طفولته وشبابه - أي منذ حياته المبكرة - الحاجة إلى تجديد شامل وحذري في كثير من الساحات المتعلقة بالاسلام، ولا سيما فيما يتعلق بتدريس الاسلام وتعليمه. إذ كان يحس غريزيا بعدم كفاية الطرق التعليمية الموجودة آنذاك، وهذا قاده في السنوات التي تلت هذه المرحلة إلى تقديم مقترحات تجديدية في التعليم تستند إلى تدريس العلوم الحديثة جنباً إلى جنب مع العلوم الشرعية التقليدية. وكانت الساحة الاخرى لإهتمامه القيام بعملية التجديد في ساحة علم الكلام، الذي أصبح عتيقاً وغير قادر على مجابهة تحديات تقدم العلوم العصرية، ولا مجابهة الهجوم المتزايد على الاسلام بإسم العلم والتقدم. وبأخذ هذا الهدف بنظر الاعتبار نراه - خلافاً لجميع العلماء آنذاك - يقوم بدراسة علوم الفيزياء والرياضيات دراسة جيدة².

قام بديع الزمان بطبع العديد من الكتب التي تناولت أهم المشاكل التي يجابهها الاسلام حسب رأيه وقدم فيها الحلول لها فقد ذكر في كتابه (المحاكمات) (1911) الذي يُعد من أوائل كتبه بأن أهم عائق يحول بين العالم الاسلامي وبين التخلص من تخلفه الشديد هو التناقض المزعوم بين بعض مسائل العلم الحديث وبين بعض (ظواهر) الاسلام. ويظهر خطأ هذا مع تناول عدد من المسائل الاخرى ومن ضمنها التناقض المزعوم بين العقل والمكتشفات العلمية وبين بعض الآيات القرآنية. وبهذا استهدف بديع الزمان الاشارة إلى " الصراط المستقيم للاسلام " وكذلك الإجابة على كل من " أعداء الدين " ويعني به الفلاسفة الماديين و " الظاهريين "، أي بعض العلماء " الشككيين " ³ وفي الوقت نفسه صور الكون ووصفه بأنه " كتاب "، وأشار إلى علاقته المتبادلة مع القرآن. ذلك لأن القرآن كشف عن القوانين السارية في الكون، لذا فهو المصدر الحقيقي الوحيد للتقدم. وعلى أي حال فقد كان مثل سعيد الجديد موفقاً في شرح وتفسير كتاب الكون فقد كتب يقول :

ان "القرآن المعجز البيان: الذي يبين بقواعده - من كتاب العالم - قوانين الله العميقة الجارية بيد القدر، المسطرة بقلم الحكمة على صفحة الوجود، فيحقق باحكامه العادلة رقي البشرية وسمو نظامها ودقة اتزانها، فاصبح حقاً مرشداً وهادياً الى سواء السبيل"⁴.

كان الاهتمام الرئيسي للشباب بديع الزمان هو القرآن وإثبات وشرح طبيعته الإعجازية بطريقة مناسبة للحاجات المعاصرة. وفي رسالة من الرسائل التي أدرجها في كتابه " ختم التصديق الغيبي " شرح وأبان عن رد فعله أمام المخاطر الموجهة ضد القرآن وضد المجتمع الاسلامي في منعطف العصر فقال :

"وعتبر إهتمامه من جراء هذا الانقلاب الفكري فيه.. جاعلاً جميع العلوم المتنوعة المخزونة في ذهنه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقائقه. ولم يعرف بعد ذلك سوى القرآن

2 سيرة ذاتية ص 63

3 صيقل الإسلام - محاكمات ص 24

4 صيقل الإسلام - محاكمات ص 21

هدفاً لعلمه وغاية لحياته. واصبحت المعجزة المعنوية للقرآن الكريم دليلاً ومرشداً واستاذاً له⁵ ولكنه يعترف آسفاً في دوام الرسالة بأنه تأخر في حمل هذه الوظيفة عندما أفاق واستيقظ على صوت إنفجار وضوضاء الحرب العالمية الأولى. ويشير إلى إفاخته هذه في رسالة أخرى حيث يشرح فيها كيف أدرك أنه مكلف ببيان إعجاز القرآن⁶.

وفي (إفادة المرام) الذي كتبه لمقدمة تفسيره المشهور (إشارات الإعجاز) - الذي بلغ من إدراكه لأهميته وعدم جواز تأخيره أنه استمر في كتابته وهو يقاتل الروس الغازين في الخنادق الأولى - ذكر بأنه امام التقدم السريع للمعرفة والناشئ من المكتشفات العلمية فإنه من الضروري وضع تفسير "شامل وصحيح للقرآن الكريم" لا بد لكشف معاني القرآن وجمع المحاسن المتفرقة في التفسير وتثبيت حقائقه - المتجلية بكشف الفن وتمخيض الزمان - من انتهاض هيئة عالية من العلماء المتخصصين، المختلفين في وجوه الاختصاص، ولهم مع دقة نظر وسعة فكر لتفسيره⁷. ويُفهم من هذا بأنه يصرح بأنه لا يمكن شرح الحقائق القرآنية إلا بمعرفة العالم المادي في ضوء التقدم العلمي. وفي تفسيره هذا الذي أمل أن يكون أ نموذجاً للتفسير المقبلة نراه يشرح بأن ما اكتشفه العلم في المقام الأول من النظام الموجود في الكون وفي الكائنات متلائم تماماً مع الايات القرآنية ولا يتناقض معها أبداً.

نستطيع أن نقول بإيجاز بأن بدیع الزمان أدرك - منذ عمره المبكر - حقيقة عصر العلم وتطبيقاته في المعاهد وفي نظم التعليم والتربية، وعملياً في مجال التقدم المادي للعالم الإسلامي. وكان اهتمامه الأول والعاجل هو القيام بتبديد الاوهام حول وجود تناقض وصدام بين العلم وبين الاسلام، وإرجاع علم الفيزياء وعلم الرياضيات إلى الموقع الصحيح لهما، لأن الإسلام (سيد المعارف ورئيس العلوم الحقة والودها)⁸ وهو يسند تقدم العلوم وما صاحبه من كشف للكون إلى القرآن وجعل مهمته استخدام معرفته في العلوم لفهم حقائق القرآن والبرهنة على إعجازه.

ويجب أن نتذكر هنا أن تيار الفكر المادي وبالاخص الفلسفة الوضعية كانت قد سادت الفكر الغربي وأصبحت مؤثرة بشكل متزايد في الدولة العثمانية في العقود الأخيرة منها. وكان الطابع العام لمن تبني هذه الفلسفة هو الهجوم على جميع الأديان ولاسيما على الدين الإسلامي، مع أنهم كانوا يشكلون فئة صغيرة حتى تشكيل الجمهورية التركية عام 1923. وبعد هذا التاريخ حاولوا إدامة هذا الهجوم وتبنيها بشكل رسمي واتخاذ الخطوات لجعل الفلسفة الوضعية أساساً للايدولوجية الرسمية بدلاً من الاسلام.

وقد عد بدیع الزمان كتابه (إشارات الإعجاز) - الذي كتب القسم الأول منه فقط - "فاتحة" رسائل النور⁹ وربما قصد أنه يُعد القسم الأول لرسائل النور¹⁰ وشهدت السنوات المرة للحرب العالمية الأولى التي أعقبتها هزيمة الدولة العثمانية ظهور "سعید الجديد" وكتاباته باللغة العربية كثمرات لهذا التغيير الداخلي الكبير الذي قاساه واجتازه بدیع الزمان¹¹.

5 سيرة ذاتية ص 65

6 المکتوبات ص 475

7 اشارات الإعجاز ص 21

8 صيقل الإسلام - محاكمات ص 23

9 ملحق اميرداغ (بالتركية) ص 42

10 قام بترجمة المثنوي العربي النوري الى التركية شقيق الاستاذ النورسي الملا عبد الحميد

11 والرسائل التي يتضمنها المثنوي هي: قطرة، حبة، شمة، ذرة، حباب، زهرة، شعلة،

نرى أن بديع الزمان يذكر في مواضع عديدة من كتاباته الأولى هذه وفي رسائل النور الصراع الداخلي والعوامل التي ساهمت في ظهور " سعيد الجديد " و " الطريق القرآني غير السلوك " سابقا نحو الحقيقة الذي انفتح أمامه. وستتم الإشارة هنا إلى بعض وجوهه.

لم يتوضح السبيل أمام بديع الزمان إلا بعد صراع عنيف، فهو يشرح هذا في رسالة (القطرة) فيقول : " هذه الرسالة مكالمات فجائية مع نفسي في وقت مدهش. والكلمات انما تولدت في أثناء مجادلة هائلة كإعصار يتصارع فيها الانوار مع النيران، يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج الى الحضيض، ومن الحضيض الى الأوج، من الثرى الى الثريا؛ اذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب " ¹²

في هذه الأثناء ظهرت له أنوار خاصة عرف أنها " أنوار من شمس القرآن ". ونعلم من فقرات اخرى انها كانت تعليمات قرآنية حول الوجدانية الالهية. ¹³

" ان الفرق بين طريقي في "قطرة" الاستفادة من القرآن؛ وطريق اهل النظر والفلاسفة، هو اني احفر اينما كنتُ، فيخرج الماء، وهم تشبثوا بوضع ميازيب وانابيب لمحى الماء من طرف العالم ويُسلسلون سلاسل وسلاسل الى مافوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الاوهام. واما ما علمنا القرآن فما هو الا ان اعطينا مثل "عصا موسى" اينما كنتُ - ولو على الصخرة - اضربُ عصاي فينفجر ماء الحياة.. " ¹⁴

والحقيقة أن هذا الطريق تمثل حقيقة :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ثم يقول عن هذا " الطريق غير السلوك " :

" اني ما أدري كيف صار عقلي ممزوجاً بقلبي، فصرت خارجاً عن طريق اهل العقل من علماء السلف وعن سبيل اهل القلب من الصالحين، فان وافقتهما "فبها ونعمت" وان خالفتُ في كلامي ايّ السبيلين منهما فهو مردود عليّ " ¹⁵

وكتب في ذيل رسالة (الحجاب):

" فمسائلها وإن حصلت لي اول ما حصلت شهودية وحدسية وذوقية، لكن لدخولي في صحراء الجنون مع رفاقة عقلي مفتوح الجفون - فيما يغمض فيه ذوي الابصار - لفّ عقلي على عادته مارآه قلبي في مقاييسه ووزنه بموازينه واستمسكه ببراهينه.. صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة كأنها مبرهنة استدلالية.

فيمكن لمن ضلّ من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ماينجيه من مزلق الافكار الفلسفية.

بل يمكن ان يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والايضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لردّ ضلالات أفكار هذا الزمان. بل يمكن لمن اختلط عقله بقلبه، او إلتحق قلبه بعقله المنتشتت في آفاق الكثرة ان يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينة أمينة يسلك فيها تحت ارشاد

12 المثنوي العربي ص35

13 للمعات ص 367

14 المثنوي العربي ص 17

15 المثنوي العربي ص318

القرآن الكريم.. كيف لا، وكل ما في رسائلنا من المحاسن ما هو إلا من فيض القرآن".¹⁶ " حتى غدت «رسائل النور» طيبة حاذقة لذوي الجراحات من طلاب الحقيقة، واصبحت مُلزِمةً ومُسكِّنةً لأهل الاحقاد والضلالة".¹⁷

هذا التركيب بين العقل وبين القلب قاد بديع الزمان إلى " طريق من الفكر التأملي " الذي كان من أهم عناصر رسائل النور وتنمة ضرورية ل " كتاب الكون ". وفي أثناء حبسه في سجن " أسكي شهر " عام 1935 كتب مقدمة (اللمعة التاسعة والعشرين) - باللغة العربية وسمّاها "رسالة التفكير " أي الجزء أو القسم الذي يجب التفكير فيه :

" لقد امتزج قلبي بعقلي منذ ثلاثة عشر عاماً ضمن انتهاج مسلك التفكير الذي يأمر به القرآن المعجز البيان كقوله تعالى (لعلكم تتفكرون) (لعلهم يتفكرون) (أو لم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض..). (آيات لقوم يتفكرون) وامثالها من الآيات التي تحث على التفكير مثلما يحث عليه حثاً عظيماً الحديث الشريف كقوله (ص) (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)¹⁸ ولقد تواردت في غضون هذه السنوات الثلاثين على عقلي وقلبي ضمن انتهاج مسلك التفكير، انوار عظيمة وحقائق متسلسلة طويلة. فوضعت بضع كلمات - من قبيل الاشارات - لا للدلالة على تلك الانوار، بل للاشارة الى وجودها ولتسهيل التفكير فيها وللمحافظة على انتظامها.

وكنت اردد بيني وبين نفسي تلك الكلمات لساناً بعبارات عربية في غاية الاختلاف. وعلى الرغم من تكراري لها آلاف المرات خلال هذه الفترة الطويلة وانا انتهج هذا التفكير لم يطرأ عليّ السأم ولم يعتر تذوقها النقص، ولم تنتف حاجة الروح اليها. لأن ذلك التفكير لمعات تلمعت من آيات القرآن الكريم فتمثلت فيه حلوة من خصائص الآيات، تلك هي عدم الاستشعار بالسأم والملل والحفاظ على حلاوتها وطراوتها".¹⁹

إذن كان أهم ما يميز هذا الطريق الحديث أو علامته الفارقة مزجه بين العقل وبين القلب وبالطريقة التي علمنا اياها القرآن الكريم في التأمل لتصديق الوجدانية الالهية "فحمداً لله على ان وفق على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وارشاده، حتى بين برسائل النور التي ألفها سعيد الجديد حقيقة: وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد".²⁰

في هذا الصدد يجب الاشارة إلى فرق مهم بين رسائل النور وبين هذه الرسائل الاولى التي كتبها باللغة العربية والتي جمعت فيما بعد في كتاب باللغة العربية تحت عنوان (المثنوي السوري العربي)، فهذه الرسائل العربية الاولى كانت تعبيرا عن الصراع الداخلي بين الروح وبين النفس وكانت " موفقة في فتح طريق خلال القلب والروح " أما رسائل النور فهي " تبين أن "المثنوي العربي" - وهو مشتل رسائل النور وغراسها - قد سعى " كالطرق الخفية الى المعرفة الالهية، في تطهير النفس والداخل من الانسان، فوفق الى فتح الطريق من الروح والقلب. بينما "رسائل النور" - التي هي بستانه اليانع - قد فتحت طريقاً واسعاً الى معرفة الله، بتوجهها الى الآفاق الكونية - كالطرق الجهرية - فضلاً عن جهادها في الانفس، حتى وكأئها عصا موسى - عليه السلام - اينما ضربت فجزّت الماء الزلال.

16 المثنوي العربي ص 206

17 المثنوي العربي ص 31

18 انظر تخریج الاحياء 58/1 وكشف الخفاء 310/1 والاحاديث المشكلة ص 113.

19 للمعات/456-457

20 المثنوي العربي ص 31

وكذا فان "رسائل النور" ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتبسٌ من الإعجاز المعنوي للقرآن يُخرج زلال معرفة الله من كل شيء، فيستفيد السالك في "رسائل النور" في لحظة مالا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة²¹ ..

في بداية رسالة "القطرة" شرح بديع الزمان كيف أنه خلال عمره البالغ آنذاك أربعين عاما وبعد دراسة استغرقت ثلاثين سنة تعلم "أربع كلمات" و "أربع عبارات". والكلمات الاربعة التي همنا هنا هي : (المعنى الحرفي والمعنى الإسمي والنية والنظر " أي زاوية النظر ") ومن هذه الكلمات الاربعة تحمل الكلمتان الاولى والثانية أهمية خاصة لانهما مرتبطتان مع مفهوم " كتاب الكون " بشكل مباشر. ويشرح بديع الزمان هذا باختصار فيقول :

"ان النظر الى ما سواه تعالى، لا بد ان يكون بالمعنى الحرفي وبجساده تعالى، وان النظر الى الكائنات بالمعنى الاسمي اي بحساب الاسباب خطأ. ففي كل شيء وجهان: وجهٌ الى الحق، ووجه الى الكون. فالتوجه الى الوجه الكوني لا بد ان يكون حرفياً وعنواناً للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبتته اليه تعالى. مثلاً: لا بد أن يرى النعمة مرآةً للنعمة، والوسائط والاسبابُ مرايا لتصرف القدرة".²² توجد هنا نقطتان يجب أخذهما بنظر الاعتبار لكي نكون قادرين على الإجابة على سؤال هو موضوعنا في هذا القسم وهو : لماذا كتاب الكون؟ للإجابة على هذا السؤال هناك نقطتان متعلقتان بهذا الموضوع، تتعلق إحداها بالعوامل التي أدت ببديع الزمان إلى اختيار طريق " سعيد الجديد "، والاخرى متعلقة بمكانة بمفهوم كتاب الكون في هذا الصدد.

أولا كانت هناك ظروف ساقط بديع الزمان منذ عمره المبكر للتفتيش عن تغييرات وتجديدات في العديد من المؤسسات الاسلامية، وكان السبب الكامن في أسس معظمها هو سوء فهم العلوم الحديثة ووجود التناقضات الموهومة بين العقل والعلم وبين بعض المسائل الاسلامية والقرآن. بينما كان السبب الرئيسي لضرورة التجديد هو الحاجة إلى تفسير القرآن في ضوء التقدم الحديث للمعارف والعلوم. وبهذه الوسيلة فقط يمكن التصدي للهجوم الموجه للاسلام وإيقافه وإنهائه وعكس سير العالم الاسلامي من الانحطاط إلى الرقي. كانت هذه هي الخلفية التي يجب أن يبدو سعيد الجديد ورسائل النور من خلالها.

فإن أتينا الآن إلى " كتاب الكون " فأنا أرى بأنه يجمع العناصر المختلفة التي شكلت وصاغت طريق " سعيد الجديد"، بل هو يشكل رمزا لهذا الطريق. وهو كإستعارة يملك صفة توضيحية مهمة. وهذا الطريق الجديد "غير المسلوك سابقا" الذي فُتح أمامه قاده من القرآن إلى الكون، وعلمه التطلع إلى الكون والتأمل فيه، وساقه إلى التفتيش عن المعاني في ثناياه باعتباره موجودا هناك ككتاب لقراءته وفهمه. وعلاوة على هذا فإنه بإستخدامه كلا من العقل والقلب في عملية القراءة هذه التي طورها بديع الزمان وجد في كل شيء طريقا إلى الله وطريقا لإثبات حقائق الإيمان الرئيسية الاخرى؛ فشفي بذلك القلوب التي جرحتها الشكوك، وأجاب على الفلسفة ورد هجومها. وكما سنرى فقد جمع الدين والعلم في بوتقة واحدة. ولهذا يُنظر إلى بديع الزمان كواضع لعلم كلام جديد.²³

والنقطة الأخيرة التي يجب الإشارة إليها هي ما يميز طريق سعيد الجديد عن الطرق الصوفية، وما يتعلق بمعجزة القرآن. وحسب بديع الزمان فهذا طريق علوي وسامٍ لـ " أهل الحقيقة " أي هو طريق "

21 المثنوي العربي ص32

22 المثنوي العربي ص105

23 المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسي متكلم العصر الحديث - د. محسن عبد الحميد ص697-701

الإيمان والتصديق " ²⁴ أكثر من كونه طريقاً للصوفية الذي هو طريق " المعرفة والتصور". وبسبب أهميته وكون بديع الزمان يورد أسباب ضرورته فإنني سأتناوله بتعريف مفصل:
"لأن الكلمات:

تصديق وليست تصوراً ²⁵.

وإيمان وليست تسليماً. ²⁶

وتحقيق وليست تقليداً. ²⁷

وشهادة وشهود وليست معرفة. ²⁸

واذعان وليست التزاماً. ²⁹

وحقيقة وليست تصوفاً .

وبرهان ضمن الدعوى وليست ادعاءً

وحكمة هذا السر هي:

ان الاسس الایمانية كانت رصينة متينة في العصور السابقة، وكان الانقياد تاماً كاملاً، اذ كانت توضيحات العارفين في الامور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل.
اما في الوقت الحاضر فقد مدت الضلالة باسم العلم يدها الى اسس الایمان واركانه ³⁰

القرآن وكتاب الكون

لذا نستطيع أولاً أن نقول إن إستعارة " الكتاب" إستعارة ملائمة وبلغية للكون ككل عندما ننظر إليه في ضوء القرآن، وهي تنبثق من النظرة القرآنية للوجود وللموجودات ، ليس لهذه الموجودات ، بل لما تشير وتدل عليه هذه الموجودات. وقد كتب بديع الزمان في رسالة " الآية الكبرى " قائلًا :
" فنظر السائح الى مجموع الكون بمنظار واسع محيط قد استعاره من القرآن الكريم، فرأى ان هذا الكون منظم تنظيماً بديعاً، ومنطوقاً على معاني جمّة وفيرة بحيث يبدو على صورة كتاب سبحانه مجسم، او قرآن رباني جسماني، او قصر مزين صمداني، او بلد منتظم رحماني؛ اذ ان جميع سور ذلك الكتاب وآياته وكلماته، بل حروفه وأبوابه وفصوله، وصحائفه وسطوره، وما يجري على الجميع من «المحو والاثبات» ذي المعنى اللطيف، ومن التحويل والتغيير ذي الحكمة والابداع.. كل ذلك بالاجماع يفيد بدهاء وجود علم بكل شيء، قدير على كل شيء. ويعبر عن وجود باري ذي جلال، ومصور ذي كمال، يرى كل شيء في كل شيء، ويعلم علاقة كل شيء بكل شيء، فيراعيه". ³¹

هناك مظاهر اخرى للكون تكون واضحة عندما نلاحظه من خلال القرآن والتي تجعله مثل كتاب في موضع آخر يقول بديع الزمان بأن " النظام الكامل والتوازن المتناغم " اللذان هما نتيجة للوحدانية " وجعله كتاباً معجزاً بليغاً بحيث أن كل حرف فيه يفيد معاني مائة سطر وكل سطر فيه يعبر

24 ملحق اميرداغ (بالتركية) ص146

25 التصديق: هو ان تنسب باختيارك الصدق الى المخبر. بينما التصور: هو ادراك المعرفة من غير ان يحكم عليها بنفي أو إثبات وفي المنطق: التصديق هو ادراك النسبة التامة الخيرية على وجه الاذعان. والتصور: ادراك ما عدا ذلك..

26 مأخوذة من قوله تعالى: «قل لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا».

27 التحقيق: اثبات المسألة بدليلها بينما التقليد: قبول قول الغير بلا حجة ولادليل..

28 الشهادة: هي اخبار عن عيان. والشهود: هو معرفة الحق بالحق. اما المعرفة: فهي ادراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبقة بجهل بخلاف العلم.

29 الأذعان: عزم القلب، والعزم جزم الارادة.

30 المكتوبات ص486

31 الشعاغات ص182

عن معاني مائة صحيفة، وكل صحيفة فيه تبين معاني مائة باب، وكل باب فيه تفصح عن معاني مائة كتاب. فضلاً عن أن كلا من ابوابه وصحائفه وسطوره وكلماته وحروفه يشير الواحد إلى الآخر ويدل عليه".³²

وفي الحقيقة فإن الوجدانية مفهوم أساسي إذ " بسر التوحيد يُفهم: ان الكون برمته كتاب صمداني ينطوي على معاني عميقة غزيرة، وان الموجودات بأسرها مجموعة مكاتيب سببحانية في منتهى الاعجاز، وان المخلوقات بجميع طوائفها جنود ربانية في غاية الانتظام والهيبة..".³³

الوجدانية تهب الحياة لكل حرف موجود في كتاب الكون وتجعل كلا منه يجيب على حاجة الآخر. كتب بديع الزمان في (اللغات):

" ان سر التسانيد والترابط، المستتر في الكائنات كلها، المنتشر فيها.. وكذا انبعاث روح التجاوب والتعاون من كل جانب.. يبين:

أنه ليست هناك القدرة محيطية بالعالم كله، تخلق الذرة وتضعها في موضعها المناسب.

فكل حرف وكل سطر من كتاب العالم، حي، تسوقه الحاجة، وتعرف الواحد الآخر، فيلي النداء اينما انطلق.

وبسر التوحيد تتجاوب الآفاق كلها، اذ توجه القدرة كل حرف حي الى كل جملة من جمل الكتاب وتبصرها".³⁴

والعلم الالهي " جعل الكون بحكم كتاب كبير يضم رسائل بعدد أجزائه..".³⁵

بينما الحكمة الالهية " جعلته ككتاب كبير، كتاب حكمة بليغة بحيث ان في كل حرف منه مائة كلمة، وفي كل كلمة مئات الأسطر وفي كل سطر الف باب وباب وفي كل باب الوف الكتب الصغيرة.. فشاهد الجمال بلا نظير، جمال الحكيمية الإلهية".³⁶

وعند شرحه لإسم " الحكيم " الذي هو ضمن الإسم الأعظم يشرح بديع الزمان أقسام كتاب الكون كما يأتي :

"ان سطح الارض "صحيفة" من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتباً بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهي تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والاتقان من دون خطأ، كتابة متداخلة، جنباً الى جنب، في آن واحد.

" والبستان "سطر" من هذه الصحيفة، نشاهد فيه قصائد منظومة، وهي تُكتب أمام أعيننا بعدد الازهار والاشجار والنباتات، كتابة متداخلة، جنباً الى جنب، من دون خطأ.

والشجرة النامية الزاهية أوراقها، المفتحة أزهارها، وقد أوشكت أن تخرج أثمارها من اكمامها، هذه "الشجرة" كلمة من ذلك السطر، فهذه الكلمة تمثل فقرة كاملة ذات مغزى تعبر تعبيراً بليغاً عن ثنائها وحدها ودلالاتها على "الحكم" ذي الجمال، بعدد أوراقها المنتظمة وأزهارها المزينة وأثمارها الموزونة، حتى لكأن تلك الشجرة المفتحة الازهار قصيدة عصماء تنغني بالمدح والثناء على آلاء بارئها المصور الجليل".³⁷

32 الشعاعات ص 35

33 الشعاعات ص 14

34 الكلمات - اللوامع ص 841

35 الشعاعات ص 65

36 الشعاعات ص 90

37 اللغات ص 528-529

إذن فهناك علاقة متبادلة بين القرآن وبين الكون؛ فالكون يحتاج إلى القرآن في فهم معناه (أي في فهم معنى الكون)، إذ لا يكتسب معناه الحقيقي إلا بالقرآن. والقرآن بآياته المتعلقة بالظواهر الطبيعية ونظامها وبتغيراتها الغائية والقصدية يقوم بدور المفسر والشارح والترجمان للكون.

"هو الترجمة الازلية لهذه الكائنات، والترجمان الابدئي لألستها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الاسماء المستترة في صحائف السموات والارض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحداثات".³⁸ "والقرآن إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للإستدلال على ذات الله وصفاته".³⁹

"نعم! ان ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والانس الى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الازمنة والعصور. وهو الذي ينظر الى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسن خلقه! ما أجمل خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الانظار الجمال الحقيقي للكائنات".⁴⁰

والقرآن تال للكائنات حيث " يتلو على الانسان ما كتبته القدرة الإلهية في صحائف الكائنات من آيات حتى كأن القرآن قراءة لما في كتاب الكائنات وانظمتها، وتلاوة لشؤون بارئها المصور وفعالها الحكيمه".⁴¹ وهكذا ينقلب الكون إلى " قرآن مجسم"⁴² وهذا يعني أن الكون يعبر عن نفس الحقائق التي يعبر عنها القرآن. ولكن بينما القرآن صادر عن صفة الكلام، وجد الكون من تجلي صفة القدرة⁴³ و"المصنوعات" في الكون، أي الكائنات تشبه " كلمات مجسمة" أو " كلمات ألبست أشكالاً خارجية" و" كلمات القدرة هذه" - مثلها في ذلك مثل كلمات القرآن " فكما ان صفة «الكلام» تعرّف الذات الاقدس سبحانه وتعالى بالوحي والالهامات، فان صفة «القدرة» كذلك تعرّف ذاته جل وعلا بآثارها البديعة التي هي بمثابة كلماتها المجسمة التي تصف قديراً ذا جلال، وتعرّفه باظهارها الكون من اقصاه الى اقصاه بماهية فرقان جسماني".⁴⁴ وبهذا المعنى فإن "الكائنات مفسرات لآيات القرآن الحكيم"⁴⁵ إنه دليل للقرآن. وكتب بيدع الزمان: "ان التجلي الاعظم لاسم الله الحفيظ ونظير الحقيقة الكبرى لهاتين الآيتين مبثوث في الارحاء كافة، يمكنك أن تجده بالنظر والتأمل في صحائف كتاب الكائنات، ذلك الكتاب المكتوب على مسطر الكتاب المبين وعلى موازينه ومقاييسه".⁴⁶

ونظراً لأن الكون قرآن مجسم فإن هدف كتاب الكون هو " أن صانعه وبانيه له من المحاسن والجمال ما يليق به في ذاته وفي اسمائه، بحيث يقتبس العالم الجمال منه. ولأجل ذلك بني هذا العالم على وفق انوار ذلك الجمال، وكتب كالكاتب المتقن البديع ليعبّر عن ذلك الجمال".⁴⁷ فالصور الجميل سبحانه وتعالى الذي كتب هذه الكائنات اظهاراً لكمالاته، وابرازاً لجماله وحقائق اسمائه المقدسة..

38 اشارات الإعجاز ص 22

39 المثنوي العربي ص 72

40 الكلمات ص 143

41 اللمعات ص 196

42 انظر مثلا : المسألة السادسة والتاسعة والحادية عشرة من الشعاع الحادي عشر - الشعاعات.

43 لأجل التفاصيل انظر الآتي.

44 الشعاعات ص 188

45 المثنوي العربي ص 109

46 اللمعات ص 208

47 الشعاعات ص 92

كتبها كتابةً بديعة، لا أبدع منها؛ إذ تدل جميع الموجودات - بما لا يحد من الجهات - على اسمائه الحسنى وعلى صفاته الجليلة وعلى كمالاته المطلقة وتعبّر عنها".⁴⁸ "فان البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا يعرف جمال كماله ويحبّه بألسنة مخلوقاته - ابتداءً من أصغر جزئي الى أكبر كلي - فيعرف سبحانه ذاته المقدسة، ويفهم كماله السامي، ويظهر جماله البديع: بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا".⁴⁹

وظائف كتاب الكون ومعانيه

إذن كمفهوم فإن الوظيفة الرئيسة لكتاب الكون هو القيام بتعليم الذين يقرأونه وتوجيه أنظارهم إلى كتابه وإلى صفاته. وكما قام بديع الزمان بتفسير البيت الآتي :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملائ الأعلى إليك رسائل

"بمعنى : انظر بعين الحكمة الى سطور الحوادث التي كتبها المصور الأزلي في الأبعاد الواسعة لصحيفة العالم.. كي ترفعك سلاسل تلك الرسائل الممتدة من الملائ الأعلى الى أعلى عليي التوحيد".⁵⁰

وبشكل مشابه نجد الايات القرآنية حول الآيات التكوينية.⁵¹

ونرى أن بديع الزمان يقوم في مواضع عديدة في رسائل النور بشرح مثل هذه الايات موضحة معانيها في مستويات متعددة بشكل مشوق ومثير للاهتمام.⁵²

لذا، فكما أن الغاية من جعل الكون بهذا الشكل هو لكي "يقرأ"، كذلك فإن الإنسان ايضا هو عالم مصغر وخارطة مصغرة للكائنات .

نعم، إن الإنسان هو العالم الاصغر وخارطته المصغرة وإنه جزء من هذا الكون. ومع أن هذا المظهر خارج عن موضوعنا هنا، ولكن علينا أن نذكر هنا أن بديع الزمان يشير في مقدمة كتابه (الآية الكبرى) - الذي سنتناوله فيما بعد - بأن الغاية من وجود الإنسان هو معرفة ربه خالق جميع الموجودات وعبادته" : ان حكمة مجي الانسان الى هذه الدنيا والغاية منه، هي : معرفة خالق الكون سبحانه، والايان به، والقيام بعبادته".⁵³ ويقوم بديع الزمان هنا بتفسير وشرح الاية (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)⁵⁴ وهكذا بالتعامل مع الفكر التأملي في الآفاق بالاسلوب الذي شرحناه أعلاه والذي تم رمزه بمفهوم الكتاب كان بديع الزمان يضع أوامر القرآن في صيغة نظامية وعملية لكي يمكن الناس في العصر الحالي من إكتساب " إيمان تحقيقي" في وجه جميع التيارات المادية وجميع التيارات المنحرفة. وهدفي هنا هو بجانب شرح وظائف ومهمات كتاب الكون هو القيام بإثبات ان هذه الطريقة لرسائل النور في الفهم يُعد " فهما معاصرا للقرآن ". أي أنها تشرح الحقائق القرآنية وتعلمها بطريقة مناسبة ومليئة بالمعاني.

48 الكلمات ص 688

49 اللغات ص 530

50 المثوي العربي ص 423

51 انظر الآيات الكريمة مثلا: 20/30، 8-59، 16/55، 21/69، 44، 11،

52 انظر الكلمة الخامسة والعشرين

53 الشعاعات ص 135

54 الذاريات: 56

نستطيع الآن الإنتقال إلى رسالة " الآیة الكبرى " وطريقتها في قراءة كتاب الكون لإستخراج معانيه.

علينا ان نذكر اولاً بأن بديع الزمان أشار في رسالة كتبها في الغالب خلال الفترة الأخيرة من حياته في مدينة قسطنطيني (1943 - 1946) بأنه كان هناك تطور مستمر في " طريقة تفكيره التأملية " خلال السنوات التي كان يكتب فيها رسائل النور. كتب يقول:

" في كل عام او عامين كان ذلك السرّ يغيّر من شكله فينتج إما رسالة عربية او رسالة تركية. وقد دامت تلك الحقيقة وهي تتلبس الاشكال المختلفة ابتداء من رسالة «قطرة» العربية، وانتهاء الى رسالة «الآية الكبرى»، حتى اخذت شكلها الدائمي في «الحزب النوري»⁵⁵. والرسالة الأخيرة كتبها باللغة العربية وبأسلوب وجيز خلال الفترة نفسها تقريباً سارداً ومعدداً عوالم الكون وممالكه ومعبراً عن الحقائق نفسها التي عبّر عنها في " الآیة الكبرى " لتكون مصدراً للفكر التأملية (59). لذا سنلقي نظرة سريعة على رسالة " الآیة الكبرى " التي هي الشكل الأخير لطريقة كشف بديع الزمان لكتاب الكون لكي نعرف الطريقة التي استخدمها لإثبات وجوب الوجود الالهي ووحدانيته، والحقائق الرئيسة التي أثبتتها وشرحها.

تشغل رسالة " الآیة الكبرى " من ناحية الشكل موقعا منفردا في مجموعة رسائل النور لكونها تحتوي على " مشاهدات سائح يستنطق الكون حول خالقه ". وهذا السائح - الذي يلخص اسلوبه في الاستنطاق والإستجواب للوصول إلى الهدف الذي يريد بديع الزمان إنجازه في اسلوب الفكر التأملية في الكون - يقوم بسياحة عقلية في جميع عوالم وممالك الكون لمعرفة شهادتها على الخالق. ويقوم السائح باستجواب هذه العوالم بالتعاقب ، ويُقال له في الجواب بأن عليه أن يشاهد وأن يدرس هذه العوالم. فمثلاً نراه يستجوب الغلاف الجوي فقيل له: انظر إلي! ... تستطيع أن تكتشف من خلالي الموضوع الذي تبحث عنه ... عن الذي أرسلك إلى هنا " لذا أدار بصره في جميع من كلف بمهمات ووظائف مختلفة فرأى الغيوم والسحب والرياح والمطر. ومن خلال مشاهدته لكل " كلمة " من هذه " الكلمات " التفت لعقله وأجرى معه حواراً منطقياً. أرجع بصره إلى الغلاف الجوي وقرأ المزيد من كلماته، وفكر بعقله مرة أخرى ثم وصل إلى النتيجة الآتية:

" ان هذا الهواء الجامد الذي لا حياة له ولا شعور ولا ثبات له ولا هدف، وهو في اضطراب دائم، وهيجان لا يسكن، وذا عواصف وأعاصير لا تهدأ، تأتي الى الوجود وتبرز بسببه - وبصورته الظاهرة - مئات الألوف من الاعمال والوظائف والنعم والامدادات العامرة بالحكمة والرحمة والاعتقان، مما يثبت بداهة: انه ليست لهذه الرياح الدائبة حركة ذاتية، فلا تتحرك بذاتها ابداً وانما يحركها أمر صادر من أمر قدير عليم مطلق وحكيم كريم مطلق، وكأن كل ذرة من ذراته تفهم وتسمع - كالجندى المطيع - كل أمر صادر من لدن ذلك الأمر وتدركه فتتقاد اليه، وتجعل الأحياء جميعها تنفسها لتسهم في ادامة حياتها، وتشارك في تلقيح النباتات ونموها، وتعاون في سوق المواد الضرورية لحياتها، وسوق السحب وادارتها وتسيير السفن التي لا وقود لها وجعلها تمخر البحار وتسيح فيها، وتتوسط خاصة في ايصال الاصوات والمكالمات والاتصالات عبر امواج اللاسلكي والبرق والراديو، وامثال هذه الخدمات العامة الكلية، فضلاً عن ان ذرات الهواء مركبة من مواد بسيطة كالازوت ومولد الحموضة (الاو كسجين) ومع تماثل بعضها لبعض فلا أراها إلا أنها تستخدم بيد حكيمة وانتظام كامل في مئات الألوف من

انماط المصنوعات الربانية.

لذا حكم السائح قائلاً: حقاً مثلما صرّحت به الآية الكريمة:

(وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والارض) (البقرة:164) فان الذي يجري أمره على الهواء ويستعمله في خدمات ووظائف ربانية غير محدودة، بتصريف الرياح، وفي اعمال رحمانية غير محدودة، بتسخير السحاب، ويوجد الهواء على تلك الصورة، ليس إلا ربا واجب الوجود، قادراً على كل شيء، وعالماً بكل شيء ذا جلال واکرام.

ثم يرجع بنظره الى "الغيث" فيرى انه مثقل بمنافع بعدد شأبيبه ويحمل تجليات رحمانية بعدد زخاته، ويظهر حكماً بقدر رشحاته، ويرى "أن تلك القطرات العذبة اللطيفة المباركة تُخلق في غاية الانتظام وفي منتهى الجمال والبهاء وبخاصة البرد الذي يرسل - وينزل حتى صيفاً - بانتظام وميزان، بحيث أن العواصف والرياح العاتية - التي تضرب من هولها الكتل الضخمة الكثيفة - لا تخل في موازنة ذلك البرد ولا انتظامه، ولا تجعله كتلاً مضرة جمعاً بين حباته!. فهذا الماء الذي هو حماد بسيط لا يملك شعوراً، يُستخدم في امثال هذه الاعمال الحكيمة، وبخاصة استخدامه في الاحياء والتروية، وهو المركب من مادتين بسيطتين جامدتين خاليتين من الشعور؛ هما مولد الماء ومولد الحموضة - الهيدروجين والاكسجين - الا انه يستخدم في مئات الآلاف من الخدمات والصنائع المختلفة المشحونة بالحكمة والشعور".⁵⁶ من المحتمل أن ما فكر به السائح حول الهواء وحول وظائفه لا يحتوي على شيء لا نعلمه، ولكن ما قام به هذا التفكير وهذا الحوار هو توضيحه وإشارته إلى أن شيئاً خالياً من الحياة ومن الشعور كالهواء، لا يستطيع القيام بإنجاز كل هذه الوظائف والمهام الشعورية إلا بوجود ذات متصفة بصفات الكمال التي أدرجها وذكرها، وهذا الموصوف بصفات الكمال هو الذي يستخدمه ويسخره لأداء هذه الوظائف. وهذا الامر يبدو واضحاً جداً ومنطقياً ومقنعاً خاصة عندما يُنظر إلى عوالم الخلق جميعاً نظرة شاملة بدرجاته الثلاثة والثلاثين التي زارها السائح. ومع بساطتها الخادعة، فإن زاوية نظر القارئ تتحول - دون أن يشعر - إلى النظرة القرآنية في "قراءة" الكائنات. أي النظر إلى ماذا تدل عليه هذه الكائنات، وإلى المعاني التي تلمح إليها. وبجانب هذا يقود القارئ وبهيمته نفسياً لاستجواب العديد من المفاهيم مثل الصدفة والسببية، اللتان هما من أسس الفلسفة المادية. وعلاوة على هذا فإن قيام بديع الزمان باستخدام معرفته بالعلوم الحديثة في شرح حقائق قرآن الكون وكذلك حقائق القرآن نفسه وبمزجهما في تناغم وتلاؤم - كما فعل أعلاه - يدحض وجود أي تناقض أو تصادم بينهما، فيقدم بذلك مثالا عمليا كيف يمكن اجتماعهما معاً.

هنا علينا أن نتذكر "الكلمة الرابعة" المذكورة في نهاية القسم الاول من هذا البحث من الكلمات الاربعة التي تعلمها "سعيد الجديد" خلال أربعين عاماً من حياته وهي كلمة (النظر) أي زاوية النظر، وهو يعرفها كما يأتي :

"النظر يقبل علوم الاكوان معارف إلهية.. فان نُظر بحساب الاسباب والوسائط فجهالات، وان نُظر بحساب الله فمعارف إلهية".⁵⁷ وتحتوي رسائل النور المئات من الأدلة على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى الحقائق الرئيسة للإيمان كالنبوة والحشر والملائكة والقدر وأسماء الله الحسنى وصفاته والشؤون الالهية في الكون. وكل هذه الحقائق مرتبطة مع بعضها وتشكل كلاً لا يتجزأ. ولزبد من

56 الشعاعات ص 145-146

57 المثوي العربي ص 105

الايضاح فسأقوم بإيراد الأدلة حول " القدر " ببعض التفصيل لأنه متعلق بكتابة كتاب الكون؛ بينما سأتناول المواضيع الأخرى بأمانة مختصرة لكونها متعلقة بشكل مباشر بفكرة أن الكون بمثابة كتاب معروض للقراءة. وهذه " الدروس " المعطاة من قبل كتاب الكون نتيجة لقراءته وفهم معانيه. المعاني الأخرى لكتاب الكون ؛ " أعمدة الإيمان "

كثيراً ما يرد ذكر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في رسائل النور - لكونه الشخص الذي بلغ القرآن الكريم - في معرض الحديث عن كتاب الكون. وفيما يأتي دليل على نبوته مأخوذ من رسالة " الآية الكبرى " :

" كما ان هذا الكون يدل على صانعه و كاتبه، ومصوره الذي اوجده، والذي يديره، ويرتبه، ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنه قصر باذخ او كأنه كتاب كبير او كأنه معرض بديع او كأنه مشهر عظيم، فهو كذلك يستدعي لاحالة وجود من يعبر عما في هذا الكتاب الكبير من معان، ويعلم ويعلم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرس نتائج حر كاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات. أي يقتضي داعياً عظيماً، ومنادياً صادقاً، واستاذاً محققاً، ومعلماً بارعاً، فادرك السائح ان الكون - من حيث هذا الاقتضاء - يدل ويشهد على صدق هذا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصوابه الذي هو افضل من أتم هذه الوظائف والمهمات وعلى كونه أفضل واصدق مبعوث لرب العالمين".⁵⁸

وفي رسالة (الثمرة) نجد دليلاً مشابهاً حول الأنبياء الآخرين . وفي النص الآتي نجد يشير إلى الدور الاساسي الذي لا غنى عنه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كتاب الكون. وأن هذا الكتاب يشير إليه ويشهد عليه :

" هذا الكون كما انه يدل على صانعه و كاتبه ومصوره الذي اوجده والذي يديره وينظمه ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنه قصر باذخ أو كأنه كتاب كبير أو كأنه معرض بديع، او كأنه مشهر عظيم، فهو كذلك يستدعي لاحالة وجود من يعبر عما في هذا الكتاب الكبير من معان، ويعلم ويعلم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرس نتائج حر كاته الوظيفية، ويعلن قيمة ما هيته وكمالات ما فيه من الموجودات.. ويجب عن الاسئلة الرهيبة المحيرة، من اين تأتي هذه الموجودات والى اين المصير ولم لا تلبث هنا بل تمضى وترحل مسرعة؟. ويوضح معاني ذلك الكتاب الكبير ويفسر حكمة آياته التكوينية. أي يقتضي داعياً عظيماً، ومنادياً صادقاً، واستاذاً محققاً، ومعلماً بارعاً، فالكون من حيث هذا الاقتضاء يدل ويشهد شهادة قوية و كلية على صدق النبي الكريم (ص) وصوابه الذي هو افضل من اتم هذه الوظائف والمهمات. وعلى كونه افضل واصدق مبعوث لرب العالمين. فيشهد الكون قائلاً: اشهد ان محمداً رسول الله".⁵⁹

ويورد بديع الزمان أدلة عديدة على الحشر وعلى بعث الاموات، وتستند معظم هذه الأدلة على تجليات الأسماء الحسنی في الكون. ويستطيع القراء مراجعة الكلمة العاشرة والكلمة التاسعة والعشرين في هذا الخصوص. وقمنا أدناه بإيراد دليلين من هذه الأدلة المتعلقة بكتاب الكون. والقسم الثاني متعلق بالقدرة الإلهية:

" اي إن لم يحدث الحشر فان جميع المعاني الحقّة لكتاب الكون التي كتبت بقلم القدر سوف تفسد وتفسد ! وهذا لا يمكن ان يكون مطلقاً، وليس له احتمال قط، بل هو محال في محال. كانكار هذه الكائنات، بل هو هذيان ليس إلا".⁶⁰

ان كل ذي شعور يأتي الى هذه الدنيا المضيف، ويفتح عينه يرى:

قدرة تمسك الكون كله في قبضتها، وتضم علماً ازلياً مطلقاً لا يضل ولا ينسى وحكمة سرمدية لاعبت فيها اطلاقاً وتشمل عناية بالغة، بحيث تجعل كل فرد من افراد جيش الذرات منحذباً جذبة مولوية، فتستخدمها في وظائف شتى، وتجري في اللحظة نفسها الكرة الارضية في دائرة واسعة تبلغ مسافتها اربعة وعشرين الف سنة في سنة واحدة وتديرها كالعاشق المولوى المجذوب بالقانون نفسه.

واذ هي تجلب محاصيل المواسم الى الحيوانات والانسان، تجعل بالقانون نفسه في اللحظة نفسها الشمس مكوكاً ودولاباً وتديرها في مركزها دوران منحذب عاشق ايضاً مسخرة النجوم السيارة التي هي افراد جيش المنظومة الشمسية في خدمات ووظائف جليلة بكمال الميزان والانتظام.

وان القدرة نفسها تكتب بقانون الحكمة نفسها في اللحظة نفسها مئات الالوف من الانواع على صحيفة الارض كافة، والتي كل منها بمثابة مئات الالوف من الكتب، تكتبها معاً ومتداخلة، وبلا التباس ولا سهو، مظهرة بما الوف نماذج الحشر الاعظم".⁶¹

ويعطي بديع الزمان الدليل الآتي حول الإيمان بالملائكة:

"ان قلت: أية آيات كتاب الكائنات تدل على وجود معتبرين و متحيرين و متفكرين و مسبحين من غير الانسان؟ واي سطر من ذلك الكتاب يشير اليه؟

قيل لك: آية النظام في سطر الميزان من صحيفة الحكمة.

الا ترى انك اذا ذهبت الى دار تمثيل - مثلاً - فرأيت في تلك الدار انواعاً كثيرة من الغرائب التي تتحير فيها الانظار، واصنافاً من الملاهى التي تستحسنها الاسماع، واقساماً متنوعة من السحر والشعبذة التي تتلذذ بها العقول والخيال. وهكذا من كل ما يتلذذ به مالا يجد من لطائف الإنسان وحواسه وحسياته، ثم نظرت في ساحة محل التمثيل، فما رأيت الا صبياناً صماً عمياً مفلوجي الحواس والحسيات الا قليلاً منهم. فبالضرورة العرفية تتفطن وتتيقن بأن خلف هذه الحجب والاستار المرسله على وجوه الجدار عقلاء مختلفون في الاذواق والمشارب لهم حواس سليمة جاءوا للتره، يشناقون لكل ما ابدع وشهر في ذلك المجلس، ويرونك والتمثيل من حيث لا ترونهم.

فاذ تفتنت لسر التمثيل، فانظر من دار الدنيا الى هذه المصنوعات. فمنها كزراي مبنوثة، وفُرش مرفوعة، وحلل ملبوسة، وحلية منشورة، وصحائف منشورة.. ومنها ازاهير وثمرات اصطفت؛ تدعو بألوانها وطعومها وروائحها ذوى الحياة واصحاب الحاجات وتدعو بنقوشها وزينتها وصنعتها اولى الالباب وذوى الاعتبار.. ومنها نباتات شمّرت عن ساقاتها لوظيفة خلقتها، وحيوانات قامت على ارجلها لوظيفة عبوديتها، واكثرها لا تشعر بما أودع في أنفسها من المحاسن الرائقة واللطائف الفائقة..

فليست تلك اللطائف والمحاسن لِحَمَلَتِهَا البُهْمُ العُجْمُ، بل ما هي الا لغيرها السميع البصير.. ومنها الى مالا يجد ولا يعد. فمع كل هذه الحشمة الجلابة والزينة الجذابة، وانواع التلطيفات والتوددات، وانواع التحبيبات والتعرفات، واقسام التعهدات والتعمدات واصناف التزيينات والتبسمات واشكال

60 الشعاعات ص 239

61 الشعاعات ص 636-637

الاشارات والجلوات، وغير ذلك من ألسنة الحال التي كادت ان تنطق بالقال مع انه لا نرى ظاهراً في ساحة الدنيا من ذوي الاعتبار والابتصار الا هؤلاء الثقلين اللذين صيرت الغفلة اكثرهم كصبيان صم عمي فلج في ظلمات طاغوت الطبيعة يعمهون. فبالحدس الصادق وبالضرورة القطعية وبالبداهة العقلية، لابد ان يكون الكون مشحوناً من ذوي الارواح المعترين المسيحين مما عدا الثقلين".⁶²

القدر الالهي وكتابة كتاب الكون

الأدلة التي يقدمها بيدع الزمان حول " القدر الالهي " أو " القضاء والقدر " تحوي نظرات مبصرة نفاذة حول استمرار الخلق في الكون، أي حول كتابة كتاب الكون. كتب قائلاً:
" ان كل شئ قبل كونه وبعد كونه مكتوب في كتاب، يصرح بهذا القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة امثال (ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) (الأنعام: 59) وتصدق هذا الحكم القرآني الكائنات قاطبة، التي هي قرآن القدرة الإلهية الكبير، بآيات النظام والميزان والانتظام والامتياز والتصوير والترزين وامثالها من الايات التكوينية.

نعم! ان كتابات كتاب الكائنات المنظومة وموزونات اياتها تشهد على أن كل شئ مكتوب. أما الدليل على أن كل شئ مكتوب ومقدّر قبل وجوده وكونه، فهو جميع المبادئ والبذور وجميع المقادير والصور شواهد صدق. اذ ما البذور الا صنيذقات لطيفة ابداعها معمل (ك.ن) أودع فيها القدر فهيرس رسمه، وتبني القدرة - حسب هندسة القدر - معجزاتها العظيمة على تلك البذيرات، مستخدمة الذرات. بمعنى ان كل ما سيجري على الشجرة من امور مع جميع وقائعها، في حكم المكتوب في بذرتها. لأن البذور بسيطة ومتشابهة مادة، فلا اختلاف بينها".⁶³

" أما الدليل على أن تأريخ حياة كل شئ، بعد وجوده وكونه، مكتوب؛ فهو جميع الثمرات التي تخبر عن الكتاب المبين والامام المبين. والقوة الحافظة للانسان التي تشير الى اللوح المحفوظ وتخبر عنه، كل منها شاهد صادق، وأمانة وعلامة على ذلك.

نعم! ان كل ثمرة تُكتب في نواها - التي هي في حكم قلبها - مقدّرات حياة الشجرة ومستقبلها ايضاً".⁶⁴

" و" الكتاب المبين الذي هو عنوان الارادة والوامر التكوينية. بينما " الامام المبين الذي هو عنوان الامر والعلم الإلهي".⁶⁵ و" سجل للقدر الالهي، وكراس دساتيره".⁶⁶

ومع أن بيدع الزمان ذكر في كتابه (المثوي العربي النوري) عند شرحه لـ " الكتاب المبين " أنه " كتاب العلم " ، إلا أنه ذكر في الهامش الطويل حول هذا الموضوع في مقدمة رسالته حول حركة الذرات بأن كلا التعبيرين الواردين في القرآن هما بمعنى " عنوان العلم الالهي ". ويستنتج أن " الكتاب المبين " هو في الأكثر " دفتر القدرة الالهية وأوامر الخلق".

62 المثوي العربي ص 286-287

63 الكلمات ص 549

64 الكلمات ص 550

65 الكلمات ص 550

66 الكلمات ص 652

لقد اضطرتت إلى الإطالة بعض الشيء في شرح هذا لكي أبين كيف استطاع بديع الزمان بطريقته التخطيطية هذه تحويل موضوع غامض وصعب الفهم إلى موضوع سهل فهمه حالا، كما يقوم في الوقت نفسه بشرح حقائق عديدة أخرى. وكتب في (المثنوي) :

"ان كتاب الكائنات الذي هو "كتاب القدرة" مكتوب على مسطر "الكتاب المبين" الذي هو "كتاب العلم" بشهادة ان هذا النظام والميزان المشهودين المحيطين بأبان بعينهما من هذين الكتابين، ورابطة اتصالهما، وبرزح بينهما، وعنوانان لقبضتي الرحمن: ولا رطب ولا يابس إلا وهما داخلان من باب هذين البابين في الكتاب المبين. ولأجل انه لاخارج في الكون والوجود من البابين بالمشاهدة، فكل شئ داخل في ذلك الكتاب.

"واما القرآن المبين الذي هو كتاب "صفة الكلام" فهو ترجمان الكتابين الغيبي والشهودي، القدرتي والعلمي. وفهرسته البابين وفذلقة القبضتين".⁶⁷

وبسبب العلم الالهي اللاهثائي فإن خلق أو "كتابة" الكائنات يكون سهلا سهولة لانهائية "لأن القدر الإلهي هو نوع من العلم الإلهي، يعين مقدار كل شئ كأنه قالب معنوي له وخاص به، فيكون ذلك المقدار القدرتي بمثابة خطة لذلك الشئ، وبحكم (موديل) النموذج له، فعندما توجده "القدرة الإلهية" توجده على ذلك المقدار القدرتي بكل سهولة ويسر.

فان لم يُنسب إيجاد ذلك الشئ الى مَنْ له علم محيط مطلق ازلي وهو الله القدير ذو الجلال لا تحصل الوفاء للمشكلات فحسب، بل تقع مئات المحالات أيضاً - كما ذكر آنفاً - لانه إن لم يكن هناك ذلك المقدار القدرتي، والمقدار العلمي، يلزم استعمال ألوف القوالب المادية والخارجية للجسم الصغير".⁶⁸

وهكذا يشرح بديع الزمان حركة الذرات وحركة الزمن: "وهكذا باملاء من الإمام المسبين، أي بحكم القدر الإلهي ودستوره النافذ، تكتب القدرة الإلهية - في إيجادها - سلسلة الموجودات - التي كل منها آية - وتوجد وتحرك الذرات في لوح «الحق والاثبات» الذي هو الصحيفة المثالية للزمان.

أي ان حركات الذرات انما هي اهتزازات وحركات أثناء عبور الموجودات، من تلك الكتابة، ومن ذلك الاستنساخ، ومن عالم الغيب، الى عالم الشهادة، أي من العلم الى القدرة".⁶⁹

إن عالم الشهادة، أو كتاب الكون في جريان وفي تغير مستمرين. وهو يتابع كلامه فيقول: "أما «لوح الحق والاثبات» فهو سجل متبدل للوح المحفوظ الأعظم الثابت الدائم، ولوحة «كتابة ومحو» في دائرة الممكنات أي هو سجل للأشياء المعرضة دوماً الى الموت والحياة، الى الفناء والوجود. بحيث ان حقيقة الزمان هو هذا. نعم! فكما ان لكل شئ حقيقة، فحقيقة ما نسماه بالزمان الذي يجري جريان النهر العظيم في الكون هي في حكم صحيفة ومداد لكتابات القدرة الإلهية في لوح الحق والاثبات".⁷⁰

وعند قيامه بشرح هذه المفاهيم القرآنية وبيان استمرار الخلق ودوامه في اسلوب واضح ومتدفق، يقوم بديع الزمان في الوقت نفسه بالإجابة أيضا على "الفلاسفة وعلى فلسفتهم الفارغة". وفي كل نقطة يتناولها يشير إلى سهولتها وضرورتها وعلى عبث واستحالة شرحها بالعلم أو بالفلسفة المادية. ويقول حول حركة الذرات:

67 المثنوي العربي ص 279

68 للنعمة ص 295

69 الكلمات ص 652

70 الكلمات ص 652

" ان تحولات الذرات مربوطة بالمصادفة. حتى اتخذوها قاعدة مقررة لدساتيرهم كلها، جاعلين منها مصدر إيجاد للمخلوقات الربانية! فالذي يملك ذرة من الشعور يعلم يقيناً مدى بُعدهم عن منطق العقل، في اسنادهم هذه المخلوقات المزدانة بحكم غزيرة، الى شئ مختلط عشوائي لا حكمة فيه ولا معنى".⁷¹

وحسب رأي بديع الزمان: " أن الفلاسفة وارباب الضلالة والغفلة! قد شعروا بوجود اللوح المحفوظ للقدرة الإلهية الفاطرة، وأحسوا بمظاهر ذلك الكتاب البصير للحكمة الربانية، وارانها النافذة في الاشياء، ولمسوا صورته ونماذجه، إلا أنهم اطلقوا عليه اسم (الطبيعة) - حاش لله فاحمدوا نوره".⁷²

ولكن ما نطلق عليه تعبير واسم " الطبيعة : هي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الإعتبارية الجارية في الكون"⁷³ الذي هو الشريعة الكبرى للخلق، وهو متمم للشريعة المعروفة والصادرة عن صفة الكلام والتي تنظم سلوك وتصرفات الإنسان "فهي شريعة فطرية، تجل للإرادة الإلهية في ادارة الاكوان.. ولكن يسمى خطأ بالطبيعة"⁷⁴

وبهذه الأدلة حول الوحدانية الإلهية والحقائق الأخرى كالقدرة والعلم والارادة الإلهية ذكر بديع الزمان أنه سدد ضربات مميّة على مفاهيم الطبيعة والسببية والصدف التي تشكل قاعدة العلوم المادية والفلسفة المادية، وقال: " لقد اقتحمت قلاعهم الحصينة التي يسمونها العلوم الطبيعية او الحديثة".⁷⁵

إن القيام بايراد جميع أدلته وبراهينه خارج مهمة هذا البحث. وبعد أن رأينا كتابة الكتاب أعلاه علينا أن نضيف بعض التفاصيل القليلة لكتاب الكون لكي نتذكر أن مواد وفقرات الاوامر للقوانين المعروفة باسم " الشريعة التكوينية " قد أطلق عليها خطأ اسم " قوانين الطبيعة ". وهذه القوانين لا تملك وجوداً ذاتياً أو مادياً ، بل هي مجرد تجليات الارادة الإلهية ، وهي موجودة كعلم فقط وهوتعبير عن قيام القدرة الإلهية بالعمل.وكما قال بديع الزمان في تعريفه المشهور للطبيعة :

" ان الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون - ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة- إن كان لا بد أهما مالكة لوجود حقيقي خارجي فان هذا الوجود هو:

صنعة صانع ولن يكون صانعاً، وهو نقشٌ ولن يكون نقاشاً، ومجموعة احكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً، وفطرة منفعة ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعة قوانين ولن يكون قادراً، ومسطر ولن يكون مصدرأ".⁷⁶

النتيجة

إن مفهوم كتاب الكون لم يكن من مبتدعات بديع الزمان ، ففي كتابه (المحاكمات) وهو من أوائل كتبه المطبوعة يقتبس بعض السطور عن " الشيخ تحسين"⁷⁷ والتي تبدأ بـ (إن الأبعاد الشاسعة

71 الكلمات ص 655

72 الكلمات ص 652

73 المتنوي العربي ص 425

74 الكلمات - اللوامع

75 المكتوبات ص 90

76 للسمعات ص 283

77 اصله من ألبانيا درس العلوم الحديثة في باريس ثم اصبح مديراً لدار الفنون (الجامعة) باستانبول. عالم فاضل وشاعر رقيق الآانه لم يطبع له ديوان. توفي سنة 1291 رومي.

غير المتناهية صحائف كتاب العالم).⁷⁸ ولكن الشيء الأصيل الذي جاء به هو وضعه لطريقة جديدة أو منهجية جديدة في في شرح القرآن مستندة الى العقل والى المنطق والى التفكير التأملى في الكون والذي رمز له باستعارة " الكتاب ". لقد كان هذا في الحقيقة سمة بديع الزمان، لأنه لم يكن " مبتدعا " بل " مجددا ". ولكونه يأخذ إلهامه من القرآن مباشرة فإن منهجيته في شرح " قرآن الكون " يسرت القيام بشكل موضوعي بتقديم المئات من الأدلة المقنعة حول حقائق تعليمات القرآن، وفتح بهذا طريقا أصيلا وصادقا وشاملا لعبادة الله ومعرفته. وهذا الطريق مفتوح للجميع ويخاطب الجميع مهما كان وضعهم، ويشير في كل شيء إلى الطرق المؤدية إلى الله. ذلك لأن بديع الزمان يرى أن تيارات عديدة ضللت العالم الحديث، وأن " الإيمان الحقيقي " - وفي مقدمته الإيمان بالوحدانية الالهية - هو أهم ما يحتاجه الانسان المعاصر حاليا.

وعندما يشرح بديع الزمان كلمات وصفحات كتاب الكون مستعملا معلوماته العلمية الشخصية، يبين لنا ليس عدم وجود أي تناقض او تضاد بين العلم وبين الدين بل إننا إن استهدفنا معرفة معاني هذه الكلمات ومعاني هذه الصفحات بالطريقة القرآنية فستزداد معرفتنا بالله . وكل قسم تقريبا من رسائل النور يعلمنا كيف ننظر وكيف " نقرأ " الكون المادي.

وحسب ما يقول بديع الزمان فلا يوجد هناك تقريبا من لم يتأثر بالافكار الزائفة للفلسفة الغربية وبزاوية النظر الزائفة الغربية للعلوم. حتى أنه قال : " وحيث ان الاعتراضات والشبهات المتراكمة حول الإيمان والقرآن - التي يثيرها فلاسفة اوروبا منذ ألف سنة - قد وجدت سبيلها الى قلوب المؤمنين، فيهاجمون بما اهل الإيمان، ويحاولون بذلك زعزعة الاركان اليمانية التي هي اساس السعادة الابدية، ومدار الحياة الباقية، ومفتاح الجنة الخالدة. فلا بد إذا - وقبل كل شيء - أن نزيد إيماننا قوة ونحوّله من إيمان تقليدي الى إيمان تحقيقي ".⁷⁹ ويظهر من هذا ضرورة وأهمية قيام الانسان بتأمل مفهوم القرآن المتعلق بالإشارة إلى الشؤون الالهية في الكون وفي الإنسان، وأن يستخرج الدروس منه لاسيما في هذا العصر الذي هو عصر العلم والمادية. وهكذا فإن مفهوم كتاب الكون والامور التي أشرنا إليها في هذا المجال يتعلق بهذه المسألة في المقام الاول. وفي رايي يمكن عد هذا تناولا عصريا للقرآن يشرح مفهومها للقرآن متوجها للعصر الحديث في الاخص .

ترجمة: اورخان محمد علي

كيف يعمل القرآن في هذا العصر ؟ في رؤية بديع الزمان النورسي

1. د. عبد المعطى محمد بيومى^P

سؤالان مهمان يبرزان في بداية هذا البحث :

1- كيف يعمل القرآن في أى عصر ؟

2- كيف يعمل القرآن في عصرنا ؟

وفي ضوء الإجابة عن هذين السؤالين تتحدد ملامح الوجود الإسلامى فى شتى نواحي الحياة ، باعتبار القرآن أساساً لهذا الوجود ، كما تتحدد ملامح النهضة الإسلامية باعتبار القرآن هو لب هذه النهضة وجوهرها .

وتقاس رؤية كل مجدد إسلامي ، وكل مصلح فى هذه الأمة بمقياس ما يحقق فى مشروعه الفكرى التجديدي من تحديد طريقة عمل هذا الكتاب فى عصره .

وبالنسبة للسؤال الأول : فإن القرآن لا بد له من رجال يستنبطون منه طرق العمل ، ويوجهون بما يستنبطون حركة الحياة .

وقد نبه الرسول ρ فى وقت مبكر إلى أن الكتب السماوية لا تعمل وحدها بل لابد من وجود علماء .

فقد ورد أن النبى ρ لما قال (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) قال أعرابي : يا نبى الله . كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها أبناءها

ولد فى كفر الشيخ (مصر) سنة 1940. وعين مدرسا فى سنة 1972 فى كلية أصول الدين بالعين- قسم الفلسفة والعقيدة ثم استأذنا مساعدا فيها وفى سنة 1983 نال مرتبة الأستاذ. نشر مقالات فى المجلات العربية وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر ما بين سنة 1978-1980 ومن قبل فى سنة 1978-1980 وكذا فى سنة 1989-1990 تولى رئاسة مجلة منبر الإسلام التى تصدرها وزارة الأوقاف. له ما يقرب من 30 كتابا منشورا . وحاليا عميد كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة.

ونساءنا وخدمنا ؟ رفع رأسه وهو مغضب فقال: هذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يتعلموا منها فيما جاءهم أنبياءهم⁽¹⁾.

قال الإمام المناوي (فأفاد أن بقاء الكتب بعد رفع العلم بموت العلماء لا يغني من ليس بعالم شيئاً⁽²⁾).

فبقاء الكتب لا يعمل وحده ولا يغني عن وجود حركة علمية تجديدية يقوم بها عالم أو فرد أو مجموعة علماء يترجمون النص إلى واقع ويجعلون الكتاب حركة فعالة في الواقع
أما بالنسبة للسؤال الثاني كيف يعمل القرآن في هذا العصر ؟ وكيف يستعيد دوره الفاعل في حياة المسلم المعاصر وحياة الأمة الإسلامية لتستعيد هي بالتالي - دورها الرائد، ومن ثم تعود الحضارة الإسلامية مرة أخرى رائدة للحضارة الإنسانية وموجهة للواقع العالمي نحو الحق والخير. فإن هذه المسألة والجواب عليها تمثل أهمية قصوى لا بالنسبة للمسلم فقط ولا للأمة الإسلامية فحسب ، وإنما هي حاجة ملحة للعالم كله في هذا العصر الذي أصبح فيه العدل والسلام أملاً بعيد المنال ، وأصبح مستوى الحياة اللائق بالإنسان أملاً مفقوداً ، ولم يعد ثمة صوت إلا للقوة المطاعة أو للظلم القوي ولم يبق أمل في سيادة القيم الخيرة لأن العالم تسوده الحضارة المادية ومن ثم بات العالم يبحث عن منهج جديد يقوده إلى وجهة جديدة تحقق أماله في السلام والعدل والرخاء والحياة الإنسانية الكريمة.
وقد أخذت هذه المسألة اهتماماً كبيراً لدى مجددى العصر من أبرزهم الشيخ " جمال الدين الأفغانى " .

فقد كان متفائلاً بوجود القرآن بين الأمة ودوام حفظه .

قال : (إن القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ومن أصابه نصيب من مقتته فهو ممقوت)⁽³⁾ .

كما قال (ما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنفعة من كل سبيل ، لا يقنن لها وجهاً ولا يخصص لها طريقاً، فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، وهوضهم إلى مقاضاة الزمن ما سلب منهم)⁽⁴⁾ .

ومع هذا التفاؤل ببقاء القرآن ودوام وجوده صمام أمان للأمة وضمان لها من الانحلال والاندثار فقد كان يرى أن القرآن - مع وجوده - لا بد أن يبعث في اذهان المسلمين لأنه لا سبيل إلى النهضة إلا ببعث القرآن وجعله أساساً لهذه النهضة دون غيره.

روى الشيخ "عبد القادر المغربي" في كتابه جمال الدين الأفغانى.. ذكريات وأحاديث هذا الحوار بينه وبين السيد جمال الدين نقتطف منه هذا الجزء ، حيث أبدى المغربي تفاؤله لما رأى على المسلمين بعض مظاهر التقدم..

قال المغربي :

(1) رواه أحمد والبيهقي والترمذي وابن ماجه من ابن عمرو بن العاص وهو صحيح قال أحمد قال ذلك في حجة الوداع وفي الباب عن أبي أمامة أيضا وزاد فقال إعرابي يا نبي الله كيف يرفع العلم.... إلخ أنظر المناوي. فيض القدير شرح الجامع الصغير ج2 ص 274 . دار المعرفة بيروت لبنان .
(2) المناوي . ج2 ص 274 .
(3) العروة الوثقى ص 113
(4) نفس المصدر ص 69 .

فلم يعجب السيد هذا التفاؤل المرح الذي أنسه في كلامي وقال : (إننا معشر المسلمين إذا لم يؤسس هوضنا وتمدنا على قواعد ديننا وقرآنا فلا خير فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . فقلت له : ولكن ألا ترى أيها السيد فرقا بين حالنا اليوم وحالنا قبل ثلاثين سنة ، من حيث الرقي والأخذ بأسباب العمران مما يصح لنا القول بأننا قد تقدمنا تقديماً ملموساً .

فقال : إن ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط .

قلت له : ولماذا ؟

فقال : لأننا في تمدنا هذا مقلدون للأمم الأوروبية وهو تقليد يجزنا بطبيعتنا إلى الإعجاب بالأجانب ، والاستكانة لهم، والرضى بسلطتهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها، رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعف، واستئناس لتحكم الأجنبي ."

فقلت : (وما هي الطريقة القويمة التي ترى أن نسلكها للتوصل إلى التجديد الصحيح حسب اعتقادك) ؟

قال : (لا بد من حركة دينية جديدة) (5) .

فإذا تركنا مؤقتاً تتبع أبعاد الحركة الدينية عند جمال الدين الأفغان تلك التي كان يراها منهجاً يسلكه الذين يريدون أن يعمل القرآن في هذا العصر وكان يراها أساساً لهذا العمل القرآني في واقع المسلمين لنلقى النظر إلى نفس الغاية عند النورسي .

وندرك هنا منذ أول وهلة أن هذه المسألة - كيف يعمل القرآن في هذا العصر؟- قد احتلت مساحات واسعة ومتعددة في فكر بديع الزمان النورسي وفي كل ما ترك من رسائل بحيث لا تكاد تخلو رسالة من رسائله من الإشارة إلى أهمية القرآن كأساس للنهضة لا بديل عنه للمسلمين بل وللعالم المعاصر .

فقد لفت " بديع الزمان" النظر إلى القرآن الكريم من وجوه عديدة ، لكن الشيء المهم الذي كان استوقف انتباهه خاصة ، فيما يتعلق بعصرنا ، هو المقارنة التي عقدها بإحساسه بمحاجات العصر بين الشريعة المودعة في القرآن ، والشريعة المادية في الحضارة الغربية لأننا لا يمكن أن نتوصل إلى الطريقة التي يعمل بها القرآن في عصرنا دون أن نعرف وجهة هذا العصر والسمة الغالبة عليه، والحضارة المسيطرة على شتى نواحي الحياة والعمل فيه .

وكما فعل جمال الدين الأفغان في محاولة تخفيض التقدم الإسلامي من غواشي الحضارة الغربية بما يؤدي إليه من ضياع الهوية الإسلامية الذاتية وصبغ المسلمين وحياتهم بصبغة الخمول بدلاً من صبغة السلطة والغلب .

بل أن "النورسي" يستعمل نفس الصيغة في المقارنة بين الشريعة القرآنية والشريعة المادية .

فهو يسمي الشريعة القرآنية بأنها " الشريعة الفطرية الإلهية الكبرى "

فهى إلهية لأنها من الله .

وهى فطرية لأنها الوحيدة التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية .

ويوضح "النورسى" أنها هي نفسها الشريعة التي تحكم نظام العالم " الطبيعة " هي قوانين الله في الكون. وهي قوانينه في الإنسان ، كما أنها دقيقة منتظمة مطردة في الكون فلا بد أن تكون على نفس الدقة والانتظام والاطراد في الإنسان ولكن الماديين الذين يواجهون الطبيعة ظنوا المصنوع صانعاً، والمكتوب كاتباً والمخلوق خالقاً .

يقول : (إذا قلت : ما هذه الطبيعة التي زل إليها أهل الضلال والغفلة فدخلوا الكفر والكفران ، وسقطوا إلى أسفل سافلين ، بعد أن كانوا في مرتبة أحسن تقويم؟)
الجواب : أن ما يطلقون عليه " الطبيعة " هو : الشريعة الفطرية الإلهية الكبرى التي هي عبارة عن مجموع قوانين عادة الله، والتي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها.

فمن المعلوم أن القوانين أمور اعتبارية ، لها وجود علمي ، وليس لها وجود خارجي، ولكن الغفلة والضلالة أدت بهم إلى الجهل بالكاتب والنقاش الأزلي ، لذا ظنوا الكتاب والكتابة كاتباً، والنقش نقاشاً، والقانون قدرة، والمسطر مصدرأ، والنظام نظاماً، والصنعة صناعاً.

فكما إذا دخل إنسان جاهل لم ير الحياة الاجتماعية ، إلى معسكر عظيم وشاهد حركات الجيش المطردة وفق الأنظمة المعنوية، تخيل أنهم مربوطون بحبال مادية، أو دخل مسجداً عظيماً وشاهد الأوضاع الطيبة المنظمة للمسلمين في صلاة الجماعة أو العيد، تخيل أنهم مربوطون بروابط مادية.. كذلك أهل الضلالة الذين هم أجهل من ذلك الجاهل يدخلون هذا الكون الذي هو معسكر عظيم لمن له جنود السموات والأرض سلطان الأزل والأبد أو يدخلون هذا العالم الذي هو مسجد كبير للمعبود الأزلي، ثم يذكرون أنظمة ذلك السلطان باسم الطبيعة، ويتخيلون شريعته الكبرى المشحونة بالحكم غير المتناهية أما كالقوة أو كالمادة صماء عمياء جامدة مختلطة فلا شك أنه لا يقال عن مثل هذا إنه إنسان بل حتى لا يقال له حيوان وحشى ؛ لا بد ما تخيله طبيعة يفرض أن يمنح كل ذرة وكل سبب قوة قادرة على خلق الموجودات كلها ، وعلماً محيطاً بكل شئ ، بل عليه أن يمنح كل ذرة وكل سبب جميع صفات الواجب الوجود ، وما ذلك إلا محال في منتهى الضلالة ، بل هذيان نابع من بلاهة الضلالة).

وهكذا انتهى إلى أن الذين يلتفتون من حقيقة الشريعة الفطرية التي تنظم الكون أو الطبيعة والإنسان من كونهما قوانين الله إلى حسابهم أنها قوانين الطبيعة المادية وظنهم أنها تفعل وحدها يضطرون إلى قبول آلهة بدون حصر.

يقول (إن الذي يؤله الطبيعة يضطر إلى قبول آلهة غير متناهية لإنكاره الإله الواحد ، فضلاً عن أن كل إله قادر على كل شئ وضد كل إله ومثله،.. وذلك ينتظم الكون ، والحال أنه لا موضع للشريك قطعاً بدءاً من جناح ذبابة إلى المنظومة الشمسية ولو بمقدار جناح الذباب ، فكيف يتدخل في شئونه تعالى غيره.. نعم إن الآية الكريمة [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسيحان الله رب العرش عما يصفون] تقطع أساس الشرك والاشتراك ببراہين واقعية (6) .

ويلح "النورسى" على التأكيد على هذه الشريعة الفطرية ، في الكون والإنسان بوصفها قانون الله المنضبط ويستخرج هذه الدلالات من القرآن الكريم وكل ما ورد فيه في مجال الاستدلال بدليل العناية ، بوصف هذا الدليل " النظام المندمج في الكائنات " إذ النظام خيط نيط به المصالح والحكم لجميع

الآيات القرآنية التي تعد منافع الأشياء وتذكر حكمها إنما هي نساخه لهذا الدليل ومظاهر لتجلى هذا البرهان ، إذ النظام المرعى به المصالح والحكم ، كما يثبت وجود نظام. كذلك يدل على قصد الصانع وحكمته وينفي من البين وهم التصادف الأعمى والاتفاقية العمياء " (7) .

وبعد أن يستخرج هذه الدلالات على قوانين الله في الكون من أمثال قوله تعالى [**الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم**] فإنه يوظفها توظيفا عقليا بارعا للقضاء على أساس الإلحاد والشرك في عصرنا ليكشف الإعجاز في فعل القرآن في هذا العصر الذي طغت فيه عادة المادة بحسبانها أزلية في مادتها وحركتها .

وهنا يفرق النورسي بين النظر القصدى والنظر التبعي لقوانين الله في الطبيعة فالنظر التبعي نظير تسطحي يقف عند النظر إلى الأعراض الخارجة وقد يكون بعضها غير موجود إلا في الوهم أما النظر القصدى فإنه يتغلغل إلى العلة الحقيقية .

ففي الجواب عن تساؤل: كيف يعتقد الإنسان أمثال ضلالات أزلية المادة وحركتها يقول: (إن النظر التبعي قد يرى المحال ممكناً ، كالمستهل الذي يرى الشعرة البيضاء من أهدابه هلال العيد) (8) . كما يقول : (إن الإنسان إذا نظر نظراً سطحيًا تبعياً إلى الأمر الباطل المحال ولم ير العلة الحقيقية احتمل صحته عنده ، إلا أنه إذا نظر إليه قصداً وبالذات وتحراه مشترياً له لا يمكن أن يقبل شيئاً من تلك المسائل التي يطننون بها) يقصد الطنطنة بأزلية المادة أو الطبيعة وادعاء أن الأسباب الخارجية الظاهرة في الطبيعة فاعلة بنفسها دون وجود خالق يسخرها .

ففي الجواب عن تساؤل فما هي (الطبيعة والنواميس والقوى التي يدمدمون بها ويسلون أنفسهم بما ؟) يقول: (إن الطبيعة مسطر لا مصدر . ومطبوعة لا طابع وقوانين لا قوة ، بل إنما هي شريعة فطرية إلهية أوقعت نظاماً بين أفعال أعضاء جسد عالم الشهادة، كما أن الشريعة محصل وخلاصة قواعد الأفعال الاختيارية ، ونظام الدولة مجموع الدساتير السياسية. فكما أن الشريعة والنظام أمران معقولان اعتباريان، كذلك الطبيعة أمر اعتباري ملخص بعبادة الله الجارية في خلقه وأما توهم وجودها الخارجي فكتوهم الوحشي الذي يرى فرقة العسكر يتحركون بانتظام، وجود أمر خارجي ربط بينهم . فما كان وجدانه وحشياً يتخيل الطبيعة بسبب الاستمرار موجوداً خارجياً مؤثراً .

الحاصل : أن الطبيعة صنعة الله تعالى وشريعته الفطرية ، وأما نواميسها فمسائلها، وأما قواها فأحكام تلك المسائل (9) .

وهكذا اتخذ النورسي القرآن سلاحاً يضرب به مفهوم الطبيعة المادى ليقوضه من أساسه حتى شغل ذلك حيزاً كبيراً من إنتاجه في رسائله وفعلت كلماته المستخرجة من الآيات القرآنية فعلها في المقارنة بين مفهوم القوانين الألهية الكامنة في الطبيعة وبين المفهوم المادى في الطبيعة ، أو في القوانين الذاتية المزعومة في الطبيعة فأردت مقارنة تلك مفهوم الطبيعة قتيلاً في مائة موضع وموضع وإلى غير رجعة كما قال .

لكن لماذا كل هذه الجهود الفائقة في دحض مفهوم الطبيعة المادى ؟

(7) كليات رسائل النور جـ 5 إشارات الإعجاز ص 150 .

(8) المصدر نفسه جـ 5 إشارات الإعجاز ص 152

(9) نفس المصدر جـ 5 إشارات الإعجاز ص 154

لأن النورسى بنظرته العميقة وفهمه الدقيق الموجل في الحضارة الغربية أدرك أن هذه الحضارة تقوم أساساً على المفهوم المادى للطبيعة ، ومن ثم فإن هذا المفهوم يسرى فيها سريان الدم في العروق قد تتجلى المادية على كل أحكامها وأنظمتها فعرف الرجل أنه لكي يعمل القرآن في هذا العصر لابد دحض الحضارة الغربية بكل مفاهيمها المادية ليؤسس من القرآن على أنقاض هذه الحضارة فلسفة جديدة في تجديد الحياة الإسلامية العصرية .

وهنا تبرز الصلة بين الأفغانى والنورسى في هذا الموقف من الحضارة الغربية وأساسها المادى ولذا نرى جمال الدين الأفغانى يهتم غاية الاهتمام بهذه المسألة فيؤلف - على قلة تأليفه بل ورغبته من التأليف وانصرافه عنه هى رسالته التى تكاد تكون وحيدة في الرد على الدهرين ويناقش نفس الموضوع مفهوم الطبيعة المادى بوصفه العقبة الكاداء أمام إرساء المنهج القرآنى وإعادة عمله بفاعلية في المجتمع الإسلامى.

على أية حال مضى النورسى يؤسس فلسفته القرآنية على أسس ثلاث هى صلب التجديد المنشود للحياة الإسلامية وهى

1- إنقاذ الإيمان

2- احياء الشعائر الآسلمية

3- اقامة الشريعة الآسلمية لتنفيذ أحكام القرآن

لأن القرآن يعطى الأهمية القصوى لهذه المسائل الثلاثة والنقطة الجديدة بإلقاء الضوء عليها هنا في فكر بديع الزمان النورسى هى تأكيده المستمر على أن العمل على تغيير أوضاع المسائل الثلاث: الإيمان، الشريعة، الحياه كلها دفعة واحدة، في الأرض كافة لا يوافق سنن الله الجارية في البشرية لذلك كان من الضروري البدء بإنقاذ الإيمان .

يقول: (نعم إنه ينبغي لهذا العصر من مجدد له شأن ليقوم بتجديد الدين والإيمان وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتحديد الحقوق العامة والسياسة الإسلامية. ولكن أهم تلك الوظائف هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية فهى أجل وأعظم تلك الوظائف الثلاث لذا تبقى دوائر الشريعة والحياة الاجتماعية والسياسية في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بالنسبة لدائرة الإيمان)⁽¹⁰⁾ .
كما يقول: (إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان، وأجل وظيفة، هو إنقاذ الإنسان لإيمانه والسعى لإمداد إيمان الآخرين بالقوة)⁽¹¹⁾ وكان النورسى يرى أن إنقاذ الإيمان، إنما يكون بأمرين في غاية الأهمية وهما :

1 - دحض الفلسفة المادية.

2 - إرساء عقيدة التوحيد وتخليصها من الشوائب.

فبالنسبة لدحض الفلسفة المادية: رأينا ما فعله في إبطال المفهوم المادى للطبيعة وكان ينادى بإجراء تحقيقات علمية واسعة لحفظ أهل الإيمان من شرور الضلالات والشبهات التى يثيرها أعداء الإيمان ويتطلب أن يقوم بهذه المهمة أناس من طلاب العلم المخلصين الذين تجردوا من هموم الدنيا ومشاغلاها واتصفوا اتصافاً تاماً بالإخلاص والوفاء والترابط بحيث يكونون جيشاً معنوياً قوياً.

(10) نفس المصدر السابق .

(11) الكليات . الملاحق ص 259

فهو يتحدث عن وظائف المهدي الذي يصفه بأنه الشخص المعنوي للجماعة السامية لآل محمد ع بأما وظائفها ثلاثة هي إنقاذ الإيمان ، وإحياء الشعائر الإسلامية والوحدة الإسلامية، وإقامة الشريعة الإسلامية وتحقيق وتنفيذ أحكام القرآن .

وعندما يتحدث عن الوظيفة الأولى التي نحن بصدد شرح موقفه منها يقول: (إنقاذ الإيمان، وذلك بالقيام بدحض الفلسفة والفكر المادي قبل كل شيء لانتشار أفكار الماديين والطبيين انتشار الطاعون في البشرية واستيلاء العلوم والفلسفة المادية على الأذهان)⁽¹²⁾

ويستورد قائلاً: (إن حفظ أهل الإيمان من شر الضلالة، يقتضى إجراء تحقيقات علمية واسعة وأبحاث متواصلة دائبة، التي تتطلب التجرد من هموم الدنيا ومشاغلبها تجرداً كاملاً ولا يسمح الوقت والأحوال لقيام السيد المهدي بمهمته هذه بالذات لأن أعباء الحكم في الخلافة الإسلامية لاتدع وقتاً للانشغال بتلك الأمور، فلا بد ان تنهض - بتلك المهمة - قبله طائفة في جهة ما وسيجعل السيد المهدي ما دونه هؤلاء من أثر منهاجاً معداً له، فيكون قد أدى تلك المهمة على أتم وجه) .
إن القوة التي تستند إليها هذه الوظيفة وجيشها المعنوي، ماهم الا طلاب يتصفون اتصافاً تاماً بالإخلاص والوفاء والترابط، فمهما كانوا قلة فهم يعدون بقوة الجيش وأهميته معني⁽¹³⁾ . ولعله يعنى بذلك مجموعة رسائل النور .

أما بالنسبة للخطة الثانية من خطتي إنقاذ الإيمان بعد دحض الفلسفة المادية فهي:
إرساء عقيدة التوحيد وتخليصها من الشوائب التي تكدر صفو التوحيد وتشوه عقيدة الإنسان المسلم في ربه.

ولذلك نرى النورسي يقف بالتحليل والشرح لأوائل سورة البقرة لتحقيق مقاصد القرآن وأولها التوحيد ليحمي الإيمان بالله الواحد ثم النبوة والحشر والعدل.
فهذه المقاصد الأربعة هي عبارة عن عناصر القرآن الأساسية فكما تترأى هذه المقاصد الأربعة في كله - كما يقول - كذلك قد تتجلى في سورة سورة. بل قد يلمح بها في كلام كلام، بل قد يرمز إليها في كلمة كلمة، لأن كل جزء فجزء والمرآة لكل فكل متصاعداً، كما أن الكل يتراءى في جزء فجزء متسلسلاً⁽¹⁴⁾ .

ويطبق فكرته في تضمين كل سورة من القرآن هذه المقاصد الأربعة بالتطبيق على سورة الفاتحة حيث يبين اشتغالها على التوحيد والنبوة والحشر والعدل.

وإذا كان النورسي يعدل على إنقاذ الإيمان بوصفه الوظيفة الأساسية للمهدي فانه يضع له الوظيفتين الأخريين ليكتمل بهما عمل القرآن وتجديد الدين إذ يرى أن الوظيفة الثانية بعد إحياء الإيمان هي:

- 1 - إحياء الشعائر الإسلامية في المجتمع باسم الخلافة المحمدية.
 - 2 - إنقاذ البشرية من المهالك المادية والمعنوية والغضب الإلهي مستنداً إلى وحدة العالم الإسلامي.
- أما الوظيفة الثالثة فهي إقامة الشريعة الإسلامية وتنفيذ أحكام القرآن بعد أن لحق العطب - كما يقول - بتطبيق كثير من أحكام القرآن وبعد أن عطلت القوانين الشرعية بعض التعطيل من جراء

(12) نفس المصدر ص 314 .

(13) نفس المصدر نفس الصفحة ص 314 .

(14) الكليات ج 5 إشارات الاعجاز ص 24 .

الانقلابات التي حصلت بمرور الزمن. ويشير النورسي هنا إلى أن المهدي لا بد أن ينال تأييد المؤمنين ويحظى بتوحد المسلمين معه ليشدوا أزره ولعل إشارته الأقوى بضرورة تحمل التضحيات حين يخص ملايين الأبطال المضحين من آل البيت بكثرة وقوة في كل عصر من العصور⁽¹⁵⁾ وبالرغم من تكامل المنهج التجديدي لدى النورسي من هذه الوظائف الثلاثة: إنقاذ الإيمان - إحياء الشعائر - تنفيذ أحكام القرآن. فانه يعول أهمية كبيرة على الوظيفة الأولى التي تبدو بعدهاوظيفتان الأخريتان في المرتبة الثانية والثالثة بالرغم من أن إقامة الحكم الإسلامي في الأرض بجيوش الخلافة المحمدية والوحدة الإسلامية تظهر أوسع ألف مرة من الوظيفة الأولى عند الناس. ولاسيما لدى العوام ولدى أرباب السياسة وبالتراث في أفكار عصرنا حتى إذا ما أطلق هذا الاسم " المهدي " على شخص ما فإن هاتين الوظيفتين هما اللتان تتبادران إلى الذهن دون الأولى مما يوحي ذلك الاسم إلى معنى سياسي⁽¹⁶⁾.

وتركيز النورسي على إنقاذ الإيمان في بداية منهجه التجديدي أمر يتمشى تماماً مع السنة النبوية في إرساء دعائم الإسلام منذ الانطلاقة الأولى للدعوة على يد رسول الله ﷺ فقد عمل ﷺ طوال وجوده في مكة في بدء الدعوة على إرساء الإيمان أولاً وترسيخ العقيدة كأساس لبناء الإنسان المسلم الذي يتقبل بإيمانه إقامة الشعائر وتنفيذ أحكام القرآن، ولم يبدأ ﷺ بتنظيم إقامة الشعائر وتطبيق أحكام القرآن التفصيلية للحياة بكافة جوانبها الإنسانية والاجتماعية والسياسية وما يتعلق منها بكافة العلاقات الدولية إلا بعد استقرار المجتمع الإسلامي في المدينة. والذى يطالع القرآن الكريم يرى بداهه - كما لاحظ النورسي - بآيات الإيمان كأساس لقبول الأعمال وجعل الإيمان هو أساس ومنطلق الرسالة. ومن ثم يجب أن يكون منطلق العمل بالقرآن. ولعل الجماعة الأولى حول الرسول ﷺ كانت دافعة وهو ينظر إلى مجموعة طلاب النور ولذلك راح يشهم رسائله التي تتضمن منهج تجديده وطريقته لكي يعمل القرآن في هذا العصر .. يقول:

(ولما كانت حقيقة الأمر هكذا فإن انقاذ الإيمان وارشاد الناس عامة إلى الإيمان ارشاداً تحقيقياً بل جعل إيمان العوام تحقيقياً هو أولى وظائف السيد المهدي وأرفع مسلك من مسالكه، والذي يقتضى اسم المهدي والمرشد بمعناه وحقيقته، ولأن طلاب النور يرون هذه الوظيفة بتمامها في رسائل النور تظل الوظيفتان الثانية والثالثة عندهم بالنسبة لهذه الوظيفة الأولى، لذا ينظرون إلى الشخص المعنوي لرسائل النور - وهم محقون - نظرة نوع من المهدي، وحيث أنهم يظنون في مؤلف رسائل النور - هذا الضعيف - انه يمثل ذلك الشخص المعنوي الناشئ من ترابط طلاب النور، لذا يطلقون أحياناً ذلك الاسم عليه أيضاً⁽¹⁷⁾ .

ولا يعترض النورسي على طلابه كثيراً عندما يطلقون عليه اسم المهدي لهذا الزمان بالمعنى الذي صوره هو لهم بأنه الشخص المعنوي الذي يحمل أعباء الرسالة ووظائفها الثلاث فيتحدث عن اطلاقهم اسم المهدي عليه قائلاً (وعلى الرغم من أن هذا التباس وسهو، الا أنهم ليسوا مسئولين، لأن الأفرط

(15) الكليات جـ 7 الملاحق ص 315 .

(16) المصدر نفسه ص 83/6 .

(17) المصدر نفسه ص 315 .

في حسن الظن سار منذ القدم ولا يعترض عليه. وأنا كذلك أنظر إلى حسن الظن المفترض لأخوتي هؤلاء، نظر دعاء وأمنية وترشح لكمال عقيدة طلاب النور، فلا أعترض عليهم كثيراً⁽¹⁸⁾ ومع انه رحمه الله كان يتمنى هذا المقام - مقام المهدي - الذي ينقذ الإيمان لأنه إذا كان المهدي من آل البيت فانه يرى النسبة معنوية وليس تطلعه إلى هذا المقام تطلع حب للحصول على المقامات والشرف وذيوع الصيت وإلا فهو يتجرد من كل ذلك ولا يرغب فيه . يقول : (ان الخبراء في محكمة دنيزلي قالوا عن طلاب النور حسب اعتقاد بعضهم: إذا ادعى سعيد النورسي أنه المهدي، فان جميع طلابه يصدقونه برحابة صدر) .

وأنا قلت لهم في المحكمة : (انني لا أستطيع أن أعد نفسي من آل البيت حيث الانساب مختلطة في هذا الزمان بما لا يمكن تمييزها، بينما مهدي آخر الزمان سيكون من آل البيت، رغم أنني بمثابة ابن معنوي لسيدنا على كرم الله وجهه وتلقيت درس الحقيقة منه، وإن معنى من معاني آل محمد ع يشمل طلاب النور الحقيقيين، فأعد أنا أيضاً من آل البيت، الا أن هذا الزمان هو زمان الشخص المعنوي . وليس في مسلك النور - بأية جهة كانت - الرغبة في الأنانية وحب الشخصية والتطلع إلى المقامات والحصول على الشرف وذيوع الصيت، وكل ذلك مناف لسر الإخلاص تماماً.

فأنا أشكر ربى الجليل بما لانهاية له من الشكر، انه لم يجعلني أعجب بنفسى ، لذا لا اتطلع إلى مثل هذه المقامات الشخصية التي تفوق حدى بدرجات لا تعد ولا تحصى، بل لو أعطيت مقامات رفيعة أخرى فإني أجد نفسي مضطرة إلى التخلي منها لئلا أحل بالإخلاص الذى في النور " يقول " هكذا قلت للخبراء وسكتوا).⁽¹⁹⁾

وربما يبدو من الغرابة بمكان أن نرى النورسي يفسح مثل هذه المساحة للحديث عن المهدي وسط حديثه عن إنقاذ الإيمان التي هي المهمة الأولى للمجدد في هذا العصر أو كما يسميه المهدي. لكننا لانرى ذلك غريباً بل ربما نراه الهاماً من الله عز وجل لهذا الرجل في هذه المسألة. وذلك أن انقاذ الإيمان بوصفه عملاً من أعمال القرآن بل هو المهمة الأولى لهذا الكتاب المبين الخالد كما يبدو ذلك من أوائل آياته التي تصف المتقين في أول آية منه [**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ..**]⁽²⁰⁾ . فان الكتاب لا يقوم وحده بهذه المهمة ما لم ينتدب لها رجل أو رجال في كل عصر فان وجود المصاحف وحدها لم تغن شيئاً رغم وجودها مع اليهود والنصارى كما أخبر رسول الله ع لأن الرجال الذين يتعلمون من الصحائف أو المصاحف أو - على حد قول رسول الله ع - ويعلمون غيرهم لم يكونوا موجودين بين اليهود والنصارى.

من هنا كان الحديث عن الرجل أو الرجال الذين ينتدبون في كل عصر مع المصاحف شيئاً طبيعياً في نفس السياق.

ولما كانت السنة تتحدث عن أن الرجل الذى ينتدب لآحياء الإيمان وانقاذه في آخر الزمان هو المهدي فقد وقف للحديث عن المهدي وان كنا نرى انه تجاوز براعة فائقة - الخلاف حول صحة

(18) نفس المصدر نفس الصفحة ص 315 .

(19) نفس المصدر السابق 316 ، 317 .

(20) سورة البقرة 1 ، 2 ، 3 .

أحاديث المهدي ورواياتها وتحديد شخصيته فلم يتناول هذه المسألة تناوياً حديثياً أكاديمياً يخرج منه بنتيجة حول.

هل تثبت صحة الأحاديث التي تتحدث عن ظهور المهدي آخر الزمان؟.

ومن ثم يكون هناك مهدي بالفعل سيظهر حقاً آخر الزمان.

أو لا تثبت هذه الروايات ولن يكون هناك مهدي أصلاً.

لم يشغل النورسي نفسه بالمسألة على هذا النحو الموجود في كتب الحديث ودراسات المعنيين بمركات الإصلاح مثل الاستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، والأستاذ محمد فريد وجدى.

ولكى يتضح لنا منهج النورسي وقيمه العلمية في هذا الشأن لابد أن نقف أمام جهود الباحثين لتكشف المقارنة بينه وبينهم عن لب الفكرة التي وصل إليها وأثرها في أئمة المجتمع الإسلامي وتأثيرها في طريقة عمل القرآن في هذا العصر عند النورسي.

والمتبع لفكرة المهدي يجد في البداية عدة ملحوظات.

1 - أن القرآن الكريم خلا من الحديث عن فكرة المهدي المنتظر الذي يأتي آخر الزمان ليغير الجور إلى عدل والخوف إلى أمن.

2 - أن صحيح البخاري ومسلم خلا كل منهما من أى رواية عن حديث صريح ربما يكون الرسول ع قد أخذ به.

3 - أن الأحاديث التي وردت في شأن ظهور مهدي آخر الزمان انما بدأت في سنن أبي داود ثم ظهرت لدى ابن ماجه، والترمذى، والنسائي، واحمد بن حنبل .

4 - انما وردت بروايات يتناقض بعضها مع بعض أحياناً وأقرب رواية وأوضحها إلى ما نحن فيه مارواه أبو داود وأحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ع قال (لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم ابيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (21).

وتقابل هذه الرواية لهذا الحديث رواية لحديث آخر رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ع قال " لايزداد الأمر الا شدة، ولا الدنيا إلا ادباراً ، ولا الناس الا شحاً ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدي الا عيسى بن مريم".

قال الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (22)

(في الزوائد قال الحاكم في المستدرک بعد أن روى هذا المتن بهذا الاسناد هذا حديثه يعد في أفراد الشافعي، وليس كذلك فقد حدث به غيره ، وقد بسط السيوطى القول فيه، وخلاصة ما نقل عن الحافظ عماد الدين بن كثير قال : هذا حديث مشهور بمحمد بن خالد الجندى الصنعاني المؤذن وشيخ الشافعي، وروى عنه غير واحد أيضاً ، وليس هو بمجهول بل روى عن ابن معين أنه ثقة) (23).

وإن أمكن الجمع بين هاتين الروايتين كما قال الإمام القرطبي أن هذا لا يتنافر مع أحاديث المهدي لأن معناه تعظيم شأن عيسى بن مريم عليه السلام على المهدي أى أنه لا مهدي إلا عيسى لعصمته وكمالها وهذا لا يناقض وجود المهدي كقولهم لا فتى إلا على فهل يمكن الجمع بين الروايات التي تقول

(21) المناوى فيض القدير شرح الجامع الصغير ص 322 مجلده دار المعرفة ، بيروت.

(22) سنن ابن ماجه . ج2 1340 - 1341 كتاب الفتن باب شدة الزمان حديث 4039 .

(23) ابن ماجه ج2 1366 - 1367 كتاب الفتن باب خروج المهدي حديث 4083

بعضها أن المهدي من أهل المدينة ، وبعضها القائل أنه من آل عبد المطلب أو من آل عباس ، وإذا أمكن الجمع بين الروايات إنه من آل البيت ومن آل عبد المطلب ومن آل عباس ومن المدينة فما علاقة ذلك بظهور السفين الذي يقتله المهدي وهل سيظهر المهدي من بلاد المغرب ويملك جبل السديلم والقسطنطينية ويسير إلى أنطاكية .. كل ذلك في سبع أو تسع سنين ؟ كما أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدرى أن النبي p قال (يكون في أمتي المهدي إن قصر سبع وإلا فتسع) كل ذلك جعل ابن خلدون يقول هذه الأحاديث لا يسلم معها إلا القليل أو الأقل منه (24).

كما جعل الأستاذ محمد فريد وجدى بعد أن استعرض الأحاديث الواردة في المهدي يقول : (والناظرون فيها من أولى البصائر لا يجدون في صدورهم حرجاً من تنزه رسول الله p من قولها ، فإن فيها من الغلو والخبط في التواريخ والإغراق في المبالغة والجهل بأمور الناس والبعد عن سنن الله المعروفة ما يشعر المطالع لأول وهلة أنها أحاديث موضوعة تعمد وضعها رجال أهل الزيف أو المشايخين لبعض أهل الدعوة من طلبة الخلافة في بلاد العرب أو المغرب) (25) .

ثم يأتي " بدیع الزمان النورسی " فيغضى عن ذلك كله ويسلك طريقاً خاصة به في إثبات وجود المهدي لكن لا على أساس أنه شخص معين بل على أساس أنه الشخص المعنوي الذي لا يلغى الاعتراف " بالسيد المهدي الكبير الذي سيأتي آخر الزمان " على حد قوله ولا يتعارض مع وجود مهديين " معنويين " قبل هذا المهدي الكبير مما يجعل الفكرة مفتوحة لظهور من يحملون مسئولية المهدي وعدم الانتظار السلبي وترك المفاصد حتى يأتي المهدي " الكبير " لإصلاحها مما يتعارض مع الإسلام .

وهذه فكرة إيجابية بناءة تحسب للنورسی وهي أكثر تطابقاً مع فكرة المجدد يقول: إن قسماً ممن لهم شأن وإخلاص من طلاب النور يظنون بك - وبإصرار إنك المرشد العظيم من آل البيت الذي يأتي في آخر الزمان وأنت مهما تبالع في تجنب هذا فهم يزيدون إلحاحاً وإصراراً في ظنهم . وأنت بدورك تصر على رفض فكرهم وتتحرز كثيراً منه . فلا جرم أنهم يملكون حقيقة ولدبيهم حجة قاطعة وأنت كذلك تستند إلى حقيقة ولكنك لا توافقهم في ظنهم ، وهو تضاد نطلب حله على كل حال .

وأنا أقول جواباً لهذا الأخ الفاضل الذي ينطوي سؤاله على كثير من المسائل أن أولئك النوريين الخواص يملكون حجة ، إلا أنها تحتاج إلى تعبير وتأويل من جهتين. -الأولى : لقد أشرت عدة مرات في رسائلي إلى أن السيد المهدي الذي يمثل الشخص المعنوي للجماعة السامية لآل محمد p له ثلاث وظائف : فنحن نرجو من رحمة الله تعالى أن تقوم جماعة وطائفة السادة الكرام بتلك الوظائف إن لم تقم القيامة فجأه ولم تضل البشرية ضلالاً بعيداً (26) .

ثم يقول [ويظهر أنها الجهة الثانية من تأويل حجة النوريين في إطلاق إسم المهدي على بدیع الزمان] ولأن طلاب النور يرون هذه الوظيفة بتمامها (يعنى الوظيفة الأولى للمهدي كما يقول وهي

(24) تاريخ ابن خلدون 555 - 575 ط2

(25) محمد فريد وجدى دائرة معارف القرن العشرين جـ10 ص 480 دار المعرفة ، بيروت .

(26) كليات رسائل النور جـ7 الملاحق ص 314 .

(27) المصدر السابق ص 315 .

(28) نفس المصدر السابق .

(29) نفس المصدر السابق .

(30) نفس المصدر السابق .

إنقاذ الإيمان) في رسائل النور تظل الوظائف الثانية والثالثة عندهم بالنسبة لهذه الوظيفة الأولى . لذا ينظرون إلى الشخص المعنوي لرسائل النور وهم محقون - نوعاً من المهدي وحيث أنهم يظنون في مؤلف رسائل النور- هذا الضعيف - أنه يمثل ذلك الشخص المعنوي الناشئ من ترابط النور لذا يطلقون أحياناً ذلك الاسم عليه " (27).

ولعلنا نسأل هنا : ما الذي دفع النورسي إلى فكرة الشخص المعنوي المتمثل في جماعة يحملون تبعة عمل القرآن وفقهه في هذا العصر ويؤدون الوظائف التي يؤديها المهدي الكبير -على حد قوله- بحيث يحملون مسئولية المهدي مستمرة لا تتوقف على مجيئه بحيث لا تترك الأمة أمراضها الاجتماعية والدينية والسياسية منتظرة مجي المهدي بل ينوب عنه " المهديون المعنويون" في كل عصر . على أنه يرى أنه لا بد من توحيد هذه الجماعة مع بعضهم البعض ومع الأمة بحيث يكون اتفاقهم قوة.

وهناك يبدو تأثيره بمنطق العصر الذي يعتمد العمل الجماعي الذي تنصهر فيه قوة الفرد مع قوة إخوانه بحيث يشكلون قوة تزيد بالقطع عن قوة الفرد .

يقول : " إن هذا الزمان لأهل الحقيقة زمان جماعة وليس زمان الشخصية الفردية وإظهار الفردية والأنانية ، فالشخص المعنوي الناشئ من الجماعة ينفذ حكمه ويصمد تجاه الأعاصير ، فأجل الحصول على حوض عظيم ينبغي للفرد إلقاء شخصيته التي هي كقطعة من الثلج في ذلك الحوض وإذابتها فيه وإلا ستذوب حتماً تلك القطعة وتذهب هباءً وتفتت الفرصة من الاستفادة من ذلك الحوض أيضاً ! . إنه لمن العجب وموضع أسف أنه بينما يضيع أهل الحق والحقيقة القوة العظمى في الاتفاق ، بالإختلاف فيما بينهم ، يتفق أهل النفاق والضلالة للحصول على القوة المهمة فيه ، رغم مخالفته لمشربهم فيغلبون تسعين بالمائة من أهل الحقيقة مع أنهم لا يتجاوزون العشرة بالمائة " (28).

ويشير بديع الزمان هنا إلى أن هذه المجموعة التي تمثل المهدي أو طلاب رسائل النور الذين يحملون تبعة عمل القرآن وفعله في هذا العصر ، خاصة الوظيفة الأساسية في إنقاذ الإيمان ، يتطلب منهم معاملة السياسة معاملة تقوم على المهادنة في مرحلة إنقاذ الإيمان حتى لا يحرك العمل السياسي السياسيين الماديين لينتبهوا لإفئال إنقاذ الإيمان وحتى لا تكون الحقائق القرآنية أداة لتيارات أخرى أو لقوى أخرى .

يقول : " ولأجل ألا تكون هذه الحقائق الإيمانية القرآنية أداة لتيارات أخرى ولقوى أخرى وللحيلولة دون التهوين من شأن الحقائق القرآنية التي هي بقيمة الألباس إلى قيمة قطع زجاجية متكسرة ولأجل الإيفاء بالخدمة المقدسة التي هي إنقاذ الإيمان إيفاءً تاماً ينفر طلاب رسائل النور الخواص الصادقون نفوراً شديداً من السياسة حتى أن أحاكم هذا وأنتم تعلمون و منذ ثمانية عشر عاماً لم أراجع الحكومة ولو مرة واحدة ، وذلك لئلا أمس السياسة والحياة الاجتماعية رغم حاجتي إليها " (29).

وهنا لا بد من المقارنة بين بديع الزمان في تركيا والأستاذ الإمام محمد عبده في مصر وموقفه الرافض للانخراط في العمل السياسي لاستخلاص دلالة اشتراكهما في هذا المنهج والتركيز على التفرغ لإنقاذ الإيمان كمرحلة أولى لإنقاذ الأمة الإسلامية وعدم الانشغال بغيره من المشاركات أو المداخلات السياسية ، ولا بد من لفت النظر إلى ما جرت به المداخلات السياسية على أعمال المصلحين في هذا العصر من عواقب واضحة على دعوتهم وجهودهم .

ويبدو أن تجربة الرجلين والظروف المتشابهة التي أحاطت بكل منهما ساقتهما إلى هذا الموقف ، بل تنقل عن كل منهما كلمات متشابهة إلى حد استخدام حروف وكلمات تكاد تكون واحدة .
فبينما نرى الأستاذ الإمام محمد عبده يقول في نهاية تجاربه السياسية المريرة التي أدت إلى نفيه وإبعاده عن البلاد وإجهاض كثير من أنشطته " لعن الله السياسة وساس ويسوس وسائس ومسوس وما اشتق من هذه المادة " إذا بنا نرى " بديع الزمان " يقول: " أعوذ بالله من الشيطان والسياسة " .
وبديع يزيد المسألة تبريراً فيقول :-

" إن أعظم قوة لرسائل النور تجاه معارضيهما الكثيرين هي الإخلاص فالرسائل مثلما لا تكون أداة لأي شيء كان في الدنيا لا تهتم أيضاً بالتيارات التي تنبني على مشاعر الانحياز والموالاة ولا سيما للتيارات السياسية وذلك لأن عرف الانحياز يفسد الإخلاص ويغير لون الحقيقة، حتى أن السبب في تركي السياسة منذ ثلاثين سنة هو أن عالماً صالحاً قد أثنى بجرارة على منافق يحمل فكراً ينسجم مع فكره السياسي ، وفي الوقت نفسه انتقد عالماً صالحاً يحمل أفكاراً تخالف أفكاره انتقاداً شديداً حتى وصمه بالفسق بمعنى أن عرق المنافسة لو اختلط معه التحيز السياسي لنشأت أخطار عجيبة مثل هذا ولهذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان والسياسة فتركت السياسة من ذلك الوقت " (30) .

فإذا ما اكتمل للداعية انقاذ الإيمان في ضوء القرآن الكريم فإن بديع الزمان يترجم مقاصد الشريعة من القرآن ، ويقارن بينها وبين الشريعة المادية .

وهنا نجد من الضروري أن هذه الدعوة لها ما يؤيدها من منهج القرآن في مقاومة التفكير المادي ومحاولة صبغ الحياة بغير صبغة الله [ومن أحسن من الله صبغة] .

والشيء البديع حقاً ما نراه من تأكيد " بديع الزمان " أن المستقبل للحقيقة الإسلامية وإن تسترت تحت التراب زمناً ، فستسود قارات العالم وسيجتلي الإسلام - كما يقول - عرش الحقائق والمعارف ، وستسطع شمس الإسلام التي حجبتها سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم .

وبهذا المنهج الذي يستخلصه النورسي من القرآن الكريم ليقدّم للعصر طريقة لعمل القرآن في هذا العصر عن طريق نخبة من طلاب النور المخلصين يأمل " النورسي " بواسطتها أن ترى البشرية واقعاً جديداً يستظل بظل القرآن الذي يحقق الإيمان القوي والشريعة العادلة والحياة الكريمة .

مؤسسة الإيمان المبينة على القرآن

في رسائل النور

د. عبدالله عبد الرحمن الخطيب[⊕]

المقدمة:

تحقق الإمام النورسي أن العصر الذي يعيش فيه هو عصر آخر الزمان الذي طغت فيه الضلالة واستولى فيه الكفر وجرت أحكامه على الملأ حيث يدرس الكفر المطلق في عالم البشرية ، وانتشر النفاق في العالم الإسلامي ، ولم تعد تكفي أدلة علماء الكلام السابقين للرد على ذلك الكفر المنظم. أدرك الإمام النورسي رضي الله عنه بثاقب نظره وبإلهام الله تعالى له أنه لا بد من سلاح جديد يبطل الكفر وينقضه كعصا موسى عليه السلام ، ويقطع دابر مؤسسات الضلالة وحججهم كذي الفقار ، وينقذ أهل الإيمان من الشك والكفر والضلالة. علم الإمام النورسي بشكل قطعي أنه شخص مرشح من جانب الإرادة الإلهية لخوض معركة الإيمان في هذا الزمان ، فألهمه الله تعالى طريقاً قصيراً وسهلاً إلى الحقيقة والإيمان وإلى درجة عين اليقين وحق اليقين . استنبط هذا الطريق من القرآن الكريم وبراهينه العقلية بحيث يثبت حقائق الإيمان كلها فيقتنع العقل ويطمئن القلب.

1- طرق إثبات الحقائق الإيمانية وتطبيق ذلك في رسائل النور:

بين الإمام النورسي رضي الله عنه أن إثبات الحقائق الإيمانية يكون بطريقتين:
الأول : دراسة الحقائق الإيمانية في القرآن الكريم (لسان عالم الغيب.)
الثاني : دراسة حقائق الإيمان والتوحيد في الكون . فالقرآن الكريم يقرأ الكون بدقة متناهية ، والكون يفسر لنا القرآن الكريم.
قام الإمام النورسي ، بالرد على كل أنواع وأصناف الكفر والشبهات التي تراكمت طوال ألف عام منطلقاً من الطريقتين السابقين معتمداً في ذلك على البراهين العقلية المستنبطة بالإلهام الإلهي من القرآن الكريم ومن كتاب الكون العظيم.

⊕ الأستاذ المساعد في علوم القرآن والتفسير في جامعة الشارقة

وكانت طريقة الإمام النورسي في تقرير الحقائق أنه يأتي بالدليل النقلى ثم يستنبط منه الأدلة العقلية التي فيه وذلك لإثبات الحقيقة التي تتكلم عنها الآية . ثم يفصل الموضوع تفصيلاً متدرجاً من الدليل القوي إلى الأقرى ، قارئاً كتاب الكون الكبير ومستدلاً به على الحقائق الإيمانية التي يتطرق إليها . وهذا هو المنهج القرآني.

ولبيان تطبيق هذا المنهج السابق ذكرت أمثلة متعلقة بإثبات حقائق الإيمان (التوحيد ، والحشر ، والنبوة).

(أ) إثبات التوحيد مع مثال:

أبطل الإمام النورسي في رسالة الطبيعة (اللمعة الثالثة والعشرين) أسس الكفر الطبيعي بتسع محالات من بين محالات كثيرة ، وأثبت أن الكون لا يمكن أن تخلقه طبيعة عمياء صماء بكماء ، وأن هذا الكون تستحيل فيه الصدفة . فإسناد الخلق للطبيعة هو خرافة صنعها الإنسان الضال عن منهج الله تعالى.

أما في المقالة الثانية والعشرين فقد أثبت الإمام النورسي في مقامين مؤلفين من اثني عشرة لمعة واثني عشرة برهاناً ، أثبت الوجدانية الإلهية ، والواحدية ، والأحدية ، ووجوب وجود الله تعالى ، كما وأثبت وجوده سبحانه وتعالى باستنطاق عالم الذرة ، وهو في كل ذلك يسرد الدليل النقلى والأدلة المبثوثة في كتاب الكون¹.

أما في المقالة الثانية والثلاثين فهو يشرح قوله تعالى : { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } الأنبياء: 22 ، فيثبت بالآية استحالة الشريك لله تعالى ، وأنه لا مجال لأي شريك أن يتدخل في صنع أي شئ في الكون ، ابتداء من الذرة ووصولاً إلى الشمس ، ومن جناح الذباب إلى قناديل السماء . ويرهن في هذه المقالة على أن الطبيعة متأثرة لا مؤثرة ، منفعة لا فاعلة ، وأنها فطرة إلهية وصنعة ربانية ، وأثبت في هذه المقالة أيضاً أن الفلسفة الأوروبية المعادية للدين ما هي إلا ضلالة².
وأما في الموقف الثاني من المقالة الثانية والثلاثين فقد أثبت فيه وجود الله تعالى بادئاً من السموات والنجوم وصولاً إلى الذرات.

وقد فتح الإمام النورسي في المقالة الثلاث والثلاثين ثلاثاً وثلاثين نافذة في معرفة الخالق سبحانه وتعالى . كما أنه أثبت في اللمعة الثلاثين من كتاب اللمعات قضية التوحيد ووجوب الوجود بدلائل كثيرة ومتنوعة استنبطها من الأسماء الإلهية الستة : (فرد ، حي ، قيوم ، حكم ، عدل ، قدوس) . ثم لخص الإمام النورسي جميع هذه المراتب الإيمانية في ثلاث وثلاثين مرتبة في رسالته البديعة التي عرّف نظيرها وهي : (الآية الكبرى) . ولعل موضوع إثبات الإيمان والتوحيد في رسائل النور يشكل ثلث المجموعات الخمسة التي ألفها الإمام النورسي وهي : (المقالات) (الكلمات) ، والمكتوبات ، واللمعات ، والشعاعات ، والمثنوي العربي) ما عدا إثباته الموضوع السابق (التوحيد) في رسائله العربية التي سبقت تأليف هذه المجموعة والتي منها:

تفسير إشارات الإعجاز ، وسائر الرسائل الصغيرة التي جمعت في كتاب سمي " الآثار البديعية"
مثال : يقول الإمام النورسي في المقالة الثانية والعشرين (اللمعة الثانية) شارحاً لقوله تعالى : { الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل . له مقاليد السموات والأرض } الزمر 62-63 ، وقوله

1 - سعيد النورسي ، الكلمات ، ترجمة احسان قاسم الصالحى ، (القاهرة ، 1992/1413) ، ط2 ، ص: 326-346
2 - المرجع السابق نفسه ، ص: 714-717

تعالى {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون} يس 83 ، مثبتاً أن كل موجود من الموجودات يدل على وجوب وجود الله سبحانه ويشهد على وحدانيته وهذا نص كلامه : اللمعة الثانية:

"تأمل في بستان هذه الكائنات ، وانظر إلى جنان هذه الأرض ، وأنعم النظر للوجه الجميل لهذه السماء المتألقة بالنجوم تر أن للصانع الجليل جل جلاله ختماً خاصاً بمن هو صانع كل شيء على كل مصنوع من مصنوعاته ، وعلامة خاصة بمن هو خالق كل شيء على كل مخلوق من مخلوقاته ، وآية لا تقلد خاصة بسطان الأزل والأبد على كل منشور من كتابات قلم قدرته على صحائف الليل والنهار وصفحات الصيف والربيع.

سنذكر من تلك الأختام والعلامات بضعا منها نموذجاً ليس إلا ، انظر ممالا يخصى من علاماته إلى هذه العلامة التي وضعها على (الحياة):

" إنه يخلق من شيء واحد كل شيء ، ويخلق من كل شيء شيئاً واحداً ، فمن ماء النطفة بل من ماء الشرب يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان وأعضائه ، فهذا العمل لا شك أنه خاص بقدير مطلق القدرة. /ثم إن تحويل الأطعمة المتنوعة - سواء الحيوانية أو النباتية - إلى جسم خاص بنظام كامل دقيق ونسج جلد خاص للكائن وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة لا شك أنه عمل قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم .

نعم إن خالق الموت والحياة يدير الحياة في هذه الدنيا ، إدارة حكيمة بقانون أمرى معجز ، بحيث لا يمكن أن يطبق ذلك القانون وينفذه إلا من يصرف جميع الكون في قبضته ، وهكذا إن لم تنطفيء جذوة عقلك ولم تفقد بصيرة قلبك فستفهم أن جعل الشيء الواحد كل شيء بسهولة مطلقة وانتظام كامل ، وجعل كل شيء شيئاً واحداً بميزان دقيق ، وانتظام رائع ، ومهارة وإبداع ، ليس إلا علامة واضحة ، وآية بينة لخالق كل شيء وصانعه".³

ب- إثبات الحشر والآخرة مع مثال:

لعل هذا الموضوع يأتي في رسائل النور في الدرجة الثانية بعد التوحيد ، فقد خصص الإمام النورسي له مقالتين كاملتين وهما : المقالة العاشرة ، والمقالة التاسعة والعشرين ، أضيف إلى ذلك كله كلامه عن الموضوع نفسه في رسائل عدة بالاستطراد بعد إثبات الإيمان والتوحيد.

مثال : يبدأ الإمام النورسي المقالة العاشرة التي تدور حول إثبات الحشر الجسماني بقوله تعالى: {فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يجيئ الأرض بعد موتها إن ذلك لحجى الموتى وهو على كل شيء قدير} فاستنبط من هذا النص القرآني أدلة عقلية على قدرة الله تعالى على الحشر الجسماني وذلك أن الذي يستطيع خلق النباتات وإعادة إحيائها بعد موتها مع تعدد أنواعها ويعيدها أمام أنظارنا كل ربيع بانتظام كامل وسرعة فائقة ، إن الإله القادر على ذلك هو من باب الأولى قادر وبسهولة فائقة أن يعيد خلق النوع الإنساني مرة أخرى.

ويأتي الإمام النورسي لإثبات حقيقة الحشر الجسماني باثني عشرة صورة واثني عشرة حقيقة كافية كحجة مقنعة على تحقق هذا الحشر.⁴

3 - النورسي، الكلمات ، ص 327 - 328

4 - المرجع السابق نفسه ، ص 45-128

وأما في المقالة التاسعة والعشرين فقد أتى بستة أسس قاطعة على تحقق الحشر الجسماني في المستقبل.

ج- إثبات النبوة ، ونبوة سيدنا محمد ρ : لعل هذا الموضوع يأتي في المرتبة الثالثة في رسائل النور ويحتل حيزاً كبيراً منها . فقد اعتمد الإمام النورسي في إثباته لموضوع الرسالة الأحمدية على طريقي العقل والنقل ، والمقالة التاسع عشرة برشحاتها الأربع عشرة في حق الرسالة الأحمدية ρ هي خير دليل على ذلك.⁵

ثم جمع الإمام النورسي إثبات النبوة الأحمدية ρ في المقام الثاني من مجموعة كتابه : " ذو الفقار " ، كما أنه أثبت النبوة الاحمدية ρ في كل رسائله كلما سمحت الفرصة والمناسبة، وذلك بشكل استطرادي عند كلامه عن الحقائق الإيمانية الأخرى.

وقد درج الإمام النورسي في إثبات الكتب المترلة ، والإيمان بالملائكة والقضاء والقدر ، وكل أركان الإيمان ، درج على نفس المنهج السابق الذي اتبعه في اثباته للوحدانية والحشر والنبوة. فرسائل النور إذن أثبتت الحقائق الإيمانية بأركانها الست ، ولم يترك الإمام النورسي ركناً من تلك الأركان مع مسائلها الفرعية إلا وبينها وأثبتها بدلائل متنوعة ومتعددة معتمداً في ذلك كله على استنطاق القرآن الكريم واستنطاق كتاب الكون الكبير.

2- هدف الإمام النورسي من اتباعه للمنهج القرآني

كان هدف الإمام النورسي من اتباعه لهذا المنهج في إثبات القضايا الإيمانية:
أولاً : إكساب المؤمن إيماناً تحقياً بحيث يوصل صاحبه ويرقى به إلى درجة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، لأن الإيمان حينما يصل إلى هذه الدرجات فإنه لا يتأثر بالأوهام والشبهات التي تجمعت منذ ألف سنة ، بل إنه يقف أمامها متحدياً بإيمانه ذلك.⁶
ثانياً : إيصال المؤمن إلى التوحيد الحقيقي التفصيلي ، وإخراجه من الإيمان التقليدي الذي يتزعزع أمام أي شبهة . يقول الإمام النورسي رضي الله تعالى عنه: إن التوحيد نوعان:
1- "التوحيد الظاهري العامي : وهو أن الله واحد لا شريك له ، ولا مثيل ، وهذا الكون كله ملكه".

2- "التوحيد الحقيقي : وهو الإيمان بيقين أقرب ما يكون إلى الشهود بوحدانيته سبحانه، وبصدور كل شيء من يد قدرته ، وبأنه لا شريك له في ألوهيته ، ولا معين له في ربوبيته، ولا ند له في ملكه، إيماناً يهب لصاحبه الاطمئنان الدائم ، وسكينة القلب ، لرؤيته آية قدرته، وختم ربوبيته ، ونقش قلمه على كل شيء ، فيفتح شباك نافذ من كل شيء إلى نوره سبحانه".⁷

3-مناهج وطرق تحصيل المعرفة الإيمانية وإثبات حقائق الإيمان

قد اختار الإمام النورسي المنهج القرآني في إثباته لحقائق الإيمان ، لأن هذا المنهج يعتمد على إثبات الخالق سبحانه بآثاره المشهودة في الكون ، وأفعاله وأسمائه ، وصفاته المتحلية في جميع موجودات العالم

5 - المرجع السابق نفسه ، ص 254-268

6 - النورسي، الملاحق، ترجمة احسان الصالحى، (القاهرة، 1995/1416)، ط2، ص : 279

7 - النورسي ، الكلمات ، ص 326.

كلا وجزءاً ، كلياً وجزئياً . وقد رجح هذا المنهج القرآني على مناهج علماء الكلام والمتصوفة في الوصول لاثبات الحقائق الإيمانية . أما المتصوفة فلهم طريقان ومنهجان لتحصيل الوصول الى المعرفة الإيمانية ، أما الأول فيعرف بطريق وحدة الشهود حيث ينسى السالك إلى الله تعالى الكون مؤقتاً ويقول : لا مشهود إلا هو .

وأما الطريق الثاني : فهو طريق وحدة الوجود الذي يعتبر أن الوجود الحقيقي هو لله وحده ، أما باقي الموجودات فلا وجود لها في مقام الاستغراق بعدما يصل السالك إلى مرتبة حق اليقين لأنه يرى أن الموجودات وجودها ظلي لا أصلي ، أما الوجود الأصلي فهو لله تعالى . لذلك يقول السالك في هذا الطريق : لا موجود إلا هو ، " ولقد أوضح أهل التصوف تلك المعرفة الإيمانية ... في مئات من كتبهم المستندة إلى الكشف والذوق" .⁸

وأما طريق ومنهج علماء الكلام في إثبات وجود الله تعالى وتحصيل المعرفة الإيمانية اليقينية فقد كان بإثبات الحدوث والإمكان للموجودات ، وإثبات استحالة الدور والتسلسل على الخالق الأزلي سبحانه ، " ولقد أوضح علماء الكلام الطريق العقلي المبرهن لتلك المعرفة الإيمانية ، وذلك في ألوف من مجلدات ومؤلفاتهم المستندة إلى العقل والمنطق" .⁹

وقد رجح الإمام النورسي المنهج القرآني في تحصيل المعرفة الإيمانية اليقينية على المناهج السابقة ، لأن القرآن الكريم أثبت القضايا الإيمانية كالتوحيد والألوهية عن طريق قراءة آيات الله تعالى المشهودة في الكون ، وقراءة أفعال وصفات الله المتجلية في موجودات العالم كلها . وهذا لم يفعله المنهج الصوفي ، ولا المنهج الكلامي استوعبه .

فالقرآن إذن لم ينس الكون ولا الموجودات بل جعل لها اعتباراً ووجوداً دالاً على الخالق سبحانه وتعالى .

كرس الإمام النورسي كل مؤلفاته وكل حياته لإجلاء هذا المنهج الرباني القرآني وذلك لأنه كان على يقين " أن أجل العلوم قاطبة ، وقمة المعرفة ، وذروة الكمال الإنساني إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية المفصلة والمرهنة النابعة من الإيمان الحقيقي " كما يقول أهل الحقيقة .¹⁰ ووصل الإمام النورسي إلى قناعة تامة أن تعلم الحقائق الإيمانية في هذا العصر يفوق كثيراً الاهتمام بالكرامات والأذواق الصوفية ، لأن زماننا ليس زمان التصوف بل هو زمن إنقاذ الإيمان الذي كان همّ الأنبياء عليهم السلام وعملهم الأول . ولتأييد هذه الفكرة السابقة في تفضيل الإيمان بل وذرة منه على كثير من الأذواق والكرامات فإن الإمام النورسي يستشهد بكلام عَلم من أعلام الصوفية وشيخ من مشايخ الطريقة النقشبندية ألا وهو الإمام الرباني (أحمد بن الشيخ عبد الأحد السرهندي) صاحب كتاب المكتوبات . فقد أكد الإمام الرباني أن تعلم مسألة إيمانية واحدة يفوق مئات المواجيد والكرامات .

وإن سبب ترجيح الإمام النورسي للمنهج القرآني على غيره أيضاً هو أن هذا المنهج يفتح نافذة مباشرة إلى الحقيقة دون المرور في طريق طويل وهو طريق السير والسلوك الروحاني القلبي عند المتصوفة الذي يعبرون عنه بالطريق الظلي أو (الولاية الظلية).

8 - النورسي ، الملاحق ، ص : 278

9 - المرجع السابق نفسه

10 - المرجع السابق نفسه ، ص 278.

أما الولاية الأصلية وهي ولاية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فكانت تأخذ من الحقيقة مباشرة ، دون الحاجة للسلوك القلبي . وإن هذا الزمان - كما يقول الإمام النورسي - بحاجة إلى منهج يوصل الإنسان إلى الله تعالى وحقائق الإيمان خلال خمسة عشرة يوماً أو خمسة عشرة أسبوعاً عوضاً عن السير والسلوك الروحاني القلبي الذي قد يستمر أربعين عاماً ، وهذه الحاجة نابعة من كثرة الفساد واستيلائه على كل مكان ، وتنوع الكفر وقوة أتباعه ، فاكشف النورسي أن في طريق المنهج القرآني تحقيقاً للهدف بأقصى سرعة ممكنة ، وأن العرف من النبع مباشرة ممكن ، فالولاية الأصلية عادت في آحر الزمان وهو زماننا للظهور ، ولذلك فقد استشهد الإمام النورسي رضي الله عنه بقول الإمام الرباني عن هذه الحقيقة ، فقد قال الإمام الرباني في مکتوباته : " ينبغي أن يعلم أن منصب النبوة كان محتوماً بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، ولكن لأتباعه ρ نصيب كامل من كمالات ذلك المنصب بالتبعية ، وهذه الكمالات كانت في طبقة الأصحاب أزيد منها في غيرها ، وسرت هذه الدولة أيضاً على سبيل القلة إلى التابعين وتبع التابعين ثم شرعت بعدهم في الاختفاء والاستتار . وانتشرت كمالات الولاية الظلية وغلبت وشاعت . ولكن المرجو أن تتجدد هذه الدولة المستترة بعد مضي الألف ويحصل لها الغلبة والشيوخ ، وأن تظهر الكمالات الأصلية وتستتر الظلية ، وأن يكون المهدي عليه الرضوان مروج هذه النسبة العلية " ¹¹ .

فقد رأى الإمام النورسي أن المنهج القرآني الذي بينه وأوضحه في رسائله هو ذلك المنهج الذي يوصل الإنسان للكمالات الأصلية وللحقيقة مباشرة بدون سلوك الطرق الظلية وهذا ما عناه الإمام الرباني بأنه سيسود خلال الألف الثاني للهجرة.

ومن هنا فقد احتلت رسائل النور في فكر الإمام النورسي مكانة عظيمة فهي كما يراها: حجة كبرى نبعت من نور القرآن الكريم ، وهي معجزة قرآنية في هذا العصر لأنها : "حلت أكثر من مائة مسألة من أسرار الدين والشريعة والقرآن وأوضحتها وكشفتها ، وألجمت اعنى المعاندين الملحددين وأفحمتهم ، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيداً عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي ، والحشر الجسماني ، أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان ، فرسائل هذا شأنها لا بد أن العالم وما حوله - بأجمعه سيكون ذا علاقة بها ، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل ، وتأخذ حل اهتمامه ، وأنها سيف ألماسي بتار في قبضة أهل الإيمان" ¹² .

هكذا اثبت النورسي وبين أن مؤسسة الإيمان مبنية على حقائق القرآن الذي يعبر فعلاً عن حقائق الكون والوجود كله.

11 - الإمام الرباني ، المکتوبات ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لات) ، ج:1، ص:251
12 - النورسي ، الملاحق ، ص : 248

4- الاستنتاجات والخاتمة

نستنتج مما سبق ما يلي :

1- علم الإمام النورسي رضي الله تعالى عنه أنه مرشح في زماننا المهمة عظيمة ألا وهي إنقاذ إيمان الناس من الضلالة بأنواعها ، هذه الضلالة التي تجمعت شبيهاً خلال ألف عام فسببت إنكار حقائق الإيمان . فألهمه الله تعالى علماً ربانياً لدنياً عبر عنه برسائل النور .

فقد قامت هذه الرسائل بمهمة إنقاذ الإيمان لملايين من الناس في تركيا وخارجها ، خصوصاً عندما كان يدرس الكفر المنظم للأولاد في المدارس التركية الرسمية .

2- استنبط الامام النورسي من القرآن الحكيم منهجاً يمزج بين إقناع العقل وتنوير الروح والقلب وسمي هذا المنهج بالمنهج القرآني . تميز هذا المنهج عن غيره من المناهج والطرق الموصلة إلى الله تعالى والإيمان اليقيني بالآتي:

آ- إنه منهج يعطي المؤمن ويزوده بإيمان تحقيقي بدرجة عين اليقين وحق اليقين فلا يتزعزع المؤمن أمام الشبهات ، ويبقى المؤمن محافظاً على طمأنينة القلب وسكينته .

ب- إنه يكسب المؤمن توحيداً حقيقياً وإيماناً يكون أقرب ما يكون إلى الشهود بوحدانية الله سبحانه ، وبصودر كل شيء من يد قدرته ، فينفتح من كل شيء نافذة إلى معرفته سبحانه من الذرة إلى الشمس .

ج- إن هذا المنهج يعتمد على إثبات وجود الخالق سبحانه ، وصفاته ، وأسمائه وإثبات حقائق الإيمان من خلال قراءة كتاب الكون نفسه ، ومن خلال استنباط الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن الكريم عن الإيمان .

د- إنه منهج موصل إلى الحقيقة مباشرة وبسرعة ، فالمناهج السابقة كان يلزم السلوك الروحاني والقلبي فيها سنين طويلة ، أو التعلم والتلقي في مدارسها لمدة لا تقل عن خمس عشرة سنة . أما هذا المنهج القرآني فيكفي للوصول به إلى الحقيقة خمسة عشر يوماً أو خمسة عشر أسبوعاً حسب همته صاحبه .

3- إن مناهج علماء الكلام والصوفيين في الوصول إلى حقائق الإيمان مناهج حقة إلا أنها لا تناسب هذا الزمان ، ولا تكفي لرد الشبه والضلالات الموجودة فيه .

4- تأتي أهمية رسائل النور في أنها أعطت وقدمت منهجاً متكاملًا يخاطب إنسان العصر بلغته العصر وهذا المنهج الذي حقق ذلك هو المنهج القرآني وقد قامت رسائل النور بشرح هذا المنهج وتفصيله .

5- إن رسائل النور بما حققته من إنقاذ إيمان ملايين من الناس معجزة معنوية للقرآن الكريم وذلك:

آ) لأنها استنبطت مباشرة من القرآن الكريم وحججه ، فهي مرآة تعكس بعض نور القرآن في هذا الزمان .

ب) ولأنها تكفلت بإيصال المؤمن إلى درجة حق اليقين خلال فترة وجيزة جداً وذلك لحاجة العصر إلى مثل هذا الطريق بسبب انتشار الضلالات بأنواعها وفي كل مكان .

ج) ولأنها حلت أكثر من مائة مسألة من أعضل المشكلات الإيمانية والفكرية التي كانت تثار حول القرآن والإسلام والإيمان .

وفي الختام فإن الإمام النورسي قد خدم الأمة الإسلامية أعظم خدمة في تقديمه وشرحه وتطبيقه للمنهج القرآني ، فأنقذ إيمان ملايين من الناس ، وثبت عقيدتهم بالحجج العقلية، فاقنعت العقل واطمأن القلب. وتبين لدينا أن رسائل النور هي فعلاً مبنية على حجج القرآن الكريم لذلك فقد سلكت إلى قلوب المؤمنين بسهولة فائقة واثرت في عقولهم . وإن مؤسسة الإيمان المبنية على القرآن في رسائل النور التي تناولناها في هذه العجالة لعميقة المدارك متشعبة الموارد وما هذا إلا جهد بسيط لبدء فهم هذه المؤسسة الراسخة وقد بذلت جهداً فاسأل الله تعالى القبول ، فإن كان خيراً فمن عند الله ، وإن كان غير ذلك فمن نفسي وفهمي ومحدودية فكري . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وكتبه العبد الفقير لرحمة ربه الغني الكبير
عبدالله عبدالرحمن الخطيب

المصادر والمراجع

- 1-النورسي ، سعيد ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، (القاهرة ، 1413هـ/1992)، ط2
- 2-النورسي ، سعيد ، الملاحق ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، (القاهرة ، 1416هـ/1995) ط2
- 3-النورسي ، سعيد ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، (القاهرة ، 1412/1992)، ط2.
- 4-السرهندي ، الإمام الرباني أحمد بن الشيخ عبد الأحد ، المكتوبات ، (بيروت، لات.) .

مظاهر التجديد في بيان إعجاز القرآن عند بديع الزمان النورسي

أ.د . أحمد أبو زيد^P

الإمام بديع الزمان النورسي عالم ومفكر مجدد أصيل ومجاهد مخلص كبير، نبغ في العلوم الإسلامية نبوغاً خارقاً مبكراً، واستوعبها حفظاً وفهماً بطريقة غير مألوفة، جعلت كبار علماء عصره يسلمون له، ويعترفون بتفوقه ونبوغه.

حمل هموم أمته، ورفع راية الدعوة إلى إصلاح أوضاعها وقاد المجاهدين المتطوعين وحمل السلاح لصد العدو عن بلده ثم خاض معركة الإصلاح وتصدى لتيار الكفر والاحاد باصرار شديد، وعزيمة من حديد، لم تتل من عزمته الأشواك والألام الجسام التي ألقيت في طريقه، بل مضى يجاهد بفكره وعلمه وقلمه وسيرته الطيبة حتى أتاه اليقين.

وكل مؤلفاته ورسائله كتبها لخدمة القرآن ونشر حقائقه في الآفاق، وتثبيت دعائم الإيمان وتبديد ظلام الإلحاد الجارف.

وإن أي باحث يريد أن يدخل إلى عالم هذا المفكر الأصيل، وينخرط في حضرته العلمية لا يمكن أن تفتح له أبواب فكره وشخصيته العلمية إلا إذا اصطحب معه مفاتيح فريدة وأتى البيت من أبوابه الخاصة.

ويمكن إجمال هذه المفاتيح في الآتي:

1 - قراءة سيرة حياته بالتفصيل.

2 - دعاء النبي ﷺ له بعلم القرآن.

3 - العهد الذي قطعه على نفسه بعد أن أطلع على ما قاله وزير المستعمرات

البريطاني في شأن القرآن ذلك العهد هو : "لأبرهن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"

P من مواليد سنة 1945م فاس - المغرب حصل على الدكتوراه سنة 1990 وحالياً رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية لجامعة محمد الخامس بالرباط . له 3 مؤلفات في الإعجاز القرآني وتناسبه البياني.

4 - كونه وهب حياته لخدمة القرآن الكريم، فعاش والقرآن زاده في محنته الطويلة، وأنيس وحدته في السجون والمنفى يؤنسه في وحشته ويبدد أحزانه والآمه، وينير حياته وروحه وقلبه بأنواره.

5 - زهده وتورعه عن الدنيا وترفعه عن حطامها.

6 - تفرده في كل ما كتب بمزايا الجدة والأصالة، يستمد المعرفة من نور الايمان وحرقة الآلام والأهوال، ومن أسرار القرآن وبركاته، ومن تجليات أسماء الله الحسنى، ولذلك كانت رسائله نورانية وكتابات "المعات" و "شعاعات" و "أنوار" و "أضواء" و "شعلات" و "قبسات" ... إنه لا ينقل من بطون الكتب ولا من المآثور عن السابقين كما يفعل غيره.

هذه بعض المفاتيح التي يحتاج إليها كل من يريد أن يبحث أي جانب من شخصية هذا المفكر العظيم.

إعجاز القرآن في كتابات بديع الزمان النورسي

عندما اقترحت أن أقوم بدراسة حول مظاهر التجديد في بيان إعجاز القرآن عند هذا المفكر الجليل، لم أكن قد اطلعت على سائر كتبه، وكنت أعتقد أن كتابه الموسوم بـ " إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز " هو الكتاب الوحيد التي يتعلق بمسألة إعجاز القرآن، لكن بعد اطلاعي على باقي كتبه تبين لي أن اعتقادي كان باطلا.

وتفضل بعض الأخوة - جزاهم خيرا - فارشدوني إلى كتاب "الكلمات" والى الكلمة الخامسة والعشرين منه بوجه خاص، ولما شرعت في مطالعة هذه الكلمة وجدت المؤلف يحيل على كلمات آخر سابقات، والى رسائل وكتب أخرى. واصلت القراءة والبحث حتى وقفت في الكلمة الخامسة والعشرين على فقرة أشار فيها المؤلف الى الكتب والرسائل التي نشر فيها حقائق الاعجاز القرآني، يقول فيها ".... لقد اشرنا الى نحو أربعين وجها من وجوه إعجاز القرآن الحكيم الذي هو منبع المعجزات، والمعجزة الكبرى للرسول الكريم p، وذلك في رسائل العربية، وفي رسائل النور العربية وفي تفسير الموسوم "بإشارات الاعجاز في مظان الإيجاز" وفي الكلمات الاربع والعشرين السابقة" فعلمت ان الموضوع واسع متنشعب المباحث متعدد الجوانب، فاضطرت الى حصره والاقتصار على دراسة بعض المظاهر او الوجوه الفريدة من أسرار إعجاز القرآن التي انفرد بديع الزمان بإزالة الحجاب عنها، وهذا العمل أيضا لم يكن سهلا، لأن جل ما كتبه الرجل في هذا الموضوع فيه جدة وأصالة، ولذلك فإن هذا البحث لا يدعي لنفسه أنه وفي الموضوع حقه كاملا، وإنما هو نزهة ممتعة في رياض هذا المفكر واختيار باقة من أزهاره، وإطلالة على بحر فكره الزاخر، وانتقاء جملة من نفائسه، وتطلع إلى سمائه واقتباس قبسات من ناره وأنواره.

نبذة من معالم تجديد النورسي في بيان إعجاز القرآن

تعريف القرآن : أحب أن أبدا حديثي في هذا الموضوع بالتتويه بالتعريف الطريف الذي عرف به الشيخ النورسي القرآن الكريم ، لأنه بدوره جديد يدل على إدراك عميق لحقيقة القرآن الكريم وجلاله وعظمته ، وفهم ثاقب لحقائقه ومقاصده اللطيفة

الجليلة ، ويعلم الله كم كان سروري حينما يسر الله لي الظفر بهذا التعريف ، فقد كنت في بعض دروسي أقلب التعريفات المتداولة عسى أن أظفر منها بما يليق بعظمة القرآن الكريم وحقيقته النورانية وجوهه المكنون فلا أجد منها ما يلبي حاجتي ومن المؤكد أن النورسي رحمه الله - اطلع على تلك التعريفات لكنه لحاجة في نفسه أثر أن يضع تعريفاً أستمد من أنوار القرآن الساطعة التي ملأت جنبات قلبه وروحه ووجدانه ، قال رحمه الله : " هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات ، والترجمان الأبدى لألسنتها التاليات للآليات الكونية ، ومفسر كتاب العالم ، وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض ، وكذا هو مفتاح لحقائق الشئون المضمرّة في سطور الحادّثات .. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة .. إلى أن قال : وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر ، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له .. وكذا هو للإنسان ، كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة ، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر ، وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة " ¹ .

هذه فقرات وقبسات مختارة من هذا التعريف وهي كافية في الأدلة على المنحى التجديدي الذي نحاه النورسي في بحوثه المتعلقة بالقرآن الكريم وإعجازه ، فهو لم يشغل نفسه بالوصف الظاهري والتحديد النوعي ، كالمناطق أو الأصوليين القدماء ، وإنما اختار الغوص على الحقيقة والجوهر والمقاصد والغايات .

شروط تذوق إعجاز القرآن

أوضح النورسي أن النظر إلى القرآن الكريم من خلال الوضع الحاضر الذي استنار بنور القرآن ومن خلال ستار الألفة يحول دون رؤية جمال القرآن المعجز في كل آية ، لذلك وضع شرطاً لتذوق الإعجاز القرآني ، وهو أن يتصور الناظر في القرآن نفسه في العصر الجاهلي ، وفي صحراء تلك البداوة والجهل ، فبانقاله الشعوري إلى ذلك العصر يزول عنه ستار الألفة ويتذوق دقائق الإعجاز ، وبخلاف ذلك يحرم تذوقها .

قال رحمه الله : " إذا شئت أن تشاهد وتتذوق كيف تنتشر كل آية من القرآن الكريم نور إعجازها وهدايتها .. تصور نفسك في ذلك العصر الجاهلي وفي صحراء تلك البداوة ، فبينما تجد كل شيء قد اسدل عليه ستار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة إذا بك تشاهد ، وقد دببت الحياة في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة في أذهان السامعين ، فتنهض مسيحة ذاكرة الله بصدى قوله تعالى : { يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم } (الجمعة: 1) وهكذا بانقالك الشعوري إلى ذلك العصر تتذوق دقائق الإعجاز ... " ² .

الإعجاز التشريعي أو الإعجاز بالهداية

القرآن كتاب تشريع وهداية صالح لكل زمان يحافظ على شبابيته وفتوته ، إذ لا يوجد فكر تشريعي بشري أهدى من القرآن الكريم ، قال تعالى مخاطبا كفار العرب وكفار البشرية في كل عصر {قل فاتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم} (القصص:49 – 50).

ومضى زمن طويل والناس يرددون هذه الآية من غير أن يتعمقوا في فهم دلالتها على الإعجاز التشريعي أما النورسي فقد عرضها تحت عنوان "شبابية القرآن وفتوته" وقال : "إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نظرا فتيا"³.

وأوضح أن القرآن الكريم خطاب أزلي يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور، لذلك يلزم أن تكون له شبابية دائمة، وهذا المعنى مطابق لما روى في فضائل القرآن من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وفيه أن القرآن "لا يخلق على كثرة الرد ولا تشعب منه العلماء ولا تنقضي عجائبه".

وعرض النورسي هذا الوجه من إعجاز القرآن بأسلوب بارع يعتمد على المفاضلة بين التشريعات القرآنية ونظم المدنية الحديثة التي تعد أرقى ما وصلت إليه البشرية في التشريع والتنظيم .

وأوضح أن آثار البشرية وقوانينها تشيب وتهرم مثلها ، وأن أحكام القرآن وقوانينها لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر صلاحيتها كلما مرت العصور.

وفي سياق الموزانة بين فلسفة المدنية الحديثة وبين حكمة القرآن أوضح أن المدنية الحديثة تومن أن ركيزة الحياة الإجتماعية هي "القوة" وهي تستهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة ، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات ، وغايتها لهو عابث لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس .

ثم قال : "ومن المعلوم أن شأن القوة هو التجاوز ، وشأن "المنفعة" هو التزاحم ، وشأن "الصراع" هو التصادم ، وشأن العنصرية هو التجاوز ، وهذه الأسس هي التي جعلت المدنية الحاضرة عاجزة عن ان تمنح سوى 20 ./. من البشر سعادة ظاهرة بينما القت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق .

أما حكمة القرآن فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الإجتماعية بدلا من القوة وتجعل "رضى الله ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف ، بدلا من المنفعة، وتتخذ "دستور التعاون" أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم "رابطة الدين" والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية، وتجعل غايتها الحد من تجاوز النفس الأمانة ، ودفع الروح إلى معالي الأمور.⁴

3 نفسه ص. 471

4 نفسه ص. 472

وفي ختام هذه المفاضلة أكد - رحمه الله - أن المدنية الحديثة غلبت أمام القرآن الكريم ، مع ما أخذت من المحاسن من الأديان السابقة ، ولا سيما من القرآن الكريم . وأختار أربع مسائل من تشريعات القرآن لايضاح الإعجاز التشريعي .

المسألة الأولى : قوله تعالى : {وآتوا الزكاة} (سورة البقرة: 43) وقوله تعالى {وأحل الله البيع وحرم الربا} (سورة البقرة: 275) . ولبيان إعجاز القرآن في هذين الحكيمين بدأ بمقدمة أوضح فيها أن أساس جميع الإضطراب والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة هي : " إن شبعنا أنا فلا علي أن يموت غيري من الجوع" كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا وهي : " اكتسب أنت لأكل أنا ، وأتعب أنت لاستريح أنا" وقال : نعم ، إنه لا يمكن العيش بسلام ووثام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن بين الأغنياء والفقراء ، وأساس هذا التوازن هو رحمة الأغنياء وشفقتهم على الفقراء . والمدنية الحديثة بكل أنظمتها ووسائلها عجزت عن إيجاد التوازن بين الطبقتين" ⁵ .

أما القرآن الكريم فإنه يقتلع الكلمة الأولى من جذورها ويداويها بالزكاة ، ويقتلع الكلمة الثانية من أساسها ويداوها بتحريم الربا .

وبهذا الأسلوب القائم على المفاضلة بين أحكام القرآن الكريم وبين عادات المدنية الحديثة وأعرافها بين النورسي سر الإعجاز في المسائل الثلاث الباقية: وهي تعدد الزوجات ، وقسمة الميراث ، والصور المجسمة ، ولا يسمح المقام هنا بالتفصيل .

جامعية القرآن الخارقة

يعد ما عرضه النورسي تحت هذا العنوان من أبرز معالم تجديده في بيان إعجاز القرآن، لأن بحوث القدماء كانت منصبة على الأساليب البلاغية والبيانية ، حتى عبد القاهر الجرجاني الذي أسس علم المعاني كان اهتمامه محصورا في معاني التراكيب النحوية في حدود الجملة.

أما النورسي فقد أوضح جامعياً القرآن الخارقة في ألفاظه، وفي علومه ، وفي مباحثه ، وفي معانيه ولا يسمح المقام بالتفصيل في بيان الإعجاز في كل هذه الجوانب ، وأسمح لنفسني باختيار الجانبين المتعلقين بالجامعية الخارقة في اللفظ " . و "الجامعية الخارقة في مباحث القرآن" .

الجامعية الخارقة في اللفظ

أوضح النورسي - رحمه الله - أن ألفاظ القرآن قد وضعت وضعا بحيث إن لكل كلام ، بل لكل كلمة ، بل لكل حرف ، بل حتى للسكون أحيانا وجوها كثيرة جدا ، تمنح لكل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة - كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: " لكل آية ظهر وبطن ، وحد ومطلع ⁶ ، ولكل شجون وعصون وفنون" ⁷ ثم ساق أمثلة من ألفاظ القرآن وحللها وبين ما فيها من الجامعية الخارقة وأوضح

5 نفسه ص. 474

6 رواه أحمد والترمذي عن أبي رضي الله عنه ، وأحمد عن حذيفة وهو عند الطبراني من حديث ابن مسعود، باختصار عن كشف الخفاء 1 ص. 209

7 الكلمات ص. 451

حصة كل صنف من فهمها أورد مثلاً قوله تعالى : {والجبال أوتادا} (النبا:7) فذكر حصة العامي ، وحصة الشاعر ، وحصة البدوي البليغ ، وحصة الجغرافي ، وحصة المتخصص في علم الاجتماع وحصة الفيلسوف الطبيعي من فهم هذه الآية. وساق أمثلة أخرى على هذا النحو ثم تساءل ، على لسان المعارض ، وقال : إذا قلت: " كيف نفهم أن القرآن قد أراد جميع تلك المعاني التي جاءت في الأمثلة السابقة؟ وأجاب بقوله : ما دام القرآن الكريم خطاباً أزلياً يخاطب به الله سبحانه وتعالى – جميع طبقات البشرية المصطفة خلف العصور ، ويرشدهم جميعاً فلا بد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الأفهام ويضع أمارات على إرادة تلك المعاني. وإلى جانب هذا فإن جميع الوجوه والمعاني التي هي صحيحة حسب علوم العربية، وصائبة وفق أصول الدين ومقبولة في فن المعاني ، ولانقطة في علم البيان ومستحسنة في علم البلاغة هي من معاني القرآن الكريم باجماع المجتهدين والمفسرين وعلماء أصول الدين وأصول الفقه" ⁸ .

الجامعية الخارقة في مباحثه

أوضح النورسي هذه الميزة فذكر أن القرآن قد جمع المباحث الكلية فيما يخص الإنسان ووظيفته ، والكون وخالقه ، والأرض والسماوات والدينا والآخرة ، والماضي والمستقبل ، والازل والابد ، ثم قال : فجميع هذه المباحث الأساسية تبين في القرآن بياناً واضحاً يليق بذات الله الجليلة الذي يدير الكون كله. كأنه قصر ويفتح الدنيا والآخرة كغرفتين يفتح إحداهما ويسد الأخرى بسهولة ، ويتصرف في الأرض تصرفه في بستان صغير ، وفي السماء كأنها سقوف مزين بالمصابيح ويطلع على الماضي والمستقبل كصحيفتين حاضرتين أمام شهوده كالليل والنهار ، ويشاهد الأزل والأبد كالיום وامس.

..نعم ، إن الذي جمل الدنيا وزينها بصنائه الثمينة وملاها بأطياب نعمه الشهية، ونشر في وجه الأرض بدائع مخلوقاته ، ونعمه ، بكل إبداع وإحسان وتنسيق وتنظيم ، ذلك الصانع الجليل هو صاحب هذا البيان، وبيان القرآن الكريم الذي ملأ الدنيا بالتقدير والتعظيم والحمد والشكر حتى جعل الأرض رباط ذكر وتهليل، ومسجدا يرفع فيه إسم الله.. ومن يكون غيره صاحب هذا الكلام. " فهل يليق بهذا البيان الذي كشف لغز العالم ونوره أن يكون لغير من خلق السموات والأرض" ⁹ .

التناسب بين الحقائق القرآنية الكلية

(أعظم أوجه إعجاز القرآن)

يقول الله عز وجل : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً} (النساء:82) .

ويقول : {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} (الزمر:23) . وحام العلماء

8 نفسه ص.456

9 نفسه ص.457 ، 459 بتصرف

حول فضيلة التناسب اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم ولكنهم اكتفوا بالإشارة والتلميح ولم يكشفوا عن هذه الفضيلة بصورة مقنعة.

وتجلى هذا الوجه من الإعجاز للنورسي فأجاد في بيانه بأسلوبه التمثيلي الذي يقرب البعيد ويجلي الخفي من المعاني، بدأ حديثه الممتع في هذا الباب بقوله: إذا أردت مشاهدة أعظم درجة الإعجاز القرآني الكثيرة فاستمع الى هذا المثال وتأمله. لنفرض شجرة عجيبة في منتهى العلو والغرابة، وفي غاية الإنتشار والسعة، قد أسدل عليها غطاء الغيب.

فإذا قام أحد من قبل تلك الشجرة التي لم تشاهد قط ولا تشاهد أبداً، ورسم على شاشة صورة لكل عضو من أعضاء تلك الشجرة وحد له، بأن وضع خطوطاً تمثل العلاقات بين أغصانها وثمراتها وأوراقها، وملاً ما بين مبدئها ومنتهاها - البعيدين عن بعضهما بما لا يحد، بصور وخطوط تمثل أشكال أعضائها تماماً وتبرز صورها كاملة، فلا يبقى أدنى شك في أن ذلك الرسام يشاهد تلك الشجرة الغيبية بنظره المطلع على الغيب، ويحيط بها علماً...

فالقرآن المبين - كهذا المثال - أيضاً فإن بياناته المعجزة التي تخص حقيقة الموجودات.. قد حافظت على الموازنة والتناسب، وأعطت لكل عضو من الأعضاء ولكل ثمرة من الثمرات صورة تليق بها بحيث خلص العلماء والمحققون - لدى إجراء تحقيقاتهم وأبحاثهم - إلى الإنبهار والانشداد قائلين ما شاء الله، إن الذي يحل طلسم الكون، ويكشف معمى الخلق إنما هو أنت وحدك أيها القرآن الحكيم.¹⁰

وبدأ النورسي تفصيل هذا الوجه العظيم من الإعجاز فأوضح وجه التناسب في حقيقة الألوهية - كما عرضها القرآن، ودعا الى تصور الأسماء الإلهية وصفاتها الجليلة والشؤون الربانية وأفعالها الحكيمة - والله المثل الأعلى، كأنها شجرة طوبى من نور تمتد دائرة عظمتها من الأزل إلى الأبد...

ثم خلص إلى القول: إن القرآن الكريم بين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها وأغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بيانا في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقة أخرى، ولا يفسد حكم حقيقة حكما لأخرى، وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بين القرآن الكريم حقائق الأسماء الألهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بيانا معجزا... "ولو أخذنا مثلاً أركان الإيمان الستة التي تتوجه إلى جميع دائرة الموجودات المختلفة ودائرة الوجوب الإلهي، والتي تعد غصنا من تلك الشجرتين العظيمتين بصورها القرآن الكريم بجميع فروعها وأغصانها وثمراتها وأزاهيرها مراعيها في تصويره إنسجاماً بديعاً بين ثمراتها وأزاهيرها، معرفاً بالتناسب في منتهى التوازن والانساق.

" ثم إن الإسلام الذي هو فرع من غصن الإيمان أبدع القرآن الكريم، وأتى بالرائع المعجب في تصوير أدق فروع أركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينهما، بل حافظ على أبسط آدابها ومنتهاى غاياتها وأعمق حكمها، وأبهر

دليل على ذلك هو كمال انتظام الشريعة العظمى التابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومن إشاراته ورموزه فكمال انتظام الشريعة الغراء وجمال توازنها الدقيق وحسن تناسب أحكامها وخصائصها كل منها شاهد عدل لا يجرح، وبرهان قاطع باهر لا يدنو منه الريب على أحقية القرآن الكريم، بمعنى أن البيانات القرآنية لا يمكن أن تستند إلى علم جزئي لبشر، ولا سيما إنسان أمي، بل لا بد أن تستند إلى علم واسع محيط، بكل شئ بصير بجميع الأشياء في آن واحد¹¹.

الإعجاز في الفذلكات (الخلاصات) التي تنتهي بها الآيات

هذا وجه آخر من أوجه إعجاز القرآن التي لم تحظ من القدماء والمحدثين جميعاً بما تستحق من الإهتمام.

أجل، قد يلتقي الناظر في بحوث الإعجاز وكتب التفسير وعلوم القرآن بإشارات وجيزة تومئ إلى هذا الوجه من بعيد، لكنها لا تتعمق في بيانه. أما الشيخ النورسي فقد جلاه وكشف عنه الستار حتى بدا واضحا جليا على الأيام.

بدأ حديثه عن هذا الوجه بمقدمة مجملّة أوضح فيها أن القرآن الكريم يذكر في أكثر الأحيان نوعاً من الخلاصات، والفذلكات في خاتمة الآيات: إما أنها تتضمن الأسماء الحسنى أو معناها، وإما أنها تحيل قضايا إلى العقل وتحثه على التفكير والتدبر فيها، أو تضمن قاعدة كلية من مقاصد القرآن فتؤيد بها الآية وتؤكدّها.. ففي تلك الفذلكات بعض إشارات من حكمة القرآن العالية، وبعض رشاشات من ماء الحياة للهداية الإلهية، وبعض شرارات من بوراق إعجاز القرآن¹² وعرض - رحمه الله - بإجمال أيضاً عشر إشارات من تلك الإشارات الكثيرة جداً، وذكر أن أكثر هذه الإشارات العشر تجتمع في أكثر الآيات معاً مكونة نقشا إعجازيا حقيقيا.

ولا يسمح المقام بعرض تلك الإشارات العشر بالتفصيل، ولكن يحسن أن نفتبس منها ما يكفي لأعطاء فكرة واضحة عن هذا الوجه من إعجاز القرآن - إن القرآن ببياناته المعجزة يبسط أفعال الصانع الجليل، ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار الأسماء الإلهية المناسبة أو يثبت مقصداً من مقاصد القرآن الأساسية كالحشر. فمن أمثلة المعنى الأول قوله تعالى: { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم.. } (البقرة: 29)

ومن معنى الثاني قوله تعالى: { ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً. وخلقناكم أزواجاً } إلى قوله { إن يوم الفصل.. } (النبأ: 6 - 17)

في الآية الأولى يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته، يذكرها مقدمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج إسم الله "العليم".

11 نفسه ص. 507-508

12 نفسه ص. 483

وفي الآية الثانية يذكر أفعال الله الكبرى وآثاره العظمى ويستنتج منها الحشر الذي هو يوم الفصل.¹³

2 - إن القرآن الكريم ينشر منسوجات الصنعة الإلهية ويعرضها على أنظار البشر، ثم يلفها ويطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية أو يحيلها الى العقل فمن أمثلة الأسلوب الأول قوله تعالى: {قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون، فذلکم الله ربکم الحق؟!} (يونس: 31، 32) .. بعد أن قدم هذا المثال بين رحمه الله بنظره الثاقب، وتدوقه اللطيف .. أن الفقرة الأولى والرابعة من الآية تقول بمفهومها: الله، والفقرة الثانية تقول: الرب، والفقرة الثالثة تقول الحق، ثم قال:

" فافهم مدى الإعجاز في موقع جملة { فذلکم الله ربکم الحق } .
ومن أمثلة الأسلوب الثاني قوله تعالى : {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلک التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون} (البقرة: 164) .
ذكر القرآن في هذه الآية ما في خلق السموات والأرض من تجلي سلطة الألوهية وكمال قدرته وعظمة ربوبيته ووحدانته .. وهكذا بعد سرد منسوجات الصنعة الإلهية يسوق العقل الى اكتشاف حقائقها تفصيلا فيقول : {لآيات لقوم يعقلون} أخذا يزمم العقل الى التدبر موقظا إياه الى التفكير .
وفي ختام عرضه لتلك الإشارات العشر التي اختارها لبيان الإعجاز في الفذلكات التي تختم بها الآيات .

قال: فافهم من هذه الإشارات العشر الإعجازية أن في الخلاصات والفذلكات التي في ختام الآيات لمعات إعجازية كثيرة فضلا عما يترشح منها من رشحات الهداية الغزيرة حتى بلغ بدهاء البلغاء أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الحيرة والإعجاب أمام هذه الأساليب البديعة فقالوا ما هذا الكلام بشر، وآمنوا بحق اليقين بقوله تعالى: {إن هو إلا وحي يوحى}

الفصاحة الخارقة في لفظ القرآن

كثر القول في فصاحة ألفاظ القرآن ، ولكن الطريق التي سلكها النورسي في إبراز هذه الميزة القرآنية جديدة ، فقد تجنب الطريقة المألوفة التي تحصر الإهتمام في الكلمة المفردة، وقدم بيانا شافيا لأسرار الإنسجام بين الأصوات والحروف الهجائية في آية قرآنية طويلة وهو شيء جديد، لا نظفر منه في بحوث الإعجاز السابقة إلا على إشارات وإيماءات ترمز ولا تبين، وتلمح ولا تفصح.

قال رحمه الله: "إن إيضاح أسباب الفصاحة في آيات القرآن الكريم وفي جملة يطول كثيرا، وتفاديا من الإطالة نقصر الكلام على إظهار لمعة إعجاز تلتع من أوضاع الحروف الهجائية وكيفياتها في آية واحدة وهي قوله تعالى: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة ناعسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. يقولون: لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا ههنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور} (آل عمران: 154).

وقدم تحليلا صوتيا لهذه الآية بدأه بمقدمة مجملة أوضح فيها أن هذه الآية جمعت جميع حروف الهجاء، وأجناس من الحروف الثقيلة، ومع ذلك لم يفقدها هذا الجمع سلاستها بل زادها بهاء الى جمالها، ومزج نغمة من الفصاحة، نبعت من أوتار متناسبة متنوعة، ثم انتقل الى ذكر نسب الأصوات التي اجتمعت في هذا الآية، فذكر نسبة الألف والياء، والميم والنون، والصاد والسين والشين والعين والغين، والصاد، والطاء، والذال والزاي، والهمز، والهاء، والقاف والكاف والفاء، والباء والتاء، والراء واللام، والحاء والحاء والثاء والصاد، وحرص على إيضاح ما بين كل صنف من الأصوات المذكورة من مناسبات في الصفة والمخرج والخفة والثقل، وكيفية توزيعها

14

ثم ختم بقوله: وهكذا فإن هذه الحروف بهذا الوضع المنتظم الخارق مع تلك المناسبات الخفية، والانتظام الجميل، والنظام الدقيق والإنسجام اللطيف تثبت بيقين جازم كحاصل ضرب $2 \times 2 = 4$ أنه ليس من شأن البشر ولا يمكنه أن يفعله، أما المصادفة فمحال أن تلعب به"

في ختام هذا العرض الموجز أعود لأؤكد مرة ثانية أن فضل النورسي في إعجاز القرآن وتجديد معالمه وطرائقه كبير جدا، لأنه رحمه الله كان في جميع بحوثه وتأملاته لأسرار للآيات القرآنية يتوخى إثبات أن القرآن خطاب الله النوراني الأزلي الذي أنزله لتهتدي البشرية به في كل زمان وتساعد بتوجيهاته وحكمته في كل حين. وما قدمته عن معالم تجديده هنا ليس إلا باقية مختارة من زاوية واحدة من بستان فكر بدیع الزمان الغنى بكل جديد وطريف وأصيل، وإن كل مطلع على جهود المحدثين في البحث عن أسرار القرآن يدرك بسهولة فضل النورسي في ارتياد آفاق جديدة مهد طريق البحث فيها، ولكن المؤسف أن اسمه لا يكاد يذكر، وعندني أن اسمه وفضله يجب أن يذكر كلما ذكر التجديد في علوم القرآن في العصر الحديث.

أ.د. أحمد أبو زيد 335

مفهوم البيئة عند بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور ابراهيم اوزدمير[©]

مدخل :

المقصود من هذا البحث هو الإشارة الى الخصوصيات الاساسية لمفهوم (او فلسفة) البيئة عند سعيد النورسي . وبذلك ، نقدم ايضاً نموذجاً ماثلاً للعيان لموضوع هذا المؤتمر: نحو فهم عصري للقرآن . فمن الملاحظ ان سعيد النورسي يمتاز على علماء الاسلام المعاصرين باعتناؤه بنظرة القرآن الى الكائنات ، ويعني بالجانب الكوني ، ويتوقف عند هذه المعاني. لنحدد المقصود من مفهوم (او فلسفة) البيئة قبل الدخول الى الموضوع . ان تداول مصطلح الفلسفة يعود الى تقاليد تاريخية قديمة . اما تداول مصطلح "فلسفة البيئة" فقد تأخر حتى الربع الأخير من القرن العشرين. ولا يوجد اتفاق على ما يعنيه بصورة محدودة ، لكنه ينصرف عموماً الى تطبيق التعريف العام للفلسفة على البيئة. بعبارة اخرى ، البحث في اسباب ظهور المعضلات البيئية، وتفسير البيئة تفسيراً كلياً ، من وجهة فلسفية معينة. ان فلسفة البيئة هي الجهد المبذول في استحداث تعريف جديد للبيئة والانسان في السياق المعاصر بالاستفادة من الجهود القديمة التي تمتد حتى الى العصور القديمة، اذ لا تخلو صفحات التاريخ كله من محاولة تفسير الانسان والبيئة .

مع بداية تقايم ازمة البيئة ، طرح كثير من المفكرين اسئلة فلسفية عن اسبابها وجذورها ، فظهر مصطلح فلسفة البيئة (Environmental-eco Philosophy) والاخلاق البيئية (Environmental Ethics) . ولعل اكثر الاسئلة المطروحة في ساحة فلسفة البيئة هي :
- ما الكائنات والطبيعة ؟

P من مواليد عام 1960 حصل على الدكتوراه سنة 1985 من جامعة الشرق الأوسط، قسم الفلسفة بانقرة . عمل بين سنة 1987-1992 اختصاصياً في ارشيف رئاسة الوزارة . حالياً عضو الهيئة التدريسية في كلية الإلهيات بجامعة أنقرة. له أبحاث ومقالات منشورة في المجالات المحلية والأجنبية مع عدد من المؤلفات منها:

- 1- The Ethical Dimension of Human Attitude Towards nature
- 2- Çevre ve Din
- 3- Çevre Sorumlari ve Islam

- هل للكائنات مغزى ومعنى ؟
- ما معنى البعد الجمالي في الكائنات ؟
- ماذا يعني كلية (او تكامل) الكائنات وانتظامها ؟
- هل للطبيعة قيمة ذاتية (Interisic value) بمعزل عن الانسان ؟
- ما الانسان ؟
- ما اهمية الانسان في الكائنات ؟
- ما مسؤوليتنا ازاء الاجيال القادمة ؟

ومن المستغرب فعلاً ان يسعى الانسان مجدداً الى استكشاف معنى الكائنات والحياة واضفاء مغزى لحياته ، بعد التطورات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية الضخمة في القرن العشرين . ومع وجود اسباب علمية تفسر هذا الواقع ، فان السبب المهم هو الروح الانسانية التي لا تظمن بالاشباع المادي وحده، كما نستجلي ذلك من تعريف المفكر البيئي سكولومسكي لفلسفة البيئة بانها : اكتشاف المشروع الانساني مجدداً لمعنى الانسانية بحالتها المتفاعلة مع الكائنات .¹ ويعدد هذا الكاتب ايضاً ، خصوصيات فلسفة البيئة فيقول :

- الحياة محورها
- وتنشُد الى قيم الانسان والطبيعة والحياة
- وهي حيوية بحكم المعنى
- وشمولية وجمعية
- وحساسة ازاء البيئة
- وتهدف الى الحياة الارقي
- وتمتلك حساسية سياسية (يعني ان الشخص الذي لديه وعي بيئي يهتم بكل قرار سياسي يتعلق بالبيئة ويسعى ان يشغل موضعاً في مراحل المتنوعة)
- وتتخذ من خير المجتمع اساساً
- وتؤكد على مسؤولية الفرد
- وتتسامح مع الميتافيزيقية (ما وراء العالم الفيزيائي)
- وتهتم بالصحة²

اذا استطلعنا هذه الخصوصيات ، يمكننا ان نفترض ظهور المعضلات البيئية بنتيجة القراءة غير الصحيحة واضفاء معنى غير سليم للطبيعة منذ القرن السابع عشر بناء على الثنائية الكارتيزية (Cartesizm) . وهذا يعني ان مصدر المعضلات التي نواجهها اليوم هو تصرفاتنا الخاطئة الناتجة من اضفاء معنى خاطئ (او ناقص) للطبيعة . فالانسان منذ وجوده قد طوّر انماطاً معيشية ونماذج سلوكية تتسجم مع

1. Henryk Skolimowsky, Eco-philosophy-Ideas in Progress, (Boston-London: Marion boyars, 1981), s. 1.
2. المصدر السابق ص 28 - 52 توجد مصطلحات عديدة متداولة في اطار مفهوم فلسفة البيئة والخاصة في تعريف هذا المفهوم هو الاستيعاب العقلي لمشاكل البيئة وابلاء اهمية خاصة للدور المهم الذي يلعبه المنظور الفلسفي / او الفلسفة في حل تلك المشكلات . فلاشك ان الفلسفة عنصر فاعل في تدقيق الاسباب الحقيقية للمعضلات ثم في تجديد التوجه الفكري للتغلب عليها. ومن اهم ميزات فلسفة البيئة ايضاً ، هو الفهم المستوعب لموضوعه ومشكلاته وحلوله في اطارها بشكل متكامل , وانظر ايضاً:

المعنى أو المعزى الذي يضيفه على نفسه وعلى الطبيعة. ان هذه النقطة مهمة جداً من أجل فهم البعد الفلسفي لمشكلة البيئة ونوعية علاقة الانسان المعاصر بالبيئة.³ وبكلام آخر، توجد علاقة وطيدة بين تصورات الانسان للعالم وسلوكيته. فهو يشكل المعنى الذي يسبغه على نفسه وعلى بيئته حسب هذه التصورات.

في اطار هذا البحث، نحاول ان نبرز آراء سعيد النورسي بشأن البيئة (في اوسع معانيها) ، ونشير (بصورة وجيزة) الى نوعية العلاقة بين الانسان والطبيعة في ظل هذه الآراء . ونجد لزماً ان نوضح شيئاً قبل الخوض في مفهوم سعيد النورسي عن البيئة. ان سعيد النورسي الذي صنف رسائل النور (في ثلاثين ومائة مبحثاً) يعلم تماماً بحدود تحدي " العصرنة " للاديان عموماً وللاسلام خاصة ، ويواجه هذا التحدي عن علم ومعرفة ووعي . وهو موقف يتماثل ويتطابق في الوقت نفسه، مع الانتقادات التي يوجهها الفكر البيئي الى الفلسفات المعاصرة.⁴ لقد قضى سعيد النورسي حياته كلها في التصدي لتحديات الحضارة الغربية المادية والآلية واللا دينية السائدة على عصرنا، وحل المعضلات الناشئة من هذه الحضارة. وهذا ما يجعله مرشداً مجدداً وداعية عاملاً⁵ لذلك ، من الضروري ان نلقي ضوءاً على هاتين النقطتين:

تحديات " العصرنة " :

ان التحديات المعاصرة الموجهة الى القيم المثالية والمتافيزيقية كافة، وليس الى الدين وحده ، نابعة من مصدرين رئيسيين ، هما :

أ - التصور المادي الميكانيكي للعالم (فيما يخص الطبيعة) والذي ينكر القيم المثالية او ما وراء الطبيعة. (ويشمل التيارات الفلسفية الدائرة في هذا الفلك)
ب - التصور الوجودي الذي ينكر ويستبعد الجانب الديني والمعنوي للقيم الاخلاقية والمعنوية .

ومن المعلوم ان الثنائية الكارثية تقبع خلف النهضة العلمية في القرن السابع عشر . لذلك حصل انفصام في تصور الكائنات لأول مرة الى مادة وروح بعدما كان ينظر اليها كلا متكاملأ حياً . وقد بلغ هذا الفهم العصري ذروة التطرف حين ركز على ماهو مادة او مادي ، واستنكر ما هو روحي ومعنوي. وفي البداية سرت قناعة بان قدرة العلم تتحدد بالشيئية (بالمادة) ، ثم تفشت بعد (لوك J. Locke) الى اعتبار

3 المصدر السابق . وانظر للفكر الفلسفي في مشاكل البيئة : Dr. İbrahim Özdemir, The Ethical Dimension of Human Attitude Towards nature, Çevre Bakanlığı Yayınları, Ankara, 1997; Neil Evernden, The Natural Alien: Humankind and Environment (Toronto: University of Toronto Press, 1985); Lynn White, "The Historical Roots of Our Ecological Crisis", Man and The Environment, (eds.) Wes Jackson end Kansas Wesleyan, (Dubuque, Iowa: WM. C. Brown Company Publishers, 1971) içinde; Carolyn Merchant, The Death of Nature: Women, Ecology and the Scientific Revolution (San Francisco: Harper and Row, 1980)

4 Prof. Dr. Teoman Durulı, Biyoloji Felsefesi, (Ankara: Akçağ, 1992), s. 160
5 Bkz.: Prof. Dr. Alparslan Açıkgenç, İlim Anlayışı ve İlimlerin Sınıflandırılması Açısından Risale-i Nurlar'ın Bir Değerlendirmesi" Uluslararası bediüzzaman Sempozyumu-3, (İstanbul: yeni Asya Yayınları, 1996) s. 485 - 490

كل علم خارج الشينية (المادة) ثانوياً ومن محصولات الخيال⁶ . من جهة اخرى، رفضت الفلسفة التجريبية المعاصرة كل ما هو غير مادي باعتباره غير معقول وتصورات لا يعتد بها . يقول الاستاذ الدكتور تيومن دورالي : بنى العلم المعاصر اساسه على المادة التي عرفها بما له وجود في حيز مكاني وزماني معين ويخضع للرصد والمشاهدة ويمتلك كتلة وابعاداً⁷ .

اما التصور الثاني ، فهو الفلسفة الحديثة القائمة على وجود الطبيعة مصادفة، وتتمادى الى اعتبار الصدفة والاعتباط (العبثية)⁸ اهم دعائم الحياة . ونحن نعرف ان فلاسفة وجوديين مثل جاسبرس (K.Jaspers) وكيركجارد (Kierkgard) ومارسيل (G.Marcel) من المؤمنين بالله في تيار الفلسفة الوجودية . لكن الوجوديون الملحدون يظنون ان الميزة الرئيسية لوجود الكائنات هي العبثية والصدفة والاضطرار . ولا يرون غاية وقصداً في الوجود، ولا يعرفون له معنى. جان بول سارتر (Jean Paul Sartre) والبرت كاموس (Albert Camus) اثنان من رؤوس اولئك الفلاسفة، حتى ان سارتر سمى روايته الشائعة " بالدوامة " معبراً عما يشعر به ازاء الفراغ واللامعنى والعبثية في الكون⁹ . وبلغ الامر بـ (Camus) انه عكس اللامعزى والعبثية في كل عمل من اعماله وجعل العبثية مبدأ اخلاقياً ترفض القيم التقليدية والاجتماعية. فهو يسقط من الاعتبار الدين والقيم الموروثة والاجتماعية، ويعدها عوائق ومصاد للحرية

6 لاشك ان وايتهيد (A.N. Whitehead) واحد من احسن المفكرين المعاصرين الذين فهموا موضوعه لوك (Locke) وما تحويه من نتائج ومن خيرة الذين انتقدوها . وانظر A.N. Whitehead, Science and the Modern World, (Cambridge: University Press; New York: Macmillan Company, 1926), s. 79-80. وانظر ايضاً لتفسير وتقد جديدين لموضوعه لوك David Ray Griffin, God and religion in the Postmodern World: Essays in Postmodern Theology, (Albany: SUNY Press, 1989), s. 16-17.

7 يعبر دورالي (Durall) عن التحول الذهني الذي يخلفه الكارتيزية : " الفيزياء المعاصرة التي اعتمدت المادة اساساً ، استقرت على كفة (Res Extansa) وازاحت كفة (Res Cogitans) في نقيض كارتر (Descartes) القائم على هذين الجانبين المتضادين والذي قسم عالم الوجود من الجوهر الى قسمين . هذا التصرف الفيزيائي القاطع، رسم شكل الحياة الفكرية الأوروبية ، كذلك نظرتها الى العالم تدريجياً، خصوصاً منذ القرن الثامن عشر. فبدلاً عن العلم الغائي والنوعي الذي يحتوي الفيزياء التقليدية ايضاً، تشكل العلم على خصوصيات الفيزياء الحديثة القائمة على السببية والكيفية والشكلية، جاعلاً ما يقاس ويسبب ويكرر كقيته من الموجودات موضوعه الذي ينصب عليه . "وحصل من ذلك" ان مالا ينضبط بالآلات واجهزة القياس او بالمشاهدة المعهودة، يعني كل ما هو غير مادي، صار يوسم بالتخيل او التوهم أو التحايل اللفظي . ان اخف وصف اطلقتها مادية (Res Cogitans) في مقولاتها وادعاءاتها هو (التصورات) ! بصيغة الاستصغار والاستقلال". انظر المصدر السابق ص 144

8 العبثية متداولة في ميادين متعددة. لكنها تترادف مع "الوجودية" في الغالب. لتواتر استعمالها على لسان الفلاسفة الوجوديين كافة. بل اضيف اليها تميز الوجودية بها. يعرف (Paul Foulquire) الوجودية بـ " فلسفة العبث" انظر: Yrd. Doç. Dr. Emel Koç, "J.P.Sartre ve A. Camus Felsefelerinin Absürd (Saçma) kavramı Açısından Değerlendirilmesi", Felsefe Dünyası, s. 27, Yaz, 1998, s. 54.

9 يدعي سارتر بعدم خلق الله تعالى للعالم، وايضاً لا يمكن العالم ان يوجد نفسه، ولا توجد قاعدة للوجود، ولا قدرة لتفسير الوجود . فهذا الوجود الذي لا سبب له لدى سارتر هو عبث . وهو في الوقت نفسه فضول وزيادة لعدم قيامه بسبب . انظر المصدر السابق ص 57 . ويردد ذلك على لسان بطل روايته " الدوامة " او " الغتيان " : " كنا مجموعة موجودات تضجر من ذاتها وتنزع منها . . . لأسبب يفسر وجود احدنا هنا او هناك. كل منا حجل ، وقلق في اعماقه، وفضولي ازاء الآخر. زيادة وفضول هذه هي العلاقة الوحيدة التي يمكن ان اقيمها بين هذه الاشجار، والقضبان الحديدية والاحجار الرملية. وانظر للمشاكل الفلسفية التي خلفتها وجودية سارتر :

Kenan Gürsoy, J.P.sartre Ateizmi'nin Doğurduğu Problemler, (Ankara: 1987).

الانسانية. فهو يرى ان الحرية لازمة لوجودية الانسان، وعليه ان يتحرك من المبدأ الفوري ومن حيثما وجد، متجرداً عن القيم كافة، ومن محور تحقيق الذات.¹⁰ ان هذه التصورات تضم في طياتها رفضاً للتعاليم الاخلاقية والقيم الدينية والاجتماعية. ولا يمكن التفكير في المعضلات التي تواجه البشرية والازمات التي تعصف بها، بمعزل عن مثل هذه التصورات وتياراتها الفلسفية. يقول روجيه جارودي منتقداً هذه التصورات: "ان المتنبئين الكذابين للعدمية والعبثية يحسون عقول الشباب بانعدام مغزى الحياة بدلاً عن بذل الجهد في التغلب على هذا الفوضى، فيصرون الكابوس حالة قهرية ولانهائية"

ان سلب المعنى من الحياة يجعل كل شئ مشروعاً، حتى الجريمة. اننا مستسلمون الى مظاهر العنف الحيواني عالمياً، جماعات وافراداً.¹¹

ونتساءل من منطلق حماية البيئة: ماذا تعني معضلات البيئة للفرد او المجتمع في ظل افكار النظام والانسجام والتوازن البيئي في الطبيعة ومبدأ التصارع واكتساح الضعيف¹² وسيادة المنافع والمصالح الشخصية ومشروعية التضحية بالبشر، بله الطبيعة، من اجل تحقيقها؟ وما حال الافراد والمجتمعات التي تحكمهم وتسودهم مثل هذه المفاهيم والفرضيات؟ وهل يعقل ان نأمل الاهتمام بالبيئة او بحقوق الاجيال القادمة او الانوع المتعرضة الى الانقراض والزوال من شخص يظن ان عليه ان يتمتع بلاقيد في هذه الحياة التي لا يبعث بعدها في الآخرة، وان معيار الحق والصواب هو القوة، وان مقصود الحياة الوحيد هو الاستجابة الشرهة لرغبات النفس وحاجاتها اللانهائية؟ ان المفكر والمؤرخ المعاصر ارنولد توينبيني (Toynbee) يرد على مثل هذه الاسئلة رداً سلبياً فهو يعتقد ان المبدأ الذي يسود الغرب ويسري في كافة المجتمعات الحديثة كسريان الوباء هو ان الشهوة العارمة للرغبات المادية والتصرفات الانانية للانسان المعاصر... تستبيح كل شئ من اجل نفعه الذاتي ولذته النفسية، فيقول:

10. Albert Camus, *The Stranger*, (New York: Vintage Books, 1996). وايضاً لرأيه في الموضوع وفي العبثية انظر:

The Myth of sisyphus and Other Essays, trans. J.O'Brain, (New York: Vintage Books, 1960), s. 5, 21, 36-38, 45; *The Rebel. An Essay on Man in Revolt*, trans. A.Bouet, (New York: Vintage Books, 1956), s. 21, 100-103. Ayrıca bkz: Glynn, Patrick, "Beyond the Death of God" *National review*, c. 48 (May 6 1996), s. 28. وانظر لمقولات ديستوفسكي (Dostoevsky) عن نتائج فلسفة العبث

: *The Brothers karamazov*, trns. C. Garnett, (New York: The Modern library, 1942), s. 299-301. Ayrıca yine Camus'un farklı bir değerlendirmesi için: Prof. Dr. İsmail Tunalı "Kurtarıcı Olarak Çağdaş Felsefe ve Çağdaş Sanat", Türkiye'de I. Felsefe mantık Bilim tarihi Sempozyumu Bildirileri, yayına Hz: Kenan Gürsoy - Alparslan Açıkgenç, (Ankara: Ülke yayın Haber, 1992), s. 131

11 Roger Garaudy, *İslam ve İnsanlığın Geleceği*, ter: Cemal Aydın, (İst: Pınar Yayınları, 1990), s.29
12 من الجدير ان نتذكر في هذا السياق نظرية دارون التي تصور الحياة صراعاً وتؤكد على حق الحياة للأقوى. ولم تكف النظرية بتأصيل الطبيعة والكون على هذا الفرار، بل صارت مهذاً ترعرعت الداروينية الاجتماعية فيها لتحت الدول الغربية القوية على اكتساح الشعوب والدول الضعيفة واخضاعها. لذلك تعرضت النظرية الى انتقادات شديدة بذاتها، وايضاً باعتبار النتائج الاجتماعية المترتبة عليها. انظر Firitjof Capra, *Turning Point*, s. 44-45. David Pepper, *roots of Modern Enviromentalism*, s. 100-103.

" البشر المدفوعون بالشهوة المادية ينظرون بمنظار ضيق فيقولون : ليكون الطوفان من بعدي !، وهم يعلمون حقاً بانهم اذا لم ينجحوا في كبح زمام اندفاعهم الغريزي فسوف يحكمون على ابنائهم بالزوال. وبدهي ان يحبوا ابناءهم . لكن هذا الحب قد لا يكفي للتضحية بجزء من ثروتهم من اجل ضمان مستقبل ابنائهم. واطن ان انسياق الاجيال المعاصرة في الدول المتقدمة الى التضحية السريعة على حساب مصالحها الذاتية بغير الانشداد بهذا الهدف انشداداً اعتقادياً وايمانياً"¹³

في ظل تلك النظريات، ابتعدت المجتمعات المعاصرة عن الدين والقيم المعنوية التقليدية طوال القرن التاسع عشر خاصة، ثم النصف الاول للقرن العشرين. ان مقولة نيتشة الوجيزة " مات الاله ! تدل دلالة واضحة على هذه الحالة كما تدل على ان الاوامر الالهية والقيم المعنوية فقدت فعاليتها لدى "الانسان المتعصرن" ! ومن المشهور ايضاً ان المفكر والروائي الروسي دستوفسكي (الذي عاصر نيتشه) يقول : "اذا كان الاله قد مات ! فان كل شئ مباح وفعل كل شئ مرخص به" !¹⁴ ومن المعلوم كذلك ان هذا المفكر انطلق من هذه النقطة ليصل الى اثبات الله (سبحانه) وافتقاد معنى الحياة بغير الله وانسياقها الى الاضطراب والفوضى بدونه ، مثلما قصد الى هذه الغاية في روايته " الجريمة والعقاب "

لقد اشار سعيد النورسي منذ ريعان شبابه الى ان الخلاص من العيثة واللاغاثة ومنطق الشرعية المطلقة للقوة هو معرفة الله : " ان معرفة الله نقطة استناد وحيدة للانسان، تجاه تقلبات الحياة ودواماتها، وتزاحم المصايب وتوالي النكبات"¹⁵ ويقول :

" لو لم يعتقد الانسان بالخالق الحكيم الذي امره كله حكمة ونظام، واسند الامور والحوادث الى المصادقات العمياء، وركن اليها والى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً، فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا. وسيشعر بحالات أليمة تذكر بعذاب جهنم.. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الانسان المكرم، اذ يستلزم

13 Arnolda Toynbee- Daisaku Ikeda. Yaşamı Seçin, Çevri: Umut Arık, (Ankara : Ankara Ün.Basımevi, 1992), s. 74-75. Dr. Ibrahim Özdemir, Çevre ve Din, (Ankara: Çevre bakanlığı yayınları, 1997), s. 74-75. وللمفكر الياباني (Ikeda) آراء مشابهة، بل اوسع نطاقاً: " أطلقت الحضارة العلمية - التكنولوجية المعاصرة عنان الطموحات الانسانية تماماً - وفي الحقيقة هي بذاتها نتاج الطموحات الغريزية المادية المطلقة العنان - ، فاذا لم نتفهم جميعاً هذه الحال، ولم نحكم عليها بهذا المنطق، لن نستطيع الحد من تخريب البيئة الطبيعية وربما انقرض بني البشر انفسهم " (من اختيار الحياة - الترجمة التركية ص 42)

14 من ص 282 . في كتاب آخر لديستوفسكي يقول بشأن العلاقة بين القيم الأخلاقية ووجود الله : " اذا كان الاله غير موجود، اكون انا الله (حاش) واذا كان موجوداً ، فكل شئ بارادته وليس لي مفر من ارادته. واذا استطعت الخلاص من ارادته ، فكل شئ في ارادتي انا ، وعلى ان أظهر ارادتي . انظر ، Fyodor Dostevsky , The Possessed, trans. C. Garnett, (New York: E.P. Dutton & Co. Everyman's Library, c.II. 1931), s. (New York: Tha Modern library, 1942), s. 299 - 301

وانظر لرأيه عن نتائج الفلسفة العيثة : The Brothers Karamazov : لنفس المترجم طبعة نيويورك سنة 1942 ص 299 - 301 (ملاحظة المترجم : ان مثل هذه الآراء السقيمة تدلنا على جهتين: الاولى : سموق علماء الكلام المسلمين الذين يعدون هذه المسائل ابتدائية. فقد اشبعوا موضوع الارادة والاختيار والاضطرار بحثاً وتوصلوا الى نتائج تجعل مثل هذه الافتراضات كليلة وهزيلة. والثانية : قصور فلاسفة العصر الحديث عن اللحاق بما بلغه الفلاسفة المسلمون ومتكلموهم. ولو اختصروا الطريق على انفسهم بدراسة التراث الاسلامي ملياً ثم عرجوا على معضلاتهم العقلية، لوفروا للانسانية زمناً طويلاً تقضيه في التجربة وتمحيص الاستدلال واكتشاف ما هو مكتشف اصلاً)

سقوطه الى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي روح النظام المتقن القائم في الكون كله".¹⁶

هكذا كان مصنف رسائل النور سعيد النورسي ، يرد على تحديات " العصرنة " ، وينبه باصرار الى النظام والانسجام والتوازن والجمال في الكائنات التي يسميها (كتاب الكائنات) ، بفهم جديد لمعاني القرآن الكريم . منطلقا من اظهار آلاء وجود الله باسمائه الحسنى . ونجد ذلك شبيهاً بمنهج الغزالي.¹⁷ ان تنبيه سعيد النورسي الى الاسماء الحسنى مسألة مهمة. فهو يجعل الانسان مبصراً الى الكائنات بنظر القرآن، ويجدد ايمان المسلم.¹⁸ فيرد لوثات الفلسفة المادية الحديثة وشبهاتها من حيث ما علقت بايمان المسلم باثبات وجود الله والآخرة والحشر والنبوة بأسلوب مقنع .

حياته تنبض بالحساسية ازاء البيئة :

عند تفحصنا آراء سعيد النورسي عن البيئة ، وجدنا تعلقه بالبيئة منذ صباه تعلقاً شديداً ، حتى يمكن القول بان حب الطبيعة نمت وتطور معه بتطوره الفكري فصار اساساً بنى عليه آراءه كلها. لقد شغف حباً بالطبيعة وموجوداتها منذ صباه،¹⁹ ورصد الجبال والهضاب والانهار والعيون والسهول وما فيها من حيوانات في دهشة واستطلاع، وامتلات نفسه بحبها والشفقة عليها. ولا تخفى عليه آثار القول الصوفي السائد في الاناضول الشرقية التي نشأ فيها.²⁰ ويكفي القاء نظرة عاجلة على الكتب التي أرخت سيرته ومذكرات طلابه، للدلالة على استطلاع الغائر للطبيعة ومنذ صباه. فيروى من سيرته في (تلو) انه اطعم النمل من الطعام الذي يقدمه اهل القرية اليه اعجاباً بحياة النمل الاجتماعية ، ايام اعتزاله في " المقام " لحفظ "القاموس المحيط" عن ظهر الغيب. كذلك انتهاره لاحد طلابه اراد قتل حيوان من الزواحف بالقول: هل انت الذي احببته حتى تقتله . ومنع الحارس المرافق له اثناء تغريبه (نفيه) الى "بارلا" من اطلاق النار على طائر القبج بقوله : انها ايام التفريخ !. وكتب في السجن رسالة صغيرة عن (الذباب) متأثراً بقتلها بالمستحضرات الكيميائية.²¹ ومعروف تعلقه بوشائح الأئس والالفة بالموجودات التي تحيط به اينما حل وارتحل، ومنها شجرة الدلب امام بيته في "بارلا". خلاصة القول انه ارتبط بوشائح الالفة بكل

16 نفسه/122

17 يبحث الامام الغزالي في " جواهر القرآن " الذي صنفه بعد " احياء علوم الدين " في القرآن ووجود الله تعالى وتجليات اسمائه الحسنى في الكائنات ويشير الي 763 آية وردت في السور المكية خاصة ويصفها بقلب القرآن ، باعتبارها آيات عامة وشاملة تتعلق بالله والمبدأ والمعاد ، وربما تعلقت غيرها بأية أخرى او بسبب خاص . انظر الغزالي: جواهر القرآن الترجمة التركية طبعة سنة 1971 ، واحياء علوم الدين (الترجمة التركية - طبعة استانبول سنة 1975) ح 4 ص 759 (كتاب التفكير)

18 من المعلوم ان الحلم الكبير للعلامة محمد اقبال كان مشروع احياء الفكر الاسلامي. ومرتكزه قرآني على خلاف الفلاسفة المسلمين الكلاسيكيين . انظر Muhammed Ikbali, cev:Ahmed Asras, Dini Dusuncenin yeniden Insasi (Ist.Birlesik yayincilik)

وانظر ايضاً من اجل مقارنة فكر النورسي بفكر اقبال بحث الدكتور جلال جلالي زادة في المؤتمر العالمي الثالث ليدبع الزمان النورسي باستانبول سنة 1995

19 سيرة ذاتية

20 Serif Mardin, Bediuzzaman Said Nursi olayi(Ist. Iletisim.1992)

21 انظر للمعات / 410-414

ما في الكائنات والموجودات حوله وطور علاقة مع المخلوقات كلها على اساس الشفقة والرحمة والحكمة.

بعبارة اخرى، طرح سعيد النورسي المسائل الآتية بعدما اقام صرحها على ارضية قرآنية تماماً :

- ما معنى الكائنات

- من اين جاءت الموجودات والى اين تمضي

- ما مصدر الجمال والنظام والانسجام والكمال في الكائنات ؟

- ما الانسان ؟

- ما وظيفة الانسان ومسؤوليته ؟

ان لب مشروع النورسي هو الجواب القرآني على مثل هذه المسائل التي لم تبحر الفلسفة تبحت عنها منذ ميلادها. لنلقي نظرة على المسائل الاساسية التي اثارته اهتمامه من خلال هذه الفقرة الواردة في اوائل مصنفاته :

"لما كان بنو آدم كركبٍ وقافلةٍ متسلسلةٍ راحلةٍ من اودية الماضي وبلاده، سافرةٍ في صحراء الوجود والحياة، ذاهبةٍ إلى شواهد الاستقبال، متوجهةٍ إلى جنّاته، فتتهنز بهم المناسبات وتتوجه اليهم الكائنات. كأنه أرسلت حكومة الخلق فن الحكمة مستتقاً وسائلاً منهم بـ "يا بني آدم! من أين؟ إلى أين؟ ماتصنعون؟ من سلطانكم؟ من خطيبكم؟"

فبينما المحاور، اذ قام من بين بني آدم - كأمثاله الأمثال من الرسل اولي العزائم - سيّد نوع البشر محمد الهاشمي م وقال بلسان القرآن²² .

فهو يسعى الى تحديد المعالم للنظرة القرآنية الى الحياة وتعريف الفرد الذي يجسد هذه النظرة . فوضع منظوراً موصولاً بالقرآن الكريم لعالم حي ، كما هو في الاديان السماوية والموروثات القديمة، وربط بذلك الوشائج بين الانسان والكائنات والله تعالى برابطة التوحيد .

البعد الميتافيزيقي للكائنات (ماوراء الطبيعة):

لا يفتأ سعيد النورسي يؤكد على البعد الميتافيزيقي باصرار حتى يبني رؤيته للعالم عليه. وخالصة رأيه ان الكائنات وما فيها من موجودات هي من خلق الله سبحانه.

فهو يؤسس ما يأتي بناء على الآية الكريمة: (وان من شيء الا يسبح بحمده):

أ - ان في كل شيء وجوهاً كثيرة جداً متوجهة - كالنوافذ - الى الله سبحانه وتعالى.

ب - ان حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية.

ج - حقيقة كل شيء تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء.

د - وان الاتقان الموجود في الاشياء يستند الى اسم من الاسماء.

حتى ان علم الحكمة الحقيقي يستند الى اسم الله «الحكيم» وعلم الطب يستند الى اسم الله «الشافى» وعلم الهندسة يستند الى اسم الله «المقدر»... وهكذا

هـ - كل علم من العلوم يستند الى اسم من الاسماء الحسنى وينتهي اليه . كما ان حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمل من البشر، تستند كلها الى الاسماء الإلهية الحسنى.

فهو في النتيجة يشارك الأولياء في رأيهم بان " حقائق الاشياء الحقيقية هي الاسماء الالهية ، اما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق ". " الحقائق الحقيقية للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق ".²³ ويقول انطلاقاً من الآية 18 / سورة الحج :

"ان القرآن الحكيم يصرح بان كل شئ من العرش الى الفرش، ومن الملك الى السمك، ومن المجرات الى الحشرات، ومن السيارات الى الذرات . كل منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقدسه. الا أن عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كلٌ حسب قابلياتها، ومدى نيلها لتجليات الأسماء الحسنى".²⁴

ثم يبين أن في الكائنات مقاصد وغايات مستقلة عن الانسان ، ويحدد بذلك عن نظرية مركزية الانسان (Anthropocentric)²⁵ القائلة بان مقصود خلق الكائنات هو المحورية الانسانية .

"نعم، ان لوجود كل شئ غايات، ولحياته أهداف ونتائج، فهي ليست بمنحصرة - كما يتوهم أهل الضلالة - على الغايات والمقاصد التي تتوجه الى الدنيا أو التي تنحصر في الوجود نفسه، حتى يمكن ان يتسلل اليها العبث وعدم القصد. بل ان غايات وجود كل شئ ومقاصد حياته ثلاثة أقسام:

اولها : وهو أسماها وهو المتوجه الى صانعه سبحانه وتعالى. أي: عرض دقائق صنع كل شئ وبديع تركيبه امام انظار الشاهد الأزلي سبحانه - بما يشبه الاستعراض الرسمي - حيث تكفي لذلك النظر حياة الشئ ولو للحظة واحدة. بل قد يكفي استعداده لابرار قواه الكامنة - الشبيهة بنيته - ولما يبرز الى الوجود. ومثاله: المخلوقات اللطيفة التي تزول بسرعة والبذور التي لم يتسن لها اعطاء ثمارها وازاهيرها، تفيد هذه الغاية وتعتبر عنها تماماً، فلا يطراً عليها عبث ولا انتفاء النفع البتة. أي ان أولى غايات كل شئ هو: إعلانه واطهاره - بحياته ووجوده - معجزات قدرة صانعه، وأثار صنعه، امام انظار عناية مليكه ذي الجلال.

والقسم الثاني من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه الى ذوي الشعور أي ان كل شئ بمثابة رسالة ربانية زاخرة بالحقائق، وقصيدة تنضح لطفاً ورقة وكلمة تفصح عن الحكمة، يعرضها الباري عز وجل امام انظار الملائكة والجن والحيوان والانسان، ويدعوهم الى التأمل، أي ان كل شئ هو محل مطالعة وتأمل وعبرة لكل من ينظر اليه من ذوي الشعور.

23 الكلمات/ 749

24 الكلمات/ 403

Dr. İbrahim Özdemir, "Çevre Hukukunun Antropocentrik karakteri, Felsefe Dünyası, Sayı: 27, 1998, 25 s. 68-80.

وانظر ايضا، Peter Adam Angeles, dictionary o Philosophy, (London: Haber & Row, 1981); Baird Callicott, "Non-Anthropocentric Value Theory and Environmental Ethics", American Philosophical quarterly, vol. 21, No. 4 October, 1984, s. 299.

القسم الثالث من غاية الوجود وهدف الحياة هو: التوجه الى ذات نفسه؛ كالتمتع والتلذذ وقضاء الحياة والبقاء فيها بهناء، وغيرها من المقاصد الجزئية"²⁶ وبعد ان يبين ان مقصود الكائنات ليس الانسان وحده ، يقدم مثالا لمقصود خلقها الاول والاصيل :

"نعم ! لو نظرت الى وجوه الموجودات المتوجهة الى الاسماء الحسنى والى عالم الآخرة لرأيت:

ان لكل بذرة - وهي معجزة القدرة الالهية - غايات كبيرة كبر الشجرة .
وان لكل زهرة - وهي كلمة الحكمة معاني جمّة بمقدار ازهار الشجر .
وان لكل ثمرة - وهي معجزة الصنعة وقصيدة الرحمة - من الحكم ما في الشجرة نفسها . أما من جهة كونها أرزاقاً لنا فهي حكمة واحدة من بين الوفاء الحكم، حيث أنها تنهي مهامها، وتوفي مغزاها فتموت وتدفن في معدتنا .
فما دامت هذه الاشياء الفانية تؤتي ثمارها في غير هذا المكان، وتودع هناك صوراً دائمة، وتعبّر عن معانٍ خالدة، وتؤتي اذكارها وتسايحها الخالدة السرمدية هناك . فالانسان اذن يصبح أنساناً حقاً مادام يتأمل وينظر الى تلك الوجوه المتوجهة نحو الخلود . وعنده يجد سبيلاً من الفاني الى الباقي"²⁷ .
كذلك ، يبين ان الكائنات والموجودات تعكس كالمرايا اسماء الله الحسنى ويؤكد ان هذا المعنى هو معنى قرآني :

"فافهم من هذا: استناد حقائق الاشياء الى الاسماء الحسنى، بل الحقائق الحقيقية انما هي تجليات تلك الاسماء . وان كل شئى بجهات كثيرة وبالسنة كثيرة يذكر صانعه ويسبحه ويقده .

وافهم من هذا معنى واحداً من معاني الآية الكريمة: {وان من شئى الا يسبح بحمده} وقل: سبحان من اختفى بشدة ظهوره . وافهم سراً من اسرار خواتيم الآيات وحكمة تكرار امثال: {وهو العليم القدير} . {وهو الغفور الرحيم} . {وهو العزيز الحكيم} .

فان لم تستطع ان تقرأ في زهرة واحدة الاسماء الحسنى وتعجز عن رؤيتها بوضوح، فانظر الى الجنة وتأمل في الربيع وشاهد سطح الارض، عند ذلك يمكنك ان تقرأ بوضوح الاسماء المكتوبة على الجنة وعلى الربيع وعلى سطح الارض، التي هي ازاهير كبيرة جداً لرحمة الله الواسعة"²⁸ .
وبعد ان يؤكد ان هذه هي خصوصية النظرة القرآنية ، يميز بينها وبين نظرة الفلسفة المعاصرة بخصوصية مهمة هي :

26 الكلمات/79

27 الكلمات/92 وقد سئل في هذا المعنى: " لم تورد اغلب الامثلة من الزهرة والبذرة والثمرة؟ الجواب: لانها ابداع معجزات القدرة الالهية واعجبها وأطفها . ولما عجز اهل الضلالة والطبيعة والفلسفة المادية من قراءة ما خطه قلم القدر والقدرة فيها من الكتابة الدقيقة، تاهوا وغرقوا فيها، وسقطوا في مستنقع الطبيعة الاسن". الكلمات/92

28 الكلمات/754

"ان القرآن الكريم، ببياناته القوية النافذة، انما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلا انها عادية مألوفة مع انها خوارق قدرةٍ بديعةٍ ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويُلفت انظارهم الى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم امام العقول.

اما حكمة الفلسفة، فهي تخفي جميع معجزات القدرة الالهية وتسترها تحت غطاء الألفة والعادة، فتجاوزها دون اكثرات. بل تتجاهلها دون مبالاة بها، فلا تعرض امام انظار ذوي الشعور الا افراداً نادرة شددت عن تناسق الخلق، وتردّت عن كمال الفطرة السليمة مدّعية انها نماذج حكمة ذات عبرة"²⁹

ومن الضروري في هذا السياق ان نلم بمفهومين يتداولهما سعيد النورسي عندما يتحدث عن الطبيعة لنعلم نوع تصوراتها عنها، وهما: المعنى الحرفي والمعنى الاسمي. يرى بديع الزمان في أثناء اشارته الى الطبيعة والكائنات ان المقصود الاساسي للقرآن غير مباشر.

وبإفادة اخرى، أن القرآن لا يشرح الكائنات باسم الكائنات، بل باسم خالقها وصاحبها الله تعالى. فالله تعالى خلق الكائنات، وكل ما فيها من موجودات هي آياته وعلامات تدل عليه.

ونلاحظ ان هذه المفاهيم التي يتداولها كبار المتصوفة،³⁰ ترد في المصنفات الاولى لسعيد النورسي. وتتكرر هذه المفاهيم في مصنفات رسائل النور بعد ذلك، لكن بحيوية وتأثير اكبر. لنلق نظرة عليها كما في مصنفاته في المرحلة الاولى. يقول في "المتنوي العربي النوري" الذي صنّفه بالعربية في المرحلة التي يسمى فيها بـ "سعيد القديم":

"اني حصلت في اربعين سنة في سفر العمر، وثلاثين سنة في سير العلم: اربع كلمات، واربع جمل. سيجئ تفصيلها. اشير هنا الى الاجمال..

اما الكلمة فهي: المعنى الحرفي، والمعنى الاسمي، والنية، والنظر.

اعني: ان النظر الى ما سواه تعالى، لا بد ان يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وان النظر الى الكائنات بالمعنى الاسمي اي بحساب الاسباب خطأ. ففي كل شئ وجهان: وجه الى الحق، ووجه الى الكون. فالتوجه الى الوجه الكوني لا بد ان يكون حرفياً وعنواناً للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبته اليه تعالى. مثلاً: لا بد أن يُرى النعمة مرآةً للنعام، والوسائط والاسباب مرايا لتصرف القدرة"³¹

نوع نظرة وقراءة جديدتين: المعنى الحرفي:

29 الكلمات/150

30 انظر من اجل علاقة الطبيعة والإنسان في التصوف وآراء كبار المتصوفة في هذا الموضوع: Annemarie Schimmel. deciphering the Signs of God: A Phenomenological Approach to Islam, (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1994); S. Hossein Nasr, Introduction to Islamic Cosmological Doctrines, (London: 1978), Sufi Essays, (Albany: SUNY Press, 1991), Religion and The Order of Nature, (New York, Oxford: Oxford University Press, 1996).

31 المتنوي العربي النوري/105

أرى ، ان من وسائل فهم فلسفة البيئة عند سعيد النورسي هو العبور من ثانيا " المعنى الاسمي " و " المعنى الحرفي " فاذا فهمنا ارضية المنطق التي بني عليها تأصيل هذين المصطلحين ، سنتعرف ايضاً على الاصل الذي اقيم عليه مشروع " رسائل النور " .

ان هذا التوجه في رسائل النور ، جلب انتباه طلاب النور الاوائل. فقد تساءل " رأفت بك " ، احد الطلبة الاوائل ، عن " المعنى الاسمي " و " المعنى الحرفي " اللذين يتكرران في مصنفات المرحلة الاولى في " بارلا " ، واجابه النورسي مفصلاً في ثنياه عن منظوره الى الطبيعة : "إذا نظرت الى المرأة من حيث انها زجاجة، فانت ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئاً ثانوياً بينما ان كان القصد من النظر الى المرأة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح امامك حتى تدفعك الى القول (فتبارك الله احسن الخالقين) (المؤمنون: 14) بينما يبقى زجاج المرأة أمراً ثانوياً.

فالنظرة الاولى تمثل «المعنى الاسمي» اي: زجاجة المرأة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها «معنى حرفي» غير مقصود. اما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي اذن معنى «اسمي» أما الزجاج فمعنى حرفي.

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم انه: دلّ على معنى في نفسه. اما الحرف فهو الذي: دلّ على معنى في غيره.

فالنظرة القرآنية الى الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، اي انها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى انها تعبّر عن تجليات الاسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة - المادية - الميتة فهي تنظر على الاغلب بالنظر الاسمي الى الموجودات، فتزل قدمها الى مستنقع الطبيعة"³².

ويوجد جواب مهم آخر فيما يخص موضوعنا . الملاحظ ان النورسي يبدأ في معظم مصنفاته ورسائله ومدوناته بالآية الكريمة: {وان من شئ الا يسبح بحمده} (الاسراء:44) . فاسلوب النورسي يجلب الانتباه ، بقدر مضمون الجواب :

" كلُّ حرف مجسم من كتاب الكائنات يدل على نفسه بمقدار جرمه ويُظهر ذاته بمقدار صورته، لكن يدل على صانعه بوجوه كثيرة، افراداً وتركيباً بدخوله في المركبات. ويُظهر اسماء صانعه ويُشَد في بيانها بمقدار قصيدة طويلة"³³.

سبق ان ذكرنا ان النظر الى الكائنات ككتاب وقراءتها ، برز بشكل اكثر حيوية وتأثيراً في مرحلته التي يسميها " سعيد الجديد " وخير انموذج لذلك هو اللمعة الثلاثون التي تشرح الاسماء الحسنى :

32 الملاحق/90

33 المشوي العربي النوري /44

"ان التجلى الاعظم لاسم (الحكم) جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبت في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وحُطت في كل كلمة منه مئات الاسطر، تُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُوِّط في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة - بمئات الأوجه - على مصوره وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا الى معرفة وجوده وحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه اضعافاً مضاعفة. اذ بينما يدل الحرف الواحد على وجوده ويعبر عن نفسه بمقدار حرف فأنه يعبر عن أوصاف كاتبه بمقدار سطر..

نعم ! ان سطح الارض (صحيفة) من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتباً بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهي تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والاتقان من دون خطأ، كتابةً متداخلة، جنباً الى جنب، في آن واحد. والبستان (سطر) من هذه الصحيفة، نشاهد فيه قصائد منظومة وهي تُكتب أمام أعيننا بعدد الازهار والاشجار والنباتات، كتابةً متداخلة، جنباً الى جنب، من دون خطأ.

والشجرة النامية الزاهية أوراقها، المفتحة أزهارها، وقد أوشكت أن تخرج أثمارها من اكمامها، هذه الشجرة (كلمة) من ذلك السطر، فهذه الكلمة تمثل فقرةً كاملة ذات مغزى تعبر تعبيراً بليغاً عن ثنائها وحمدها ودلائها على (الحكم) ذي الجمال، بعدد أوراقها المنتظمة وأزهارها المزينة وأثمارها الموزونة، حتى لكأن تلك الشجرة المفتحة الازهار قصيدةً عصماء تتغنى بالمدح والثناء على آلاء بارئها المصور الجليل.

وكأن (الحكيم) ذا الجلال يريد أن ينظر عباده الى ما عرضَه من بدائع آثاره وعجائب مخلوقاته في معرض الارض البديع بألوف من العيون. وكأن تلك الهدايا الثمينة والأوسمة الغالية والشارات اللطيفة التي منحها الله تعالى لتلك الشجرة قد أعطتها من الشكل الجميل المزين، والهيئة الموزونة المنتظمة، والابانة الحكيمة البليغة ما يهيؤها للعرض أمام أنظار الملك العظيم في يوم عيده البهيج وعرضه العام للمخلوقات .. في الربيع الزاهي .. فتنتطق بالشهادة على وجود البارئ المصور، والدلالة على أسمائه الحسنی السنية عديدة ووجوه كثيرة متداخلة، من كل زهرة من أزهار الشجرة، ومن كل ثمرة من ثمارها.

فمثلاً: ان كل ما في الزهرة والثمرة موزونٌ بميزان دقيق، وذلك الميزان مقدر وفق تناسق بديع، وذلك التناسق يسير منسجماً مع تنظيم وموازنة يتجددان، وذلك التنظيم والموازنة يجريان في ثنايا زينة فاخرة وصنعة متقنة، وتلك الزينة والاتقان يظهران بروائح ذات مغزى وبمذاقات ذات حكمة.. وهكذا تشير كل زهرة الى (الحكم) ذي الجلال اشاراتٍ، وتدل عليه دلالات، بعدد أزهار تلك الشجرة.

والشجرة التي هي بمثابة كلمة، وثمارها التي هي بحكم حروف تلك الكلمة، وبدور الثمر كأنها نقاط تلك الحروف التي تضم فهرس الشجرة كاملاً وتحمل خطة اعمالها. هذه الشجرة اذا اخذناها مثلاً وقسنا عليها كتاب الكون الكبير، نرى سطوره وصحائفه قد صارت بتجلي انوار اسم (الحكيم الحكيم) معجزة باهرة، بل غدت كل صحيفة منه، وكل سطر منه، وكل كلمة، وكل حرف، وكل نقطة معجزة تبلغ من العظمة مالو اجتمعت الاسباب المادية كلها على أن تأتي بمثل تلك النقطة – أي البذرة – أو بنظيرها لا تأتي بمثلها. بل تعجز الاسباب جميعها عجزاً مطلقاً عن معانتها".³⁴

فلاحظ ان النورسي يصف الكائنات هنا بصفة " كتاب عظيم " ويكررها مرات عديدة . وايضاً، تأكيده على النظام والتوازن الذي يثير اهتمام البينيين فهو يبرهن على وجود الله سبحانه بدليل النظام والتوازن من جهة ، ويحث ضمناً على حمايتهما ، اذ يقول : " ليس في الفطرة اسراف او عبثية او عدم الفائدة . الاسراف ضد اسم " الحكيم " ، والاقتصاد لزومه ودستوره الاساس " ثم يردف " : " ايها الانسان المبذر

...
 "ان تعقب الصانع الجليل – بمقتضى اسم (الحكيم) لألطف صورة في كل شيء واقصر طريق، وأسهل طراز، وأنفع شكل.. يدل دلالة واضحة على ان الفطرة لا إسراف فيها قط ولا عبث، فما من شيء إلا وفيه نفعه وجدواه، ومثلما ينافي الاسراف اسم (الحكيم) فالاقتصاد لازمه ومقتضاه ودستوره الاساس.
 فيا ايها المسرف المبذر ! اعلم مدى مجانيته الحقيقية بقعودك عن تطبيق أعظم دستور للكون المبني على الاقتصاد. وتدبر الآية الكريمة {وَكُلُوا واشربوا ولا تُسرفوا} (الاعراف:31) لتعلم مدى رسوخ الدستور الواسع الشامل الذي ترشد اليه".
 35

ويرى بيدع الزمان النورسي ان السبب الاساس في ابضاحات القرآن الكريم عن الكائنات " استطرادي " وغير مباشر . فالقرآن الكريم لا يذكر الكائنات لذاتها، بل لدلالاتها على الخلق الالهي وعلى وجوده تعالى " ... كل مصنوع هو لسان يسبح بحكمة الصانع ، وكل نوع يرفع اصبعه مشيراً ومنتشهاً ... " وكل فرد من الكائنات - التي دخلت الى المجلس الاعلى القرآني- مكلف باربع وظائف ، نذكر منها الوظيفة الاولى والرابعة لتعلقهما بموضوعنا :

- اعلان سلطنة السلطان الازلي ، بالانتظام والاتفاق .
 - توجيه الافكار الى حقائق الاشياء والحث عليها والتنبيه اليها، من حيث ان كل فرد منها نموذج لحقيقة من الحقائق. فمثلاً: ان القسَم بالاجرام العلوية والسفلية في القرآن الكريم، انما هو لتنبيه الغافلين دوماً وحثهم على التفكير. فالقسَم القرآني قرع العصا لمن غط في نوم الغفلة".³⁶

34 للمعات 528-530

35 للمعات 536

36 صيقل الإسلام – محاكمات 30

فالنورسي يوضح ان الغاية الاساسية من القسّم القرآني بالموجودات الذي يتكرر اكثر في السور المكية ، هو ايقاظ الانسان الغافل من غفله .³⁷ ان هذا المنظور الظاهر في مصنفاته الاولى ، شكل الاساس والنوية لمجموعة مصنفاته اللاحقة المسماة "كليات رسائل النور" . زيادة على ذلك ، تميزت الكليات من جهة باتخاذها القرآن الكريم محوراً لمنظورها ، يعني اعتمدت على النص القرآني مباشرة . من جهة اخرى ، سايرت خطوط الغزالي والامام الرباني ومولانا جلال الدين الرومي.³⁸ وبعبارة اخرى ، يمكن القول ان بديع الزمان طور بعض الافكار المذكورة في مصنفاته الاولى بأسلوب ادبي وشعري يخاطب الجميع ، من اجل

37 ننبه الى مفهوم الغفلة ، ونستعين باقتباس من متصوف مشهور . سئل بايزيد البسطامي : ما سنك ؟ اجاب : اربع سنوات . فتعجبوا من كلامه فقال : الدنيا منعتني عن ان ارى الله سبعين عاماً . فما رأيته إلا من اربع سنوات . فعنده ان الغفلة عن رؤية الله لا تعد من العيش . ذكره نيكلسون . وقيل ايضاً القرب أدنى مراتب العلم .
38 يوضح النورسي ذلك بقوله في المثنوي العربي النوري :
"كان سعيد القديم - قبل حوالي خمسين سنة - لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلكاً ومدخلاً للوصول الى حقيقة الحقائق ، داخلاً في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة . وكان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها - كالكثير اهل الطريقة - بل جهد كل الجهد اولاً لانقاذ عقله وفكره من بعض الاسقام التي اورثتها إياه مداومة النظر في كتب الفلاسفة .
ثم اراد - بعد أن تخلّص من هذه الاسقام - ان يقتدي ببعض عظماء اهل الحقيقة ، المتوجهين الى الحقيقة بالعقل والقلب ، فرأى ان لكل من اولئك العظماء خاصية جاذبة خاصة به ، فحار في ترجيح بعضهم على بعض . فخطر على قلب ذلك السعيد القديم الممخض بالجروح - ما في مكتوبات (الامام الرباني) من أمره له غيباً : (وحدّ القبله) أي ان الاستاذ الحقيقي انما هو القرآن ليس إلا ، وان توحيد القبلة انما يكون باستاذية القرآن فقط ، فشرع بارشاد من ذلك الاستاذ القدسي بالسلوك بروحه وقلبه على أغرب وجه ، واضطرته نفسه الامارة بشكوكها وشبهاتها الى المجاهدة المعنوية والعلمية .
وخلال سلوكه ذلك المسلك ومعاناته في دفع الشكوك ، قطع المقامات ، وطالع مافيهما ، لا كما يفعله اهل الاستغراق مع غرض الابصار ، بل كما فعله الامام الغزالي والامام الرباني وجلال الدين الرومي ، مع فتح ابصار القلب والروح والعقل ، فسار فيها - أي في المقامات - ورأى مافيهما بتلك الابصار كلها ، منفتحة من غير غرض ولا غمض .
فحمداً لله على ان وقّف على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وارشاده ، حتى بيّن برسائل النور التي ألفها (سعيد الجديد) حقيقة :

وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد

النقطة الثانية :

لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات ، ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل ، وبالعقل في حماية القلب كالامام الغزالي والامام الرباني وجلال الدين الرومي . فبادر الى ضماد جراحات قلبه وروحه ، وخلّص نفسه من الوسوس والاهام . وبخلاصه منها انقلب سعيد القديم الى سعيد الجديد ، فألف بالعربية ماهو بحكم المثنوي الشريف - الذي هو اصلاً بالفارسية - رسائل عدة في أوجز العبارات . وكلما سنحت له الفرصة أقدم على طبعها ، وهي : (قطرة ، حباب ، حبة ، زهرة ، ذرة ، شمة ، شعلة ، ودرس اخرى) مع رسالتين بالتركية وهما : لمعات ونقطة . وبين ذلك المسلك في غضون نصف قرن من الزمان في (رسائل النور) التي لم تقتصر على جهاد النفس والشيطان ، بل اصبحت شبيهة بمجموعة كلية واسعة من (المثنوي) تتقدّ الحيارى المحتاجين وتنتشل المنساقين الى الضلالة من اهل الفلسفة " . المثنوي العربي النوري/29
ويتنقص النورسي من شأن أفلاطون وارسطو والفلاسفة المسلمين الذين ساروا على آثارهما مثل الفارابي وابن سينا مع وصفهم بالدهاة فيقول في الكلمات :
"وان قلت : فما تكون انت حتى تنازل هؤلاء المشاهير ؟ فهل اصبحت نظير ذبابة حتى تتدخل في طيران الصقور ؟

وانا اقول : لما كان لي استاذ أزلي وهو القرآن العظيم ، فلا أراني مضطراً ان ابالي - ولو بقدر جناح ذبابة - في طريق الحقيقة والمعرفة ، باولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبتلى بالاهام . فمهما كنت أدنى منهم درجة إلا ان استاذهم ادنى بدرجات لا حد لها من استاذي ، فيفضل استاذي وهمته لم تستطع المادة التي اغرقتهم ان تبلل قدمي . نعم ! ان الجندي البسيط الحامل لأوامر سلطان عظيم وقوانينه ، يمكنه ان ينجز من الاعمال مالا ينجزه مشير لدى ملك صغير " . الكلمات /648

مقصود واحد هو : اظهار العلاقة بين الكائنات وبين خالقها ، وتوثيق صلة الانسان بالله تعالى وتعميقها .

"فكل ذرة من الذرات كما انها تدل على الخالق الحكيم، بوجودها المنفرد، وبصفتها الخاصة، وبكيفية المعينة، فان هذه الدلالة تتزايد، باعتبار كون الذرة جزءاً من مركبات متداخلة متصاعدة، ومن حيث الامكانيات والاحتمالات التي تسلكها، اذ لها في كل مركب مقام، وفي كل مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفي كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفي كل موقع مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفي كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفي كل موقع تحافظ على التوازن العام، وفي كل وظيفة تثمر مصالح شتى وحكماً عديدة. في كل مرتبة اذا تتلو الذرة بلسانها الخاص دلائل وجوب وجود صانعها الجليل وتظهر قصد خالقها الحكيم، وكأنها ترتل الآيات الكريمة الدالة على الوجدانية. مثلها في هذا كمثل الجندي الذي له وظيفة معينة وارتباط خاص مع كل من فصيله وفرقته والجيش كله.. ألا تكون اذاً البراهين الدالة على الله سبحانه وتعالى أكثر بكثير من عدد ذرات الكون، فما يقال من أن: (الطرق الى الله بعدد انفاس الخلائق) انما هي حقيقة صادقة لا مبالغة فيها قط، بل قد تكون قاصرة.

- سؤال: لماذا لا يرى الجميع بعقولهم الخالق العظيم ؟

الجواب: لكمال ظهوره جل وعلا، ولعدم الضد .

تأمل سطور الكائنات فانها من المأ الأعلى اليك رسائل

فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلى فيه النظام بوضوح تام بحيث يُظهر النظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزة القدرة في كل كلمة أو حرف فيه".³⁹
ان اظهار الكائنات كمكتوبات مرسله من المأ الأعلى ، وقراءتها ، والنتائج المستخلصة منها ، استنفدت الجزء الاعظم من جهود سعيد النورسي . وابرزت في الوقت نفسه الصفات الاساسية للانسان الذي يريده القرآن الكريم.

وان من اهم النتائج المستحصلة من مطالعة الكائنات ككتاب منظور هو :

" ان الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطل العقل نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراها، ويتأمل فيه ويتوجه اليه. والحدس - الذي هو سرعة انتقال في الفهم - يحرّكه دائماً. وكذا الالهام - الذي هو الحدس المضاعف - ينورّه دوماً. والعشق الالهي يسوقه ويدفعه دوماً الى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان المغرور في الفطرة. فالانجذاب والجدبة المغرور في الفطرة ليس الا من جاذب حقيقي... " ⁴⁰

ومن نتائجها المستحصلة ايضاً : " ان مركز الاستناد الوحيد للعالم هو معرفة الصانع ضد آلاف المصائب والمزاحمين الهاجمة بلا توان في معمعة الحياة التي هي ميدان الصراع والمزاحمات... " فيكون العلم الايماني الراسخ العمود الفقري

39 المثنوي العربي النوري/422-423

40 المثنوي العربي النوري/431

للشخصية ، والمواقف النفسية المترتبة عليه واقعاً مهماً لتنظيم حياة الفرد وصموده
ازاء كل السلبيات التي يتعرض اليها .⁴¹

ان الموقف الفلسفي المناقض لما ذكر آنفاً ، يعني المنظور المادي والميكانيكي
والالحدادي للكون ، والذي يستبعد الله تعالى والافكار المثالية من تفسيره ، هو ما
قضى سعيد النورسي حياته كلها محارباً اياه ومجاهداً ضده بلا توان او فتور .

فهو يسرد افكاره عن الاسماء الحسنى انطلاقاً من الآية الكريمة : { **الله لا اله الا هو ، له الاسماء الحسنى** } (طه:8) باعتبار فهمها فهماً متكاملأ وكلياً ، وليس فهماً
تجزئياً او انتخابياً ، من اجل الوصول الى نتائج سليمة واستيعاب معنى الربوبية
بيسر . فيؤكد على " ان من يرى آثار اسم " القادر و " الخالق " ، ولا يرى آثار اسم " **العليم** " قد يقع في الغفلة وضلالة الطبيعة ... "لذا عليه ان يجول بنظره فيما حوله
ويرى أن الله هو هو، ويشاهد تجليه في كل شيء. وان تسمع اذنه من كل شيء: (قل هو **الله احد**) وينصت اليه. وان يردد لسانه دائماً: لا اله الا الله ويعلم (لا اله الا هو برأبر
ميزتد عالم). وهكذا يشير القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة (**الله لا اله الا هو له
الاسماء الحسنى**) الى الحقائق التي ذكرناها"⁴².

فان كنت تريد ان تشاهد تلك الحقائق الرفيعة عن قرب، فاذهب الى بحر هائج،
والى ارض مهتزة بالزلزال، وأسألها: ما تقولان؟ ستسمع حتماً انهما يناديان: يا
جليل.. يا جليل.. يا عزيز.. يا جبار...

ثم اذهب الى الفراخ والصغار من الحيوانات، التي تعيش في البحر أو على
الارض، والتي تُرى في منتهى الشفقة والرحمة، وأسألها: ما تقولين؟ لا بد أنها تترنم:
يا جميل .. يا جميل.. يا رحيم.. يا رحيم.

41 يمكن تسمية مشروع النورسي بتجديد تأسيس الإيمان بالله وحقائقه. وننبه هنا الى جواب عن نقد موجه اليه
لكثرة تأكيده على الإيمان وحقائقه. فيقول:

" يروج - وبأسلوب رهيب جداً - قسم من المنافقين الذين تورطوا في الكفر المطلق - المشحون بالفوضوية
والارهاب - كلاماً من هذا القبيل فيقولون: «لا داعي لنا لمزيد من دروس الإيمان لان كل امة بل الناس جميعاً
يعرفون الله». وذلك محاولة منهم لصد رسائل النور وحرمان الناس من الحقائق الايمانية التي فيها، التي
يحتاجها الناس كلهم حاجتهم الى الماء والخبز.

والحال ان «معرفة الله سبحانه» والإيمان ب«حقائق» لا اله الا الله» يستلزم التصديق القلبي، والإيمان المطلق
الجازم بربوبيته سبحانه وتعالى، الشاملة المحيطة بكل ما في الكون، وان مقاليد الأمور - من الذرات الى
المجرات - بجزئياتها وكتباتها في قبضته سبحانه، ولا تدار الا بقدرته، وتحت ارادته، فلا شريك له في ملكه.
أما النطق والتفوه بان «الله موجود» ثم اسناد تصريف الأمور في ملكه الى الأسباب التي لا عد لها والى
«الطبيعة» واتخاذها شركاء لله تعالى، ومن ثم الجهل بارادته النافذة، وعلمه المطلق، ومثول كل شيء بين يديه،
فضلاً عن عدم الاهتمام بأوامره ونواهيته، والجهل بصفاته الجليلة، وما أرسل من رسله.. لا شك ان هذا كله
ليس من الإيمان في شيء. ولا ينطق بهذا ناطق الا ليسلي به نفسه وينجيه من التعذيب الدنيوي الروحي الذي
يعذب به الكفر المطلق أصحابه في الدنيا قبل الآخرة.

نعم ان «عدم الانكار» شيء و«الإيمان» شيء آخر تماماً، اذ ما من ذي حس أو شعور يمكنه ان ينكر الخالق ذا
الجلال الذي تشهد بربوبيته وعظمته وحكمته وجماله جميع أجزاء الكون.. فلو حاول الانكار لحال دونه الكون
باجمعته، فيخرس، ويبقى وحيداً سائياً معزولاً شارداً دون سند. اما الإيمان، فلقد علمنا القرآن الكريم انه:
التصديق القلبي بوجود الخالق جل و علا بصفاته المقدسة وباسمائه الحسنى، مستنداً الى شهادة الكون جميعاً.

انه - أي الإيمان - تطبيق لما جاء به الرسل الكرام - عليهم السلام - من أوامره سبحانه وتعالى ونواهيته..
وإذا سؤلت للانسان نفسه أمراً، فدونه باب الاستغفار والانابة. اما ان يقترب كبيرة من الكبائر بلا اهتمام ولا
مبالاة بالأوامر، ودون استغفار وانابة، فلا شك ان ذلك دليل خلوه من الإيمان". الملاحق/295

ثم انصت الى السماء كيف تنادي: يا جليل ذو الجمال! واعر سمعك الى الارض كيف تردد: يا جميل ذو الجلال. وتصنّت للحيوانات كيف تقول: يا رحمن يا رزاق. واسأل الربيع، فستسمع منه: يا حنان يا رحمن يا رحيم يا كريم يا لطيف يا عطوف يا مصور يا منور يا محسن يا مزين.. وامثالها من الاسماء الكثيرة.

واسأل انساناً هو حقاً انسان وشاهد كيف يقرأ جميع الاسماء الحسنی، فهي مكتوبة على جبهته، حتى اذا انعمت النظر ستقرؤها انت بنفسك.

وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الالحن لذكر عظيم. فامتزاج اصغر نغمة ووطنها مع اعظم نغمة واعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً⁴³.

ويؤكد سعيد النورسي ان كل انسان يمكنه يقرأ الكائنات بعين كهذه. وما يلزمه لذلك هو اليقظة والانتباه وانعام النظر في الكائنات بالشكل الذي يلفت اليه القرآن في آيات كثيرة، حتى يقرأ ويرى تجليات الاسماء عليها⁴⁴.

ويستخرج النورسي نتيجة مركبة من تجليات الاسماء الحسنی في الكائنات باشكال وانماط وتوضحات وابعاد متنوعة. فكما تتنوع انماط واشكال تجليات الاسماء الحسنی، كذلك يتنوع استيعاب البشر لهذه التجليات حسب نوع القابلية وزاوية النظر والحال⁴⁵.

معنى الطبيعة :

ورد هنا لمحات من مطالعة النورسي للطبيعة. ولا ننسى انه يستعمل كلمة (الكائنات) عموماً، اما كلمة (الطبيعة) فيستعملها لمعان خاصة. فالطبيعة هي :

43 نلاحظ ذلك حتى في دعواته ومناجاته: "فسبحان من جعل حديفة ارضه مشتهر صنعته، محشّر فطرته، مظهر قدرته، مدار حكمته، مظهر رحمته، مزرع جنته، ممر المخلوقات، مسيل الموجوات، مكمل المصنوعات. فمزین الحيوانات، منقش الطيور، مثمر الشجرات، مزرع النباتات؛ معجزات علمه، خوارق صنعته، هدايا جوده، براهين لطفه.

تسبم الازهار من زينة الاثمار، تسبح الاطيار في نسمة الأسحار، تهزج الأمطار على خدود الازهار، ترحم الوالدات على الأطفال الصغار.. تعرف ودود، تودد رحمن، ترحم حنان، تحنن مئان، للجن والانسان، والروح والحيوان والملك والجان". الكلمات/732

44 هذا المقتطف مهم لبيان تسيح الحيوانات بلغة مفهومة: "حتى انني لاحظت القطط وتاملت فيها، فرأيت أنها بعدما اكلت ولعبت، نامت. فورد الى ذهني سؤال: لم يطلق على هذه الحيوانات الشبيهة بالمفترسة، حيوانات مباركة طيبة؟ ثم في الليل اضطجعت لأنام واذا بقطة من تلك القطط جاءت واستندت الى مخدتي وقربت فمها الى اذني، وذكرت الله ذكراً صريحاً باسم: «يارحيم .. يارحيم .. يا رحيم» وكأنها ردت ما ورد من الاعتراض والاهانة باسم طائفتها. فورد الى عقلي: ترى هل ان هذا الذكر خاص بهذه القطة فقط أم بطائفة القطط عامة؟ وان استماع ذكرها، هل هو خاص بي ومنحصر لمعتزض بغير حق مثلي أم ان كل انسان يستطيع الاستماع - الى حد - لو أعار سمعه اليها؟ وفي الصباح بدأت انصت الى القطط الأخرى، كانت تكرر الذكر نفسه بدرجات متفاوتة وان لم يكن صريحاً مثل الأولى. إذ في بداية هريرها لا يتميز هذا الذكر ثم يمكن تمييز: يا رحيم .. يا رحيم.. في الهرير، ثم يتحول هريرها كله الى: يا رحيم نفسه. فتذكر الله ذكراً حزينا فصيحاً دون اخراج للحروف حيث تسد فمها وتذكر الله ذكراً لطيفاً ب: يا رحيم. ذكرت الحادثة نفسها الى الذين اتوا لزيارتي، وهم بدورهم بدأوا يلاحظون الأمر. ثم قالوا: نسمع الذكر الى حد ما. الكلمات/377

45 المصدر المذكور سابقاً. نلاحظ إمكانيته جمع المفاهيم والقراءات المتنوعة، وتقويمات الطرق والمشارب والمدارس، في مركز معين ضمن موروثات التقاليد الإسلامية بنظرة جمعية وكلية. بعبارة اخرى، ميزة هذه النظرة انها ليست إقصائية، بل احتوائية وجذبية. مثل هذه النظرة، خاصة مع مراعاة تمثيل سعيد النورسي لسيدنا عيسى عليه السلام، يمكن ان تشكل ارضية حوار بين الاديان والثقافات والحضارات.

"قوانين السنن الإلهية، وفهارس الصنعة الربانية. والتي يطلق عليها خطأ - وهو خط جسيم - اسم الطبيعة التي يمكن ان تكون شبيهة بصفحة من كراسة (التغيير والتبديل) لقوانين اجراءات القدرة الإلهية، وبمثابة لوحة (المحو والاثبات) للقدر الإلهي".⁴⁶

"ان الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون - وهي أمر موهوم ليس له حقيقة- إن كان لابد من إضفاء وجود حقيقي خارجي عليها فان هذا (الوجود) هو: صنعة صانع ولن يكون صانعاً، وهو نقشٌ ولن يكون نقاشاً، ومجموعة احكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً، وفطرة منفعة ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعة قوانين ولن يكون قادراً، ومسطر ولن يكون مصدراً".⁴⁷

فالطبيعة بهذه المعاني: "بجميع موجوداتها من الذرات الى السيارات تشهد بالسنة متنوعة، وتشير، الى الصانع ذي الجلال".⁴⁸

الوشيجة بين الانسان والكائنات :

لا يحصر سعيد النورسي وظيفة الكائنات في الإشارة الى الله تعالى . فكأن الطبيعة تربط الوشائج مع المؤمنين ومع المنكرين، فهي (اذا جاز التعبير) تتعلق بوشيجة الحب مع المؤمنين والنفور من المنكرين. علاقة كل موجود في الكائنات - عند النورسي - يتحدد مع عمل الانسان وتصرفاته. فيقول في ايضاح له للآية 8 من سورة الملك بان الكائنات وما فيهن تغضب على اهل الضلالة ، لأن كلا منها موكلة بوظائف عالية مهمة ، وقائمة بوظيفتها الموكلة اليها كجند من جنود الله ، مسبحة تسبيحات ربانية ، ثم يهبط بها المنكر بكفره من هذه المقامات السامية الى درك مخلوق جامد وفان وبلا روح ولا معنى :⁴⁹

"يعبر القرآن الكريم بأسلوب معجز عن غضب الكائنات وتغيظ عناصر الكون جميعها وتهيج الموجودات كافة من شر اهل الضلالة، عندما يصف إشتراك السماء والارض بالهجوم على قوم «نوح عليه السلام» في الطوفان، وعصف الرياح بقوم عاد والصححة على ثمود، وهيجان الماء على قوم فرعون، ونقمة الارض على قارون.. عند رفضهم الايمان حتى أن جهنم " تكادُ تَمَيِّزُ مِنَ الغَيْظِ " (الملك: 8). وهكذا يبين القرآن الكريم غَضَبَ الموجودات وحدثها على اهل الضلالة والعصيان ويزجرهم بهذا الاسلوب الاعجازي الفريد".⁵⁰

ويشير الى ان الكائنات تغضب على المنكرين ولا تحزن على موتهم ، في معرض ايضاحه للآية 29 من سورة الدخان: " فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين "

46 للمعات /280

47 للمعات /283

48 للمعات /281

49 للمعات /137

50 للمعات /122

"فيا أيها الانسان المسكين المخلوق لعالم الخلود والمبتلى بهذه الدنيا الفانية! أمعن النظر في الآية الكريمة وانصت اليها: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} (الدخان:29) وانظر ماذا تقيّد.. انها تعلن صراحة ان السموات والارض التي لها علاقة بالانسان لا تبكي على جنازة أهل الضلالة عند موتهم.. أي انها راضية لفراقهم مرتاحة بموتهم.

وانها تشير ضمناً ان السموات والارض تبكي على جنازة أهل الهداية عند موتهم، فلا تتحمل فراقهم، إذ إن الكائنات جميعاً مرتبطة مع أهل الايمان، وذات علاقة بهم، وانها راضية عنهم، ولأنهم يعرفون بالايمان رب العالمين فيحملون حباً للموجودات ويقدرّون قيمتها، وليسوا كاولئك الضالين الذين يضمرون العداة للموجودات ويحقرونها".⁵¹ نستخلص من كل ذلك ، ان كل مخلوق هو حي وله مغزى ومعنى وعلاقات متشابكة مع غيره من الموجودات ، في الفلسفة البيئية عند سعيد النورسي. فكل موجود من الجمادات او الاحياء في الكائنات تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبح له وتطيع او امره وتخضع له . وفي بعض قصص الانبياء المذكورة في القرآن الكريم عبرة وعظة من هذه الوجهة.⁵²

الطهر والنظافة كقاعدة كونية :

بعدما ذكرنا القاعدة الكلية، نخرج الى نقاط حول نظافة البيئة . ان بلوغ الحركة البيئية اليوم الى البعد الفلسفي والميتافيزيقي لمعضلات البيئية ، لا ينفي الدور الواضح لنظافة البيئة والعالم .

يؤكد سعيد النورسي مقدماً على ان لا قذارة او وساخة او فضلات أو خلل او تنافر في الكائنات بالمعنى الحقيقي والشامل . وبتعبير آخر : سيادة مبدأ نظافة الكون . فأين اصل كل هذا الجمال والنظافة الطبيعية التي يعيشها الانسان ويعبر عن عشقه لها حتى بالشعر ؟

في شرحه لاسم " القدوس " من ثنايا الآية 48 / سورة الذاريات يرجع الفطرية والصفاء وحركة التنظيف في الكائنات ، الى ان الكون كله مظهر لتجل اعظم من تجليات اسم " القدوس " . فسعيد النورسي يرى ان ما نشاهده من الصفاء والنظافة والنزاهة في الطبيعة، ليست ذاتية ، بل من مبدأ كوني ، يعنى من تجليات اسم " القدوس " :

" اننا لا نكاد نرى في معمل الكون العظيم هذا، وفي دار ضيافة الكرة الارضية هذه أثراً للنفائيات، كما انه لا توجد في أية زاوية من زاويهما مادة غير نافعة، أو غير ضرورية، أو ألقيت عبثاً، حتى ان ظهرت مادة كهذه سرعان ما ترمى في مكائن تحويل بمجرد ظهورها، تُحيلها الى مادة نظيفة..

51 للمعات /132

5252 يتناول في هذا الاطار قصص الانبياء في القرآن الكريم مثل امتناع النار من حرق ابراهيم (عليه السلام) وانفلاق البحر امام موسى (عليه السلام) واغراقه فرعون ، كذا تفجر الماء من ضرب موسى بعضاه ، وانشقاق القمر باشارة من محمد صلى الله عليه وسلم ، فيصور الكائنات من ثناياها وحدات حية وشاعرة ومستجيبة لاوامر الله تعالى ، وملبية لطلبات انبياء الله بامرهم . انظر الكلمات - الكلمة الاولى.

فهذا الامر الدائب يدلنا على : ان الذي يراقب هذا المعمل انما يراقبه بكل عناية واثقان، وان مالكة يأمر بتنظيفه وتنسيقه وتزيينه على الدوام حتى لا يُرى فيه - رغم ضخامته - أثر للقاذورات والنفايات التي تكون متناسبة مع كُبر المعمل وضخامته.

فالمرعاة بالتطهير اذن مستمرة، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة مع ضخامة المعمل وسعته، لأن الانسان الفرد إن لم يستحم ولم يَقم بتنظيف غرفته خلال شهر، لصاقت عليه الحياة.. فكيف بنظافة قصر العالم العظيم!؟

اذن فالطُهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهد في قصر العالم البديع هذا ما هو الا نابع من تنظيف حكيم مستمر، ومن تطهير دقيق دائم..".⁵³ ولهذا فإن امر التنظيف والتطهير الصادر من اسم " القدوس " تستمع اليه جميع الموجودات وتَأتمر به:

" فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حَظيا بتجلٍ من تجليات اسم الله (القدوس) عليهما، حتى انه عندما تصدر الاوامر الالهية المقدسة الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها ايضاً أنواع الديدان والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الاوامر التنظيفية حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الاجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف اجنحته دائماً..

ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الاوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها ايضاً الرياح الهوج والسحاب الثقيل، فتلك تطهّر وجه الارض من النفايات، والاخرى ترشّ روضتها بالماء الطاهر فتسكن الغبار والتراب، ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملة ادواتها ليعود الجمال الساطع الى وجه السماء صافياً متألئاً.

ومثلما تستمع لتلك الاوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف النجوم، والعناصر، والمعادن، والنباتات باشكالها وانواعها، تستمع لها الذرات جميعاً، حتى انها تراعي النقاوة والصفاء في دوامات تحولاتها المحيرة للالباب، فلا تجتمع في زاوية دو فائدة، ولا تزدحم في ركن دون نفع، بل لو تلوّثت تُنظّف فوراً وتُساق سوقاً من لدن قدرة حكيمة الى أخذ أظهر الاوضاع وانظفها وأسطعها واصفاها، وأخذ أجمل الصور وانقاها وأطفها.

وهكذا فان فعل التطهير هذا الذي هو فعلٌ واحد، ويعبّر عن حقيقة واحدة هو تجلٍ اعظم من تجليات اسم (القدوس) الاعظم، يُرى ذلك التجلي الاعظم حتى في أعظم دوائر الكون واوسعها، بحيث يبين الوجود الرباني، ويُظهر الوحدانية الإلهية مع اسمائها الحسنی ظهوراً جلياً كالشمس المنيرة، فتبصره العيون النافذة النظر".⁵⁴

ان المعنى الحقيقي للنظافة في الثقافة الاسلامية لا يتأصل إلا بهذا المنظور ، حتى تغدو النظافة حقيقة كونية، لا مسألة عارضة او شخصية .

"نعم، ان هذا التنظيف السامي الشامل المشاهد الذي يجعل قصر العالم طاهراً نقياً نظيفاً لهو تجلٍ من تجليات اسم (القدوس) ومقتضى من مقتضياته.

وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعها الى اسم (القدوس) وترنو اليه، كذلك يستدعي اسم (القدوس) نظافة تلك المخلوقات وطهارتها حتى عدّ الحديث الشريف (النظافة من الايمان) الطهور نوراً من انواره لارتباطه القدسي هذا، واطهرت الآية الكريمة ان الطهر مدعاة الى المحبة الالهية ومدار لها، في قوله تعالى: {ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} (البقرة: 222) " ⁵⁵.

تتوقف النظرة البيئية على نقطة مهمة اخرى ، هي وجود النظام البيئي الحساس للغاية في الكائنات. ان ما توصل اليه علم الفيزياء والحياة المعاصرة هو وجود نظام حيوي في الكون . وترتب على هذا التقدم العلمي ان نظرية العالم الميكانيكي تركت محلها لنظرية العالم العضوي ، وتركت الفيزياء الكلاسيكية محلها للفيزياء الحديثة . ⁵⁶ ولا شك ان فلسفة البيئة مدينة بوجودها الى هذه التطورات العلمية الجديدة . ان منظور النظام الكوني الحيوي جلب معه عضوية الانسان في هذا النظام. وفقدت بذلك الفلسفة الكارتيزية اهم دعائمها القائمة على ثنائية البدن - والروح . والسؤال هنا: ما هي البراديجما (مجموعة العضلات والحلول المطروحة لها) الجديدة التي ينبغي ان تحل محل المنظور الميكانيكي او المادي لتفسير العلاقة بين الانسان والكائنات؟ ان السنوات العشرين الأخيرة تشهد نقاشات حامية في هذا الشأن ، لا تسعها هذه الصفحات ، مؤداها كلية الكائنات او تكاملها، وخضوعها لتوازن حساس. وهذه تقترب من منظور سعيد النورسي الذي يرجعها بدوره الى الخلق الالهي. ان سعيد النورسي اذ ينبه الى النظام والميزان والتوازن في الكائنات ، فهو يستند الى آيات القرآن الكريم. فمثلاً : يستند الى الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الحجر ليرجع النظام والتوازن والتواءم والتعادل في البيئة (بعبارة اخرى : العلاقات المتشابهة بين الموجودات ببعضها) الى اسم " العدل " و " القدير " من اسماء الله الحسنى .

"فان شئت فأنعم النظر، في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم الى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات الى التناسب والانسجام بين اجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريقها الى موارد المياه الجوفية

55 للمعات/522 ومشهور مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالنظافة . وليس من قبيل الصدفة ان كتب الفقه والسنة كافة تبدأ بكتاب الطهارة . وانظر للآيات والاحاديث المتعلقة بالنظافة Durah, s. 154.56 وانظر من اجل مفهوم الفيزياء الحديثة ونتائج:

Fritjof Capra., The Turning Point, (London: Bantam Books, 1982). s. 75-99; Werner Heisenberg, "The Development of Philosophical Ideas Since Descartes in Comparison with the New Situation in Quantum Theory," The revolution in Modern Science (New York: Harper and Row, 1958) içinde; Callicott, "Intrinsic Value, Quantum Theory and Environmental Ethics," Environmental Ethics, 7, 1985, s. 257 - 75; L. J., Beck, The Metaphysics of Descartes. A Study of meditations, (Oxford: 1965); Dr. İbrahim Özdemir, The Ethical dimension of Human Attitudes Towards Nature, (Ankara: The ministry of Environment, 1977), s. 52

وصرفياتها، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها الى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم الى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام الى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى ان الكل: يوزن ويُقدَّر بميزان خارق الحساسية، وان الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقل الانسان ان يرى اسرافاً حقيقياً في مكان وعبثاً في جزء.. بل يلمس علم الانسان ويشاهد اكمل نظام وانتقنه في كل شئ فيحاول أن يُريه، ويرى اروع توازن وابداعه في كل موجود فيسعى لإبرازه.

فما العلوم التي توصل إليها الانسان الا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع".⁵⁷

اذن ، الكائنات " تدبر وتربى بميزان خالق عدل حكيم واحد وقانونه ونظامه يدبر عموم الاشياء بيسر كالشئ الواحد".⁵⁸ والنظام والميزان فيها من تجليات اسم "العدل" و "القدر" وحتى فروع العلم، ومنها علم البيئة والحياة، تثبتق منها. فكما تقول شكران واحدة عن سعيد النورسي: مصدر التوافق بين العلم والاسلام هو القرآن الكريم. فالقرآن - في نظر النورسي - هو ترجمان كتاب الكائنات. فتكون المبادئ التي يضعها لتنظيم الحياة، مطابقة للقوانين النافذة في الكائنات (يعني الشريعة الفطرية الالهية) وموافقة لها . والقرآن - لهذا السبب - هو المصدر الوحيد لتقدم البشرية".⁵⁹

ثم يزيد النورسي على ذلك، ان يستخرج الانسان من الكائنات دروساً في النظام والغائية والاقتصاد والتوازن والانسجام في حياته الفردية والاجتماعية.

"ايها الانسان المسرف الظالم الوسخ!

اعلم، ان الاقتصاد والطهر والعدالة سنن الهية جارية في الكون، وداستير الهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها لايلفت منها شئ الا انت ايها الشقي، وانت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وانت تستحقها..

فعلام تستند وتثير غضب الموجودات كلها عليك فتقترف الظلم والاسراف ولا تكثرث للموازنة والنظافة؟

نعم، ان الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجلٍ اعظم لاسم (الحكيم) انما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الاسراف، بل تأمر بالاقتصاد.

وان العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الاعظم لاسم (العدل) انما تدبر موازنة عموم الاشياء، وتأمر البشرية باقامة العدل.

57 للمعات /524

58 ويرى سعيد النورسي " ان الذي لا يعتقد ان اعمال الجن والانس يوم الحشر الاكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعد لها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكن ان يتأمل فيما هو ظاهر مشاهد من انواع الموازنة الكبرى امامه في هذه الدنيا لزال استبعاده واستنكاره حتماً". للمعات /525.

59 Sukran Vahide, Risale-I Nurdaki Kainat Tasviri,Newtoncu Mekanik Kainat ModellerineBenzemez, Yeni Dergi 4,1994 s.17

وان ذكر الميزان اربع مرات في (سورة الرحمن) اشارة الى اربعة انواع من الموازين في اربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمتها العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: {والسمااء رفعها وَوَضَعَ الميزان * الأ تَطَّعُوا فِي الميزان * وَأَقِيمُوا الوزنَ بالقسطِ ولا تُخسروا الميزان} (الرحمن: 7- 9).

نعم، فكما لا اسراف في شئ، فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شئ، ولا بخس في الميزان قط، بل ان التطهير والطهر الصادر من التجلي الاعظم لاسم (القدوس) يعرض الموجودات بأبهى صورتها وابدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحاً اصيلاً في شئ مالم تمسه يد البشر الوسخة".⁶⁰

فلا ينبغي للانسان ان يحيا مبذراً ومسرماً في كائنات قوامها الاقتصاد والبعد عن الاسراف. بل ان يقيم حياة متوازنة وذات معنى على النظام والترتيب والميزان السائد في الكون كله بجلوات اسم الله "القدير" و "العدل". والسبب الدافع لسعيد النورسي للاصرار على تجليات الاسماء الحسنى هو بيان التوافق بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور. هذه السمة تكون لاحقاً اهم ميزان رسائل النور كما يقول النورسي: "ان يكسب المرء حضوراً وسكينة بالايمان التحقيقي وباللمعات الواردة عن التفكير الايماني في المخلوقات.

وهذا التأمل يسوق صاحبه الى معرفة الخالق سبحانه، فتتسكب الطمأنينة والسكينة في القلب. حقاً ان تلمح هذا النوع من التأمل في فكر الانسان يجعله يفكر دائماً في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، أي انه حاضر وناظر اليه دائماً. فلا يلتفت عندئذ الى غيره، ولا يستمد من سواه. حيث ان النظر والالتفات الى ماسواه يخل بأدب الحضور وسكينة القلب. وبهذا ينجو الانسان من الرياء ويتخلص منه، فيظفر بالاخلاص باذن الله".⁶¹

هذه الميزة التي تجعل من التفكير الايماني في كل شئ حولنا قائداً الى معرفة الله، والتي تهدي الى حضور المراقبة الالهية في كل آن وحين، لتضفي شكلاً على حركات الانسان وسكناته. فالله تعالى هو مصدر كل جمال ولطف وكمال. "لانه من المقرر: ان ما في المصنوع من فيض الكمال، مقتبس من ظل تجلي كمال صانعه. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو اعلى بدرجات غير متناهية حتماً من عموم ما في الكائنات من الحسن والكمال والجلال".⁶²

النتيجة :

60 اللمعات/524-525

61 اللمعات/247

62 صيقل الإسلام - محاكمات /133

يقوم سعيد النورسي فلسفة البيئة على اساس قرآني. فالكائنات في نظره مخلوقة على نظام وتوازن وقياس وجمال وتناسب ليكون دليلاً يرشد الى صانعه. ويشير الى البعد الكوني والميتافيزيقي في القرآن. ومن منظوره:

- ليس المقصود من خلق الكائنات المحورية الانسانية لوحدها، فهي قبل كل شئ دليل يدل على الله الخالق وكتاب منظور. وله بذلك بعد يتجاوز حدود الانسان - ثم المقصود من خلق ذوي الحياة في الكائنات ينبغي ان يفهمه الانسان ويعمل بالتوافق معه

- على الانسان ان يمتنع عن الاسراف توافقاً مع الكائنات التي لا اسراف ولا تبذير فيها

- انموذج النمو والاستهلاك بلا حدود او ضوابط مخالف لروح القرآن الكريم. ومن الضروري ان يعتني الانسان بالمعادلات والتوازنات والنظم البيئية التي خلقها الله تعالى في الكائنات

- سوف يجازي الانسان في الآخرة على ما عمل، ومن جملة ذلك تصرفه في الكائنات وموجوداتها.

- لايد من معرفة الخالق وعبادته والالتزام باوامره ونواهيه، من اجل حياة انسانية يسودها السلام والامان والرفاه والسعادة اما الأتكار فيؤدي الى الاخلال بالنظام الالهي في الطبيعة ومن ثم الى الشقاء، ويذيق روح الانسان عذاباً كعذاب جهنم حتى في هذه الدنيا.

لقد تحدى سعيد النورسي النظريات الميكانيكية والمادية " والعصرانية " التي سادت منذ القرن الثامن عشر وعارضت الاديان كلها. ان المنظور الذي اوجزناه آنفاً يكتسب اهمية خاصة في فلسفة البيئة واضفاء معنى جدير على البيئة. هذا المنظور مهم جداً في تكوين فلسفة بيئية اسلامية واخلاقيتها. ولا شك من وجود تقارب بينه وبين دهاة الموروثات الاسلامية مثل الغزالي والامام الرباني وجلال الدين الرومي وابن عربي، لكن مفكرنا النورسي - كما يكرر كثيراً - يعتمد على المحور القرآني . فهو يفسر المفاهيم الشائعة في الوسط التصوفي تفسيراً جديداً في سياق قرآني .

خلاصة القول : ان سعيد النورسي يوضح معنى الكائنات والانسان وموقعه فيها. ويحدد اهم وظيفة للانسان ومقصود حياته ان يعيش حياة ذات معنى ومغزى بتدقيق كتاب الكائنات المنظور المفعم بالحكم وفي ضوء الكتاب القرآني المسطور ، لا ان يعيش حياة غرائزية بغير نوازع اخلاقية. ان معنى الحياة الحقيقية هي في اضفاء المعاني والمبادئ المستلهمة من الكتاب المنظور والمسطور، مع التأكيد على البعد الانساني فيها . ويعنى ذلك، ان نعيش في وئام وانسجام مع العالم وذوي الحياة، وان لاننسى اننا سنجازي على كل عمل نقوم به خيراً او شراً .

ترجمة : عوني لطفي او غلو

مقاصد القرآن الكريم من المنظور النوري عرضٌ وتحليلٌ وموازنة

د. قطب مصطفى سانو^P

تقديم :

الحمد لله رب العالمين ، والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فهذه صفحاتٌ قصارٌ عنيت بإعدادها هادفاً الى عرض وتحليل المقاصد القرآنية العلية من المنظور النوري موازناً بغيره من المنظورات المعاصرة التي رامت ضبط وتحديد المقاصد الأساسية التي تشتملها السور والآيات القرآنية كما رُمّت من تناول هذا الموضوع إبراز ذلك الجانب التناسقي والترابطي والتكاملي في الطرح النوري لموضوعات هذه القضية المهمة والتي تخالها لما تحظ بنيل نصيبها من الدراسة والتحليل والنقد .

إنّ إيلاء دراسة المقاصد القرآنية جانب الاهتمام والعناية والضبط وسيلة الى تجاوز جملة من العقبات الكؤود التي لعبت ولا تزال تلعب دوراً غير منكور في الحيلولة دون تسديد الحياة بتعاليم الدين، وتطوع الواقع بالمراد الإلهي . فحسن إدراك المقاصد القرآنية والصدور عنها كفيلاً للمساعدة على التمييز والتفريق بين أولويات الدعوة ومجالات التركيز . فمراعاة الترتيب التنازلي بين المقاصد وعدم الخلط بينها من الأمور المهمة التي تعين الأفراد والجماعات على حسن التخطيط لترقيع المراد الإلهي على الواقع المعيش . ومهما يكن من شيء - فإننا نخال الطرح النوري لهذا الموضوع جديراً بالدراسة والتحليل العلميين المتعمقين وذلك لما يتوافر عليه من دقة في النظر، وشمول في الطرح، وترابط وتناسق وتكامل بين الفقرات . وعلى العموم، اشتملت هذه الدراسة على مدخل ومبحثين أساسيين ذوي موضوعات متعددة، وعيننا في المدخل بتسليط الضوء على المعنى المراد بمقاصد

^P من جمهورية غينيا كوناكري. يحمل شهادات عالية في اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية حصل على الدكتوراه في اصول الفقه من الجامعة الإسلامية بماليزيا سنة 1996 ودكتوراه الدولة في الاقتصاد الإسلامي من جامعة الزيتونة بتونس. وحالياً استاذ مساعد في اصول الفقه بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. له ستة مؤلفات وأبحاث عديدة منشورة.

القرآن، وخصّصنا المبحث الأول بموضوعاته لدراسة المقاصد القرآنية من المنظور النوري عرضاً وتحليلاً، وأما المبحث الثاني بموضوعاته، فقد أودعناه دراسة المقاصد القرآنية من منظورين معاصرين بوصفهما ذوي تأثير كبير غير منكور على الساحة الفكرية، وبدلنا ما وسعنا من جهد في إجراء موازنة علمية متواضعة بين دينكما المنظورين، والمنظور النوري سعياً إلى إبراز ما تميّز به الطرح النوري من دقة وتناسق وترابط .

تلك هي اهم الموضوعات التي انتظمتها هذه الدراسة، وإنا نعتقد أنّ مثل هذه الصفحات لا يمكن لها أن تحيط إحاطة كاملة بموضوع كهذا، وكفيها أن تكون قد اسهمت ولو بنقير في إثارة الحديث حول هذا الموضوع في هذا العصر، ولعلّ ذلك يكون حافزاً للهمم والقرئح لإعادة النظر في دراسة المقاصد القرآنية وإبراز سبل الاستفادة منها في ترتيب أولويات الدعوة في هذه المرحلة الراهنة .

والله المسؤول أن يوفقنا إلى ما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، وشكراً لله للقائمين على هذا المؤتمر المبارك على حسن ضيافتهم، وكريم دعوتهم وعسى الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم، ويغفر لنا جميعاً ولإمامنا بديع الزمان النورسي ويجزيه عنا وعن الأمة خير الجزاء على كل ما قدّم من جهادٍ وتضحيةٍ وتفانٍ.

مدخل أولي

تحديد المراد بمقاصد القرآن الكريم

إنّ مصطلح المقاصد من أكثر المصطلحات الأصولية شيوعاً ورواجاً في هذا العصر، ويحظى بشعبية عارمة في سائر الأوساط الفكرية الإسلامية المعاصرة، وربما لاذ بعضهم باستخدامه مستهدفين المفهوم الطوفي الذي يقوم على تقديم المصلحة على النصّ في حالة تعارضهما، فحيث المصلحة فتمّ شرع الله، وليس العكس . وربما تجاوز آخرون هذا المنظور الطوفي واختاروا منهجاً آخر سديداً يرى أنّه حيثما شرع الله فتمّ المصلحة ولا عكس .

وعلى العموم، من الملاحظ أنّه في خضم الحديث عن المقاصد لا يجد المرء - في أكثر الأحيان - ضبطاً محكماً ولا تحديداً دقيقاً للمعنى المراد بمصطلح المقاصد، ولئن تحقّق له ذات يوم العثور على تعريف لها أو تحديد لمعناها، فإنّه لن يخلو أن يكون عبارة عن تصور لا يمكن أن يصدق عليه وصف التعريف. وإن يكن من مردّ لهذا، فاستشعار بعض كون معناها واضحاً، والحال أنّ غموضاً كثيفاً يكتنف المعنى المراد منها، وليس ثمّ تعريف يحظى بقبول جماهيري لدى الأوساط الفكرية أو الفقهيّة . وعليه، فإننا نرى أن نستأنس بتصور عامّ عن المقاصد أورده الإمام ابن عاشور عندما قال :

"مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من احكام الشريعة".¹

فالمقاصد بمنطوق هذا التصور مجموع المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو في معظمها، وليس ثمة تشريع خلُو من تلك المعاني والحكم، الأمر الذي يؤكد ابتعاد الشارع عن العبيثية والعشوائية. ولئن كان ذلك هو معنى مقاصد التشريع، فحريُّ بنا ان نصوغ من ذلك التصور تصوراً عن مقاصد القرآن الكريم تمهيداً، فنقول إنه يراد بمقاصد القرآن :

مجموع المعاني والحكم الملحوظة للشارع الكريم والميثوثة في ثنايا السور والآيات القرآنية بحيث لا تختص ملاحظتها في سورة دون أخرى، ولا في آية دون أخرى، وأما تتضافر سائر السور والآيات القرآنية على ذكرها إن صراحة أو ضمناً. وتتسم هذه المعاني والحكم بسمه الانبثات والانتشار في جميع السور والآيات القرآنية عليها، ففي بعض الاحيان يجدها المرء مجتمعة في سورة، وربما وجده المرء في أحيان أخرى في آية واحدة من آيات سورة بعينها. وتتسم أيضاً بسمه الاطراد والحضور، إذ ما من آية تخلو من الدلالة عليها إن صراحة أو تلميحاً أو إشارة أو إيماء.

وبناءً على هذا التصور، فلنلتفت الى تحديد المعاني والحكم التي يصدق عليها وصف المقاصد بالسماوات والمعايير المذكورة من جهة، والتي انتهى الإمام النورسي الى اعتبارها جديرة بالوصف المذكور.

المبحث الأول

مقاصد القرآن من وجهة نظر الإمام النورسي : عرض وتحليل

لئن عرّف بعض علماء الأصول القرآن الكريم قائلين بأنه كلام الله المنزل على رسول الله محمد ص باللسان العربي، المنقول إلينا بالتواتر بطريق الرواية والكتابة، المعجز، بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس²، فإن الإمام النورسي تجاوز في كتاباته عن سرد هذا التعريف الذي نخاله لم يخل من ان يكون قد

1 - انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر: مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس، الشركة التونسية للتوزيع بدون تاريخ الطبع ..) ص 51
2 - ذكر الإمام عبد العزيز البخاري في كتابه كشف الأسرار جملة من تعريفات الأصوليين للقرآن الكريم، وما من تعريف إلا قد نال حظه من النقد والانتقاد والرد، ويكاد التعريف الذي ذكرناه هو التعريف الذي يتوافر على أكثر نقاط الاتفاق بين المعرفين، إذ إن الإمام الشوكاني عني بذكره في كتابه إرشاد الفحول قائلًا: " هو الكلام المنزل على الرسول المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلًا متواترًا .. " ا هـ انظر: الشوكاني، محمد بن علي: إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول (بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ ..) ص 26 وما بعدها .. وعلى العموم، فإن السبب في الاختلاف في تعريفه وحده هو " مسائل اعتقادية كلامية تتعلق بالكلام الإلهي، ومسائل فقهية تتعلق بما يثبت منه، وما يجوز الصلاة به وما لا يجوز، وما يكفر جاحده وما لا يكفر، وما هو حجة وما ليس بحجة .. " انظر: البخاري، عبد العزيز: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البيزدوي (ضبط وتعليق وتخريج محمد المعتمد بالله البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي، طبعة أولى 1991 م) هامش ص 71 ولمزيد إيضاح حول هذه المسألة ينظر: إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني .

هدف الى الردّ على بعض الفرق الإسلاميّة التي أنكرت كون القرآن الكريم كلام الله، واعتبرته مخلوقاً من مخلوقاته .

وأما الإمام بديع الزمان النورسي³، فقد عرفّ القرآن مبرزاً أهمّ الخصائص والغايات والمقاصد التي من أجلها أنزله الله على رسوله الأمين p وهذا نص تعريفه :

" هو الترجمة الأزليّة لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينيّة ومفسّر كتاب العالم .. وكذا هو كثاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض .. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات .. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة .. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزليّة السبحانيّة والالتفاتات الأبديّة الرحمانيّة .. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلاميّ .. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي .. وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه .. وكذا هو مربّب للعالم الإنسانيّ .. وكالماء وكالضياء للإنسانيّة الكبرى التي هي الإسلاميّة .. وكذا هو الحكمة الحقيقيّة لنوع البشر، وهو المرشد المهدي الى ما خلق البشر له .. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعته، كذلك كتاب حكمته، وكما أنه كتاب دعاء وعبوديّة كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنويّة، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل . حتى أنه ابرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصدّيقين، ومن العرفاء والمحققين رسالة لانقة لمذاق ذلك المشرب وتسيوره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل " ⁴

إنّ التأمّل في هذا التصور الشموليّ عن حقيقة القرآن الكريم من جهة، وعن رسالة هذا الكتاب العظيم وأهدافه وغاياته من جهة أخرى، يهدي المرء الى القول بأنّ وضع تصور عن حقيقة شئ يقتضي تجاوز نقاط الخلاف والنزاع حول بعض قضايا المصطلح المعرفّ، وينبغي أن يتمركز حول إبراز الخصائص الدقيقة والأهداف الأساسيّة التي تميّز الشئ المعرفّ عن أشباهه. وذلك لأنّ تبني التصورات مواقف

3 - لسنا بحاجة الى التعريف بالإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وثمة كتاب قيم للأستاذ إحسان قاسم الصالحي بعنوان " بديع الزمان سعيد النورسي : نظرة عامّة عن حياته وأثاره " عني الأستاذ أبو سعد في هذا الكتاب بتلخيص حياة الإمام، وإيراد كل ما بهم القارئ معرفته عن حياة هذا الإمام المجاهد، ولذلك، فإننا ننصح بالرجوع الى ذلك الكتاب لمعرفة المزيد عن حياته .

وعلى العموم، يمكننا أن نشير إشارة خاطفة الى أنّ مولده كان عام 1876 م في عهد السلطان عبد الحميد الثاني العثماني، ونشأ وتربى في بيت علم وعقّة وطهر، وعانى كثيراً في حياته، وقضى معظمها في دياجير السجون والمعقّلات، وذلك بسبب تضحيتّه وجهاده، وواقته منيّه عام 1960 م . رحم الله الإمام، وجزاه عن الأمّة خير الجزاء . ولمزيد من المعلومات حول حياته وكفاحه وجهاده، يراجع الكتاب المذكور (بديع الزمان سعيد النورسي : نظرة عامّة عن حياته وأثاره لمؤلفه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، استانبول، دار سوزلر) ويراجع أيضاً كتاب آخر قيم بعنوان : سعيد النورسي : رجل القدر في حياة أمّة، لمؤلفه الأستاذ أورخان محمد علي . استانبول، شركة النسل للطباعة، طبعة أولى 1995 م .

4 - انظر : بديع الزمان سعيد النورسي : المكتوبات (ترجمة إحسان قاسم الصالحي، استانبول، دار سوزلر، طبعة أولى 1992 م) ص 267

معينة والصدور عن تلك المواقف عند تحديد المراد بالمصطلحات يعتبر من الأمور التي تخلُّ بدقة التصور وسداده، بل إنَّ ذلك ليؤثر تأثيراً في قبول التصور جملةً وتفصيلاً . وبناءً على ذلك، فيمكننا القول بأنه كلما ابتعد واضعو التصورات عن مواطن النزاع والخلاف، كلما كان التصور أقرب إلى القبول والاعتبار عند عامة الناس.

وأياً ما كان الأمر، فإنَّ هذا التصور الشموليَّ عن حقيقة القرآن ورسالاته وغايته قد اتخذته الإمام - رحمه الله - منطلقاً أساسياً وأرضيةً صلبة لضبط المقاصد العلية والمبادئ الأساسية والعناصر الحقيقية التي رام القرآن الكريم إثباتها وتحقيقها عشية نزول أولى آيةٍ منه على قلب النبي الأميِّ محمد الأمين μ في غار حراء بمكة المكرمة قبل أربعة عشر قرناً من الزمن .

ولئن اختلف بعض العلماء قديماً وحديثاً إلى التوسع في تعداد مقاصد القرآن الكريم، وضبط أهدافه الكبرى، إذ ذهب بعضهم إلى ذكر ما لا يقل عن سبعة مقاصد للقرآن الكريم⁵، وذهب آخرون من العلماء إلى حصرها في خمسة مقاصد أساسية⁶، ولئن حاول كل طائفة منهم أن يدعم ما ذهبوا إليه بجملة من الأدلة والشواهد، فإنَّ الإمام النورسي توصل إلى القول - بعد استقراءٍ وتأملٍ في ثنايا آيات كثيرة من الذكر الحكيم - بأنَّ مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثقة في جميع سوره بل في جميع آياته لا تعدو أن تكون أربعة مقاصد أساسية تمثل العناصر الأصلية والقضايا الجوهرية المهمة التي توافرت مائة وأربع عشرة سورة على إثباتها من خلال آياتها التي تربو على ستة آلاف آية.

أولاً: المقاصد القرآنية الأربعة من المنظور النوري : عرضٌ وتوضيحٌ:

إنَّ ثمة حاجة ماسة إلى تفصيل القول في مضامين ومحتويات المقاصد القرآنية الأربعة التي اعتبرها الإمام النورسي أهمَّ المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع السور والآيات القرآنية، وإنَّ هنالك حاجة أيضاً إلى ضبط تلك المعاني والقضايا الجوهرية التي أولاها كتاب الله الكريم أشدَّ العناية وكررها أيّما تكرار. وبعد عمق التأمل وحسن التفكير في المعاني التي تشتملها السور والآيات القرآنية انتهى الإمام

5 - ويمثل الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي هذا الاتجاه في كتابه النفيس " كيف نتعامل مع القرآن العظيم " إذ ذكر في هذا الكتاب أنَّ القرآن الكريم دعا إلى كثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح للإنسانية بغيرها، وأنَّ ثمة سبعة منها أكدها القرآن وكرَّرها وعني بها أشدَّ العناية، وتلك السبعة المبادئ والمقاصد هي : تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء، وتقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وخصوصاً الضعفاء، وتوجيه البشر إلى حسن عبادات الله تعالى وتقواه، والدعوة إلى تزكية النفس البشرية، وتكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة، وبناء الأمة الشهيدة على البشرية، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون .. وأورد الشيخ العناصر التي يتكون منها كل مقصد من هذه المقاصد السبعة، ولمزيد من التفاصيل حول هذه المقاصد يراجع : يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم - (قطر، جامعة قطر مركز بحوث السنة والسيرة، طبعة أولى 1996 م) ص 65 وما بعدها . وسياقي معنا حديثاً مفصلاً سنعني فيه بموازنة ما ذكره الشيخ بما ذكره الإمام النورسي - رحمه الله - لنرى ما يشتمل عليه الطرح النوري من شمولية ودقة واستيعاب .

6 - ويمثل الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - هذا الاتجاه في كتابه القيم " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " (دمشق، دار القلم، طبعة أولى 1991 م) وسياقي معنا عرض مفصلاً لتلك المحاور الخمسة كما ذكرها الشيخ - رحمه الله .

النورسي الى القول بأن جميع السور والآيات القرآنية تتضافر من خلال استخدامها سائر الأساليب والوسائل البيانية والبلاغية على إثبات المعاني الأربعة التالية وهي: إثبات وجود الصانع الواحد (= مقصد التوحيد)، وإثبات نبوة محمد p (= مقصد الرسالة) وإثبات إمكانية وقوع الحشر الجسماني (= مقصد البعث والجزاء يوم القيامة)، وإثبات العدالة الإلهية في الدنيا وفي الآخرة (= مقصد العدل المطلق). فهذه هي المعاني الملحوظة للشارع الكريم في جميع السور والآيات القرآنية، وتمثل - في واقع الأمر - أمهات المقاصد وأصولها، ومنها تتكون العناصر الأساسية التي يتكون منها القرآن الكريم. وعني الإمام النورسي بذكر هذه المقاصد الأربعة في أكثر من مؤلف من مؤلفاته القيمة، وهذا عرض لها كما ورد في كتاباته ومؤلفاته المتعددة. ففي كتابه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" يقول ما نصه:

"إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة..."⁷

وفي موضع آخر من ذات الكتاب يؤكد هذا القول، فيقول:

"فاعلم! أن المقصد الأصلي في القرآن الكريم إرشاد الجمهور الى أربعة أساسيات، هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة..."⁸

وأما في كتابه النفيس "صيقل الإسلام" فيؤكد توافر سائر السور والآيات القرآنية على هذه المقاصد الأربعة، وفي ذلك يقول ما نصه:

"إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثقة في كل جهاته أربعة: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل..."⁹

وأما في كتابه "المثنوي العربي النوري" فيزيد هذا الأمر تأكيداً وتوضيحاً، ويقول ما نصه:

"أعلم! إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية..."¹⁰

هذه هي المقاصد القرآنية الأربعة من المنظور النوري، والجدير ذكره أن الإمام - رحمه الله - عني بتسليط الضوء على معاني هذه المصطلحات الأربعة وكيفية دلالة السور والآيات القرآنية المتكاثرة عليها، وأوسع كل مقصد منها جانب التفصيل والتوضيح والتحقيق. فمقصد التوحيد وإثبات الصانع الواحد عني بالحديث عنه في أكثر من رسالة ومكتوبة، وموضع، وأما مقصد النبوة، فهو الآخر حظي بنصيب وافر من توضيح الإمام وتجليته للدلائل والبراهين الدالة على صحة النبوة وضرورتها. وأما مقصد العدل، فقد خصصه للحديث في أكثر من موضع سواء في الكلمات، أو في

7 - انظر: بديع الزمان، سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز (تحقيق إحسان قاسم الصالحي، استانبول، دار سوزلر، طبعة أولى 1994 م) ص 23 وما بعدها باختصار.

8 - انظر: المرجع السابق ص 177

9 - انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام (ترجمة إحسان قاسم الصالحي، استانبول، دار سوزلر، طبعة أولى 1995 م) ص 29

10 - انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري (تحقيق إحسان قاسم الصالحي، استانبول، دار سوزلر، طبعة ثانية، 1994 م) ص 75 وما بعدها.

الكتوبات، واللمعات والشعاعات وغيرها. وأما مقصد الحشر، فلا يكاد مؤلف من مؤلفاته يخلو من تناوله لدلائله والبراهين الدالة على إمكانيته وميدانه. وبناءً على ذلك، فإننا نرى أنّ المقام لا يتسع لعرض تلك المباحث والموضوعات المتعلقة بهذه المقاصد الأربعة، وذلك نظراً لتشعبها وكثرة ورودها في ثنايا مؤلفات الإمام المتنوعة، وبالتالي، فإننا نرى تجاوز طرق هذا الجانب من الموضوع، ونحيل القارئ الكريم الى العودة الى أي من كليات رسائل النور للوقوف على مزيد بيان عن حقائق هذه المقاصد الأربعة.

ومهما يكن من شيء، فإننا نخلص من هذا العرض الى القول بأنّ ثمة انسجاماً وترابطاً وثباتاً في سرد الإمام هذه المقاصد في أكثر من موضع، وفي أكثر من مؤلف من مؤلفاته، وعبئاً أن يجد المرء اختلافاً أو اضطراباً في طرحه هذه القضية، على الرغم من أنّ هنالك تباعداً بين فترات تأليف الإمام لكتبه ورسائله المتعددة، بيد أنّ الأفكار والاجتهادات التي آمن بها وتوصل إليها بعد استقرارٍ وتأمّلٍ دقيقين في ثنايا النصوص لم يطرأ عليها تغييرٌ ولا تبديلٌ، وإنّما زادت الأيام والسنوات على الرغم من عفافها وجفافها ثباتاً واستقراراً وعمقاً وترابطاً وتناسقاً.

ثانياً : أسباب انحصار مقاصد القرآن في الأربعة المذكورة من المنظور النوري :

ولئن انتهى الإمام النورسي الى حصر مقاصد القرآن الكريم في تلك المقاصد الأربعة، واعتباره أياها العناصر الجوهرية والمبادئ الأساسية التي أكدّها القرآن الكريم، وكررها، وعني بإثباتها أشدّ العناية، فإنّ هذا الحصر وذلك الاعتبار إنما انبثقا من حسن فهمه للمراد الإلهي من وحيه الكريم من جهة، ومن تأمله الحصيف في الكليات والأصول العامة التي تروم أي الذكر الحكيم الى إثباتها من جهة أخرى. ولعلّ نظرة عجلية فيما أورده الإمام - رحمه الله - من دليل وبرهان على حصر المقاصد والمبادئ الأساسية في تلك المقاصد الأربعة تكشف للمرء حقيقة ما أسلفناه، ولذلك، فحريّ بنا سرد ما قاله بهذا الصدد :

".. إنّ المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية الأربعة أربعة : التوحيد والنبوة والحشر والعدالة، لأنه لما كان بنو آدم كركبٍ وقافلةٍ متسلسلةٍ راحلةٍ من أودية الماضي وبلاده، مسافرةٍ في صحراء الوجود والحياة، ذاهبةٍ الى شواهد الاستقبال، متوجهةٍ الى جنّاته، فتتهزّ بهم المناسبات، وتتوجه اليهم الكائنات. كأنه أرسلت حكومة الخلفة فنّ الحكمة مستنطقاً وسائلاً منهم بـ " يا بني آدم ! من أين ؟ ما تصنعون ؟ من سلطانكم ؟ من خطيبكم ؟ فيبينما المحاوررة إذ قام من بين بني آدم - كأمثاله الأمثال من الرسل أولي العزائم - سيّد نوع البشر محمد الهاشمي p وقال بلسان القرآن :

" أيها الحكمة ! نحن معاشر الموجودات نجئ بارزين من ظلمات العدم بقدر سلطان الأزل الى ضياء الوجود... ونحن معاشر بني آدم بعثنا بصفة المأمورية ممتازين من بين إخواننا الموجودات بحمل الأمانة... ونحن على جناح السفر من طريق الحشر الى السعادة الأبدية، ونشتغل الآن بتدارك تلك السعادة وتنمية

الاستعدادات التي هي راس مالنا .. وأنا سيدهم وخطيبهم . فها دونكم منشوري ! وهو كلام ذلك السلطان الأزلي يتلألاً عليه سكة الإعجاز . والمجيب عن هذه الأسئلة الجواب الصواب ليس إلا القرآن ، ذلك الكتاب .. (وبناءً على ماسبق، فإنه يمكن للمرء أن يدرك سبب كون) هذه الأربعة عناصره الأساسية .. " 11

ويؤكد الإمام هذا التعليل في كتابه صيقل الإسلام قائلاً :

" .. إنَّ القرآن هو وحده الكفيل بالإجابة عن الأسئلة التي تسألها الحكمة (الفلسفة) من الكائنات: من أين؟ وبأمر من تأنون؟ من سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ ما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟ ولهذا فذكر الكائنات في القرآن الكريم – مما سوى المقاصد – إنما هو ذكر استطرادي لبيان طريق الاستدلال على الصانع الجليل بانتظام الصنعة . نعم ! الانتظام يشاهد، بل يظهر نفسه بكل وضوح. فالصنعة المنتظمة تشهد على وجود الصانع وعلى قصده وإرادته شهادة صادقة قاطعة، إذ تتراءى في كل جهة من جهات الكون، وتتألاً من كل جانب .. وتعرض جمال الخلق إلى أنظار الحكمة. حتى لكأن كل مصنوع لسان يسبح بحكمة صانعه، كل نوع يشهد مشيراً بإصبعه إلى حكمة الصانع .. " 12

إنَّ النظر المتأمل في هذا التعليل النوري يهدينا إلى القول بأنَّ اعتبار تلك الأمور الأربعة أهم وأجل مقاصد القرآن وعناصره الأساسية إنما ينطلق ذلك الاعتبار من كون تلك الأمور الأربعة مغطية كل ما يمكن أن يجول بخاطر الناظر، فمقصد إثبات الصانع الواحد يمثل أم المقاصد وأسّ العناصر، إذ إنَّ الإيمان به يمهد للإيمان بما بعده من مبادئ وعناصر بالضرورة، وذلك لأنَّ الإيمان بوجود خالق واحدٍ يقتضي عبادته وحده من جهة، ويقتضي الالتزام بما جاء من عنده وأخبر عنه – جل شأنه – من جهةٍ أخرى . وأما ورود الحديث عن هذا المقصد في القرآن الكريم، فلا يحتاج إلى بذل كبير عناء، إذ ما من سورةٍ من سورته إلا وفيها حديثٌ صريحٌ أو ضمانيٌّ عن هذا المقصد، بل تكاد كل الآيات القرآنية أن تتضمن حديثاً عن هذا المقصد، مما يجعله جديراً بوصف المقصدية القرآنية .

وأما مقصد النبوة، فإنَّ الإيمان به يقتضي التصديق والإيمان بكل ما جاء به p من تشريعات في سائر مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والحضارية، فهو المبلغ عن الإرادة الإلهية العظمى ومقصوده من الخلق، وهو المؤمن على إبلاغ الخلق أوامر الله ونواهيه، وبالتالي، فإنَّ الإيمان بهذا المبدأ يشكل القاعدة الأساسية التي تقوم عليها تحقيق مراد الله في واقع حياة الفرد والجماعة . وأما ورود الآيات وتضافرها في إثبات هذا المقصد، فإنه هو الآخر لا يحتاج منا إلى بذل أيّ عناء، فسائر السور والآيات القرآنية التي تنصدر بعبارة " قل " صراحةً أو ضمناً كلها تعبيرٌ وتلميحٌ إلى هذا المقصد، ولا تكاد سورة أو آية تخلو من الإشارة إلى هذا المقصد المهم .

11 - انظر : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – مرجع سابق – ص 24 .

12 - انظر : صيقل الإسلام – مرجع سابق – ص 29 .

وأما مقصد العدالة، فإنه يشكّل المبدأ المصدّق للمبدئين السابقين، إذ إنّ مقتضاه نفي فكرة العبيثية والعشوائيّة والصدفة عن نظام الخلق والكون والحياة، ونفي الظلم والجور والعدوان عن الذات الإلهية في حكمه بين خلقه إن ثواباً أو عقاباً، وإنّ عطاءً أو منعاً .

فالغاية من بعث الرسل وإنزال الكتب ليقوم الناس بالقسط وليتحقق العدل على سائر مستوياته الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والحضاريّة والثقافيّة، وليس من الوارد في شيء تحقيق مقتضى لا إله إلا الله في واقع الأرض إذا لم ينل مبدأ العدل مكانته ومنزلته السامية، ولذلك، فلا غرو أن تتضافر نصوص كثيرة في القرآن الكريم في مواقف متعددة ومتنوعة تدعو الى العدل وتنعى على الظلم والظالمين في جميع صورته وأشكاله من ظلم الله، وظلم للنفس، وظلم للعباد .

وأما مقصد الحشر، فإنه هو الآخر يمثل تنمة الحلقة التي لا قوام للحياة بدونها، ولئن كان الإيمان بمبدأ وجود الصانع الواحد، ومبدأ الرسول، والعدالة، فإنّ الإيمان بمبدأ الحشر ضروريٌ ولا بدّ منه، إذ إنّ الحصول على السعادة الأبديّة والدائمة التي سينالها الموحّدون والمؤمنون بواحدانية الله والمصدّقون بنبوة محمد μ والعاقلون في هذه الحياة يتوقف على وجود هذا المبدأ، فالحشر – كما قال الإمام النورسي – طريق الى تلك السعادة الأبديّة، وبالتالي، فإنّ الإيمان بهذا المبدأ يشكّل ضرورةً من ضرورات نيل مرضاة الله ومبتغاه في هذه الحياة، ويمثل أيضاً تعميماً للإيمان بمبدأ وجود الصانع الواحد الذي أخبر عن طريق مبعوثه رحمة للعالمين بأنه قادر على ان يبعث من في القبور تأكيداً على أنّ هذه الحياة الدنيا لا تعدو ان تكون منطقة عبور الى حياة دائمة إما هانئة أو حامية .

إنّ تضافر السور والآيات القرآنيّة وخاصّة منها المكّيات على هذا المبدأ يؤكّد على أهميّته وضرورته، ويمكن للمرء أن يلاحظ من ثانياً أكثر السور والآيات المكّيّة حضور هذا المبدأ في كل مرّة، فما من سورة من سور القرآن الكريم إلا وفيها ذكر لهذا المبدأ وتذكير به، وكفي للمرء التأكيد من هذا عن طريق إلقاء نظرة سريعة في أية سورة من سور القرآن، فسوف يجد لهذا المبدأ حضوراً إما بلفظه أو بمعناه . وعليه، فإنّ انتهاء الإمام النورسي الى اعتبار هذا المقصد أحد أهم المقاصد والعناصر الأساسيّة التي رام القرآن الكريم الى إثباتها دليل على سعة الأفق، ودقة الملاحظة، وجودة القرينة .

ثالثاً : علاقة المقاصد الأربعة بغيرها من مقاصد القرآن في المنظور النوري :

ومهما يكن من شيء، فلئن تبين لنا سبب انتهاء الإمام الى حصر المقاصد القرآنيّة في تلك المقاصد الأربعة، فإنّ الإنصاف يقتضي منا إبراز علاقة تلك المقاصد الأربعة بغيرها من المقاصد القرآنيّة الأخرى علماً بأنّ ثمة اتفاقاً بين العلماء قديماً وحديثاً حول اشتغال القرآن الكريم على جملة حسنة من المقاصد والمبادئ، وإن يكن من اختلاف بينهم، فلا يعدو من أن يكون اختلافاً في تحديد وضبط امهات المقاصد

وأصولها، ولذلك، فإنه ينبغي أن يفهم ذهاب الإمام - رحمه الله - الى اعتماد تلك الأربعة مقاصد القرآن من هذا المنطلق، نعني أنّ تلك الأربعة في منظوره الكريم يمثل أمهات المقاصد وأصولها، وما عداها من مقاصد ومبادئ، فلا تعدو من أن تكون وسائل ومقاصد فرعية لها .

وعليه، فإنّ المنظور النوريّ في هذا الباب يقوم على النظر الى ماسوى المقاصد الأربعة المذكورة بوصفها مسائل ووسائل لإثبات المقاصد الأربعة، إذ إنّ تلك المقاصد الأربعة في منظوره - كما أسلفنا - تتضمن كل ما يمكن اعتباره مقصداً أو مبدأ قرآنيّاً معتبراً، فعلى سبيل المثال، إنّ مقصد تزكية النفس ومقصد توجيه البشر الى عبادة الله وتقواه يندرجان ضمن مقصد التوحيد، وأما مقصد تكوين الاسرة وإنصاف المرأة، ومقصد بناء الأمة الشهيديّة على البشريّة، فإنّهما يندرجان ضمن مقصد النبوة، فتوجيه البشر الى كيفية تكوين الاسرة الصالحة وبناء الأمة الشاهدة من مهام النبوة، وأما مقصد تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، ومقصد الحرية ومقصد الرحمة والسماحة وغيرها من المقاصد، فإنّها كلها تندرج ضمن مقصد العدالة . وهكذا دواليكم .

وعلى العموم، فإنّ كلّ ما يمكن أن تجود به قريحة عالم أو مخيلة مفكر في استنباط مقصد أو مبدأ قرآنيّ، فإنّه يمكن إرجاعه الى هذه المقاصد الأربعة، ولا يمكن له أن يكون مقصداً مستقلاً عن هذه الأربعة كلها، وبناءً على ذلك، فإنّه يمكن الخلوص الى القول بأنّ سائر المقاصد والمبادئ التي أوردها العلماء قديماً وحديثاً لا تعدو في حقيقتها من أن تكون فروعاً عن المقاصد الأربعة المذكورة، وتعتبر في واقع أمرها وسائل وفرعيّاتٍ مقارنةً بالمقاصد الأربعة المذكورة، وفي هذا يقول الإمام - رحمه الله - ما نصّه :

" اعلم ! إنّ مقاصد القرآن الأساسيّة وعناصره الأصليّة أربعة : التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبوديّة .. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب . ومن القواعد : عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لنلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني، فيفوت المقصد . فلهذا قد أبهم وقد أهمل وقد أجمل القرآن في بعض المسائل الكونيّة .. " ¹³

ويقول في موضع آخر مؤكداً هذا الأمر :

" ..فاعلم أنّ المقصد الأصليّ في القرآن الكريم إرشاد الجمهور الى أربعة أساسياتٍ هي : إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة .. فذكر الكائنات في القرآن الكريم إنّما هو تبعيٌّ واستطراديٌّ للاستدلال ، إذ ما نزل القرآن لدرس الجغرافيا والقوزموغرافيا ، بل إنّما ذكر الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلهيّة والنظام البديع على النظام الحقيقيّ جلّ جلاله .. " ¹⁴

13 - انظر : المثنوي العربي النوري - مرجع سابق - ص 75 وما بعدها .
14 - انظر : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز - مرجع سابق - ص 177 .

وهكذا يتجلى لنا علاقة المقاصد الأربعة في المنظور النوري بغيرها من المقاصد الأخرى التي تذكرها الكتب والمدونات التفسيرية المختلفة، وإن يكن من شيء جدير بالإشادة في الطرح النوري، فإن حسن الانتقاء وسداد الاختيار وشمول المبنى كل أولئك تعتبر مزايا وخصائص ينبغي أن تسجل بمداد من التبجيل والاحترام لهذه العقليّة الفدّة .

رابعاً : اثبات المقاصد الأربعة في سائر السور والآيات القرآنية :

لقد أسلفنا أنه ما من سورة من سور القرآن إلا وتشتمل على هذه المقاصد الأربعة مجتمعة، وليس من الوارد في شيء خلو سورة أي سورة من هذه المقاصد، بل يكاد الإمام يجزم القول بأنه يمكن أن يلمح بهذه المقاصد في سائر الآيات القرآنية، وقد يرمز إليها في كل كلمة من كلماته الدقيقة، الأمر الذي يؤكد كونها أمهات المقاصد وأصولها. وبطبيعة الحال، فإن اشتمال سائر السور وجل الكلمات القرآنية على هذه المقاصد إنما يعود إلى كون كل جزء من أجزاء القرآن كالمرآة التي تعكس الصورة وتبدي كل ما يمكن إبدائه . وفي هذا يقول الإمام - رحمه الله - ما نصّه :

" .. فكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كل، كذلك قد تتجلى في سورة سورة، بل قد يلمح بها في كلام كلام، بل قد يرمز إليها في كلمة كلمة، لأن كل جزء فجزء كالمرآة لكل فكل متصاعداً، كما أن الكل يتراءى في جزء فجزء متسلسلاً . ولهذه النكتة - أعني اشتراك الجزء مع الكل - يعرف القرآن المشخص كالكلي ذي الجزئيات .. " ¹⁵

وعليه، فإن حديث القرآن الكريم عن هذه المقاصد وسرده إياها يمكن للمرء ملاحظته في كل سورة، بل في كل آية، فما من سورة أو آية في القرآن الكريم إلا وهي تعبر عن هذه المقاصد الأربعة مجتمعة ولا محالة، الأمر الذي يؤكد أهمية هذه العناصر الأربعة وضرورتها لإدراك الغاية الإلهية من نزول هذا الكتاب على رسوله الكريم . p . وتأكيذاً لهذا يقول الإمام - رحمه الله - ما نصّه :

" إن قلت: أرني هذه المقاصد الأربعة في {بسم الله} وفي {الحمد لله}. قلت: لما أنزل {بسم الله} لتعليم العباد كان "قل" مقدراً فيه. وهو الأم في تقدير الأقوال القرآنية. فعلى هذا يكون في "قل" إشارة إلى الرسالة .. وفي {بسم الله} رمز إلى الألوهية .. وفي تقديم الباء تلويح إلى التوحيد.. وفي {الرحمن} تلميح إلى نظام العدالة والإحسان.. وفي {الرحيم} إيماء إلى الحشر. وكذلك في {الحمد لله} إشارة إلى الألوهية.. وفي لام الاختصاص رمز إلى التوحيد.. وفي {رب العالمين} إيماء إلى العدالة والنبوة أيضاً، لأن بالرسول تربية نوع البشر.. وفي {مالك يوم الدين} تصريح بالحشر. حتى إن صدف {إنا أعطيناك الكوثر} يتضمن هذه الجواهر. هذا مثال فانسج على منواله.. " ¹⁶

15 - المرجع السابق ص 24 باختصار .

16 - المرجع السابق ص 24 باختصار .

وهكذا حاول الإمام - رحمه الله - أن يثبت انبثاق هذه المقاصد الأربعة في ثنايا بعض الآيات والكلمات القرآنية، فالبسمة تتضمن إثبات مقصدي التوحيد والنبوة، وأما لفظ "الرحمن"، فإنه يمثل تعبيراً صادقاً عن مقصد العدالة والإحسان، وأما لفظ "الرحيم" فإنه تعبيرٌ صريحٌ عن مقصد الحشر.

وأما الآيات الأولى من سورة الفاتحة، فإنها تتضمن بأسرها تلميحاً وإشارةً وتوضيحاً لهذه المقاصد الأربعة كما ذكر الإمام، فالآية الأولى {الحمد لله رب العالمين} تعبيرٌ عن مقصد التوحيد، وأما الآية الثانية {الرحمن الرحيم} فأشارة إلى مقصدي العدالة والحشر كما أنّ الآية الثالثة {مالك يوم الدين} تمثل تكراراً لمقصد الحشر وهكذا دواليك.

وبناءً على هذا التمثيل العملي الواضح والدالّ على انبثاق هذه المقاصد والعناصر الأربعة في ثنايا السور بل الآيات القرآنية يمكن للمرء أن يزعم بسلاسة وسداد الاستقراء والتأمل للذين قادا الإمام إلى الاعتداد بهذه المقاصد الأربعة أهمّ وأجلّ المقاصد القرآنية، إذ إنّه من الممكن لكل واحد أن يدرك مدى اشتغال سائر الآيات القرآنية على هذه المقاصد مجتمعة في أكثر الأحيان، وعلى بعضها في أحيان أخرى. ولا يحتاج إثباته إلى بذل كبير عناء، وإلى أيّ تكلفٍ يذكر. وإثباتاً لهذا الأمر، نرى أن نلقي نظرة خاطفة فاحصة في آيات سورة الناس، فسوف نجد هذه المقاصد الأربعة كلها مبنوثة ومنثورة بين ثناياها بجلاء.

فقول {قل} إشارة إلى مقصد النبوة، فالنبي μ هو المأمور بأن يقول هذا الخبر لعامة الناس. وقوله {أعوذ بربّ الناس} تلميح إلى مقصد توحيد الربوبية الذي لا يسع أحداً أن ينكره بتاتاً، وأما قوله {ملك الناس} فرمزٌ إلى مقصد الحشر الذي لا ينبغي لأحدٍ أن يزعم ملكيته سواء جلّ جلاله، وأما قوله {من شرّ الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس} فتلميح إلى مقصد العدالة الذي يوجب تنصيب المظلومين من الظالمين يوم القيامة. وهكذا.

إنّ اشتغال جميع السور القصار على هذه المقاصد الأربعة مجتمعة لا يحتاج إلى مزيد توضيح، إذ ما من سورةٍ منها إلا وتتضمن الإشارة أو التلميح إلى هذه المقاصد الأربعة، ولعلّ السرّ في ذلك يعود إلى كونها أوائل السور القرآنية التي نزلت في بداية مسيرة الدعوة إلى بناء الأمة الشاهدة داعية إلى عقيدة التوحيد وإلى الإيمان بنبوة محمد μ وإلى نبذ الظلم والقهر والجور، إضافةً إلى التذكير بالبعث والنشور. ومن المعلوم أنّ هذه السور القصار تكاد أن تكون كلها مكيّة ما عدا سوراً قلئلاً مختلفاً في مكيّتها. وأما اشتغال السور الطوال على هذه المقاصد الأربعة، فهو الآخر لا يحتاج ممّا إلى استقراغ أيّ جهد، بل ربما ألقى المرء آية من آيات تلك السور القصار مشتملة على المقاصد الأربعة كلها، كما هو الحال في آية الدّين في سورة البقرة، وآية الملك في سورة آل عمران {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}.

ومهما يكن من شيء، فإنّ المقام لا يتسع لسرد أمثلة كثيرة لآيات كثيرات مشتملات على هذه المقاصد، ولعلّ ما ذكرناه فيه الغنية والكفاية للدلالة على المقصود بإذنه تعالى .

المبحث الثاني

مقاصد القرآن من المنظور النوري ومن منظورات معاصرة : تحليل وموازنة
 لئن تبني الإمام النورسي - رحمه الله - القول بأنّ القرآن الكريم يشتمل على أربعة مقاصد وعناصر أساسية فإننا نرى أن نوازن هذا الطرح النوري المتميز بطرحين معاصرين لعالمين كبيرين شهيرين من العلماء المعاصرين، وأما العالم الأول، فإنه هو الشيخ المرحوم محمد الغزالي - رحمه الله - وأما العالم الثاني، فإنه الشيخ يوسف القرضاوي - حفظه الله - وإثما اخترنا طرح هذين العالمين المعاصرين لما يتميز به طرحهما من وضوح وضبط، ولما يحظى به طرحهما في الأوساط الفكرية المعاصرة من اهمية وقبول واعتبار . ولم نرم من اختيار طرحهما الزعم بكونهما أعلم علماء العصر، فهذا الحكم لا نرومه، ولا يهمننا تقريره ولا الدعوة إليه . وبناءً على ذلك، فلننصرف الى عرض طرحهما بأمانة تمهيداً لموازنتهما بالطرح النوري . وعليه، فنقول:

أولاً : المقاصد القرآنية من المنظور الغزاليّ : عرض وتحليل

ذهب الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في كتاب الجليل "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" الى تبني القول بأنّ القرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سورته، وتشابه آياته وموضوعاته، فإنه يمكن القول بأنه يدور على محاور خمسة، وتشكّل هذه المحاور في المنظور الغزالي أهمّ القضايا القرآنية وأجلّها، وفي هذا يقول ما نصّه :

"..والقرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سورته، يمكن القول بأنه يدور على محاور خمسة. فالتشابه قائم بين آياته، وتكرار المعاني والغايات مأنوس في سياقه : {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تفشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلّل الله فما له من هادٍ} الزمر 23 . والآية تشير الى أنّ القرآن لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة، أو قضايا من اختلاق الترف العقلي، كلا .." ¹⁷

واما هذه المحاور الخمسة، فقد حصرها الشيخ - رحمه الله - في محور الله الواحد (التوحيد) وفي محور الكون الدال على خالقه، وفي محور القصص القرآني، وفي محور البعث والجزاء (الحشر) وفي محور التربية والتشريع .

وأما المحور الأول (محور التوحيد) فقد دارت عليه سور القرآن الكريم، وذلك لأنّ الناس قديماً كانوا " يعرفون الألوهية معرفة ناقصة أو مشوهة فكانوا يضمون الى عبادة الله عبادة آلهة أخرى، من صنع أنفسهم، وكان تعصبهم لهذا الآلهة المختلفة شديداً، وربما كان حظها من الإقبال والخشية أكثر من حظ الإله الحقّ . وعندما جاء الرسل يفردون الله بالعبودية، ويخاصمون الاتجاه الى الوثنية قوبلوا بحرب شعواء " 18

وأما المحور الثاني، هو إثبات كون الكون دالاً على خالقه، فقد عنيت آيات كثيرة الى لفت النظر الى هذا المحور ، وذلك لأنّ الكون في المنظور الإسلاميّ نفيس القيمة " غالي عند صانعه - جلّ جلاله - لا لأنه بذل فيه جهداً، أو دفع فيه ثمناً، كلا : { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } إنّ غلاءه راجع الى دلالاته على خالقه، فقد بني لبنة لبنة بالحق، وانتظمت أرجاءه قوانين محكمة، تجلّى فيها المجد الإلهي في أبهى صورة .. وقد لفتنا القرآن الكريم في آيات كثيرة الى عظمة الخالق في كونه، كي نزداد به إيماناً وله إذعائاً .. " 19

وأما المحور الثالث، وهو محور القصص القرآنيّ، فهو أوسع المحاور القرآنيّة، ويعتبر في حقيقته أداة للتربية ومصدر توجيه ووعظ، إذ لكل "قصة في موضعها إيراد مقصود، وأثر مغاير يحتاج إليه السامع لتكتمل به الحقيقة التاريخية والعناصر التربويّة " 20 فسواء أكانت القصص التي قصّها القرآن مفردة أو مكررة، فإنّها في نهاية المطاف تشكّل " أداة تربويّة، ومصدر توجيه ووعظ يدعم الفرد والجماعة . قصص القرآن قطع من الحياة الماضية، استرجعها الوحي الأعلى للتعليم والاعتبار .. والقرآن الكريم عندما يقصّ ينفخ الحياة في القرون الهامدة، فإذا هي حيّة تسعى نسمع فيها ضجيج العراك بين المحقّين والمبطلين، إنّ شريط الأحداث يتحرك ليعيد علينا مراحل مضت من تاريخ الدنيا .. " 21

وأما المحور الرابع، وهو محور البعث والجزاء، فقد أكثر القرآن الكريم .. الحديث عن الدار الآخرة وحسابها الدقيق ونعيمها المقيم وعذابها الدائم، وأكّد للبشر أنّ حياتهم فوق التراب فترة صغيرة وأنّ استغراقهم في الأحزان والأفراح خدعة كبيرة، وأنّ المسلك الوحيد الرشيد هو الإيمان بالله واليوم الآخر .. " 22

"إنّ من الأمر الجليّ أن يقف المرء على تكرار ذكر البعث والجزاء في كتاب الله ولا تكاد تخلو منه سورة على الإطلاق ففي "..السورة الأولى من القرآن الكريم ، حمّد لله ربّ العالمين، المالك ليوم الدين، أي يوم الجزاء، وهي سورة يقرؤها المسلم عشرات المرات كلّ يوم . وعكس هذا الذكر المتصل نجد أسفار موسى الخمسة التي تنصدر العهد القديم وتسمى التوراة، إنّها خالية من أيّ ذكر للبعث والجزاء خالية من

18 - انظر : المحاور الخمسة للقرآن الكريم - مرجع سابق - 19

19 - المرجع السابق ص 58 وما بعدها

20 - المرجع السابق ص 93 باختصار

21 - المرجع السابق ص 100 باختصار

22 - المرجع السابق ص 144 باختصار

أي ترغيب في الجنة أو ترهب من النار، كأن مؤلف كتاب رأس المال " كارل ماركس " هو الذي وضع هذه التوراة ، وعجيب أن يخلو دين من التنبيه الى لقاء الله، وأن يضرب صفحاً عن ذكر الدار الآخرة . وهذا الإغفال كان له أثره في إخلاد اليهود الى الأرض، وفي صياغة تفكيرهم المادي وفي اعتبار جنتهم ونارهم في هذه الحياة وحدها..²³

وأما المحور الخامس، وهو محور التربية والتشريع، فيمكن للمرء تلمسه من خلال نصوص الذكر الحكيم التي تشتمل على عبارة " الله يحب، والله لا يحب " فقله " .. {ولا تعدوا إن الله لا يحب المعتدين} وبعد سطور قليلة {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} هذه قوانين عامة يجب أن تضبط مسالك الناس جميعاً...²⁴ وثمة آيات كثيرات ترد في القرآن الكريم في هذا السياق دالاً على أهمية التربية والمعيار الضابط لدائرتها، فكل ما يحبه الله فيه ارتقاء بالإنسان الى مدارج الكمال والتحضر، وكل ما لا يحبه، ففيه انحدار بالإنسان الى مدارك الانحطاط والهبوط والتخلف . وهكذا دو اليكم.

هذه هي مجمل المحاور الخمسة التي تدور حولها آيات القرآن الكريم من المنظور الغزالي، وقد عني الشيخ - رحمه الله - بضرب الأمثلة والشواهد على هذه المحاور، وبذل ما وسعه من جهد كبير في ربط معاني هذه المحاور بالواقع المعيش، فكان له حديث عند المحور الأول عن العقائد النصرانية وعن الشيوعية وعن خرافات المعتقدات وأباطيلها وخزعبلاتها، كما كان له حديث عند المحور الثاني عن آثار التدنيس الفاسد وإساءة فهم المراد بالزهد والتوكل، والروحانية، وانحرافات الحضارة القائمة وأغلاطها في رفضها الإيمان بكون هذا الكون مخلوقاً لله جل شأنه. وأما المحور الثالث، فقد ساقه الحديث عنه الى الحديث تغافل المسلمين اليوم عن فهم المعاني الحقيقية الثابوية في القصص القرآني، وعن عجزهم عن إدراك العلل التي تعصف بالحضارات الى الأفول، والانهياب، ولم يفت الحديث عن فواحش سياسية في تاريخنا الاسلامي والتي تناوب على ارتكابها أسرُ ولا تزال الساحة الإسلامية اليوم تشكو من آثارها ونتائجها.

وأما المحور الرابع ، فقد أوسعه حديثاً عن أثر التفريق غير العلمي ولا الديني بين شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، والحال أن ثمة تداخلاً بين شؤونهما، وتغليب جانبٍ منهما على حساب جانبٍ آخر قاد ولا يزال يقود الى الانسحاب عن الحياة ، أو التوسع في الشهوات والملذات، وكلاهما مدمران لحياة الفرد والجماعة .

وأما المحور الخامس، فقد خصّصه لإيساع الحضارة المعاصرة بأدواتها وإنجازاتها جانب النقد، وحملها مسؤولية الشقاء والثبور التي يعيشهما البشرية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وأوضح أن ضابط الأخلاقيات التي تقود الأفراد والجماعات الى مدارك الانحطاط والهبوط والتقهقر توافر القرآن الكريم على ذكر ذلك الضابط

23 - المرجع السابق ص 145 - 146 باختصار
24 - المرجع السابق ص 187 وما بعدها .

من خلال عبارة " لا يحب الله، أو إن الله لا يحب .." وأما الأخلاقيات التي تحقق للبشرية الهناء والسعادة والاستقرار، فإن المرء يجدها مثبتة ومصدرة في أكثر الأحيان في القرآن الكريم بعبارة " إن الله يحب، ويحب الله .." وعلى العموم، ذلك هو الطرح الغزالي للمقاصد الأساسية التي رام الكتاب العزيز إثباتها، والتأكيد عليها، وإن تميّز هذا الطرح بشئ، فإنه تميّز بربط تلك المحاور بواقع الحياة المعيش، وعني المؤلف بالتوسع في هذا الجانب الى الدرجة التي كاد فيه المقصد الأساس من ذكر هذه المحاور أن يختفي بعض الشئ، إذ في بعض الأحيان يجد القارئ نفسه كأنه يقرأ في كتاب يحاول أن يقدم حلوّاً لبعض من الانحرافات في التصور والسلوك والتي تكاد أن تعم الحياة الإسلامية على جميع مستوياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وليس من شك أن المحور الثاني تكلمة للمحور الأول، وبالتالي، فإن الفصل بينهما والاعتداد بكل منهما محوراً قائماً بذاته لا يعدو في نظرنا أن يكون توسعاً كان من الممكن الاستغناء عنه باعتماد محور آخر يتمثل فيما انتهى إليه الإمام النورسي وهو مقصد النبوة .

وأما محور التربية والتشريع، فإنه هو الآخر مقصد فرعي يتفرع عن مقصد النبوة، ويندرج تحته في نهاية المطاف . وأما محور القصص القرآني، فإنه هو الآخر مقصد فرعي ينبثق عن مقصد النبوة، وذلك لأن الإيمان بهذا المقصد يقتضي الإيمان بكل ما ينقله من قصص وأخبار عن الأمم السابقين وعن الحضارات الأتلة البائدة وعلل الأفول وأسباب الإيابة .

وعلى العموم، فإنه يمكن القول بأن الطرح الغزالي يكاد أن يكون شبيهاً بالطرح النوري، وإن تميّز عليه الطرح النوري بالشمول والإحاطة والدقة مع التركيز . ومهما يكن من شئ، فلنلتفت الى الطرح الأخير، وهو الطرح القرضاوي لنرى ما تميّز به هذا الطرح هو الآخر، ولنكشف عن علاقته بالطرح النوري وصولاً في النهاية الى مكانة الطرح النوري بين الطروحات المعاصرة .

ثانياً : المقاصد الفرآنية من المنظور القرضاوي : عرض وتحليل

يختلف الشيخ يوسف القرضاوي - حفظه الله - الى القول بأن القرآن الكريم دعا الى جملة من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها، بيد أن هنالك سبعة من تلك المبادئ والمقاصد أكدها القرآن الكريم، وكررها، وعني بها أشد العناية، وبالتالي، فإن هذه المقاصد السبعة تمثل - بمنطوق النص - أهم المقاصد والمبادئ التي تشتملها السور والآيات القرآنية، وأما ما عداها، فإنها لا تخلو من أن تندرج ضمن أحد هذه المبادئ والمقاصد. وفي هذا يقول الشيخ ما نصه :

"... لقد دعا القرآن الكريم الى كثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها، ونجتزئ هنا بسبعة منها، مما أكده القرآن وكرره، وعني به أشد العناية، وهي:

- 1 - تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء .
 - 2 - تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وخصوصاً الضعفاء من الناس .
 - 3 - توجيه البشر الى حسن عبادة الله تعالى وتقواه .
 - 4 - الدعوة الى تزكية النفس البشرية .
 - 5 - تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة .
 - 6 - بناء الأمة الشهيدة على البشرية .
 - 7 - الدعوة الى عالم إنساني متعاون . " 25
- فهذه المقاصد السبعة تمثل أمهات المقاصد القرآنية وأصولها، وحاول الشيخ - حفظه الله - أن يثبت اشتمال السور والآيات القرآنية على هذه المقاصد، فأورد ما يشتمله كل واحد منها من عناصر دالة على حقيقة المقصد المذكور . فالمقصد الأول المتمثل في تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء، ينتظم عناصر ثلاثة، وهي :
- أ - عنصر إرساء دعائم التوحيد بوصفه " ...أساس الحرية الحقة إذ لا حرية لمن يقْدَس بشراً أو يعبد حجراً، (وبوصفه) أساس الإخاء والمساواة لأنها تقوم على اعتقاد أن الناس جميعاً عباد الله وأنهم أبناء أب واحدٍ وأم واحدةٍ، فهم إخوة بعضهم لبعض .. " 26
- ب - عنصر تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة ببيان الحاجة الى النبوة والرسالة، وبيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار ، وبتفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل، وبيان عاقبة الذين صدّقوا الرسل، وعاقبة الذين كذبوا .
- ج - عنصر تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء، فقد تكفلت معظم سور القرآن مكيها ومدنيها بتكرار الحديث عن الآخرة وما فيها من حساب وجنة ونار، وسلك القرآن في تثبيت هذه العقيدة مسلك إقامة الأدلة على إمكان البعث ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأ، وبالتنبيه على خلق الأجرام العظيمة من شمس وقمر وأرض، وبيان حكمة الله في الجزاء حتى لا يستوي المحسن والمسيء والبرّ والفاجر، وبيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من ثوبة ورضوان، وما ينتظر المكذّبين من عقاب وخسران، وبإبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن آلهتهم المزعومة تشفع لهم يوم القيامة . 27
- وأما القصد الثاني المتمثل في تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، فإنّ القرآن الكريم عني بتكرار الحديث عنه من خلال حديثه عن عناصر ثلاثة تشكل حقيقة هذا المقصد، وهي :
- أ - تقرير السور والآيات القرآنية كرامة الإنسان، وكونه مخلوقاً كريماً على الله، وخليفة له، ومسخرأ له ما في الأرض جميعاً .

25 - انظر : كيف نتعامل مع القرآن العظيم - مرجع سابق - ص 65 وما بعدها .

26 - انظر : المرجع السابق ص 66

27 - انظر : المرجع السابق ص 67 - 69 بتصرف .

ب - تقرير حقوق الإنسان في حرية النظر والتفكر وفي حرية الاعتقاد وفي حرية القول والأمر والنهي بالمعروف، وفي المساواة، وفي حقه في الاستمتاع بالطبّيات من الرزق، وحقه في الزواج وتكوين الأسرة، وحقه في الإنجاب، وحقه في الحياة وفي العمل والمشى في مناكب الأرض، وفي احترام مسكنه، وفي صياغة عرضه وكرامته، وفي العدل والإنصاف، وفي مناقشة أولي الأمر، وفي إنكار المنكر ورفض الفساد ومقاومة الظلم الخ....

ج - تأكيد حقوق الضعفاء خشية أن يجور عليهم الأقوياء أو يهمل أمرهم الحكام والمسؤولون، وتجلّى هذا التأكيد في الدعوة إلى احترام اليتامى وعدم قهرهم، والمحافظة على أموالهم وحسن استغلالها.

وأما المقصد الثالث وهو توجيه العباد إلى حسن عبادة الله وتقواه، فلا يحتاج كشفه إلى بذل كبير عناء، فبين " الفاتحة والختم لا تخلو صفحة من المصحف من ثناء على الله تعالى بما هو أهله من وصفه بكل كمال يليق بذاته المقدّسة، وتنزيهه عن كل نقص ينافي جلاله وجماله، والدلالة عليه سبحانه عن طريق هذا الكون الذي أبدعه وأتقن فيه كل شيء صنعه .. " ²⁸

وعليه، فلا عجب أن يكون " المقصود الأول من القرآن : أن يتعرف الله تعالى إلى خلقه، وأن يصلحهم بحبله، وأن يتحبّب إليهم بنعمه وفضله، وأن يخوفهم من سطوته وعدله حتى يعرفوه ويحبوه وينيبوا إليه ويسيروا على منهجه الذي أنزل به كتابه، وبعث به رسوله ليهدوا إلى التي هي أقوم.. " ²⁹

وأما المقصد الرابع والذي يتمثل في الدعوة إلى تزكية النفس البشريّة، فيتمثل في تطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله وتطهير القلوب من قسوة الجاهليّة وغلظتها وتطهير الإرادات من الشهوات البهيميّة والنزوات السبعيّة... ويتمثل في تنمية العقول بالمعرفة والقلوب بالإيمان والإرادات بالتوجه إلى عمل الصالحات، والسلوك بالترام العدل والإحسان ومكارم الأخلاق.. وعلى العموم، فإنّ ما يجب " أن تتطهر منه النفس الزكيّة هي أخلاق النفاق ورنائل المنافقين التي جلاها القرآن أبلغ تجلية، وخصوصاً في سورة التوبة والبقرة والمنافقون وغيرها " ³⁰

وأما المقصد الخامس وهو تكوين الأسرة وإنصاف المرأة، فقد تناول القرآن موضوع تكوين الأسرة بوصفها ركيزة المجتمع الصالح، ونواة الأمة الصالحة، ولذلك، فلا غرو أن يعتبر القرآن الكريم الزواج الذي يمثل أساس تكوين الأسرة آية من آيات الله { ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودةً ورحمةً إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون } . ولا غرو أيضاً أن يقاوم في الوقت نفسه نزعة الإباحيّة التي تطلق العنان للغريزة بلا ضابطٍ ولا رابطٍ، وبدلاً من كلتا النزعتين نادى إلى الزواج بوصفه أساس تكوين الأسرة، وأساس الربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعيّاً وثيق العرى، مكيّن البنیان .. وأما إنصاف القرآن للمرأة

28 - المرجع السابق ص 77

29 - المرجع السابق ص 78 باختصار

30 - المرجع السابق ص 84 - 85 باختصار وتصرف

وتحريره إياها من ظلم الجاهليّة، فقد تضافرت آيات كثيرة تؤكد تكريم القرآن إياها بوصفها إنساناً، ويوصفها أنثى، وبنناً، وزوجة، وأماً، وعضواً في المجتمع³¹..
وأما المقصد السادس، وهو بناء الأمة الشهيذة على البشريّة، فقد عني القرآن الكريم بذكر الأوصاف الهامّة التي تتوافر عليها هذه الأمة والتي تميّزها عن غيرها من أمم الأرض، وهي :

أ - الربانيّة مصدراً ووجهة فهي " أمة أنشأها وحي الله تعالى وتعهدها تعاليمه وأحكامه حتى اكتمل لها دينها وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } المائدة 3³²

ب - الوسطيّة في الاعتقاد والتصوّر، وفي الشعائر والتعبّد، وفي الأخلاق والسلوك، وفي النظم والتشريع وفي الأفكار والمشاعر، وبين الروحيّة والماديّة، وبين المثاليّة والواقعيّة، وبين العقلائيّة والوجدانيّة، وبين الفرديّة والجماعيّة، وبين الثبات والتطور، وهذه الوسطيّة هي " التي تؤهل الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذيّة للبشريّة . وفيها جاءت الآية الكريمة { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً } البقرة 143 " ³³

ج - الدعوة، فهي " أمة دعوة ورسالة، ليست أمة منكفئة على نفسها تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس . بل الدعوة فريضة عليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضلها على كل الأمم كما قال تعالى { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } آل عمران 11 ... " ³⁴

د - الوحدة، فالأمة التي يريدتها الإسلام " أمة ربها واحد هو الله، ونبينا واحد هو محمد μ وكتابتها واحد هو القرآن، وقبلتها واحدة هي الكعبة البين الحرام، وشريعتهما واحدة هي شريعة الإسلام، ووطنها واحد هو (دار الإسلام) على اتساعها، وقيادتها واحدة تتمثل في (خليفة المسلمين) وأمير المؤمنين الذي يجسّم الوحدة السياسيّة للأمة .. " ³⁵ وثمة آيات كثيرة تؤكد هذه الأوصاف .

وأما المقصد السابع والأخير، فهو الدعوة الى عالم إنسانيّ متعاون، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المقصد من خلال تأكيدته على الإسلام منذ فجر دعوته " ..رسالة عالميّة ودعوة للناس كافة، ورحمة لكل عباد الله عرباً كانوا أو عجماء، ولكل بلاد الله، شرقاً كانت أم غرباً، والى جميع الألوان، بيبضاً كانوا أم سوداً . في القرآن المكيّ نقرأ آيات كريمة من كتاب الله تقرّر بوضوح عالميّة الدعوة { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } الأنبياء 107 ، { تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً } الفرقان 1 ... " ³⁶

31 - المرجع السابق ص 86 - 95 وما بعدها باختصار

32 - المرجع السابق ص 98

33 - المرجع السابق ص 98

34 - المرجع السابق ص 99

35 - انظر : كيف نتعامل مع القرآن الكريم - مرجع سابق - ص 100

36 - انظر : كيف نتعامل مع القرآن الكريم - مرجع سابق - ص 103

وتتجلى عالمية وخيرية رسالة الإسلام في كونها هادفة الى تحرير الإنسان من العبودية للإنسان وللأشياء وللأوهام أو للذات . كما أنها هدفت الى الدعوة الى الآخرة والمساواة الإنسانية المبنية على عبودية الناس جميعاً لرب واحد، وعلى كونهم جميعاً أبناءً لأب واحد مهما اختلفت ألوانهم وتباعدت أوطانهم، وتباينت ألسنتهم، وتفاوتت طبقاتهم . وهدفت - أخيراً - الى دعوة الإسلام الى العدل لجميع الناس، والى السلام العالمي، والى التسامح مع غير المسلمين، وهكذا دواليكم .

هذه هي المقاصد الكلية السبعة التي تنتظم سور وآيات القرآن العظيم، وقد حاول الشيخ القرضاوي أن يبدي وجود هذه المقاصد على مستوى الآيات القرآنية المختلفة، واستفرد طاقته في اختيار الآيات التي تؤكد هذه المبادئ وتدعو إليها وتحث المؤمنين على العمل بها، ولئن تميّز هذا الطرح بشيء، فقد تميّز بإصرار الشيخ على تحرير ما يحتضنه كل مقصد كلي من مقاصد جزئية، وبتعبير آخر عني بإبراز العناصر التي تتكون منها هذه المقاصد كلها، الأمر الذي يجعل فهمه وإدراكه متيسراً وسهلاً .

وعلى العموم، فإنّ هذا الطرح القرضاويّ يجنح - في تصورنا - الى شيئين من التجزئة أكثر منها الى التكامل والترابط، فالمقصد الأول على سبيل المثال انتظم جملة من العناصر يمكن اعتبار بعضها مقصداً كلياً كما هو الحال في العنصر الثاني المتمثل في تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة، وكذلك الحال في العنصر الثالث المتمثل في تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء، وهلمّ جراً . فهذان العنصران يمثلان في حقيقة الأمر مقاصد كلية، وليست عناصر تحت مقصد من المقاصد . ولئن سبق أن أوردنا اتفاق الإمام النورسي والشيخ الغزالي على اعتبار مقصد الإيمان بالبعث والجزاء مقصداً كلياً، فإنّ ذلك يعني أنّ اعتبار القرضاوي إياه عنصراً من عناصر التوحيد لا يعدو أن يكون توسيعاً لمقصد التوحيد، وربما قاد ذلك التوسع إلى اعتبار سائر المقاصد مندرجة تحت مقصد التوحيد، وذلك ما لا يقوله به أحد . وعليه، فإنّ الطرح القرضاوي اُتسم بالتجزئة، وشيء من الانتقاء على مستوى الآيات التي تناسب المقاصد المنتقاة والمختارة . والأولى ألا يتوقف كشف المقصد الكلي على أيّ انتقاء، وإما للمرء أن يدركه من خلال سائر الآيات والسور القرآنية المختلفة .

ثالثاً : المنظور النوري ، والمنظوران : الغزالي والقرضاوي : نقد وموازنة

وبناءً على ذلك، فإننا نخلص الى القول بأنّ نتيجة موازنتنا الطرح النوري بالطرحين المعاصرين : الغزالي والقرضاوي تقودنا الى القول بأنّ الطرح النوريّ يتميّز على الطرحين على مستوى النقاط التالية:

أ - **الدقة والشمول** ، فكما رأينا الطرحين السابقين، ورأينا قبله الطرح النوري، فإنّه من الإنصاف القول بأنّ الطرح النوريّ تميّز بدقته وشموليّته، وذلك لأنّ المقاصد الأربعة التي انتهى تحتضن كل المقاصد الخمسة أو السبعة التي انتهى إليها الشيخان في هذا العصر، وأضف الى ذلك الى أنّ المقاصد التي اختارها تتسم بالدقة من حيث

كونها تعبيراً عن واقع سور وآيات القرآن الكريم، إذ من الأمر اليسير الوقوف على تلك المقاصد في ثنايا السور بل الآيات القرآنية .

ب - الترابط والتناسق ، يمكن للمرء أن يلمس وجود خيوطٍ رفيعةٍ تربط بين المقاصد الأربعة التي ذكرها الإمام النوري، فمقصد التوحيد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقصد النبوة، وأما مقصد الحشر، فإنه هو الآخر مرتبط ارتباطاً عضوياً بمقصد العدالة، وثمة رابطة قوية بين المقاصد الأربعة كلها . وهذا الترابط والتناسق يفتقر إليه الطرحان الآخران، نعني أنّ الطرح الغزالي لا يستحضر هذا الأمر، وأما الطرح القرضاوي، فهو الآخر غير مستحضر هذا البعد الهام، وبالتالي، فإنّ الطرح النوريّ أبى إلا أن يشتمل على هذا البعد، ويستحضره تأكيداً على الترابط العضويّ والتناسق النظميّ بين آيات السور القرآنية بشكل عام، وبين آيات السورة الواحدة بشكل خاص، وبين كلمات الآية الواحدة بشكلٍ أخصّ .

ج - التركيز والاستيعاب ، يمكننا أن نزعّم بأنّ الطرح النوريّ نال نصيباً وافراً من التركيز على مستوى المعاني التي تتضمن المقاصد، ويتمتع أيضاً بنصيبٍ وافٍ من الاستيعاب لجملة من المقاصد الفرعية الأخرى، فكما أسلفنا القول بأنّ سائر المقاصد الأخرى تندرج ضمن المقاصد الأربعة، فمقصد عبادة الله وتقواه، ومقصد تكوين الأسرة وإنصاف المرأة، ومحور التربية والتشريع، وغيرها من المحاور والمقاصد كلها تندرج ضمن مقصد النبوة في الطرح النوريّ . وليس وارداً في شيءٍ اعتبار أحد المقاصد الأربعة التي ذكرها الإمام النورسي ضمن أحد المقاصد أو المحاور التي ذكرها الشيخان، الأمر الذي يؤكد كون الطرح النوريّ طرحاً شمولياً مستوعباً ومركّزاً .

- وأخيراً ، يمكن القول بأنّ الطرح النوريّ قوي الوثاق والرباط بالسور والآيات القرآنية ، ذلك لأنّه ما من سورةٍ من سور القرآن الكريم إلا وتشتمل على هذه المقاصد الأربعة، وليس كذلك الحال في المحاور الخمسة التي ذكرها الشيخ الغزالي، ولا في المقاصد السبعة التي انتهى إليها الشيخ القرضاوي، وبالتالي، فإنه يمكن القول بأنّ الطرح النوريّ - والحال كذلك - ألصق بغايات ومقاصد السور والآيات من غيره . وعلى العموم، ثمة مزايا للطرح النوريّ على الطرحين المذكورين، مما يجعل الحاجة ماسةً الى إيلاء تلك المقاصد جانب الدراسة والتحقيق والشرح سعياً الى إبراز ما تنتظمه من نظرات ثاقبةٍ وتأملاتٍ صائبةٍ . وعسى الله أن يقبض لهذا الأمر من هو له أهلٌ بإذنه تعالى .

وعند هذه النقطة نصل الى نهاية هذه الدراسة أملين أن نكون قد وفّقنا بعض الشيء فيما طرحناه من تحليل ونقد، والله المسؤول أن يجزي الإمام النورسي عن الأمة الإسلامية خير الجزاء وأن يوفّقنا الى الاستزادة من علمه وفهمه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ورحم الله الشيخ محمد الغزالي، وأسكنه فسيح جناته .

د. قطب مصطفى سانو • 507

وشكر الله للقائمين على هذا المؤتمر، وجزاهم عنّا وعن الأئمة العاملين خيرا
الجزاء، والى الملتقى في مؤتمرات قادماتٍ بإذنه تعالى . والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته .

مقاصد القرآن في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

د. زياد خليل محمد الدغامين^P

تمهيد:

تكمن أهمية دراسة مقاصد القرآن الكريم في أنها تضع المتفهم له أو المبيّن لهدايته على طريق منهجي قويم. والبحث فيها ينمّ عن عقلية منهجية حصيفة يتمتع بها المسلم، فلا عبثية في ال خلق في مفهومه وتصوّره ، وكل سبب صادر عن مسبّب، وكل أمر له علّة وغاية. إن هذه العقلية تقف على تصوّر علمي يقيني راسخ ، وهو أن الله سبحانه خالق الكون ، وأن الإنسان خليفة في هذه الأرض بالشرعة والمنهاج اللذين بعث بهما سيّد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ρ ليرسم بهما الحياة المثلى للمسيرة الإنسانية. إنه تصوّر يستند إليه "الإنسان الخليفة" آمننا مطمئنا.

لقد وجّه العلماء بالغ اهتمامهم الى بيان مقاصد الشريعة الخمسة ، الضابطة لسلوك الفرد المسلم ، والضامنة له سبيل الاستقرار والأمان في هذه الحياة. وتم الحديث عن مقاصد القرآن في سياق الدراسات الأصولية والفقهية ، وذهب القول بمقاصد الشريعة وطغى على أيّ مقاصد أخرى ، فالجويني والغزالي والرازي والآمدي وعزّ الدين بن عبد السلام والشاطبي ... ومن الحديثين محمد الطاهر بن عاشور ... قد بذلوا جهدا مميّزا ، ومنحوا موضوع مقاصد الشريعة - المتمثلة في الضروريات والحاجيات والتحسينيات ، وجعلوا الضروريات في حفظ النفس والعقل والدين والنسل والمال - عناية فائقة ، وتكاد كلمة العلماء تقتصر على إبراز تلك المقاصد وبيانها على أساس أنها نفسها مقاصد القرآن. فهذا سلطان العلماء الإمام أبو محمد عزّ الدين بن عبد السلام (ت 660هـ) يقرر أن معظم مقاصد القرآن تتمثل في: " الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"¹. "لقد توجّه البحث الى مقاصد الإسلام من التشريع في قوانين المعاملات والآداب الجديدة بأن تخصّ باسم الشريعة، والتي هي مظهر ما راعاه الإسلام من تعاريف المصالح والمفاسد وتراجيحها مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية بين بقية الشرائع والقوانين والسياسات الاجتماعية لحفظ نظام العالم، وإصلاح

^P ولد في عمان سنة 1962م ونال شهادة الماجستير سنة 1987 والدكتوراه سنة 1991 . وحاليا مساعد عميد البحث العلمي والدراسات العليا في جامعة أهل البيت - الفرق الأردن.

1- الحسيني ، إسماعيل ، نظرية المقاصد عند ابن عاشور (1995) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، الولايات المتحدة.

المجتمع" كما يقول ابن عاشور². ويظهر مما ذكره العلماء أن "مقاصد الشريعة" تتعلق بمقصد التشريع الذي يضبط حركة الفرد المكلف وسلوكه. وهذا واحد من مقاصد القرآن الكريم الذي تضمن أموراً أخرى غير التشريع. وبعبارة أخرى: إن مقاصد الشريعة تعدّ مفصلة لشيء من مقاصد القرآن الكريم. إن مقاصد القرآن أعم، ومقاصد الشريعة أخص؛ لأن مقاصد الشريعة متعلقة بالفرد الواحد، ودائرة في نطاقه باعتبار فردية التبعية، ومسؤولية التكليف. ولكن الحديث عن مقاصد القرآن باعتبار: الإنسان الخليفة، والإنسان الجماعة، والإنسان الأمة، والإنسان الدولة، لم يتم بيانه في نطاق واسع. أقول: إن البحث في مقاصد الشريعة بدأ واضحاً في حديث كثير من العلماء، وهذا منسجم تماماً مع التضخم الهائل الذي حدث في تراثنا الفقهي، وخاصةً فقه العبادات. وقد يعزى السبب في تضخم هذا الفقه إلى الانفصال الذي وقع بين القرآن والسلطان، أو القيادة السياسية والقيادة الفكرية، وسار كل في طريقه. وترتب عليه أن ترك العلماء الذين يمثلون القيادة الفكرية الحديث عن دنيا الحكام وتنظيمها وسنن الله في الكون، واشتغلوا بفقه العبادات على حساب فقه الحياة والواقع والكون الذي تتجلى فيه المقاصد القرآنية، ولما كان ذلك كذلك، توجه الحديث إلى مقاصد التشريع لضبط حركة الفرد المكلف. في حين إن مقاصد القرآن الكريم التي يجب على المفسر إدراكها قبل البدء بتفسير القرآن ظلت مستتبنة شعور علمائنا، ولم تنعكس على عملهم التفسيري، ولم تحظ بتلك الأهمية مع أنها ذات خطر أعظم، وأثر أعمق.

لقد تناول العلماء الحديث عن "حفظ العقل" وهو واحد من مقاصد الشريعة، فتحدث الشاطبي - مثلاً - "عن حفظ العقل بتناول ما لا يفسده، ومكملة شرعية الحد أو الزجر، وأن ليس له في القرآن أصل على الخصوص، فلم يكن له في السنة حكم على الخصوص، فبقي الحكم فيه إلى اجتهاد الأمة، وإن ألحق بالضروريات"³. "أو حفظه من أن يدخل عليه خلل؛ لأن اختلال العقول يؤدي إلى عدم انضباط تصرف أصحابها، مثل: منع شخص من السكر، ومنع الأمة من تفشي السكر والمفسدات بين أفرادها"⁴. أقول: لقد تحدث العلماء عن السكر المادي الذي يقتصر أثره على فرد، ولم يتحدثوا عن سكر أعظم وأهم وأخطر، وهو السكر الفكري الذي أصيب به العقل المسلم، فانشغل عن قضايا الأمة، وغاب عن واقعها بما أثاره من معارك جدلية تجلّت في إقامته مذاهب كلامية وفلسفية وباطنية وعقائد اجتهادية خارج النصّ القرآني، ثم الدخول إلى النصّ القرآني لتأييدها عن طريق العبث بنصوصه. وبما أثاره أيضاً من معارك نحوية، وبما حشده من كمّ هائل من الروايات الأثرية إلى شوشّت على النصّ القرآني جماله وإعجازه.. فهل هذا من مقاصد القرآن الكريم؟! ولم يتحدثوا - كذلك - عن السكر الفكري الذي كان من نتائجه استخدام الاستعمار الصليبي ليعبث بمقدرات الأمة وفي مها ومبادئها قديماً وحديثاً. وعليه، فإنني أدعي أن مقاصد القرآن أعم وأشمل من مقاصد الشريعة، ومع ذلك لم تحظ بما يماثل مقاصد الشريعة من عناية.

إنه حين غاب العمل التفسيري عن إبراز مقاصد القرآن الكريم أو غل في قضايا شكلت حاجزاً أمام هداية الله للناس في هذا الوحي، فما الذي جناه العقل المسلم فيما يرجع على الناس من هداية يثارتته تلك المعارك؟ أم ما الذي جناه من حشوه كتب التفسير بالأساطير والخرافات الإسرائيلية؟ وما الذي

2- الدهلوي، أحمد شاه ولي الله، الفوز الكبير في أصول التفسير (1989)، دار قتيبة، بيروت.

3- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (1981)، دار الفكر، بيروت.

4- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت.

جنانه من تلك الإشارات الصوفية في التفسير... لقد غرق العمل التفسيري في تفصيل قضايا لا حصر لها، وهذا بحد ذاته مظهر ضعف فيه، إذ بعدم سيره مع مقاصد القرآن التي تشكل أسسا قوياً للهداية القرآنية تشتت هذا العمل الذي ينبئ عن فكر ينبغي أن يكون منضبطاً من حيث منهجية التعامل مع النصّ القرآني، ليكون محققاً ومتحققاً بتلك المقاصد التي تنزّل من أجلها وحي الله جلّ جلاله.

أقول: إن بيان مقاصد القرآن والأهداف العامّة منه ضرورة لازمة، وعمل أساس، وقاعدة مهمّة لتفسير القرآن الكريم. والأثر المترتب على ذلك: أن مفسر القرآن بدل أن يشغل قارئه بعلوم الآلة، يفتح له مجال تحقيق العبودية لله في أوسع ميادينها، ويأخذ بيده إلى إقامة العمران الإسلامي على منهاج القرآن الكريم.

ولنعرض - بإيجاز مقصود - هذه الدراسة في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة. سنبيّن في التمهيد آراء العلماء في مقاصد القرآن مرتبة ترتيباً تاريخياً غير قاصد الاستقصاء أو التأصيل التاريخي، لتبيّن - أولاً - طبيعة هذه المقاصد وحجمها في القرآن والأسباب الكامنة وراء اختيارها. ولتبيّن - ثانياً - موقع المقاصد التي ذكرها النورسي بين ما قرره غيره من العلماء. أما المباحث الأربعة فستخصص لبيان مقاصد القرآن في فكر النورسي في مستوياتها المتعدّدة.

وستنهج هذه الدراسة طريق الاستقراء في رسائل النور تبياناً لموقع المقاصد في فكر النورسي وما يترتب على معرفتها وإدراكها. أما الخاتمة فتشتمل على أهم النتائج.

تمهيد

آراء العلماء في مقاصد القرآن

1 - أبو حامد الغزالي (ت: 505 هـ).

ذهب الإمام أبو حامد الغزالي في كتابيه: "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" إلى أن هدف القرآن الكلي ومقصده الأعظم هو بيان معرفة الله تعالى، وأن كل العلوم تنفرع من هذه المعرفة. وقد حصر في الفصل الثاني من كتابه "جواهر القرآن" مقاصد القرآن ونفائسه، وذكر أنها ترجع إلى ستة أقسام: ثلاثة منها أصول مهمّة، وثلاثة توابع متّمة. فأما مقصده الأقصى فدعوة العباد إلى الجبار الأعلى، وعليه فإنّ سور القرآن انحصرت في ستة أنواع: ثلاثة أصول، وهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي يجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه. وأما الثلاثة المتّمة فهي تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وحكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائهم وجهلهم بالمجادلة والمحااجة على الحق، وتعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد، والأهبة والاستعداد⁵.

ويفصّل الغزالي هذه المقاصد فيوصلها إلى عشرة أنواع: ذكر الذات، وذكر الصفات، وذكر الأفعال، وذكر المعاد، وذكر الصراط المستقيم، وذكر أحوال الأولياء، وذكر أحوال الأعداء، وذكر

5- رضا، محمد رشيد، الوحي المحمدي (1979)، المكتب الإسلامي، بيروت.

محااجة الكفار، وذكر الحدود، والأحكام⁶. والمستغرب هنا أن الإمام أباً حامد الغزالي لم يذكر "النبوات" صراحة على أنها مقصد من مقاصد القرآن، وجعلها تابعة أو مندرجة في سلك هذه المقاصد.

ويكشف هذا التقسيم عن تعلق هذه المقاصد بالإنسان الفرد المكلف من حيث ما يجب عليه من معرفة الله تعالى، وما يترتب على هذه المعرفة من استقامة في تصور ذلك الفرد وسلوكه. ومن ثم فالأصل الأصيل في مقاصد القرآن هو حسن الاعتقاد بالله تعالى، ومعرفة التصور الحق لهذا الوجود، ويدخل غير ذلك في هذا الأصل تبعاً. إن هذه المقاصد قد كشفت عن أهدافها سعياً بالفرد إلى سموه وكماله الإنساني بمعرفته لخالقه عز وجل. وهو اتجاه حدّد مقاصد القرآن الكلية على نزعة صوفية إيجابية. وظل أمر عمارة الأرض بهدي الوحي مبهماً في حديث أبي حامد رحمه الله تعالى عليه.

2 - فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت : 606 هـ)

يبدو أن بيان التصور الحق قد غلب الاعتراف به على أنه المقصد الأساس في القرآن عند كثير من علمائنا - وهو بذلك حقيق - فقد ذهب الإمام فخر الدين الرازي إلى الأمر نفسه، وبين أن مدار القرآن على أربعة مسائل: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، والقضاء والقدر، وهي مقصود القرآن كله⁷، وكثيراً ما يقرر الرازي المسائل الثلاثة الأولى، وأما مدار القرآن الكريم كله، وينصب لها الأدلة العقلية في مواجهة الخصوم⁸. ويقوم اتجاه الرازي في هذا التحديد لمقاصد القرآن الكلية على خلفية الصراع الفكري القائم بين المذاهب الفكرية الإسلامية - المعتزلة على وجه الخصوص - والمهادف إلى تصحيح التصور الكلي للفرد المسلم من وجهة نظر أشعرية.

3 - أبو اسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت : 790 هـ)

هذه المقاصد القرآنية التي ذكرها الإمام الرازي جعلها الإمام الشاطبي مقاصد لأغلب السور المكية، وذكر أنها مشتملة على ثلاثة مقاصد، هي: الوجدانية، والنبوة والبعث. وأن هذه المقاصد ترجع في أصلها إلى معنى واحد، هو: الدعاء إلى عبادة الله تعالى⁹. وهذا المقصد الكلي الأصيل يعبر عن مضمون ما ذكره الإمام الغزالي من قبل، ولم يشأ الشاطبي أن يفصل فيه القول. وجعل الشاطبي القرآن الكريم - باستثناء أغلب السور المكية - متوجهاً إلى مقاصد الشريعة وأنواعها: الضروريات والحاجيات والتحسينيات. وقد حظيت هذه المقاصد عند الشاطبي باهتمام كبير حتى شكلت في النهاية نظرية علمية محكمة. واستحقت أن تكون أ نموذجاً يحتذى في تطوير فكرة المقاصد، وتوظيفها في خدمة الفقه والتشريع الإسلامي.

4 - أحمد شاه ولي الله الدهلوي (ت : 1176 هـ)

ذهب الشيخ أحمد شاه ولي الله الدهلوي إلى أن معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن خمسة، هي: علم

6- الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (1992)، نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

7- الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى، الموافقات، تعليق محمد عبد الله دراز (بلا تاريخ)، دار المعرفة، بيروت.

8- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير (1984)، الدار التونسية للنشر، تونس.

9- ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة (بلا تاريخ)، الدار التونسية للنشر، تونس.

الأحكام. وعلم المخاصمة والردّ على الفرق الضالة. وعلم التذكير بآلاء الله تعالى. وعلم التذكير بأيّام الله تعالى يعني: الوقائع التي أوجدها الله تعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين. وعلم التذكير بالموت وما بعده من الحشر والنشر...¹⁰.

هذه المعاني المنطوقة للقرآن تعني الغايات والمقاصد التي يمكن أن تتجلى في هذه العلوم. وما ذكره الشيخ الدهلوي يشتمل على مقاصد الشريعة، وهو المقصود بعلم الأحكام، ويأتي العلم الخامس ليشمل مقصد البعث والنشور. وترد العلوم الثلاثة الوسطى ضمن الأصول الثلاثة المتممة التي ذكرها الإمام أبو حامد، وليس في كلام الشيخ الدهلوي رحمه الله ما يبيّن تجاوزه لما ذكره أبو حامد في الشكل أو المضمون.

5 - محمد عبده (ت 1323هـ)

أما الأستاذ الإمام محمد عبده فيرى أن ما نزل القرآن لأجله أمور: أحدها: التوحيد. وثانيها: وعُد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة. وثالثها: العبادة التي تحيي القلوب بالتوحيد وتثبته في النفوس. ورابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة. وخامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدّوا حدوده ونبذوا أحكامه ظهرياً؛ لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر¹¹. وهذا كذلك منبثق مما بيّنه أبو حامد من مقاصد للقرآن الكريم. لكن وإن اتفقا في تحديد مقاصد القرآن الكلية إلا أن الفرق بينهما يتمثل في أسلوب بيان وعرض هذه المقاصد، وتوظيفها في العمل التفسيري للقرآن الكريم، ولا شك في أن الأستاذ الإمام كان - في مجال التفسير - أشدّ اهتماماً بما حدّده من مقاصد.

6 - محمد رشيد رضا (ت 1355هـ)

أعطى الشيخ محمد رشيد رضا قدراً كبيراً من العناية في حديثه عن مقاصد القرآن، فقد تضمن كتابه "الوحي المحمدي" بياناً مفصلاً لهذه المقاصد. فجاء حديثه شاملاً مستوعباً كل ما ذكره العلماء من قبل، وقد جعل مقاصد القرآن في عشرة غايات رئيسة، هي¹²:

الأول: بيان أركان الدين: التوحيد، والبعث والجزاء، والعمل الصالح.

الثاني: بيان شؤون النبوة والرسالة ووظائف الرسل.

الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والفقهاء، والبرهان، والحجّة، والضمير والوجدان، والحرية، والاستقلال.

الرابع: بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان: وحدة الأمة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع بالمساواة في العدل، وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبّد، وحدة الجنسية السياسية الدولية، وحدة القضاء، وحدة اللغة.

الخامس: بيان مزايا الإسلام العامة في التكليف الواجبة والمحظورة.

10- ابن عبد السلام، أبو محمد عزّ الدين، قواعد الأحكام في مصالح الأنام (1990)، مؤسسة الريان، بيروت.

11- عبده، محمد، دروس من القرآن (1984) دار إحياء العلوم، بيروت.

12- الغزالي، محمد، المحاور الخمسة في القرآن (1991)، دار القلم، دمشق.

السادس : بيان حكم الإسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامّة.

السابع : بيان الإصلاح المالي.

الثامن : إصلاح نظام الحرب ودفع مفاستها وفلسفتها.

التاسع : إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

العاشر : بيان هداية الإسلام في تحرير الرقّ. اهـ.

وتتلخص هذه المقاصد في أمرين ، الأوّل: بيان تصوّر الحقّ لله الخالق ، والكون الدال على خالقه ، والإنسان المخلوق الخليفة. وهذا مما سبق العلماء الى بيانه بصورة إجمالية. والثاني : عمارة الأرض وسياسة الحياة في ميادينها المختلفة بنظام الشرع وهدايته. وجاء هذا التفصيل في عرض مقاصد القرآن استحابة قويّة لمواجهة التحديات التي أثقلت كاهل الأمة في تعاملها مع الحضارات الأخرى. وهذه المقاصد تستجيب لما تطمح الإنسانية الى تحقيقه في واقع الحياة ، وهي جدير بذلك ؛ لأنها منتظمة في وحي الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الى نبيه محمد ﷺ .

7 - محمد الطاهر بن عاشور (ت : 1393هـ)

هذا الذي أورده الشيخ رشيد رضا رأينا الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور يبيّنه بوضوح قائلاً: " إن المقصد الأعلى من القرآن صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرائية ، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها ، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد ؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير ، ثم صلاح السريرة الخاصة ، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة ، والباطنة كالتخلّق بترك الجسد والحقّد والكبر ، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع ، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ، ومن شئ زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموآبة القوى النفسانية ، وهذا هو علم المعاملات ، ويعبر عنه الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمرائي فهو أوسع من ذلك ، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع ، ورعيّ المصالح الكلية الإسلامية ، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها ، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع" ¹³.

ويقسم ابن عاشور هذا المقصد الكلي بعد الاستقراء الى ثمانية أمور :

الأول : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

الثاني : تهذيب الأخلاق.

الثالث : التشريع وهو الأحكام خاصّة وعمامة.

الرابع : سياسة الأمة ، وهو باب عظيم في القرآن ، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

الخامس : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصلاح أحوالهم ، وللتحذير من مساوئهم.

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم الى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك

علم الشرائع وعلم الأخبار ، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب ، وقد زاد القرآن

13 - الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين (بلا تاريخ) دار المعرفة ، بيروت ، إحياء علوم الدين (1986) ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين ، وفي دعوته الى النظر.

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع آيات الوعد والوعيد، كذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين ، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية صدق الرسول ρ ، إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي¹⁴.

وهذا تنظير محكم ومنضبط لمقاصد القرآن الكلية ، وينم عن حسّ بالمسؤولية إزاء ما تواجهه الأمة من أزمت وتحدّيات ، وفيه نفحة من أثر كلام أبي حامد ، وقيس من شعاع مدرسة الأستاذ الإمام. لقد جاء ذكر ابن عاشور للصلاح العمراني تعبيراً بليغاً عن غاية تنزيل القرآن ، لتكون الصلة محكمة بين النصّ ، وبين الواقع الذي يتنزل فيه النص ، أعني : الواقع النفسي والاجتماعي والمعرفي ، أو الواقع البيئي الذي هو مختبر حركة الإنسان ونشاطه الشامل في كل المجالات. أقول : إن المهم هنا هو التوظيف الذكي لهذه المقاصد ؛ لتظهر بجلاء في العمل التفسيري للقرآن الكريم ؛ لإعادة تشكيل العقل المسلم ، وتحديد أولوياته والمهام التي ينبغي له أن ينجزها قياماً بواجب الخلافة ، وتحقيقاً لمقتضيات العبودية ، وإصلاحاً للعمران الإنساني.

8 - أبو الأعلى المودودي (ت 1400هـ)

يرى المودودي أن جماع دعوة القرآن هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد، والربّ الفرد الصمد ، لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه ، ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد¹⁵. وأن القارئ للقرآن المتبع لآياته يحسّ أن ما نزل به القرآن الكريم لا يدور إلا على هذه المصطلحات الأربعة : الاله ، الرب ، العبادة ، الدين. ولا بدّ لمن يدرس القرآن أن يتفهم معانيه الصحيحة بمعرفة هذه المصطلحات التي تمثل مقاصد القرآن¹⁶. وهو حديث يتوجّه الى بناء التصوّر الاعتقادي الحق لهذه المصطلحات المنتشرة في آيات القرآن الكريم. وإصلاح التصوّر أمر توجّه اليها العلماء من قبل.

9 - محمد الغزالي (ت 1416 هـ)

القرآن الكريم مع استفاضة معانيه ، وكثرة سوره ، يمكن القول بأنه يدور على محاور خمسة كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله. هذه المحاور هي أهداف عامّة كلية للقرآن الكريم ، وهي : الله الواحد. الكون الدالّ على خالقه. القصص القرآني. المعاد والحساب. التربية والتشريع¹⁷. وهي محاور عبّرت عن مقاصد القرآن وما تضمنه من موضوعات، ولا يتوقف وصف مضمون القرآن على هذا الحدّ، بل مجال إعادة صياغة هذه المحاور وارد بكل يسر.

14- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، جواهر القرآن (1981) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت.

15- المودودي ، أبو الأعلى ، المصطلحات الأربعة في القرآن ، تعريب محمد كاظم سباق (1981) ، دار القلم ، الكويت.

16- النورسي ، سعيد ميرزا ؛ إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، تحقيق إحسان الصالح (1994) ، سوزلر للنشر ، اسطنبول.

17- النورسي ، سعيد ميرزا ؛ الشعاعات ، ترجمة إحسان الصالح (1993) سوزلر للنشر ، إسطنبول.

مقاصد القرآن في فكر النورسي

تمهيد :

لعل بديع الزمان النورسي هو أكثر المفكرين المسلمين المعاصرين الذين بذلوا جهداً مميزاً في حديثهم عن مقاصد القرآن الكريم ، وجاء هذا الحديث مفصلاً ومؤكداً لما قرّره العلماء السابقون ، أمثال : أبي حامد الغزالي وفخر الدين الرازي وأبي إسحق الشاطبي. ومع ذلك فقد بيّن قضايا لم يسبق إليها في مجال المقاصد القرآنية سببها في هذا البحث.

لقد تحدّث النورسي عن مقاصد القرآن، فبيّن أبعادها الشمولية وطبيعتها، والأساس المترتب على معرفتها من حيث منهج فهم القرآن ، وأثرها في إعجازه، ثم تحدّث عن مقاصد القرآن في أربعة مستويات ، سنعرضها في المباحث الآتية :

المبحث الأول : المقصد الكلي.

المبحث الثاني : المقاصد الرئيسة الأربعة للقرآن الكريم.

المبحث الثالث : مقاصد السور القرآنية.

المبحث الرابع : مقاصد الآيات القرآنية.

ثم ذهب بعد ذلك يتحدّث عن مقاصد في قضايا شتى ، كلها تؤدّي الى مقاصد القرآن الجامعة ، وتزيد من تفصيلها. ومن المفيد أن نبيّن ابتداءً أن معظم حديث النورسي كان متوجّهاً الى مقاصد القرآن الأساسية الأربعة : التوحيد ، والنبوة، والمعاد والعدالة.

شمول المقاصد القرآنية وطبيعتها

إذا نظرنا في التعريف المفصل للقرآن الكريم عند النورسي نجد أنه اشتمل على بيان مقاصد القرآن كلها من توحيد وحشر ونبوة وعدالة. وهذا التعريف الشامل لكتاب الوحي ارتكز على قاعدة أساس تتمثل في أن القرآن تفسير لكتاب العالم، أو كتاب الوجود والكون ، وإن خاصية الشمول كانت أبرز خصائصه المقاصدية. ويولي النورسي مقصد العدالة أهمية كبيرة من حيث كون القرآن ممثلاً ومحققاً للحكمة الحقيقية لنوع الجنس البشري، ومن حيث كونه المرشد الهادي الى ما خلق له البشر، وهو كتاب شريعة وحكمة ودعاء وعبودية ، وهو كتاب أمر ودعوة، وكتاب ذكر وفكر للإنسان والإنسانية. إن هذا الكتاب - كما يصف النورسي - قد لبّى كل احتياجات الإنسان المعنوية¹⁸.

إن هذه المقاصد الأربعة متسقة في شمولها مع شمول الخطاب القرآني ، بل ما جاء القرآن في خطابه إلا لبيان هذه المقاصد ، ويرى النورسي أن القرآن قد جمع في خطابه جميع المباحث الكلية التي تخصّ

18- النورسي ، سعید ميرزا ؛ صيقل الإسلام ، تحقيق إحسان الصالحى (995) ، سوزلر للنشر ، إسطنبول.

الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه، والسموات والأرض، والدنيا والآخرة، والماضي والمستقبل، والأزل والأبد، فضلا عن ضمّه مباحث أساسية ابتداء من خلق الإنسان من النطفة الى دخوله القبر، ومن آداب الأكل والنوم الى مباحث القضاء والقدر، ومن خلق العالم في ستة أيام الى وظائف هبوب الريح...¹⁹. ولم يترك القرآن قضية كلية يحتاجها الإنسان إلا وقد بيّنها، تصديقا لقوله تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} (الأنعام: 38). وقوله: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} (التحل: 89). هذه الأمور الكلية والمبادئ العامّة هي موضوع الخطاب القرآني وقضيته المحورية في اتصاله بالوجود الإنساني.

وبجدّنا النورسي عن الطبيعة المتوازنة في هذه المقاصد، فيقول: "إن جامعية القرآن الخارقة في مقاصده وغاياته، قد راعت الرعاية التامة وجسّدت وأقامت موازنة مطوّدة لمطابقة لدساتير الفطرة وقوانينها، ومتّحدة معها في المقاصد والغايات، فحافظت على الميزان والتوازن"²⁰. وهذا بيان في غاية الدقّة من حيث أنه يظهر أن القرآن انطوى على مقاصد جامعة، تعبّر بجلاء عن التناسق الكلي في نظام هذا الوجود من قوانين وسنن تتفق كلها مع فطرة الله التي فطر الناس عليها. هذا التناسق يلتقي مع ذلك النظام في المقاصد، وكما تدل آيات الله القرآنية على وحدانيته سبحانه، كذلك آيات الله الكونية تؤكده وتدل عليه، وتقصد اليه.

الأساس المنهجي المترتب على معرفة هذه المقاصد

يبين النورسي على معرفة مقاصد القرآن أساسا مهمّا في منهج فهم القرآن والتعامل معه، وهو أن ما عدا هذه المقاصد الأربعة كله وسائل لهذه المقاصد، وما ذكر في القرآن من مسائل كونية، أو آيات كشف عنها العلم الحديث، أو حوادث جزئية كل أولئك وسائل جاء ذكرها استطرادا، إنها وسائل موصلة الى المقاصد الكلية، ولأنها وسائل أوجز القرآن في ذكرها، وأجمل في بيانها. ولأنها وسائل لم يفصل القرآن فيها كثيرا؛ بسبب توجه خطابه الى عموم الخلق، وليس كلهم يدرك هذه المسائل، يقول النورسي: "ومن القواعد عدم التعمق في تفصيل الوسائل؛ لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني، فيفوت المقصد. ولهذا السرّ أجم القرآن وأهم وأجمل في بعض المسائل الكونية... ثم إن الأكثر المطلق من مخاطبي القرآن عوام ليس بمقدورهم فهم الحقائق الغامضة إلا بواسطة التمثيل، ولهذا أكثر القرآن الكريم منه"²¹.

وبدا النورسي حريصا على لمّ شتات العقل المسلم وتهذيبه، فقد سبق أن غرق في بيان تفاصيل جزئية انشغل بها عن مقاصد القرآن، فتجد مجرد ذكر "السماء" أو "الأرض" يخوض المفسر العلمي في قضايا لا حصر لها. كذلك المتكلم في قضاياها المتشعبة، وكذلك الصوفي والفقهاء والأصولي والفيلسوف... كل قد غرق في تفاصيل لم تتوجّه اليها مقاصد القرآن اتجاهها أوليا، في حين أن ذكر هذه المسائل الجزئية أو ذكر الكائنات في القرآن كان يهدف الى تقرير مقاصد أساسية ينبغي أن يوليها المتفهم للقرآن كل اهتمامه وعنايته. يقول النورسي: "إن كل فرد من أفراد الكائنات يدخل المجلس القرآني فهو مكلف بأربع وظائف، هي:

19- النورسي، سعيد ميرزا؛ الكلمات، ترجمة إحسان الصالحى (1992)، سوزلر للنشر، إسطنبول.
20- النورسي، سعيد ميرزا؛ اللغات، ترجمة إحسان الصالحى (993)، سوزلر للنشر، إسطنبول.
21- النورسي، سعيد ميرزا؛ الثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان الصالحى (1988)، مطبعة الزهراء، الموصل.

- إعلان عظمة الخالق الجليل بانتظامه واتفاقه مع غيره.
- إظهار أن الإسلام هو زبدة العلوم الحقيقية من حيث أن كلا من الأفراد موضوع وخالصة لعلم من العلوم الحقيقية.
- إثبات تطابق الإسلام مع القوانين والنواميس الإلهية الجارية في العالم.
- توجيه الأفكار الى حقائق الأشياء ، والحث عليها ، والتنبيه إليها ، من حيث أن كل فرد منها أتمودج لحقيقة من الحقائق²².

أثر المقاصد في إعجاز القرآن

الربط بين مقاصد القرآن وإعجازه عمل منهجي حرص النورسي على إبرازه لما له من أثر لا يخفى في توجيه الدراسات الإعجازية والمقاصدية ، فقد بين أن هذه المقاصد مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ؛ لسعة ما هدف القرآن الى تحقيقه ، ولشموله وجامعيته الخارقة في المقاصد والغايات ، ودقته البالغة في رسم وتخطيط تلك المقاصد المنسجمة مع نظام الكون والحياة ، والمبينة للتصور الحق ، فيقول : "إن القرآن المعجز قد بين سبيل سعادي الدارين ، ووضح غايات خلق الكون ، وما فيه من المقاصد الربانية ، موضحاً ما يحمله ذلك الخطاب الكريم من الإيمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الإسلامية كلها ، عارضاً كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ، ومقلباً إياه كمن يقرب خارطة أو ساعة أمامه ، معلماً الإنسان صانعه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته ، فلا ريب ولا بد أنه لا يمكن الإتيان بمثل هذا القرآن أبداً"²³. هذه الإحاطة المطلقة بالمقاصد دليل على كون القرآن الكريم كلام الله المعجز ، لأنه ليس بمقدور العقل البشري الإحاطة ببيان هذه المقاصد. وبهذا يجعل القرآن العقل في حجه الطبيعي ، ويحدّد له مجال البحث والنظر في إطار ما رسم له. لقد سبق أن بينا أن النورسي يجعل الجامعية الخارقة في مقاصد القرآن ذات طبيعة شاملة ، ويحدّد هنا أن هذه الجامعية ذات مظهر إعجازي عميق يجمعها كل خلاصات العلوم الكونية ، وفهارس المعارف الإلهية ، والدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية ، والقوانين السامية لحكمة الكون ، وهو جمع لا يظهر أي أثر من آثار الخلط وعدم الاستقامة في التركيب أو المعنى²⁴. والوجه الآخر في اعتبار المقصد مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن كما يبين النورسي أن منابع علو الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة: المتكلم والمخاطب والمقصد والمقام²⁵. فالمقصد يكسب الإعجاز قوّة ، بل المقصد مظهر من مظاهر الإعجاز. ولقد بذلت الفلسفة كل قواها العقلية لكي ترشد الناس الى السبيل القويم في هذه الحياة ، ولكنها لم تزد الإنسان إلا اضطراباً، ولن يستطيع عقل بشر أن يحيط بشئ من مقاصد القرآن بتفصيل أو إجمال.

هذه المقاصد القرآنية لا يقتصر ظهورها على مجمل ما في القرآن الكريم ، بل قد يتجلى المقصد في آية واحدة من آياته ، ويكمن ذلك - كما يذكر النورسي - في التجاوب بين الآيات ومقاصدها ،

22- النورسي ، سعيد ميرزا ؛ المكتوبات ، ترجمة إحسان الصالحى (1992) دار سوزلر ، إسطنبول.

23- النورسي ، سعيد ميرزا ؛ الملاحق ، ترجمة إحسان الصالحى (1995) سوزلر للنشر ، إسطنبول.

24- النورسي ، الكلمات ، ص : 466

25- النورسي ، المتنوي ، ص : 156

ومن هنا يبرق الإعجاز ويلمع ؛ لأن القرآن نزل في أكثر من عشرين سنة منجما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقاطعا متلائما كأنه نزل دفعة واحدة. قال : ونزل مهديا وموصلا لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد ، تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة : التوحيد والنبوة والحشر والعدالة ، فبسر امتلائه من التوحيد التأم وامتزج ، وانتظم واتحد²⁶.

ولنعرض ما بينه النورسي بشيء من التفصيل لتوضيح تصوّره لمقاصد القرآن الكريم في مستوياتها المتنوّعة :

المبحث الأول : المقصد الكلي

تحدّث النورسي حديثا مسهبا عن مقاصد القرآن الكريم ، ويبيّن أن هناك مقصدا جامعاً تنتهي إليه كل المقاصد وتقوم عليه وتستند إليه ، وتستمد منه قوّتها وشموليتها. إن هذا الهدف الكلي الأعظم الجامع ، والوظيفة الأساس التي جاء القرآن ليؤدّيها هي تعليم شؤون دائرة الربوبية²⁷. وليس هناك من شيء وراءه. وهو على حدّ قول الإمام الغزالي دعوة العباد الى الجبار الأعلى سبحانه وتعالى ، " ... وإن ما في القرآن لا يعدو واحدا من هذه الأقسام الثلاثة : الإرشاد الى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسننه في عبادته"²⁸.

ويعبر النورسي عن هذا المقصد أحيانا بقوله : " إن القرآن بمجموعه قوت وقوة للقلوب"²⁹. بمعنى أن حياة القلوب لا تكون إلا بمعرفة الله تعالى ، وشؤون ربوبيته.

ولما كان هذا الهدف الكلي هو أساس وجود الخلق كان حريا أن يعرفه كل إنسان مهما كان مستواه العلمي أو تحصيله المعرفي ، ولذلك يرى النورسي أن المقصود الأهم من القرآن الحكيم هو إرشاد الجمهور الذين يمثلون أكثرية الناس ، لأن خواص الناس يمكنهم أن يستفيدوا من مسلك العوام³⁰ ، ولا كذلك العكس.

وهكذا يذهب النورسي الى أن المقصود الأعظم من تنزيل القرآن هو تحقيق الهداية للناس ، وذلك بتعريفهم بالله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله وسننه في الخلق ، وهذا المقصد يشكل الوحدة الإيمانية الشاملة التي يخاطب بها عموم البشر ، ويلغي كل ثنائية عمز الفكر البشري عن تجاوزها ، فكل كائن وكل أثر وكل حدث وكل ... ينبغي أن يفهم في ضوء هذا المقصد الجامع. وهذه عملية تأصيل للاعتقاد الذي يقوم عليه تصوّر المسلم ، بل هو لم شتات المسلم كله فكرا ووجدانا ، وروحا وسلوكا ، وهو - كذلك - إنقاذ له من التجزيئية في النظرة لهذا الكون وما فيه.

26- نفسه ، ص : 229-230

27- النورسي ، الكلمات ، ص : 293

28- الغزالي ، إحياء علوم الدين (1986) دار الكتب العلمية ، بيروت. ج 4 ، انظر : ص : 361-364

29- النورسي ؛ إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز ، تحقيق إحسان الصالح (1994) ، سوزلر للنشر ، اسطنبول. ص : 39.

30- النورسي ، صيقل الإسلام ، ص : 59

المبحث الثاني

المقاصد الرئيسية الأربعة للقرآن الكريم

بعد أن قرّر النورسي المقصد الكلّي بيّن أن مقاصد القرآن الأساسية أو عناصره الأصلية أربعة ، هي : " التوحيد والنبوة والحشر والعدالة. ويعبر أحيانا عن أن هذه المقاصد الأساسية ، والعناصر الأصلية منبئة في كل جهة من جهات القرآن³¹. هذه المقاصد الأربعة هي تفصيل لبيان التصوّر الصحيح ، والعمل المستقيم اللذين أجملا في المقصد الكلّي الجامع. ويظهر من كلام النورسي أنه ليس أول من يقول بهذه المقاصد ، ولكنها مقررة لدى العلماء المدققين ، قال : " من المعلوم أن مقاصد القرآن لدى المدققين أربعة ... " ³². وواضح أنه يقصد أمثال الغزالي والرازي.

ويكشف النورسي عن سرّ الوصول الى هذه المقاصد الأربعة ، فيبين أن الطريق الى معرفتها هو طريق الفطرة ، فما من إنسان إلا وي طرح على نفسه الأسئلة الفطرية ليعرف: من أين المبتدأ ؟ الى أين المنتهى ؟ وماذا يصنع في هذا الوجود ؟ ومن سلطان الكون الذي يسير بأمره ؟ وينهض الأنبياء للإجابة عن هذه التساؤلات، وينهض محمد ρ ليحجب بلسان القرآن ، ليفصل جواب كل واحد منها ، فيبين سرّ الوجود وحكمته بقدره الله تعالى ، وبعثة الأنبياء ، والأمانة التي يحملون ، ومقصد السفر من طريق الحشر الى السعادة الأبدية³³.

وفهم من كلام النورسي أن القرآن الكريم والنبى الأمين قد فصلا هذه المقاصد الإيمانية تفصيلا قصديا بما لا مزيد عليه ، وذلك بخلاف الإجمال الوارد في بيان الأنبياء السابقين لهذه المقاصد. وأن حكمتها هو : توسط البرازخ وتفاوت القابليات وتنوع ألوان تجلّي الأسماء في المظاهر الكلية والجزئية والظلية والأصلية³⁴. ومما يفهم من هذا الكلام أن البيان الأوفى تمثل في القرآن ، وفيمن أنزل عليه القرآن. وبيان القرآن بيان أصيل لا حاجب يحجبه ، ولا حاجز يمنعه ، وذلك كمن ينعم بضياء الشمس ليس دونها سحاب ، في حين أن مسلك الفلاسفة ومسلك المتصوّفة وهو مسلك الولاية فيه برازخ وحواجز ، فهو كمن ينعم بنور القمر العاكس لضياء الشمس. ويقصد النورسي بذلك الردّ على أصحاب العقل والفلسفة التي تتوهم النور في الأسباب بغفلتها عن مسبب الأسباب.

1 - التوحيد أو الوجدانية :

عرّف النورسي بهذا المقصد معتمدا المنطق العقلي والتسليم الفطري الوجداني من خلال النقاط

31- انظر : النورسي :إشارات الإعجاز ، ص : 23. وانظر : المكتوبات ، ص : 492 همامش. وصيقل الإسلام ، ص : 29

32- النورسي ، صيقل الإسلام ، ص : 120

33- النورسي ، إشارات الإعجاز ، ص : 24.

34- النورسي ، المتنوي ، ص : 451

الآتية³⁵ :

- أن كل ذرّة في هذا الوجود تشهد بوجود الله سبحانه. وهذه دعوة الى التأمل في صفحات هذا الكون.

- " إن معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان تجاه تقلبات الحياة ودواماتها، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات ، إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذي أمره كله حكمة ونظام ، وأسند الأمور كلها الى المصادفات العمياء وركن اليها، والى ما يملكه من قوّة هزيلة لا تقاوم شيئاً ، فسيتناهب الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا ... وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرّم ، إذ يستلزم سقوطه الى هاوية الذل والمهانة مما ينافي روح النظام المتقن القائم في الكون كله ... نعم ! إنه لا ملجأ إلا بمعرفة الله تعالى.

- إن مسلك القرآن الكريم في التعريف بالله سبحانه لا يقارن بمسلك الفلاسفة أو الصوفية أو المتكلمين ، ولا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول ، فهو أقصر طريق وأوضحه وأقربه الى الله وأشمله لبني الإنسان. ويتمثل هذا الطريق في :

1: دليل العناية ، وهو رعاية المصالح والحكم في نظام العالم الأكمل ، مما يثبت قصد الصانع وحكمته وينفي وهم المصادفة.

2: دليل الاختراع ، وخلاصته أن الله قد أعطى كل فرد وكل نوع وجوداً خاصاً، هو منشأ آثاره المخصوصة ، ومنع كمالاته اللاتمة ، فلا نوع يتسلسل الى الأزل، لأنه من الممكنات ، فضلاً عن أن حدوث قسم منها مشاهد ، وقسم آخر يراه العقل بنظر الحكمة ... إن الصانع الجليل قد ختم في جبهة كل شيء ختم الحدوث والإمكان ، فالمادّة ليست أزلية. وتفصيل هذا الدليل في القرآن مسطور.

- إن الطبيعة شريعة إلهية فطرية ، أوقعت نظاماً دقيقاً بين أفعال وعناصر وأعضاء جسّد الخليقة المسمّى بعالم الشهادة ، هذه الشريعة الفطرية - الطبيعة - مطبوعة إلهية ، وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون. وعلى الإنسان أن ينظر الى الآثار الإلهية لا من جهة الممكنات ، ولكن من جهة القدرة الثابتة التامة لواجب الوجود بآثارها الخيرة للألباب. إن صنعة الله في نظام العالم لا يستطيع العقل أن يتصوّر أدقّ منها ولا أعجب ولا أغرب. وكما أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً ، كذلك سطور كتاب العالم يفسّر ما وراءه من اتقان وحكمة.

- والله سبحانه وتعالى منفصل عن الخلق ، لا كما يدّعي الشاطحون من أهل التصوّف والفلسفة القائلين بوحدّة الوجود.

- ويستشهد النورسي بدليل التمانع الوارد في قوله تعالى : { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } (الأنبياء : 22). فالنظام الدقيق المتقن السائد في هذا الكون لهو أقوى دليل على وحدانية الصانع الجليل سبحانه. وهو سبحانه مته عن جميع النقائص ؛ لأنها تنشأ من عدم استعداد ماهيات الماديات ، وهو تعالى مجرد عن الماديات. اهـ.

2 - النبوة أو الرسالة³⁶ :

يتحدّث النورسي عن النبوة ، وعن النبيّ محمد ρ بوصفه أصدق شاهد، وأفصح برهان ، وأقطع

35- النورسي ، صيقل الإسلام ، انظر : ص : 121-134

36- المرجع السابق نفسه ، انظر : ص : 135-158

حجة على الصانع الجليل. ويبيّن أن عدم العيشية في أفعاله سبحانه وحاجة الخلق الى مرشد ، يستلزم قطعاً النبوة في نوع البشر. ويظهر هذا الدليل من جهات ثلاث :

الأولى :

الإنسان مدرك عجزه وقصوره في صنعته ، وزحمة الأوهام عليه ، وافتقاره في جبلته الإنسانية ... ولما لم يكف ميل الإنسان الطبيعي وسوق إنسانيته، وقصر نظره ، واختلاط الأوهام في عقله احتاج البشر الى مرشد ومعلم ، وذلك المرشد هو النبيّ. كذلك عدم كفاية القانون البشري في تنظيم شؤون الحياة وإتمام بذور ثمرة استعدادات الإنسان يتطلب شريعة إلهية خالدة مرسله مع نبيّ مصطفى .

الثانية :

استعداد الإنسان غير المتناهي ، وآماله ورغباته غير المحصورة ، وأفكاره وتصوّراته غير المحدودة ، وقوّته الشهوية والغضبية غير المحددة ... وعدم رضاه يوحى بأنه مخلوق للسعادة الأبدية. وما في هذه الدنيا من فوضى واضطراب لا يسع كمالات الإنسانية ، بل يحتاج الى عالم أرحب لا تراحم فيه ، ولا يشبع الإنسان إلا السعادة الأبدية المكنونة في صدف الحشر الجسماني.

الثالثة :

اعتدال مزاج الإنسان ، ولطافة طبعه ، وميله الى الزينة ، أي : ميله الفطري الى العيش اللائق بالإنسانية. وهذا لا يتم إلا بتحقيق العدالة بين بني البشر، وعقل كل إنسان لا يكفي في درك العدالة ، ومن ثم كانت النبوة في نوع البشر ضرورة مطلقة.

- إن ما يسمّى بـ "ملكة معرفة الحقوق" و "ملكة رعاية الحقوق" في اجتهاد البشر، خاصّة الملحدّين الذين استغنوا بما عن الشريعة - ما هو إلا مجرد توهم باطل، نعم ! إن نوايس الحكمة لا تستغني عن دساتير الحكومة ، كما تحتاج البشرية أشدّ الحاجة الى قوانين الشريعة والفضيلة الحاكمة على الوجدان ، لأن الإنسان بقواه وملكاته عاجز عن المحافظة على قوى الحكمة والعفة والشجاعة ، لذا فهو بالضرورة محتاج الى نبيّ يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطباع.

- ثم لا يمكن إنكار ظاهرة بعثة ألوف من الأنبياء بمعجزاتهم التي تؤكد وجود النبوة وضرورتها. ثم يستمر النورسي في عرض براهين نبوة محمد ﷺ العقلية في رسالته "محاكمات عقلية". ويخلص النورسي في النهاية الى القول في الإجابة على سؤال ياباني وهو "ما الدليل الواضح على وجود الإله الذي تدعوننا اليه ؟ والجواب : إنه محمد ﷺ الذي هو أقوى دليل وأعظم حجة على وجود الله تعالى؛ إذ هو الذي عرف به تعريفا واضحا وضوح الشمس.

هذا الاتجاه في الإثبات تكرر ذكره كثيرا على لسان النورسي ، ولا أعلم أن هناك من سلكه قبله ؛ فالأصل أن القرآن دليل على صحة نبوته ، فأنا ينقلب ليكون النبيّ هو الدليل على صحة القرآن بكل حقائقه ! لعلّ النورسي رحمه الله أراد بذلك أنه لما توفّر للنبيّ أن يكون في ذاته وصفاته وقدرته على التأثير والتغيير ، وما توفر له من تصديق المستقبل بكل ما فيه من علوم ... ولما كان ذلك كذلك كان حريا أن يكون دليلا على وجود الله تعالى ، إذ كيف يبارز العالم وينتصر عليه لولا أن الله معه يؤيده وينصره !!

3 - الحشر الجسماني^P:

أقام النورسي الأدلة والبراهين العقلية - في ضوء بيان القرآن الكريم - على ضرورة البعث والنشور ، وبين إمكانية وقوعه عقلا ، وأن حياة الخلق لا تصلح إلا به ، وأوضح برهان على ذلك هو نسي الله محمد ρ ، والحشر الذي يقصد إليه النورسي هو الحشر الجسماني الذي هدف من إبرازه وتأكيدِه إلى الردّ على الفلاسفة وغيرهم.

ويستقي الأدلة العقلية عليه من أن الكائنات لو لم تنجر إلى السعادة الأبدية لصار نظام الكائنات الأكمل صورة زائفة خادعة واهية ؛ لأن الذي جعله نظاما هو السعادة الأبدية. ثم إن الحكمة الإلهية التي هي مثال العناية الأزلية تعلن السعادة الأبدية ، وتنفي وجود العبيثية في هذه الحكمة. كذلك مبدأ عدم الإسراف في الفطرة الثابت بشهادة علم منافع الأعضاء ، ولا سيما في العالم الأصغر - الإنسان - يدل على عدم الإسراف في الاستعدادات المعنوية للإنسان وآماله وأفكاره وميوله، وهذا يعني أنه مرشح للسعادة الأبدية. ولولا هذه السعادة لتقلصت كل المعنويات، وإذا كان الاهتمام بالجسد إلى هذا الحدّ ، فكيف تكون العناية بجوهر الروح نفسه ! وعليه فهذا الجسد سيعود عبر الحشر إلى الحياة ثانية. كذلك هذا النظام المتقن يدل على السعادة الأبدية. يشهد لذلك - أيضا - القيامات النوعية المتكررة الحاصلة في اليوم والليلة ترمز وتشير إلى القيامة الشخصية في الإنسانية بل تشهد لها. ورحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم السعادة الأبدية ؛ لأنها تصيّر الرحمة والنعمة نعمة ، وتنجيها من كونها نقمة وتخلص الكائنات من نباحات الفراق، ولو لم تجئ تلك السعادة لتحولت جميع النعم نقما. ومما يدل على الحشر كذلك شهادة إعجاز القرآن³⁷.

إن ثلث القرآن تقريبا وأوائل أغلب السور القصار آيات جليّة دالة على الحشر، أي : إن القرآن يبنى عن الحقيقة نفسها بآلاف من آياته الكريمة صراحة وإشارة ويثبتها بوضوح وجلاء. وهناك ما يقرب من أربعين سورة افتتحت بالحديث عن الحشر، أليس إنكاره بعد ذلك محالا في مائة محال. ويستشهد بكل مظاهر هذا الكون وتقلباته للدلالة على الحشر كفصل الربيع³⁸.

4 - العدل^P:

هذا المقصد أشار إليه بعض العلماء مثل : محمد رشيد رضا ، وابن عاشور، وعلال الفاسي. وقد نظر بعضهم إلى العدل على أساس أنه ضابط لتصرفات المكلفين في المعاملات وواجب القيام بالعدل³⁹.

وهم ينظرون إلى العدل من زاوية تعلقه بأعمال المكلف مما جاء به التشريع. وتعني عند الشيخ رشيد المساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، والمملك والسوقة، والغني والفقير ، والقويّ والضعيف⁴⁰. في حين أن

P كتب النورسي رسالة مستقلة في بيان هذا المقصد ، هي "رسالة الحشر" ، وهي الكلمة العاشرة من "الكلمات".

37- نفسه ، انظر : ص : 159-161

38- النورسي ، الشعاعات ، انظر : ص : 231-232 ، 235

P لم يتم النورسي حديثه في المقاصد ، فلم يتحدث في "محاکمات عقلية" عن العدل ، أو العبودية مع العدل التي هي المقصد الرابع من مقاصد القرآن.

39- أحمد الريسوني ؛ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (1992) ، نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض. انظر : ص :

7-6

40- رضا ، الوحي المحمدي ، ص : 259

النورسي ينظر الى العدالة على أساس أنها حقيقة من حقائق القرآن وديتاتير الإسلام ، وهي موعلة في النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية ، ومرتبطة بأحكام الكون وقوانينه ، وهي كذلك واحدة من حقائق الإسلام المتقضية للحشر والحياة الأخرة. وهي سنة إلهية جارية في الكون تدور رحى الموجودات عليها⁴¹.

وقد أكد النورسي أهمية هذا المقصد حتى أنه نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة: أن الاسم الأعظم لله تعالى هو العدل ، الحكم⁴².

والتساؤل حول إضافة مقصد العدالة الى مقاصد القرآن يختلف من مفكر لآخر، من حيث الوجهة التي قصدتها ، والدافع الذي دعاه لأن يسلط الضوء عليه. وقد تجلّى هذا الدافع عند الأستاذ المفكر بديع الزمان النورسي ؛ فسيادة الظلم في واقع حياة الناس على يد الأنظمة الإلحادية ، وتفشي الفساد والانحراف الخلقي في أوساط المجتمعات ناتج عن انعدام العدالة التي هي أساس انتظام الكون والحسي، ويبدو أن سيادة الظلم على عهد "جون تورك" دعاه الى تسليط الضوء على العدالة. إن الدولة في نظر النورسي عبارة عن العدالة، والشورى، وحصر القوة في القانون⁴³. وكثيرا ما أشار الى انقلاب الأوضاع، وأن الظلم قد وضع على رأسه قنسوة العدالة⁴⁴.

ويبين أن المدنية التي دعا اليها الإسلام ودعت اليها الشريعة هي التي ستكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة ، إنما مدنية تستند الى الحق ، والحق من شأنه العدالة والقوة⁴⁵.

ولم يغفل النورسي عن الأثر النفسي المترتب على الشعور بالعدالة والحرية الذي يبعث الحياة في الإنسان ومشاعره وآماله ورغباته وأخلاقه الإسلامية⁴⁶. ويعيد له كرامته المهذورة في ظل تلك الأنظمة، إن تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته هو العدالة. وهي مقصد قرآني جامع لا يقتصر أثره على نظام الحياة الإنسانية ، بل يشمل كل أنظمة الكون والوجود.

ففي واقع الحياة الإنسانية لا تهدر العدالة القرآنية المحضة دم بريء ، ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياة بشرية جمعاء ، فكما أن كليهما في نظر القدرة سواء، فهما في نظر العدالة سواء أيضا. ولكن الذي تمكن فيه الحرص والأناة يصبح إنسانا يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري ان استطاع⁴⁷. كما هو واضح في أخلاق المدنية المادية الحديثة.

ولا مجال لمقارنة العدالة في نظر النورسي بالقومية والعنصرية ؛ لأن الأسس المتبعة فيهما أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق⁴⁸. والصراط المستقيم في نظر النورسي هو العدل الذي هو ملخص الحكمة والعفة والشجاعة اللاتي هي أوساط للمراتب الثلاث للقوى الثلاث: الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع. والغضبية السبعية الدافعة للمضرات. والعقلية الملكية المميّزة بين النفع والضرر⁴⁹.

ويتحدث النورسي عن العدالة من حيث أنها مكملّة للمقاصد الثلاثة أو ناتجة عنها، وأنها أهم أساس

41- النورسي ، اللغات ، ص : 525-526

42- النورسي ، الملاحق ، ص : 74

43- النورسي ، صيقل الإسلام ، انظر : 439 ، 525 ، 527

44- النورسي ، المكتوبات ، ص : 604

45- النورسي ، صيقل الإسلام ، انظر : ص : 358-359

46- المرجع السابق نفسه ، ص : 466

47- النورسي ، المكتوبات ، ص : 608

48- المرجع السابق نفسه ، ص : 68

49- النورسي ، إشارات الإعجاز ، ص : 32

للربوبية، وأن العدالة الحقيقية تتطلب وجود جهنم وتقتضيه؛ لأن عقاب ظالم هتاك حرمان ألف من الأبرياء، هو رحمة بالآلاف الأضعاف بالمظلومين من خلال العدالة⁵⁰. وإن الله ما خلق الجنة والنار والصراط والميزان إلا لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية⁵¹. ويتحدث عن العدالة من حيث اتصالها ببعثة الأنبياء، والنبوة الخاتمة على وجه الخصوص. إن سنن الله الجارية في هذا الكون بالعدالة والحكمة والعناية تشهد بما تقتضيه أفعال الرحمانية سبحانه كالإنزال القرآن المعجز البيان على محمد⁵².

ويرى النورسي أن الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو "حقيقة الإسلام" التي هي تجلّي العدالة الأزلية في عالم الكون والتي هي الإنسانية الكبرى⁵³.

لقد كانت نظرة النورسي إلى هذا المقصد القرآني شاملة؛ فالأثر البين للعدالة يتجلّى في كل عقيدة إيمانية، ويتجلّى في كل نظام من أنظمة هذا الكون وقوانينه وسننه، فكل شيء فيه قائم على الحكمة والعدل، "فالقدر عدل كله، وليس فيه ما يخالف العدالة"⁵⁴. حتى ولو كان عذاب القحط⁵⁵. وإن الذين يشنون هجوماً على الدين يريدون أن يرجعوا بالبشرية إلى عهود البداوة والجهل متسترين باسم المدنية، وهذا الذي يُفني البشرية وراحتها وعدالتها وسلامتها⁵⁶.

ويبين النورسي أن العدل واحد من تجليات اسم الله الأعظم، وأن التوازن غالب على كل أنظمة الحياة، وهذا من مظاهر تجلّي اسمه سبحانه "العدل". وما العلوم التي أنتجها الإنسان إلا ترجمة لذلك النظام البديع، وتعبير عن ذلك التوازن الرائع. والموازنة الرائعة المتجلية في انتظام الكواكب السيارة، مع حركة الأرض السفينة السابحة في الفضاء، وأحوال النباتات وحياتها وأنواعها التي تزيد على الأربعمائة ألف، والانسجام والتناسق الكامل والموازنة الدقيقة الحاصل في جسم كل كائن حي... كل أولئك يدلّ على أن الله سبحانه هو "العدل القدير الرحيم الحكيم". ولو تأمل الإنسان والجنّ في هذه التوازن العام الذي يحكم نظام الوجود، لأدركوا أن أعمالهم توزن بميزان العدل الإلهي يوم الحشر، وهو توازن يوجب على البشر إقامة العدل⁵⁷.

ويرى النورسي أن في الصلاة -مثلاً- تأسيساً لإطاعة قانون العدالة الإلهية، وامتنال النظام الرباني، وإدامة تصوّر عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها⁵⁸. وهي عدالة تحقق معاني سامية للوجود الإنساني.

ويرى كذلك أن الجود المطلق والرزق بلا حساب لا ينافي الحكمة والعدالة⁵⁹. فله تعالى أن يتفضل على عباده بما يشاء، كيف يشاء، متى يشاء، وهو في ذلك العدل الحكيم.

إن كل مقاصد القرآن الكريم تدور على هذه الأربعة الأقطاب كما يقول الأستاذ بديع الزمان

50- النورسي، الشعاعات، ص: 287. وانظر: المتنوي العربي النوري، ص: 90-91، 99-100

51- المرجع السابق نفسه، ص: 299

52- نفسه، ص: 667

53- النورسي، صيقل الإسلام، ص: 51

54- النورسي، الملاحق، ص: 368

55- المرجع السابق نفسه، ص: 161 وانظر: المتنوي العربي النوري، ص: 405

56- نفسه، ص: 373

57- النورسي، اللمعات، انظر: ص: 523-527

58- النورسي، إشارات الإعجاز، ص: 53

59- النورسي، المتنوي العربي النوري، ص: 356

المبحث الثالث

مقاصد السور القرآنية

مقاصد السور موضوع تناوله العلماء منذ أمد بعيد ، ونذكر منهم على سبيل المثال : الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره المسمى "مفاتيح الغيب" ، والإمام الشاطبي في "الموافقات" ، ولعل أهم من تحدّث عنه بشيء من الوضوح الإمام برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ) في كتابه المسمى "مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور" ، وقد عرض لبيان مقاصد السور في تفسيره القيم المسمى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" . وكان يبيّن موضوع السورة الكلّي ومقصدتها الرئيس.

ومن المحدثين من أولى موضوع "مقاصد السور" قدرا كبيرا من الاهتمام ، مثل المعلم عبد الحميد الفراهي في كتابه المسمى "دلائل النظام" . وتناوله الأستاذ سيّد قطب في كتابه المسمى "في ظلال القرآن" . فهو موضوع لم يكن الحديث فيه جديدا بالنسبة الى الأستاذ النورسي ، ولعلنا -مع ذلك - نقف على حجم الإضافة التي أضافها النورسي في مقاصد السور القرآنية.

إن المنهج الذي أتبعه النورسي في دراسة السورة القرآنية ، بل والآية القرآنية جدير ببحث مستقل وحده ، تُرصد فيه الأسس المنهجية في تفسير القرآن الكريم، ذلك أن النورسي لم يشتغل بالآية ومفرداتها ، والسورة ونظمها ، دون الالتفات الى مقاصدها ، بل ومقصد كل آية في القرآن الكريم. يقرر النورسي ابتداء أن كل سورة من سور القرآن في حكم قرآن مستقل ، ولما كان القرآن خطابا للجميع ، ولا يتسنّى لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء - أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سورته، لا سيما الطويلة حتى صارت كل سورة قرآنا صغيرا ، فيسهّل السبيل لكل أحد ، وينادي مشوقا : { ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر } (القمر : 17) ⁶¹ . وهذا في رأيه من أسباب وحكم التكرار في القرآن.

فالقضية الأولى -إذن- عند النورسي هي عموم الخطاب القرآني لأفراد البشر كافة، وأن خطابه يحمل رسالة شاملة يريد أن يؤدّيها من أفصر طريق ، وأقرب أسلوب الى قلوب بني الإنسان ، ولهذا أجمل القرآن ذكر المقاصد في كل سورة من سورته.

أما القضية الثانية فهي أن أفراد البشر ليسوا على مرتبة واحدة من حسن الفهم والتبصّر. بمعاني الكلام ، وإدراك أبعاده ومقاصده ، ولهذا يقرر النورسي أن كل سورة قد تضمنت مجمل ما في القرآن الكريم من مقاصد ؛ لئلا يحرم من يقرأ سورة فقط عمّا أنزل له في التنزيل ، وعمّا أريد منه ؛ إذ في المكلفين الأمي أو الغيبي ، ومن لا يتيسر له إلا قراءة سورة قصيرة فقط ، فمن هذه اللمعة الإعجازية تصير السورة قرآنا تاما لمن قرأها ⁶² .

ويؤكد النورسي حقيقة أن سورة واحدة قد تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضم الكون بين جوانحه ، وإن آية واحدة تضم خزينة تلك السورة ، وإن أكثر الآيات كل منها كسورة صغيرة ، وأكثر

60- المرجع السابق نفسه ، ص : 230

61- نفسه ، ص : 70

62- نفسه ، ص : 208

السور كل منها كقرآن صغير^P.... فلكي لا يحرم أحد من القرآن ، فإن كل سورة في حكم قرآن صغير⁶³.

فهناك -إذن- قضية جوهرية ، أو نقطة مركزية تشدّد الإنسان في كل سورة من سور القرآن ، وهي البؤرة المقاصدية التي تجتمع فيها مقاصد القرآن الأربعة ، فتظهر جليا في السور الطويلة ، ويظهر بعضها في قصار السور. فالقارئ للقرآن -كما يرى النورسي - عليه أن يسلط نظره في هذه البؤرة التي تشدّد الى الله تعالى ، وتشدّد الى الإيمان بالنبوة ، وتشدّد الى الاعتقاد بالبعث والحشر الجسماني ، وتقرر في تصوّره مبدأ العدالة المطلقة التي ينتظم بها سلك الوجود.

وإذا كانت السورة تمثل قرآنا مصغرا عند النورسي ، فإن تفسير سور القرآن ينبغي أن يتوجّه الى تحقيق هذه المقاصد القرآنية ، وليسهم في تأصيل التصوّر الصحيح ، ليكون حاضرا في قلب المؤمن و يقينه ووجدانه وسلوكه ، فيدفعه هذا الى الاستقامة في القول والعمل. وبهذا يضع النورسي حداً لتشتت العمل التفسيري، وذهابه مذاهب شتى متبعدة عن غايات القرآن المقاصدية.

ويمكن الاستدلال على ما ذهب اليه النورسي من خلال حديثه عن مقاصد بعض السور، ففي بحثه عن مقصد سورة النبأ - مثلا - نجد يقول: "سورة النبأ إذا أنعم فيها النظر فإنها تصف وتثبت أحوال الآخرة والحشر والجنة وجهنم بأسلوب بديع يطمئن القلب ويقنعه ، حيث تبين أن ما في هذه الدنيا من أفعال إلهية ربانية متوجهة الى كل من تلك الأحوال الأخرى"⁶⁴. والشاهد هنا أن السورة مسوقة لبيان واحد من مقاصد القرآن الأربعة وهو مقصد الحشر ، وهذه قضية المفسر الأولى التي يتوجب أن يذهب اليها في تفسيره. وهذه هي القضية الأولى التي يتوجب أن يلتفت اليها القارئ في قراءته.

كذلك حين يبحث في مقصد سورة الانشقاق ، فيذهب الى أنّها مسوقة لتبيين مدى انقياد السموات والأرض وامتثالهما أوامر الله سبحانه ، فهما على استعداد للانقياد لأي أمر إلهي⁶⁵. هذا هو غرضها وموضوعها ، وبه يظهر مقصد وحدانية الله تعالى الذي له وحده الأمر والنهي ، والتصرّف في الملك. وله سبحانه تنقاد الخلائق والعوالم كلها.

إن النورسي بهذا الفهم يؤصّل منطلق النظر في السورة القرآنية ، ومن ثم تفسيرها في ضوء مقصدها الجامع ، وموضوعها الأساس ، وقضيتها الجوهرية، وغرضها الرئيس. وهذه قاعدة مهمّة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. وبها يضع المفسر عن كاهله حمل التشتت والتشعب في القضايا الجزئية ، والمسائل التفصيلية التي تتعد عن المقصد الأساس للسورة القرآنية ، ومن ثم الابتعاد عن مقاصد القرآن الكلية وهداياته الشاملة للإنسان.

P الأولى أن يكون التعبير في هذه المواطن : قرآن قصر ، سورة قصيرة.

63- النورسي ، الكلمات ، ص : 459-460

64- المرجع السابق نفسه ، ص : 432

65- نفسه ، ص : 433-434

المبحث الرابع مقاصد الآيات القرآنية

ينظر النورسي الى الآية القرآنية بوصفها البؤرة الأساسية لمقاصد القرآن أو العدسة اللّامة التي تلتقي في بؤرتها كل المقاصد القرآنية ، فهي البذرة أو النواة لتلك المقاصد. ويؤكد حقيقة أن المقاصد القرآنية كلها قد تبدّى في سورة ، بل في آية بقوله : "إن هذه المقاصد الأربعة تتجلى في كل سورة من سوره وآية من آياته"⁶⁶.

وفضلا عن ذلك ، فإن " من أساس البلاغة الذي يبرق به حسن الكلام وتجاوب الهيئات ، وتداعي القيود ، وتأخذها على المقصد الأصلي ، وإمداد كل بقدر الطاقة للمقصد الذي هو كمجتمع الأودية ، أو الحوض المتشرب من الجوانب ، بأن تكون مصداقا وتمثالا لما قيل ⁶⁷ :

عبارتنا شئ وحسنك واحد
وكل الى ذاك الجمال يشير "

بهذه الكيفية يبيّن النورسي ذهاب كل كلمة في الآية الى مقصدها الأساس الذي سبقت من أجله ، والذي يبرز واحدا من مقاصد القرآن الكبرى تصرّحا ، أو إشارة وتلميحاً. وقد عجّت رسائل النور بتمثل هذا الخطاب.

"إن مقاصد الآية تتجلى في ذلك التجاوب الرفيع بين الآيات ومقاصدها على الرغم من الأسباب المانعة من هذه التجاوب"⁶⁸.

يبيّن النورسي أن مقاصد القرآن الأربعة تتجلى في كل آية منه ، بل قد تتجلى هذه المقاصد في جملة واحدة من الكلام الإلهي ...، وضرب لذلك مثلا بقوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" من حيث دلالتها على هذه المقاصد، فـ "بسم الله" لتعليم العباد بوساطة "قل" المقدّرة فيه، و"قل" الأمّ في تقدير الأقوال القرآنية، فعلى هذا يكون في "قل" إشارة الى الرسالة ، وفي "بسم الله" رمز الى الألوهية، وفي تقديم الباء تلويح الى التوحيد، وفي "الرحمن" تلميح الى نظام العدالة والإحسان، وفي "الرحيم" إيماء الى الحشر⁶⁹.

وكذلك قوله تعالى : "الحمد لله ربّ العالمين" ، ففي "الحمد لله" إشارة الى الألوهية، وفي لام الاختصاص رمز الى التوحيد ، وفي "ربّ العالمين" إيماء الى العدالة والنبوة أيضا ؛ لأنّ بالرسول تربية نوع البشر ، وفي "مالك يوم الدين" تصرّح بالحشر⁷⁰.

كذلك يجد المتأمل في قوله تعالى : {ولئن مستهم نفحة من عذاب ربّك} (الأنبياء: 46) هذا

66- النورسي ، إشارات الإعجاز ، ص : 24

67- المرجع السابق نفسه ، ص : 45

68- النورسي ، الكلمات ، ص : 481-482

69- النورسي ، إشارات الإعجاز ، ص : 24

70- المرجع السابق نفسه ، ص : 23-24

المقصد الرئيس ، فالآية - كما يقول النورسي - مسوقة للتهويل المستفاد من التقليل ، والتعبير بـ "المس" بدل الإصابة في قوله : "مستهم" يشير الى القلة والترويح فقط. والتحقير في جوهر وصيغة وتنوين "نفحة" يلوح بالقلة. والبعضية في قوله : "من" تومئ اليها أيضا. وتبديل النكال بـ "عذاب" يرمز اليها ، والشفقة المستفادة من الـ "رب" تشير اليها كذلك. وقس !! فكل بمد المقصد بجهته الخاصة. وقس على هذه الآية أحوالها⁷¹ . بمعنى أن كل مفردات الآية وكلماتها تمدد مقصد التهويل المستفاد من التقليل من زاوية خاصة ، فلكل حرف رسالة ، بل لكل حركة غاية. ومقصد الآية الرئيس يجلي أثرًا من آثار مقصد وحدانية الله تعالى.

ويتصور النورسي اعتراضا على هذا الكلام الذي قد يلمح منه شيء من التكلف في بيان اتجاه مفردات الآية الى مقصدها الرئيس الذي يتجه الى بيان مقصد كلي في القرآن !! أو شيء من التكلف في بيان أن كل سورة تشتمل على هذه المقاصد الأربعة !! ويتولى بنفسه الردّ على هذا الظنّ من جهتين :

الجهة الأولى :

أن هذه المقاصد الأربعة لا تنتشر بدرجة واحدة في كثير من السور، بل في أكثر السور يكون المقصود بالذات مقصدا واحدا ، وتكون بقية المقاصد واردة على سبيل الاستطراد. أما الأحكام المشيرة الى المقاصد في الآية الواحدة فهي أحكام ضمنية ، فما في البسملة - مثلا - أحكام ضمنية ، لا صريحة، ولذلك فهي تحتاج الى اجتهاد لبيان تلك الأحكام المقاصدية.

الجهة الثانية :

إذا كان لكل آية أحكام، أو قصدت الى بيان مقامات، فإنه حريّ بكل مقام أو حكم أن يكون له مناسبة مخصوصة الى روح السورة العام ومقصدها الرئيس، ويكون ذلك الحكم أو المقام دليلا على ذلك المقصد⁷².

هذه أول وأهم مفارقة بين حديث النورسي عن المقاصد وحديث من سبق من العلماء ، فالسابقون قد قرروا هذه المقاصد في ضوء القرآن كله أو سوره المكية، بينما يرى النورسي أن كل آية مشتملة عليها⁷³.

والمفارقة الثانية أن النورسي حين فسّر آيات القرآن عمل على إبراز هذه المقاصد وشدّ الكلام اليها ، ومن ثمّ يبقى القارئ المتفهم لكتاب الله مشدودا الى قضايا القرآن المحورية ومقاصده الشمولية ؛ لأن القرآن في نظر النورسي ليس كتاب جغرافيا أو قومزجرافيا (الفلك) ، وليس درس تاريخ الخلق⁷⁴ . وإن ذكر كل أولئك في القرآن برموز وإشارات. إن القرآن - في نظر النورسي - كتاب نزل لتدريس معرفة الصانع الجليل سبحانه وتعالى. أما المفسرون الآخرون فقد انشغل كثير منهم وأشغل القارئ معه بكم هائل من المباحث والمسائل التي تتصل بالآيات من قريب أو بعيد ، إشباعا لعقل المسلم بألوان الثقافة المختلفة.

لقد توجهت رسائل النور التي هي تفسير للقرآن الكريم الى بيان مقاصد الآيات والنظر اليها من هذه الحيثية ، سيرا مع مقاصد القرآن في فهم القرآن ، وهذا أساس منهجي لم يتحقق في كثير من كتب

71- نفسه ، ص : 45

72- نفسه ، ص : 40

73- نفسه ، ص : 24

74- نفسه ، انظر : ص : 177 ، 225

التفسير. ومن الأمثلة التي توضح هذا الأساس، قوله تعالى: {والشمس تجري لمستقر لها} (يس : 38) فقد بين أن المقصد الإلهي في هذه الآية إبراز النظام والانتظام في هذا الكون ، وهو ينم عن حقيقة هي أن : "لا إسراف ولا عبث في الخلق ، والحكمة الأزلية لا تترك الطريق القصير المستقيم، ولا تختار الطريق الطويل المتعسف ، مبيّنا أن جريان الشمس قد يكون حقيقة أو مجازاً"⁷⁵.

لقد كان النورسي يبحث عن هذه المقاصد في كل مسألة أو قضية ذكرت القرآن، ليبقى دائماً مع النصّ القرآني في دلالاته وهداياته. ولعلّ أبرز موضع تعرض له لبيان هذه المقاصد : "فواصل الآيات" ، أو ما أطلق عليه : "فذلِكَات" ، وهي التي تأتي تعقيباً على حادثة جزئية - تشتمل على دساتير كليّة ، فقد يتوهم قصير نظر أن هذه الفواصل لا مناسبة تربطها مع آيتها ، ولكن البحث الرصين الواعي يرى فيها مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن ، يقول : "إن أغلب السور المطوّلة والمتوسطة التي كل منها كأنها قرآن على حدة ، لا تكفي بيان مقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة : التوحيد أو إثبات الصانع الواحد ، والنبوة أو الرسالة، والحشر الجسماني ، والعدل ، بل القرآن بماهيته ، أي كل سورة منه : كتاب ذكر وإيمان وفكر ، كما أنه كتاب شريعة وحكمة وهداية ، يتضمن كتباً عدّة ، ويرشد إلى دروس متنوعة. فتجد أن كل مقام يفتح أمام الإنسان أبواباً للإيمان وللمعرفة الله ومراتب وحدانيته ، يحقق بها إقرار مقاصد عديدة ، من حيث أن القرآن يقرأ ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبيّنه بوضوح ، فيرسخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء ، ويريه تجلياته المهيبة في الأفاق والأنفس؛ لذا فإن ما يبدو ظاهراً من مناسبة ضعيفة يبنى عليها مقاصد كلية ، فتتلاحق مناسبات وثيقة، وعلاقات قوية بتلك المناسبة الضعيفة ظاهراً ، فيكون الأسلوب الأمثل مطابقاً تماماً لمقتضى ذلك المقام ، فتتعالى مرتبته البلاغية"⁷⁶.

وفي ضمن هذا السياق يقول النورسي : إن القرآن الكريم قد يذكر بعضاً من المقاصد الجزئية ثم لأجل أن يحول تلك الجزئيات إلى قاعدة كلية ، ويجيل الأذهان فيها يثبت ذلك المقصد الجزئي ويقرره ويؤكد بالأسماء الحسن التي هي قاعدة كلية، مثل قوله تعالى : {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير} (المجادلة : 1) ، فقوله : {إن الله سميع بصير} يلزم أن يكون ربّاً للكون، وربّ الكون من شأنه أن يسمع ويبصر...⁷⁷.

هذه المقاصد يبحث عنها النورسي في كل آيات القرآن ؛ لتكون منارة للمفسر يسير معها لتتجلى في عمله التفسيري ، وتشدّ المسلم باستمرار إلى المقصد الأسنى في هذه الحياة، وهو معرفة الله جلّ جلاله.

كذلك من المواطن التي برز فيها بحثه عن مقاصد القرآن من خلال آياته موطن القصص القرآني؛ فيرى أن إيراد القرآن للقصص كان بهدف أخذ العبرة منها ، وينتقي منها النقاط التي هي كالعقد الحياتية التي تناسب مقصداً من مقاصد القرآن ويربطها به ، فالقصة والعبرة تتعانقان في الذهن والأسلوب"⁷⁸.

75- النورسي ، صيقل الإسلام ، ص : 92-93

76- انظر : النورسي ، الشعاعات ، ص : 310-311 الكلمات ، ص : 532-533 ، 483. المتنوي ، ص : 339 ، 458

77- النورسي ، الكلمات ، ص : 496 المتنوي ، ص : 93

78- النورسي ، صيقل الإسلام ، ص : 81

الختام

وبعد ، فإن موضوع المقاصد سواء مقاصد القرآن أو مقاصد الشريعة بحاجة الى مزيد من البحث ، لبلورة الأسس المنهجية اللازم على المفسر أو الفقيه اتباعها وهو يتعرض لكتاب الله بالتفسير ، أو وهو يستنبط الأحكام العملية.

ويمكننا تسجيل بعض النتائج المستخلصة المستفادة مما ذكره العلماء من مقاصد للقرآن ، فأقول وبالله التوفيق :

أولاً :

إن فكرة البحث في مقاصد القرآن كتأليف أو تنظير لم يلتفت إليها العلماء إلا في عصور متأخرة في ثنايا بحوثهم في الدراسات القرآنية والتفسيرية. ويعود السبب في ذلك الى الاهتمام بمقاصد الشريعة التي تغطي الجانب السلوكي لدى الفرد المسلم من عبادات ومعاملات وعقوبات ... ، وليس عدم تأليفهم في ذلك جهلاً منهم بها ، ولكنها كانت مستتبنة شعور كل واحد منهم. مع أن هذه المقاصد مكتملة و متممة لمقاصد القرآن الكريم.

ثانياً :

كان إبراز مقاصد القرآن يتم أحياناً في تجزيئية لا تشمل كل سور القرآن وآياته. ولم تظهر هذه المقاصد في واقع العمل التفسيري ، ولم تُتخذ قواعد وأسس في منهج فهم القرآن الكريم.

ثالثاً :

خلاصة هذه النظرات ، اتفاهم على أن التوحيد مقصد كليّ أعظم من مقاصد القرآن الكريم ، وأن البعث والنشور مقصد كليّ ثان ، والنبوة مقصد كليّ ثالث من مقاصد القرآن ، ولا يكاد يخالف أحد من العلماء في هذه المقاصد الثلاثة إلا في التعبير وأسلوب البيان ، وهي مقاصد تدرج في مقصد أعظم هو بيان التصور الحق للوجود وخالق الوجود.

أما فيما يتعلق بفكر النورسي في موضوع مقاصد القرآن فيمكنني أن أسجل النتائج الآتية :

أولاً :

النتيجة الأساس التي توصلت إليها هذه الدراسة بعد هذا التجوال في رسائل النور هي أن مقاصد القرآن مثلت في فكر النورسي نقطة المركز التي يدور في فلكها كل قضية أو قصة أو حادثة أو سؤال ... مذكور في كتاب الله عزّ وجلّ. وقد شكلت هذه المقاصد الأساس الذي ينطلق منه الباحث أو المفسر أو كل صاحب نظر في القرآن الكريم. لقد أولى مقاصد القرآن رعاية بالغة فاقت جهود كثير من المفسرين.

ثانياً :

أكد النورسي ما قرره العلماء من قبل في المقاصد الكلية: التوحيد، والنبوة والبعث والعدل ، وهو الى هذا الحدّ لم يزد شيئاً ، ولكنه - والحق يقال - ترجم عن هذه المقاصد بأسلوب علمي عقلي مقنع، وبيّن كيفية فهم هذه المقاصد بأسلوب العصر، وباللغة والمنطق الذي يفهمه أهل العصر. وقد صدق د. محسن عبد الحميد في وصفه النورسي أنه متكلم العصر الحديث. هذا العرض للمقاصد القرآنية لا يؤسس فقط منهج النظر في القرآن ، ولكنه - كذلك - أسلوب محكم في الدعوة الى القرآن ، بل وفي

التعريف بالقرآن. لقد دخل النورسي عصر التحدي وقد أعد له من البيان القرآني حجة وسلاحا ، ووظف هذا البيان في دمج وجه الإلحاد الذميمة وكشف عواره ، وبيان فساد المدنية الحديثة الداعية اليه بتزييف العلم.

ثالثا :

هناك حلقة محكمة النسج ، دقيقة السبك والصياغة في فكر النورسي المقاصدي ، وهي اجتماع هذه المقاصد في القرآن ، واجتماعها كذلك في سورة واحدة من سور القرآن، بل واجتماعها في آية واحدة من آياته الكريمة، فتكون الآية دالة على مقصد قرآني واحد أو أكثر ، إجمالا أو تفصيلا ، تصريحا أو تلميحا، ومن ثم تصبح الآية بؤرة مركزية أو كبؤرة العين ، والله المثل الأعلى ولكتابه. وهذا لا يدع مجالاً لتشتيت بيان النصّ القرآني وتفسيره ، وبهذا يبقى كل قارئ للقرآن سائرا مع غاياته وأهدافه ومقاصده ، ومن ثم تترك هذه المقاصد بصماتها وآثارها الواضحة على تفكير الإنسان وسلوكه وقيمه ، بل على نظامه المعرفي بأكمله.

رابعا :

لقد بين العلماء وفصلوا الحديث في مقصد الوحدانية ، والنبوة والبعث، أما العدالة فقد أولاهها النورسي ما تستحق من البيان، فلم يجعلها قاصرة أو محصورة في مجال التشريع كما ذكر بعض العلماء ، بل بين أنها مبدأ كوني يسري كالروح في جسم هذا الكون الواسع. وأنها تتجلى في السياسة والاقتصاد ، وفي العبادات والمعاملات ، وفي الاعتقاد والسلوك. وينبغي تحقيقها في واقع حياة الإنسان، وإلا فإن النظام الإنساني سينهار، ويكون الإنسان هو الخاسر الوحيد.

دليل المصادر والمراجع

- 1 - الحسيني ، إسماعيل ، نظرية المقاصد عند ابن عاشور (1995) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة.
- 2 - الدهلوي ، أحمد شاه ولي الله ، الفوز الكبير في أصول التفسير (1989) ، دار قتيبة ، بيروت.
- 3 - الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر ، مفاتيح الغيب (1981) ، دار الفكر ، بيروت.
- 4 - رضا ، محمد رشيد ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (بلا تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت.
- 5 - رضا ، محمد رشيد ، الوحي المحمدي (1979) ، المكتب الإسلامي ، بيروت.
- 6 - الريسوني ، أحمد ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (1992) ، نشر الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض.
- 7 - الشاطبي ، أبو إسحق إبراهيم بن موسى ، الموافقات ، تعليق محمد عبد الله دراز (بلا تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت.
- 8 - ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير (1984) ، الدار التونسية للنشر ، تونس.
- 9 - ابن عاشور ، محمد الطاهر ، مقاصد الشريعة (بلا تاريخ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس.
- 10 - ابن عبد السلام ، أبو محمد عز الدين ، قواعد الأحكام في مصالح الأنام (1990) ، مؤسسة الريان ، بيروت.
- 11 - عبده ، محمد ، دروس من القرآن (1984) دار إحياء العلوم ، بيروت.

- 12 - الغزالي ، محمد ، المحاور الخمسة في القرآن (1991) ، دار القلم ، دمشق.
- 13 - الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين (بلا تاريخ) دار المعرفة ، بيروت، إحياء علوم الدين (1986) ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- 14 - الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، جواهر القرآن (1981) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت.
- 15 - المودودي ، أبو الأعلى ، المصطلحات الأربعة في القرآن ، تعريب محمد كاظم سباق (1981) ، دار القلم ، الكويت.
- 16 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، تحقيق الصالحي (1994) ، سوزلر للنشر ، اسطنبول.
- 17 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ الشعاعات ، ترجمة إحسان الصالحي (1993) سوزلر للنشر ، إسطنبول.
- 18 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ صيقل الإسلام ، تحقيق إحسان الصالحي (995) ، سوزلر للنشر ، إسطنبول.
- 19 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ الكلمات ، ترجمة إحسان الصالحي (1992) ، سوزلر للنشر ، إسطنبول.
- 20 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ اللغات ، ترجمة إحسان الصالحي (993) ، سوزلر للنشر ، إسطنبول.
- 21 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ المتنوي العربي النوري ، تحقيق إحسان الصالحي (1988) ، مطبعة الزهراء ، الموصل.
- 22 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ المكتوبات ، ترجمة إحسان الصالحي (1992) دار سوزلر ، إسطنبول.
- 23 - النورسي ، سعيد ميرزا ؛ الملاحق ، ترجمة إحسان الصالحي (1995) سوزلر للنشر ، إسطنبول.

مكانة التأويل في العلم "Hermenetics"

تحليل مبني على رسائل النور

د. يامينة مرمر^P

لقد تم تأليه العلم على حساب الدين في العصور المتأخرة، إذ يتم التصريح بأن جميع المعارف المحددة والواضحة تعود للعلم، وأن جميع العقائد تعود للدين. على أي حال فإن موضوعية العلم تتعرض حاليا الى نقد حاد. كما يتعرض الاطار العام للمناهج العلمية الى اتهامات وتساؤلات جديدة. ينظر في العادة الى الممارسة العلمية على أنها موضوعية وقابلة للتجربة، وأنها مستقلة عن التوضيح والشرح النظري. ولكننا نعلم الآن بأنه لا يمكن إثبات صحة النظريات العلمية وقوانينها تجريبيا. إن فهم المعاني في العلوم الطبيعية يتم عن طريق تماسكها وترابطها النظري أكثر من توافقها وانسجامها مع الحقائق. وليست النظريات نماذج (models) مشاهمة ومقارنة للعالم من الخارج، بل هي مجرد طريق وأسلوب لتفسير الحقائق.

إن مشكلة العلوم المادية² هي إدعاؤها بأنها تقوم بشرح وتوضيح كل شيء بشكل موضوعي، أي تفسر كل شيء كما هو موجود في الواقع. ولكن كيف يتسنى للعالم أن يعرف بأن إدراكه وفهمه للواقع يتطابق مع حقيقة هذه الوقائع؟ وإلى أي شيء يستند العالم عند تفسيره للتجارب؟ في الحقيقة ان العالم نفسه جزء من هذا الكون، وعقله مشروط ومحدد وقاصر، لا يستطيع الامساك بالحقيقة الكلية، ولا يستطيع وحده بقدراته الخاصة الوصول الى حقيقة المنهج الكلي (universal method) وإلى ميزان ومعيار الحقائق الضروري واللازم لتشكيل أساس المعرفة وحلقتها.

إن هناك ضرورة قصوى لنظرة كونية كالقرآن (كلام الله) لإدراك وفهم حقيقة الاشياء. إن الله تعالى (الذي شكّل وصاغ وزين الكون وجميع الاشياء) يستطيع وحده فقط إخبار وإعلام الانسان عن حقيقة وعن أهداف خلقه. فكما ذكر في القرآن في سورة النمل:

(قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) النمل: 65 .

* - ولدت سنة 1958 في مدينة اوران في الجزائر، وتخرجت من قسم الفيزياء النظرية بكلية الجزائر، وقد غادرت بلدها لتكملة وتطوير الأكاديمية الى انكلترا وحصلت هناك في جامعة درهام على شهادة الليسانس سنة 1982، وعلى شهادة الدكتوراه في "الفيزياء العملية" سنة 1985 .

- نقل هنا ملخص البحث الذي ألقته الدكتورة المحترمة حيث أن النص الكامل نشر في The Muslim World

2- أي العلوم التي تفسر كل شيء من الناحية المادية - المترجم

إن الوحي وحده يستطيع تفسير اللغة التي يتكلم بها العالم، ويترجمها وفقاً لقدرة الإنسان على الفهم. إن الإنسان في حاجة إلى الوحي وإلى العقل لفهم الحقيقة. وعلى الرغم من كون كل من الوحي والعقل وسائل أساسية ولا مفر منها للحصول على الحقيقة والوصول إليها، إلا أن ماهيتهما مختلفة تماماً. إن الوحي هو منبع ومصدر الحقيقة والمعرفة، والعقل ليس إلا واسطة وآلة لفهم الوحي وفهم العالم وبالتالي فهم الحقيقة. ولا يستطيع العقل وحده الوصول إلى الحقيقة.

في أثناء بحثنا عن الحقيقة نحاول فهم الأشياء. ولكي نفهم الأشياء علينا أن نترجمها أولاً ونؤهلها. ذلك لأن عقولنا لا تعمل مثل آلات التصوير (الكاميرات) فتجربنا وممارستنا مع الحقيقة ليست مباشرة. إن فهمنا للأشياء يعد مجرد ذاته إصداراً للحكم، وجميع الأحكام حول حقائق الأشياء في العالم يعكس وجهة نظر المشاهد للكون.

والعلم من زاوية الفلسفة المادية يدعي بأن حقيقة الوقائع الملاحظة والتجريبية موجودة في ثنايا تأويله لهذه الوقائع. ولكن هذا ليس صحيحاً بالمرّة، ذلك لأن كل ايضاح هو في الوقت نفسه تفسير للعالم وللكون.

إن تأويل حقيقة أي شيء أو أي واقع هو نتيجة لإدراك الشخص لذلك الشيء ولذلك الواقع أو تلك الحادثة. وهذا التأويل يكون صحيحاً إن تطابق مع حقيقة ذلك الواقع أو ذلك الشيء. أعني: إن كان فهم وإدراك ذلك الواقع متوافقاً ومنسجماً مع حقيقة ذلك الواقع. ولا يتحقق هذا الأمر إلا في نطاق مقدار فهم "العالم" وإدراكه للحقيقة. وبكلمات أخرى فإن وصف مواضيع وأشياء العالم وأموره بالنسبة لشخص هو إعتقاده حول الواقع وليس هو حقيقة الواقع ذاته. وهذا الإعتقاد يكون صحيحاً إن كان متوافقاً ومنسجماً مع حقيقة الواقع. لذا فحقيقة هذا الإعتقاد هي التوافق بين العقل وبين شيء خارج العقل. والمشكلة هي: كيف يستطيع العقل البشري العرضي³ والحدود أن يعلم بأنه وصل إلى حقيقة الوقائع؟

من الواضح أنه لكي تتم الإجابة على هذا السؤال هناك حاجة إلى معيار للحقيقة (أي هناك حاجة إلى فرقان). لكن الإنسان محدود فعلياً وجوهرياً، وهو نفسه جزء من هذا العالم، لذا لا يستطيع أن يُنتج أو يقدم مثل هذا المعيار والميزان، إلا أن الوحي (أي كلام الله خالق كل شيء) يستطيع وحده وضع هذا المعيار وهذا الفرقان.

يؤكد العلم المادي بأن الإعتقاد يكون صحيحاً عندما يكون متوافقاً مع واقعة خاصة مترافقة و خارجية، وتكون زائفة وباطلة عندما لا يتوافق معها. على أي حال فهذا التمييز تمييز ناقص، لأن الإعتقاد هو تأويل للواقع المتطابق والمنسجم معه وليس بياناً أو عرضاً محايداً وموضوعياً. وحسب فهمنا من رسائل النور وعلى خلاف ظن العلم هناك أكثر من تأويل واحد للحادثة أو الظاهرة الواحدة. لنعط مثالا على هذا:

عندما نسقي نبتة نراها تنمو، وكما يقول " سعيد النورسي " فهناك تأويلان :

الأول: التأويل العلمي المزعوم الذي يقول : إن الماء يسبب نمو النباتات .

ينبع هذا التأويل من النظرة التي ترى أن الأشياء تكون مستقلة عن صناعتها وعن خالقها، وكأنّ الأشياء وجدت هكذا من تلقاء أنفسها، وهي مرتبطة بعضها مع البعض الآخر تلقائياً وذاتياً. وهذا ما يدعوه النورسي بـ (النظرة الاسمية).

الثاني: والتأويل الثاني هو التفسير القرآني. فالقرآن يعلمنا : إن الله تعالى هو الذي يسبب نمو النباتات بالماء. وهذا التفسير يعلمنا بأن الاشياء غير قادرة على إمداد أنفسها بأسباب الوجود، فهي موجودة فقط إستنادا الى خالقها وصانعها. وبعضها مرتبط بالبعض الآخر من خلال هذه الرابطة الكلية. ويطلق " سعید النورسي " على هذه النظرة التي استقاها من القرآن اسم (**النظرة الحرفية**). وقد شرحت في أصل هذا البحث كيف استنبط النورسي النظرتين الاسمية والحرفية وكيف صاغهما، فليرجع اليه من يريد التفصيل في هذا الموضوع.

وحسب التعريف العلمي للحقيقة ولضدها، فإن كلا الوصفين يعدان صحيحا، لأن كلا منهما منسجم مع حقيقة خارجية مصاحبة له. ولكن هذا مستحيل وغير ممكن. إذ لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحا في الوقت نفسه، ذلك لاهما متضاربان ومتعارضان من الناحية المنطقية : إما أن يكون الماء هو الذي يسبب نمو النبات، أو يكون الله هو المسبب. ولكي نقرر أين الحقيقة في هذين التفسيرين نحتاج الى معيار للحقيقة والى ميزان لها، ولا نستطيع التخلي عن مثل هذا المعيار هنا. نحن لا نستطيع إنكار حقيقة الاشياء، لأن بياناتنا وأحكامنا ليست محايدة، فهي إما متوافقة مع الحقيقة ومنسجمة معها أو مخالفة لها.

إن منهج " الحرفية " للحقيقة الذي استنبطه النورسي من عين منطق الآيات القرآنية وهيبتها يقدم لنا هذا المعيار واليزان المطلوب للحقيقة، وهو يمكننا من تحليل كلا البيانيين أو التفسيرين المنوه عنهما أعلاه.

نحن نلاحظ أن الماء يدخل داخل النبات ثم ينمو هذا النبات. هاتان الحادثتان تكونان متعاقبتين من الناحية الزمنية، ولكنهما حادثتان منفصلتان وغير مرتبطتين. وكما يعترف الفلاسفة العلميون أنفسهم فإننا في الواقع لا نرى أن الماء يقوم بتنمية النبات. وعندما يصرح العالم بأن " الماء يسبب نمو النبات " لا يقول لنا ما شاهد ورأى، ولكن يقول ما استنتجه من ملاحظته لهذه العملية، وتعبير آخر فإنه ينقل لنا إعتقاده. فهذا هو تأويله للحادثة التي جرت أمامه وهي أنه سقى نبتة بالماء ثم نمت هذه النبتة. وهذا التأويل بعيد جدا من أن يكون تأويلا كليا، بل حتى أن يكون تفسيرا معقولا. وفي الحقيقة كيف يمكن أن يدور بخلدنا أن مادة ميتة مثل الماء تستطيع أن تهب الحياة للنبات وتجعلها تنمو؟ أي معرفة أو أي قوة يملكها الماء أو أي سبب آخر للقيام بهذا العمل؟ علاوة على هذا فإنه كان من الممكن قبول التفسير العلمي لو كان في الامكان التثبت والبرهنة على هذا التفسير بشكل تجريبي، أي لو كان بالامكان رؤية الماء وهو يقوم بهذه الفعلية، لانه لو كان الماء عاملا وقوة وسببا لكان بإمكاننا ملاحظة هذه الفعلية. وفي الحقيقة لا يمكننا رؤية الماء وهو ينمي النبات. لذا فإننا نستنتج أن هذا البيان او التصريح العلمي المقدم لنا لا يشكل ما نراه في الواقع التجريبي، أي أن هذا البيان العلمي ليس الا تفسيرا للتجربة. وهو تفسير غير معقول لأنه لا يمكن تبريره وتسويغه.

لكي نفهم الامر دعنا نضرب مثلا عليه من الراديو. تصور أن شخصا ما يخبرك بان التيار الكهربائي هو الذي يعمل البرامج المذاعة في الراديو. ثم يخبرك بأنه قادر على إثبات ما يقول بشكل تجريبي، ثم يأخذ راديو ويريك بأنه عند غياب الكهرباء لا يعمل هذا الراديو، وعندما يوصل هذا الراديو بالكهرباء يقوم الراديو بالعمل وبإذاعة برامجه. فهل تستطيع أنت قبول هذه التجربة والادعاء بأن الكهرباء هي السبب وراء البرامج المذاعة من الراديو وهل يمكن إنكار واضع البرامج؟ هذا هو بشكل أساسي هو المنطق في المنهج العلمي المزعوم.

يبرر العلم وصفه أو تفسيره للامر بالزعم بان النباتات لا تنمو في غياب الماء. ولكننا نعلم بأن النباتات لا تنمو في غياب ضوء الشمس وفي غياب التربة والهواء والعالم والمجموعة الشمسية ... الخ. أي هناك حاجة الى الكون بأجمعه لانبات النباتات وجعلها تنمو. اذن فالذي يسبب نمو النباتات لا يمكن أن يكون سوى خالق الكون بأجمعه. أي لا يوجد هنا أي سبب مشروط وعرضي قط، لا الماء ولا أي شيء آخر ، بل لو اجتمعت الاسباب كلها فإنها تكون عاجزة عن خلق خلية واحدة في النبات.

لذا فمن الناحية المنطقية لا يستطيع خلق النباتات سوى الله تعالى المتصف بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق وبالرحمة المطلقة.

اذن فان التفسير الاسمي المادي تفسير اعتباطي وتحكمي وعشوائي تماما. فهو عاجز عن ايضاح الحقيقة بشكل صحيح، لذا فهو لا يملك أي قيمة معرفية، ولا ينتج أي معرفة. فهو عبارة عن ظن كما يعلمنا القرآن الكريم: (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا) "يونس: 36" إن البيان أو الشرح الثاني القائل : (إن الله تعالى هو الذي يسبب نمو النباتات بالماء) هو أيضا تفسير، ولكنه تفسير منطقي مستند الى وقائع مشاهدة.

نحن نعلم من مشاهداتنا في الكون بأنه لكي نجعل نبتة تنمو نحتاج الى علم والى معرفة شاملة تحيط بكل شيء ، والى قوة تسيطر على كل شيء. ونحن نطلق على صاحب هذه القوة اللاهائية وصاحب هذه المعرفة المطلقة اللاهائية إسم " الله ". الله تعالى هو خالق كل شيء وهو القيوم على كل شيء، وهو مدسم وجود كل شيء. والكون كله، وكذلك كل ملاحظتنا وتجاربنا شاهدة على هذا الامر.

والحقيقة ان المسلم يؤمن بالغيب ، ولكن هذا الايمان قائم على تصديق وجودي (ontological confirmation)، اي قائم على براهين وإثباتات قوية متعددة بعدد وجود الاشياء. وكما يعلمنا القرآن فإن ضمانته ومسوغ الايمان بالله هو الكون، أي أن الكون بأجمعه يؤيد ويسند هذا الايمان ويشهد عليه، وهذا هو سبب صحته وكونه حقيقة ومعرفة صحيحة، وهو ما ندعوه " الشهادة " ... أي شهادة الحق. ذلك لانه لا يمكن تأييد الحقيقة وإثباتها إلا عند مشاهدتها. وكما يعلمنا القرآن فإن دون مثل هذه " الشهادة " يكون الاعتقاد مجرد " ظن "

إذن فإنه يمكن إثبات التفسير الحرفي منطقيا، فهو تفسير معقول ومستنبط من التجارب. ويصرح النورسي وهو يستعمل المنهج الحرفي بأن كلا من الماء والنباتات، بل في الحقيقة جميع الاشياء إنما هي علامات وآيات تشير الى خالقها وتدل عليه. وهو يرى كيف أن الكون بأجمعه مملوء بهذه الايات (حسب تعبيره) ... آيات تقود الى معرفة الله وتشهد على صدق الوحي وحقيقته.

إذن فالعلم ليس فعالية محايدة ومتجردة وغير متحيزة كما يظن ويحسب، إنه قراءة للعالم تظهر فيها الحباة والانحياز. ونظرا لكونه ينظر الى الاشياء وكأنها مستقلة عن صانعها فإنه يوهم بأن هذه الاشياء غريبة ... غريبة الواحدة عن الاخرى، وغريبة عن الانسان. والمشكلة هي عما إذا كانت الاشياء التي يجاهها ويقابلها العالم غريبة هكذا وأجنبية عنه الى هذا الحد ولا تملك أي شيء مشترك معه. فإنه من الواضح أنه يصعب القول بأنه يفهمها. والحقيقة انه في سياق النظرة " الاسمية " المادية للكون فإن كل عملية للفهم تكون عملية عشوائية وكيفية وتحكمية ومشوّهة.

لقد انتبه المختصون في فلسفة العلوم الى هذا الوضع في ساحة العلوم الاجتماعية اولا ثم في ساحة العلوم الطبيعية مؤخرا. فقد أدركوا بأن القول بأن التجربة تكون هي المعيار للحقيقة في البيانات

العلمية ... أدركوا أن هذا ليس الا دوغمائية العلم.⁴ وعندما رأوا أنفسهم غير قادرين على حل هذه المشكلة الاساسية حاول الكثير منهم الهرب من الموضوع بإنكار وجود مفهوم الحقيقة نفسه. والميل العام حاليا هو الاتجاه للنسبية، أي نسبية الحقائق.

يقول العلم بأن العقل عام وشامل، وهو يكتشف طريقته الخاصة التي تنتج له المعرفة. ولا شك بأن هناك ضرورة لوجود قواعد وأسس دائمية نستطيع الاعتماد والاستناد اليها عند الاشارة الى المصادر. ولكن من العبث التوقع أو الظن بأن العقل الانساني المشروط العرضي يستطيع تقديم أي قالب أو مستند يستطيع إخبارنا عن القاعدة أو المبدأ الكوني الذي يجب أن يحكم معارفنا وحياتنا. هناك اعتقاد خاطيء وزائف يكمن في قلب الفلسفة وفي قلب العلم بل في الحقيقة في قلب الحداثة والمعاصرة وهو أن العقل هو المصدر للمعرفة، أو بتعبير آخر أن الانسان مكتف ذاتيا ومستقل ومستغن عن خالقه.

وكما أكد النورسي: إن الانسان على أي حال كائن مخلوق، لا يستطيع الوصول بنفسه وبجهوده الى اكتشاف القاعدة التي هو محتاج إليها من أجل ضمان صحة فكره وفعالياته ونشاطه. والعقل ليس مصدرا للحقيقة وليس متمما للوحي مثلما يصرح به كثير من المفكرين المسلمين.

أن المشكلة ليست مشكلة فكرية وعقلية فقط وليست مرتبطة فقط بالنقاش والجدال حول معنى ومدى وأفق العقلانية. فهذا الموضوع يتناول أهم الاسئلة المتعلقة بالكيان الانساني: من نحن ...؟ ماذا نستطيع أن نعلم ...؟ ما المعايير والمبادئ التي يجب أن نرعاها وتبناها ... الخ. إن بحثنا عن الحقيقة واليقين ليس بحثا دينيا ولا ميتافيزيقيا، إنه بحث فطري وحاجة فطرية. ولكن العقل المشروط لا يستطيع إشباع هذه الحاجة ولا الاجابة عليها. إن الوحي وحده هو الذي يستطيع إشباع شوقنا وحنيننا الى الحقيقة، ويستطيع أن يمدنا بالفرقان الكلي للحقيقة الذي نستطيع الاستناد اليه والاعتماد عليه. إن جذور الانحراف في العالم المعاصر كامنة في النظرة الاسمية، في التوهم بأن الانسان والاشياء معزولة عن خالقها ومستقلة عنه وغير مرتبطة به. وتظهر هذه النظرة نفسها في عالم الفلسفة والعلم تحت اسم "العقلانية Rastionalism"

وقد سرى هذا المرض، أي النظرة الاسمية الى الامة منذ إنتهاء عهد النبي (ص) وعهد الخلفاء الراشدين، وانتشر هذا الانحراف في جميع مناحي الحياة، واخترق ونفذ الى جميع منافذ حياتنا الاجتماعية والمعنوية.

ولا يمكن علاج هذا الانحراف الا بالتسليم لله تعالى والخضوع له، واتباع السبيل والصراط الذي رسمه لنا رسوله الحبيب . p . ولا يمكن هذا الا بتبني النظرة الحرفية وجعلها جزء من النفس ومن الذات. إن النظرة الحرفية بعث للنظرة القرآنية وإحياء لها، وهي صيغة للنظرة القرآنية التي يستطيع الانسان المعاصر (الذي انحرف عن خالقه) إدراكها وفهمها بكل سهولة.

وفي الختام فإنه لكي نقدر أهمية الصيغة التي قدمها سعید النورسي حول النظرة الحرفية فمن الضروري إستنطاق وردّ الدوغمائية الوضعية (positivistic dogma) للنموذج الثقافي الغربي المسيطر الذي ابتلي به فكر المسلم الحالي. لقد تم تلقيننا جميعا بأسطورة "التطور الاجتماعي والثقافي" المدعم بأسطورة التراكم العلمي المستمر.

وعندما يقوم النورسي بدم النموذج الاسمي السائد وتعريه عناصره، فإنه يسلط الاضواء على عدم

4 أي بيان عن عقيدة دون دليل معتبر - المترجم.

صحته وعدم شرعيته، و يقوم من خلال العملية نفسها بإقامة النظرة القرآنية الكونية الشاملة محله. فهو يعلن بأنه لا يمكن استعمال الكون دليلاً على المقولات الوضعية (positivist claims) للعلم الحديث المؤسس على الفلسفة المادية. إن الكون هو خلق الله وصنعه، وهو مملوء بالآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته، وتقوم بتعريفه جل جلاله. والنورسي يرينا كيف يستطيع المسلم استعمال الكون شاهداً ودليلاً على صدق الوحي. وهو يبرهن على أن الطريق الوحيد للحصول على معرفة الحقيقة هو دراسة الكون تحت ارشاد الوحي. وكل الادعاءات الاخرى للمعرفة ادعاءات زائفة ولا يمكن البرهنة عليها. والوحي وحده هو الذي يستطيع تزويد الانسانية بمعيار الحقيقة وميزاتها... هذه الحقيقة التي هي ضرورة وحيوية و اساسية لادراك السعادة في هذه الدنيا وفيما بعدها أيضاً. أقول قولي هذا واستغفر الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ترجمة : اورخان محمد علي

مكانة سعيد النورسي في موكب التجديد

أ.د. اوليفر ليمان^P

هناك اتجاه عام في الاسس النظرية للدين الاسلامي يمتد منذ السنوات الاولى من ظهوره الى يومنا الحالى. احد هذه الاتجاهات هو التعارض الواضح بين الدين والمعاصرة... بين الايمان وبين الطرق البديلة لتفسير هذا العالم. وكذلك هناك اتجاه آخر مرتبط بمذا، وهو كيفية احياء هذا الدين. وتظهر حركة الاحياء هذه في العهود التي تتطور فيها الثقافة بحيث تبدو وكأن الاسلام اكمل دوره ولم يعد يماشي العصر وظروفه المستجدة، وهنا يبذل مدافعو الاسلام جهودهم للبحث عن تفسير وتعليل للايمان، وليبرهنوا على انه يبقى حيا وقويا على الدوام. وغايتنا هنا تناول اعمال سعيد النورسي في هذا السياق في محاولته لإحياء الاسلام، والقيام بمقارنته مع الغزالي ومحمد اقبال في هذا الخصوص وفي هذه المهمة.

قبل ان نتفحص اسلوب حركة الاحياء دعنا ندرس ونتأمل بعض المسائل المثارة عند ايضاح الصدام بين الايمان وبين الطرق البديلة للاقتراب من الحقيقة.

عاش كل من النورسي ومحمد اقبال في عصر بدا فيه ان الهيمنة الثقافية الاوروبية بدأت تهدد بشكل جدي دور الاسلام في حياة المسلمين. ولم يكن هذا التهديد ناشئا عن محاولة الامبرياليين تحويل المسلمين عن دينهم — ذلك لان مثل هذه المحاولة لم تلق أي نجاح — لان الامبرياليين فضلوا القيام بالسيطرة السياسية على القيام بالسيطرة الدينية. ان التهديد الحقيقي للاسلام — وليس للاسلام وحده

^P استاذ الفلسفة في جامعة جون مورس بليفربول — المملكة المتحدة. وأستاذ محاضر في قسم اللاهوت والدراسات الدينية وفي قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة مانجستر. حصل على الدكتوراه من جامعة كامبرج 1979 له بحاث كثيرة في مجال اختصاصه. نذكر من مؤلفاته :

- Death and loss:
- Evil and suffering in Jewish philosophy,
- History of Islamic Philosophy, ed. S. H. Nasr
- Orientalism and Islamic Philosophy"
- Friendship East and West - Philosophical Perspectives,.
- History of Jewish Philosophy, ed. D. Frank Routledge,
- Moses Maimonides Curzon
- Averroes and his Philosophy Curzon,
- The Future of Philosophy:
- Key Concepts in Eastern Philosophy,

— كان قوة تأثير نستطيع ان نطلق عليه اسم: "المعاصرة" او "الحداثة"، ولم تكن هذه المفاهيم مفاهيم ضد الدين. ولكنها كانت مفاهيم لا دينية (أي لا علاقة لها مع الدين) أي انها لم تشر أي اشارة الى الدين، كل ما عملته هو انها اعلنت واطهرت اهدافا لطرق الحياة مؤسسة ومقامة على حلول مادية لمشاكل مادية. ولم تعد هناك اهمية حقيقية للإله ولا أي تأثير لوجوده. وقد بدت ان افضل خطوة واكثرها منطقية هو ترك فكرة القداسة والالوهية والتركيز على المفاهيم والافكار العلمية التي ستقوم بايضاح كل ما يمكن ايضاحه.

قد يكون من الصعب في هذا العهد — عهد ما بعد الحداثة Post modern — الذي اشرفنا فيه الى نهاية الألف الثاني والذي لا يوجد فيه الا أمل ضئيل في قيام العلم والحداثة بحل معضلات العصر ومعضلات الانسانية... قد يكون من الصعب استرجاع التاريخ. قبل ألف عام تقريبا واجه الغزالي وضعا مماثلا حيث واجه العالم الاسلامي تحديا من جانب الفلسفة والافكار العلمية التي لم تكن تأبه للالوهية ولا تعطي له أي دور. كان الفلاسفة آنذاك قد ارتبطوا تماما بالفلسفة الارسطوطاليسية التي كانت تعد العالم كنظام يعمل على اسس طبيعية... نظام كان دور الإله فيه يختلف تماما عما هو موجود في الاسلام... إله ارسطوطاليسي الذي كان قد شرحه الفارابي وابن سينا، وهو اله يختلف تماما عن الإله الموجود في العقيدة الاسلامية. ذلك لان اله الفلاسفة كان بعيدا عن العالم ولا يستمع الى مخلوقاته ولا يعرف ماذا يفعلون ولا بيعت الموتى من قبورهم ولم يخلق العالم من العدم. والكون يأخذ — حسب هذه النظرة — طريقا محتوما ذا خصائص معلومة، ودور إله له ذات معلومة دور ضعيف في هذا الأمر .

هذا لا يعني ان الفلاسفة لم يتكلموا حول الله، اذ كثيرا ما تكلموا عنه، ولكنه يظهر عندهم وكأنه لا دور له عندما يقومون بتعاريف وبايضاحات الحقيقة. فدور الله عندهم يشبه دور الملوك في النظم الديمقراطية. فالقانون لا يصبح قانونا في بريطانيا الا بعد توقيع الملكة عليه، ولكن الملكة تقوم دائما بالتوقيع على القوانين المقدمة اليها من البرلمان. ولا يمكن ان يعين شخص في منصب رئيس الوزراء الا بعد تعيين الملكة له في هذا المنصب. ولكن الملكة تقوم على الدوام بتعيين من يملك اكثرية الاصوات في البرلمان. فالملك او الحاكم في النظم الملكية الدستورية لا يملك صلاحية تغيير السير الاعتيادي للاحداث. لذا يمكن القول بان الملك هنا لا يتمتع باي سلطة تخوله التأثير في سير الاحداث.. وهذا هو الدور المعطى للإله في عرف هؤلاء الفلاسفة، لذا حاول الغزالي توسيع وتطوير هذا الدور حتى اتخذ صفة القدرة الحقيقية على التصرف والعمل والارادة.

هناك حديث مشهور يتنبأ فيه الرسول بان الله سيبعث على رأس كل مائة عام من يصلح ويجدد للمسلمين دينهم. ولتجديد الدين وحياته خطوطا عدة. احدى هذه الخطوات هي اظهار ان بمقدوره عمل شيء لا يمكن لاي نظام آخر أو اي نظام بديل عمله، وانه يستطيع تقديم وتوفير الارشاد المعنوي لأمتة. والخطوة الاخرى هي القيام باظهار ان براهين وادلة اعداء الدين تفشل في ايجاد أي ممسك ضد الدين. ولنجاح الخطوة الاخيرة يجب ان تتردد صداها لدى الامة كلها، وليس لدى جزء او قسم منها. ان الدين عبارة عن نظام تفكير يهدف للوصول الى قبول عام. لذا فان أي محاولة لإحيائه يجب ان تكون على اساس الضرب على وتر وعلى عصب المجتمع ككل. ان أعلام الإحياء الثلاثة الذين تناولهم هنا قاموا جميعا باتخاذ هذه الخطوات الثلاثة وبتحقيقها. فقد تناولوا بكل جد نظام الفكر الواقف ضد الايمان، ولم يتجاهلوه بحجة انه نظام فكري ملحد او انه كفر، على العكس من هذا فقد تقبلوا كثيرا

مما يقدمه هذا الفكر، وحاولوا فهم تركيبه ومدى قدرته على الاقتناع في المواضيع التي تعرض له هذا الفكر بالنقد. وذكروا انه مهما قيل في مدح نظام التفكير هذا فانه لن يستطيع ان يحل محل الدين طالما ان الدين يحاول عمل شيء مختلف تماما. واخيرا فقد قدموا كتباً ومؤلفات مخططة بشكل مؤثر على الجماهير، وقادرة على ارجاع الكثيرين الى حظيرة الدين بعد ان كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن الله. وقناعتي الشخصية ان النورسي كان أبرع هؤلاء الثلاثة في اسلوب الإحياء، ان كان هناك ما نستطيع ان نذكره كاسلوب في حركة الاحياء في هذا النص. وعموما فان الانسان يتوقع ان يجد هذا الاسلوب في كتاب "احياء علوم الدين" للغزالي وهذا المؤلف يعد مؤلفا غير اعتيادي ويحتوي على اربعة اقسام، ويتضمن كل قسم عشرة كتب. في هذا المؤلف الموسوعي يتناول الغزالي جميع الواجه التي يمكن تصورها للإيمان وللعمل في الاسلام. لذا اصبح هذا المؤلف نموذجا لرسائل النورسي "رسائل النور". ويعترف الغزالي بعلاقته القوية بالتصوف في كتابه "الاحياء" الذي نراه يصطبغ في معظم الاحيان بصبغة شخصية ولكن في كتبه الاخرى تظهر محاولته في الرد على الفلاسفة وطريقة اقتراجه وتناوله لمسائل الالهية. واحد الجوانب القوية لدى الغزالي والظاهر في مؤلفاته الاخرى هو قيامه بسبر ادلة معارضيه بنوع ظاهر من التقدير بحيث ادى هذا في السابق ويؤدي حاليا الى وضع الغزالي في صف من عارضهم وجادلهم بشكل صريح.¹

واعمال الغزالي ككل لا تبلغ درجة رد الحداثة في عهده طالما انه اظهر ان مفهوم الفلسفة كالمنطق الارسطوطاليسي قد يكون مفيدا عند تناول مسائل الالهية (المسائل اللاهوتية) وقال بان الفلاسفة أنفسهم قد اخطأوا عند استعمالهم المبادئ الفلسفية التي يلتزمونها ويقفون في صفها. لم تكن استراتيجيته في الرد على الفلسفة قائمة على إظهار أن الفلسفة خاطئة كمنهج وكنظام، ولكن لكي يظهر ان الفلاسفة سلكوا طرقا لا تتماشى مع المنهج الفلسفي.

هذه هي فكرة وموضوع واتجاه حركة "الاحياء" وهي كاستراتيجية حركة مؤثرة جدا. فبدلا من رد نظام فكري يراد نقضه نرى ان الغزالي والذين جاءوا من بعده بدلا من النقص المباشر للنظام الفكري المعارض لهم نراهم يقومون اولا بشرح وايضاح ماهية هذا النظام ثم يقومون بايضاح الاخطاء التي يقع فيها هذا النظام الفكري حتى ضمن مصطلحاته واسسه. ويبرهن الغزالي في كتابه "تمافت الفلاسفة" بان الفلسفة التي تبعها الفارابي وابن سينا لا تؤدي ولا توصل الى النتائج او الاحكام التي توصل اليها. والحقيقة انه لو تم اتباع ذلك النظام من التفكير بدقة لتوصل الى نتائج اخرى ربما كانت اقرب الى الايمان. والمهم هنا هو طريقة الاقتراب، وهي ان النتائج التي تؤدي اليها الفلسفة ليست كقراً او بدعة لذا فلا موجب لرد الفلسفة. على العكس من هذا فانه مع ان النتائج المستخلصة من الفلسفة قد تكون فيها بعض الشوائب من وجهة نظر الايمان، الا ان هذا الامر ناتج من عدم استخلاص النتائج من المقدمات الفلسفية بشكل صحيح ودقيق.

وقد اتبع اقبال هذا الخط عن قرب، فعند قيامه بنقد ما رآه ضمن الثقافة الغربية وضمن المعرفة لم يشأ الرجوع الى جهل القرون السابقة، فلم ير ان هناك خطأ او مشكلة في العلم، بل رأى انه يمكن استخلاص منافع ثقافية ومادية هائلة منه، لذا فعند القيام بنقد الثقافة الغربية المادية، فهذا لا يعني نقد

1 - ولهذا فإن كتاب "مقاصد الفلاسفة" للغزالي فُسر من قبل القراء الغربيين على أنه مفكر مثالي أي من المدرسة الأرسطوطاليسية. وحتى اليوم فإن بعض المفسرين لكتابات الغزالي كالسيد رينشارد فرانك يقولون بأن فكر الغزالي لم يكن بعيدا عن فكر ابن رشد بشكل كبير كما كان الاعتقاد سائدا من قبل، كما أنه كان أكثر بعدا عن فكر الأشاعرة مما كان يحسب في السابق. انظر الى نقد هذا التقييم الى: Oliver Leaman, Asian Philosophy. 6,1:17,27.

الفوائد التي يمكن استخلاصها منها، بل يعني فقط نقد القوى الالحادية التي تصاحب هذه الثقافة. ويذكر اقبال بانه من المحزن ان يكون العالم الاسلامي فقيرا جدا من ناحية العلوم التجريبية في العصور الاخيرة مع ان الاسلام دين تجريبي. وهذه نقطة كثيرا ما تناولها النورسي كما سنرى. فالاسلام يتعامل مع العالم التجريبي وليس عقيدة اخروية خالصة كالمسيحية، لذا فلا يوجد أي تناقض بين الاسلام وبين العلم، وأي تضارب أو تنافر. ولسوء الحظ فقد اصبح العديد من الاقطار الاسلامية - لاسباب تاريخية أو سياسية مختلفة - سجنية الجهل والفقر، واصبح العلماء فيها راغبين عن تناول المواضيع الثقافية في أي مستوى أو أي عمق وكارهين لها.

ولا يكمن الحل عند اقبال في تقليد الغرب الذي سجل تقدما كبيرا في الساحة المادية. ولكنه اصبح فقيرا جدا في الناحية الروحية والمعنوية، ولكن الحل يكمن في قيام المسلمين بايصال انفسهم الى افضل مستوى مادي وعلمي ولكن في الوقت نفسه دون توريط انفسهم ضمن الاطار النظري المادي الذي اعتبر في كثير من الاوقات جزءا من الحداثة والمعاصرة. والذي يحدث في اكثر الأحيان هو ذكر ان الاسلام يغير حركة الاغتراب (أي التحول الى الحضارة الغربية) مغايرة كبيرة ويبدو وكأنه اصبح عتيقا وانتهى دوره ولم يعد ذا موضوع عند المقارنة بينهما.

هذا هو الوضع الكئيب الذي وقع فيه الاسلام طوال معظم تاريخه عندما حصر من قبل الكثيرين في الخطوط الهامشية من الحياة، واتخذ موضع الدفاع تجاه الشروط المتغيرة للحياة المعاصرة. لقد رأى اقبال فروقا صارخة بين الحالة الفكرية المتحجرة للاسلام في عهده وحياته، وبين العصور الاولى للاسلام التي كانت هناك مناظرة وبحث ونقاش غني ومتنوع وتطور ثقافي كبير. لذا فكما لا يوجد تصادم أو تعارض بين الاسلام وبين العلم، كذلك لا يوجد مثل هذا التعارض بين الاسلام وبين الفلسفة. ففي الاسلام الشيء الكثير الذي يتلائم مع الفلسفة. ويقوم اقبال بربط "برغسون" وغيره من الفلاسفة المعاصرين له بنظراته القريبة من النظرة الاشراقية لطبيعة الحقيقة.

ان الدعوى الرئيسية لبعض الفلاسفة هي ان العالم يعمل بشكل آلي وأعمى، وهذا ما يرفضه المسلمون. ولكن هناك الكثير من النظريات الفلسفية التي تتوافق وتتلائم ولا تتعارض مع النظرة الاسلامية للعالم وللكون. والمطلوب هو احياء الاسلام وانعاشه لكي يتخذ موقفا ضمن وجهة النظر الاسلامية يتسم بالثقة امام العالم المعاصر. بعكس الغزالي نرى وجود شبه وشكوك لدى اقبال والنورسي تجاه التصوف. والغزالي نفسه صوفي غريب، اذ لا نجد هناك أي دليل على انه درس او تتلمذ على يد أي شيخ صوفي، ولكن من الواضح انه رأى في الصوفية طريقا الى "ذوق" شخصي للطبيعة الالهية المقدسة للحقيقة. وهذا قد يعد مشكلة في مشروع "الإحياء" عنده. ذلك لان التصوف يؤكد على الدوام الطبيعة الشخصية للتجربة الصوفية التي يتعذر شرحها وبيانها للآخرين. فاذا اضفت الى هذا ان الغزالي لم يكن منتسبا الى أي طريقة او مدرسة صوفية، ولا الى أي شيخ صوفي اصبح الوضع اكثر سوءا. اذ لا توجد أي طريقة اقتراب منهجية في تعيين هويته الشخصية عدى ما انشأه هو بنفسه.

وبما ان التجارب التي شرحها الغزالي لها ماهية وطبيعة شخصية وخاصة، فانه لا يكون واضحا امام القارئ العادي: كيف يستطيع بقراءة كتب الغزالي الاقتراب من الله؟ وهذا هو السبب الرئيسي في ان اقبال والنورسي كانت تساورهم الشكوك حول كون التصوف شرطا من شروط عملية الإحياء. فالصوفية تبدو محصورة في بعض افراد الامة. لذا فالحل يبدو غير ملائمة لكي تكون جزءا من

عملية الأحياء طالما أنها لا تقدم رسالتها إلا إلى جزء محدود من الأمة. وكثيراً ما يقوم النورسي بتشبيه الصوفية بالفاكهة، بينما يشبه الإيمان الصرف بالخبز، ويقول بان الإنسان يستطيع ادامة حياته بالخبز وحده بسهولة.² ثم يخطو النورسي خطوة إضافية فيقول ان التصوف قد يحرف الشخص الباحث عن الحقيقة عن الطريق الصحيح لان هذا الشخص قد يسيء فهم ماهية الحقيقة بواسطة تجربته الشخصية في خط التصوف. ولا شك ان النورسي يحترم بواعث وحوافز الصوفي وجهوده، ولكنه ليس متأكداً من التأثير الحقيقي للتصوف او من ضرورته.

ترى رسائل النور ان الطريق الرئيسي لحركة الأحياء يمر من خلال الفهم الصحيح للطبيعة العقلانية للإسلام. ورسائل النور حافلة بالتأكيد على أهمية المعرفة وعلى أهمية العقل.

من الصعب ايضاح طبيعة رسائل النور إن قلنا انها تفسير للقرآن، فهذا صحيح، ولكنها أكثر من مجرد تفسير للقرآن. وهي - مثلها في ذلك مثل احياء علوم الدين - عبارة عن خليط معقد من المواضيع وعن طرق معقدة في كيفية تناول هذه المواضيع، ولكن رسائل النور أكثر دقة ووضوحاً من "إحياء علوم الدين". ان احدى خصائص تناولها للمواضيع وتقييمها لها هي التأكيد خلال جميع الرسائل على رفض وجود أي تناقض بين الإسلام وبين العقل. ومع ان العقيدة قائمة على أساس من الغموض، الا ان الآيات والاحاديث المعنية تقدم في رسائل النور بشكل واضح وبارق وخال من الغموض. ويشرح النورسي ببساطة ما يظن انه معاني هذه الآيات والاحاديث. ان ابرز طريقة لدى النورسي في الرد على ادلة الماديين هو هجومه على ادعائهم بان الانسان عبارة عن مادة فقط. وهذا هو الشكل العام للاستراتيجية التي يتبعها النورسي عندما يتعامل مع معارضيه ومخالفيه. فهو يحاول البرهنة بان هؤلاء يتناولون الانسانية بعيد واحد لذا يجانبهم الصواب.

ان طبيعة البراهين المعينة للنورسي لا تعد جديدة كل الجدة، فهو يخطو خطوات اعتيادية في اثناء تقديمه البراهين فيقول ان القرآن كتاب معجز بأسلوبه، وان الرسول لم يكن شخصاً اعتيادياً، بل شخصاً رائعاً وممتازاً مثلما جاءت في الآيات وفي الأحاديث. والادلة الخاصة التي يسوقها في هذا الخصوص تنسم بالوضوح وبالحيوية، ولكنها ليست في ذاتها جديدة. والذي يجلب الانتباه أكثر سوجه البراهين على اننا يجب البدء بتحليل طبيعة وماهية الانسانية نفسها اولاً. وهو يرى ان كثيراً من المفكرين اخطأوا فتنوا فيما ادت الى فقر الانسانية والابتعاد عن ماهيتها. فمثلاً راي الفلاسفة ان العقل هو الطريق المهم الوحيد للوصول الى المعرفة وانكروا أي موقف آخر تجاه معنى ومغزى العالم. وقد فشل الماديون (وهذا المصطلح يعني جميع الذين يرون في العلم التفسير الوحيد للحقيقة) في الاعتراف بعلاقتنا مع الخالق وفي التسليم بما. ولكن ماذا يعمل لنقض الاسس النظرية لخصومه ومناوئيه؟ الجواب هو انه يتمعن في القرآن ليتجهز بالادلة ضدهم. وقد يبدو هذا استراتيجية غير موجهة الى عدد كبير من الناس. فقد يناقش احدهم ويقول بانه لو افترض احدهم ان القرآن كتاب حق وصادق وان الرسول رسول حقيقي، اذن فان من السهل النقاش ضد هؤلاء من زوايا مختلفة. ولكنه لا يتبنى هذا الموقف العقلي غير الحاسم. ولكنه يقوم بتقديم سمو القرآن وشموليته بشكل براهين وليس بأسلوب من الجزم.

2 - المكتوبات/27 قد يحسب من هذا التعريف ان الإيمان الإعتيادي يفضل التصوف ، إلا أن هذا تناس لمبدأ النورسي في القناعة والإقتصاد. فهو - على الأرجح - يأتي بمثال الفاكهة لتصوير شيء كمالي وغير ضروري

دعنا نتناول مثالا معينا حول كيفية تفكير النورسي. انه ينتقد الفلسفة كثيرا عندما تفصل وتبتعد عن النبوة، ويتهم افلاطون وارسطو والفارابي وابن سينا بانهم "مهّدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، امثال: عبدة الاسباب وعبدة الاصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهميجهم الانانية لتجري طليقة في اودية الشرك والضلالة، فسّدوا سبيل العبودية الى الله، وغلّقوا ابواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المدرجة في فطرة الانسان، فضلوا في أحوال الطبيعة ولا نجوا من حمأة الشرك كليا ولا اهتمدوا الى باب الشكر الواسع"³

ثم يصرح بان مثل هذا الاعتماد الزائد عن حده على العقل يخلق هوية انسانية لا تملك قيما ومعاني اعلى منها، ويربط هذا بقبول القوة دون أي اعتراض. وغالبا ما يربط المادية بالفرعونية التي تعني استعمال القوة لتحقيق مصالح الاقوياء. والآن قد يبدو هذا في الوهلة الاولى سلسلة غريبة من النقد الموجه للعديد من المفكرين المختلفي المشارب. فمثلا من الصعب توجيه تهمة إتباع المذهب الطبيعي لافلاطون. ولكن ان نظرنا الى الموضوع من نقطة اعلى وأشمل فسيبدو معقولاً. لان جميع هؤلاء المفكرين يفترضون في تفكيرهم الفلسفي على ان العقل وحده يستطيع الوصول الى ماهية الحقيقة وطبيعتها. وفي السياسة يبدأ هؤلاء المفكرون من الفرد، ثم ينتقلون منه الى المجتمع محاولين ربط مصالح الفرد مع مصالح المجتمع. ان اعتماد هؤلاء المفكرين على العقل وحده يقودهم الى نظرية العلاقة بين الله وبين العالم. ولكن هذه العلاقة حسب هذه النظريات ليست علاقة مباشرة، ولما كان هؤلاء المفكرون لا يعتقدون بوجود أي سبب يقودهم للقول بان العالم خلق من قبل الله، لذا نراهم مضطرين لتفسير وايضاح كيفية الخلق بواسطة مراحل مرتبطة احداها بالآخرى، وهذا شيء قريب من الشرك. لقد بدأ الله بعملية وبآلية الخلق، ولكن هناك خطوات ضرورية قبل اكمال هذا الخلق، ولو غابت أي خطوة منها لما كان هناك أي خلق.

أي براهين يقدمها النورسي ضد وجهات النظر هذه؟ احد هذه البراهين يستند الى تجربتنا في العالم وهي ان المخلوقات جميعها تسبح الله (17: 44). وهو يخص جزءا كبيرا من رسائل النور في المقارنة بين وجهتي نظر مراقبين اثنين للعالم، لا يستطيع احدهما ملاحظة أي تأثير الهي في العالم، والآخر يلاحظ هذا التأثير. فالاول يخطأ على الرغم من قيامه بسرد افكاره بكل صدق وامانة، ولكن يفوته شيء حقيقي وهو الطبيعة الالهية للعالم. (أي كون الطبيعة مخلوقة من قبل الله). ولو كان هذا الشخص مؤمنا بالرسول لما وجد صعوبة في التعرف على الوجه الحقيقي للعالم. ولو اخذنا بنظر الاعتبار كثرة الادلة والبراهين حول صدق الرسول وصدق القرآن لما بقي الا عذر قليل للمنكرين. وهذا البرهان - وهو في الحقيقة برهان - لا يستند الى الايمان بل الى شواهد والى دلائل عقلية. وعندما يقبل احدهم هذا الدليل عند ذلك يفتح امامه طريق أمين للاثبات والبرهنة. ويقول النورسي ان الاسلام لا يطلب من منتسبيه الايمان بأي شيء غير معقول. على العكس من هذا فان غير المعقول هو عدم قبول البراهين حول حقيقة الاسلام وحول حقيقة كون العالم مخلوقا من قبل الله.

لماذا يتهم الفلاسفة بالشرك؟ ان الاتهام الذي يوجهه النورسي يستند في الحقيقة الى البرهان الذي قدمه الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة" وهو ان الفلاسفة لا يعطون أي مجال حقيقي لله. والسؤال المثار هنا: هل الله عامل قوة وتأثير؟... لكي يكون عامل قوة فهذا يعني انه يستطيع التصرف حسب رغبته وارادته. فان كان كلي القدرة فهذا يعني امتلاك قوة دون حدود او قيود. وقادرا على كل شيء

معقول ومنطقي. ولكن اله الفلاسفة لا يستطيع فعل هذا، فهو مجرد شريك مع القوانين وحتى الموجودات في عالم الأسباب. فالله في فلسفة افلاطون قائم مع المادة، وهو لدى ارسطو ولدى الفلاسفة قائم مع الكون نفسه، لذا فهو بعيد من ان يكون ذاتا له قوة مستقلة. لذا فالنورسي محق تماما عندما يقول:

" هذه القاعدة للفلسفة القديمة تعطي للاسباب القائمة والوسائط نوعاً من الشراكة في الربوبية، وتُظهر ان القدير على كل شيء والغني المطلق والمستغني عن كل شيء بحاجة الى وسائط عاجزة! بل ضلوا ضلالاً بعيداً فأطلقوا على الخالق جل وعلا اسم مخلوق وهو العقل الاول! وقسموا سائر ملكه بين الوسائط، ففتحوا الطريق الى شرك عظيم".⁴

ويذكر النورسي ان هذه النظرة تجعل من الله نوعاً من المخلوقات. وهو محق تماما في هذا ايضا. فالله ينقلب لدى الفلاسفة — مثل أي شيء آخر — الى شيء يعمل من خلال ومع الأشياء الاخرى الموجودة في هذا الكون.

واخيرا: لماذا يقارن الفلاسفة والماديين مع فرعون ومع مستعملي القوة من اجل المصالح الشخصية؟ يقول النورسي: "أين هذا الدستور القويم (للنبوة) دستور التعاون وقانون الكرم وناموس الاكرام من دستور الصراع الذي تقول به الفلسفة من انه الحاكم على الحياة الاجتماعية، علماً ان الصراع ناشئ فقط لدى بعض الظلمة والوحوش الكاسرة من جراء سوء استعمال فطرتهم، بل أوغلت الفلسفة في ضلالها حتى اتخذت دستور الصراع هذا حاكماً مهيمناً على الموجودات كافة، فقررت ببلاهة متناهية: ان الحياة جدال وصراع".⁵

وقد يبدو هذا ايضا في الوهلة الاولى حكماً غير قابل للتصديق، ولكن عندما يتفحص الانسان الموضوع عن قرب يعرف ماذا يريد النورسي ان يقوله. يميل الفلاسفة للبدء من مبادئ الانانية، وينطلقون منها لتبرير وتسويغ وشرح العادات في المؤسسة الاجتماعية، هذه المؤسسة التي تملك فيها القوى الاجتماعية والمعنوية دوراً فاعلاً. ولكن النورسي يرى ان هذا يشبه وضع العربة امام الحصان، أي يرى فيه قلباً للمسائل. ويقول باننا لا نستطيع ادراك مغزى المجتمع ان لم ندرك بانه عبارة عن وضع طبيعي للامور وللشؤون والمسائل التي ينمو في ظلها الافراد. والهدف من الحياة المعنوية لا يعني تحديد وتقليل النزاعات المحتملة بين الافراد قدر المستطاع، بل السماح لنا بالعيش في تجربة الصعود الروحي والمعنوي الملائم لنا كمخلوقات انسانية. ودور النبوة هنا دور حاسم، لان النبي يشرح لنا طبيعة المجتمع، وكيف ان كل شيء في العالم يسير معاً مع كل شيء كجزء من الخطة الالهية. وحتى ان نظرنا الى الطبيعة فسنلاحظ كيف ان كل شيء فيها مترابط بعضه مع البعض الآخر ضمن عمليات وفعاليات مترابطة ومتناغمة. ومن خلال مساهمتنا في هذه العمليات والفعاليات نستطيع العيش في تلائم وتناغم مع الفطرة والصيغة الالهية التي خلقنا فيها. ان الافتراض بان طبيعتنا طبيعة ووحوش أي طبيعة وحشية يقودنا الى نظرية او عقيدة تقول بان المجتمع مؤسس على القوة وعلى الخوف والرعب، والى القيام بتقييد قابليات الآخرين لكي يضطهدوننا، او نقوم نحن باضطهاد الآخرين. نستطيع ان نتجنب هذا المصير ان لاحظنا كيف ان كل شيء جزء من نظام روحي يسود فيه التلائم والتناغم، مما يزودنا بالعيش حسب الخطة التي وضعها الله تعالى لنا.

ان المعاني السياسية التي يتضمنها الاسلام تعين وتشير الى بعض التصرفات غير المقبولة منه على الاطلاق، وهذا نقيض الفلسفة البعيدة عن النبوة، فهي تقبل كل شيء بحجج ذرائعية. وفي اواخر حياته كان يكرر آية يعجب بها وهي [ولا تزر وازرة وزر اخرى]

لقد اخذ هذه الآية كدليل على خطأ سياسة انتهاز الفرص، ذلك لان مثل هذه السياسة هو ان اناسا سيقاسون الالام في سبيل تأمين المنافع والمصالح لآخرين. فالاسلام يمنعنا من استعمال الآخرين كوسائل أو اغراضا للوصول الى أهداف معينة كما جاء في أحد الامثال التوضيحية للفيلسوف "كانط" لان الدين مؤسس وقائم على بديهية باننا جميعا جزء من نظام الهي. بينما ترى النظرة المادية للأشياء بان كل شيء جائز. وقد يبدو حكم النورسي هذا خشنا بعض الشيء، طالما يكون من الخطأ القول بان الفلاسفة الغربيين والفلاسفة الذين قصدهم الغزالي خاصة هم جميعا من المفكرين الذين يرون بان المصالح الشخصية تهيمن على سلوك الافراد. ولكن النقطة التي يريد النورسي ايضاحها هنا والتأكيد عليها هي ان الفلسفة المحرومة من النبوة عليها ان تجد بنفسها قوانين السلوك والاخلاق، وعادة ما تكون هذه القوانين الاخلاقية قاصرة وغير كافية على الاطلاق. وقد اشار اقبال الى المعنى نفسه عندما قال بان العلم دون دين يكون شيئا شيطانيا. ولم يكن يعني بهذا بان العلماء هم جماعة من الشياطين والأشرار، ولا يعني ان جميع اعمالهم اعمال خبيثة وشيطانية بالضرورة، ولكن ان لم تكن هناك مبادئ دينية ومعنوية قوية وسامية ترشدتهم في اعمالهم، عند ذلك قد يطبقون معارفهم وعلومهم في أي شيء وعلى أي نحو. وقد يرون انفسهم اعضاء في المجتمع الانساني ومعنيين بمصالح الناس لذا قد يمتنعون من استخدام علومهم من اجل من يستهدف الهدم والتخريب. ولكننا مع هذا نعرف جيدا من تجاربنا في هذا العصر بان العديد من الافراد استخدموا القوة والمعرفة لا من اجل مصالح المجتمع، بل من اجل اذلال الجماهير وتجريعهم الالام. لذا فان النورسي وهو يضع المبادئ الفلسفية المادية نصب عينيه لا يستبعد القيام بمثل هذا التصرف. الفلسفة دون نبوة تكون عمياء كما يقول كانط.

فان تابعنا تعبير "كانط" الى مرحلة أبعد نقول ان النبوة دون فلسفة عند النورسي تكون حاوية، أي انه يدافع عن شكل معين للدين يكون غنيا بالثقافة... دين مؤسس على العقل، ولكن ليس على العقل وحده. ان جزء من حركة "الإحياء" هو من أجل اثبات ان الاسلام يملك قوة ثقافية كافية تستطيع بها منافسة الاشكال الاخرى من المفاهيم. احد الاخطار التي تظهر عند الدفاع عن الدين امام الفلسفة هو احتمال ظهور الدين وكأنه شيء غير منطقي وغير عقلي وغير قابل للنقد، وانه شيء يتم التسليم به وقبوله. واستراتيجية حركة "الإحياء" هي محاولة تجنب هذا تماما والبرهنة على انه لا يوجد أي شيء غير منطقي في مبادئ الدين، بل ان الفلسفة المادية هي التي تفتقر الى المنطق والى العقل عندما ترفع العقل وتضعه فوق كل شيء آخر. ولكن ليس العقل أهم ملكة وقابلية في الانسان؟. هناك مشكلة معروفة منذ عهد حركة التنوير بانه لا يمكن تبرير عملية الدنو من العقل والعقلانية على اساس من العقل لأنها ستقودنا الى اثبات دائري، او الى حلقة مفرغة. فما السبب الذي يقودنا للإيمان بان العقل هو الحل لجميع المشاكل؟ يصف النورسي الفلاسفة بـ "المعتدين بعقولهم الفارغة"⁶. وجزء من الايضاح لهذا الوصف هو تقبلهم الحاسم للعقل دون أي مراجعة او نقد. والجزء الآخر من

الايضاح هو عدم قدرتهم على ادراك ان للعقل حدودا معينة، او وضعهم هذه الحدود بشكل غير ملائم.

للنورسي كل الحق عندما يعد الانسان شيئا أكثر من مخلوق عقلائي، وان هناك اوجه في الحقيقة الانسانية ومفاهيم تتجاوز العقل. هذه الواجهة الانسانية التي يطرحها تعاملت معها النبوة بشكل أفضل وأكثر تلاؤما. وان النبوة تدرك اوجه الحقيقة هذه والتي إما تملك وسيلة محدودة للوصول اليها او لا تملك أي وسيلة، لذا فان مثل هذا الارتباط (الزائد عن حده المعقول) بالعقل يتجاهل هذا الميدان الذي يكون العلم فيه لله وحده [قل انما العلم عند الله] (الملك: 26).

ولكن لماذا لا يكون هذا قبولا دون أي تمحيص او نقد وتسليما بان هناك حقائق دينية وحقائق الهية؟ الجواب الذي يقدمه النورسي خلال مؤلفاته هو ان هناك اسبابا جيدة وعديدة لقبول مبادئ الاسلام، كما قدمت رسالة الاسلام في هذه المؤلفات بحيث انما تخاطب فينا العقل وتخاطب عواطفنا ايضا. وهذا هو السبب في اهمية الفلسفة، ولكن على الفلسفة ان ترتبط بالنبوة لكي تستطيع ان تعكس الواجهة المختلفة لطبيعتنا ككائنات انسانية.

والآن لنقارن بين الحركات الاحيائية الثلاثة التي ذكرناها هنا. يقدم الغزالي مثالا ناصعا من الاسلوب والفصاحة المتدفقة، وعمقا قد لا يمكن مضارعتة والاتيان بمثيله. ولكن هل كتبت مؤلفاته بشكل ملائم للانسان العادي في المجتمع الذي يتطلع الى الجمع بين الاسلام وبين الحدائث او المعاصرة؟ الجواب سيكون بالنفي.

يناقش الغزالي ليدحض الفلسفة والمدارس اللاهوتية الاخرى في كتبه الاخرى. وحتى كتابه "إحياء علوم الدين" موضوع ومؤلف للطبقة المثقفة وللنخبة من المتدينين، وهو يتميز بنكهة شخصية جدا وقوة في الاسلوب. وعندما يقرأ الانسان هذا الكتاب يحس ان روجه قد اقترب حقا من الله، ولكن تفسيره للقرآن نادرا ما يكون جديدا وملهما. والسؤال الذي يجب طرحه هو المدى الذي نجح فيه كتاب "إحياء علوم الدين" في حركة "الإحياء". وهذا الكتاب يكشف حقا عن استنتاجات الغزالي بعد ان صرف عمره في تمحيص المقدمات المنطقية والفلسفية، ولكن بما ان هذه المقدمات موجودة بشكل واسع في كتبه السابقة فمن الصعب فهم لماذا يعدّ كتابه "إحياء علوم الدين" أكثر من مجرد سياحة روحية شخصية خاصة.

اما محمد اقبال فيجب تناوله بشكل مختلف طالما ان اعماله تختلف عن اعمال الغزالي. فقد اجاب اقبال على المشاكل الفلسفية باعمال ومؤلفات ذات تقنيات ومصطلحات فلسفية، كما قدم افكاره حول الفلسفة وحول الاسلام في اشعاره وفي اعماله وجهوده السياسية، لذا فان نتاجه ومحصوله ككل يجسد حركة "الإحياء" وهو في فهمه وادراكه للفلسفة الصرفة يتقدم على النورسي ويتجاوزه. ولكن من وجهة الاسلوب هناك مشاكل في اعماله. فهو احيانا يكون غامضا جدا وحيانا بعيدا عن الاسس النظرية (Atheoretical). وكتاباتة الموجهة نحو الطبقات الشعبية اكثرها من الاشعار، وهذه الاشعار لا تصلح كبراهين وحجج حول دور الاسلام في العالم المعاصر.

قدم النورسي افضل نوع من ادب "الإحياء" ولا سيما في مؤلفه "رسائل النور" وليست المسألة في انه ناقش بشكل افضل من الغزالي او من اقبال، ولا انه عبر عن نفسه بلباقة ورشاقة أكثر، ولكن الذي عمله هو انه عبر عن نفسه بوضوح وبطريقة تجمع بين العاطفة وبين العقل، فهو يمزج في نقاشه عند

تناوله المشاكل او المتون الاسلامية بين تصويره الشخصي وبين البراهين غير الشخصية، مما يمكنه من اىصال دعوته ورسالته الى أوسع الجماهير.

لا شك ان احد الاسباب في ظهور مؤلفاته بهذا الشكل يعود الى الظروف الصعبة عند التأليف وصعوبة وصوله الى الكتب والمصادر، والضغط النفسية التي واجهها. وقد كانت لهذه الظروف الصعبة تأثير ايجابي في صقل هذه المؤلفات وتنقيتها وتهديتها من ناحية اسلوبها وصياغتها، أي جعلتها قابلة لتقدم فكرة حركة "الاحياء" بايجاز وبشكل مقنع. كما يوجد في هذه المؤلفات توازن جيد بين المفاهيم الاسلامية التي يمكن شرحها، وبين المفاهيم التي لا يعلم عنها حقيقة سوى الله.

من المهم وجود توازن صحيح، ذلك ان قام احدهم بتقديم كل شئ في الدين وكأن عقولنا قادرة على فهمه، عند ذلك يختفي سر الدين ويزول. وان بالغنا وعزونا ونسبنا كل شئ الى العلم الالهى، عند ذلك لا يبقى سوى النزر اليسير من المعرفة لنا. وحركة "الإحياء" الناجحة هي الحركة التي تقدم المبادئ الدينية المقنعة والقوية بشكل يكون قادرا للوصول الى جماهير المجتمع. ولا يشك أحد في ان النورسي نجح في هذا الأمر.

والشئ المفقود هنا - الى حد ما - هو الايضاح بشكل دقيق السبب في فشل او عدم صحة البراهين المقدمة من قبل من رأهم أعداء للدين. وهذا راجع الى انه لا يكون مناسباً في حركة "الإحياء" تكرار واعادة كل الافكار المعادية بالتفصيل. على العكس من هذا فالضرورة تقتضي وضع هذه الافكار والنظرات المعادية ضمن أطر مجموعات عامة معينة ثم اظهار انها تفشل وتعجز عن ان تكون بديلة للاسلام.

هذا هو الطريق الذي سلكه النورسي في الغالب في شرح وايضاح آرائه وهو شخص في موضع من يقترب ويدنو الى طبيعة الحقيقة وماهيتها بخطوات متسمة بمحيوية الضمير وبدقة القياس. وهو سعید لانه يتبنى هذا الموقف لانه الموقف السائد في القرآن نفسه عندما يأخذ بيد القارئ بشكل تدريجي خلال عملية تفحص وتدقيق الحقائق وكيف كان العالم بهذا الشكل دليلاً وإشارة الى حقيقة اعلى واسمى. ويقوم النورسي باخذ حركة "الإحياء" ورفعها الى قمم عالية جديدة من الوضوح والبلاغة، وهو في الحقيقة من اعلام الفكر الاسلامي البارزين في حركة الاحياء .

ترجمة: اورخان محمد علي

مناجاة فكرية بين حجة الإسلام الإمام الغزالي وخادم القرآن الشيخ النورسي

أ.د. عرفان عبد الحميد فتاح^P

في اللحظات الفاصلة التي هي إنعطافات تاريخية في حياة الامم وتمثل لخطورتها مفترق طريق حاسم في وجودها المادي والمعنوي ، معاً، تبرز الحاجة الوجودية إلى مفكرين يرسخون معالم هوية الأمة العقديّة، وخصوصيتها الثقافية المميزة لها، ويدفعون عنها مخاطر الإنصهار في الأغيار، ويحمون معاقلها من سهام الغزاة الطامحين ، ويكتشفون من جديد السرّ الذي حفظ لها ديمومتها في الوجود ، مخافة ان تفنى وتلحق بالأقوام المندثرة، ممن تقرأ عنهم ولا وجود لهم في الحياة، بل شتات أخبار في ثنايا كتب التاريخ تروي شذرات متفرقات عن وجود عَرَضِي هامشي، كان في قديم الزمان، ثم لم يلبث أن باد وانقرض حتى صار نسبياً منسياً .

وأمثال هؤلاء المفكرين العظام، الذين خُلد التاريخ للأمة ذكراهم، وصاروا يشكلون رواسي شامخات في البنيان المعنوي للأمة، هم – في العادة – طراز متميز من البشر، تقع عليهم مسؤولية بناء مشروع ثقافي للإحياء والتجديد ، يقوم بطبيعته ، كما تفيدنا فلسفة التاريخ ، على مرتكزات ثلاثة، متداخلة ومتضايقة، تشكل في مجموعها: وحدة عضوية لا تقبل الفصل والانفصال ، لانها، وحدة عضوية ، وكل واحد جامع، يأبى بحكم منطقه الداخلي، التجزئة والافتراق . وهذه المرتكزات هي :

اولاً: الاستمرارية، (continuaion): بمعنى وجوب صدور مشروع الاحياء وتواصله الحيّ مع الأصول والمنابت الاصيلة للامة. وهذا التواصل مع ، الانا الثقافية، (The Common Cultural Ego) أمر لن يتحقق لصاحب المشروع إلا من خلال اطلاع موسوعي شامل لتراث الأمة، اطلاع يستوعب كافة الاتجاهات والتيارات الفكرية التي ولدت في

^P من مواليد سنة 1933م في كركوك – العراق. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كمبردج 1965 فأصبح مدرسا ثم استاذاً مساعداً بقسم الفلسفة ، كلية الآداب جامعة بغداد . حصل على ترقية مزدوجة الى مرتبة الأستاذية بجامعة الكويت جامعة بغداد سنة 1976 . وفي سنة 1994 كان استاذاً بقسم الفلسفة بجامعة آل البيت ، الأردن . وحاليا استاذ بقسم اصول الدين والأديان المقارنة بكلية معارف الوحي والتراث في الجامعة الإسلامية بماليزيا .

رحم الأمة الثقافي، وتربت في أحضان فضائها الفكري المميز لها، وإلا: بإجالة فكر وسياحة في ميادين العلوم، على اختلافها، والتعمق في مناحي العلوم التي انتجتها الأمة، منحى بعد منحى، فلا يكاد صاحب المشروع يستقر على منحى فكري، بعينه، لأنه يحمل بين جنبيه روحاً بلغ من اضطرابها: أنها لا تطمئن إلى التخصص في مادة يرتاح إليها، فهو: طالب علم لا يشبع، وناقد لا يرحم، وسائح لا يستقر في مقام¹، ولأنه قد احاط علماً بمجالات فكر الأمة كلها، يختار المؤرخون له في تصنيفه عادة: "أهو فيلسوف أم متكلم أم متصوف أم فقيه"²، فليس هو أحد هؤلاء المفكرين بالمعنى المتعارف، "ما هو بالفيلسوف، إن كانت الفلسفة رؤية فلاسفة لمجال المعرفة والوجود، وليس متكلماً، إن عنى الكلام الاكتفاء باستعمال الجدل الفلسفي للذود عن الدين، وليس هو متصوف، إذا كان التصوف دين الوجدان أو فلسفة فحسب، فالصحيح أنه، في نشاطه الفكري، من حيث هو شخص متعین وملتزم، إن يكون جميع ذلك، تتالياً، وأحياناً تساوقاً، وهذه الممارسة الفكرية ذات الانتماء المتعدد، تؤدي بصاحب مشروع الأحياء، إن يكون ليس هو هذا ولا ذاك، ولا ذلك، بل يتجاوزهم جميعاً³، فيفتح عهداً جديداً لمن خلفه، ويدشن منهاجاً له خاصيته، ونمطاً في الحياة له معالمه.

يدرك صاحب مشروع الأحياء ببصيرته النافذة الناقدة أسباب النجاحات وسرّ الاحباطات، معاً في مسيرة الأمة، وله القدرة الفائقة المقتدرة على: فرز الأصيل والجوهري من الأصول والجزور الذي يشهد لفعل الأمة الناجع في التاريخ، عن الزوائد الدودية التي أفرزتها ظروف التراجع والانحسار عن الفعل المؤثر في التاريخ.

1- يقول الإمام الغزالي عن نفسه: "ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد اناف السّن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، واتوغل في كل مظلمة، وتهجم على كل مشكلة، واتحم كل ورطة، واتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع" [المنقذ من الضلال، مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي - تحقيق ودراسة الدكتور عبد الحلیم محمود - دار الكتب الحديثة، القاهرة - 1385، ص: 70. ويقول في أحياء علوم الدين: فعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ثم يزيد عليه درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، واذ ذلك يمكن ما يدعيه من فساده، حقاً [تهافت الفلاسفة - تحقيق د. سليمان دنيا، القاهرة، 1966، ص: 60] وقارن ما ذكره الأستاذ إحسان قاسم الصالحي عن شغف خادم القرآن واطلاعه على سائر العلوم الإسلامية: "بدیع الزمان النورسي - نظرة عامة عن حياته وأثاره، ط: 2 منقحة ومزيده، دار سوزلر للطباعة والنشر، اسطنبول، 1997، ص: 21 - 24

2- لويس غارديه و ج. فنواي: "فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية" ترجمة: الشيخ الدكتور صبحي الصالح والاب الدكتور فريد جبر (دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، ط2 كانون الثاني (يناير، 1983)، ج 1 ص 190، ويقول فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ المراغي، عن هذه التعددية في الدراسة والتحصيل: [إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة... أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته. يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر. والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها. والغزالي المرثي. والغزالي الصوفي الزاهد، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره. رجل متعطش إلى معرفة كل شيء نهم إلى جميع فروع المعرفة]، نقلًا عن: الدكتور سليمان دنيا: "الحقيقة في نظر الغزالي" دار المعارف - الطبعة الرابعة، ب - ت - ص 9.

3- أبو يعرب المرزوقي: "مفهوم السببية عند الغزالي" (الطبعة الأولى - دار سلامة للطباعة والنشر، تونس، ب. ت. ص: 86)

ومن غير هذه الاحاطة الشمولية، والنظرة الناقدة المحللة، لن يكتب لصاحب المشروع الاحيائي تحقيق ما يريد، ويبغي القيام به من بناء ذاتي للامة، يعيد للهياكل النخرة والشرابين المتصلبة في بناء الأمة الفكري، ماء الحياة، ودماء البقاء والديمومة.

ثانياً : القدرة على التكيف مع العصر وتحدياته (Adaptation)

والتكيف في عرف صاحب الاحياء لايعني : الاستسلام في خضوع، والاستكانة في خنوع لتحديات العصر ومطالبه التي تتفاوت بين حقّ يجب الاعتراف به، وباطل يجب فضحه وردّه والتصدي له. لانه يدرك بثاقب بصيرته، والنور الذي يمشي على هديه، ان الاستسلام للأغيار : مزلق خطير، اوله التمويه والافتراء والبهت والمكابرة، ونهايته: الانسلاخ عن روح الأمة، لا محالة، وتقمص لبوس غيرها قسراً . كما مثلته " المدارس التغريبية في الفكر الإسلامي القديم والحديث ودعاة التغريبية المضللة ⁴ ، بل يعني التكيف : مواجهة التحديات الحضارية، التي غالباً ما تكون أجنبية غريبة عن الأمة في " المبدأ الاخلاقي العام " التي تصدر عنه، وتلهث وراء مقاصده المتغيّبة وراءه، ويخفي اهل الضلالات من أتباعه وراء شعارات كاذبة مموّهة ، قصد الابهام على الجماهير ، انما الاستجابة الواعية للتحديات – في عرف صاحب المشروع الاحيائي – تكون : بهضمها وتمثلها ، ثم إعادة صياغتها ، باخضاع مفرداتها التي تمثل ثقافة غريبة (Heterogenetic Culture) الى ثقافة تلتئم وتتناغم مع روح الأمة ومبدئها الاخلاقي العام (Ethos) والذي به تطرق أبواب التاريخ، فتغدو عبر عملية إعادة

4 - سمى الإسلاميون المعاصرون هذه المحاولات التي استهدفت محق الهوية الذاتية للأمة المسلمة ، بمسميات مختلفة ، فقد سماها جلال أحمد ، المفكر الإيراني المتمرس (ت / 1969) الذي اعتنق الماركسية، وكان من دعاة القومية العلمانية المتطرفة ، ثم عاد الى إسلامه ، بالتسمم الغربي (غه رب زه دكي) (West Intoxication) ، وسماها مفكرون عرب مسلمون " بالتغريب (Westernization) " يعنون: الاختراق الثقافي الغربي للعالم الإسلامي ، وسماها آخرون "بالاستعمار الثقافي او الصليبية الثقافية، انظر بحثنا الموسوم بـ: "إسلامية المعرفة ومنهجية التثاقف الحضاري مع الغرب" مجلة: إسلامية المعرفة – السنة الثانية – العدد الخامس ، صفر 1417 هـ يولييه 1966 م – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ص 10 – 11 . وللتعرف على أعلام التغريبية المعاصرة في الفكر الإسلامي، ومفاصل دعوتهم ، انظر : جدعان (الدكتور فهمي) " أسس التقدم عند مفكري الإسلام " (دار الشروق للنشر والتوزيع عمان – الاردن ، الطبعة الثالثة – 1966) ص 328 – 345 وايضاً : ص 564 ، ولقد افاض واحسن في تصوير محاولات دعاة التغريبية، بلا مزيد عليه : الشيخ جمال الدين الافغاني ، فقال عنهم : علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الاحداث بان المقلدين من كل امة، المنتحلين اطوار غيرها، يكونون فيها منافذ ركوى لتطرق الاعداء اليها، وتكون مداركهم مهابط الوسواس ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما افعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شوماً على أبناء امتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهيون بجميع اعمالهم وان جلت ويكونون " طلائع الجيوش الغالبيين وأرياب الغارات يمهدون لهم السبل ويفتحون الأبواب".
انظر الافغاني : "الاعمال الكاملة مع دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، القاهرة – المؤسسة المصرية العامة، (خاطرات الأصالة والتقليد) ، ص : 192

التركيب هذه : ثقافة أصيلة معتبرة (Orthogenetic Culture)⁵، لخص معالمها المرحوم مالك بن نبي في مآثورتيه : "شروط النهضة" و " ميلاد مجتمع" ⁶ .
 فمن غير الإمام بخصائص عملية التكيف الحضاري، وبالمعنى الذي حددناه، فإن الفكر يبقى – وهو يواجه زخم الغارات الحضارية – جسداً محنطاً ، وينسلخ من عالم الأحياء ليلحق بما يصطلح عليه في علوم الحياة بالمتحجرات (Fossils) . فالتكيف مع التحديات في فهم صاحب المشروع الأحيائي – اذن – يراد به على وجه التحديد: تجاوز ما يشهده في الواقع المعيش من : أخلاق منحطة وفهم صوري شكلي للدين عند المنتسبين زوراً إلى الفقه ، ممن أسماهم الغزالي: "باصحاب الطيلسان وأرباب الهذيان ممن يأكلون الدين بالدنيا"⁷ ورداً لما يراه من : إيمان قشري وإه ، وموج صاخب من الكفر والبدع والخرافات ، وانتشار للآراء الفاسدة، فلا بد عندئذ من شد المأزر ، وخوض معركة الجهاد والدعوة إلى " الأحياء" ، تجاوزاً لكل هذه السلبيات.
 يقول الإمام الغزالي :

(فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميّز عن الأتراب والنظر، بمزيد الفطنة والذكاء – وقد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكليّة ربة الدين ، بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً، وهم بالأخرة هم كافرون . ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلفي ، كتقليد اليهود والنصارى، إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم، وعليه درج أبؤهم وأجدادهم، وغير بحث نظري صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب، والانخداع بالخيبالات المزخرفة كلاً مع السراب ... وانما مصدر كفرهم سماعهم اسماء هائلة: كسقراط وبقرات ، وافلاطون ، وارسطو طاليس ، وأمثالهم⁸ وقارن هذا بما يقوله خادم القرآن النورسي (اعلم ان هناك كلمات رهيبة تفوح منها رائحة الكفر النتنة تخرج من أفواه الناس، وتردّها ألسنة أهل الايمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون "ثم يستطرد قائلاً : "وان قلت من تكون انت حتى تخوض في الميدان أمام هؤلاء المشاهير امثال : ارسطو وافلاطون وتتدخل في الطيران مع الصقور مع انك ذبابة. اقول : لما كان

5 - عن هذه القابلية الموروثة للفكر الإسلامي على هضم وتمثل عناصر الثقافات الاجنبية واعادة صياغتها لتتنم مع المبدأ الأخلاقي العام للإسلام ، انظر :فتحاح (الدكتور عرفان عبد الحميد) : " دراسات في الفكر العربي الإسلامي " (دار عمار – عمان – الاردن – 1421 هـ – 1991 م) فصل : " الخصائص الثقافية للتاريخ العربي – الإسلامي ، ص 22 وما بعدها .

6 - مالك بن نبي " شروط النهضة " ، ترجمة : عيد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي – مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1961 ، وايضاً له : " ميلاد مجتمع " ترجمة عبد الصبور شاهين مكتبة دار العروبة ، الطبعة الاولى ، 1962 .

7 - يشارك ابن حزم الأندلس الإمام الغزالي في التنديد بفقهاء زمانه ، فيقول فيهم : " لا تغالطوا انفسكم ولا يغرتكم الفساق المنتسبون الى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لإهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم " انظر : أنور خالد الزعبي : ظاهرة ابن حزم الأندلسي (دار البشير – عمان – الاردن 1417 هـ – 1966 م) ص : 42 .

8 - الغزالي " تهافت الفلاسفة " ، (سلسلة ذخائر العرب – 15 دار المعارف – 1955) بتحقيق سليمان دنيا ، ص 59 – 60 .

القرآن الكريم أستاذي الأزلي. ومرشدي في طريق الحق، فلا أراني مضطراً للاهتمام بصقورهم، تلامذة هذه الفلسفة الملوثة بالضلالة، والعقل المبتلى بالاوهام، فمهما كنت ادنى منهم إلا ان أستاذهم ادنى بدرجات لاحد لها من أستاذي . بفضل أستاذي الأزلي وبهمته لم تبلى قدمي المادة التي غرقوا فيها⁹ .

ثالثاً : وبعد الاحاطة الشاملة لمناحي فكر الأمة، مشفوعة باستيعاب صورة التحديات الحضارية، ووجوب الاستجابة الواعية لها، يتصدى صاحب المشروع الاحيائي لعملية "إعادة البناء الذاتي لفكر الأمة (Reconstruction) وصياغتها من جديد ، مما سماها المرحوم محمد اقبال بـ "تشكيل جديد للهيئات إسلام" في الاوردية، و "تجديد الفكر الديني في الإسلام" في ترجمته العربية للعنوان الإنجليزي للكتاب "The Reconstruction Of Religios Thought In Islam)" وذلك باسقاط ما لحق بجوهر الدين الإسلامي من صداد وأضاليل ومختلقات افرزتها ظروف القهر والتراجع عن الفعل الناجع في ميدان الثقافة، والانقطاع المأساوي عن الترشيد القرآني السديد، وبذل الجهد المكين لاستعادة " الجوهرة المفقودة " ¹⁰ وصفاتها الأولى والسرّ المكنون فيها الذي حفظ للأمة القدرة على صناعة الحضارة لامجرد تكديس حضارة الغير واستهلاكها ¹¹

والملاحظ على من يتصدى للمشروع الاحيائي ان يمرّ : بانقلاب نفسي جوّاني ، عميق وثيري ، من ملامحه الأولى : الشعور بالقلق، وعدم الراحة ، وغياب الطمأنينة ، والشك في المعارف المتداولة، وهي فترة أشبه " بالليالي المظلمة" التي تسبق قتمهد "للانقلاب النفسي الهائل ، الشامل والعميق (Transmutation Of The Soul)" ، حيث تولد النفس : ولادة معنوية جديدة وتتجاوز حالات القلق والاضطراب والشك المعرفي لتصل إلى عالم: الطمأنينة الجّوانية والصحة المعرفية المصحوبة باليقين ¹² الذي كما

9 - النورسي : الكلمات : ص : 511 .

10 - ردّ الأفغاني أسباب التقهقر والتراجع الى طمس معالم جوهر الدين الإسلامي : " دين قويم الأصول ، محكم القواعد شامل لأنواع الحكم، باعث على الالفة ، داع إلى المحبة، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من ادران الخسائس ، منور لعقل باسراق الحق من مطامع قضاياه ... فان كانت هذه شرعة تلك الأمة ، ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً، وحدث بدع ليست منها في شئ أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ... فتكون هذه الحادثات حجاباً بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها " الأفغاني : المصدر نفسه ، ص: 192 - 195 .

11 - مالك بن نبي : " شروط النهضة " ، ص: 55 ، حيث يقول : ان الذي يكرّس منتجات الحضارة لايصنع حضارة، ان المقياس العام في عملية الحضارة هو " ان الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وانه لمن السخف ان ننشئ حضارة بشراء منتجات حضارة اخرى وتكديسها، فان هذا يقود الى عملية هي ممتنعة كما وكيفا " ولمزيد من الشرح والتفصيل انظر: د. فهمي جدعان - المصدر نفسه ، ص 418 وما بعدها.

12 - عن هذا الانقلاب النفسي الشامل والعميق الذي يمهد لحالة الصحة الكاملة، انظر: فتاح (الدكتور عرفان عبد الحميد) . المصدر السابق، فصل : " الإمام الغزالي : دراسة في المنهج" ، ص 349 وما بعدها. ويقول هنري برجسون [منبعا الدين والاخلاق - الترجمة العربية للدكتور سامي الدروبي ، ومراجعة الدكتور عبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ص 245 - 246] عن هذه الحالة : " حالات الوجد والروى والبهجة حالات غير عادية، وهي حالات عارضة، استباق وتمهيد لحالة الصحو التي تليها ... كل ذلك نفهمه بسهولة اذا فكرنا في الانقلاب العميق المفاجئ الذي يقتضيه الانتقال من السكوني الى الحركي ومن المنغلق الى المفتوح " . وقد استعار الدكتور محمد عزيز الحبابي هذه العبارة وفصل في خصائص هذا الانقلاب النفسي العميق في كتابه " الشخصانية الإسلامية" (دار المعارف بمصر - القاهرة - 1969 م ص 27 - 30 وايضاً :

(LUBA: The Psychology Of Religious Mysticism ,HARCOURT BAAE & COOMPANY 1952)

أشار الغزالي: " ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الخطأ والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الامان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين، فكل علم غيره، فهو علم لا ثقة فيه، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني¹³ ، ومعنى هذا الانقلاب النفسي هو الخروج – كما أشار هنري برجسون من "المنغلق إلى المنفتح" ومن الوقوف عند حدود المعارف الحسية والعقلية الى الجمع بينهما وبين : معرفة ذوقية كشفية، تنبثق من أعماق النفس المطمئنة التي استغرقت بالكلية في الله تعالى، الذي { يجيب المضطر إذا دعاه }¹⁴ وتصبح المعارف آنئذ، تارة معرفة طبيعية آتية من الخارج، تنهمر كالمطر من أعلى ، واخرى معرفة ما فوق الطبيعية تنبع من الداخل وتنبثق من أعماق النفس الموصولة بالله تعالى ، وتتأخي المعرفتان وتتعاقدان ، بلا مدافعة بينهما، وتكون حصيلتهما النهائية¹⁵ { نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء }¹⁶ .

13 - يقول الإمام الغزالي: " فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين، انا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ..ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف. فمن ظن ان الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة (المنقذ من الضلال – ص 126) والكشف هو: " الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الخطأ والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين ... فكل علم غيره، فهو علم لا ثقة فيه، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني "" المصدر السابق " وقد فصل عدد من فلاسفة الدين المحدثين امثال شلاير ماخر (1768 – 1834) ورودولف أتو (1869 – 1937) في خصائص هذه الخبرة الجوانية ، وانها مما لا ينبغي النظر إليها من خلال أحكام خارجة عنها، للتحقق من صحتها، باعتبارها هي : خبرة تقوم بذاتها ولا تحتاج الى دليل غريب عنها من خارجها: (It requires no justification because it is grounded an autonomous moment of experience with its own integrity للاستزادة :

SCHEIRMACHER ,F: ‘ ON RELGION” Tran.John Toman, New York1955

14 - سورة النحل آية : 62 .

15 -- هكذا وصف فرنسيس بيكون لوني المعرفة " الطبيعية وما فوق الطبيعية " فقال :

"The knowledge of man is the waters, some descending from above, and some springing from beneath. The one informed by the light of nature,the other inspired by divine inspiration" انظر "ADVANCEMENT OF LEARNING" BACON, F وهذا القول يذكرنا مباشرة بقول الإمام الغزالي في الاحياء عن المعرفة الانبثاقية من اعماق النفس ، انظر احياء علوم الدين ، 1 / 72 وقد اطلق الإمام الشيخ محمد عبده على لوني المعرفة هاتين " عينان للنفس تنظر بهما، عين تقع على القريب واخرى تمتد الى البعيد" ... والنفس في حاجة الى كلتا هاتين العينين ، اذ هي لا تنتفع باحدهما حتى يتم لها الانتفاع بالآخرى ... والدين الكامل: " علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإدعان ، فكر ووجدان " . وان اقتصر الدين على احد هذين العاملين يسقط احدى قائمته، اما التخالف بين العقل والوجدان فلا يعني (إلشراً) قد أصاب الفرد فتحول الإنسان الى إنسانين والوجود الى وجودين . فليس الإنسان عقلاً يشق علومه من الاحساسات ، او من ذاته، او من حدسه للوجود فحسب ، وانما هو ايضاً فاعلية وجدانية لا تخضع، لعملية البرهان المنطقي المنظم، وجيزاً كان ام مفصلاً ! انظر: د. فهمي جدعان – المصدر نفسه ، ص 204 و 24 .

ولعل هذا يفسر لنا موقف الغزالي والشيخ النورسي من علم الكلام. ذلك ان وجود الله تعالى لا كالموجودات، الذي أراد المتكلمون اخضاعه لعقل يتمنطق، أو لعلم في الكم فلا بد ان يثبت الإيمان بوجود الله عن الوجدان، عن القلب، تلك المضغ ذات المنطق الخاص، والمنهج الخاص ... وغلطة المتكلمين الكبرى تكمن في انهم لم يعرفوا هذا الفرق فأتت مناقشاتهم غير ذي خصب ، وبدون حرارة [انظر: محمد عزيز الحبابي – المصدر نفسه ، ص : 73 – 74 . ومن هذا المنطلق ، وتأسيساً عليه قال الغزالي: فصادفته (علم الكلام) وافياً بمقصوده ، غير وافي بمقصودي [المنقذ من الضلال ، ص 68] ، وقارن هذا بقول خادم القرآن النورسي [بحقاً ان معرفة الله المستنبطة بدلائل (علم الكلام) ليست هي المعرفة الكاملة ، ولا تورث الاطمئنان القلبيوكما تبدو معرفة الله الناشئة من علم الكلام ناقصة وقاصرة [انظر: المكتوبات ص : 306 ، وقارن : احسان قاسم الصالحي : المصدر نفسه ، ص : 199 وما بعدها.

16 - سورة النور : الآية 35 ، وقوله تعالى { ويجعل لكم نوراً تمشون به } سورة الحديد الآية 27

يقول الإمام الغزالي: "فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة... فأما النظر وذوو الاعتبار، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكاناته وإفضائه الى هذا المقصد على الندور، فانه اكثر حالات الانبياء والاولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطنوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا ان محو العلائق الى ذلك الحد كالمعتذر، وان حصل في حال فثباته ابعد منه عند أدنى وسواس وخاطر يشوب القلب"¹⁷ وقارن هذا بقول خادم القرآن النورسي، وهو يصف حالة التوتر والقلق وذهاب الطمأنينة وموجة الحيرة التي كانت تنتابه، مشيراً الى حالتي سعيد القديم والجديد، حيث يقول: "هوت صفعات عنيفة قبل ثلاثين سنة على راس " سعيد القديم الغافل" ففكر في قضية، الموت حق "ووجد نفسه غارقاً في الاوحال... استتجد وبحث عن طريق، وتحرى عن منقذ يأخذ بيده... ان السبل أمامه مختلفة، حار في الأمر وأخذ كتاب "فتوح الغيب" للشيخ عبد القادر الكيلاني، رضي الله عنه، وفتحته متفائلاً، ووجد أمامه العبارة التالية: أنت في دار الحكمة فاطلب طبيباً يداوي قلبك. ياللعجب... ثم أحسست بفترة بأن آلام الجراح قد ولت، وخلفت مكانها لذائذ روحية عجيبة... ان الأنوار المستنقاة من القرآن الكريم اذن: ليست مسائل علمية فحسب، وانما مسائل قلبية، روحية، وأحوال ايمانية، فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة، ومعارف ربانية سامية"¹⁸.

ثم، وبعد تجاوز حالات القلق وعدم الراحة والحيرة والشك والتحقق بالطمأنينة الجوانية والعافية و "عودة النفس الى الصحة والاعتدال" بورود النفث الالهي على القلب المستغرق بالكلية في عظمة الخالق تعالى وجلاله وكماله، يعود صاحب المشروع الاحيائي الى ساحة النضال وميدان الجهاد، وقد اصبح إنساناً حركياً من الطراز المختار، فيعمد الى نقل مشروعه من دائرة التجربة الذاتية والتأمل النظري الى نسق حياتي معيش، أي تتحول المعرفة الى حياة، وقد أيقن كل من الغزالي والنورسي من ذلك في صميمه، أي: وجوب تحول المعرفة الى نمط حياة معيشة تنسم بقدر فائق من الفاعلية، مع الحذر الشديد من الوقوع في " حياة التواكل والطرقية والاعتقاد بتفاهة الدنيا وبلا واقعية الحياة وبالتالي الزهد في العالم"¹⁹.

لقد علمتنا تجارب الحياة مع اصحاب الفكر السامية، ان ليس ناجعاً ان تبقى الافكار معلقة في الهواء مقطوعة الصلة بالواقع، طافية على السطح كالزبد الذي لانفع فيه، بل المهم في المنظومة المعرفية - وقد تحقق صاحبها من صدقها بالتجربة والمعاناة الذاتية - أن تتحول الى منهج في الحياة، ومفاهيم تتكرس في الواقع لتحديث التغيير المرتجى والغاية المقصودة منها، فتتماهى المفاهيم مع الواقع المراد تغييره، فلا خير في الافكار اذا هي لم تجمع الناس حولها، وتتجسد في أنماط سلوكهم في

17 - الغزالي: احياء علوم الدين " باب الفرق بين الالهام والتعلم " 17 / 3 .

18 - النورسي، المكتوبات، ص 2 : 330

19 - من الجدير بالملاحظة ان الغزالي ومن بعده النورسي، رغم السمة الصوفية الطاغية على كتاباتهما لم يؤسسوا طريقة صوفية تنتسب اليهما، فكأنما ارادوا - كما رأينا - مجرد نقل المعرفة الى نمط حياة معيشة، تنسم بالفاعلية، كما تعكسها الانماط السلوكية للاخوة النوريين: " لان العصر عصر انفاذ الايمان، وليس عصر تصوف وطريقة"، نقلاً عن احسان قاسم الصالحي - المصدر نفسه ص: 202

الحياة الواقعية، والأ تحولت الأفكار الى معرفة نخبوية متعالية وعبث باطل ولعبة صبيان، قد تستهوي شردمة قليلة من البشر ولكنها لن تتحول الى نشاط جماهيري، ما دامت الجماهير – في فهم صاحب المشروع الاحيائي – هي أداة التغيير وغايته، قال تعالى { ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم }²⁰ ، فالخطاب الى القوم أجمعين وليس الى قلة نخبوية لا أثر لها على مجريات الحياة : وكل منظومة معرفية، مهما تهيأت لها من أسباب الذبوع والإنتشار المصطنعة ، ان هي قطعت صلتها بالواقع، او تقاطعت مع الوعي الجمعي للأمة، ولم تصدر عن مرجعية قرآنية صافية نقية، فهي بناء من غير أساس مكين ، يسقط مع أول إعصار يصيبها . ولعل فيما سمّي "بالفلسفة الإسلامية" التي كانت فلسفة إسلامية، تأريخاً فحسب ولم تصبح إسلامية: اصلاً ونظراً وحلولاً ومشكلات، ما ينبغي الاسترشاد به، فقد نبذتها الجماهير بعفويتها وفطرتها الإسلامية، رغم مرور قرون على الدعوة إليها ، والتبشير بها، لأنها كانت صدى لفضاء فكري لايمت إلى الإسلام بصلة عضوية وتجانس روحي ، حتى قيل ويقال : "انه [أي الغزالي] طعن الفلسفة [في الإسلام] طعنة لم تقم لها بعد في الشرق قائمة"²¹ مما يؤيد ما ذهبنا إليه، من انها لو كانت فلسفة إسلامية أصلاً ونظراً ، لا تأريخاً فحسب ، او كانت تصدر عن المرجعية القرآنية وتتناغم مع المخزون النفسي والوعي الجمعي للأمة، لم تكن لتهدى بالشكل المروّع والنهائي .

وهكذا كان الموقف والحال مع خادم القرآن يوم تصدى بروح جهادية ، ونقد واع وعميق، واعتماد على حجج فطرية واستمداد من " أستاذية القرآن المطلقة " ، وبعد ان فحص سعيد الجديد افكاره، ونفض عنها " ادران الفلسفة المزخرفة ، ولوثات الحضارة السفيهية ، والفلسفة المادية المعادية للدين "²² ، فهو، هو الآخر متابعاً خطى الإمام الغزالي : بمطرفة النقد على دعاوى الماديين والطبيعيين المحدثين ، أخلاف من سماهم الغزالي : بالدهرية والزنادقة، وقال عن مذاهبهم، الصنف الأول [من أصناف الفلاسفة] الدهريون : وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبّر، العالم القادر، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً، كذلك بنفسه، وبلا صانع ، ولم يزل

20 - سورة الأنفال ، الآية : 52 ، وسورة الرعد، الآية : 11 ، والتغيير المقصود في فهمي – والله اعلم – التحول النفسي ، باعتباره الشرط الأول للقيام باحداث التغيير المراد.

21 - انظر كتابنا : الفلسفة في الإسلام، دراسة ونقد، ط 2 ، مؤسسة الرسالة – عمان الاردن – 1404 هـ / 1984 م ص 67 وما بعدها ، يقول الشهيد سيد قطب : " الفلسفة اليونانية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من الوثنية ومن هذه الاساطير ولم تخل من العناصر الوثنية والاسطورية قط ، فكان من السذاجة والعبث محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس التوحيد المطلق العميق التجريد [خصائص التصور الإسلامي ومقوماته – دار إحياء الكتب العربية ، 1962] ص 21 . وايضا : الدكتور محمد ثابت الفندي : " هذه الفلسفة صارت لا تعبر عن فلسفة إسلامية حقة ... ذلك لأن المسائل والحلول فيها كانت اقرب إلى الوثنية اليونانية [الغزالي فيلسوف ديني – مقالة ضمن كتاب : مهرجان الغزالي في دمشق، الذكرى المئوية التاسعة لميلاده] ص 85 . وهكذا فان الفلاسفة في الإسلام – " جذبوا الدين الى الفلسفة [المشوبة بالوثنية] ولم يجذبوا الفلسفة الى الدين ، فاتخذوا الفلسفة اصلاً وحوروا في قضايا الدين حتى تلتئم معها " سليمان دنيا ، المصدر نفسه ، ص 35 .

وهذا ما اكده الدكتور محمد يوسف موسى ، ايضاً "ان الفلاسفة الاسلاميين لم يستوحوا القرآن في تكوين مذاهبهم وبنائها " انظر: القرآن والفلسفة (دار المعارف – مصر – القاهرة ، 1958) ص 11 / 153 .

22 - النورسي المدخل الى النور ، ص : 5

الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان ، وكذلك يكون ابدأ ، وهؤلاء هم الزنادقة، والصنف الثاني : الطبيعيون ، فذهبوا الى ان النفس تموت ولا تعود ، فجددوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنحلّ عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الانعام ، وهؤلاء ايضاً زنادقة ، لأن اصل الايمان : هو الايمان الله واليوم الآخر ، وهؤلاء جددوا اليوم الآخر" ²³ .

وهكذا كان الحال مع "دعاة التغريبية الحديثة" ممن أرادوا ، غصباً وقسراً ، فرض سلطة الآخر على الفكر الإسلامي الحديث ، ولم يعتبروا باسلاف لهم ماجنوا من سعيهم إلا الخسران وفاتهم لشدة افتتانهم بسلطان الغير عليهم أن يتحققوا من أن " لكل حضارة نواتها التي تتمحور وتتمفصل حولها المبادئ والقواعد التي يبنى عليها الانتاج الفكري لدى حامل لواء تلك الحضارة" ²⁴ وتناسوا وسط موجة الاستغواء الغربي التي جرفتهم بعيداً عن الأمة وعقيدتها، ان المفاهيم الغربية التي ارادوا اخضاع الفكر الإسلامي لها، مما لا يمكن تجريدها عن تاريخها، مفصولة عن سياقها، كنماذج صقلتها حضارة معينة لها روحها الكلية" ²⁵ المهيمنة على مسيرتها، المحددة لمقاصدها الغائية ، فظنوا – عابثين مكابرين – انه لا يمكن لنا التفكير في موضوعات ومشكلات مرتبطة بالعالم الإسلامي إلا من خلال الحقل المفاهيمي الذي تنتمي إليه فلسفة الغرب وحضارته. حتى وجدنا فيهم من يزعم باطلاً بأن : علينا [معاشر المسلمين] ان نسير سيرة الاوروبيين ، ونسلك طريقهم ، ولنكن لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرّها ، وما يحبُّ منها وما يكره ، وما يحمّد منها وما يعاب ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع" ²⁶ ، ومن بلغ البهت والمكابرة به حد القول : " كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراض من الأدب ، كما أزاوله ، فهي تتلخص في انه يجب علينا ان نخرج من آسيا وان تلتحق بأوروبا ، فاني كلما زادت معرفتي بالشرق ازدادت كراهيتي له وشعوري بانه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بانها مني وانا منها" ²⁷ فلنكن بمقتضى منطق دعاة التغريبية : " شركاء الاوروبيين في تراثهم العقلي على اختلاف ألوانه واشكاله ، وفي تراثهم الديني على اختلاف مذاهبه ونحله ، وفي تراثهم المادي على اختلاف ضروبه وأنحائه " ²⁸ .

هكذا فات الاولين وغفل المحدثون عن إدراك مواضع الخلاف الجوهرية بين حضارة الإسلام التي قامت على أساس عقيدة التوحيد الخالص وبين حضارة غربية

23 - الغزالي المنقذ من الضلال ، ص : 87

24 - انظر بحث الأستاذ عبد الحميد بويو : " فلسفة إسلامية – باي معنى – " ضمن كتاب : ابحاث ندوة : نحو فلسفة إسلامية معاصرة ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1401 هـ – 1981 م ، الطبعة الاولى ، ص 477 ، وما بعدها

25 - المصدر السابق.

26 - طه حسين : " المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين " (دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان ، المجلد التاسع / 25 .

27 - سلامة موسى : " اليوم والغد " (القاهرة – المطبعة العصرية ، 1928) ، ص 7 .

28 - طه حسين " مستقبل الثقافة في مصر " (القاهرة – مطبعة المعارف ، 1944) ، ص 21 .

حديثاً تترد في مناقشتها واصولها الأولى المنشئة لها الى حضارة يونانية رومانية غارقة في المادية والنفعية والأخلاق الوضعية²⁹. والحق ان الغربيين كانوا أوعى إدراكاً لمواضع الخلاف هذه من دعاة التغريبية الكاملة فينا فلا نكاد نحظى بواحد منهم، على مرّ العصور من قال بوجود خضوع حضارة الغرب لمنطق الإسلام وحقله المفاهيمي المميز له ، او ان الغرب لا يمكنه ان يتنفس إلا من خلال رئة الإسلام. ويوم شعر دعاة التغريبية بالخذلان وسوء المنقلب، وابتعادهم عن الشروط الثقافية الموضوعية المباشرة للفكر الإسلامي ، وانهم جنحوا نحو شروط ثقافية غير مباشرة وغير موضوعية: وانهم يطاولون المستحيل عادوا عن الذي بشروا به واقتربوا بشكل قوي وواضح من مفهوم الاصاله الإسلامية ، وكان على رأس هؤلاء المرتدين إسماعيل مظهر ، ومنصور فهمي ، وحسين هيكل ، وطه حسين ، واخيراً وليس آخراً : زكي نجيب محمود وعبدالرحمن بدوي وحسن حنفي . أمّا اولئك الذين هداهم الله ابتداءً ، ورزقهم حسن الادراك أمثال إمامنا حجة الإسلام الغزالي قديماً وشيخنا خادم القرآن سعيد النورسي والمرحوم محمد عاكف ومحمد إقبال ، فقد ادركوا بثاقب بصيرتهم { والنور الذي أنزل }³⁰ مواضع الخلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ، القديمة والحديثة ، وتحققوا من خطر التلفيقات التوليفية بينهما ، وانتبهوا الى خصائص وروح حضارتهم الإسلامية فناصروها وأبانوا عنها ، ورفضوا الخضوع لفضاء فكري غريب عنها ، فحق ان يكونوا من الخالدين في ذاكرة الأمة المسلمة ، { وحسن اولئك رفيقاً }³¹.

وبعد ، فلقد اخترنا قضية فلسفية معقدة ، تباينت الأقوال حولها، حدّ التناقض، في القديم والحاضر، وشغلت أفهام الفلاسفة وعلماء الأديان والعلم الطبيعي على مدى الفين وخمسائة سنة ، ودونت فيها وحولها ألوف المدونات والرسائل ، لتكون عيّنة تجسّد وتشخص موقف العملاقين منها ، صدوراً منهما عن المنطلقات التي أسلفنا الحديث عنها ، ادراكاً منا ان سعيهم عكس موقفاً إسلامياً خالصاً ، صادراً بصدق عن أستاذية القرآن الكريم .

والقضية الفلسفية التي سنتاولها بالتدقيق والتمحيص هي : قضية العليّة المادية الطبيعي، التي تصديا لها بعقلية جهادية لا تعرف المواردية والأستسلام للباطل ، فكانا في اجتهادي : الصاحيان الوحيدان بين هذيان كثيرين من المتحدلقين ، ممن فاتهم ادراك الدلالات الشنيعة للقول بالعليّة الطبيعية المادية ، كما صورّها دعائها من الملاحدة والزنادقة.

ولنبدء بمقولة خادم القرآن أولاً : " ايها الإنسان : إعلم ان هناك كلمات رهيبه تفوح منها رائحة الكفر النتنة، تخرج من افواه الناس ، وتردّها ألسنة أهل الايمان ، دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون ، وسنبين ثلاثاً منها هي الغاية في الخطورة .

29 - فتاح (الدكتور عرفان عبد الحميد) : دراسات في الفكر العربي الإسلامي : ص 17 .

30 - الأعراف آية : 157 .

31 - النساء 4 / 66 .

أولاًها : قولهم عن الشيء " أوجدته الأسباب " أي ان الأسباب (الطبيعية) هي التي توجد الشيء بعينه . **ثانيهما :** قولهم عن الشيء "تشكل بنفسه" أي ان الشيء كما هي ، **وثالثها :** قولهم عن الشيء "اقتضته الطبيعية" أي ان الشيء طبيعي ، والطبيعة هي التي أوجدته ... ان الذي مكن آلاف الآلهة من عقول اليونانيين في القديم ، وأولد الأصنام ، هو مستنقع الفلسفة الطبيعية ووحلها .. نعم ان الذي لا يرى نور الله بسبب من الأسباب الطبيعية ، فانه يمنح [عندئذ] لكل شيء ألوهيته " ³² . وليس مستغرباً ان يذكر الشيخ النورسي أسم الغزالي ³³ بعد هذه الانتقادات التي وجهها للفلسفة المادية والطبيعية ، فهما معاً ، يصدران عن عين اليقين الواحدة ، التي لا تغشاها الفتنة العارضة ، لأنها تنظر بعين الله تعالى . مصداقاً لقول الحبيب المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه : (وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطيته) ³⁴ .

من هذا المنطلق الذي يرتبط فيه القول بالعلية المادية بالاحاد ، تصدى الإمام الغزالي للقضية بمنهج فلسفي رصين ، يتجاوز في مراميه مجرد القول بالعلية المادية ، كما يتصور بعض الباحثين ، الى محاولة مبتكرة ، متفردة في ابعادها استهدفت : " تحرير وضع العقل الإسلامي من وضع العقل اليوناني ومسلماته " ³⁵ ، وهو عقل كما نعرف لم يخبر النبوة والوحي والكتاب ، وما استضاء الا بنور العقل الانساني ، وأصر – لانقطاعه عن نور النبوة – انه قادر على البحث فيما وراء الطبيعة قدرته على البحث في عالم الطبيعة .

فجاء ردّ الغزالي للعلية المادية في صورة نقد فلسفي عميق للعقل اليوناني المسترشد بذاته ، ليبدد أوهام التفهيمات التوليفية الخرقاء ، التي حاولها عبثاً الفلاسفة في الإسلام ، وجهداً رصيناً متقناً لاسترجاع الهوية الذاتية للعقل الإسلامي الصادر عن مشكاة النبوة ، ومن ثم تحريره من سلطة الخضوع " للعقل الكلي ، الكوني ، ذي المدى الوجودي والمعرفي ، المطلق ، عند اليونان . ³⁶ وليبيان صورة الاشكالية التي نحن بصدد دراستها لا بد من التمهيد لها ، بملاحظات مستقاة من تاريخ الفكر الفلسفي عند اليونان ، توضيحاً لما نريد بيانه وتبسيط القول فيه .

1 - لقد درس الإمام الغزالي علوم الفلسفة في الإسلام ، بمنهجية علمية ، وحيدة موضوعية ، بلغت الذرا من التحقيق والتدقيق والتمييز ³⁷ ، فميز بين علوم الفلاسفة

32 - النورسي : كتاب المعاني : المعة الثالثة والعشرون – رسالة الطبيعة .

33 - النورسي : الكلمات ، ص 511 .

34 - صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب التواضع ، 2 / 340 – رقم الحديث 6502 (فتح الباري –

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – طبعة : دار الأفتاء بالرياض ، ت . ت . " .

35 - أبو يعرب المرزوقي : المصدر نفسه ، ص 5 وما بعدها .

36 - المصدر السابق .

37 - يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم بيومي مذكور ، عن كتاب " تهافت الفلاسفة " الذي ضمنه الغزالي هجومه الهادم للفلسفة والذي يعتبر أشهر كتبه واطرها هو : " دون نزاع من أهم الكتب الفلسفية في القرون الوسطى ، كتبه في سن النضج ، فجاء عميقاً دقيقاً ، يؤذن بتمكن تام وسيطرة شاملة ، فيه مادة غزيرة ، واعتراضات محكمة ، ولمس لصميم المشكلات ، ونقد حاد ، جمع مشكلات الفلسفة الدينية ، إسلامية كانت أو مسيحية ،

المنطقية والرياضية وبين علومهم الطبيعية والالهية وقال ، أما "الرياضية" فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شئ منها بالأمر الدينية ، نفيًا واثباتًا ، بل هي أمور برهانية لا سبيل الى مجادتها ، بعد فهمها ومعرفتها ... وأما " المنطقيات " فلا يتعلق شئ منها بالدين نفيًا وإثباتًا ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحدّ الصحيح وكيفية ترتيبها . وان العلم اّمّا تصوّر ، وسبيل معرفته الحدّ ، واما تصديق ، وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي ان ينكر وأما " الطبيعيات " فالحق فيها مشوب بالباطل ، والصحيح فيها مشتبّه بالخطأ [وقد أوضح الغزالي في " التهافت " ما ينبغي ان يعتقد بطلانه] . واما " الالهيات " ففيها أكثر اغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين ، على ما شرطوا في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ³⁸

ولخصها في عشرين مسألة، ثم ناقشها الواحدة تلو الأخرى. وهذا لا شك منهج جديد في العرض والتأليف، وفي جمعه بحث وهظم، وفطنة واختيار، وفي مناقشته أصالة وابتكار " [مقالته : الغزالي الفيلسوف ، ضمن كتاب : مهرجان الغزالي في دمشق – الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، ص ، 215] ، ويقول المستشرق الفرنسي كارا دي فو الذي أرخ للغزالي ضمن موسوعته المعروفة : " مفكرو الإسلام " : "تهافت الفلاسفة هو الكتاب الذي جمع فيه إمامنا انتقاداته ورتبها وأوضحها ، وطريقة هذا الكتاب ممتازة جداً، فلم يهاجم المذهب المحارب جملة وعموماً ، ولم يذلل الغزالي لاعتراضات مبهمه، تعسفية جائزة متناقضة لا ارتباط بينها ولم يجادل الغزالي فيها على طريقة المحامي ، وذلك كما يصنع في إيماننا التي هبط فيها النقاش وانحط ، وانما سار على غرار أب لمجمع ديني ، او رئيس لمنظمة ثقافية " [الغزالي – ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1959] ص 60 .

38 - المنقذ من الضلال ، ص 87 ، وقارن : " مقاصد الفلاسفة " [سلسلة ذخائر العرب دار المعارف – القاهرة – 1961 بتحقيق الدكتور سليمان دنيا – المقدمة ، ص 11] . ومن هذا المنطلق العلمي والمنهج الرصين في التأليف بروح موضوعية تامة، أنكر الغزالي ، كما سيفعل النورسي ، ردّ العلوم الرياضية والمنطقية بدعوى إنها نتاج أجنبي فحسب ، فيقول : " والعقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فان كان حقاً قبله سواء أكان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل اهل الضلال، عالماً بان معدن الذهب الرغام .. فإذا كان الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي ان يهجر او ان ينكر .. فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا الى ان نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا ان نهجر كثيراً من الحق، وأقل درجات العالم ان يتميز عن العامي الغمر ، فلا يعاف العسل وان وجد في محجمة الحجام، ويتحقق ان المحجمة لا تغير ذات العسل [المنقذ من الضلال ، ص 109 – 110 ، وقارن : النورسي ، اذ يقول : " ان الضربة التي اهوت بها هذه الرسالة على الفلسفة هي الفلسفة المضرة للبشرية والتي تعادي الدين ، وليس القسم منها الذي يقف موقف الصداقة منه ، والذي ينفع البشرية " " المدخل الى النور " ص 5 . ويلتقي النورسي مع الغزالي أيضاً في ردّ اصل الفلسفة والحكمة الى نور النبوات ، توكيداً لقول الإمام الغزالي في " القسطاس المستقيم – ص 30 " حيث يقول: ان علماء الأمم المتقدمين عل بعثة سيدنا محمد وسيدنا عيسى عليهما السلام ، تعلموها من الكتب المنزلة ، وهي صحف سيدنا ابراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام، وانظر أيضاً: المنقذ من الضلال، حيث يكرر الغزالي القول نفسه. وأول من أشار الى عدم قدرة الفلاسفة (اليونان) على الوفاء بالبراهين ، على ما شرطوا في المنطق والرياضيات ، ولهذا جاء الغلط والخلط بين العلوم الرياضية والالهية، وما لزم عنه من اغاليط هو جالينوس في كتابه المفقود " البرهان – (DE DEMONSTRATION) والذي حفظت الترجمات العربية شذرات منه، فقد ذكر جالينوس ان حجج الفلاسفة في الالهيات مبنية على خبرة مبتورة (Imperfect Experience) ، خلافاً للعلم الرياضي، ومن ثمّ فإنها لن تصل إلا الى قدر من الاحتمال certain degree of probability، ولهذا فان أكثر المسائل التي اثاروها في العلم الالهي لم ينتهوا فيها الى حلول نهائية وحاسمة" نقلاً عن الملاحظات النقدية لسايمون فان دنبرغ، انظر (VAN DEN BERGHS; Tahfut al-tahafut, Eng. Trans, Oxford University) ومن هنا صرح الغزالي بالقول : " ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين ، نقيّة عن التخمين، كعلومهم الحسابية ، لما اختلفوا فيها ، كما لم يختلفوا في الحسابيات " انظر " تهافت الفلاسفة المقدمة الأولى – الاصل الثاني ، وهكذا وخلافاً لما يعتقدونه الكثيرون فان الغزالي لم يغض من قدرة العقل مطلقاً، ولم يسمه بالنقص بازاء المسائل ، بل بالنسبة لمسائل ما وراء الطبيعة فقط، فاستضعف العقل ، بازاء هذه المشاكل ، وقرر عدم طاقته للاستقلال بها ، وانظر : سليمان دنيا المصدر نفسه ، ص 37 .

ومعنى هذا كله ، أن العلوم الرياضية والمنطقية ، علوم صورية ، تحكّمها أحكام العقل الضرورية ، وهي البديهيات الواضحة لذاتها ، كمبدأ عدم التناقض ومبدأ الذاتية ، وان الكل أكبر من الجزء ، في حين أن مباحث الألهيات ، مما لا يمكن إخضاعها لأحكام العقل الطبيعي ، لأن من شأن ذلك ، ان يجعل الالهوية خاضعة لأحكامها ، مما يسوق – لا محالة – الى سلب الارادة الحرّة عن الله تعالى ، الفعّال المرید المختار ، ولهذا أكد الإمام الغزالي بان ما يشهد في الطبيعة من " تلازم الأسباب والمسببات ليست علاقة ضرورية ، بل ان هذا (التلازم) مستفاد من التجربة ، فالاقتران اذن حكم العادة لا حكم العقل بضرورته . يقول الإمام مفسراً وموضحاً : " الاقتران بينما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا . بل كل شيئين ليس هذا ذلك ، ولا ذلك هذا [مبدأ الذاتية] ولا إثبات احدهما متضمناً لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر [مبدأ عدم التناقض] ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب والشبع والاكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس والموت وجزّ الرقبة والشفاء وشرب الدواء واسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرأ الى كل المشاهدات من المقترنات

39

2 - ان المستفاد من قراءة تاريخ الفكر الفلسفي عند اليونان ان القول بالعلية المادية الطبيعية ابتدئها – باده ذي بدء – فلاسفة المذهب الذري امثال لوقريطس (505 ق.م) وديموقريطس (420 ق.م) وأنباروقليس (435 ق.م) وأبيقورس : ممن ذهبوا الى القول : (أ) بأن العالم عبارة عن أجسام مادية ، تتألف من ذرات مادية ، أزلية أبدية ، غير مخلوقة ولا نهاية لعددها ، ولا تصير الى فناء فلا شئ يأتي من لا شئ ، ولا يفنى شئ الى لا شئ ، تتحرك في خلاء لا نهائي حركة آلية ، وحركتها هي الاخرى أزلية قديمة من ذاتها ، وحركتها (ب) لا تخضع لنظام ، لانتقوت فيه ، بل للصدفة أو الضرورة العمياء " (Blind Necessiry)"⁴⁰ .

وشبيه بهذا الموقف الإمام ابن تيمية ، القائل " اما العلم الالهي فليس عندهم ما تحصل به النجاة والسعادة ، بل وغالبا ما عندهم ليس بمتيقن معلوم ... وانما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق فليس معهم فيها الا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا انظر : فتاوى شيخ الامام احمد بن تيمية – الرباط 39 -تهافت الفلاسفة، يقول الغزالي عن الاحتراق : بل نقول فاعل الاحتراق هو الله ، أما النار ، وهي جماد فلا فعل لها . فما الدليل على انها الفاعل ، وليس له (أي للقائل بالعلية الطبيعية) دليل إلا دليل مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده [الاقتران الزماني] ، ولا تدل على الحصول به [العلية الطبيعية] ، انظر تهافت الفلاسفة ، ص 279 .

وهذا ما قرره وكرره باللفظ ديفيد هيوم (1711 – 1776) في الفلسفة الغربية الحديثة ، فجعل العلية مجرد اقتران في الوقوع بين حدثين في الزمان ، فحسب : (customary sequence of one object followed by another) انظر : الفصل الخامس " بالسببية " في مقدمة : " الكتب الكبرى للعالم الغربي " (The Great Books Of The Western World, THE SYNTOPIEAN, I.P.127) وكذا

HUME, DAVID: An Inquiry Concerning , Human understanding The Great Books Of The) (Western, No33, pp482-3

40 - فصل القول في مذاهب الذريين وقولهم بقدم المادة وحركتها وبالصدفة ونفي النظام في العالم: المستشرق هاري ولفسون في كتابه المتميز ، دراسة وتحليلاً : " فلسفة علم الكلام، انظر : (WOLFSON, H.A.: THE PHILOSOPHY OF THE KELAM, HARVARD UNV. PRESS, 1976 P465-7

3 - وقد تصدى ارسطو (ت 322 ق.م) لهذه النظرية الاحادية ولازمها القول بالصدفة ، فأكد بأن " العالم قديم في الزمان حادث بالذات " ، وفسر الحدوث بمعنى : انه لا يتصور عقلاً وجود العالم من نفسه ، بل هو موجود بغيره ، الذي أسماه بالمحرك الأول الذي لا يتحرك أو العلة القصوى النهائية لوجود العالم ، ومن اجل تبرير هذه النظرية والقول بالخالق وبالنظام في العالم قال بأن المادة الاولية القديمة غير المخلوقة " الهبولا " - التي هي الشرط الأولي والمنطقي لوجود الأشياء - تنطوي في ذاتها على مبدأ حركتها : بمعنى : أن كل موجود : يتحرك بفعل " قوة طبيعية ذاتية فيها " من الإمكان الوجودي (Potentiality) الى الوجود الحقيقي (Actualization) . لان الطبيعة ترمي الى تحقيق ذاتها بهذا الاجتماع بين الهبولا والصو وبالانتقال من وجود بالقوة الى وجود بالذات . وقد ساقه هذا كله الى افتراض عقل ما بعدي كلي مطلق ذي مدى وجودي ومعرفي ، أساسه القول بالضرورة العقلية ، التي يخضع لها حتى المحرك الأول الذي لا يتحرك ، أي الله تعالى الذي يخضع لهذه الضرورة العقلية - الطبيعية ، ولا يمكن له تعالى تجاوزها ⁴¹ .

وقد اعد صياغة هذه النظرية الارسطية الفلاسفة في الإسلام : وتابعوه فيما قال ، ومن هنا اطلاق اسم " المشائين " عليهم : للدلالة على صدورهم عن فلسفته ، وذهبوا معه الى القول بالعلية الطبيعية بزعم ان من رفع الأسباب فقد رفع إمكان العلم ، فيقول ابن رشد على لسانهم " وبالجملة متى رفعنا الأسباب والمسببات لم يكن ههنا شئ يرد به على القائلين بالاتفاق ، اعنى الذين يقولون لا صانع ههنا وانما جميع ما حدث في العالم إنما هو عن الأسباب المادية ، لأن احد الجائزين له أحق ان يقع على الاتفاق منه ان يقع على فعل مختار " ⁴² ، وانّ نفي السببية مناقض لطبيعة العقل الإنساني بل هو نفي للعقل والعلم معاً ذلك أن : " العقل ليس هو شئ أكثر من ادراكه الموجودات باسبابها وبه يفترق (العقل) عن سائر القوى المدركة ، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل " ⁴³ .

3 - لقد أساء كثير من الباحثين نفي الغزالي للعلية ومبدأ السببية ، وحملوا أقواله على انها كما أفاد ابن رشد تعني : نفي النظام في العالم ، في حين ان الغزالي : " لم ينفأبدأ النظام في العالم ، بل هو لاينفي إلا نسبة الضرورة لهذا النظام الذي هو وليد أفعال ثلاثة من أفعال الإرادة الإلهية : الحكم والقضاء والقدر ⁴⁴ أي الانتقال من عالم مبدؤه ومثاله العقل الى عالم المبدأ والمثال فيه الارادة الالهية التي تسامى على التقيد . وكيف نتصور من الغزالي نفي النظام وهو المتدبر لأيات الله تعالى في كتابه المبين التي ربطت بين مسالتين متضائفتين ، سوية بلا فصل ، أعني : الاقرار ان الطبيعة من صنع الله وخلقها ، وانها مطبوعة على سنن لا تفاوت فيها ، وان هذه السنن (

41 - هاري ولسون المصدر نفسه .

42 - ابن رشد مناهج الأدلة ، تحقيق الدكتور : محمود قاسم - الطبعة الانجلو مصرية - ، الطبعة الثانية 1964 / س 203

43 - ابن رشد تهافت التهافت (بتحقيق الأب بويج ، بيروت ، 1930) . ص 520

44 - أبو يعرب المرزوقي : المصدر نفسه ، ص 114

الأسباب الطبيعية) هي الأخرى من خلق الله تعالى، البارئ المصور الخالق للكون الذي ركب فيه السنن والقوانين، وطبعه عليها، في اطراد لا تفاوت فيه، فليست المسألة في نظر الغزالي قضية اثبات العلية المادية أو نفيها، والتي أسماها " مجاري العادات " وإنما الذي اراد هو الانتقال من القول : ان السببية المادية – التي جعلها الفلاسفة في الإسلام ، ومن تابعهم في عصرنا الحاضر – من لوازم ذات الطبيعة ، إلى تأكيد القول بأن الله تعالى، الخالق المبدع ، قد فطر الطبيعة على هذه السنن ، وقدرها ، فلا شدوذ ولا انحراف ، وذلك بمقتضى الحكمة في الخلق التي تتنافى مع العبثية والتفاوت والاضطراب ، ذلك ان من يجعل الأسباب الطبيعية من لوازم الطبيعة ذاتها ينتهي لزاماً الى الإقرار بأن الطبيعة المادية وحدة طبيعية كاملة ، تفسر ذاتها بنفسها، - كما تصورهما ارسطو وتابعوه - وهذا هو الانتكاس في قاع المادية الخالصة، والارتكاس على أم الرأس في الاحاد ، لا ريب .

ان الغزالي وخادم القرآن النورسي ، وتأسيساً على تدبير موضوعي وشامل لكتاب الله الخالد، انما أرادا تنبيه العقل المؤمن ، المسترشد بضوء النبوة ، على وجوب الجمع بين : مقتضى توحيد الربوبية ومقتضى الحكمة في الخلق ، وهو الجمع الذي اكدته الآيات القرآنية ، في أكثر من مناسبة : فقال تعالى { قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة [أي دائماً أبداً مطرداً وذلك خرقاً للضرورة الطبيعية] من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه [وهذا اثبات للسنة المطردة التي فطر الله تعالى عليها الطبيعة] أفلا تبصرون }⁴⁵ ، وقوله تعالى : { ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً }⁴⁶ وقوله تعالى : { أفرايتم الماء الذي تشربون ، ءأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرايتم النار التي توروون ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون }⁴⁷ .

ان العوامل الطبيعية – كما ارشدنا الكتاب العزيز – واثار العملاقان : لا تجري على ما هي عليه ، لزاماً بحكم العقل ، أو بحكم التفكير المنطقي ، بل كان يجوز ان يجري على مجراها هذا ، أو على مجرى آخر يساويه ويماتله في حكم العقل والأقيسة المنطقية . وإنما هي الارادة [الالهية الحرّة والمطلقة] التي اوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التي يريدّها الله أغرب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون ، ومرجعها جميعاً الى الارادة الالهية على إطراد: { صنع الله الذي اتقن كل شئ }⁴⁸ . { ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور }⁴⁹ . { وكل شئ عنده بمقدار }⁵⁰ . { انا كلّ شئ خلقناه بقدر }⁵¹ . ذلك

ان العقل السليم يفرض بدهته، والإيمان والدين ، كل ذلك يقضي ان يكون مراد الخالق

45 - سورة القصص الآيات : 71 - 72

46 - سورة الفرقان : الآية 45

47 - سورة الواقعة الآية 68

48 - سورة النحل : الآية 88

49 - سورة الملك : الآية 3

50 - سورة الرعد : الآية 8

العقل السليم يفرض بدهاة، والإيمان والدين ، كل ذلك يقضي ان يكون مراد الخالق تعالى من المخلوق له ، هو الآخر ، على أكمل وجه ، وأتم شكل ، وأدق مقدار ، وأحسن صورة ، وأعدل وزنه ومقداره ، وحسن صورته ، وانتظام سلوكه ، على كمال الخالق تعالى ، أحسن الخالقين ، أو على استثناء : تعبيراً عن الإرادة الحرة المطلقة ، التي تتسامى على كل قيد : { قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ، قلنا ياتار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم }⁵² ، { فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم }⁵³ . ان ارادة الله المطلقة هي التي تقرر الأشياء ببعضها البعض ، وتقدر أيضاً على فصلها ، مادامت الضرورة الطبيعية قد نفيت ، وأصبح الاقتران بين الفعل المنتظم والقدرة التي هي آيتها ، ليست الضرورة الطبيعية ، بل قدرة عاقلة وراءها عادة وليس ضرورة ما دامت لا تعلمنا ان النقيض مستحيل .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

51 - سورة القمر : الآية
52 - سورة الأنبياء : الآية 68 و سورة العنكبوت ، الآية : 24
53 - سورة الشعراء : الآية 63

منهج الامام النورسي في القصص القرآني

أ.د. موسى البسيط^P

تقديم

ان القرآن الكريم معجزة النبي الامي محمد μ ، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، فيه خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا، يحوي العلوم الكثيرة والمعارف الغزيرة، وفيه الهدى والنور { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم } . ولقد افنى خلق من اهل العلم بالقرآن اعمارهم في التقاط درره، ودرس قصصه ، واستخلاص احكامه وعبره، فانتهت الأجال دون تحصيلها وقصرت الهمم عن تجميعها.

ولقد سلك المفسرون ضروبا شتى في فهمه، فمنهم من اكثر الرواية وتوقف عن أعمال العقل والخوض في الدارية طلبا للسلامة والتزاما بقوله تعالى : { ولا تقف ما ليس لك به علم }، وقوله : { إن يتبعون إلا الظن } . ومنهم من لم يقتصر على ذلك، بل عدّ الرواية والاثر سبيلا للوصول الى " التدبر والتأمل والتفكر"، معتمدا في ذلك على قوله تعالى : { أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها }، وقوله : { ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر }، فسلك مسلك النظر في استخلاص العبر فوصل الى ما لم يصل اليه غيره، فناله من القرآن فيوضائه وخيره .

ومن هؤلاء العلماء الامام "النورسي" ، الذي كان له اسهامه في التفسير بمنهجية فريدة تدعو الى التأمل والنظر .

وقد تنبعت موقف الامام "النورسي" من القصص القرآني بمطالعة "كليات رسائل النور" متوخيا الكشف عن منهج تناول النورسي للقصة القرآنية . ورغم قلة مادة "القصص القرآني" في كليات رسائل النور الا انها جاءت كافية في الكشف عن المنهج، وترسم معالمه . وقد حوى هذا البحث ما يلي :

المبحث الاول : مقدمة في القصص القرآني ، ويشتمل على :
اولا : قصص القرآن ، مفهومه وانواعه ،

^P من مواليد القدس سنة 1955 نال شهادة الدكتوراه في السنة وعلومها وعمل أستاذا مساعدا في جامعة الملك سعود بالرياض منذ سنة 1988-1990. ثم استاذا مشاركا في جامعة القدس سنة 1991 ثم عميدا لكلية الدعوة والعلوم الإسلامية في شمال فلسطين ، له 3 مؤلفات وبحوث عدة.

ثانيا : القصص القرآني غيب .
ثالثا : المصدر الموثوق للقصص .
رابعا : اهمية القصص في الدعوة والتربية .
المبحث الثاني : منهج النورسي في فهم القصة القرآنية .
المبحث الثالث : ويشتمل على :
اولا : التفسير الاشاري وشروط قبوله وموقع تفسير النورسي منه .
ثانيا : التكرار في القصة القرآنية .
القصص القرآني غيب

ان مصدر الحديث عن قصص الرسل والأنبياء وأقوامهم هو : الوحي السماوي ، وهو الوحي الى الانبياء جميعا .
والوحي السماوي نعني به ما جاء به الكتاب وحفّلت به السنة الصحيحة ، فمن تينك المصدرين نتلقى القصص عن الامم السابقة، ونتتبع حركة التاريخ ، ماضيه وحاضره وسننه ومستقبله .

وهنا مسألة خطيرة يجدر التنبيه عليها هي : أن القصص في القرآن الكريم انما هو (غيب) لم يقدر لواحد منا حضوره ومعاينته فلا مجال للاجتهاد في رسم أحداثه وتفصيلاته .

وكم امتن الله على محمد p بإطلاعه على غيب الماضي فيما قصّ عليه من القصص القرآني { تلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا }¹ .

وقال الله تعالى تعقيبا على قصة يوسف { ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون }² .

وعقب على أحداث قصة مريم قال { ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون }³ .

والقصص القرآني ليس غيب الماضي فحسب ، متمثلا في بدء الخلق، وقصة آدم وإبليس والأكل من الشجرة، وقصص نوح وعاد وثمود ومدين وبني اسرائيل ، وانما يدخل في القصص القرآني إخباره عن غيب الحاضر وحركة الحياة المعاصرة المستجدة والمتجددة التي لطالما نجد إحياءاتها من قصص السابقين، كما يدخل في القصص القرآني غيب المستقبل الذي قصّه الله علينا وأنبأنا به كنزول عيسى وخروج الدجال وأجوج ومأجوج ...

وان هذا القصص القرآني ليقف شاهدا شاخصا وبرهانا ساطعا، ودليلا أكيدا على نبوة محمد الأمي ينقل لنا الأحداث قاصّا لها واصفاً إياها بدقة وأمانة وتصوير فني أخاذ .

1 - هود : 49
2 - يوسف : 102
3 - آل عمران : 44

ولقد نبه (النورسي) الى هذا الفهم لدلالة القصة القرآنية على نبوة محمد بن عبدالله
p فقال:

"اعلم ان محمداً العربي مع أميته قصّ علينا بلسان القرآن قصص الاولين والانبياء ،
قصّه من حَضَرَ وشاهد ، وبيّن احوالهم وشرح اسرارهم على رؤوس العالم في
دعوى عظيمة تجلب اليها دقة الاذكياء .

وقد قصّ بلا مبالاة ، واخذ العُقد الحياتية منها واساساتها مقدمة لمدعاه ، مصدقا
فيما اتفقت عليه الكتب السالفة، ومصحّحا فيما اختلفت فيه كأنه الروح الجوّال المعكس
للوحي الالهي طي الزمان والمكان فتداخل في أعماق الماضي ، فبين كأنه مشاهد
فثبت ان حاله هذه دليل نبوته واحدى معجزاته فمجموع دلائل نبوة الانبياء ، في حكم
دليل معنوي له وجميع معجزات الانبياء في حكم معجزة معنوية له" 4 .

المصدر الموثوق للقصص ومجانبة الاسرائليات

ولما كانت تفصيلات القصص القرآني غيبا لم يُطلع الله احدا عليه، فانه ليجدر بنا
ان نكون وقّافين عند حدود القرآن الكريم والسنة المطهرة في الكشف عن تفصيلات
هذا القصص وترسّم أحداثه، وتأمّل معي قول الله تعالى { وما كنت لديهم اذ
يختصمون }⁵ . وقوله { ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من
بعدهم لا يعلمهم الا الله }⁶ . وقوله { لا يعلمهم الا الله } : صريح في نفي العلم بتلك
التفصيلات عن احد من البشر وقصره على الله وحده .

إن أي محاولة لتحديد بدايات التأريخ بالنظر الى المكتشفات من أحافير وسواها
لتعدّ رجما بالغيب، ليس علما دقيقا يوثق به أو يعول عليه، واقرأ معي قول الله تعالى {
ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم }⁷

ونقف أمام آية في كتاب الله تُعلمنا كيف نُبحث من غير أن نضيّع الوقت ونهدر
الطاقات فيما لا طائل تحته ، إنها قول الله تعالى { ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ
السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا }⁸ .

ويعلق سيد قطب رحمه الله - على هذه الآية قائلا : "ان هذه الآية تقيم منهجا كاملا
للعقل والقلب يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف اله
استقامة القلب ومراقبة الله ، فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل
الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم منهج الاسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل
على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ولم يبق مجال للظن
والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ولم يبق مجال للاحكام السطحية والفروض
الوهمية من عالم البحوث والتجارب والعلوم { ولا تقف ما ليس لك به علم } ولا تتبع

4 - كليات رسائل النور للنورسي (167 / 5)

5 - آل عمران : 44

6 - ابراهيم : 9

7 - الكهف : 51

8 - الاسراء : 36

ما لم تعلمه علم يقين ، وما لم تثبت من صحته من قول يقال ورواية تُروى ، من ظاهرة تُفسر أو واقعة تُعلل ، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية"⁹ .

ووفق هذا المنهج في النظر في القصص بعامة فإننا لا نعتمد ما يرويه أهل الكتاب في اسرائيلياتهم ، فلا يجوز ان نقفوها او نتبعها او نرويها لانها مما ليس لنا به علم . ثم ان اليهود في الاسرائيليات يتقنون الكذب والتحريف ولا يؤتمنون على التاريخ ولا الاخبار ، بل ان كثيرا مما يصدر عنهم يحمل طابع التزوير والاختلاق والخرافة¹⁰

وَمَنْ اصدقُ من الله قِيلا { وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله }¹¹
وقال تعالى { ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم وله عذاب أليم }¹²

وهذا المنهج ، من مجانية الاسرائيليات في أخذ القصص أشار اليه (النورسي) عندما قال : "لا يخفى أن" مسألة الثور والحوت" المشهورة دخيلة أو طفيلية عليه أسلمت مع روايتها ، ويبيّن ان من اسباب تشكيكه بذلك ان عليها علامة الاسرائيليات"¹³

وشهد النورسي ان ما حمله علماء بني اسرائيل بعد اسلامهم من معلومات رغم انها صارت ملكا للاسلام - أي ضمن المعارف الاسلامية - إلا انها تحوي اخطاء ، فتلك الأخطاء تعود اليهم لا الى الاسلام¹⁴ .

وحين يتناول في المسألة الثالثة "جبل قاف" يقول : ثم إن دليلاً آخر بعدم وجود قطعي الدلالة غير هذا ، قول أحد مجتهدي الشريعة وهو القرافي : لا أصل له . اما نسبة كنيته المشهورة الى ابن عباس ، رضي الله عنه ... علماً أن كل ما قاله ابن عباس كما لا يلزم ان يكون حديثاً كذلك لا يلزم قبوله لكل ما نقله لان ابن عباس التفت قليلاً أيام شبابه الى الاسرائيليات عن طريق الحكايات اظهرا لبعض الحقائق .

إن في القصص لعبرة

ان القرآن الكريم يجعل من القصص مادة هداية ، ووسيلة تربية ، ونبعا ثراً دفاقاً من المعلومات ، وما كان القرآن يهدف يوماً الى السرد التاريخي وتسجيل وقائع الدهور وما حَقَل من عظام الامور ، ولا الى المتعة القصصية واللذة النفسية فهذا محقق في القرآن الكريم وقصصه ، ولكن القرآن يوظف القصص وسيلة الى غاية شريفة هي : اقرار الايمان والتدليل عليها .

9 - في ظلال القرآن ، سيد قطب (4 / 2227)

10 - مع قصص السابقين ، صلاح الخالدي (1 / 42)

11 - البقرة : 109

12 - البقرة : 174

13 - كليات رسائل النور (8 / 72)

14 - كليات رسائل النور (3 / 138)

ان القرآن هو كتاب هذه الامور الحي، ورائدها الناصح ومدرستها التي تلقت فيها الامة دروس حياتها. ولان الامة الاسلامية منوط بها قيادة البشرية والشهادة عليها، فكان لا بد من اعدادها اعدادا يليق بهذه المهمة العظيمة الشاقة، ومن وسائل اعدادها وتعبنتها عرض تجارب الامم السابقة عليها للافادة منها، وتجنب مزالقها .

ان هذا القرآن بما يحفل به من تشريع وقصص واخبار ، دستور شامل للتربية . كما انه دستور للحياة العملية ، ومن ثم تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موجّهة على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويرببها . وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الايمانية في الارض من لدن آدم عليه السلام ، وقدمها زادا للامة المسلمة في جميع اجيالها، تجاربها في الانفس وتجاربيها في واقع الحياة ، كي تكون الامة المسلمين على بينة من طريقها وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم ، وذلك الرصيد المتنوع ، ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة وبهذا التنوع وبهذا الايجاء" ¹⁵ .

وهذا الفهم الدقيق اشار اليه النورسي حين قال : ان في القصص لعبرا .. كأن القرآن بتلك القصص يضع أصبعه على الخطوط الاساسية ونظائر نتائج نهايات مساعي البشر للتزقي في الاستقبال الذي بُني على مؤسسات الماضي الذي هو مرآة المستقبل ¹⁶ .

ويقول في موطن آخر : "ان القرآن يقص القصص لأخذ العبرة منها ، وينتقي منها النقاط التي هي كالعقد الحياتية التي تناسب مقصدا من مقاصد القرآن يربطها به" ¹⁷ . ان القصة القرآنية شعلة تضيء لهذا الانسان تصل حاضره بماضيه ، وهي الوثيقة الوحيدة الخالدة التي يطمئن الانسان لمصداقيتها عبر تاريخ البشرية الجديد وللقصص القرآني فوائد واثار اجملها فيما يلي :

- بها يسمو الانسان بروحه وخلقه ونفسه .
- بها يدرك الانسان قيمة الأخذ بالاسباب المادية واهمية ذلك في رقي الامم .
- بها تتجنب الامة اسباب الهلاك التي اصابته الامم والافراد والجماعات قبلها .
- وبها يترسم الانسان سنن الله الكونية في حياة الشعوب واستمرارها او اندثارها .
ونجد ان القصص القرآني فصلت اسباب السعادة الروحية وعرضت كثيرا من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والانسان والحياة والاحياء ¹⁸ .

ولكن نحقق هذه الثمرات في حياتنا ينبغي ان نقرأ القرآن بما فيه من قصص بوعي مُدرك ، وان نوقن ان القصص توجيهات حية كأنها تتنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم وترسم طريق المستقبل ، لا على انه مجرد كلام جميل يُرتل او سجل لحقيقة مضت ولن تعود ¹⁹ .

15 - سيد قطب في ظلال القرآن (1 / 260 - 261)

16 - كليات رسائل النور (5 / 238)

17 - كليات رسائل النور (8 / 80)

18 - القصص القرآني ص 13 ، فضل حسن عباس (بتصرف)

19 - سيد قطب ، في ظلال القرآن (1 / 261)

حين نقرأ القصص القرآني بهذا الوعي سنجد فيه مرادنا ونستخلص منه ما ينفعنا ، ونضع ايدينا على عجائب لا تخطر على البال الغافل الساهي المنشغل . سوف نجد قصصا حيا نابضا يقول لنا :

(اعلموا واجتهدوا واسلكوا السبل المؤدية الى النجاة) .

سيقول لنا ان القوانين والسنن واحدة مطردة فسيروا وفقها تصلوا الى النتائج المحققة التي لا تتخلف .

ومن خلال قصص القرآن نستوضح اسس الدعوة الى الله تعالى ونترسم منهجها لدى الانبياء والمرسلين وقصصهم مع اقوامهم . وفي قصص القرآن تثبيت لقلب محمد ρ {وَكَلَّا نَقْصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ...} ²⁰ .

وفي قصص القرآن إظهار لصدق النبي ρ بكشفه عن اخبار السابقين الغابرين . وفي قصص القرآن مقارعة اهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيئات والهدى وكشف تحريفهم .

هذا فضلا عن ان النفس تتشوف الى اسلوب القصص فتسرع الى الاعتبار به والاتعاظ ²¹ .

منهج النورسي في فهم القصة القرآنية

لقد حلق النورسي في نظريته الي قصص القرآن وخط منهاجا متميزا في الإفادة من القصة في القرآن الكريم بما يمكن أن يستشرفه الدارس بحسه وعقله من دستور كلي ورؤى متكاملة .

يرى النورسي ان في القرآن في قصصه حوادث جزئية ولكن وراء كل حادث يكمن دستور كلي عظيم ، وانما يُذكر تلك الحوادث لانها طرفٌ من قانون عام شامل كلي وجزء منه .

ومن الأمثلة التي ذكرها النورسي :

اولا : قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } ...

لا شك ان هذه الآية في قصة "بدء الخلق" ، والمفسرون في نظرتهم الى هذه الآية وتفسيرهم الاسماء يقولون : أراه الاجناس التي خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا بعير ، وهذا سحاب وهذه مجرة ، وهذه شمس ، وهذا نجم ، حتى القصعة والمغرفة ، وحتى الفسوة والفسية ²² . وانه لو لم يوهب الانسان القدرة على الرمز بالاسماء للمسميات لوجد مشقة في التفاهم والتعامل حيث يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الاخرين على شئ ، ان يستحضر هذا الشئ بذاته امامهم ليتفاهموا بشأنه : الشأن شأن نخلة فلا سبيل الى التفاهم عليه الا باستحضار جسم النخلة ... وهكذا ²³ .

فما الفهم الذي خرج به النورسي من هذه الحادثة الجزئية ؟ وما الدستور الكل الذي يؤخذ منها ؟

20 - هود : 120

21 - وانظر مباحث في علوم القرآن 305

22 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن (1 / 214 - 220)

23 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير (1 / 76 - 78) ، الأساس في التفسير ، سعيد حوى (1 / 116)

يقول : الآية الكريمة تبين ان تعليم الاسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة إظهارا لاستعداده للخلافة . وهي وإن كانت حادثة جزئية إلا أنها طرف لدستور كلي هو : "أن تعليم الانسان - المالك لاستعداد جامع - علوما كثيرة لا تُحد ، وفنونا كثيرة لا تحصى حتى تستغرق انواع الكائنات، فضلا عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخلق الكريم سبحانه وشؤونه الحكيمه ، ان هذا التعليم هو الذي أهل الانسان لينال أفضلية ، ليس على الملائكة وحدهم ، بل ايضا على السماوات والارض والجبال في حمل الامانة الكبرى" .

انه لفهم ثاقب استنبطه النورسي من قصة آدم وتعليمه الأسماء لم يقف عند فهم الاولين ، عند الاسماء الظاهرة والمسميات التي هي رموز للأجرام الشاخصة وهو - ولا شك - فهم ظاهري للاسماء.

ان مقام الخلافة والاستخلاف لا يكفيه مؤهل معرفة الانسان الظاهرة (هذه سماء وهذه شجرة وهذه فسوة) فحسب ، وانما مؤهله وقوامه تعليم هذا الانسان أصول الفوائد كلها ، ومراتب الترقى ، ومعرفة الاسباب التي يعمر الانسان به ما استُخلف فيه ، حتى يصل الى ما وصل اليه اليوم من اكتشافات مذهلة وتسخير لقوانين الطبيعة التي أوجدها الله في الكون والكائنات .²⁴

"انه لما لَوَّح بها الى مظهرية هذا النوع للخلافة الكبرى في الارض لُمح بهذه احتاجا عليها الى ان الانسان هو النسخة الجامعة والمظهر الأتم لكل التجليات لتنوع استعدادته ، وتكثر طرق استفادته وعلمه فيحيط بالكائنات بحواسه الخمس الظاهرة والباطنة لا سيما بوجدانه الذي لا قعر له" .

ان "معرفة الاسماء" وعجز الملائكة عن معرفتها لبرهان أكيد ساطع على الاستعداد الفطري لهذا المخلوق للخلافة .²⁵

وتأمل تفسير النورسي لكلمات الآية ليتضح لك نفاذ بصيرته ودقة فهمه { وعلم آدم الأسماء كلها } قال: أي صورته بفطرة تضمنت مبادئ أنواع الكمالات ، وخلقها باستعداد زرع فيه انواع المعالي وجهزه بالحواس العشر وبوجدان تتمثل فيه الموجودات وأعدّه بهذه الثلاثة لتعلم حقائق الاشياء بانواعها ثم علمه الاسماء كلها:

(الواو) فيها إشارة الى الجمل المطوية تحت ايجازه كما مر . و (علم) فيه إشارة الى تنويه العلم ورفعته ودرجته وانه هو المحور للخلافة .. وكذا رمز الى ان الاسماء توقيفية ، ويؤيده وجود المناسبة المرجحة للوضع بين الاسماء والمسمات ، وكذا ايماءً الى أن المعجزة فعل الله بلا واسطة خلافا للفلاسفة الذين يقولون : ان الخوارق افعال للارواح الخارقة .

(آدم) أي الشخص الارضي الذي اراد الله تعالى خلافته وسماه آدم ، فالتصريح بالعلم لتنويهه وتشهيره واحضاره بصورته .. (الاسماء) سمات الاشياء ، من الصفات والخواص والاسماء او اللغات التي اقتسمها بنو آدم²⁶ .

24 - في ظلال القرآن ، سيد قطب (1 / 571)

25 - كليات رسائل النور (5 / 240)

26 - كليات رسائل النور (5 / 241 - 242)

انها وصية لآدم من بعده "يا بني آدم ! ان تفوق ابيكم آدم في دعوى الخلافة على الملائكة كان بما علمته الاسماء كلها ، وانتم بنوه ووارثو استعداداته ومواهبه ، فعليكم ان تتعلموا الاسماء كلها لثبوتوا جدارتكم امام المخلوقات لتسّم الامانة العظمى ، فلقد مُهد الطريق امامكم لبلوغ اسمى المراتب العالية في الكون ، وسُخّرت لكم الارض هذه المخلوقات الضخمة ، فهيّا انطلقوا وتقدموا ، فالطريق مفتوح امامكم ..

واستمسكوا بكل اسم من اسمائى الحسنى واعتصموا به لتسموا وترتفعوا واحذروا ! فلقد اغوى الشيطان اباكم مرة واحدة ، فهبط من الجنة تلك المنزلة العالية الى الارض مؤقتا . فايحكم ان تتبعوا الشيطان في رقيكم وتقدمكم فيكون ذريعة تردىكم من سماوات الحكمة الالهية الى ضلالة المادة الطبيعية .. ارفعوا رؤوسكم عاليا ، وانعموا النظر والفكر في اسمائى الحسنى واجعلوا علومكم ورقمكم سلما ومراقى الى تلك السماوات لتبلغوا حقائق علومكم وكمالكم وتصلوا الى منابعها الاصيلية ، تلك هي اسمائى الحسنى ، وانظروا بمنظار تلك الاسماء ببصيرة قلوبكم الى ربكم" .

هذه الوصية جديرة بالتنبه والتطبيق فما كانت قصة آدم عليه السلام لتتلى من غير ان نفيد منها هذه الفائدة العظيمة ، بل أتى لنا ان نفهم عظمة هذا المخلوق البشري ورقبه ونقدّمه وسيادته بمعزل عن الفهم الثاقب الذي نستخلصه من قصة آدم عليه السلام .

وهل أصاب البشرية من أصابها إلا من غفلة عن فهم ثاقب ووعي شامل لعلم الاسماء الذي علمه الله تعالى للانسان ابتداءً !؟

ويحلق النورسي في آفاق هذه القصة مستخرجا كنوزها ، فيقول :

"ان كل ما ناله الانسان من حيث جامعية ما أودع الله فيه من استعدادات - من الكمال العلمي والتقدم الفني ووصوله الى خوارق الصناعات والاكتشافات تعبر عنه الآية الكريمة بتعليم الاسماء { وعلم آدم الاسماء كلها } ، وهذا التعبير ينطوي على رمز رفيع دقيق هو : ان لكل كمال ، ولكل علم ، ولكل تقدم ، ولكل فن - ايا كان - حقيقة سامية عالية ، وتلك الحقيقة تستند الى اسم من الاسماء الحسنى ، وباستنادها الى ذلك الاسم الذي له حُجُب مختلفة ، وتجليات متنوعة ، ودوائر ظهور متباينة - تجد ذلك الفن وذلك الكمال وتلك الصنعة ، كل منها كمال ، ويصبح حقيقة فعلا والا فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش .

فالهندسة - مثلا - علم من العلوم وحقيقتها وغاية منتهاها الوصول الى اسم (العدل والمقدر) من الاسماء الحسنى ، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها من مرآة علم الهندسة .

والطب - مثلا - علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه ، فمنتهاه وحقيقتيه يستند ايضا الى اسم من الاسماء الحسنى وهو (الشافى) فيصل الطب الى كماله ويصبح حقيقة فعلا بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم (الشافى) من الأدوية المبنوثة على سطح الارض الذي يمثل صيدلية عظمى .

والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان - هذه العلوم التي هي (حكمة الاشياء) يمكن ان تكون حقيقة بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله من الاشياء وهي تجليات تدبير وتربية ورعاية وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها ، تصبح تلك الحكمة حكمة حقا .. والا فإما انها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثا لا طائل من ورائها ، او تفتح سبيلا الى الضلالة كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية"²⁷

انها قصة الاسماء التي علمها الله تعالى آدم ابا البشرية .
ان اكثر من توسع في التفسير العقلي للآية الكريمة هو الامام الرازي فهل بلغ من الاستنباط مبلغ النورسي ؟

لقد اشار الرازي اشارة عابرة الى هذا الفهم لكنه لم يتوسع مثل هذا التوسع فهو يقول في تفسير الآية :

"أي علمه صفات الاشياء ونعوتها وخواصها "²⁸ .
أليست قصة آدم عليه السلام وتناولها بهذه الكيفية تعدّ نبأ نبراسا تهدي به العقول الضالة عن الجادة في الفكر وفلسفة الوجود ؟ ألسنت تجد فيها اطمئنان القلب وهدوء البال وراحة خاطر ؟

ألسنت تلمح فيها وتترسم معالم الكمال البشري في امتيازه ورقية وفضله ؟

ثانيا : قوله تعالى { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة } :

وضمن المنهج الذي سلكه "النورسي" يعرض لجزئية اخرى في قصة بني اسرائيل في تكليفهم "ذبح" البقرة . فهل نتوقف عند ظاهر الحدث وما يفيد من تمتع واحتيال المكلفين حتى نفذوا (الذبح) وما كادوا يفعلون ؟ ام نضع الحدث ضمن نسق الفهم الشامل ؟

اننا لا نشك في ان "ذبح البقرة" لا يراد لذاته ، وانما هو وسيلة لتحقيق اهداف كثيرة يمكن صياغتها دستورا متكاملًا للمؤمنين عبر تاريخ البشرية .
وفضلا عن ان "ذبح البقرة" كان يهدف الى الكشف عن القاتل الحقيقي ، وفيه معجزة دالة على قدرة الله وتعريف بطبيعة اليهود في تعنتهم وفيه الدليل على احياء الموتى، الا ان مفهوما عميقا يمكن استشرافه هنا هو : "ان القرآن الكريم يعلمنا بذبح بقرة واحدة ان سيدنا موسى قد ذبح برسالته مفهوم عبادة غير الله مما يتشرب القلب حبه من متاع الحياة مال او جمال او عرض او مظهر .

ومنها مفهوم عبادة البقر ذلك المفهوم الذي سرى في عروق تلك الامة وتنامى في استعداداتهم²⁹ حيث ترعرع بنو اسرائيل في اراضي النيل بين المصريين الذين أضفوا قدسية على البقر والثور الى حد العبادة فتأثر اليهود بهم في تقديسهم للبقر "

وهذا الفهم الذي استنبطه "النورسي" له ما يبرره ويؤيده من قصة عبادة اليهود العجل كما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى { وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم

27 - رسائل كلييات النور للنورسي "الكلمات" (1 / 290 / 291)

28 - التفسير الكبير للفخ الرازي (1 / 192)

29 - كلييات رسائل النور "الكلمات" (1 / 271)

قُلْ بِنَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }³⁰ ، وقوله تعالى { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَ أَلْمِ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ }³¹ ، لذلك استحقوا غضب ربهم بعبادتهم وتقديسهم العجل { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سِينَالَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }³² .

وهكذا كل مَنْ يَتَشَرَّبَ قَلْبُهُ حَبَّ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَيُصْرِفُهُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَعْبُدُهُ رِبًّا مِنْ الْأَرْبَابِ وَالْإِلَهَةِ سِوَى الْإِلَهِ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقِّ أَفْعَالِ الْعِبَادَةِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .
وعلاوة على ذلك فإن في هذه القصة القصيرة (الأمر بذبح البقرة) مجال للنظر في جوانب شتى ، بل يمكن استخلاص دستور متكامل في الكشف عن طبيعة بني اسرائيل ومعرفة السمات الرئيسية الطبيعية المذكورة فيهم . ومن هذه السمات انقطاع الصلة بين قلوبهم ، والتكؤ في الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير والسخرية من الرسول وما أتى به من الهدى ، وتقديم هوى النفس ورغائبها على ما أمروا به وفيه خلاصهم .

ثالثا : قوله تعالى على لسان فرعون { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا } :

يسترسل النورسي في ذكر الامثلة على القصة الواحدة من كل جزء منها اظهار لطرف من دستور كلي يعبر عن ذلك الدستور . وقصة موسى عليه السلام بما فيها من اجزاء من ذلك ما يجلي هذا المنهج ويبرزه :

مثلا حين يفسر الآية الكريمة قوله { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا }³³ ، ففي قوله (صرحا) "يبين الله تعالى بحدثة جزئية دستورا عجيبا وعرفا غريبا كان جاريا في سلالة فرعون الذين ادعوا الربوبية بجحودهم الخالق وايمانهم بالطبيعة وخلدوا اسمهم بجبروتهم وعتوهم فشيّدوا الاهرام المشهورة ..."³⁴ .

وبناء على المنهج الذي خطه (النورسي) ألا يحق لنا ان نستنبط من ذلك أنّ الحضارة الغربية المادية الملحدة تسلك السبيل الذي سلكه فرعون "سلوك الفرعة" ، حين تشيّد ناطحات السحاب ، وتمجد المادة وتجعل لها من القداسة ما لا تجله الله تعالى خالق المادة ومذلها لاهل هذه الحضارة المادية الباغية ، التي ظنّت انها هي التي تخلق الاسباب وتسيّرهما وأيقنت بقدرتها على الاسباب واستغنائها عن رب الاسباب جاحدة له ، منكرة وجوده .

رابعا : وحين نقرأ الآيات التي تنزلت ببني اسرائيل : { يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ }³⁵ ، وقوله { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ }³⁶ ، وقوله { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

30 - البقرة : 93

31 - الاعراف : 147

32 - الاعراف : 151

33 - غافر : 36

34 - كليات رسائل النور للنورسي (1 / 464)

35 - البقرة : 49

36 - البقرة : 96

يعملون }³⁷ ، وقوله { وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ }³⁸ ،
وقوله { وَقَضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَ عَلْوَا
كَبِيرًا }³⁹ ، وقوله { وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ }⁴⁰ .

ان هذه جزئيات تشي عن منهج كلي ، وصورة متكاملة صادقة دائمة عن يهود :
"الحرص والفساد" يتضمنان هذين الدستورين العامين المهيمنين اللذين يُديرها
اولئك القوم من حياة المجتمع الانساني بالمكر والحيل والخديعة وسائر السبل المتاحة
لهم .

فالآية تبين انهم هم الذين زلزلوا الحياة الاجتماعية الانسانية ، واولقوا الحرب بين
الفقراء والاغنياء بتحريض العاملين على أصحاب رأس المال ، وكانوا السبب في
تأسيس البنوك بجعلهم الربا اضعافا مضاعفة ...⁴¹ .

وهذا الدستور التي افادته الآيات الكريمة وألمح اليه النورسي كان حقيقة زمن
رسول الله ﷺ وهو اليوم - حقيقة شاخصة للعيان في القرن العشرين حيث سيطرة
اليهود على المال في العالم ، وسعيهم الى إفساد الحياة بشتى مناحيها في السياسة
والاقتصاد والاجتماع.

وحيث انّ الحرص والفساد "قد تغلغل في سجاياهم وتمكّن من طبعهم فالقرآن يُغلط
عليهم في الكلام ، ويصفعهم صفعات زجر عنيفة للتأديب" .

واننا واستمرارا لمنهج (النورسي) في تفسير القصص نستخلص من قوله تعالى {
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بغضب من الله }⁴² ، نقول:

هؤلاء "يهود" أدلهم الله وكتب عليهم الصغار والمسكنة ، فما عاشوا يوما أعزّة في
مجتمع من مجتمعات البشرية ، بل لفظهم وسعت الى الخلاص منهم الى أن جاء هذا
الزمان الذي اعانتهم الدول النابذة لقوميتهم على ان يقيموا لهم دولة متخلصين من
قدارتهم وخبث نفوسهم ، مستعينين بشروورهم على مواجهة الاسلام ومنع هدايته من
النفاذ الى المجتمعات الغربية والى الثقافة الغربية .

ولنا ان نأخذ جزئيات أخرى لنكوّن دستوراً في هذا الجانب فاقراً معي قوله تعالى
{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ }⁴³ .

فهو إذن الأبد الذي تحقّق منذ صدوره ، فبعث الله على اليهود في فترات من
الزمان مَنْ يسومهم سوء العذاب ، والذي سيظل نافذاً في عمومهم ، فيبعث الله عليهم
بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلّما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في
الارض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن سلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية

37 - المائدة : 62

38 - المائدة : 64

39 - الاسراء : 4

40 - البقرة : 60

41 - كليات رسائل النور للنورس "الكلمات" (1 / 465)

42 - البقرة : 61

43 - الاعراف : 67

النكدة الناكثة العاصية التي لا تخرج من معصية الا لتقع في معصية ولا تتوب من انحراف حتى تجنح الى انحراف .

ولقد يبدو احبانا ان اللعنة قد توقفت ، وان يهود قد عزّت واستطالت ! وإن هي الا فترة عارضة من فترات التاريخ ، ولا يدري الا الله من ذا الذي سيسلط عليهم من الجولة التالية وما بعدها الى يوم القيامة .

لقد تاذن الله بهذا الامر الى يوم القيامة ⁴⁴ .

ان الامام النورسي في معالجة قصص القرآن يعتمد الاسلوب الاشاري الذي ينفذ الى بواطن القصص هذا الاسلوب وان كان له محاذيره الا انه مقبول اذا توفرت فيه الشروط التي ذكرها العلماء ⁴⁵ .

ومما نفذت بصيرة النورسي اليه واستنبطت من فوائد عظيمة ما يلي:

اولا : في قصة سليمان والريح في قوله تعالى { **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر** } ⁴⁶

الآية في بيان معجزة من معجزات سليمان عليه السلام ، وهي تسخير الريح له حيث كان يقطع في الهواء ما يقطع في شهرين في يوم واحد ، فهل نقف عند ظاهر الآية وحيثية الحدّث ؟ لا ، بل لنُغصّ أيها المسلم الى أعماق القصة واستخرج منها لؤلؤة هي :

"ان عبدا من عبادي ترك هوى نفسه فحملته فوق متون الهواء ، وانت ايها الانسان ان نَبَدت كسل النفس وتركته واستفدت جيدا من قوانين سنتي الجارية في الكون ، يمكنك ان تمتطي صهوة الهواء " ⁴⁷ ما اعظمه من فهم وانفسه من استنباط ! وهذا الذي وصل اليه الانسان حين استعمل عقله واكتشف سنن الكون دليل على صواب الاستنباط من الآية الكريمة .

ثانيا : وفي قصة موسى عليه السلام وقول الله تعالى له { **فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا** } ⁴⁸

ان هذه الآية تنطق بمعجزة نبي الله موسى عليه السلام غير أنها تشير الى انه يمكن الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الارض بآلات بسيطة ، نعم خزائن رحمة الله مما ينفع هذا الكائن ويعينه على أداء ما انتمن عليه من خلافة حتى بالآلة البسيطة يمكن هذّ الجبال وشق الارض وخرق الصخور ، فإله سبحانه يخاطب الانسان بالمعنى الرمزي لهذا الآية ، " ما دُمت أسلم بيد عبدٍ يعتمد عليّ ويثق بي عصا يتمكن بها ان يفجر الماء اينما شاء ، فانت ايها الانسان ان اعتمدت على قوانين رحمتي ، يمكنك ايضا ان تخرع آلة شبيهة بتلك العصا او نظيرة لها ، فهيا اسع لتجد تلك الآلة ⁴⁹

44 - في ظلال القرآن (3 / 1386)

45 - راجع الفصل الخاص بالتفسير الاشاري

46 - سبأ - 12 -

47 - كليات رسائل النور للنورسي "الكلمات" (1 / 280)

48 - البقرة - 60 -

49 - كليات رسائل النور للنورسي "الكلمات" (1 / 280)

انه معنى دقيق من معاني الآية يمكن استشرافه من القصة ، ولست أرى تضارباً فيه مع معناها الظاهر ، ولا أرى ذلك تقليلاً من شأن المعجزة النبوية لموسى عليه السلام .

اننا لا نكتفي من قصص موسى عليه السلام بهذا ، وانما – بتطبيق منهج النورسي الذي خطه بجرأة وشجاعة – لنا ان نستنبط ما يفجر ينابيع المعرفة لنروى بها عروقا بدأت تجف ، ولنبث بها روحاً جديداً فعلاً ، ولنعالج بها الواقع . ان الغوص في أعماق النص يحدث تأثيراً إيجابياً فاعلاً يجعل القصة شريانا نابضاً بالحركة والحياة .

ثالثاً : وخذ مثلاً آخر قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام في قصته مع بني اسرائيل { وأبرء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى ... } الآية ⁵⁰ ما أعظم ما استنبطه النورسي من معانٍ فاضت بها هذه الآية ، إنها تشير الى أنه يمكن ان يعثر على دواء يشفي أشد الامراض المزمنة والعلل المستعصية ، فلا تيأس أيها الانسان، ولا تقنط ايها المبتلى المصاب ، فكل داء مهما كان له دواء علاجه ممكن فابحث عنه ، وجده واكتشفه بل ممكن معالجة الموت نفسه بلون من الوان الحياة المؤقتة .

فانه سبحانه يقول بالمعنى الاشاري لهذه الآية : لقد وهبت لعبد من عبادي ترك الدنيا لأجلى وعافها في سبيلي هديتين احداهما ، دواء للاسقام المعنوية ، والاخرى علاج للامراض المادية ، فالقلوب الميتة تُبعث بنور الهداية ، المرضى الذين هم بحكم الاموات يجدون شفاءهم بنفث منه ونفخ فيبراً ، وانت ايها الانسان بوسعك ان تجد في صيدلية حكمتي دواء لكل داء يصيبك فاسع في هذه السبيل واكشف ذلك الدواء فانك لا محالة واجده وظافر به .

وهكذا ترى كيف ترسم هذه الآية الكريمة اقصى المدى وابعد الاهداف التي يصبو اليها الطب البشري من تقدم ⁵¹ . نعم هي قصة عيسى عليه السلام لكنها لا تزال تمنحنا الهداية ذاتها وتهب الاشارة التي توصل الى معرفتها الامام النورسي .

رابعاً : وفي قصة نبيّه داوود عليه السلام حين قصّ علينا ما اعطاه من معجزة فقال { **وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ** } ⁵² وقال { **وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ** } ⁵³ وقوله في معجزة سليمان { **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ** } ⁵⁴ تليين الحديد وإذابة النحاس وإيجاد المعادن انما هو نعمة عظيمة وهو أصل جميع الصناعات البشرية وأساسها وهو أم التقدم الحضاري .

50 - آل عمران - 49

51 - كليات رسائل النور للنورسي "الكلمات" (1 / 281)

52 - سبأ - 10

53 - ص - 20

54 - سبأ - 12

فالآية تشير الى نعمة إلهية : تليين الحديد كالعجين وتحويله أسلاكاً رفيعة وإسالة النحاس ...

فسبحانه يقول بالمعنى الإشاري لهذه الآية : " يا بني آدم! لقد آتيت عبداً من عبادي أطاع أوامري وخضع لما كلفته به آتيت لسانه فصل الخطاب وملأت قلبه حكمة ليفصل كل شيء على بينة ووضوح ، ووضعت في يده من الحقيقة الرائعة ما يكون الحديد كالشمع فيها فيغير شكله كيفما يشاء ويستمد منه قوة عظيمة لإرساء أركان خلافته ..

فانتم اذا أتعتم أوامري التكوينية توهب لكم ايضاً تلك الحكمة والصنعة⁵⁵ . وهكذا ومن خلال القصص نستنبط قواعد وانظمة الرقي المادي والمدني التي لطالما غفلنا عنها وتنبه لها الكافر وطبيعة الحال وواقعه أنّ هذه الاسباب الموصلة الى الرقي المدني ليست حكراً على احد ، بل من أخذ بها اصلح دنياه ووصل الى ما يحقق له التسخير ، ومن غفل عنها وتركها بقي كلاً على غيره يعتمد عليه في صناعاته واسباب معاشه .

خامساً : وهذا التسخير الذي افادته الآيات الكريمة في قصص سليمان وداوود يفهم ايضاً من قوله تعالى في قصة سليمان مع بلقيس حين قال تعالى { قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل ان يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده ... } الآية . الآية تشير الى أن إحضار الأشياء من مسافات بعيدة – عينا أو صورة – ممكن وذلك بدلالاتها على تلك الحادثة الخارقة التي وقعت في ديوان سليمان عليه السلام عندما قال أحدُ وزرائه الذي أوتي علماً غزيراً في علم "التحضير" أنا آتيتك بعرش بلقيس .

فمن يعتمد على الله سبحانه إذا ويطمئن اليه ويسأله بلسان استعدادته وقابلياته التي فطر عليها وسار في حياته على وفق السنة الالهية والعناية الربانية ، يمكن ان تتحول له الدنيا الواسعة كأنها مدينة منتظمة أمامه كما حدث لسليمان عليه السلام الذي طلب بلسان النبوة المعصومة وحضر عرض بلقيس ماثلاً امامه – بعينه أو بصورته – في بلاد الشام بعد ان كان في اليمن ...⁵⁶

وهذه الدنيا اليوم يجمعها الانسان بين يديه يطلع منها على أي جزء شاء من غير حدود ولا قيود ولا حواجز تحجزه عنها او تحجزها عنه ، قرية صغيرة ، فالانسان يمكنه رؤية ما يجري في اليابان وهو في تركيا ، بل ويرى ما على سطح القمر وهو في الارض ، ليس هذا ما انبأت به القصة القرآنية "قصة سليمان" قبل خمسة عشر قرناً ، واخبر انه واقع وممكن ومشاهد وكان سنة من سنن الكون كُشف البشرية عنه قبل ثلاثة الاف عام.

لكن قوانين الكون لا يكشف الله عنها الا لمن شمر عن ساعد الجد وسلك السبيل الموصلة الى اسرار الكون ومفاتيحه فسبحانك ربي تباركت وتعاليت .

55 - كليات رسائل النور – للنورسي "الكلمات" (1 / 283)
56 - كليات رسائل النور للنورسي (1 / 283)

سادسا : ان النورسي في تناوله للقصص القرآني لا يُعرب او يُبعد في فهم النص ، وانما يعتمد القواعد المرعية لدى علماء التفسير ويلجأ أولاً الى المعنى الأظهر للآية موضع القصة ويفهمها في ضوء اللغة العربية ولعل من أبرز الامثلة في ذلك تفسير قوله تعالى في قصة ذي القرنين { حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة }⁵⁷ فقال: ان المعنى الظاهري للآية هو : انه رأى غروب الشمس في ماء عين ذي طين وحرارة .

انه يقرّ بان آيات القرآن مبنية على أساليب اللغة العربية. "وبوجه يفهمه عموم الناس بظاهر النظر ، لذا فان اسلوب التشبيه والتمثيل مما تُبيّن به المسائل"⁵⁸ ويُفهم في ضوءه القصص .

وفسر قوله : تغرب { في عين حمئة } يعني ان ذا القرنين قد شاهد الشمس تغرب في ما يشبه عينا موحلة وحامية عند ساحل البحر المحيط الغربي او شاهد غروبها من عين جبل بركاني ذي لهيب ودخان ، أي انه شاهد من ظاهر النظر غروبها في سواحل البحر المحيط الغربي وفي جزء منه ، الذي تراءى له من بعيد كأنه بركة او حوض عين واسعة فشهد غروبها الظاهري خلف الأبخرة الكثيفة المتصاعدة ، من مياه المستنقعات الواقعة عند ساحل البحر المحيط الغربي في عين ملتتهبة انفلقت حديثا على قمة جبل بركاني تقذف بحمما مازجة التراب والصخور والمعادن السائلة⁵⁹ .

ان النورسي يستدل بالبلاغة القرآنية المعجزة على تحديد المعنى الدقيق بل موضع (العين الحمئة) في القصة قائلا : ان سياحة ذي القرنين كانت الى جهة الغرب ، وفي وقت عز الحر ونحو المستنقعات وموافقتها أوان غروب الشمس وحين انفلاق جبل بركاني ، كلّ هذا تشير به الآية الكريمة الى مسائل مليئة بالعبر منها استيلاء ذي القرنين على افريقيا استيلاء كاملا . نعم ، لقد ذهب العلماء في سبب التسمية لذي القرنين مذاهب شتى اقربها ، لانه ملك قرني الارض ، جانبها . لكنه ومع اخذه بظاهر اللفظ الا انه يخوض في باطنه ليستخرج منه لآئنه ونفائسه يقول:

ان الحركة المشهودة للشمس انما هي حركة ظاهرية وهي دليل حركة الأرض الخفية غير المحسوس بها وهي تخبر عن تلك الحركة وليس المراد حقيقة الغروب⁶⁰

وهذا المعنى اشار اليه البيضاوي من تفسيره قال : "ولعله بلغ ساحل المحيط فرأها كذلك إذ لم يكن من مطعم بصره غير الماء وكذلك قال (وجدها تغرب) ولم يقل : كانت تغرب"⁶¹ .

57 - الكهف - 87

58 - كليات رسائل النور "المعات" 3 / 162 - 163

59 - نفسه

60 - نفسه

61 - تفسير البيضاوي ص 399

ومن المعاني اللطيفة التي يلخصها ويستخرجها النورسي : أن التعبير بـ (عين حمئة) للبحر المحيط الغربي انما هي بالنسبة لذئ القرنين الذي رأى من بُعد ذلك البحر العظيم كأنه عين ماء .

اما النظر القرآني الذي هو قريب الى كل شئ فلا ينظر نظر ذي القرنين من بعيد ، الذي يداخله خداع البصر ، بل لانه نزل من السماء مطلقا عليها ولانه يرى الارض ميدانا او قصرا واحيانا مهذا او صحيفة فان تعبيره (عين) للبحر العظيم وهو المحيط الاطلسي الغربي المغطى بالضباب والابخرة انما يبين علوه ورفعته وسموه وعظمته

62

لقد اخبرت الآية ان ذا القرنين قد بلغ مغرب الشمس ، ومعلوم أن الأرض تجري وأن الشمس أيضا تجري . ان مغرب الشمس ليس مكان غروبها حقيقة ، لان الشمس ليس لها مشرق واحد ولا مغرب واحد بل لها عدة مشارق وعدة مغارب . لها مشارق ومغارب باعتبار الناظرين اليها من أية بقعة من البقاع ... ولها مشارق ومغارب باعتبار المطالع ، ولها مشارق ومغارب باعتبار فصول السنة وشهورها وايامها .

فمغرب الشمس ليس مغربها حقيقة ولكن حسب ما يبدو للناظر اليها .. يقول سيد قطب : ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي ان الشمس تغرب عنده وراء الافق وهو يختلف بالنسبة للمواضع" 63 .

ان النورسي حين يتكلم عن التاريخ الانساني لاحداث القصص القرآني يشكك بمصادقية هذا التاريخ ويحكم عليه بالقصور والنقصان يقول :

ان التاريخ الذي دوتّه الانسان يضبط الحوادث الى حد ما قبل ثلاثة الاف عام ، لذا فان نظر هذا التاريخ الناقص القاصر لا يستطيع ان يحكم بصواب على حوادث ما قبل زمن سيدنا ابراهيم ، فاما يذكرها مشوبة بالخرافة أو ينكرها أو يوردها باختصار شديد 64 .

ويجتهد النورسي في الاجابة عن الاسئلة المحيرة في شأن موقع السد الذي بناه ذو القرنين .

ومن هم قوم يأجوج وماجوج ؟

يعرض النورسي للاختلاف في تحديد السدّ العظيم ، وتحديد هوية هؤلاء القوم فيعرض للاراء والاختلافات في ذلك ، لا يلقي للاختلاف بالاً ، وانما يعنيه اكثر ما يعنيه الجوهر والمعنى الذي اراده الله تعالى من سؤقه القصة القرآنية فيقول : "أمّا السد فقال بعضهم انه سد الصين ، وقيل غيره تحول جبلا وقيل سد مخفى لا يُطّلع عليه ... " ثم يقرر المعنى الذي يريده : "وعلى كل فهو ردم عظيم جدا ، جسيم بُني لدفع شر المفسدين " .

62 - كليات رسائل النور - للمعات - (164 / 3)

63 - الظلال / 4 / 2291

64 - كليات رسائل النور للنورسي للمعات 164 / 3

اما يأجوج ومأجوج فقبيل قبيلتان من ولد يافث ، وقيل ... ثم يقرر معنى قاطعا فيقول:

اما من جهة الاتفاق والامر القاطع : فهما طائفتان من مخلوقات الله كانت اهل غارة وفساد على الحضارة والمدنية .

ويرى النورسي ان ذا القرنين هو الاسكندر الاكبر ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد جريا على منهجه في ان القرآن الكريم لدى ذكره حادثة جزئيه اما يذكرها لكونها طرفا لحوادث كلية ، انها تمثل الدستور الكلي فلم يشغل النورسي نفسه في تسويد كثير من الصفحات في تحقيق شخصية ذي القرنين.

يقول النورسي: فان الاسكندر الكبير الذي هو ذو القرنين ، مثلما أسس سد الصين الشهير بارشاداته النبوية بين الاقوام الظالمة والمظلومة وليصد عنهم غاراتهم ، فان قوادا عظاما عديدين كالاسكندر الرومي وملوكا اقوياء اقتدوا بذي القرنين من الجهة المادية .

وان قسما من الانبياء ... وهم ملوك معنويون للانسانية ساروا على أثره في الجهة المعنوية والارشاد ، فهؤلاء اسسوا السدود بين الجبال التي هي من الوسائل المهمة لانقاذ المظلومين من شر الظالمين ...

وفي موضع آخر يقول بعد عرضه الاختلاف في تحديد شخصية ذي القرنين : وعلى كل فهو مؤيد من عند الله ومرشد لبناء سد الصين⁶⁵ .

ثم يشير النورسي الى موقع السد فيقول : ذلك السد الذي بناه ذو القرنين وهو اشهر سد في العالم ويبلغ طوله مسيرة ايام ، إنما بناه ليصد هجمات اقوام شريرة اطلق القرآن عليها اسم يأجوج ومأجوج ويعبر عنهم التاريخ بقبائل المانجور والمغول الذين دمروا الحضارة البشرية مرات ومرات ، وظهروا من وراء جبال هماليا فاهلكوا العباد وخرّبوا البلاد شرقا وغربا .

فصار ذلك السد المبني بين جبلين قريبين من سلسلة هماليا مانعا امام هجمات هؤلاء الاقوام الهمجيين ، وحائلا دون غاراتهم العديدة على المظلومين في الصين والهند .

ويخرج النورسي بنتيجة عامة من هذه الحادثة الجزئية ليقرر ، أنه مثلما أسس ذو القرنين هذا السد فقد بُنيت سدود كثيرة أخرى بهمة ملوك ايران في جبال القفقاس في منطقة المضيق صداً للنهب والسلب والغارات التي امتهنتها اقوام التتر ، وهناك سدود كثيرة من هذا النوع⁶⁶ .

ان ما توصل اليه النورسي في هذه النقطة من أن ملوك ايران منهم من بنى سدودا في جبال القفقاس ، وان يأجوج ومأجوج هم اقوام التتر مطابق لما توصل اليه المحققون في هذه القضية ، فهذا ابو الكلام آزاد يجزم بذلك⁶⁷ غير انه يرى ان ذا القرنين هو "كورش" الذي كان يحكم فارس في الدور الاول من ادوار التاريخ

65 - كليات رسائل النور للنورسي (8 / 81)

66 - كليات رسائل النور للمعات (3 / 165)

67 - ويسألونك عن ذي القرنين (80 - 85)

الإيراني الفارسي ، وقد حقق انتصارات عظيمة وحكم بالعدل والصلاح وتوقف عند (سارديز) قرب أزميز وتأمل قرص الشمس وهو يسقط عند الغروب ، وبعد ان انتصر كورش على اليونان في الغرب توجه نحو الشرق لتأديب تلك القبائل ، ووصل في فتوحاته الى "بلخ" وبلوخستان وبعد تأمين الجبهة الغربية والشرقية والجنوبية توجه للشمال لتأمين الجبهة الشمالية للمملكة ، وهناك وفي شمال جبال القوقاز كانت تسكن قبائل مغولية متوحشة وكانت تعبر مضيق (داريال) وسط جبال القوقاز لتعيث في الارض الفساد ...⁶⁸

والسد الذي بناه كورش هو المقام على مضيق (داريال) يقول القاسمي في تفسيره "الراجح ان السد كان موجودا بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا بين مدينتي (دريند وخوزار) فانه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم يسمى عند الكثير من الامم القديمة والحديثة بالسد ، وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو اثر سد قديم بين جبلين من جبال القوقاز"⁶⁹

ويبين الدكتور عبد العليم خضر طبيعة جبال القوقاز التي بنى السد عليها فيقول : "جبال القوقاز تشكل سلاسل عظيمة الامتداد كثيرة الارتفاع صعبة الاجتياز معدومة الممرات الا من ممر واحد هو مضيق داريال في الوسط .. طول امتدادها يبلغ (1200) كم وهي اعلى جبال اوروبا قاطبة ولا يمكن عبورها على الاطلاق الا من ممر داريال"⁷⁰

ولا يلتبس الامر على (النورسي) كما التبس على كثير من الباحثين في قصص سورة الكهف المتنوع قصة ذي القرنين ، والسد ، وأجوج ومأجوج ، وارتباط سياق هذه القصص باقتراب الساعة

وهذا الارتباط ذكر في الآيات التالية : قوله تعالى : { قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا ، وتركنا بعضهم يؤمنذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ... } الآيات⁷¹

وقوله تعالى { حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين }⁷²

لقد ربط كثير من الناس هذه الوقائع بعضها ببعض وكان بينها تلازما ، وليس الامر كذلك في نظر النورسي " فالقرآن الكريم لانه يخاطب البشرية كافة فانه يذكر ظاهرا حادثة جزئية ، ويذكر بها احداثا مشابهة لها ، فمن زاوية النظر هذه تختلف الروايات وأقوال المفسرين حول السد وأجوج ومأجوج .

68 - ذو القرنين لمحمد خير يوسف (218 - 219)

69 - ذو القرنين (333) نقلا عن القاسمي (11 / 4113 - 4114)

70 - مفاهيم جغرافية - (296)

71 - الكهف - 99

72 - الانبياء - 96

ثم ان القرآن الحكيم قد ينتقل من حادثة الى اخرى بعيدة عنها وذلك من حيث المناسبات الكلامية وعلاقتها ، فالذي لا يعرف هذه العلاقات يظن ان زمانَي الحادثتين قريبان ، وهكذا فإخبار القرآن عن قيام الساعة عقب خراب السد ليس هو لقرب الزمان، وانما لاجل نكبتين من حيث المناسبات الكلامية أي كما ان هذا السد سيدمر فستدمر الدنيا " 73 .

وحق ما قاله النورسي ، فلو اننا تأملنا الموضوعين الذين ذُكر فيها يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم لزال الاشكال ففي قوله { وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ... } إما أن يعود الضمير الى يأجوج ومأجوج قرب قيام الساعة أو يعود الضمير الى الخلائق يموجُ بعضهم في بعض 74 .

وكذلك قوله { وهم من كل حذب ينسلون } يعني يأجوج ومأجوج او الناس كلهم من كل حذب يسرعون 75 .
ولقد علق سيد قطب على قوله تعالى { حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ... } قائلاً :

"هذا النص لا يحدّد زمانا معيناً لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن رسول الله م .
والزمان في الحساب الالهي غيره في حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين او القرون يراها البشر طويلة مديدة وهي عند الله ومضة قصيرة .

واذن ، فمن الجائز ان يكون السد قد فُتِح في الفترة ما بين { اقتربت الساعة } ويومنا هذا وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياحُ يأجوج ومأجوج 76

ويدلل النورسي على هذا الفهم الذي رجّحه قائلاً :

"ثم ان الجبال التي هي سدود فطرية الهيئة راسخة وقوية لا تُنسف الا بقيام الساعة ، فهذا السد ايضا قوي كالجبال لا يُدك الا بقيام الساعة ، وسيبقى الكثير منه ويدوم حتى لو عملت فيه عوامل التغيير على مدى الزمان من خراب وهدم .

نعم ان سد الصين الذي هو فرد من كلية سدّ ذي القرنين ما زال باقيا مشاهدا على الرغم من مرور الوف السنين وانه يقرأ كسطر طويل كتب بيد الانسان على صحيفة الارض ، يُقرأ سطرا مجسما متحجّرا ذا مغزى من التاريخ القديم 77 .

انه ومهما يكن من اختلاف في تحديد السد واجل خرابه وتهدمه الا ان النورسي كشأنه في التأكيد على المعاني الثابتة يصل الى أن انهدام السد علامة على كهولة الارض وشيْب البشرية وبلوغها من العمر عتيا حيث هي قاب قوسين او ادنى من

73 - كليات رسائل النور للنورسي "المعات" (3 / 166)

74 - تفسير القاسمي - 401

75 - القاسمي - 437

76 - الظلال - (4 / 2294)

77 - كليات رسائل النور "المعات" (3 / 166)

الساعة ، ثم ان خراب السد من علامات الساعة ولا سيما وهدمه غير خرابه ، واذا ما قال النبي ﷺ "انه من اشراط الساعة كهاتين "كيف يستغرب كون خراب السد من علامات القيامة بعد خير القرون ؟

ثم إن إنهدام السد بالنسبة لعمر الارض هو انقباض وجه الارض لشبيها بل كَنَسْبَة وقت الاصفار الى تمام النهار حتى لو كانت القيامة بعد بعيدة بالوف السنين . كذلك فان الفوضى والاضطراب الذي يولده يأجوج ومأجوج هو في حكم حُمَى تصيب البشرية لهرمها ⁷⁸ .

ان الذين يخوضون في التفاصيل في السد ، ويأجوج ومأجوج ، وكيف ومتى ؟ ويدققون في حساب وتوقع زمن القيامة هم مجانيون للمنهج ، مضيعو الاوقات من غير فائدة ، "انه لما كانت القصة للعبرة فلا يلزمك تفصيلاً لها ولا عليك كيف كانت، خذْ حظك منها وامض الي شانك" ⁷⁹

التفسير الارشادي ، مفهومه ، شروط قبوله

التفسير الاشاري ضربٌ من ضروب التفسير لكتاب الله تعالى ، وملخص نظرة هذا الضرب من التفسير ان هناك معنى اخر تحتمله الآية ويراد منها إضافة الى المعنى الأظهر الذي ينساق اليه الذهن .

ويستند القائلون بالتفسير الإشاري الى أدلة من الكتاب والسنة ، أما من الكتاب فقوله تعالى { فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً } ⁸⁰ وقوله تعالى { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً } ⁸¹ .

والمعنى في الآيات المتقدمة : "أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، فحضّهم على ان يتدبروا ، في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده ، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا اليه بعقولهم" ⁸²

اما من السنة فما رواه الحسن مرسلاً (لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطع) ⁸³ .

وقال ابو عبيدة معلقاً على الحديث "ان القصص التي قصّها الله تعالى عن الامم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الاخبار بهلاك الاولين وحديث حدّث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم ان يفعلوا كفعالهم فيحل بهم مثل ما حل بهم ولكن هذا خاص بالقصص" ⁸⁴ .

واستدل القائلون بالتفسير الاشاري بما ثبت عن ابن عباس قال : إنّ القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطن ، لا تتقضي عجائبه ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق

78 - كليات رسائل النور (8 / 81)

79 - كليات رسائل النور (8 / 81)

80 - النساء - 78

81 - النساء - 82

82 - الموافقات للشاطبي (3 / 382 - 383)

83 - اخرجه الفريابي

84 - الاتقان في علوم القرآن (2 / 184)

نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ... " 85 . وما ثبت عن ابي الدرداء قال : " لا يفقه رجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها " .

وما ثبت عن ابن عباس من تفسير لقوله تعالى { **إذا جاء نصر الله والفتح** ... } السورة قال ابن عباس : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد من نفسه ، فقال عمر : ما تقولون في قوله تعالى { **إذا جاء نصر الله والفتح** ... } فقال بعضهم أمرنا ان نحمد الله ونستغفره اذا انتصرنا وفتح علينا ... وسكت بعضهم فلم يقل شيئا .

فقال عمر : أذلك تقول يا ابن عباس ؟ قلت : لا ، قال فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ، وذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره ... فقال عمر : ما اعلم منها الا ما تقول 86 .

فمن هذا الحديث نرى ان بعض الصحابة لم يفهم من السورة اكثر من المعنى الظاهري لها ، أما ابن عباس وعمر فقد فهما معنى آخر وراء المعنى الظاهري هو معنى باطن تدل عليه السورة بطريق الإشارة .

وما ورد من فهم عمر حين سمع قوله { **اليوم اكملت لكم دينكم** ... } وفرح الصحابة لكن عمر توقف وقال : ما بعد الكمال الا النقص فكأنه استشعر نعي رسول الله ﷺ ، فبكى عمر لما نزلت هذه الآية ورد قائلًا : يا رسول الله ! إنا في زيادة في ديننا فاما اذا كُمل فانه لم يكمل شيء قط إلا نقص ، فقال : صدقت 87 .

ان هذه الروايات تدل دلالة واضحة على أن القرآن الكريم له ظهر وباطن ، ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي ، وباطن يفهمه أصحاب الموهبة أرباب البصائر غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل اليه مداركنا القاصرة ، بل هي أمر فوق ما نطن وأعظم مما نتصور 88 .

غير ان العلماء وهم يقرون بان للقرآن معان تحتاج الى التدبر والتفكر والفهم العميق ، يشترون لصحة المعنى الباطني شرطين :
الاول : ان يصح على مقتضى الظاهر المقر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية .

الثاني : ان يكون له شاهد نصا او ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارضة .

فاذا توفر الشرطان في معنى من المعاني قبل لانه معنى باطن صحيح والا رفض رفضا باتا لانه معنى باطن فاسد وتقول على الله بالهوى والتشهي 89 .
ويمكن قبول التفسير الاشاري بتوفير شروط لخصها العلماء هي :
1 - ان لا يكون التفسير الاشاري نافيا للظاهر من النظم القرآني .

85 - اخرجه ابو حاتم

86 - البخاري في المغازي رقم 4294

87 - جامع البيان في تفسير أي القرآن لابن جرير (80 / 4)

88 - التفسير والمفسرون للذهبي (2 / 342)

89 - التفسير والمفسرون للذهبي (2 / 344)

- 2 - ان يكون له شاهد شرعي يؤيده .
- 3 - ان لا يكون له معارض شرعي او عقلي .
- 4 - ان لا يدعي أن التفسير الاشاري هو المراد وحده دون الظاهر بل لا بد ان نعترف بالمعنى الأظهر
- اولا : "ومن ادعى فهم اسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ الى صدر البيت قبل ان يجاوز الباب"⁹⁰
- ان هذه الشروط هي التي تحدّد القبول أو الرفض للتفسير الاشاري .
- ويحدد الذهبي معنى القبول للتفسير الاشاري ، بعدم رفضه لا وجوب الأخذ به ، وذلك لانه لا ينافي الظاهر .
- ويرى أن عدم الأخذ بالتفسير الاشاري انما هو بدافع انه من قبيل الوجدانيات التي لا تقوم على دليل ولا تستند الى برهان⁹¹ .
- ويقرر الشاطبي - رحمه الله - قبول التفسير الاشاري اذا كان أصل انفجاره من القرآن ، ويتبعه سائر الموجودات "فان الاعتبار الصحيح في الجملة يخرق نور البصيرة فيه حجب الاكوان من غير توقف .."
- ويرى ان هذا الاعتبار صحيح معتبر في فهم باطن القرآن من غير اشكال ، لان فهم القرآن انما يرد على القلوب وفق ما نزل له القرآن ، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل من المكلفين بحسب التكاليف واحوالها لا باطلاقه ، واذا كان كذلك فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم⁹²
- يقول ابن القيم : وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول :
- تفسير على اللفظ وهو الذي ينحو اليه المتأخرون .
- وتفسير على المعنى : وهو الذي يذكره السلف وتفسير على الاشارة وهو الذي ينحو اليه كثير من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به باربعة شروط :
- 1 - الا يناقض معنى آية .
 - 2 - ان يكون معنى صحيحا في نفسه .
 - 3 - ان يكون في اللفظ إشعار به .
 - 4 - ان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم .
- فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة كان استنباطا حسنا⁹³ .
- وعليه فلست ارى مانعا من اعتماد التفسير الاشاري للقصص القرآني والذي عُرف به (الامام النورسي) لتوفر شروط قبول هذا التفسير في صنيعة .
- ان كتاب الله تعالى نزل ليُتلى ويتفاعل مع الحياة وواقع الناس ، وليفهمه العالم وغيره ، فالعامة يقفون عند معناه الظاهر، لكن الخاصة وعلماء الأمة الراسخين في

90 - الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (2 / 184)

91 - التفسير والمفسرون للذهبي (2 / 363)

92 - الموافقات للشاطبي (3 / 403 - 405)

93 - مباحث في علوم القرآن 358

العلم هم الذين يتدبرون الآيات ويتفكرون فيما تفيد من معان دقيقة تواكب حقب التاريخ ومستجدات العصور.

وإنك واجد هذا المنهج هو ذاته الذي عُرف به النورسي في بحثه في قصص القرآن الكريم ، فلم يقف عند ظاهر النص بل طلب ما يشير النص إليه من معان دقيقة لطيفة .

التكرار في القصص القرآني وموقف النورسي منه

ان القصة الواحدة في القرآن يتعدد ذكرها ، وتعرض في صور مختلفة من التقديم والتأخير والايجاز والاطناب .

ان من النصوص البيانية ماله عدة أهداف فيؤتى به في سياق ما لهدف منها ، وفي سياق آخر لهدف آخر ، وفي ثالث لهدف ثالث .

فمثلا السياق قد يستدعي الاستشهاد بجانب من جوانب قصة موسى مع قومه فيؤتى بلمحات منها .

ثم يأتي سياق آخر في سورة أخرى وفيه ما يستدعي الاستشهاد بجانب آخر . وهكذا فالقصة الواحدة قد يُستشهد بها في عشرات من المناسبات المختلفة إذ فيها لكل مناسبة ما يصلح شاهدا أو عظة أو عبرة .

ومن أغراض التكرار تحقيق جوانب بلاغية ، فثروى القصة الواحدة بعبارات قليلات وعبارات متوسطة الطول ، وعبارات أطول ، وفي مناسبات متعددة ، وفي سور متباعدة، وفي ازمة مختلفة دون ان تتعرض الى اختلاف بل تتكامل فيما بينها تكاملا عجيبا⁹⁴ .

ان التكرار للقصص القرآني فيه من الحكمة العظيمة ما تقتضيه البلاغة . ويشير "النورسي" الى حكمة التكرار في القصص مبينا ان لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى عليه السلام فيقول :

"انما هي لاثبات الرسالة الأحمدية ، وذلك بإظهار نبوة الانبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة الأحمدية وصدقها حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من أنكر نبوتهم جميعا "

ثم ان كثيراً من الناس لا يوفقون الى تلاوة القرآن الكريم كله بل يكتفون مما تيسر لهم منه ، ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر .

ومن ثم تكرر القصص فيها بمثابة تكرر اركان الايمان الضرورية أي أن تكرر هذه القصص هو مقتضى البلاغة وليس فيه إسراف قط .

زد على ذلك فان فيه تعليما بان حادثة ظهور محمد م اعظم حادثة للبشرية واجلّ مسألة من مسائل الكون⁹⁵ .

94 - قواعد التدبر الامثل عبد الرحمن الميداني (312 - 315)

95 - كليات رسائل النور (313 / 4)

الخاتمة

اننا وبعد هذا العرض والدراسة لمنهج النورسي في القصص القرآني نجمل اهم النتائج التي توصلنا اليها فيما يلي :

ان القصص القرآني في نظر النورسي يُعد برهانا ساطعا علي نبوة محمد p .
ان القصص القرآني غيب ، فيقتضي ذلك ضرورة التثبت في نقل القصص وعدم اعتماد الاسرائيليات في فهمها .
القصص القرآني للعبرة والاعتاظ .
القصص القرآني خلاصة تجارب البشرية في نهاية مساعيها الى الصعود والترقي

ان كل جزئية من جزئيات قصص القرآن تنبئ عن دستور كلي عظيم .
تتخذ بصيرة "النورسي" الى باطن القصص ليستخرج منها معان دقيقة وفق هدي "التدبر" لأي القرآن .

يعتمد النورسي المنهج الإشاري في تعامله مع القصة القرآنية بما يتفق مع شروط قبول هذا المنهج وعدم رفضه .

يعدل "النورسي" عن الاختلافات في قضايا لا مبرر للاختلاف فيها ، ويلتفت الى المعنى المستنبط من القصة .

يرجح النورسي في الاختلاف ما يراه راجحا بمختلف المرجحات .
لا يختلط الامر على "النورسي" كما اختلط على مَنْ بحث في القصص لكونه اعتمد منهج التحقيق .

يرى "النورسي" أنه ما دام الهدف من القصة هو "العبرة" فلا لزوم الى الخوض في التفصيلات: " ولا عليك كيف كانت ، خذ حظك منها وامض الى شأنك" .

ان التكرار في القصة القرآنية في نظر النورسي له أغراضه الكثيرة . بلاغية وإعجازية اضافة الى اثباته الرسالة المحمدية .

وختاما نقول إن هذا المنهج في البحث في القصة القرآنية منهج فدّ عملي جرى يُحدث تفاعلا بين القرآن والحياة الانسانية بل ويقدم تواسلا بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فينبغي ان لا يغفل عنه الباحثون في القصص القرآني .

والحمد لله رب العالمين

المراجع والمصادر

- 1 - الاساس في التفسير / سعيد حوى - دار الاسلام للطباعة والنشر
- 2 - تفسير البيضاوي للامام ابي الخير الشيرازي - دار الفكر / 1982
- 3 - تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير - دار الفكر
- 4 - التفسير الكبير للفخر الرازي / فخرالدين الرازي - دار الفكر
- 5 - جامع البيان عن تاويل اي القرآن / للامام محمد بن جرير الطبري - دار الفكر
- 6 - في ظلال القرآن / سيد قطب - دار الشروق
- 7 - القصص القرآني / فضل حسن عباس - دار الفرقان / الطبعة الاولى
- 8 - كليات رسائل النور للنورسي
- 9 - لسان العرب لابن منظور - دار صادر
- 10 - مباحث في علوم القرآن / مناع القطان - مؤسسة الرسالة / الطبعة الرابعة

موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر

عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي

د. عبد العزيز برغوث P

مدخل عام

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور والأمل المتجدد على طريق الوعي والنهوض الحضاري الإسلامي أن يعقد هذا المؤتمر العالمي في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة من لحظات التحول الحضاري الكبير الذي يطول مشارق الأرض ومغاربها بصورة شمولية ويؤثر بقوة في الأشخاص والأفكار والمؤسسات. فتوقيت المؤتمر وموضوعه يعكسان تماما وعي حركة النور بالواقع ومتطلباته .

وإذ ينعقد هذا المؤتمر لبحث في جانب مهم من جهود عالم مجاهد من علماء المسلمين، هو بديع الزمان النورسي فإنه من الواجب أن نحدد بصورة واضحة الإطار النظري الذي ستحلل فيه الأفكار وتناقش ضمنه الإشكاليات المثارة أمامنا. وبعبارة أخرى ينبغي ربط موضوع المؤتمر بظروف واقعا وأحوال أمتنا في لحظتها التاريخية الراهنة. فلكي نفهم بعمق فكر الإمام النورسي ينبغي أن نقوم بعملية حوار علمي معه. أي أن نثير تساؤلاتنا عليه ونبحث في فكره عن أجوبة ومدخل للوعي والتفكير السليم. فبخلاف من يصف فكرا أو علما ما ينبغي لنا أن نحلل فكرا وندرس مدى حيويته وفاعليته في التفاعل مع الوقائع والأحداث وإلا أفقدنا هذا الفكر عمقه ومضمونه الحي في معانيه ودلالاته.

فمن هذه القناعة تحاول هذه الورقة المتواضعة جدا بحث حيوية وفاعلية أفكار الإمام النورسي من خلال موضوعها الموسوم ب" موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان النورسي". وتشتمل الورقة على مجموعة نقاط يمكن إجمالها كالآتي:

* الإطار النظري العام لدراسة علاقة العلم بعملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان النورسي

* المحددات المنهجية لدراسة مفهوم العلم عند الإمام النورسي

* موقع العلم في عملية الاستخلاف والتحضر : الفاعلية التجديدية للعلم

أولا: الإطار النظري العام لدراسة علاقة العلم بعملية الاستخلاف والتحضر

P من موليد ولاية باتنة بالجزائر. يدرس في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان بالجامعة الإسلامية العالمية. بماليزيا. له عدة دراسات وأبحاث منشورة. ومن كتبه المنشورة: المنهج النبوي والتغيير الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، رقم: 43، قطر.

بادئ ذي بدء ينبغي تحديد المعنى العام لمفهوم الإطار النظري في هذه الورقة كيما نتجنب أي خلط أو غموض في التحليل. فالإطار النظري العام هو منظومة المفاهيم المرجعية والمحددات المنهجية التي تشكل رؤية الباحث ومقدماته الأساسية وأرضيته التحليلية التي بما يتوصل إلى دراسة مسألة معينة وفق منظور متناسق ومنهج منطقي تنتظم فيه القضايا الكلية والجزئية بشكل يؤدي إلى تحليلها واستخدامها في تحقيق أهداف البحث .

ولما كان الإمام النورسي من أبناء الإسلام وحضارته فإن مرجعية ومنهجية وأرضية التحليل التي تصدر عنها هذه الورقة هي الإسلام بمفهومه العالمي الشمولي. ولما كان الإطار النظري المرجعي إسلاميا في الأساس فإن فكر الإمام النورسي يشكل اطرادا مستمرا وحلقة مكملية من حلقات الوعي الحضاري الإسلامي. ومن هنا ينبغي تحديد موقع جهود الإمام النورسي في سياق حركة البناء الحضاري الإسلامي العامة. فدراسة أفكاره وجهوده تكون ضمن النسق المفهومي الذي تولدت فيه حركة النهضة الحديثة للأمة الإسلامية. فالنورسي رائد من رواد النهضة ومنظر من منظرها. ولكي نفهم أفكاره بعمق ينبغي أن ندرجها ضمن هذا السياق النهضوي الحيوي وإلا أفقدناها كثيرا من فاعليتها وحيويتها. فمثلا عندما ندرس مفهومه للصلة بين العلم وعملية الاستخلاف والتحضر، ينبغي أن لا نفصلها عن سياقها النهضوي أي أن لا ندرس العلم أو الاستخلاف أو التحضر كمفاهيم نظرية جافة نصفها وكأنها مفاهيم جزئية منفصلة عن واقعها وموضوعها. فالحيوية النهضوية هي التي تعطي لهذه المفاهيم شرارتها الروحية وأبعادها القيمة وآفاقها المنهجية والمعرفية، إذا ضمنها تتكامل هذه المفاهيم وتصبح أجنة نشاط مفعم بالحيوية والفاعلية التي تجعل منها مفاهيم بنائية مؤثرة في وعي الإنسان وحركة الواقع. فالذي ينبغي إدراكه ونحن ندرس فكر الإمام النورسي هو أن نربطه وباستمرار بالاطراد النهضوي الذي تولد فيه هذا الفكر ذاته. فالنورسي لم يؤلف أو يكتب ليناقش مفاهيم نظرية ولكن ألف لأنه كان يحمل هم الأمة وهم الحضارة وهم الإنسان المعاصر وهم النهضة الإسلامية. إذ كان يشعر في قرارة نفسه بعمق الأزمة وخطورة الموقف الإسلامي العام في اللحظة التاريخية التي عاصرها بوعي وهمية عالية.

فالإطار النظري المعتمد في دراسة مسألة العلم وصلتها بعملية الاستخلاف والتحضر هو الإطار الذي يصل هذا الموضوع بمسألة النهضة وواقعها الحالي. وتوضيحا لهذا الإطار تحاول الورقة تأسيس رؤية ولو عامة عن المسألة النهضوية ومحاولة ربط أفكار النورسي بهذا السياق.

النهضة التجديدية من الإشكالية العامة إلى المشروع الحضاري

لأمة الإسلام الوسطية رسالة استخلافية حضارية. فيحكم طبيعتها وغايتها وجودها وطريقة إخراجها للناس وإظهارها في الواقع - كأمة حاملة لنص الوحي العالمي الخاتم والمحفوظ- تتشكل حقيقتها وتصاغ ثقافتها وتصورها للكون والحياة والإنسان والعمران. وهي بهذا المعنى العام ذات شأن عالمي وإنساني يتجاوز حدودها وجغرافيتها الاجتماعية والثقافية والطبيعية. وبالتالي فهي ذات أفق فكري من المفروض أن يستوعب الجغرافية الحضارية والثقافية للأمم الأرض جميعا ويدخل في حوار عالمي مع الناس كافة من منطلق الهداية والتعارف والتحضر والتعمير للعالم والتثقيف للإنسان.

فإذا كانت طبيعة الأمة الوسطية تنتظم ضمن هذا الإطار الاستخلافي الحضاري، فإنه من واجب من يحمل رسالة هذه الأمة أن يكون في مستواها حتى يكون بمقدوره إيصال معانيها ومقاصدها ورسالتها للإنسان في هذا العالم. وفي تاريخ هذه الأمة يأتي الجيل المؤسس بقيادة النبي ρ ليقدم نموذج

الإنسان الرسالي الذي يستوعب معاني هذه الأمة ويرتفع إلى مستوى رسالتها فيكون المعبر الحقيقي عن مقصودها وفلسفتها العامة للتحضر والاستخلاف. فإذا كان هذا هو الوضع الطبيعي للأمة الوسط، فإن تخلفها عن هذا المستوى والوضع المتوازن يعبر عن الاختلال العام في فكر وواقع واجتماع حاملها والشاهد بما على غيرها من الأمم. فإذا كان هذا الفهم مستقيماً فإن الواقع يبين أن اللحظة التاريخية الحالية التي تعيشها الأمة الإسلامية هي لحظة الاختلال العام الذي يجسد واقعياً تخلف الأمة عن رسالتها وتخلف الإنسان الحامل لرسالتها عن نص الوحي الذي يتضمن رؤية ومشروع ومنهج هذه الأمة في العقيدة والحركة والسلوك وال عمران.

ومن هنا تصبح النهضة² هي التعبير الحالي عن استجابة الإنسان المسلم لظاهرة الاختلال العام في مسيرة هذه الأمة. فالنهضة بهذا المعنى هي محاولة المجتمع الإسلامي الارتفاع بالإنسان والثقافة والتراث والواقع الإسلامي الحالي إلى مستوى إدراك معاني الأمة الوسط وتجسيدها في الواقع والسلوك وفقاً للرؤية الكونية التوحيدية. بعبارة المفكر الجزائري مالك بن نبي النهضة هي " ما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي، هي حركة ضميره ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني، وعن ركب الفكر العلمي الحديث"³.

فالنهضة إذن هي الإشكال الحضاري الكبير الذي شحذ هم العلماء والمفكرين، فإنبرى كثير من أبناء الأمة لمواجهة شروط النهضة وإشكالاتها حتى غدت النهضة مشروعاً حضارياً يتغي تحقيق التحول الحضاري الكبير للإنسان المسلم ونقله من وضع التخلف إلى وضع التحضر الذي تتجسد فيه معاني الاستخلاف الحقيقية. وهنا تقف محاولة الإمام النورسي أمامنا لتواجه هذه المشكلات النهضوية وتؤسس لوعي حضاري منهجي استخلافي يصدر عن المرجعية التوحيدية ويتوجه نحو تجسيد قيم الخلافة على المستوى الكوني والإنساني.

الإمام النورسي والمداخل التأسيسية للمشروع الحضاري النهضوي

فالإمام النورسي يعرض علينا أفكاراً يمكن اعتبار العديد منها في صميم الوعي الحضاري وفي عمق الحركة النهضوية الإسلامية. فإذا كانت أطروحات المفكرين الإسلاميين النهضوية متنوعة على مستوى الرؤية والمنهج، فإنه من واجبنا أن نستكشف إلى أي مدى وفق الإمام النورسي في تطوير رؤية ومنهج للتجديد والنهوض الحضاري. وفي المشاريع النهضوية المتعددة يمكن أن نفرز بين أصحاب الرؤى والمناهج السياسية والاجتماعية والتربوية والفكرية والثقافية.

ففي أي رؤية ومنهج يمكن أن نصنف فكر الإمام النورسي؟ وبعبارة أكثر دقة ما هي المداخل التأسيسية للمشروع الحضاري النهضوي عند الإمام النورسي؟

وباختصار شديد يمكن القول أن المداخل التأسيسية⁴ الرئيسة هي:

* - العلم بمفهومه التوحيدي والكوني والإنساني

* - الإنسان بمفهومه الرسالي والاستخلافي

* - والاستخلاف بمفهومه الحضاري الاعماري.

2 يستخدم في هذا البحث مفهوم النهضة لاعتبارين: الأول لأن الأمة الإسلامية تواجه فعلاً حالة نكسة. وثانياً لأن معاني التحضر والتجديد والتقدم والتغيير كلها يمكن أن تدرج كمفاهيم تحليلية تعين على مناقشة مسألة النهضة. فالنهضة في عمقها تعبير عن تجديد وتغيير ومحاولة للتقدم والتحضر.

3 بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، الطبعة الخامسة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 125.

4 هناك مداخل تأسيسية أخرى يمكن دراستها في أوراق وموضوعات أخرى.

1- الأبعاد الكبرى لنظرية العلم عند النورسي

فالعلم مدخل تأسيسي لأي تحول مُضوي حضاري. وهذا المعنى للعلم ونظريته العامة لا يمكن تحصيله إلا بالعودة إلى المرجعية التوحيدية التي تعطي لهذا المفهوم أبعاده الكبرى المتمثلة في:

- البعد التوحيدي وذلك بوصل العلم بخط الوحي الذي يفتق أمامه المعاني والدلالات المتحددة المعجزة. وبهذا يصبح العلم مرجعياً متجذراً في الوحي فتستقيم مضامينه وتتوافق دلالاته مع الإرادة الإلهية فتفتح له كنوز المعارف وتظهر أمامه معجزات الوعي والتفكير التي يكون مآلها الحقيقي والنهائي معرفة الله حق المعرفة وتجسيد معاني وقيم هذه المعرفة في العقل والقلب والسلوك والاجتماع. يقول الإمام النورسي: "إن حكمة محيي الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به والقيام بعبادته، كما أن وظيفة فطرته وفريضة ذمته، هي: معرفة الله والإيمان به"5. وبهذا يكون حامل هذا العلم فاعلاً حيويًا على مستوى عالي من القدرة والمكينة والإتقان والتمثل لمنهج الوحي وشريعته وعقيدته. فمعرفة الله هي حقيقة الحقائق وثمره الوجود الإنساني وغايته لأن "من عرف الله حق المعرفة وملاً قلبه من نور محبته سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي ولنعمه لا تنضب ولأنوار وأسرار لا تنفذ وسينالها إما فعلاً وواقعاً أو استعداداً وقابلية"6. فالإنسانية لا تترقى وتسمو بالتقدم التقني والعلمي والصناعي إذا لم يتبع هذا التقدم تقدماً إيمانياً خالصاً. لأن "أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو معرفة الله التي في ذلك الإيمان... وأن أزهى سعادة للإنسان والجن وأحلى نعمة هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة"7. وهذا الذي يمكن تسميته (العمق الإيماني للعلم). وفي هذه الحالة يمكننا أن نقول أن القرآن تناول الوحي والعلم في إطار واحد لأن: الوحي ينفذ إلى العلم وينيره ويجعله حقيقة. وبهذا يظهر البعد الإيماني الذي أكسبه الوحي للعلم"8.

- البعد السنني الذي يعطي للعلم منطقيته ويخرجه عن الهوى والسلبية وذلك بربطه بالسنن والقوانين والأسباب المضطردة في الواقع والحياة. وتركيز الإمام النورسي على السنن واضح وحثه على الانسجام معها يكاد يتكرر باستمرار. ومن ذلك قوله: "إن هناك طاعة وعصيانية تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيانية تجاه الأوامر التكوينية"9. ويزيد الإمام في توضيح المسألة بصورة أخرى في قوله: "إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيها، ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرفق، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون"10. وهذا الذي يمكن تسميته (العمق السنني للعلم).

- البعد التسخيري وذلك يجعل وظيفة العلم وظيفته تسخيرية. وهذه في الحقيقة أعظم دلالة على الأبعاد العملية والأفاق الحياتية والاعمارية للعلم. ومن هنا تظهر خطورته وأهميته وموقعه في العملية الاستخلافية والحضاري (العمق التسخيري للعلم).

5 بيدع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، استانبول، 1993، ص 135.

6 النورسي، الكلمات، ص 289.

7 بيدع الزمان النورسي، المكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، استانبول، 1992، ص 289.

8 ألب أرسلان آحق كنج، تقييم رسائل النور من زاوية تصنيف العلوم، المؤتمر العالمي لبيدع الزمان سعيد النورسي: تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين، الطبعة الأولى، استانبول، 1996، ص 452.

9 النورسي، المكتوبات، ص 611.

10 النورسي، للمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، استانبول، 1993، ص 257.

-البعد السلوكي للعلم وذلك يجعله أساس للسلوك والحركة الإنسانية. فعندما يستحكم العلم ويصبح هو الدليل على السلوك يستقيم هذا السلوك ويتوازن ويتناغم مع الواقع الإنساني. فتصبح حركة الإنسان فاعلة مؤثرة مغنية للحياة والوجود الحضاري للبشر. (العمق السلوكي للعلم)
فالإمام النورسي يعرض العلم كمفهوم حيوي فاعل متصف بالصبغة الإيمانية والترعة السننية والمنطق التسخيري والوجهة السلوكية. ومن هنا فينبغي لنا أن نعيد قراءة مفهوم العلم بهذه الرؤية الشمولية التكاملية كما ندرکه في سياقه الإسلامي الصحيح. فالعلم بهذا الشمول يصبح مدخلا تأسيسيا مهما جدا في الإصلاح والتجديد والتحضر .

ب- الإنسان الرسالي الكوني عند الإمام النورسي

وأما الإنسان الرسالي الذي يحمل الأمانة ويتصدى لشروط الخلافة فهو ذلك الإنسان المتكامل الذي تتجسد فيه معاني الرسالية والرشاد بمفهومه الإسلامي. وهذا الإنسان المتكامل كما يتصوره الإمام النورسي إنسان تنمو فيه معاني الخلافة في الأرض وتتنظم في وعيه وفكره منظومة المفاهيم الإستخلافية التي تجعل منه إنسانا يخرج عن داعية هواه فتستقيم نفسه وروحه وقيمه مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية من هداية. فالإمام النورسي ينظر إلى هذا الإنسان بتكاملية شمولية. فتكاملية الإنسان عنده تبدو من خلال تكوينه التكاملية الذي يشتمل على:

- التكوين العقائدي الإيماني الذي يؤدي إلى تعميق البعد العبادي والروحي والاتصالي بالله سبحانه وتعالى. حتى تصبح العبادة أساس حياة الإنسان الرسالي ووجهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل تطوره وخاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة.
 - التكوين الفكري والمعرفي الذي تستقيم به رؤية الإنسان ونظراته للكون والحياة والإنسان فيكون بذلك منتظما في فكره ومعرفته. ويصبح عقله مستقيما مع غاياته ومقاصده، ملتزما لحدوده مرابطا في ما أتيج له من النفاذ في أفطار السموات والأرض بحثا عن الحق والخير .
 - التكوين النفسي الذي تبني به نفسية الإنسان وإرادته وتطلعاته بصورة تسمح له بحمل الرسالة والأمانة على وجهها المطلوب. فيكون بذلك قادرا على التضحية والبذل والعطاء من أجل تحقيق مشروعه الإستخلافي في الحياة .
 - التكوين السلوكي والعملي الذي يصبح به الإنسان المعبر الحقيقي عن عقيدته وشريعته ورسالته ومبادئه. فتتسجم في حياته النظرية والتطبيق والكلام والفعل والفكر والسلوك. فيعيش التوافق والتناغم الذي يطره ويرقيه ويسمو به في مدارج السالكين لسبل النبوة ومراقبها.
 - التكوين الاجتماعي والثقافي الذي يعطي للفرد والجماعة أدوات الاتصال الاجتماعي والثقافي التي تجعل المسلم اجتماعيا غير معزول عن تيار الوعي العالمي كما تجعله معتزا بثقافته وتراثه وتاريخه .
- فتكاملية الإنسان عند الإمام النورسي تعني هذا التكوين العقائدي والفكري والنفسي والروحي والسلوكي والاجتماعي والثقافي مجتمعة في وحدة منهجية شاملة بحيث تتجسد في نظام تعليمي وتربوي يكون قادرا على بناء الإنسان الرسالي المتكامل.

ج- المراكز التأسيسية لمفهوم الاستخلاف

وأما فيما يتعلق بمفهوم الاستخلاف فإن الإمام النورسي يعتبره أساسيا جدا في حياة الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء. فنظراته إلى مفهوم الاستخلاف شمولية تتضمن جملة مرتكزات منها:

- المرتكز التوحيدي للاستخلاف وذلك بربط الإنسان الخليفة بخالقه وجعله متصلاً بالله سبحانه وتعالى .

- المرتكز الكوني للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالكون ودعوته إلى التأمل والسير في الأرض واستعمارها وتسخيرها في تحقيق الأمانة.

- المرتكز الحضاري للاستخلاف وذلك بتوجيه الإنسان الخليفة إلى الجمع بين متطلبات الجسد والروح، والواقع والمثال .

- المرتكز الأخروي للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالجزء الأخروي المضمون في حالة استقامته على الطريقة وحمله للأمانة على وجهها الصحيح. وهذا المرتكز هو الذي يقدم الدعم النفسي والمعنوي للإنسان عندما يضمن له ثمرة جهاده ونتيجة عمله للصلوات .

فبهذه المداخل التأسيسية الكبرى: العلم والإنسان والاستخلاف يكون الإمام النورسي قد وضع مشروع النهضة على أرضية صلبة يمكنها أن تؤهل الأمة لأداء رسالتها في العبادة والإعمار والهداية للبشرية. ومن هنا فينبغي دراسة أفكار الإمام واطروحاته ونكاته وإشاراته ولعائته ومكتوباته وكلماته في هذا السياق الحيوي الذي يجليه بصورة حية فاعلة مؤثرة في الوعي والسلوك.

ثانياً: المحددات المنهجية لدراسة مفهوم العلم في المنهج العام للإمام النورسي

بعد أن تشكلت لدينا الصورة العامة للإطار النظري ينبغي أن نحدد بشكل واضح بعض المحددات المركزية التي يتقوم بها مفهوم العلم عند الإمام النورسي. وباختصار شديد يمكن إرجاع هذه المحددات المنهجية إلى:

أ- الآفاق الدلالية للعلم على مستوى كتاب الكون وكتاب الوحي وكتاب البيان النبوي:

إن تحديد الدلالات العميقة والصحيحة للعلم وإدراك مغزاه التوحيدي والسنني والتسخيري والسلوكي لا يكون إلا بالقراءة المنهجية لكتاب الكون وكتاب الوحي وكتاب البيان والأسوة والقُدوة الذي تجسد كاملاً في حياة الرسول ρ وشخصيته البشرية والنبوية.

وفي هذا المعنى يقول الإمام النورسي:

" إن ما يعرف لنا ربنا هو ثلاثة معرفين أدلاء عظام: أوله: كتاب الكون... وثانيه: هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم، وهو خاتم ديوان النبوة... ρ . وثالثه: القرآن الكريم 11".

ففي هذا المحدد المنهجي يركز الإمام على مسألة مهمة جدا في بناء نظرية إسلامية للعلم. فالذي مثلاً يحاول بناء نظرية للعلم تأسيساً على الكتاب الكوني فقط فإنه لن يتمكن من اكتشاف الحقيقة العظمى للوجود الإنساني. كما أن الذي يوجه نظره فقط إلى كتاب الوحي مغفلاً الكتاب الكوني فإنه يفتقد بعداً مهماً من أبعاد القراءة الصحيحة للدلالات العظيمة للعلم. " فالكتابين متكاملين متفاعلين، يستحيل عليك أن تقرأ القرآن دون أن يلفت نظرك إلى عظمة الكون بمخلوقاته وأركانه المختلفة 12".

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن الإمام النورسي يؤكد بصورة واضحة موقع ودور الرسول صاحب الرسالة الخاتمة في بيان معاني ومقاصد الإطلاع على الكتاب الكوني وكتاب الوحي وتجسيدها في

11 بيدع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات، ترجمة: احسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، 1992، دار سوزلر للنشر، استانبول، ص 254.

12 حمود عليما، منهج المعرفة والاستدلال عند النورسي، بيدع الزمان النورسي: فكره ودعوته، وقائع الحلقة الدراسية المنعقدة في قاعة المركز الثقافي الإسلامي\عمان، 1997، المحرر: ابراهيم علي العوضي، الطبعة الأولى، 1997، ص: 64 .

الواقع. " حيث أن أكمل إمام وأمثلة قدوة في هذا الأمر هو محمد 13.ρ ومن هنا يمكن القول أن محاولة قراءة كتاب الكون وكتاب القرآن متغافلين عن البيان النبوي الأسوة والقدوة الموضوعية التي جسدت مضامين الوعي بالوحي والوعي بالسنن الأفاقية والنفسية فإن ذلك يؤدي إلى اشكالات منهجية خطيرة قد نخرجنا عن المنهج الصحيح في التعامل مع المفهوم القرآني للعلم ونظريته. ومن هنا نجد الإمام النورسي واضح بالصورة الكافية في تأسيس هذا المحدد حيث لا يغفل الكتاب الكون14ي ولا كتاب الوحي ولا كتاب البيان والقدوة والأسوة- إن صح التعبير .-

ب- العلم في الإسلام بين علم الأسماء وأسماء الله الحسنى

إن مدلول العلم الصحيح ينبغي ربطه بمسألة تعليم الأسماء التي تشكل محور ومرتكز الخلافة الرئيس. يقول الإمام النورسي مبينا مفهوم قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها} (البقرة: 31) " تبين هذه الآية أن المعجزة الكبرى لآدم عليه الصلاة والسلام- في دعوى خلافته الكبرى- هي تعليم الأسماء... أن تفوق أبيكم آدم في دعوى الخلافة على الملائكة كان بما علمته الأسماء كلها، وأنتم بنوه ووارثو استعداداته ومواهبه فعليكم أن تتعلموا الأسماء كلها لتثبتوا جدارتكم أمام المخلوقات لتسليم الأمانة العظمى، فلقد مهد الطريق أمامكم لبلوغ أسنى المراتب العالية في الكون، وسخرت لكم الأرض، هذه المخلوقة الضخمة، فيها انطلقوا وتقدموا، فالطريق مفتوح أمامكم... واستمسكوا بكل اسم من أسمائي الحسنى، واعتصموا به، ولتسموا وترتفعوا... ارفعوا رؤوسكم عاليا، وانعموا النظر والفكر في أسمائي الحسنى، واجعلوا علومكم ورفيكم سلما ومراقى إلى تلك السموات لتبلغوا حقائق علومكم وكمالكم وتصلوا منابعها الأصلية تلك هي أسمائي الحسنى 15".

فمن الواضح أن مسألة تعليم الأسماء تشكل مدخلا مركزيا تأسيسا للاستخلاف. ومن هنا يعرضها الإمام النورسي باعتبارها ضرورة من ضرورات الوعي الاستخلافي. فمسألة تعليم الأسماء تشتمل على معنيين أساسيين في تحديد حقيقة ووظيفة العلم في الإسلام وهي:

1- أن تعليم الأسماء تعبير عن الإمكانيات الإنسانية العقلية والنفسية والروحية التي تفتق بها أمام الإنسان كنوز الحكمة والوعي والخير وتفتح لها آفاق التحضر والاستخلاف. فهي التي تمثل حيوية الإنسان في قمة وكمال استعداده ليكون مستخلفا في الأرض. فالحق تبارك وتعالى أودع في الإنسان استعدادا وإمكانا فطريا واستخلافيا ضخما هو الذي يجعله قادرا على حمل الأمانة ومواجهة متطلباتها وشروطها عبر التفاعل بالوعي والعقل والفكر مع الكون والواقع. ويوضح الإمام النورسي هذا المعنى في نكتة من نكاته المهمة قائلا: " إن كل ما ناله الإنسان- من حيث جامعته ما أودع الله فيه من استعدادات- من الكمال العلمي والتقدم الفني إلى حوار الصناعات والاكتشافات تعبر عنه الآية الكريمة بتعليم الأسماء 16". فكان تعليم الأسماء "أساس لتمكنا الكامل من تطوير إدراكنا للوجود، وقدرتنا على تعديل مسار فكرنا على درب الحقيقة التي خلقها الله، وما أحرى أن يكون خليفة الخالق

13 بديع الزمان النورسي، للمعات، ص 93.

14 يقول الإمام النورسي في هذا المعنى " إن الكون العظيم يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر في أثناء قراءتي لخلاصة الخلاصة. " أنظر

النورسي، الملاحق، ترجمة: احسان قاسم، ص 122 .

15 النورسي، الكلمات، ص، 290.

16 النورسي، الكلمات، ص 290.

مهيو لأن يتعامل مع الوجود الذي خلقه الله بما يكفل له أن يكون على قدر الخليفة إدراكا وتطورا وتعديلا لما يصنعه 17".

فتعليم الأسماء عند الإمام النورسي يعني الإستعدادية الكاملة للتلقي عن الله وللتفاعل مع الكون وللتفكير في الوجود ولتحقيق البناء الحضاري ولتحصيل الترقى الروحي والنفسي والعلمي باتجاه تحقيق الخلافة الأرضية التي تمتد بوعي الإنسان وفكره إلى ما وراء واقعه الزماني الفاني وتمده بالقدرة على النفاذ إلى أقطار السموات والأرض بسطان العلم الموصول بجبل الوحي وبخط النبوة والهداية الإلهية للبشرية .

يقول الإمام النورسي " {وعلم آدم الأسماء كلها} أي صورته بفطرة تضمنت مبادئ أنواع الكمال، وخلقته باستعداد زرع فيه أنواع المعالي، وجهزه بالحواس العشر وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، واعدده بهذه الثلاث لتعلم حقائق الأشياء بأنواعها، ثم علمه الأسماء كلها 18". فهذا العمق الفطري والاستعدادي للإنسان يبين لنا قيمته وقدرته على القراءة والتفكير والنظر والتدبر ويعكس كذلك موقعه في الحركة الكونية والإنسانية. " فمع أن الإنسان فان إلا أنه مخلوق للبقاء. خلقه الباري الكريم بمثابة مرآة عاكسة لتجلياته الباقية. وكلفه بالقيام بنهمات تنمر ثمارا باقية، وصوره على أحسن صورة حتى أصبحت صورته مدار نقوش تجليات أسمائه الحسنی الباقية، لذا فسعادة هذا الإنسان ووظيفته الأساس إنما هي: التوجه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائرا قدما في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنی 19".

2- إن الإمام النورسي وعلى خلاف معظم المفسرين يتعمق في استخراج معنى جديد وعميق جدا من معاني تعليم الأسماء. وبهذا المعنى الجديد تنفتح أمامنا فرص الوعي المتقدم على طريق شحذ الفعلية الروحية والفكرية للإنسان. فتعليم الأسماء 20 عند الإمام النورسي لا تقتصر على ما ذهب إليه الإمام القرطبي 21 في أن الأسماء تعني العبارات... والتي قد تتضمن أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيقتها أو تتضمن اللغات التي هي أسماء في جوهرها، أو ما ذهب إليه ابن كثير 22 على أن تعليم الأسماء تعني الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها. فالنورسي يرى ضرورة التركيز على ثلاثة أمور. أولهما ربط الأسماء بموضوع الاستخلاف في الأرض. أي أن تكون الأسماء وتعلمها مما يفيد في تحقيق الخلافة في الأرض. " و {علم} فيه إشارة إلى تنويه العلم ورفعة درجته وأنه هو المحور للخلافة 23". فموضوع الأسماء استخلافي عملي مما يؤثر في حركة الإنسان وحياته وثقافته وفكره ووجوده. وثانيهما أن تعليم الأسماء يأخذ قيمته التوحيدية والكونية من ارتباطه بأسماء الله الحسنی. يقول الإمام النورسي في هذا المعنى: "إن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن-أيا كان- حقيقة سامية عالية. وتلك

17 محمود فرج الدمرداش، وعلم آدم الأسماء كلها، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1996، القاهرة، ص 58.

18 بيدع الزمان النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالح، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، استانبول، 1994، ص 341 .

19 النورسي، اللغات، ص 27.

20 النورسي، إشارات الإعجاز، ص 241.

21 راجع، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، كتاب الشعب، دار الريان للتراث، القاهرة، 1981.

22 عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1982.

23 النورسي، إشارات الإعجاز، ص 241.

الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنی، وباستنادها إلى ذلك الاسم يجد ذلك الفن وذلك الكمال وتلك الصنعة كل منها كماله ويصبح حقيقة فعلا "24.

فربط تعليم الأسماء بالأسماء الحسنی يفتح أفقا رحبة للوعي والفكر ليكتشف مخزونات الحكمة الإلهية. كما أن ربط هذه الأسماء بالفعل والواقع والحركة يفتح لحركة الحضارة أفقا في القدرة والإتقان والرحمة والأمن والسلم والعزة والعلم... الخ. فبهذا الربط " يضرب القرآن الكريم..يد التشويق على ظهر البشرية مشيرا إلى أسمى النقاط وأبعد الحدود وأقصى المراتب التي قصرت كثيرا عن الوصول إليها في تقدمها الحاضر"25. وثالثهما أن الإمام النورسي لا ينظر في الفراغ ولا يخلق في المثال عندما يربط تعليم الأسماء بالأسماء الحسنی وإنما يقدم لنا القدوة النموذجية العملية التي نرى فيها ونعيش معها لحظات التجسيد الواقعي للأسماء ودلالاتها العملية. فهو يقدم نموذج النبي ρ كقدوة وأسوة عملية للتطبيق الواقعي لمفهوم تعليم الأسماء المرتبط بالأسماء الحسنی. يقول الإمام النورسي " أما المعجزة الكبرى للرسول الأعظم ρ وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجز فلأن حقيقة تعليم الأسماء تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، فإنه يبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية، ويظهر كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها ويوجهه نحوها مثيرا فيه رغبة شديدة... إن خاتم ديوان النبوة وسيد المرسلين الذي تعد جميع معجزات الرسل معجزة واحدة لتصديق دعوى رسالته، والذي هو فخر العالمين، وهو الآية الواضحة المفصلة لجميع مراتب الأسماء الحسنی كلها التي علمها الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام تعليما جملا "26.

إن إدراك هذا المعنى اللطيف لتعليم الأسماء ومحاولة ربط نظرية العلم بالأسماء الحسنی وبالتطبيق الرسولي العظيم لها يفتح أفقا واسعة وخصبة أمام المعرفة لتتطور وتنمو باتجاه التناغم والتوافق مع مبادئ الفطرة وطباع العمران وسنن الاجتماع وقوانين الكون ونواميس الوجود العامة .

ج- حيوية العلم وفاعليته الاجتماعية والحضارية

إن نظرية العلم في الإسلام تتسم بالنفاذية الكونية والنفسية وبالسلطان الاجتماعي والحضاري الذي يحدث التحولات الكبرى في النفس والوعي والواقع كمدخل لتحويل الثقافة والحضارة والتاريخ وصياغتها صياغة إسلامية منسجمة مع الدلائل الآفاقية والنفسية والفطرية. وبعبارة أخرى للعلم في الإسلام وظيفة اجتماعية عملية ومقصد تربوي إستخلافي يوجه الإنسان إلى التأمل والنظر الكوني والنفسي المتفاعل مع الحياة والواقع والوجود. فإخراج العلم عن مقصوده الاجتماعي ووظيفته التربوية الروحية الإعمارية يجعل هذا العلم جانحا نحو النظرية والتأملات الخيالية البعيدة عن التأثير في الفطرة والروح والنفس والواقع والحياة. ومن هنا نجد الإمام النورسي يؤكد أهمية العمق الاجتماعي للعلم وإدراكه اللطيف لطبيعة الواقع ومتطلبات المرحلة ونوعية الوعي الذي تتطلبه فيقول: "إن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنسب إلى العلوم وتنصب إلى الفنون وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة "27. وما تسلم العلم زمام الحكم والقوة إلا التعبير العملي على نفاذيته وسلطانه الاجتماعي والثقافي .

24 النورسي، الكلمات، ص 290.

25 النورسي، الكلمات، ص 291 .

26 للنورسي، الكلمات، ص 291-292.

27 النورسي، الكلمات، ص 292.

فبهذا السلطان والفاعلية الاجتماعية للعلم يمكن القول أن تأثير العلم الاجتماعي يأتي من قدرته على التوافق مع طبائع العمران الاجتماعي وقيم الفطرة العامة وسنن الاستخلاف وقوانين الكون. فكلما أمتد وعي العلم باتجاه هذه السنن والقوانين والطبائع كلما كان تأثيره أعمق واعظم وأفيد لحركة الإنسان الحضارية والاستخلافية. وكلما تناقض وتعارض العلم في مضمونه وسيره مع هذه الطبائع كلما أصبح متهورا وأفتقد مقاييس الوعي الصحيحة فأصبح أثره سلبيا قاتلا مهلكا للحرث والنسل. وفي هذا المعنى يؤكد الإمام النورسي: "أن من أراد التوفيق يلزم عليه أن يكون له مضافة مع عادات الله، ومعارفة مع قوانين الفطرة، ومناسبة مع روابط الهيئة الاجتماعية، وإلا أجابته الفطرة بعدم الموافقة جواب إسكات. وأيضا من تحرك بمسلك في الهيئة الاجتماعية يلزمه أن لا يخالف حركة الجريان العمومي، وإلا طيره ذلك الدولاب عن ظهره فيسقط في يده"28.

فبهذا المعنى يكون العلم أوثق وأصلب في مضمونه ووظيفته وتأثيره. لأن العلم المتوجه إلى الاجتماع الإنساني والواقع البشري ينمو ويتطور وتتكامل مفاهيمه ومنظوماته وأنساقه. فالوعي الاجتماعي والتوجه الواقعي يفتح لحركة العلم آفاقا رحبة للتقدم والتفتق على المخزونات المكونة في الأسماء التي تعلمها الإنسان. فإذا كان هذا الفهم للعلم مستقيما مع النسق الفكري الإسلامي العام، فإنه يمكن الزعم أن الشريعة الإسلامية هي أرقى وأسمى تجليات الوحي والكلام الإلهي والعلم الرباني اللدني. فالشريعة كقطاع من الناموس الإلهي العام ومن الكلام الرباني المعجز، تمثل أرقى علم متوافق مع سنن وقوانين وطبائع الحياة والوجود. وفي المعنى يقول الإمام النورسي: "تأمل في حقائق الشريعة مع تلك المصادمات العظيمة والانقلابات العجيبة وفي هذه الأعصار المديدة ترها قد حافظت على موازنة قوانين الفطرة وروابط الهيئة الاجتماعية"29.

ثالثا: موقع العلم في عملية الاستخلاف والتحضر: الفاعلية التجديدية للعلم

بعد أن تبين لدينا الإطار النظري العام لدراسة مفهوم الإمام النورسي للعلم وصلته بالاستخلاف والتحضر وبعد أن عرضنا المحددات المنهجية الأساسية لدراسة هذه الصلة بقي تحليل موقع العلم في التحضر والاستخلاف. وهذا الذي سمي بالفاعلية التجديدية للعلم. فلو أردنا صياغة هذه المسألة بطريقة أخرى لظهرت لنا قدرة الإمام النورسي على الربط بين مفهوم العلم في قوله {وعلم آدم الأسماء كلها} ومفهوم الاستخلاف في قوله تعالى {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة}. فالإمام النورسي في الحقيقة يخطو خطوة مهمة عندما يعطي أولا مفهوما متميزا للعلم ويجعله موصولا بالتقوى والإيمان والسنن والأسباب والتسخير والسلوك. ثم ثانيا يجعل هذا المفهوم للعلم بمثابة الأسماء الأساسية للبناء الاستخلافي الحضاري. فالاستخلاف عند الإمام النورسي حركة ارتقاء روحي ونفسي وسلوكي وعمراني تجعل من الإنسان طاقة اجتماعية فاعلة تمارس عملية الإيمان والتفكير والتعلم للأسماء من أجل الترقى والاتصال بالله عزوجل. فالاستخلاف الحضاري يعني: "تحقيق العبودية لله تعالى، والسيادة في الأرض عبر الانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية والاستمتاع بخيرات الأرض طاعة وشكرا. والاستعداد للقاء الله هو الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة"30. إن

28 النورسي، إشارات الإعجاز، ص 170.

29 النورسي، إشارات الإعجاز، ص 170.

30 الطيب برغوث، منهج النبي (ص) في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، الطبعة الأولى، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996، ص 81.

هذه المحاور والمقومات الأساسية للمشروع الاستخلافي الحضاري كانت محل اهتمام الإمام النورسي. فلم يغفل في دراساته مسألة العبودية لله، ومسألة السيادة على الأرض ومسألة الانسجام مع السنن التشريعية والتكوينية، ومسألة الاعمار والترقي العمراني، ومسألة الاستعداد للقاء الله . ومن المفيد التأكيد على أن إدراكه لهذه المسائل مرتكز على العلم. وبهذا يكون العلم هو المدخل التأسيسي للاستخلاف الحضاري. يقول رحمه الله: "إن خلافة الله تعالى في أرضه لإجراء أحكامه وتطبيق قوانينه تتوقف على علم تام... و{علم} فيه إشارة إلى تنويه العلم ورفعته ودرجته وأنه هو المحور للخلافة 31". فبهذا المعنى يصبح العلم مدخلا للحيوية التجديدية والفاعلية الاستخلافية. فالعلم هنا يدخل في عمق الواقع وعمق الاستخلاف الأرضي. فموقعه في العملية الاستخلافية موقع تجديدي تغييريري، إذ به تتحقق عملية الترشيد الحضاري لخطوات الإنسان الخليفة الأفاقية والنفسية والاجتماعية. فبالعلم يستطيع الإنسان تحقيق أعلى مستويات الإحسان والتكريم والعدالة والاستقامة والحرية والأمن والتسامح والتحضر.

الفاعلية الحضارية للعلم والاستخلاف: مسألة الإنسان الرسال الكوني

بهذا المعنى التجديدي للعلم وصلته بالاستخلاف الحضاري تبرز أمامنا الإشكالية الكبرى التي بها يتحدد موقع العلم في الاستخلاف عمليا وواقعيا. فلا يمكن تحقيق الربط والصلة بين العلم والخلافة ولا يمكن تحصيل الفاعلية التجديدية للعلم إلا بالحديث عن "الإنسان الإسخلافي الحامل لرسالة الربط بين العلم والاستخلاف". فالإنسان في الحقيقة هو القضية الكبرى والمركزية التي حاول النورسي إبرازها باعتبارها أصل التحول الحضاري والإسخلافي. فالعلم لا يؤتي ثماره التجديدية والاستخلافية إلا بوجود إنسان رسالي. ومن هنا نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي يؤكد بقوة دور الإنسان في قوله: " بل أشعر أن حاجتنا الأساسية في عالم النفوس أكثر منها في عالم الأشياء. إن حاجتنا الأولى هي الإنسان الجديد.. الإنسان المتحضر 32". ويبدو الإمام النورسي في هذه النقطة حريصا ومؤكدا على القيمة الكونية والحضارية للإنسان وأنه هو مركز التحول الكوني والحضاري والتاريخي. " فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية والذي يؤدي رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا وشاهدا 33". ففي أعماقه تنمو الحيوية والفاعلية وفي نفسه تكمن كل قوى التغيير والتحول. ويعبر الإمام النورسي عن هذه المعاني بطريقة رائعة عندما يتحدث عن فكرة "الأنا" باعتبارها طاقة التحول والتجديد .

يقول الإمام النورسي: " فالذي يعرف ماهية (أنا) على هذا الوجه، ويدعن له، ثم يعمل وفق ذلك ويمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى { قد أفلح من زكها } (الشمس: 9). ويكون قد أدى الأمانة حقها فيدرك بمنظار (أنا) حقيقة الكائنات والوظائف التي تؤديها. وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية إلى النفس تجدد في (أنا) ما يصدقها فتستقر تلك المعلومات علوما نورانية وحكمة صائبة في النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العثبية. وحينما يؤدي (الأنا) وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة ومالكيته المفترضة- التي هي وحدة قياس ليس إلا- ويفوض الملك لله وحده قائلا: له الملك وله الحمد 34". ويتعمق الإمام النورسي أكثر في تحديد دور الإنسان الرسالي أو (الأنا الاستخلافية) في

31 النورسي، إشارات الإعجاز، ص 240-241.

32 بن نبي مالك، تأملات، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص 190 .

33 بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 32.

34 النورسي، الكلمات، ص 273-238.

تحقيق الربط بين العلم والتحضر وتحقيق الحيوية التنجديدية على طريق تسخير الكون واكتشاف الحكمة والعلم في قوله: "إن (أنا) مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو مجد ذاته طلسم عجيب ومعنى غريب. ولكن بمعرفة ماهية (أنا) ينحل الطلسم العجيب وينكشف المعنى الغريب (أنا) وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجود... اعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب-ظاهرا- إلا أنها منغلقة- حقيقة- فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح كل أبواب العالم، وطلسمها يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون، والمفتاح هو- ما فيك من (أنا) 35".

ففي العمق الإنساني تكمن حقائق وقيم وإمكانات التجدد والتحول والتغير. ففيه مخزونات الوعي والارتقاء والاعمار. ولكن هذا الإنسان العظيم لا يصبح صاحب (أنا إستخلافية تجديدية حضارية) إذا لم يحقق شروط هذه الأنا ويمتلك مفتاح تسخيرها الصحيح. ويأتي على رأس هذا الشروط الإيمان بالله وتحقيق العبودية الخالصة له. يقول الإمام النورسي: " كما أن الإيمان نور وهو قوة أيضا. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث مستندا إلى قوة إيمانه... إن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا، لذا كانت وظيفته الأساسية: الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه... يتضح من هذا أن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكامل بالتعلم أي الترقى عن طريق كسب العلم والمعرفة والعبودية بالدعاء... وهذا يعني أن وظيفته الأساس هي التحليل والارتقاء بجناحي العجز والفقر إلى مقام العبودية السامية. إذن فلقد جئ بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء... فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو (معرفة الله تعالى) كما أن أس هذا الأساس هو الإيمان بالله جل وعلا 36".

الإنسان الرسالي الكوني وفاعلية العبادة والإيمان

لقد أصبح جليا أن الإنسان هو مخزن الاستعداد لتلقي العلم الحق وهو قوة الاستخلاف والتجديد وأن هذا الإنسان لا يستطيع القيام بدوره وتحرير موقعه في عملية الاستخلاف إلا بالعلم. كما تبين لنا أن أساس هذا العلم وقوة هذا الإنسان إنما تكون بالإيمان بالله وتحقيق العبودية الخالصة. يقول الإمام النورسي: " إن محور النجاة ومدارها الاخلاص، فالفوز به إذن أمر غاية الأهمية لأن ذرة عمل خالص أفضل عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة. فالذي يجعل الإنسان يحرز الاخلاص هو تفكيره في أن الدافع إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجة كسب رضاه 37". هكذا إذن يصبح الإيمان والاخلاص والعبادة هي أساس حياة الإنسان وخلافته الأرضية. "فالدعوة إلى عبادة الله وحده، والعمل على تجسيد ذلك في واقع الناس كانت منطلق كل الرسالات السماوية ومقصدها الأول، من أجل تحرير ولاء الإنسان لله وحده، لما في ذلك من تحرير حقيقي لإرادة الكائن البشري وطاقته وقدرته، وتحريك لها في الاتجاه الصحيح المؤدي إلى تحقيق الغرض من وجوده وتكريمه وتفضيله... ولأهمية هذا البعد في استقامة الإنسان وصلاح المجتمع أولاه الإسلام عناية كبيرة، بحيث اعتبره هدفا أساسيا وأصيلا من أهداف المشروع الاستخلافي، كما يتضح ذلك من توجيهات القرآن والسنة التي ركزت بشكل بارز على تقوية صلة الإنسان بالله، معرفة وعبادة أو عقيدة وعبادة عن طريق نظام عقدي وعبادي

35 النورسي، الكلمات، ص 235.

36 النورسي، الكلمات، ص 352-353، 354-355.

37 النورسي، اللغات، ص 137.

محكم، يحرر ولاء الإنسان المسلم لله وحده لا شريك له، ويرفع مستوى توتره الإيماني بصورة مستمرة تعينه على تحقيق العبودية الخاشعة لربه، والاستعلاء على ما من شأنه أن يضعف هذه العلاقة الروحية الحميمة، مهما كانت حاذيبتها أو خطورته³⁸.

إن هذا المعنى الحيوي للإيمان والعبادة والاخلاص يجعل وعي الإنسان ونفسه وحركته منسجمة مع مراد الله وقوانين وسننه وبالتالي تتحقق فاعليته التجديدية فيكون خليفة صالحاً نورانياً. فالعبادة بهذا المعنى ذات بعد روحي وعمراني في ذات الآن. "فغاية العبادة امتثال أمر الله ونيل رضاه، فالداعي إلى العبادة هو الأمر الإلهي، ونتيجتها نيل رضاه سبحانه. وأما ثمرتها وفوائدها أخروية إلا أنه لا تنافي إذا منحت ثمرات تعود فائدتها إلى الدنيا³⁹". فهذا المعنى تصيح العبادة مسألة ذات أبعاد نفسية وروحية واجتماعية وحضارية وتسهم في الترقى الإيماني والسلوكي والعمراني للإنسان .

كلمة أخيرة

العلم والإنسان والاستخلاف في القرن الواحد والعشرين: أفكار الإمام النورسي والاتجاه نحو العالمية والحضارة الشمولية

لقد كتب الإمام النورسي أفكاره في زمن وفترة تاريخية بدأت تظهر فيها معالم عصر العالمية حيث بدأت البشرية والحضارة تنتقل إلى عمر فكري وحضاري جديد يمكن تسميته بالعلم العالمي للإنسان والبشرية والحضارة. وقد استجابت رؤاه وأطروحاته ونظراته لتلك الفترة التاريخية بعمق وفاعلية. فأفكاره تعكس قدراته الفكرية والنفسية والروحية والعملية حيث تمكن من بناء وعي حضاري قويم ومنسجم مع حقائق الوحي وطبائع العمران وسنن الاجتماع البشري. ولكن يبقى لنا اليوم ونحن نعيش عصر العالمية في عمقه وعصر الحضارة الشمولية بكل شروطه ومشكلاته الجديدة أن نتساءل:

إلى أي مدى يستطيع فكر الإمام النورسي الاستجابة لمتطلبات الواقع العالمي ومتطلبات الحضارة الشمولية؟ وبعبارة أخرى هل يستطيع فهم الإمام النورسي للعلم والإنسان والاستخلاف أن يساعدنا على مواجهة مشكلاتنا في عصر العالمية والحضارة الشمولية؟

في الحقيقة هذا السؤال موجه بالدرجة الأولى لطلاب وعلماء رسائل النور، ثم هو موجه للمثقفين والمفكرين والمتعلمين في عالم الإسلام والذي يشغلون بمسألة النهضة والتجديد. وسؤال كهذا لا يحتاج إلى العاطفة الجياشة، والتحيز وغير العلمي والتعميم في الحكم بمقدار ما يحتاج إلى الدراسة العلمية المتأنيبة والموضوعية والتقويم العلمي البناء .

ومساهمة من الباحث في إثراء هذا الموضوع فإن ما تبقى من البحث سيكون محاولة لوضع أرضية للإجابة عن التساؤل كيما تتمكن فعلاً وواقعاً من استثمار فكر الإمام النورسي وتطويره إن أسعفنا الحال والإمكان الراهن.

أولا ينبغي أن ندرك بوعي وبصيرة أن الأمة والإنسانية تواجه اليوم شروط مهضة حضارية في عصر عالمي تتحرك فيه الأشياء والأفكار بصورة عاجلة وسريعة نحو قطب العالمية الحضارية. فالتأمل الواعي المنتبِع لمسار حركة الإنسان والحضارة في الفترات الحاسمة ومنعطفات التاريخ التحويلية، يستطيع أن يلاحظ الثقل التاريخي والحضاري للقرن العشرين باعتباره منعطف حيوية وموقع صيرورة إنسانية لها أثارها العميقة وبصماتها الجلية في مجمل مسار التاريخ البشري. فهذا القرن هو قرن الصيرورة التحويلية

38 الطيب برغوث، منهج النبي، ص 91-103.
39 النورسي، اللغات، 199.

التي دفعت بالوعي والفكر والحضارة البشرية باتجاه عصر العالمية والشمولية والوحدة الإنسانية. إن هذا القرن يتفرد عن غيره من القرون من حيث كونه القرن الممهد مباشرة لعصر ما بعد الحضارة والفتاح لعهد العالمية كحلقة ضرورية من حلقات صيرورة الإنسان والحضارة والكون .

فإذا كانت البشرية قد مرت بمرحلة ما قبل الحضارة ثم انتقلت لتتقلب في عصر العمران والحضارة قرونا متطاولة، فهي اليوم ينبغي لها أن تتحول لتنتقل إلى عصر ما بعد الحضارة وهذا هو عصر الحضارة العالمية. فإذا كانت وحدة تحليل التاريخ وحركة المجتمع في عصر ما قبل الحضارة تدور حول محور الطبيعة والمعبود الغيبي المبهم ثم في فترات أخرى كانت تتمحور حول مسألة الفرد والقبيلة ثم في العصر الحضاري كانت تدور حول مسألة الدولة على ما ذهب إليه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته عن العمران الإنساني ونظمه أو تدور حول مسألة الحضارة على ما ذهب إليه جون أرنولد تومبي ومالك بن نبي، فإن تحولات القرن العشرين النوعية بدأت تسجل على صفحة التاريخ ظهور أداة أخرى للتحليل وهي "الحضارة العالمية". فوحدة تحليل التاريخ وحركته والمجتمع وعمرانه هي اليوم متوجهة نحو محور الحضارة العالمية والتجمع الإنساني العالمي الذي بدأ يبرز بظواهره ومظاهره التي توحد يوماً بعد يوم المشكلات الإنسانية وتمتد بأفاق الوعي والفكر نحو قضية الوجود العالمي للإنسان والحضارة والثقافة والوعي.

وبعبارة أخرى فإن القرن العشرين ومنجزاته قد جعلت الإنسان كوني الرؤية وعالمي التأثير وحضاري الفاعلية. ومن هنا فالإنسان العالمي صاحب الوعي العالمي أصبح اليوم هو وحدة التحليل الأساسية للتاريخ. فبعد أن صالت الحضارة وحالت في أيديولوجيات ومنظومات فكرية متنوعة ومتغيرة ومتصارعة ومتناقضة، فهي اليوم تعود من جديد لتبحث في مسألة "العمق الإنساني للحضارة". وبعد هذا العمر الفكري من النضج يمكن القول أن عصر الحضارة العالمية كوحدة لتحليل التاريخ ستؤكد أهمية وموقع الإنسان- وليس الفرد أو القبيلة أو الدولة أو الحضارة- في عملية التحضر وصناعة العمران الحضاري العالمي الذي يؤثر في جميع البشر. فلكي نحلل اليوم المشكلات التي تواجه الإنسان المسلم مثلاً ينبغي أن لا نتوقف فقط عند العوامل الداخلية الخاصة به أو بقبيلته أو مجتمعه أو دولته أو بالعوامل الخارجية المتعلقة بعلاقاته الدولية أو القومية أو الإقليمية ولكن ينبغي أن نصلها باستمرار بعوامل أخرى خاصة بمجال التحليل الجديد وهو مجال "الحضارة العالمية" التي أصبحت قسمة مستقلة من قسمة الوجود الإنساني. فمفهوم الحضارة العالمية كمفهوم أساسي ينبغي أن يدرج ضمن مناهج تحليل الواقع الإنساني الحالي وظواهره. ولما كانت النهضة جزء من الواقع المعاصر للأمم فإن منهج دراستها وتحليلها لا تكتمل حلقاته ولا تتكامل أجزائه إلا برؤية كلية شمولية منهجية تنتظم فيه الوحدات التحليلية بصورة متناسقة بحيث لا تغفل لا الأبعاد الذاتية ولا الخاصة ولا الداخلية ولا الخارجية ولا الدولية ولا العالمية. "إن من الواضح أن الضمير الإنساني في القرن العشرين لم يعد يتكون في إطار الوطن والإقليم... إن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية. فالثقافة تتحدد أخلاقياً وتاريخياً داخل تخطيط عالمي⁴⁰".

ثانياً إن العلم أصبح عالمياً والإنسان ينبغي أن يصبح عالمياً في رؤيته ومنهجه ووعيه وحركته وتأثيره وأن الاستخلاف يجب أن تطرح مرجعيته ومنهجه ومشروعه وأدواته الواقعية بلغة شروط عصر العالمية الجديد. وبعبارة أحر لكي تؤدي الأمة دورها الحضاري العالمي كحاملة لأمانة "الإظهار العالمي للدين الحق" ينبغي أن يرتفع وعيها للعلم والإنسان والاستخلاف إلى مستوى عصر العالمية والحضارة الشمولية بأدواتها المنهجية والمعرفية والثقافية والتكنولوجية. إن هذا الارتفاع يعني التحول الكبير في الرؤية والمنهج والمشروع الحضاري. إن نوعية المشكلة الراهنة تستدعي وجود رؤية ومنهج نوعي لأدراك

طبيعة ووظيفة العلم والإنسان والاستخلاف في عصر العالمية.

إن نوعية المعرفة وطبيعة العلم والإنسان والرؤية والمنهجية الاستخلافية لكثير من أبناء الأمة اليوم مازالت تحن إلى الماضي أي إلى العصر الحضاري السابق لعصر العالمية الذي نعيش مفاجأته يومياً على مستوى وحدة المشكلة الإنسانية والمصير الإنساني المشترك والمشكلات السياسية والثقافية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية والعلمية والذرية والحربية ذات التأثير العالمي المشترك. " وهذه الاعتبارات ترد مشكلة الحضارة إلى المستوى العالمي 41" ولهذا فإن إمكانيات التحول الحضاري باتجاه تحقيق رسالة العلم والإنسان والاستخلاف على ضوء المرجعية التوحيدية بحاجة إلى رؤية ومنهج حضاري عالمي في مستوى التحدي النوعي الذي يواجه البشرية.

ثالثاً إن الذي يتعمق في دراسة فكر بديع الزمان النورسي قد يصل إلى قناعة مفادها أن هذا الفكر قد استطاع فعلاً أن يحدد القوى الكبرى والمداخل التأسيسية للتحول الحضاري العالمي في عصر العالمية وهي: العلم والإنسان والاستخلاف ولكن سيبقى هذا الفكر مجرد رؤية عامة إذا لم تسبني الأدوات التحليلية والمناهج المعرفية والمنهجية والاجتماعية التي تحول الرؤية إلى مشروع وتحاول المشروع إلى واقع. ومن هنا فالتطوير في الرؤية والوعي والفكر ينبغي أن يتم بإنتاج مناهج التحليل العالمي التي تستطيع جعل العلم والإنسان والاستخلاف قوى للتحول والتغيير الواقعي العملي باتجاه تحقيق عالمية الإسلام الحضارية التي تنشر قيم السلم والتكريم والرحمة والعدل والمساواة والتسامح والحرية والعدالة باعتبارها واقع ومؤسسات وثقافة ووعي وضمير وليست مجرد شعارات ورؤى طوباوية خيالية بعيدة عن الصيرورة الواقعية للقيم الحية. إذن هذا هو التحدي النوعي الذي سيدفعنا بقوة للتعلم أكثر في دراسة فكر بديع الزمان النورسي وتحديه بالواقع والمشكلات والصعوبات حتى نتأكد من عمقه وقدراته وإمكاناته العلمية والمنهجية .

41 بن نبي مالك، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 212.

نظرة رسائل النور إلى البيئة

أ.د. صادق قليج^٥

آ- الطبيعة والإنسان

عند بحثنا عن الوجود الإنساني، ينبغي لنا التطرق إلى بعض الأمور الأخرى، وذكر وجودها قبل البحث عن الإنسان، وإلا يبقى إصطلاح (الإنسان) ذهنياً مجرداً، ولا يفيد ذلك الإصطلاح في النتيجة وجوداً مشخصاً على الواقع. ولأجل البحث عن نشاط الإنسان ووجوده، يشترط البحث عن العنصر الزماني والمكاني. وهذا ما نسميه نحن بـ (الطبيعة) التي هي من مستدعيات التواجد الإنساني وفعاليتها، وكونه مخلوقاً منتمياً إليها.

وعليه تعتبر الطبيعة وجوداً موازياً لوجود الإنسان، والأهم من ذلك فهي "بعد موضوعي" لتحقيق الوجود الإنساني، ومن هذا تظهر النتيجة الحتمية التالية: كما لا يمكن تناسي الوجود الإنساني الذي يتلقى الحقائق كافة على مستواها الأعظم والأدنى، والذي يجعل اصطلاح "الوجود والتواجد" ذا معنى لتلك الحقائق، والذي هو حقيقة لا يمكن غض النظر عنها، كذلك الطبيعة حقيقة مستقلة بتلك النسبة أيضاً، لا يمكن التغاضي عنها.

وعليه تحمل كل من الطبيعة والإنسان اذا قيس أحدهما بالأخر قيمة موضوعية، أي أن كل واحد منهما له وجود خاص به حسب مستواه، وحتى أن كل واحد منهما يملك فترة وجود وفترة إحساس. ومن هذه النقطة يملك الإنسان أمام الطبيعة سلطة الحرية، والفعالية، والتأثير، والتدوير والتكوين أو الإحياء. أما الطبيعة فهي على باقية على حالتها دوماً، دون أن تقوم بأية طفرة، و تستعمل من قبل الأحياء الأخرى ولا سيما الإنسان، وهي جاهزة للإستهلاك من قبل من له الشعور والإحساس، أي أنها تمثل مرتبة المنفصلة و المفعولية فحسب.

وينبغي التأكيد لحقيقة العلاقة الوطيدة بين الإنسان والطبيعة من حيث التكوين، وادامة الوجود. إي أن كلا العنصرين يدتم حياة الآخر، والموجودات موضوعياً يرتبط وجود بعضها ببعض الآخر. أما ادامة هذا التناسق الواقعي بين الإنسان والطبيعة، فيقع على الإنسان الذي هو في أعلى مرتبة،

^٥ من مواليد سنة 1953 في ولاية (أوردو) أكمل كلية الإلهيات بجامعة انقره سنة 1977. وحصل على الدكتوراه سنة 1982 في "مفهوم الذنوب في القرآن الكريم". انتدب لسنة واحدة من قبل رئاسة الشؤون الدينية الى هولندا فيسنة 1981 والى سورية والأردن والسعودية والكويت والعراق سنة 1985. وكذا انتدب في السنة نفسها الى جامعة السوربون بباريس. اصبح مساعد استاذ سنة 1987 واستاذاً في سنة 1993. وحاليا استاذ في كلية الإلهيات بجامعة اتاتورك في ارضروم . أب لخمسة اولاد.

بين الموجودات. وذلك أن الخالق الجليل قد وهب للإنسان وحده حرية الإعمار والمهدم ، وجهّزه بقدرته من بين الموجودات. لذا يعود تاريخ سطح الأرض والطبيعة اليه بقسمه الأعظم. وإذا قيل أن التاريخ هو إنعكاس لطبيعة الإنسان لا تكون مبالغة. أذن ما هو نظرة الإنسان والثقافات الأخرى إلى الطبيعة؟

1- نظرة القرآن الكريم إلى الطبيعة:

تتجاوز نظرة القرآن الكريم إلى الطبيعة، السطحية فتدخل إلى الأعماق. وقد تناول القرآن الكريم الإنسان والطبيعة ضمن هذا الإطار، ونظر إلى الوجود بشكل كلي مندمج، ولم ينظر إلى الطبيعة مجردة بشكل ظاهري فحسب، بل فسرها بالأبعاد الإحتيائية أيضاً. وبهذا قدم الحقيقة العظمى التي هي وراء المكونات وظواهرها، كرسالة ربانية، واعتبرها كتجل لنفحة الرحمة. وحسب هذه النظرة الأساسية احتازت الطبيعة إبعادها الكثيفة الثقيلة للأشياء، واكتسبت صورة تكنولوجية علمية.

وبعبارة أخرى، لا ينظر القرآن إلى الطبيعة لذاتها ، بل عدّ كل شئ فيها آية ودلالة إلى الله. وقد رد القرآن الكريم والإسلام إعتبار الطبيعة شيئاً خارجاً من دائرة حدود كونها آية من آيات الله.¹ وإذا قلنا حسب تعبير شاون (Schuon): أن الطبيعة التي لم تلامسها اليد، إشارة من الجنة الدنيوية، ونبأ من الجنة المعنوية السماوية.² فهذه الآيات الناطقة وغير الناطقة النابعة من المصدر نفسه، تشير بتناسق تام إلى الحقيقة العظمى نفسها، وتكون رمزاً لها. وهذه أسماء تدل على وجود الله وقدرته وأعماله المطلقة وتحليلات تلك الأسماء. وهذا يعني أن الطبيعة مشعل يشير إلى القدرة المطلقة والرحمة المطلقة الجلييلة.

وهكذا حافظ الإسلام على النظرة الكاملة الكلية للكون، وجلب الأنظار إلى الرحمة والعطاء الإلهي المناسب في شرايين الطبيعة المركبة من شتى العناصر. واصبح الإنسان بهذه النظرة يرى نفسه وهو في حضن الطبيعة يحاول احتيازها، أن هذه الطبيعة ليست ساحة حقائق مستقلة بل هي مرآة لإنعكاسات حقائق أعظم وأجل. فيتعلم كيفية التفكير فيها. وإذا تلقى الإنسان الطبيعة كخزينة واسعة لحقائق ورموز تتكلم معه وتوصل إليه الأخبار، تصبح الطبيعة مساعداً للإنسان.³

فمثلاً ترد في أشعار الشاعر محمد إقبال، الذرات المفعمة بهذا الشعور، وتجلب الأنظار إلى الأبعاد الديالوجية للحيز بالمعروفية، وتخطب "مناثر الوجود" الإنساني بلسان حالها: تتعالى من فؤاد كل ذرة دعاء يقول: "أيها الناظر، انظر إليّ، وأمعن النظر فيّ واسبح عليّ فيض نظرة من نظراتك. فكمال ذات الشئ هو الوجود، ورؤيته من قبل من يملك النظر.⁴

إن تحقيق التناسق بين الإنسان والطبيعة يتوقف قبل كل شئ على نية الإنسان واطواره، لذا لم يسمح الإسلام للإنسان أن يتصرف بأنه سائب طليق غير مسؤول تجاه الله وتجاه الطبيعة. وإذا تصرف الإنسان على أنه سيد نفسه، وبدأ يفعل كيفما يشاء في الكون حسب ما تشتهي نفسه، عندها يعارض الإسلام هذا الأمر، وهذه العنجهية مهما كان الأمر. وذلك لأن هذا الأمر الهائل المريع تحطيم لسلسلة الوجود، وتمرد تجاه الإله، وإعلان الإستقلال من الله تعالى والكون.⁵ فالخضوع تجاه الله واحترام

1 Seyyid Hüseyin Nasr, Makaleler (1), çev. Şahabeddin Yalçın, İnsan Yay, İst.-1995, s. 54,55)

2 Nasr, İnsan ve Tabiat, çev. Nabi Avcı, Yeryüzü Yayınları, İstanbul_1982, s. 182, 5 nolu not: Schuon, Light on the Ancient Worlds, s. 143'den naklen.

3 Nasr, İnsan ve Tabiat, s.122)

4 İkbal-i Lahori, Yeni Gülşen-i raz (Sır güllerinin açtığı bahçe), çev. Ali Nihad Tarlan, B. Kervan Matbaası, 1959 (?), s. 14)

5 Nasr, Makaleler (1), s.55

الطبيعية لا يكون إلا بالتواضع والخضوع لله ولأوامره. لذا فالآيات الدالة على الله ووجوده في العناصر الكبيرة والصغيرة لا تختلف من حيث القيمة عن السماوات والجبال، والغيوم، والأمطار والطيور والأحياء الزاحفة والماشية، والحيوانات والبحار والأثمار وما إليها من العناصر كلها من مخلوقات الله وابداعه واحساناته التي لا يمكن الإستغناء عنها، وكلها تبين الإرادة الحاكمة والخلق الإلهي (انظر سورة البقرة: 164 و آل عمران 190-191 و الجاثية: 15 و سورة ق: 7).

فعلما الذين يريدون الرفعة لوجودهم أن ينروا نظرهم النظر الى هذه الأدلة الموضوعية امامهم. فانظر مثلاً إلى الإبل العجيب الخلفة، والسماء المرفوعة الموسعة، والجبال الشوامخ التي هي معكس الجلال الإلهي والعظمة الربانية، وإلى الأرض المفروشة الممهدة تحت اقدامنا، وإلى الوديان، والقفار وإلى الزهور التي تفوح بالروائح الزكية، والنحل الذي يصنع ألد غذاء من تلك الأزهار... فكل هذه حسب نظرة (مولانا جلال الدين الرومي) عناصر وأدلة تعكس الأصول الأزلية وتؤمى إلى صاحبها وصانعها العزيز..⁶

يشير شاون (schuon) الذي تحمل تعبيراته دقةً متافيزيقيةً، خلال تناوله موضوع العلاقة بين اسم الله (الأول والآخر) إلى هذه الحقيقة قائلاً: فـ "الأول" بالنسبة لنا يظهر بخلقنا ومجئنا إلى الكون أي يظهر بمولدنا؛ وتظهر في حوالينا ببدء الكون وخلقته»⁷. يجلب شاون في هذه الأسطر الأنظار التي إلى حقيقة الظهور التي ترمز إلى المكونات كافة بأنه رمز إلهي، فينبغي النظر أيضاً بنفس الشكل إلى هذه الحقيقة الكونية الكلية.

(فالعالم يوجد بين اسمي "الأول والآخر" وما بينهما ايضاً الحقيقة الإلهية ، لأن الظهور بالذات رسالة قادمة منه تعالى إلينا بواسطة الكون)⁸ وبأسلوب تنزيهي يمكننا القول أن بُعد التجلي الأعظم لخلق الكون يأتي من الله ويعود إليه . وهو بعدٌ يؤيد مفهوم (القرب الإلهي)⁹ فقد قال الشاعر حاملاً الشوق نفسه:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة أبدأ شاهد
وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد¹⁰

وقد قال الشاعر لبيد إشارة إلى هذه الحقيقة العميقة في أبياته التي ترقى فيها من مستواه اليومي إلى الوجود الكوني¹¹ قبل مئات السنين:

تأمل سطور الكائنات فإنها من المألأ الأعلى اليك رسائل
لو تأملت سطرها وقد خط فيها:
ألا كل شئ ما خلا اليه باطل وكل نعيم لا محالة زائل
سوى حنة الفردوس فان نعيمها يدوم

6 Nasr, İslam Sanatı ve Manevîyatı, çev. Ahmet Demirhan, İnsan Yayınları, İstanbul-1992, s. 184

7 Frih Hof Schuon, İslam'ın Metafizik Boyutları, çev. Mahmut Kanık, İz Yayıncılık, İst. 1996, s. 108

8 A.e. s.106

9 A.e. s.103

10 Muhammed Ali es-Sabuni, Revâ'ı'l-beyân, Der Saadet, ts. 1,25

11 Bkz. Toshihiko İzutsu, Kûr'an'da Allah ve İnsan, çev. Süleyman Ateş, Ank. Üniv. İ. F. Yayınları, Ankara-1975, s. 129.

وان الموت لا بد نازل¹²
وهكذا يقول Fichte (فـ "الاله" هو صاحب كل شيء وكل شيء عداه لا شيء) ويقول أيضاً
بحقيقة عميقة بحيث يوسع البعد العلمي:

الماء والنيران من آيته
فيهن موعظة لمن لم يجهل¹³.

2- هنود الحمر: هو الإنسان الذي وجوده وروحه في الطبيعة

فهذه النظرة الفطرية التقليدية العميقة والتوارثية إلى الكون والطبيعة هي (مثلاً) طراز وجود عند
هنود الحمر، بحيث أنهم كانوا "يوحدون الله"، ويرون في الطبيعة والغابات والأشجار والوديان وجو
السماء وفي الطيور والبساتين الرموز الدالة للعالم المعنوي مباشرة. وكان يشاهد أحدهم بروحه القوية
رموز الحقائق السماوية في كل شيء وفي كل مكان.¹⁴ وكان يحس أن نبضه القلي يوافق نبض الطبيعة،
ويفكر بإنعكاسات هذه القوة السماوية في كل شيء اعتباراً من الرياح، والبرق، والبساتين الخضراء
المزدانة. لذا يتصرف مع الطبيعة وكأنها هبة وعطاء مقدس يتضمن اسراراً كثيرة، ويحافظ عليها كما
يحافظ على نفسه سواء بسواء، فكان يوافق بين التقديس والطبيعة إلى حد يعتبر الطبيعة بمثابة معبد
فخم ضخم يعيش فيه ويعبد، وما يخوض فيها من الحرب تجاه الرجل الأبيض بلا أمل، ليست لشخصه
فقط بل لهذه الطبيعة التي يعتبرها مقدسة أيضاً.¹⁵

ويمكن القول أن هنود الحمر كانوا يفكرون بالصفات الإلهية والحقائق الملائكية بواسطة أنواع
الحيوانات في الطبيعة، وحسب فكرتهم ليس كل شيء كما يُرى، بل هو ظل باهت للحقيقة، لذا يعتبر
كل شيء بنظرهم مقدساً.¹⁶

وقد انعكست الطبيعة على الوثائق المهمة أيضاً. فقد جلب سيت (Seattle) وهو من رؤساء الهنود
الحمر في رسالته الجوابية إلى رئيس وزراء الولايات المتحدة، الذي اراد شراء اراضيه سنة 1854، وقد
كان كلامه الذي ندرجه أدناه ذا معنى ومغزى للمجتمعات المتحضرة كافة:

"مياه الأنهار والجداول ليست هي بالنسبة إلينا مياه تسيل وتنساب فقط، فهي دماء أبائنا، كما إننا
نحب الأنهار والجداول بمثابة إخواننا، فهل أنتم ستقدمون نفس الود والحب لإخواننا؟! أعلم جيداً أن
الرجل البيض لا يفكر مثلنا، فهم لا يفرقون بين البقاع، فهو يريد الحصول على متغاه من الأراضي ثم
يستمر على سبيله، وذلك أن التربة ليست خلية الرجل البيض، بل هي عدوها، وإذا حصل على
متغاه من الاراضي يركض وراء المنافع الأخرى، وهو ينظر إلى التربة التي هي أمه (انظر: التراب هو
اساس الزخرفة Terra Mater)، وإلى جو السماء الذي هو أخوه على أنها متاع يباع ويشترى ويزرع
وينهب، فهذه نزعته يريد بما أن يجعل الاراضي فقراء، وينهب ويبعد كل شيء.

فينبغي أن تلقنوا أولادكم أن الهواء شيء مقدس، فكيف لا يكون الهواء مقدساً! فقد ولد أبائنا
وتنفسوه، وهو آخر ما تنفسوه قبل أن يموتوا، وتحتقن روح الإنسان في مثل هذا العالم الذي تباد فيه

12 Lebid, Şerhu Divan-ı Lebid ibn Rebi'a el-Amiriyye, thk. Dr. İhsan Abbas, s. 256/9; Mahmud Şükri el-Alûsi, Bülûğü'l-Ereb fi ma'rifeti ahvali'l-Arab, 3. Bsk. III, 131

13 Lebid Şerhu s.168, 1 no'lu beyt

14 Nasr, İnsan ve Tabiat, s. 126

15 Nasr, İnsan ve Tabiat s. 126

16 Martin Lings, Antik İnançlar Modern Hurafeler, çev. Enes Harman-Ufuk Uyan, Yeryüzü Yayınları, İstanbul-1980

الأحياء، ولا تنسوا ما يصاب به الأحياء يصيبكم انتم غداً، وذلك هناك ترابط بين الأحياء، ونحن نعلم جيداً: ان الإنسان من التراب وليس التراب من الإنسان، وكل شئ في الكون بمثابة افراد العائلة الواحدة ترتبط كل فرد بالآخر، وتشترك برباط الدم، فكل ما يصيب الدنيا من الويلات والمصائب يصيب الإنسانية أيضاً.¹⁷

وقد هيمن على نظرة الهنود الحمر، الفلسفة المتوارثة التقليدية، وعلى هذا هناك علاقة قديمة عضوية بين وجود الطبيعة واسرارها وبين وجودهم واسرارهم. وذلك لأن مثل هذا الوجود المنفتح للعالم والطبيعة، مشحون بالعلم والمعرفة، فيؤمن لصاحب العقيدة عند معرفته الكون الواسع معرفة ذاته ووجوده في نفس الوقت¹⁸ ويؤمن لوجوده عالماً قوياً.

3- الطبيعة في الفكر الهندوسي

تشكلت فكرة قداسة الطبيعة في التقاليد الهندوسية التي هي نظام من حيث النظرية والتطبيق، حسب مفهوم فاداتيكمتافيزيق. فالطبيعة التي تحيط بنا قد ولدت نتيجة تقدم بوروسا (Purusa) قرباناً.¹⁹ وكل عنصر في الطبيعة يعكس قداسة ذلك الوجود القدسي بإرتباطه داخلياً بالحقيقة الأوتونولوجية. وبالأخص التقرب إلى الطبيعة على أساس مبدأ جاد غير مرغم يجلب النظر إلى حد بعيد، وعلى اساس هذا المبدأ يقبل الإنسان الطبيعة كما هي ويحترمها، ولا يستعمل القوة ليجبر الطبيعة على ما يريد، بل على العكس من هذا تماماً يكون في صلح معها.²⁰ ويقبل الحياة على أنها كل متكامل مقدس، ويتخذ مبدأ عدم الإجبار اساساً في التعامل معها. وهذا الاساس فعال في الشاينستيين (Jaynist) إلى حد أنهم يحذرون من قتل النمل عند مرورهم بالطريق، أو البعوضة التي تسقط في حسائهم ويتصرفون بكل دقة وحذر في هذا الامر.²¹

ومما يجلب النظر في هذا الموضوع من المعرفة هي معرفة (آتمن) و (مايا). فحسب هذه المعرفة لا تعتبر الدنيا حقيقة مطلقة، بل هي تخبيئ بستارها الحقيقة الجليلة.²² وحسب هذه النظرة العميقة يعتبر عالم الأشياء المكانية والزمانية كمشاهد خادعة²³، وهي خيال، وما يتعلق بالعالم الخارجي من المعلومات هي ليست بعلم، بل هي معرفة خادعة.²⁴

4- الطبيعة في الطاوية (Taom) والشننتو (Shinto):²⁶

يحمل "الإحترام الموجه للطبيعة" كرمز إحساسي قوي تجاه الكون والحقائق الميتافيزيقية شفافية وشعوراً. فمثل هذا الإحترام يُري ويشعر نفسه في الطاوية والشننتو أكثر فأكثر.²⁷ وحسب فلسفة الحياة في النظرة الطاوية، يعتبر العيش بوقار بإتباع الطاوة والسبيل، والإرتباط بالمبدأ العالي وعدم الخروج إلى خارج الدائرة الميتافيزيقية، والبقاء ضمن دائرة حقائق الأشياء والعيش

17 <http://www.srdc.metu.edu.tr/dengi/spiritual/seattle.tr.html>. P. 1-2.

18 Mircea Eliade, Le sacre et le profane, Gallimard, 1965, s. 141

19 Nasr, Makaleler (1), s. 51-52

20 Nasr, Makaleler (1), s. 53

21 E. Royston Pike, Dictionnaire des Religions, PUF, Paris-1954, s. 8, "Ahimsa"

22 Nasr, İnsan, s. 112.

23 Ahmet Cevizci, Felsefe Sözlüğü, Ekim, 1996, s. 358. "maya" mad.

24 Mircea Eliade, Mythes, reves et mysteres, Gallimard, 1957, s.68

²⁵ فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسي وتعتبر بالإضافة الى الكونفوشوسية والبوذية، أحد أديان الصين الثلاثة. المترجم.

²⁶ الشنتو: معتقد ياباني قائم على تقديس أرواح الأبطال والأباطرة والقوى الطبيعية. المترجم.

27 Nasr, İnsan, s. 106

فيها²⁸. أما طاوة التي تشكل مركز فلسفة الحياة، فهي ماهية المبدأ الذي يرمز إلى القوة الموجودة وراء الأشياء والمكونات، وهي تعرف بالتطبيق والعيش المجرد، ولا توصف بالكلمات أبداً. فهذا هو المبدأ²⁹.

والإنتماء إلى الطاوية يكون بإلقاء الإنسان نفسه في بحر التكوين وعدم القيام بأية شئٍ آخر، ومبدأ الإلقاء الذي ليس في أصله جمود وتجمد بل هو فعالية بأعلى حد³⁰ وهو يكسب توسعاً وانفتاحاً بتعريف الإنسان العاقل الرزين. والذي يخضع برغبته لقوة الطاوة، يكون بمثابة الماء الذي يسيل نحو الأسفل ولكنه يحطم أقوى وأضخم الصخور³¹ وعليه يعتبر الفضيلة الكبرى العيش مع الطبيعة. وللوصول إلى الطاوة يشكل كل من الماء والجبال والمغارات ديكوراً كونياً لا نقص فيه، ولا سيما الجبال المرتفعة خلال البحار، فتهدب الفكرة ولعاً وإنفعلاً حسب الطاوية. والمغارات الموجودة في مثل هذه الجزر التي تضم تلك الجبال، تعتبر مخارج للسعداء ولأهل الجنة الذين لا يموتون. وهي أماكن تأمل وسكينة للذين يشتركون مع طاوة في الفكر والعقيدة، وفي الوقت نفسه تعتبر هذه الأماكن جنة دنيوية، لذا يعتبر الدخول فيها صعباً ومشكلاً للغاية³².

والشنتو تتناول الطبيعة بشكل فطري، هذا ما نراه بصورة واضحة في التصورات والكتابات اليابانية. فمثلاً: يقول الشاعر باشو Bashi عند رؤيته زهرة، معتبراً فيها الوجود:

لو نظرتُ بدقة..

لرأيتهم خلال الأدغال

المدلات الفاتحات للزهور³³

ففي هذه الأبيات الإحساس قوي إلى درجة كبيرة حتى يرى وكأن الزهرة تحس بالذي يراها، فهي تريد الوجود والرؤية من قبل الآخرين فتلقي شوقها إلى الوجود كجمرة في الأرواح، وهذا مؤثر جداً، وهو هزة ادراكية دقيقة وجليلة. لأن باشو يريد رؤية الزهرة، وأن يكون معها حقيقة، بدل الرؤية المجردة. ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا أن تكون الزهرة حية وتدم الحياة³⁴. ويمكن أن نتخيل هذا بالتعلق في سماء الزهرة، وان يصبح الإنسان كزهرة. وذلك أن فلسفة عميقة للوجود تكمن في هذه النظرة الساكنة الكامنة. وحسب أقوال اورتिका ي كسيت كأن إحساس "الحياة والتكوين" تتأججان في داخلنا، فعلينا أن نمي هذا الإحساس، وعدم جعل الحياة عوراء، بل علينا أن نستمر عليها ونجعلها غنية. وهذا يعتبر طرفة ونشاطاً.

وتترافق في مثل هذه القصص والأشعار، الأزهار والطبيعة الممتدة نحو الآفاق، وسفوح الجبال المكسوة بالنباتات البنفسجية والغيوم ذات الألوان الشتى، متراقصاً ليدوق الإنسان طعم الوجود، وليطير نحو الأعالي، وقد استفرغ Bashi إحساسه هذا، إي الوحدة والتناسق الموجود بين الإنسان والطبيعة، في أبياته المجردة الأتية:

في يوم اللقاء هذا

28 Rene Gueon, Apreçus, Gallimard, 1973, s. 144...

29 Pike, Dict. Des Relig. S. 299. "taoisme" mad.

30 Guenon, Aperçus, s. 115

31 Pike, a.e., a.y..

32 Eliade, Le Sacre, s. 131, vd

33 E. Fromm, Sahip Olmak ya da Olmak, s.39

34 Fromm, Sahip Olmak, s. 40-41

استفرغوا دموع الفرح لأردان اقمصتكم
يا أزهار اشجار الخوخ.³⁵

تتخذ الأشجار أماكنها في المعتقدات التي تنظر إلى الكون بنظرات شفافة، وترى فيها جهة قدسية. وتفشي الأشجار أو النباتات القدسية بنية مختلفة عن باقي أنواع النباتات المتباينة. فالكون وما فيه من العناصر حسب نظرة (ألي آده) - Eliade - الذي يرى أن مفهوم هذه القداسة تظهر أقدم وأعمق مبادئ العالم - تعتبر الشرفة الوحيدة للدين والمعتقد، فتعتبر شجرة الكستناء³⁶ شجرة تنعكس بواسطتها القداسة، لذا اتخذت مكانها بكثرة في الأشعار:

ما لي أرى إنسان هذا العالم يمر دون أن يرى

شجرة الكستناء المزينة

بأزهارها جانب البيت³⁷

والأشعار كثيراً ما تذكر شجرة الكرز:

شجرة الكرز اليابسة

وكأنها عجوز بلا اسنان

تذكر شباهها

بما تزينت به من الأزهار³⁸

وعلى قمم الجبال ذات اللون الرصاصي، هناك أطياف اللون البنفسجي المقدس.³⁹

5- نظرة النصرانية للطبيعية:

الحوادث الكونية في الدين النصراني الذي هو سماوي في الأصل، تشير من حيث المبدأ إلى بعض الحقائق الإلهية. ولها قيمة معنوية خارج الحقائق المادية المشخصة.⁴⁰ ولكنها واجهت عندما دخلت اجواء منطقة بحر الأبيض المتوسط عبادة الطبيعة، خلال إنتشارها في تلك البقاع لأول مرة، مما أدت محاربة عبادة الطبيعة كصنم، ليفصل العلماء الدين عن الكون والحوادث الكونية، فأبعدتهم عن فكرة ربط الطبيعة والحوادث الكونية بالدين. إلا أن القديس ماكسيموس St. Maximu و ديونيسوس Dionysius وأوريكان Origana بدأوا بالإشتغال في هذا المجال، أي التفكير حول الأبعاد المقدسة للطبيعة، وفي العصر الثالث عشر والرابع عشر بدأ العلماء بخوض هذا المجال خوفاً كبيراً وسبقوا أسلافهم سبقاً كبيراً، غير أنه لا زال القديس ماكسيموس St. Maximu يحافظ على مكانته في تكوين العلاقة بين الدين والدنيا⁴¹ وحسب تعبير وائل (Wahl) أن دسكارتيس (Descartes) قد ولى طريق التأمل في الوصول إلى الله تعالى. ومع أن باسكل قد إختار طريق القلب للوصول إلى الله تعالى، فوصل إلى الله الذي يحسه في قلبه. ولكن ثومس (St. Thomas) قد إختار للوصول إلى الله تعالى الطبيعة والظواهر الطبيعية⁴²، وتوصل إلى دلائل قطعية مقنعة.

35 Matsuo Başö Kuzeye giden İnce Yol ve Diğer Gezi notları, çev. Coşkun Yerli, Y.K.Y. İstanbul-1994, s.47

36 Le Sacre, s. 128,

37 Başö a.e. s.84

38 A.e.s. 16, vd.

39 A.e.s. 52

40 Nasr, Makaleler (1), s. 45

41 Nasr, Makaleler (1), s. 60-61

42 Jean Wahl, Tableau de la philosophie française Gallimard, 1962, s.30

وحسب هذه النظرة التقليدية للطبيعية يستشهد مثلاً (ثوأوفيل - Theophile) على وجود الآخرة والنشأة الأخرى من خلال الأثمار والنوى والحبوب، ويقول: "أليس للحبوب والأثمار بعث وحياء؟" وبالنسبة لـ كليمان (Clemen) وهو من روما "الليل والنهار تريان لنا البعث بعد الموت، فالنهار يرتفع ويذهب، ويأتي الليل ويذهب"⁴³ ويسعى روجر بيحون (Roger Bacon) ليدخل للتفكير النصرائي معرفة طبيعية توضيحية، وتستند هذه المعرفة على تلقي الطبيعة تلقياً متافيزيقية⁴⁴ ولا يكون هذا بإستناد الحقيقة على الأبعاد القصيرة المدى للأشياء، بل على العكس من هذا، يدرك بتكثيف الحقائق العقلية المادية والمعنوية لمستويات الوجود العالية السامية.⁴⁵

6 - الإنفعال تجاه الطبيعة لدى كوته (Goethe)

كوته (Goethe) من واصفي الحالات الروحية وصفاً دقيقاً، وهو رجل الإنفعالات، فيتناول الطبيعة بشكل رمزي مطابق للروح التأملية، ويبين أن فيها تناسقاً عميقاً⁴⁶، ويوضح أن الطبيعة تتضمن الإيمان بالله للذين يرتقون من المستوى المعرفي اليومي إلى مستوى الوجود،⁴⁷ ويقول كوته (Goethe): كلما أرى الطبيعة الأم تعطي للإنسان الفاني الأبدية والبقاء من خلال بعض الطرق، أفرح أكثر فأكثر.⁴⁸ ينظر كوته (Goethe) إلى الطبيعة نظرة المعرفة وليس نظرة التملك، ويرى الزهرة من خلال نوافذ الوجود كافة، ويرسل الإنفعال الذي يحسه تجاه تلك الزهرة إلى أبياته قاتلاً:

ثم رأيت بين الظلال
زهرة صغيرة...
تتلعم مثل النجم
وتبتسم مثل العين
وبينما أنا أحاول قطفها من مكانها
نادتني قائلة بلطفها
هل تريد أن أذبل وأموت
بالقطع والإنتزاع؟
نقلتها بجذورها
دون أي أذى
إلى الحديقة الكبيرة للبيت الجميل
زرعتها من جديد في
الحديقة الكبيرة الساكنة
فالآن تلك الزهرة الجميلة الصغيرة

43 Eliadoc, Le Sacre, s. 116-117

44 Nasr, Makaleler (1), s. 47

45 Nasr, İslam'da Bilim ve Medeniyet, çev. Nabi Avcı Kasım Turhan-Ahmet Ünal, İnsan Yayınları, İstanbul-1991, s. 242.

46 Goethe Der ki, çev. Gürsel Aytaç, K.T.B. Yayınları, Ankara-1982, s. 477

47 Goethe Der ki, s.478

48 A.e., s. 475

49 تنمو دون توقف وتزهر وتبتسم .

وعند تقييمنا للعالم الداخلي لكوته (Goethe) المشحون بالمعرفة التكوينية، يقول فروم Fromm في هذا الصدد: إن كوته (Goethe) عندما رأى زهرة صغيرة أراد أن يقطفها، ولكنه يعلم جيداً أن قطفها يعني موتها، فالزهرة بالنسبة إليه حيّة إلى درجة تتكلم معه وتنبهه، ويأخذها بجذورها ويزرعها في مكان آخر، ويؤمن حياتها.⁵⁰

7- الإنسان والطبيعة إخوة لكن نشبت بينهما العداوة

بدأ الانفصال بشكل مؤثر بين الطبيعة والإنسان اعتباراً من القرن السابع عشر، مع إنتشار الفلسفة العلمية، واشتد مرور الزمن، وبعد هذا القرن بدأت الإنسانية بتجريد الطبيعة من القداسة، وانتزاعها عن جذورها العميقة⁵¹ فالإحترام الممزوج بالخوف تجاه القوى الطبيعية الكبيرة حتى القرن السابع عشر، تركت مكانها اعتباراً من هذا العصر لقوة العلم وحاكميته⁵². وهذا الإحساس انقلب بغيرية لا شعورية إلى شراسة الإنتقام من الطبيعة وتخريبها.

وبعد هذا العصر وفي ضوء الفلسفة تفقد الطبيعة من كونها رسائل وعلامات وإشارات إلهية، وتفقد روح الشفافية تجاه الحوادث الكونية، وتنقلب إلى أشياء مجردة، وبهذا الشكل تحدث انشقاق غائر في فكرة الوجود، ثم يتسع هذا الانشقاق بمرور الزمن. وتتجرد بما فيها من الآثار الإلهية المحسوسة والشفافية الرمزية إلى حد كبير، ثم تغرق في الفكر المادي غرقاً كلياً، وتحتل مكان الفلسفة التقليديّة القديمة فلسفة الإستهلاك الغالب على الإنسان بطبعه، وينظر الإنسان إلى الطبيعة نظرة الطمع والنفع فقط، ومن هذا التاريخ تبدأ أزمة الوجود لدى الإنسان، حتى تصل أزمة الإنسان والطبيعة إلى حدها الأقصى في يومنا الحاضر. ففي هذه الحالة تعتبر فلسفة النهضة العلمية Rônesans والثائنية(المادة-الروح) كارتيزيان Cartezyen لهما الحصة الكبيرة في هذا الشأن.

وعندما فقدت فلسفة النهضة العلمية شفائيتها في تحطّي الظواهر الكونية فقدت كلياً، واعتبرت حسب هذه الفلسفة سطح الأرض الوجود الوحيد للنظائر. وحرمت الكون من ضوء الشمس ودفتها. والإنسان الذي ادار ظهره تجاه السماء، ورأى أن الحصول على الدنيا والإنتفاع منها غاية وحيدة له. عندها حدث أكبر انحراف وخطر حادثة في تاريخ الإنسان.

ولفلسفة كارتيزيان Cartezyen دور كبير ثاني في توجيه الإنسانية، وهي قد انفصلت عن الوحي السماوي وعن العقل السليم الكلي واتبعت عقلية إنفصالية⁵³ وتبلورت الحقيقة حسب هذه الفلسفة، فاصبحت الدنيا دنيا المادة، وطغت هذه الفلسفة على الواقع⁵⁴ وفصلت الحقائق بعضها عن البعض الآخر، وانفصلت الطبيعة عن الإنسان، واتخذت الطبيعة مشهداً مجرداً⁵⁵ وبذلك فقد أغلبية الإنسان

49 Fromm, Sahip Olmak, s. 41.

50 Fromm, Sahip Olmak, s. 42. Kutsal ya da sembolik tabiat görüşüne kalımayan; bu nedenle de, tabiatta, Tanrı'ya dair hiç bir iz görmeyen bazı modern Hıristiyan ilahiyaçıları için bkz. Nasr, İnsan, s. 33,37.

51 Eliade, Le sacre, s. 129

52 Mesela, yeni Tabiat Felsefesi'nde etkin bir yere sahip François Bacon'ın tabiat felsefesi, "Bilmek, hakik olmaktadır" şeklinde formüle edilebilir. Bkz. Macit Gökberk, Felsefe tarihi, Bilgi Yay., 2. bsk.1967, s. 291

53 Nasr, Makaleler (1), s. 45.

54 A.A. Adıvar, Tarih Boyunca İlim ve Din, Remzi Kitabevi, 2. Bsk., 1969, s.199. Bu kavramlarla ilgili olarak bkz. John Cottingham, Descartes Sözlüğü, çev. Bülent Gözkan, Necati İlgicioğlu Ayhan Çitil ve Aliye Kovanlıkaya, Sarmal Yayınevi. 1996. s. 129.-130, 205

55 Nasr, İnsan, s. 151

الحديث روح المشاهدة والتأمل في الطبيعة، واصبح الناس محبسون في عالم لا يحتوي على أي جانب من جوانب القداسة، ومشاهدها⁵⁶. وانعكست مساوئ هذا التصرف على علاقة الطبيعة والكون إلى درجة اصبحت الطبيعة في حاجة لتحتمي من شر الإنسان الذي كان يتجنب شر الطبيعة من قبل⁵⁷. وذلك أن عصر التصنيع الذي أفرز طراز حياة بعيدة عن التقاليد ومنفصل عن التراث، اراد أن يخضع كل شيء لإرادته الجديدة ومن ضمنها الطبيعة، والمبدأ الذي يحكم بها الطبيعة ليس مبادئ تنظر الى الطبيعة نظر السموم، بل له معادلات وأرقام يستفيد بها عن الطبيعة، وبعبارة أخرى ارادت هذه الفلسفة أن تريح برأسمال واحد آلاف الفوائد والأرباح من الطبيعة. والإقتصاد هو جزء من عناصر التوازن في الطبيعة والحياة الاجتماعية، فانزلت الطبيعة كل شيء على مستوى قيمتها المادية والمالية، أما القيم الاجتماعية والبيئية فهي كلها لا شيء في نظر هذه الفلسفة ويكون الإنسان اسيراً بين ارتفاع وانخفاض ارقام الدنيا الساحرة.⁵⁸ ويمكننا القول أن المجتمع الذي يحكمه مثل هذا المنطق البسيط ينبع من طيات أنسجته تأخر وفساد.

ومثلاً ف. شوميكر (F. Schumacher) يتطرق خلال كتاباته عن الإدمان الإقتصادي وأعماق تأثيراته، ويبحث عن فلسفة كارتيزيان Cartezyan وما تشكل للإنسان من تخريب وويلات ويقول: فهي بمنطقه غير المنصف الثوري فصل الإنسان عن مستوياته التي يدم إنسانيتها، وسدت بوجه الإنسان أبواب السماء، وسعت لتحبس نفسه على وجه الأرض، والآن اكتشفت أن الأرض محل العبور.⁵⁹

وقد ضعفت علاقة الإنسان بالأحياء، وتوجهت هذه العلاقة نحو العالم المادي والميكانيكي. والمجلب للنظر أن إحتياجات الإنسان تجاوزت الحد في مثل هذا المجتمع مجتمتع التصنيع وعالم التكنولوجيا، واصبح الإنسان لا يقتنع بكل ما ينال. ويمكننا القول ان الطبيعة اصبحت مكاناً غير صالح للسكن في مجتمتع التصنيع.⁶⁰ واصبح الإنسان عبداً للأجهزة التي صنعها بيده⁶¹ وفي مثل هذا الوسط اشتدت الرغبة لدى الإنسان لإمتلاك كل شيء، واصبح غايته الوحيدة الحصول على ما يريد⁶² وانحدرت قيمة الطبيعة لدى الإنسان إلى متاع يستفيد منه فحسب، فأنقلب سطح الأرض بما يشبه مشهد ورشة عمل فقط.

لذا يعتبر ما أفاده السيد حسين نصر أدناه نوع إيضاح للحقيقة على رغم المجتمع الحديث، حيث يقول: الإنسان العصري لا يرى الطبيعة بمثابة زوجة يستمتع بها ويكون مسؤولاً تجاهها، بل يراها بمثابة فاحشة وباغية، لا يحمل تجاهها أية إحساس للمسؤولية... والصعوبة تكمن في أن الطبيعة التي يستمتع بها الإنسان كفاحشة تفقد يوماً بعد يوم إمكانية الإستمتاع.⁶³

ومن جانب آخر رؤية الطبيعة بمثابة قيمة مجردة لا تحمل أية شعور، تعمي عين المجتمع الصناعي إلى درجة، ينسى أن الطبيعة لها حدود للإستفادة منها، وفي حالة تحطي تلك الحدود سوف تقوم الطبيعة

56 Nasr, İnsan, s. 41

57 Nasr, İnsan, J.E. Brown, "The Spiritual Legacy of the American Indian" Tomorrow, Güz, 1964, s. 302'den naklen

58 Fritjof Capra, Yeni Bir Düşünce, Türkçesi: Mustafa Armağan, Ağaç Yayıncılık, İst.-1992, s. 309.

59 Schumacher, F., Akli Karışıklar İçin Kılavuz, çev. Mustafa Özel, İz Yay, İstanbul-1990, s. 163.

60 Felix Guattari, Üç Ekoloji, Türkçesi: Ali Akay, Hil Yayın, Temmuz 1990, s. 6. (Önsöz, Ali Akay)

61 Fromm, Sahip Olmak, s. 227

62 A.e., s.50

63 Nasr, İnsan, s. 15; Makaleler (1), s. 48

لمدافعة نفسها. واتعس من ذلك لو اراد الإنسان تخريب الطبيعة وامتصاص ثرواتها تؤدي مباشرة إلى قيام الطبيعة بتخريب الإنسان وقتله. ولا بد من تأييد آ.شويتز (A.Schweitz) في مقولته: الإنسان الراقى هو الإنسان المسكين الذي يرثى لحاله بزيادة قدرته وطاقته.⁶⁴ وذلك على الرغم من ضمان متطلبات الإنسان كافة لا تكفي تلك المتطلبات كي تجعل الإنسان سعيداً⁶⁵ بل على العكس من ذلك تجعل الإنسان ليواجه مصاعب أكثر فأكثر. وفي هذه الفترة الجنونية تصعد مسألة كشف الطبيعة والسيطرة عليها إلى درجة، يفقد الإنسان المسيطر قيمته أيضاً، ويتعرض وجوده للإنقراض، وحرص الإنسان للسيطرة على الطبيعة يؤدي بالنتيجة لموت الطبيعة والإنسان معا.

8- سبب التخريب: هو الحرمان من القيم المعنوية

وحسب بحثنا ان إختلال التوازن الكوني والبيئي ينبع من حرمان رؤية الطبيعة رؤية معنوية عميقة. وهذا نتاج فقدان العلوم الكونية الميتافيزيقية التي تربط جميع وحدات الكون بعضها ببعض الآخر، وتجعل كلها بمثابة عناصر اللوحة الواحدة. والحال كان ينبغي للإنسان المتحضر أن يحترم الطبيعة، ويعتبر مادتها الأصلية مقدسة الأبعاد. فالكون يمثل هذه التقاليد يتكلم مع الإنسان، وتكون للحوادث الكونية معاني ومفاهيم. وكانت هذه رموز وعلامات تبثها الحوادث الكونية أو تسترهما على مستواها الكبير. فالمبنى العميق للكون يكمن ويوصل للإنسان أخباراً وأنباءً. لذا يعتبر الكون آية من آيات الدين النابع من المصدر نفسه. وكل منهما الكون والدين يحملان نفس العلامة ونفس التظاهر، والكون الذي يعيش فيه الإنسان ويموت جزء من عالم المعنى الكبير بأجمعه، لا يمكن فصله عنه.⁶⁶ وقد زعزت الفلسفة الطبيعية هذه الاسس والقواعد.

ب - وجهات نظر جديدة

1- هناك حاجة بالدرجة الأولى لتقوية مفهوم الطبيعة التقليدية بواسطة دراسة مؤثرة. وينبغي توحيد العقل البشري الذي تحول لكتلة نارية مخربة للكون والإنسان، بمبدأ معنوي متكامل سابق من جديد، وخلال هذه الخطوة الجديدة ينبغي تصميم القلوب التي لها تأثير عميق للتكوين الإنساني من جديد. ويلزم إقامة حمل الحنان والدفء لدى الإنسان الذي لا يعرف حداً للشبع، وينبغي أن يتوصل الإصطلاح الموجود في مركز الحلول، الى الحقيقة واللب فيما وراء المظهر الخادع، والتعبير عن مثل هذا الإحساس⁶⁷ وهذا تفكير جديد أو أخلاق جديدة كلياً.

ومن الذين عبروا عن مثل هذا الإستقامة في الوصول الى مفهوم طبيعي جديد، م.د. مساروفيج (M.D. Mesarovic) و أ. باستل (E.Pestel) حيث يوضحان عن الأخلاق الجديدة بأنه بدل السيطرة على الطبيعة وقهرها، الولوج إلى التلاؤم والتعاون معها، والوصول إلى مثل هذا التفكير، لكي يحس الأجيال الآتية بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم تجاه الطبيعة⁶⁸. حتى تصبح العلاقة ما بين الطبيعة والإنسان تتقرب إلى فكرة علاقة حوار.

والطبيعة حية تتحرك، وتتأثر بما يحيط بها من الأشياء مباشرة، وتؤثر بما حولها، وحسب هذه النظرة الطبيعة ليست نظاماً ميكانيكياً ميتاً، بل على العكس من ذلك وحسب قول باتاسون

64 Fromm, Sahip Olmak, s. 19

65 A.e., s. 50.

66 Nasr, İnsan, s. 18

67 Fromm, Sahip Olmak, s. 19

68 Fromm, Sahip Olmak, s. 253

BATESON بأنها نظام له عقل يناسبه،⁶⁹ وانظر كيف يبين هاتفي اسباباني هذا التعارف والعلم حتى في الذرات أيضاً قائلاً:

لئن شققت قلب كل ذرة
ترى فيها شمساً تلتمع

وبينما هو يبين نظرة الإنسان المؤمن الذي توصل إلى معرفة الموجودات ، يبين الشريعة، وهذه الحقيقة الكونية أيضاً بأحسن شكل: وقبل كل شيء أنني لا أرى الطبيعة عبارة عن عناصر عمياء، ومجموعة قوى وقوانين، بل اتلقاها بأنها موجود يعيش وبحس، والذي يعبد الله بشكل شعوري، يدرك الإرادة الحاكمة على الطبيعة. أما الإلحاد وعدم الإيمان بالله فلا يدرك الطبيعة ولا يفهمها، ويجعلها غريبة بالنسبة للإنسان، ويجعل الطبيعة كمقبرة لا حدود لها يعيش فيها الإنسان وحيداً غريباً، ولا يمكن فصل الإنسان عن الطبيعة وعزلها عنها أبداً، ولئن أصبح الكون خالياً من المعنى يفقد الإنسان أيضاً معناه، ولا يمكن البحث في مثل هذا الموضوع، وذلك لأن التفكير الذي يقول بعبثية الكون يجعل الحياة بلا معنى ومغزى أيضاً، ويقود الإنسان نحو البلاهة والعبثية واللامعنى⁷⁰ وهذا يعني أن الحقائق الكونية شفافة، ولها وجود خاص بها، والنتيجة: الوجود يعكس وجود ذات مقدسة لا غير.⁷¹

2 - لا يبحث الإله دون البحث عن علاقة الإنسان بالطبيعة (النظرة Kozmofeandirk paradigma) هذه النظرة Kozmofeandirk paradigma مبنية على أساس التلقي والحوار، لذا تكون حسب هذه النظرة وحدات الموجودات في وحدة وعلاقة وثيقة لا تنفصل، وإنما لا نستطيع البحث عن الإله دون البحث عن علاقة الإنسان بالطبيعة، ولا نستطيع البحث عن الإنسان دون البحث عن الإله والطبيعة، ولا نستطيع البحث أيضاً عن الكون دون البحث عن الإله الذي هو الخالق وعن الإنسان الذي هو المشاهد، وهذه الثلاثة ترتبط بعضها بالآخر⁷² وهي يعني ان الإله والكون والإنسان ذات علاقة وثيقة لا تنفصل بعضها عن البعض الآخر من حيث الفكر.

وهذا يعني أنه ينبغي حسب نظرة PARAD {GMA تحول جذري من حيث نظرة العلم إلى الطبيعة. وكما يقول كابرا Capra: رجال العلم يتعاونون مع الطبيعة، وهم يركضون وراء العلم للوصول إلى النظام الطبيعي، وحسب ما أفاده الصينيون: إننا نريد ولادة علم يتبع النظام الطبيعي، ويتترك نفسه لأقدار الإله.⁷³

وكما قال الشاعر محمد إقبال مبيناً موقع الإنسان لدى الله وموقع الله لدى الإنسان: إنه يتظاهر بطورنا وينكشف، ونحن نتظاهر بإنكشافه وظهوره.⁷⁴

3- النظرة البوتسرايبية (Bootstrap):

إلى جانب النظرة التقليدية ونظرة Kozmofeandirk paradigma هناك نظرة تشبه هذين النظرتين، نظرة (Bootstrap) التي قدمها كاو فوري جو (Geoffrey Chew)، وهي من حيث الفحوى، تهدف لتقوية الطبيعة تجاه الإنسان، وتقول كل عنصر في الطبيعة ومن نظمها الإنسان من حيث تحقق الوجود لا يستغني عن بقية العناصر، ويستقل بذاته. بل على العكس من ذلك أن قيمة أي عنصر كان في

69 Fritjof Capra, Kainata Mensup Olmak s. 175

70 Ali Shariati, Histoire et destiee, s. 95

71 Eliade, Le Sacre, s.117.

72 F. Capra, Kainata Mensup Olmak, s.131

73 Kainata Mensup Olmak, s.30

74 Gülşen-i Raz, s.20..

الطبيعة تزداد وتنتشر بقوة العلاقة الداخلية مع بقية العناصر . وحسب نظرة Chew لا يمكن انزال الطبيعة إلى مستوى وحدات اساسية كوحدات الحجر الأساس للمادة. بل يمكن فهمها كلياً بالعلاقات الداخلية المترابطة. والأشياء تقوم بفضل العلاقات القائمة المتقابلة. وبعبارة أخرى حسب فلسفة بووتسراب أن الكون المادي بمثابة شبكة أحداث متقابلة وديناميكية، ولا يمتاز أي قسم من هذه الشبكة بخصائص اساسية مستقلة، بل هذه المميزات تستخرج عن بقية خصائص باقي الأقسام الأخرى، وتعين ترابط جميع العلاقات المتقابلة، حيث مبني الشبكة الكلية.⁷⁵

وفي هذا الحال لا يمكن البحث عن عنصر يمتاز بخصائص اساسية، بشكل لا يتغير، ومن ضمنها الإنسان، فتتحقق أقداره وموضعه في الدنيا، بتحقيق وجود باقي مجالات الوجود الأخرى بالشكل الملائم والموافق. ولا يمكن البحث عن وجود وأقدار، أي بشكل مستقل في الكون، بل يمكن البحث عن الأقدار المشتركة التي تربط هذه الموجودات بعضها ببعض الآخر داخلياً، وتؤثر بعضها ببعض. ويبحث عن التاريخ والنتائج المشتركة فحسب.

وفي مركز هذه العلاقات التي تحيط بالأشياء والمكونات هناك العلاقة بالله، وقوة وماهية هذه العلاقة تؤثر بشكل محتم على العلاقات كافة في ساحات الوجود. ولئن كانت العلاقة معه علاقة ايجابية، فتؤثر بشكل ايجابي على جميع الموجات والعلاقة معها، ولئن كانت هذه العلاقة سلبية، فتتخذ ماهية مخربة، وبالابتعاد عن مثل هذه العلاقة السلبية، والتقرب إلى العلوم الأخلاقية والإيمان بالله وما أليها من الأمور يخلص الإنسان من الأزمة البيئية.

ج - نظرة رسائل النور إلى الطبيعة

لرسائل النور مكانة كبيرة في عالم الفكر والإيمان، وهي تفسير المعنى للقرآن الكريم، ويحتل موضوع الطبيعة وتصويراتها، والتفكير فيها الأولوية بين الموضوعات المهمة في رسائل الاستاذ النورسي. وهي تتكلم حول الطبيعة من وجهة الفلسفة التقليدية، وعن وجهتها البيئية بكل عمق، وتبين رسائل النور أن الكون بمفهومه العام والطبيعة بمفهومها الخاص آية تشير إلى قمة القيم المعنوية حسب تعبير القرآن الكريم، وهي طابع وآثار إلهية تبين الخالق وتؤدي إليه.

ترى رسائل النور أن كل شيء ولا سيما الطبيعة بما تضم من التوازن، والتناسق، والجمال، والتلاؤم وما إليها من الخصائص مقدسة موقورة، وهي وسيلة مؤثرة توجه نظر الإنسان إلى الله تعالى، وإلى اسمائه الحسنى وصفاته الجليلة وإلى تجليات القدرة وتظاهرها. وما في رسائل النور من الفكر الجوال، والإنفعال، والعمق المعنوي، ينقل -بشكل خارق- المشخص من الوجود إلى شيء مجرد ويجعله معنوياً. وبعبارة نصر : أنها استفرغت ما تفيده الموجود الكوني المقدس من المعرفة والحدس في قوالب التعبيرات المنتظمة، وقدمتها للحياة الدينية والاجتماعية. وبأنقلاب الطبيعة من ضمن ذلك التكوين المشخص إلى رمز ومثال، يصبح الإنسان بما يقرأه بعينه ويفهمه بعقله، وبما يلامسه بيده وبمشي عليه برجله، يحس وكأنه أمام شخصية محترمة، ويتلقى ما يأتي من ورائها من الرسالة بكل تعظيم. وبذلك أصبح يقوي إنسانيته الذاتية من جانب، ومن جانب آخر ينقلها إلى ما ورائها من العالم. ويبدأ بمسحها ودراستها بالعقل التحليلي، ويتوصل إلى أفق الحقيقة الكبرى بأجنحة العقل الحدسي.

1- الطبيعة أثر عظيم

يتسلح الإنسان في خضم طوفان العلم والمعرفة هذه إلى درجة بحيث ينظر إلى الطبيعة نظرة يجد فيها وراءها منبعها وحقيقتها، وأما تملك شخصية وجودية مشهودة. والمحافظة عليها بكل ود وحنان ينبع بما تقدم الطبيعة من روح ومفهوم لـ (أنانية) الإنسان بشكل إجباري. وذلك لأن الطبيعة، ليست امتزاج قوى عمياء، لا علم لها، ولا شعور، ولا قدرة، ولا قوة ولا حكمة. بل على العكس من ذلك هي شأن وجود مطلق، وهي محط تجليات ذات جلييلة معروفة، وهي مقدورة قادر مطلق، ومقهورة قاهر عزيز.

وفي الأسطر التي يجلب بديع الزمان النظر للحكمة الموجودة في الكون، والتوازن الحاكم فيها يؤكد قائلاً: "فالمصادفة العشواء والطبيعة الصماء والقوة العمياء والاسباب الحامدة والعناصر المبعثرة، لن تمتد يدها أو تندخل في تلك الافعال التي هي في منتهى الدقة والميزان والحكمة، والتي تنجز بكل بصيرة وحبوية وانتظام وإحكام".⁷⁶ وعلى العكس من ذلك تماماً: "ان المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر للحكيم العليم في هذا العالم الكبير الذي هو صيدلية ضخمة رائعة لا يمكن ان توجد الا بحكمة لا حد لها، ويعلم لا نهاية له، وبارادة تشمل كل شئ وتحيط بكل شئ".⁷⁷

2- الطبيعة مضيف وكتاب كبير

مشاهدة الطبيعة من زاوية تمكين علم الله وقدرته وحكمته ونعمته إلى آخره من صفاته الجلييلة على خلق الطبيعة مبدأ ومعاداً تكون مشاهدة بلا مثيل. وحسب تعبير الأستاذ النورسي يرى الطبيعة: "مضيفاً في غاية الكرم.. ومعرضاً في غاية الابداع.. ومعسكر تدريب في غاية الهيبة.. ومتنزهاً جميلاً في غاية الروعة.. ومشهوراً في غاية الاثارة للشوق والبهجة.. وكتاباً مفتوحاً ذا معان في غاية البلاغة والحكم".⁷⁸

3- الطبيعة تجل من تجليات نقش الإله الأزلي:

وبزاوية المشاهدة والنظر الرمزي لرسائل النور تخرج الطبيعة عن التكوين الجرد، بل تكون مؤشراً يشير إلى ما يلزم الإشارة إليه، وتكون بمثابة اصبع يشير إلى البدر، وتستفيد من قوة اسلوب التشبيه العاكس للمعنى العميق. فمثلاً تقول: "أطل برأسك من تحت مستنقع الطبيعة.. لترى الصانع الجليل الذي تشهد له جميع الموجودات، من الذرات الى المجرات، بألسنة متنوعة، وتشير اليه اشارات مختلفة.. وشاهد تجليات ذلك المصور الجليل الذي شيد قصر العالم الباذخ، ودون خطته وبرنامجه وقوانينه في تلك الكراسية.. وانقذ نفسك من ذلك الهذيان الآثم الرخيص!"⁷⁹ ويقول في وجود الطبيعة التي هي عبارة عن دلالة على الخالق من الناحية الانتلوجية، وانطلاقاً من العلاقة الوطيدة القائمة بين قصر الحقيقة هذه وبين بانيتها: "كما ان هذا الكون يدل على صانعه وكتابه، ومصوره الذي اوجده، والذي يديره، ويرتبه، ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنه قصر باذخ او كأنه كتاب كبير او كأنه معرض بديع او كأنه مشهر عظيم...".⁸⁰

وقياساً على هذه الحالة، فإن الجمال والتناسق المشاهد في الطبيعة لا يعود للموجودات نفسها، بل لغيرها، وليست الطبيعة بصورتها المشخصة إلا معكساً ومظهراً لهذه الصفات المتجلية عليها. ويمكن

76 الشعاعات ص 199

77 للمعات ص 270

78 الشعاعات ص 141

79 للمعات ص 281

80 الشعاعات ص 171

القول أنه هناك جميلاً مطلق الجمال، حتى أصبح الكون معكساً لجماله، وهناك مصوراً في غاية الأبداع حتى اوجد مثل هذه الصورة الجميلة. وهذا يعني أن هذه الطبيعة ليست فاعلة ما تضم من التناسق في عناصرها كافة. بل على عكسها "صنعة صانع ولن يكون صانعاً، وهو نقشٌ ولن يكون نقاشاً، ومجموعة احكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً، وفطرة منفعة ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعة قوانين ولن يكون قادراً، ومسطر ولن يكون مصدرًا".⁸¹

الطبيعة شريعة فطرية، وهي مسطر لا مصدر

يقول بديع الزمان بتشبيهاته الخارقة وتصويراته البديعة أن الطبيعة: "شريعة فطرية"⁸² وهي مطبعة تطبع فيها اسطر وحروف الهجاء لتجليات القدرة الإلهية وجمالها،: "الطبيعة مطبعة مثالية، وليست طابعة، نقش لا نقاشة، قابلة للإنفعال لا فاعلة، مسطر لا مصدر"⁸³ وهي كتاب مدون يضم تجليات القدرة والجمال نقطة نقطة، هجاء هجاء، وكلمة كلمة، وجملة جملة بشكل غير متناه. وهي لوحة كونية طبع بشكلها الحالي، وعرضت على الأفهام والقلوب، ليعرف الطابع الأزلي، ويعرف مصدر المصادر.

الطبيعة ستار لعزة الخالق

الخلق يجري في الطبيعة بشكل "إنشاء وابداع"، وهي مليئة بما يشير إليه العظيم من اشارات وعلامات كما يقول الاستاذ النورسي: "القدرة الفاطرة التي تخلق من العدم ثلاث مائة الف نوع من المخلوقات والاحياء، وتمنحها اشكالها وصفاتها وكيفياتها واحوالها مما سوى ذراتها".⁸⁴ والطبيعة التي تشكل مائدة الموجودات، تحجب الوجود الإلهي المطلق من ناحية ومن ناحية تظهره وتعكسه، وبعبارة الاستاذ النورسي هي "ستار ليد قدرة الله الجليلة وحجاب لعظمته"⁸⁵ حيث يقول الشاعر إقبال: الحقيقة تحتجب، إذ في انكشافها لذة.⁸⁶

فالنظرة التي ربطت عقلها وقلبها بالحقيقة العظمى، وهي تبحث فيما وراء الظل عن الحقيقة، والبقاء والذات الباقية فيما وراء الزوال، وعن الظهور الباقي فيما وراء الظهور المؤقت الآني، ترى في التطبيقات أن الوجود كله طابع يشير إلى الخالق الكريم، حسبما عبر عن هذه الحقيقة أحد من أهل القلب قائلاً أن فتحي جموح أوغلو كان يقول في الرسالة التي كتبها إلى ابنه علي: يا بني ليس عليك أن ترعى حقوق الناس فحسب، بل عليك أن ترعى حقوق الطير، والذئب، والشوكة، والأعشاب.⁸⁷ وهكذا يقول الأستاذ النورسي: "ذلك لأن سكة الفطرة، وختم الحكمة، وطغراء الصمدية، وختم الرحمة، الموجودة على جبين تلك التفاحة الواحدة، موجودة كذلك على جبين تفاح الارض كلها وعلى سائر الاثمار والفواكه وعلى النباتات والحيوانات جميعها. لذا فان مالك تلك التفاحة الواحدة وصانعها الحقيقي هو مالك وصانع امثالها واشباه جنسها من سكنة الارض وهو مالك وصانع الارض

81 اللغات ص 283

82 اشارات الإعجاز ص 154

83 المثوي العربي النوري ص 425

84 اللغات ص 298

85 اللغات ص 284

86 İkbâl-i Lahori, Yeni Gülşen-i Raz (Sır güllerinin açtığı bahçe), çev. Ali Nihad Tarlan, B. Kervan Matbaası, 1959 (?), s. 16

87 جريدة العقد: عدددها الصادر في 1998/6/07

الضخمة التي هي حديقته، وهو باري شجرة الكائنات التي هي مصنعها"⁸⁸ فوجود هذا العالم الذي هو بمثابة معسكر لله تعالى وما فيه من التجليات والتكونات والإنهادات، تشكل في الوقت نفسه دلائل قوية مقنعة مجسمة على الإحياء بعد الموت. لأن القدرة الإلهية لا يصعب عليها أي شيء، فلا بد لها تخلق الآخرة بسهولة خلق الربيع، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ النورسي: "وما دامت لا يشق عليها شيء فلا بد أن يكون لديها إيجاد الحشر الأعظم كسهولة إيجاد الربيع، وإيجاد الربيع كسهولة إيجاد شجرة واحدة، وإيجاد الشجرة كسر إيجاد زهرة واحدة، ولها تقوم بالإيجاد بهذه السهولة واليسر كما تقوم بها في أدق ما تكون الصنعة والاتقان. فنرى لها تخلق الزهرة باتقان الشجرة وبأهميتها وقيمتها، وتخلق الشجرة باعجاز صنع الربيع الهائل، وتخلق الربيع بشمولية الحشر وجامعيته واعجازه، هكذا تخلق، وهكذا نشاهد خلقها امام أعيننا"⁸⁹.

الخلاصة والمقترحات:

ينبغي على الإنسان أن يتصالح مع الطبيعة، وهذا ضرورة حياتية حتمية، وعليه يجب التخلي عن القبول المسبق بلا برهان، وعن الإنحياز، والتخلي عن العلاقة المستندة على المنفعة والإستهلاك فقط، ولا يمكن إعتبار الطبيعة بلا سبب ولا حكمة، ولا وقار، ولا يمكن تركها وحدها، وعدم الإحساس بالود تجاهها. بل هي عطاء الله للناس، وهي موجود ينبغي احترام حقوقها. وفي حالة عدم اسنادها الى علم ميثافيزيقي فلسفي ضمن اطار، تنعكس ما يصيبها من الضرر والإهانة مباشرة علينا فالله تعالى يقول (وما اصابكم من مصيبة فيما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) (الشورى: 30).

لذا تبقى الحلول غير النابعة من تقاليد ميثافيزيقية صحيحة دون جدوى ودون نتيجة، ولا تكون للمحاولات والتدابير التي لم تنعكس على الحياة دون تأثير. وما قدم إلينا الاستاذ النورسي من المفاهيم والتصورات حول الطبيعة والكون يجعلنا أن نبقي وجهاً بوجه تجاه التقاليد، وما قدمته إلينا الحضارة الحالية من مفهوم الطبيعة العميق، ويؤكد الاستاذ في رسائله التصالح مع الله كحل جذري مشخص. وذلك يمكن القول أن الذي لم يتصالح مع الله لا يكون في صلح لا مع نفسه ولا مع الطبيعة ابداً. وعلى الأفراد والجماعات التي تريد الوصول لمثل هذا التناسق والتلاؤم أن ينظروا إلى الطبيعة نظراً للإحترام والود، والتعامل معها بإحساس الحب والعطف، ويحتضنها، ويحذر من أن تمسها بسوء وأذى، ومثل هذا الإنسان يحس فيما وراء الشوكة الوردية، والربيع وراء الخريف، والحياة وراء الصحراء، ويكتسب هوية يليق بشخصيته.

وهكذا توصينا رسائل النور التصرف مع الطبيعة ليس بشكل وحشي، بل بمثابة نعمة قدمها الله لنا، ويدخل في حوار معها، وكما يقول كوتة تعتبر المودة والحب تاج الطبيعة، ولا يمكن الإقترب للطبيعة إلا عن طريق الحب الود.⁹⁰

ترجمة: جميل شانلي

نظرة سعيد النورسي حول الايمان بوجود الله

د. امتياز يوسف^P

يحتل النقاش حول وجود الله محورا حيويا في الفكر الانساني. ونظرة متفحصة على النقاش الدائر في هذا الموضوع في كل من ساحة العلم والتكنولوجيا والدين في عصرنا هذا الذي يفخر بإنجازاته تظهر لنا أن مثل هذا النقاش لن يزول ولن ينتهي. فهذه المسألة تحتل مركزا رئيسا في نظرة الفكر الانساني نحو العالم في جميع الازمنة والافاق: في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل أيضا. قد تتغير خيوط وخطوط وملامح هذه المسألة بتغير الزمان، وبزيادة العلم والمعرفة الانسانية، ولكنها تبقى احدى الركائز المهمة والاساسية في تشكيل حياة أغلبية الناس بحيث لا يمكن اهمالها او الاستخفاف بها.¹

سيتم تناول نقاش هذا الموضوع من وجهة نظر دينية وفلسفية. وقد يكون هذا صعبا ومشكلا من منظور الجدل والنقاش الدائم بين المسلمين حول العلاقة بين الوحي وبين العقل. وقد يكون العكس صحيحا. وقد أخرج عن الموضوع، ولكنني أصر بأن الحاجة الى فهم الوحي عن طريق العقل وعن طريق قوة وقدرة الادراك لن تقل أبدا.

يجب أن أعترف بأنني في خلال تعرفي واكتشافي الحديث لسعيد النورسي استطعت التغلب على مشكلتي الفلسفية حول علاقة الوحي بالعقل، مع أنني لا انكر ان فهم سعيد النورسي لا يتطلب براعة فائقة.

P ولد في تزانيا سنة 1957 . له مؤلفات عديدة منشورة ، وحاليا استاذ في كلية الدراسات الإسلامية في جامعة البرنس سونوكلا في تاييلاند.

1 - انظر الى :

Eugene G. d' Aquili for and Adrew B. Newburg, "The Neuropsychological Basis of Religions, Or Why God Won't Away" Zygon vol. 33 no. 2 (June 1998): 187-201; Henry Simoni, "Divine Possibility and The Problem Radical Particularity: Does God Feel Our Pain" Religious Studies vol no. 33 (1997): 327-347; David Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon Press. 1991) ; Victor Cosculluela, " Death and God: The Case of Richardson Swinburne" Religious Studies vol no. 33 (1997): 2933*2; Mikael Stenmark, "An Unfinished Debate: What are the Aims of Religion and Science" Zygon vol. 32 no.4 (December 1997): 491-514.

ان جهود بيدع الزمان سعيد النورسي (1876-1960)² وبجوثه وكتاباتة منصبة على ايضاح وتحليل وتفسير القرآن في مواجهة المتغيرات الثقافية والفلسفية التي تواجهها الانسانية عامة والمجتمع الاسلامي، لا سيما في عصرنا الحالي المتسم بالتعقيد الشديد.³ وتتصف بجوثه وكتاباتة بالعمق، وبارتباط فريد بالقرآن.

وهذا البحث هو محاولتي الاولى في دراسة وعكس الافكار الفلسفية العميقة لسعيد النورسي التي تعرضت للاجابة على السؤال حول وجود الله، وبيان مدى التأثير الايجابي للايمان بالله في حياة المسلمين، والتغير الذي يحدثه في نظرة المنكرين - لوجود الله - للعالم. وسنحاول القيام بهذا التحليل وايضاح فكر النورسي الذي أدرجه في " الكلمة الثانية " وفي " الكلمة الثامنة " في كتابه " الكلمات" ضمن مجموعة رسائل النور.⁴

كما يجب أن أعترف بأنني لا أعرف اللغة التركية، لذا اعتمدت على الترجمة الانجليزية لرسائل النور.

سنحاول في القسم الاول من هذا البحث تناول مكانة فكر النورسي - باختصار - ضمن سياق الفكر الاسلامي المعاصر، ثم نقوم في القسم الثاني. بمسح مختصر للمفاهيم حول وجود الله من زاوية تاريخ الاديان ، وكذلك حول المفهوم القرآني لوجود الله

القسم الاول

مكانة سعيد النورسي في الفكر الاسلامي

أستطيع أن أقول كشخص قادم من جنوب شرقي آسيا بان الاسهام الكبير لسعيد النورسي غير معروف في هذا القسم من العالم الاسلامي الا على نطاق ضيق، على عكس الوضع بالنسبة للمفكرين من غير أهل هذه المنطقة أمثال أبي الاعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب الذين لهم توجهات سياسية ملحوظة. وتعود أسباب هذه الظاهرة الى ما يأتي:

أ- عدم وجود امكانية الحصول على معلومات حول سعيد النورسي باللغة العربية أو باللغات المحلية في هذه المنطقة.

ب- التوجه السياسي العام في الفكر الاسلامي المعاصر.⁵

ج- قيام الاحداث الدولية بتحويل الانتباه عن الدراسات الجدية لكبار المفكرين المسلمين من أمثال سعيد النورسي.

اضافة الى الاسباب المذكورة أعلاه هناك توجه كبير نحو المواضيع الشرعية والمعرفة الالهية في الفكر

2- انظر الى The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World s.v. "Nurculuk" by serif Mardin.

3 - من أراد الاطلاع على بحث جيد باللغة الانجليزية حول حياة سعيد النورسي وكفاحه يستطيع قراءة : Hamid Algar " Said Nursi and the Risala-i Nur" وهو بحث كتب بمناسبة اصدار عدد خاص حول أبو الاعلى المودودي وخورشيد أحمد وظفر اسحاق الانصاري من قبل (Leicester :The Islamic Foundation,1979) pp.313 - 333.

4 - جميع المقترسات من رسائل النور والواردة في هذا البحث مأخوذة من الترجمة الانجليزية لرسالة " The Words " لسعيد النورسي من قبل شكران واحدة والمنشورة من قبل دار نشر " سوزلر / اسطنبول 1992.

5 - Muhshin S.Mahdi, " The Political Orientation of Islamic Philosophy" Occasional Paper Series(-5 Washington ,D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1982).

الاسلامي المعاصر تحت اسم " الاداب " ⁶ و " الحكمة " مما يؤدي الى نوع من الصرامة المؤدية الى نوع من الظلم (ظلام، كآبة، غموض) في فكر المسلمين. ⁷ وهذا أدى الى عدم رؤية مساهمة بعض العقول الممتازة في الفكر الاسلامي والفلسفي من أمثال سعيد النورسي الذي بحث في أزمة المدينة الاسلامية في العصر الحديث من زاوية القرآن. لقد دعا النورسي الى منهجية جديدة في التفسير تقوم بالاستفادة من التقدم في حقول العلوم الوضعية والعلوم الاجتماعية والانسانية، لكي تستطيع الامة مواجهة التحدي الناتج من وقوعها في مصيدة الفلسفة المادية المنسلخة عن القرآن.

وأخيرا فان صيغة وصورة التعليم الاسلامي التقليدي السائد في بلدان العالم الاسلامي باجمعه - وليست في بلدان جنوب شرقي آسيا فقط - والقائم على الحفظ عن ظهر قلب دون فهم ووعي، أدت الى ابتعاد العالم الاسلامي عن البحوث الجديدة وعن النقد الذاتي.

هذا هو السبب في عدم معرفة اسهام سعيد النورسي في الفكر الثقافي الاسلامي معرفة كافية. وعلاوة على هذا فان الارتباط الفلسفي العميق لسعيد النورسي يتطلب - من الباحث في فكره - فهما وتأملا عميقا في القرآن، وهذه تجربة شاقة قد تكون ضرورية لعقل المسلم المعاصر.

ان الافكار العميقة القوية حول المواضيع القرآنية المجموعة في رسائل النور تقدم للمسلم المعاصر رؤية ديناميكية وجديدة لخزائن المعرفة القرآنية. وتتألف مجموعة رسائل النور من 130 رسالة تتناول مواضيع مختلفة تربط دارسها بالقرآن ربطا وثيقا في عصر ساد فيه العلم والتكنولوجيا والنظرة المادية للحياة.

وسعيد النورسي مثله مثل أسلافه كأحمد السرهندي (1624 - 1564) ⁸ وسيد أحمد خان (- 1817 1898) ⁹ في الهند دعا الى نوع جديد من علم الكلام يستطيع التخاطب مع مشاكل الايمان التي ظهرت نتيجة الاتصال مع الغرب. ¹⁰

عاش بديع الزمان النورسي - كرجل مرتبط بالقرآن - في عصر بدأت فيه الفلسفة والمظاهر العملية للعلم والتكنولوجيا (التي انبثقت عنها الفلسفة المادية) بتهديد ازالة القرآن من كثير من البلدان الاسلامية ومن ضمنها تركيا.

لم يعد تأثير جهود سعيد النورسي في الاثبات العلمي والفلسفي لرسالة القرآن منحصر في تركيا فقط، بل بدأ يمتد الى جميع أنحاء آسيا وامريكا. وبعبارة اخرى فان أفكار بديع الزمان سعيد النورسي العميقة حول القرآن تلعب دورا كبيرا في اثبات حقيقة القرآن وحقيقة رسالته ودوامها واستمرارها في كل زمان ومكان.

وقد تم ايضاح العلاقة بين القرآن وبين رسائل النور بانها كالعلاقة بين (الشمس والقمر)... وأن

6- لقد عرفت هكذا " هي الفكرة أو العقيدة التي تولد الابداع والنظام والعدالة " انظر الى: Yysuf Wahid, " Islamic Educational Institutions: Can the Heritage Be Sustained?" The American Journal of Islamic Social Sciences vol.14, no.4(1997): 38

7- المصدر السابق صفحة: 45-47

8- انظر الى: " Ahmad Sirhindi " by Francis Robin The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World

وهو دراسة حول تأثير " أحمد السرهندي " على سعيد النورسي عن طريق مولانا خالد، وحول نشاط الطريقة النقشبندية في تركيا. انظر الى: " Religion and Social Change in Modern Turkey (Albany, NY: State University of New York Press, 1989) PP. 57- 60

9- انظر الى:

The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World s.v. " Sayyid Khan " by Hafeez Malik Hamid Algar " Said Nursi and the Risala-i Nur " pp.320 - 10

(هدف رسائل النور هو ايضاح اعجاز القرآن).¹¹ لقد قامت رسائل النور بوظيفة التنقيب في القرآن لكي يمكن المسلمين الاترك - والان المسلمين من غير الاترك أيضا - من استلهم دروس عميقة من رسالة القرآن لكي تؤسس وتقيم بذلك(اخلاصهم وولاءهم للاسلام)¹² في عصرنا هذا الذي ارتبك فيه عقل المسلم في خضم الدعوات العديدة لمختلف الايدولوجيات ووجهات النظر والافكار. وفي حالة تركيا الحديثة فان صفحات رسائل النور تقوم بمنع زوال تأثير القرآن من حياة تركيا ومن فكرها، وبذلك تقوم بحفظ هويتها الاسلامية وصيانتها، وكذلك في تكوين نموذج ملهم للمسلمين في الانحاء الاخرى من العالم الذين دُفعوا وسُحبوا الى نضال ثقافي مشابه بين المتطلبات العلمية للعصر الحديث المتسم بالمادية وبطريقة الحياة الاستهلاكية، وبين الاسلام التقليدي. وهكذا أخذت رسائل النور مكانها ضمن الاثار الكلاسيكية الاسلامية الممتازة في العصر الحديث.¹³

كان هدف سعید النورسي هو اظهار (ان القرآن شمس لا يمكن اطفائها)¹⁴. كان على علم بالاتجاهات الفلسفية الحديثة في اوربا وانتشارها في تركيا، وكان يدرك نقاط ضعف هذه الفلسفات العلمية عند بحثها عن الحقيقة، ويدرك عيوبها ونقصها. ومع انه احتنب الخوض في نقاشات فلسفية، الا انه أدرك أن الاسلام لا يمكن فهمه بالطرق التقليدية، أي بمجرد اطلاق التصريحات، ولكن هناك حاجة ماسة الى أدلة مقنعة تبرهن على صحته وكماله.¹⁵ ان التأملات العميقة لسعيد النورسي التي دمجها في رسائل النور هي الدليل على كمال الرسالة الاسلامية.

ان سعید النورسي الذي تجاوز دعاة الحداثة¹⁶ من المسلمين في الدعوة الى دراسة العلوم الحديثة وقيام المسلمين بتبني الطرق العقلية، وضع العلاقة بين الاسلام وبين العلم في موضع أساسي وجوهري، وقد اهتم بتقديم تفسير للفلسفة القرآنية (philosophical hermeneutics)¹⁷ حول الخطوط العريضة للعلاقة بين الطبيعة والانسان والله. كان هدفه هو قهر المسافة التي تفصل بين هذه المفاهيم الثلاثة من جهة، واستعمالها من جهة اخرى كنقطة انطلاق من حادثة الى اخرى بحيث تكون وسيلة الى طريق يؤدي الى الايمان والابداع.¹⁸ وبعبارة أخرى فاننا لا نشاهد عند سعید النورسي فصلا وفرقا حادا بين "الفلسفة" وبين "العلوم الالهية"، حيث تقدم الفلسفة إنسانية معزولة ومستتلة، بينما تمثل العلوم الالهية

11- المصدر السابق صفحة 326

12- المصدر السابق صفحة 327

13- انظر الى الترجمة الانجليزية لـ "رسالة التوحيد" للشيخ "محمد عبده" تحت عنوان (The Theology of Unity) من قبل "اسحاق موسى" و "كينيث جراك (Kenneth Cragg) الناشر (George Allen & Unwin Ltd, 1966/ London).

وكذلك الى: (Allama Muhammad Iqbal, The Recontraction of Religious Thought in Islam 2nd edition (Lahore: Iqbal Academy Pakistan,1989), Malek Bennabi, The Quranic Phenomenon trs.Abu Bilal Kirkari(Indianapolis,IN: American Trust Publications, 1983) and Islam in History and Society trans. Asthma Rashid(Kuala Lumpur :Berita Publishing,1991), Ali Shariati, On the of Islam tran.Hamid Algar (Berkeley : Mizan Press,1979),Ismail al - Faruqi, Islamization of Knowledge

Serif Mardin Religion and Sosial Change in Modern Turkey p78-14

15- المصدر السابق صفحة 173

16- للاطلاع على النقاش حول معاصرة الاسلام انظر الى : Fazlur Rahman Islam and Modernity (Chicago:The University of Chicaco Press,1982).

وكذلك انظر الى: Fazlur Rahman , "Islamic Modernism: its Scope,Method and Alternatives" International Jomal of Middle East Studies 1 (1970): 317 - 333

17- ان فلسفة التأويل (او فلسفة المعاني Hermeneutical philosophy) تحاول الوصول قدر الامكان الى التعابير الاساسية التي تستعملها المجتمعات الدينية. وبهذه التعابير يحاول منتسبو هذه المجتمعات تفسير تجاربهم الذاتية او تجارب غيرهم.

انظر الى : Paul Ricouer , Figuring the Sacred (Minneapolis : Augsburg Fortress,1995) p. 36.

18- المصدر السابق صفحة 38

انسانية مستسلمة بشكل حربي الى الاوامر الالهية.

وعندما ننظر الى رسائل النور من زاوية فلسفة الاديان نرى ان سعيد النورسي يتناول المسائل الفلسفية المتعلقة بالله وبالجمتمع و موضوع اثبات وجود الله و يقدم دليلا جديدا على وجود الله يختلف عن الادلة الكلاسيكية الغربية (وهي الدليل الانتولوجي - اي دليل الوجود - ، والدليل الكوني ودليل النظام)¹⁹ . ونستطيع تسمية دليل النورسي بـ " الدليل التحريبي " .

وفي هذا الصدد فان سعيد النورسي ساهم في احياء حركة التعلم لدى الطبقة المثقفة المسلمة في العهود الحديثة، واستنادا الى معرفته العميقة بالقرآن والحديث أوضح العلاقة بين الوحي وبين العقل في التفكير الاسلامي. وقد نجح في ارواء ظمأ الاجيال المعاصرة المشتاقة الى معرفة شاملة للاسلام كدين متكامل في هذا العصر الذي تقوم فيه الفلسفة المادية بنشر الشكوك التي تهدد يقين وإيمان المسلم في العصر الحديث.

كان سعيد النورسي متقدما على زمانه، لذا كان يتوقع ما سيأتي به المستقبل من شكوك حول الدين ومن دوغمائية تقوم بتوهين جذور الايمان الديني عند المسلمين حول وجود الله.

ولكي لا يأتي عهد هناك مسلمون دون اسلام ، فانه لم يبق شخصا يتفرج على الاحداث دون أن يحرك ساكنا، بل دخل في نشاط مكثف حول القرآن وفي خدمة القرآن. ورسائل النور دليل حي على جهوده هذه في ربط الانسانية بالقرآن وبالله، ذلك لأن الخطاب القرآني (وهو كلام الله) موجه في الأساس للانسان في اطار الزمان والجمتمع والتاريخ. وقد اهتم سعيد النورسي في اثبات وحدانية الله قبل كل شيء.²⁰

ان سعيد النورسي جوهرة فريدة نادرة قل نظيرها في الاسلام تنتظر اكتشافها من قبل المسلمين ومن قبل الانسانية، لذا فهناك حاجة الى دراسة أكثر لرسائل النور وتأمل أكثر فيها. علما بان رسائل النور ليست الا قطرة ضمن معاني القرآن. {ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم} (سورة لقمان/الاية 27)

القسم الثاني

اثبات وجود الله في رسائل النور

أ- مفهوم وجود الله في تاريخ الاديان:

اهتمت الانسانية منذ خلقها (أي منذ 1.75 - 3.75 مليون سنة كما أشار اليه لويس وماري ليكي من الناحية الانثروبولوجية)²¹ بمسألة وجود الله. ان اهتمام الانسانية التاريخي بهذا الأمر يشكل موضوعا مهما من مواضيع تاريخ الاديان في مختلف أنحاء العالم. وهذا الاهتمام يعكس مفاهيم مختلفة حول : ثيوس ، الالهة، براهما ، الدارما ... الخ²²

19- Ninian Smart , Philosopher,s and Religious Truth (1964)-19
Serif Mardin Religion and Sosial Change in Modern Turkey p 224-20
Louis Leaky, Adam,s Ancestors(1953) and Unveiling Man,s Origins (1969). -21
Encyclopedia of Religion s.v." God" by Dictionary of Philosophy and Religion Eastern and -22
Western Thought(1980) " God " by W.L.Reese, The Myth of the Eternal Return (Princeton: Princeton University Press,1954), Ainslie T.Embree (ed.) The Hindu Tradition (New york: Vintage Books,1972),Edward Conze,Buddism : its Essense and Development(Oxford : Oxford University Press, 1959), Keith Ward, The Concept of God (Oxford : Oxford University Press, 1974

و نجد أفضل تعبير عن وحدانية الله - الاله - في الفكر الاسلامي كرب وكخالق للكون في سورة الاخلاص²³:

(قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * لم يولد * ولم يكن له كفوا أحد)

وقد لُخص مفهوم الله في الاسلام كما يأتي:

انه لا اله الا الله الحي الازلي السرمدي، الحي، العليم والقادر المطلق، المتعالي، ليس كمثلته شيء (القرآن: 11/42)، كل شيء غيره قاصر وزائل وهو القدوس وحده. وهذا العالم وكل شيء يؤيد ويرهن أنه هو الخالق وهو الذي يرعى خلقه، وانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، وان هذا الخلق سُخِّرَ لخدمة الانسان ولنفعته واستعماله وسعادته، وهذه الارض هي المسرح المهيأ الذي تجري الاحداث الدرامية للانسان عليه، والانسان الذي هو الغاية من هذا الخلق هو تاج هذا الخلق كذلك، وهو أفضل من الملائكة لانه وُهب الارادة والمسئولية، وزين وأتحف بالمعاني والقيم الاخلاقية التي تعد أفضل وأسمى جزء من المشيئة الالهية ونيل الرضا الالهي.²⁴

يشغل الاله المحل المركزي في الحياة الدينية، والشهادة او الاعتراف اليماني في الاسلام يؤكد أنه: "لا اله الا الله"، والله هو الاسم الجامع للاله، وهو يشغل المحل والموضع الرئيسي في فكر كل مسلم وعمله ونشاطه، ووجود الله يملأ ضمير المسلم في كل الاوقات.²⁵

ومع ذلك فان من مهمة علماء الدين والفلاسفة والمفكرين المسلمين القيام بتفسير وايضاح المفهوم القرآني لله حسب تقدم الزمن والتاريخ والمعرفة. ولا تعني هذه الفعالية توهين او تبديل مفهوم الالهية الذي يقدمه القرآن، بل يعني القيام بتكراره حسب لغة العصر. وتبدو هذه المهمة بشكل واضح جدا في عصرنا الحالي الذي تعرضت فكرة وجود الله الى هجوم عنيف من قبل النزعات والميول الفلسفية تحت شعارات مختلفة أمثال " موت الاله" و " الانسانية Humanism " والتي حاولت احلال الانسان والمادة في مركز الحياة بدلا من الله. في هذه الظروف ندرك مدى أهمية ما تم ادراجه في رسائل النور حول وجود الله.

ب- كيفية تناول الموضوع من قبل سعيد النورسي:

يستند اسلوب سعيد النورسي الى السرد القصصي والى التحليل والى تقديم النصيحة الى نفسه. ويصف " شريف ماردين " هذا بانه أسلوب له " تأثير المغناطيس "، " ان الاسلوب المعقد المملوء بعناصر عديدة والتعابير غير النحوية يجعل منه اسلوبا صعب الفهم. وعلى الرغم من صعوبة اسلوب هذا الشخص العلامة الا انه يملك تأثيرا لا يُصدّق على طلابنا... وهنا تملك الرموز والاستعارات والمجازات قوة وتأثيرا أكبر في تناول المواضيع الصعبة من الطريقة الكلاسيكية الاستطردية".²⁶

وكذلك للمؤلف نفسه : (1998), Karn Armstrong, Concepts of the God (Oxford: Oneworld Publications, A History of God - The 4000 Year Quest of Judaism, Christianity and Islam (New York :Ballantine Books,1993

23- انظر ايضا الى : " Allah" by F.E.Peters. The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World ,s.v. -24 Ismail R.al - Faruqi and David Sopher, eds.,Historical Atlas of the Religions of the World (New York: Macmillan Publishing Co.,Inc.1974)p.241

25 -25 Ismail R.al - Faruqi,Tawhid: Its Implications For Thought and Life.(Wynocte: PA: International Institute of Islamic Thought,1982.

كيفية تناول سعيد النورسي موضوع وجود الله

يتناول سعيد النورسي وجود الله وتأثير هذا الوجود على حياة الانسان وعلى تفكيره وسلوكه في رسائل النور ولاسيما في الكلمة الثانية والثامنة منها.²⁷ يبدأ في الكلمة الثانية بشرح موجز فيما يتعلق بكون الله غير منظور وغير مرئي. ويقول بان السعادة والاحسان يكمنان في ايمان المسلم بالله. ويتناول النورسي هذه المسألة في هذه الكلمة من زاوية نظر المسلم، ويبدأ الموضوع بسرد قصة شخصين يخرجان الى سفر للغاية نفسها وهي التجارة والترفيه عن النفس. ويختار كل منهما طريقا مختلفا في الوصول الى الله: يختار أحدهما طريق الانانية، ويختار الثاني طريق الخير.

يقول سعيد النورسي ان طريق الانانية يقود الى الوهم والتكبر والعجرفة والى جعل النفس محور الاهتمام، وهذا يؤدي الى الشك والتشاؤم والى فقد ثقة الآخرين به، مما ينتج نظرة مظلمة وعابسة للحياة.²⁸ مثل هذا الشخص يرى الجميع أعداء له، ويرى الحياة مصدر عذاب. ولكونه ينظر الى كل شيء من زاوية نفسه الانانية فانه لا يرى الا وجوده هو، ويكون العالم بالنسبة اليه عالم شهوات مادية. ويقول النورسي هنا (ان الكفر يخفي في طياته بذرة زقوم جهنم)²⁹

(ان شجرة الزقوم * طعام الأثيم) " الدخان / 43 "

(لاأكلون من شجر من زقوم) " الواقعة / 52 "

(أأنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشئون) " الواقعة / 72 "

تذكر شجرة " الزقوم " في القرآن كرمز لجهنم، فهي " ترمز الى حقيقة ان العذاب الاخروي الذي يشرحه القرآن ويشير اليه بـ " جهنم " ما هو الا ثمرة - او نتيجة حتمية - للشروع التي يقتربها الانسان في هذه الدنيا".³⁰

بينما ينظر الشخص المؤمن التقى الى الدنيا نظرة محبة وثقة فالحياة بالنسبة اليه سرور وفرح، والعالم طافح بالبهجة والسعادة.³¹ ونظرتة الى الحياة مستندة الى (الله أكبر) والى (لا اله الا الله). وهو كشخص سعيد يرى نفسه محظوظا، ويشكر الله تعالى على الريح الذي جناه في تجارته.

وفي ختام الكلمة الثانية يصرح سعيد النورسي: (ان السلام والامن موجودان في الاسلام وفي الايمان فقط. لذا علينا ان نحمد الله تعالى على الدوام ونشكره لأننا منتسبون الى الاسلام ومؤمنون)³² ان الايمان بوجود الله يجلب السعادة الى حياتنا.

ويقول النورسي ان الدنيا تبدو لنا مثلما نعيها ونفهمها وتخليها. فانكار وجود الله يقود الانسان الى نظرة متشائمة لنفسه وللحياة. وهكذا فان القبح الموجود في داخله " ينعكس على العالم الخارجي، فيتصور الضحك بكاء ونحيبا، ويرى في انتهاء الوظيفة والمهمة عزلا ونحبا وسلبا"³³. ان نقطة الانطلاق

Bediuzzaman Said Nursi, From the Risale-i Nur The Words On the Nature and Purposes of Man , -27 Life

من منشورات دار سوزلر 1992/صفحة 27-28 ، 45-50 Shukran Vahid and All Things,trans.

27- المصدر السابق صفحة

28- المصدر السابق صفحة

29- المصدر السابق صفحة

30- انظر الى تعليق " محمد أسد " حول المعنى الرمزي لشجرة " الزقوم " في القرآن في سورة " الصافات / 62

Muhammed Asad , The Message of the Quran(Gibraltar: dar al - A ndalus,1980)P.690

The Words, 28-31

32- المصدر السابق صفحة

33- المصدر نفسه

للخلاص من هذه المأساة الانسانية، هي معرفة ان الاوهام والافكار الخاطئة هي التي تعوق ادراك وفهم الادلة الواضحة جدا حول وجود الله. ان الايمان بالله يؤدي الى الامن والسعادة والى نظرية متفائلة للعالم. وهذا الايمان يهدي ويرشد حياة الانسان سواء اكان شخصا سعيدا وراضيا، أم شخصا غير سعيد ومتحيرا ومرتبكا.

ان الايمان بالله يغير كل شيء، فهو يقود الى السلام والطمأنينة والى الاستقامة في الفكر والسلوك. في الكلمة الثامنة التي هي رسالة أطول من الكلمة الثانية يتبنى النورسي طريقا آخر يختلف عن الطريق الذي سلكه في الكلمة الثانية، اذ يتناول الموضوع هنا من منظور الهوية الانسانية وعلاقتها وتصرفها ورد فعلها حول وجود او عدم وجود الله.

يقوم سعيد النورسي بتطوير وتوسيع مسألة ضرورة انشاء العلاقة بين العالم والانسان والله. من هنا فان الايمان بوجود الله وما يتبعه من عقيدة تقوم بحل لغز الحياة والعالم. هذا الايمان يحلرر الانسانية الواقعة في احضان المادية من سجنها ومن قيد وأغلال الحياة. ان الخلاص من الظلام، وبلوغ الحرية والوصول اليها ممكن بالايمان بالله وبمبدأ " لا اله الا الله " فقط.³⁴

باسلوبه القصصي الرمزي يقص علينا سعيد النورسي قصة أخوين خرجا الى سفرة ووصلا الى مفترق طريق ذي شعبتين، وقيل لهما: " ان السائر على الطريق اليمين عليه ان يطبع القوانين والانظمة، ولكن في هذه الصعوبة هناك أمن وسعادة... وفي الطريق على اليسار هناك حرية دون أي قيود، ولكن ضمن هذه الحرية يكمن الخطر والبؤس. والآن فالاختيار يعود اليك "³⁵ وهنا يلّمح النورسي الى حقيقة أن تكامل الشخصية والسعادة في الايمان بوجود الله. وهذا يتطلب اطاعة الاحكام والاوامر، بينما لا يوجد في انكار وجود الله أي قيود او ضوابط.

ان العثور على الطريق المؤدي الى الامن والسعادة ليس نتيجة صُدف او حظ، بل يتطلب من الانسان المفكر استعمال عقله. وهنا شرط آخر وهو احلال الايمان والثقة بوجود الله (غير المنظور وغير المرئي بالعين) والذي يشكل اقراره أهم وأكبر مأزق لدى الطبقة المثقفة، ولدى الانسان المادي. ويشرح القرآن هذا الاقرار والتصديق في الاية الآتية:

{ اني توكلت على الله } "سورة هود/ الاية 56"

ان احلال الثقة بوجود الله يؤدي الى نضج شخصية الانسان وتكاملها والى ثقته بنفسه والى الطمأنينة والامن. بينما الموقف المعاكس للشخص غير المؤمن بالله " نتيجة لقلّة التفكير والحمق... وليس نتيجة صدفة "³⁶ وهو يؤدي الى التعاسة والبؤس، والى حال ليس هو بحجى ولا ميت³⁷

{ الله لا اله الا هو الحي القيوم } " البقرة / 225 "

ان اختيار اي طريق يتضمن ضريبة معينة. ويقدم سعيد النورسي شرحا رمزيا للتحديات وللتجارب وللضيق الذي واجه كلا الاخوين في كلا الطريقين.

اما المؤمن فيمشاعره المدركة لله اختار الطريق الاخلاقي الصحيح، فنظرتة للحياة وأفكاره ايجابية وهو ينظر الى كل شيء من جانبه الجيد. وسعادته متأنية من اعتقاده بوجود الله الذي هو الحاكم الخفي

34- نفسه صفحة 45

35- المصدر السابق صفحة 45

36- السابق ص 46

37- المصدر السابق ص 46

المستور الذي يرى كل شيء ويختبر ويوجه الانسانية.³⁸

{وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين} الانعام / 59
يقول سعيد النورسي:

" فيا نفسي .. ويا أيها الرجل المنصت معي الى هذه الحكاية!

اذكنت تريد أن لا تكون مثل ذلك الأخ المشؤوم وترغب في أن تكون كالأخ السعيد فاستمع الى القرآن الكريم وارضخ لحكمه واعتصم به واعمل بأحكامه.

واذاكنت قد وعيت ما في هذه الأقصوصة التمثيلية من حقائق؛ فانك تستطيع أن تطبق عليها الحقيقة الدينية والدنيوية والانسانية والإيمانية كلها. وسأقول لك الأسس، واستخرج بنفسك الدقائق.

فالأخوان الاثنان: أحدهما روح المؤمن وقلب الصالح، والآخر روح الكافر وقلب الفاسق.. أما اليمين من تلكما الطريقتين فهو طريق القرآن وطريق الإيمان، وأما الشمال فطريق العصيان والكفران.. وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والظاهر والقدر معاً. فالعاقل هو مَنْ يعمل على قاعدة: " خذ ما صفا .. دع ما كدر " فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان"³⁹

ان الأدلة حول وجود الله موجودة في كل مكان حوالينا وهي " تحمل بسر الإيمان حكمة الخلق"⁴⁰. وان ادراك ووعي العالم من خلال عدسة ونظرة الإيمان بالله يُحدث تغييرا في ادراكنا للعالم ولمعنى وغاية حياتنا ومهمتها، وفي التغلب على الصعوبات التي تواجهنا كل يوم. ويشير النورسي الى ان " النفس الأمانة للشخص الأول قد أحضرت له جهنم معنوية، بينما الآخر قد نال بحسن نيته وحسن ظنه وحسن خصلته وحسن فكره الفيض والسعادة والإحسان العميم "⁴¹

وفي الختام يقول النورسي ان القرآن ومبدأه في الإيمان بوجود الله انما هو باب مفتوح للانتقال من سجن هذه الدنيا الى بساتين الخلود، ومن ساحة الامتحان الى حدائق الجنة، ومن صعاب الحياة الى رحمة الرحمن الرحيم، وأن الموت هو دعوة من سجن هذه الدنيا الى حدائق الجنة الغناء، وهو اوان الحصول على أجر أعماله من كرم الرحمن الرحيم.

وكما ذكرنا من قبل فان برهان سعيد النورسي الذي قدمه في رسائل النور حول وجود الله يمكن ايضاحه او تسميته ب"البرهان التجريبي"، وهو ليس مجرد دليل مطالب للنقاش، بل هو دليل بصيغة دعوة أيضا. انه دليل واقعي وقوي ومؤسس على ملاحظة نماذج وعينات من أنماط السلوك البادية للعيان للأشخاص الذين يعلنون إيمانهم بالله أو يجحدون وينكرون وجوده.

ان هاتين الكلمتين اللتين تناولناهما في هذا البحث تكفيان لاثبات مدى عمق ارتباط سعيد النورسي بالقرآن، ومدى نجاحه في اقناع الانسانية المعاصرة حول صحة وسريان العقيدة في الحياة الانسانية حتى الان، وارتباطها الوثيق بتقدم السعادة والتكامل الى الشخصية الانسانية، ولا سيما في هذا العصر الذي غلبت عليه المادية والطابع الدنيوي الهابط للحياة في الفكر والسلوك.

38- المصدر السابق صفحة 47

39- المصدر السابق صفحة 49

40- المصدر السابق صفحة 48

41- المصدر السابق صفحة 48

الاستنتاجات

ان رسائل النور عرض رائع للقرآن ولعانيه المتوجهة الى هذا العصر الحديث، ولكن لم يتم حتى الان الغوص في المعاني العميقة لهذه الرسائل.

ان سبب ملائمة رسائل النور يكمن في كونها قد انكبت على المشاكل والمواضيع الكبيرة المتعلقة بالحياة وبالمعيشة.

ان نظرنا الى نصوص ومتون رسائل النور نراها تعرض تكاملا وانسجاما، وتعكس سعة كبيرة في المعرفة، فهي متعة للعقل، ومحاولة جديّة وعظيمة من قبل عقل شرقي مؤمن في فهم وكشف وحل المشاكل الفلسفة المادية الراسخة.

يقوم سعيد النورسي في رسائل النور بتقديم ايضاحات عصرية مقنعة فيما يتعلق بمعنى الوجود. وقد أخذ على عاتقه تنفيذ مهمة صعبة ومعقدة في الكشف عن حكمة رسالة القرآن وفوائدها وقيامها بانارة الطريق امام الانسانية التي تتلمس طريقها بتردد وعدم التأكد حيال معنى الحياة. وقد نجح بشكل كبير في أداء هذه المهمة التي أخذها على عاتقه، وذلك من خلال تناوله الفريد للتفسير وللمسائل الفلسفية. كما نجح ايضا في اقامة العلاقة بين الوحي وبين الفكر وبين الحياة العملية مشبعا حاجة العقول المتسائلة، وموضحا حكم التجربة الايمانية للاسلام.

هناك حاجة الى دراسة أبعده وأعمق لرسائل النور لكي نكتشف عظمتها وندرك دور الدين في حياتنا اليومية. ان الانسانية بأجمعها - ومن ضمنهم أنا الطالب الجديد لرسائل النور - في صراع مع تفسير لمعنى هذه الحياة في عالم عصرنا المعقد والمتشابك، وتحاول فهم العلاقة بين الانسان والعالم والله. وبهذا فقط يمكننا ان نعيش حياة غنية فاضلة حيث تحترم الانسانية بسبب تدينها، ولا تجرأها الفلسفة المادية الى هاوية الانحطاط والتفسخ.

ان الكلمة الثانية والثامنة لرسائل النور تقدم لنا المفاتيح ، وتدلنا على الطريق الموصل الى تكامل الشخصية والى السعادة والى التواضع الانساني حيال الله جل وعلا. بعبارة اخرى بالاعتناق وبالايان التجريبي لوجود الله الواحد الاحد الذي لا تدركه الابصار.

قد يكون من الصعب فهم عمق الافكار التي قدمها سعيد النورسي في رسائل النور. ولكن المكافأة التي تقدمها في تنقية وتصفية المسائل الحياتية والافكار والسلوك كافية تماما لدفعنا وتشجيعنا في المباشرة بدراسات وبحوث أكثر لهذا المؤلف الاسلامي المهم في عصرنا.

ان المعاني التي تم تناولها في رسائل النور والتعليمات الموجودة فيها والتي كتبت في ظل شروط تحديث تركيا وظروفها تستطيع افادة جميع المجتمعات الاسلامية في العالم .

وبالنسبة للمجتمعات الحديثة لبلدان جنوب شرقي آسيا التي اجتازت نموا اقتصاديا وماديا سريعا والتي وقعت الان في برائن أزمة اقتصادية كبيرة، فان كلا العاملين تركت اليوم أثارا عميقة على هوية وعلى الوجه الاجتماعي والثقافي لهذه البلدان. ويستطيع المسلمون في هذه البلدان الاستفادة من تعليمات وارشادات رسائل النور عندما يباشر بمهمة الرجوع الى الهوية الاسلامية السليمة من الناحية الاجتماعية - الثقافية، ومن الناحية الاقتصادية في هذا العصر المعقد من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ان رسائل النور التي تركز اهتمامها على موضوع كيفية مواجهة التحدي عند انشاء العلاقات المتبادلة بين الاسلام وبين التغيير الاجتماعي، تقدم نظرة متبصرة في فهم معاني القرآن ودوام واستمرار رسالته. وهي ستكون ذات فائدة ووسيلة مساعدة على الاستجابة للتحدي الموجود في ساحة

المعرفة، وفي تشكيل الزعامة الإسلامية الموحدة، وللتحدي الموجود في قوى السوق المتذبذبة، وفي التعامل مع المشاكل الاجتماعية المتزايدة مثل انهيار العوائل والاسر، والادمان على المخدرات وتسبب الطلاب المشاكسين في الدوام للمدارس⁴² وبعد تركيا واجهت دول جنوب شرقي آسيا مشاكل المعاصرة والفلسفة المادية والعولمة على التوالي. لذا فان النظرة النافذة والحكيمة لسعيد النورسي ستكون ذات فائدة كبيرة في ابداء النصيحة والمشورة من زاوية اسلامية لهذه البلدان التي تواجه هذا العصر ومازقه ومعضلاته.

ان شمولية الموضوعات القرآنية مثل موضوع وجود الله تحتاج الى عقول كبيرة مؤمنة التي تستطيع عرض واثبات ان الاسلام صالح في كل زمان. ومن هذا القبيل فان رسائل النور منارة هامة في اضاءة طريق الانسانية التي ترنو الى فهم وجود الله، وادراك مغزى وأهمية هذا الايمان في الوصول الى النجاح والسعادة والى التكامل في حياتنا المؤقتة هذه على هذه الدنيا وفي حياتنا الاخروية كذلك.

ترجمة : اورخان محمد علي

42- انظر التحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية في جنوب شرقي آسيا : Hussin Muttalib, "Islam in south east Asia & 21 at Century, Managing the Inevitable Challenges, Dilemmas & Tersions" Islamic Studies. 37/21998 –201-227 وانظر ايضا : 21-1-2/1998-Asian Form,2/21998-1-21," Islamic Revivalism in Centemporary Asia"

نظرية التكرار في القرآن الكريم عند بديع الزمان النورسي

د. احمد محمد مفلح القضاة*

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد: فهذا بحثٌ حول ما كتبه المرحوم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في موضوع: "التكرار في القرآن" حيث أثرت أن أخص هذا الموضوع بدارسة مفصلة من خلال النظر في ما دونه في رسائل النور، فقد كتب رحمه الله كثيراً في إعجاز القرآن الكريم وجامعيته ومقاصده وكثير من علومه ومباحثه، وطرق موضوع التكرار من جوانب متعددة وفي مواضع كثيرة من رسائله، بعضها مكرراً بنصه.

ولأن الأستاذ المرحوم هدف من خلال كتابته في موضوعات القرآن الكريم أن يجلي بيانه، ويبرهن على أنه حق، ويقدمه على أنه كتاب البشرية الخالد، المشتمل على أسرار الهداية وأسباب السعادة، فإن الوقوف مع هذه الموضوعات والتأمل فيها سيخدم هذا الهدف ويقدم للبشرية كلها زاداً كافياً للاسترشاد بهدي القرآن الكريم وتفيؤ ظلاله سعياً إلى الراحة والسعادة في الدنيا، والفوز بالنعيم في الآخرة.

وللعلماء السابقين والمحدثين – في موضوع التكرار آراء، فمنهم من يرى أن في القرآن تكراراً ولكنه جاء لفوائد كبيرة، ومنهم من يرى أن لا تكرار في القرآن، وهناك طائفة من الناس – ليسوا من العلماء ولا من العلم في شيء – عدّوا مثل هذه الظاهرة – التي اختلف فيها العلماء – تكراراً قبيحاً ينبو عنه ذوق البلاغة وتتنزه عنه الفصاحة، فجعلوا ذلك مطعناً على القرآن وأسلوبه.

* من مواليد عجلون بالأردن عام 1961 . حصل على البكالوريوس من كلية القرآن الكريم بالمدينة المنورة عام 1983 . والماجستير من الجامعة الأردنية عام 1992 في تخصص التفسير وعلوم القرآن والدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالسودان عام 1995 في تخصص التفسير وعلوم القرآن أيضاً. عمل في حقل التدريس والإرشاد الديني والخطابة منذ عام 1982 ومحاضراً في الجامعة الأردنية بين عامي 1993 و 1997 وأستاذاً مساعداً في جامعة الزرقاء الأهلية منذ عام 1997 وحتى الآن. عضو الهيئة الإدارية لجمعية المحافظة على القرآن الكريم وعضو لجنة مراجعة وتدقيق المصاحف بوزارة الأوقاف الأردنية وإمام وخطيب مسجد أبو قورة في عمان له عديد من الأبحاث المنشورة.

ولا بدّ من وقفةٍ مع هذه الآراء قبل الشروع في الحديث عن النورسي وموقفه من التكرار، ثم بيان موقفه وتجليه رأيه كما نصّ عليه في مواضع عديدة من رسائله، ثم تدوين خاتمة تبرز أهم جوانب نظرية النورسي في هذا الموضوع.

آراء العلماء في التكرار

للعلماء في موضوع التكرار آرايان أحدهما أن في القرآن تكراراً لكنه محمود لأنه جاء لفائدة أو فوائد منها التأكيد وزيادة معان جديدة. والثاني أن ليس في القرآن تكرار، وهذا الرأي مبني على التعريف المختار للتكرار عند القائلين بهذا الرأي كما سيأتي. وقد تحدث العلماء قديماً عن موضوع التكرار وتناولوه بالبحث والدراسة، ومن أقدم هؤلاء ابن قتيبة الدينوري في كتابه "تأويل مشكل القرآن" حيث يقول: "وأما تكرار الأنبياء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاثٍ وعشرين سنة بفرض تيسيراً منه على العباد، وتديراً لهم إلى اكمال دينه... وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناةً ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم وقصة نوح إلى قوم وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير"¹

ويفرق ابن قتيبة بين القصص وبين الأحكام ليصل إلى تقرير مسوغ تكرار القصة فيقول:

"وليس القصص كالفروض، لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة وعددها وأوقاتها، والزكاة، وسننها... وهذا مالا تعرف كيفيته من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر وبثه في آفاق الأرض وعلم الأكابر والأصاغر، وجمع القرآن بين الدفتين، زال هذا المعنى واجتمعت الأنبياء في كل مصر وعند كل قوم"².

ومن العلماء الذين تحدثوا عن التكرار قديماً أبو سليمان الخطابي الذي قسم التكرار إلى ضربين مذموم وممدوح، وبين أن ليس في القرآن شئ من التكرار المذموم وفي ذلك يقول:

"تكرار الكلام على ضربين أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفادٍ به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً، وليس في القرآن شئ من هذا النوع. والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه أو بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في

1 - ابن قتيبة الدينوري (عبدالله بن مسلم) / تأويل مشكل القرآن ص 180 - 181 دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.
2 - المرجع السابق ص 182 .

الأمر المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"³.

ويعرض الزركشي للتكرار من جهات عديدة فيعرفه بقوله:

"حقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه"⁴.

ويبين أن التكرار أسلوب من أساليب العرب في كلامهم، ويذكر فوائده ثم يعرض للتكرار في القصص القرآني مبيناً فوائده، ومنها: زيادة شئ جديد، ومنها أن الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه من نزل بعد صدور الأوليين، وكان أكثر من آمن به مهاجراً، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص... فيكون فيها إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون ومنها تسلية قلب النبي p، وإبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ليدل على الفصاحة، وأن التكرار في القصة لأن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام... إلى غير ذلك من فوائد.

ويذكر أيضاً المعاني العجيبة التي اجتمعت في نظم القرآن ومنها أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة ولا أحدث ملأ، وأن القصص عندما تكررت وردت في مواضعها باختلاف بين زيادة ونقصان وتقديم وتأخير..."⁵

فالزركشي ومن قبله الخطابي يريان أن ما ذكر في القرآن أكثر من مرة كان في كل مرة فيه زيادة معنى، فهو تكرر لكنه مفيد لوقوع زيادة المعنى فيه.

وقد تحدث عدد من العلماء المحدثين عن التكرار وأهميته وفائدته، فهذا الدكتور أحمد أحمد بدوي يعقد فصلاً في كتابه (من بلاغة القرآن) بعنوان "التوكيد والتكرير" وخلاصة رأيه أن القرآن "قد يكرر الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها عاماً منه بما لذلك من أثر في النفس، كما في تكراره للآيتين الكريمتين {إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون} سورة الشعراء (26، 108، 126، 144، 163، 179). فهذه العبارة وإن قالها عدد من الرسل، لكنها توحى لتكررها بعبارة واحدة، بصدق هؤلاء الرسل وتثبيت التصديق بهم فالتكرار - كما يرى - مصدر لتوطيد المعاني وتثبيتها في النفس"⁶.

ويرى الدكتور فضل عباس أن التكرار ليس كما عرفه الزركشي من أنه إعادة اللفظ أو مرادفه، ولا كما قال عنه الخطابي بأنه ما كان فيه زيادة معنى فهو تكرر لوروده أكثر من مرة، ويخلص إلى أن التكرار هو:

3 - الخطابي (أبو سليمان حمد بن إبراهيم 319 - 388 هـ) بيان إعجاز القرآن ص 52 و 53 ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني .

4 - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر) البرهان في علوم القرآن 3 / 10 ط 2 دار المعرفة - بيروت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بدون تاريخ ...

5 - الزركشي / مرجع سابق 3 / 25 - 28

6 - د . أحمد بدوي / من بلاغة القرآن ص 144 وما بعدها.

"إعادة اللفظ نفسه في سياق واحدٍ، ولمعنىً واحدٍ، فإذا لم يتوفر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاصّ فليس ذلك بتكرار".⁷

ويعرض الدكتور فضل لبعض المحدثين في دراساتهم لموضوع التكرار ثم يبين أن موضوعات القرآن الكريم يمكن إجمالها في ثلاثة أمور رئيسة هي:

- 1 . الأحكام – وتشمل العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والحدود.
- 2 . العقيدة – وتشمل الألوهية والرسالة واليوم الآخر.
- 3 . القصص القرآني.

ثم يقول: "وقد اجمعوا أنه لا تكرر في آيات الأحكام، وإنما الذي يمكن أن يكون فيه تكرر هو آيات العقيدة والقصص. ثم يرد على الذين قالوا إن هناك جملاً أو آياتٍ مستقلة تكررت، مبيناً أن تعريف هؤلاء للتكرار بأنه ذكر الموضوع أو الجملة أكثر من مرة هو الذي قادهم إلى القول بالتكرار وليس الأمر كما ذكروا"⁸

وزيادة في تقرير ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور فضل أقول: إن حروف اللغة العربية وأصواتها لا تتجاوز أربعين صوتاً وحرفاً، وقد تشكلت منها ألوف وملايين الكلمات ولا شك أن هذه الحروف أو بعضها يرد في هذه الكلمة أو تلك ويرد في مئات وألوف الكلمات فهل يعني وروده في هذه الكلمات أنه مكرر؟ بل إن الحرف قد يرد في الكلمة الواحدة مرتين أو أكثر، مثال ذلك كلمة (مكرر) فيها راءان، فهل هذا من التكرار؟ أم أن كل حرف له أهميته التي لا يُغني عنها حرف آخر؟..

أما الاستاذ بديع الزمان النورسي فقد كان منهجه أقرب إلى اصحاب الرأي الأول، أعني القائلين بأن في القرآن تكراراً، لكنه تكرر له أهميته، وإن حاد حول القول الثاني وقاربه كما يفهم من قوله:

"أعلم أن لكل آيةً ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً، ولكل قصةٍ وجوهاً وأحكاماً وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجهٍ، وفي آخر لأخرى، وفي سورة لمقصدٍ، وفي أخرى لأخر، وهكذا، فعلى هذا لا تكرر إلا في الصورة"⁹

ويجلى هذا المعنى بوضوح، ويؤكد عليه في موضع آخر فيقول:
"فكلّ ما كرّر في القرآن الكريم من آيةٍ أو قصةٍ إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة"¹⁰

ومع أن قوله بقضية الظهر والبطن والحدّ والمطلع يحتاج إلى نقاشٍ وبحثٍ ليس من مقصدي هنا بحثه، فلإني أجده قد قارب ما ذهب إليه د. فضل عباس في تعريف التكرار

7 - د . فضل حسن عباس / القصص القرآني إياؤه ونفحاته ص 19 دار الفرقان ط 1 سنة 1407 هـ - 1987

8 - د . فضل عباس / مرجع سابق ص 20 - 21 .

9 - النورسي (بديع الزمان سعيد) / المكتوبات ص 268 والمثنوي العربي النوري / 376 .
10 - النورسي / الشعاعات - الشعاع الحادي عشر ص 305 .

فهو من حيث الحقيقة كما يفهم من عبارته هذه يرى أنه لا تكرر لأن اللفظ نفسه لم يُعد في سياق واحد ولمعنى واحد.

وله عبارة صريحة في أنه لا يسلم بالتكرار بل يخرجها ويتأوله مبيناً أن ذكر الآية في كل مقام إنما يكون لوجه مناسب من الوجوه، يقول:

"اعلم أن القرآن بمجموعه قوت، وقوة للقلوب، لا يملّ على التكرار بل يستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلاً وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ما هو أس الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسد سرمدى ك (بسم الله الرحمن الرحيم) فيا هذا شاور مذاقك إن كنت ذا مذاق.

هذا بناءً على تسليم التكرار، وإلا فيجوز أن تكون قصة موسى مثلاً مذكورة في كل مقام لوجه مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها...¹¹ فتأمل قوله: "هذا بناءً على تسليم التكرار" تجد أنه يشعر بعدم التسليم به وارتضائه والله أعلم.

غير أن الذي يعكر هذا الفهم هو أن النورسي رحمه الله لم يلتزم هذا القول الذي قرره هنا، بل خالفه كثيراً وذهب يقرّر التكرار ويبين فوائده مرةً بعد مرة، ولذلك قلت إنه أقرب إلى أصحاب الرأي الأول.

مقاصد القرآن عند النورسي

ذكرت هذا المبحث لأن له صلة كبيرة بموضوع التكرار، فالنورسي يذكر مقاصد القرآن في مواضع كثيرة من رسائله، وهي كما يرى – أربعة، يقول في ذلك: "إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية المنبثّة في كل جهاته أربعة: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني والعدل"¹²

ثم يقول: فذكر الكائنات في القرآن الكريم – مما سوى المقاصد – إنما هو ذكر استطرادي لبيان طريق الاستدلال على الصانع الجليل بانتظام الصنعة... فالصنعة تشهد على وجود الصانع وعلى قصده وإرادته شهادة صدق قاطعة، إذ تتراءى في كل جهة من جهات الكون وتتلأأ من كل جانب.. وتعرض جمال الخلق إلى أنظار الحكمة الصانع"¹³

إن هذه المقاصد التي تظاهرت آيات القرآن الكريم على تجليتها وإيضاحها والاستشهاد لها وتقديم الدليل تلو الدليل على صدقها وثبوتها هو الذي سوّغ للعلماء – ومنهم النورسي – أن يقولوا بأن في القرآن تكراراً، ولكنه مفيد فأيات القرآن الكريم تتوالى على إثبات هذه المقاصد، وإقناع الناس بها، وتأتي بأساليب وطرق كثيرة، منها ما يخاطب العقل ومنها ما يخاطب العاطفة والوجدان، ومنها الترغيب والترهيب، والتطمين والتحذير، ومنها القصة والموعظة، والمثل والقسم والاستفهام.

11 - النورسي / إشارات الإعجاز ص 39 .

12 - النورسي / محاكمات عقلية ص 23 . وانظر أيضاً: الشعاعات/ 310 وإشارات الإعجاز / 23 و 40

13 - النورسي / محاكمات عقلية ص 23 .

والحقيقة أن ليس ذلك من التكرار في شيء ولكنهم جعلوه تكراراً وأخذوا يلتمسون له الفوائد والعوائد والتخريجات كما سنراه عند النورسي رحمه الله في أثناء هذا البحث.

أهمية التكرار عند النورسي

يرى النورسي أن التكرار مهم جداً، ولا بد منه، لا سيما في القرآن الكريم، ويردّ على الذين يعدّون ذلك نقصاً فيقول:

فانظر إلى بيان لمعة الإعجاز في تكرارات القرآن التي يتوهمها القاصرون نقصاً في البلاغة، اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذكر وكتاب دعاء وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ، بل ألزم، وليس كما ظنه القاصرون، إذ الذكر يكرر، والدعاء يُردّد، والدعوة تُوكّد، إذ في تكرير الذكر تنوير وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد¹⁴.

اعلم أن القرآن مؤسس لهذا الدين العظيم المتين، وأساسات لهذا العالم الإسلامي ومقلب لاجتماعيات البشر، ومحولها ومبدّلها، وجواب لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة للبشرية بالأسنة الأقوال والأحوال... ولا بدّ للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد ومن التكرار للتقريب والتأييد.

اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها، فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة¹⁵.

ويذهب النورسي إلى أبعد من ذلك حين يرى أن التكرار في القرآن مظهر من مظاهر إعجازه، وذلك أمر يستلزم التكرار ويقتضيه، فيقول:

" إن القرآن الكريم يظهر نوعاً من إعجازه البديع أيضاً في تكراره البليغ لجملة واحدة أو لقصة واحدة وذلك عند إرشاده طبقات متباينة من المخاطبين إلى معانٍ عدة، وعبر كثيرة في تلك الآية أو القصة، فاقترضى التكرار حيث أنه كتاب دعاء ودعوة، كما أنه كتاب ذكر وتوحيد، وكل من هذا يقتضي التكرار، فكل ما كرر في القرآن الكريم إذاً من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة"¹⁶.

أثر التكرار في النفوس

يعترف النورسي ويقرر أن التكرار الكثير يؤدي إلى الملل حتى من أطيب الأشياء، لكنه يرى أن التكرار في القرآن الكريم بخلاف ذلك فهو يزيد عذوبة وحلاوة، ويجعل القارئ في راحة وطمأنينة وفي هذا يقول:

"إن القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات أصالة وحقيقة، بحيث إن التكرار الكثير المسبب للسامة حتى من أطيب الأشياء – لا يورث الملل عند من لم يفسد قلبه

14 - النورسي / المکتوبات ص 267 .

15 - النورسي / المکتوبات ص 268 والمثنوي العربي النوري ص 376 .

16 - النورسي / الشعاعات – الشعاع الحادي عشر ص 305 .

ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته، وهذا أمر مسلم به عند الجميع منذ ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال"¹⁷.
ويعزو سر ذلك الى نضارة القرآن وتجده في كل عصر دون أن يقدم لنا البرهان على هذه الدعوى أو يحاول استجلاء سر نضارة القرآن وشبابه، فيكتفي بالقول:
"وكذا فقد أظهر القرآن الكريم من الطراوة والفتوة والنضارة والجدة بحيث يحتفظ بها وكأنه قد نزل الآن، رغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان عليه ورغم تيسر الحصول عليه للجميع، فكل عصر قد تلقاه شاباً نضراً وكأنه يخاطبه، وكل طائفة علمية مع أنهم يجدونه في متناول أيديهم وينهلون منه كل حين، ويفتقون أثر أسلوب بيانه، يرونه محافظاً دائماً على الجدة نفسها في أسلوبه، والفتوة عينها في طرز بيانه"¹⁸

إن ما قاله النورسي هنا صحيح لا ريب فيه، ولكنه دعوى تحتاج إلى برهان، وقول ينتظر الدليل، وقد تكفل العلماء بتقديم هذا البرهان وذلك بذكر خصائص أسلوب القرآن، تلك الخصائص التي تجعل القرآن الكريم دائم التجدد فياض العطاء، ومن أبرزها: "إفناع العقل وإمتاع العاطفة، القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، خطاب العامة والخاصة، البيان والإجمال"¹⁹
لكن النورسي يفصح عن خصائص أخرى حازها هذا القرآن الكريم واشتمل عليها، فيقول:

"يُلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنور الى الإنس والجن والملك كافة فلا ريب أن هذا القرآن العظيم – الذي له هذا الإعجاز في البيان – قمين بأن يحوز خواص راقية عالية، وميزات مقدسة سامية أمثال:
"في كل حرف منه عشر حسنات، بل ألف حسنة أحياناً، بل ألوف الحسنات في أحيان أخرى... وعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ولو اجتمعوا له... ومخاطبته بنى آدم جميعهم بل الكائنات برمتها مخاطبة بليغة حكيمة... وتلهف الملايين من الناس في كل عصر الى حفظه عن ظهر قلبٍ بشوقٍ ومتعةٍ... وعدم السأم من تلاوته الكثيرة رغم تكرارته... واستقراره التام في أذهان الصغار اللطيفة البسيطة مع كثرة ما فيه من جمل ومواضع تلتبس عليهم... وتلذذ المرضى والمحتضرين الذين يتألمون حتى من أدنى كلام – من سماعه، وجريانه في أسماعهم عذباً طيباً، وغيرها من الخواص السامية والمزايا المقدسة، التي يحوزها القرآن الكريم فيمنح قراءه وتلاميذه أنواعاً من سعادة الدارين"²⁰

ويؤكد هذه المعاني في مواضع كثيرة فيقرر بثقة واطمئنان " أن هذا التكرار يهيج الشوق إلى تكرار التلاوة ويمد به البلاغة قوة وسمواً من دون أن يورث سأمًا أو مللاً

17 - النورسي / الشعاعات – الشعاع السابع ص 177 .

18 - النورسي / الشعاعات – الشعاع السابع ص 177 .

19 - د . محمد عبدالله دارز / النبأ العظيم ص 106 .

20 - النورسي / الشعاعات – الشعاع الحادي عشر ص 305 .

كما يقرر أيضاً مدى ملاءمة التكرار وانسجامه مع البلاغة ومدى حسنه وجماله
الرائع" ²¹

وفي موضع آخر يقول: "ونحن نرى أن مئات الملايين من الناس منذ ألف ومئات
من السنين يتلون القرآن الكريم بلهفةٍ وشوقٍ وبحاجةٍ ماسةٍ إليه دون مللٍ ولا سأم" ²²
الحكمة من التكرار

يقف النورسي مع الآيات التي يقول إنها مكررة، محاولاً أستجلاء الحكمة من ذلك
وتوضيح الغاية ففي موضع يرى أن التكرار أمر يدعو إليه تكرر الحاجة، فيقول:
"إن تكرر الحاجة يستلزم التكرار، هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم
عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة، فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة
متباينة من المخاطبين. فهو يكرر جملاً تملك ألوف النتائج ويكرر إرشاداتٍ هي نتيجة
لأدلةٍ لاحدٍ لها، وذلك عند ترسيخه في الأذهان وتقديره في القلوب ما سيحدث من
انقلاب عظيم وتبدل رهيب في العالم وما سيصيبه من دمارٍ وتفتت الأجزاء، وما
سيعقبه من بناء الأخرة الخالدة الرائعة بدلاً من هذا العالم الفاني" ²³
ثم يبين متى يكون التكرار، ومتى تلزم الحاجة إليه فيقول:

"إنه يكرر تلك الجمل والآيات عند إثباته أن جميع الجزئيات والكيليات ابتداءً من
الذرات إلى النجوم إنما هي في قبضة واحدٍ أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه" ²⁴
. وهو بهذا يشير إلى المقصد الأول من مقاصد القرآن - أعني إثبات الصانع سبحانه
ثم يتابع قائلاً:

"ويكرر ها ايضاً عند بيانه الغضب الإلهي والسخط الرباني تجاه المظالم التي
يرتكبها الإنسان عند خرقه الغاية من الخلق، تلك المظالم التي تثير هيجان الكائنات
والأرض والسماء والعناصر وتؤجج غضبها على مقترفيها" ²⁵
وهو بهذا يشير إلى الحشر والعدل، حيث يجازى كل بما قدمت يداه، وبهذا نجد
النورسي يربط هذه التكرارات دائماً بمقاصد القرآن الكريم. وينبه على حكم أخرى
يمكن استنباطها من التكرار فيرى أن القرآن "يخاطب كل طبقةٍ في كل عصرٍ خطاباً
ندياً طرياً جديداً كأنه الآن ينزل عليهم، ولا سيما كثرة تكراره: "الظالمين ..
الظالمين" وزجره العنيف لهم وإنذاره الرهيب من نزول مصائب سماوية وأرضية
بذنوبه ومظالمهم فيلفت الأنظار النازلة بقوم عادٍ وثمود وفرعون، وفي الوقت نفسه
يبعث السلوان والطمأنينة إلى قلوب المؤمنين المظلومين بذكر نجاة رسل كرام أمثال
إبراهيم وموسى عليهما السلام" ²⁶

ويشير في مكان آخر إلى مقصدٍ تربوي هامٍ راعاه القرآن وهو أن الذين يقرأون
القرآن ليسوا جميعاً سواء، فبعضهم لا يمكنه قراءة القرآن كاملاً بل يقرأ أجزاءً أو

21 - النورسي / الشعاعات ص 308

22 - النورسي / الشعاعات ص 312

23 - النورسي / الشعاعات ص 306

24 - النورسي / الشعاعات ص 306

25 - النورسي / الشعاعات ص 306

26 - النورسي / الشعاعات ص 304

سوراً منه فهؤلاء لو لم يكن تكرار لفاتهم معرفة هذه المقاصد. وفي هذا يقول النورسي:

"واعلم أنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواءً وشفاء لكل أحد في كل وقت فهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سور، لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآناً صغيراً، فسهل السبيل لكل أحد دون أن يجرم أحداً، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه الصلاة والسلام"²⁷.
ويضرب المثل بأشياء كثيرة تكرر وتعاد مرات كثيرة دون أن يشعر المرء بالملل منها بل يشعر بالحاجة المستمرة إليها، فإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة للحاجات الجسمية فكيف بالحاجات الروحانية؟

يقول: "اعلم أنه كما أن الحاجات الجسمية مختلفة في الأوقات، كذلك الحاجات المعنوية الإنسانية أيضاً مختلفة الأوقات، فإلى قسم في كل أن كـ (هو الله) للروح كحاجة الجسم الى الهواء - والى قسم في كل ساعة كـ (بسم الله) وهكذا ففس.
فتكرار الآيات والكلمات إذن للدلالة على تكرر الاحتياج، وللإشارة الى شدة الاحتياج إليها، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه، وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك اشتهاه الاحتياج الى تلك الأغذية المعنوية"²⁸.

ثم يسوق عدداً من الأمثلة على ما وقع من تكرار مبيناً أن وراء ذلك إعجازاً وبلاغة راقية، ومن الأمثلة التي أوردتها، "أن بسم الله الرحمن الرحيم" تكررت مائة وأربع عشرة مرة وذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياءً²⁹ وأن قوله تعالى: { وإن ربك لهو العزيز الرحيم } (الشعراء / 9) تكررت في سورة الشعراء ثماني مرات وذلك لبيان أن العزة الربانية تقتضي عذاب الظالمين المكذبين مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجات الأنبياء ومن آمن معهم.³⁰

الخاتمة

وبعد هذا التجوال فيما كتبه النورسي رحمه الله حول هذا الموضوع، لأبّد من بيان موجز لخلاصة رأيه وأبرز مسائله التي تشكل بحق نظرية واضحة المعالم، بينة الحدود يمكن أن نطلق عليها: "نظرية التكرار عند النورسي" هذه النظرية خلاصتها في النقاط التالية:

- 1 - يشتمل القرآن الكريم على تكرار، لكن كل ما كرّر اشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة.
- 2 - لا يكون في القرآن الكريم تكرارٌ بغير فائدةٍ أو إضافة شئ جديد.
- 3 - مقاصد القرآن أربعة هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدل، وهذه المقاصد قد تتابعت آيات القرآن على إثباتها وتكررت من أجل تجليتها وتوضيحها.

27 - النورسي / المكتوبات ص 268

28 - النورسي / المكتوبات ص 268

29 - النورسي / الشعاعات ص 306

30 - النورسي / الشعاعات ص 307

- 4 - للتكرار أهميته البالغة لأن القرآن كتاب ذكرٍ ودعاءٍ ودعوة فتكرار آياته ليس حسناً فحسب بل هو لازم لأن في تكرير الذكر تنويراً وفي ترديد الدعاء تقريراً وفي تكرار الدعوة تأكيداً.
- 5 - ولأن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة وحقائق دقيقة ويدعو العقول الى معرفتها والقلوب الى الإيمان بها كان لابد من التكرار في صورٍ مختلفة وأساليب متنوعة.
- 6 - التكرار مظهر من مظاهر إعجاز القرآن لأنه موجه لإرشاد طبقات متباينة من الناس الى معانٍ عدةٍ وعبرٍ كثيرةٍ في الآية أو القصة.
- 7 - التكرار في كثير من الأشياء يؤدي الى الملل والسآمة حتى من أطيب الأشياء لكن التكرار في القرآن يظهر عذوبةً وحلاوةً ذات أصالةٍ وحقيقةٍ، وتلك ميزة للقرآن سرّها نظارة القرآن وتجده في كل عصر.
- 8 - للقرآن خصائص وخواص راقية وميزات مقدسة منها ما في تلاوته من الأجر العظيم وأنه معجز للإنس والجن، ومشمتمل على الخطاب لجميع المخلوقات، والناس في رغبة وشوق دائمين الى تلاوته. ويمتاز أيضاً باستقراره في أذهان الصغار وتلذذ المرضى والمحتضرين بسماعه.
- 9 - أما أبرز الحكم الداعية الى التكرار فهي أن تكرر الحاجة يستلزم التكرار، فالقرآن يكرر جملاً تملك ألوف النتائج ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلةٍ لاحدٍ لها.
- 10 - ومن حكم التكرار أن الذين يقرأون القرآن ليسوا سواءً فبعضهم لا يمكنه قراءة القرآن كاملاً بل يقرأ أجزاءً وسوراً فلو لم يكن تكرار لفاتهم معرفة هذه المقاصد.

نظرية المعرفة في القرآن الكريم من خلال رسائل النور

أ.د. محسن عبد الحميد^P

رسائل النور هي تلك الرسائل التي ألفها الاستاذ سعيد النورسي، رحمه الله تعالى، لتحديد المذهبية الاسلامية في الوجود، بتفاصيلها الكاملة الشاملة، اعتباراً من تجواله الكوني الدقيق الى الحديث عن الخالق العظيم وما يريده من الانسان، من ايمان عميق، وتوحيد خالص، واستسلام خاشع لحاكميته المطلقة، والتزام عملي بقيمة الرفيعة المنبثقة من اسمائه الحسنی التي اشرفت على الوجود، وحددت نصيب الانسان منها، كي يقوم بدوره الحضاري، اداء لدور الامانة¹ وتنفيذاً لمهمة الخلافة² وليتخذ صورة احسن تقويم ويعتلى مرتبة تفوق المخلوقات جميعاً³ من أجل ان تنمو فيه الكمالات الانسانية لكي يستحق مقام العبودية الخالصة لرب العالمين، وتتفجر عنده الطاقات الكامنة ومزايا اللطائف الانسانية التي ترفعه فوق مستوى الحيوانية .

ولقد استحق الانسان هذا الدور، لأنه الثمرة النهائية لشجرة الخلق، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد اجزاء الشجرة واجمعها والطفها. لذلك فقد جعله الله سبحانه مداراً لجميع نقوشه البديعة، جلت عظمتها، وصيره مثلاً مصغراً ونموذجاً للكائنات باسرها⁴ ومن المؤكد ان ذكاء النورسي الحاد، وخياله الخصب، واخلاصه العظيم لله سبحانه وتعالى وامتلاكه ثقافة اسلامية واسعة، ومعارف انسانية متنوعة، بجانب قدرة فائقة على التأمل العميق، هو الذي انتهى به الى كتابة تلك الرسائل النورانية القرآنية التي تجاوزت مائة وثلاثين رسالة.

P ولد في كركوك - العراق سنة 1937 وتخرج في جامعة بغداد سنة 1959 ونال شهادة الماجستير في "الألوسي مفسراً" والدكتوراه في "الرازي مفسراً" في سنة 1972 من جامعة القاهرة. انتدب عدة مرات الى خارج القطر. والآن استاذ في كلية التربية - جامعة بغداد. وله اكثر من عشرة مؤلفات منشورة .

1 - قال تعالى " انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا " الاحزاب: 72

2 - قال تعالى "واذ قال ربك للملائكة ائني جاعل في الأرض خليفة " البقرة : 30

3 - الكلمات : 134 - 140

4 - الكلمات : 349

على ان تلك الرسائل لم تكن عشوائية، وانما اتبعت منهجا دقيقا في رسم نظرية واضحة للمعرفة الكونية والانسانية، حتى لا يضل الانسان، ولا سيما المسلم في تيه العبتية والخبطة العشواء في سوق المعارف المعروضة بلا حساب.

لقد رفض النورسي الغوص في التاريخ وما أنتج فيه من معارف مرتبطة بالزمان والمكان، تمثل صراعات المصالح والغرائر في هذه الأرض، والتجأ الى القرآن الكريم مباشرة، كي يرسم نقطة الانطلاق لبناء مجتمع جديد ينمو كشجرة طيبة، مكان ذلك المجتمع الخرب الذي صنعه تخلف القرون المظلمة في العالم الاسلامي.

رفض علم الكلام القديم ولم يعرض مادته المعرفية، لأنها لم تكن تتصل بمشكلات عصره وهموم المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، ولان منهجها لم يكن منهجا قرآنيا، إذ هي لم تستنبط مباشرة من القرآن الكريم، لأن تعاملها كان مع الفلسفات واللاهوتيات الأجنبية، التي كانت تمر بدهاليز العقل المنفرد في صراعاته اليومية لتحقيق اكبر قدر ممكن من المصالح الذاتية، التي كانت تنشذ حب الانتصار وليس الحرص على الوصول الى الحقيقة.

وكذلك رفض مناهج الفلسفات القديمة، لانها انفردت بفهم الوجود من خلال عقل مادي لا يتجاوز عالم الشهادة، ويفهم ظاهرا من الحياة الدينا، فهي فلسفات وثنية لا تليق بالانسان المكرم ولا يشرفه أن يكون تلميذا لها.⁵

بينما المنهج القرآني منهج صاف مباشر، يخاطب الكينونة الانسانية مجتمعة، ويوقظ فيها الفطرة النظيفة.⁶

وكذلك يرفض الاعتماد على المعرفة الاشرافية التي تعتمد على رياضات وتجارب فردية، قد تختلط فيها الالهامات الرحمانية مع النفثات الشيطانية، ولا نستطيع أن نفرق بين الاثنين، لأنها ابتعدت عن تلمذة القرآن الكريم واتباع القدوة العظمى في الوجود محمد بن عبدالله ρ ، الذي سد الله تعالى بمجيئه كل باب، دون بابه الرباني النوراني المقبول.

إذن كيف ينطلق النورسي معرفيا الى فهم قضايا الوجود؟

انه ينطلق من "الكل الشمولي" للقرآن الكريم في مخاطبة الفطرة الانسانية. انه لا يضع بين الحس والعقل والحدس خطوطا فاصلة، وانما يدمجها في وحدة قرآنية للسير الى الله سبحانه تعالى، والتغلغل في فهم الجزئيات الدقيقة في المعرفة الكونية، لأنه يتلو مع القرآن آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير، وليس في اقبية النظريات المعرفية المادية المحصورة بالقياسات المنطقية والنظرات المادية والخيالات الروحية.

إنه يقف امام قرآن الكون ليقرأه قراءة شاملة عميقة ليصل الى الله تعالى من خلال تناسقه المعجز ونظامه الباهر وجماله الأخاذ وفنه العجيب وقانونه الموحد وحركته المتوازنة.

5 - الكلمات : ص - 144 ، 644 - 648

6 - الكلمات : ص - 512 - 515

وحينئذ فقط، يعود الانسان الى حجمه الصغير، فيشعر بالفقر والتذلل والصغار والتضرع الى خالق كل هذا وحده، ليكبر في حجمه تجاه المتكبرين والعالمين في الأرض بغير الحق "لأن من كان ضيفا عند هذا الجواد الكريم جل وعلا، كيف يكون الفقر والحاجة اليه مؤلما وثقيلاً"⁷

لكن قراءة الكون بشمولية ودقة وعمق يحتاج الى ثمرات العلم، لانه يكشف عن حقائق الوجود، ويفصل خريطة العالم، ويفرش امام قوى الانسان النظام الكامن في ملايين الجزئيات، ويبحث عن الخالق بلغته الخاصة.⁸

وحينئذ يظهر اسم الحكمة، وتسقط براقع القوة العمياء والطبيعة الصماء، والاسباب التائهة والصدفة العشواء، لتذوب في دائرة المحال بالف وجه من الوجوه.⁹

إن ملاحظة نظام العالم في ظل هذه القراءة الربانية الكاشفة عن حركة الكائنات، وفقرها الى الخالق العظيم، هو الذي يدخل الطمأنينة الواعية في الكيان الانساني. لانه حينئذ يشعر بان استمداد وجوده من الله تعالى هو جزء من فقر الكائنات اليه.¹⁰

فكيف يعيش الانسان بعد ذلك في دائرة ذاته أو عالمه المادي بدون شعور داخلي عميق متأجج بانه عيد من عباد الله في هذا الكون الرحيب.

وقد يسألنا سائل فيقول: إذن أي عقل يريد النورسي في معرفته النورية الى الله سبحانه؟

نقول:

انه يريد العقل الذي يبيع نفسه الى الخالق عز وجل، ولا يجعل نفسه ندا متمردا عليه سبحانه، لأنك ان لم تستعمله في سبيل كشف الحقيقة الربانية، بل جعلته يستسلم الى الهوى والنفس الطاغية، فانه يتحول الى عضو مشؤوم، إذ يحملك آلام الماضي الحزينة واهوال المستقبل المخيفة.

ولكن اذا سلكت بالعقل في سبيل الله وبعته الله، فانه حينئذ يكون مفتاحا رائعا يفتح مالا يعد من خزائن الرحمة الالهية، وكنوز الحكمة الربانية. فايما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى الحكمة الالهية في كل شئ وكل موجود وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الالهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا الى مرتبة عقل مرشد رباني يهئ صاحبه للسعادة الخالدة.¹¹

ويحذر النورسي من شرور العقل اذا انفرد بموضع الاساس المعرفي للوجود بموازينه المحدودة ومنطلقاته المنفردة الخاطئة.

لماذا؟

لانه - في حالة الشرود - سيجعل القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، ويلتزم بالتعصب العنصري مرابطة للجماعات.

7 - الكلمات : ص - 29

8 - الكلمات : ص - 175

9 - الكلمات : 179 - 184

10 - الكلمات : ص - 6 - 8

11 - الكلمات : ص - 23

وبعد استقرارات عميقة واسعة للحضارة العقلية المتمردة المعاصرة، انتهى الى ان شأن القوة الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم، وشأن الصراع هو النزاع والجدال، وشأن العنصرية هو التجاوز على الآخرين.

بينما اذا انضم العقل الى الكينونة الانسانية، استند حينئذ الى حكمة القرآن الكريم، فعوض عن النظرة المدمرة للحياة نظرة اخرى راحمة، فيترك القوة ويتمسك بالحق، ويستبدل بالمنفعة الوقوف عند الفضائل ويعتمد على التعاون اساسا في الحياة بدل الصراع. وبذلك تتحقق الانسانية في اعلى مستوياتها في ظل عبودية المخلوقات كافة لرب العالمين¹²

إن العقل بهذا المعنى الدقيق، المندمج في الكيان الانساني المتكامل ضمن طاقاته واستعداداته المتنوعة، يحول الكائنات المعروضة امامه من الاسرار الدقيقة المشاهدة في عالمي الانفس والافاق الى علم كلام مفتوح، يمثل صفحة واضحة، يجد فيها المرء براهين قاطعة على الخالق العظيم، ويشعر بانس عجيب مع الكائنات كلها، لأنه يقرأ فيها فطرته التي كانت ضائعة تائهة مشوهة في ببداء ظلمات الكفر والتيه والانحراف والظلم والشرك.

وإذا رجعنا فسألنا ما رأى النورسي في المعرفة الحدسية أو الالهامية التي تظهر بالكشف عبر الرياضة الروحية في مدارج السالكين الى الله تعالى.

نقول، يؤمن النورسي باصل هذا الطريق، ويقول ان وجوده يقين جازم في اخبار اهل الذوق والكشف¹³

ولكن تفاصيله ليست قطعية، إذ من الممكن ان يحصل خطأ أو تشويه في حكم من احكامه ومشاهداته، في حالة الشهود التي لا ضوابط ولا حدود لها. والكتاب والسنة هما الميزان لتصحيح الأخطاء. ولذلك يقول "ولا ريب ان اهل الشهود هؤلاء عندما يرقون الى مقام الأصفياء سيدركون خطأهم بانفسهم بارشاد الكتاب والسنة ويصححونها. وقد صححها قسم منهم"¹⁴

ويبنى النورسي على ذلك ان درجة الشهود اوطأ بكثير من درجة الايمان بالغيب. ولذلك فالكشفيات التي لا ضوابط لها لا تبلغ احكام الأصفياء والمحققين من ورثة الأنبياء الذين لا يستندون الى الشهود بل الى القرآن والسنة اللذين يرجع اليهما وهدما جميع الاحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات¹⁵

وفي معرض رده على نظرية وحدة الوجود يقول: "نعم ان الصراط المستقيم هو طريق الصحابة والتابعين والاصفياء الذين يرون ان حقائق الأشياء ثابتة، وهي القاعدة الكلية لديهم. وهم الذين يعلمون ان الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى. وهو قوله "ليس كمثله شئ" أي انه منزه عن التشبيه والتحيز والتجزؤ، وان علاقته

12 - الكلمات : ص - 145

13 - الكلمات : ص - 24 ، 157 ، 255 على سبيل المثال .

14 - المكتوبات : ص - 102 والشعاعات ص - 158

15 - المكتوبات : 105

بالموجودات علاقة الحقائق بالمخلوقات. فالموجودات ليست اوهاما كما يدعى اصحاب وحدة الوجود. بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى¹⁶ فعلى ذلك فان الصراط المستقيم، بل صراط الولاية الكبرى عنده، إن هو إلا طريق الصحابة والأتقياء والاصفياء والتابعين وأئمة اهل البيت والأئمة المجتهدين. وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأول للقرآن الكريم.

ويرفض النورسي مناهج الطرق الصوفية التي جانبت القرآن والسنة في السلوك الى الله تعالى ولم تنج من لوثة الأخطاء والانحرافات، فيقترح لذلك طريقاً قرآنياً خالصاً مختصراً الى الله تعالى، لا شائبة فيه للاجتهادات الفردية والالهامات الباطلة، وليست فيه عقبات وتعقيدات، من اربع آيات في كتاب الله، تنحصر في خطوات اربع هي: العجز، الفقر، الشفقة، التفكير.

فالعجز اقرب واسلم طريق الى الله تعالى، إذ هو يوصل الى المحبوبة بطريق العبودية.

والفقر مثله يوصل الى اسم الرحمن.

والشفقة كذلك موصل الى الله تعالى، الا انه انفذ من الفقر في السير واوسع مدى، إذ يوصل الى سم الله الرحيم.

والتفكر كالعشق، إلا انه اغنى منه واسطع نورا وارحب سبيلا إذ يوصل السالك الى اسم الله الحكيم.

ويستنبط النورسي هذه الحقائق من قوله تعالى {فلا تزكوا انفسكم} وقوله {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسأهم انفسهم} وقوله {ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك} وقوله {كل شئ هالك إلا وجهه}.

فهذه خطوات اربع تمثل الحقيقة الشرعية، اكثر مما يعبر عن الطريقة الصوفية. ويقول النورسي موضحاً:

"ولا يذهبن بكم سوء الفهم الى الخطأ. فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير، انما هو اظهار ذلك كله امام الله سبحانه وليس اظهاره امام الناس".

أما اوراد هذه الطريق القصير واذكارها فتتخصص في اتباع السنة النبوية والعمل بالفرائض، ولا سيما اقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها وترك الكبائر¹⁷

إذن فالالهام عنده ليس مصدراً مستقلاً عن الوحي الالهي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، إنما تأتي اشراقته ببركتها وقوة الالتزام باحكامها. لماذا؟

لأن الوحي الالهي هو الاساس في الوجود، عقيدة وشريعة وسلوكا فاذا كان للحس مجاله وللعقل مجاله في عالم الشهادة وفي قيادة الانسان الى الله تعالى، والوقوف عند حافة دقائق وحقائق عالم الغيب. فما بعد تلك الحافة الى العمق مجاله غيب، لا يحيط

16 - المكتوبات : 106

17 - الكلمات : ص - 560 ، 561 كانت حياة النورسي تمثل هذا الفقر وذلك العجز تمثيلاً صادقاً. فلقد كان يذوب في عبودية الله وطاعته، مع انه كان طوداً شامخاً امام الطغاة والمتجبرين.

به إلا علم خالقه سبحانه. فحتى تتكامل معرفة الانسان بحقائق الوجود كله، أمده الله تعالى بالنبوة وجعلها مصدر الحقائق النهائية عن طريق الوحي الالهي. ويؤكد النورسي ان التحول الحقيقي في حياة الانسان يبدأ من هذه النقطة الخطيرة. لان معنى "انا" في الانسان يتحول الى معنى في غيره، وان وجوده يقوم بوجود غيره. لان مالكيته للأشياء وهمية أي ان له مالكية مؤقتة ظاهرة باذن مالكه الحقيقي. وحقيقته واحدة حقة، وظيفته القيام بطاعة مولاه طاعة شعورية كاملة ميزانا لمعرفة صفات الله خالقه ومقياسا للتعرف على شوؤنه سبحانه.

أما الوجه الثاني لـ "انا" الذي يرى نفسه في نفسه عكس ذلك، أي انه يرى ان له ماهيته الحقيقية في ذاتها وليس من خالقها. أي يدل معناه على نفسه لا في غيره، ووجوده اصيل، لا تبعي. ومالكيته حقيقية لا وهمية، ووظيفته عبادة نفسه لا خالقه. هذه "انا" المتمردة الشاردة هي التي انتجت فلسفة مظلمة شريرة ضالة، تعمل لأجل نفسها لا لغيرها، أي تعمل بمعزل عن الوجود الحقيقي والمالك الحقيقي. ومن هنا فانها لم تلتق بالنبوة ورسالاتها، ولم تكن بخدمتها والكشف عن اهدافها.¹⁸

فإذن اذا اردنا ان نتتقي هذه المظلمة الشريرة الضالة، فلا بد ان نملاً الفراغ الأخير من سلسلة المعرفة. وهو فراغ الغيب الذي لا يستطيع الحس والعقل أن يجيب على حقائقه إلا الوحي الالهي الذي انتهى بالوحي الخاتم الكامل لرسول الله p، والذي جسد الله تعالى فيه الكمالات الانسانية المنبثقة من اسمائه الحسنی، فهو القدوة والاسوة. لأن اصول الدين وأسس التربية التي جاء بها الرسول الكريم p هي من الرسوخ والكمال ما لا يمكن ان يحرز نورا ولا كمال قط من يدعها ويتركها بل يحكم عليه بالتردي والسقوط المطلق إذ p خاتم النبيين وسيد الانبياء والمرسلين وامام البشرية باكملها في الحقائق كلها"¹⁹

ولما كان الرسول الاكرم p هو الآية الكبرى كتاب الكون الكبير، لذلك لا يحتاج معه في التعرف الى عالم الغيب غيره من مصادر المعرفة المادية، بل اننا بتلك المصادر نثبت ذلك البرهان الحق، إذا استعملنا موازيننا بانصاف واتزان وتعقل. لأن القرآن الناطق فيه النور كله والدعوة كلها والحكمة الصائبة كلها، وحقائق جواهر المعاني جميعها.²⁰

هذا النبي الخاتم برهان. وجوده أيد النور الذي جاء به، وهو القرآن الكريم الذي يصفه النورسي بفكره العميق النير، وبلاغته الواضحة النادرة فيقول:

"هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات. والترجمان الأبدي لاسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وهو كشاف لمخفيات كنوز الاسماء المستترة في صحائف السموات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو اساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الاسلامي وكذا هو خريطة للعالم الأخرى. وكذا هو قول شارح وتفسير

18 - الكلمات : ص - 637 وما بعدها.

19 - الكلمات : ص - 641 ، 643

20 - الكلمات : 254 - 268 واللغات : ص - 196

واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه. وكذا هو مربب للعالم الانساني. وكالماء وكالضياء للانسانية الكبرى التي هي الاسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر. وهو المرشد المهدي الى ما خلق البشر له. وكذا هو للانسان: كما انه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما انه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما انه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر وكما انه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الانسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل. حتى انه ابرز لمشرب كل واحد من اهل المشارب المختلفة ولمسلك كل واحد من اهل المسالك المتباينة من الأولياء والصدّيقين ومن العرفاء والمحققين، رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتويره ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة الرسائل²¹

ولو رجعنا الى الفلسفة الجامدة البشرية التي تتحرك بين المصدرين، الحس والعقل ولا تتجاوزهما ولا تؤمن بما وراءهما نجد انها تنظر الى الدنيا على انها ثابتة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكرا مفصلا مسهبا، بينما لو ذكرت وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فانها تذكرها ذكرا مجملا مقتضيا. أي انها تفصل في ذكر نقوش الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماما كبيرا.

أما القرآن الكريم فانه ينظر الى الدنيا على أنها عابرة سيالة، خداعة سياره. متقلبة لا قرار لها ولا ثبات. لذا يذكر خواص الموجودات وماهياتها المادية الظاهرة ذكرا مجملا مقتضيا، بينما يفصل تفصيلا لدى بيانه وظائفها التي تنم عن عبوديتها التي اناطها بها الصانع الجليل. ولدى بيانه مدى انقياد الموجودات للوامر التكوينية الالهية، وكيف وبأي وجه من وجوهها تدل على اسماء صانعها الحسنی.²²

ومن هنا فان النورسي لا يؤمن بالمعرفة الجزئية التي كانت تعالج بمعزل عن القرآن الكريم. وكان يعدها من نقائص العقل البشرى، بينما هو يعكس القضية، فينطلق من القرآن الى التوغل في جزئيات الوجود. فهو بذلك طريق امين. إذ في الأول قد يضعيب الباحث عن الحقيقة ويخرج على المحور. واما في الثاني، فالمحور واضح وارض صلدة. فلا خوف على من يبدأ بالقرآن، لأنه شجرة تمثل جميع الاغصان، على حين ان الافكار البشرية اغصانها منفردة.²³ يسبب ان القرآن الكريم جمع بين القيم التي تنبثق من اسماء الله الحسنی جمعا متوازنا متنسقا لا تنفصم عراه. بينما الافكار البشرية تعرض القيم عرضا منفردا متأثرة بالزمان والمكان. فما يكون قيمة لا يعود في زمان آخر. وما يعمل به في مكان قد يتترك في مكان آخر لتغلب المصلحة الذاتية والظروف المتقلبة.

فاذا كان ذلك كذلك، فان طريق القرآن الكريم هو وحده الذي يوصل الى الله سبحانه، لأنه اقرب الطرق الى اشارة الفطرة الانسانية وتحريك العقول الباحثة

21 - الكلمات : 264

22 - الكلمات : 508

23 - الكلمات : 425

والقلوب العامرة بالتوثب الدائم، وأكثرها انطباقاً على آيات الأنفس والآفاق،²⁴ لأن الوجود قرآن واحد بثلاثة وجوه. إذن فاصول المعرفة التي آمن بها النورسي، هي الأصول القرآنية التي يأخذ بعضها برقاب البعض الآخر من الحس والعقل، لكن في اندماج قرآني واحد. وهذا هو الذي دفع النورسي أن يرسم في رسائله منهجاً قرآنياً راسخاً، لا يرتبط بمرحلة معينة ولا برهان معين. وإنما هو المنهج الذي يشكل السقف المتين فوق تاريخ الأمة الإسلامية، لكن بلغة العصر وصراع العصر في مواجهة العصر. وهذا هو سر نجاحه في دعوته الإسلامية لانقاذ الإيمان في هذا العصر، لأنه لم ينطلق من مناهج تاريخية ضيقة كانت تشكل صراعات ماضية بين الحضارة الإسلامية والحضارات الغازية، والتي استنفدت اغراضها في العصر الحديث، وظهرت مكانها مشكلات داخلية وخارجية، عدم معالجتها بعمق وعصرية يشكل خطورة كبيرة على مستقبل العالم الإسلامي. وإنما انطلق من "الكل القرآني" الذي يقرأ الكون ببراهينه الثلاثة، برهان الكون المنظور "الكائنات" وبرهان الكون المقروء "القرآن الكريم" والبرهان الناطق "رسول الله" p.